



الدولة الفاطمية في مصر

تفسير جديد



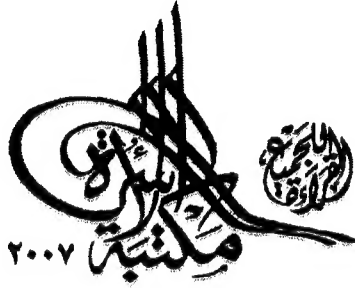
الدكتور أيمن فؤاد سيد





مكتبة
الملك

الدولة الفاطمية في مصر



برعاية السيد
وزير التعليم

المشرف العام
د . ناصر الأنصاري

تصميم الغلاف
د . مدحت متولى

الإشراف الطباعي
محمود عبد المجيد

الإشراف الفني
علي أبو الخير

ناجدة عبد القادر
مصري عبد الواحد

الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الدولة الفاطمية في مصر

تفسير جديد

الدكتور أيمن فؤاد سيد



الدولة الفاطمية في مصر

سيد ، أيمن فؤاد .

الدولة الفاطمية في مصر: تفسير جديد/ أيمن
فؤاد سيد . - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،
٢٠٠٧.

٨٣٢ ص : ٢٥ سم. (مكتبة الأسرة ٢٠٠٧-
سلسلة العلوم الاجتماعية).

تدمك: ٤ - ٩٣٢ - ٤١٩ - ٩٧٧.

١- مصر - تاريخ - العصر الفاطمي (٩٦٩ - ١١٧١).

٢ - الدولة الفاطمية

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٢ / ٢٠٠٧

I.S.B.N 977-419-932-4

ديوى ٩٥٣، ٠٧٣٨

توطئة

تعتبر القراءة منذ فجر التاريخ أول وأهم أدوات المعرفة، وعنصرًا لا غنى عنه من عناصر بناء الحضارة، فمنذ نقش حكيم مصري قديم وصية لابنه على ورق البردي: «يا بني ضع قلبك وراء كتبك، واحببها كما تحب أمك. فليس هناك شيء تعلو منزلته على الكتب»، ومنذ أطلق د. طه حسين مقولته: «إن القراءة حق لكل إنسان، بل واجب محتوم على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة» ومنذ كتب العقاد جملته الأسرة: «إنما أهوى القراءة؛ لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني»، ومنذ قررت السيدة الفاضلة سوزان مبارك تحويل الحلم إلى واقع مؤكد منذ ستة عشر عامًا: «إن الحق في المعرفة يتصدر أولويات العمل، ولا يقل عن الحقوق الصحية والاجتماعية»، ومسيرة القراءة للجميع تمضي بخطوات ثابتة وواسعة لتحقيق أهدافها فيلتف القراء حول أضخم مشروع نشر في الوطن العربي، ويطالبون خلال السنوات السابقة باستمراره طوال العام، وما هو المشروع يقرر الاستمرار طوال العام بعد انتهاء فترة العطلة الصيفية ليتحقق شعاره بالفعل.. القراءة للحياة.

لقد استطاعت مكتبة الأسرة خلال مسيرتها تمكين الشاب والمواطن من الاطلاع على الأعمال الأدبية والإبداعية والدينية والفكرية، التي شكلت وجدانه وحضارته، وعملت على إشاعة الأفكار التويرية الحقيقية، التي عكست جهود

التطوير للشعب المصرى فى العصر الحديث، وحرصت على تقديم أحدث الإنجازات العلمية بنشر أحدث مؤلفات العلماء التى تواكب التطور العلمى والتكنولوجى فى العالم، وأقامت جسراً مع الحضارات الأخرى من خلال إعادة طبع كلاسيكيات ودرر العالم المترجمة، التى تعرض إنجازات الشعوب الأخرى فى المجالات الأدبية والفكرية والعلمية، وعملت على تأكيد الهوية القومية من خلال نشر التراث المستدير العربى والإسلامى، الذى مَثُلَ نقطة انطلاق مضيئة فى مسيرة الإنسانية.

لقد أعادت مكتبة الأسرة للكتاب أهميته ومكانته كمصدر مهم وخالد من مصادر المعرفة، وأحدثت عبر عطائها المتميز وبنائها الدعوب الحقيقى صحة ثقافية بالمجتمع المصرى تؤكد لها المؤشرات العامة والأرقام، التى يتم رصدها وتحليلها منذ بداية المشروع، فالأرقام تسجل ارتفاعاً ملحوظاً فى نصيب المواطن المصرى من القراءة، وإصدار ملايين النسخ من الكتب ونفادها الفورى من الأسواق، وازدياد العناوين المطروحة عاماً بعد عام.

لقد بلغت عناوين مكتبة الأسرة أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عنوان فيما يربو عن واحد وأربعين مليون نسخة، كنتاج فكرى وإبداعى لعدد من الكُتَّاب والمترجمين والرسامين يزيد عن ألفى مبدع ومفكر.

وما زالت مكتبة الأسرة التى أصبح لها فى كل بيت ركن مميز تواصل تقديم إصداراتها للعام الرابع عشر على التوالى، كزاهد رئيسى من روافد القراءة للجميع، وصرح شامخ فى المكتبة العربية، يفتح نوافذ جديدة كل يوم على آفاق تنشر الخير والمعرفة والجمال والحق والسلام.

مكتبة الأسرة

تقديم

اصطدم الفاطميون في إفريقيا، بالعديد من الصعاب، كان على رأسها انقسام أهل الشمال بين مذهبى أهل السنة والخوارج، وتنافس القبائل البربرية شرقاً وغرباً، فضلاً عن المشكلات الجغرافية المتمثلة فى الطبيعة الجبلية للشمال الإفريقى، والمشكلات الاقتصادية، الناتجة عن قلة الموارد، ولذا فقد وجهوا نظرهم قبل المشرق وصوب مصر بصفة خاصة، والتي اعتزموا جعلها مركزاً لنشر دعوتهم فى العالم الإسلامى، لما تتمتع به من موقع استراتيجى بالغ الأهمية.

ويتناول هذا الكتاب الموسوعى الدولة الفاطمية فى مصر منذ تطلع المعز لدين الله إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى المشرق؛ لتحقيق الأهداف الاستراتيجية، التى تتيح لهم السيطرة الكاملة على الحوض الغربى للبحر المتوسط، انطلاقاً من مصر بوصفها مفتاح الحوض الشرقى للبحر المتوسط، الذى يؤهلها للتدخل المباشر عن طريق البحر الأحمر واليمن وفى تجارات المحيط الهندى والشرق الأقصى.

ويشير المؤلف د. أيمن فؤاد السيد فى كتابه هذا إلى تمكن جوهر الصقلى الذى فوّضه المعز عسكرياً وسياسياً ومالياً لقيادة الجيش المنطلق نحو مصر - من الدخول إلى مصر فى عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م، ليصبح بذلك الفتح الفاطمى لمصر

بمثابة انقلاب دينى ثقافى اجتماعى، بعيد المدى، صحبه تحول ظاهر فى نظام الحكم، وبذا لم يكن هذا الفتح مجرد قيام حكومة مكان أخرى على أية حال من الأحوال.

ويعرض المؤلف فى كتابه تاريخ هذه الدولة فى مصر منذ فتحها جوهر الصقلى وإلى انتهائها، مطوّفاً بنا حول أرجائها من شتى مظاهر النشاط الإنسانى، متاولا الحياة السياسية فى مصر إبان هذه الخلافة، وما تمخض فيها من مواجهات بينها وبين الخلافة العباسية، كما عرج بنا إلى بداية ظهور النظام العسكرى فيها إثر مقدمات الغزو الصليبي، وما تلاه من نهاية الاستقرار وبداية التدهور، الذى أدى إلى الاضمحلال السياسى لهذه الدولة، ثم انتقل بنا المؤلف إلى الحياة الاجتماعية للبلاد فى ظل الخلافة الفاطمية، حيث شهدت مصر مظاهر ومواسم للاحتفالات والأعياد، وخاصة الدينية، وانتقل بنا المؤلف من ذلك إلى الحياة الاقتصادية، التى شهدت تطوراً فى الزراعة والصناعة والتجارة، وما تطلبه من وضع نظام ضرائبى ينظم النشاط الاقتصادى.

وقبل أن ينتقل بنا المؤلف إلى الحديث عن الحياة العسكرية فى مصر فى ظل الفاطميين، ودور الجيش الفاطمى والبحرية فى هذه الدولة، وخاصة فى زمن الحروب الصليبية، تعرض إلى الإسهامات التى قام بها الفاطميون فى الثقافة والتعليم والعمارة والفنون.

ومكتبة الأسرة تعيد إصدار هذا الكتاب الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٢، والثانية عام ٢٠٠٠، لأنه يؤرخ لحقبة زمنية كبيرة من تاريخ مصر، مقدماً تفسيراً جديداً لتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر.

المحتويات

٢٧-١٩	المقدمة
٧٥-٢٩	تمهيد - مصادر التاريخ الفاطمي
٥٥-٣٢	مؤلفات العصر الفاطمي:
٣٥-٣٢	١ - الإسماعيلية المبكرة والفترة الإفريقية
٥٥-٣٥	٢ - الفترة المصرية:
٤٢-٣٥	أ - المُعِزُّ - العزيز - الحاكم - الظاهر
٤٦-٤٢	ب - المُسْتَنْصِر بالله
٥٣-٤٧	ج - المُسْتَعْلَى إلى العاضد
٥٥-٥٣	د - كُتُبُ الإنشاء
٦٩-٥٥	المؤلفات المتأخرة على عصر الفاطميين
٦٢-٥٦	الفترة الأيوبية
٦٩-٦٢	الفترة المملوكية
٧٥-٦٩	المصادر غير الإسلامية
٧٣-٧٠	المصادر القبطية
٧٥-٧٣	أوراق جِيزَة القاهرة
٩٢-٧٦	- الوَضْعُ الرَّاهِن للدراسات الفاطمية والإسماعيلية
١١٨-٩٣	- مَدْخَل - الإسماعيلية المبكرة
٩٩-٩٧	ظهور القرامطة
١٠٨-١٠٠	نَسَبُ الفاطميين
١١٨-١٠٩	الدعوة الإسماعيلية حتى إعلان الخلافة الفاطمية
	الكتاب الأول
	العَصْرُ الفاطمي (الدَّعْوَة - الدَّوْلَة)
١٣٤-١٢١	- الفصل الأول - قيام الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا
١٢٣-١٢١	العالم الإسلامي في مطلع القرن الرابع الهجري - عصر انتصار الشيعة
١٢٧-١٢٣	الصعوبات التي واجهت الفاطميين في إفريقية

١٢٥-١٢٤	المقاومة السُّنيّة
١٢٧-١٢٥	محاولات الفاطميين فتح مصر
١٢٩-١٢٧	المُعزُّ لدين الله وتحقيق هدف الفاطميين
١٣٠-١٢٩	فعالية الدعاية الفاطمية
١٣١-١٣٠	الفاطميون يضمنون ولاء الشمال الإفريقي
١٣٤-١٣١	حالة مصر الداخلية قبل الفتح الفاطمي
١٦٠-١٣٥	- الفصل الثاني - انتقال الخلافة الفاطمية إلى المَشْرِق
١٣٧-١٣٥	مقدمات الفُتْح
١٣٩-١٣٧	فُتْح مصر
١٤٠-١٣٩	الفاطميون في مصر
١٥٢-١٤١	ولاية جَوْهَر القائد
١٤٨-١٤٣	إصلاحات جَوْهَر:
١٤٥-١٤٣	الدينية
١٤٦-١٤٥	الاقتصادية
١٤٨-١٤٦	النقدية
١٥٢-١٤٨	تأمينُ الحدود
١٤٩-١٤٨	النُوبة
١٥٠-١٤٩	فُتْح الشام
١٥٢-١٥١	الحربُ القَرْمَطِيَّة الأولى
١٥٨-١٥٢	المُعزُّ لدين الله يصل إلى القاهرة
١٥٦-١٥٣	سياسةُ الفاطميين تجاه المصريين
١٥٧-١٥٦	المُعزُّ لدين الله وولاية عهده
١٦٠-١٥٨	الخليفة العزيز وإرساء دعائم الدولة
١٨٦-١٦١	الفصل الثالث - التَّوَسُّع ومُنَاقَشَةُ قضية الحاكم بأمر الله
١٦٣-١٦١	الصِّراعُ بين الأتراك والمغاربة
١٧٣-١٦٣	دُكتاتورية الحاكم
١٦٥-١٦٤	الاعتِدال
١٦٧-١٦٥	اضْطِهاد أهل الذِّمَّة
١٦٩-١٦٧	النَّوَاهِي
١٧٠-١٦٩	سياسةُ الحاكم الدينية وموقفه من معاونيه

١٧٠-١٧١	تساهل الحاكم في أصول العقيدة الإسماعيلية
١٧١-١٧٣	الحاكم يُعين عبد الرحيم بن إلياس ولياً لعهد
١٧٣-١٧٤	تَصَوُّف الحاكم
١٧٤-١٧٦	أُلُوْهِيَّة الحاكم وتحقيق فكرة الملك الإله
١٧٥-١٧٦	حَرْبُ الفسطاط الأول
١٧٧-١٧٩	الحاكم يُفَكِّر في نَقْل الحج إلى مصر
١٧٩-١٨١	نهاية الحاكم
١٨١-١٨٢	سَيِّدَةُ الْمُلْك تُدَبِّر شئون الدَّوْلَة
١٨٣-١٨٦	خِلَافَةُ الظَّاهِر لإعزاز دين الله وتوطيد العلاقات مع بيزنطة
١٨٧-٢٠٧	الفصل الرابع - المواجهة العباسية الفاطمية
١٨٧-٢٠٧	خلافة المستنصر بالله
١٨٨-١٩١	ظهور السَّلاجِقَة
١٩١-١٩٦	الاستراتيجية الشرقية للفاطميين
١٩٢-١٩٤	المنافسة التجارية
١٩٤-١٩٦	المواجهة الحربية
١٩٦-١٩٧	سوء الأحوال الداخلية في أول عهد المستنصر
١٩٧-١٩٩	أم المستنصر تَتَحَكَّم في الدولة
١٩٩-٢٠٤	الحرب الأهلية والأزمة الإدارية
٢٠٠-٢٠٤	ناصر الدولة بن حمدان ومحاولة إزالة الخلافة الفاطمية
٢٠٤-٢٠٧	الأزمة الاقتصادية أو الشدة العظمى
٢٠٩-٢٣١	الفصل الخامس - بدر الجمالي وبداية النظام العسكري
٢٠٩-٢١٩	بدر الجمالي مُنْقِذ الدولة
٢١٣-٢١٦	انفراد بدر الجمالي بالسُّلْطَة وبداية النظام العسكري
٢١٦-٢١٧	الإصلاحات الإدارية لنظام بدر الجمالي
٢١٧-٢١٩	الأفْضَل بن بدر الجمالي يشارك والده السلطة
٢١٩-٢٣١	ديكتاتورية الأفْضَل بن بدر الجمالي
٢٢٠-٢٢٥	الانقسام الأول للدعوة الإسماعيلية
٢٢٣-٢٢٤	الإسماعيلية الجديدة
٢٢٤-٢٢٥	المُسْتَعْلِيَة
٢٢٥	العباسيون يعاودون مهاجمة الفاطميين

٢٢٦	مَقَدِّمَاتُ الْغَزْوِ الصَّلَيبِيِّ
٢٢٧-٢٢٦	الْأَمْرُ بِأَحْكَامِ اللَّهِ يَتَوَلَّى الْخِلَافَةَ
٢٢٩-٢٢٧	الْأَفْضَلُ يَنْقُلُ مَقْرَ الْحَكْمِ إِلَى الْفُسْطَاطِ
٢٣٠-٢٢٩	مَقْتَلُ الْأَفْضَلِ
٢٣١-٢٣٠	تَرْكَةُ الْأَفْضَلِ
٢٥٣-٢٣٣	الفصل السادس - نِهَآيَةُ الْاسْتِقْرَارِ
٢٣٩-٢٣٥	وَزَارَةُ الْمَأْمُونِ الْبَطَائِحِي
٢٣٦	إِنْجَازَاتُ الْمَأْمُونِ الْبَطَائِحِي
٢٣٦	تَجْدِيدُ الْاِحْتِفَالَاتِ وَالرُّسُومِ
٢٣٧	إِعَادَةُ تَعْمِيرِ الْعَاصِمَةِ
٢٣٨-٢٣٧	الْمَأْمُونُ يُوَاجِهُ مَوْامِرَاتِ التَّنَازِلِيَّةِ
٢٣٩-٢٣٩	عَزْلُ الْمَأْمُونِ وَقَتْلُهُ
٢٤٢-٢٣٩	الْأَمْرُ يَسْتَقِلُّ بِالْأَمْرِ
٢٤٢-٢٤١	مَقْتَلُ الْأَمْرِ
٢٤٨-٢٤٢	اِنْتِقَالُ أَبِي عَلَى الْأَفْضَلِ
٢٤٩-٢٤٨	الْحَافِظُ يَعُودُ إِلَى الْحُكْمِ
٢٥٣-٢٤٩	الدَّعْوَةُ الطَّيِّبَةُ
٢٧١-٢٥٥	الفصل السابع - بَدَايَةُ التَّدَهُّورِ
٢٥٨-٢٥٥	الْحَافِظُ وَأَوْلَادُهُ
٢٦١-٢٥٨	وَزَارَةُ بَهْرَامِ الْأَزْمَنِيِّ
٢٦٣-٢٦١	الْاِسْتِجَادُ بِرِضْوَانِ بْنِ وَخْشِي وَنِهَآيَةُ بَهْرَامِ
٢٧٠-٢٦٤	رِضْوَانُ بْنُ وَخْشِي وَبَدَايَةُ الْإِصْلَاحِ السُّنِّيِّ
٢٦٨-٢٦٦	الْإِصْلَاحُ السُّنِّيُّ
٢٧٠-٢٦٨	رِضْوَانُ يُوَاجِهُ الْفَرَنْجِ
٢٧٠	اعْتِقَالُ رِضْوَانِ
٢٧١-٢٧٠	الْحَافِظُ يَمْتَنِعُ عَنْ اتِّخَاذِ وَزَرَاءِ
٢٨٦-٢٧٣	الفصل الثامن - الْاِضْمَحْلَالُ
٢٧٩-٢٧٣	الصَّرَاعُ عَلَى مَنْصِبِ الْوَزَارَةِ
٢٧٤	وَزَارَةُ ابْنِ مَصَالِ
٢٧٦-٢٧٤	وَزَارَةُ الْعَادِلِ بْنِ السَّلَّارِ

٢٧٨-٢٧٦	المؤامرات وَصَغْفُ الخِلافة
٢٧٩-٢٧٨	وزارة عَبَّاس الصَّنْهاجى وفَقْد هِبة الخِلافة
٢٨٦-٢٨٠	طَلَّاعُ بن رُزَيْك آخر وزراء الفاطميين الأقوياء
٢٨٦-٢٨٤	أطباعُ الصَّالح طَلَّاع
٢٨٦	وزارة العادل بن رُزَيْك
٣٠٩-٢٨٧	الفصل التاسع - النِّهايةُ وانْقِلابُ صلاح الدين
٢٩٠-٢٨٧	الصِّراع بين شاورٍ وضُرْغام
٢٩٠-٢٨٩	حَمْلَةُ شيركوه الأولى على مصر
٢٩٨-٢٩٠	شاورٍ يعود إلى الوزارة
٢٩٤-٢٩٢	حَمْلَةُ شيركوه الثانية
٢٩٦-٢٩٤	فُرسانُ الفِرْنَج يَذْعونُ عمورى لغزو مصر
٢٩٧-٢٩٦	حريقُ القُسْطاط الثانى
٢٩٨-٢٩٧	حَمْلَةُ شيركوه الثالثة
٢٩٨	نهايةُ شاورٍ
٢٩٩	شيركوه وزيراً للفاطميين
٣٠٩-٣٠٠	صلاحُ الدِّين على رأسِ السُّلْطَةِ فى مصر
٣٠١-٣٠٠	صلاحُ الدين وزيراً رَغْمًا عنه
٣٠٢-٣٠١	مؤامرةُ مُؤَمِّن الخِلافة
٣٠٣-٣٠٢	مُهاجَمَةُ الفِرْنَج لِدمياط
٣٠٥-٣٠٣	انْقِلابُ صلاح الدين وإصلاحاته السُّنِّيَّة
٣٠٦	الحُطْبَةُ لِلعَبَّاسيين وسقوطُ الفاطميين
٣٠٧	نورُ الدِّين وموقفه من مصر
٣٠٨-٣٠٧	نهايةُ الفاطميين
٣٠٩-٣٠٨	محاولةُ إعادةِ الدولةِ الفاطمية
	الكتاب الثانى
	النُّظْمُ والحَضارَةُ
٣٧٢-٣١٥	الفصل العاشر - نُظْمُ الحُكْمِ والإدارة
٣٢٧-٣١٦	النُّظَامُ السِّياسى
٣٢٠-٣١٦	الإمامةُ (الخِلافةُ)
٣٢٧-٣٢٠	الوزارة

٣٤٤-٣٢٧	التنظيم الإداري
٣٣٣-٣٢٩	الإصلاحات الإدارية لبدر الجمال
٣٤٤-٣٣٤	ولاية القاهرة وولاية القسطنطينية
٣٦٠-٣٤٤	الدواوين الفاطمية
٣٥٢-٣٤٩	ديوان المجلس وديوان النظر
٣٥٥-٣٥٢	ديوان التحقيق
٣٥٥	الديوان الخاص
٣٥٩-٣٥٥	ديوان الرسائل أو ديوان الإنشاء والمكاتبات
٣٦٩-٣٦١	النظام القضائي
٣٧٢-٣٦٩	النظام الديني (الدعوة)
٤١٠-٣٧٣	الفصل الحادي عشر - الرسوم الفاطمية
٣٨٧-٣٧٦	١ - القصر الفاطمي
٣٨٦-٣٧٦	القاعة والإيوان
٣٨٧-٣٨٦	الحزائن
٣٩١-٣٨٧	٢ - شارات الخلافة
٤٠٠-٣٩١	٣ - بلاط القصر
٤٠٦-٤٠٠	٤ - الجلوس العام بمجلس الملك
٤١٠-٤٠٧	٥ - مصروفات القصر الفاطمي
٤٦٥-٤١١	الفصل الثاني عشر - المواكب الاحتفالية
٤٤٦-٤١٥	الرُّكُوبُ في المواكب العظام
٤٣٢-٤١٥	رُكُوبُ أوَّل العام
٤٣٢	رُكُوبُ أوَّل شهر رمضان
٤٣٩-٤٣٣	رُكُوبُ أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان
٤٤٤-٤٣٩	رُكُوبُ صلاة عيد الفطر
٤٤٦-٤٤٤	رُكُوبُ صلاة عيد النحر (الأضحى)
٤٦٠-٤٤٧	رُكُوبُ الخليفة في الأعياد القومية المصرية
٤٥٦-٤٥٢	رُكُوبُ تخليق المقياس
٤٦٠-٤٥٦	رُكُوبُ فتح الخليج
٤٦٥-٤٦٠	رُكُوبُ الخليفة في الأعياد الشيعية
٤٦٤-٤٦٣	رُكُوبُ غدير خُم

٤٦٧-٥٠٧

الفصل الثالث عشر - النشاط الاقتصادي

٤٦٧-٤٧١

الزراعة

٤٧٢-٤٨٢

الصناعة

٤٨٣-٥٠٠

التجارة

٤٨٤-٤٨٦

الفسطاط والإسكندرية مركز التجارة في العصر الفاطمي

٤٨٦-٤٨٧

ثراء الفسطاط في العصر الفاطمي

٤٨٧-٤٨٩

التجار الأجانب في الفسطاط

٤٨٩-٤٩١

وكلاء التجار الأجانب في الفسطاط

٤٩١-٤٩٤

اتصال القاهرة بالفسطاط

٤٩٤-٤٩٥

المتجر

٤٩٦-٥٠٠

التجارة الكارمية

٥٠١-٥٠٤

الطوائف الحرفية

٥٠٥-٥٠٧

الدینار الفاطمي

٥٠٩-٥٤٩

الفصل الرابع عشر - النظام الضرائبي للفاطمين

٥١٠-٥١٤

الضرائب

٥١١-٥١٢

الموارد الشرعية

٥١٢-٥١٤

الموارد غير الشرعية

٥١٤-٥١٦

نظام الضمان

٥١٧-٥٢٢

المال الخراجي

٥١٧-٥٢٢

الخراج

٥١٨-٥٢١

نظام القبالة

٥٢١-٥٢٢

جباية الخراج

٥٢٣-٥٣١

المال الهلالي

٥٢٣-٥٢٧

الجوالى

٥٢٧-٥٢٩

الزكاة - النجوى

٥٢٩-٥٣١

الرباع

٥٣١-٥٣٧

ما يستأدى من تجار الروم أو الخمس الرومي

٥٣٧-٥٤٩

الموارد غير المنتظمة

٥٣٧-٥٣٩

المصادرة

٥٣٩-٥٤٣

المواريث الحشرية

٥٤٧-٥٤٣	الأخباس
٥٤٩-٥٤٨	متحصّل دار الضّرب ودار العيار
٥٧١-٥٥١	الفصل الخامس عشر - الحياة الاجتماعية
٥٥٨-٥٥١	بناء المجتمع
٥٥٩-٥٥٨	تّرف الحياة الاجتماعية
٥٦٢-٥٦٠	الأعياد والاحتفالات زمن الفاطميين
٥٦٢-٥٦١	ميّزات الاحتفالات الفاطمية
٥٦٧-٥٦٢	الخَلْع والتّشريف
٥٧١-٥٦٧	الأسمطة
٦٠٩-٥٧٣	الفصل السادس عشر - الثّقافة والتّعليم
٥٨٣-٥٧٤	مجالس الحكّمة
٥٩٠-٥٨٣	دار الحكّمة (دار العلم)
٥٩٤-٥٩٠	بدايات المدارس في مصر
٥٩٢-٥٩١	المدرسة الحافظيّة
٥٩٤-٥٩٢	مدرسة العادل بن السّلال
٦٠٩-٥٩٤	خزائن الكتب الفاطمية
٦٥٤-٦١١	الفصل السابع عشر - العمارة والفنون
٦٣٢-٦١١	العمارة
٦٥٤-٦٣٢	الفنون الفرعيّة
	الكتاب الثالث
	الجيش والبحريّة
٧٢٣-٦٥٧	الفصل الثامن عشر - الجيش الفاطمي
٦٦١-٦٥٧	الفترة الإفريقية
٦٦١	تنظيم الجيش
٧٢٤-٦٦٢	الفترة المصرية
٦٦٢	جيش مصر قبل الفتح الفاطمي
٦٦٧-٦٦٣	الجيش الفاطمي في مصر
٦٦٧-٦٦٥	ظهور الأتراك والدّيالمة
٦٧٣-٦٦٨	الجيش الفاطمي في القرن الخامس الهجري
٦٧١-٦٦٨	الجيش الفاطمي قبل الحرب الأهلية

٦٧١-٦٧٣	ظُهُورُ الْأَرْمَنِ
٦٧٤-٦٨٣	الْحَمْلَةُ الصَّلَيبِيَّةُ الْأُولَى وَمَوْقِفُ الْأَفْضَلِ بْنِ بَدْرِ الْجَمَالِيِّ
٦٨٣-٦٨٧	الْجَيْشُ الْفَاتِمِيُّ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ وَالْإِصْلَاحَاتُ الْعَسْكَرِيَّةُ
٦٨٧-٦٨٨	لِلْأَفْضَلِ بْنِ بَدْرِ الْجَمَالِيِّ
٦٨٨-٧٠٤	تَرْتِيبُ الْجَيْشِ الْفَاتِمِيِّ
٦٨٨-٦٩٤	أَصْنَافُ الْجَيْشِ
٦٩٤-٦٩٦	وَدَاخُ الْجَيْشِ
٦٩٦-٦٩٧	تَمْوِينُ الْجَيْشِ
٦٩٧-٧٠٤	أَسْلِحَةُ الْجَيْشِ
٧٠٥-٧٢٤	رَوَاتِبُ الْجُنُودِ وَطَبِيعَةُ الْإِقْطَاعِ الْفَاتِمِيِّ
٧١٨-٧١٩	دِيْوَانُ الْإِقْطَاعِ
٧٢٠-٧٢٤	دِيْوَانُ الْجَيْشِ
٧٢٥-٧٤٦	الفصل التاسع عشر - الْبَحْرِيَّةُ الْفَاتِمِيَّةُ
٧٢٥-٧٢٨	الْبَحْرِيَّةُ الْفَاتِمِيَّةُ فِي شِمَالِ إِفْرِيقِيَا
٧٢٨-٧٣٠	الْبَحْرِيَّةُ الْفَاتِمِيَّةُ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ
٧٢٨-٧٣٠	قَبْلَ الْعَصْرِ الْفَاتِمِيِّ
٧٣٠-٧٣١	فِي الْعَصْرِ الْفَاتِمِيِّ
٧٣١-٧٣٣	دَوْرُ الصَّنَاعَةِ فِي الْعَصْرِ الْفَاتِمِيِّ
٧٣٤	تَوْفِيرُ الْأَخْشَابِ اللَّازِمَةِ لِمَنْعَةِ السُّفُنِ
٧٣٥-٧٣٦	دَوْرُ الْأَسْطُولِ الْفَاتِمِيِّ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ
٧٣٦-٧٣٩	الْبَحْرِيَّةُ الْفَاتِمِيَّةُ فِي زَمَنِ الْحُرُوبِ الصَّلَيبِيَّةِ
٧٤٠-٧٤٢	دِيْوَانُ الْجِهَادِ أَوْ دِيْوَانُ الْعِمَائِرِ
٧٤٣-٧٤٦	قِطْعُ الْأَسْطُولِ الْفَاتِمِيِّ الْحَرْبِيِّ
٧٤٧-٧٤٩	الْخَاتَمَةُ
٧٥١-٧٨١	ثَبْتُ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ وَبَيَانُ طَبْعَاتِهَا
٧٥١-٧٦٥	الْمَصَادِرُ
٧٦٥-٧٧٠	الْمَرَاجِعُ الْعَرَبِيَّةُ وَالْمُعَرَّبَةُ
٧٧٠-٧٨٠	الْمَرَاجِعُ الْأَجْنِبِيَّةُ
٧٨٠-٧٨١	الرُّمُوزُ وَالْإِخْتِصَارَاتُ
٧٨٣-٨١٦	الْكَشَافَاتُ

٧٩٢-٧٨٣	الأعلام
٧٩٦-٧٩٢	الخطط والمحال الأثرية
٨٠٠-٧٩٦	الأماكن والمواضع والبُلدان
٨١٠-٨٠١	الألقاب والمصطلحات وأسماء الدواوين
٨١٢-٨١٠	القبائل والجماعات والفرق والأسرات الحاكمة
٨١٧-٨١٣	الكشاف البيليوجرافي
AVANT - PROPOS	V-IX

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

عندما بدأت منذ نحو عشرين عامًا في نشر مصادر جديدة لتاريخ الفاطميين في مصر، وإعادة نشر مصادر أخرى اعتمادًا على مخطوطات كُشِفَتْ حديثًا أو مقابلتها على معلومات جديدة وَصَلَتْ إلينا (للمُسَبِّحِي وابن الصَّيْفِي وابن المأمون وابن الطُّونَرِ وابن مُيَسَّرِ وابن عبد الظَّاهِر والمُقْرِيزِي)؛ فَتَحَتْ هذه النصوص الجديدة أمامي مجالًا رَحْبًا للبحث والتنقيب في النواحي المختلفة للتاريخ الفاطمي خاصةً في فترته المصرية. كان طبيعيًا أن يدفعني ذلك إلى كتابة تاريخ جديد للدولة الفاطمية في مصر اعتمادًا على هذه المصادر وعلى إعادة قراءة المصادر التقليدية في ضوء ما ظَهَرَ من مصادر جديدة، وأخيرًا على الدراسات المتخصصة الحديثة التي تناولت بِعُمُق مسائل جزئية من التاريخ الفاطمي الطويل.

كانت الحَفَاوَةُ التي اشْتَقَلَتْ بها المتخَصِّصون هذه الدراسة وسرعة نفاذها، مشجِّعًا لى على إصدار طبعة جديدة تأخُذ في الاعتبار النصوص الجديدة والدراسات الحديثة. وفي هذه الطبعة عُدِّلَتْ فصولًا وَأَصِفَتْ فصولًا جديدة عن الرُّشُوم والمواكب الاحتفالية، والتعليم والثقافة، والتاريخ العسكري للدولة الفاطمية، ومَهَّدَتْ للكتاب يَبْحَث في مصادر التاريخ الفاطمي وعن الوضع الراهن للدراسات الإسماعيلية والفاطمية.

والخطوط العريضة والحقائق المتعلقة بتاريخ الحركة الإسماعيلية وتاريخ الفترة الفاطمية فيها تكادُ أن تكون معروفة للدارسين، وَأَصْبَحَتْ مهمة الباحث في تاريخ الفترة

الفاطمية بوجه خاص مهمة صعبة، فعليه أن يجمع كل المصادر المتوافرة ويعتبر من خلالها على المصادر المبكرة التى ترجع حقيقة إلى العصر الفاطمى، ويعرض من خلالها تاريخاً صحيحاً للدولة يقوم على أساس تفسير هذه الأحداث وتحليل الظواهر الرئيسة للتاريخ الفاطمى.

فالدولة الفاطمية تُعدُّ نموذجاً واضحاً للدولة الثيوقراطية فى التاريخ الإسلامى، قامت على أساس ادعاء إيصال نسب أصحابها إلى النبى ﷺ عن طريق السيدة فاطمة والإمام على. ويُقَلَّب الغموض على تاريخ الحركة الإسماعيلية طوال المائة عام الأولى التى أعقبت وفاة الإمام جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م.

واعتمدت هذه الحركة على نشاط مُكثَّف للدعاة السريين الذين انتشروا فى أرجاء العالم الإسلامى يَدْعُونَ إلى قُرب ظهور الإمام المهدي من آل فاطمة. وابتداءً من النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى- بعد دخول الإمام محمد بن الحسن العُشْكُرَى آخر الأئمة الاثنى عشرية فى السُرداب سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م- أصبحت الحركة الإسماعيلية هى الجناح الثورى الأكبر أهمية للشيعه، وظهرت كحركة ديناميكية ومنظمة مركزية اكتسبت سريعاً شهرةً فاقت شهرة أية حركة شيعية أخرى فى هذه الفترة.

وفى السنوات الأخيرة للقرن الثالث الهجرى نجحت الحركة الإسماعيلية فى إقامة دولة قوية فى إفريقيا هى «الخلافة الفاطمية» التى هَدَّدَتْ لفترة أكثر من مائتى عام وَضْع العديد من الأمرات الحاكمة فى العالم الإسلامى، كما أن أئمتهم اعتبروا الخلفاء القَبَاسِيين مغتصبين لِحَقِّهم الشَّرْعى فى حُكْم هذا العالم.

ولا تُحَدِّثنا المصادر الإسماعيلية والفاطمية إطلاقاً عن (الإسماعيليين) أو (الفاطميين)، وهما مصطلحان يقابلان الباحث فى كتب الفِرَق والعقائد وعند المؤرخين. فقد أَطْلَقَ المؤرِّخون على الدولة التى قامت فى شمال إفريقيا فى أواخر القرن

الثالث الهجرى «الدولة (الخلافة) الفاطمية». أما كتب الدَّعْوَةِ نفسها والسَّجَلَات الرسمية فَتُطْلَقُ عليها «الدَّعْوَةُ الهادية» أو «دَعْوَةُ الحق». وأصبح الدارسون يُجَيِّزون بين الفترة التى أُعلنت فيها الدولة والفترة السابقة عليها أو اللاحقة لها؛ بأن أطلقوا على الدولة: الفترة الفاطمية (الدعوة - الدولة)، وعلى الفترة السابقة: الإسماعيلية المُبَكَّرَة والفترة اللاحقة: الإسماعيلية. فلم ينشأ مصطلح «الفاطميين» إلّا مع إعلان الإمام المهدي عبد الله قيام دولته سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م لتأكيد انتسابهم أولاً إلى السيدة فاطمة ابنة النبي ﷺ ثم إلى السيدة فاطمة زوجة الإمام جعفر الصادق وأم ولديه إسماعيل وعبد الله اللذين ينتسب إليهما الإسماعيليون.

وبينما جاء انتصارُ العبّاسيين سريعاً وحاسماً واستقرّوا فى الحكم طوال أكثر من خمسة قرون، فقد استغرق انتصارُ الفاطميين وقتاً أطول، كما أن هذا الانتصار لم يكتمل أبداً. وبينما قَطَعَ العبّاسيون كذلك صلاتهم بالدَّعْوَةِ ورجالها فور استيلائهم على السُّلْطَة، فإن الفاطميين لم يستطيعوا الانفصال عن «الدَّعْوَةِ» لأنه كان لا يزال يُنتَظَرُ منها الكثير، وكانت بمثابة السلاح الإيديولوجى للحركة. فقد كان هدْفُهُم إرساء دعائم المذهب الإسماعيلى والإمامة الفاطمية فى كل العالم الإسلامى.

ولم تكن إفريقية (تونس الحالية)، حيث أُعْلِنَ قيام الخلافة الفاطمية، لتفى بِمَرَضِ الفاطميين وتُحَقِّقَ أحلامهم، فقد كانت أنظارُهُم تُتَّجِه دَائِماً إلى الشرق. ولجأوا فى سبيل ذلك إلى الدَّعَاية السياسية ضد العبّاسيين فى بَغْدَاد والأمويين فى قُرْطُبَة على السواء، ونشطت هذه الدَّعَاية فى أيام الميَزَّز لدين الله رابع خلفائهم، وعَبَّرَ عنها بوضوح شاعرهم ابن هانئ الأندلسى.

وَتَحَقَّقَتْ أعظم انتصارات الفاطميين على يد الإمام (الخليفة) الميَزَّز لدين الله، فلا شك أن فتحهم مصر فى سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م هو أعظم إنجازاتهم التى حَفِظَتْ لهم مكاناً

بارزاً في التاريخ. وفي مصر أنشأ الفاطميون عاصمةً جديدةً، هي «القاهرة»، تُعبر عن كياناتهم وعن اتجاهاتهم، وكانت آمالهم ومحاولاتهم التوسعية. تتجه دائماً نحو الشرق وكان هدفها الأول أراضى الخلافة العباسية.

ورغم أن الفاطميين كانوا وهم بإفريقية بحاجة إلى «عصبية» تمثلت في قبيلة كُتامة البربرية، فقد اختلف الوضع في مصر حيث انفصلوا عن مجموع سُكَّان الشعب وقَرَّبوا أهل الذمَّة.

ومرّت الدولة (الخلافة) الفاطمية في مصر بفترتين متميزتين: تبدأ الفترة الأولى مع وصول القائد جَوْهَر الصُّقْلَبِي إليها وإتمام عملية فتح مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، وتنتهى باندلاع الحرب الأهلية في منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى فى زمن الخليفة المستنصر بالله. والفترة الثانية هى فترة الحُكْم المُطلَق للوزراء العسكريين التى تبدأ بوزارة أمير الجيوش بدر الجمالى وتنتهى بوصول صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى قمة السُلْطَة. فى مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م وسقوط الخلافة الفاطمية فى الحرم سنة ٥٦٧هـ/سبتمبر سنة ١١٧١م. فى الفترة الأولى - فيما عدا استثناءات قليلة - جَمَعَ الأئمة (الخلفاء) الفاطميون فى أيديهم السُلْطَة السياسية المُطلَقة، أما الفترة الثانية فقد استَبَدَّ فيها بالحكم الحُكَّام العسكريون المُطلَقون الذين اغتصبوا السُلْطَة السياسية من الأئمة.

وطوال المائة عام الأولى للتاريخ الفاطمى فى مصر، لم يُحاول الفاطميون اتخاذ إجراءات حاسمة لتحقيق حلمهم فى حكم العالم الإسلامى وتكوين الإمبراطورية العالمية التى حلموا بها، بل إن أئمتهم سَقَلُوا أنفسهم بمشاكل عقائدية وطموحات شخصية خاصة فى عهد الحاكم بأمر الله. وشهد النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر بالله الطويل (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م) أسوأ أزمة اقتصادية عرفتها مصر فى العصر

الإسلامي، بالإضافة إلى فوضى إدارية شاملة وحروب أهلية هددت الأمن والاستقرار الذي عرفته مصر في العقود الأولى للقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وتطلّبت الاستعانة بقائد عسكري قادر على حفظ الأمن وإعادة النظام.

ومع ذلك فقد ظلّ الفاطميون لفترة غير قصيرة، خلال النصف الأول للقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أكبر قوّة في العالم الإسلامي. فقد وصلت الإمبراطورية الفاطمية في أوائل حكم المستنصر بالله إلى أقصى اتّساع لها وكانت تضمّ مصر والشام وشمال إفريقيا وصقلية والشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر والحجاز واليمن وعمان والبحرين والسند بحيث يمكننا أن نطلق عليها «العصر الذهبي للإسماعيلية»، ولكنها سرعان ما هوت بعد ذلك خاصة بعد ظهور السلاجقة كقوّة فتيّة جديدة في الإسلام؛ فعند وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م كانت الدّعوة الإسماعيلية قد تمزّقت إلى أجزاء.

ورغم أننا لا نعرف سبباً مباشراً واضحاً لاندلاع الحرب الأهلية في عصر المستنصر، فلا شك أنها كانت نتيجة غير مباشرة لعدم الاستقرار الإداري الذي أعقب التخلّص من الوزير القوي الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري (٤٤٢-٤٥٠هـ/١٠٥٠-١٠٥٨م)، كما أثّرت تأثيراً هائلاً على الفترات التالية في التاريخ الفاطمي. فأدخلت هذه الحرب الدولة والمجتمع وحتى الأسرة الحاكمة في حالة من اليأس والشقاء والفوضى.

كان الرجل الذي أنقذ الدولة من هذا الانهيار هو أمير الجيوش بدر الجمالي القائد الأرمي الأصل، الذي استنجد به الخليفة المستنصر، والذي أقام في مصر محكماً عسكرياً مُطلقاً، استمر أولاً في أسرته حيث نقل سلطته إلى ابنه الأفضل شاهنشاه (٤٦٦-٥١٥هـ/١٠٧٣-١١٢١م)، كما أن حفيده أبا علي الأفضل كُتيفات تولّى السُلطة فترة قصيرة أثناء الاضطراب الذي أعقب وفاة الخليفة الأمر بأحكام الله سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م. وتعدّ فترة الحكم المطلق لأسرة بدر الجمالي نقطة التحوّل في صيغ السياسة

الفاطمية بالصُّفَّة العسكرية، حيث وَصَلَ عددٌ من الوزراء إلى الحكم في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي بفضل مؤازرة الفرق العسكرية لهم، وساعد هذا التواجد العسكري على خَلْقِ مواجهات عنيفة بين الفرق العسكرية المختلفة وإن لم يُوَدَّ إلى حرب أهلية جديدة. وفي ظلِّ هذا النظام أصبح الأئمة (الخلفاء) الفاطميون مُجْرَد رؤساء صوريين لسلسلة متتابعة من الطُّغاة العسكريين، مثلما أضْحَى الخلفاء القَبَاسيون في بُغداد بمثابة دُمى عاجزة في أيدي حماتهم من التَّوَنِيهِين والسَّلاجِقَة.

وأدَّى إِبْهَادُ الوزير القوي الأَفْضَل بن بدر الجمالي لِنِزار، صاحب الحق في خلافة الإمام المستنصر بالله عند وفاته سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، إلى انقسام الإسماعيليين إلى فرقتين: «النَّزَارِيَّة» ويؤيِّدون نِزارَ الابن الأكبر للإمام المنتقل وانتشروا على الأخص في بلاد فارس، و«المُسْتَعْلِيَّة» أتباع الإمام الجديد وانتشروا في مصر والشام واليمن. وبعد وفاة الإمام الأمر بأحكام الله ابن المُسْتَعْلَى سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م دون وريث وإعلان ابن عمه عبد المجيد لنفسه خليفة باسم «الحافظ لدين الله» سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م، ظهر انشقاقٌ جديدٌ في الفرقة «المُسْتَعْلِيَّة» التي انقسمت إلى «حَافِظِيَّة» استمرت في مصر و«طَبِيعِيَّة» استقرُّوا في اليمن والهند. وقد استمرت إلى الآن الدعوة المستعلية - الطَّبِيعِيَّة المعروفة أتباعها في الهند باسم Bohora «البُهْرَة» وزعيمهم هو الداعي المُطَلَّق الثاني والخمسون السلطان محمد برهان الدين بن ظاهر؛ والدعوة النَّزَارِيَّة التي أطلق عليها الأوربيون لَفْظ Assassins «الحَشَّاشِينَ» والموجود أتباعها في سوريا وإيران وباكستان - ويعرفون بالطائفة الأغاخانية نسبة إلى زعيمهم الأمير (الشاه) كريم الحسيني الأغاخان الرابع والإمام التاسع والأربعين للإسماعيليين النَّزَارِيِّين؛ بينما انحَلَّت الدعوة الحافظية فور سقوط الدولة الفاطمية في مصر. وعند اعتلاء الحافظ لدين الله كرسى الخلافة أصبح تاريخُ الفاطميين في مصر تاريخًا محليًّا، فقد فَقَدَ الفاطميون كل ممتلكاتهم خارج مصر، فيما عدا عَشَقْلَان التي لم تَلْبِث أن سقطت في أيدي الفِرْنَج سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، ولم يُقَمَّ الدَّعوة للفاطميين في مصر

إلا الزريعيون حُكَّام عَدَن. وأصبح تاريخ الفاطميين صراعًا داخليًا بين ولاية الأقاليم حول منصب الوزارة، حيث أصبح الوزير هو الشَّيْذَ الفعلى للبلاد. وتعكس لنا هذا الوضع الوثائق التي وَصَلَتْ إلينا وترجع إلى هذه الفترة حيث أصبحت المرائض والشكاوى تُرْفَع إلى الوزير لا إلى الإمام (الخليفة).

وإلى هذه الفترة يرجع بداية استعانة الوزراء بملوك وأمراء الدول المجاورة من الشُّنَّة والفرنج على السواء، لتمكينهم من الحكم أو مساندة بعضهم ضد بعض، مما أَدَّى إلى تَطَلُّع هذه القوى إلى الاستيلاء على مصر، حتى نَجَّح صلاح الدين يوسف بن أيوب - أحد هؤلاء الأمراء - في وَضْع نهاية للدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وإعادة مصر مرة أخرى بعد انقطاع أكثر من مائتي عام إلى دائرة الأقاليم التي يحكمها أهل الشُّنَّة.

ورغم النجاح والتَّوَسُّع الذي حَقَّقَتْهُ الدولة الفاطمية في النصف الأول للقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، فإن هذا التَّوَسُّع تَمَّ عن طريق الدُّعَاة والدُّعَاة الدينية والسياسية ولم يكن للجيش الفاطمي أى دور فيه. فهذا الجيش لم يُخْتَبَر على الإطلاق بعد فَتْح مصر الذي تَمَّ دون مقاومة من المصريين، كما أن هذا الجيش تَقَرَّض لانكسارات كثيرة عندما واجه جيوشًا أكثر تنظيمًا منه وخاصةً في نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي عند وصول الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م.

وإذا كانت الدولة الفاطمية دولة ثيوقراطية ذات إيديولوجية خاصة، وكان هدفها بَشَط نفوذها وسيادتها على كل الأراضى الإسلامية، فمع ذلك لا نجد واحدًا من أئمتهم أَدَّى فريضة الحج رغم حرصهم الشديد على إقامة الدُّعْوَة لهم على منابر مكة والمدينة، وإنما وَجَّهوا اهتمامهم إلى إحياء بعض المظاهر الإسلامية بفخامة وبَدَخ داخل عاصمة ملكهم.

وتنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة كُتُبٍ وتمهيد ومدخل. يتناول التمهيد مصادر التاريخ الفاطمي والوضع الراهن للدراسات الفاطمية والإسماعيلية. ويشتمل المدخل على دراسة عن الإسماعيلية المبكرة حتى إعلان قيام الخلافة الفاطمية في إفريقية.

ويتناول الكتاب الأول في تسعة فصول «الدعوة - الدولة» أى التاريخ السياسى للدولة الفاطمية منذ قيامها في إفريقية سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م وحتى سقوطها في مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م مع التركيز بشكل أساسى على الفترة المصرية في هذا التاريخ؛ ويُدْرُسُ الكتاب الثانى في ثمانية فصول «النظم والحضارة» في مصر خلال العصر الفاطمى، أما الكتاب الثالث فيتناول في فصلين جديدين «الجيش والبحرية» في العصر الفاطمى.

وتجَنَّبَتْ في كتابة هذه الدراسة الخوض في التفاصيل الدقيقة للأحداث، واستعضت عن ذلك بتقديم تحليل لأطوار التاريخ الفاطمى وتوضيح للخطوط العريضة والظواهر الرئيسة لتاريخ الدولة الفاطمية، وشرّح للإستراتيجية التى كانت تحكم سياسة الفاطميين والأهداف التى كانوا يتطلعون إليها ومدى نجاحهم أو فشلهم فى تحقيقها.

ووجهت اهتمامى إلى إظهار التطورات والتغيرات الإيديولوجية والاجتماعية التى طرأت على دولتهم، وشرّح سياستهم الاقتصادية والضرائبية التى حددت استراتيجيتهم فى النصف الثانى لتاريخ دولتهم.

ولم أكتف فى هذا العرض بالاعتماد على المواد والمصادر الجديدة أو التى اكتشفت حديثاً، بل أعدت النظر فى المواد المتوافرة المعروفة والتى أظن أنه لم يُستفَد منها الفائدة

المرجوة، كما أنها أصبحت بحاجة إلى نظرة تحليلية أدقّ في ضوء ما ظهر من مصادر أدبية ومادية جديدة في العقود الأخيرة. فقراءة متأنية لمصادر التاريخ الفاطمي من شأنها أن تجلّو لنا الكثير من الحقائق التي كانت بعيدة عنّا.

وحرصت كذلك على عدم معالجة الموضوع معزولاً عن قضايا العصر الأخرى مما ساعدنا على إبراز الترابط بين هذه القضايا المُعقّدة وتوضيحه.

وقمت كذلك بالاستشهاد بنصوص المؤرّخين المعاصرين ، وخاصةً عند تناول وصف المواكب الاحتفالية ؛ فهذه النُصوص شهادات لا تُجرح عن الطريقة التي كانت تتم بها هذه الاحتفالات الموكبية ذات الرُسوم المُعقّدة .

وبعد، فأرجو أن أكون قد أسهمت في تقديم عرض وافٍ وتفسير جديد لفترة الظهور في تاريخ الدُعوة الإسماعيلية والتي تُعدّ في الوقت نفسه أحد أهم فترات تاريخ مصر الإسلامية ، اعتماداً على المصادر الأصلية وما تَوَصَّلَت إليه الدراسات الحديثة.

مصر الجديدة في ١١ جمادى الآخر سنة ١٤٢٠هـ

أهمن فؤاد سَيِّد

٢١ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٩٩م

تمهيد

مصادر التاريخ الفاطمي والوضع الراهن للدراسات الفاطمية

لم يُخَلَف لنا العصر الفاطمي، من ناحية القيمة، إنتاجاً أدبياً يُضارِع ما وَصَلَ إلينا في هذه الفترة من بغداد القياسية أو حَلَب في زمن الحمدانيين. إلا أن أهم ما مَيَّز الإنتاج الأدبي لعصر الفاطميين هو ميلاد مدرسة مصرية جديدة في التاريخ ترى في مصر مقرَّ خلافة ومركزاً للعالم الإسلامي، وتختلف آثارها عما كتبه في مصر قبل عصر الفاطميين مؤرِّخون مثل: ابن عبد الحكم والكندي.

فشهد العصر الفاطمي ميلاد فن نما وتطوَّر في مصر الإسلامية هو فنُّ التأليف في الحِطَّة¹، كما دُوِّن فيه أوَّل كتاب في الكتابة الإنشائية، وظهرت المؤلفات التي تهتم بذكر نُظُم الحكم ورُشُوم الخلافة، بالإضافة إلى كتب التلخيص والحَوَليات التي أُرِخت للدولة الفاطمية في مصر والبلدان التي امتدَّ إليها النفوذ الفاطمي مثل: الشام والحجاز واليمن والهند وإفريقية.

وإذا كانت المصادر التاريخية (والحَوَليات بصفة خاصة) تنقسم عادةً إلى نوعين رئيسيين: نوع نجد فيه المؤلف يكتب عن أحداثٍ شاهدها بنفسه أو وَصَلَتْ إليه أخبارها عن طريق الرواية. ونوع آخر يَعمَدُ فيه المؤرِّخ إلى النَّقْل عن مصادر قديمة وتضمينها في كتابه. فمن المؤسف أن الإنتاج التاريخي الضخم لعصر الفاطميين - والذي يُمثِّل النوع الأول - قد قُيِّدَ ولم يصل إلينا منه سوى عددٍ قليل لا يتجاوز الخمسة الكتب. ولم يُفَقَد

¹ راجع مقالى Fu'ad Sayyid, A., «L'évolution de la composition du genre des *Khitat* en Egypte musulmane», *An. Isl.* XXXIII (1999) pp. 1-11

هذا التراث إلا في عصور متأخرة فقد كان بخوذة المؤرخين المتأخرين - الذين عاشوا في القرن الثامن والتاسع الهجرى/الرابع عشر والخامس عشر الميلادى- نسخ من هذه المؤلفات نقلوا عنها نقولاً مطوّلة يمكننا من خلالها أن نتصور حجم المادة التى حوتها هذه المؤلفات وقيمتها. فالعديد من المؤلفات التاريخية المتأخرة، التى تناولت الفترات المبكرة من التاريخ المصرى، تستمد أهميتها من قيمة المصادر التى نقلت عنها والتى قُعدت اليوم والتى نستطيع من خلالها أن ندرس تاريخ هذه الفترات.

لذلك فقبل مرحلة التأليف يجب على الباحث أن يُحدّد المصادر التى وصلت إلينا من العصر الفاطمى وتلك التى ترجع حقيقةً إلى هذا العصر وحفظها لنا المؤرخون المتأخرون. ونظرة عامة على هذه المصادر تُظهر لنا أن تقسيم المصادر الفاطمية غير متكافئ؛ ففيما يخص الدور الإفريقى نجد أن مؤلفى القاضى الثغمان بن حيّون: «افتتاح الدّعوة» و«المجالس والمسائرات» وكذلك «سيرة الأستاذ جوذر» لأبى على منصور العزبى الجوّدرى أهم مصادر هذه الفترة. وبالنسبة لتاريخ الفاطميين فى مصر فإننا نملك معلومات مُفصّلة عن فترة خلافة كل من المُعزّ لدين الله والعزبى بالله والحاكم بأمر الله بفضّل مؤرخين من أمثال: ابن زولاق والمُسَبّحى ويحى بن سعيد الأنطاكى. أما فترة خلافة المستنصر بالله، على طولها وأهميتها والتى تُمثّل نقطة تحوّل خطيرة فى تاريخ الدولة، فإن مصادرنا قليلة ومفقودة تُمثّل فى مؤلفات القضاعى وصاحب «الذخائر والتحف» و«سيرة المستنصر» و«سيرة البازورى» اللتين لا نعرف أسماء مؤلفيها، بالإضافة إلى مصدر فارسى لم يعرفه المؤرخون المتأخرون هو «سَفَرَنامَة» رحلة الرّوحالة الفارسى ناصر خُشرو. وقد عوّضت المصادر المادية والسجّلات الرسمية، وخاصة قرب نهاية عهد المستنصر، نقص المصادر الأدبية لهذه الفترة.

وعلى العكس من ذلك فإن تاريخ الفاطميين المتأخرين قد روى بعد فترة قصيرة من سقوط دولتهم نقلاً عن مصادر مفقودة مثل «تاريخ حلفاء مصر» للمرُتضى المُحمّد،

و«تاريخ» ابن المأمون، كما وصلت إلينا من هذه الفترة مؤلفات هامة لابن الصَّيْرَفِي وابن القلانسي وحمارة اليمنى وأسامة بن مُثَقَد.

ووصف «النظام المالي والإداري» و«رسوم الفاطميين» مؤلفون عاشوا في آخر عهد الدولة الفاطمية وأول عهد الدولة الأيوبية وخدموا في دواوين الدولتين، مثل: الخزومي وابن تَمَاتِي وابن الطُّوَيْر والنابلسي وكذلك ابن المأمون. كما سجل تاريخهم السياسي مؤرخون من أمثال ابن ظافر الأزدي ويحيى بن أبي طىّ وابن الأثير الجزري وأبو شامة المقدسي وابن سعيد المغربي وابن خلّكان وابن واصل الحموي بالإضافة إلى ابن مُثَيَّر وابن أَيْتِك الدَّوَادَرِي.

ونمثل المصادر الإفريقية أهمية خاصة فيما يتعلق بدراسة علاقات الفاطميين بشمال إفريقيا، مثل مؤلفات ابن حَمَّاد الصَّنْهَاجِي المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٣٠م، وابن القَطَّان المتوفى في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ومحمد بن عِذارى المَرَاكَشِي المتوفى سنة ٧١٢هـ/١٣١٣م.

وأوسع وأشمل المصادر التي وصلت إلينا عن تاريخ الفاطميين هي مؤلفات المؤرخين المصريين المتأخرين والتي استمدت أغلب معلوماتها من المصادر المبكرة التي فُقدت اليوم، مثل مؤلفات الثوري وابن الفرات وابن دُقَمَاق والقَلَقَشَنْدِي والمقرئزي وابن حجر العسقلاني وأبي المحاسن بن تَغْرِي بِرْدِي وجلال الدين السيوطي وأخيرًا ابن إِبَاس الحنفي. كما أن كتاب «عيون الأخبار وفنون الآثار» للداعي عماد الدين إدريس، المعاصر لهم، يعد أشمل كتاب في تاريخ الحركة الإسماعيلية يُمثل وجهة نظر الدَّعْوَة.

أما المصادر الشامية والعراقية فلا يمكننا الاعتماد عليها في دراسة تاريخ الفاطميين في مصر، وعلى الأخص مؤلفات أبي الفرج ابن الجوزي وسيبط ابن الجوزي وشمس الدين الذهبي والحافظ ابن كثير، فهؤلاء جميعًا مؤلفون سُنيون ذوو ميول حنبلية يُعادون

الفاطميين. والذهبي وابن كثير على الأخص من علماء الحديث المشتغلين بالتاريخ ولا يعترفون بشرعية الخلافة الفاطمية، ويسمونهم بـ «الخلفاء المصريين» أو بـ «الشيعة». وقد نكبه إلى ذلك مؤرخ مصر تقي الدين المقرئى وقال عن مؤرخى العراق والشام: «وغير خاف على من يتحرر فى علم الأخبار كثرة تحملهم على الخلفاء الفاطميين وشنيع قولهم فيهم، ومع ذلك فمعرفتهم بأحوال مصر قاصرة عن الرتبة العلية، فكثيراً ما رأيتهم يحكون فى تواريخهم من أخبار مصر ما لا يرتضيه جهابذة العلماء ويرده الحدائق العالمون بأخبار مصر، وأهل كل قطر أعرف بأخباره ومؤرخو مصر أدرى بمآثراته». وذكر فى موضع آخر أن الأخبار الشنيعة، لاسيما التى فيها إخراجهم من ملة الإسلام، لا تكاد تجد لها إلا فى كتب المشاركة من البغداديين والشاميين كـ «المنتظم» لابن الجوزى و«الكامل» لابن الأثير و«تاريخ حلب» لابن أبى طى و«تاريخ العماد» لابن كثير وكتاب ابن واصل الحنوى... أما كتب المصريين الذين اعتنوا بتدوين أخبارهم فلا تكاد تجد فى شىء منها ذلك البتة»^١.

مؤلفات العصر الفاطمى

١- الإسماعيلية المبكرة والفترة الإفريقية

لم يكتب الإسماعيليون قبل الفترة الفاطمية سوى بعض الرسائل المجهولة المؤلف وهى فقيرة جداً فى معلوماتها التاريخية. وظهّرت هذه المؤلفات منذ فترة قريبة ونُسب أكثرها إلى الداعى الإسماعيلى اليمنى ابن حوَّشب المعروف بمنصور اليمن المتوفى سنة

^١ المقرئى: اعطاء الحفا ١: ٢٣٢.

^٢ نفسه ٣: ٣٤٦.

٣٠٢/هـ ٩١٤م^١ أو إلى ولده جعفر، وهي تشتمل على تفاصيل مهمة عن العقائد التي كانت تُبشّر بها الدَّعْوَةُ المُبَكَّرَةُ. وبالمثل فإن العديد من المؤلّفات الإسماعيلية التي كُتبت في الفترة الفاطمية نادرًا ما تشتمل على إشارات تاريخية تتعلّق بالفترة الإسماعيلية المُبَكَّرَةُ.

وأهم هذه المؤلّفات «رسالة افتتاح الدَّعْوَةُ» للقاضي الثُّعْمَان بن حَيَّون المتوفى سنة ٣٦٣/هـ ٩٧٤م^٢، التي تُعَرِّضُ للمراحل المتتالية للدعوة الإسماعيلية المُبَكَّرَةُ والظروف السياسية والاجتماعية التي أدّت إلى وصول أبي القاسم المنصور بن حَوْشَب إلى اليمن سنة ٢٦٨/هـ ٨٨٣م ونجاحه في إنشاء أول كيان إسماعيلي في التاريخ مما أدّى إلى خروج الدَّعْوَةُ من دور السُّتْر إلى دور الظهور وإلى إعلان الخلافة الفاطمية نفسها في إفريقية بعد ذلك بنحو ربع قرن في عام ٢٩٧/هـ ٩٠٩م.

ويُمثِّل كتاب «المَجَالِس والمُسايرَات» للقاضي الثُّعْمَان أيضًا مصدرًا هامًا للتعرف على العلاقة بين الدَّعْوَةُ والدَّوْلَةُ في عهد الإمام الفاطمي الرابع المُعِزّ لدين الله وهو يشتمل على المجالس التي كان يعقدها الإمام وسجلها ورواها القاضي الثُّعْمَان^٣.

وتُوضِّح لنا «سيرة الحاجب جعفر بن علي» سبب انشقاق فَيَزُوز داعي المُهْدَى الرئيس عنه واتجاهه إلى اليمن واتباعه للقرَاطِطَة عندما علم بِنَيْتَةِ المُهْدَى في عدم قَضْد اليمن. وهي تصف لنا بدقة رحلة المُهْدَى من سَلَمِيَّة (سَلَمِيَّة) ووصوله إلى مصر ثم اتجاهه

^١ عن هذا الناعى المؤلف راجع 424-25 - *Madelung, W., EI² art. Mansûr al-Yaman VI*, pp. 424-25.

^٢ نشرت مرتين: الأولى بتحقيق وداد القاضي وصدرت عن دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٧٠، والثانية بتحقيق فرحات

الدشراوى وصدرت عن الشركة التونسية للتوزيع بتونس سنة ١٩٧٥ وعن القاضي النعمان انظر *Dachroui, F.,*

EI² art. al-Nu'mân VIII, p. 119-20.

^٣ حققه إبراهيم شيوخ والحبيب الفقى ومحمد البعلاوى وصدر عن الجامعة التونسية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

سنة ١٩٧٨ وراجع ما كتبه عنه سمية همداني *Hamdani, S., «The Kitab al-Majâlis wa'l- Musâyarât*

and Fatimid Da'wa - Dawla Relation» (تحت الطبع).

إلى إفريقية وانشقاق الدعاة عليه. وكتب محمد اليماني -راوى هذه السيرة الذى لا نعرف عن شخصيته أى شىء- هذه المذكرات فى أوائل خلافة العزيز بالله الفاطمى وذكر فيها «رسالة افتتاح الدعوة» للقاضى النعمان وهى مؤلفة بعد سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م^١.

وإذا كانت المصادر غير الإسماعيلية المتقدمة مثل «تاريخ» الطبرى لاتشير إلى تاريخ أو عقائد الإسماعيلية المبكرة، فإن مؤلفات علماء الإمامية، وخاصة النوبختى والقمى الذين كتبوا بعد فترة قصيرة من انشقاق القرامطة على الإسماعيليين، تمثل المصادر الشيعية المبكرة التى تعاملت مع فترة الانفتاح الإسماعيلى^٢.

ومن ناحية أخرى فإن الكتابات الجدلية مثل كتابات أبى عبد الله بن رزام فى كتابه الذى رد فيه على الإسماعيلية وكشف مذاهبهم^٣، والشرىف أخى محسن الدمشقى (أبو الحسين محمد بن على بن الحسين) الذى ذكر نسب الفاطميين فى كتاب ألفه فى نسب آل البيت^٤، وهما كتابان لم يصلأ إلينا بطريق مباشر، يشتملان على معلومات قيمة حول الفترة السابقة على قيام الدولة الفاطمية.

ويعد كتاب «سيرة الأستاذ جودر» الذى صنّفه فى زمن الإمام الفاطمى الخامس العزيز بالله، أبو على منصور العزىزى الجودرى مصدراً غنياً بالمعلومات عن الأعمال التى

^١ محمد بن محمد اليماني: «سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدي صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سلمية إلى سجلماسة وخروجه منها إلى زقادة»، تحقيق و. إيفانوف، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦)، ١٠٧-١٣٣.

^٢ النوبختى: فرق الشيعة، تحقيق هلموت ريتز، إستانبول ١٩٣١، القمى: المقالات والفرق، تحقيق محمد مشكور، طهران ١٩٦٣.

^٣ ابن النديم: الفهرست فى أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، تحقيق رضا تجمدد، طهران ١٩٧٤، ٢٣٨-٢٣٩.

^٤ ابن أبيك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر ٦: ٦-٧.

قام بها الفاطميون في شمال إفريقيا، وهي فترة كان فيها جُودَر متولياً لمسئوليات علياً كما كان على صلة وثيقة وشخصية بالأئمة الفاطميين^١.

ولكن أهم المصادر الإسماعيلية التي تناولت تاريخ الإسماعيليين منذ إسماعيل بن جعفر الصادق تاريخ عام كتبه مؤلف إسماعيلي متأخر في سبعة مجلدات هو كتاب «غيون الأخبار وفنون الآثار» للداعي الطيبي التاسع عشر عماد الدين إدريس بن الحسن الأنفي المتوفى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٨م. وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه استقى معلوماته وروايته من أصول معاصرة للأحداث التي تناولها وأطلع على سجلات الأئمة الفاطميين التي أرسلوها إلى دعائهم في اليمن، كما أنه يُثبِت وجهة النظر الرسمية للدعوة الإسماعيلية حيث لا يشير إلى أية انقسامات تخالف الاعتقاد الرسمي للدعوة^٢.

٢- الفترة المصرية

أ- الميز- العزيز- الحاكم- الظاهر

شهدت هذه الفترة جماعة من المؤرخين تُثبِت مؤلفاتهم مصدراً هاماً لفترة حكم الخلفاء الفاطميين الأوائل^٣؛ يأتي في مقدمتهم أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين

^١ نشرها محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شميرة في القاهرة - دار الفكر العربي ١٩٥٤، ونقلها إلى الفرنسية ماريوس كانار Canard, M., *Vie de l'ustadh Jaudhar*, Algiers 1958.

^٢ عن هذا المؤلف وكتابه راجع، Poonawala, I.K., *Bibliography of Ismaili Literature*, Maliburn, California 1977, pp. 169- 175.

^٣ كان أول من اهتم بدراسة مصادر تاريخ الفاطميين في مصر - وخاصة الفاطميين المتأخرين - للمستشرق الفرنسي كلود كاهن في مقال رالد نشره سنة ١٩٣٧ «Quelques chroniques anciennes relatives aux derniers Fatimides», *BIFAO XXXVII* (193-38), pp. 1-27 وفي سنة ١٩٧٧ أثناء إعداد نشرتي العلمية للجزء الأربعين من كتاب «أخبار مصر» للشيخ كتب مقالا مُطَوَّلًا عن مصادر تاريخ الفاطميين في مصر Fu'ad Sayyid A., «Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Egypte», *An. Isl.* XIII (1977), pp. 1-41 وفي الصفحات التالية اعتمدت على ما كتبه في هذا المقال مع تحديث معلوماته وإضافات أخرى توصلت إليها من خلال تعامله المباشر مع هذه المصادر.

اللّيثي المعروف بابن زُولاق المتوفى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م في مطلع خلافة الحاكم بأمر الله^١، والذي ألّف عِدَّة كتب في تاريخ مصر وخطّطها منها: «تثمة كتاب أمراء مصر للكيندي» المعروف بـ «ذيل الولاة والقضاة» الذي نُقِلَ عنه كثيرًا ابن حجر العسقلاني^٢، و«تاريخ أسرة المادرائيين» الذين وَلّوا بعض المناصب الكبيرة في عهد الإخشيديين وأوائل عهد الفاطميين^٣، وكتاب «تاريخ مصر» الذي ذُيِّلَ عليه ابنه أبو الحسين ثم حفيده ابن أبي الحسين المتوفى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م^٤، كما وَضَعَ كتابًا سَمَّاه «الموازنة بين مصر وبغداد»^٥.

واعتنى ابن زولاق بوضع سيرة للحكام الذين عاصروهم أو كانوا قريبي العهد منه، فكتب «سيرة أحمد بن طولون» وهي من مصادر ابن العديم في بُغْيَةِ الطَّلَب^٦، و«سيرة محمد بن طُغْج الإخشيد»^٧ و«سيرة كافور»^٨. ولما آل الأمر للفاطميين وَضَعَ ابن زولاق

^١ ترجمته عند ياقوت: معجم الأدباء ٧: ٢٢٥-٢٣٠ ابن خلكان: وفیات الأعيان ٢: ٩١-٩٢: الصفدى: الوافى بالوفيات ١١: ٣٧ ابن الزيات: الكواكب السيارة ١٦٣: المقرئ: المقفى الكبير ٣: ٢٨٤-٢٨٦ ابن حجر: لسان الميزان ٢: ١٩١، Gottheil, R., «Al-Hasan ibn Ibrahim ibn Zûlâq», *JAOS* 28 (1907), pp. 254-270; Sezgin, F., *GAS* I, 359-60, *El*² art. *Ibn Zûlâq* III, 1003.

^٢ ابن حجر: رفع الإصغر عن قضاة مصر ١: ١٢: المقرئ: اعطاء الحنفا ١: ١٠٢.

^٣ راجع عن هذه الأسرة Gattschalk, H., *Die Madara'ijun*, Berlin and Leipzig 1931 سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عهد الإخشيديين، القاهرة ١٩٥٠. ٣٧-٥٢.

^٤ المسبحى: أخبار مصر ٩٤.

^٥ هو فصل من كتابه «تاريخ مصر» راجع مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس رقم ar.1816 ورقة ٣٢ و - ٣٧ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في ذكر محاسن مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٦٩، ١٣١، ١٤٣.

^٦ ابن العديم: بنية الطلب (مخ. أحمد الثالث) ٨: ٢٦٠ ظ.

^٧ نفسه (مخ. فيض الله) ٢٤١ ظ، ٢٤٢ و، وفيه وجدت في سيرة الإخشيد محمد بن طغج بجع الحسن بن إبراهيم بن زولاق. ونقل على بن سعيد المغربي نص هذه السيرة في كتاب «المغرب في حلى المغرب» في السفر الرابع الذي سَمَّاه «العيون الدُّجج في حلى دولة بنى طُغْج» ونشرها لأول مرة تالكويست Talquist في لندن سنة ١٨٩٩، ثم أعاد نشرها مع السفر الثالث من الكتاب زكى محمد حسن وشوقي ضيف وسيدة إسماعيل كاشف (القاهرة - جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣).

^٨ ياقوت: معجم الأدباء ٧: ٢٢٦.

«سيرة المعز لدين الله» قال عنها المقرئ:

«وقد وَقَّفت عليها بخطه حكى فيها أخبار المعز منذ دَخَلَ مصر إلى أن مات يومًا
يومًا... فإنه كان حاضرًا ذلك ومشاهدًا له، ومن يَدْخُل عليه ويُسَلِّم مع الفقهاء عليه،
ويروى في هذه السيرة أشياء بالمشاهدة وأشياء حَدَّثه بها ثقات الدولة وأكابرها؛ كما
هو مذكور فيها»^١.

وَوَضَعَ ابن زُولاق كذلك «سيرة للقائد بجوهر» يرى الأستاذ إيفانوف أنها مستلة من
كتابه السابق^٢، و«سيرة للعزير بالله»^٣.

ولم يصل إلينا من مؤلفات ابن زولاق غير كتاب صغير عنوانه «أخبار سيبويه
المصري»^٤ وآخر في «فضائل مصر وأخبارها»^٥ ذكر أنه اختصره من كتابه الكبير في
«تاريخ مصر»، وكلاهما لا يُثَلَّ شَيْئًا ذا قيمة بالنسبة للنقل المحفوظة عنه عند المتأخرين.
وَأَلَّف أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة
الفتقى المتوفى سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م كتاب «التاريخ الجامع إلى أيام العزيز» قبل سنة
٣٧٧هـ/٩٨٧م^٦. وأطلق عليه ابن خلكان «التاريخ الكبير المشهور»^٧ واكتفى الصَّفْدَى
بتسميته «تاريخ الفتقى» الذي ربما كان نفس الكتاب الذي نسب إليه بعنوان «سيرة

^١ المقرئ: تماظ الحنفا ١: ٢٣٢ والخطوط ١: ٦١، ٨٢، ٣٨٥، ٣٨٩، ٤٣٠، ٤٥١، ٤٧٠، ٤٩٣، ١٠٠: ٢، ١٣٨، ١٧٠، ٢٦٩.

^٢ ابن حجر: رفع الإصر ١: ١٧٤ المجدوع: الفهرست ١١١٠ Ivanow, *Ismaili Literature* p.39.

^٣ Sbath, P., «Choix de livres qui se trouveraient dans les Bibliothèques d'Alep au XIII siècle», le Caire, MIE 1946, n. 529.

^٤ نشره في القاهرة سنة ١٩٣٣ محمد إبراهيم سعد وحسين الديب، وانظر محمد عبد الله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطوط المصرية، القاهرة ١٩٦٩. ٢٥٠-٢٥٥.

^٥ منه عدة نسخ في باريس وخطوط الأزهر وإستانبول ودار الكتب المصرية (Sezgin, F., *GAS I* 359).

^٦ القفطى: تاريخ الحكماء ٢٨٥: الصفدى: الوافى بالوفيات ٣: ٢٤١.

^٧ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ٣٠٣، ٦١: ٥.

العزیز^١، وقد نَقَلَ ابن حَجَر عن تاريخ العُتْقَى في ترجمة محمد بن الثُّعْمَان في «رَفْع الإصر عن قضاة مصر»^٢.

ومن المؤرِّخين الذين يرجعون إلى هذا العصر وَفُقِدَتْ مؤلَّفَاتهم أبو محمد عبد الله ابن أحمد الفَرَوغَانِي، أحد أبرز تلاميذ الإمام محمد بن جرير الطَّبْرِي المؤرِّخ والمفسِّر المشهور. قدم إلى مصر في النصف الأول للقرن الرابع الهجري حيث وُلِدَ له ولده أبو منصور أحمد بن عبد الله واستقر بمصر مع عائلته وشغل منصبًا كبيرًا في بلاط الإخشيديين^٣. وَضَعَ الفَرَوغَانِي الأب تكملة لتاريخ الطَّبْرِي بعنوان «الصَّلَة» أو «المُدَّيِّل لتاريخ الطَّبْرِي»^٤ أكملها ولده أبو منصور بعنوان «صِلَة الصَّلَة»^٥. ونحن لا نعرف هذين المؤلفين إلَّا من النقول التي عند المؤرِّخين المتأخِّرين كابن العديم وابن خُلَكَان والثَّوْرِي. وألَّف أبو منصور (٣٢٧-٣٩٨هـ/٩٣٨-١٠٠٨م) بالإضافة إلى «صِلَة الصَّلَة» «سيرة كافور الإخشيد» و«سيرة العزيز الفاطمي»^٦ و«سيرة جُزْهَر القائد»^٧. وقد فُقِدَتْ هذه الكتب جميعًا.

وَكَتَبَ مؤلَّف فارسي الأصل ولد في القاهرة سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م هو أحمد بن الحسين بن أحمد الرُّوْذْبَارِي^٨ كتابًا في تاريخ خلفاء مصر عنوانه «بَلَشْكِر الأدياء» ذكر فيه

^١ الصفدى: الوافى بالوفيات ٣: ٢٤٠.

^٢ الكندى: الولاية والقضاة ٥٩٢.

^٣ مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق عمر السعيدى، دمشق - المعهد الفرنسى للدراسات العربية ١٩٧٣. ٣٩٩:٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦: ١٣٢-١٣٣؛ الصفدى: الوافى بالوفيات ١٧: ٣٠. Rosenthal F., *El art. Farghāni* II, 812.

^٤ انظر على سبيل المثال، السبكى: طبقات الشافعية الكبرى ٣: ١٢٣-١٢٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ١٧٤، ٣: ٨٧.

^٥ ابن خلكان: وفيات ٣: ١٠١، ٤: ١٠٥، ٥: ٣٧٥.

^٦ باقوت: معجم الأدياء ٣: ١٠٦؛ الصفدى: الوافى بالوفيات ٧: ٧٨.

^٧ ابن خلكان: وفيات ٥: ٤١٦.

^٨ ابن سميذ: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ٣٦٣؛ ابن الأثير: اللباب ١: ٤٧٩.

أنه شاهد أكثر أيام العزيز بالله وكان موجودًا لما مات. ويعد الكتاب مصدرًا هامًا لخلافة الحاكم بأمر الله حيث نُقِلَ منه ابن سعيد المغربي وعنه المقرئى^١. ولا ندرى إلى أية سنة انتهى الزوْذبارى فى تاريخه، ولكننا نعرف من خلال ما نقله عنه القفطى وياقوت أنه عاصر خلافة الظاهر حيث يذكر أن محمد بن أحمد بن محمد، أبا سعد العميدى كان يتولّى ديوان الترتيب وأنه عزل عنه فى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة^٢.

ومن المؤرخين الذين تُعَدُّ مؤلفاتهم ذات قيمة كبيرة لعهد الحاكم بأمر الله، أبو الفرج يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكى (٣٧٠-٤٥٨هـ/٩٨٠-١٠٦٦م) صاحب «التاريخ» المعروف به. وهو مؤلف مسيحي أمضى الأربعين عامًا الأولى من حياته فى مصر، واستطاع أن يُصوِّر فى تاريخه الاضطهاد الذى لقيه أهل الذمّة فى مصر على يدى الحاكم. وتمكّن من مغادرة مصر بعد العفو الذى منحه الحاكم سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م حيث قدم فى السنة التالية إلى أنطاكيا فى الأراضى البيزنطية. ووضَعَ يحيى كتابه ذيلًا على تاريخ سعيد بن البطريرق (أوتيوخوس) المعروف بـ «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق»^٣ وأبتدأ فيه بالسنة التى انتهى عندها ابن البطريرق وهى سنة ٣٢٦هـ/٩٣٨م^٤. وقد حرّر يحيى تاريخه لأول مرة نحو سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٧م- وكان وقتها بمصر- ثم وقَّعت له بعد ذلك تواريخ لم يكن قد وقَّفت عليها عند شروعه فى تأليفه، فقَيَّره بأجمعه وألَّفه تأليفًا ثانيًا. وبعد انتقاله إلى أنطاكيا تحصَّلت له تواريخ جديدة أخرى فأضاف إليه وغيَّر ما ألحقه به وقرَّر الأمر على هذه النسخة الأخيرة^٥.

^١ ابن سعيد: المغرب ٢٥٢ والنجوم الزاهرة ٥٤-٥٧؛ المقرئى: اتعاظ الحنفا ٢: ١٢٠.

^٢ ياقوت: معجم الأديباء ١٧: ٢١٢؛ القفطى: إنباه الرواه ٤٦: ٤٧.

^٣ نشره الأب لويس شيخو اليسوعى سنة ١٩٠٩، انظرها هامش رقم ٣ ص ٢٢.

^٤ Historie de Yahya b. Said, *Patr.Or.* 18 (1924). p. 705.

^٥ *Ibid.*, p. 708.

ورغم أن وفاة يحيى بن سعيد كانت في سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م، فإن تاريخه لا يتعدى بحال عام ٤٢٥هـ/١٠٣٤م. وهو يهتم فيه خاصة بمصر والشام والدولة البيزنطية، وقليلًا ما يهتم بالعراق. وقد اعتمد يحيى في تاريخه -بالإضافة إلى المصادر الإسلامية- على مصادر يونانية ومسيحية وجدها في أنطاكيا^١.

واهتم بهذا الكتاب -الذي لم يكن معروفًا حتى النصف الأول للقرن التاسع عشر الميلادي- علماء كثيرون^٢، ولكننا لم نَظْفِرْ بطبعة كاملة له إلا في سنة ١٩٠٩ بفضل جهود الأب لويس شيخو اليسوعي^٣. ولكن هذه الطبعة، وإن سَدَّتْ فراغًا في المكتبة التاريخية، جاءت مليقة بالأخطاء وكانت في حاجة إلى مراجعة واستكمال لأصول الكتاب الخطية. وقد قام بهذا العمل كراتشكو فسكى وفازلييف حيث قاما بنشر قسم من الكتاب مع ترجمة فرنسية تنتهى بحوادث سنة ٤٠١هـ/١٠١١م^٤، ثم أتمته فرنسواز ميشو وجيرار تروبو^٥؛ وأعد له مؤخرًا عمر عبد السلام تدمرى نشرة كاملة.

أما أهم المؤلفات الفاطمية المتقدمة فهي تلك الحوَلِيَّات المتعلقة بالخمسين عامًا الأولى من حكم الفاطميين في مصر التي وَضَعَهَا الأمير المختار عَزَّ الْمَلِكُ محمد بن عبيد الله بن أحمد بن عبد العزيز المُسَبِّحِي (٣٦٦-٤٢٠هـ/٩٧٦-١٠٢٩م)^٦. وهي مذكرات يومية للفترة التي عاصرها وتُمَثِّلُ قيمةً كبيرةً بالنسبة للنصف الثاني من خلافة العزيز بالله وكل

^١ Canard, M., *EI*². art. *al- Antâkî* I, p. 532

^٢ *Histoire de Yahya*, p. 701

^٣ Annales Yahya ibn Said Antiochienis dans *Corpus Scriptorum Orientalium*, Scriptores arabici, Series III, t. VIII, 1909

^٤ «Histoire de Yahya ibn Said d'Antioche» éd. Kratchkowsky et Vasiliev dans *Patr.Or.* t. XVIII (1924), 699- 833; t.XXXIII (1932) pp.347- 504

^٥ Paris 1998

^٦ انظر ترجمته عند ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (قسم مصر) ٢٦٤ - ٢٦٧ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤:

٣٧٧: الصفدى: الوافى بالوفيات ٤: ٨؛ المقرئ: المقفى الكبير ١٦٣:٦-١٦٥:١؛ Brock., *GAL* I (408), *SI* ١٦٥-١٦٣:٦؛ *EI*². art. *Musabbihî* VII, 650-51

خلافة الحاكم بأمر الله والسنوات الخمسة الأولى لخلافة الظاهر لإعزاز دين الله. وعنوان هذا العمل هو «أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطوائفها وخراجها وما بها من البقاع والآثار وسير من حلّها وحلّ غيرها من الولاة والقضاة والأئمة والخلفاء» ويقع في نحو ثلاث عشرة ألف ورقة. ولا نعرف اليوم من هذا الكتاب الهام إلا الجزء الأربعين منه وهو محفوظ في مكتبة دير الإسكوريال بأسبانيا برقم 534^١ ويحوى بقية أخبار سنة ٤١٤ هـ ثم أخبار سنة ٤١٥ هـ^٢. ويبدو أن طول الكتاب وصعوبة مراجعته لمن يطلب مادة سريعة، يجعل من الصعب الاحتفاظ بمخطوط كامل منه، وإن كان يُظن أن قسماً كبيراً من الكتاب كان موجوداً عند أشخاص مختلفين في عصر المقرئ.

ويعطينا المستبجى في كتابه معلومات دقيقة عن طبقات الشعب المختلفة وجزءهم وأعمالهم حتى إن ابن حجر العسقلاني وصفه بأنه «من أعرف الناس بالمصريين لاسيما من عاصره»^٣؛ كما ذكر كثيراً من الأزمات الاقتصادية التي تعرّض لها المصريون في وقته والتي أرجعها لانخفاض منسوب النيل الذي أدى إلى نقص الغلال وارتفاع أسعارها وتعدّد الحصول على الخبز.

والكتاب مصدر هام للتعرف على رُشوم الخلافة الفاطمية ونُظُمها في بداية العصر الفاطمي، وما يزيد من قيمة هذه المعلومات أن المؤلف نفسه كان حاضراً ومشاركاً في بعضها، ويبدو أنه ذكر في الأجزاء الأولى - بتفصيل أكثر - ما جاء موجزاً في الجزء الذي وصل إلينا من الكتاب. والكتاب بالإضافة إلى ذلك مصدر ذو قيمة كبيرة لدراسة الأدب المصري في أوائل العصر الفاطمي في مصر. ولم يُقصر المستبجى كتابه على مصر فقط، بل تعرّض لعلاقتها مع الدول المجاورة لها والتي ارتبطت بها ارتباطاً مباشراً كالشام والحجاز.

^١ نشرت هذا الجزء بالاشتراك مع المستشرق الفرنسي تيارى يانكى بعنوان «الجزء الأربعون من أخبار مصر» وصدر عن

المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية بالقاهرة ١٩٧٨ م.

^٢ ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر ١٠٠.

وترجع أغلب النقول التاريخية عن هذا الكتاب عند المتأخرين إلى الفترة الواقعة بين سنتي ٣٧٥هـ/٩٨٥م و٤١٥هـ/١٠٢٥م^١.

ب- المُستَنصِر بالله

تُمثِّل فترة حكم المُستَنصِر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م) مرحلة انتقالية في تاريخ الحكم الفاطمي في مصر. فشهد عَهْدُهُ نهاية عصر القوة وسيطرة الخلفاء أو العصر الذهبي للدعوة الإسماعيلية المُوَحَّدة، وبداية ازدياد نفوذ الوزراء العسكريين واستبدادهم بالأمر وضعف الخلفاء، إضافة إلى التحرُّر من بعض أصول المذهب الإسماعيلي مما أدَّى إلى سقوط دولتهم في النهاية.

وَصَلَ إلينا وَضُفان متعاصران لفترة حكم المستنصر بالله الطويلة، أحدهما والخلافة مازالت في قُوَّتِها، والآخر بعد أن بدأت مظاهر الضعف تَدُبُّ في أوصالها. الأوَّل هو رحلة الرَّحالة الفارسي الشهير ناصر خُشرو «مَفْرُزَنامَة» التي تقع حوادثها بين سنتي ٤٣٧-٤٤٤هـ/١٠٤٥-١٠٥٢م. بدأ ناصر خُشرو رحلته من مَرَزُو في بلاد خُرَاسان مارًّا بأذَرَبَيجان وأرمينية وبلاد الشام وفلسطين حتى وَصَلَ إلى مصر التي عاد منها إلى بلاده عن طريق الحجاز وَتَجَدَّ وجنوب العراق ثم انتهى إلى مدينة بَلُخ في خُرَاسان^٢.

^١ نشرت ما وجدته من نقول عن المسيحي عند المتأخرين بعنوان: «نصوص ضائعة من أخبار مصر للمسيحي»، مجلة حوايات إسلامية ١٧ (١٩٨١) ٣-٥٥.

^٢ كتب ناصر خسرو رحلته بالفارسية ونقلها إلى الفرنسية المستشرق الفرنسي شارل شيفر، Charles Schefer، *Relation du Voyage de Nasiri Khosrau*, Paris 1881 ثم نقلها إلى العربية يحيى الخشاب ونشرت مرتين في القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦ ثم في بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٧٠؛ ونقلها إلى الإنجليزية=

زار ناصر نحشرو مصر في المرحلة الثانية من رحلته التي بدأها في ٧ صفر سنة ٤٣٩هـ واستمرت إلى أواخر جمادى الثانية سنة ٤٤٢هـ (١٠٤٧-١٠٥٠م). وَصَفَ ناصر نحشرو المدن المصرية التي مرَّ بها ابتداءً من المدخل الشمالي لمصر حتى وصل إلى القاهرة والقُسطاط وَضَفًا دَقِيقًا، حتى إن وَضَفَهُ ليوم فَتَحَ الخَليج يُعَدُّ أوفى وَضَفٍ مباشر وَصَلَ إلينا لهذا العيد^١. وَأُعْجِبَ ناصر باستِباب الأمن والهدوء في مصر ولا حظ أن أهل الذِّمَّة لا يلقون اضطهادًا في ظِلِّ حُكْم المستنصر بالله، وَظَنَّ أن الفضل في ذلك وفي رخاء مصر راجعٌ إلى المذهب الإسماعيلي وأن هذا المذهب كَفِيلٌ بِإِنقاذ العالم الإسلامي. ويبدو أنه كان مبالغًا ومتعصبًا للمذهب الإسماعيلي حينما غالى في الثناء على مصر وتمجيدها، فقد كانت هذه طبيعته في بقية الكتاب، فهو يصف مثلًا أبا العلاء المعري وَمَقَرَّة الثُّغَمَان وَضَفًا يختلف تمامًا عما أجمعت عليه المصادر الأخرى^٢!

كَتَبَ ناصر نحشرو رحلته بعد عودته إلى خراسان مباشرة بعد أن غاب عنها سبع سنوات. ويبدو أن نَصَّ الرحلة الذي وَصَلَ إلينا ناقصٌ اختصره بعض الثُّنَاخ عن أصل أطول منه.

الكتاب الثاني الذي وَصَلَ إلينا من عَهْد المستنصر هو «سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله الشيرازي»، وهي ترجمة ذاتية كتبها هذا الداعي الإسماعيلي الكبير يُقَدِّم لنا فيها صورةً دقيقةً صادقةً لما كانت عليه مصر في وقته، فحرص على أن يُسَجِّل أحداث عصره التي لعب فيها دورًا كبيرًا دون مداراة أو مواراة لحاكم، ودون أن يتأثر بالمؤثرات الدينية التي يملها عليه منصبه كداعٍ للدعاة^٣.

^١ = تاكستون Thackston, W.M., Nâser-e Khosrow's Book of travels (Safarnama), Albany ny 1986.

^٢ .Azim Nanji, *El*². art Nâsir-i Khusrow VII, 1007- 1009.

^٣ ناصر نحشرو: سفرنامه (ط. بيروت) ٩٣ - ٩٧.

^٤ نفسه ٤٥-٤٦.

^٥ نشرها محمد كامل حسين في القاهرة - دار الكاتب المصري ١٩٤٩؛ وعن المؤيد في الدين انظر Poonawala,

. I.K., *El*². art al-Mu'ayyad fil Din VII, pp. 272-73.

بدأ المؤيّد في الدين سيرته من سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م وانتهى فيها إلى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٩م. والقسم الأهم من هذه السيرة هو الخاص بالدور الذي قام به المؤيّد لتمهيد الطريق للدعوة الفاطمية في بلاد العراق وإقامة الدّعوة للإمام الفاطمي على منابر بغداد سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م عن طريق مؤازرة القائد أبي الحارث أوتلان البساسيري. وأدّى ما جاء في هذا الكتاب من إشارات إلى ضَعْف مركز الإمام (الخليفة) الفاطمي وتلاعب كبار رجال الدولة به - الأمر الذي يسيء إلى عقيدة الإمامة عند الإسماعيليين - إلى حرصهم على ستر هذا الكتاب رغم أنه لا يلم بعقائد الإسماعيليين إلّا إلمامًا يسيرًا، فلم ينتفع به الباحثون إلّا منذ فترة قريبة عندما نشره في القاهرة عام ١٩٤٩ المرحوم الدكتور محمد كامل حسين.

ويرجع إلى هذه الفترة أهم مصدر ذَكَرَ ذخائر قصور الفاطميين وما خَرَجَ منها أيام السُّدّة العُظمى، أعنى كتاب «الذخائر والتَّحَف» الذي نُشِرَ منسوبًا إلى القاضي الرُّشيد بن الزُّيَير، أبي الحسن على بن إبراهيم المتوفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م^١ ولكن هذا الكتاب مازلنا إلى الآن نجهد اسم مؤلّفه الذي كان موجودًا بمصر في سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م واهتم اهتمامًا خاصًا بذكر «ما أُخْرِجَ من خزائن قصر الإمام المستنصر بالله في أيام الفِتنَةِ في سنة ستين وسنة إحدى وستين وأربعمائة». وهذا الكتاب من أهم مصادر المقرئ في كتابيه «الخطط» و«الانعاظ» نَقَلَ عنه في أحد المواضع بقوله: «وقال في كتاب «الذخائر والتحف وما كان بالقصر من ذلك» وهو جُمع بعض المصريين مجهول المصنف وفيه فوائد جمة ومنه نقلت»^٢. وذكر ابن مُيَسَّر أنه رأى مجلدًا يجيء في نحو عشرين كُراسًا فيه ذكر ما خَرَجَ من القصر الفاطمي من التحف والأثاث والثياب والذهب

^١ نشره محمد حميد الله وصدر في الكويت - سلسلة التراث العربي ١، ١٩٥٩.

^٢ المقرئ: مسودة المواقظ والاعتبار ١٤١.

وغير ذلك^١، وربما كان هذا المجلد هو نفسه كتاب «الذخائر والتحف» الذي نُقِلَ عنه المقرئى تفاصيل ما أُخْرِجَ من خزائن القصر.

وهناك مصدر هام من نوع آخر لفترة حكم المستنصر خاص بانتشار الدعوة الإسماعيلية فى اليمن على يد الصليحيين، هو مجموعة «السجلات المستنصرية» المكوّنة من ستة وستين سيجلاً كَتَبَ بها المستنصر بالله إلى دُعائه فى اليمن^٢. وتُلَقَى هذه السجلات أضواء هامة على الفترة المتأخرة من حكم المستنصر بالله الطويل حيث نجد بها معلومات عن الأحداث التى جرت بمصر وبالبلاط الفاطمى فى هذه الفترة الهامة، وكذلك عن أحداث بعيدة عن مصر مثل دَعْوَةُ الْمُعِزِّ بن باديس فى إفريقية للعبّاسيين.

وَكَتَبَ أَبُو الْوَفَاءِ مُبَشِّر بن فَاتِك المتوفى نحو سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م^٣ «سيرة للخليفة المستنصر» ذكر ياقوت الحموى أنها تقع فى ثلاثة مجلدات لم تصل إلينا، فقد كان المُبَشِّر جَمَاعًا للكتب مكثًا على الاطلاع عليها مما أدّى إلى اشتغاله بها عن زوجته، كما كتب بخطه كتبًا كثيرة من مصنفات الأقدمين. فلما توفى نهضت زوجته وجوار لها إلى خزائن كتبه وجعلت تندبه وفى أثناء ذلك ترمى كتبه فى بركة كبيرة وسط الدار، وحملت الكتب بعد ذلك وقد غرق أكثرها^٤. ويبدو أن هذه «السيرة» قد غرقت فى هذا الوقت حتى إننا لا نكاد نجد أى نُقْل عنها عند المتأخرين.

^١ ابن ميسر: أخبار مصر ٣٧ (روعه المقرئى: اتعاط الحنفا ٢: ٢٩٦).

^٢ نشر بعض هذه السجلات حسين همدانى سنة ١٩٣٣، Hamdani, H., «The Letters of al Mustansir», pp. 306-12 BSOS VII (1933), ثم نشرها كاملة عبد المنعم ماجد، القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٥٤.

^٣ انظر ترجمته عند، القفطى: تاريخ الحكماء (ليتسج ١٩٠٣) ٢٦٩؛ ابن أبى أصيحة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (بولاق) ٩٨:٢-٩٩ عبد الرحمن بدوى: مقدمة كتاب ومختار الحكم ومحاسن الكلم له، مطرود - المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ١٩٥٨، ١٠-٥ (1960- Oriens 13-14)، Rosenthal, F., «Mubashshir ibn Fâtik», pp. 132-58 (61).

^٤ ياقوت: معجم الأدياء ٧٧:١٧.

^٥ ابن أبى أصيحة: عيون الأنباء ٩٩:٢.

وَكَتَبَ مُؤَلَّفٌ مَجْهُولٌ «سيرة للوزير اليازورى»- الذى وَزَّرَ للمستنصر بين سنتي ٤٤٢-٤٥٠هـ- نَقَلَ عنها المقرئى فى كتاب «الخطط» فى موضعين حول مسائل خراجية واقتصادية^١، كذلك نَقَلَ عنها ابن العديم الحلبي وقال: «جمعها بعض المصريين ولا أعرف اسمه»^٢.

ومن مصادر هذه الفترة الهامة التى لم تَصِلْ إلينا أيضًا كتاب «المختار فى ذكر الخطط والآثار» لأبى عبد الله محمد بن سلامة القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م قبل سِنِّ الشُّدَّةِ المستنصرية الذى اهتم فيه بذكر خِطَطِ مدينة القُشَطَاطِ التى كانت فى هذا الوقت مركز العلماء والتجار والحرفيين، وتَسَبَّبت سنوات الشُّدَّةِ فى ضياع أكثر ما ذكره من خِطَطِ القُشَطَاطِ وانتقال أهلها إلى القاهرة، حتى إن بدرًا الجمالى أباح للناس أن يعمروا ما شاء لهم فى القاهرة. ومن حسن الحظ أن مؤرِّخى القرن التاسع الهجرى القلقشندى والمقرئى وأبا المحاسن وَقَفُوا على هذا الكتاب ونقلوا عنه^٣.

ومن المصادر الهامة التى وصلت إلينا من هذه الفترة كتاب «دَفْعُ مضار الأبدان بأرض مصر» لعلى بن رِضْوَانِ الطيب رئيس أطباء مصر المتوفى سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م^٤. ويجلَّ هذا الكتاب ابن رِضْوَانِ رائدًا لطب الأمراض المتوطنة حيث وَجَّه فيه نقدًا شديدًا مُرًّا لأهل مصر وحاول رَبَطَ العيوب التى ذكرها عنهم بالظروف المناخية والجغرافية للبلاد. ومن أهم فصول هذا الكتاب الفصل السادس الذى جعله ابن رِضْوَانِ فى «اختصاص المدينة الكبرى بمصر فى هوائها وجميع أحوالها»، وقد اعتمد عليه كثيرًا مؤرِّخ مصر الكبير تقي الدين أحمد بن على المَقْرِئِى ونَقَلَ أغلبه^٥.

^١ المقرئى: الخطط ١: ٨٢، ١٠٩؛ السخاوى: الإعلان بالتاريخ، بغداد ١٩٦٣، ٥٥٣.

^٢ ابن العديم: بغية الطلب (مخ. أحمد الثالث) ٨: ٢١٦ ظ.

^٣ انظر أمّهن فؤاد سيد: مقدمة مسودة كتاب المواعظ والاعتبار للمقرئى ١١-١٣.

^٤ راجع عنه، سلمان قطاية: الطبيب العربى على بن رضوان رئيس أطباء مصر، تونس - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٤.

^٥ المقرئى: الخطط ١: ٣٣٩-٣٤٠، ٣٦٥-٣٦٦، وانظر: Meyerhof, M., «Climate and Health in

ج - المُستغلى إلى العاصِد

تُمثِّل هذه الفترة الثمانين عامًا الأخيرة من حكم الفاطميين في مصر والتي شهدت ازدياد نفوذ السلاجقة في الشام وبدء وصول الفِرْج إلى سواحله وتقلُّص ممتلكات الفاطميين فيه التي استولى عليها كلٌّ من الفِرْج والتورين. وفي الداخل بدأ بعد وفاة المستنصر انقسام الدعوة الإسماعيلية إلى مستعلية ووزارة ثم انقسام المستعلية إلى طَيِّبَة وحافظِيَّة، وتزايد نفوذ الوزراء العسكريين والتهاون في أصول الدعوة الإسماعيلية إلى أن سقطت الدولة في سنة ٥٦٧هـ/١٠٧١م على يد الأيوبيين السُّنَّين.

فمن أوائل مصادر هذه الفترة «الرسالة المصرية» التي كتبها نحو سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م أبو الصُّلت أُمَيَّة بن عبد العزيز الأندلسي^١ وسجَّل فيها ما شاهده وعايته في مصر وملاحظاته على أهلها في الفترة التي قضاها بها بين سنتي ٤٨٩هـ-٥٠٦هـ/١٠٩٦-١١١٢م في أثناء وزارة الوزير القوى الأفضَل شاهنشاه. وأشار فيها إلى أنه لم يجد من علماء مصر في الطب من يستفيد منه أو يستزيد بمذاكرته، وأن أكثر أطبائها المبرزين النصارى واليهود، كما ذكر أن المصريين هم أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعويلاً عليها، وذكر في نهايتها من لقيه من أدبائها وظرفائها وفضلائها وعلمائها وشعرائها وبعضهم غير معروف في كتب التراجم. واستفاد من هذه «الرسالة» ياقوت الحموي والعماد الأصفهاني في «الخريدة» والمقرئزي.

Old Cairo, according to "Ali Ibn Ridwan", *Congrès International de medecine tropicale et d'hygiene*, le Caire 1928, pp. 211-235 ونشره عبد المجيد دياب في الكويت - مكتبة ابن قتيبة ١٩٩٥.

^١ انظر عنه، ياقوت: معجم الأدياء ٥٢:٧-٧٠ ابن خلكان: وفیات الأعيان ١: ٢٤٣؛ ابن أبي أصيبعة: حيون الأنبياء ٥٢:٢؛ Brockelmann, *GAL* I 641, SI, 889؛ ونشر عبد السلام هارون «الرسالة المصرية» في مجلة «الكتاب»

سنة ١٩٤٧-١٩٤٨ ثم في «نواذر المخطوطات»، القاهرة - مكتبة الخانجي ١٩٥١، ٣:١-٥٦.

ومن مؤلفات هذه الفترة التي لم تصل إلينا كتاب «تاريخ خلفاء مصر» للقاضي المؤتضى أبى عبد الله محمد بن الحسن الأضرابلى المعروف بالمختك المتوفى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م^١. وهو أحد الذين تَوَلَّوْا نَظَرَ الدواوين والخزائن فى الدولة الفاطمية وانتهى فى «تاريخه» عند الخليفة الحافظ، ولكن لا نعرف فى أية سنة بالتحديد. وهو يحتوى على معلومات أصلية وقيمة لمرحلة ضاعت مصادرهما الأصلية. واعتمد على هذا «التاريخ» كل من ابن ميسر وابن ظافر الأزدي.

ونقل ابن ظافر الأزدي عن «سيرة للوزير الأفضل» لا نعرف مؤلفها الذى كتبها على الأرجح فى السنوات القليلة التى أعقبت وفاة هذا الوزير^٢.

وفى مدة خلافة القايد (٥٥٥-٥٦٧هـ) - آخر خلفاء الفاطميين - صنف أبو عبد الله محمد بن سعد القرطبي^٣ كتاب «تاريخ مصر» قدّمه للوزير شاور الشغدى (٥٥٨-٥٦٤هـ) واعتنى فيه بتاريخ مصر من أول ما عمرت إلى عصره، قال ابن سعيد، المؤلف الوحيد الذى نقل عنه: «وَقَفَّتْ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ النجم الزهحاني المعتنى باقتناء الكتب - رحمة الله عليه - وَتَيَّدَتْ مِنْهُ مَا أودعته هذا الكتاب من الآداب المنسوبة إليه»، ولم يتحقق من تاريخ وفاته. واستفاد المقرئى فى «الخطط» و«الاتعاض» من هذا التاريخ ولكن من خلال ما أورده عنه ابن سعيد المغربى^٤.

أما أهم مؤلفات هذه الفترة التى لم تصل إلينا أيضًا فكتاب «تاريخ» ابن المأمون، الأمير شرف الخلافة [المُلك] جمال الدين أبو على موسى بن الوزير المأمون أبو عبد الله محمد بن فاتك بن مختار البطائحي المتوفى بالقاهرة فى سادس عشر جمادى الأولى سنة

^١ ابن ميسر: أخبار مصر ١١٥٣ للمقرئى: اتعاض الحنفا ٣: ٢٢٣.

^٢ ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ٩٢.

^٣ ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب (قسم مصر) ٢٦٧-٢٦٨.

^٤ نفسه ٢٦٧.

^٥ للمقرئى: الخطط ٢: ٣٦٧، اتعاض الحنفا ١: ٢٩٧، ٢: ١٢٢.

٥٨٨/١١٩٢م^١. ويُمثِّل هذا التاريخ أهميةً كبيرةً للفترة الممتدة بين سنتي ٥٠١ و٥٣١ هـ بحيث يعتبر مصدرًا من الدرجة الأولى لفترة وزارة الوزير الأفضَل بن بدر الجمالي ووزارة المأمون البطائحي، وأيضًا للفترة اللاحقة على ذلك بما أن المقرئ ينقل عنه من أحداث سنة ١٢٥٣١ هـ ولكن يبدو أنه ارتبط بالذات بأحداث السنوات من ٥١٥-٥١٩ هـ التي تولَّى فيها والده المأمون البطائحي الوزارة للخليفة الأمر بأحكام الله، الأمر الذي يُمثِّر له النفاذ إلى الدواوين والاطلاع على الوثائق الرسمية، مما يُضفي على تاريخه أهمية كبيرة^٢.

ولا توجد نقولٌ عن هذا الكتاب سوى عند ابن مُثَيَّر وابن سعيد والثَّوَنِي بالإضافة إلى المقرئ الذي نَقَلَ عنه نقولًا مُطَوَّلَةً وأشار إلى اقتباسه عنه في ثلاثة وخمسين موضعًا. وهذا «التاريخ» أحد ثلاثة كتب استفاد منها المقرئ في «الحطَّط» بوجه خاص فيما يختص بالرسوم الفاطمية هو وكتاب «نَزْهَةُ الْمُقْلَتَيْنِ» لابن الطَّوْنَر وكتاب «الدُّخَائِرِ والتَّحْفِ» المجهول المؤلَّف، فعن طريقه استطاع المقرئ أن يصف لنا باستمرار تفاصيل الاحتفالات التي تُمَتَّ في فترة وزارة والده المأمون البطائحي في خلافة الأمر بأحكام الله (٥١٦-٥١٩ هـ).

ومن مصادر هذه الفترة التي لم تصل إلينا أيضًا كتاب مجهول المؤلَّف عنوانه: «أخبار الدولة المصرية وما جرى بين الملوك والخلفاء، والفِئَق والحروب من أيام الأمر إلى أيام شيركوه» وَقَف عليه المؤرِّخ ابن الفُرات وذكر أنه في مجلد^٣. ومن الممكن أن يكون

^١ المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك ١: ١١١ والحطط ١: ٤١١.

^٢ للمقرئ: الحطط ١: ١١١.

^٣ جُمِعَت النصوص المنسوبة إليه عند المؤلِّفين المتأخِّرين ونَشَرَتْها باسم «نصوص من أخبار مصر» لابن المأمون، القاهرة-

المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٨٣.

^٤ Cahen, Cl., BIFAO 37 (1937), p. 15; id., An. Isl. VIII (1969) p. 40

هذا الكتاب معروفاً لبعض المؤرخين المتأخرين إلا أن ذلك غير مؤكد، ويبدو أن ابن الفُرات نقله بطريقة شبه كاملة. ورغم أن هذا النص لا يضيف كثيراً إلى معلوماتنا التاريخية إلا أنه يعطى انطباعاً لا يرقى إليه الشك، على أن صاحبه كان معاصراً لوزارة الوزير ضرغام^١.

ونقل المقرئى هذا الجزء مُلخصاً في «الخطط»^٢ وحرقيقاً في «اتعاظ الحنفا»^٣ سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، وأغلب الظن أن المقرئى أخذ هذا النص المطبوع من «تاريخ» ابن الفُرات، فقد أطلع المقرئى على النسخة الوحيدة من تاريخ ابن الفُرات التى وصلت إلينا وهى بخطه ومحفوفة فى مكتبة فينا برقم ٨١٤ وعليها خط المقرئى وتوقيعه. ومن الممكن أيضاً أن يكون هذا النص قد عُرف لابن ميسر فى الجزء المفقود من كتابه.

ومن مصادر هذه الفترة الهامة التى وصلت إلينا هذه المرة كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» لتاج الرئاسة أمين الدين أبى القاسم على بن مُنْجِب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصَّيْزَفَى المتوفى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م^٤. وهو أول كتاب أُلِفَ عن الوزراء المصريين بدأه بذكر ابن كِلْس أول وزراء الفاطميين فى مصر وانتهى فيه إلى وزارة الوزير المأمون البطائحي (٥١٥-٥١٩هـ) وزير الخليفة الأمر بأحكام الله الذى أهدى له ابن الصَّيْزَفَى الكتاب^٥. ورغم أن ابن الصَّيْزَفَى عاش بعد ذلك اثنين وعشرين عاماً فإنه لم

^١ Cahen, Cl., *An. Isl.* VIII (1969) p. 28.

^٢ المقرئى: الخطط ١٢:٢-١٣.

^٣ المقرئى: اتعاظ الحنفا ٣:٢٦٤-٢٧١.

^٤ ابن ميسر: أخبار مصر ١١٣٨ المقرئى: اتعاظ الحنفا ٣: ١١٨٥. *Ibn* ١١٨٥. *Gamāl El-Din El- Shayyāl, El² art.* *al-Sayrafi III*, 950-57.

^٥ نشره عبد الله مخلص سنة ١٩٢٥ فى مجلة ١٩٢٥. pp. 49-70. *BIFAO* XXV (1925), pp. 49-112; XXVI (1926). ثم أعاد نشره كاتب هذه السطور مع كتاب «القانون فى ديوان الرسائل» للمؤلف نفسه، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٠.

يحاول أن يضيف إلى الكتاب بقية أخبار الوزراء الفاطميين في هذه الفترة. ولكن يمكننا استدراك هذا النقص عن طريق مصدرين أساسيين هما: «أخبار الدول المنقطعة» لابن ظافر الأزدي و«أخبار مصر» لابن مُيَسَّر إضافة إلى «نهاية الأرب» للتويري و«اتعاظ الخنفاء» للمقريزي اللذين اعتمدا على ابن مُيَسَّر ومصادر أخرى.

وكتبَ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١١٤٢م كتاب «تَلَقِيحُ الْقُحُولِ وَالْآرَاءِ فِي تَنْقِيحِ أَخْبَارِ الْجُلَّةِ الْوُزَرَاءِ» ذكر أنه استقصى فيه سير الوزراء ووزراء مصر بصفة خاصة، وللأسف فلم يصل إلينا هذا الكتاب^١.

ولأبي المحاسن يوسف بن تغري يزدى كتاب «الوزراء» - وهو من الكتب المفقودة - يقول عند ذكر وفاة الوزير الأفضل بن بدر الجمالي: «وخلف الأفضل من الأموال والنقود والقماش والمواشي ما يستحيا من ذكره كثرة. وقد ذكرنا ذلك في كتاب «الوزراء» وهو محل الإطناب في الوزراء وليس لذكره هنا محل»^٢.

وعاصر فترة خلافة الفاطميين المتأخرين ثلاثة من المؤرخين غير المصريين: اثنان من الشام هما ابن القلايسى وأسامة بن مُتَيْقِد، وواحد من اليمن هو عُمارَة اليمنى.

فكتبَ ابن القلايسى، أبو يَغْلَى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي^٣ المتوفى بعد سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م «ذيل تاريخ دمشق» انتهى فيه عند سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م متخذاً من مدينة دمشق محوراً للحوادث. وقد تولَّى ابن القلايسى رئاسة ديوان الإنشاء وديوان الخراج في ظلِّ دولة أتابكة دمشق مما أتاح له فرصة الاطلاع على وثائق الدولة ومعرفة سياساتها. وقد جعل كتابه ذَيْلاً على تاريخ هلال بن المحسن الصائبي الذي ينتهى

^١ المقريزي: الخطط ١: ٤٤٣، ٢: ٢٢٣.

^٢ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٥: ٢٢٢.

^٣ راجع عنه، أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ٥: ٣٣٢ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤: ١٧٤؛ Cahen, Cl., *El*

. art. *Ibn al-Kalānisi*, III, p. 838

إلى سنة ١٠٥٧/هـ ٤٤٨م، ولكنه أضاف معلومات كثيرة إلى الفترة التي أُرُخها الصابئ، وخاصة بين سنتي ٣٦٣ و٣٦٧هـ، ويحتوى الكتاب على تفاصيل هامة عن موقف خلفاء الفاطميين من أمراء الشام ومن الفِرَنج الذين وَصَلوا إلى سواحل الشام مع نهاية القرن الخامس الهجرى^١.

وسَجَّل أسامة بن مُتَيْقِد، أبو المظفر مؤيد الدين أسامة بن مُزَيْد بن علي بن مَقْلَد الشَّيْزَرى المتوفى سنة ٥٨٠/هـ ١١٨٥م^٢ - أحد فرسان هذا العصر الذى نشأ فى قلعة شَيْزَر وعمل فى بلاط أتابِكة دمشق ثم سافر إلى القاهرة - سَجَّل فى سيرته الذاتية التى سَمَّاها «الاعتبار» - وهى من أوائل السِّير الذاتية فى الأدب العربى - تفاصيل كثيرة عما كان يجرى فى البلاط الفاطمى منذ قدومه إلى القاهرة مع أهله سنة ٥٣٩/هـ ١١٤٤م وعلاقته بكل من الوزير عَبَّاس الصَّنْهَاجى وابنه نَصْر ودوره فى المؤامرة التى أدَّت إلى قتل الوزير ابن السُّلار والخليفة الظَّافِر^٣.

أما عُمارة اليمنى، نجم الدين أبو محمد عُمارة بن علي بن زَيْدَان الحَكَمى المتوفى سنة ٥٦٩/هـ ١١٧٣م^٤ أحد شعراء اليمن ومؤرخيها المشهورين، فقد قدم إلى مصر فى سنة ٥٥٠/هـ ١١٥٥م رسولاً من أمير مكة، فَمَدَح الخليفة الفائز ووزيره الصَّالِح طلائع

^١ نشره أَمْدُودُز فى ليدن سنة ١١٩٠٨ ثم نشره سهيل زَكَار فى دمشق سنة ١٩٨٣؛ وترجم جب حوادث السنوات ٤٩٠-٥٥٠ إلى الإنجليزية، Gibb, H.A.R., *The Damascus Chronicle 490- 555 of the Crusades*, London 1932؛ كما نقل ليونرو الحوادث من ٤٦٨-٥٤٩ إلى الفرنسية Le Tourneau, R., *Damas de 1075 à 1154 (468-549)*, Damas 1952.

^٢ ياقوت: معجم الأدياء ٥: ١٨٨-٢٤٥؛ العماد الأصفهاني: خريدة القصر (قسم الشام) ١: ٤٩٨-٥٤٧؛ ابن خلكان: وفیات ١: ١٩٠-١٩٩؛ الصفدى: الوافى ٨: ٣٧٨-٣٨٣.

^٣ نُقِشَها فَيَلِيب جُتَّى عن نسخة فريدة فى برنستون سنة ١٩٣٠ ثم نشرها قاسم السامرائى فى الرياض سنة ١٩٨٧؛ ولها ترجمات عديدة إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية والامباركية والبولندية.

^٤ انظر أمين تَوَاد سيد: مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى ١٠٨-١١٠.

وعاد بجواب رسالته، ثم رجع إلى مصر مرة أخرى واستقر بها وصار من جملة خُدام الدولة الفاطمية^١.

صَوَّرَ عُمَاةَ فِي كِتَابِهِ «الثَّكَّتُ الْقَضَرِيَّةُ فِي أَخْبَارِ الْوُزَرَاءِ الْمَصْرِيَّةِ» الْعَشْرِينَ عَامًا الْأَخِيرَةَ مِنَ الْحُكْمِ الْفَاطِمِيِّ فِي مِصْرَ تَصْوِيرًا وَاضِحًا، فَقَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَكْسِبَ ثِقَةَ وَزَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَمَدَحَهُمْ خَاصَّةً الصَّالِحَ طَلَّاحَ، وَأَتَدْنَا فِي كِتَابِهِ بِمَعْلُومَاتٍ هَامَةٍ عَنِ الْعَوَامِلِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَى سَقُوطِ الْخِلَافَةِ الْفَاطِمِيَّةِ فِي مِصْرَ^٢.

وَرَفَى عُمَاةَ الْيَمْنِيِّ الْفَاطِمِيِّينَ بِقَصِيدَةٍ مِنْ أَعْظَمَ مَا قِيلَ فِي رِثَاءِ الدُّوَلِ أَوَّلُهَا^٣:

رَمَيْتْ يَا ذَهْرُ كَفِّ الْمَجْدِ بِالشَّلَلِ وَجِيْدُهُ بَعْدَ حُسْنِ الْحَلَى بِالْعَطَلِ

د- كُتُبُ الْإِنْشَاءِ

اسْتَلْزَمَ الْعَمَلُ فِي دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ (الرِّسَالَتِ) الْفَاطِمِيِّ سَنَ قَوَاعِدَ وَنُظُمَ وَأَدَابَ تَتَّفَقُ وَرِسُومَ الدَّوْلَةِ يَلْتَزِمُ بِهَا مَنْ يَخْدُمُ فِي هَذَا الدِّيْوَانِ، مِمَّا تَطَلَّبُ وَجُودَ مَوْلَفَاتٍ تَكُونُ مَرَشِدًا لِكُتَّابِ الْإِنْشَاءِ. فَكُتِبَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ خَلْفِ بْنِ عَلِيٍّ عَبْدُ الْوَهَّابِ الْكَاتِبُ- الَّذِي لَا نَعْرِفُ عَلَى وَجْهِ التَّحْقِيقِ تَارِيخَ وَفَاتِهِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُوجُودًا فِي سَنَةِ ٤٣٧هـ/ ١٠٤٦م وَكَانَ مِنْ كِبَارِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ^٤- كِتَابُ «مَوَادِّ الْبَيَانِ» قَتْنٌ فِيهِ لِفَنِّ الْكِتَابَةِ بِوَجْهِ عَامٍ وَلِفَنِّ كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ بِوَجْهِ خَاصٍّ، وَيَعِدُ بِذَلِكَ أَوَّلُ مِنْ أَلْفٍ فِي هَذَا الْفَنِّ فِي مِصْرَ الْإِسْلَامِيَّةِ.

^١ ابن ميسر: أخبار مصر ١٥٤.

^٢ نشره هرتويج دوينبورج في شالون سنة ١٨٩٧.

^٣ انظر نص القصيدة عند ابن سميذ: النجوم الزاهرة ٩٨-١٠٠؛ أبي شامة: الروضتين ١: ٥٧٠، ٥٧١؛ ابن واصل: مفرج

الكروب ١: ٢١٢-٢١٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٥٢٦-٥٢٨؛ المقرئ: اتعاظ الخلفاء ٣: ٣٣٢-٣٣٤.

^٤ جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ١: ١١٤هـ.

فقد وَضَعَ على بن خَلَف في كتابه القوانين وَقَعَد القواعد التي يجب أن تُتَّبَع عند كتابة كل نوع من أنواع الرسائل والوثائق، كيف تبدأ وكيف يكون السياق فيها وكيف تُخْتَم، ويورد بعد كل قاعدة نماذج إيضاحية. ورغم أن القلقشندي لا يُعَدُّ على بن خَلَف بين كُتَّاب الإنشاء في الدولة الفاطمية، فالواضح أنه شَغَلَ هذه الرتبة فترةً طويلةً جعلته يؤلِّف كتابه «مَوَادِّ الْبَيَان»^١. ومن يُطَالع كتاب «صُبْح الْأَعَشَى» للقلقشندي يستطيع أن يلحظ أن هذا الكتاب من أهم مصادره عن ترتيب ديوان الإنشاء والمكاتبات في العصر الفاطمي الأول، ونَقَلَ عنه أمثلة كثيرة مقتبسة من أصولها تُوضِّح كيفية إنشاء مراسلات الخلفاء في ذلك الوقت.

ولا توجد من هذا الكتاب الهام سوى نسخة خطية واحدة محفوظة في مكتبة الفتح بإستانبول تحت رقم ٤١٢٨ كُتِبَ في القرن السابع الهجري تقريبًا. ويضم الكتاب في الأصل عشرة أبواب ولكن هذه النسخة تنقص البابين التاسع والعاشر اللذين يمكن استكمال أجزاء منها من عند القلقشندي في «صُبْح الْأَعَشَى»^٢.

وفي النصف الثاني للدولة الفاطمية كَتَبَ تاجُ الرِّئَاسَةِ أمين الدين أبو القاسم على بن مُثَنَّب بن سليمان المعروف بابن الصَّيْرَفِيِّ المتوفى سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م، السابق الإشارة إليه^٣ كتاب «القانون في ديوان الرسائل» وهو على صِغَر حجمه مصدرٌ من الدرجة الأولى للتعرف على الشروط التي يجب توافرها في موظفي ديوان الإنشاء وشُرح

^١ راجع Abd al-Hamid Saleh, «Une source de Qalqashandi *Mawāḍiʿ al-Bayān* et son auteur 'Alī b. Bonebakker, S.A., وكذلك الدراسة التي كتبها بونبيكر Halaf», *Arabica* XX (1973), pp. 192-200 «A Fatimid Manual for Secretaries», *AION* 37 (1977), pp. 295-337.

^٢ نشره حسين عبد اللطيف وصدر ضمن منشورات جامعة الفتح - طرابلس ١٩٨٢؛ كما نشر منه أقسامًا حاتم صالح الضامن في مجلة المورد العراقية اعتبارًا من المجلد ١٧ (١٩٨٨).

^٣ انظر فيما سبق ص ٥٠-٥١.

نظامه الداخلي يقول في مقدمته: «يُنْتَ الأَمْر فيه على ما يقتضيه حكم البلاد المصرية المتعارف فيها الآن دون غيره من الأوقات»^١.

ودراسة ألقاب الوزير الذي أهدى له ابن الصَّيْرَفِي هذا الكتاب تُثَبِّت أنه الوزير أبو على الأَفْضَل المعروف بِكُتَيْفَات الذي قاد انقلابًا تَوَلَّى في أعقابهِ السُّلْطَة في الفترة بين ذى القعدة سنة ٥٢٤هـ والمحرم سنة ٥٢٦هـ (١١٣٠-١١٣١م).

وللمقرئى مؤلَّف في التعريف بمن وَلَّى وظيفة الإنشاء في مصر الإسلامية، قال في تعليق له على كتاب «المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد عند ذكر أى منصور بِشْر بن سورين: «وقد ذكرته فيما أنا جامع من التعريف بمن وَلَّى وظيفة الإنشاء وكتابة السجلات في مصر إن شاء الله، يُسَرُّ الله إتمامه وأعان على تبييضه وكتبه أحمد بن على المقرئى لطف الله به»^٢ ولا ندرى إن كان المقرئى أتم هذا الكتاب ولم يصل إلينا أم أن الله لم يُسَرِّ له إتمامه.

المؤلَّفات المتأخِّرة

على عَضْر الفاطميين

تُمَثِّل المؤلَّفات المتأخِّرة قيمةً كبيرةً لتاريخ الفاطميين في مصر، فهي المؤلَّفات التي وَصَلَتْ إلينا كاملة تقريبًا، والتي نستطيع من خلالها القيام بدراسة تفصيلية لتاريخ الفاطميين في مصر. وتستمد هذه المؤلَّفات قيمتها من حفظها للمؤلَّفات المتقدِّمة التي

^١ نشره على بهجت في مصر سنة ١٩٠٥ ونقله إلى الفرنسية سنة ١٩١٤ هنرى ماسيه - Massé, H., «Ibn al-Çairafi: Code de la Chancellerie d'Etat», BIFAO XI (1914), pp. 65-120 ثم أعاد نشره كاتب هذه

السطور مع كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» للمؤلف نفسه وصدر عن الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة سنة ١٩٩٠.

^٢ من تعليق للمقرئى على نسخة كتاب «المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد (ابن سعيد: النجوم الزاهرة ٢٤٩ هـ).

ضاعت غنًا أغلب أصولها، وقد فُقدت كذلك المؤلفات التي كتبت في عصر الأيوبيين وتناولت تاريخ الفاطميين؛ وبذلك استمدت المصادر المملوكية قيمتها - بالنسبة لتاريخ الفاطميين - من أنها المصادر الوحيدة الجامعة لدراسة تاريخ هذه الفترة.

الفَترَةُ الأيوبيَّة

أهم مصادر هذه الفترة التي استقى منها المؤرِّخون المتأخرون أمثال ابن القرات والقلقشندى والمقريزى وابن تَقَرى يزدى القسم الأهم من معلوماتهم عن النُظُم والرُسُوم الفاطمية كتاب «نُزهة المُقَاتِلِينَ في أخبار الدولتين، الفاطمية والصلاحية» لابن الطُّونَر القيسراني، أبى محمد عبد السلام بن الحسن بن عبد السلام الفهري المصري الكاتب (٥٢٥-٦١٧هـ/١١٣٠-١٢٢٠م) الذى تَقَلَّبَ في الخدمة في الدواوين الفاطمية ثم الأيوبية، وتولَّى «ديوان الرُواتب» قرب نهاية العصر الفاطمى^١، وينتمى ابن الطُّونَر إلى نفس طبقة المؤلِّفين الإداريين الذين أُوكلت إليهم الحكومة وظائف الإشراف العُلَيا على الدواوين الإدارية في مصر في أيام الفاطميين والأيوبيين التي يتسبب إليها: ابن الصَّيَرَفى والقاضى المُرتَضَى بن الحُثُك والخزومى والنابلسى وابن تُمَاتى والقاضى القاضيل.

وكتب ابن الطُّونَر كتابه على الأرجح في زمن السلطان صلاح الدين (٥٦٧-٥٨٩هـ/١١٧١-١١٩٣م)، وقصَّد عمل مائِثبه الموازنة بين نظام الدولة الفاطمية الذى خبره جيِّدًا، ونظام الدولة الصَّلاحية، وهذا ما يُفَسِّر عنوان الكتاب. ولكن الغريب أننا لا نجد بين النقول التي حُفِظَت لنا عنه أية إشارة إلى نُظُم الدولة الأيوبية، فكل ما وَصَلَ

^١ المنرى: الكلمة لوفيات النقلة ٣: ٧-٨، الذمى: تاريخ الإسلام، الطبقة الثانية والستون، ص ٣١٦، الصندى:

الوافى بالوفيات ١٨: ٤١٧-٤١٨ Cahen, Cl., *El art. Ibn al-Tuwayr* III, 985 ومقدمة تحقيقى لكتاب

إلينا عنه يتعلّق بالدولة الفاطمية مما جعل المؤرّخ أبا المحاسن بن تَغْرِي يزدي يصفه بأنه «أَجْدَرُ بأخبار الفاطميين من غيره»^١.

ورغم الأهمية الكبيرة التي يُمثّلها كتاب ابن الطُّوَيْر لتاريخ الدولة الفاطمية في مصر فقد ظلّ غير معروف أو على الأقل غير متداول بين مؤرّخي دولة المماليك الأولى، فلا يشير إليه ابن مُيَسَّر أو التُّوَيْزِي أو ابن أَيْمَن الدَّوَادَارِي. ووجود بعض الاتفاق في سرد الأحداث بين هؤلاء المؤرّخين والنقول المحفوظة عن ابن الطُّوَيْر لدى المؤلّفين المتأخّرين ليست دليلاً كافياً للحكم بأن هؤلاء المؤرّخين عرفوا كتاب ابن الطُّوَيْر. ولكن مع نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أخذ اسم ابن الطُّوَيْر وكتابه «نُزْهَةُ الْمُتَلَقِّينَ» في الظهور في مؤلّفات كل من ابن الفُرات وابن خَلْدُون والقلقشندي والمقرئزي وأبي المحاسن.

والنقول التي حَفِظَتْ لنا عن ابن الطُّوَيْر - باستثناء بعض النصوص التاريخية - هي النصوص الوحيدة التي تصف لنا التفاصيل الدقيقة النموذجية للمواكب الاحتفالية للخلفاء الفاطميين وترتيب مجالسهم وأشْجِطَتهم التي كانت تُمَدَّد في المناسبات والمواسم المختلفة. وقَسَم ابن الطُّوَيْر كتابه إلى فصول لا نعرف عددها على وجه الدقة وإن كان المقرئزي قد ذكر لنا أسماء فصلين منها: الخامس عن «ركوب الفاطميين في المواكب العظام» والعاشر عن «ذكر هيئتهم في الجلوس العام بمجلس المُلْك». كما أن أغلب المادة التي سَجَلَهَا القلقشندي والمقرئزي عن دواوين الدولة الفاطمية وترتيب وظائفها وعن خزائن الفاطميين وحواسلهم وأهراءاتهم تَقَلَّها كذلك عن ابن الطُّوَيْر^٢.

^١ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٥: ٢٤١.

^٢ أعدت بناء هذا الكتاب من خلال المصادر المتأخرة بعنوان «نزهة المتلّين في أعياد الدولتين» لابن الطُّوَيْر وصدر في سلسلة النشرات الإسلامية التي تصدرها جمعية المستشرقين الألمان، بيروت - شتوتغارت ١٩٩٢.

والمصدر الثاني الهام الذى كُتِبَ فى العصر الأيوبي - هو مؤلفات المؤرخ الشيعي الحلي يحيى بن حميد بن ظافر بن الثَّجَار بن علي بن عبد الله المعروف بابن أبي طَيِّى (٥٧٥- نحو ٦٣٠هـ/١١٧٩- نحو ١٢٣٣م)^١. كانت مؤلفات ابن أبي طَيِّى مصدرًا هامًا لكل من أبي شامة وابن الفُرات والمقرئى. ولا نعرف الشيء الكثير عن ابن أبي طَيِّى سوى أنه كان يتَعَيَّش من نَسْخ الكتب، قال ياقوت إنه «يأخذ كتابًا قد أتعب العلماء فيه خواطرهم فيقدم أو يؤخر أو يزيد قليلًا أو يختصر، ويخلق له اسمًا غريبًا وينتقله انتحالًا»^٢ وعلى ذلك فإن كثيرًا من الكتب التى تُنسب إليه فى المصادر يصعب تحقيق نسبتها. وبما أنه لم يصل إلينا شيء من مؤلفاته التاريخية، فنحن نتمتع على ما نقله عنه المتأخرون أمثال أبي شامة الذى يرجع إليه باستمرار فيما يخص عصر الناصر صلاح الدين وينقل عن كتابه «كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين»، وابن خَلِّكان وابن الفُرات والمقرئى. ورغم أن الصَّفْدَى نَسب إليه كتابًا فى «تاريخ مصر» فإن القول الذى توجد عند ابن خَلِّكان والمقرئى الخاصة بمصر لا تُحدِّد تحديدًا دقيقًا عنوان كتبه. أما ابن الفُرات فهو الوحيد الذى سَجَّل عنوان كتابه وهو «معادن الذهب فى تاريخ الملوك والخلفاء وذوى الرُتب» ونَقَلَ عنه، وهو يوحى بأنه من ناحية تاريخ عام للعالم الإسلامى، ومن ناحية أخرى حوليات محلية لمدينة حلب مَسْقُط رأسه^٣.

ويُقدِّد كتاب «أخبار الدول المُتَقَطِّعة» لجمال الدين على بن ظافر الأزدى المتوفى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م^٤ من أهم مصادر دراسة الفترة الفاطمية، ويتفق مع «أخبار مصر» لابن مُيَسَّر فى كثير من المواضع. واعتمد عليه كثيرًا الثَّوَرى فى الأجزاء الضائعة من تاريخ ابن

^١ ابن شاکر: فوات الوفيات ٤: ٢٦٩-٢٧١؛ Cahen, Cl., «Une chronique chi'ite au temps des Croisades» dans *Comptes rendus des Séances de l'Académie des Inscriptions*, Paris 1935, pp. 258- 69; id., *EI*² art. *Ibn Abi Tayy* III, 715.

^٢ ابن شاکر: فوات الوفيات ٤: ٢٦٩.

^٣ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ١/٤: ٩٠.

^٤ ياقوت: معجم الأدياء ١٣/٢٦٤-٢٦٧؛ المنذرى: التكملة لوفيات النقلة ٢: ٣٧٦؛ الصَّفْدَى: الرافى بالوفيات ٢١: ١٥٨-١٦٦؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ١/٥: ٢١٧؛ Cahen, Cl. *EI*² art. *Ibn Zafir* III, 995.

مُيسَّر وعلى الأخص فيما يخص الفترة الإفريقية من التاريخ الفاطمي^١.

ولا يقل أهمية عن كتاب ابن ظافر كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، عزَّ الدين أبي الحسن علي بن محمد المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م^٢، فرغم أنه تاريخ عام للدولة الإسلامية خلال الستة قرون الأولى لها، فإنه لا يخلو من تفاصيل هامة عن تاريخ الدولة الفاطمية وعلى الأخص قرب نهايتها، وكذلك كتابه الآخر «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»^٣.

ومن أهم مصادر هذه الفترة التي تناولت تاريخ الفاطميين المتأخرين كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المتوفى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م^٤. وترجع قيمة المعلومات التي يقدمها أبو شامة عن الفترة الفاطمية المتأخرة إلى النصوص والاقباسات التي ضَمَّها بمهارة فائقة واستطاع أن يؤلف منها كتابًا تاريخيًا يعالج الفترة من العهد الثوري التي تبدأ حوالى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م إلى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م وهما الدولتان اللتان قصدهما بعنوان كتابه: الدولة النورية والدولة الصلاحية^٥.

واعتمد أبو شامة في الأساس فيما يخص أخبار الفاطميين على كل من أسامة بن مُتَيْقِد وعُصَامَة اليمنى والقاضى الفاضل وبصفة خاصة على تاريخ يحيى بن أبي طَیّ

^١ نشر أندريه فزبه André Ferré القسم الخاص بالفاطميين بعنوان أخبار الدول المنقطعة وصدر عن المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٧٢.

^٢ نشر كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير أكثر من مرة في أوروبا وفي مصر وفي بيروت.

^٣ نشره عبد القادر أحمد طليحات في القاهرة سنة ١٩٦٣.

^٤ الصفدى: الوافى بالوفيات ١٨: ١١٣-١١٦ (وماذكر من مصادر) Hilmy Ahmad, *El art. Abū Shāma*, I, 154.

^٥ طبع «كتاب الروضتين» لأول مرة في مصر في جزئين سنة ١٢٨٧هـ وأعاد نشر الجزء الأول في قسمين والقسم الأول من الجزء الثانى محمد حلمى محمد أحمد وصدر في القاهرة في سنوات ١٩٥٦، ١٩٦٢، ١٩٩٨.

المفقود، وزوّد كتابه بالكثير من الوثائق الأصلية التي أوردها في مواضع كثيرة لتوثيق تاريخه، مما يُضفي على كتابه قيمةً أخرى.

ولا يقل أهمية عن كتاب «الرؤصّتين» لأبى شامة، فيما يخص العشرين عامًا الأخيرة من تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، كتاب «مُفَرِّج الكرب في أخبار بنى أئوب» لابن واصل المحتوى، جمال الدين محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧هـ/١٢١٧م^١ الذى اعتمد تقريبًا على نفس مصادر أبى شامة.

وإذا كانت معلوماتنا عن التّظُم الاقتصادية في العصور الإسلامية المتقدمة قليلة، فقد وَصَلَ إلينا حول تُظُم الخراج والتّظُم المالية ثلاثة مؤلفات كتبت جميعها في زمن الدولة الأيوبية إلا أنها تحتوى على معلومات بالغة الأهمية عن التّظُم المالية للدولة الفاطمية.

أولها مصدر لا نظير له هو كتاب «المِثَاج في أحكام خراج مصر» أو «المِثَاج في علم الخراج» للمُخَزْمِي، القاضى السعيد ثقة الثقات ذى الرياستين أبى الحسن على بن القاضى المؤمن ثقة الدولة أبى عمرو عثمان بن يوسف القرشى الشافعى المصرى (٥١٢-٥٨٥هـ/١١١٨-١١٨٩م) صاحب التّظُر في ديوان مصر^٢. قال المقرئى عن المِثَاج «وهو كتاب جليل الفائدة» موضوعه وَصَف النظام المالى في مصر في آخر أيام الفاطميين وبداية الدولة الأيوبية.

ولم يُكشَف عن هذا الكتاب إلا حديثًا حيث توجد منه نسخة وحيدة في المكتبة البريطانية British Library برقم Add. 23483 تَوَفَّر على دراستها منذ أكثر من ثلاثين عامًا المستشرق الفرنسى الراحل كلود كاهن Claude Cahen (١٩٠٩-١٩٩١) وكتب عنها سلسلة من المقالات جَمَعَهَا سنة ١٩٧٧ في كتاب واحد بعنوان «مُخَزْمِيَّات-

^١ نشر جمال الدين الشيال الأجزء الثلاثة الأولى من الكتاب في القاهرة بين سنتي ١٩٥٣-١٩٦٠ ونشر حسنين محمد ربيع الجزئين الرابع والخامس بين سنتي ١٩٧٢ - ١٩٧٧ وباقى جزئان لم يصدرتا حتى الآن.

^٢ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧: ٢٢٧، 139، *Makhzūmī* VI, art. ٢، Cahen, Cl., *El*

دراسات في التاريخ الاقتصادي والمالي لمصر في العصور الوسطى^١، ثم نَشَرَ القسم الأهم من الكتاب في القاهرة سنة ١٩٨٦م^٢. ويرى كاهن أن للكتاب تأليفين: واحد انتهى منه المخزومي عام ٥٦٥هـ/١١٧٠م زمن الفاطميين والآخر كتبه عام ٥٨١هـ/١١٨٥م زمن الأيوبيين.

وللفصل الذي عقده المخزومي عن الضرائب المفروضة على التجارة الخارجية قيمة خاصة، فنحن لا نملك إلى الآن معلومات عن تجارة البحر المتوسط في مصر إلا عن طريق الأرشيف الإيطالي وفي الفترة بعد منتصف القرن السادس الهجري. وساعد المخزومي على دقة المعلومات التي أوردها حول جباية المكوس في ثَقَر الإسكندرية (الخُفُس الرومي) وضريبة الجزية (الجواشي) المفروضة على أهل الذمة أنه تولَّى ديوان المجلس أكثر من مرة في العصر الفاطمي، فقد كان من طبقة القضاة الذين كانت تكل إليهم الإدارة المصرية وظائف المراجعة العليا للأعمال.

والثاني كتاب «قوانين الدواوين» لابن تَمَّاتى، الأشعث أبى المكارم ابن مُهَذَّب الملقب بالخطير أبى سعيد المتوفى سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م^٣. كان وأبوه من أقباط مصر وأسلمَّا في صدر الدولة الأيوبية. تولَّى ابن تَمَّاتى «ديوان الجيش» للسلطان صلاح الدين و«ديوان الإقطاعات» ثم كان ناظرًا للدواوين بالديار المصرية.

صَنَّف ابن تَمَّاتى كتاب «قوانين الدواوين» للملك العزيز عثمان، يقول المقرئى: «يتعلَّق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجرى فيها وهو أربعة أجزاء

^١ Cahen, Cl., *Makhzûmiyyât - Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Égypte médiévale*, Leiden- Brill 1977

^٢ المتقى من كتاب المنهاج في علم خراج مصر للمخزومي، تحقيق كلود كاهن ومراجعة يوسف راغب، القاهرة - للمعهد العلمى الفرنسى ١٩٨٦.

^٣ ياقوت: معجم الأدياء ٦: ١٠٠-١٢٦؛ الصفدى: الوافى ٩: ١٩-٢٧؛ المقرئى: الملقى الكبير ٢: ٨٣-٨٧، Atiya، ياقوت: معجم الأدياء ٦: ١٠٠-١٢٦؛ الصفدى: الوافى ٩: ١٩-٢٧؛ المقرئى: الملقى الكبير ٢: ٨٣-٨٧، Atiya، A.S., *El² art. Ibn Mammâti* III, 886 - 87

ضخمة والذي يقع في أيدي الناس جزء واحد اختصره منه غير المصنف فإن ابن تَمَتَّى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانون رَئِيسُهَا ومتحصلها من غَينٍ وغلَّة^١. ولا يوجد الآن سوى مختصر الكتاب الذي أشار إليه المقرئى ولعل أهم أجزاء المختصر الذي وَصَلَ إلينا هو ذكر المعاملات السلطانية والجهات الديوانية التي عَقَدَ في أثنائها مقارنةً بين النظام الفاطمي والنظام الأيوبي^٢.

والثالث كتاب «لَمَعُ القَوَانِينِ الْمُضِيَّةِ فِي دَوَائِنِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ» للنابلسي، علاء الدين أبي عمرو عثمان بن إبراهيم بن خالد بن محمد القُرَشِي المتوفى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م^٣. ورغم أن النابلسي أَلَفَ كتابه سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥م في زمن سلطنة الصالح نجم الدين أيوب - أي قرب نهاية العصر الأيوبي - إلا أنه يَثلُ ابن تَمَتَّى كان يعقد دَوَماً مقارنةً بين ما كان يجري في وقته وما كان يجري في زمن المصريين (أي الفاطميين)^٤.

الْفَتْرَةُ الْمَفْلُوكِيَّةُ

لا تُمثَلُ مؤلفات هذه الفترة أيَّةُ أصالة لتاريخ الفاطميين في مصر، فمؤلفو هذه الفترة يكتبون عن حقائق تفصلهم عنها ما بين ثلاثة وخمسة قرون، ولكنها تستمد أهميتها - كما سبق أن ذكرت - من احتفاظها بنقولٍ مُطَوَّلَةٍ لأغلب المصادر المفقودة التي ذكرتها فيما سبق، فقد وَجِدَتِ نُسخٌ من هذه الكتب عند أفراد مختلفين في عصر المقرئى في منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي.

^١ المقرئى: المخطوط ٢: ١٦٠.

^٢ نشره عزيز سوريال عطية وصدر عن الجمعية الزراعية الملكية بالقاهرة سنة ١٩٤٣.

^٣ اليوناني: ذيل مرآة الزمان ١: ٥٠٤.

^٤ نشر هذا الكتاب كلود كاهن وكارل بيكر - Cahen, Cl. & Becker, C., «Kitab luma' al-Qawānīn al-mudīyya...», BEO XVI (1961).

ومع ذلك فإن واحدًا من هذه المؤلفات يُعَدُّ مصدرًا أصيلًا لدراسة تاريخ الفاطميين المتأخرين هو «أخبار مصر» لابن مَيْسَر، تاج الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن يوسف بن جَلَب رَاقِب المتوفى سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م^١. تذكر المصادر أن مؤلفه أراد أن يجعله كالذيل على كتاب «أخبار مصر» للمُسَبِّحِي ولكن بصورة أكثر تحديدًا من المُسَبِّحِي. وكما ضاع غنًا أغلب كتاب المُسَبِّحِي فإنه لم يصل إلينا من تاريخ ابن مَيْسَر إلا جزء وحيد غير تام وفي صورة مختصرة هي انتقاء لتقى الدين المقرئى آتَمه في سنة ٨١٤هـ/١٤١١م، بينما ذَكَرَ السَّخَاوِيُّ أن الكتاب كان كاملاً في وقته في مجلدين، أولهما عند المحب بن الأمانة، وثانيهما عند البدر الشاذلي^٢.

وتَزَجُّع أهمية هذا الكتاب إلى أنه كان المصدر الأساسي الذي استقى منه مؤرِّخو القرنين الثامن والتاسع للهجرة - وخاصة الثَوْرِيُّ والمقرئى - غالب معلوماتهم عن تاريخ الفاطميين المتأخرين. ومن السهل أن نحصل على المعلومات الناقصة من هذا الكتاب عن طريق ثلاثة مؤلفين، أولهما ابن ظايفر الأزدى الذي استخدم تقريبًا نفس المصادر التي استخدمها ابن مَيْسَر، والثاني شهاب الدين الثَوْرِيُّ المتوفى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م الذي اعتمد تمامًا على ابن مَيْسَر وهو يكتب تاريخ الفاطميين في موسوعته «نهاية الأرب في فنون الأدب» بما في ذلك الأجزاء التي لم تصل إلينا، وحرص على تسجيل فَضْل ابن مَيْسَر عندما ترجم له فقال: «كان فاضلاً وجمع تاريخاً لمصر وقد نَقَلْتُ عنه مواضع فيما سلف من كتابنا هذا»^٣. وتَتَبَّع الثَوْرِيُّ في سَرْد أخبار الفاطميين المتأخرين بدقة تاريخ ابن مَيْسَر - عدا الأخبار التي نَقَلَهَا عن ابن الأثير - حتى إنه يمكننا القول أن ابن مَيْسَر وَصَلَ

^١ النويرى: نهاية الأرب ٣٠: ٣٩١، الصفدى: الوافى بالوفيات ٤: ١٨٨، ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ٧: ١٢٧

المقرئى: المقفى الكبير ٦: ٣٩٥، *Et*² art. *Ibn* Cahen, Cl., *BIFAO* 37 (1937), pp. 24-25; id., *Muyassar* III, 918 ومقدمتى لأخبار مصر لابن ميسر بتحقيقى.

^٢ السخاوى: الإعلان بالتاريخ ٦٤٦.

^٣ النويرى: نهاية الأرب ٣٠: ٣١٩.

بكتابه إلى العصر الأيوبي، بل وإلى صدر دولة المماليك، وهو يشير إليه دائماً باسم «المؤرخ». أما الكتاب الثالث فهو «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء» للمقرئى الذى يتبع أيضاً رواية ابن ميثر ولكن دون أن يشير إليه صراحةً فى أغلب المواضع.

وَوَصَلَ إلينا «تاريخ» ابن ميثر فى مخطوطة واحدة عبارة عن انتقاء من الكتاب الأصيل عمله المقرئى سنة ٨١٤هـ/١٤١١م كتبت فى القرن الحادى عشر محفوظة فى المكتبة الوطنية بباريس برقم ١٩٨٨ تحوى فقط الحوادث من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٥٣هـ وسقطت منها حوادث السنوات ٥٠٢-٥١٤هـ التى استعيز عنها بنص مقحم لسدّ هذا الشقّ يحوى حوادث السنوات من ٣٦٢-٣٦٥ و٣٨١-٣٩٠هـ، وهى ليست من أصل الكتاب وإنما نُقِلَتْ عن ابن زولاق والمُسَبَّحى^١.

ويُعَدّ كتاب «وَقَايَاتُ الْأَغْيَانِ وَأَنْبَاءُ الزَّمَانِ» لابن خَلْكَانَ، شمس الدين أبى القباس أحمد بن محمد بن أبى بكر المتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م^٢، من أهم مصادر تاريخ الفاطميين - سواء فى إفريقية أو مصر أو الشام أو الحجاز - فرغم أن الكتاب كتاب تراجم إلا أن كثيراً من تراجمه نصوص تاريخية ذات قيمة كبيرة لاعتماده على مصادر أصلية كثيرة قَدِّد بعضها؛ حتى إن أبى المحاسن بن تَغْرَى يَزْدَى اعتمد عليه كثيراً - هو و سبط ابن الجَوْزَى والدَّهْبَى - وهو يكتب تراجم الخلفاء الفاطميين فى «النجوم الزاهرة»^٣.

^١ نشر الكتاب لأول مرة هنرى ماسيه H. Massé فى المعهد الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩١٩، ثم أعدت له نشرة محققة اعتماداً على مصادر جديدة خاصة «اتعاظ الحنفاء للمقرئى و«نهاية الأرب» للتبرى ونشرتها بعنوان «المتقى من أخبار مصر لابن مسير» وصدرت أيضاً عن المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٨١.

^٢ الصفدى: الوافى بالوفيات ٧: ٣٠٨-٣١٦؛ المقرئى: المقفى الكبير ١: ٦١٥-٦١٩، ومقدمة إحسان عباس لنشرة «الوفيات» فى الجزء السابع من الكتاب؛ Fuck, J., *El art. Ibn Khallikān III*, 856.

^٣ النشرة للمحملة للكتاب هى تحقيق إحسان عباس له فى ثمانية مجلدات بيروت - دار صادر ١٩٦٩-١٩٧٢.

أما كتاب «المغرب في حُلَى المغرب» لعلى بن موسى بن سعيد المغربي المتوفى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م^١، فأحد أشمل تواريخ مصر الإسلامية حتى عصره، واعتمد فيه على مصادر أصلية كثيرة بالنقل الكامل أحياناً وبالتلخيص أحياناً أخرى، فحفظ لنا بذلك نصوصاً هامة كاملة لابن الدّاية وابن زولاق بالإضافة إلى الرّوذباري وابن مُهذّب والقزطى وغيرهم. كذلك قدّم لنا ابن سعيد وصفاً مستفيضاً لمدينتي القُسطاط والقاهرة اعتمد عليه المقرئى كثيراً في «تخطيطه» حيث طالع النسخة الوحيدة التي وصّلت إلينا من الكتاب وسجّل عليها بخطه استفادته منها.

أمّ ابن سعيد تأليف كتابه في العشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة ٦٤٦هـ وأهداه لخزانة الصاحب كمال الدين بن العديم - صاحب تاريخ حَلَب - الذي يشرّ له الاستفادة من خزانة كتبه العامرة، كما كان هو نفسه كثير التردد على الزوّاقين بمصر وخبيراً بأسواق الكتب على عهده عارفاً بمواضعها^٢.

ويأتى في مقدمة مؤلّفات القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب التّونزى البكرى الشافعى المتوفى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م^٣. ويشتمل الجزء الثامن والعشرون من الكتاب على أخبار الفاطميين سواء فى إفريقية أو فى مصر اعتمد فيها فى الأساس - فيما يخص مصر - على ابن مُيَسّر إضافة إلى ابن الأثير، كما عَقَدَ فى الجزء الخامس والعشرين فصلاً عن انشقاق

^١ الصفدى: الوافى بالوفيات ٢٢: ٢٥٣ - ٢٥٩ للقرى: نفح الطيب (تحقيق إحسان عباس، بيروت - دار صادر

١٩٦٨) ٢: ٢٦٢-٢٩٠، *El² art. Ibn Sa'id al-Maghribi III, 950 - 951*. Pellat, Ch.

^٢ نُقِر الجزء الخاص بمدينة القُسطاط من الكتاب زكى محمد حسن وشوقى ضيف وسيدة إسماعيل كاشف، القاهرة - مطبعة جامعة قُواد الأول ١٩٥٣، ونُقِر الجزء الخاص بالقاهرة من الكتاب حسين نصار، القاهرة - مركز تحقيق التراث ١٩٧٠.

^٣ المقرئى: للمقنى الكبير ١: ٥٢١، ٥٢٢ الصفدى: الوافى ٧: ١١٦٥ ابن حجر: الدرر الكامنة ١: ٢٠٩،

Mounira Chapoutot-Remadi, El² art. al-Nuwayri VIII, 158-92.

القرامطة على الحركة الإسماعيلية المبكرة اعتمادًا على كتاب الشريف أخى محسن الدمشقى^١.

ويشتمل الجزء السادس من كتاب «كنز الدرر وجامع الغرر» لأبى بكر عبد الله ابن أيتك الدوادارى المتوفى بعد سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م على عرض كامل لتاريخ الدولة الفاطمية اعتمادًا على الكثير من المصادر الأصلية^٢. وتتميز كتاب «تاريخ الدول والملوك» لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على الخنقى المعروف بابن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م^٣ باعتماده على مصادر فاطمية أصلية لم تصل إلينا مثل «نزهة المقلتين» لابن الطوفى وتاريخ يحيى بن أبى طى^٤. كذلك فإن كتاب «صحيح الأعشى فى صناعة الإنشاء» للقلقشندى، أحمد بن على بن أحمد الفزارى المتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م^٥ أحد أهم الكتب التى نمتدنا بمعلومات على قدر كبير من الأهمية عن نظم ورؤسوم القصر الفاطمى وأدب الكتابة الديوانية فى زمن الفاطميين اعتمادًا على المصادر الأصلية وعلى وثائق مستمدة من الأرشيف الفاطمى نفسه^٦. ولا يقل أهمية عنه كتاب «التجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» لأبى المحاسن يوسف بن تفرى يردى المتوفى سنة

^١ الجزء الثامن والعشرون بتحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٩٢ والجزء الخامس والعشرون بتحقيق محمد جابر عبد المال الحينى، القاهرة ١٩٨٤.

^٢ نشره صلاح الدين المنجد بعنوان «الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية»، القاهرة - المعهد الألماني للآثار ١٩٦٠.

^٣ ابن حجر: ذيل الدرر الكامنة (تحقيق عدنان درويش، القاهرة - معهد المخطوطات العربية ١٩٩٢) ١٦٣-١٦٤؛ السخاوى: الضوء اللامع ٨: ٥١؛ *Ibn al-Furāt III*, 792, *El²*, Cahen, Cl.

^٤ نشر حسن الشجاع بعض الأجزاء المتعلقة بتاريخ الفاطميين المتأخرين الجزء الرابع فى قسمين فى البصرة سنى ١٩٦٧

- ١٩٦٩م والقسم الأول من الجزء الخامس فى بغداد سنة ١٩٧٠ ويمكن مراجعة بقية الكتاب فى المخطوطة الوحيدة

الباقية من الكتاب بخط المؤلف والمخطوطة فى مكتبته الدولة بغينا برقم ٨١٤.

^٥ السخاوى: الضوء اللامع ٢: ٨؛ المقرئى: السلوك ٤: ٤٧٣، ٤٧٤؛ أبو المحاسن: المنهل الصافى ١: ٣٥١، ٣٥٢؛

Bosworth, C.E., *El²* art. *al-Kalkashandi IV*, 531, 33 ونسخة من الأساتذة وأبو العباس القلقشندى وكتابه

صحيح الأعشى، القاهرة ١٩٧٣.

^٦ نشرته دار الكتب المصرية فى أربعة عشر مجلدًا، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩م.

٨٧٤هـ/١٤٧٠م^١ الذي اعتمد على كثير من المصادر المصرية المتقدمة مثل مؤلفات ابن عبد الظاهر وابن الطونز إضافة إلى بعض المصادر الشامية والعراقية مثل مؤلفات ابن الجوزي وسيبط ابن الجوزي والذهبي وابن خلكان^٢.

أما أهم مؤلفات عصر المماليك التي خفطت لنا تاريخاً كاملاً للأسرة الفاطمية منذ نشأتها في إفريقية وحتى سقوطها في مصر، فمؤلفات شيخ مؤرخي مصر الإسلامية تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م^٣ الذي اعتمد تقريباً على جميع المصادر السابق الإشارة إليها سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، وعلى الأخص في ثلاثة كتب: «المواعظ والاعتبار» و«أعماظ الحنفا» و«المقفى الكبير».

فكتاب «المواعظ والاعتبار» في ذكر الخطط والآثار هو بإجماع آراء الباحثين أهم كتاب في تاريخ مصر وجغرافيتها وطبوغرافية عاصمتها في العصر الإسلامي. عُرِف فيه المقرئ تعريفًا مفصلاً بكل ما يتصل بمسقط رأسه القاهرة، بحيث لم يترك أثراً أو مؤسسة إلا وصفها بدقة متناهية مع الإشارة إلى الحوادث الهامة التي اقترنت به وحياة الأمراء والكبراء الذين باشروا بناءه. ويحتل تاريخ مصر في عصر الفاطميين والمنشآت الدينية والحربية والمدنية التي أنشئت فيه نحو نصف الكتاب، اعتمد فيه المقرئ على

^١ السخاوي: الضوء اللامع ١٠: ٣٠٥-٣٠٨؛ Popper, W., *El² art. Abū l-Mahāsīn I*, 142.

العلماء «المؤرخ ابن تفرى بردى»، القاهرة ١٩٧٤.

^٢ نشرته دار الكتب المصرية بالقاهرة في اثني عشر جزءاً بين سنتي ١٩٢٩-١٩٥٦، ثم نشرت الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة بقية الكتاب في أربعة أجزاء بين سنتي ١٩٧٠-١٩٧٢م.

^٣ ابن حجر: إنباء الغمر ٤: ١٨٧-١٨٨؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي ١: ٤١٥-٤٢٠؛ السخاوي: الضوء اللامع ٢: ٢١-٢٥؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: «أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن علي المقرئ وكتابه»، عالم الفكر - الكويت ١٤ (١٩٨٦) ٤٥٣-٤٩٨؛ Garcin, J.-Cl., *El² art. al-Makrizi VI*, 177-78; Rosenthal, F. «Al-Maqrizi, un historien encyclopédique au monde afro-orientale», *Les Africains IX* (Paris 1978), pp. 197-223. ومقدمتي لمسودة كتاب المواعظ والاعتبار للمقرئ، لندن ١٩٩٥، ٣٥-١٩٩.

ولمجموعة من الباحثين «دراسات عن المقرئ»، القاهرة ١٩٧١.

مصادر لم تصل إلينا فحفظ لنا بذلك نقولاً ذات شأن للمؤلفين القدماء الذين قُيِّدَتْ مؤلفاتهم اليوم^١.

وكتاب «أعطاء الحُفَّاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء» هو أشمل كتاب تناول تاريخ الدولة الفاطمية منذ قيامها في إفريقية وحتى سقوطها في مصر، اعتمد فيه المقرئ على جميع المصادر الخاصة بتاريخ هذه الدولة والتي وَصَلَتْ إلى علمه وَوُجِدَتْ منها نُسخٌ في وقته. وبذلك فإن كتابه هذا وسائر كتبه تعد معيّنًا لا يُنْضَب بالمعلومات عن الفاطميين في مصر بصفة خاصة. وهذا الكتاب لم يكن معروفًا منه إلّا قسمه الأول فقط الذى ينتهى بخلافة العزيز بالله في نسخة بخط المقرئ محفوظة في مكتبة غوطا Gohha بألمانيا تحت رقم ١٦٥٢ وتُشَرِّ مرتين في لبيتسج سنة ١٩٠٩ بتحقيق Hugo Bunz ، ثم في القاهرة سنة ١٩٤٨ بتحقيق جمال الدين الشيال رحمه الله. وكان للمستشرق الراحل كلود كاهن فضل اكتشاف نسخة كاملة من هذا الكتاب في سنة ١٩٣٦ محفوظة في مكتبة أحمد الثالث بإستانبول تحت رقم ٣٠١٣، لم يستفد منها استفادة كاملة إلّا بعد اكتمال نشرها في ثلاثة أجزاء في مصر سنة ١٩٧٣م^٢.

أما كتاب «المُقَفَّى الكبير» فهو أهم كتب التراجم المصرية مثله مثل «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي و«تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر. ترجم فيه المقرئ للعلماء والأدباء والشعراء والقضاة والسلاطين والأمراء... إلخ الذين عاشوا في مصر أو قدموا إليها منذ الفتح العربى وحتى أواسط القرن الثامن الهجرى. وللأسف الشديد فإن هذا

^١ نشر في بولاق في جزعين عام ١٨٥٣، ونشر جاستون فيت قسما من الكتاب في خمسة أجزاء، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية ١٩١١ - ١٩٢٧، ونشر كاتب هذه السطور «مسودة كتاب المواقف والاحبار في ذكر الخطوط والآثار»، لندن - مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ١٩٩٥.

^٢ الجزء الأول بتحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٧، الجزء الثانى والثالث بتحقيق محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧١-١٩٧٣م.

الكتاب لم يصل إلينا كاملاً وإنما وصل إلينا منه أربعة أجزاء بخط المقرئى Autographe جزء فيه بعض حرف الطاء والظاء وحرف العين موجود فى المكتبة الوطنية بباريس برقم 2144، وثلاثة أجزاء بها بعض تراجم الهمزة وتراجم من حرفى الكاف واللام وأسماء المحدثين محفوظة فى مكتبة ليدن بهولندا تحت رقم 1366 وجزء خامس يشتمل على الحروف من الألف إلى الخاء منقول عن مَسْوَدَة المقرئى محفوظ فى المكتبة السليمية (برتف باشا) بإستانبول تحت رقم ٤٩٦، بالإضافة إلى جزء من مَسْوَدَة المؤلّف كُثِفَ عنه حديثاً واقتنته مكتبة ليدن بهولندا بحوى بعض الحروف الموجودة فى نسخة السليمية وحروفاً أخرى تُكْمِل الأجزاء الموجودة فى نسختى باريس وليدن.

وتشتمل تراجم الرجال الذين عاشوا فى العصر الفاطمي فى هذا الكتاب على معلومات جديدة حول تاريخ هذه الفترة لا نجدُها فى «الاعتاظ» أو «الخطط»^١.

المَصَادِرُ غَيْرُ الإِسْلَامِيَّةِ

هى المصادر التى كَتَبَهَا أَهْلُ الذِّمَّةِ الذين عاشوا فى مصر الإسلامية، وتختلف هذه المصادر عن المصادر الإسلامية باهتمامها بتفاصيل وأحداث لا يتطرق إليها المؤلّفون المسلمون، كما أنها تهتم برِبط الحوادث التاريخية بسيّر آباء الكنيسة القبطية فى مصر وذكر أسماء المؤظفين الأقباط الذين تولّوا مناصب إدارية أو مالية، وموقف الحكومات الإسلامية منهم وكذلك ردود أفعالهم عليها. وهى بذلك تعكس لنا العلاقات الدينية والاجتماعية والثقافية القائمة بين المجتمع القبطى وسائر المجتمع المصرى الإسلامى، وتعد من هذا الجانب مصدراً إضافياً هاماً لمصادر التاريخ المصرى عموماً.

^١ نشره فى ثمانية أجزاء محمد البتلاوى ومصدر فى بيروت عن دار الغرب الإسلامى سنة ١٩٩١.

يأتى فى مقدمة هذه المصادر «تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي» السابق الإشارة إليه^١. ثم كتاب «تاريخ بطاريكة الكنيسة المصرية» المعروف بـ «سير البتية المقدسة» المنسوب لساويرس بن المقفع والذي يعد الكتاب التاريخي الرئيس للكنيسة القبطية المدون باللغة العربية^٢.

ويتكوّن هذا «التاريخ» من سلسلة من سير البطاريكة مقسّمة إلى العديد من الأقسام والفصول. وفي خلال هذا العرض نجد وصفًا لمختلف الأحداث التي تخص التاريخ الكنسي والسياسي والاجتماعي من وجهة نظر تعكس الموقف الرسمي للكنيسة القبطية بما أن المؤلفين الذين تولّوا كتابته كانوا في العموم من الدائرة القريبة من البطاريكة أنفسهم. وهذا النص الذي وصل إلينا هو نتاج تقليد طويل في الكتابة التاريخية، حيث سجّل المؤلفون الأقباط في فترات مختلفة تاريخ كنيستهم وبلدهم، وكان كلّ منهم يكمل عمل سابقه، وكتب أول هؤلاء المؤلفين باللغة القبطية ولكن متممى هذا التاريخ ابتداءً من النصف الثاني للقرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كتبوا باللغة العربية. وبذلك فإن «تاريخ بطاريكة الكنيسة» يعدّ تأليفًا عربيًا مبنيًا في الأساس على أعمال مُبكرة لمؤلفين أقباط وأتمه ابتداءً من القرن الخامس الهجري مؤرّخون أقباط متأخرون باللغة العربية^٣.

ويتكوّن «تاريخ البطاريكة» في الشكل الذي وصل إلينا من قسمين أساسيين: تاريخ باللغة العربية يعتمد في الأساس على السير التي وجدّها مؤهوب بن منصور بن مفرّج الإسكندراني الشّمس في الحرم سنة ٤٨٠ هـ/ أبريل سنة ١٠٨٧ م في كلّ من دير السيدة

^١ انظر فيما سبق صفحة ٣٩-٤٠.

^٢ راجع مؤلّفًا: Johannes Den Heijer, *CI art. History of the Patriarchs of Alexandria IV*, pp. 1238-
1242; Aziz S. Atiya, *CI art. Sawirus Ibn al-Muqaffa'* VII, pp. 2100- 2102

^٣ Den Heijer, J., «Coptic Historiography in the Fatimid, Ayyubid and Early Mamluk Periods»
. *Medieval Encounters* 2/1 (1996), pp. 70-71

بَتهيا (اثني وأربعين بطرُكًا من ماري مرقص الإنجيلي إلى سيمون)، ودير الشهيد الجليل تادرس على المنهى بأبلاج (أربعة بطاركة من الاكسندروس إلى خايال)، وفي دير نَهايا أيضًا (تسعة بطاركة من أنبا مينا إلى شنودة) ثم وَجَدَ في دير أبي مَقَار (سيرة عشرة بطاركة من خايال إلى سانوتيوس) فَتَسَخَّها بخطه ثم بدأ في التذييل عليها مبتدئًا بسيرة الأب خريسطودولوس البطرُك السادس والستين الذي جَلَسَ على الكرسي البطريركي سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م^١.

وسَيَّرَ البطارِكة التي كَتَبها بنفسه مؤهوب بن منصور بن مُفَرِّج باللغة العربية مباشرة وهي سيرة كل من البطرُك خريسطودولوس والبطرُك كيرلس الثاني، وتلك التي كَتَبها مؤلفون متأخرون في القرنين السادس والسابع للهجرة/الثاني عشر والثالث عشر للميلاد بعد أن نسخوا السِّير التي كتبها سابقوهم بأنفسهم مضيفين الأحداث التي جَرَت في زمانهم^٢.

ويُعَدُّ القسم الذي كَتَبه مؤهوب بن منصور بن مُفَرِّج والذي بدأ في تسجيله في آخر خلافة المستنصر ووزارة بدر الجمالي مصدرًا هامًا للتاريخ السياسي والاجتماعي لخلافة المستنصر وعلى الأخص للسنوات التي أعقبت وصول بدر الجمالي إلى قمة السلطة في مصر. أما الفترة التالية لذلك فقد كَتَبها يوحنا بن صاعد بن يحيى بن مينا المعروف بابن القلُزمي^٣ نحو سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م أثناء انقلاب الوزير أبي علي الأَفْضَل كُثَيْفَات. وَكَتَبَ مُوقَص بن زُرْعَة- الذي أصبح البطرُك الثالث والسبعين- سِير الآباء من غُبريال

^١ ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٢: ١٦٠-١٦١، وراجع عن منصور بن موهوب Den Heijer, J., 1989 *Mawhûb Ibn Mansûr Ibn Mufarrig et l'Historiographie Copto-Arabe*, Lovanii.

^٢ Den Heijer, J., *Coptic Historiography*, pp. 71-72.

^٣ ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/٢: ١٨٧، ٢٢٩، ٢٣٢، ١/٣: ٧.

ابن تريك إلى يُوحنا بن أبي الفتح (٥٢٦-٥٦٢هـ/١١٣١-١١٦٦م) وقد عاصر بنفسه سقوط الخلافة الفاطمية واستيلاء الأيوبيين على السلطة^١.

ونُشرت «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية» المنسوب لساويرس بن المقفع أُشَقِفَ الأَشْمُونَيْنِ جمعية الآثار القبطية بالقاهرة مع ترجمة إنجليزية بعناية يَمْسَى عبد المسيح وعزيز سوربال عطية وأسولد برمستر وأنطون خاطر في ثلاث مجلدات بين سنتي ١٩٤٨ و ١٩٧٤. والكتاب المهم الثاني بين المصادر غير الإسلامية المعاصرة للفترة الفاطمية هو كتاب «تاريخ الكنائس والأديرة» الذي نُشره Evetts في أكسفورد سنة ١٨٩٥ عن نسخة المكتبة الوطنية في باريس رقم 357 منسوباً إلى من يُدعى أبا صالح الأرمني^٢. وهو كتاب يشتمل على وَصْف طُبوغرافي لكنائس وأديرة مصر المهمة ومواضعها مُوزَّعة جغرافياً، وكل مدخل من مداخله يشتمل على وصف للموضع وفي بعض الحالات على ذكر لبعض الأحداث المرتبطة به. وفي سنة ١٩٨٤ نُشر الراهب صموئيل السرياني نشرة جديدة للكتاب اعتبر فيها القسم الذي نشره Evetts الجزء الثاني للكتاب بالإضافة إلى جزء أول وجزء ثالث. الجزء الأول يشتمل على كنائس وأديرة الوجه البحري وقسم من القاهرة، والجزء الثاني يشتمل على كنائس وأديرة قسم من القاهرة والوجه القبلي وتناول باختصار بعض المواضع خارج مصر، أما الجزء الثالث فيتناول سيناء وبلاد الشام والعراق والأناضول وروما^٣.

^١ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ١/٣ : ٣٧.

^٢ *The Churches and Monasteries of Egypt and some Neighbouring Countries attributed to Abu Salih the Armenien*, edited and translated by B.T.A. Evetts, with added notes by Alfred J. Butler, Oxford. Clarendon Press 1895

^٣ تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي لأبي المكارم الذي نسب خطأ إلى أبي صالح الأرمني، إعداد وتعليق الراهب صموئيل السرياني، (٤ أجزاء)، مصر - دير السريان ١٩٨٤.

اعتمد صموئيل السرياني في نشرته على مخطوطة جديدة نَسَخَهَا بيده وعلّق عليها ولم يذكر مصدرها كما لم يقدم لها وَضْعًا كوديكولوجيًا، وكان الجهد الذي قَدَّمته هذه النشرة هو تحديد مؤلّف هذا الكتاب الحقيقي وهو شخص غير معروف أيضًا يُدعى الشيخ المؤمن أبو المكارم مَعْد الله بن جِرْجِس بن مَشْغود؛ أما أبو صالح الأزْمَنِي الذي تُسَبِّب إليه الكتاب فليس إلّا مالك الجزء الثاني من النسخة المحفوظة في باريس، وكتب أبو المكارم مَعْد الله القسم الأساسي من الكتاب بين سنتي ٥٥٥هـ/١١٦٠م و٥٨٣هـ/١١٨٧م، ثم أتمّه بعده مجموعة من المؤرخين^١.

واستقرت المخطوطة التي اعتمد عليها الراهب صموئيل السرياني الآن في Bayerische Staatsbibliothek في ميونيخ برقم ٢٥٧٠، وكانت قبل ذلك في ملك أحد أقباط طنطا هو جرجس فلثاؤس عوض وكتب عنها توفيق إسكاروس مقالاً نشره سنة ١٩٢٦م^٢. كما أن على باشا مبارك عرف هذه المخطوطة واطّلع عليها واستفاد منها كثيرًا في الجزء السادس من كتابه «الخطط التوفيقية الجديدة»، يقول عند حديثه عن كنيسة حارة زُوَيْلَة: «قد ذكر المؤمن أبو المكارم مَعْد الله بن جرجس في مجموع له يَنْ فيه كنائس القاهرة والجهات البحرية في أواخر الجيل الثاني عشر للمسيح»^٣.

وإذا كانت هذه المصادر وثيقة الصِّلَة بتاريخ الأقباط في مصر في العصر الفاطمي فإن «أوراق جنيزة القاهرة» Cairo Geniza Documents - التي كتبها اليهود المقيمون في حوض البحر المتوسط بين القرنين الخامس والثامن للهجرة - تعد من أهم مصادر هذه

^١ راجع حول هذا الكتاب ومؤلفه Aziz S. Atiya, *CEart. Abū al-Makārim* I, 23 & *Abū Sālīb* I, 33 Den Heijer, J., «The Composition of the History of the Churches and Monasteries of Egypt: Some Preliminary Remarks», in S.D.W. Johnson ed., *Acts of the Fifth International Congress of Coptic Studies*, Roma 1993, II/1, pp. 209-219; Zanetti, U., «Abul Makārim et Abu Sālīb», *BSAC* XXXIV (1995), pp. 85-138.

^٢ Iscarus, T. «Un nouveau manuscrit sur les églises et monastères de l'Egypte au XII siècle» dans *Congrès International de Gographie*, Avril 1925, Le Caire 1926, V, pp. 207-208.

^٣ على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة: ٦: ٧٤ (٢١٦)، ٧٥ (٢١٩)، ٧٦ (٢٢٠)، ٧٧ (٢٢٤)، ٧٨ (٢٢٦)، ٧٩ (٢٢٩).

الفترة وخاصة بالنسبة للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى وما يخص تجارة الهند. و«الجنيزة» كلمة عبرية مأخوذة عن نفس الأصل الفارسى والعربى «جنازة»، وهى تعنى مكاناً دُفِنَتْ فيه أوراقٌ مستهلكةٌ حتى لا يُدَنَسَ اسم الله الذى يمكن أن يكون فيها^١. وأرى أنها ربما حُرِّفَتْ عن كلمة «كنز» العربية خاصةً وأن المقصود بها هو جِفظ أوراقٍ أياً كانت أهميتها.

و«الجنيزة» فى جوهرها مُستَوْدَعٌ للأوراق المستهلكة المكتوبة باللغة العربية ولكن بحروف عبرية- وهى الكتابة التى كان يستخدمها اليهود فى بلاد العالم الإسلامى البحر أوسطية فى هذا الوقت- وتتصل هذه الأوراق فى الأساس بالنشاط الاقتصادى لليهود بين بعضهم البعض، وتشتمل على أوراق أسرية وغير أسرية تتعلق بالمعاملات التجارية مثل بيع منازل أو ممتلكات عامة أو تأجيرها وإيصالات بشلف أو قروض وعقود الزواج (وعادة ما يصحبها بيان يُوضِّح قِطْعَ الجهاز الذى تحضره القروس) وقسائم الطلاق والإيجارات والأسعار والمقايضات والهبات، بالإضافة إلى مئآت الأوراق التى تحوى التماسات وشكاوى petitions مرفوعة إلى الشُّلُطات. واكتشفت هذه الأوراق المهملة فى نهاية القرن الماضى فى سيناجوج بِنْ عِدْزَة اليهودى بالفُسطاط وكذلك فى مقابر اليهود بالبساتين جنوب القاهرة، وذلك عندما هُدمَ المعبد اليهودى وأعيد بناؤه فى سنتى ١٨٨٩، ١٨٩٠؛ ويظن جويتين أن مجتمعات اليهود التى انتشرت فى مصر فى العصر الإسلامى من قوص والفيوم جنوباً وحتى مدن الدلتا شمالاً لا بد وأنها تركت لها أيضاً «جنيزات» قد تكشف عنها الحفائر. وعُزِفَت الأوراق التى وجدت بهما طريقها إلى خارج مصر وسَعَتْ إلى شرائها مكتبات أوروبا والولايات المتحدة المختلفة. وفى سنة ١٨٩٧ حمل سلومون شِشْتَر Salomon Schechter أكبر كمية من هذه الأوراق إلى مكتبة جامعة كمبردج Cambridge وكَوَّنَ بها مجموعة Taylor-Schechter الشهيرة حيث توجد أكبر مجموعة من هذه الأوراق فى هذه المكتبة (ما يزيد عن مائة ألف ورقة) وكذلك فى مكتبة البودليانا بأكسفورد، وتوجد الآن تسع عشرة مكتبة عالمية معروفة تحتفظ

^١ Goitein, S.D., *El*² art. *Geniza* II, p.10 .

بوثائق الجنيزة، وإن كان من الجائز أنه توجد مجموعات أخرى يمتلكها أفراد^١.

ورغم صدور هذه الأوراق عن أوساط اليهود فإنها تمدنا بمعلومات عن كثير من الأنشطة المتعلقة بغير اليهود، وتُقدِّم لنا صورةً للمجتمع اليهودي الذي كان يعيش في مدن حوض البحر المتوسط فيما بين القرنين الخامس والثامن للهجرة/ الحادى عشر والرابع عشر للميلاد. ولا تقف أهمية هذه الأوراق عند الطائفة اليهودية وحدها بل تمتدّها إلى كل المجتمع الذي تمايشت معه هذه الطائفة، خاصة وأن الفترة الفاطمية لم تعرف الـ Ghetto الدينى أو الحرفى، وبذلك فإن المعلومات التى نعرفها عن أحد فئات هذا المجتمع يمكن اعتبارها صالحة للتعرف على بقية فئاته. ميزة أخرى لهذه الأوراق هى احتواؤها على وثائق أصلية مكتوبة باللغة العربية صادرة عن ديوان الإنشاء أو غيره من الدواوين، تَسَوَّيت بطريقة أو بأخرى إلى أيدي اليهود الذين استخدموا ظهورها أو المساحات الشاغرة فيها فى كتاباتهم المختلفة^٢.

وتوفّر على دراسة هذه الأوراق عالمٌ يهودى أمريكى هو البروفيسير شلومو دوف جويتين Shelomo Dov Goitein (١٩٨٥ - ١٩٠٠) الذى كتب سلسلة طويلة من المقالات والدراسات الاقتصادية الخاصة بتجارة الهند اعتمادًا على هذه الأوراق ابتداء من خمسينيات هذا القرن^٣، ثم كتب مؤلفًا ضخماً فى خمسة مجلدات عن مجتمع اليهود فى البلاد العربية المطيلة على البحر المتوسط كما تُصَوِّرُهُ أوراقُ جَنِيْزَةِ القاهرة صدر فى الفترة بين سنتى ١٩٦٧ - ١٩٨٩ وأعدت له بولاساندرز Paula Sanders كشافاً صدر سنة ١٩٩٥ م^٤.

^١ طلباً لمقدمة شاملة عن هذه الأوراق راجع، Goitein, S.D., *A Mediterranean Society*, University of California Press 1967, I, pp.1-28.

^٢ انظر Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents in the Cambridge Genizah Collections*, Cambridge 1993.

^٣ أعاد جويتين نشر عدد من هذه المقالات فى كتابه Goitein, S.D., *Studies in Islamic History and Institutions*, Leiden-Brill 1966 ونَقَلَ قَسْماً منها إلى العربية عطية القوصى بعنوان «دراسات فى التاريخ

الإسلامى والنظم الإسلامية»، الكويت ١٩٨٠.

^٤ انظر ثبت المصادر والمراجع.

الوضع الزاين للدراسات

الفاطمية والإسماعيلية

بدأ الاهتمام بالدراسات الفاطمية والإسماعيلية على أيدي المستشرقين منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر، وكان رائد هذه الدراسات أبو الاستشراق الفرنسي سيلفستردى ساسى Silvestre de Sacy (١٧٥٨-١٨٣٨) بكتابه *Exposé de la religion des Druzes*, Paris 1938 وزميله إيتيان كاترمير Etienne Quatremère (١٧٨٢-١٨٥٢) بمقاله المَطُول JA «Mémoire historiques sur la dynastie des Khalifes fatimites», 94-145, 400-459, 165- 208 (1836). ثم تبعهما المستشرق الألماني فرديناند وستنفلد Ferdinand Wüstenfeld (١٨٠٨-١٨٩٩) بكتابه «تاريخ الخلفاء الفاطميين» *Geschichte des Fatimiden Chalifen*, Gottingen 1881. وفي سنة ١٨٨٦ نشر المستشرق الهولندي ميخائيل جان دي خوية M. J. de Goeje (١٨٣٦-١٩٠٩) أول دراسة عن قرامطة البحرين والفاطميين *Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides* [Mémoires d'histoire et de géographie orientales n°1] Leiden-Brill 1886 ثم أعقبها في عام ١٨٩٥ بمقاله عن نهاية إمبراطورية القرامطة «La fin de l'empire des Carmathes», JA série 9, v (1895) 5-30.

وفي مطلع القرن العشرين أخذت الدراسات الخاصة بتاريخ الفاطميين تتوالى فنشر جاكوب مان Jacob Mann دراسته عن «اليهود في مصر وفلسطين زمن الخلافة الفاطمية» *The Jews in Egypt and Palestine during the Fatimid Caliphate*, Oxford 1920، وكتب بعده بثلاث سنوات دي لاسى أولبرى كتابه «تاريخ موجز للخلافة الفاطمية» *A Short History of the Fatimid Caliphate*, O'leary, de Lacy,

London 1923 . أما أول دراسة علمية اشتملت على بحث تام مُفصّل عن الدولة الفاطمية وأسباب قيامها وسقوطها، وأعمالها السياسية والدينية وكذا نظام الحكومة والإدارة ومواردها المالية اعتمادًا على المصادر الأصلية التي كانت معروفة وقت كتابتها فكتاب حسن إبراهيم حسن (١٨٩٢-١٩٦٨) «الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص»، القاهرة ١٩٣٢، وهو في الأصل موضوع رسالته للدكتوراه التي تقدّم بها إلى جامعة لندن سنة ١٩٢٨؛ وقد أضاف حسن إبراهيم حسن إلى هذا الكتاب وعدّل فيه وصدر في القاهرة سنة ١٩٥٨ بعنوان «تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب». وكتب كذلك زاهد على (١٨٨٨-١٩٥٨) كتابًا باللغة الأوردية عن الدولة الفاطمية في مصر عنوانه «تاريخى فاطميينى مصر»، حيدرآباد ١٩٤٨ وكراتشى ١٩٦٣.

ولم تصدر بعد ذلك أية كتابات مستقلة عن تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، فيما عدا ما كتبه عبد المنعم ماجد (١٩٢٠-١٩٩٩) بعنوان «ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر- التاريخ السياسى»، الإسكندرية ١٩٦٨ ؛ ومحمد جمال الدين سرور (١٩١١-١٩٩٢) أولًا بعنوان «مصر في عصر الدولة الفاطمية»، القاهرة - الألف كتاب ١٩٦٠، ثم بعنوان «الدولة الفاطمية في مصر- سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها»، القاهرة ١٩٧٠، وكتب جميع هذه الدراسات قبل الاكتشافات الحديثة للمصادر الفاطمية والإسماعيلية الجديدة . وأخيرًا الطبعة الأولى من كتابى هذا «الدولة الفاطمية في مصر- تفسير جديد»، القاهرة ١٩٩٢ . كما كتب إبراهيم رزق الله أيوب دراستيه «التاريخ الفاطمى السياسى» و «التاريخى الفاطمى الاجتماعى»، بيروت - الشركة العالمية للكتاب ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ دون أن يتعرّف على المصادر الجديدة أو الدراسات الحديثة المتخصصة حول التاريخ الفاطمى .

وعرّض ماريوس كانار Marius Canard (١٨٨٨-١٩٨٢) بطريقة ملائمة نتائج الدراسات والأبحاث السابقة بما فيها دراساته فى مقاله الشامل عن «الفاطميين» فى الطبعة

الثانية من دائرة المعارف الإسلامية *EI² art. Fatimides II, 875-882* ، وضُمّت نفس الدائرة المقالات التي كتبها كل من M. Canard, S. Stern, F. Dachraoui وغيرهم عن الخلفاء الفاطميين ووزرائهم.

كذلك قدّم محمد عبد الحّي شعبان تفسيره لتاريخ الفاطميين من خلال دراسته للفترة بين سنتي ١٣٢-٤٤٨ هـ في كتابه *Shaban, M. Ab., The Islamic History* ١٩٧٦ (A.D. 750 1055 (A. H. 132- 448). *A New Interpretation*, Cambridge 1976 . وفي إطار كتابة تاريخ عام لمصر من الفتح العربي إلى الفتح العثماني مازال ما كتّبه جاستون فييت Gaston Wiet (١٨٨٧-١٩٧١) في كتابه *L'Egypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane*, Paris 1937 يحتفظ ببعض الأصالة.



وفيما يخص تاريخ الحركة الإسماعيلية فإن دراسات المستشرق الروسي فلاديمير إيفانوف Wladimir Ivanow (١٨٨٦-١٩٧٠) مازالت هي الأساس لأية دراسات أخرى وعلى الأخص *Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids*, London 1942; id., *Brief Survey of the Evolution of Ismailism*, Leiden 1952 بالإضافة إلى مقاله الشامل عن «الإسماعيلية» الذي كتبه في ملحق الطبعة الأولى لدائرة المعارف الإسلامية *EI¹ art. Ismā'iliya, Suppl. pp. 105-109* . وكتب برنارد لويس سنة ١٩٤٠ عرضًا واضحًا ومثيرًا للجدل حول أصول الإسماعيلية *Lewis, B., The Origins of Ismacilism : A Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphate*, Cambridge 1940 ، وإن كانت النتائج التي توصل إليها تعرّضت للدحض من جانب إيفانوف في كتابه «المؤسس المزعوم للإسماعيلية» *Ivanow, W., The*

Alleged Founder of Isma'ilism, Bombay 1946. كما كَتَبَ محمد كامل حسين (١٩٠١-١٩٦١) - وهو أحد الباحثين العرب القلائل الذين تخصصوا في الدراسات الإسماعيلية - رسالةً مُرَكَّزَةً عن تاريخ الحركة الإسماعيلية بعنوان «طائفة الإسماعيلية - تاريخها، نظمها، عقائدها»، القاهرة ١٩٥٩. وحَدَّثَ ويلفرد مادلونغ هذه المعطيات في مقاله عن «الإسماعيلية» في الطبعة الثانية لدائرة المعارف الإسلامية، Madelung, W., *ET*² art. *Ismā'iliya* IV, 206- 215.

ونلاحظ بوضوح التمييز بين تاريخ الدولة الفاطمية والمذهب الإسماعيلي فيما كتبه كلُّ من كانار (عن الفاطميين) ومادلونغ (عن الإسماعيلية)، وكذلك فيما كتبه برنارد لويس Bernard Lewis عن تفسير التاريخ الفاطمي «An Interpretation of Fatimid History», CIHC وما كتبه صمويل شتيرن S. Stern (١٩٢٠-١٩٦٩) عن القاهرة كمركز للحركة الإسماعيلية، «Cairo as the Centre of the Isma'ili Movement», CIHC pp. 437- 50. وبالطبع فإن هناك دراساتٍ متعدِّدة عن تاريخ الحركة الإسماعيلية وعقائدها كتبها كل من بول كراوس Paul Kraus (١٩٠٤-١٩٤٤) وهنرى كوربان Henri Corbin (١٩٠٣-١٩٧٨)، ولويس ماسينيون Louis Massignon (١٨٨٣-١٩٦٢)؛ إضافة إلى ما كتبه مؤلفون إسماعيليون مثل مصطفى غالب (١٩٢٣-١٩٨١) صاحب كتاب «تاريخ الدَّعْوَةِ الإسماعيلية»، بيروت ١٩٦٦ وعارف تامر صاحب كتاب «تاريخ الإسماعيلية»، ١-٤، لندن- رياض الريس ١٩٩١، وهى كتب يغلب عليها الطابع الدعائى. أما الكتب ذات الطابع الأكاديمي والبحثي بين مؤلفات الإسماعيليين التى اعتمدت على مخطوطات كانت محفوظة لفترة طويلة فى مجموعات خاصة غير متاحة فى اليمن والهند وآسيا الوسطى ولم تستخدم فى البحث العلمى قبل ذلك، فهى دراسات حسين بن قَيْصُ الله الهَمْدَانِي Husayn F. Hamdani (١٩٠١-١٩٦٢) وعَبَّاس هَمْدَانِي Abbas Hamdani وإسماعيل بوناولا Ismā'il Poonawala،

ثم الدراسات التي كَتَبَهَا خلال السنوات العشر الأخيرة فَرْهَاد دَفْتَرِي وخاصة كتابه
 ، Farhad Daftary, *The Isma'ilis Their history and Doctrines*, Cambridge 1990
 الذى وصفه ويلفرد مادِلُونْج فى تقديمه له بأنه أشْتَل دراسة تفصيلية عن التاريخ المَرْكَب
 للإسماعيلية تعكس تمامًا تَطَوُّر وتُمُو الأبحاث الحديثة المبعثرة إلى حدٍّ بعيد فى النصوص
 المنشورة ، والمؤلفات والمقالات التى نَجَحَ المؤلَّف فى دَمْجها فى رواية ممتعة سهلة
 القراءة. كما أنها غَطَّت موضوعات جديدة تمامًا فى بعض المجالات وعلى الأخص
 التَّطَوُّر الحديث للإسماعيلية. وقد اختصر دَفْتَرِي هذه الدراسة فى كتاب جديد
 بعنوان *A Short History of the Ismailis*, Edinburgh 1998 . وفى إطار هذه
 الدراسات الأكاديمية يتولَّى دَفْتَرِي الإشراف على سلسلة من الدراسات التى يُصَدِّرها
 «معهد الدراسات الإسماعيلية» Institute of Ismaili Studies الذى أُسِّس فى لندن
 تحت رعاية الأمير كريم الحسينى الأغاخان الرابع والإمام التاسع والأربعين للإسماعيليين
 التُّزارين باسم Ismā'ili Heritage Series .

وفى الوقت الذى يُوجَّه فيه الإسماعيليون التُّزاريون (أتباع أغاخان) اهتمامهم إلى
 الدراسات الأكاديمية عن تاريخ الحركة الإسماعيلية، يهتم الفرع الآخر للحركة
 الإسماعيلية: المُشْتَعَلِيَّة (البُهْرَة) - الذين يرأسهم الداعى المُطَّلَق الثانى والخمسون السلطان
 محمد برهان الدين بن طاهر سيف الدين - بصيانة وترميم المنشآت الدينية التى خَلَّفَهَا
 الفاطميون فى مصر واليمن وفلسطين.

وَشَغَلَت العلاقة بين الإسماعيليين والقَرَامِطَة حَيِّزًا كبيرًا من اهتمام الباحثين، وكان
 أوَّل من تناولها de Goeje فى دراساته السابق الإشارة إليها ، ثم عَرَضَ لها فلاديمير
 إيفانوف فى مقال أوَّلِي *Ivanow, W., «Ismailis and Qarmatians», JBRAS N. S.*
 16 (1940). pp. 43-85 ، وبعده ويلفرد مادِلُونْج فى مقالهِ *Madelung, W.*

«Fatimiden und Bahrein-Qarmaten», *Der Islam* 34 (1959), pp. 34-88 ; id., *EI*² Stern, S.M., «Isma'ilis و صمويل شتيرن في مقاله 'art. *Karmati* III, pp. 687-92 and Qarmatians», *L'élaboration de l'Islam*, Presses Universitaires de France , Daftary, F., «A Major Schism in مقاله 1961, pp. 99- 108 . the Early Isma'ili Movement», *SI* 77 (1993) , pp. 123- 139

وكتب ويلفرد إيفانوف دليلًا للتراث الإسماعيلي، *A Guide to Ismaili Literature*، 1933 ثم قدّم له طبعةً مزوَّدةً بالخواشي بعنوان *Ismaili Literature*, Teheran 1963 أصبحت قديمة الآن وحلّ محلّها الدراسة الشاملة التي كتبها إسماعيل قربان بوناوولا، Poonawala . I.K., *Bibliography of Ismā'ili Literature*, Maliburn, California 1977

وحتى وقت قريب كانت الفترة الفاطمية فى تاريخ إفريقية (تونس الحالية) تُمثّل فراغًا كبيرًا فى الدراسات التاريخية. فقد كَتَبَ محمد طالبى تاريخ الدولة الأغلبية السابقة عليهم، Talbi, M., *L'Emirat Aghlabide 184-296/800-909, Histoire Politique*, Paris- Adrien Maisonneuve 1966 كما كتب هادى روجيه إدريس تاريخ الزيريين الذين حكموا إفريقية بعد الفاطميين *Idris, H.R., La Berbérie Orientale sous les fاطميين* 1962 *Zirides, I-II, Paris-Adrien Maisonneuve* ، ولم يُكْتَبَ تاريخ الفترة الفاطمية بتفصيل إلّا فى سنة ١٩٨١ مع دراسة فَرَحَات الدُّشراوى «الخلافة الفاطمية فى المغرب» Dachraoui, F., *Le Califat fatimide au Maghreb 296-362/909-973. Histoire politique et institutions*, Tunis- STD 1981 وهى دراسة على نفس نمط دراسة هادى إدريس عن الزيريين ودراسة روبر برانشفيج Robert Brunschvig عن إفريقية فى

^١ صدرت ترجمة إنجليزية مراجعة لهذا المقال سنة ١٩٩٦ *Madelung, W., «The Fatimids and the Qarmatis of Bahrayn» in Daftary, F. ed., Medieval Ismaili History and Thought*, Cambridge 1996, pp. 21-73

زمن الحفصيين والصادرة في سنتي ١٩٤٠-١٩٤٧، تاريخ سياسى يتبعه معالجة للنظم والاقتصاد والمجتمع^١.

ولا شك أن أهم الدراسات التى تناولت تاريخ الفترة الإفريقية من التاريخ الفاطمى، إضافة إلى دراسات فرحات الدُّشراوى، دراسات هانز هالم Heinz Halm التى بدأها بسلسلة من المقالات الهامة عن تاريخ الفاطميين قبل وبعد تأسيس دولتهم، ثم كتب مؤخرًا كتابه الهام Halm, H., *Das Reich des Mahdi. Der Aufstieg der Fatimiden*, Munchen 1991 الذى نقله إلى الإنجليزية سنة ١٩٩٦ مايكل بونر Michael Bonner بعنوان *The Empire of the Mahdi. The Rise of the Fatimids*, Leiden-Brill 1996 الذى يشير فيه، متبعاً للتائج التى توصل إليها كل من شتيرن Stern ومادلونج Madelung، إلى أصول الدولة الفاطمية فى المشرق قبل قيام ثورة أبى عبد الله الشيعى فى إفريقية والتى وَصَّفتْ نهايةً للدولة الأغلبية وأتت بالإمام المهدي ليُغيِّلَن قيام دولته فى إفريقية سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م، ثم يتناول فى بقية الكتاب فى أربعة فصول تاريخ الدولة الفاطمية فى إفريقية حتى انتقال الإمام المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م.

وَدَرَسَ تاريخ الفاطميين فى بلاد الشام كلٌّ من خاشع المعاضيدى فى كتابه «الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى ٣٥٩-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م»، بغداد ١٩٧٦؛ ودرويش النخيلي فى كتابه «فتح الفاطميين للشام فى مرحلته الأولى من ٣٥٨هـ إلى ٣٦٢هـ» (دراسة فى المصادر والمراجع)، الإسكندرية ١٩٧٩؛ وكذلك أمينة البيطار فى كتابها «موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن

^١ توجد بعض دراسات عن بدايات الدولة الفاطمية فى إفريقية مثل دراسة لقبال موسى: دور قبيلة كاتمة فى تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجرى، الجزائر ١٩٧٩؛ ودراسة عادلة على الحمد: قيام الدولة الفاطمية فى بلاد إفريقية والمغرب، الإسكندرية ١٩٨٠.

الخامس الهجرى ، دمشق ١٩٨٠. وكتب أيضًا جاكوب ليف Jacob Lev مقالين هامين عن الوجود الفاطمى فى دمشق والشام فى نهاية القرن الرابع الهجرى Lev, Y., «Fatimid Policy towards Damascus (385/968-386/996): Military, Political and Social Aspects», *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* III (1981- 82) pp. 165-183; id., «The Fatimids and the Ahdath of Damascus 386/996-411/1021», *Die Welt des Orients* 13 (1982) p.98-106 .

أما أهم وأحدث الدراسات المؤتقة عن تاريخ الفاطميين فى بلاد الشام فكتاب تيارى يانكى Thierry Bianquis عن دمشق وسوريا تحت السيطرة الفاطمية، وهو فى الأساس رسالة دكتوراه دولة مُقدّمة إلى جامعة الشّربون Bianquis, Th., *Damas et la Syrie* رسالة دكتوراه دولة مُقدّمة إلى جامعة الشّربون *sous la domination fatimide (359-468/969-1076)*, I-II, Damas 1986-89 اعتمادًا على المصادر العربية.

وكتبَ عن تاريخ الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن حسين بن فَيْض الله الهَمْدانى وحسن سليمان محمود كتابهما «الصُّلَاحيون والحركة الفاطمية فى اليمن (من سنة ٢٦٨هـ إلى سنة ٦٢٦هـ)»، القاهرة ١٩٥٥؛ وكتب هذه السطور «تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى»، القاهرة ١٩٨٨؛ كما كتبَ عَبَّاس هَمْدانى A. Hamdani العديد من المقالات الهامة عن الدَّعوة الطَّيِّبِيَّة؛ وأخيرًا سامر طرابلسى رسالة عن السيدة الحرة الصُّلَاحية Traboulsi, S., *Gender, Authority and Legitimacy in Medieval Yemen: the Case of Arwa bint Ahmad*, Beirut, AUB 1998 .

وإذا ما عُذْنَا مرةً أخرى إلى مصر الفاطمية سنجد العديد من الدراسات المتخصصة التى تناولت مسائل جزئية من التاريخ الفاطمى ، حيث كتب تيارى يانكى مقالًا هامًا عن الفَتْح الفاطمى لمصر Bianquis Th., «La prise du pouvoir par le Fatimides en

Lev, Y., مقالين في مقالين «Egypte», *An. Isl.* XI (1972), pp. 49-108
 «The Fatimid Conquest of Egypt- Military, Political and Social Aspects», *Isr.*
Or. St. IX (1979), pp. 315-328, id., «The Fatimid and Egypt 301-358/ 914-
 Carl H. وكان كارل هينريش بيكر 969», *Arabica* XXXV (1988), pp. 186-196
 Becker قد كتب مقالاً مُطَوَّلًا عن فترة الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله اعتمادًا على تاريخ
 المُسَبَّحِي ضمن القسم الأول من كتابه *Beiträge zur Geschichte Ägyptens unter*
dem Islam, Strassburg 1903, pp. 32-80

وفيما يخص دراسة «النُظُم الفاطمية» نجد كتاب عطية مصطفى مُشَرَّفَة «نُظُم الحكم
 بمصر في عصر الفاطميين»، القاهرة ١٩٤٨، والجزء الأول من كتاب عبد المنعم ماجد الهام
 «نُظُم الفاطميين ورؤسؤهم في مصر»، القاهرة ١٩٥٣، وكتاب محمد حمدي المناوي
 «الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي»، القاهرة ١٩٧٠، ومقال ياكوب ليف Lev, Y.,
 «The Fatimid Vizier Ya'qub Ibn Killis and the Beginning of the Fatimid
 Administration in Egypt», *Der Islam* 58 (1981), pp. 237-249 وكذلك دراسة ليلي
 سامي العماد al-Imad, L. S., *The Fatimid Vizierate 969-1172*, Berlin- Klaus Schwarz 1990
 ورغم كل هذه الدراسات فإننا مازلنا نفتقد إلى دراسة عن «الوزارة
 الفاطمية» تادل دراسة دومنيك سورديل عن «الوزارة العباسية» Sourdel, D., *Le vizirat*
abbâsîde de 749 à 936 (132 à 324 de l'hégire), I-II Damas 1959-60. وأخيرًا مقال
 تيارى يانكي Bianquis, Th., «Le fonctionnement des Diwan financières d'après
 al-Musabbihi», *An. Isl.* XXVI (1992), pp. 47-61.

وكتب ويلفرد ماديلونج مقالًا هامًا عن «الإمامة في التعاليم الأولى للإسماعيلية»
 Madelung, W., «Das Imamât in der Frühen isma'ilitischen Lehre», *Der Islam*
 37, (1961), pp. 43-135 وبول ووكر مقالًا آخر عن «تتابع السلطة في الخلافة الشيعية»

من الناحية العملية، Walker, P.E., «Succession to Rule in the Shiite Caliphate», *JARCE* 32 (1995), pp. 239-64.

وكان أول من دَرَس «رُشُوم الفاطميين في مصر» المستشرق الروسي إنسترونزف في دراسته الرائدة Inastrontsev, K. A., «Toryestvenni Viezd Fatimidiskikh khalifov», *Zap. vost. Otdyel. Imp. Russ. Arkheol. Obschestva XVII* (St. Petersburg 1905) (بالروسية)، ثم ماريوس كانار في مقالين هامين Canard, M., «Le cérémonial fatimide et le cérémonial byzantin- Essai de comparaison», *Byzantion* 21 (1951), pp. 355-420; id., «La procession de Nouvel an chez les Fatimides», *AIEO* (1952), pp. 364-98. وبعد ذلك وَصَف عبد المنعم ماجد رُشُوم الفاطميين في الجزء الثاني من كتابه «نظم الفاطميين ورسومهم في مصر»، القاهرة ١٩٥٥. كما دَرَس كاتبُ هذه السطور رُشُوم الفاطميين من خلال إعادة بناء كتاب ابن الطُّوَيْر «نزهة المقلتين»، بيروت ١٩٩٢ المصدر الرئيس لهذه الأوصاف. وأخيرًا تناولت هذا الموضوع بولا ساندرز في مقالين- نشرًا في الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية- الأول مادة *Marâsim* والثاني مادة *Mawâkib* ثم في كتابها Sanders, P., *Ritual, Politics, and the City in Fatimid Cairo*, Albany SUNY Press 1994.

وشرَّح برنارد لويس الاستراتيجية الاقتصادية للفاطميين في مقال مازال يحتفظ بقيمته Lewis, B., «The Fatimid and the Route to India», *RFSE de l'Université d'Istanbul* XI (1949-50), pp. 50-54. كما كانت دراسة النُّظُم المالية والاقتصادية للفاطميين موضوع العديد من الدراسات لعل أولها دراسة راشد البُرَاوي «حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين»، القاهرة ١٩٤٨ وما يُضْفَى على الكتاب أهمية خاصة أن مؤلفه رجل اقتصاد معروف. ثم اهتم بهذه الدراسات بعد ذلك كلود كاهن Claude Cahen (١٩٠٩-١٩٩١) - خاصةً بعد اكتشاف مخطوطة كتاب «المنهاج» للمُخْزُومِي- ونجد تأثير ذلك في مقالاته *Damân, Bayt al-Mâl, Kabâla* بدائرة

المعارف الإسلامية، ثم في دراساته «Les marchands étrangers au Caire sous les Fatimides et les Ayyoubides», *CIHC*, pp. 97-101, id., *Makhzûmiyyat. Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Egypte médiévale*, Leiden-Brill 1977. وتُمثِّل دراسات شلومو دوف جويتين (Shelomo Dov Goitein) (١٩٨٥-١٩٠٠) حول أوراق جنيزة القاهرة Cairo Geniza Documents أهمية كبيرة في هذا المجال وعلى الأخص الجزء الأول من كتابه الهام *A Medetarranean Society : The Jewish Communities of the Arabe World as portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*, I. Economic Foundations, University of California Press 1967.

وكانت «الأزمات الاقتصادية» التي مرّت بها مصر- وخاصة في النصف الأول من عصر الدولة الفاطمية- موضوع دراسات هامة، فكَتَبَ تيارى بيانكى Thierry Bianquis مقالاً عن أزمة القمح التي حدثت في عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله «Une crise frumentaire dans l'Egypte fatimide» *JESHOXXIII* (1980), pp. 67-101، وبواز شوشان دراسة عن سياسة القمح عند الفاطميين ووظيفة المحتسب Boaz Shoshan, «Fatimid Grain Policy and the Post of the Muhtasib», *IJMES* 13 (1981), pp. 181-189. ودرس راضى داغفوس مظاهر الوضع الاقتصادى فى مصر فى منتصف القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى «Aspects de la situation économique de l'Egypte au milieu du V^e siècle/milieu du XI^e siècle...», *CI XXV* (1977), pp. 23-50، كما كَتَبَ أحمد الشَّيْذ الصَّاوى أطروحة عن المجاعات التي مرّت بمصر طوال العصر الفاطمى عنوانها «مجاعات مصر الفاطمية- أسباب ونتائج»، بيروت ١٩٨٨.

ودَرَسَ «التاريخ العسكرى للفاطميين ونظامهم الحربى» كلُّ من كلود كاهن فى مقال هام اعتماداً على كتاب «المُتْهَاج» للمخزومى «L'Administration financière de

والشيد l'armée fatimide d'après al-Makhzûmî», *JESHOXV* (1972), pp.163-82
 عبد العزيز سالم فى كتاب «تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام»، الجزء الأول -
 بيروت ١٩٧٢؛ وبشير إبراهيم بشير فى مقاله ، «Fatimid Military ، Beshir, B.I.,
 Organization»، *Der Islam* 55 (1978), pp. 36-56
 سلسلة من المقالات أهمها : «The Fatimid Army A.H. 358-427/768-1036 C.E.
 Military and Social Aspects»، *Asian and African Studies* 14 (1980), pp. 165-
 92; id., «the Fatimid Navy. Byzantium and the Mediterranean Sea 909-1036
 C.E./ 297-427 A.H.», *Byzantium* 54 (1984), pp. 220-252, id., «Army, Regime
 and Society in Fatimid Egypt 358-487/908-1094», *IJMES* 19 (1987), pp. 337-
 366، ثم جَمَعَ نتائج هذه الدراسات وأضاف إليها فى كتابه *State and Society in*
Fatimid Egypt, Leiden 1991 ؛ كذلك كَتَبَ وليم هامبلين دراسة عن الجيش الفاطمى
 خلال الحرب الصليبية المبكرة Hamblin, W., *The Fatimid Army during the Early*
Crusades 1984 ، ورضوان محمد رضوان البارودى رسالة عن «الجيش فى عصر الدولة
 الفاطمية» ، وعبد المنعم عبد الحميد سلطان رسالة أخرى عن «البحرية الإسلامية فى العصر
 الفاطمى» وهذه الدراسات الثلاثة الأخيرة لم تُنشر بعد.

وتناول جيرى باكاراك Jere L. Bacharach فى دراسة هامة انتشار العبيد الأفارقة
 فى الجيش فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى فى العراق ومصر «African
 Military Slaves in the Medieval Middle East : the Cases of Iraq (869-955) and
 Egypt (868-1171)», *IJMES* 13 (1981), pp. 471-95 .

وَكَتَبَ مؤخراً مايكل برى Michael Brett مقالين عن نشأة نظام المماليك فى
 العصر الفاطمى، وعن تحليل معركة الرملة الشهيرة بين الفاطميين والفرنج «The Origins
 of the Mamluk Military System in the Fatimid Period»; id., «The Battles of

Ramla» المقالان في كتاب *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and*

Mamluk Eras, Leuven 1995.

وَدَرَسَ الانقسامات المذهبية للفاطميين في مصر صمويل شتيرن في مقال مُطَوَّل

Stern, S.M., «The Succession to the Fatimid Imam al-Amir. The Claims of the Later Fatimids to the Imamate and the Rise of the Tayyibi Ismailism», *Oriens*

193-255 pp, (1951), 4 ، ومارشال هودجسون (١٩٢٢-١٩٦٨) في كتابه

Hodgson, M.G.S., *The Order of Assassins*, Netherland 1955 ؛ وكذلك برنارد

Lewis, B., *The Assassins. A Radical Sect in Islam*, New York كتابه لويس

1968 ؛ وطه أحمد أشرف في كتابه «دولة النزارية أجداد أغاخان كما أسسها الحسن

الصباح (زعيم الإسماعيلية في فارس)»، القاهرة ١٩٥٠ ؛ والسيد محمد القزّاوى في

كتاب «فرقة النزارية، تعاليمها، ورجالها على ضوء المراجع الفارسية»، القاهرة ١٩٧٠ ؛

ومحمد السعيد جمال الدين في كتابه «دولة الإسماعيلية في إيران»، القاهرة ١٩٧٥ .

وهناك دراسات عديدة تناولت وَضَعَ أَهْلِ الذُّمَّةِ في مصر زمن الفاطميين وَوَضَعَ

اليهود بصفة خاصة، أوّلها دراسة جاكوب مان Jacob Mann السابق الإشارة إليها ، ثم

دراسة ولتر فيشيل عن دور اليهود في الحياتين الاقتصادية والسياسية في مصر والعراق في

العصور الوسطى Fischel, W.J., *Jews in the Economic and Political Life of*

Cohen, M.R., *Jewish Self-Mediaeval Islam*, N.Y. 1937 ، ودراسة مارك كوهن

Governement in Medieval Egypt. The Origins of the Office of Head of the

Jews, Ca. 1065-1126, Princeton 1980 وكتاب «المجتمع اليهودى في مصر الإسلامية

في العصور الوسطى» تل أبيب ١٩٨٧ ؛ إضافة إلى دراسة شلومو جويتين السابق الإشارة

إليها؛ وكذلك دراسة قاسم عبده قاسم «اليهود في مصر من الفتح العربى حتى الغزو

العثمانى»، القاهرة ١٩٨٧ ؛ وكتايب سَلَام شافعى محمود «أهل الذُّمَّة في مصر في العصر

الفاطمي الأول»، القاهرة ١٩٩٥ وأهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي (٤٦٧-٦٤٨هـ/١٠٧٤-١٢٥٠)، القاهرة ١٩٨٢.

وكانت شخصية الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي السادس وفترة خلافته (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢١م) موضوع دراسات متعدّدة، فبالإضافة إلى الترجمة التي خصّصها له سلفستر دي ساسي في كتابه *Exposé de la Religion de Druzes* التي ما زالت تحتفظ ببعض قيمتها، كتب حديثاً محمد عبد الله عنان كتابه الرائد «الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية»، القاهرة ١٩٣٧، ١٩٥٩، وعبد المنعم ماجد «الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه»، القاهرة ١٩٥٨، كما كتّب صادق أسعد Assad, S.A., *The Reigns of al- Hakim Bi Amr Allah (386/996-411/1021). A Political Study*, Beirut 1974 ، وجوزيف فان إس van Ess, J., *Chiliastische Erwartungen und die Versuchung der Gotlichkeit: Der Kalif al-Hâkim (375-411)*, Heddelburg 1977 وتيارى بيانكى Bianquis, Th. «al-Hâkim bi Amr Allâh ou la folie de l'unité chez un souverain fatimide», *Les Africains XI* (1978), pp. 107-133 كانار بتركيز لفترة الحاكم في مقاله Canard, M., *El² art. al-Hâkim Bi Amr Allâh* III pp. 79- 84 ، كما دَرَسَ أخيراً بول ووكر الدعوة الإسماعيلية في عهد الحاكم في مقال بعنوان Walker, P.E., «The Isma'îlî Dawa in the Reign of the Fatimid Caliph al-Hâkim», *JARCE XXX* (1992), pp. 161-182 .

وأوّل من دَرَسَ تاريخ التعليم والمؤسّسات الثقافية في مصر الفاطمية خطّاب عطية على في كتابه «تاريخ التعليم في العصر الفاطمي الأول»، القاهرة ١٩٥٠؛ ثم دَرَسَ يوسف القشّ (١٩١١-١٩٦٧) في دراسة رائدة عن تاريخ المكتبات في العراق وسوريا ومصر في العصور الوسطى Eche, Y., *Les bibliothèques publiques et sémi- publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen-Age*, Damas-

IFD, 1967 خزانة الكتب الفاطمية ودار الحكمة؛ كما دَرَسَ رثيف جورج خورى خزانة كتب الفاطميين فى مقال مُطوَّل فى Khoury, R. G., «Une description fantastique des fonds de la Bibliothèque "Khizānat al-Kutub" au Caire», *Proceedings of the Ninth Congress of the Union Européenne des Arabisants et Islamisants*, Leiden 1981, pp. 123-140 ، وكاتب هذه السطور فى مقال بعنوان «خزانة كتب الفاطميين هل بقى منها شىء؟»، مجلة معهد المخطوطات العربية ١/٤٢ (١٩٩٨)، ٧-٣٢. ودَرَسَ هانز هالم Heinz Halm من منظور تاريخى التقاليد الفكرية والتعليمية للفاطميين منذ قيام خلافتهم فى شمال إفريقيا وحتى تركُّزها فى الجامع الأزهر ودار الحكمة فى مصر الفاطمية Halm, H., *The Fatimids and their Traditions of Learning*, London 1997؛ كذلك فقد اهتم بول ووكر بدراسة المؤسسات التعليمية الفاطمية فى مقال عنوانه Walker, P.E., «Fatimid Institutions of Learning», *JARCE* XXXIV (1997), pp. 179-200. أما الأدب فى مصر زمن الفاطميين فقد درسه فى كتاب مازال يحتفظ بقيمته محمد كامل حسين بعنوان «فى أدب مصر الفاطمية»، القاهرة ١٩٥٠، ١٩٧٠.

وإذا كانت «الوثائق» (الأرشيف) تُمثِّل أهميةً خاصةً لدراسة التاريخ فإننا نَقْتَقِدُ للأسف الأرشيفات الخاصة بالفترة الإسلامية، فلا توجد لدينا أرشيفات كاملة للدولة الإسلامية إلا ابتداءً من العصر العثمانى. ولكن لاشك أن المؤرخين وكُتَّاب الحوليات قد اطلَّعوا على وثائق كثيرة فى أثناء كتابتهم للتاريخ، وحَفِظَ لنا بعضهم نُسَخًا من هذه الوثائق التى قُبِدَتْ أصولُها اليوم. ومع ذلك فقد بقيت بعض الوثائق الأصلية التى تعود إلى العصر الفاطمى ضمن وثائق ديرسانت كاترين وهى التى دَرَسَهَا صمويل شتيرن Stern, S.M., *Fatimid Decrees. Original Documents from the Fatimid Chancery*, London 1964 ، وضمن أوراق الجنييزة نَشَرَ بعضها شتيرن وجوفرى

خان وعلى الأخص فى كتابه Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents in the Cambridge Genizah Collections*, Cambridge 1993 ؛ كما نُشِرَ كلود كاهن ومصطفى طاهر ويوسف راغب أقدم حُجَّةً وَقَفَ وصَلَّت إلينا من العصر الفاطمى مؤرخة سنة ٥٥٤هـ، Cahen, Cl., Ragib, Y. et Taher, M.A., «L'achat et le waqf d'un grand domaine égyptien par le vizir fatimide Talâ'î^c b. Ruzzik», *An. Isl.* XIV (1978), pp.59-126 . أما نُسخ الوثائق التى حَفِظَهَا المؤرِّخون فقد اهتم بدراساتها جمال الدين الشَّيَال فى دراسته الهامة «مجموعة الوثائق الفاطمية»، القاهرة ١٩٥٨، ومحمد ماهر حمادة فى كتابه «الوثائق السياسية والإدارية للمهود الفاطمية والأتابكية والأيوبيّة- دراسة ونصوص»، بيروت ١٩٨٠.

وكان أول من درس ونشر «الكتابات التاريخية الأثرية» Inscriptions التى ترجع إلى العصر الفاطمى رائد علم الكتابات الأثرية المستشرق السويسرى ماكس فان بزشم Max van Berchem (١٨٦٣-١٩٢١) أولاً فى مقاله المطوّل «Notes d'archéologie arabe. Monuments et inscriptions fatimides», *JA* 8^{ème} série XVII (1891), pp. 46-86; XIX (1892), pp. 377-407 ثم فى كتابه الذى لا غنى عنه *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicum* I^{ère} partie Egypte, MMAFC XIX (1894-1903) الذى أكمله جاستون فييت Wiet, G., *CIA* I^{ère} partie Egypte II, MIFAO LII (1929-30). كما نجد نصّ الكتابات الأثرية سواء المنقوشة على الحجر أو على أية مواد أخرى فى كتاب Wiet, G., Combe, E. et Sauvaget, J., *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*, t. V-IX, Le Caire IFAO 1934-37.

أما الدراسات التى اهتمت بالعمارة الفاطمية ، سواء فى شمال أفريقيا أو فى مصر ، فكثيرةٌ جدًّا ، ولكن أشير منها هنا إلى ما كتبه كل من كريزويل Creswell, K.A.C.,

The Muslim Architecture of Egypt I. Ikhshids and Fatimids Oxford 1952
 وأحمد فكرى: «مساجد القاهرة ومدارسها - العصر الفاطمى»، القاهرة ١٩٦٥، وفريد
 شافعى: «العمارة العربية فى مصر - عصر الولاة»، القاهرة ١٩٧٠. إضافة إلى المقالات
 المتعددة التى كتبها جوناثان بلوم Jonathan Bloom وكارولين وليامز Caroline
 Williams ودوريس بهرين أبو سيف Doris Behrens-Abouseif فى مجلة *Muqarnas*
 التى تصدرها مؤسسة الأغاخان عن دار نشر بريل (١٥ مجلدًا حتى الآن)، وكذلك ما
 كتبه يوسف راغب Y. Raghib عن المشاهد والمقابر التى تعود إلى العصر الفاطمى فى
 مجلات *SI*, *An. Isl* و *REI*.

وفى مجال الفنون أشير من بين الدراسات العديدة التى كتبت عن الفن الفاطمى إلى
 دراسات أوليج جرابار Oleg Grabar وريتشارد انتجهاوزن Richard Ettinghausen،
 وزكى محمد حسن وحسن الباشا وجمال محرز وأنا كوتناديني Anna Contadini. وما
 كتبه جورج مارسيه عن الفن الفاطمى فى دائرة المعارف الإسلامية فى ذيل مادة
 «الفاطمين» *Marçais, G., EI² art. L'art fatimide II, 882-84*. وبمناسبة الاحتفال
 بمائتى عام على الأفاق المشتركة بين مصر وفرنسا نُظِّمَت جامعة الشَّزُّبون تحت إشراف
 عالمة الفنون الإسلامية المعروفة ماريان باروكان Marianne Barrucand مؤتمراً دولياً عن
 مصر الفاطمية *l'Egypte Fatimide* (باريس ٢٨-٣٠ مايو ١٩٩٨) ستظهر أعماله فى
 مجلدين فى نهاية هذا العام، كما نُظِّمَ معرضٌ بمعهد العالم العربى بباريس فى الفترة من
 أول مايو وحتى نهاية أغسطس سنة ١٩٩٨ حول «كنوز الفاطميين» وصدر عنه ألبوم
 مصور يحتوى على ٢٠٩ قطعة نادرة من الفن الفاطمى، *Trésors Fatimides du Caire*,
 Paris-IMA 1998 ثم انتقل للعرض فى متحف الدولة فى فيينا فى الفترة من ١٦ نوفمبر
 ١٩٩٨ إلى ٢١ فبراير ١٩٩٩ وصدر عنه ألبوم آخر *Schätze der Kalifen Islamische*
 . *Kunst Zur Fatimidenzeit*, SKIRA 1998

مَدْخُلُ الإسماعيلية المُبَكَّرَة

نشأت الحركة الإسماعيلية كحركة اجتماعية فلسفية سياسية معاً ويدّعى أصحابها إيصال نسبهم إلى السيدة فاطمة والإمام على بن أبى طالب ، وتساءل كاترمير منذ نحو قرن ونصف القرن فيما إذا كانت ادعاءاتهم هذه تستند على الحقيقة ، وهل ينتمون حقاً إلى بيت على ، أم كانوا مجرد أدعياء مَهْرَة حالفهم الحظ ؟ وأكّد أن هذا السؤال يجب أن يثار قبل كل شيء وأنه ذو أهمية قصوى مهما كانت نتيجة الإجابة عليه^١.

ولا شك أن الفترة المُبَكَّرَة فى تاريخ الحركة الإسماعيلية ، التى تعد فترة حضانة الحركة ، هى الجانب الأكثر غموضاً فى كل تاريخ الحركة ، وتمتد هذه الفترة من بدايات الحركة الإسماعيلية فى منتصف القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى وحتى إعلان الخلافة الفاطمية فى إفريقية سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م ، أى نحو قرن ونصف القرن .

وترجع صعوبات دراسة الحركة الإسماعيلية المُبَكَّرَة إلى ندرة المعلومات الدقيقة عن التشيع خلال الفترة العبّاسية الأولى ، عندما لجأت غالبية فرق الشيعة الاثنا عشرية والإسماعيلية ، وهى فى طور تكوينها ، إلى التَّوَقُّفِ والعمل السَّرى .

ويبدأ تاريخ الإسماعيلية كحركة مستقلة عندما نشأ الجدُّل حول خلافة الإمام جعفر الصّادق ، الذى توفى عام ١٤٨هـ/٧٦٥م . وتشير أغلب المصادر المتاحة إلى أن جعفر الصّادق عيّن ابنه إسماعيل خليفة له بقاعدة « الثَّعَن » . ولا يوجد أى شك حول

^١ Quatremère, M., «Memoires historiques sur la dynastie des khalifes fatimites», JA 3^{ème} série t.

شرعية هذا التعيين الذي تعتمد عليه كل ادعاءات الإسماعيلية التي استمدت اسمها من نسبتها إلى إسماعيل بن جعفر الصّادق^١.

ولما كان إسماعيل بن جعفر الصّادق قد توفي في حياة أبيه ، نحو سنة ١٤٥هـ / ٧٦١م^٢، فقد ذهبت الفرقة التي عُرفَت فيما بعد بالاثني عشرية ، نسبة إلى أئمتهم الذين كَوْنُوا سلسلة من اثني عشر إمامًا تبدأ بعلي بن أبي طالب وتنتهي بمحمد بن الحسن العسكري الذي اختفى ويتظنون عودته ، ذهبت إلى أن موسى الكاظم ، الابن الثاني لجعفر الصّادق ، هو الإمام السابع في سلسلة الأئمة الاثني عشر^٣.

وقد أمسك موسى الكاظم ، مثل والده ، عن أى نشاط سياسى ، فقد كان أحد العلويين الذين رفضوا مساندة الحسين بن على صاحب فَخّ ، الذى ثار فى الحجاز خلال خلافة الهادى القصيرة (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٩م) ، وقُتِلَ فى فَخّ قرب مكة مع عدد آخر من العلويين سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م^٤.

وعاش موسى الكاظم بعد ذلك حتى توفي مسمومًا فى بغداد سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م فى أغلب الظن بناءً على أوامر الخليفة هارون الرشيد^٥.

وهناك فرقان ساندتا إمامة إسماعيل بن جعفر الصّادق وتعد البدايات الأولى للحركة الإسماعيلية . ظهرت هاتان الفرقتان عند وفاة إسماعيل وافتقرت عن بقية الإمامية فقط بعد وفاة جعفر الصّادق سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م.

^١ راجع ، Daftary, F., *The Isma'ilis their History and Doctrines*, Cambridge 1990, pp. 91- 93.

^٢ الصفدى : الوافى بالوفيات ٩ : ١٠١-١٠٤ .

^٣ Nasr, S.H., *El' art. Ithnā ashriyya* IV, pp. 289-91 ; Kohlberg, E. *El' art. Mūsā al-Kāzim* VII, pp. 645-648.

^٤ الصفدى : الوافى ١٢ : ٤٥٣-٥٤ ، الفاسى : المقد الثمين فى تاريخ البلدى الأمين ٤ : ١٩٦-٢٠٠ ، Veccia Vaglieri, L., *El' art. al-Husayn b. 'Ali Sāhib fakhkh* III pp. 636-38, 200.

^٥ النعمى : الجبر فى خبر من غير : ٢٨٧ .

الفرقة الأولى تُذكر وفاة إسماعيل في حياة أبيه وتؤكد أنه الإمام الحقيقي بعد جعفر الصادق، وتعتقد أنه لم يمّت وأنه سيعود كـ «مَهْدِي» أو «قائم». وتُدافع هذه الفرقة عن ادعاءاتها بأن جعفر الصادق إمام لا ينطق سوى الحق، وأنه أعلن وفاة ولده إسماعيل تَقِيَّة فحسب لحمايته، وكَثَم أمره، خوفاً على سلامته. وقد سَمَّى التَّوْبِخْتِي والقُمِّي هذه الفرقة بـ «الإسماعيلية الخالصة»^١، وأطلق عليها فيما بعد الشَّهْرِشْتَانِي «الإسماعيلية الواقعة»^٢.

أما الفرقة الثانية وتُعرف بـ «المباركية» فتؤكد وفاة إسماعيل في حياة أبيه وتعترف بإمامة محمد بن إسماعيل وتعتبره صاحب الحق الشرعي في خلافة إسماعيل، وترى أن جعفر الصادق قد غَيَّبَه بنفسه في مكان أبيه بعد وفاته.

وتبعاً لهؤلاء فإن الإمامة لا ينبغي لها أن تنتقل من أخ إلى أخيه بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين وأنها يجب أن تستمر في الأعقاب، وأن النُص لا يرجع القهقري، وأن الفائدة منه بقاء الإمامة في أولاد المنصوص عليه. وهذا هو سبب رفضهم لادعاءات موسى الكاظم وبقية إخوة إسماعيل الآخرين^٣.

أمضى محمد بن إسماعيل الفترة الأخيرة من حياته في خوزستان جنوب غرب فارس، حيث التفّ حوله بعض الأتباع. ورغم أن التاريخ الصحيح لوفاته غير معروف لنا، فغالباً ما توفي نحو سنة ١٧٩ هـ/٧٩٦ م أثناء خلافة الخليفة العبَّاسي هارون الرشيد.

^١ النوبختي: فرق الشيعة ٥٧-٨٥؛ القمي: المقالات والفرق ٨٠؛ Daftary, F., *op.cit.*, p. 90-95.

^٢ الشهرستاني: الملل والنحل ١: ١٤٩.

^٣ النوبختي: فرق الشيعة ٥٨، ٦٢؛ القمي: المقالات ٨٠-٨١، ٨٤؛ عماد الدين إدريس: عيون الأخبار ٥: ١٦٠-١٦١، وفيه نقلاً عن جعفر الصادق: «الإمامة في العقب تجرى في واحد عن واحد لا ترجع القهقري ولا تعود إلى

الوراء». وانظر كذلك Stern, S., «Heterodox Isma'īlism at the time of al-Mu'izz», *BSOAS* XVII (1955), p. 26; Daftary, F., *op.cit.*, p. 96.

وعند وفاة محمد بن إسماعيل انقسمت الفرقة « المباركية » قسمين : الأغلبية - الذين تذكر المصادر الإمامية أنهم الأسلاف المباشرون للقرائطة - رفضوا قبول وفاة محمد بن إسماعيل واعتقدوا أنه حيٌّ وأنه سيعود في المستقبل القريب كمهدي أو قائم ، ويعتبرون محمدًا إمامهم السابع والآخر . وفريقٌ ثانٍ أقلَّ حجمًا يُسم بالغموض اعترف أصحابه بوفاة محمد بن إسماعيل وجعلوا الإمامة في ذرئته . وسيكون رأى هذا الفريق هو الاختيار الرسمي للإمامة الذي سيتبناه الإمام عبد الله (المهدي) عندما يصبح الرئيس المركزي للحركة الإسماعيلية في سَلَمِيَّة ، والذي سيقود إلى الانشقاق الذي سيحدث عام ٢٨٦هـ/٨٩٩م^١.

ويبدو أنه خلال هذه الفترة الغامضة من تاريخ الحركة والتي امتدت حوالى القرن ، عمل فريقٌ من قيادات الحركة بصبر وسريّة من أجل خَلْق حركة إسماعيلية متماسكة وديناميكية . اتَّصَلَ هؤلاء القادة في الأساس بأحد الفرق الإسماعيلية الأولى ، ومن الممكن أن يكونوا أئمة أحد الفرعين اللذين انقسم إليهم المباركية عقب وفاة محمد بن إسماعيل . على أى حال فقد التزم هؤلاء الأئمة مبدأ « التَّيَمَّة » لحماية أنفسهم ، وتركز نشاطهم في مناطق الأهواز وعسكر مكرم بخوزستان وعملوا لفترة قصيرة من البصيرة قبل أن يستقرّوا نهائيًا في سَلَمِيَّة^٢ بالشام التي أصبحت مقرّهم ومركز رئاستهم حتى عام ٢٨٩هـ/٩٠٢م .

وَحَقَّقَ النَّشَاطُ الْمَكْتَفُ لَهُؤَلاءِ القادة الذين تحمّلوا - في أقصى درجات السرية - مسؤولية إعادة تنظيم الحركة الإسماعيلية نجاحًا كبيرًا نحو سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م ، عندما بدأ العديدُ من الدُّعاة في الظهور في العراق ومناطق أخرى ونجحوا في ضَمِّ عدد كبير من

^١ Daftary, F., «A Major Schism in the Early Ismā'īlī Movement», *SI* 77 (1993), pp. 127-28.

^٢ عن هذه المدينة وأهميتها في تاريخ الحركة الإسماعيلية راجع : Daftary, F., *El* art . *Salamiyya* VIII, pp. : 952-55; Hakm, H., «Les Fatamides à Salamiya», *REI* LIV (1986), pp. 133-44.

المستجيبين . وهكذا وَجَدَ القادة أن الوقت مناسب لإعلان « مهدية » محمد بن إسماعيل ، وهو اعتقاد غالبية الفرقة المباركية التي تُمَثِّلُ الكيان الأساسي للإسماعيلية المُبَكَّرَة . وَيُتَّفِقُ هذا الاعتقاد مع اعتقاد « الإسماعيلية الخالصة » الذين كانوا ينتظرون ظهور إمامهم المهدي إسماعيل والذي كان من السهولة أن يحلَّ محله اسم ابنه محمد بن إسماعيل ، حيث اعترف الكثير من الإسماعيليين الأوائل بإمامة محمد بن إسماعيل الذي قادهم بعد أبيه إسماعيل والإمام جعفر الصادق^١ .

فِي ظِلِّ هذه الملابس نُظِّمَت « الدَّعْوَة » فِي العراق سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م ، وفِي نفس هذه السنة دَخَلَ حَمْدَان قَزَمَط فِي المذهب الإسماعيلي على يد الداعي حسين الأهوازي الذي أُرْسِلَ من سَلَمِيَّة لِتَنْشُرَ الدَّعْوَة فِي جنوب العراق^٢ . وتولَّى حَمْدَان قَزَمَط أَمْرَ الدَّعْوَة فِي مسقط رأسه سواد الكوفة ومناطق أخرى جنوب العراق ، وعاونهُ فِي ذلك زوج أخته عَمْدَان - الذي قدم من الأهواز - وقام بِنَشْرِ الدَّعْوَة فِي جنوب فارس حيث نجح فِي تحوِيل وتدريب أبي سعيد الجنائى . وفِي نفس هذه الفترة أَخَذَت الدَّعْوَة الإسماعيلية فِي الظهور فِي مواضع متعدِّدة فِي وسط وشمال غرب فارس وإقليم الجبال ، حيث استقرَّت الدَّعْوَة فِي الرِّى وانتشرت فِي العقود الثلاثة التالية فِي خُرَاسَان وما وراء النهر^٣ .

ظُهُورُ القَرَامِطَةِ

وهكذا مَثَّلَت الإسماعيلية بين منتصف القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى وسنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م حركة مُوَحَّدَة تُبَشِّرُ بِقُرْب ظهور محمد بن إسماعيل كمهدي أو قائم .

^١ Daftary, F., *op.cit.*, p. 129 .

^٢ التويرى : نهاية الأرب ٢٥ : ١٨٩ ؛ ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٤٤ ؛ المقرئى : ايعاظ الحنفا ١ : ١٥١ .

^٣ نفسه ٢٥ : ٢٣٣ .

ونتيجةً للنشاط المكثف لحفدّان قَزَمَط وأتباعه ابتداءً من عام ٢٧٨هـ/ ٨٩١م بدأت الحكومة العباسية في بُغداد تُدرك الأخطار الثورية للحركة الإسماعيلية ، وتشير المصادر المُبَكِّرة إلى أن القرامطة هم الذين كانوا يقودون هذه الحركة .

كان لحفدّان قَزَمَط مراسلات منتظمة مع رئاسة الدُّعْوَة في سَلَمِيَّة ، وحدث في سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م فور أن تولى عبد الله بن الحسين (الإمام المهدي فيما بعد) رئاسة الدُّعْوَة المركزية أن لاحظ حفدّان بعض التغييرات في التعليمات المكتوبة التي كانت تُرسَل إليه من سَلَمِيَّة . أزججت هذه التغييرات حفدّان لأنها تعكس بجلاء تحولات ذات مغزى فيما يتعلق باعتقاد الإمامة الذي يدعمه حتى الآن الإسماعيليون^١ .

وحتى يتأكّد من حقيقة هذا التعديل العقائدى أرسل حفدّان معاونه المُقَرَّب عبّيدان إلى سَلَمِيَّة . كان هذا أوّل اتصال شخصى مباشر بين قادة الحركة فى العراق ورئاسة الحركة المركزية . وفور وصول عبّيدان إلى سَلَمِيَّة أُعْلِم بأن عبد الله (المُهْدَى) أصبح رئيساً للحركة فى أعقاب وفاة الرئيس السابق . وفى خلال لقائه مع عبد الله الذى ناقش فيه العديد من المسائل العقائدية الأساسية ، علم عبّيدان بأنه بدلاً من إعلان مهدية محمد بن إسماعيل التى كانت الدُّعْوَة تُمَهِّد لها ، فإن زعيم الحركة الجديد يدعو الآن لإمامته هو وإمامة أسلافه الزُعماء المركزيين الذين نَظَّموا وقادوا الحركة الإسماعيلية . وقد أمدّنا بتفاصيل هذا اللقاء وهذه التغييرات الجذرية فى طبيعة الحركة الشريف أخو محسن الذى يبدو أنه تمكّن من الاطلاع على بعض المصادر القرمطية إضافة إلى رسالة ابن رِزام مصدره المعتاد^٢ .

وفور أن تَلَقَّى حفدّان قَزَمَط من عبّيدان ما يفيد التغييرات العقائدية التى تَبَيَّها عبد الله (المُهْدَى) قَرَّر قَطْع صلته بالرئاسة المركزية للحركة ورئاسة الدعوة فى سَلَمِيَّة ،

^١ التورى : نهاية الأرب ٢٥ : ٢٣٢ .

^٢ نفسه ٢٥ : ٢٢٩-٢٣٠ ، p 134 . Defatary, F., op.cit.,

وطلب إلى أتباعه من الدعاة تعليق نشاطات الدعوة كل في عمله ، وبعد فترة قليلة اختفى حشدان ولم نعد نسمع عنه بعد ذلك ، كما قُتِلَ عَبْدَانُ بناءً على تحريض من ذُكِرَ وَثْنُهُ بن مَهْرَاوْنَهُ أحد دعاة غرب العراق الذي استمر ولاؤه لرئاسة الدعوة المركزية^١.

حتى هذا الوقت وقبل التغييرات الجزرية التي أدخلها عبد الله (المهدي) ، كان رؤساء الدعوة يتولون مرتبة « الحججة » أو الثواب الكاملين للإمام الغائب ، وكان الإسماعيليون (القرامطة) ينظرون إليهم على هذا الأساس . أتى أن الرؤساء المركزيين للحركة كانوا في أول الأمر يعمل كل منهم كحججة للإمام الغائب محمد بن إسماعيل وقيمون الدعوة باسمه ، وكانوا يقومون بذلك باعتباره نوعاً من « التقيية » . وبذلك أبدلت التغييرات التي أحدثها عبد الله (المهدي) وضعياً هؤلاء الرؤساء من مرتبة « الحجج » إلى مرتبة « الأئمة »^٢.

وهكذا عرّفت الحركة الإسماعيلية أول انشقاق خطير في بنائها أدى إلى انقسامها إلى حزين متنافسين هما اللذان أصبحا يُعرَفان فيما بعد بـ « الإسماعيلية الفاطمية » و« القرامطة » ، وهو أول أكبر انقسام عرفته الحركة سيكون له أخطر العواقب في تاريخ الإسماعيلية .

^١ نفسه ٢٥ : ٢٣١-٢٣٢ ١34 . *Ibid.*

^٢ Daftary , F., *op.cit.*, p. 135

نَسَبُ الفاطميين

رأينا كيف أننا لا نعرف أى شىء عن تاريخ الإسماعيلية بين نقطة انطلاقها وحتى ظهورها فى أواسط القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى كتنظيم ثورى مبررى يعتمد على حركة نشطة من الدعاة الذين انتشروا فى مختلف أقطار العالم الإسلامى .

فتبعاً للرواية الفاطمية الإسماعيلية ، كما أوردها الداعى عماد الدين إدريس فى نهاية القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى سَبَقَ عبد الله المهدي ، مؤسس الخلافة الفاطمية فى إفريقيا سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م ، سلسلة من « الأئمة المستورين » من أبناء محمد بن إسماعيل ، امتنعت المصادر الإسماعيلية عن ذكر أسمائهم^١ . فالأئمة الذين يصلون المهدي عبد الله بمحمد بن إسماعيل أشخاص عاشوا فى ظِلِّ ظروفٍ يكتنفها الكثير من الغموض ، وحتى المصادر الإسماعيلية المُبَكِّرة التى كَشَفَتْ حديثاً لا تذكر أسمائهم . كما أن الخلفاء الفاطميين ، فيما بعد ، لم يحاولوا قطَّ إبطال الحَمَلات التى شَنَّها ضدهم أعداؤهم أو الرَّدَّ عليها بسبب إصرارهم على عدم إذاعة أى نَسَبٍ رسمى لأصولهم اعتماداً على مبدأ معروف فى دوائر الشيعة هو « عدم كَشَفِ أولئك الذين سترهم الله » ، حتى إن الخليفة الفاطمى الرابع المُعَزَّز لدين الله عندما دَخَلَ إلى مصر ولقيه أشرافها وسأله عن نَسَبِهِ ، اكتفى بأن سَلَّ لهم نصف سيفه وقال : هذا نَسَبِي ، ونَثَرُ عليهم دَهَباً كثيراً وقال : هذا حَسَبِي^٢ .

^١ عماد الدين إدريس : حيون الأخبار وغون الآثار : ٤ : ٣٥١-٤٠٤ .

^٢ ابن طاهر : أخبار الدول المنقطعة ٢٧-٢٨ ؛ ابن خلكان : وفیات الأعيان ٣ : ٨٢ ؛ ابن أبيك الدوادارى : كنز الدرر ٦ : ١٤٦-١٤٧ ؛ التويرى : نهاية ٢٨ : ١٤٢ ؛ الصفدى : الوافى بالوفيات ١٧ : ٤٢ ؛ أبو الحسن : النجوم الزاهرة

كما أن ولده العزيز نزار عندما كُتِبَ إلى خليفة الأندلس كتابًا يسبه ويهجوّه فيه جاءه رده عليه : « أما بعد : فإنك عَرَفْتَنَا فَهَجَوْتَنَا ، ولو عرفناك لأَجَبْنَاكَ ، والسلام » بسبب عدم إفصاح الفاطميين عن أى نَسَبٍ رسمى لأصولهم .

كان الإمام (الخليفة) الفاطمى الأول عبد الله المهدي الوحيد الذى قام بمحاولة لكشف النَسَبِ الفاطمى . ففى الرسالة التى بعث بها المهدي إلى الطائفة الإسماعيلية فى اليمن ، والتى أوردها من ذاكرته فى فترة تالية جعفر بن منصور اليمن فى كتاب « الفرائض وحدود الدين » شَرَحَ المهدي نَسَبَ الخلفاء الفاطميين معلنًا أسماء الأئمة المستورين^١ ، وهى محاولة يمكن أن نضيفها إلى الغموض الذى ما زال قائمًا حول هذه القضية .

فهذه الرسالة (التى كتبت فى فترة ما بين سنتى ٢٩٧هـ / ٩١٠م و ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) تثير مشكلات ثلاثة هامة هى : هل كان جدُّ الفاطميين الأعلى حقيقة هو إسماعيل أم أخوه الأكبر عبد الله ؟ ثم هل ينتسب المهدي إلى أسرة النبی وآل البيت أم إلى مَيْمُون القَدَاح ؟ وأخيرًا هل كان المَهْدَى هو الإمام الشرعى أم كان بديلًا تَنَكَّرَ فى هيئة الإمام عندما داهم الموت فجأة الإمام الحقيقى ؟

ففى هذه الرسالة يُنَكِّرُ المهدي اتصال نسبه إلى إسماعيل بن جعفر الصّادق ويُقرّر أن جدّه الأعلى هو أخو إسماعيل الأكبر عبد الله ، وأن جعفر الصّادق عَيْنُ عبد الله لا إسماعيل كورث شرعى له^٢ . وبذلك يفاجأ المرء بأن مهندس الحركة الإسماعيلية لم يكن إسماعيليًّا على الإطلاق !

ويُتَّفَقُ ما جاء فى رسالة المَهْدَى مع ما جاء فى بعض كتب الأنساب والفرق ، وإن اختلفت فى التفاصيل . فيذكر ابن خزّم أن بنى عُبيد ، ولادة مصر الآن ، قد ادَّعوا فى

^١ الثعالبي : بتيمة الدهر (القاهرة ١٩٤٧) ١ : ٢٩٤ ؛ ابن خلكان وفیات الأعيان ٥ : ٣٧٢ .

^٢ فى نسب الخلفاء الفاطميين ، تقديم حسين الهمداني ، القاهرة-الجامعة الأمريكية ١٩٥٨ .

^٣ نفسه .

أول أمرهم إلى عبد الله بن جعفر بن محمد...، فلما صَحَّ عندهم أن عبد الله هذا لم يُعقِبْ إلا ابنة واحدة [اسمها فاطمة] تركوه وانتموا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد^١. ولكن مُصْعَبُ بن الزبير - وقد كتب كتابه قبل قيام الخلافة الفاطمية بنحو ستين عامًا - يذكر أن عبد الله وإسماعيل ابنا جعفر الصادق من زوجته فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب^٢، وأن لعبد الله ولدًا أو أولادًا، لم يذكر أسماءهم، لأم ولد^٣.

كذلك يذهب التُّوبُخْتِي والقُمِّي إلى أن عبد الله لم يترك أولادًا بعد وفاته، ولكن القُمِّي يذكر في موضع آخر أن عبد الله وُلِدَ له ولدٌ من أم ولد اسمه محمد، وأنه أرسله إلى جهة اليمن، وانتقل بعد وفاة والده إلى خُراسان وأنه هو الإمام بعد أبيه وهو «القائم». وأن هذه الفرقة صغيرة يوجد بعضها في العراق واليمن ولكن أغلبها يوجد في خُراسان. كما توجد أيضًا شِزْدَمَة تعتقد أن الإمامة باقية في ذرية عبد الله حتى يوم القيامة وأن عبد الله مات وخَلَفَ بعده ولدًا وأن الإمامة في ولده^٤. وهذا يُنْبِتُ على الأقل أن المَهْدِي لم يكن الوحيد الذي يدَّعي أن لعبد الله ذرية من الذكور.

أما الرواية المضادة للرواية الفاطمية فمصدرها هو أبو عبد الله محمد بن علي بن رِزَام الطائى الكوفى الذى كتب مؤلفه فى مطلع القرن الرابع / العاشر. وقد ضاع نص ابن رِزَام الأصلى ولكنه حُفِظَ فى بعض المؤلفات المتأخرة وعلى الأخص عند ابن النديم فى «الفهرست»^٥ والمقرئزى فى «الاتعاظ»^٦؛ والشريف أخو محسن أبو الحسين محمد بن

^١ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، ٥٩ ، مصعب بن الزبير : نسب قريش ، تحقيق ١ .

ليفى بروفسال ، ٦٤ .

^٢ مصعب : نسب قريش ٦٣ .

^٣ نفسه ٦٤ .

^٤ التوبختي : فرق الشيعة ٦٥-٦٦ ؛ القمي : المقالات ٨٧ : ٨٨ ، ١٦٣-١٦٤ .

^٥ ابن النديم : الفهرست ، طهران ١٩٧١ ، ٢٣٨-٢٣٩ .

^٦ المقرئزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ١ : ٢٢-٢٩ ، الخطوط ١ : ٢٤٨ ، المقفى ، ٤ : ٥٤٤-٥٥١ .

على الدمشقي المتوفى سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م، وقد قُفِدَ كذلك نَصُّ أخى محسن وإن حفظه لنا النويرى فى «نهاية الأرب» وابن أَيْك فى «كنز الدرر»^١ والمقرئى^٢، الذى يُقَدَّرُ أوَّل من ذكر أن ابن رِزام كان مصدر أخى محسن.

وأهم ما يميِّز هذه الرواية هو الزعم بأن شخصاً غير علوى يُدعى عبد الله بن مَيْمون القَدْاح هو المؤسس الحقيقى للحركة الإسماعيلية وأيضاً الجِد الأعلى للخلفاء الفاطميين. ومَيْمون القَدْاح كان مولى لبنى مَخْزوم ومن أهل مكة، وهو تلميذ للإمام محمد الباقر وروى عنه العديد من الأحاديث. أما ابنه عبد الله، الذى توفى خلال النصف الثانى للقرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى، فقد كان راوية لجعفر الصادق وهو من العلماء الاعتباريين عند الشيعة الإمامية، لذلك فإن «المختصر» الذى أصدره القَبَّاسيون فى سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م بالطنطن فى نسب الفاطميين ووَقَّع عليه الشريف المرتضى لم يرد فيه ذكر لمَيْمون هذا وابنه.

ولكن لماذا اختار ابن رِزام عبد الله بن مَيْمون القَدْاح الذى عاش فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى ليعتبره مهندس حركة ظهرت فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى بعد عدة عقود من وفاته. إن الرجوع إلى رسالة المهدي التى أرسلها إلى جهة اليمن يُمكننا من إيجاد إجابة مقبولة لهذا التساؤل. فتذكر الرسالة أن جعفر الصادق خَلَف أربعة أولاد: عبد الله وإسماعيل وموسى ومحمد، صاحب الحق فيهم هو عبد الله ابن جعفر^٣. ولما أراد الأئمة أولاد جعفر «إحياء دعوة الحق» خافوا من نفاق المنافقين وحفظوا شخصياتهم بعيداً عن اضطهاد القَبَّاسيين؛ فتسمَّوا بغير أسمائهم وأطلقوا على أنفسهم ثُبَّارَك ومَيْمون وسعيد للفأل الحسن فى هذه الأسماء^٤. وهى إشارة واضحة إلى

^١ النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب ٢٥: ١٨٩-٢٣٣، ٢٣٥-٢٤١، ٢٤٦-٢٤١-٣١١ ابن أَيْك: كنز الدرر

وجامع الغرر ٦: ٢١-٦.

^٢ المقرئى: اتماظ ١: ٢٢.

^٣ المهدي عبد الله: فى نسب الخلفاء الفاطميين ٩.

^٤ نفسه ١٠.

مبدأ « التَّقِيَّة » عند الشيعة^١. فَلَقَّبَ مَيِّمُونُ الذِّى أُطْلِقَ عَلَى أَحَدِ أَوْلَادِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ هُوَ الذِّى قَادَ إِلَى هَذَا الْخَلَطِ .

وَيُضِيفُ الْمَهْدَى فِى رِسَالَتِهِ أَنَّهُ أَشِيرَ بِالإِمَامَةِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ الذِّى تَسْمَى بِإِسْمَاعِيلَ ، وَدَعَا إِلَى أَنَّ الْمَهْدَى سَيَكُونُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ . فَكَانَ كُلَّمَا قَامَ مِنْهُمْ إِمَامٌ تَسْمَى بِمُحَمَّدٍ إِلَى أَنَّ يَظْهَرُ صَاحِبُ الظُّهْرِ الذِّى هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ فَتَزُولُ التَّقِيَّةُ .

وَتَبَعًا لِمَبْدَأِ التَّقِيَّةِ فِى كَثْمِ أَسْمَاءِ الْأُئِمَّةِ يَكُونُ تَسْلِسُلُ الْأُئِمَّةِ الْمُسْتَوْرِينَ كَمَا أَوْرَدَهُ الْمَهْدَى عَبْدُ اللَّهِ فِى رِسَالَتِهِ كَالآتَى : الإِمَامُ عَبْدُ اللَّهِ الْأَفْطَحُ بْنُ جَعْفَرِ الصَّادِقِ ، ثُمَّ بَعْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَكْبَرِ ، ثُمَّ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ ، وَقَدْ تَسْمَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ بِمُحَمَّدٍ خِلاَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ فَقَدْ تَسْمَى بِإِسْمَاعِيلَ^٢. « وَالْإِشَارَةُ فِى الدَّعْوَةِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ، وَالْمَرَادُ بِإِسْمَاعِيلَ عَبْدُ اللَّهِ »^٣.

وَيَشِيرُ جَعْفَرُ بْنُ مَنْصُورِ الْيَمَنِ ، الذِّى حَفِظَ لَنَا هَذِهِ الرِّسَالَةَ فِى كِتَابِ « الْفَرَائِضِ وَحُدُودِ الدِّينِ » ، إِلَى أَنَّ الإِمَامَ مُحَمَّدَ أَبَا الشَّلْفَلَعِ بْنِ أَحْمَدَ أَوْصَى إِلَى ابْنِ أَخِيهِ ، وَأَعْطَاهُ بِاخْتِيَارِ اللَّهِ أَمْرَهُ كُلَّهُ ، وَتَسْمَى سَعِيدُ بْنُ الْحُسَيْنِ وَصَارَتْ الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ زَمَانًا . فَلَمَّا آنَ وَقْتُ الظُّهْرِ أَظْهَرَ مَقَامَهُ وَأَظْهَرَ اسْمَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَظَهَرَ مَعَهُ كَذَلِكَ أَبُو الْقَاسِمِ مُحَمَّدٌ « فَصَبَّحَتْ الْإِشَارَةُ إِلَى الْقَائِمِ بْنِ الْمَهْدَى : مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أُمَى الْقَاسِمِ الْإِمَامِ الْمُنْتَظَرِ لِعَزِّ دَوْلَةِ الدِّينِ وَالْجِهَادِ بِرَايَاتِ الْمُؤْمِنِينَ »^٤.

وَعِنْدَمَا تَسَبَّبَ الْمَهْدَى نَفْسَهُ فِى الرِّسَالَةِ قَالَ : « وَالْوَلِىُّ الْآنَ (يَعْنِى نَفْسَهُ) عَلَى بْنِ

^١ فَقَدْ رَوَى عَنْ جَعْفَرِ الصَّادِقِ قَوْلَهُ : « التَّقِيَّةُ دِينِي وَدِينُ آبَائِي ، وَمَنْ لَا تَقِيَّةَ لَهُ فَلَا دِينَ لَهُ » . (نَفْسُهُ ٩) .

^٢ نَفْسُهُ ١٠ .

^٣ الْمَهْدَى عَبْدُ اللَّهِ : الْمَصْدَرُ السَّابِقُ .

^٤ نَفْسُهُ ١٠ .

^٥ نَفْسُهُ ١١ .

الحسين بن علي بن أحمد بن عبد الله بن عبد الله ثانية بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ... واسمه الظاهر عبد الله بن محمد ، لأنه ابن محمد بن أحمد في الباطن^١ .

نخرج من ذلك إلى أن محمداً أبا المهدي الباطن ليس مثل المهدي من نسل عبد الله ابن جعفر الصادق (الذي تسمى بإسماعيل) ، وإنما من نسل أخيه الثاني إسماعيل (الذي تسمى بمبارك) ، وعلى وجه الدقة هو ابن حفيد إسماعيل^٢ .

وهذا يعنى أن قائمة الأئمة المستورين التي ذكرها المهدي تنتسب في الحقيقة إلى فرعين متوازيين لأبناء جعفر الصادق . فمحمد عم المهدي ليس بمعنى أنه شقيق والده ، وإنما يارجاع نسبهما إلى الأخوين : عبد الله وإسماعيل ابني جعفر الصادق^٣ .

وتشير الرسالة بوضوح إلى أن محمد بن إسماعيل ، الذي يعده الإسماعيليون الإمام السابع ، ليس سوى محمد بن عبد الله الذي تسمى بإسماعيل .

ويبدو أن المقرئ قد أطلع على أحد الرسائل الفاطمية التي تثبت حقيقة نسب المهدي ، أطلعه عليها واحد من بقايا الإسماعيليين الموجودين في صعيد مصر في زمنه . فبعد أن يذكر رواية ابن رزام وأخى محسن ، ذكر نسبه كما ورد في رسالة المهدي التي أرسلها إلى ناحية اليمن ، كما يلي : أبو محمد بن محمد الحبيب (أو الحكيم) بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق^٤ ، أو عبد الله بن التقى بن الوفي بن الرضى ، وهؤلاء الثلاثة يقال لهم : « المستورون في ذات الله تعالى » .

^١ المهدي عبد الله : المصدر السابق ١١-١٢ .

^٢ Hamdani, A. & de Blois, F., «A Re-examination of al-Mahdi's Letter to the yemenits on the Geneology of the Fatimid Caliphs», *JRAS* (1982) p. 182.

^٣ . *Ibid.*, p.185; Halm, H., *op. cit.*, pp. 133-38

^٤ المقرئى : المقفى الكبير ٤ : ٥٢٣ ، اتعاط الحنفا ١ : ٥٠ .

وأوضح أن « الرضى » هو ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق ، وأن « التقي » اسمه الحسين ، واسم « الوفي » محمد^١ .

ومن الغريب أن عماد الدين إدريس ، الداعي الفاطمي الشهير ، قد خلط نَسَب المهدي بين فرع إسماعيل وعبد الله ابني جعفر الصّادق فقال : إنه « المهدي بالله أبو محمد عبد الله بن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق »^٢ .

وقد قام أبو علي محمد الحبيب بن أحمد المكنى « سعيد الخير » بدور هام وأساسى فى تأيخ الدعوة الإسماعيلية . فهو لم يكن إمامًا وإنما عم المهدي وزوج أمه ، وهى من فرع إسماعيل ، استكفله له أبوه بعد أن انتقل من عسكر مُكرم فى خوزستان إلى سَلِيَمِيَّة^٣ . ورغم أن محمد بن أحمد المكنى سعيد الخير لم يكن إمامًا فهو الذى أنفذ الدعاة بعد وفاة والد المهدي إلى اليمن وغيرها . فقد توفى والد المهدي وهو ابن ثمان سنين ، نقل عماد الدين إدريس هذا الخير عن كتاب « سيرة الإمام المهدي » الذى فُقِدَ اليوم^٤ .

وتزوَّج المهدي من ابنة عمه الباطن محمد بن أحمد أبو الشَّلَغَلَع فولدت له ابنة القائم بأمر الله محمد بن عبد الله سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م^٥ . وبذلك فعلينا استبعاد فكرة أن القائم ليس ابنًا للمهدي ، إذ هو بوضوح ابن للمهدي ، وفى الوقت نفسه ابن لابنة الإمام السابق لوالده الإمام محمد بن أحمد . فيكون بذلك قد جَمَعَ بين فرعى أبناء جعفر الصّادق : عبد الله (من والده) ، وإسماعيل (من والدته) .

^١ المقرئى : المقفى الكبير ٤ : ٥٢٤ .

^٢ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٤٣ .

^٣ المقرئى : المقفى الكبير ٤ : ٥٢٥ .

^٤ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٤٤ .

^٥ نفسه ١٤٤ .

كانت المشكلة التي واجهت الدعاة ، كما يذكرها صاحب « رسالة استتار الإمام » ، أن الحسين بن أحمد والد المهدي الحقيقي عندما أتمته الوفاة استودع له أخاه محمد الحبيب المكنى سعيد الخير الذي استبد بالإمامة ونص بها على ولده فهلك هذا الولد وهلك بعده تسعة من أولاده ، كما في رواية « استتار الإمام » . فعلم سعيد الخير أن الحق لا يفارق أهله وجمع دعائه وأعلمهم أنه مستودع للمهدي وسلم له الإمامة^١.

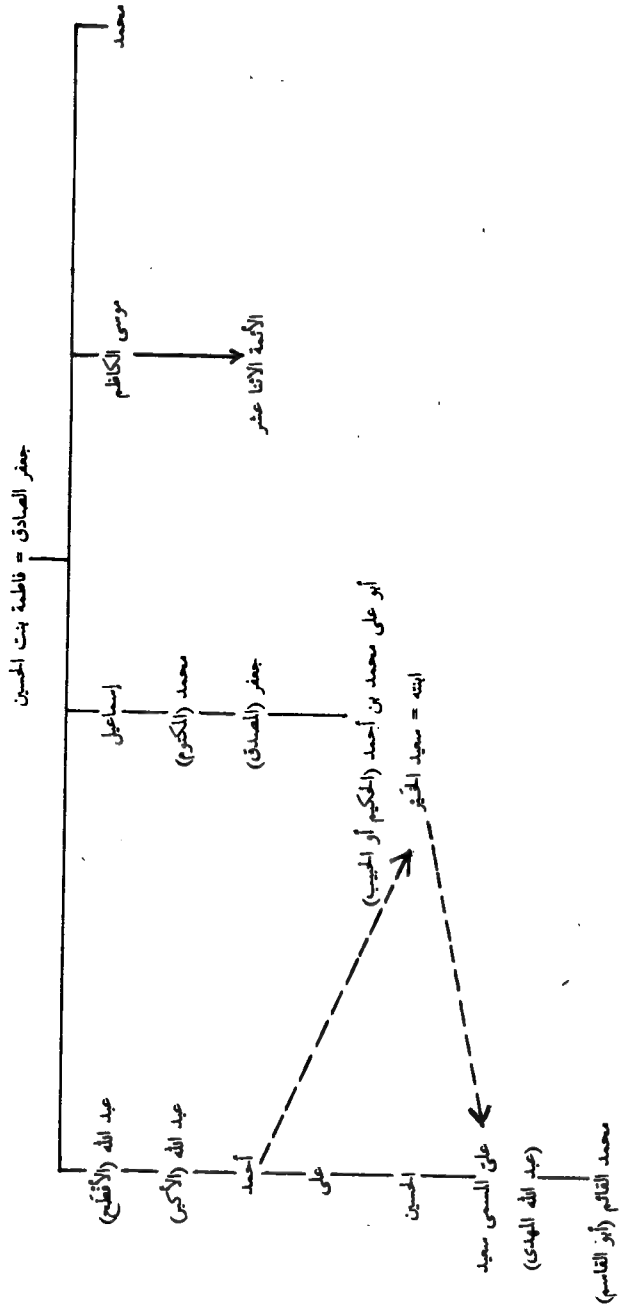
وبما أن سعيد الخير هو الذي أرسل الدعوة لبدء نشر الدعوة الإسماعيلية ، فإن بعض أتباع الدعوة لم يعترفوا بإمامة المهدي وخرجوا عليه وانضموا إلى القرامطة . ونستخلص من رسالة المهدي إلى ناحية اليمن أمورًا ثلاثة : أولاً : التأكيد على أن عبد الله لا إسماعيل هو الذي عيّنه جعفر الصادق ليكون وريثًا له .

ثانيًا : أن المهدي من آل البيت ، وأنه ابن عم في الباطن للرجل الذي كان في زمنه وريثًا للإمامة .

وأخيرًا فإن المهدي ربما كان إمامًا مستودعًا للقائم أبي القاسم محمد الذي يبدأ به دور الظهور الحقيقي ؛ لأنه هو محمد بن عبد الله الذي أشارت إليه الدعوة وزالت به التقيّة .

^١ استتار الإمام ، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية ٢/٤ (١٩٣٦) ٩٥-٩٦ .

نَسَبُ الْمُهْدَى عَبْدِ اللَّهِ



الدَّعْوَةُ الإِسْمَاعِيلِيَّةُ.

حتى إعلان الخلافة الفاطمية

بدأت الحركة الإسماعيلية كتنظيم ثورى سرى يعتمد على مجموعة من الدعاة النشطين المنتشرين فى أرجاء العالم الإسلامى اعتباراً من منتصف القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى . وقَصَدَ هؤلاء الدعاة بوجه خاص الأطراف التى غلب على أهلها الغفلة والجهل ، وعلى الأخص فى أقاليم إيران وخراسان والشمال الإفريقى واليمن الذى وصفه أبو العلاء المعرى بأنه كان « معدناً للمتكسبين بالتدئين والمحتالين على الحق بالتزئيم »^١. وعلى ذلك فقد بدأ القاضى النعمان بن حَيَّون « رسالة افتتاح » الدعوة « بإرسال الإمام الإسماعيلى للداعى ابن حَوْشَب إلى جهة اليمن يدعو إلى قرب ظهور الإمام المهدي من آل فاطمة ، ولا يمدنا القاضى النعمان بأية تفصيلات عن الفترة السابقة على ذلك .

وقد بدأ النشاط المكثف للدعاة فى الظهور فى أعقاب اختفاء الإمام محمد بن الحسن القشكرى ، آخر الأئمة الاثنى عشرية ، فى السُروداب . ويبدو ، كما يقول الدكتور محمد كامل حسين ، إن بعض الشيعة من الاثنى عشرية صُدِّمُوا لاختفاء الإمام الثانى عشر فى السُروداب دون وريث ، فتطلَّعُوا إلى الفرع الآخر من أبناء جعفر الصادق المتسلسل من محمد ابن إسماعيل فتبنوا الدَّعْوَةَ لهم بعد أن ظَلَّ أبناءُ محمد بن إسماعيل بعيدين كل البعد عن أى نشاط علنى للدعوة لأنفسهم طوال هذه المدة^٢. يؤيد هذا الرأى أن دعاة الإسماعيلية الأوائل مثل ابن حَوْشَب وأبى عبد الله الشيعى كانوا فى ابتداء أمرهم اثنى عشرية .

^١ أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن ، القاهرة-دار المعارف ١٩٦٩ ، ٣٧٦ .

^٢ محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية-تاريخها ، نظمها ، عقائدها ، القاهرة-مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ، ٢١ .

وقد قَسَمَ الإسماعيليون العالم الإسلامي إلى اثنتى عشرة جزيرة بكل منها داعٍ مطلق يرأس مؤسسة الدعوة . وكانت جزيرة اليمن من أخصّ الجزائر عند الإسماعيليين ، وقد وصفها الخليفة الفاطمي العاشر الأمر بأحكام الله فى أحد سِجَلَاتِهِ بأنها « من الأضقاع التى يراعى أمير المؤمنين جميع أمورها ويؤثر إصلاح كبير أحوالها وصغيرها وذلك لأنها من مهاجر المسلمين من أوّل الزمان ومحل أهل الإيمان ، منذ اشتدت قاعدة الإسلام إلى الآن ، ولم تخل من أبناء الدعوة الفاطمية وأولياء الدولة العلوية »^١.

كان انتشار الشيعة والمتشيعين فى بلاد اليمن سِرّاً وعلانيةً من أهم الأسباب التى دعت الإمام محمد بن أحمد ، آخر الأئمة المستورين ، إلى إرسال أبي القاسم بن حَوْشَب إلى هناك . وحال يُقَدِّمُ اليمن عن مركز الخلافة ووعورة طرقها بسبب طبيعتها الجبلية ، بالإضافة إلى انشغال القَبَّاسِيِّين بمواجهة ثورة الرُّنَج ، حال بينهم وبين توجيه الجيوش إلى اليمن لإنقاذها من دعاة الإسماعيليين .

واعتبر القاضى الثُّغَمَانُ اليمن « أصل الدعوة وإليها أرسل الداعى ومنها نفذ إلى المغرب وعن صاحب دعوتها أخذ وبآدابه تأدّب »^٢. فدعوة اليمن هى الطُّور الرئيسى فى أطوار تطور الدعوة الإسماعيلية ، فهى التى مَهَّدَت لظهورها علانية وإعلان قيام الخلافة المنتظرة ، رغم أنه كان للإسماعيليين فى أواسط القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى تنظيم دقيق وجذور قوية فى مناطق مثل فارس والشام ولكنها كانت قريبة فى متناول الخلافة القَبَّاسِيَّة ومركزها فى بغداد .

^١ الحامدى : تحفة القلوب فى ترتيب الهداة والدعاة فى الجزيرة اليمنية (متضمن فى كتاب الأزهار للحسن بن نوح) ، نشر صمويل شتيرن فى مقاله القوم Stern, S. M., «The Succession of the Fatimid Imam al-Amir, the claims of the later Fatimid to the Imamate, and the Rise of Tayyibi Ismailism», *Oriens IV* (1951), p. 233.

^٢ القاضى الثُّغَمَان : رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، بيروت-دار الثقافة ١٩٧٠، ٣٢.

وارتبطت دعوة اليمن بشخصيتين رئيسيتين ارتبطت بهما في الوقت نفسه الدعوة الإسماعيلية الأم هما : أبو القاسم الحسن بن قَرْح بن خَوْشَب ابن زادان النجار الكوفي الذي عرف فيما بعد بـ « منصور اليمن » لما أُتيح له من النصر هناك ^١، وأبو الحسن علي بن الفضل الجَيْشَانِي . وأهم مصدر يحدثنا عن ابن خَوْشَب هو « رسالة افتتاح الدعوة » للقاضي الثُّعْمَان الذي ذكر أنه كان في ابتداء أمره على مذهب الإمامية الاثني عشرية وأوضح لنا كيفية انتقاله إلى المذهب الإسماعيلي ولقائه بـ « إمام الزمان » الذي بعثه إلى اليمن بعد فترة إعداد وتكوين بصحبة علي بن الفضل . وأمره أن يقصد هناك مدينة « عَدَن لآعة » قائلًا له : « إلى عَدَن لآعة فاقصد وعليها فاعتمد ، فمنها يظهر أمرنا وفيها تعز دولتنا ومنها تفرق دعائنا » ^٢.

ولن أعيد هنا ذكر ما جرى من أحداث لابن خَوْشَب وصاحبه في اليمن وما حققه من نصر هناك ومخالفة ابن الفضل له . وما يهمنا في هذه الأحداث هو أن الإمام المستور لما تأكد من ظهور دعوة ابن خَوْشَب وتمكنها في اليمن أرسل الداعي أبا عبد الله الشيعي (الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا) إلى اليمن وكتب إلى ابن خَوْشَب أن يُصَرِّه ويرشده ويُلقِّنه ، ووَصَّى أبا عبد الله في الوقت نفسه أن يمثل سيرته وينظر إلى أفعاله ويحذِّبها ^٣.

وذكر القاضي الثُّعْمَان أن الإمام طلب إلى أبي عبد الله أن يذهب بعد ذلك حيث يشاء يدعو ، وقيل إنه حدَّد له المغرب وأرسله إلى بلد كُتَّامة ، وعلَّق على ذلك بأنه « أثبت

^١ راجع عنه ، القاضي الثُّعْمَان : افتتاح الدعوة ٣٢-٦٣ ، ١٤٩-١٥٠ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ٥٩-٧٨ ، حسين الهمداني : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ، القاهرة ١٩٥٥ ، ٢٩-٤٨ ، أمين فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن ، القاهرة ١٩٨٨ ، ٩١-٩٦ ، Halm, H., «Die Sirat Ibn Hawshab : Ismailitische da'wa im Jemen und die Fatimiden», *Die Welt des Orients* Xli (1981) pp. 108-35; Madelung, W., *El* ² art. *Mansūr al-Yaman* VI, pp. 424-25 .

^٢ القاضي الثُّعْمَان : افتتاح الدعوة ٤١ .

^٣ المصدر نفسه ٥٩ عماد الدين إدريس : المصدر السابق ٧٢ .

الأمرين^١. ويفهم من نص «سيرة جعفر الحاجب»، وما ذكره ابن خلدون والمقرئى، أن الإمام أرسله بعد اليمن إلى مصر وأنه التقى بحاج كُثَامَة بمكة في طريقه إلى مصر فمضى معهم إلى المغرب^٢. وقد عَدَّ المقرئى أبا عبد الله الشيعى «أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامة الممالك العظام من غير مال ولا رجال»^٣.

كان الشمال الإفريقى أرضًا مهيأةً لثُغْرَة المذهب الإسماعيلى، ذلك أن التشيع منذ نشأته اتخذ صبغة مضادة للعرب وللعصبية العربية. فكما اعتمد فى المشرق على الموالى من الفرس اعتمد فى المغرب على الموالى من البِزْزَر، فقامت فيه بالفعل أسرة شيعية من الفرع الحسنى أُسِّسَتْ سنة ١٧٣هـ/٧٨٨م «دولة الأدارسة» التى سيطرت بدون مشقة كبيرة على المغرب الأقصى^٤، كما اشتمل المغرب الأوسط فى النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى - باستثناء الأراضى التابعة لإمام تاهرت - على إمارات كثيرة تابعة للعلويين بلغ عددها كما يذكر الجغرافى يعقوبى، الذى زار المنطقة بين سنتى ٢٦٣هـ/٨٧٦م - ٢٧٦هـ/٨٨٩م، تسع إمارات علوية^٥.

وقد كان فرار العلويين من الشرق هربًا من الاضطهاد الذى تعرضوا له هناك. وكانوا جميعًا تقريبًا من فرع الحسن بن على الذين لوحقوا من العباسيين دون هوادة، بينما احترم العباسيون جعفر الصادق وذريته عامة. وقد تمكَّن هؤلاء العلويون من التمرُّكُز فى الشمال الإفريقى فى الأراضى التى ضعفت فيها سلطة الخليفة العباسى

^١ القاضى النعمان : افتتاح الدعوة ٩٥-٦٠.

^٢ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣١، المقرئى : اتعاظ ١ : ٥٠.

^٣ المقرئى : اتعاظ الخنفا ١ : ٦٨.

^٤ عن هذه الدولة راجع، حسن على حسن : دولة الأدراسة بالمغرب قيامها وتطورها حتى منتصف القرن الثالث الهجرى، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة.

^٥ يعقوبى : كتاب البلدان، ليدن ١٨٩٢، ٣٥١-٣٥٦، Talbi, M., *L'Emirat Aghlabide 184-296*.

ومثليه ، ولكن وجودهم لم يُمثل ثورة على السلطة العباسية وإنما فرازا من اضطهادها لهم^١. ولا شك في أن المذهب الشيعي قد دخل إلى إفريقية بصورة أكثر سرية وتنظيمًا قبل وصول الداعي الإسماعيلي أبي عبد الله الشيعي ، فقد وصل أول تسلسل شيعي إسماعيلي إلى إفريقية في أواسط القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي قبل نحو ١٣٥ عامًا من وصول أبي عبد الله الشيعي إلى هناك ، وهي بعثة الداعين أبي سُفْيَان والحُلَوَانِي . وقد ذكر خبر هذين الداعين باقتضاب ابن الأثير - الذي نقله في أغلب الظن عن المؤرخين الرقيق القيرواني وعبد العزيز بن شَدَّاد - والتَّوَيَرِي وابن خَلْدُون والمقرئ^٢ ، بينما لم يذكرهما إطلاقًا ابن عِذَارِي وابن حَمَّاد الصُّنْهَاجِي . أما تفصيل أخبار بعثة أبي سُفْيَان والحُلَوَانِي ونشاطها ، فقد وَصَلَ إلينا عن طريق التاريخ الرسمي للدولة الفاطمية من خلال كتاب « افتتاح الدعوة » للقاضي النُّعْمَان^٣ . ويفيدنا هذا الكتاب بأنهما قدما من الشرق للاستقرار في المغرب سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م ، وأن الذي بعثهما - فيما يقال - الإمام جعفر الصَّادق وأمرهما أن يسطرا ظاهرا علم الأئمة وينشرا فضلهم ، وطلب منهما أيضًا اجتياز حدود إفريقية ذاتها والافتراق والاستقرار بين البزير .

وقد استقر أبو سُفْيَان بضواحي مَزْمَاجْنَة في تالا التي صارت بتأثيره « دار شيعة » بصورة تدريجية وحافظت على ذكراه وتعاليمه بعد موته بورع شديد^٤ . أما الحُلَوَانِي ، الذي عاش « دهرًا طويلًا بعد أبي سُفْيَان » ، فذهب إلى ناحية سوجمار واستقر بالناظور على حدود بلاد كُتَّامَة « وَتَشَّيْعَ كثيرٌ منهم على يديه » . وكان يقول لهم : « يُعِثُّ أَنَا وأبو سُفْيَان فقيل لنا : اذهبا إلى المغرب فإنما تأتيان أرضًا بورًا فاحرثاها واکريها وذلَّلاها

^١ Talbi, M., *op. cit.*, p. 569 .

^٢ ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣١ ؛ التويري : نهاية ٢٨:٧٤-٧٥ ؛ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣١ ؛ المقرئ : امتاظ ١ :

٤٥٠ ؛ Talbi, M., *op. cit.*, p. 574 .

^٣ القاضي النعمان : افتتاح ٥٤-٥٨ ، وعنه عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٣٢٤-٣٢٥ .

^٤ نفسه ٥٤-٥٦ ، نفسه ٣٢٤-٣٢٥ .

إلى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذلة فيبذر حبّه فيها ^١. وأضاف القاضي النعمان ، مصدر كل هذه المعلومات ، أنه كان « بين دخولهما المغرب ودخول صاحب البذر - وهو أبو عبد الله - مائة وخمس وثلاثون سنة » ^٢.

وهكذا فإن القاضي النعمان قد حاول من خلال هذا النصّ الإيحاء بأن المهمة التي أوكلت إلى أبي عبد الله الشيعي لم تكن سوى تنويع لعمل دُبر بعناية بدىء به قبل مائة وخمس وثلاثين عامًا مضت . ولكن الاحتمال الذي يمكننا الأخذ به هو أن أبا سفيان والحلواني كانا تلميذين لجعفر الصادق ولم يقوما بدعوة بالمعنى المعروف في الاصطلاح الإسماعيلي ، وإنما قاما بشيء مختلف ، وأبسط من ذلك بكثير تمثّل في نشرهما محبة أهل البيت وفضلهم الذي صاحبه دون شك نشر الأصول العامة للمذهب الشيعي وهو الذي أطلق عليه القاضي النعمان « ظاهر علم الأئمة » ، فيكون أبو سفيان والحلواني رائدين بهذا المعنى وهيتاً التربة للداعي الإسماعيلي ^٣.

ولا شك أن إنجاح مهمة أبي عبد الله الشيعي كان يتطلب إيجاد مبشرين يعلنون عن ظهوره وظهور المهدي إثره ، وهو الأمر الذي أسهم في تجسيد قصة أبي سفيان والحلواني لتحقيق علامات وصول الفاطميين إلى السلطة بعد مراحل ثلاث ؛ هي الحزّ والتبذر والحصد . فيذكر ابن الأثير والمقرئزي أن ابن حوشب عندما عهّد إلى أبي عبد الله الشيعي بالدعوة في المغرب قال له : إن أرض كُتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان ، وقد ماتا وليس لها غيرك ، فبادر فإنها موطأة ممهّدة لك ^٤.

في هذا الوقت وقد الإمام الإسماعيلي علي بلاد الشام وأقام في مدينة « سَلْمِيّة » قرب حمص يعاشر قومًا من أهلها هاشميين ويظهر لهم أنه عباسي . وفي الوقت نفسه

^١ القاضي النعمان : اختاح ٥٧-٥٨ ؛ عماد الدين إدريس : عيون ٣٢٥ .

^٢ نفسه ٥٨ ، وانظر كذلك Dachraoui, F., *Le Califat Fatimide au Maghreb* pp. 56-58.

^٣ Talbi, M., *op.cit.*, pp. 577-78.

^٤ ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣١ ، المقرئزي : اتعاظ ١ : ٥٥ .

كان يلاطف كل من يلي سُلَمية ويبالغ في الإحسان إليه حتى يكسبه إلى جانبه^١. وقد استراب أحد ولاة المدينة من الأتراك في أمر الإمام الإسماعيلي وأخذ يتعرف أخباره ويسأل عنه الناس، فلما أحسَّ به الإمام كتب إلى دعائه ببغداد للعمل على عزله ونجحوا في مهمتهم. وعندما عاد الوالي إلى بغداد أَسْرَ إلى الخليفة العباسي ما قبل له عن شخص الإمام الإسماعيلي وأقنعه ألا يتردَّد في إلقاء القبض عليه^٢.

وتصادف أن خَرَجَ في هذا الوقت رجلٌ بالشام يزعم أنه قَزَمَطِي^٣ (نحو سنة ٩٠٢/٢٨٩)، فلم يشك الخليفة العباسي في أنه خرج يدعو للإمام الإسماعيلي خاصة وأنه سار يريد سَلَمِيَّة. فأمر الخليفة الوالي التركي بالتوجه إلى سَلَمِيَّة وأن يسبق القَزَمَطِي ليقبض على الإمام. كتب الدُّعَاة ببغداد إلى الإمام بما جرى ليتدبَّر أمره، فأعد الفُتَّة ليخرج من سَلَمِيَّة^٤. وهكذا فلولاً حركة القرامطة بالشام لما عرف العباسيون عن الإمام الإسماعيلي شيئاً، وكانت حركتهم إيداناً بظهور الإسماعيلية على مسرح السياسة بصفة إيجابية بعد أن ظَلَّت مستترة لا يعرف أحدٌ شيئاً عنها زهاء قرن من الزمان^٥.

وأهم مصدر يحدثنا عن رحلة المهدي (الإمام الإسماعيلي) من سَلَمِيَّة إلى مصر، ثم إلى الشمال الإفريقي وما صاحبها من أحداث هو «سيرة الحاجب جعفر»، الذي صاحب المهدي في رحلته ورواها لنا شخصٌ يعرف بمحمد اليماني. تذكر السيرة أن المهدي أمر أصحابه بالأخذ في أهبة السفر والخروج معه «وأظهر لهم أنه يريد إلى

^١ محمد اليماني : سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سلمية إلى سجلماسة وخروجه منها إلى رقادة، تحقيق و. ابغانوف، مجلة كلية الآداب-الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦) ١٠٨.

^٢ نفسه ١٠٩.

^٣ راجع، المسعودي : مروج الذهب ٥ : ٩٢، مؤلف مجهول : العيون والحداثق ٤ : ١٠٧.

^٤ محمد اليماني : المصدر السابق ١١٠.

^٥ محمد كامل حسين : المرجع السابق ١٥.

اليمن^١، يقول جعفر : « فسرنا مع المهدي لا نشك أن إلى اليمن سيرنا »^٢. سار الراكب إلى طَبْرِية ومنها إلى الرُّمَّة حيث تَوَجَّه إلى مصر فاستقبلهم بها الداعي أبو على صهر الداعي فيروز الذي كان في صحبة المهدي . وقد طلب المهدي من أبي على أن ينزله عند من يثق به ، فأنزله عند رجل يقال له ابن عَيَّاش^٣. في ذلك الوقت وصل الكتاب الوارد من بغداد بصفة المهدي وطلَّب القبض عليه ، فاستفسر عامل مصر من ابن عَيَّاش عن أمر الرجل الذي ينزل عنده ، فأخبره أنه رجلٌ شريفٌ تاجر و « أن الذي أتى الرسول في طلبه قد أعطيت خبره أنه توجَّه إلى اليمن قبل ورود الرسول بمدة طويلة »^٤.

كان رقاء المهدي حتى هذا الوقت يعتقدون أنهم سيتجهون إلى اليمن ، إلَّا أن الكتاب الوارد من بغداد إلى عامل مصر بصفة المهدي وطلَّب القبض عليه ، جعله يُفَصِّح عن نيته في الخروج إلى المغرب وأسَرَّ بها إلى حاجبه جعفر فشقَّ ذلك على مرافقيه وخاصة داعيته الرئيسي فيروز الذي وصفه جعفر بأنه « داعي الدعاة وأجلَّ الناس عند الإمام وأعظمهم منزلة ، والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده ، وأنه باب الأبواب إلى الأئمة »^٥، والذي خاب أمله في الاتجاه إلى اليمن فوقع المهدي بين خطرين : عُثَال الخلافة العبَّاسية الذين كانوا يتعقبونه ، ودُعائِهِ أَنفُسَهُم الذين انشَقُّوا عليه وأصبح في مقدورهم قَضَح أمره .

^١ محمد اليماني : المصدر السابق ١١٠-١١١ ، القاضي النعمان : افتاح ١٤٩ ، النوري : نهاية-خ ٢٦ : ٣٢ ،

المقريزي : انعاظ ١ : ٥٢ .

^٢ نفسه ١١١ ، ١١٤ .

^٣ نفسه ١١٣ .

^٤ نفسه ١١٣ .

^٥ نفسه ١١٤ ، القاضي النعمان : افتاح ١٥٠-١٥١ ؛ Jiwa, Sh., «Initial Destination of the Fatimid Caliphate : the Yemen or the Maghrib ?» , *British Society for Middle Eastern Studies Bulletin*

. 13 (1986) . pp. 15-26

^٦ نفسه ١١٠ ، نفسه ١٥٠ .

كان نجاح الداعي أبى عبد الله الشيعى فى نشر الدعوة وسط قبيلة كُتامة فى إفريقية وما حَقَّقَهُ من نصر على الأغالية من الأسباب المباشرة التى دعت المهدي إلى التوجه إلى إفريقية . وقد أدى ذلك إلى انشقاق داعيته فيروز الذى توجه إلى اليمن ، بينما أكد المهدي نيته وبعث جعفر الحاجب إلى سَلْمِيَّة ليحضر نساء المهدي وكنوزه ويلحق به فى طرابلس الغرب^١ ، ثم أرسل أبى العباس الشيعى ليلحق بأخيه أبى عبد الله فى إفريقية ويعرفه بقرب قدوم المهدي^٢ . ونجح المهدي فى نهاية الأمر بعد تفاصيل كثيرة مذكورة فى كتب الدَّعْوَةِ من الوصول إلى سِجْلَمَاسَة عن طريق قَشْطِيلَة وتَوَزَّر وإيكجان . وفى سِجْلَمَاسَة ألقى عليه القبض أمير المدينة وسجنه ، فى الوقت الذى كان أبو عبد الله الشيعى فى طريقه إلى تقويض السلطة الأغلبية ونجح فى السيطرة على مدينة رَقَادَة - عاصمة الأغالية - وطرده زيادة الله آخر أمرائهم فى رجب ٢٩٦هـ / مارس سنة ٩٠٩م ، وذهب إلى سِجْلَمَاسَة حيث خَلَّص المهدي من السجن واصطحبه ليدخل به منتصراً إلى رَقَادَة وأوقف الدَّعَاة على أنه الإمام الذى دعا إليه وعُوف جميع المؤمنين به وقال : « هذا مولاي ومولاكم وولِّي أمركم وإمام دَهركم ومهديكم المنتظر الذى كنت به أُبَشِّر ، قد أظهر الله عَزَّ وَجَلَّ أمره كما وعده »^٣ ، فبايعه المؤمنون ودُعِيَ له بالخلافة يوم الجمعة ٢١ ربيع الثانى سنة ٢٩٧هـ / ١٥ يناير سنة ٩١٠ م ، وتلقَّب بـ «المَهْدَى لدين الله» ، وبـ «أمير المؤمنين»^٤ .

^١ محمد اليماني : المصدر السابق ١١٤ .

^٢ نفسه ١١٦ ، القاضي النعمان : افتاح ١٥١-١٥٤ .

^٣ القاضي النعمان : رسالة افتاح الدعوة ٢٤٥ ، ٢٥٣ .

^٤ محمد اليماني : المصدر السابق ١١٦-١١٩ ، نفسه ٢٤٥-٢٤٩ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين

بالمغرب ١٣١-١٥٤ . وراجع *al-Mahdi ubayd* art. *El*² , pp. 115-124 , id., *Dachraoui, F., op. cit.* , pp. 1233-1234 *Allah V* ، وانظر مقال ليندساي الذى حاول أن يوازى فيه من خلال «افتاح الدعوة» للقاضي

النعمان بين سيرة النبي ﷺ وسط أهله فى مكة وبين سيرة أبى عبد الله الشيعى فى قبيلة كتامة البربرية ، Lindsay J.E. «Prophetic Parallels in Abu Abd Allâh al-Shi'î's Mission among the Kutâma Berbers,

893-910», *JMES* 24 (1992), pp. 39-56

ومثلما تخلّص العباسيون من أبى مُشَلِّم الخُرَّاسانى مؤسّس دولتهم ، تخلّص الإمام المهدي من داعيته الرئيسى أبى عبد الله الشَّيعى الذى مَهَّد له الطريق فى إفريقية وكذلك أخيه أبى العبَّاس الداعى^١، سواء لأن الداعى شك فى شخصية المهدي نفسه أو لأن المهدي أراد أن يتخلّص من سلطته ونفوذه المتزايد فى وسط قبيلة كُتَّامة . وهو الأمر الذى أثار الكُتَّامين بعض الوقت ضد المهدي^٢.

وقد حاول القاضى النُّعمان أن يُحْمَل أبا العبَّاس الشَّيعى مسئولية الانشقاق الذى دعى المهدي إلى التخلّص منهما معاً^٣.

^١ القاضى النُّعمان : افتتاح ٢٦٦-٢٦٧ ، عماد الدين إدرىس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ١٦٢-١٦٨ ، المقرئى : اتعاظ ١ : ٦٧-٦٨ ، النورى : نهاية-خ ٢٦ : ٣٣-٣٤ .

^٢ عماد الدين إدرىس : المصدر السابق ١٦٣ ، ١٧٠ .

^٣ القاضى النُّعمان : افتتاح ٢٥٩-٢٦٦ ، ولزيد من التفصيلات حول هذه الفترة التى تعد مدخلاً لموضوع الكتاب الرئيسى راجع الدراسة الهامة لهانز هالم Halm , H., *The Empire of the Mahdi. The Rise of the Fatimids*, translated from the german by Michael Bonner , Leiden . E. J. Brill 1996 , pp. 158-

الكتاب الأول

الدَّعْوَةُ - الدَّوْلَةُ

الفصل الأول

قيام الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا

العالم الإسلامي في مطلع القرن الرابع الهجري

عُضْرُ انْتِصَارِ الشَّيْعَةِ

ما كاد القرن الثالث الهجري يُشرف على نهايته إلا وكان الفاطميون الشيعة قد نجحوا في ترويج نشاطهم السري المكثف الذي قام به «تنظيم الدعاة» والذي استمر أكثر من مائة وخمسين عامًا، بإعلان قيام الخلافة الفاطمية في إفريقية في سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٨م^١. وهكذا، فبعد إعلان قيام الخلافة الأموية في الأندلس بعد ذلك بنحو عشرين عامًا في سنة ٣١٧/٩٢٩، أصبح يتقاسم حكم العالم الإسلامي خلافتان ثلاث؛ خلافتان سُنيّتان: الخلافة العبّاسية في بغداد والخلافة الأموية في قُرطُبة، وخلافة ثالثة شيعية هي الخلافة الفاطمية الإسماعيلية في إفريقية. وعلى الجانب الآخر كانت الدولة البيزنطية المسيحية في القسطنطينية ترتبص بها وتحتجّ الفرص لاستغلال هذا الانقسام الذي اعترى الإمبراطورية الإسلامية.

وقد بدأ الضعف يُدبّ في أوصال الخلافة العبّاسية السُنيّة بعد أن أخذت في التفكك إلى دُولٍ صغيرة، وخاصةً ابتداءً من عصر الخليفة الرّاضى (٣٢٢-٣٢٩/٩٣٤-٩٤٠). فقد انفصلت الأقاليم الشرقية عن الخلافة، بينما أخذت بقية الممتلكات العبّاسية تستقل تدريجيًا عن سيطرة الخلافة المركزية^٢.

^١ انظر فيما سبق ص ١٠٩-١١٨.

^٢ مؤلف مجهول: العيون والحدائق ٤: ٢٩٨-٢٩٩؛ ابن الأثير: الكامل ٨: ٣٢٢-٣٢٤ وانظر كذلك مقال كانار . Canard, M., «L'impérialisme des Fatimides et leur propagande», *AIEOVI* (1947), pp. 156-193

وصحب ذلك مدّ شيعي كبير شهده القرن الرابع الهجري أفقد الخلافة العباسية الشيعة الكثير من سيطرتها وسطوتها، حتى نستطيع أن نُطلق عليه «عصر انتصار الشيعة». فقد نجح الزيدون في إقامة دولة حاكمة في طبرستان سنة ٨٦٤/٢٥٠ وفي اليمن سنة ٨٩٧/٢٨٤، واستولى القرامطة على جنوب العراق والبحرين والأحساء. ولم يمض نحو ثلاثون عامًا على انتصار الفاطميين إلا وقد ظهر جليًا انهيار سلطة الخلافة العباسية، عندما نجح البويهيون الشيعة في فرض سيطرتهم على بغداد مركز الخلافة السنية، فكثر بها الفتن بين الشيعة والسنة، وجهر بالأذان بـ «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» في الكرخ، كما أقيم مأتم عاشوراء لأول مرة في بغداد^١.

وفي الواقع فقد أصبحت الخلافة العباسية، بعد دخول البويهيين إلى مسرح الأحداث، مؤسسة اسمية بحتة تُمثّل السُلطة العليا للإسلام الشّي، وتُضفي الشرعية على السلطات المطلقة التي تتمتع بها العديد من الولاة، الذين كانت لهم السيادة الحقيقية سواء في الأقاليم أو في العاصمة العباسية نفسها^٢. وبالرغم من هذا الانتصار الشيعي الكبير، الذي لم يتكرر أبدًا بعد ذلك، فإن هذه الأنظمة الشيعية لم تجد مجالًا للتعاون فيما بينها، مع أنها استطاعت أن تُسيطر على القسم الأكبر من العالم الإسلامي بضعة عقود، لأنها أخذت في الواقع تتخاصم بينها دفاعًا عن مصالحها الإقليمية^٣.

وفي وسط هذا التلاحق المطرد للأحداث كان الفاطميون يمثلون القوة الفتية الطموحة الآخذة في النماء والتي تريد مدّ نفوذها وسيطرتها، بدلًا من الخلافة العباسية المنهكة المتداعية، على كل الأراضي الإسلامية، وأخذوا وهم في إفريقية يتحيتنون الفرص

^١ ابن الجوزي: المنتظم ٧: ١٥ و ١٩ و ٢٣ و ٣٣ و ٣٨ و ٤٣ و ٤٧؛ المقرئ: الخطط ٢: ٣٥٧-٣٥٨.

^٢ Lewis, B., *El*² art. 'Abbāsides I, p. 20; Cahen, Cl., *El*² art. Buwayhides ou Buyides I, pp. 1390-1397.

^٣ Shaban, M. A., *Islamic History A.D. 750-1055 (A.H. 132-448)*, A New Interpretation, Cambridge 1976, p. 121.

للعودة إلى الشرق لتحقيق حلمهم فى استرداد حكم العالم الإسلامى من منافسيهم السنيين^١.

الصُّعُوبَاتُ الَّتِي وَاجَهَتْ الْفَاطِمِيَّينَ

فى إفريقيا

اصطدم الفاطميون فى المرحلة الإفريقية بالعديد من الصُّعَاب ، فقد كان الشمالُ الإفريقى عندما قدم إليه الفاطميون منقسمًا بين أهل السُّنَّة (وخاصة أصحاب المذهب المالكى) والخوارج (وخاصة الإباضية والصُّفريّة) ، وجاء المذهب الإسماعيلى ليضيف مصدرًا جديدًا للاضطراب فى المنطقة . كذلك فإن وجود فريقين متنافسين من القبائل البربرية : زَنَاتَة فى الغرب وصِنَهَاجَة - التى تنتمى إليها كُثَاثَة - فى الشرق كان عنصرًا مساعدًا للاضطراب والقلق فى المنطقة .

كما كانت هناك أيضًا أسرتان حاكمتان ذات أصول شرقية : الدولة الرُّشْتُمِيَّة الخارجية فى تَاهَرُوت والدولة الإدريسية العلوية فى فاس^٢.

ومنذ وصول المَهْدَى إلى إفريقيا أدرك أنها لن تستطيع أن تُحقِّق أهداف الخلافة الفاطمية أولًا لِقِلَّةِ مواردها ، وثانيًا لمقاطعة علماء المالكية ومقاومتهم لهم ، ثم بسبب الطبيعة الجغرافية الجبلية للشمال الإفريقى وصعوبة السيطرة عليها ، وأخيرًا لأن أنظار الفاطميين كانت مُتَّجِهَةً دومًا إلى الشرق . فقد أدرك الفاطميون تمامًا أنهم إذا أرادوا أن يكونوا الحُكَّامَ الوَحِيدِينَ للعالم الإسلامى فليس أمامهم حُلٌّ سوى التوجُّه إلى الشرق وإلى مصر بصفة خاصة . فقد كان العالم الإسلامى بحاجة ماسة إلى مركز متوسِّط يتولَّى

^١ المقرئى : الخطط ٢ : ٣٥٧ - ٣٥٨ .

^٢ Canard, M., *El*² art. *Fatimides II*, p. 872 .

قيادته، وموقع مصر الاستراتيجي في ملتقى قارات ثلاث وسيطرتها على طرق التجارة الدولية التي تربط أوروبا بالهند غنى عن البيان، فلا غرو أن كان حلم الفاطميين في إفريقية هو العودة إلى المشرق وإلى مصر بصفة خاصة.

المقاومة السنية

وقد وَجَدَ الفاطميون صعوبات كبيرة في بسط نفوذهم على المجتمع الإفريقي السني، حيث واجه الخليفة المهدي مقاطعة سلبية وإنكارًا صامتًا جابهه به أهل إفريقية وعلماءها المالكية. فقد بُنيت المالكية السنية أقدامها في القيروان وغيرها من دول إفريقية، وجاهره علماء المذهب بإنكار مذهبه وازوروا عنه وتبعهم في ذلك عامة الناس. ووقفت إفريقية كلها موقف معارضة سلبية وعدم تعاون شديد الخطورة على كيان الدولة الناشئة^١. وبما أنه لا سبيل إلى فرض دولة على أناس يقاطعونها مقاطعة تامة ويعيشون بعيدًا عنها، فقد كان طبيعيًا أن يبحث الفاطميون عن «عَصَبِيَّة» يعتمدون عليها، فلم تستقر دعائم نظامهم هناك إلا بقوة أنصارهم الكتّامين الذين أشاد الخليفة المُعزّ، في كل مناسبة، بفضلهم على الدعوة^٢.

لذلك فقد حرص الخليفة المهدي على البعد عن رَقادة القيروان، مركز المقاومة السنية، وأسس مدينة جديدة في سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م هي «المَهْدِيَّة» على طرف

^١ راجع تفصيل ذلك عند المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ٢: ٧٤-٩٦، Marçais, G., *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, Paris 1946, pp. 136-162; Monès, H., «Le Malékisme et l'échec des Fatimides en Ifriqiya», *Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal*, Paris 1962; I, pp. 209-225

إبان قيام الدولة الفاطمية، المجلة التاريخية المصرية ٢٣ (١٩٧٦) ٧٣-١٠٦.

^٢ القاضي النعمان: المجالس والمساروات ٩٦، ٢٠٣، ٢١٨، ٢٥٤، ٢٤٦، ٢٥٥، ٣٢١؛ عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين في المغرب ٦٠٦-٦٠٧.

الساحل الشرقي لإفريقية فوق جزيرة متصلة بالبر كهية كَفْ مُتَّصِلَة بزند ، وإن لم ينتقل إليها إلا في عام ٣٠٨هـ / ٩٢٠م بعد أن نُقِر ميناءها في الصخر وابتنى بها دار صناعة ونُقِر بداخل المدينة الأفرء وجَلَب إليها الماء ، كما بنى بها مسجداً جامعاً وقصرًا كبيراً^١. وقال بعد أن شاهد تمام بنائها « اليوم آمنت على الفاطميات »^٢.

كان المَهْدِي يهدف من وراء بناء هذه المدينة الساحلية إلى مواجهة البيزنطيين الذين حاولوا التحرش به من جنوب إيطاليا ومن صقلية ، إلى أن نجح في بسط سيطرة الفاطميين على الحوض الغربي للبحر المتوسط ومد النفوذ الفاطمي على جزيرة صقلية واستتاب بها أسرة عربية تنتمي إلى قبيلة بني كَلْب ، وقد عمل الفاطميون كذلك على تقييد دور الأمويين في الأندلس في صراعهم مع البيزنطيين^٣.

محاولات الفاطميين فتح مصر

في السنوات الأولى لحكم الخليفة المَهْدِي باءت محاولتان لفتح مصر بالفشل (٣٠١هـ / ٩١٣م ، ٣٠٧هـ / ٩١٩م) ، وتكررت المحاولات في زمن ابنه القائم بأمر الله (٣٢٣هـ / ٩٣٤م) ولكنها لم تُحَقِّق شيئاً على الإطلاق^٤ ، بل نَبَّهَت الخلافة العباسية إلى

^١ انظر البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (الجزائر ١٨٥٧) ٢٩-٣٠ مؤلف مجهول : الاستبصار ١١٧-

١١٨ المقيزي : اتعاظ ١ : ٧٠-٧١ وعن مدينة المهديّة راجع Lézine, A., *Mahdiyya. Recherches d'archéologie islamique* Paris 1965; Fu'ad sayyid, A., *La capitale de l'Egypte jusqu'à l'époque fatimide*, Beirut 1998, pp. 95-101; Halm, H., *op. cit.*, pp. 214-221

^٢ المقيزي : اتعاظ ١ : ٧١.

^٣ Canard, M., *op. cit.*, p. 873

^٤ عن محاولات الفاطميين المتكررة لفتح مصر راجع ، الطبري : التاريخ (القاهرة ١٩٧٢) ١٠ : ١٤٨-١٥٠ القاضي النعمان : افتتاح الدعوة ٣٢٦هـ ابن طاهر : أخبار ١٤-١٥ ابن الأثير : الكامل ٨ : ٨٤ ، ٨٩ ، ١١٣ ابن خلكان : وفيات ٥ : ١٩-٢٠ ابن عذاري : البيان المغرب ١ : ١٧٠-١٧٢ ، ١٨١-١٨٢ ، ١٣٥١ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣٨-٤٠ المقيزي : الخطط ٩ : ١٧٤ ، ٣٢٧-٣٢٩ ، ٣٥١ ، اتعاظ ١ : ٦٨-٧٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، للمقفي ٤ :

٥٦٢ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ١٧٦-١٨٩ Dachraoui, F., *Le Califat fatimide au Maghreb 296-362 909-973-Histoire politique et Institutions*, Tunis 1981, pp. 142-

أن استمرار هذه المحاولات يتطلب وجودًا عسكريًا قويًا في مصر، فقد اكتشف القائد مؤنس الخادم، الذي تصدّى لهجوم الفاطميين المتتالي، أن للفاطميين عملاء كثيرين بمصر^١، فأسند العباسيون إلى محمد بن طُفُج الإخشيد ولاية مصر بالإضافة إلى ولايته على الشام، ولم يكن تعيينه في الواقع سوى عودة إلى النظام الطولوني الذي سَقَطَ عام ٢٩٢هـ/٩٠٤م^٢.

وقد فسّر فرحات الدُّشراوى في كتابه «الخلافة الفاطمية في المغرب» محاولات الفاطميين المتكررة لفتح مصر تفسيرًا عاطفيًا أرجعه إلى أن المهدي والقائم، ذوى الأصول الشرقية، كان يحركهما في هذه المحاولات حنينٌ إلى الشرق وكانت أنظارهما دائمًا موجهة إليه. بينما كان خليفتهما المنصور والمُعزّ، ذوى الأصل الإفريقي، أكثر التصاقًا بإفريقية وقضاياها الاقتصادية والاجتماعية، فشُغِلَ المنصور بإخماد ثورات التمردين (حركة مَخْلَد بن كَيْدَاد التُّكَّارَى سنة ٣٣٦هـ/٩٤٨م)، بينما اهتم المُعزّ مباشرة بالقضايا الخارجية فوطد سيادته ونفوذه في المغرب الأقصى، ولم يُحوّل أنظاره إلى مصر إلّا في أخريات أيام خلافته^٣.

وهذا التفسير ينقصه الإشارة إلى إلحاح مصادر الدعوة الفاطمية نفسها بأن الأئمة والدعاة على السواء كانوا يتحيتون الفرصة للعودة إلى المشرق^٤ ويكون التفسير الصحيح

150, 163-164, id., *El² art. al-Kā'im bi Amr Allāh*, IV, p. 479; Lev, Y., «The Fatimid and Egypt 301-358/914-969», *Arabica* XXXV (:1988), pp. 186-196; Halm, H., *op. cit.*, pp. 196-213

^١ ابن عذارى: البيان ١: ١٨٢ الكندى: الولاة ٢٧٤؛ المقرئى: الخطط ١: ٣٢٨؛ أبو المحاسن: النجوم ٣:

١٨٩.

^٢ الكندى: الولاة والقضاة ٢٨٧؛ ابن سعيد: المغرب (قسم مصر) ١٥٨-١٥٩؛ المقرئى: الخطط ١: ٣٢٨-

^٣ Canard, M., *L'impérialisme des Fatimides* p.160; Shaban, M. A., *op. cit.*, p. 195 ٣٢٩

^٤ Dachraoui, F., *op. cit.*, pp. 250

^٤ القاضى النعمان: المجالس والمساربات ٤٧٥، ابن الأثير: الكامل ٨: ٦٦٣ حيث يورد حديثا دار بين المُعزّ وهو فى مصر ورسول لإمبراطور بيزنطة كان يتردد عليه فى إفريقية حيث قال المُعزّ للرسول: «أتذكر إذ أتيتنى رسولاً وأنا =

لهذه المحاولات هو أن قوة الفاطميين لم تكن قد نمت بعد في هذا الوقت المبكر، وكانت مائزال محصورة بقبيلة كُتامة البربرية^١ بالإضافة إلى المقاطعة السليبية التي واجههم بها أهل القيروان والعلماء المالكية، وبالتالي فإنهم لم يكونوا يملكون القوة العسكرية اللازمة للقيام بمثل هذه المغامرة التي تفوق قدراتهم، ويكونوا قد استهدفوا بهذه الحملات السيطرة على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط وتمكين نفوذهم في الصحراء الواقعة بين ممتلكاتهم في طرابلس الغرب ووادي النيل^٢ وإخراج النفوذ المصرى من بَزْقة وحصره قدر الإمكان داخل حدود الوادي^٣.

المُجَزَّ لدِين الله وتحقيق هَدَف الفاطميين

لا شك أن ثورات البربر المتتالية والحركات الخارجية التي وجدت تأييدًا مؤقتًا من أهل السنة والتي أمضى الخليفة الفاطمى الثالث المنصور بالله إسماعيل فترة خلافته في احتوائها وإخمادها، هي التي دفعت الخليفة الفاطمى الرابع المُجَزَّ لدِين الله إلى وضع هدف الفاطميين في التَّحَوُّل إلى الشرق موضع التنفيذ بعد أن كادت المشاكل التي واجهها الفاطميون في إفريقية أن تصرفهم عن تحقيق هدفهم.

٤

= بالمهدية فقلت لك : لتدخلن على وأنا بمصر مأكًا لها، قال : نعم . قال : وأنا أقول لك لتدخلن على بغداد وأنا

خليفة . وأيضًا المقرئى : اتماظ : ١ : ٢٢٦.

^١ عن قبيلة كتامة ودورها في مناصرة الخلافة الفاطمية راجع، لقبال محمد موسى : دور قبيلة كتامة في قيام الخلافة

الفاطمية، الجزائر ١٩٧٩، *El² art. Kutâma V*, pp. 544-45. Basset, R.,

^٢ حول سيطرة الفاطميين على ليبيا راجع، Hamdani, A., «Some Aspects of the History of Lybya during

the Fatimid Period», *Lybya in History*, Beirut s.d. pp. 321-27

^٣ . Shaban, M. A., *op. cit.*, pp. 192-193

^٤ كانت أهم هذه الحركات ثورة أُمى يزيد مُخَلَّد بن كَيْدَاد المعروف بصاحب الحمار والذي اكتسب تأييد أهل السنة

وقضى على ثورته المنصور بالله سنة ٣٣٦هـ/٩٤٨م. وقد اضطر المنصور بالله بعد انتصاره عليه إلى ترك المهدية

والانتقال إلى العاصمة الجديدة صبرة المنصورية التي أسسها المنصور بالقرب من القيروان حتى يجعل للمالكية تحت

أنظاره. راجع، القاضي النعمان : المجالس ٥٥، ٧٢، ٧٣، ١١٤، ٢١٤، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٤٥ =

فما هي أهمية الانتقال إلى الشرق لدى الخلفاء الفاطميين ودعاتهم؟

كان قيام خلافة الفاطميين في إفريقية سبباً في انقسام الحركة الإسماعيلية في زمن مُبَكَّر. فقد بنيت الحركة الشيعية الإسماعيلية ضد العقيدة السنية والتطلعات العبّاسية السياسية ونَمَت على فكرة تدميرها، وكَوَّنت لذلك التنظيم السياسي الديني المعروف بـ «الدَّعْوَة»، فانتشر دعاة الفاطميين في طول الأراضى العبّاسية وعرضها يقومون بنشاط سياسي وإيديولوجي ليتمكّنوا من القضاء على خلافة العبّاسيين السنيين.

فهل أراد الفاطميون بعد تأسيس خلافتهم في إفريقية أن يستقروا بها، أو أرادوا أن يَتَّخِذوها مركزاً تمهيدياً يُعدّون فيه العُدّة لينطلقوا منه نحو الشرق في محاولة لتدمير الخلافة العبّاسية والإحلال محلها؟

الإجابة على ذلك أن الإمام المهدي كان بعيد النظر ووجد أن الفرصة غير مواتية للإجهاز على الخلافة العبّاسية، وأنه من الأفضل للحركة الفاطمية أن تظهر على الخريطة السياسية للعالم الإسلامي، ولا مانع أن تقوم في أحد أطرافه لتكون بعيدة عن العبّاسيين ولتحتفظ فقط بعداء بعيد معهم، بحيث إن المهدي لم يُرد أن يدخُل في هذا الوقت المُبَكَّر في صدام مباشر مع العبّاسيين. ولم يكن بعض الدّعاة - وهم في الحقيقة صانعو الحركة - على مستوى إدراك المهدي للأحداث، فلما تبَيَّنَت لهم حقيقة نيّة المهدي بدأوا في الانفصال عن الفاطميين وانضموا إلى القرامطة وعارضوا فكرة اتجاه المهدي بعيداً عن

= ٣٣٦، ٤٩٢، ٥٤٢، ١٥٥٥ ابن الأثير: الكامل ٨: ٤٢٢-٤٤١؛ ابن خلكان: وفيات ١: ٢٣٥؛ الصفدي:

الوافي ٩: ٢٠٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب ١: ٢١٦-٢٢٠، ٢٢٨٥؛ ابن خلدون: تاريخ ٤: ٤٠-٤٥؛

المقريزي: اعطاء الحنفيا ١: ٧٥-٨٦، الملقى الكبير ٢: ١٣٣-١٤٠؛ عماد الدين إدريس: عيون الأخبار ٥:

١٧٢-٣٠٦، تاريخ الفاطميين بالمغرب ٣٤٧-٤١٧؛ Le Tourneau, G., «La révolte d'Abu Yazid au

X^e siècle», CT (1953), pp. 103-125; Stern, S.M., *El² art. Abū Yazid al-Nukkārī I*, pp. 167-169;

Dachraoui, F., *op. cit.*, pp. 165-182, 188-205; Halm, H., *op. cit.*, pp. 298-325; id. «Der Mann

auf dem Esel. Der Aufstand des Abū Yazid gegen die Fatimiden nach einem

. Augenzeugenbericht», *Die Welt des Orients* XV (1984), pp. 144-204

أراضى الخلافة العبّاسية ، ووجدوا أن حماس الدَّعوة كان حثماً سيَنقَد وهم بعيدون عن أراضى العبّاسيين^١.

وعلى ذلك فإن بلاط المُعزّ فى صَبِيَّة المنصورية لم يخل من الدَّعاة والرسل الذين توافدوا عليه يُحَثُّونه على تحقيق هدف الدعوة وأن يُعَجِّل بِغزو الشرق ، فكان يجيبهم بأن الوقت لم يحن بعد ويُذَكِّرهم بمحاولات جده القائم فى قَتَح مصر ، ويؤكد لهم يقينه فى أن الله سيُوَرِّث الأئمة الأرض كلها^٢. وقَصَّ علينا القاضى النُّعمان فى «المجالس والمسائرات» خبر رؤية رأى فيها المُعزّ والده المنصور يتنبأ له بقرب قَتَح مصر^٣، وحديثاً جرى بين المُعزّ ومشائخ كُتامة أخبرهم فيه بأنه لا يشك فى افتتاح المشرق قريباً ، وأنهم - أى الكُتامين - طُرِدوا قديماً من المشرق ، وأنهم سيعودون إليه بفضل الأئمة^٤.

فعالية الدَّعاية الفاطمية

ولدينا دليلٌ مادىٌ بالغ الأهمية يدل على تبييت المُعزّ النُّجَّة للانتقال إلى الشرق وإلى مصر بوجه خاص قبل فتحها بوقت طويل . فقد وَصَلَ إلينا «ثلاثة دنائير فاطمية» تحمل مكان الضرب (مصر) مؤرَّخة فى السنوات ٣٤١هـ/٩٥٢م ، ٣٤٣هـ/٩٥٤م ، ٣٥٣هـ/٩٦٤م ضربت ، كما هو واضح قبل دخول الفاطميين إلى مصر وتأسيس القاهرة* بِغَرَضٍ ترويجها بواسطة الدعاة على الأفراد الذين يتوسَّمون فيهم الاستجابة

^١ Hamdani, A., «Some Considerations on the Fatimid Caliphate as a Mediterranean Power ...», *Atti del Terzo Congresso di Studi Arabi e Islamici*, Ravello-Napoli 1964, pp. 388-390.

^٢ القاضى النُّعمان : المجالس ٤٧٥-٤٧٦.

^٣ نفسه ٥٠٨-٥٠٩.

^٤ القاضى النُّعمان : المجالس ١٢٨-١٣٩.

^٥ Miles, G., *Fatimid Coins* p. 51؛ محمد أبو الفرج العش : «مصر ، القاهرة على النقود العربية الإسلامية» ،

أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، Ehrenkreutz, A.S. and Heck, G. W., «Additional Evidence of the Fâtimid Use of Dînârs for Propaganda Purposes» in *Islamic History and Civilization in Honour of Professor David Ayalon*, ed. by M.Sharon, Brill Leiden . 1986, pp. 145-151.

للدعوة، بالإضافة إلى « طراز » باسم المِعْزَ عُجِل بمصر في سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٦م^١. وهو أمرٌ غير مستبعد في ضوء ما هو معروف من كفاءة الفاطميين في خططهم. ويؤكد ذلك ما ذكره أبو المحاسن بن تغرى يردى من أن أمور الديار المصرية قد اضطربت في أواخر عهد الإخشيديين « بسبب المغاربة أعوان الخلفاء الفاطميين الواردين إليها من المغرب »^٢. وقد استمال هؤلاء الدعاة نفرا من القواد ووجوه الرعية، وأنفذ إليهم المِعْزَ بنودًا ففرقوها فيمن استجاب لهم وأمرهم أن ينشروها إذا قاربت عساكره مصر^٣.

وهكذا فإن فكرة العودة إلى الشرق ومواجهة الخلافة العباسية كانت الشاغل الذي شغل بال الأئمة والدعاة على السواء، ولم يبق لتحقيقها إلا تَحْيُّن الوقت المناسب.

الفاطميون يضمنون ولاء الشمال الإفريقي

وقبل أن يُقَرَّر المِعْزُ التَّوَجُّه إلى المشرق وتوجيه كل اهتمامه إلى تحقيق هدف الفاطميين، وَجَّه كل قوته في مغامرة عسكرية للاستيلاء على كل الشمال الإفريقي وليختبر عن طريقها القوة العسكرية لجيشه الذي سيبحث به لفتح مصر. وقد عهد المِعْزُ بمهمة تثبيت سلطة الفاطميين ومد نفوذهم في المغرب الأقصى إلى القائد الشهير جَوْهَر الصُّقْلَبِي. وقد قاد جواهر في سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م حملة عسكرية ناجحة ضد البِزْزَر المناهضين للخلافة الفاطمية - وخاصة في إقليم سِجِلْمَاسَة وتَاهَرْت - وتمكَّن خلالها من هزيمة مراكز مقاومة الفاطميين فيما عدا المراكز التابعة لأُمُوى الأندلس في سَبْتَة وصَالَة التي احتلها عبد الرحمن الثالث خليفة الأندلس. وفي خلال هذه الحملة تم أسر ابن واسول أمير سِجِلْمَاسَة الذي كان يخطب للخلفاء العباسيين^٤. وفي سنة ٣٥٧هـ /

^١ Wiet, G., *RCEA* V, p. 11 n°. 1622، وانظر عن الطراز فيما يلي ص ٤٧٣ - ٤٧٥.

^٢ أبو المحاسن: النجوم ٣: ٣٢٦.

^٣ المقرئ: المقفى الكبير ٣: ٨٩.

^٤ القاضي النعمان: المجالس ٢١٤، ٤١١، ٤١٢؛ ابن ظافر: أخبار ٢٢؛ ابن الأثير: الكامل ٨: ٥٢٤ - ٥٢٥ =

٩٦٨م قاد جوهر حملة ماثلة بفرض فرض النظام في المغرب الأقصى^١. وقد أثبتت هذه الحملات أن جوهر الصقلي كان بلا شك أكبر قائد عسكري عرفه الفاطميون، ووجهت انتصاراته المظفرة أنظار الخليفة المعز إلى مواهبه العسكرية وأقنعت به بأن باستطاعته، بمساعدة هذا القائد الفذ، أن يحقق أعلى آماني الفاطميين منذ اعتلائهم السلطة: «فتح مصر».

حالة مصر الداخلية إبان الفتح

كانت السلطة الحقيقية في مصر خلال عهد الإخشيديين، الذين خلفوا المؤسس الأول محمد بن طنج، في يد كافور العبد الأسود الخصي الذي أصبح قائد جيوش الإخشيديين ومُدبّر أمر مملكتهم^٢.

وقد أثار الفاطميون من جانب والحمدانيون من جانب آخر الخلافات في ممتلكات كافور الذي تمكن من الاحتفاظ بسيطرته عليها بفضل حُكْمته السياسية^٣. فقد كثر دعاة الفاطميين في مصر ونجحوا في استمالة عدد كبير من أهل البلاد^٤، حتى إن يوم عاشوراء

= ابن خلكان: وفيات ٥: ٢٢٥ ابن عذاري: البيان ١: ٢٢٢ الثوري: نهاية ٢٨: ١٢٠ ابن خلدون: تاريخ

٤: ٤٦، ٤٧، القلقشندي: صبح ٥: ١٦٥ المقرزي: الخطط ١: ٣٧٧، ٣٧٨، المقفي الكبير ٣: ٨٤-٨٦،

اتماظ الحنفا ١: ٩٣، ٩٤ عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين ٦٠٢-٦٣٣، Dachraoui, F., op. cit., 230-234; id., «La captivité d'Ibn wasul le rebelle de Sijilmassa d'après lès Cadi an-Nu'man» CTIV (1956), pp. 295-99; Idris, H.R La Berbérie Orientale sous les Zirides pp. 24-28; Monès,

H., El² art. Djawhar II, p. 50; Halm, H., op. cit., pp. 396-401

^١ المقرزي: المقفي ٣٢٩.

^٢ راجع، ابن سعيد: المغرب (قسم مصر) ١٩٩-٢٠١، حسن إبراهيم حسن: «كافور الإخشيد»، مجلة كلية

الآداب-جامعة فؤاد الأول (١٩٤٦) ٢٣-٤٦ سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الإخشيديين: القاهرة

١٩٧٠، ١٣٤-١٥٨، Ehrenkreutz, A.S. El² art., Kâfûr IV, pp. 436-437

^٣ أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٩٦، Shaban M. A., op. cit., p. 196

^٤ ابن زولاخ: أخبار سيويه المصري ٤٠ وفيه أن أبا جعفر أحمد بن نصر شيد دارًا كبيرة كانت تؤخذ فيها البيعة =

كان لا يخلو من الفتن عند قبر كلثم وقبر السيدة نفيسة، وكثرت المنازعات بين الجند السودان وجماعات من الرعية كان الجنود يتعصبون فيها على الشيعة^١. وبشر هؤلاء الدعاة أتباعهم بقرب قدوم جيوش الفاطميين متى ذهب الحجر الأسود، يعنون كافورًا^٢.

واجتمعت عدة عوامل مهّدت الطريق لتحقيق هدف الفاطميين في غزو الشرق، كان على رأسها الحالة الاقتصادية السيئة التي كانت تمر بها مصر في أواخر حكم الإخشيديين (٣٥٢-٣٥٨هـ/٩٦٣-٩٦٨م)^٣ وصُغف الخلافة العبّاسية المتزايد تحت سيطرة الشيعة البُزْهَين^٤. وجاءت وفاة كافور في سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م لتزيل آخر عقبة أمام الفاطميين نحو تحقيق هدفهم^٥، فلم توجد شخصية قوية تخلف كافور في البيت الإخشيدى^٦، وتولّى زمام الأمور الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات فعجز عن تلبية

= لصاحب المغرب، المقرئى: اتعاط ١: ١٠٢، الخطط ١: ٣٢٧، ٢: ٢٧؛ ابن الزيات: الكواكب السيارة ٦٣ وفيها أن القاضي أبا الطاهر الذُّهَلِي ناطر رسولاً قدم مصر من قبل المُيزّ؛ سيدة كاشف: المرجع السابق ٣٨١.

^١ المقرئى: الخطط ٢: ٣٤٠، اتعاط ١: ١٤٦.

^٢ القاضي عبد الجبار: تثبيت دلائل النبوة ٦٠٤؛ المقرئى: اتعاط ١: ١٠٢؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٧٢، ٧٣.

^٣ قصر ماء النيل ابتداء من سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م ووقع الغلاء في كل البلد وكثرت الفتن ونهبت الضياع وزاد غضب الناس لارتفاع الأسعار، وفي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧م بلغ ماء النيل اثني عشر ذراعاً وأصابع وهو مالم يحدث من قبل.

(ابن الأثير: الكامل ٨: ٥٩٠؛ ابن سعيد: المغرب ١٩٩؛ ابن خلدون: تاريخ ٤: ٤٧، ٤٨؛ القلقشندي: صبح

٣: ٣٤٥؛ المقرئى: الخطط ١: ٣٢٩، ٣٣٠، إغالة الأمة ١٢، ١٣؛ أبو المحاسن: النجوم ٣: ٣٢٦.

^٤ ابن الأثير: الكامل ٨: ٤٥٢، ٤٥٣؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٧٢.

^٥ ابن خلكان: وفيات ١: ٣٧٦، ٥: ٢٢٥؛ ابن عفرى: البيان ١: ٢٢١، ٢٢٨؛ ابن سعيد: المغرب ٢٠١؛

القلقشندي: صبح ٣: ٣٤٤؛ المقرئى: اتعاط ١: ١١٣؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٧٢، ٧٣؛ عماد الدين

إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين ٦٦٦.

^٦ بعد وفاة كافور عقد الأمر بمصر للأمير أبى الفوارس أحمد بن على الإخشيد على أن يكون القائم بتدبير أمره الحسن

ابن عبيد الله بن طنج وإلى الوفلة، ولكن السلطة الفعلية في مصر كانت في يد الوزير ابن الفرات. (النويرى: نهاية

٢٨: ٥٩، ٦٠؛ المقرئى: المقتضى ٣: ٣٤٤، ١: ٥٣٦، ٥٣٧؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٠، ٢١؛ Bianquis،

. Th., «L'acte de succession de Kāfūr d'après Maqrizi», *An. Isl.* XII (1974), pp. 263-69

رغبات الطائفتين الإخشيدية والكافورية، في نفس الوقت الذي استمر فيه نقص ماء النيل وتزايد فيه الغلاء واضطربت الأسعار مع هبوط قيمة الخراج^١. فضاق قوم من المصريين بالأوضاع وكتبوا إلى المعز بإفريقية يدعونه لإرسال جنوده ليُسَلِّمُوا إليه مصر^٢، ولم يقصد هؤلاء المصريون المعز إلا لإدراكهم مدى ضعف الخلافة العباسية الواقعة تحت سيطرة الشيعة البويهيين، ولتوسُّمهم في الخلافة الفاطمية قوة فنية قادرة على تدارك ما اعتري البلاد من تدهور وفساد^٣.

وقد حاول الوزير ابن الفرات إصلاح بعض هذا الفساد، فخانه سوء تديره وأدَّى به إلى محاصرته في داره وتهديد حياته من قِبَل الإخشيدية والكافورية، بعد أن قَبَضَ على جماعة وصَادَرَهُمْ كان من بينهم يعقوب بن كِلْس - وهو يهودي من أهل العراق أسلم في زمن كافور^٤ - ولكنه تمكن من الهرب مستترًا إلى إفريقية حيث التقى بالخليفة المعز وأطلقه على ما تَمَرُّ به مصر من أزمات سياسية واقتصادية^٥، فوجد المعز الفرصة المناسبة لإرسال جيشه لفتح مصر. ومن الممكن أن يكون ابن كِلْس قد اعتنق المذهب

^١ يحيى بن سعيد: تاريخ ١٢٩: ابن خلكان: وفيات ١: ٣٤٧، ٣٧٦، ٥: ٢٢٥: ابن سعيد: المغرب ٢٠١، النجوم ١٠١: المقرئ: إغاثة ١٣، الخطط ١: ٩٩: أبو المحاسن: النجوم ٣: ٣٢٦، ٤: ٢٣.

^٢ ابن زولاقي: فضائل مصر ٤٥ ط ١ القاضي عبد الجبار: تثبيت دلائل النبوة ٦٠٤، ٦٠٥: يحيى بن سعيد: تاريخ ١٢٩: ساويرس: تاريخ البطارقة ٢/٢: ٨٧: ابن خلكان: وفيات ١: ٣٧٦: ابن سعيد: النجوم ١٠١: الصفدي: الوافي ١١: ٢٢٤: المقرئ: إغاثة ١٣، المقفى ٣٨٣: أبو المحاسن: النجوم ٤: ٣٠: ابن إلهاس بدائع ١/١: ١٨٤.

^٣ بلغ من فساد الأوضاع في آخر حكم الإخشيديين أن ابنة الإخشيد اشترت صبية مغربية. بستمائة دينار لتمتع بها. فلما بلغ ذلك المعز قال لأصحابه: إن الغيرة قد ذهبت من نفوس الرجال بمصر حتى إن امرأة من بنات ملوكهم تخرج لتشتري لنفسها جارية تمتع بها. (المقرئ: تماظ ١: ١٠٠).

^٤ انظر فيما يلي ص ٢٤٧.

^٥ ابن خلكان: وفيات ١: ٣٤٧: الصفدي: الوافي ١١: ١٢٠، ابن شاذلي: فوات ١: ٢٩٣، ابن خلدون: تاريخ ٤: ٥٥، المقرئ: المقفى ٣: ٤٤، أبو المحاسن: النجوم ٤: ٢١، سيدة كاشف: المرجع السابق

الإسماعيلي وهو ما يزال بمصر على يد الدُّعَاة. وستوضِّح لنا الأحداث كيف لعب هذا اليهودي^١ دورًا بارزًا في تثبيت دعائم الدولة الفاطمية في مصر، حيث أَسْنَدَ له المُعِزُّ، بعد أن دَخَلَ مصر، أمر تنظيم الإدارة الحكومية الفاطمية والإشراف على الدُّعْوَة نفسها.

^١ عن دور اليهود في التاريخ الإسلامي ودور يعقوب بن كِلْس بصفة خاصة راجع كتاب Fischel, J. W., *Jews in the Economic and political Life in Medieval Islam*, New York 1969, pp. 45-69 ولعرض شامل لتاريخ الفاطميين في شمال إفريقيا راجع كتاب فرحات الدشراوي المذكور في ص ١٢٥ وللمؤلف نفسه Dachraoui, «L'Ifriqiya sous la dynastie des Fatimides» in *Histoire de la Tunisie-le Moyen Age*, Tunis, s.d., II, pp., 205-252; Brett, M., «the Fatimid Revolution (861-943) and its Aftermath in North Africa», *Cambridge History of Africa* 1978, II, pp. 589-636 هالم المذكور في صفحة ١١٨.

الفصل الثاني

انتقال الخلافة الفاطمية إلى المشرق

مَقْدَمَاتُ الْفَتْحِ

عندما أعلن الخليفة المُعزُّ عن عزمه على التوجُّه إلى الشرق وعن إرسال جيشه لفتح مصر، لم يتَّخذ هذا القرار إلاَّ بعد أن كان قد استعد لذلك تمامًا ووَضَعَ الضَّمَانات الكافية لإنجاح مشروعه .

وقد رأينا كيف مَدَّ المُعزُّ السيطرة الفاطمية على جميع أراضي الشمال الإفريقي، فيما عدا النقاط الحصينة للأمميين في المنطقة، وكذلك على الجزُر المختلفة الواقعة في البحر المتوسط مثل : سَرْدِينِيَّة وإفْرِيطش (كريت) وصِقْلِيَّة . كما أنه حاول كذلك فتح الأندلس أو على الأقلَّ تحييد دورها في صراع الفاطميين مع العبَّاسيين .

ورغم الفراغ السياسي الذي كان يَغْلُبُ على الشمال الإفريقي، بمعناه الواسع، فإن الفاطميين لم يحاولوا إطلاقاً تركيز جهودهم في هذه الساحة وتنظيمها والاستقلال بها . كذلك فإنهم لم يحاولوا إنشاء إمبراطورية مغربية إفريقية ذات وحدة اقتصادية تجعل منها منطقة ذات قوة وحيوية كبيرتين . لأنَّ الفاطميين كان لهم اختيارٌ استراتيجيٌّ مغاير هو الانطلاق إلى الشرق، وحاولوا فقط طوال فترة إقامتهم بإفريقية تنظيم قاعدة انطلاق لهم، وذلك بضَمَان أطراف آمنة مُمَتَّزِكَة غربًا في المغرب الأوسط وشرقًا في طَرَابُلُوس وبَزَّة وبحرًا في صِقْلِيَّة .

كذلك فقد كان بهم الفاطميين، إلى جانب هذا التنظيم الأساسي، بلوغ هدفين استراتيجيين هامين يتمثَّلان في السيطرة الكاملة على الحوض الغربي للبحر المتوسط،

ويُتضح هذا من بناء «المَهْدِيَّة» وإعادة بناء أسطول شُوسَة والحرص على التمكن من طرابلس وبَزْقة، وكذلك فى المحاولات المستمرة للسيطرة على مصر نفسها لفتح الحوض الشرقى للبحر المتوسط، ولضمان إمكانية التدخل المباشر عن طريق البحر الأحمر واليمن فى تجارات المحيط الهندى والشرق الأقصى. وهذا هو ما أسماه ماريوس كانار Marius Canard بالإمبريالية الفاطمية «L'impérialisme des fatimides»^١. والذى يُثبت أن الفاطميين كان لهم اختياراً استراتيجياً شرقى، وأنهم لم يعتقدوا أبداً أن الشمال الإفريقى يصلح لتحقيق أهدافهم البعيدة، ويُفسّر لنا كذلك المحاولات المستمرة لفتح مصر سواء عن طريق التدخل العسكرى المباشر أو الدعاية السياسية أو الطرق الدبلوماسية^٢.

ولا شك أن الفاطميين بعد انتقالهم إلى الشرق تُخلّوا تماماً عن الشمال الإفريقى واكتفوا بتركه لأسرة بربرية محلية تدين لهم بالولاء. فقد أدرك المهدي منذ وصوله إلى إفريقية أنها لايمكنها أن تُحقّق أهداف الفاطميين. وأنهم إن أرادوا أن يكونوا فى يوم من الأيام الحُكّام الوحيدى للعالم الإسلامى فليس أمامهم خيارٌ سوى العودة إلى الشرق.

وقد ساعدت سرعة تعاقب الأحداث فى مصر فى السنوات الأخيرة للحكم الإخشيدى مع ماصاحبها من فوضى سياسية وأزمات اقتصادية، دون أن ننسى النجاح الكبير الذى حقّقه الدعاة الفاطميون، ولا الدور الذى لعبه ابن كِلْس، ساعدت كل هذه الظروف على تعجيل تحقيق حُلُم الفاطميين.

وقد بدأ الفاطميون منذ سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م باتخاذ إجراءات عملية للانتقال إلى الشرق وإلى مصر بصفة خاصة. فقد أمر المِيزْ بِحُفَرِ الآبار فى طريق مصر وأن يُبنى له فى

^١ انظر فيما سبق ص ١٢١ هـ^٢.

^٢ عمر السعيدى: «انتقال الفاطميين إلى مصر»، ملتقى القاضى النعمان الثانى للدراسات الفاطمية، تونس ١٩٨١،

كل مَنَزَلَةٍ قَصْرًا^١، وقد قام بالإشراف على بناء هذه القصور (استراحات) الأمير تميم بن المعزّ الفاطمي. وقد كَشَفَت حفائر حديثة أقيمت بمدينة أجدائية بليبيا (١٩٥٢)، (١٩٦٢) عن أطلال أحد هذه القصور الذي نُقِلَتْ زخارفه الرائعة إلى متحف الشُّحُحات قرب البيضاء بليبيا^٢.

فَتْحُ مِصْرَ

لن أعيد هنا ذكر قصة فَتْحِ الفاطميين لمصر، ولكن سأكتفى بالتذكير ببعض الأحداث التي تبدو لي ذات دلالة خاصة حتى نستطيع أن نفهم أهداف الفاطميين وتَوَجُّهاتهم^٣.

ففي المحرم سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م جَمَعَ المعزّ لدين الله بالقرب من رَقَادَة^٤ نحو مائة ألف فارس أغلبهم من القبائل البربرية، وخاصة كُثَامَة وزُوَيْلَة، ومن الصَّقَالِيَة^٥. وفي يوم الأحد ٢٧ المحرم منحهم المعزّ رواتبهم التي تراوحت بين ألف دينار وعشرين دينارًا تبعًا لرتبتهم^٦.

^١ المقرئى: اتعاط. ١: ٩٦.

^٢ حول هذا الموضوع راجع عثمان الكماك: «مسلك القاهرة»، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، القاهرة، ١٩٧٣، ٧٨٢ و ٨٣٢-٨٣٣؛ Blake, H., Hutt, A. and Witehouse, D., «Ajdābiyah and the Earliest Fātimid Architecture», *Lybia Antiqua* VIII (1971), pp. 105-120.

^٣ عن المظاهر السياسية والاجتماعية والعسكرية لفتح الفاطمي لمصر راجع Lev, Y., «The Fatimid Conquest of Egypt. Military, Political and Social Aspects» IX (1979), pp. 315-28. بالإضافة إلى مقال بيانكى Th. Bianquis المذكور فيما يلى ص ١٣٩ هـ^٤.

^٤ تذكر بعض المصادر أن ذلك كان بالقرب من صيرة المنصورة ولكن الشاعر ابن هانيء الأندلسي الذي حضر هذه المناسبة بنفسه يذكر أنها بالقرب من رَقَادَة.

^٥ ابن خلكان: وفيات ١: ٣٣٧؛ المقرئى: الخطوط ١: ٩٤، ٣٧٨، اتعاط ١: ١١٣؛ القلقشندي: صبح ٣: ٣٤٥؛ Beshir, B. I., «Fatimid Military Organization», *Der Islam* 55 (1978), pp. 37, 44; Lev, Y., «Army, Regime and Society in Fatimid Egypt, 358-487/ 968-1094», *JMES* 19 (1987), pp. 338-47.

^٦ نفسه ٥: ٢٢٦؛ المقرئى: المغنى ٣: ٨٧.

وفى ١٤ ربيع الأول استعرض المُعَزَّ هذا الجيش الجرار وقَدَّم لهم جَوْهَر الصَّقْلِيَّ^١ القائد الذى سيقودهم لفتح مصر والذى منحه المُعَزَّ تفويضًا كاملاً بسلطاته العسكرية والسياسية والمالية .

وقد أُعِدَّ هذا الجيش بعناية فائقة من ناحية القُدَّة والعَتَاد ، وكذلك من الناحية النفسية عن طريق الدعاية السياسية المتَّظَمَّة التى مَهَّد بها الفاطميون لهذا الحدث . وتذكر لنا المصادر أن جَوْهَر حمل معه أكثر من ألف ومائتى صندوق مليئة بالأموال ، غير الذهب الذى جمعه الفاطميون طوال فترة إقامتهم فى إفريقيا تحسبًا لهذا اليوم ، وقد أفرغ هذا الذهب على هيئة الأُزْحِيَّة وحمله جوهر على ظهور الجمال ظاهرًا للعيان^٢ .

ولعل جُمْلَةً ما أنفقه المُعَزَّ على تجهيز جيش جَوْهَر ، والذى بَلَغ ، تبعًا للروايات ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار^٣ ، وخروجه بنفسه ومعه ولى عهده وكبار رجال دولته لوداع جوهر وجيشه وحرصه على الاختلاء به وتوجيهه إلى أهمية ما هو مُقَدِّمٌ عليه^٤ ، يدلُّ على مدى الأهمية التى كان يُعَلِّقها المُعَزَّ على قَتْح مصر .

^١ جاء نسب جَوْهَر فى أغلب المصادر «الصَّقْلِيَّ» . ورسم هذه الكلمة يتمثل مع كلمة «صَقْلِيَّ» بزيادة نقطة الباء . ونحن لا نملك معلومات كافية عن انتشار العنصر الصقلى فى بلاط الفاطميين ، وإنما نعلم أن عبيد الفاطميين فى الدور الإفريقى كانوا ، على الأغلب ، من الصَّقَالِبَةِ الذين كانوا يطالبون دائمًا بمساواتهم بالكثامين . (القاضى النعمان : المجالس ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣٢١) كما أن Ivan Herbek أوضح بحجج قوية أن صحة نسبة جوهر هى الصَّقْلِيَّ وليس الصَّقْلِيَّ «Herbek, I., «Die Slaven im Dienst der Fatimiden», Archiv Orientali XXI الصَّقْلِيَّ (1953) pp. 543-81; Quichard, P. & Mohamed Meouak, *El² art. al-Sakâliba* VIII, 909

مراجع ترجمة جوهر انظر Monès, H., *El² art. Djawhar al-Sikili* II, pp. 507-508 وما ذكر من مراجع وأضف إليها المقرئى : المقفى ٣ : ٨٣-١١١ .

^٢ ابن سعيد : النجوم ١١٠٢ المقرئى : الخطط ١ : ٣٧٨ ، الاتعاظ ١ : ١١٣ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٩ ، ٤١ ، عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٦٦٧ ، ٦٦٨ وفيما يلى ص ٥٥٥ .

^٣ الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٣٢ المقرئى : الخطط ١ : ٣٥٣ ، اتعاظ ١ : ٩٧ .

^٤ ابن سعيد : النجوم ١١٠٦ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٤٨ الصفدى : الوافى ١١ : ٢٢٦ المقرئى : الخطط ١ :

وهكذا رحل جَوْهَر على رأس الجيش الفاطمي يوم السبت ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م إلى الشرق لينجز أهم أعمال الفاطميين التي ضمنت لهم مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي : فَتْح مِصْر .

وعندما وَصَلَ جَوْهَر إلى مصر وتسَلَّمها يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ / يوليو ٩٦٩م^١ لم يواجه الجيش الفاطمي أية مقاومة حقيقية ، اللهم إلا من بعض فلول الإخشيدية والكافورية . وقد وَصَفَ المفاوضون المصريون الذين تفاوضوا مع جَوْهَر في تَرْوِجَة وَكَّتَبَ لهم « الأمان » - وهم الوزير ابن القُرَات والشريف أبو جعفر مسلم الحسيني وأبى إسماعيل الرُّسِّي والقاضي أبو الطاهر الذُّهْلِي الذين لم يتأخَّر عن تشييعهم قائد ولا كاتب ولا عالم ولا شاهد ولا تاجر كما يقول المقرئ - وَصَفُوا حجم جيشه بأنه « مثل جَمْع عَرَفَات كثرة وَغُدَّة »^٢ حتى قيل إنه لم يطأ الأرض بعد جيش الإسكندر أكثر عددًا من جيوش المِصْر^٣ .

الفاطميون في مِصْر

لم يكن الفَتْح الفاطمي لمصر يعني قيام حكومة مكان أخرى ، بل كان بمثابة انقلاب ديني ثقافي اجتماعي بعيد المدى ، صُجِّهَتْ تحوُّلٌ ظاهريٌّ في نظام الحكم خَلَقَ موقفًا جديدًا تمامًا . فلأول مرة في التاريخ الإسلامي تُحْكَم مصر بدولة لا تدين حتى بالولاء الاسمي لبغداد . فمع دخول الفاطميين إلى مصر تزايد دورها في العالم الإسلامي وَتَحَوَّلَ بشكل أساسي . حقيقةً أن الطولونيين والإخشيديين بدأوا سياسةً جديدةً خاصةً بمصر ، ووضعوا

^١ ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٥ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٣٤٥ ، المقرئ : القفى ٣ : ٩٨ ، أبو الحسن : النجوم ٤ : ٢٨ .

^٢ المقرئ : اتماظ ١ : ١٠٣ ، ١٠٧ .

^٣ المقرئ : الخطط ١ : ٩٤ . وراجع Bianquis, The., «La prise du pouvoir par les Fatimides en Egypte», *An. Isl.* XI (1972), pp. 49

أُسِّسَ نواة حرية لها دورها في المنطقة ؛ إلا أن طموحاتهم كانت محدودة في بعض الأطماع الشخصية ، وكانوا يدورون في فَلَكِ السياسة العباسية^١ . أما الفاطميون ، الحُكَّام الجُدُد ، فكانوا يتزعمون حركةً دينيةً فلسفيةً اجتماعيةً عظيمةً كان هدفها لا يقلُّ عن تحويل وتجديد كل الإسلام ، وكانوا يرون في أنفسهم الأئمة الأحياء بحكم العالم الإسلامي بمقتضى الحق الإلهي في الحكم ، فهم أبناء فاطمة بنت الرسول ﷺ . ومهما قيل في صِحَّة نسبهم أو عدمه ، وهل كانوا حقًا ينتسبون إلى السيدة فاطمة ، أو كانوا مجرد أدعياء مَهْرَةٍ ، فالحقيقة الثابتة أن عددًا غير قليل من الأتباع قد آمنوا بقضيتهم ودافعوا عنها^٢ .

وكان تولَّى الفاطميين الحكم بمصر وتأسيسهم خلافة مُشْتَقَّةً بها ، هو عودة إلى وضع جغرافي سياسي أنشأته الوقائع وثبته أحداث التاريخ . فالعالم الإسلامي كان بحاجة دائمًا إلى مركز متوسط كانت تشغله الإسكندرية في العصر الروماني البيزنطي^٣ ، ولاشك أن الفاطميين قد تنبهوا لذلك ، كما وجدوا مصر بسعة مواردها وكثرة أرزاقها ومكانها من القلب بالنسبة للعالم الإسلامي ، قادرةً على تحقيق أهدافهم الاستراتيجية في يوم من الأيام . وإذا كان الفاطميون قد قَسَلُوا في كَنَسِ كل العالم الإسلامي لَصَفِّهِم لتمسكهم بتحدياتهم الإيديولوجية التي عَزَلُوا أنفسهم بسببها عن إجماع المسلمين ، فإن « القاهرة » التي أرادوا أن يحكموها منها العالم الإسلامي ، سَجَّلَ لها التاريخ دورها في قيادة هذا العالم أمام كل التيارات الأجنبية بدءًا من المدِّ الصَّليبي ومرورًا بِالْعَزْوِ الْمُغُولِي وحتى العصر الحديث ، وأثبتت بُقْدَ نظر الفاطميين عندما اختاروا مصر ليَحْقُقُوا من خلالها أهدافهم .

^١ Lewis B., «the Fatimid and the Route to India», *RFSE Univ. Istanbul* IX (1949-50), p. 51; id.,

. «An Interpretation of Fatimid History», *CIHC*, p. 288

^٢ عن قضية النسب الفاطمي انظر فيما سبق ص ١٠٠-١٠٨ .

^٣ Blachère, R., «La fondation du Caire et la renaissance de l'humanisme arabo-islamique au IV^e

siècle», *CIHC*, p. 95

ولاية جوهر القائد

كان أوّل عمل قام به القائد جوهر بعد فتح مصر هو اختطاط مدينة جديدة ، بناء على توجيهات الخليفة المعزّ ، قُصِدَ بها أن تكون مدينة ملكية وعاصمة للإمبراطورية العالمية الشاملة التي تضم جميع الأراضي الإسلامية ، هي مدينة « القاهرة » في الشمال الشرقي للفسطاط^١.

وقد أدرك القائد جوهر ، فور دخوله إلى مصر ، طبيعة المجتمع المصري . فالأمان الذي منحه للمصريين والذي كسبه بخطه^٢ ، يثبت مرة أخرى براعة الفاطميين البالغة في الدعاية . فالوثيقة مقبولة تمامًا من أى قارئ سنى ، فقد تعهّد فيها بترك الحرية الدينية للمصريين و « أن يجرى الأذان ، والصلاة ، وصيّام شهر رمضان وفطره وقيام ليليه ، والزكاة ، والحجّ ، والجهاد على أمر الله وكتابه وما نصّه نبيه ﷺ فى سنته ، وإجراء أهل الذمّة على ما كانوا عليه » ، و « أن يجرى فى الموارث^٣ على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ » و « إسقاط الرسوم الجائرة التى لا يرتضى أمير المؤمنين بإثباتها عليكم » و « أن يتقدّم فى رمّ مساجدهم وتزيينها بالقروش والإيقاد وإعطاء مؤذنيها وقوّمتها ومن يؤمّ الناس فيها أرزاقهم »^٤.

^١ راجع للمؤلف : Fu'ād Sayyid, A., *La capitale de L'Egypte jusqu'à l'époque fatimide (al-Qāhira et al-Fustāt), Essai de reconstitution topographique*, Beirut 1998 وانظر فيما يلى ص .

^٢ المقرئى : اتماظ ١ : ١٠٦ .

^٣ لم يكد يمض أقل من عام على الفتح الفاطمى إلّا وقد أمر جوهر فى الموارث « بالرد على ذوى الأرحام ، وأن لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ، ولا عم ولا جد ، ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد ذكراً كان أو أنثى إلّا الزوج والروجة والأبوين والجدّة ، ولا يرث مع الأم إلّا من يرث مع الولد » ، فقد احببر الفاطميون عدم تورث البنت التى لا إخوة لها كل الميراث عداوة للسيدة فاطمة عليها السلام . (المقرئى : الملقى ٣ : ١٠٣ ، ١٠٤ عماد الدين إدرىس ، تاريخ الخلفاء ٦٩٥) وانظر فيما يلى ص

^٤ ابن خلكان : وفيات ١ : ٣٧٧ النويرى : نهاية الأرب ٢٨ : ١٢٣-١٢٦ ابن حماد : أخبار ٥٠-٥٢ : المقرئى :

اتماظ ١ : ١٠٣-١٠٦ ، الملقى ٣ : ٩٠-٩٣ عماد الدين إدرىس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ٦٧٣-٦٧٨ ،

. Bianquis, Th., *op. cit.*, pp. 65-75

كانت السنوات الأربع التي حَكَمَ فيها جَوْهَرُ مصر نيابةً عن الخليفة المُعِزِّ (٣٥٨-٣٦٢هـ)، من أهم فترات التاريخ الفاطمي في مصر. فقد تُمَّت فيها التغييرات المذهبية والإدارية اللازمة التي عبَّرت عن مظاهر انتقال السيادة إلى الفاطميين، ومَهَّدَت لِقُدُوم الخليفة المُعِزِّ وانتقاله إلى الشرق ليُغَلِّين مصر دار خلافة وليقود دولته المنتظرة في الشرق. وعاصر سنوات الفَتْحِ مُؤَرِّخٌ مصري ثقة هو الحسن بن أحمد بن زُولاقي المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م، وبفضل كتابه «تتمة كتاب أمراء مصر للكِنْدِي»، الذي أظن أنه هو نفسه كتابه في «سيرة جَوْهَر»^١، والذي حَفِظَ لنا المقرئى ومن قبله ابن خَلِّكان نصوصًا مُطَوَّلَةً منه، أمكننا عن طريقها التعرف على الخطوات التي اتَّخَذَهَا جَوْهَرُ وكيفية انتقال السيادة إلى الفاطميين في مصر، وإلى أَى مدى التزم الفاطميون بنصِّ «الأمان» الذي منحه جَوْهَرُ للمصريين. فهذا الأمان لم يكن في الواقع سوى إجراء ماهر لكسب تأييد المصريين.

وتمثَّلت هذه الخطوات في سلسلة من الإجراءات المتتالية في النواحي العقائدية والإدارية والتنظيمية. بدأها بأن أقرَّ على رأس المناصب الإدارية والدينية نفس الأشخاص الذين كانوا يشغلونها وقت الفَتْح. فأقرَّ جعفر بن الفُرات مشرفًا على المسائل المالية، والقاضى أبا الطاهر الذُّهَلِي على القضاء، كما احتفظ عبد السميع بن عمر العبَّاسى بمنصبه كخطيب للجامع بمصر ولكنه امتنع لِعِدَّة شهور عن اعتلاء المنبر^٢. ويلاحظ أن العراقيين والشوام ظلُّوا يتولَّون مناصب القضاء والخطابة حتى أوائل عهد الظَّاهر.

ولم يستبح جَوْهَرُ لنفسه أن يُجِلَّ أشخاصًا من طرفه في محل الإدارة المصرية قبل أن يَتعرَّف على نظامها جيدًا، خاصةً وهي إدارة أكثر تعقيدًا وتحصُّرًا من تلك التي عهدا

^١ راجع بحثى Fu'ad Sayyid, A., «Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Egypte», *An. Isl. XIII* (1977), p. 5. ٣٨-٣٥.

^٢ النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ١٢٦، ١٢٧ ابن الزيات: الكواكب السائرة ٦٣: المقرئى: اتعاظ ١: ١١٩،

فى إفريقية . وقد اضطر للجوء إلى نظام الحكم غير المباشر ، عن طريق الاعتماد على رجال العصر السابق ، لحين انتهائه من إتمام فتح الوجهين البحرى والقبلى ، ولكنه بعد أن أنهى هذه المهمة « لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغرباً شريكاً لمن فيه »^١ . ولكن لما ظهر أن هؤلاء المغاربة أكثر إعتاباً للدولة من غيرهم لم يتم ما كان مزمعاً من إخراج العمال القدماء والذين كانوا فى الغالب من الأقباط^٢ .

وقد قَطَعَ جَوْهَر خُطْبَةِ العباسيين من على منابر مصر ، وحَذَفَ اسمهم من على السُّكَّةِ وأَحْلَى اسم الخليفة المُعِزِّ محل ذلك ، وأزال السَّواد - شعار العَبَّاسيين - وأَلْبَسَ الخطباء فى الجوامع الثياب البيض - شعار الفاطميين^٣ ، وأمر بفتح دار الضَرْبِ بالفُسطاط - التى كانت مُعْتَطَلَةً فى آخر عهد الإخشيديين^٤ - وَضَرَبَ سِكَّةً حمراء^٥ عليها اسم المُعِزِّ لدين الله فى سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م^٦ .

إصلاحات جَوْهَر

١- الدِّينِيَّة

كان أوَّلُ تغيير أثار حنق المصريين خاص بصَوْمِ رمضان وفِطْرِهِ ، الذى أصبح بعد دخول الفاطميين إلى مصر يتم بدون رُؤْيَةِ الهلال . فشهر رمضان كان دائماً عند

^١ المقرئى : اتعاظ ١ : ١١٩ .

^٢ آدم متر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ١ : ١٣٤ .

^٣ ابن خلكان : وفیات ١ : ٣٧٩ ؛ الصفدى : الوافى ١١ : ٢٢٥ ؛ المقرئى : اتعاظ ١ : ١١٩ ؛ أبو المحاسن : النجوم

تاريخ الخلفاء ٤ : ٣٢ ؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلفاء ٦٨٤ .

^٤ كان آخر دينار ضرب فى عصر الإخشيديين فى سنة ٣٥٥ . (محمد أبو الفرج العشى : المرجع السابق ٩٣٨) .

^٥ السكة هى الدينار والدرهم المضروبان ، سعى كل منهما سكة لأنه طبع بالحديد الملعمة ، ويقال لها السكة .

(المقرئى : الأوزان والأكيال الشرعية (نشرة Tychsen سنة ١٧٩٧م) ٨٦) . والسكة الحمراء هى الدينار المصنوع

من الذهب الجيد العيار .

^٦ التوبرى : نهاية الأرب ٢٨ : ١٣١-١٣٣ ؛ المقرئى : المقى ٣ : ١٠٠ ، واتعاظ ١ : ١١٥ ، ١١٦ ؛ عماد الدين =

الفاطميين الإسماعيليين ثلاثين يوماً^١. فقد أَفْطَرَ القائد جَوْهَرُ وأصحابه في سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م بغير رؤية وصَلُّوا صلاة عيد الْفِطْرِ بِمُصَلَّى القاهرة. ولم يعجب ذلك أهل مصر وصَلُّوا غداة هذا اليوم بالْفُسْطَاط، لأن القاضي أبا الطاهر الذُّهْلِي التمس رؤية الهلال - كما جرت العادة - على سطح جامع عمرو فلم يره، فلما بَلَغَ ذلك القائد جَوْهَرُ أنكره وَتَهَدَّدَ من أعاد فعله، فأشار شهود القاضي عليه أن لا يطلب الهلال ثانية لأن الصوم والْفِطْرَ على الرؤية قد زالا. فانقطع طلب الهلال بمصر طوال حكم الفاطميين^٢.

وفي يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م جاء التغييرُ الذي عَجَبَ عن ترك المذهب الشنِّي في مصر لأول مرة، فقد صَلَّى القائد جَوْهَرُ مع عساكره في جامع ابن طولون (لم يكن جامع القاهرة قد تم بناؤه في هذا التاريخ) وأمر المؤذنين بالأذان «بَحَيِّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» - وهو من مميزات الأذان عند الشيعة - وكان هذا أول ما أُذِّن به في مصر. ثم أُذِّنَ به في جامع عمرو بعد أسبوعين في يوم الجمعة ٢٦ جمادى الأولى

= [إدريس: تاريخ الخلفاء ٦٨٦. وجاء على هذه السكة: «دعا الإمام معد لتوحيد الإله الصمد» في سطر، وفي السطر الآخر «المعز لدين الله أمير المؤمنين»، وفي السطر الثالث «بسم الله. ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة» وفي الوجه الآخر: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، عليُّ أفضل الوصيين وزير خير المرسلين».

^١ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٩٤. فطبقاً للمذهب الإسماعيلي فإن صوم رمضان وفطره يتم بالرؤية والحساب جميعاً، واختبروهما كالظاهر والباطن، إذا أشكل الأمر في أحدهما التمس في الآخر. فالهلال كالظاهر لأنه مشاهد، والحساب كالباطن لأنه معقول، وهو يستعمل من أول كل سنة ثم يراعى طُلُوع الهلال، فإن وافق الحساب الرؤية فقد اتفق الظاهر والباطن وزال الإشكال. (المجالس المستنصرية، تحقيق محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٤٧، ١٢٨، ١٢٩)، وانظر المقرئ ٢: ٨٧ حيث يورد أمراً للخليفة الحاكم بتحديد موعد الصوم وموعد الفطر لسنة ٤٠١ وكذلك ٢: ٦٧، والخطوط ٣٤٢. وانظر كذلك حميد الدين الكرماني: «الرسالة اللازمة في صوم رمضان وحيته»، تحقيق وتقديم محمد عبد القادر عبد الناصر، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٣١ (١٩٦٩) ١-٥٢؛ Desmet, D., «Comment déterminer le début et la fin du Jeûne de Ramadan? un point de discordance entre sunnites et ismaéliens en Egypte fatimide», *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid und Mamluk Eras*, Leuven 1995, pp. 71-84.

^٢ الكندي: الولاة والقضاة ٥٨٤؛ المقرئ: المقفى ٣: ١٠١ والخطوط ٢: ٣٤٠ والانتاظ ١: ١١٦؛ عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء ٦٩١، ٦٩٩-٧٠٠.

من السنة نفسها ، ثم أُذِّن به بعد ذلك فى سائر مساجد مصر^١. كذلك أمر جَوْهَر بالجهر بالبشمة فى الصلاة ، وزيادة القنوت فى الركعة الثانية من صلاة الجمعة ، وَمَنَعَ من قراءة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [آية ١ سورة الأعلى] . وأزال التكبير بعد صلاة الجمعة^٢ ، وأن يُقال فى الخطبة : «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد النبى المصطفى ، وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سيّطى الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرّجس وطهرتهم تطهيراً ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، الهادين المهديين»^٣.

٢- الاقتصادية

عند قدوم جَوْهَر ، كانت مصر تَمُرُّ بأخطر أزمة اقتصادية عرفتْها منذ أكثر من قرن وهى أزمة لم تَنَوِّفْ عن التفاقم منذ سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م واستمرت لمدة ثلاث سنوات بعد الفتح الفاطمى . واهتم جَوْهَر فى أول الأمر بالقضاء على المجاعة واستتباب النظام ومعالجة الأمور بسخاء ينسبى . وكان هذا أهم ما شغله فنادى فى سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م برفع «البراطيل»^٤ ورَدَّ أمر الحِشْبَةِ إلى سليمان ابن عَزَّة - وهو تبعاً للمصادر ثانى من تولّى

^١ ابن الأثير: الكامل ٨ : ٥٩٠ ، ابن خلكان : وفیات ١ : ٣٧٩ ، ابن حماد : أخبار ٥٠ : ابن سعيد : المغرب ٢٠١ ، ابن أبيك : كنز ٦ : ١٢٥ ، الصفدى : الوافى ١١ : ٢٢٥ ، ابن خلدون ٤ : ٤٨ ، المقرئى : المقفى ٣ : ١٠٧ ، والخطط ٢ : ٢٧٠ ، ٣٤٠ ، والاتعاظ ١ : ١٢٠-١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ١ : ٥٩٩ ، ابن لياس : بدائع ١/١ : ١٨٥ .

^٢ ابن خلكان : وفیات ١ : ٣٧٦ و ٣٧٩ ، المقرئى : المقفى ٣ : ١٠٣ ، واتعاظ ١ : ١١٩-١٢١ ، عماد الدين إدریس : تاريخ ٦٩٥ .

^٣ نفسه ١ : ٣٧٦ ، النورى : نهاية ٢٨ : ١٣١ ، الصفدى : الوافى ١١ : ٢٢٥ ، المقرئى : المقفى ٣ : ١٠١ ، والخطط ٢ : ٣٤٠ ، واتعاظ ١ : ١١٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٣٢ . وانظر مقال ياكوب ليف Lev, Y., «The Fātimid Imposition of Ismā'ilism on Egypt (358-386/969-996)», ZDMG 138 (1988), pp. 313-25 .

^٤ المقرئى : المقفى ٣ : ١٠٢ ، والاتعاظ ١ : ١١٧ ، والبراطيل هى الأموال التى تؤخذ من ولاية البلاد ومحتبيها وقضايتها وعمالها على سبيل الرشوة . (الخطط ١ : ١١١) ذلك أن جوهر قد وعدنى أمانه بإسقاط الرسوم الجائرة التى لا يرضى عنها أمير المؤمنين .

الحِشْبَةُ في زمن الفاطميين - فَضْرَبَ في سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م جماعة من الطَّحَّانِينَ وطاف بهم البلد، وَجَمَعَ القَّمَاحِينَ وَسَمَائِرَةَ الْغِلَالِ في موضع واحد، ولم يجعل لمكان البيع غير طريق واحدة فكان لا يخرج قَدَحَ قَمْحٍ إِلَّا ويقف عليه^١. ومع ذلك، فقد استمر الغلاء إلى سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م بسبب قصور مَدِّ النِيلِ مما أَدَّى إلى اشتداد الوباء وَتَفَشَّى الأمراض وكثرة الموت إلى أن انحَلَّ الشَّعْرُ وَأَخْصَبَتِ الْأَرْضُ وظهرت بوادر الرخاء في سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م^٢.

ولما كانت الزراعة هي عَصَبُ الاقتصاد المصري، فقد وَجَّه القائِد جَوْهَرُ عُنَايَتِهِ إلى تجديد ما فَتَدَّ من جسور وقناطر وغير ذلك^٣. كذلك ضاعف ضريبة الأرض (الخَرَاج) من ثلاثة دنانير ونصف إلى سبعة دنانير للفدان الواحد وزاد قيمة قَبَالَةِ الْأَرْضِ بغرض سد حاجته للمال لتغطية نفقاته المباشرة. وقد بَلَغَ قيمة ما جابه في سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م ٣,٤٠٠,٠٠٠ دينار^٤، وفي سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م ٣,٢٠٠,٠٠٠ دينار^٥، ولم تتكرر هذه القيمة بعد ذلك أبداً^٦. والغريب أننا لا نعرف كيف تَمَكَّن المصريون من دَفْعِ هذ الخراج المضاعف مع قصور النيل والأزمة الإقتصادية التي كانوا يمرون بها!

٣- التَّجْدِيدُ

عمل جَوْهَرُ عَلَى إِصْلَاحِ النِّظَامِ النِّقْدِيِّ المعمول به في مصر، فقد جاء في أمانه وَغَدَّ بِإِصْلَاحِ الْعُمْلَةِ الْمِصْرِيَّةِ وَضَرْبِهَا عَلَى الْعِيَارِ الَّذِي عَلَيْهِ الْعُمْلَةُ الْفَاطِمِيَّةُ فِي إِفْرِيْقِيَّةِ^٧.

^١ المقرئى: إغاثة الأمة ١٣، ١٤ واتعاظ ١: ١٢٠ والخطوط ٢: ٣٤٠.

^٢ نفسه ١٤ نفسه ١: ١٢٨.

^٣ ابن زولاقي: فضائل مصر ٤٧ ط ٤ المخزومي: المنهاج في علم خراج مصر ٣، ٤٤ ابن إياس: بدائع ١/ ١: ١٩١.

^٤ ابن حوقل: صورة الأرض ١٦٣ المقرئى: الخطوط ١: ٨٢، ٩٩، وعن نظام القَبَالَةِ انظر فيما يلى الفصل الرابع عشر.

^٥ أبو المحاسن: النجوم ١: ٤٦٠.

^٦ قارن، المقرئى: الخطوط ١: ٩٩-١٠٠.

^٧ المقرئى: المقفى ٣: ٩١ والاتعاظ ١: ١٠٤.

فاستجدَّ ضَرْبُ دينار عالي القيمة هو «الدينار المُعزَّى» الذي يقرب وزنه وقيمة نقائه من أربعة وعشرين قيراطاً^١. ففي زمن الفَتْح كان المصريون، كما في سائر البلاد الإسلامية، يستخدمون نقوداً ذهبية وفضية ونحاسية بالإضافة إلى نقود وسيطة مُخَلَّطَة، وكانت الدنانير تُحْفَظ كرصيد ولا تُدْفَع إِلَّا في المشتريات الضخمة، وعلى الأخص المشتريات العقارية. أما بالنسبة للحياة اليومية فقد كان من الضروري استبدال قطع فضية مقابل الدنانير لدى أحد الصَّيارِفَة. وتوجد بين الدينار الذهب والدرهم الفضة علاقة رسمية بما أن الاثنين ضُربا في دار ضَرْب الحكومة، ولكن قوانين العرض والطلب جعلت الصَّيارِفَة يُطَبِّقون علاقة أخرى تبعاً للسوق^٢. وكان الدينار المستخدم في مصر عند الفَتْح الفاطمي هو «الدينار الرَّاَضِي» الذي ضَرَبَه العبَّاسيون. كذلك كانت تستخدم دنانير من الفضة المذهبة يُعرف واحداً «بالدينار الأبيض»، وهو دينارٌ منخفض القيمة حيث ترتفع فيه كثيراً نسبة الفضة. وبعد أن ضرب بجوهر «الدينار المُعزَّى» في سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م عمل على تثبيت قيمة صرف الدينار الرَّاَضِي عند خمسة عشر درهماً بينما بلغت قيمة الدينار المُعزَّى خمسة وعشرين درهماً^٣. وَمَنَعَ من تداول الدينار الأبيض الذي لم تتعد قيمته عشرة دراهم، فَضْجَ نَفَرٌ من المصريين بالشكوى فأبقاه ولكنه خَفَضَ قيمته إلى ستة دراهم، مما أدَّى إلى تلفه وإفلاس بعض الناس مما دفعه إلى إعادة تقدير قيمته في سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م ورفعها إلى ثمانية دراهم^٤. وبعد وصول المُعزَّى إلى مصر تلاشى استخدام الدينار الرَّاَضِي والدينار الأبيض

^١ المقرئى: النقود الإسلامية ٦٥.

^٢ Bianquis, Th., *op. cit.*, p. 78.

^٣ المقرئى: المَقْفَى ٣: ١٠٥ والاتعاظ ١: ١٢٢ بينما يذكر ابن مسير: أخبار ١٦٤ والمقرئى: الخطوط ٢: ٦ والنقود الإسلامية ٦٥ أن قيمته كانت خمسة عشر درهماً ونصفاً، وراجع كذلك Rabie, H., *The Financial System of Egypt*, pp. 163-164.

^٤ المقدسى: أحسن التقاسيم ٢٠٤: المقرئى: الاتعاظ ١: ١٣٢، ٢٢٢ والمَقْفَى ٣: ١٠٥.

فقد امتنع يعقوب بن كِلْس وعُشْلُوج بن الحسن أن يأخذوا قيمة الحراج وَقَبَالَةَ الأراضى إلا بالدينار المِيزَى^١.

تأمين الحدود

ما أن انتهى جَوْهَر من السيطرة على كل الأراضى المصرية عمل على تأمين الدفاع عن الحدود المصرية فى الجنوب وفى الشمال .

١- الثوبة

ففيما يخص الحدود الجنوبية أرسل جَوْهَر أحد سكان أسوان هو عبد الله بن أحمد بن سُلَيْم الأُسوانى برسالة إلى قيرقى (جورج) ملك النوبة يحثه فيها على إعادة دفع البَقْط^٢، الذى كان قد قطعه فى آخر عهد الدولة الإخشيدية، ويدعوه بحضور شاهدين إلى ترك التَضَرَّاتِية واعتناق الإسلام^٣. ويبدو أن ابن سُلَيْم لم يُوفَّق فى مُساعاه الأخير ولكنه انتهاز هذه الفرصة وقام برحلة إلى مملكة النوبة زار خلالها فيما يبدو فقط المنطقة الجنوبية المعروفة بَعْلَوَة، حيث إنه لا يوجد بين أيدينا ما يفيد أنه زار منطقة البَجَّة. وهذه الرحلة التى أسماها « أخبار النوبة والمقرّة وعلوّ والبَجّة والنيل »، والتى احتفظ لنا المقرئى وابن إِيَّاس والمُتَوَفَى بنقول هامة منها هى التى

^١ ابن مسر: أخبار ١٦٤؛ المقرئى: الخطط ٢: ٦ والنقود الإسلامية ١٣-١٤.

^٢ هذه الكلمة تعنى الضريبة السنوية التى كانت تدفعها النوبة المسيحية للدولة الإسلامية فى مصر كضريبة مقابل الهدنة المعقودة بينهما، وهى عبارة عن ٣٦٥ رأساً من السبى لبيت مال المسلمين بالإضافة إلى أربعين رأساً تحمل لأمر مصر وعشرين رأساً لوالى أسوان الذى يتولى قبض هذا البَقْط، وخمسة للأمير المقيم فى أسوان، واثنى عشر رأساً للثنى عشر شاهد عدل الذين يحضرون مع الحاكم قبض البَقْط. (البلاذرى: فوح البلدان ٢٨١، ٢٨٢؛ السعوى: مروج الذهب

٢: ١٢٩، ١٣٠؛ المقرئى: الخطط ١: ١٩٩-٢٠٢، وانظر كذلك Lokkegaard, F., *El art. Bakt I*, p. 996;

Beshir, B.I., «New Light on Nubian Fatimid Relations», *Arabica* XXII (1975), p. 16.

^٣ المقرئى: الملقى ٤: ٥٧٤.

حَفِظَتْ خبر هذه الرسالة التي أرسلها جَوْهَرٌ إلى ملك النوبة^١.

كذلك فقد ذكر لنا ابن زولاق (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م) وجود «رباط الحرس من جهة الحبش والبجّة وما يقرب منهم، ورباط أسوان على النوبة، ورباط الواحات على البربر والسودان»^٢، وهذا النص يدل على وجود استحكامات دفاعية أمام الحدود الجنوبية قد تعود إلى ما قبل الفتح الفاطمي. ولم يتبق من آثار هذه الاستحكامات شيء اليوم، فأثار المنائر الموجودة اليوم في الصعيد الأعلى في أسوان والمشهد البحري والمشهد القبلي والأقصر وإسنا والتي شُيِّدَتْ وفقًا لطراز أسطواني لتيسير مهمة المرابطين للحراسة ترجع كلها، تبعًا لما أثبتته حسن الهوّاري وكريزويل، إلى عهد أمير الجيوش بدر الجمالي^٣ بينما يرى إبراهيم شيوخ أن منارة الطاية والمشهد البحري بأشوان ترجع إلى أواسط القرن الثالث في أيام المتوكل العبّاسي^٤.

٢- فَتْحُ الشَّامِ

كانت السيطرة على الشام تُمثّل دائمًا أوليّة استراتيجية لكل نظام يتولّى حكم مصر. فعلى ذلك أرسل جَوْهَرٌ أحدَ قادة كُتّامة الذين شاركوا في فَتْحِ مصر هو جَعْفَرُ بن فلاح

^١ عن هذا الشخص انظر، المقرئى: المقفى ٥٧٤، ٥٧٥، والخطوط ١: ١٩٠؛ كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٩٢، ١٩٣، «La description de La Nubie d'al-Uswāni», *Arabica* I (1954), pp. 276-288; Yusuf F. Hasan, *El² art. Ibn Sulaym al-Uswāni* III, p. 973; Fu'ad Sayyid A., «Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Egypte», *An. Isl.* XIII (1977), p. 5; Kheir, H. M., «A Contribution to a Textual Problem: Ibn Sulaym al-Aswani's Kitāb Akhbār al-Nūba wal-Maqurra wal-Bega Wal-Nil», *An. Isl.* XXI (1985), pp. 9-72; Cuoq, J., *Islamisation de la Nubie chrétienne VII-XVI siècles*, Paris 1986, pp. 55-63.

^٢ إبراهيم شيوخ: «حول منارة قصر الرباط بالمنستير وأصولها المعمارية»، مجلة إفريقية ٣، ٤ (١٩٧١-٧٢) ١٠.

^٣ Al-Hawwary, H. M., «Trois minarets Fatimides à la frontière nubienne», *BIE* XVII (1934-35), p. 146; Creswell, K. A. C. *MAE* I, pp. 146-155.

^٤ إبراهيم شيوخ: المرجع السابق ١٠-١٣.

الكُتّامى على رأس جيش إلى الشام تَمَكَّن من فتح الرَّمْلَة ثم دِمَشق وإقامة الدُّعْوة بهما للخليفة المِيزِّي في سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م. وأتم جعفر فتح الشام في سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م ودخلت قواته في مواجهة مع البيزنطيين في أنطاكية. كذلك فقد اعترف حُكَّام حَلَب الحمدانيون بالخلافة الفاطمية. وهكذا ومع نهاية عام ٣٦٠هـ/٩٧١م كان الأذان به حتى على خير العمل « يُطْلَق من على كل مآذن مصر والشام »^١.

إذن كان فتح الشام امتدادًا طبيعيًا لفتح مصر؛ فقد كانت الشام ستُخَذ كقاعدة انطلاق للهجوم الأخير الذي كان سيُخِمل جيوش الفاطميين إلى بُغداد لتضع نهاية لحكم البويهيين وللخلافة العبَّاسية. ولكن موقعة دمشق مع القرامطة - الذين استغاثت بهم فلول الإخشيديين - ومقتل جعفر بن فلاح في ٦ ذى القعدة سنة ٣٦٠هـ/٣١ أغسطس سنة ٩٧١م وَضَعَت نهاية لهذه الأوهام.

وكان الإخشيدون في مصر، في نهاية عهدهم، يدفعون إلى القرامطة مبلغًا كبيرًا من المال قيمته ٣٠٠,٠٠٠ دينار في السنة، مقابل تأمين سلامة وصول القوافل المارة في الطرق البرية من مصر وسوريا إلى الحجاز. ولكن الفاطميين، بعد فتحهم الشام في سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م، قطعوا هذه المعونة، مما أثار غضب القرامطة وجعلهم لا يترددون عن مهاجمة الفاطميين في مصر^٢.

^١ راجع عن فتح الفاطميين للشام، يحيى بن سعيد: تاريخ ١١٣٨ ابن طاهر، أخبار ٢٤، ٢٥؛ ابن الأثير: الكامل ٨: ٥٩١-٥٩٢؛ ابن خلكان: وفيات ١: ٣٦١؛ ابن سعيد: النجوم ١٠٣-١٠٤؛ النويري: نهاية ٢٨: ١٣٥-١٣٩؛ الصفدي: الوافي ١١: ١٢٢، ١٢٣؛ ابن خلدون: تاريخ ٤: ٤٨، ٤٩؛ المقرئ: المقفى ٣: ٥٠-٥٨، اتعاظ ١٠: ١٢٠، ١٢٢-١٢٩؛ درويش النخيلي: فتح الفاطميين للشام في مرحلته الأولى، الإسكندرية ١٩٧٩؛ خاشع المعاضيدى: الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، بغداد ١٩٧٦، ٢٢-٢٩؛ أمينة البطار: موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري، دمشق ١٩٨٠، ٣٢-٣٣.

Bianquis, Th., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide*, Damas 1986, pp. 44-64؛ ٥١؛ Lev, Y., «Fatimid Policy towards Damascus (358/968-386/996) Military, Political and Social Aspects», dans *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* III (1981-82), pp. 165-183.

^٢ ابن الأثير: الكامل ٨: ٤٥٢؛ ابن خلدون: تاريخ ٤: ٥٠؛ ١٩٧؛ Shaban A., *op. cit.* p. 197.

٣- الحزب القرامطية الأولى

كان هجومُ القرامطة على مصر هو أوّل خطر حقيقى يواجه الدولة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر. تمكّن القائد جُوهر بحنكته الحريّة من صدّ هذا الهجوم الذى كان ينتظره؛ فقد أخذ وهو يؤسّس مدينة القاهرة فى مباشرة بعض الأعمال الدفاعية، فأخذ فى حفر خندق كبير أمام الأسوار الشمالية للقاهرة بين المقطم والخليج^١، وأقام قنطرة على الخليج فى مواجهة الباب الشمالى الغربى للمدينة، الذى صار منذ هذا التاريخ يعرف بباب القنطرة، لتسهيل الانتقال إلى جهة المَقَس، كما أن باين أخذنا من ميدان الإخشيديين كانا يتحكمان فى المداخل الأساسية لهذا الخندق^٢.

كذلك فقد حفر خندقاً آخر شرق المدينة يبدأ جنوباً من عند بركة الحَبَش ويخترق القَرافة إلى أن يصل إلى موضع قبر الإمام الشافعى موازياً فى قسم منه الخندق القديم الذى كان قد حفره عبد الله بن بجّحَدَم فى سنة ٦٨٣/٦٤ م^٣، ثم يدور ناحية الشرق تجاه المقطم وحتى موقع قبر كافور. وهذا كله حتى يتحاشى مجيء القرامطة من جهة الشرق مخترقين الطريق الذى يربط المُشطاط بمدينة القُلزم.

^١ راجع، المقدسى، أحسن التقاسيم ١٩٨، يحيى بن سعيد: تاريخ ١٤٢، ابن ظافر: أخبار ٢٥، ابن أبيك: كثر الدرر ٦: ١٤٣، القلقشندي: صبح ٣: ٣٥، المقرئ: الخطط ٢: ١٣٧، اتعاظ ١: ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، السيوطي: حسن المحاضرة ٢: ٢٨٠. وعن الخندق راجع المقرئ: الخطط ١: ٣٦٠، ١٣٦، ١٣٧، ١٩٧، المقفى ٣: ١٠٦.

^٢ القلقشندي: صبح ٣: ٢٢٩-٢٣٥، المقرئ: الخطط ١: ٣٨٢، ٣٨٣، ٢: ١٤٧، أبو المحاسن: النجوم ٤: ٣٩، عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء ٧١٤-٧١٦.

^٣ الكندي: الولاة والقضاة ٤٤، المقرئ: الخطط ١: ٣٠١، ٢: ٤٥٨، أبو المحاسن: النجوم ١: ١٥٨، ١٦٥-١٧١، ١٦٨.

وقد شجّع هجوم القرامطة أهالي القرما وتيس على التمرد على الفاطميين فغُتروا دعوتهم ولبسوا الشواد - شعار القبايسين - ولم يرجع الهدوء الدائم إلى هذه الأقاليم إطلاقاً بين سنتي ٣٦٠هـ/٩٧١م و ٣٦٣هـ/٩٧٤م حتى تمكن جيش بقيادة أبي محمد بن عمار كانت تحت إمرته أكثر من عشرة آلاف رجل من القيام بسلسلة من عمليات الرذع العنيف لسكان هذه المناطق^١.

المُعزُّ لدين الله يَصِلُ إلى

القاهرة

عندما أصبحت الظروف مهيأة لاستقبال الخليفة المُعزُّ لدين الله في «القاهرة»، العاصمة الخليفية الجديدة، التي أراد الفاطميون بإنشائها أن تكون عاصمةً لإمبراطورية واسعة ينشرون من خلالها مذهبهم الديني في كل الأراضى الإسلامية، مُستخِرِينَ لذلك كافة إمكانات مصر ومواردها لإضفاء العظَمة والأُبْهة عليها لتكون جديرة بالإحلال محل بُغْدَاد في حكم العالم الإسلامي، كَتَبَ جَوْهَرُ إلى المُعزِّ يدعوه للحضور إلى مصر.

كان انتقالُ الفاطميين إلى مصر انتقالاً بمعنى الكلمة، ولم يكن تَوْشَعًا بغرض كَسْبِ أراضٍ جديدة للخلافة الفاطمية. فعندما كتب جَوْهَرُ إلى المُعزِّ يدعوه للحضور إلى القاهرة قَطَعَ الفاطميون كل صِلَة لهم بإفريقية، فقد نَقَلَ المُعزُّ معه كل ذخائره وأمواله^٢ وحتى

^١ المقرئى: اتعاط ١: ١٣٠. Bianquis, Th., *La prise de pouvoir* p. 86.

^٢ الكندى: الولاة والقضاء ٢٩٨؛ ابن زولاقي: فضائل مصر ٤٦ ظ-٤٧ و؛ يحيى بن سعيد: تاريخ ١٣٩؛ ابن ظافر: أخبار ٢٥؛ ابن الأثير: الكامل ٨: ٦٢٠؛ ابن خلكان: وفيات ٥: ٢٢٦، ٢٢٧؛ التويرى: نهاية ٢٨: ١٤٠؛ المقرئى: الخطط ١: ٤٣٢، الاتعاط ١: ١٠٠؛ أبو الحسن: النجوم ٤: ٣٣١.

توايت آباءه حملها معه وهو في طريقه إليها^١. واشتُخِلَفَ على إفريقية أسرة بربرية محلية هي «أسرة بنى زيرى» كان على رأسها يوسف بن بُلْكِين الصَّنْهَاجِي^٢، واشتُخِلَفَ على حكم صِقْلِيَّةِ أسرة عريّة تنتسب إلى قبيلة بنى كَلْب، أما طَرَابُلُس فقد عهد بها إلى عبد الله بن يَخْلِف الكُتَامِي^٣. وإذا كان المِعْزُ قد أبقَد يوسف بن بُلْكِين عن صِقْلِيَّةِ وَطَرَابُلُس فذلك لأنه لم يُرد أن تكون له قدمٌ في أوربا، أو يكون بمسطاعه التحكُّم في الطريق إلى مصر. وبذلك فإن دورَه تَرَكَّز في ضَمَانِ أَمْنِ الشَّمالِ الإفريقي ومحاولة مناوِشة أموي الأندلس ووضْع يده على ما يستطيع الوصول إليه في إفريقيا جنوب الصحراء.

سياسة الفاطميين تجاه المصريين

نَبَّهَتْ قُوَّةُ الدولة الفاطمية من قدرتها على الاستفادة من إمكانات كل الأفراد المنتمين إلى مختلف التكتلات العنصرية والاجتماعية التي كانت تُؤَلَّفُ مجموع الشعب المصري، استفادة لم يسبق لها مثيل من قبل^٤. فقد استعان الفاطميون بالعناصر الأجنبية، لاسيما المغاربة والأتراك والدَّيَالِمَة والسُّودَان والأَرَمَن، وأفادوا بخبرة أهل الذَّمَّة، ولاسيما بمعرفة الأقباط بالمسائل المالية، وعهدوا إليهم بالوظائف الرئيسية في الدولة التي أُبْعِدَ عنها المسلمون السُّنِّيُّون^٥.

وهكذا فقد ظَلَّ الفاطميون في حكمهم مصر كحكومة أقلية منفصلة عن مجموع رعاياها بسبب آرائهم الدينية، مما أفقدهم تأييد أهل البلاد الحقيقيين. وقد أذْرَكَ

^١ ابن زولاق: فضائل ٢٤٧، النويري: نهاية ٢٦: ٤٣، ابن دقماق: الانتصار ٥: ٣٦، المقرئ: المقفى ٢: ١٧٩، الخطط ١: ٣٥٣، ٤٤٠٧، عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٣٨، ابن إلياس: بدائع الزهور ١/ ١: ١٨٧، ١٨٨.

^٢ ابن الأثير: الكامل ٨: ٦٢٠-٦٢٥، ابن خلكان: وفيات ٥: ٢٢٦، ابن سعيد: النجوم ٤٤: ٥٥، ابن عذاري: البيان المغرب ١: ٢٢٨، ٢٩٦، النويري: نهاية ٢٤: ١٥٥، ابن خلدون: تاريخ ٤: ٤٩، المقرئ: الخطط ١: ٣٥٣، الانطاظ ١: ٢٩٩، أبو الهامس: النجوم ٤: ٧٢، Idris, H.R., *La Berbérie Orientale sous les*

Zirides X-XII siècles, Paris 1962, I, pp. 127-142.

^٣ نفسه ٨: ٦٢٠.

^٤ Grunebaum, G.E. «The Nature of the Fatimid Achievements», *CIHC*, p. 200

^٥ يحيى بن سعيد: تاريخ *Patr. Or.* (1932) p. 509

الفاطيون أن الإسماعيلية لم تتجذّر في شمال إفريقيا بعد عشرات السنين من الدعاية ، برغم مناسبة البيئة لذلك ، كما أن مصر بما فيها من ذميين ومسلمين على مذهب الشنّة لن تكون أرضاً خصبة للتبشير^١ . فلم يعمد المعزّ إلى نشر الدّعوة في مصر إلا في أضيق الحدود ، فنادراً ما جرّت أية محاولة لحثّ الشعب المصرى على اعتناق المذهب الإسماعيلى^٢ ، واكتفى الفاطميون فقط بإسناد مناصب الدولة العليا إلى أهل الدّمة أو إلى من يعتنق مذهبهم . وعلى ذلك فإنه بعد أكثر من مائتى عام من الحكم الفاطمى في مصر ، لم يكن بها إسماعيلى واحد سوى من ارتبط بالسلطة الحاكمة . فقد كان الفاطميون يدورون في حلقة مفرغة ، فمن حيث إنهم قتلوا مبدئياً فى كُشِب كل العالم الإسلامى لصفّهم ، نراهم فى نفس الوقت مضطرين للحفاظ على تحدياتهم الإيديولوجية ، الأمر الذى عزّله عن إجماع المسلمين ، وبهذا تسبّبوا فى إلحاق الهزيمة بأنفسهم وفى اختفائهم من المسرح السياسى .

وقد استعاض الفاطميون عن تحويل مسلمى مصر إلى المذهب الإسماعيلى بكسب ودّ أهل الدّمة . فقد انتهج الفاطميون سياسة اتسمت بـ « التّسامح الدّينى » مع أهل الدّمة ، الذين يحقّ لهم - إذا استثنينا الاضطهاد الذى تعرّضوا له فى زمن خلافة الحاكم بأمر الله - أن يعتبروا العصر الفاطمى عصرهم الذهبى الذى تمكّنوا فيه من الاندماج الحقيقى فى الحياة السياسية العامة للدولة فى مصر . وهذا التّسامح لم يتّسع به حتى المسلمون من أهل الشنّة . ولعل انتقال ابن كلس - اليهودى الذى أسلم فى آخر عهد كافور - إلى إفريقية ودعوته المعزّ لفتح مصر ، ثم الدور الهام الذى لعبه بعد ذلك فى مصر كوزير وأهمية الطائفة اليهودية فى العصر الفاطمى ، تجعلنا نظن تماماً أن الفاطميين حاولوا كُشِب وُدّ هذا العنصر النشط من الشعب المصرى^٣ .

^١ Shaban, A., *op. cit.*, p. 198 .

^٢ المقرئى : الخطط ٢ : ٣٤١ - ٣٤٢ .

^٣ Wiet, G., *L'Egypte arabe* pp. 118, 184 .

ولاشك أن مصر في العصر الفاطمي قد أصبحت - بفضل سياسة الفاطميين الاقتصادية المفتوحة والمتسامحة - أكثر مفترقات الطرق التجارية نشاطاً في العالم الإسلامي. وفي هذه الظروف سرعان ما وجد يهود مصر أنفسهم كما توافد إلى مصر مهاجرون يهود جدد، في أعقاب انتصار الفاطميين، من المغرب ومناطق أخرى في الشرق الأوسط^١.

وحتى منتصف القرن الخامس الهجرى كان يقوم بخدمة الخلفاء الفاطميين سلسلة من الأطباء اليهود أسسها طبيب المعز موسى بن العازار اليهودى (بَلْطَيْال بن شَفْطِيَا)^٢. ومن الجائز أن الفاطميين فَضَّلُوا استخدام الكُتَّاب والأطباء من اليهود والنصارى، لأن وُضِعَ هؤلاء كِذْمِيَّين ضمن ولأهم للحاكم بما يفوق الأكثرية السُّنِّيَّة^٣.

وقد بَدَتْ سياسة التسامح التى اتَّبعها الفاطميون واضحة منذ وصول الخليفة المعز إلى مصر. فقد طَلَبَ إليه أفرهام الشرويانى، البطريرك الثانى والستين، أن يُمَكِّنَه من بناء كنيسة أبى مَرْقُورَةَ بالقُشَطَاط، وكذلك الكنيسة المُعلَّقة بقصر الشُّفْع، فكتب له سِجْلاً يُمَكِّنُه من ذلك وأطلق له من بيت المال ما يصرفه على هذه العمارة، فَتَصَدَّدَى الناسُ للأقباط ومنعومهم من البدء فى عملية البناء، فجاء المعزُ وأشرف بنفسه على بناء أساس الكنيستين، ثم أمر ببناء كل الكنائس التى تحتاج إلى عمارة دون أن يعترضه أحدٌ فى ذلك^٤.

^١ كوهن، م: المجمع اليهودى فى مصر الإسلامية فى العصور الوسطى، جامعة تل أبيب ١٩٨٧، ١٦.
^٢ ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، القاهرة ١٨٨٢، ٢: ٨٦؛ القفطى: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة ١٣٢٦هـ، ٢١٠، ٢١١؛ ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة ٢/٢: ٩٢، ٩٣؛ المقرئى: اتعاظ ١: ١٤٤، ١٤٦، المقفى ٢: ٥٧؛ حسن حسنى عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، تونس ١٩٦٥، ١: ٣٠١-٣٠٤؛ Lewis B., «Palial: A Note», BSOAS 30 (1967), pp. 177-181.

^٣ كوهن: المرجع السابق ١٩.

^٤ ساويرس بن المقفع: تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية ٢/٢: ٩٦، ٩٧؛ أبو صالح: تاريخ ٤٤٥؛ المقرئى: اتعاظ ١: ٢٢٥. وقارن ذلك بما فعله محمد بن طنج الإخشيد عندما بذل له النصارى مالاً ليسمح لهم بإعادة عمارة قطعة انهدمت من كنيسة أبى شنودة، فاستفتى الفقهاء فى ذلك فلم يجيزوه فيما عدا واحد أتى بأن لهم حق ترميمها، وكيف ثار الناس على هذا القاضى. (ابن سعيد: المغرب ١٨٣، ١٨٤).

ولما كان وَلَدُه الخليفة العزيز بالله متزوِّجاً من نصرانية على المذهب المَلِكاني ، فقد جعل أخاها أُرْسْتَس Aureste بَطْريركاً على بيت المقدس سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٦م ، وجعل أخاها الآخر أَرْسانْيوس Arsenius بَطْرِكَاً للملكية بمصر^١ ، الأمر الذي ساعد على توطيد العلاقة بينه وبين بيزنطة .

واستمراراً لروح التسامح الديني هذه ، عهد العزيز بالله ، في أعقاب وفاة ابن كِلْس ، إلى عيسى بن نَشْطُورِس النصراني بتولّي دواوين الدولة في سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م ، واستناب على الشام يهودياً يُدعى مِثْشَا بن إبراهيم القَزَاز بما مَكَّن لأهل الذِّمَّة في زمانهما ، وأثار حفيظة المسلمين الشُّنَّة عليهما^٢ . وَوَجَد أهل القُشَطاط - مركز المقاومة السنية في مصر - في ذلك فرصةً سانحةً للتعبير عن سخطهم على هذا الوضع . فيروى لنا ابن الجَوْزَى أن أهل القُشَطاط جعلوا امرأة (ربما تمثالاً على هيئة امرأة) تعترض طريق الخليفة وتُقَدِّم له ورقة فيها : « بالذي أعزَّ اليهود مِثْشَا ، والنصارى بابن نَشْطُورِس ، وأذلَّ المسلمين بك ، إلّا نظرت في أمري ؟ » . وقد اضطر الخليفة أمام تَدَمُّر أهل مصر من هذا الوضع إلى القَبْض عليهما وأَخَذَ من ابن نَشْطُورِس ثلاثمائة ألف دينار^٣ .

المُيزُ لدين الله وولاية عهده

عَيَّنَ المعز لدين الله لولاية عهده ابنه نزار ، رغم أنه ليس صاحب الحق في ذلك تبعاً للنظام الإسماعيلي . وكان المُيزُ ، وهو مازال في إفريقية ، قد عَيَّنَ لولاية عهده ابنه الأوسط عبد الله^٤ متخطئاً ابنه الأكبر تميم ، صاحب الحق الشرعي تبعاً للعقيدة

^١ يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخ ١٦٤، ١٦٥ ساويرس بن المقفع: تاريخ بطارقة الكنيسة ٢/٢: ١١٣.

^٢ أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ١٨٦، ابن القلانسي: ذيل ٣٣٣، ابن ظافر: أخبار ٤٠-٤١، ابن الأثير: الكامل ٩: ٧٧، ١١٦، النويري: نهاية الأرب ٢٨: ١٦٣، ١٦٤، المقرئ: اتعاظ: ١: ٢٩٧.

^٣ ابن الجوزي: المنتظم ٧: ١٩٠، ابن ظافر: أخبار ٤٠، أبو المحاسن: النجوم ٤: ١١٥، ١١٦، ابن إياس: بدائع

الزهور ١/١: ١٩٦.

^٤ الجوزي: سيرة الأستاذ جوفر ١٣٩، ١٨٧، ١٨٨، يحيى بن سعيد: تاريخ ١٤٢، ويذكر عماد الدين إدريس: =

الإسماعيلية، لأنه كان يحيا حياة عابثة بعيدة عما يجب أن يتخلّى به من يُرشّح لإمامة المؤمنين^١.

ظُلَّ عبد الله، بعد انتقال الفاطمين إلى مصر، هو وَلِيُّ عهد المُعِزِّ، وكان له دورٌ في انتصار الفاطميين على القَرَامِطَةِ في سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م^٢؛ إلا أنه توفي فجأة في حياة أبيه من مرض ناله بعد قليل من عودته من حرب القَرَامِطَةِ^٣، الأمر الذي قلب نظام الإمامة الفاطمية. فقد كان على المُعِزِّ أن يَنْصَحَ بولاية العهد إلى حفيده ابن عبد الله استنادًا إلى قاعدة ترجع إلى عصر جعفر الصادق، الذي مات ابنه إسماعيل في حياته، فأصبح محمد بن إسماعيل، تبعًا للعقيدة الإسماعيلية، هو صاحبُ الحقِّ الشرعي في الإمامة؛ لأن الإمامة لا تنتقل من أخٍ إلى أخيه بعد أن انتقلت من الحسن إلى الحسين، وأنها يجب أن تكون في الأعقاب.

وبتعيين المُعِزِّ لابنه الثالث نزار وليًا لعهدِه يكون قد تجاهل هذه القاعدة الأساسية في العقيدة الفاطمية. وسنرى هذا التجاوز يتكرر بعد ذلك مرتين في تاريخ الدولة الفاطمية. ولكنه في هذا الوقت، أوجد صعوبات ضخمة أدّت إلى انقسام الدعوة الفاطمية على نفسها. وكان ذلك سببًا في ضَعْف الخلافة وفي وصول خلفاء صغار السن إلى كرسي الإمامة، وكذلك إلى ازدياد نفوذ كبار رجال الدولة ونساء القصر الذين فرضوا الخليفة الذي يريدونه^٤.

= تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٠٢ أن المز أقام ابنه عبد الله «إمامًا مستودعًا» حتى يبلغ ولده الأصغر نزار أشده.

^١ الجوزدي: المصدر السابق ١١٥، ١٢٠، ١٣٩، ١٤٠، ١٨٥، ١٨٦، ومقدمة الأعظمي لديوان الأمير محمد بن المز الفاطمي، القاهرة ١٩٥٦.

^٢ ابن زولاقي عند ابن ميسر: أخبار ١٦٥؛ النويري: نهاية الأرب ٢٨: ١٤٩؛ عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٣٥.

^٣ ابن ظافر: أخبار ٢٦؛ ابن ميسر: أخبار ١٦٦؛ المقرئ: اتعاظ ١: ٢١٦، ٢١٧؛ عماد الدين إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين ٧٣٥.

^٤ انظر فيما يلي ص ١٧١، ٢٢٠، ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٨٤، ٣١٦-٣٢٠.

الخليفة العزيز وإرساء دعائم الدولة

كان عهد المعز والعزيز هو فترة إرساء دعائم الدولة الفاطمية وتثبيت أركانها في مصر. فقد منح هذان الخليفان للدولة الفاطمية، بفضل خبرة ومعاونة القائد جوقهر والوزير ابن كلس، قواعد ثابتة جعلتها تستمر بعد ذلك نحو قرنين من الزمان. ولم تكن سياستهما الخارجية نشطة إلا في بلاد الشام، فتركزت سياسة العزيز بالله الخارجية على تأكيد سيطرة الفاطميين على سوريا الوسطى والجنوبية وعلى إمارة حلب فيما بعد^١ فقد كان الفاطميون يرون في سوريا الشمالية «الطريق إلى العراق» وأن امتلاكهم لها سيضمن لهم الوصول إلى ماورائها من بلاد^٢، وخاصة «بغداد» المركز الروحي والسياسي للعالم الإسلامي المثنى.

ولتأكيد هذه السياسة قرّر الخليفة العزيز بالله ووزيره ابن كلس، في أعقاب مواجهة الجيش الفاطمي لألبتكين (أفتكين) التركي في دمشق، القيام بعملية إصلاح شامل للجيش الفاطمي كان أهم مميّزها هو تجنيد الجنود من المناطق الشرقية وعلى الأخص الأتراك والديّالة. وتنتج عن ذلك نشوء جيش متعدد الجنسيات مع تنوع شديد في التخصصات العسكرية. وقد عارضت قوات العزيز بالله من البربر المغاربة هذا الاتجاه واعتبروه تهديداً لمكانتهم في الدولة^٣.

ومع ذلك فإن الخليفة العزيز لم يقيم بأية محاولة للتحرش بالخلافة العبّاسية، واكتفى فقط بالقيام باتصال دبلوماسي بعُصّد الدولة البويهية أبي شجاع فناخسرو، في عهد

^١ Canard M., *Et*² art. al-^٥Aziz billâh I, p. 847.

^٢ ابن الأثير: الكامل ٩: ٨٥ نص رسالة بكجور إلى العزيز بالله يطعمه في حلب ويقول له «إنها دهليز العراق».

^٣ ابن ميسر: أخبار ١٧٦؛ النويري: نهاية الأرب ٢٨: ١٦٦؛ القلقشندي: صبح ٣: ٣٥٤؛ المقرئ: تماظ ١: ٢٩٤، ٢٦١، الخطط ١: ٩٤، ٤٥١، ٢: ١١٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١/١: ١٩٢؛ Beshir, B.I., *op.*

الطوائف العباسية، اعترف فيه عَصُد الدولة بفضل أهل البيت وخاطب العزيز به الحضرة الشريفة^١ وأقر له بأنه في طاعته^٢. ويبدو هذا التصرف من عَصُد الدولة غريزيا خاصة وأن ابن ظافر يذكر أنه لم يكن يعترف بالنسب الفاطمي^٣! ولكن الفاطميين نجحوا دون شك في التصدي للبيزنطيين ووضعوا نهاية لمحاولاتهم المتكررة لاسترجاع الشام منذ عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م.

وبدلاً من المواجهة المباشرة اعتنق الفاطميون نظرية جديدة مؤدّاه أن صاحب السيادة الفعلية على العالم الإسلامي، هو من تُقام له الخطبة في الأراضي الإسلامية المقدسة (مكة والمدينة)^٤. فكان الفاطميون يتقربون لشرفاء مكة لهذا السبب. وهكذا أقيمت الدَعْوَةُ للمُعِزِّ وهو مازال في إفريقية^٥، كما أقيمت له في سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م بعد انتقاله إلى مصر^٦، ثم أقيمت للخليفة العزيز سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م^٧. وظلّ الفاطميون حريصين على ذلك إلى أن تقلّصت ممتلكاتهم وشغلتهم مشاكلهم الداخلية عن تحقيق أهدافهم الاستراتيجية^٨.

وبدأ التنظيم الإداري لمصر الفاطمية في عهد العزيز بالله فكان هو أوّل من اتَّخَذَ الوزراء، كما عرفت القاهرة تطوراً عمرانياً ملحوظاً حيث وُضِعَ أساس جامع الخطبة خارج باب الفتوح القديم سنة ٣٧٩هـ/٩٨٩م، وبني كذلك القصر الصغير الغربي

^١ ابن الأثير: الكامل ٨: ٧٠٩؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٢٤، ١٢٥؛ Kabir, H., «The Relation of the Buwayhides with the Fatimids», *Indo-Irania* VII, 4 (1955), pp. 28-33.

^٢ ابن ظافر: أخبار ٣٤.

^٣ السعدي: مروج الذهب ١: ١٩٢؛ متر، آ: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١: ٢٣.

^٤ المقرئ: الخطط ١: ٣٥٣.

^٥ ابن الجوزي: المنتظم ٧: ٧٥؛ ابن الأثير: الكامل ٨: ٣٤٦؛ ابن مسير: أخبار ١١٦٧؛ ابن خلدون: العبر ٤: ٥١؛ المقرئ: اتعاظ ١: ٢٢٥، ٢٣٠؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء ٤٠٦.

^٦ نفسه ٧: ٨٠، ٨١؛ نفسه ٨: ٦٦٧؛ ابن ظافر: أخبار ٣٣؛ المقرئ: اتعاظ ١: ٢٣٨.

^٧ عن حرص الفاطميين على استمرار إقامة الدعوة لهم في الحرمين الشريفين، انظر السجلات المستنصرية، السجلات

وجامع القَرَافَة . وفي الوقت نفسه امتدت مملكة الفاطميين في عهده حيث فُتِحَتْ جَنْص وحماة وشَيزَر وحَلَب وخطبَ له بالمَوْصِل سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م . وفي أثناء خروجه مُتَّجِهًا إلى بلاد الشام عاجلته الوفاة في نهاية شهر رمضان سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وهو في مخيمه في مدينة بَلْبَيس^١ .

^١ ابن ظافر : أخبار ٣٧-٣٨ ، ٤٤٢ النويري : نهاية الأرب ١٦٣:٢٨-١٦٤ ؛ ابن خلكان : وفيات ٣٧٤:٥ ؛ المقرئ : تماظ ١:٢٩٤-٢٩٦ .

الفصل الثالث

التوسع

ومناقشة قضية الحاكم بأمر الله

مع نهاية عهد العزيز بالله حول سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م اتسعت مملكة الفاطميين ، وتمكّن الدعاة من إقامة الدعوة للفاطميين في أماكن متفرقة من العالم الإسلامي ، في اليمن والموصل^١ بالإضافة إلى الشام وإفريقية ، كما اشترط العزيز بالله على رُسل إمبراطور بيزنطة أن يُخطب له في جامع القسطنطينية في كل يوم جمعة^٢.

الصراع بين الأتراك والمغاربة

كانت فترة حكم العزيز بالله هي الفرصة المواتية للفاطميين لتحقيق حلمهم في مواجهة القبايسين . يقول أبو المحاسن ، تعليقاً على رد عضد الدولة البويهى على كتاب العزيز السابق ذكره : « وما أظنّ عضد الدولة كتب له ذلك إلا عجزاً عن مقاومته »^٣. فبعد وفاة العزيز في سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م ، تولّى الخلافة تسعة من الفاطميين ، كان بينهم وقت اعتلاء العرش ثلاثة مراهقين وخمسة أطفال كان أولهم الحاكم بأمر الله ، الذى ظنّ بزبر كتماناً عند تولّيه أن الفرصة قد سنّحت لهم لتطهير الجيش من أبناء الشرق ، وشرطوا

^١ المسبحى : نصوص ضائعة ١١٨. ابن خلكان : وفيات ٥ : ٣٤٧ ; المقرئى : اتماظ ٢ : ٢٧٤ ; أبو المحاسن : النجوم

٤ : ١١٦ ، ١١٢ ، ٢٢٤ السوطى : تاريخ الخلفاء ٤٤١٣ عماد الدين إدرىس : عيون الأخبار ٦ : ٣٠٠ - ٣٠٢ .

^٢ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٥١ - ١٥٢ .

^٣ نفسه ٤ : ١٢٥ .

عليه أن يؤلَّى الحسن ابن عَمَّار المغربي الوَسَاطة^١، مما مَكَّن المغاربة من استعادة مكانتهم في الدولة، بعد أن أضعفهم الوزير ابن كِلَّس، وحلُّوا مؤقَّتًا محل الأتراك في ولايات الأعمال، حتى اضطرَّ جماعة من الأتراك إلى الهرب من مصر خوفاً من ابن عَمَّار فزودوا من الطريق^٢. وخلقَ الحاكم على ابن عَمَّار لَقَب «أمين الدولة»، فأصبح بذلك أول من لُقِّب في الدولة الفاطمية^٣.

ولم يلبث الأتراك والمشاركة أن تحالفوا مع بَرْجوان، الذي كَفَّلَ الحاكم بعد وفاة العزيز .. واثرت قِتَّةٌ بينهم وبين المغاربة سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م انتهت بإقصاء ابن عَمَّار وإحلال بَرْجوان محله، فاستقلَّ بالأمر مع كاتبه فَهْد بن إبراهيم التُّصْراني^٤، ولم يدع الخليفة يتصرف في شيء إلا برأيه^٥. فضاق الحاكم به دَرْعًا وَقَرَّرَ التَّخْلُص منه لينفرد بأمر الدولة. فأَوْعَزَ إلى زَيْدان الصَّقْلبي، صاحب المِظْلَّة، أن يقتله في القصر في سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م، كما قُتِلَ في هذه الأحداث كذلك ابن عَمَّار وتولَّى تدبير الدولة الحسين بن جَوْهَر القائد^٦.

^١ ابن الصيرفي: الإشارة ٥٦-٥٧؛ أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٢٢٢؛ ابن القلائسي: ذيل تاريخ دمشق ٤٤، ٤٥؛ ابن ظافر: أخبار ٤٣؛ ابن ميسر: أخبار ١٧٧؛ النويري: نهاية ٢٨؛ ١٦٨؛ المقرئ: الخطط ٢: ٣٦-٣٧؛ والمقفى

٣: ٤٣٣-٤٤١؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٢٢؛ Wiet, G., *El*². art. ^٥Ammâr, Banû I, p. 461.

^٢ يحيى بن سعيد: تاريخ ١٨٦؛ ابن القلائسي: ذيل ٤٨، ٤٩؛ ابن ميسر: أخبار ١٧٧-١٧٨، ١٨١؛ النويري: نهاية ٢٨؛ ١٦٨؛ المقرئ: الخطط ٢: ٣٦ والاتعاظ ٢: ٤، ١٠، ١٢-١٣.

^٣ نفسه ١٨٠؛ ابن الصيرفي: الإشارة ٥٦؛ ابن الأثير: الكامل ٩: ١١٨؛ ابن ميسر: أخبار ١٧٩؛ ابن سعيد: النجوم ٥٥؛ النويري: نهاية ٢٨؛ ١٦٨؛ المقرئ: الخطط ٢: ٣٦، اتعاظ ٢: ٥-٦، والمقفى ٣: ٤٣٥.

^٤ المقرئ: اتعاظ ٢: ١٤؛ ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة ٢/٢: ١٢٣.

^٥ أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم ٢٢١؛ ابن الصيرفي: الإشارة ٥٧؛ ابن الأثير: الكامل ٩: ١٨٨، ١٢٠؛ ابن خلكان: وفيات ١: ٢٧١؛ المقرئ: اتعاظ ٢: ١٣-١٤، الخطط ٢: ٣-٤، ١٤؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٤٨.

^٦ يحيى بن سعيد: تاريخ ١٩٧-١٩٨؛ أبو شجاع: ذيل ٢٣٠-٢٣٢؛ ساويرس: تاريخ البطارقة ٢/٢: ١٢١؛ ابن الصيرفي: الإشارة ٥٨؛ ابن الأثير: الكامل ٩: ١٢٢؛ ابن ظافر: أخبار ١٤٣؛ ابن ميسر: أخبار ١٨١؛ ابن =

وقد أعقب ذلك اضطرابات بين طوائف الجند ، فقد اعتبر الأتراك ما حَدَثَ ضربةً لهم من بَزْر كُتامةً ، مما حَمَلَ الخليفة على الخروج إلى باب قصره ومخاطبة المتظاهرين ، وَوَجَّهَ حديثه إلى الكتّامين ووصفهم بأنهم « شيوخ دولته » ثم وَجَّهَ حديثه إلى الأتراك ووصفهم بأنهم « تربية والده العزيز » ، وَطَلَبَ إلى الكافة الولاء والطاعة ، كما أمر أبا منصور بن سورين ، كاتب الإنشاء ، بكتابة سِجِلٍّ يُبَيِّنُ فيه قتله لبزجوان^١.

ديكتاتورية الحاكم

وابتداء من هذا التاريخ أصبح الحاكم طاغيةً مُطْلَقٌ لا تصدر قراراته سوى عن هواه أو مزاجه الشخصى ، ووضحت فى تصرفاته المتناقضات ، فقد كان مصابًا بانفصام الشخصية يأخذ القرار ثم ينقضه بعد قليل^٢ . ويمكننا تقسيم فترة حكم الخليفة الحاكم بعد تَخْلُصِهِ من بَزْرَجوان واستقلاله بأمر الدولة فى سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م ، إلى ثلاث

= خلكان : وفات ٢٧٠ - ٢٧١ ؛ ابن سعيد : النجوم ٥٥ ، النوى : نهاية ٢٨ : ١٧٢ ؛ المقرئ الخطوط ٢ : ٤ ،

١٤ ، اتعاظ ٢ : ٢٥ - ٢٦ ، المقفى ٣ : ٤٩٦ - ٤٩٧ ؛ عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٥٤ - ٢٥٧ (رواية

مفصلة) ٤ Lewis, B., *El*² art. *Bardjawn* I, pp. 1073-74 .

^١ المقرئ : اتعاظ ٢ : ٢٧ وانظر نص السجل فى الاتعاظ أيضا ٢ : ٢٧ - ٢٩ والشبال : مجموعة الوثائق الفاطمية

١٣١ - ١٣٥ ، ٢٩٩ - ٣١١ ؛ كما منح الحاكم أمانًا للكتّامين الذين خشوا على أنفسهم بعد قتل ابن عمار (عماد

الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٥٧ - ٢٥٨) .

^٢ وضعت مؤلفات كثيرة عن عصر الحاكم بأمر الله بين متعاطفة معه مدافعة عن سياسته أو مهاجمة متهمه له بالخلل والجنون ،

أهمها ، محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (القاهرة ١٩٣٧ ، ١٩٥٩) ؛ عبد المنعم ماجد :

الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، القاهرة ١٩٥٨ ؛ Sadik, A. A., *The Reign of Al-Hakim Bi Amr Allah* (1966/96-411/1021), A Political Study, Beirut 1974; Canard, M., *El*², art *al-Hâkim Bi Amr Allâh*

III, pp. 79-84; Bianquis, Th., «AL-Hâkim Bi Amr Allâh ou la folie de l'unité chez un souverain fatimide», *Les Africains* XI (1979), pp. 107-133; Van Ess, J., *Chiliasische Erwartungen und die*

Versuchung der Gattlichkeit: der Kalif Al-Hakim (375-411 H.), Heidelberg: Winter, 1977; Halm,

. H., «Der Treuhân der Gottes. Die Edikte des Kalifen al-Hâkim», *Der Islam* 63 (1986), pp. 11-72

فترات أثبتت خلال كل منها سياسةً متماسكةً نسبيًا، ولكنها كانت تنتهى دائمًا بتغيير عنيف لاختياراته .

الاعتدال

تمتد المرحلة الأولى حتى نهاية سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م عندما أصبحت ثورة أبي رَكْوَة مُهَدَّدةً للنظام الفاطمي . ففي هذه المرحلة ، التي تَنَسَّم بالاعتدال ، ظلَّ الحاكم محافظًا على العبارات الشيعية للإسلام في الأذان وفي الصيام ، كما حرص على احترام الطقوس والشعائر وعلى الأخص ما يتعلَّق منها بالأخلاق ^١ . وشهد عام ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م أهم إنجازات الحاكم ، التي ظلَّت شاهدةً على عصره حتى الآن ، وهى الشروع فى إتمام بناء الجامع الأتوز ، المعروف الآن بجامع الحاكم خارج أسوار القاهرة الشمالية عند باب الفتوح ، وبناء جامع رَاشِدَة على أرض كانت لقبيلة رَاشِدَة فى القُسطاط وأزال من عليها بعض الكنائس ومقابر لليهود والنصارى ، وكذلك بناء جامع المَقْس على شاطئ النيل ^٢ .

وقد حاول كذلك فى هذه الفترة أن يُنَمِّي رُتْبَة الوَسَاطة والسُّفارة فظلَّ الحسين بن جَوْهَر فى رتبته حتى سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م ، وأن يُوفِّق العلاقات بين الطوائف المختلفة للجيش ، وأن يمنح مصداقية متزايدة لنظامه عن طريق كَسْب وُدِّ أهالى القُسطاط . وتأكَّد هذا الاتجاه اعتبارًا من نهاية سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م عندما انفجرت ثورة أبي رَكْوَة ^٣ فقد اكتشف الحاكم خيانةً فى صفوف أتباعه وأنصَح له عدم فاعلية الجيش ، ولم يجد التأييد

^١ . Bianquis, Th., *op. cit.*, p. 128

^٢ . Fu'ād Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte* p. 352

^٣ عن ثورة أبي رَكْوَة راجع ، النورى : نهاية الأرب ٢٨-١٨٠-١٨٥ : القريزى : تماط الحفا ٢ : ٦٠-٦٧ وإغاثة

الأمة ١٦٤ : عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٥٩-٢٧٢ .

الذى كان يحتاج إليه إلا بين سكان مصر الفُسطاط الذين كانوا يعادون قطعاً ثورة يقودها البدو^١. وكاعتراف بمؤازرتهم له ألغى الحاكم سب الصحابة وسَمَحَ بممارسة بعض الشعائر والطقوس السنية التى حرّمها آباؤه. فأعاد صوم رمضان برؤية الهلال^٢. وأنشأ دار الحكمة (دار العلم) فى سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م^٣ وأراد أن يكسب بها فى أوّل الأمر حماس أهل السنة، فكان من بين متولّيها جماعة من شيوخ السنة على رأسهم الحافظ عبد الغنى بن سعيد وأبو أسامة مجتادة بن محمد اللغوى وأبو الحسن على بن سليمان المقرئ الأنطاكى^٤. وربما قصد الحاكم من وراء ذلك أن يسحب من جامع عمرو، الواقع فى قلب الأحياء التجارية للفسطاط، دوره المميز فى صنع الفكر الدينى. ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً ففى نهاية عام ٣٩٩هـ/١٠٠٩م قُتِلَ الشيخان أبو أسامة اللغوى وأبو الحسن الأنطاكى واضطر عبد الغنى بن سعيد إلى التّسّتر^٥.

اضطهاد أهل الذمة

واعتباراً من عام ٣٩٥هـ/١٠٠٥م بدأ تشدّد الحاكم مع الرعية، وخاصة أهل الذمة الذين لقوا فى عهده عنتاً شديداً، كما أخذ فى إصدار سلسلة من الأوامر والقرارات تحوى قائمة بممنوعات تَوَعَّد من يُقَدِّم عليها بالعقاب بالقتل أو التعذيب.

^١ Bianquis, Th., *op. cit.*, p. 156.

^٢ المقرئى: الخطط ٢: ٢٨٧، ٣٤٢، اتعاظ ٢: ٧٨.

^٣ المسبحى: نصوص ضائعة ٢٢: المقرئى: الخطط ١: ٤٥٨-٤٦٠، اتعاظ ٢: ٥٧؛ ابن حجر: رفع الإصر ١: ٣٦٠-٣٦١، وانظر فيما يلى الفصل الثالث عشر.

^٤ القلقشندى: صبح ٣: ٥٢٠؛ المقرئى: اتعاظ ٢: ١١٩؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٢٢٢-٢٢٣.

^٥ ابن خلكان: وفيات ١: ٣٧٢؛ المقرئى: اتعاظ ٢: ٨٠؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٢٢٢-٢٢٣. Bianquis, Th., «Abd al-Gani ibn Sa'id, un savant sunnite au service des Fatimides», *Actes du XXIX Congrès international des Orientalistes, Etudles arabes et islamiques, I-Histoires et Civilisations*, Paris 1975, I, p. 43-44.

وأدت سياسة الحاكم المتشددة مع النصارى ، والملكانين منهم بوجه خاص ، وهذمه لكنيسة قُمامة (القيامة) ببيت المقدس سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م إلى الإضرار بتجارة الفاطميين مع البيزنطيين^١، حيث قَطَعَ باسيل الثانى فى سنة ٤٠٦هـ / ١٠١٥م جميع العلاقات التجارية مع الفاطميين^٢، خاصة بعد أن أمر الحاكم فى سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٣م بهُذِم جميع كنائس الديار المصرية وَوَهَب جميع ما فيها ومالها من ربايع وأُملاك إلى جماعة من الصُّقَالِبة والفَرَّاشين والسُّعْدِية^٣.

وذكر ابن عبد الظاهر أن الخليفة الحاكم أحرق كذلك حارة المجودية على أهلها اليهود، الذين كانوا يجتمعون بها ويسخرون من المسلمين". وبالرغم من ذلك فإننا نجد

المسيحي: أخبار ١٩٧ يحيى بن سعيد: تاريخ ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٧، ساويرس: تاريخ البطارقة ٢/٢: ١٢٥، ١٢٦، ١٣٣ ابن ظافر: أخبار ١٥٥ النابلسي: تحرير سيف الهمزة ١٣٩-١٤٠: ابن الأثير: الكامل ٩: ٢٠٩، ١٣١٧ ابن حلكان: وفيات ٥: ٣٩٣-٣٩٤: ابن سعيد: النجوم ٥٢، ١٥٣ النويري: نهاية ٢٨: ١٩١ ابن أبيك: كنز الدرر ٦: ٢٩٨ المقرئ: الخطط ٢: ٢٨٨، ٣٤١، اتعاض ٢: ٤٨، ٥٣، ٧٥، ٨٥، ٩٣-٩٥، ١٠٠، أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٧٧، ١٧٨، *Atiyya, A.S., El² art. Kibr IV p. 94*.
٢ يحيى بن سعيد: تاريخ ١٩٥-١٩٦ ناصر خسرو: سفرنامه ١٧٥ المقرئ: اتعاض ٢: ٧٤-١٧٥ *Canard, M., « La destruction de l'église de la resurrection par le calife Hakim et l'histoire de la descente du feu sacré », Byzantion XXXV (1965), pp. 16-43*

نفسه ۲۱۴-۲۱۵ Shaban, A., *op.cit.*, p. 209

^٤ نفسه ٢٠٤-٢٠٥؛ النويري: نهاية ١٩١:٢٨-١٩٢، المقرئبي: اتعاظ ٢: ٩٤.

٥ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ٥٤-٥٥؛ المقرئى : الخطط ٢ : ٥.

فى أوراق الجنيزة ما يخالف بعض ما جاء فى المصادر التاريخية حول موضوع اضطهاد اليهود بصفة خاصة .

فى طومار عبرى وجد فى أوراق الجنيزة ، يرجع تاريخه إلى أواخر شهر يناير سنة ١٠١٢هـ/ جمادى الآخرة سنة ٤٠٢م ، نجد مدحا للخليفة الحاكم مع وصفه بأنه يشبه المسيح أمير العدالة الذى يحمى غير المسلمين من التهم الباطلة الموجهة إليهم . ويرى جويتين S.D.Goitein أن ثورة اليهود والقيبط المفاجئة فى عهد هذا الخليفة تبدو لنا من خلال الجنيزة على أنها انفجار ضد الحكم الفاطمى الليبرالى بصفة عامة ، وليست بسبب أهواء هذا الخليفة الشخصية^١

وقد لقي موقف الحاكم من الثصارى ، بصفة خاصة ، قبولاً من المسلمين السنيين الذين أبغضوا الثصارى بسبب أعمال الابتزاز والمحابة التى عانوها من موظفى المال الثصارى .

الثوامى

أما قوائم المنوعات التى توعد من يُقدم عليها بالقتل والتعذيب فىمكن تفسيرها على أنها إجراءات إصلاحية . فعندما أمر بمنع صناعة النبيذ والمزر والفقاع ، فإن هذا الإجراء يتفق مع ما يجب أن يكون من حاكم مسلم غيور . كما أن تحريمه ذبح الأبقار السالمة من القيب إلا فى أيام المواسم يهدف إلى المحافظة على الثروة الحيوانية للبلاد . كذلك فإن منعه الخبازين من استخدام أقدامهم فى عجّن العجين يعد عملاً متماشياً مع أبسط قواعد الصحة العامة^٢.

^١ . Goitein, S. D., *Studies in Islamic History and Institutions*

^٢ يحيى بن سعيد: تاريخ ٢٠٢، ابن ظافر: أخبار ٤٣-٤٤، ابن خلكان: وفیات ٥: ٢٩٣، ابن سعيد: النجوم ٥٢، النويرى: نهاية ٢٨: ١٩١، ابن أبيك: كنز ٦: ٢٨٤، المقرئى: الخطط ٢: ٢٨٧، ٣٤٢، اتعاط ٢: ٥٣، ٥٤، ٧٧، ٨٦، ٩٠، ٩٥، أبو الحسن: النجوم ٤: ١٧٧، ١٧٨، ابن لياس: بدائع الزهور ١/ ١: ١٩٩، السيرطى: تاريخ الخلفاء ٤١٤.

ونظراً لأن نساء مصر والقاهرة كن يتبعن ، فيما يبدو ، عوائد فيها بعض التحلل ، حيث كن يتبرجن ويكشفن وجوههن خلف الجناثر^١ ، وكن لا يتورعن من الجلوس في الطرقات العامة أمام المنازل ، ويكثرن من الاختلاط بالرجال في الأسواق^٢ ، فقد قرّر منعهن من الخروج من منازلهن والاجتماع بالمآتم ، وهداه تفكيره إلى أن يطلب إلى الأساكفة أن يمتنعوا من عمل الخفاف لهن . وكانت إذا دعت الضرورة إلى حضور قابلة أو غاسلة لمن تلد أو لمن تموت ، استؤذن في ذلك برقعة ترفع إليه فيوقّع على ظهرها بخطّه إلى متولّي الشرطة فيندب من يثق به ليصحبها إلى حيث مقصدها^٣.

كذلك فقد منّع الحاكم من أكل السمك الذي لا قشر له^٤ ، وهو سمك يعيش في الأوحال ويحتفر فيها ممرات ليحيا على الترسبات التي تبقى في القاع ، وهو بذلك يقوم بوظيفة بيئية هامة هي تنظيف المجارى المائية ، وهو النوع المعروف باسم القزموط^٥ . وأباح كذلك قتل الكلاب فيما عدا كلاب الصيد^٦ ، وإذا عرفنا أن القاهرة والفسطاط كانتا تمتلئان بالآلاف من الكلاب الضالة ، وهو أمر حرص على تسجيله جميع الرحالة الذين زاروا مصر في العصر الإسلامي ، عرفنا سبب دعوته لقتل الكلاب . كما أن أمره بأن لا

^١ المقرئى : اتعاط ٢ : ٥٣ .

^٢ نفسه ٢ : ٣٨ .

^٣ يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٨ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٢/٢ : ١٢٤ ؛ ابن حماد : أخبار ٦٤ ؛ ابن الأثير : الكامل

٩ : ٣١٧ ، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٤ ؛ ابن سعيد : النجوم ٥٣ ، ٢٦٤ ، النويرى ، نهاية ٢٨ : ١٧٦ ، ١٩٢ ،

المقرئى : الخطط ٢ : ٣٤٢ ، اتعاط ٢ : ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ؛ أبو المحاسن :

النجوم ٤ : ١٧٨ ، ٢٣٦ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤١٥ ، حسن المحاضرة ٢ : ٢٨٣ .

^٤ المقرئى : اتعاط ٢ : ٥٣ .

^٥ Shaban, A., *op.cit.* p. 528 .

^٦ ساويرس : تاريخ البطارقة ٢/٢ : ١٢٤ ؛ ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٣ ؛ ابن حماد : أخبار ٦٢ ؛ ابن سعيد : النجوم

٥١ ، المقرئى : اتعاط ٢ : ٥٦ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ؛ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٧٧ ، ١٧٨ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة

يدخل أحد الحمام إلا بمئزر يتمشى مع قواعد الذوق والآداب العامة^١. وغُلِّل الحاكم تحريره لأكل الملوخية بميل معاوية إليها، كما غُلِّل تحرير الجرجير لنسبته إلى السيدة عائشة، ونهى عن المتوكلية لنسبتها إلى المتوكل العباسي^٢.

سياسة الحاكم الدينية وموقفه من معاونه

أما الشيء الذى يصعب تفسيره فى تصرفات الحاكم فهو سياسته الدينية وموقفه من أعوانه ومساعديه.

ويمكن أن نعتبر تشدد الحاكم مع أهل الذمة، خلافاً لروح التسامح التى سادت بقية العصر الفاطمى، محاولةً من هذا الخليفة لتطبيق «العهد القمري» عليهم. ولكنه فى الوقت نفسه لم يراع مشاعر أهل السنة، فقد شاع فى عصره سب الصحابة وأمر بكتابته على جدران المساجد وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهره وباطنه، وعلى أبواب الخوانيت والدور والقياسر، ولَوَّنه بالأضباغ والذهب وأكثره الناس على فعله، فعظم ذلك على المسلمين من أهل السنة. ثم تراجع عن ذلك وأمر بمحوه من على المساجد وغيرها، وأوكل إلى صاحب الشرطة أن يُلْزِم كل صاحب دار أو دكان بمحو ما كُتِب على داره أو حانوته^٣.

^١ المقرئى: اتعاظ ٢: ٥٣؛ النويرى: نهاية ٢٨: ١٩١.

^٢ ابن طاهر: أخبار ٤٤؛ النويرى: نهاية ٢٨: ١٧٨؛ المقرئى: الخطط ٢: ٣٤١، اتعاظ ٢: ٥٣ وانظر De Smet D., «Les interdictions alimentaires de calife fatimide al-Hâkim: Marques de foule ou annonce d'un règne messianique?» in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mambuk Eras*, pp. 53-70.

^٣ يحيى بن سعيد: تاريخ ٢٠٦؛ ابن الأثير: الكامل ٩: ٣١٦؛ ابن خلكان: وفيات ٥: ٢٩٣؛ أبو شامة: الروضتين ١: ٥١٣؛ ابن سعيد: النجوم ٥١، ام أيلك: كثر ٦: ٢٧٩؛ المقرئى: الخطط ٢: ٢٨٦، ٢٤١-٣٤٢، اتعاظ ٢: ٥٤، ٦٩. ٢٩٨؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٧٧، ابن إياس: بدائع ١/ ١: ٢٠٠؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء

أما موقفه من أعوانه ومساعديه ، فيلاحظ أن أحداً من خواصه أو المقرّبين إليه لم يشلّم من القتل ، حتى بات كان إنسان خائفاً على نفسه ، وكثُرَت في عهده الأمانات وإن لم يلتزم بها^١. فقد قُتل جميع وُسطائه وقُضاته^٢، وأبدى نَدَمَه على أنه لم يقتل زُرْعَة بن عيسى بن تَشْطُورس^٣. وحتى رجال الدَّعْوَة أنفسهم ومن أثبَلوا بلاءً حسناً في نُصرة الدولة مثل الحسين ابن القائد جوهر وعبد العزيز بن الثُّعْمان القاضي لم يشلّموا من القتل^٤.

تساهل الحاكم في أصول العقيدة الإسماعيلية

وربما كان تساهل الحاكم في كثير من أمور العقيدة الإسماعيلية في هذه المرحلة ، بغرض كسب شعبية لنظامه ، قد أغضب كبار رجال الدَّعْوَة ، ومع ذلك فقد أَصْرَ على سياسته وخَوْفَ معارضيه بأن أعدم بعض رموزها كالحسين بن جَوْهَر وعبد العزيز بن الثُّعْمان في سنة ٤٠١هـ / ١٠١١م.

فقد أمر في سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م برفع ما كان يُؤخَذ على أيدي القضاة من الخُفُس والزكاة والفِطْرَة والتَّجْوَى ، وإبطال مجالس الحكمة في المحوّل في القصر ، ثم أعاد كل ذلك مرة ثانية^٥. وفي العام نفسه مَنَعَ المؤذنين من الأذان بدَّحَى على خير

^١ يحيى بن سعيد: تاريخ ١٩٨هـ ابن خلدون: تاريخ ٤: ٢٦٠، المقرئ: اتعاظ ٢: ٨٢.

^٢ نفسه ٢٠٦، ٢٠٨، أبو شجاع: ذيل تجارب تجارب الأمم ٢٣٣ ساويرس: تاريخ البطارقة ٢/٢: ١٢١-١٢٢، ابن خلكان: وفيات ١: ٢٧١، ابن سعيد: النجوم ٥٨، ٥٩-٦٠، ٦٦، ابن خلكان: وفيات ١: ٢٧١، ابن سعيد: النجوم ٥٨، ٥٩-٦٠، ٦٦، ابن خلدون: تاريخ ٤: ٦٠، المقرئ: الخطط ٢: ١٥٧، اتعاظ ٢: ١٢٠-١٢١ ١٢١هـ ابن حجر: رفع الإصر ١: ١٠١، ٢١١.

^٣ نفسه ٢٠٩، المقرئ: اتعاظ ٢: ٩٣.

^٤ يحيى بن سعيد: تاريخ ١٩٨هـ ابن خلكان: وفيات ١: ٣٨، ابن سعيد: النجوم ٣٣-٣٤، ٥٤، ٦٣، ٣٦٦، التويري: نهاية المقرئ: الخطط ٢: ١٤-١٦، ٢٨٧، اتعاظ ٢: ٨٤، ٨٦-٨٧، ابن حجر: رفع الإصر ١: ٢٦٤، ٣٦٥، أبو المحاسن: النجوم ٤: ٣٣-٣٤، عماد الدين إدريس: عيون الأخبار ٦: ٢٧٦-٢٨٠.

^٥ يحيى بن سعيد: تاريخ ٢٠٩، ٢٢١، المسبحي: نصوص ضائعة ٢٩، المقرئ: الخطط ١: ٣٩٠، ٢: ٣٤٢،

العمل^١ وأباح الصوم على رؤية الهلال، وترك الحرية لمن يريد أن يصلي صلاة التراويح وصلاة الضحى، ثم عدل عن ذلك كله وتشدّد فيه^٢. وفي عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م أصدر مرسوماً يقضى بعدم مخاطبته به الإمام، وأن يُكتفى بمخاطبته به «أمير المؤمنين»^٣.

الحاكم يُعين عبد الرحيم بن إلياس ولياً لعهد المسلمين

لم تلبث الحاكم، في سنة ٤٠٤هـ/١٠١٤م، أن خرج على أحد أشس العقيدة الإسماعيلية التي تشترط النص في الإمامة على الابن الأكبر، عندما جعل ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس - وهو ابن امرأة مسيحية - «ولياً لعهد المسلمين». ففي صفر هذا العام جمع سائر الناس على اختلافهم بالقصر وقرئ عليهم سجل بأن أبا القاسم عبد الرحيم بن إلياس قد جعله الحاكم بأمر الله ولياً لعهد المسلمين في حياته والخليفة بعد وفاته. وأقر الناس بالسلام عليه وأن يقولوا له في سلامهم عليه: «السلام على ابن عم أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين»، وتعيّن له محلّ يجلس فيه من القصر. ثم قرئ السجل على منابر البلد وبالإسكندرية، كما بعث الحاكم سجلاً بذلك إلى الزيرين بإفريقية قرئ بجامع القيروان وغيره من الجوامع^٤. وأثبت اسمه مع الحاكم

^١ يحيى بن سعيد: تاريخ النوري: نهاية ٢٨: ١٨٩؛ المقرئ: الخطط ٢: ٢٧٠، ٢٨٧، ٣٤٢، الانماط ٢: ٨٦؛ السيوطي: حسن ٢: ٢٨٢.

^٢ يحيى بن سعيد: تاريخ ٢٠٧-٢٠٨، ابن الأثير: الكامل ٩: ٣١٦، ابن سعيد: النجوم ٥١؛ المقرئ: الخطط ٢: ٢٧٠، ٢٨٧، ٣٤٢، الانماط ٢: ٧٨، ٨٢؛ أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٧٧؛ السيوطي: حسن ٢: ٢٨٢. وقد منع الفاطميون «صلاة التراويح» لأنها لم تكن من سنة النبي وإنما استنها عمر بن الخطاب. (ابن عذاري: البيان ١: ١٢٧).

^٣ نفسه ٢٠٥، المقرئ: الخطط ٢: ٢٨٨، الانماط ٢: ٩٦، ابن حماد: أخبار ٦٢.

^٤ Canard, M., *El² art. Fatimides II*, p. 877.

^٥ يحيى بن سعيد: تاريخ ٢٠٧-٢٠٨، ابن سعيد: النجوم ٢٦٤؛ الهداية الأمرية ٢٢٠، ٢٢٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب ١: ٢٦٠ (وفيه أن الحاكم أرسل سجلاً بهذا المعنى إلى نصير الدولة باديس)؛ النوري: نهاية ٢٨: ١٩٢ =

على السُّكَّة^١ وعلى البُتود والطراز^٢. وفي رمضان من نفس السنة دعا الحاكم فوق المنابر (في جوامع القاهرة والأنور وعمرو وراشدة) بنفسه لعبد الرحيم بن إلياس قائلاً: «اللهم استجب مني في ابن عمي ووليّ عهدي والخليفة من بعدى عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدي بالله أمير المؤمنين كما استجبت من موسى في أخيه هارون»^٣.

وعندما ركب الحاكم لصلاة عيد الفطر سنة ٤٠٤ هـ/ ١٠١٤ م كان بغير زى الخلافة ومظلمته يضاء، وعبد الرحيم يسايره وهو حامل الزُفج الذي من عادة الخليفة حمله وأصعده معه المنبر ودعاه. كما قرئ يسجل بأن كل من له مظلمة يرفعها إلى وليّ العهد لا إلى الإمام. وفي ركوب عيد التّحرر ركب عبد الرحيم بالعساكر إلى المصلى نيابة عن الحاكم^٤، وتكرّر ذلك في العام التالي^٥. وفي سنة ٤٠٩ هـ/ ١٠١٨ م عزّل الحاكم بأمر الله شديد الدولة أبا منصور والى دمشق وعيّن عوضه وليّ العهد عبد الرحيم بن إلياس^٦.

ويبدو أن الحاكم اضطر إلى هذا الإجراء بعد أن قام في أوّل عام ٤٠٤ هـ/ ١٠١٤ م بإخراج جماعة من حظاياه وأمّهات أولاده من القصر - ومن بينهم أم ولده أبي الحسن

= القلقشندي: صبح ٩: ٢٩٥-٢٩٦ المقرئ: الخطوط ٢: ٢٢٨، تماظ ١٠٠-١٠١، ١٠٣، ١٠٤ ابن

حجر: رفع الإصر ١: ١٠٥، أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٩٣-١٩٤ Makarim, S.N., «Al-Hakim bi Amrillāh's Appointment of his Successors», *Al-Abhath* 23 (1970), pp. 319-25

^١ المقرئ: تماظ ٢: ١٠٣ وقد وصلت إلينا عملة عليها اسم عبد الرحيم كولي عهد المسلمين ضربت في السنوات

Lane-Pooles, S., *Catalogue of Oriental Coins in the British Museum*, ٤٠٤، ٤٠٦، ٤١٠ انظر،

IV. Coinage of Egypt, London 1879, p. 22 n. 88, p. 26 n. 106; id., *Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo*, London 1897, p. 165 n. 1048;

Makarim, «Al-Hakim bi Amrillāh's Appointment of his Successors», *Al-Abhath* 23 (1270), pp. 314-25

^٢ راجع ٢٢١٢-١٧ n° 2212-17, Wiet, G., *RCEA* VI, pp. 119-120

^٣ المقرئ: تماظ الحنفا ٢: ١٠٣

^٤ المقرئ: تماظ الحنفا ٢: ١٠٤، ١٠٦، ١١٠

^٥ نفسه ٢: ١٠٤

^٦ نفسه ٢: ١٠٩

^٧ نفسه ٢: ١١٤، *Damas et la Syrie*, pp. 379-83, Bianquis, Th.,

على (الظاهر فيما بعد) وولده نفسه - مما اضطر أخته سيدة الملك إلى أخذهما خَوْفًا عليهما وأسكنتهما بقصرها (المواجه للقصر الفاطمي الكبير) ، وظلًا كذلك حتى قُبِدَ الحاكم^١.

تَصَوُّفُ الْحَاكِمِ

واعتبارًا من عام ٤٠٣هـ / ١٠١٣م ، بدأ الحاكم بأمر الله يدخل المرحلة الأخيرة من حياته ، وهى المرحلة التى تتميز ببعض جوانب التَّقَشُّفِ والزُّهْدِ فى الحياة . فقد شهدت هذه المرحلة ميله إلى ارتداء الخَشِيشِ من الثياب وركوب الحُمير والإكثار من الخروج وحيدًا فى الليل ، كما أخذ فى ارتداء ملابس الكِتَّانِ مثل المتصوفة ، ورَفَضَ جميع أنواع المواكب^٢ . وفى الوقت نفسه أخذ يصرف بسخاء مفرط على المنشآت الدينية وقَوَمَةِ المساجد ويوقف الأوقاف على ذلك . فحول هذه الفترة ، وبالتحديد فى رمضان سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م وَقَفَ رِباعًا وأملأها كثيرة على الجامع الأزهر وجامع المقس وجامع راشدة والجامع الحاكمى ودار العِلْمِ (الحِكْمَةِ) بالقاهرة^٣ . وفى سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م أمر بتسجيل المساجد التى لا غَلَّةَ لها ولا أحد يقوم بها فكانت ثمانمائة مسجد ، فأطلق لها فى كل شهر من بيت المال تسعة آلاف ومائتين وعشرين درهمًا^٤ . كما حَبَسَ فى سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م سبع ضياع على القُرَّاء والمؤذنين بالجوامع وعلى المارستانات وفى ثمن

^١ يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٠٧-٢٠٨ .

ويلاحظ أن النباهى عماد الدين إدرىس لم يشر فى تاريخه للدعوة الإسماعيلية إلى محاولة الحاكم جعل ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس وليًا لمعه ، وذكر أنه نصب ابنه الظاهر وليًا لمعه وكتب بذلك إلى جزائر الدعوة وإلى الدعاة القائمين بالدعوة . (عيون الأخبار ٦ : ٣٠٣) .

^٢ ابن ظافر : أخبار ٥٠ : ١٣١ . Bianquis, Th., *Al-Hâkîm bi Amr Allâh* p. 131 .

^٣ المقرئى : الخطوط ٢ : ٢٧٣-٢٧٥ .

^٤ المسبى : نصوص ضائعة ٣١ : المقرئى : الخطوط ٢ : ٢٩٥ ، ٤٠٩ .

الأشْكَفَان . وأمر في نفس العام بعمل رواقين في صحن جامع عمرو^١ . وكذلك تخلى لولى عهده عبد الرحيم بن إلياس عن كل مظاهر البَذْخ والعظمة ، مما يجعلنا نظن كما لو أنه كان يعتزم اعتزال منصب الإمامة^٢ .

ألوهية الحاكم وتحقيق فكرة الملك الإله

وفي نحو سنة ٤٠٦-٤٠٧ هـ/١٠١٦-١٠١٧ م حدثت القطيعة النهائية بين الحاكم وأهالي القسطنطينية . ففي سنة ٤٠٧ هـ/١٠١٧ م وصل إلى القاهرة فريق من الدعاة القُزُس يضم الحسن بن حَيْدَرَةَ القُرْغَانِي الأَخْرَم وحزمة بن أحمد اللُّبَاد الزُّوزَنِي ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين الدَرَذِي وأعلنوا تأليه الحاكم ، وحاولوا فَرَض هذه العقيدة على أهل القسطنطينية^٣ . وقد ترك الحاكم هؤلاء الدعاة يقومون بالدعوة إلى الدين الجديد دون دَعْم منه ، وإن لم يمانع في مَنَح تعاطفه لحركة تحاول أن تجمع الدولة حول شخصه ، وتطلق على أتباعها اسم « المُوَحِّدِينَ »^٤ .

^١ المسبحي : نصوص ١٣٢ المقرئى : المخطوط ٢ : ٢٩٥ ، ٤٠٩ .

^٢ Bianquis, Th., *op.cit.*, p. 130 .

^٣ يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٢٢-٢٢٣ ، ابن ظافر : أخبار ٥٢-٥٣ المقرئى : تعاض ٢ : ١١٣ ، ١١٨ ، ١٤٠ ، المخطوط ١ : ٣٥٤ ، ٢ : ٢٨٩ ، المقفى ٢ : ٣٠٦-٣٠٩ .

ولزيد من التفصيلات عن الدروز الذين أعلنوا تأليه الحاكم وتاريخهم وأصل مذهبهم راجع ، محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (القاهرة ١٩٣٧ ، ١٩٥٩) الذى اعتمد على «رسائل الدروز» ؛ محمد كامل حسين : طائفة الدروز (القاهرة ١٩٦٢) ؛ de Sacy, S., *Exposé de la religion des Druzes*, I-II, Paris ؛ (١٩٦٢) ؛ Hodgson, M. G. S., «Al-Darazi and Hamza in the origin of the Druze Religion», *JAOS* 82 (1962), pp.5-20; id., *El² art. Drûze II*, pp. 647-50; Madelung, W., *El² art. Hamza b. » Ali III*, pp. 157-58; Bryer, D., «The Origins of the Durze Religion », *Der Islam* 52 (1975), pp. 47-84, 239-262; 53 (1976), pp. 5-27; Abu-Izzedin, N.M., *The Druzes : A New Study of their History, Faith and Society*, Leiden 1988 .

^٤ يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٢٢ .

وعلى خلاف عادة الفاطميين ، فإن دعاة الدين الجديد حاولوا تحويل أهل القسطنطين إليه ، ومدّوا تحدياتهم إلى داخل جامع عمرو نفسه مركز المقاومة السنية . وبذلك أصبح الصّدام بينهم وبين الشّنة أمراً لا مفرّ منه . وشهدت السنوات من ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م وحتى ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م سلسلة من المصادمات والاعتقالات والقتل ، قُتل في أثنائها الداعي محمد بن إسماعيل الدّرذى سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م أثناء سيره في موكب الحاكم^١ .

وكانت جنازة الحافظ أبي محمد عبد الغنى بن سعيد الأزدي ، الذي توفي تبعا لأغلب المصادر في سنة ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م ، مناسبة تظاهر فيها أهل الشّنة في القسطنطين خلف قاضى القضاة ابن أبي العوّام الحنبلى ، الذى أمّ الصلاة على جنازة عبد الغنى بن سعيد ، من أجل نُصرة الإسلام الحق^٢ .

حريق القسطنطين الأوّل

وأدت هذه المواجهة إلى نهب مدينة القسطنطين وحرقتها في سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م ، دون شك بناء على تحريض الحاكم ، بعد أن وَصَّع أهلها في طريقه صورة امرأة عُجِلّت من قراطيس ، وفي يدها جريدة عليها ورقة فيها سَبٌّ للحاكم وأسلافه . فقامت طوائف العبيد بمهاجمة المدينة ونَقَذُوا فيها عمليات سَلْب وحرق واغتصاب وقتل كبيرة^٣ .

وتصدّى أهالى القسطنطين لهذه المحاولة ، وقاوموا إلى أقصى درجات المقاومة مدافعين عن مدينتهم خِطَّةً خِطَّةً . ولم يلبث المغاربة والأتراك أن أخذوا جانب أهالى القسطنطين وحاربوا معهم ضد العبيد لإيقاف الصراع الدائر ، فقد كان أكثرهم مخالطاً لهم

^١ يحيى بن سعيد ٢٢٣ النويرى : نهاية ٢٨ : ١٩٦ - ١٩٨ المقيزى : اتماظ ٢ : ١١٣ .

^٢ Bianquis, Th., *op.cit.*, p. 132; id., «Abd al-Gani b. Sa'id, un savant sunnite au service des Fatimides», p. 45 .

^٣ نفسه ٢٢٥ النويرى : نهاية ٢٨ : ١٩٣ المقيزى : الخطط ٢ : ١٠٢ أبو المحاسن : نجوم ٤ : ١٨١ (نقلًا عن ابن الجوزى وسبط ابن الجوزى والذهبي) .

ومصاهراً منهم ، واستسمحوا الحاكم فى إنهاء عمليات السلب والحرق لأن أموالهم وأولادهم وعقاراتهم موجودة فى الفسطاط^١ . ولكن الحاكم لم يستجب إليهم ، بل بدا عليه الانبهار بمنظر المدينة التى تحترق ، وعمل على إشعال الفِئْتة بين العبيد وسائر الطوائف بغرض « طَرْح بعضهم على بعض ، ولينتقم من فريق بفريق » . ولم يُضْدر أوامره بوقف هذه المأساة إلا بعد أن اختَرَق من الفُسطاط مقدار ثلثها ونُهب نصفها ، وبعد أن هَدَّد المغاربة والأتراك بحرق القاهرة نفسها^٢ .

وَلَعَلَّ محاولة الدعاة الدروز تأليه الحاكم ، التى وَجَدَتْ دون شك تشجيعاً منه ، لم تلق قبولاً من كبار رجال الدعوة الإسماعيلية ، فالداعى أحمد حميد الدين بن عبد الله بن محمد الكِرْزَمَانِي الملقب بِحُجَّة العراقيين والذى قدم إلى مصر فى سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ، فى أغلب الظن بناء على استدعاء الحاكم بأمر الله له^٣ ، يشير فى رسالة « مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله » إلى أن الناس واقعون تحت ابتلاء عظيم ، وأن رجال الدعوة رفضوا عقد « مجالس الحِكْمَة » ، وأن « أولياء الدعوة الهادية خَيْرُهُم ما يطرأ عليهم من هذه الأحوال » وأن بعضهم بلغ فى العُلُو ذُراه ، وترعرعت أركان اعتقادهم^٤ . فى هذه الظروف وضع حميد الدين الكِرْزَمَانِي رسالته المعروفة بـ « الرسالة الواعظة فى الرد على الأخرم الفرغانى » يُذْخِض فيها فكرة تأليه الحاكم ويُقْنِدها ويُنْبِت عقيدة الإسماعيلية فى الله الذى لا إله إلا هو^٥ .

^١ أبو المحاسن : الهجوم ٤ : ١٨١ وراجع كذلك يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٢٥-٢٢٦ ؛ ساويرس : تاريخ البطارقة ٢ /

٢ : ١٢٦-١٢٧ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٥ ؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ١٩٣-١٩٤ .

^٢ نفسه ٤ : ١٨١ .

^٣ عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٢٨١ .

^٤ نفسه ٦ : ٢٨٢ ؛ Daftary, F., *op.cit.*, pp. 196-200 .

^٥ نشر هذه الرسالة الدكتور محمد كامل حسين بعنوان « الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » باسم البشارات « للكِرْزَمَانِي فى كتابه « طائفة الدروز » ، ٥٥-٧٤ .

الحاكم يفكر فى نقل الحج إلى مصر

تبعا لرواية أوردها الجغرافى الأندلسى أبو عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤ م، وأيدتها مصادر أخرى، شيد الحاكم بأمر الله فى المنطقة الواقعة بين القسطنطية والقاهرة ثلاثة مشاهد لينقل إليها رفات النبى ﷺ ورفات أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما، من المدينة. وهى محاولة كُتِب لها القُشَل^١. وكان يهدف من هذا المشروع إلى تحويل الجغرافية الروحية والدينية للعالم الإسلامى عن طريق حرمان المدينة من أكثر رموزها تقدسًا بتحويل قوافل الحُجَّاج إلى العاصمة الفاطمية.

ولم يُحدّد لنا البكرى تاريخ هذه المحاولة الفاشلة^٢. ورغم أن المصادر الفاطمية والدراسات القائمة عليها لا تشير بأية حال إلى هذه المحاولة، فإن المؤرخ ابن فهد المكى المتوفى سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠ م والمؤرخ المصرى الجزيرى بعده بنحو قرن من الزمن، لا يتركان أى شك فى أن هذا المشروع الفاشل قد تم فى سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠ م^٣. وتفيدنا هذه الرواية، التى تقترب من رواية البكرى، بأن أحد الزنادقة، الذى لم يُذكر اسمه^٤، أشار على الحاكم بنبش قبر النبى ﷺ وصاحبيه وحملهم إلى مصر، وبذلك يشدّ الناس رحالهم من أقطار الأرض إليها^٥. وبينما يذكر البكرى أن الحاكم بذل أموالا لرجال من شيعته نجحوا فى حفر سيزداب أسفل الدور المجاورة لمنزل الرسول ﷺ مقابل القبر، غير أن

^١ البكرى: جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك ٥٧؛ مجهول: الاستبصار فى عجائب الأمصار ٨٣.

^٢ Ragib, Y., «Un épisode obscur d'histoire fatimide», *SI XLXIII* (1978), p. 125.

^٣ ابن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى ٢: ٤٢٦؛ الجزيرى: الدرر الفرائد المنظمة ١: ٥٣٢-٥٣٣.

^٤ هذا الزنديق لم يكن من أتباع مذهب الدرّوز، لأن مذهبهم لم يعرف إلا ابتداء من عام ٤٠٨. وربما كان هو

ياورختكين القُصْدَى متولى حرب الزنّلة ١

^٥ ابن فهد: إتحاف ٢: ٤٢٦؛ الجزيرى: درر الفرائد ١: ٥٣٢.

أهل المدينة لم يلبثوا أن علموا بما فعلوا وبنيتهم فقتلوهم ومثلوا بهم ، ثم رصفوا تلك الحفرة بالحجارة وأفرغوا عليها الرصاص بحيث لا يطمع فى الوصول إليها طامع أبداً^١. فإن رواية ابن فهد والجزيرى ، التى توجد مع تعديلات طفيفة عند تقى الدين الفاسى والسهمودى ، تفيدنا بأن الحاكم عهده إلى أمير مكة أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى بهذه المهمة^٢. فمضى إلى المدينة وأزال عنها إمرة بنى الحسين ، بحجة قذحهم فى نسب الفاطميين ، وجلس فى مسجد المدينة وحضر إليه جماعة من أهلها بلغهم ما جاء من أجله ، ومعهم قارئ يعرف بالركبانى فقرأ آيات من سورة التوبة تدعو إلى مقاتلة أئمة الكفر والناكثين بأيمانهم^٣. فثار الحاضرون على أبى الفتوح وكادوا يفتكون به ، ولم يمنعهم من ذلك إلا خوفهم من العواقب خاصة وأن البلاد كانت للفاطميين .

ولم يكدهم يضى بقية النهار « حتى أرسل الله ريحا كادت الأرض تُزَلْزَل منها حتى دحرجت الإبل بأقتابها والخيول بسروجها وهلك خلق كثير من الناس » . فخرجت هذه الكارثة الكونية ، التى فسرت على أنها علامة غضب إلهية ، كربة أبى الفتوح وهمة واعتبرها حجة له عند الحاكم لتركه تنفيذ ما أمره به^٤.

ولم يثن فشل هذه المحاولة الحاكم عن أن يعاود من جديد حرمان المدينة من ذخائر مقدسة أخرى . إذ إن فكرة تحويل قوافل الحجاج نحو العاصمة الفاطمية برفعها إلى

^١ البكرى : جغرافية مصر ٥٧ : مجهول : الاستبصار ٨٣ : Ragib, Y., *op.cit.*, p. 125-126 .

^٢ فى سنة ١٠١٠/٤٠٠ ثار بنو الجراح فى فلسطين على الحاكم بأمر الله وابعوا أبى القروح خليفة تحت لقب « الراشد بالله » . (الفاسى : العقد الثمين ٤ : ٧٠-٧١ : المقرئى : الملقى ٣ : ٣٥٠-٣٥٢ : ابن فهد : إتحاف الورى ٢ : ٤٣٦-٤٤٠) .

^٣ « وَإِنْ لَكُنَّا لَأَيُّمُهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ عَقْدُوهُمْ وَطَلَعُوا فِي رِيحِكُمْ فَفَقِلُوا آيَةً الْكَفَرِ إِنَّهُمْ لَا يَأْمَنُ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (٧) أَلَا فَتِلْكَ آيَاتُ الْكَفَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَهُمْ يَخْرَاجُ الرُّسُلَ وَيَكْفُرُ بِهِمْ مُؤَيَّدًا ذَلِكَ مَكْرَهُ أَفَتَضِلُّهُمْ فَأَقْلَهُ لَمْ أَنْ تَحْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ (٨) فَتَلَوْنَهُمْ » [سورة التوبة ١٢-١٤] .

^٤ الفاسى : العقد الثمين ٤ : ٧٧ : ابن فهد : إتحاف الورى ٢ : ٤٢٧ : السهمودى : وفاة الوفا ٢ : ٦٥٣ : الجزيرى :

مضاف المدن المقدسة، أصبحت جزءًا من سياسة الفاطميين وعلى الأخص في عهد الحاكم. ففي سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م أرسل الحاكم ياروختكين القُصْدِي، متولّي حرب الرُملة، إلى المدينة ليفتش في دار جعفر الصّادق، والتي لم يجرؤ أحدٌ على فتحها بعد وفاته، عَمّا بها من ذخائر. وقد جمع ياروختكين ما وجده في الدار وعلى الأخص مُصْحَف وَقَبٌّ من خشب مطوق بحديد وَدَرَقَة خَيْرَان وَخَزِيَة وسرير. وقد حُيِّل جميع ذلك إلى القاهرة وصحبه جماعة من شيوخ العلويين. فلما وصلوا إلى الحاكم أطلق لهم نفقات قليلة ورَدَّ عليهم السرير وأخذ الباقي قائلًا لهم إنه أحمقٌ به منهم^١. ومن بين هذه الذخائر قطعة من حصير كانت تستخدم كسجادة صلاة للخلفاء في وقت صلاة الفِطْرِ^٢. ولم تكن هذه الذخائر الوحيدة التي احتفظ بها الفاطميون فقد كان عندهم أيضًا ذو الفقار سيفُ علي ابن أبي طالب، وسيفُ الحسين بن علي وَدَرَقَة حمزة بن عبد المطلب وسيفُ جعفر الصّادق^٣.

نهاية الحاكم

كما كانت حياة الحاكم بأمر الله حياة مليحة بالعجائب، فإن نهايته هي الأخرى كانت نهاية مُلْغِزة، وربما لن نعرف أبدًا كيف نُمّت.

ففي ليلة ٢٧ شوال سنة ٤١١هـ / ١٣ فبراير سنة ١٠٢١م اختفى الحاكم بطريقة يكتنفها الغموض. حيث خرج إلى الشَّقْطُم (وفي رواية إلى حُلوان) وطلب إلى المكاريين اللذين صحباه بانتظاره وابتعد عنهما في الجبل، ولم يراه بعد ذلك أبدًا. ولما

^١ ابن الجوزي: المنتظم ٧: ٢٤٦، ابن الأثير: تاريخ ٩: ٢١٩، أبو الهاسن: النجوم ٤: ٢٢٢، عماد الدين إدريس:

عيون الأخبار ٦: ٢٨٨، Wiet, G., *CIA Egypte II*, p. 163; Ragib, Y., *op.cit.*, p. 129.

^٢ المقرئزي: الخطط ١: ٤٥٣، أبو الهاسن: النجوم ٥: ١٧٦.

^٣ نفسه ١: ٤١٧.

عادا في الصباح إلى القصر أخبرا بما تم ، فأُخِذَ في البحث عنه ، وبعد خمسة أيام وُجِدَت ثيابه وبها آثار طعنات ، ولكنهم لم يتوصلوا أبداً إلى جثمانه الذي ربما أكلته الحيوانات الضالة^١.

وقد وصلت إلينا أخبارُ اختفاء الحاكم أو القضاء عليه ، عن طريق ثلاثة مؤلفين : هلال الصائغ^٢ والقضاعي^٣ ويحيى بن سعيد^٤. وكلها تشير إلى أن سَيِّدة الملك ، أخت الحاكم الكبرى بالاتفاق مع سيف الدولة الحسين بن علي بن دَوَّاس الكُتامي ، كانا وراء عملية اغتياله بعد أن اتهمها الحاكم في شرفها ، ولخوف ابن دَوَّاس على نفسه من الحاكم .

وحقيقة الأمر أن سَيِّدة الملك كانت امرأة واسعة الإدراك وكانت ترى في تَصَرُّفات أخيها التي تراوحت بين خروج على ما ارتضاه آباؤه وهتِك لناموس الشريعة ، بالإضافة إلى ادعائه الألوهية وثورة المسلمين السنة عليه وخشيتها أن يقتلوه وبقيّة بيته ، رأت في ذلك ما قد يُخْشَى معه على ذهاب البيت الفاطمي وسقوط دولتهم .

وقد ساعدت الطريقة التي اختفى بها الحاكم أنصار الدين الجديد الذي تزعمه حمزة بن محمد الزُّوزَنِي إلى الدُّعْوَة إلى مذهبهم والقول باختفاء الحاكم وغيبته وأنه سيعود ليملا الأرض عَدْلًا بعد أن ملكت جورًا وظلمًا مرددين في ذلك فكرة المهدية . ولكن مذهبهم وأتباعه لم يجد في مصر أرضًا خصبة له فخرج به أصحابه إلى بلاد الشام

^١ ابن القلانسي : ذيل ٧٩ ؛ ابن ظافر : أخبار ٥٨ - ٥٩ ؛ أبو صالح : تاريخ ٦٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣١٥ ؛ ابن حماد : أخبار ٥٨ - ٥٩ ؛ ابن خلكان : وفیات ٥ : ٢٩٧ - ٢٩٨ ؛ ابن سعيد : النجوم ٥٠ - ٥١ ؛ النويري : نهاية ٢٨ : ١٩٤ - ١٩٦ ؛ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦١ ؛ المقرئ : اتعاظ ٢ : ١١٥ - ١٢١ ؛ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٨٥ - ١٩٣ ؛ وانظر كذلك ساويرس : تاريخ البطارقة ٢ / ٢ : ١٣٧ . اما الداعي عماد الدين إدريس فقد ذكر أن الله

رفع الحاكم إليه (عيون ٦ : ٣٠٣) .

^٢ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٨٥ - ١٩٠ .

^٣ نفسه ٤ : ١٩٠ - ١٩٢ .

^٤ يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٣٣ - ٢٣٤ .

وخاصةً في صَيِّدا وبيروت وساحل الشام . كما أعطى ذلك أيضًا فرصة لطالبي الشهرة الذين ظهر منهم من يدَّعى أنه الحاكم وأنه لم يمت وأنه عاد من جديد^١.

سَيِّدَةُ الْمُلْكِ

تُدَبِّرُ شُؤْنَ الدَّوْلَةِ

بالرغم من أن تعاقب الأحداث في هذه الفترة القصيرة والحرجة في تاريخ الدولة الفاطمية غير واضح، كما أن بعض أحداثها يشوبه الغموض، فالشيء الذي لا يمكن إنكاره هو الحُنْكَة الواضحة التي أدارت بها سَيِّدَةُ الْمُلْكِ الأمور .

فبعد تأكدها من قَتْل أخيها، أرسلت أحد الأمراء الكتامين إلى دمشق بمُلْطَفَات^٢ إلى الأمراء والقَوَاد هناك بالقبض على وَلِيِّ الْعَهْد عبد الرحيم بن إلياس، فحِيلَ إلى مصر وقتل في القصر^٣، وبذلك قضت نهائيًا على هذا الوضع الشاذ الذي أراده الحاكم بأمر الله . وأعقبت ذلك بقتل حسين بن علي بن دَوَّاس الكتامي، وكل من كانت تخاف منه ممن عرف بمؤامرتها للقضاء على الحاكم^٤. وكان هدفها الأساسي من ذلك هو تأمين انتقال هادئ للسلطة من الحاكم إلى ابنه وَلِيِّ عَهْدِهِ الشَّرْعِيِّ أَبِي الْحَسَنِ عَلَى الَّذِي كَانَ يعيش مع أمه في قصر سَيِّدَةِ الْمُلْكِ منذ عام ٤٠٤ هـ / ١٠١٤ م، وتولَّى الخلافة باسم

^١ المسبحي: أخبار مصر ٢٧-٢٨، ٩٢ ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة ٢/٢: ١٣٨ المقرئ: الخطط ١: ٣٥٤، ٢: ٢٨٩، الاتعاظ ٢: ١٤٠ عماد الدين إدريس: عيون الأخبار ٦: ٣٢٨ وانظر عن انتقال نشاط الدوز إلى الشام .

^٢ مُلْطَفَات ج. مُلْطَفَات . هي الرسائل الرسمية المختصرة . Dozy, *Suppl. Dict. Ar. II*, 532; Bianquis, Th., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide I*, 353-373 .

^٣ يحيى بن سعيد: تاريخ ٢٣٦: ٤ أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٨٩ .

^٤ ابن عذاري: البيان المغرب ١: ٢٧١ النويري: نهاية ٢٨: ٢٠٤ المقرئ: اتعاظ ٢: ١٢٩، المفدى ٣: ٥٦٢-٥٦٣، أبو المحاسن: النجوم ٤: ١٩٢ .

«الظاهر لإعزاز دين الله». وبويع بها يوم عيد الأضحى سنة ٤١١هـ/ ٢٤ مارس سنة ١٠٢١م.

وهكذا أصبحت سيدة الملك منذ نهاية عام ٤١١هـ/ ١٠٢١م في الحقيقة هي الحاكمة الفعلية للبلاد. واعتمدت في أول الأمر على رئيس الرؤساء خطير الملك أبي الحسين عتار بن محمد، ثم أمرت بقتله في ذى القعدة سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م، وبأشرت تدير المملكة بنفسها^١، فكان «لا ينفذ أمرٌ جلٌّ أو قلٌّ إلَّا بتوقيع يخرج عنها بخط أبي البيان الصَّقْلَبِي عدها»^٢، حتى وافتها المنية في ١١ ذى القعدة سنة ٤١٣هـ/ ٥ فبراير سنة ١٠٢٢م^٣.

خِلافةُ الظَّاهِر لإعزاز دين الله

وتوطيد العلاقات مع بيزنطة

للأسف الشديد فإن الجزء الوحيد الذى وَصَلَ إلينا من «أخبار مصر» للمُسَبِّحِي، الذى عاصر هذه الأحداث وشاهدها عن كثب، يبدأ بحوادث جمادى الآخرة سنة ٤١٤هـ/ سبتمبر ١٠٢٣. ولو كانت وَصَلَتْ إلينا الأجزاء السابقة على ذلك لعرفنا من خلالها تفاصيل كثيرة عن هذه الفترة الهامة في تاريخ الدولة.

وفى الفترة الأولى من خلافة الظَّاهِر لم يكن منصب الوَسْاطَةِ واضحاً تماماً، وقد تَوَلَّاه لفترة قصيرة الأمير شمس الملك أبو الفَتْح المسعود بن طاهر الوَزَّان^٤، وشجبت

^١ ابن الصيرفى: الإشارة ٦٥، المقرئى: اتعاط ٢: ١١٢٨، Halm, H., *El² art. Sitt al-Mulk* IX, 714.

^٢ ابن عذارى: البيان ١: ٢٧١.

^٣ النويرى: نهاية ٢٠٤-٢٠٥ وعن دور سيدة الملك في انتقال السلطة من الحاكم إلى الظاهر راجع، Lev.,

. Y., «The Fatimid Princess Sitt al-Mulk», *JSS XXXII* (1986), pp. 319-328.

^٤ ابن الصيرفى: الإشارة ٦٦-٦٧ ابن سعيد: النجوم ٣٥٦، ابن أبيك: كنز الدرر ٦: ٣٠١، ٣١٧، ابن طاهر: =

صلاحياته منه تدريجياً^١، ثم حلَّ محله مجلس من ثلاثة تَسَلَّطُوا على الظاهر، مكوّن من الشريف أبى طالب القَجْمى والشيخ العميد محسن بن بُدُوس والشيخ نجيب الدولة أبى القاسم على بن أحمد الجَوَجرائى^٢، بالإضافة إلى القائد الأجل عَزَّ الدولة وسنانها أبى الفوارس مِغْضاد الخادم الأسود^٣. وقد اتَّفَقَ الثلاثة فيما بينهم، فى جمادى الآخرة سنة ٤١٥هـ/أغسطس ١٠٢٤، على «أن يكون دخولهم إلى الظاهر لا غير فى كل يوم خلوة، وأنهم يكفونه أمر الاهتمام بالدولة ليتوفر على لذاته وينفردوا بالتدبير»^٤.

فقد كان الخليفة الظاهر، على عكس والده، بعيداً عن الاشتغال بشئون الدولة بما أنه نشأً محجوباً فى دار السيدة العمة، وانشغل بِنَزْهه ولهوه حيث أكثر من الخروج للنزهة إلى نواحى عَيْن شمس والقصور ومسجد يَتر^٥، كما كان محباً لسماع الغناء، مما جعله ينقض أكثر الإجراءات التى اتَّخَذَهَا والده. فترخَّص فى شرب الخمر والقُقَاع وسماع الغناء، وسمح بأكل الملوخية وسائر أنواع السمك^٦، وأذن للنصارى واليهود الذين تظاهروا بالإسلام فى خلافة والده بالارتداد إلى دينهم رغم مخالفة ذلك للشريعة الإسلامية^٧.

وألَمَّت بمصر فى عهده أزمة اقتصادية كبيرة فى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م اشتد فيها الغلاء وفشا فيها المرض فى الناس وكثر فيهم الموت. وأدَّى الوباء إلى نفوق الحيوانات،

= أخبار ١٦٥: التورى: نهاية ٢٨: ٢٠٨؛ المقرئى: اتماظ ٢: ١١٤، ١٣٢، ١٣٦.

^١ المسبى: أخبار ١٨، ٢٩-٣١.

^٢ نفسه ٣١.

^٣ انظر سجل تلقيه الصادر فى صفر سنة ٤١٥/ إبريل ١٠٢٤ عند المسبى: أخبار ٢٤-٢٧.

^٤ نفسه ٤٥-٤٦.

^٥ المسبى: أخبار مصر ٩، ١٥، ١٩-٢٠، ٣٢، ٣٨، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٦١.

^٦ المقرئى: الخطوط ١: ٣٥٤ والاتماظ ٢: ١٢٩.

^٧ ساويرس: تاريخ البطارقة ٢/ ٢: ١٣٥؛ أبو صالح: تاريخ ١٦٠: المقرئى: الخطوط ١: ٣٥٥ والاتماظ ٢: ١٧٦؛

وعَزُّ الماء لقصور النيل، وشاعت الفوضى بسبب ذلك، فكَبَسَ العبيد والدُّعَار القاهرة ومصر ونهبوا الأرياف. فكانت أزمة شديدة أتت على تفاصيلها المُسَبَّحِي فيما وَصَلَ إلينا من تاريخه^١.

ولم تمنع هذه الأزمة بعواقبها الخليفة الظاهر من الاهتمام بأمر «الدعوة الفاطمية» فاستعادت سابق نشاطها، وأمر الدعاة في سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م أن يُحَفِّظُوا الناس كتاب «دعائم الإسلام» للقاضي النعمان بن حَيُّون وكتاب «الفقه» الذي ألّفه يعقوب ابن كِلْس، ورَصَد مكافآت مالية لمن يحفظهما، في نفس الوقت الذي أمر فيه بنفى الفقهاء المالكية الذين رَتَّبهم والده في دار الحِكْمَة^٢.

وكان من نتيجة هذه السياسة أن انتشر الدعاة الفاطميون على امتداد الأراضي الشرقية التابعة للقباسيين ثم للتلاجقة، يتلقون تعليماتهم مباشرة من رئاسة الدعوة المركزية في القاهرة^٣. فقد كان هدفُ الفاطميين، حتى أثناء عهد المستنصر، هو الإطاحة بالخلافة العبّاسية وتفريقها ليُرْسُوا مكانها عقيدتهم وسيطرتهم على العالم الإسلامي. فنجح الدعاة في إغراء الديّالة عند خروجهم من بغداد سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م بإقامة الدَّعْوَة للفاطميين في البصرة والكوفة والمُؤَصِّل وأعمال الشرق^٤، وأوصلوا إلى محمود بن شُبُكْتُكَيْن، صاحب عَزْنَة، خِلَعًا من الخليفة الظاهر ليقم لهم

^١ المسبحي: أخبار مصر (امتداد الجزء)؛ القرظي: الخطط ١: ٣٥٤-٣٥٥؛ ودرسها في مقال مطول تباري يانكي انظر. Bianquis, Th., «Une crise frumentaire dans l'Egypte fatimide», *JESHO XXXIII* (1980), pp. 67-101.

^٢ القرظي: الخطط ١: ٣٥٥ والاتماظ ٢: ١٧٥.

^٣ عندما استولى الأتراك على بغداد في سنة ١٠٣٣/٤٢٥ استغل دعاة الظاهر هذه الفرصة ونشروا الدعوة الفاطمية بين الناس في بغداد. (القرظي: الخطط ١: ٣٥٥، اتماظ ٢: ١٨١).

^٤ المسبحي: أخبار ٨٤-٨٥؛ النوري: نهاية ٢٨: ٢٠٥؛ القرظي: اتماظ ٢: ١٦٨.

Wiet, G., «Un Proconsul Fatimide de Syrie: Anushtakin al-المفتي ٣٠٢-٣٠٦», *MUSJ* 46 (1970), pp. 383-407; Bianquis Th., *op.cit.*, pp. 425-523.

وعمل الظاهر على تحسين علاقته مع البيزنطيين ، بعد أن كانت قد ساءت في عهد والده الحاكم . فقد كان الفاطميون في حاجة ماسة إلى تموين القمح الذي يصلهم من القسطنطينية ، وفي حاجة كذلك إلى تأمين جانب البيزنطيين حتى يتفروغوا لمواجهة العبّاسيين ثم السلاجقة ، فوُقعت هُدنة بين الطرفين في سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م أقيمت بمقتضاها الخطبة للظاهر بجامع القسطنطينية مقابل أن يعيد الظاهر فتح كنيسة قمامة وتجديدها ، وأن تُغمر النصارى جميع الكنائس الخراب في مصر (سوى ما كان منها قد عمل مسجداً) ، وآلا يتمرض الظاهر لحلب (وقد اعتذر الظاهر عن قبول هذا الشرط) ، وآلا يساعد صاحب صِقلية على محاربة البيزنطيين ^١ .

وقد وُقعت اتفاقية أخرى بين الجانبين في سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م لمدة عشر سنوات ثم جُددت في سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م للغرض نفسه ^٢ .

^١ المسبحي : أخبار ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٦٤ - ٦٥ ، يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٤٤ - ٢٤٦ ، ابن القلائسي : ذيل ١٧٣ ، ابن ظافر : أخبار ٦٣ - ٦٤ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٣٦٩ ، ٣٩٢ ، النويري : نهاية ٢٨ : ٢٠٥ ، ابن العديم : زبدة الطلب ١ : ٢٢٣ - ٢٢٧ ، المقرئ : الخطط ١ : ٣٥٥ ، اتعاظ ٢ : ١٤٧ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٥٢ -

٢٥٣ . Canard, M., *El*² art. *Djarrāhides* II, pp. 495-497 .

^٢ يحيى بن سعيد : تاريخ ٢٧٠ - ٢٧١ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ١٧٦ .

^٣ ابن الأثير : الكامل ٩ : ٤٦٠ ، ٥٤١ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ١٨٢ ، Hamdani, °A., «Byzantine-Fatimid»

. *Relations before the Battle of Manzikert*, Byz. St. 1,2 (1974), p. 174

الفصل الرابع المواجهة العبّاسيّة الفاطميّة

خلافة المنتصر بالله

عندما خَلَفَ المنتصر بالله والده الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م ، وهو طفل لم يتجاوز السبع السنوات ، لم يكن يعلم ما تخبّؤه له الأيام . فقد امتدَّ حكمه ستين عامًا (٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٣٦-١٠٩٤م) شهدت أحداثًا جسامًا في تاريخ الدولة الفاطمية كادت أن تودي بالخلافة نفسها في أوّل صدام حقيقى بينها وبين الخلافة العبّاسية ، وأفقدت «القاهرة» عاصمة الفاطميين ، مكانتها كـ«مدينة ملكية» تُقدُّ لحكم العالم الإسلامى ولم يمحُض على إنشائها مائة عام .

ومع ذلك فقد وَصَلَت الإمبراطورية الفاطمية إلى أقصى اتّساع لها فى العشرين عامًا الأولى من مُحْكَمِ المنتصر حيث شملت مصر وجنوب الشام وشمال إفريقية وصِقلِيَّة والشاطئ الإفريقى للبحر الأحمر والحجاز واليمن . كما كَسَبَت ولاء عدد لا يُحصى من الأتباع فى أراضٍ كانت ما تزال خاضعةً لحُكَّام سُنة فى المَشْرِق ؛ ثم هَوَّت فى انحدار سريع وتقلّصت عنها ممتلكاتها تدريجيًا ، وهى تُثَمِّلُ بذلك نهاية الفترة الكلاسيكية للدولة الفاطمية .

فمن الناحية الإقليمية بدأ تُفَوِّدُ الدولة الفاطمية فى الشام فى الانحسار ، فبعد أن كان أميرُ الجيوش أنوشتكين الدزبرى قد استولى على حَلَب سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م استردّها اليزداسيتون بعد وفاته سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤١م ، وحاول الفاطميون عُبثًا استعادة حَلَب عامى ٤٤٠-٤٤١هـ / ١٠٤٨-١٠٤٩م ، وبالرغم من أن ثُمَال بن صالح بن

وجاء استقرار الأتراك السلاجقة (الغز) فى فارس والعراق والجزيرة وسوريا الشمالية ليوقف هذا الزحف للتشيع السياسى ، وأصبحت الخلافة الفاطمية مثل غيرها من الأسرات الحاكمة المعاصرة تواجه التهديد المتنامى للأتراك السلاجقة الذين أخذوا فى التقدم السريع من الشرق ليتمهدوا لإقامة إمبراطورية قوية جديدة^١.

وهكذا اجتمعت عدة عوامل لتضع حداً لأحلام الفاطميين وطموحاتهم ؛ ففى عهد الخليفة القادر بالله العباسى وخلفه الخليفة القائم بأمر الله (٣٨١-٤٦٧هـ / ٩٩١-١٠٧٤م) طرأ تغيير واضح على سياسة العباسيين تجاه الفاطميين وبدأ الصدام بين القوتين اللتين تجاذبتا السيادة على الشرق الإسلامى . كان بداية التحوّش بينهما «المحضر» الذى صدر فى بغداد سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م متضمناً القذح فى نسب الفاطميين ، ووقع عليه كبار العلماء والفقهاء والقضاة فى بغداد وعلى رأسهم نقيب الطالبين الشريف المرتضى وأخوه الشريف الرضى^٢. كان هذا المحضر بداية حرب دعائية بينهما استمرت فترة طويلة ، ففى سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م كُتب ببغداد «محضر» آخر شبيه بالمحضر السابق ، وبينما وصلت إلينا صيغة المحضر الأول فإننا لا نعلم أى شىء عن صيغة المحضر الثانى^٣.

وفى الوقت نفسه عمل العباسيون على الاستعانة بالسلاجقة لفرض حصار على الفاطميين ، وتضيق الخناق عليهم تمهيداً للقضاء على خلافتهم . فحاولوا الاتصال بحاكم إفريقية الزيرى المعز بن باديس -الذى يدين بالولاء للفاطميين- وأرسلوا إليه فى سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م خلعاً وتشايف عن طريق القسطنطينية ، لإفساد أواصر الود التى بدت

^١ Daftary, F., *op.cit.*, p. 205

^٢ ابن الجوزى : المنتظم ٧ : ٢٥٥-٢٥٦ ابن الأثير : الكامل ٩ : ٢٣٦ الذهبى : العبر فى خبر من غير ٣ : ٧٦-٧٧ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ٢ : ١٥٠ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٣١ ; المقرئى : اتعاظ ١ : ٣١-٣٤ ، ٤٧-٤٩ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٢٢٩ .

^٣ نفسه ٨ : ١٥٤-١٥٥ نفسه ٩ : ٥٩١ ابن ميسر : أخبار ١٣ : الذهبى : العبر ٣ : ٢٠٤ المقرئى : الخطط ١ : ٣٥٦ ، اتعاظ ٢ : ٢٢٣ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٥٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٨٢-٢٨٣ .

بين الفاطميين والبيزنطيين^١، إلا أن الإمبراطور البيزنطي قبض على الرسول وسيّره إلى القاهرة «مراعاة لحق المستنصر... ولأن بينهما عهدًا وهُدنة قد بقي منها سنتان ولا يمكن فسخها»^٢.

لم تفلح مساعي البيزنطيين في منع الزّيريين من الاستقلال عن الفاطميين، فقد كانوا في طريقهم إلى تَبَدُّد سيادة الفاطميين واعتناق المذهب المالكي منذ تولّى المعزّ بن باديس^٣. ففي شعبان سنة ٤٤١هـ/١٠٥٠م أمر ابن باديس بضَرْبِ غُملَة جديدة خاصة به، وأمر أيضًا بسَبْك ما عنده من الدنانير التي عليها أسماء الفاطميين بعد أن ظَلَّت تُضْرَب هناك مائة وخمسة وأربعين عامًا^٤. وفي سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م قَطَعَ المعزّ كل صلة له بالفاطميين وأقام الخطبة للعبّاسيين بإفريقية^٥. ونَجَح السَّلاجِقَةُ كذلك في تحريض الإمبراطور البيزنطي على الخلفاء الفاطميين، وعقدوا معه اتفاقًا أنهى بموجبه تموين القمح الذي كان يرسله إلى مصر^٦، كما أقيمت الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العبّاسي في جامع القسطنطينية، مما أدّى بالمستنصر إلى التَّحَوُّط على ما في كنيسة قُمامة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، وأغلق أبواب كنائس مصر والشام، وطالب الرهبان بالجزية لأربع سنين، وزاد الجزية على سائر التَّصاري^٧.

^١ ابن الأثير: الكامل ٩: ٥٢١-٥٢٢ ابن عذاري: البيان ١: ٢٧٥-٢٧٦ النويري: نهاية (تحقيق حسين نصار)

٢٣: ٢٢٠، المقرئ: اتعاط ٢: ١٩٠.

^٢ المقرئ: اتعاط ٢: ٢١٤، ٢٢٤.

^٣ ابن عذاري: البيان ١: ٢٦٧، ٢٧٣-٢٧٤ ابن الأثير: الكامل ٩: ٢٥٧.

^٤ نفسه ١: ٢٧٨-٢٧٩.

^٥ السجلات المستنصرية (سجل رقم ٥)، ابن عذاري: البيان ١: ٢٨٠ ابن الأثير: الكامل ٩: ٥٢١-٥٢٢ (وفيه

أن ذلك سنة ٤٣٥) ابن مسير: أخبار ١١-١٢ ابن خلكان: وفیات ٥: ٢٣٠ ابن سعيد: النجوم ٧٩-٨٠،

٣٥٧ النويري: نهاية ٢٨: ٢١٩، ٢٤: ٢٠٩ المقرئ: اتعاط ٢: ٢١٤، المقفى ٣: ٤٢٥، أبو المحاسن:

النجوم ٥: ٢٠، ٥٠ Idris, H.R., *La Berbérie Orientale sous les Zirides, X^e-XII^e siècles*, Paris

1962, pp. 142-203.

^٦ ابن مسير: أخبار ١٣، المقرئ: الخطط ١: ٣٣٥.

^٧ نفسه ١٤، المقرئ: الخطط ١: ٣٣٥، الاتعاط ٢: ٢٣٠، المقفى ٣: ٤٢٥. وساويرس: تاريخ البطارقة ٣/٢:

كان ردُّ الفعل المباشر لذلك لدى الفاطميين هو مواجهة العباسيين . وأن يكسروا الحصار الذى فُرض عليهم ، وأن يجدوا منافذ أخرى لإقامة الدُّعْوَة . فبدأوا بتحريض قبائل زُغْبَة ورياح الهلاليين لغزو إفريقية فى أعقاب الأزمة الاقتصادية التى شهدتها مصر فى سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م^١، فأحدثوا فتنة شديدة فى ممتلكات ابن باديس استمرت سبع سنوات^٢، كما حوَّض الوزير أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى (٤٤٢-٤٥٠ هـ / ١٠٥٠-١٠٥٨ م) أهل صِقْلِيَّة على الثورة أيضًا على ابن باديس^٣.

الاستراتيجية الشُّرْقِيَّة للفاطميين

فور أن فَقَدَ الفاطميون كل ممتلكاتهم فى المغرب أخذوا يوجهون كل جهودهم نحو الشرق ونحو اليمن ، أول مراكز الدعوة الإسماعيلية ، بصفة خاصة حيث وجدوا مرادين أكثر حرصًا على المذهب ودفاعًا عن الدُّعْوَة . فسارع الوزير أبو محمد اليازورى إلى تأييد على بن محمد الصُّلَيْحى الثائر باليمن وساعده على إقامة دعوة سياسية للفاطميين هناك . وقد استعان الفاطميون بالصُّلَيْحيين كذلك على نَشْر الدعوة الإسماعيلية فى مناطق عُمان وغرب الهند وخاصة إقليم كُنْجرات^٤.

^١ المقرئى : إغاثة الأمة ١٨ .

^٢ ابن الصيرفى : الإشارة ٧٧، ابن ظافر : أخبار ٦٩-٧١، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٥٦٦-٥٧٠، ابن مسير : أخبار ١٢، ١٧، ابن عسارى : البيان ١ : ٢٨٨-٢٩٥، ابن عسارى : تاريخ ٤ : ٦٢-٦٣، المقرئى : انعاظ ٢ : ٢١٤-

٢١٥، للمقنّى ٣ : ٤٢٥، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٤، *Hill* art., *Hill* ١ : ١٩٤، Idris, H.R., *op.cit*, p. 206; id., *El* III, pp. 398-99; Daghfous, R., «Aspects de la situation économique de l'Egypte au milieu du V^e siècle: Contribution à l'étude des conditions de l'émigration des tribus arabes en Ifriqiya»

. CT XXV (1977), pp. 23- 50

^٣ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٤ .

^٤ المصدر نفسه ١ : ١٩٤، وتفاصيل أكثر عن الصُّلَيْحيين والدعوة الفاطمية فى اليمن انظر : أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن ١٠٣-١٢١، ١٥١، ١٥٢.

وبدأ الفاطميون يُعدّون العُدّة لمواجهة الخلافة العبّاسية لأول مرة مواجهةً مباشرةً مستخدمين فى ذلك أسلحة الدّعاية والنشاط التخريبيّ ، علاوةً على الوسائل المألوفة الأخرى العسكرية والسياسية والاقتصادية .

المنافسة التجارية

تبنى الفاطميون فى سبيل قضائهم على العبّاسيين استراتيجيةً شرقيةً رأت ضرورة قيام منافسة بين طريقي التجارة المؤدّيين إلى الشرق الأقصى (طريق مصر-البحر الأحمر ، وطريق العراق وفارس-الخليج الفارسى) . وهدف الفاطميون من ذلك إلى السيطرة على الشاطئين الإفريقيّ والعربيّ للبحر الأحمر ، وعلى المنفذ الجنوبيّ المؤدّى إلى الهند^١ .

فعلى إثر خروج إفريقية ومعظم بلاد الشام من أيدي الفاطميين ، ركّزوا جهودهم فى نشر الدّعوة على طرق التجارة البحرية والبرية المؤدّية إلى الهند وفى الهند نفسها . وبذلك ازدهرت موانئ مثل غنّذاب على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر^٢ ، وعُدّن عند المدخل

^١ Lewis, B., «An Interpretation of Fatimid History» , *CIHC* p. 291

^٢ بدأ ذكر غنّذاب فى المصادر اعتبارًا من القرن الثالث الهجرى ، ولكن نشاطها التجارى لم يظهر بوضوح إلّا فى أثناء خلافة الفاطميين حيث حلّت محل ميناء القصير القديم ، ثم أخذ دورها ينحسر حتى فقدت مكانتها فى أوائل القرن التاسع الهجرى . يقول عنها ناصرى خسرو الذى دخلها فى سنة ٤٤٢ هـ « فيها تحسّل المكوس على مافى السفن الواقعة من الحبشة وزنجبار واليمن » (سفرنامه ١١٨) ، ويقول ابن جبّير الذى زارها سنة ٥٧٩ هـ أنها « من أحفل مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائلاً إلى مراكب الحجاج » (الرحلة ٤٥) . وراجع أيضًا المقرئ :

المخطوط ١ : ٢٠٢-٢٠٣ ، *Gibb, H.A.R., EI² art. "Aydhab" I, pp. 805-806*

الجنوبي له^١، كما فرض الفاطميون عن طريق الصُّلَاحيين سيطرتهم على عُمان لضمان وصولهم إلى السُّند والهند.

وساعدت الظروف الفاطميين في تحقيق هدفهم. فقد جعلت الفوضى التي اجتاحت العراق وفارس في هذا الوقت من الخليج الفارسي طريقاً غير آمن. وسَهَّلَت خِطَّة الفاطميين في نَقْل التجارة من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر وإعادة الحركة التجارية القديمة بين مصر والشرق. وقد قصد الفاطميون بذلك هدفاً مزدوجاً هو تقوية الخلافة الفاطمية عن طريق الانتعاش الاقتصادي ثم إضعاف الخلافة العبَّاسية، بالإضافة إلى خَلْق نواة لنشر النفوذ الفاطمي على طول الطرق البديلة التي بدأ حُكَّام العراق في استخدامها^٢. وهذا لا يعني أن الدولة الفاطمية ارتبطت مباشرةً بالتجارة أو أن الدَّعْوَة نفسها كانت تنظيمًا تجاريًا، إلا أن العلاقة بين الدَّعْوَة والتجارة وبين الإيديولوجية والنفوذ التجاري نادراً ما بدت واضحة مثلما كانت في هذه الدَّعْوَة. حتى إن كلمة إسماعيلي في الاصطلاح المحلي الكُنجراتي (بُهْرَة) تعني التجارة، وهذا شيء ذو دلالة^٣.

كان كل ذلك في ضوء ما هو معروف عن كفاءة الإسماعيليين في خططهم بمثابة سياسة محكمة مدروسة تهدف إلى القضاء على الخلافة العبَّاسية ليحل محلهم الفاطميون كحُكَّام وحيدين للعالم الإسلامي^٤.

وعندما ظهرت التجارة الكارمية^٥ في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي كانت أكبر مراكزها هي عَدَن وعَيْذاب وقوص والفُسطاط. وتمدنا أوراق

^١ عن عدن وأهميتها لطرق التجارة الشرقية راجع، Löfgren, O., *EI*². art. "Adan I", pp. 185-187.

^٢ Lewis, B., « The Fatimids and the route to India », *Revue de la faculté de Sciences économique de l'Université d'Istanbul* XI (1949-50), p. 53

^٣ *Ibid.*, p. 53

^٤ *Ibid.*, p. 54

^٥ عن التجارة الكارمية راجع فيما يلي ص ٣٠٨-٣١٢.

الجنيزة Geniza المتعلقة بتجارة الهند^١ والتي ترجع إلى العصر الفاطمي ببعض التفاصيل عن طبيعة ونشاط التجارة الكارمية في هذه الفترة^٢.

المواجهة الحربية

من ناحية أخرى صعد الدعاة المواجهة الحربية مع العباسيين ، وقام بالدور الأكبر فيها داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، وسجل تفصيل ذلك في سيرته الذاتية^٣. فقد أيد ثورة أبي الحارث أرسلان البساسيري ضد خليفة بغداد مستغلاً الفوضى التي اجتاحت العراق في أعقاب سقوط البويهيين ، ومستعيناً بالأموال والذخائر التي أمده بها الوزير اليازوري من القاهرة^٤. ونجح البساسيري في الاستيلاء على بغداد وإقامة الخطة بها للمستنصر الفاطمي لمدة عام سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨ م. وكان أول من أيده ودعا لصاحب مصر أهل الكرخ^٥، وألزم البساسيري الخليفة القائم بأمر الله العباسي بكتابة كتاب أشهد

^١ عن أوراق جنيزة القاهرة انظر فيما سبق ص ٧٣-٧٥ .

^٢ انظر في ما يلي ص ٤٩٦-٥٠٠ .

^٣ سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة (تحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩) ، - El² art. Poonawala, I., Mu'ayyad fil-Din VII, pp. 272-273 .

^٤ نفسه ، ابن الصيرفي : الإشارة ٨٠ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة) ٤ ، ٦ ،

٢٧ ؛ ابن ميسر : أخبار ١٥ ، ١٧ ، ٢١ ؛ ابن حجر : رفع الإصرار ١ : ١٩٥ ؛ المقرئ : الخطط ١ : ٣٣٥ .

^٥ عن حركة البساسيري راجع سيرة المؤيد في الدين ١٧٨-١٨٠ ؛ ابن القلانسي : ذيل ٨٧-٩٠ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ٨ :

١٩١-١٩٧ ، ٢٠١-٢١٢ ؛ الراوندي : راحة الصدور ١٧١-١٧٥ ؛ ابن طاهر : أخبار ٦٧-٦٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ٩ :

٤٣٩-٤٤٥ ، ٦٤٠-٦٤٥ ؛ ابن ميسر : أخبار ١٨-٢١ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٤-٧٠ ؛ ابن خلكان : وفیات

١ : ١٩١ ؛ ابن العديم : بغية الطلب (القسم الخاص بالسلاجقة) ١-١٥ ؛ ابن سعيد : النجوم ٨٠ ؛ النوري : نهاية ٢٣ :

٢٣٢-٢٣٣ ؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٥ : ٢٤٨-٢٥٢ ؛ المقرئ : الخطط ١ : ٣٥٦ ، ٤٣٩ ، اتعاض ٢ :

٢٥٢-٢٥٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٤-١٢ ، ٦٢ ؛ مصطفى جواد : «القاهرة تستولي على بغداد» مجلة المقتطف ٨١

(١٩٣٢) ٣٣٣-٣٤٠ ؛ فاضل الخالدي : الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق خلال القرن الخامس الهجري ، بغداد

١٩٦٩ ، ١٠٢-١٣٩ ؛ عبد الجبار ناجي : «ثورة البساسيري في بغداد» ، مجلة كلية الآداب-جامعة البصرة ٥ (١٩٧١)

٤٢-٧٨ ؛ El² art. Canard, M., al-Basāsiri, pp. 1105-1107

^٥ ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ١٩٢ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٣٥ .

عليه العدول «بأنه لا حقّ لبني القُبّاس ولا له من جملتهم في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء، عليهم السلام». وأرسل البُساسيري الكتاب إلى المستنصر في مصر وظلّ محفوظًا لدى الفاطميين إلى أن أعاده صلاح الدين إلى القُبّاسيين فور استيلائه على مقاليد الأمور في مصر بعد ذلك بنحو مائة عام^١.

لم يكن موقف الفاطميين من تأييد البُساسيري واضحًا، فبينما وعدوه بإرسال ستين ألف دينار سنويًا له ولخواصه^٢، شكّك الوزير أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي في أهمية العمل الذي قام به البُساسيري^٣، ولم يمدّوه بأية قوة تُشيد موقفه وتعزّزه، وبدوا كما لو أنهم لم يكونوا ينتظرون هذه الفرصة منذ بدأ عملهم السري قبل نحو مائتين وخمسين عامًا.

هكذا جاء نجاح الدُعاة في تحقيق حُلُم الفاطميين بعد فوات الأوان، في وقت ضعفت فيه الخلافة الفاطمية، وتقلّصت فيه ممتلكاتها، وأثّرت عليها الأزمات الاقتصادية المتتالية، وأصبحت غير قادرة على اتخاذ القرار أو حتى حماية نفسها، وبدأ فيه التيار السني جارقًا في العالم الإسلامي على يد الأتراك السلاجقة-القوى الجديدة في الإسلام الآخذة في النماء والقوّة والذين تولّوا حركة الإحياء السني التي تزعمها الأشاعرة، أصحاب الحركة الفكرية الجديدة التي بدأت تسود في هذا الوقت وتحلّ محلّ مذهب المعتزلة العقلي^٤.

فسرعان ما تمكّن طُغرلبيك السلجوقي من نجدة الخليفة القُبّاسي وأخبط محاولة الفاطميين، وأعاد دعوة القُبّاسيين في بغداد بعد أن انقطعت اثني عشر شهرًا، وهي أكثر

^١ المقرئى : الخطوط ١ : ٤٣٩ .

^٢ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٢٧ .

^٣ المصدر نفسه ٤٧ ، ٥٥ سورة المؤيد في الدين ١٨٢ .

^٤ المصدر نفسه ٢٧٢ ابن ظافر : أخبار ٦٨ .

^٥ عن الأشعرية راجع ، *Montgomery Watt, W., EI². art. al-Ash'ari* l,pp. 715-716; *id., EI² art.*

Asb'ariyya l,pp. 717-718 وجمال محمد موسى : نشأة الأشعرية وتطورها، بيروت ١٩٧٥ .

قوة ومَنَعَة ، ومَدَّ السَّلاَجِقَةَ نفوذهم على ممتلكات الفاطميين في الشام ، فاستولى أتابيزبُرا على دمشق سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م وقَطَعَ خُطْبَةَ الفاطميين منها^١ ، الذين لم تبق لهم سيادةٌ إلَّا على مصر وجنوب فلسطين والحجاز واليمن . وبفضل السَّلاَجِقَةِ امتد النفوذُ الشُّنِّي إلى الشام عن طريق خلفائهم الزُّنكيين ثم الثوريين وأخيرًا الأيوبيين ، الذين أَنهَوْا خلافة الفاطميين في مصر وقضوا على النفوذ الشيعي في كل المنطقة عن طريق «المَدَارِس» التي بدأها في عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م الوزير نظام المُلْك السَلْجُوقِي^٢ .

والواقع فإن نجاح الدَّعْوَةِ للفاطميين في بغداد سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ليس دليلًا على أية قوة حقيقية كانت للفاطميين ، بقدر دلالاته على الدسائس والمكائد السياسية في الخلافة العبَّاسية .

سوء الأحوال الداخلية

في أوَّل عهد المستنصر

لم تكن أحوال مصر الداخلية زمن المستنصر أحسن حالاً من أحوالها الخارجية . فإلى جانب فَشَلِّ الفاطميين في تحقيق هدفهم ، تَعَرَّضَت القاهرة ، المدينة الملكية حيث

^١ ابن القلانسي : ذيل ١٠٨ ، ابن ظافر : أخبار ٦٨ ، ٧٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ١٦٨ - ٩٩ - ١٠٠ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (قسم السلاجقة) ١٧٩ ، ١٨٠ ؛ ابن مسير : أخبار ٤٣ ؛ الذهبي : المعجم ٣ : ٢٦٦ ؛ الصفدي : الوافي ٦ : ١٩٥ ؛ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٥ ، المقرئ : اتعاظ ٢ : ٣١٥ ، والمقفى : ٢٢١ - ٢٢٣ ؛ أبو الهامس : النجوم ٥ : ٨٧ ، ١٠١ - ١٠٢ ؛ صلاح الدين المنجد : ولاية دمشق في العهد السلجوقي ٤ - ٥ ، ١٧ - ١٨ ، Cahen, Cl., «Première penetration turque en Asie Mineure», Byzantion XIII (1946-48), p., 25; id., *El*² . art. *Atsiz* I, p. 443; Bianquis, Th., *op.cit.*, pp. 571-76

^٢ ابن الجوزي : المنتظم ٨ : ٢٣٨ ، ٢٤٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٤٥٥ ؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٨٠ ؛ ابن خلكان : وفيات ٢ : ١٢٩ ، Makdisi, G., «Muslim Institutions of Learning in Eleventh-Century Baghdad», BSOAS XXIV (1961) p. 3 ؛ أمين فؤاد سيد : المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي ٩٧ - ٩٨ .

قصر الخليفة لصراعات دامية بين طوائف الجُند المختلفة، وخاصة الأتراك والسودان. واجتاحت البلاد الأوبئة والأزمات الاقتصادية الواحدة تلو الأخرى فى السنوات ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م و ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م و ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م، بالإضافة إلى أزمة إدارية حادة أضعفت قوة الدولة ونفوذها.

بعد عزل الوزير اليازورى-آخر الوزراء الفاطميين أرباب الأقلام الأقوياء-فى سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، بدأ العسكريون يزيدون من قُوَّتهم باضطراب على حساب المدنيين، بل وعلى حساب الخليفة نفسه.

حقيقةً لقد أشاد ناصر خُشرو بالأمن الذى شاهده فى مصر فى أوائل خلافة المستنصر (٤٣٩-٤٤١هـ/ ١٠٤٧-١٠٤٩م) وقال إنه لم يره فى بلد من قبل^١، وأرجع الفضل فى ذلك إلى المذهب الإسماعيلى واعتبره كفيلاً بإنقاذ العالم الإسلامى^٢، وإذا صدّقنا ناصر خُشرو-رغم ما يبدو على وصفه دائماً من مبالغات، كان يهدف بها إلى كسب الرأى العام فى فارس لصالح الفاطميين وضد السلاجقة السُنيّين-فإن هذا الرُخاء والأمن لم يستمرًا طويلاً.

أُمُ المستنصر تتحكم فى الدولة

كان الوزير أبو القاسم على بن أحمد الجزجرائى طوال التسع السنوات الأولى من خلافة المستنصر هو صاحب السلطة السياسية فى مصر ولكن بعد وفاة هذا الوزير سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م، تحكّمت السيدة والدة المستنصر فى أمور الدولة، بسبب صِغَر سن الخليفة، ولعبت دورًا هامًا فى إذكاء الفِتنة بين طوائف العسكر المختلفة، وهى الفِتنة التى

^١ ناصر خُشرو : سفرنامه ١٠٦.

^٢ يحيى الخشاب : «وصف مصر من كتاب السفرنامه لناصر خُشرو»، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٣١١.

قادت إلى خراب البلاد على حدّ تعبير المؤرّخين المصريين^١. كذلك فقد حافظت الخلافة الفاطمية على سياسة التسامح مع أهل الذمّة، التي تَحَلَّى عنها مؤقتًا الخليفة الحاكم، فلا عجب أن نجد اليهود يَحْتَلُونَ ثَانِيَةً أعلى المناصب في الإدارة والحياة الاقتصادية في النصف الأول للقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي^٢.

يقول المقرئى: إن أخوين يهوديين نَبَغَا في أيام الحاكم بأمر الله، كان أحدهما يتصرّف في التجارة والآخر في الصّرف ويتبع ما يحمله التجار من العراق، هما: أبو سَعْد إبراهيم وأبو نَصْر هارون ابنا سَهْل التُّشْتَرى؛ «واستخدم الخليفة الظّاهر أبا سعد إبراهيم بن سَهْل التُّشْتَرى في ابتياع ما يحتاج إليه من صنوف الأمتعة، وتقدّم عنده فباع له جارية سوداء، فتَحْطَى بها الظّاهر وأولدها ابنه المستنصر»^٣.

وبعد وفاة الجرجرائي عملت السيدة أم المستنصر على تقريب أبى سَعْد التُّشْتَرى وجعلته متولّي ديوانها؛ فانبسطت كلمته «بحيث لم يبق للوزير الفلاحى معه أمرٌ ولا نَهْي سوى الاسم فقط وبعض التنفيذ»^٤. وعمل أبو سَعْد على استمالة المغاربة والزّيادة في واجباتهم وأنقص من أرزاق الأتراك، مما أدّى إلى نشوب القتال بين الفريقين أكثر من مرة^٥، كذلك أخذ في تقريب اليهود وإيثارهم بالكثير من المناصب الهامة، مما قلّب مشاعر المسلمين عليهم وكثّر عداؤهم لهم^٦. فاستغل ذلك الوزير الفلاحى، رغم أنه

^١ ابن ميسر: أخبار ٢٤-٢٦؛ النويرى: نهاية ٢٨؛ المقرئى: اتعاظ ٢: ٢٦٥.

^٢ Fischel, W.I., *Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Islam*, N. Y. 1969, p. 68.

^٣ المقرئى: المخطوط ١: ٤٢٤ وراجع، ابن الأثير: الكامل ١٠: ٨٠-٨١؛ ابن ميسر: أخبار ٣-٤، ٢٥؛ النويرى:

نهاية ٢٨؛ ٢٦، ٢٢٥؛ المقرئى: اتعاظ ٢: ١٩٥، ٢٦٧.

^٤ راجع مناقشة طبيعة وظيفة أبى سعد عند Fischel, W.I., *op.cit.*, pp. 78-84.

^٥ ابن ميسر: أخبار ٤٤؛ سيرة المؤيد في الدين ٨١-٨٤.

^٦ ابن الصيرفى: الإشارة ٧١-٧٢؛ ابن ميسر: أخبار ٤٤؛ النويرى: نهاية-خ ٢٦: ٦٤؛ المقرئى: اتعاظ ٢: ١٩٥؛ أبو

المحسن: النجوم ٥: ١٩، وانظر السجلات المستنصرية، سجل رقم ٥٦.

^٧ ابن ميسر: أخبار ٥ وما ذكر فيه من مصادر.

يهودى تَحَوَّل إلى الإسلام ، ومال إلى طائفة الأتراك وزاد فى أرزاقهم ، وحرَّضهم على قتل الثَّشْتَرى ، فقتلوه فى سنة ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م^١. وَبَلَغَ من كُرهه المسلمين لأبى سَعْد ، أن الخليفة عندما طلب قاتليه أَقْرَبَ طوائف العسكر أنهم قتلوه جميعًا ، فلم يتمكن الخليفة من معاقبتهم وأَغْضَى عن ذلك^٢.

الحَرْبُ الْأَهْلِيَّةُ وَالْأَزْمَةُ الْإِدَارِيَّةُ

لم تَرُضْ أُم الخليفة بما فعله الأتراك ولا بتصروف ولدها ، وعملت على التَّخْلُص من الوزير الفَلَّاحى ، ولم يهدأ لها بالٌ حتى عَزَلَه الخليفة وأمر بقتله فى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م^٣، وَشَرَعَتْ فى شراء العبيد السود من أهل جنسها واستكثرت منهم حتى يقال إنهم بلغوا نحوًا من خمسين ألف أسود وجعلتهم طائفة خاصةً بها ، وزادت كراهيتها للأتراك لقتلهم أبى سَعْد^٤ وعملت على ضربهم بالعبيد السود ، وأَغْرَت الوزراء الواحد تلو الآخر لتحقيق ذلك ، فكانوا يتعلَّلون لها ويخشون عاقبته على الدولة^٥، حتى نجحت فى إغراء الوزير أبى الفَرَج البابلى بذلك ، واشتعلت الفِتْنَةُ بين السودان والأتراك^٦ فى الوقت الذى خَرَجَ فيه عَرَبُ البحيرة من بنى قُرَّة والطلَّحيين عن طاعة المستنصر^٧، فاختلَّت أحوالُ

^١ ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٨ ، ١٠٩ ابن مسير : أخبار ١٣ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨١ التويرى : نهاية ٢٨ : ٢١٦ المقريزى : الخطط ١ : ٣٥٥ : ٢ : ١٩٥ Fischel, W.I., *op.cit.*, pp. 84-89

^٢ نفسه ١٠٨ : نفسه ١٤ المقريزى : اتعاط ٢ : ١٩٥

^٣ ابن مسير : أخبار ٨ ، المقريزى : اتعاط ٢ : ٢٠٣

^٤ المقريزى : الخطط ١ : ٣٣٥-٣٣٦ ، ٢ : ١٢ ، اتعاط ٢ : ٢٦٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٨-١٩ ، وعن تزايد العنصر الأسود فى الجيش الفاطمى راجع ، -340 pp. Lev, Y., *Army, Regime and Society...* Beshir, B.I., *op.cit.*, pp. 40-41; 42; Bacharach, J.L., «African Military Slaves in the Medieval Middle Age: The Cases of Iraq (869-955) and Egypt (868-1171)», *JMES* 13 (1981), pp. 482-87

^٥ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٨١

^٦ نفسه ١٠ : ٨١ ابن مسير : أخبار ٢٥-٢٦ التويرى : نهاية ٢٨ : ٢٢٧ المقريزى : اتعاط ٢ : ٢٦٧

^٧ ابن مسير : أخبار ١٢ وعن عدد ونوع الجيش المصرى فى هذه الفترة راجع ، ناصر خسرو : سفرنامه ٩٤-٩٥ : ١٩٥ Lev, Y., *op. cit.*, pp. 349-52

مصر ولم تنجح مساعي الوزير أبي الفرج المغربي في التقريب بين الأتراك والسودان بسبب تشدد موقف أم الخليفة. وأخيراً نجح الأتراك يساندهم المصايدَةُ والكُتّاميون في إيقاع الهزيمة بالسودان في وَقْعة كوم شُرَيْك، فزادت أم المستنصر من إشعال الموقف وأمدّت السودان بالسلاح والمال، فلم يرض ذلك الأتراك فتبعوا السودان حتى فرقوهم في الصعيد^١.

ناصر الدّولة بن حُفْدان ومحاولة إزالة الخلافة الفاطمية

هكذا انتهى هذا الصّراع بظهور الأتراك وتقوية شوكتهم وأصبح الحُكْم في الحقيقة في أيدي قوّادهم، وعظّم أمر قائدهم ناصر الدّولة سُلطان الجيوش الحسين بن الحسن بن حُفْدان^٢، وأساء معاملة الخليفة المستنصر بالله وطالبه بزيادة مُقَرَّر الأتراك حتى بَلَغَ ٤٠٠,٠٠٠ دينار في الشهر بعد أن كان ٢٨,٠٠٠ دينار فلم تقدر خِزّانة الدولة على الوفاء به^٣، فَتَهَبَّ الأتراك القاهرة واستولوا على ذخائر المستنصر وما كان بالقصر والثّروة المُعْزِية من كنوز وتُحَف وكُتُب بين سنتي ٤٥٩ و ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٦ و ١٠٦٩ م قَوّموه على أنفسهم بأَبْنَحْس الأثْمان حتى لم يبق للخليفة شيء^٤ بل وَصَلَ به الأمر أن ابنة أبي الحسن طاهر بن أحمد ابن بابشاذ النحوى كانت تبعث إليه كل يوم برغيفين «على ما هو مشهور ذائع»^٥.

^١ ابن الصيرفي: الإشارة ٧٧-٧٨، ابن الأثير: الكامل ١٠: ٨٢، ابن مسير: أخبار ١٢-١٣، ٢٤-٢٥، ٣١-٣٢، ابن القلانسي: ذيل ٩٣، النويري: نهاية ٢٨: ٢١٧، ٢٢٥: المقيزي: اتعاظ ٢: ٢١٨، الخطط ١: ٢٣٥-٢٣٦، المقفى ٣: ٥٠١.

^٢ انظر ترجمته عند المقيزي: المقفى الكبير ٣: ٥٠٠-٥٠٥.

^٣ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٨٢، ابن مسير: أخبار ٣٢: النويري: نهاية ٢٨: ٢٢٥، المقيزي: اتعاظ الحنفا ٢: ٢٧٥، الخطط ١: ٣٣٦.

^٤ راجع تفصيل ما أخرج من القصر عند الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف ٨١-٨٢، ٢٤٩-٢٦٣، ابن طاهر: أخبار ١٧٥، ابن مسير: أخبار ٣٦-٣٧، المقيزي: الخطط ١: ٣٩٧، ٤٠٨، ٤١٣، ٤١٤-٤١٧-٤١٨-٤٢٠، ٤٢٣-٤٢٤ (من كتاب الذخائر والتحف)، اتعاظ الحنفا ٢: ٢٧٥-٢٩٦، أبي المحاسن: النجوم ٥: ١٦-١٧، زكي

محمد حسن: كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٣٧، ٣٧-٦٤.

^٥ ساويرس بن المقفع: تاريخ الكنيسة ٢/٢: ٢٠٣، ابن طاهر: أخبار ٣٤: المقيزي: إغاثة الأمة ٢٥.

كان ما أخرج من خزائن قصر المستنصر فى أيام الفتنة فى سنة ستين وسنة إحدى وستين وأربعمائة موضوع كتاب ألفه مؤلف مجهول كان موجوداً فى مصر فى هذه الفترة وَقَفَ عليه المقرئى وَنَقَلَ عنه بالصِّيغِ التالية :

«وقال فى كتاب «الذخائر والتحف وما كان بالقصر من ذلك» ، وهو يجمع بعض المصريين مجهول المصنف وفيه فوائد جمة ومنه نَقَلْتُ ... »^١.

«قال فى كتاب الذخائر والتحف . وخذتني من أثق به قال : كنت بالقاهرة يوماً من شهور سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، وقد استفحل أمر المارقين وقويت شوكتهم ، وامتدت أيديهم إلى أخذ الذخائر المصونة فى قصر السلطان بغير أمره ، فرأيت وقد دخل من باب الديلم [الباب الجنوبي الشرقي للقصر] ابن سبكتكين وأمير العرب ابن كَيْقَلُغ والأعز بن سنان وعدة من الأمراء أصحابهم البغداديين وغيرهم . وصاروا فى الإيوان الصغير فوقفوا عند ديوان الشام لكثرة عددهم وجماعتهم . وكان معهم أحد الفراشين والمستخدمين برسم القصور المعمورة ، فدخلوا إلى حيث كان الديوان النظرى فى الإيوان المذكور وصحبتهم فَعَلَّة وانتهوا إلى حائط مُجَبَّر ، فأمروا الفعلة بكشف الجير عنه فظهرت حنية باب مسدود فأمروا بهدمه . فتوصلوا منه إلى خزانة ذكر أنها عزيزة من أيام العزيز بالله ؛ فوجدوا فيها من السلاح ما يروق الناظر ، ومن الرماح العزيزة المطلية أستنها بالذهب ذات مهارك فضة مجرة بسواد ممسوح وفضة بياض ثقيلة الوزن عدة رزم أعوادها من الزان الجيد ومن السيوف المجوهرة النصول ومن النشاب الخلنجى وغيره ومن الدرق اللطى والجحف التينى وغير ذلك ومن الدروع المكلل سلاح بعضها والمخلى بعضها بالفضة المركبة عليه ومن التخافيف والجواشن والكراغندات الملبسة ديباجا المكوكبة بكواكب فضة وغير ذلك مما ذكر أن قيمته تزيد على عشرين ألف دينار فحملوا جميع ذلك بعد صلاة المغرب . ولقد شاهدت بعض حواشيهم وركاياتهم يكسرون الرماح ويتلفون بذلك أعوادها الزان ليأخذوا المهارك الفضة ومنهم من يجعل ذلك فى سراويله وعمامته وجيبه ومنهم من يستوهب من صاحبه السيف الثمين . وكان فيها من الرماح الطوال الخطية السمر الجياد عدة حملوا منها ما قدروا عليه وبقي منها ما كسره الركابية

^١ المقرئى : مسودة كتاب المواعظ والاعتبار ١٤٨.

ومن يجرى مجراهم كانوا يبيعونه للمغازلين ولصناع المرادن حتى كثر هذا الصنف بالقاهرة ولم تعرضهم الدولة ولا التفتت إلى قدر ذلك ولا احتفلت به وجعلته هو وغيره فداء لأموال المسلمين وحفظا لما في منازلهم^١.

كما أن المؤرخ تاج الدين محمد بن علي جَلَب رَاغِب المعروف بابن مُيَسَّر المتوفى سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٩م الذي أشار بالتفصيل إلى فِتْنَةِ الأتراك والحرب الأهلية التي أشعلوها- ذكر أنه رأى مجلداً من نحو عشرين كراساً فيه ذِكر ما خَرَجَ من القصر الفاطمي من التُخَفِ والأثاث والثياب والذَّهَب وغير ذلك^٢. ولا ندرى إذا كان هذا المجلد هو نفسه كتاب «الذخائر والتُخَفِ» الذي اعتمد عليه المقرئى أم كان سَجِلاً لِتُخَفِ القصر أو كان بياناً بما نُهِبَ أو تَفَرَّقَ من التُخَفِ!

وبعد قضاء الأتراك على السودان عَظُم أمر ابن حَمْدَان وتَفَرَّد بالأمر دون الأتراك حتى صار يُخاطب بـ «مولانا الناصر» فضاقتوا به واتفقوا مع الوزير خَطِير الملك محمد بن الحسن البازورى عليه، فثاروا عليه وأخرجوه من القاهرة بقيادة إلكز ولكنه تمكَّن بالتحالف مع تاج الملوك شادى أن يوقع بالوزير خطير الملك ويقتله فى بين القصرين بالقاهرة، ولكن إلكز ومؤيدى المستنصر تمكَّنوا من هزيمته فسار إلى إقليم البحيرة ونَزَلَ على بنى سِنِيس وأقام عندهم وتَزَوَّج منهم وأخذ فى إبطال الخُطْبَةِ للمستنصر وتغيير الدولة الفاطمية^٣.

لم يكتف ناصر الدولة بذلك بل سَيَّر الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد النجارى قاضى حلب إلى السلطان أَلْب أرسلان السُلجوقى يسأله أن يُجَهِّزَ إليه عسكراً ليقم الدَّعْوَةَ العَبَّاسِيَّةَ بمصر. استجاب أَلْب أرسلان إلى دعوة ناصر الدولة وبعث إلى محمود بن نصر بن صالح بن مِزْدَاس فَقَطَعَ خُطْبَةَ المستنصر من حلب فى شَوَّال سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م ودعا للخليفة القائم بأمر الله العباسى وللسلطان أَلْب أرسلان. وجَهِّزَ

^١ المقرئى : الخطوط ١ : ٣٩٧.

^٢ ابن مسر : أخبار ٣٧ : المقرئى : اتماظ الحنفا ٢ : ٢٩٦.

^٣ المقرئى : الملقى الكبير ٣ : ٥٠٢.

أُلب أرسلان جيشًا سار به قاصدًا مصر في ربيع الآخر سنة ٤٦٣هـ/١٠٦٩م ولكن مهاجمة إمبراطور بيزنطة لممتلكاته جعلته يعود مرة أخرى بعد أن وَصَلَ إلى حَلَب تاركًا قسًا من جنوده ملكوا بلاد الشام، فخرجت من أيدي المصريين من حيثي^١. وعندما حاول المستنصر التَّصَدَّى لمحاولات ابن حَمْدان إزالة الدولة الفاطمية هُزمت جنودُه دفعَتين، مما قَوَّى ابن حَمْدان وجعله يمنع الميرة عن القاهرة ونَهَب أكثر الوجه البحرى وأبطل حُطْبَةَ المستنصر من الإسكندرية ودمياط وسائر الوجه البحرى وخطَب للخليفة القائم بأمر الله العباسي^٢.

أدَّى ذلك إلى سوء أحوال أهل القاهرة لنقص الطعام وتفشَّى الموت في الناس، فاضطر الأتراك إلى مصالحة ابن حَمْدان وأتَّفَقوا على أن يقيم بمكانه من البحيرة ويُحْمَل إليه مالٌ مُقَرَّر وأن يكون تاج الملوك شادى نائبًا عنه بالقاهرة، فقبل ذلك وسَّيَر الغلال إلى القاهرة «فَتَنَقَّس خناق الناس قليلًا»^٣.

انْتَقَضَ الاتفاق الذى أقامه الأتراك مع ابن حَمْدان بعد عِدَّة شهور فسار ابن حَمْدان قاصدًا القاهرة ونجح بعد عدة محاولات من دخولها سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م بعد أن اضمحل أمر المستنصر وعظمت الشدة في الناس. وبعث يستدعى المال من المستنصر فوجده الرسول على حصير وقد زالت عنه أُمَّهَة الملك فزَقَّ له وَقَرَّر باسمه راتبًا في كل شهر مائة دينار^٤. عمل ابن حَمْدان بعد ذلك على إقامة الدعوة العباسية بالقاهرة ومصر، ولكنه لم يتمكن من ذلك لكثرة أتباع الخليفة، وتَبَّه له كبار أمراء الأتراك إلدكر وبلْدكوش واجتمعوا بسائر الأتراك وخَوَّفوهم عاقبة استبداد ابن حَمْدان وقطعه دعوة الفاطميين وأتَّفَقوا على الخلاص منه فقتلوه في منازل العزَّ بالفُسطاط في شهر رجب سنة ٤٦٥هـ/أبريل ١٠٧٣م^٥.

^١ المقرئى: المفقى ٣: ٥٠٢-٥٠٣.

^٢ نفسه ٣: ٥٠٣.

^٣ نفسه ٣: ٥٠٣.

^٤ نفسه ٣: ٥٠٤.

^٥ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٨٠، ٨٣، ٨٧؛ ابن ميسر: أخبار ٣٥-٣٦، ٣٩؛ ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة

الكنيسة ٣/٢: ٢٠٤؛ النورى: نهاية ٢٨: ٢٣٢؛ ابن خلدون: تاريخ ٤: ٦٤؛ المقرئى: المفقى ٢: ٢٢٢، ٣:

لم يكن حال المستنصر مع إلكتر وبلد كوش خيراً من حاله مع ناصر الدولة ابن حمدان ، فقد عمل بلد كوش على سد منافذ القاهرة ومحاصرة الخليفة بها ، مما أدى إلى انعدام الأمن وكثرة النهب وقطع الطرقات .

هكذا مرّت مصر بحرب أهلية شديدة الوطيس ودخلت في الفترة بين عزل الوزير الحسن بن محمد اليازوري وقته سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ووصول أمير الجيوش بدر الجمالي إلى قمة السلطة في سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م في أزمات إدارية حادة حيث تولّى في هذه الفترة أربعة وخمسون وزيراً واثنا وأربعون قاضياً^١.

الأزمة الاقتصادية أو الشدة العظمى

كان الأقدار لم تكتف للمستنصر بهذه الأزمات الإدارية والفوضى السياسية ، فجاء النيل - وهو شريان الحياة في مصر وعصبها - ليضيف إلى مشاكل المستنصر مشكلة جديدة . فبعد أزمة الخنطة التي حدثت في سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٣م والتي انفرد بذكرها المسبحي^٢ ، عاد منسوب النيل إلى التناقص في السنوات ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م و ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م و ٤٥٧-٤٦٤هـ / ١٠٦٤-١٠٧١م ، فشهدت مصر أسوأ أزمة اقتصادية مرّت بها في العصر الإسلامي حيث نزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي عن الزراعة ، واستولى الجوع على الناس لعدم وجود الأقوات ، حتى أبيع رغيف خبز في النداء بزقاق القناديل من القشطات كبيع الطرّف بخمسة عشر ديناراً ،

^١ السجلات المستنصرية (سجل رقم ٥٧) .

^٢ المقرري : إغاثة الأمة ٢٢-٢٣ ، المقفى ٣ : ٤٤٥-٤٤٦ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٩-٢٠١ ، Eisenstein, H., «Die Wezire Ägyptens Unter Al-Mustansir A. H. 452-466», WZKM 77 (1987), pp. 37-50 .

^٣ انظر الدراسة التي قام بها عن هذه الأزمة تيارى بيانكى والمذكورة فيما سبق ص ١٨٤ هـ^١.

^٤ النويري : نهاية ٢٨ : ٢٣٤ ، المقرري : إغاثة الأمة ١٨-٢٧ ، المقفى ٣ : ٣٨٧ ، الخطط ١ : ١٠٧ ، ٤٦٥ ، وانظر كذلك ابن ميسر : أخبار مصر ٢٤-٢٦ . ومقال R. Daghfous المشار إليه فيما سبق ص ١٩١ هـ^١.

وأبيع الأردب من القمح بثمانين دينارًا، وأُكِلت الكلابُ والقَطَط حتى قُلَّت الكلاب، فبيع كلبٌ ليؤكل بخمسة دنائير، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضًا^١، وقَعَدَت مصرُ في هذه الأزمة أكثر من ثُلث سكانها. وبلغَ من شدة الأزمة أن المستنصر اضطر أن يبيع كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح، وصار يجلس في قصره على حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره، بل قيل إن بنات المستنصر وأمه حاولوا الفرار من مصر إلى بغداد بسبب الجوع وضُغْط الأزمة الاقتصادية^٢ فيما اضطَلَح المؤرخون على تسميته بـ «الشَّدة العُظْمَى» أو «الشَّدة المستنصرية»^٣.

كان السببُ الرئيسى لهذه الأزمات التى بدأت فى العقد الخامس هو الحرب الأهلية وضعف قوة الوزراء، يقول المقرئى فى نصِّ جامع: إنه لما قُتِل الوزير أبو محمد اليازورى سنة ١٠٥٠هـ/١٠٥٨م

«لم تر الدولة صلاحًا ولا استقام لها أمر.. ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة وضعت قوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدتهم... فخربت أعمال الدولة وقُلَّ ارتفاعها وتقلَّب الرجالُ على معظمها واستصفوا ارتفاعها حتى انتهى ارتفاع الأرض الشُّقْلَى إلى ما لا نسبة له من ارتفاعها الأول... وطفى الرجالُ ونجوا حتى خرجوا من طلب الواجبات إلى المصادرة، فاستنفذوا أموال الخليفة وأخلوا منها خزائنه وأحوجوه إلى بيع أغراضه.. ثم زادوا فى الجرأة حتى صاروا إلى تقويم ما يخرج من الأغراض.. وتلاشت الأمور واضمحَل الملك، وعلموا أنه لم يبق ما يُلتَمَس إخراجهم لهم ففاسموا الأعمال ودام ذلك بينهم سنوات إلى أن قصر ماء النيل فساعد على

^١ نفسه ٢٤؛ وذكر مؤلف تاريخ بطارقة الكنيسة ٣/٢: ١٨٠ أن القمح أبيع ليلة الزيتونة بدينار ونصف الوية.

^٢ ابن طاهر: أخبار ١٧٥؛ ابن ميسر: أخبار ١٣٨؛ النويرى: نهاية-خ ٢٦: ٢٨؛ المقرئى: إغاثة ٢٥، اتعاظ ٢: ٣٠٧، وانظر كذلك راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، القاهرة ١٩٤٨، ٨٨-٩٩.

ويذكر ابن الأثير أن محمد بن المستنصر خرج أيضًا إلى عسقلان فى أيام الشدة والغلاء وأقام بها ينتظر أيام الرخاء وزوال الشدة (الكامل ١١: ١٤١؛ ابن خلكان: وفیات ٣: ٢٣٦).

^٣ راجع، المقرئى: الخطوط ١: ٣٣٧ (نقلًا عن الشريف الجوانى) ووصفها ابن طاهر: أخبار ٧٤ بالشدة المشهورة وبالفتنة، ووصفها المقرئى بأيام الشدة والغلاء (اتعاظ ٢: ٣٢٥)، وابن أيلك بفساد الدولة (كتر الدور ٦: ٣٨٢).

زيادة الأزمة لعدم وجود من يزرع ما شمله الرئى لاتصال الفتن بين القروان واختلال
أحوال المملكة واستيلاء الأمراء على الدولة^١.

ويؤكد مؤهوب بن منصور بن مفرج أحد مؤلفي «تاريخ بطارقة الكنيسة» -وهو
معاصر لهذه الأحداث- أن السبب المباشر لهذه الأزمة هو الحرب الأهلية التي نشبت بين
فرق الجند المختلفة ، يقول :

« ولما مَلَكَ اللواتيون جميع أشَقَل الأرض وصاروا في أربعين ألف فارس سوى
أتباعهم ، وصارت بلاد مصر بحكمهم يزرعون كما يريدون بلا خراج وبلا مُسَامَحة
إلى أن فكروا وتشاوروا مشورة ردية بأن لا يعملوا جسورًا في الريف ولا يحفروا ترعًا
حتى لا يطلع الماء إلى الأراضي ولا يزرع أحد شيئًا فيبيعون غَلَّتْهم التي حَصَلوها بما
يريدون ويهلكوا من بقى من الناس . فأرسل الله في تلك السنة-وهي سنة أربعمئة
واثنتين وستين الخراجية- نيلًا عاليًا جدًّا بغتة حتى غَطَّى جميع الأرض وزَرَعَ الناس
جميع البلاد ... وكان اللواتيون منذ امتدت أيديهم إلى الديارات بوادى هيب نهبوا
وقتلوا رهبانها وهَرَبَ من بقى منهم إلى الريف وغيره وأخربوها ، ونال الشعب
بالإسكندرية ومصر حزنً عظيمً مما نالهم من الشَّدَّة العظيمة في أيام ابن حمدان
وأصحابه وتَسَلَّطَ اللواتيين على الريف ولم يقدر أحد يزرع فيه غلة غيرهم ، فحرثوا
الغلات وامتنعوا من بيعها إلى أن عُذِمَت من أرض مصر ، وَبَلَغَ الثُّلُيس القمح ثمانين
دينارًا وعُدِمَ حتى لم يوجد وأكل الناس البغال والحُمير والمِيتة وغيرها حتى فُتِيت ، ثم
أكل بعضهم بعضًا ، وجماعة منهم أكلوا أولادهم ، وجماعة كانوا يأكلون الكندر-
وهو نُخَالَةٌ خشب النخل- ولم يزل الناس في هذا البلاء إلى أن أَهْلَكَ الله ناصر الدولة
بن حَمْدان وإخوته وأصحابه فَقُتِلَ في منازل العز بمصر بيد بلدكوز صهره ومن كان
معه من الملحية الأتراك وذلك في سنة خمس وستين وأربعمئة الهلالية الموافقة لسنة
اثنتين وستين وأربعمئة الخراجية^٢.

^١ المقرئى : إغاثة الأمة ٢٢-٢٣ ، وقارن النوى : نهاية الأرب ٢٨:٢٣٤ ؛ تماظ الحفا ٢ : ٢٦٢-٢٦٣ .

^٢ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطارقة الكنيسة ٣/٢ ، ٢٠٣-٢٠٤ .

كانت آثار هذه الأزمة أكثر وضوحاً في الأحياء الشمالية للقُشطاط (القشكر والقطائع) ، فقد خربت القطائع في أثناء الشدة العظمى حتى أمر الوزير ببناء حائط يستر الخراب عن نظير الخليفة إذا سار من القاهرة إلى القُشطاط فيما بين القشكر والقطائع وبين الطريق ، كما أمر ببناء حائط آخر عند جامع ابن طولون^١.

يقول المقرئ أيضاً : عندما دَخَلَ أمير الجيوش بَذَرَ الجمالى إلى مصر سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م كانت : هذه المواضع خاوية على عروشها خالية من سكانها ... وصارت القاهرة أيضاً ياباً دائرة ، فأباح للناس من العسكرية والملحمة والأزمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ما شاء في القاهرة مما خلا من دور القُشطاط بموت أهلها ، فأخذ الناس في هَدم المساكن ونحوها بمصر وعمروا بها في القاهرة^٢.

^١ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ١٣٤-١٣٥ ، المقرئ : الخطط ١ : ٣٠٥ ، ٢ : ١٠٠ .

^٢ المقرئ : الخطط ١ : ٥ .

الفصل الخامس بَدْرُ الجَمَالِ وبداية النظام العسكرى

بَدْرُ الجَمَالِ مُنْقَذُ الدَّوْلَةِ

لم يكن إنقاذ البلاد من هذه الأزمات المتتالية ممكناً دون الاستعانة بقوة عسكرية قادرة على فرض النظام واستتباب الأمن وحماية الخلافة نفسها، وإنهاء حالة الفوضى التى استشرت فيها، حتى فَقَدَ الخليفةُ كل سيطرة له عليها وتَقَلَّصَ نفوذُه وانحصر داخل القصر. بينما تقاسمت فِرَقُ الجُنُودِ أقاليم الدولة، فاستولى اللواتيون والملّحية على البحيرة والإسكندرية وملكو جميع أشفل الأرض، واستقرَّ الصَّعِيدُ فى أيدي المغاربة والسودان، بينما تَحَكَّم الأتراك فى القاهرة والقُشَطاط.

عَقَدَ الخليفةُ المستنصر أمله فى تحقيق ذلك على قائد أزمَنِى، كان يتولَّى عَنَّا فى ذلك الوقت، يُعرَفُ ببدر الجمال^١ فكاتبه سِرّاً عن طريق الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر ابن المغربى، وهو يومئذ متولَّى ديوان الإنشاء، يطلب إليه القدوم عليه لإصلاح حال

^١ مملوك أرمَنِى من أصل مسيحي فى أغلب الظن، كان مملوكاً لجمال الدولة بن عمار فعرف لذلك ببدر الجمال، وبدأ حياته العلمية والها على دمشق سنة ٤٥٥ هـ. ولمعلومات أكثر عن بدر الجمال راجع، ابن الصيرفى: الإشارة ٩٤-٩٧؛ ابن القلانسى: ذيل ١٢٧-١٢٨؛ ابن ظافر: أخبار ٨١؛ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٣٥-٢٣٦؛ ابن ميسر: أخبار ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٣٩-٥٤؛ ابن خلكان: وفيات ٢: ٤٤٨-٤٥٠؛ النويرى: نهاية ٢٨: ٢٣٤-٢٣٦؛ ابن أبيك: كنز الدرر ٩: ٤٣٩؛ الصفدى: الوافى ١٠: ٩٥؛ المقرئى: المقفى ٢: ٣٩٤-٤٠٢؛ الخطط ١: ٣٨١-٣٨٢؛ الاتماظ ٢: ٣١١، ٣٢٩؛ ابن حجر: رفع الإصر ١: ١٣٠-١٣٧؛ أباه الحسن: النجوم ٥: ١٢٠، ١٤١؛ السيوطى: حسن المحاضرة ٢: ٢٠٤. وراجع كذلك، السجلات المستنصرية سجل رقم ٢٠، ٣٤، ٥٦، ٥٧، المناوى: الوزارة فى العصر الفاطمى ٢٧٠-٢٧١، *El² art.* ٢٧١، Wiet, G., *CIA Egypte II*, pp. 132-158; Becker, C.H., *El² art.* ٢٧١-٢٧٠. Dadoyan, S.B., *The Fatimid Armanians*, pp. 106-127.

البلاد. وقد رَحَّبَ بدرٌ بهذه الدُّعْوَة، التي تُحَقِّقُ له طموحاته، وكتب إلى المستنصر يشترط عليه أن لا يأتي إلى مصر إلا ومعه رجاله، وأنه لن يبقى على أحد من عساكر مصر، فوافقه المستنصر على ذلك^١.

قدم بدر من عَكَّا في مائة مركب^٢ مشحونة بالأزمن ونزل بِنْتِيس-وقيل دِمِياط- وسار منها قاصداً قَلْيُوب، وبعث منها إلى المستنصر يقول له: «لا أدخل إلى القاهرة ما لم يُقْبَضَ على بُلْدَكُوش» قائد الأتراك، فأمسكه الخليفة وأرسل يستقبل بدرًا ليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ٤٦٦هـ/يناير ١٠٧٤م، وأكرم وفادته وأطلق يده في إصلاح حال البلاد^٣.

بدأ بدرٌ الجمالى إصلاحاته في مصر بتدبير مؤامرة شبيهة بمذبحة القلعة التي دبرها محمد على بعد ذلك بنحو سبعمائة عام ليتخلص من المماليك، قضى فيها بدر على رؤوس الفتنة في مصر^٤ وقَتَلَ رجال الدولة وأقام له جنداً وعسكرًا من الأزمن، يقول المقرئى: «فصار من حيثئذ معظم الجيش الأزمن وذهبت كُتامة وصاروا من جملة الرعية بعدما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها»^٥. حيثئذ قلَّده المستنصر الوزارة ومنحه لقب «السَّيِّد الأجل أمير الجيوش»^٦، وجاء في سِجْلِهِ «وقد قلَّذك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره وناط بك النظر في كل ما وراء سريره، فباشر ما قلَّذك أمير المؤمنين من ذلك مدبرًا للبلاد مُصْلِحًا للفساد مدبرًا أهل العناد»^٧. وَخَلَعَ عليه كذلك بالعقد المنظوم بالجواهر،

^١ المقرئى: المقتى ٢: ٣٩٥-٣٩٦، ابن حجر: رفع الإصر ١: ٢٠١.

^٢ كان ذلك في وقت الشتاء حيث لم تجر العادة بركوب البحر فيه، يقول المستنصر في أحد سجلاته أن ذلك كان «في زمان ينع البر جانبته، والبحر راكبه»، (سجل رقم ٥٦، ٥٧، ابن مسر: أخبار ٤٠، للمقرئى: المقتى ٢: ٣٩٦، المخطوط ١: ٣٨٢، اتعاظ ٢: ٣١١-٣١٢).

^٣ التويرى: نهاية ٢٨: ٢٧٥؛ المقرئى: المقتى ٢: ٣٩٦ المخطوط ١: ١٣١، ابن الصيرفى: الإشارة ٩٥.

^٤ ابن مسر: أخبار ٤٠، ابن خلكان: وفيات ٢: ٤٤٩.

^٥ المقرئى: المخطوط ٢: ١١٢، وانظر ساويرس بن القفح تاريخ بطاركة الكنيسة ٣/٢: ٢١٩، ٢٢٥.

^٦ السجلات المستنصرية، السجلات أرقام ٥٦، ٥٧، ٥٨.

^٧ المقرئى: المقتى ٢: ٣٩٧، المخطوط ١: ٤٤٠، ابن حجر: رفع الإصر ١: ١٣٢، انظر كذلك السجل رقم ٥٦، ٥٧.

وزاد له الحنك مع الذؤابة وجعل له أيضًا الطَّلَسَان المَقُورَه^١، ليصبح بذلك أول وزراء التفويض فى العصر الفاطمى .

عمل بدر الجمالى على إعادة النظام إلى القاهرة فاستبد بأمر الدولة فقد كانت «الأحوال» كما يقول المقرئى- قد فسدت ، والأمور قد تَغَيَّرَت ، وطوائف العسكر قد انتشرت ، والوزراء يقنعون بالاسم دون نفاذ الأمر والنهى ، والرخاء قد أيس منه ، والصَّلاح لا يُطْمَع فيه ، ولَوَاثة قد ملكت الوجه البحرى كله ، والعبيد فى الصعيد ، والطُّرقات قد انقطعت برًا وبحرًا إلا بالخفارة الثقيلة ، والحراب قد شمل مدينة مصر والعسكر^٢.

كان أهم ما يشغل بدرًا هو استتباب الأمن فى كل الأراضى المصرية ، فتوجّه أولاً إلى الوجه البحرى والإسكندرية حيث قاتل قبائل لَوَاثة والمَلَّجِيَّة واسترد ما كان من الأعمال بأيديهم ، ثم توجّه إلى الصعيد حيث قاتل قبائل الجُهَيْنِيَّين والقَيْسِيَّين وفلول السودان المستولية عليه . فأعاد للبلاد وحدتها وأمنها وللدولة قوتها^٣.

وسَجَّلَ الإمام المستنصر بالله ذلك وأشاد به فى السَّجَلِ المؤرَّخ فى ٢٨ محرم سنة ٤٦٧هـ/ ٢٤ سبتمبر سنة ١٠٧٤م والذى وَجَّهَهُ إلى الصُّلَاحِيَّين فى اليمن ، يقول :

« ولما وَصَلَ [أى بدر الجمالى] إلى الأعمال المصرية وجدها تَهَبًا بأيدي المتغلبين الذين منهم طائفة تسمى لَوَاثة تشتمل عدتهم على نحو خمسين ألف رجل ، فكان من أول أفعاله مكافحته لهم ، وترويته السيوف من دمائهم حتى صَرَخَ فى القاع منهم الألوْفُ وجعلُوا أطعمة للكلاب والنسور ، وغَرَّقَ ألوْفٌ آخرون فى البحر تأكله

^١ المقرئى : الملقى ٢ : ٣٩٧ وكذلك ابن الصيرفى : الإشارة ١٩٦ النورى : نهاية ٢٨ : ٢٣٥ .

^٢ نفسه ٢ : ٣٩٧ وكذلك ابن الصيرفى : الإشارة ٩٥ ، المقرئى : المخطوط ١ : ٥ ص ٧-١١ .

^٣ السجلات المستنصرية ، سجل ٥٦ و ٥٧ ابن الصيرفى : الإشارة ١٩٦ ساويرس بن المنقع : تاريخ البطارقة ٣/٢ : ٢٠٣-

١٢٠٤ ابن طاهر : أخبار ١٧٦ ابن ميسر : أخبار ١٤١ النورى : نهاية ٢٨ : ٢٣٦-٢٣٨ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٦٤ ،

المقرئى : المخطوط ١ : ٣٨٢ ، ٢ : ٣٣ ، الامتاز ٢ : ٣١٤ ، الملقى ٢ : ٣٩٦ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢١-٢٢ .

السكك، وطلّجت هذه الطائفة الحادة الشوكة الكثيرة العدة بمطاحن الرّدى، وملكت عليهم أرضهم وديارهم وأموالهم؛ ثم التفت إلى طائفة طائفة من البوادي فكل يلقي عليهم من ظل سياسته ما يُفَرِّق بين الكرى وبين جفونهم، حتى ألّبس الطُّرقات ملابس الأمانة للطراق والشفّار، وقضت على مراجع المفسدين والذُّعّار، وملكت الإسكندرية والبحيرة والصعيدان الأعلى والأدنى، ولقد كانت هذه الأعمال خارجة عن ملكة الدولة منقسمة بين المعتدين من الحاضرة والبادية فجمع الله تعالى على يده شملها، وأعاد إليها زيتتها وبهجتها...^١

وفى العام نفسه، ٤٦٧هـ/١٠٧٤م، أعاد بذر الجمالى خُطْبَةَ الفاطميين بمكة والمدينة بعد أن قُطِعَتْ خمس سنوات^٢، يقول الإمام المستنصر بالله فى سِجِلٍّ مؤرّخ فى ٢٧ شعبان سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م مُوجِّه إلى الصّليحيين فى اليمن واصفًا بذرًا الجمالى: «ثم كان من استفتاح عمله أن نظر فى أمر الحرمين المحروسين وإعادتهما إلى ملكة الدولة، بعد أن علت فروق منابرهما الأقدام الرجسة من الفئة الأموية والعبّاسية، فلو لم يكن له فى هذا الأمر القريب إلّا هذه المتّقبة لكان فيها كفاية»^٣، ولكن اعتبارًا من عام ٤٧٣هـ/١٠٨١م خَصَّصَتْ مكة مرة أخرى لنفوذ السّلاجقة وقُطِعَتْ خُطْبَةُ الفاطميين منها نهائيًا وأصبحت تقام فقط للخليفة العبّاسى.

كذلك أَطْلَقَ بدر الجمالى الخراج للمزارعين ثلاث سنين، حتى تَرَفَّقَتْ أحوالُ الفلاحين واستغنوا فى أيامه، كما يقول ابن مُيَسَّر^٤.

^١ السجلات المستنصرية سجل رقم ٥٦ ص ١٨٤ - ١٨٥.

^٢ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٦١، ٩٧-٩٨ ابن الجوزى: المنتظم ٨: ٢٩٤ ابن ميسر: أخبار ٤٢: ٢٨: ٢٣٦

الفاسى: العقد الثمين ١: ٤٤٢: ٢: ٣١٤ أبو الحسن: النجوم ٥: ٨٤ ابن فهد: انحاء الورى ٤٧٧

السيوطى: تاريخ الخلفاء ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٥، وانظر السجلات المستنصرية أرقام ٣، ٤، ٧، ١٢.

^٣ السجلات المستنصرية سجل رقم ٥٨ ص ١٩٢-١٩٣. والسجل رقم ٥٧ ص ١٨٧-١٨٨.

^٤ ابن ميسر: أخبار ٥٣: ٢٨: ٢٤٠: ٢٨٣: ٣٢٩.

وقد حاول السلاجقة، بناء على نصيحة بلذكوش-الذى كان قد نجح فى الفرار إلى الشام-أن يستولوا على أعمال الرّيف سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م-١٠٧٧م، متتهزين فرصة انشغال بدر بمحاربة فلول السودان فى الصّعيد. فوصل أئسريرا إلى مدينة صهرجنت بإقليم الشرقية، ولكن بدرا تمكن من جمع قوّاته ومنازلته، وقَتَلَ عددًا كبيرًا من جنوده وأرغمه على العودة إلى الشام^١.

انفراد بَدْر الجمالى بالسلطة وبداية النظام المسكرى

حَفِظَ الخليفة المستنصر بالله لبدر الجمالى فَضْلَهُ على الدّولة والخلافة، فلم يخل سِجِلٌ من السّجِلّات التى أرسلها المستنصر لدعائه فى اليمن والمكتوبة بعد سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م من التنويه والإشادة بفضله على الدولة. فنجده يصفه فيها بأنّه «الذى أعاد إلى الدولة العلوية ريق شبابها»^٢ و«الذى جَدَّدَ الله تعالى به وعلى يده معالم الدولة الفاطمية بعد دروسها، وأقام بسيفه أعلامها بعد طموسها»^٣ وبأنّه «الآية التى أطلع الله بها لأمر المؤمنين شمس الخلافة فشَرَّقَتْ، والموهبة التى وَهَبَهَا لدولته وللإسلام فظَهَرَتْ وأشْرَقَتْ، والسيف الذى انتضاه على جموع الباطل فزَهَقَتْ وتمَزَقَتْ ... حتى أصبحت المملكة بُلُطف الله وإيالاته محفوظة النظام»^٤، «وبماضى عَزَماته وغرار سيفه مَشِيدَة البناء قائمة العماد»^٥ فلا يجوز إنه لدى أمير المؤمنين بالحل الخطير الذى لم يحلله من تَقَدُّم، والمكان

^١ ابن الصيرفى: الإشارة ٩٦، ابن القلانسى: ذيل القلانسى: ذيل ١٠٩، ساويرس بن المقفع: تاريخ بطارقة ٣/٢: ٢١٨-٢١٩، ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٠٣-١٠٤، سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان ١٨٢-١٨٤، ابن ميسر: أخبار ٤٤٤، التويرى: نهاية ٢٨: ٢٣٧، الذهبى: العبر ٣: ٢٩٦، ابن خلدون: تاريخ ٤: ٦٥، المقرئى: المقفى

٢: ٢٢١، والانعاط ٢: ٣١٨-٣١٧.

^٢ سجل رقم ٣١.

^٣ سجل رقم ٣٢.

^٤ سجل رقم ١٥.

^٥ سجل رقم ١٦.

الجليل الذى يتظاهر دون عالى هم ذوى الهمم^١، و «أنه حال من أمير المؤمنين محل والده الظاهر لإعزاز دين الله»^٢.

ويتولّى بدر الجمالى وزارة التفويض وإمرة الجيوش بدأ عصر جديد في تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، عصر تحكم فيه الوزراء أرباب السيوف وصار وزير السيوف هو «سلطان مصر وصاحب الخلل والعقد وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتّاب وسائر الرعية، وهو الذى يؤلّى أرباب المناصب الديوانية والدينية»^٣، وفقدت فيه «الدعوة» في الوقت نفسه الكثير من قوتها وأصبح همّ الوزراء أصحاب السيوف هو الحفاظ على بقاء الدولة واستمرارها فيما اضطلع على تسميته بـ «عصر نفوذ الوزراء». وطوال الخمسين عامًا التالية (٤٦٧-٥١٥هـ/١٠٧٤-١١٢١م) كان بدر الجمالى وولده الأفضل هما اللذين يقودان مصير الدولة الفاطمية.

أدرك داعى الدعوة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازى-الذى يُعدّ آخر أهم الدعاة الفاطميين-حقيقة هذا الموقف وأشار في «سيرته الذاتية»-التي كتبها قبل وصول بدر الجمالى بأكثر من عشر سنوات-إلى مدى ضعف الخلافة، وكيف أصبح المستنصر ألعبوة في أيدي القواد، وتنبه كذلك إلى ما يمكن أن يصيب الدعوة والعقيدة الفاطمية في ظل سيادة الوزراء، فعمل على نقل تراث الدعوة من مصر إلى اليمن، قبل وفاته في سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، بواسطة رُسله ودعائه حيث يوجد مؤمنون حقيقيون بالدعوة الفاطمية^٤.

^١ سجل رقم ١٥.

^٢ السجلات رقم ٣٤، ٥٧، ٥٨، وانظر ما جاء على باي الفتوح والنصر بالقاهرة في مدح بدر الجمالى يحمل هذه الصفات (Wiet, G., *RCEA* VII, pp. 217-19 n. 2762).

^٣ المقرئ: المخطوط ١ : ٤٤٠.

^٤ المؤيد في الدين : سيرة ٨٠، ٨٤.

^٥ أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن ٤٦ تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن ١٣٧.

وقد صدّق حدّس الداعي المؤيد في الدين الشّيرازي ، فبعد وفاته قلّد الخليفة المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالي مهمة الإشراف على القضاء والدّعوى^١ بالإضافة إلى رتبتي الوزارة وإمارة الجيوش ، وزاد في ألقابه « كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين »^٢. يؤكّد ذلك أن الكتّابتين التاريخيتين اللتين تحملان اسم بدر الجمالي ويرجع تاريخهما إلى صفر وريبع الأول سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م^٣، والسّجلّات المدوّنة قبل ٣٠ ذي القعدة سنة ٤٧٠هـ/١٥ يونيو ١٠٧٨م^٤ تشير إلى هذه الألقاب .

وهذا ما تثبته كذلك دراسة الكتابات الأثرية الخاصة بيدر الجمالي و « السجلات المستنصرية » المرسلة إلى دعاة اليمن بعد هذا التاريخ . ففيما يخص الكتابات توجد مجموعة من النقوش مؤرخة في سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ، قبل وفاة داعي الدعاة المؤيد في الدين الشيرازي في شوال من هذه السنة ، يُنعت فيها بـ « السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام » ؛ ثم مجموعة أخرى ، يرجع أقدمها إلى سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، تضيف إلى الألقاب السابقة « كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين »^٦.

وقد أَوْضَحَ ابنُ مُيَسَّرٍ في نَصِّ صَرِيحٍ أَنَّ قَضَاءَ الْقَضَاةِ فُؤُضَ فِي شَعْبَانِ سَنَةِ ٤٧٠هـ/مارس ١٠٧٨م إِلَى أَمِيرِ الْجِيُوشِ^٧. كَمَا ذَكَرَ الْمُسْتَنْصِرُ-فِي سِجِلِّ مُؤَرِّخٍ فِي

احتياطاً من تولية بدر الجمالي صار الوزراء أرباب السيوف هم الذين يولون القضاة والدعاة بحيث كانوا نواباً عنهم وبذلكرون ذلك في كتب الألوكة . (ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٢ ، ٢٠١ ، ابن الصيرفي : الإشارة ٩٦) . ثم فصلت الوزارة عن القضاة مؤقتاً عندما تولى بهرام الأرمي الوزارة وهو نصراني سنة ٥٢٩ . (ابن مسير : أخبار ١٢٣ ، المقرئ : تماظ ٣ : ١٥٦ ، ٣٣٦ ، الخطيب ١ : ٤٤٥ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٨) .

ابن ميسر: أخبار ٤٥، ٥٠ وانظر كذلك، التويري: نهاية ٢٨: ٢٣٨، المقرئ الخطوط ١: ٣٨٢، ٤٤٠، المقرئ ٢: ٣٩٦،
اتماظ ٢: ٣١٣، ٤١٩ ابن حجر: رفع الاصر ١: ٢٠١.

.Wiet, G., *RCEA* VII, n. 2716

السجلات رقم ٣٢، ٤١، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٨.

. Wiet, G., *RCEA* VII, n. 2716

السجلات رقم ٢٤، ١٥، ١٦، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٤، ٤٨
Wiet, G., *RCEA* VII, n. 2716, 19, 28, 45, 52, 69, 76, 90, 91, 94, 95., ١٦٤، ١٦٣، ١٥٨، ١٥٧، ١٥٣، ١٥١
VIII, n. 2803, 05, 06, 07, 08, 10

٧
أبن ميسر : أخبار ٤٤٧ المقريزي : اتعاظ ٢ : ٣٢١ أبن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠١ .

شوال سنة ٤٧٢هـ / إبريل ١٠٨٠م - أنه أضاف إلى ألقاب بدر لقب «كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين» ليقلّده أمور الدنيا وأمور الدين^١.

هكذا حَفِظَ نظام بدر الجمالى وخلفائه المباشرين - الأفضّل والمأمون البطائحي - الدولة الفاطمية من السقوط، وأطال بقاءها نحو قرن، بفضل إشرافهم التام على نظام الدولة الإدارى والدينى والعسكرى. ومثلما أصبح الخلفاء العبّاسيون فى بَغْدَاد لا حَوْلَ لهم ولا قوة بيد قادتهم العسكرين المتسلّطين، أصبح الفاطميون كذلك، منذ هذا التاريخ، رؤساء رمزين لسلسلة متوالية من الطّغاة العسكرين.

الإصلاحات الإدارية لنظام بَدْر الجمالى

لعل أهم إنجازات بدر الجمالى فى فترة حكمه فى مصر، بالإضافة إلى بنائه سور القاهرة وإعادة تحصينه، وكذلك بقية منشآته الدينية والمدنية سواء فى القاهرة أو فى الإسكندرية أو فى الصّعيد^٢، هو الإصلاحات الإدارية العديدة التى أدخلها على نظام الحكم فى مصر. فقد عيّن عواصم الولايات التى تتحكّم فى مصر العليا والسفلى لتأمين الطرق المؤدية إلى عاصمة البلاد، إلى جانب إنشاء العديد من التحصينات المتقدّمة التى تصد ما يمكن أن تتعرض له البلاد من أخطار.

فتقسيم مصر إلى أربع ولايات رئيسية: قُوص والشّرقية والغربية والإسكندرية بالإضافة إلى القاهرة والقُشطاط يرجع إلى إعادة تنظيم الدولة الذى بدأه بدر نحو عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م^٣. وقد حَفِظَ هذا النّظام الجديد لحكام هذه الولايات سلطة متزايدة.

^١ السجلات المستعمرة، سجل رقم ٥٩.

^٢ راجع لتفصيل ذلك Fu'ād Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte jusqu'à l'époque fatimide* pp. 386-451

وفىما يلى ص ٦٢٤ - ٦٣٢.

^٣ القلقشندى : صبح ٣ : ٤٩٣ - ٤٩٤؛ المقرئى : اتماظ ٣ : ٣٣٦.

وكان والى قوص أقوى الولاة الأربعة ويحكم على جميع بلاد الصعيد ، وتلى رتبته رتبة الوزير فى الأهمية^١.

ويُفسّر ذلك إلى أى مدى كان اهتمام الفاطميين بطُرق التجارة الشرقية ، ورغبتهم فى نشر دعوتهم على طول الطرق التجارية المؤدية إلى اليمن وعمان والهند^٢ ، وحرصهم على تأمين ميناء عيذاب ، القاعدة البحرية التى أخذت فى النمو منذ أن اتّبع الفاطميون استراتيجية شرقية التى تولّى والى قوص أمر الإشراف على الأسطول المعد بها لحماية «مراكب الكارم» من غارات القراصنة^٣.

أما والى الشرقية فكان يلى والى قوص فى الرتبة ويحكم على عمل بلبيس وقلوب وأشمو^٤. وكان عليه مواجهة السلاجقة الذين استردوا من الفاطميين أغلب مدن الشام الداخلية اعتبارًا من عام ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م.

الأفضل بن بذر الجمالى بشارك والده السلطنة

وفى نهاية عصر المستنصر تفرّغ بذر الجمالى تمامًا للإشراف على الدّعوة ، الأمر الذى لم ينظر إليه بارتياح أتباع الدّعوة ، وخاصةً فى اليمن والهند^٥. وفى نصّ مجمل

^١ Garcin, J. Cl., *Un centre musulman de la Haute Egypte médiéval : Qûs*, Le Caire IFAO 1976, pp. 89-90.

^٢ لمزيد من التفصيلات انظر Lewis, B., «the Fatimid and the route to India», *RFSE-Univ. d'Istanbul* XI (1949-50), pp. 50-54; Hamdani, A., «The Fatimid-Abbasid, conflict in India», *IC XLI* (1967), pp. 185-191. وانظر فيما سبق ص ١٩٢-١٩٤.

^٣ انظر فيما يلى الفصل الثالث عشر.

^٤ الفلقشندى : ص ٣ : ٣٩٤.

^٥ عماد الدين إدرىس : حيون الأخبار (مخ . الهملانى) ٧ : ٧٥ ظ-٧٦ و؛ أمين فؤاد : تاريخ المذاهب الدينية ١٤٦-١٤٧ . وبعد نجاح هذه الحملة وتخليدًا لها أعاد بذر الجمالى بناء جامع المطارين من أموال أخذها من الإسكندرانيين وفرغ منه فى شهر ربيع الأول سنة ٤٧٩ . (ابن مسر : أخبار ٤٦-٤٧؛ حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ١ : ١٦٧ RCEA Wiet, G., *VIII n.2745* .

أورده ابن مَيْسَر نعرف أن بَدْر الجمالي ، بعد أن قاد حملة لتأديب ولده الأُوحد الذي خَرَجَ عليه في الإسكندرية سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م ، استتاب ولده الأَفْضَل وجعله وَلِيَّ عَهْدِه في جمادى الأولى من هذه السنة^١. ويؤكد ما جاء في هذا النَصِّ سِيَّجِلٌ مؤرَّخ في ٧ محرم سنة ٤٧٩هـ / ٢٥ إبريل سنة ١٠٨٦م بعث به الخليفة المستنصر إلى دعائه باليمن ، نعرف منه أن الخليفة نَقَلَ سُلْطَةَ بَدْر الجمالي إلى ولده الأَفْضَل شاهنشاه في احتفال ضخم وأَمَرَ بأن يُدْعَى له من فوق المنابر بعد الفراغ من الدعاء للخليفة. ولبدر الجمالي ، وجاء في آخر السَّجِلِّ « الأمر بإبطاله ذكر الملقب كان بالأُوحد من دعاء في خُطْبَةٍ أو تَذَى من الأندية وأن يُنحى رسمه ويُزال حكمه »^٢. ولا يترك هذا السَّجِلُّ أَى مجال للشك في أن الأَفْضَل قد حَلَّ مَحَلَّ أَخِيهِ الأُوحد في أعقاب الثورة الفاشلة التي قادها الأُوحد في الإسكندرية . وجاء كذلك في سِيَّجِلٍّ بَعَثَ به المستنصر إلى الأمير عبد المستنصر بن المكرم أحمد في اليمن ، أنه أُوكل إلى الأَفْضَل بن بدر الجمالي « سياسة الملك وما يختص بظاهر السلطان وأمور الجُند وما إلى ذلك ، على أن يَتَقَرَّغَ والده بدر الجمالي على درس علوم الأئمة ، والإشراف على الدَّعْوَةِ »^٣.

وعلى ذلك فليس من الغريب أن نجد اسم الأَفْضَل شاهنشاه بألقابه يظهر إلى جانب والده في كتابة تاريخية مؤرَّخة في سنة ٤٨٢هـ / ١٠٩٨م ، كانت موجودة في المَشْهَد النقيسي وقُفِدَت اليوم ، ولكن حَفِظَ لنا نَصُّها كُلُّ من المقرئى والشخاوى^٤. ونجد كذلك ألقاب الأَفْضَل في كتابة تاريخية أخرى باسم المستنصر ، لم يُحَفِظَ تاريخها ، موجودة على محراب في الجامع الطولونى^٥.

^١ ابن ميسر : أخبار ٤٤٧ ، المقرئى : اتعاض ٢ : ٣٢١ وانظر كذلك ساويرس : تاريخ البطارقة ٣/٢ : ٢١٧-٢١٨ .

^٢ السجلات المستنصرية ، سجل رقم ١٥ .

^٣ حماد الدين إدريس : حيون الأخبار-خ ٧ : ٧٥ ظ-٧٦ و .

^٤ المقرئى : الخطط ٢ : ٤٤٢ الشخاوى : تحفة الأحباب ١٣٥ وانظر كذلك على مبارك : الخطط التوفيقية ٥ : ١٣٣-١٣٤ .

Wiet, G., *RCEA* VII n° 2776

Wiet, G., *RCEA* VIII n° 2806

وقبل وفاته بعدة شهور أصيب بدر الجمالي بالفالج ولم يصبح قادراً على مباشرة مهامه، مما دَفَعَ المستنصر إلى إصدار سِجِلٍّ يأمر فيه بأن يُدعى للأفْضَل شاهنشاه مع الخليفة على منابر القاهرة ومصر ويقلّده «أمور المملكة والنظر فى سائر أمور الدولة وقضاياها وشرائعها وأحكامها»، وقرئ هذا السِجِلُّ فى الإيوان بالقصر فى العشر الآخر من شهر ربيع الأول سنة ٤٨٧هـ/يولية ١٠٩٤م^١.

ديكتاتورية الأفضل بن بدر الجمالي

عند وفاة بدر الجمالي فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م أكرمه الخليفة المستنصر، تحت ضغط الجيش، على اتخاذ الأفضل وزيراً له^٢. حقيقة أن الأفْضَل شارك والده بدر الجمالي فى أعباء الوزارة منذ عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م تقريباً، كما تفيدنا النقوش التاريخية والسجلات المستنصرية، إلا أنه نافسه على ذلك بعض كبار الأمراء، ومنهم أمين الدولة لاوون الذى خَلَعَ عليه المستنصر خِلَع الوزارة بالفعل، لولا ثورة العسكر التى أجبرت المستنصر على إحضار الأفْضَل وإقامته مكان أبيه^٣.

وتَلَقَّب الأفْضَل بنفس ألقاب أبيه فعرف به السَّيِّد الأَجَلُّ الأفْضَل أمير الجيوش، سيف الإسلام ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين^٤. ولم يلبث

^١ السجلات المستنصرية، سجل رقم ١٥، ٢٧ ساويرس بن للققع : تاريخ البطارقة ٣/٢ : ٢٤٣.

^٢ ابن مسر : أخبار ٥٤.

^٣ نفسه ٥٤، المقرئى : تماط ٢ : ٣٣١-٣٣٣.

^٤ السجلات المستنصرية سجل رقم ٣٥، ٤٣ Wiet, G., RCEA VIII, n° 2912, 2986 وراجع أخبار الأفْضَل عند ابن الصيرفى : الإشارة ٩٧-١٠٣ ابن القلانسي : ذيل ٢٠٣-٢٠٤ ابن المأمون : أخبار ٣-٢٠ ابن ظافر : أخبار ٨٨، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٥٨٩-٥٩٠، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ١١٠٤ ابن مسر : أخبار ٥٩-٨٧، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٨-٤٥٢، ابن سعيد : النجوم ٢١٦، النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٨٠-٢٨٧، ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٤٨٥-٤٨٧، الذهبى : العبر ٤ : ٣٤-٣٥، الصندى : الوافى ١٦ : ٩٢-٩٣ =

الخليفة المستنصر أن توفي بعد ذلك بشهور في ١٨ ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ/ ٢٩ ديسمبر سنة ١٠٩٤م عن عمر يناهز سبعة وستين عامًا وبعد حكم دام أكثر من ستين عامًا^١.

الانقسام الأول للدعوة الإسماعيلية

لم تمض عملية خلافة المستنصر في منصبه في هدوء بل قادت إلى انشقاق الدعوة الفاطمية وانقسامها على نفسها. وكان لهذه الحادثة وما تبعها آثارٌ جسيمة على الدعوة سواء في مصر أو خارجها. فالعقيدة الإسماعيلية تعتمد انتقال الإمامة في الأعقاب من الأب إلى الابن الأكبر، وتبعا لهذه القاعدة كان زرار، الابن الأكبر للمستنصر، هو صاحب الحق الشرعي في خلافة أبيه في منصب الإمامة، رغم أنه لم يُجر أى احتفال لتنصيبه وليا للعهد. ومع ذلك لم يعر الأفضل هذا التقليد أى اعتبار وأبعد زرار الذى كان له من العمر آنذاك خمسين عامًا (ولد عام ٤٣٧هـ)^٢، عن العرش، وأجلس عليه أخاه الأصغر أبا القاسم أحمد (ولد عام ٤٦٧هـ)^٣ وحكم باسم «المُستغلى بالله» وذلك لأن المُستغلى كان في نفس الوقت زوج أخته سيِّت المُلك ابنة بدر الجمالى^٤. وتبعًا لما ذكره

= ابن الفرات : التاريخ-خ ١ : ٥٠-٥٤؛ المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩٠، اتعاط ٣ : ٦٠-٦٢، أبى المحاسن : النجوم ٥ : ٢١٨، ٢٢٢؛ السيرطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢٠٤، المناوى : الوزارة فى العصر الفاطمى ٥٧-٦١؛ Wiet, G., *EI*² art. *al-Afdal b. Badr al-Djamâli*, I, pp. 221-222 : Dadoyan, S.B., *op.cit.*, pp. 127-139.

^١ ابن القلائسى : ذيل ١٢٨، ساويرس بن القفع : تاريخ البطارقة ٣/٢ : ٢٤٣-٢٤٤؛ ابن ظافر : أخبار ٧٧؛ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٣٧-٢٣٨؛ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٤٠، الذهبى : العبر ٣ : ٣١٨، المقرئى الخطط ١ : ٣٥٦، ٤٢٣، الاتعاط ٢ : ٣٣٢، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٣، انظر كذلك Gibb, H.A.R. et Kraus, p. 730-330 *EI*² art. *al-Mustansir bi llâh VII*, pp. 730-330.

^٢ ابن ميسر : أخبار ٦٢؛ المقرئى : اتعاط ٢ : ١٥.

^٣ ابن خلكان : وفيات ١ : ١٨٠؛ المقرئى : اتعاط ٣ : ١١ وانظر أمين فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية ١٥٤-

^٤ ابن ميسر : أخبار ٧٠، ٩٩؛ المقرئى : اتعاط ٣ : ٨٥.

ابن مُيَسَّر فإن المستنصر نَعَتَ ابنه أبا القاسم أحمد، وقت عَقْد نكاحه على ابنة بدر الجمالي، بـ «وَلَيْ عَهْدَ الْمُؤْمِنِينَ»^١.

وقاد الخلاف على صاحب الحق في خلافة المستنصر إلى نتائج بعيدة المدى في تاريخ الدَّعْوَة الإسماعيلية. وقد اعتبر برنارد لويس Bernard Lewis وصمويل شتيرن Samuel Stern إبعاد نزار وتولية المُشْتَغَلِي انقلابًا سياسيًا coup d'état واضح المعالم قام به الوزير الأفضَل شاهنشاه محافظةً على السلطان القوى الذي كان يَمْتَنِعُ به منفردًا منذ أواخر عهد المستنصر^٢، خاصةً وقد وَقَعَتْ بين الأفضَل ونزار خلافاتٌ في أيام المستنصر، خشي منها الأفضَل أن تَوَلَّى نزار أن يُعَيِّده عن الحكم^٣، وبذلك ظَلَّ الأفضَل طوال الخمسة والعشرين عامًا التالية هو المُدَبِّر الحقيقي لدولة الفاطميين.

وهكذا نجد أن الوزراء الفاطميين، أرباب السيوف، تلاعبوا بالعقيدة الإسماعيلية ولم يبالوا بها، فكانوا يُعَيِّنُون الإمام الذي يريدونه حتى ولو لم يكن له الحق - حسب العقيدة الإسماعيلية - في الإمامة.

وقد قرَّر نزار الذي رَفَضَ الاعتراف بإمامة أخيه الأصغر^٤، ومعه محمود بن مَصَال اللّكي^٥ إلى الإسكندرية، حيث ظَلَّ أنه قادر، بمعاونة والي المدينة ناصر الدولة أَفْتَكِين

^١ الهداية الآمرة في «مجموعة الوثائق الفاطمية» للشبال ٢١٥، ٢١٧، ابن ميسر، أخبار ٩٩، المقرئ: اتعاط ٣ : ٨٤. ويميز الفاطميون بين ولاية عهد المؤمنين وولاية عهد المسلمين، إذ أن ولاية عهد المؤمنين تتضمن ولاية عهد المسلمين، لأن كل مؤمن مسلم ولا ينكس. (الهداية الآمرة ٢١٥). وانفرد ساويرس بن القفح بالقول بأن المستنصر أوصى في مرضه الأخير أخيه والوزير الأفضَل بأن ولده الصغير أبا القاسم أحمد هو الإمام بعده.

^٢ Stern, S., «The Epistle of the Fatimid Caliph al-Amir (*al-Hidāya Al-Amiriyya*) its date and its purpose», *JRAS* (1950), p. 20; Lewis, B., *BSOS X*, (1940-42), p. 256; Gibb, H.A.R., *EI*² art. *al-Mustali* VII, pp. 726. مجموعة الوثائق الفاطمية ٤٨.

^٣ ابن ميسر: أخبار ٦٠، ابن خلكان: وفيات ١ : ٤٠٧؛ النوري: نهاية ٢٨ : ٢٤٤؛ المقرئ: الخطوط ١ : ٤٢٣، اتعاط ٣ : ١٢.

^٤ نفسه ١٥٩؛ النوري: نهاية ٢٦ : ١٧٢؛ ساويرس: تاريخ البطارقة ٣/٢ : ٢٤٤؛ المقرئ: اتعاط ٣ : ١١، الخطوط ١ : ٤٢٣.

^٥ كان نزار قد وعد ابن مصال إن هو أصبح الإمام أن يوليه الوزارة. (ابن ميسر: أخبار ٦٠).

التركي^١ - على استعادة السلطان الذي شُلب منه ، وبالفعل أعلن نفسه خليفة في الإسكندرية وتلقَّب بـ «المصطفى لدين الله»^٢. ويؤكد إعلان نزار لنفسه إمامًا وخليفة في الإسكندرية ظهور دينار جديد إلى النور عام ١٩٩٤ هو أوَّل نموذج معروف من هذا النوع ضُرب في الإسكندرية سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م في الوقت الذي ثار فيه نزار هناك يحمل الكتابة التالية :

(المصطفى لدين الله)

ودعا الإمام نزار)^٣

ولكن محاولة ثورة نزار لم تفلح بسبب تأييد الجيش للأفضل ، الذي نجح ، بعد أن أضحى في أول الأمر ، في القبض عليه وعلى أفتكين وقادهما إلى القاهرة وقتلها بها^٤. وبذلك اعترف بإمامة المشتغلي القسم الأكبر من إسماعيلية مصر والشام وكل الطائفة الإسماعيلية في اليمن وفي إقليم كُجرات غرب الهند ، واحتفظوا بعلاقتهم برئاسة الدَّعوة في القاهرة ، وهم الذين أسسوا فيما بعد فرقة جديدة من بين أتباع المشتغلي بعد مقتل ولده وخليفته الأمر بأحكام الله سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م^٥. وعرف أتباع المشتغلي بـ «المشتغلية». أما إسماعيلية فارس بقيادة

^١ الأمير ناصر الدولة أفتكين التركي ، أحمد غلمان أمير الجيوش بدر الجمالي ترقى في الخدمة إلى أن ولَّاه الأسكندرية .

(المقريزي : المقفى ٢ : ٢٢٨-٢٢٩ ، الخطط ١ : ٤٢٣) .

^٢ ابن مسير : أخبار ٦٦١ ساويرس : تاريخ البطارقة ٣/٢ : ٢٤٤-٢٤٥ النويري : نهاية ٢٨ : ٢٤٥ المقريزي :

اتعاظ ٣ : ١٣ ، الخطط ١ : ٤٢٣ ،

^٣ Daftary, F., «Hasan Sabbāh and the Origins of the Nizārī Ismā'īlī Movement», in *Medieval Ismā'īlī History and Thought*, p. 194 .

^٤ نفسه . وكذلك ابن ظافر : أخبار ٨٣-٨٤ المقريزي : المقفى ٢ : ٢٢٨ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٣٨٩ أبو

الحامس : النجوم ٥ : ١٤٤ .

^٥ انظر فيما يلي ص ٢٤٩-٢٥١ .

الحسن بن صباح^١ فقد اعترفوا بإمامة زيار وعرفوا لذلك بـ «الزارية».

الإسماعيلية الجديدة

تذكر المصادر المصرية أن الحسن بن صباح وَصَلَ إلى مصر في سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وأنه نَجَحَ في لقاء الإمام المستنصر بالله، وسأله عن مَنْ يكون الإمام بعده، وأن الإمام أجابه بأنه ابنه زيار^٢. أما المصادر الزارية فتنتفى هذا اللقاء، وتبعا لنص ورد في «سيرة سيدنا» - وهو نص فارسي يغطي أغلب أحداث فترة حكم الحسن بن صباح في الموت - فقد رَحَلَ ابن صباح من أَصْفَهان إلى القاهرة سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦-١٠٧٧م عندما كان داعي الدُّعاة بها هو المؤيد في الدين الشيرازي، وَصَلَ إلى القاهرة في صفر سنة ٤٧١هـ/ أغسطس سنة ١٠٧٨م. وأمضى الحسن بن صباح قرابة الثلاث سنوات في مصر، أولا في القاهرة ثم في الإسكندرية، قاعدة المعارضة للوزير القوي بذر الجمالي الذي خَلَفَ المؤيد في الدين في رُتَبَةِ داعي الدُّعاة.

ولا نعرف الكثير عن نشاطات الحسن بن صباح في مصر، وأيا كان الأمر فإنه دَخَلَ في صراع مع الوزير القوي بذر الجمالي بسبب تأييده لزيار وريث المستنصر المُسَمَّى، مما جَعَلَ بدر الجمالي يجد فيه خطرا على كيانه فحال بينه وبين لقاء الإمام^٣.

ولاشك أن إقامة الحسن بن صباح في مصر، رغم عدم لقاءه الإمام، قد أتاح له التعرف على أحوال الدولة الفاطمية وما آلت إليه الدعوة الإسماعيلية في ظِلِّ نفوذ

^١ عن الحسن بن صباح راجع، ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٣٧، ابن ميسر: أخبار ٤٧-٤٩: ٤٦٢ القلقشندي: صبح ١٣: ٢٣٧، المقرئ: المقفى ٣: ٣٢٧-٣٣٤، اتعاظ الحنفا ٢: ٣٣٣-٣٣٤، Hodgson, M.G. S., *El art. Hasan-i Sabbah* III, pp. 260-261 وانظر الهامش رقم ٦٣ ص ٢٢٢.

^٢ ابن ميسر: أخبار مصر ٤٧، المقرئ: اتعاظ ٢: ٣٣٣، المقفى ٣: ٣٢٨.

^٣ عطاء الملك الجويني: تاريخ جهانكشاي (في كتاب محمد السعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران)

وسيطرة أمير الجيوش بدر الجمالي . وقد تكفل ابن صبيح بإقامة الدعوة للمستنصر في خراسان وبلاد العجم ، وحرص على تكوين مجتمع إسماعيلي صيرف يخضع كل رجاله لرئيسهم الروحي ويعملون جميعاً على نشر المذهب الإسماعيلي ، الذي عرف بعد وفاة المستنصر بـ «الإسماعيلية الجديدة»^١.

المنشأ

أخست السيدة والدة المستعلي بعدم شرعية الطريقة التي اعتلى بها ولدها كرسي الإمامة ، فأرسلت إلى لحفء الدعوة في اليمن وعلى رأسهم السيدة الحرة الصليحية سيجلاً تبرز فيه وصول ولدها إلى منصب الإمامة ، وبأن والده قد نصّ عليه حين نقلته^٢ ، وكذلك فعل المستعلي الشيء نفسه فأرسل سيجلاً ماثلاً إلى السيدة الحرة^٣.

ويبدو أن الأمر ظل محل مناقشات بين أتباع الدعوة مما دعا ولده وخليفته الأمر بأحكام الله أن يعقد مجلساً في القصر عام ٥١٨هـ / ١١٢٤م شهدت فيه أخت نزار «بأن أخاها لم تكن له إمامة وأنها بريئة من إمامته جاحدة لها لاعتة لمن يعتقد»^٤ وأن

^١ عن الفرقة الإسماعيلية الجديدة أو النزارية تاريخها وعقائدها راجع المصادر المذكورة في الهامش رقم ٦١ وأضف إليها ، طه أحمد شرف : دولة النزارية أجداد أغاخان كما أسسها الحسن بن صبيح (القاهرة ١٩٥٠) ؛ السيد محمد المزاي : فرقة النزارية-تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية (القاهرة ١٩٧٠) ؛ محمد السعيد جمال الدين : دولة الإسماعيلية في إيران (القاهرة ١٩٧٥) ؛ Hodgson, M.G.S., *The Order of Assassins, the Struggle of the Early Nizari Isma'ilis against the Islamic World*, La Haye 1955-New York 1980; id., «The Isma'ili State» in the *Cambridge History of Iran*, III, pp. 275-76; Lewis, B., *The Assassins a Radical Sect in Islam*, London 1949; نقله إلى العربية سهيل زكار بعنوان «الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية)» ، بيروت-دار الفكر ١٩٧١ ؛ ومحمد العرب موسى بعنوان «الحشاشون-فرقة ثورية في تاريخ الإسلام» ، القاهرة-مكتبة مدبولي ١٩٨٦ ؛ Daftary, F., *The Isma'ilis their History and Doctrines*, Cambridge 1990; pp. 324-424. ص ٢٢٢.

^٢ السجلات المستنصرية ، سجل رقم ١٣٥ عماد الدين إدريس : عيون الأخبار (مع . همدان) ٧ : ٧٩ ط-٨٣ ط .

^٣ نفسه ، سجل رقم ٤٣ .

^٤ الهداية الأمرية ٢١٧ ؛ ابن ميسر : أخبار ١٠٠ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٨٦ .

أبأها المستنصر نَصَّ على أخيها المستعلى بالإمامة^١. فلما أتمت شهادتها أمر الوزير المأمون ابن البطائحي بكتابة سِجْلٍ يُقرأ على منابر مصر بهذا المعنى، أنشأه ابن الصَّيرفي كاتب الإنشاء^٢، وهو السِّجْلُ المعروف بـ «الهداية الآمرية في إبطال الدعوة النزارية»^٣ الذي جاء فيه أنه لا سبيل إلى إثبات الإمامة إلا بالنص والاختيار حتى ولو تمَّ في وقت نُقِلَ الإمام^٤.

العباسيون يعاودون مهاجمة الفاطميين

وفي الوقت الذي انشقت فيه الدعوة الإسماعيلية وانقسمت على نفسها، وقَعَدَتْ جناحها الشرقي في فارس، وانشغل فيه أئمتها بتبرير شرعية خلافتهم للإمام المستنصر، كان العباسيون يستعيدون قوتهم بفضل دَعْم الأتراك السلاجقة وتأييدهم لهم، فأخذوا يهاجمون الفاطميين من جديد في بلاد الشام وعن طريق التشكيك في نَسَبِهِمْ، فكَتِبَ «مَخْضَرٌ» جديدٌ في بغداد سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م لم يكتفوا فيه هذه المرة بالقَدْح في نَسَبِهِمْ، بل أخرجوهم كُلِّيَّة من المِلَّة الإسلامية^٥.

^١ ابن ميسر: أخبار ٩٩-١٠٠، المقرئى: اتعاط ٣: ٨٤، ٨٦-٨٧.

^٢ نفسه ١٠١.

^٣ نشر هذا السجل أميف على أصغر نبطى سنة ١٩٣٨ Fyze, A.A.A., «*al-Hidāyat al-Āmiriyya*, an Epistle of the Tenth Fatimid Caliph al-Amir bi Ahkamillah» in Islamic Research Association Series n. 7, Oxford 1938; Lewis, B., *BSOS* X (1940-42), p. 256; Stern, S., «The Epistle of the Fatimid Caliph al-Amir (*al-Hidāya al-Āmiriyya*) its date and purpose», *JRAS* (1950), pp. 20-31.

٣١. ثم أعاد نشرها جمال الدين الشيال في مجموعة الوثائق الفاطمية ٢٠٥-٢٣٠.

^٤ نص السجل: «ثم إن الإمامة سُيِّرت إليه بنص صحيح ثابت من إمام حق لا خلاف بين أهل الدعوة في إمامته،

ذلك النص واقع منه في دقيقة نقله بمحضر من خاصته وأولاده وجميع جلته». (الهداية ٢٢٨).

^٥ ابن ميسر: أخبار ١٦٣، المقرئى: اتعاط ٣: ١٧.

بداية الغزو الصليبي

أدّى تَقَدُّم السَّلاجِقَة في بلاد الشام إلى قَطْع دعوة الفاطميين من أغلب مدنه^١، في نفس الوقت الذي بدأت فيه مقدمات الحروب الصليبية باستيلاء الفِرَنْج على بيت المقدس وبقية مدن الشام الساحلية سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م^٢. ولم يُدرك الوزير الأَفْضَل، وهو صاحب الأمر في مصر، الأخطار المحدقة بمصر والأراضي الإسلامية، ولا حقيقة أهداف الغزو الصليبي^٣، حتى أنه ظنَّ أن باستطاعته التحالف مع الفِرَنْج ضد السَّلاجِقَة، كما سبق وظنَّ الوزير اليازوري أن بإمكانه التحالف مع البيزنطيين ضد القَبَّاسيين والسَّلاجِقَة معًا.

الآمر بأحكام الله يتولَّى الخلافة

عندما توفي الخليفة المستعلي سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م أقام الوزير الأَفْضَل ابنه أبا على المنصور موضعه في الخلافة ولَقَّبه بـ «الآمر بأحكام الله» وهو لم يتجاوز الخمس سنوات، فحجَّرَ عليه واستقلَّ بتدبير أمور الدولة كما كان في خلافة المستعلي^٤.

وقد أظهر ابن مُيَسَّر فهمًا دقيقًا لخلافة الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ / ١١٠١-١١٣٠م) عندما قَسَّمَهَا إلى فترات ثلاث: فترة حجَّرَ عليه فيها الوزير الأَفْضَل (٤٩٥-

^١ ابن ميسر: أخبار ٦٩، النويري: نهاية ٢٨: ٢٤٧-٢٧٣، المقرئ: الخطط ١: ٣٥٦-٣٥٧، اتعاض ٣: ٢٧.

أبو المحاسن: النجوم ٥: ١٤٥، ١٥٣.

^٢ نفسه: ابن خلكان: وفيات ١: ١٧٩.

^٣ ابن ظافر: أخبار ٨٢، أبو المحاسن: النجوم ٥: ١٧٨-١٧٩، السيوطي: تاريخ: تاريخ الخلفاء ٤٢٧؛ وراجع مقال سعيد عبد الفتاح عاشور: «شخصية الدولة الفاطمية في الحروب الصليبية»، المجلة التاريخية المصرية ١٦ (١٩٦٩) ١٥-٦٦، وانظر فيما يلي الفصل الثامن عشر.

^٤ ابن ميسر: أخبار ٧٠، ابن ظافر: أخبار ٨٧، ابن خلدون: تاريخ ٤: ٦٨، ابن خلكان: وفيات ٢: ٤٤٨؛

الصفدي: الوافي ١٦: ٩٢، أبو المحاسن: النجوم ٥: ١٧، *al-Āmir bi Ahkām Allāh*، Stern, S., *El' art*, I, p. 1372، وانظر نص سجل توليه الأمر عند ابن ميسر: أخبار ٧٠-٧٤.

٥١٥هـ)، وفترة شاركه فيها الوزير المأمون ابن البطائحي (٥١٥-٥١٩هـ)، ثم الفترة التي استبدَّ فيها الأمر بالأمر ولم يستوزر فيها أحدًا وحتى وفاته في سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م^١.

الأَفْضَلُ ينقل مقر الحكم إلى الفُسطاط

ففي العشرين عامًا التي أعقبت وفاة المستعلى كانت السُلْطَةُ الفعلية في مصر في يد الوزير القوي الأَفْضَلُ بن بدر الجمالي، فهو الوزير وقائد الجيش والمشرف على شؤون القضاء والدَّعْوَةُ، والخليفة طفل لا حول له ولا قوة معه.

في هذه المرحلة أقدم الأَفْضَلُ على خطوة جريئة ليس لها سابقة في تاريخ الدولة الفاطمية. فلأول مرة يُنْقَلُ مقر الحكم، مؤقتًا، من القاهرة، إذ بنى الأَفْضَلُ لنفسه دارًا على النيل جنوب الفُسطاط. سمّاها «دار المُلك» انتقل إليها من دار الوزارة بالقاهرة في سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٨م^٢ ونَقَلَ دواوين الدولة من القصر الفاطمي إلى موضع أعدّه لها قبالة دار المُلك وجعل ديوانى الإنشاء والمكاتبات بجوار القاعة الكبير بدار الملك، التي اتخذها مجلسه وسمّاها «مَجْلِسُ العطايا»^٣. فجرد الخليفة نهائيًا من كل سلطاته، وحتى الأعمال الشرفية التي كان يضطلع بها الخليفة سَلَبَها منه. فأنشأ بالفُسطاط دارًا لعمل الفِطْرَةِ التي تُوزَّع في عيد الفِطْرِ، ظَلَّتْ الفِطْرَةُ تُعْمَلُ بها مدة^٤، ونَقَلَ عمل الأَسْمِطَةِ التي كانت تُنمَّد في الأعياد والمواسم من القصر الخلافي إلى دار المُلك وخُزِمَ على الإمام الركوب في المواسم والأعياد، وصار يتصرف في الدولة كالمُلك والسلطين.

^١ ابن ميسر: أخبار ١١١١ المقيزي: اتعاط ٣: ١٢٩، ١٣٢.

^٢ نفسه ٧٦-٧٧ نفسه ٣: ٣٧، ٤٤٠ التويرى: نهاية ٢٨: ٢٧٤-٢٧٥ المقيزي: الخطط ١: ٤٨٣-٤٨٤،

^٣ ٢: ٢٩١ أبو المحاسن: النجوم ٤: ٩٢.

^٤ ابن المأمون: أخبار ١٠١١ المقيزي: الخطط ١: ٣٩٧، ٤٢٦، ٤٨٣، ٢: ٢٩١.

^٥ المقيزي: الخطط ١: ٤٢٦.

^٥ ابن المأمون: أخبار ١١٥ المقيزي: الخطط ٤٣١، ٢: ٢٩١، الاتعاط ٣: ١٣٢.

وفي عام ٥٠١هـ / ١١٠٨م قَرَّبَ الْأَفْضَلُ أَحَدَ الْأَسْتَازِينَ يعرف بِمُحَمَّدِ بْنِ فَاتِكِ الْبَطْلَانِيَّ وَسَلَّمْ إِلَيْهِ جَمِيعَ أُمُورِهِ واعتمد عليه في تصريف أحواله وَنَعَتَهُ بِـ «القائد» ، وصار منه مكان الوزير من الخليفة^١ وذلك بعد أن استبعد كاتبه المعروف بتاج المعالي مختار في هذه السنة^٢.

وكرر في عهد الْأَفْضَلِ استخدام الموظفين النَّصَارَى ، فعندما جدد في عام ٥٠١هـ / ١١٠٨م «ديوان التحقيق» استخدم فيه الشيخ أبا البركات يُوحَنَّا بن أبي اللَّيْث النَّصْرَانِيَّ وبقي فيه حتى قتل سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م^٣. كما كان الشيخ أبو الفضل المعروف بابن الْأَشْكَفِ «كاتب الْأَفْضَلِ والموقع عنه في الأموال والرجال ومتولَّى ديوان المجلس والنظر في جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة»^٤. كذلك فقد كان متولَّى الديوان بِأَسْفَلِ الْأَرْضِ نَصْرَانِيَّ يعرف بِأَبِي الْيَمْنِ وزير بن عبد المسيح^٥. وأحاط الْأَفْضَلُ نفسه كذلك بجنود من الْأَزْمَنِ ، وشجّع على هجرتهم ، التي بدأت منذ مقدم والده في أيام المستنصر ، لهذا الغرض^٦.

أثارت تصرفات الْأَفْضَلِ التي احتاط فيها على الخليفة وعدم معارضته أهل السُّنَّةِ في اعتقادهم ، وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها ، أثارت كل هذه التصرفات مشاعر الإسماعيلية النزارية^٧. وقد كثر الخوف والاحتياط منهم في هذه الفترة حتى إن الْأَفْضَلِ أمر بسد باب مُرَاد - أحد أبواب القصر الغربي - الذي يَتَوَصَّلُ منه إلى البستان الكافوري ومنظرة اللؤلؤة وَوَضَعَ عليه الحُرَّاسَ لحفظه ولم يكن يُفْتَحُ إِلَّا في يوم كُثِر

^١ ابن المأمون : أخبار ١١٧ المقيزي : اتعاظ ٣ : ٦٨ ، الخطط ١ : ٤٢٦ ، المقفى ٦ : ٤٧٩ .

^٢ المقيزي : خطط ١ : ٤٦٢ ، الامعاظ ٣ : ٣٨ ، المقفى ٦ : ٤٧٩ .

^٣ ابن ميسر : أخبار ٧٧ ، ١٠٨ المقيزي : اتعاظ ٣ : ٣٩ ، ٤٣ ، ٧٥ ، ١٢٦ ، ١٤٨ .

^٤ ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ١٣ المقيزي : اتعاظ ٣ : ٣٩ .

^٥ نفسه ٣/٢ : ٢٤٨ أبو صالح : تاريخ ٨٥ : ابن ميسر : أخبار ١٠٩ المقيزي : اتعاظ ٣ : ١٢٧ .

^٦ Canard, M., «Un vizir chrétien à l'époque fatimite : L'Arménien Bahram», *AIEO* XII (1954),

الخليج فقط^١. كما أبطل كذلك في عام ٥١٣هـ/١١١٩م «دار العلم» خوفاً من اجتماع الناس بها ومعارضتهم مذهب الدولة^٢.

مَقْتَلُ الْأَفْضَلِ

لم تمنع الاحتياطات التي اتخذها الأفضل الإسماعيلية التُّزارية من التسلُّ إلى مصر، فترُبِّصت له مجموعةٌ منهم أثناء عودته من القاهرة إلى دار الملك بالقُشطاط وقتلوه عند رأس الجسر ليلة عبد الفطر سنة ٥١٥هـ/يناير ١١٢٢م^٣. ومع ذلك فإن أصابع الاتهام تشير إلى أن الخليفة الأمر دَبَّرَ قتل وزيره الأفضل بالاتفاق مع القائد محمد بن فاتك البطائحي «لتضييقه عليه ومنعه مما تميل نفسه إليه ومنافرتة إياه في بعض الأوقات». ويضيف ابن القلانسي، الذي أورد هذا الخبر، أن الأمر سُـرِّ بمقتل الأفضل سروراً غير مستور عن كافة الخاص بمصر والقاهرة^٤.

ولا شك أن الأفضل يتحمَّل وحده وِزْر سقوط مدن الشام الساحلية التي كانت للفاطميين في أيدي الفِرْنَج، فقد اتصف موقفه تجاه ما كان يحدث باللامبالاة المتناهية وأدَّى هذا التهاون إلى استيلاء الفِرْنَج على عَمَّا سنة ٤٩٧هـ/١١١٧م وطَرَابُلُس وجبيل وعِزَّة وبانياس سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨-١١٠٩م، وبيروت سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩-١١١٠م، وصَيْدَا سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م، وتَيْشِين سنة ٥١١هـ/١١١٧م، وأخيراً صُور

^١ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٥٩٠.

^٢ المقرئى: الخطط ١: ٤٦٨.

^٣ ابن المأمون: أخبار ٤٦: المقرئى: الخطط ١: ٤٦٠.

^٤ عن مقتل الأفضل راجع، ابن المأمون: أخبار ١٥-٢٠، ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة ١/٣: ٢٢-٢٣.

عماد الدين الأصفهاني: البستان الجامع ١١٨: ابن الأثير: الكامل ١٠: ٥٨٩ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨:

١٠٤-١٠٥: ابن مسير: أخبار ٧٩-٨٧: النويري: نهاية ٢٨: ٢٧٩-٢٨٠: ابن أبيك: كنز الدرر ٦: ٤٨٥-

٤٨٧: ابن الفرات: تاريخ ٣: ٥٠-٥٤: ابن خلدون: تاريخ، ٦٩-٢٧٠: المقرئى: اتماط ٣: ٦٠-٦٩

وانظر كذلك: Wiet, G., *El² art. al-Afdal b. Badr al-Djamali* I, pp. 221-222.

^٥ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٠٤.

سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م^١، بل بَلَغَ الأمر إلى أن وَصَلَ بُلْدوين ملك بيت المقدس على رأس حملة على الأراضي المصرية حتى القَرَمَا واضطر الأَفْضَل إلى مهادنته لعجزه عن مواجهة قواته^٢، كما هَدَّدَتْ مراكب الروم والبنادقة ثَغْر الإسكندرية سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٥م^٣.

وعَقْد مقارنة بين منشآت الأَفْضَل ومنشآت أبيه في القاهرة توضح لنا مدى التباين بينهما. فبينما حرص بدر الجمالي على تحصين القاهرة بإعادة بناء أسوارها وأبوابها على سبيل المثال، انحصرت منشآت الأَفْضَل فيما يكفل له وسائل الإمتاع والتسلية، حيث استكثر من إنشاء « المناظر » سواء في القُشَطاط أو في ضواحي القاهرة^٤.

تَرْكَةُ الأَفْضَل

يدل حجم التركة التي خَلَفَهَا الأَفْضَل، والتي أمضى الخليفة الأمر في حصرها ونقلها « مدة شهرين وأيامًا »، على مدى الثراء الذي كان يتمتع به هذا الوزير القوي الذي كان في واقع الأمر هو الحاكم الحقيقي للبلاد. وقد وَصَفَ لنا كل من ابن مُيَسَّر والأُبَشِيهِي وابن خَلُكَّان تفصيل ما وَجَدَ في دار الأَفْضَل من ذخائر وتُحَف وأمتعة. فيروى ابن مُيَسَّر عن متولَّى الخزانة بالقصر، أنه وَجَدَ بها « ستة آلاف وأربعمائة ألف دينار، وورق قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، وسبعمائة طبق فِضَّة وذهب وما لا يحصى كثرة من الأسطال والصُّحاف والمشارب والأباريق والقُدور والزُّبَادِي، والقِطْع من الذهب والفضة المختلفة الأحباس، وكذلك شيء كثير من براني الصيني الكبار المملوءة بالجواهر التي بعضها منظوم كالسَّبَّح وبعضها منشور.

^١ ابن ظافر : أخبار ١٨٦ : ابن ميسر : أخبار ١١١ : المقرئ : اتماظ ٣ : ١٢٩-١٣٠، الخطوط ٢ : ٢٩١ : أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٠ .

^٢ التويري : نهاية ٢٨ : ٢٨١-٢٨٤ : المقرئ : اتماظ ٣ : ٥٤، ٥٦ : أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧١ .

^٣ ابن ميسر : أخبار ٩٣ : ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦١٦، المقرئ : اتماظ ٣ : ٩٨ .

^٤ Fu'ād Sayyid, A., *op.cit.*, pp. 469-482 .

ووجد له من أصناف الدِّياج وما يجري مجراه من قتاي وغيره تسعون ألف ثوب ، وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها ديقى وشرب غُمل يتيسر ودمياط على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه . وخزانة للطيب مملوءة بالأشفاط من العود وغيره مكتوب عليها أوزانها وأجناسها ، بالإضافة إلى برانى المِشك وبرانى الكافور ، ومالا يحصى من العنبر .

ووجد له من المقاطع والستور والفُرُش والمطارج والبخاخ والمساند الدِّياج والديقى الحرير والمذهب على اختلاف أجناسها أربع حُجر كل حجرة مملوءة من هذا الجنس ، وكذلك خزانة بها عدة صناديق تحوى أحقاق ذهب عراقى برسم الاستعمال .

وكان له مجلسٌ يجلس فيه للشرب فيه صور ثمان جوارى متقابلات أربعٍ منهن بيض من كافور ، وأربعٌ من عنبر قيام فى المجلس عليهن أفخر الثياب ، وأثنى الحلوى وبأيدهن أحسن الجواهر ، فإذا دخل من باب المجلس ووطئ العتبة نُكُشن رءوسهن خِذمة له ، فإذا جلس فى صدر المجلس استوين قائمات^١ ؛ بالإضافة إلى خزانة كتب كانت تشتمل على نحو خمسمائة ألف مجلد^٢ .

وتدلنا هذه الذخائر على أن خزائن القصور الفاطمية عاد إليها قسط وافر من عمارها الذى كان قبل الشدة العظمى وما أخرج من القصر من ذخائر بين سنتى ٤٥٩هـ / ١٠٦٧م و ٤٦١هـ / ١٠٦٩م وهى الذخائر التى أتى على ذكرها صاحب كتاب «الذخائر والتحف»^٣ .

^١ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨-٩ ؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطارقة الكنيسة ١/٣ : ٢٣-٢٤ ؛ ابن ميسر : أخبار ٩٩٣ النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٨٣ ، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦١٦ ؛ المقرئى : اتعاظ ٣ : ٩٨ ، وقارن ، ابن ظافر : أخبار الدولة المنقطعة ٩٩١ ؛ ابن خلكان : وفیات ٢ : ٤٥١ ؛ الأبهى : المستطرف ، بيروت-دار مكتبة الحياة ١٩٨٧ ، ٢ : ٣٤-٣٥ .

^٢ ابن ميسر : أخبار مصر ٨٠ وفيما يلى ص ٦٠٣-٦٠٥ .

^٣ انظر ما سبق فيما يلى الفصل الخامس عشر .

الفصل السادس نهاية الاستقراء

وزارة المأمون البطائحي

كان قَتْلُ الوزير الأَفْضَلُ مصدر ارتياح للخليفة الأمر، وكان من الطبيعي أن يخلف ابن فاتك الوزير الأَفْضَلُ في منصبه. وقد امتنع ابن فاتك عن قبول هذه الرُّؤْيَةِ في أول الأمر حيث غيَّبَ واسِطَةً^١، ثم تولَّى الوزارة كاملة في ثاني ذى الحجة ٥١٥هـ / ١٢ فبراير سنة ١١١٢م^٢. وقد حَفِظَ الخليفة الأمر للقائد أبي عبد الله محمد بن فاتك حرصه على استدعائه له في أعقاب مقتل الأَفْضَلُ، لتَسَلُّمِ تركته الضخمة التي استمر نقلها من دور الأَفْضَلُ إلى القصر نحو أربعين يومًا. وكان ذلك سبب تلقيب القائد أبي عبد الله بـ «المأمون»، فبعد أن شكره الأمر على صنيعه قال له: «والله إنك المأمون حقًا ما لك في هذا النعت شريك»، فلما قلَّده الوزارة نعته بـ «الأَجَلَّ المأمون» فعرف به^٣. وفي سجل توليته الوزارة جاء نعته «الأَجَلَّ، المأمون، تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع، دُخْرُ أمير المؤمنين» ثم تَجَدَّدَ له بعد ذلك في النعوت «الأَجَلَّ، المأمون، تاج الخلافة، عِزُّ الإسلام، فخر الأنام، نظام الدِّين والدُّعاة»، ثم نُعِتَ بما كان يُنْعَتُ به الأَفْضَلُ وهو «السَّيِّد، الأَجَلَّ، المأمون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام كافِلُ قضاة المسلمين وهادى دُعاة المؤمنين»^٤.

^١ ابن الطوير: نزهة المقتلين ٤١٠ ابن الفرات: تاريخ-خ ١: ١٦٦ ط، ابن الظاهر: أخبار ٨٨.

^٢ ابن ميسر: أخبار ٨٧؛ المقرئ: اتماظ ٢: ٧٦، الخطط ١: ٤٤٢، المقفى ٦: ٤٨٠، ٦: ٥٠٠، اتماظ ٣:

٦٤-٦٥ ابن القلانسي: ذيل ٢٠٤.

^٣ ابن الطوير: نزهة ١٠؛ المقرئ: المقفى ٦: ٤٩٩، اتماظ ٣: ٦٤-٦٥.

^٤ ابن ميسر: أخبار ٨٨؛ ابن أبيك: كنز الدرر ٦: ٤٨٨؛ المقرئ: الخطط ١: ٤٤٢، ٤٦٣، اتماظ ٣: ٧٦، =

وقد قرئ سِجِلُ تولية المأمون على « باب (فَزْدكم) مجلس اللُغَةِ ، وطُوق بطوق ذهب مُرْصِع وقُلْد بسيف ذهب مُرْصِع ، وسَلَّم على الخليفة وخرج ؛ وهو ، كما يقول ابن المأمون : أَوَّل سِجِلٌ يُقْرَأ هناك ، فقد كانت سِجِلَاتُ الوزراء قبل ذلك تقرأ بالإيوان^١ ، وأمر الخليفة كذلك بكتابة سجل آخر بنقل نسبة الأمراء والأستاذين المحنَّكين من الآمرى إلى المأمونى تمييزاً له ، فلم يكن أحدٌ منهم يُنسب قبل ذلك إلى الأَفْضَل أو إلى أبيه بدر الجمالى ، وإنما كانوا يُنسبون إلى الخليفة^٢ .

ولا شك أن الحديث الذى دار فى أثناء خُلُوة المأمون بالخليفة الأمر فى أعقاب انقضاء مراسم تقليده الوزارة يُوضِّح لنا إلى أى مدى أحسَّ المأمون بحاجة الخليفة إليه . وقد أُملى المأمون خلال هذا اللقاء شروطاً مُهينة على الخليفة التزم بها كتابةً وأقسم له بأن « لا يلتفت لحاسدٍ ولا مُبغضٍ ، ومهما ذُكر عنه يُطلعه عليه ، ولا يأمر فى شىء سِراً ولا جَهْراً يكون فيه ذهاب نفسه وانحطاط قدره » . واشترط المأمون أن تكون هذه الأيمان باقية إلى وقت وفاته ، فإذا توفى تكون لأولاده ولمن يخلفه بعده .

وقد حَرَّرَ الخليفة خُطْبَهُ بالإيمان من نسختين : واحدة فى قَصَبَةِ فضة أنفذ الخليفة فى طلبها عند القبض على المأمون فى سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م وأحرقها ، أما النسخة الأخرى فقد بقيت عند ابن المأمون (جمال الدين أبو على موسى المؤرِّخ) ، الذى ذَكَرَ لنا تفاصيل هذه المحادثة ، إلى أن عُدِمَتْ « فى الحركات التى جَزَتْ »^٣ .

= المَقْفَى ٦ : ٤٧٨ - ٤٧٩ Wiet, G. *RCEA* VIII p. 148 n. 3021 .

^١ ابن المأمون : أخبار ٢١ المقرئى : المَقْفَى ٦ : ٤٨٠ ، الخطط ١ : ٤٤١ ، الاتعاظ ٣ : ٧٥ . باب فَزْدالكم أو مُقَطَّع فَزْدالكم هو الباب الذى يصل الجزء الرئيسى للإيوان ، وهو الصُّنْدُر ، مع كل من فردى الكم ، أى الغرفتين الملحقتين (ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٨ والمقدمة ص ٩١) .

^٢ نفسه ٢١ نفسه ٦ : ٤٨٠ ، نفسه ١ : ٤٤١ .

^٣ نفسه ٢٢-٢٣ نفسه ٦ : ٤٨٣ ، نفسه ١ : ٤٤٠ ، الاتعاظ ٣ : ٧٥-٧٦ .

وعن شخصية المأمون البطاحى راجع ، ابن المأمون : أخبار ٣ هـ^٢ م ، ٢٦ - ٨٠ ، *Dunlop, D.M., EI² art. al-*

Batā'ih I, p. 1124 .

وفى مقابل هذه الاشتراطات طَلَب الخليفة الأمر إلى وزيره استعادة عَظْمَة الأعياد والاحتفالات الرسمية ، وأن « لا تُجْبَى الأموال إلّا بالقصر ، ولا تصل الكُشُوت من الطراز والثغور إلّا إليه ، ولا تُفَرَّق إلّا منه ، وتكون أَسْطِطَة الأعياد فيه ، ويُوسَّع فى رواتب القصور من كل صنف ، وزيادة رَشم منديل الكم »^١ . فتعهد له المأمون بأن تكون الجباية والكسوات والأَسْطِطَة بالقصر ، وبالعَمَل على تَوْسِيعَة الرواتب وزيادة رَشم منديل الكم من ثلاثين دينارًا إلى مائة دينار فى اليوم . وأن الأمر سيشاهد ما يُفَعَل بعد ذلك فى الركوبات وأَسْطِطَة الأعياد وغيرها فى سائر الأيام^٢ . وهى الرُسُوم التى كان قد مَنَعَهَا الوزير الأَفْضَل وَقَلَّص فيها دور الخليفة^٣ .

إنجازات المأمون البطائحي

لعل أهم إنجازات المأمون البطائحي فى القاهرة هى إنشائه فى سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م دار وَكَالَة ودَارًا لِلضَّرَب . فقد أنشأ فى هذا السنة « دار وَكَالَة » لمن يصل من العراقيين والشاميين وغيرهما من التُّجَّار ولم يُسَبَق إلى ذلك^٤ . ويدل إنشاء هذه الدار على أن القاهرة بدأت منذ مطلع القرن السادس فى مشاركة القُشَطاط فى نشاطها الاقتصادى والتجارى .

أما « دَارُ الضَّرَب » التى عرفت باسم « الدار الآمرية » نسبة إلى الخليفة الأمر - فتعد أول دار لِلضَّرَب تنشأ بالقاهرة . وقد ذكر ابن المأمون أن المأمون البطائحي بناها فى

^١ منديل الكم . هذا المصطلح لم يرد سوى عند ابن المأمون وابن الطوير وربما قصد به ما يطلق عليه اليوم « مصروف

الجبى » ، الذى كان يمنح لبعض الأفراد ذوى المكانة وكان يوضع فى منديل فى كم الحلعة !

^٢ ابن المأمون : أخبار ٢٢-٢٣ : المقرئى : المقفى ٦ : ٤٨٢ ، الخطط ١ : ٤٤١ ، الاتعاظ ٣ : ٧٦-٧٧ .

^٣ المقرئى : الاتعاظ ٣ : ٨٣ س ٦-٥ . وانظر فيما يلى الفصلين الحادى عشر والثانى عشر .

^٤ ابن المأمون : أخبار ٣٩ ، ابن ميسر : أخبار ٩٢ : المقرئى : الخطط ١ : ٤٥١ ، اتعاظ ٣ : ٩٢ وانظر عن وظيفة دار

القاهرة « لكونها مقر الخلافة وموطن الإمامة .. وصار دينارها أعلى عيارًا من جميع ما يضرب بجميع الأمصار »^١. وقد أنشأ المأمون البطائحي دار ضرب أخرى في نفس العام في قُوص عاصمة الوجه القبلي^٢. وبذلك أصبحت دور الضرب التي استمرت في العمل في نهاية العصر الفاطمي هي دور ضرب القاهرة والفُسطاط وقُوص والإسكندرية، وصور وعُشقلان (إلى أن خرجتا من أيدي الفاطميين)^٣.

تجديد الاحتفالات والرسوم

وتُعَدُّ فترة خلافة الأمر ووزارة المأمون البطائحي (٥١٥-٥١٩هـ / ١١٢٢-١١٢٥م) من أزهى فترات التاريخ الفاطمي في مصر، فقد كان الأمر مفتونًا بعظمة الاحتفالات وفخامتها، ويرجع إليه الفضل، كما يقول المقرئى، « في تجديد رسوم الدولة وإعادة بهجتها إليها »^٤. فقد أخذت رسوم الفاطميين شكلها النهائي على يد هذا الخليفة الذى أعاد وطَّور الكثير من الاحتفالات الفاطمية التى انقطعت بسبب ما تعرضت له البلاد فى أعقاب الشَّدة، وفى أعقاب تَسَلُّط الوزير الأفضَل على الدولة، والواقع فإن أكثر ما نعرفه عن رسوم الدولة الفاطمية فى مصر وتفاصيل الاحتفالات الموكبية والأشُمِطَة وأنواع الخِلاَع والكُشُوات التى كانت هذه الاحتفالات مناسبة لتفريقها على رجال الدولة، والذى أمدنا به مؤرِّخون من أمثال ابن المأمون وابن الطُّوَيْر، ندين به إلى هذه الفترة^٥.

^١ نفسه ١٣٨ نفسه ١٩٢ نفسه ١ : ٤٤٥ نفسه ٣ : ١٩٢ المقي ٦ : ٤٩٦ .

^٢ المقرئى : اتماظ ٣ : ٩٣ .

^٣ القلقشندي : صبح ٣ : ٣٦٥ المقرئى : اتماظ ٣ : ٩٤ . وعن سائر منشآت المأمون البطائحي راجع، Fu'âd

Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte*, pp. 509-29 .

^٤ المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩١ .

^٥ انظر فيما يلى الفصل الثانى عشر .

إعادة تعمير العاصمة

وأراد الخليفة الأمر أن يعيد إلى العاصمة سابق ازدهارها، فبعد الإصلاحات والتحسينات التي قام بها بدر الجمالي بين سنتي ٤٨٠هـ/١٠٨٧م و ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، أمر الأمر وزيره المأمون أن يدعو الناس إلى تعمير موضع الخراب الذي تخلف عن الشدة العظمى، والممتد جنوباً بين باب زويلة والمشهد النفيسى، ليعيد إلى القاهرة سابق رونقها وتألقها^١. وأنشأ داخل القاهرة مقابل ركن القصر الشمالى، المعروف بالوكن المخلق، «الجامع الأقمر» الذى افتتح للصلاة فى سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م^٢، وهو أول جامع يبنى داخل القاهرة منذ بنى الخليفة الحاكم بأمر الله «الجامع الأنور»، قبل أكثر من مائة عام، فى طرف المدينة الشمالى.

المأمون يواجه مؤامرات التزارية

لم يرض الإسماعيليون التزاريون أن يتركوا الخلافة الفاطمية تنعم باستتباب قدر من الأمن بعد فشلها فى تحقيق أهدافها، وتوالى الفتن والأزمات الاقتصادية عليها. فبعد نجاح التزارية فى اغتيال الأفضل بن بدر الجمالى^٣، امتدت آمالهم إلى قتل الخليفة الأمر ووزيره المأمون بن البطائحي مقاً^٤. فأرسلوا عدداً من رسلهم إلى أصحابهم المقيمين بمصر ومعهم أموال لتفرقتها عليهم للإعداد لتنفيذ مخططهم. وقد تنبّه الوزير المأمون بن البطائحي إلى ذلك وفرض على البلاد نظاماً أمنياً صارماً بدأه بتولية وإل جديد على عسقلان - أول مدينة تقابل القادم إلى مصر من الشام - وطلب إليه أن لا يُبقى فى

^١ المقرئى : المخطوط ١ : ٣٠٥، ٢ : ٢٠، ١٠٠، ٢٦٥. وانظر فيما يلى الفصل الثالث عشر.

^٢ ابن ميسر : أخبار ٩١ المقرئى : المخطوط ٢ : ٢٩٠، اتعاط ٣ : ٧٧، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٧٣، ٢٢٩

^٣ Fu'ād Sayyid, A., *op. cit.*, p. 494-98. وفيما يلى ص ٦١٨.

^٤ تبعا لرواية ابن ميسر.

^٤ نفسه ٩٧ المقرئى : اتعاط ٣ : ١٠٨.

الخدمة إلا من هو معروف من أهل البلاد ، وأن يتعرف على أحوال الواصلين من تجار وغيرهم ، وأن لا يثق بما يذكرونه من أسمائهم وكناهم وبلادهم ، ولا يُمكن أحدًا من الدخول إلى البلد إلا إن كان معروفًا مترددًا عليها ، ووَضَعَ نقاط مراقبة على مراكز الطريق المؤدى من عَشَقْلان إلى القاهرة . فكان الكُتّاب يسبقون القوافل ومعهم قوائم بأسماء التجار وغلما نهم وأسماء المحتملين وأنواع البضائع ليقابل عليها في كل نقطة من نقاط المراقبة حتى لا يتسرب أحدٌ من النزارية إلى داخل البلاد ^١ .

وفي الوقت نفسه أمر المأمون واليَّ القاهرة ومصر أن يُسَقِّعَا له البلدين شارعًا شارعًا وحارة حارة وزقاقًا زقاقًا وخطًا خطًا ، بأسماء من فيها من السكان وأن لا يُمكنَّا أحدًا من الانتقال من منزل إلى منزل حتى يستأذناه ويخرج أمره بما يُعْتَمَد في ذلك . فلما أتمَّ ذلك ورفعا إليه « أوراق التشقيق » ، أرسل المأمون نساء من قبله - من أهل الخبرة والمعرفة - للدخول إلى جميع المساكن والاطلاع على أحوال ساكنيها الباطنية ومطالعة بجميع ما يشاهدونه فيها . فكانت أحوال كافة الناس ، على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم من ساكني مصر والقاهرة ، تعرض عليه ولا يكاد يخفى عنه منها شيء ^٢ . وبذلك امتنع النزارية من الدخول إلى البلاد .

عَزَلُ المأمون وقطه

لم تستمر علاقة الوُدِّ بين المأمون والآخر طويلًا ، إذ بدأ كل منهما يتوَحَّش من الآخر . وقد احتاط المأمون لنفسه بأن وَلَّى أخاه المؤمنَ جانبًا عظيمًا من ديار مصر وجعل معه عسكريًا لينجده به إذا غَدَرَ به الخليفة . وقيل للآخر إن المأمون « ادَّعى الخلافة بطريق أنه وَلَدُ نزار من جارية خرجت من القصر وهي حامل به عندما خرج نزار إلى الإسكندرية » ،

^١ ابن منير : أخبار ٩١-٩٨ ، المقرئ : اتماظ ٣ : ١٠٨ ، المقفى ٦ : ٤٩٥ .

^٢ نفسه ٩٨ : نفسه ٣ : ١٠٨ .

وأنه أرسل علي بن نجيب الدولة رسولاً من قبله إلى اليمن ليحقق نسيبه هناك ويذع الناس إلى بيعته. فانزعج الخليفة لذلك، وتحايل على استدعائه مع أخيه إلى القصر بحجة إكرامهما بحضور سباط الخليفة الذي يُنصب كل ليلة في رمضان بقاعة الذهب، فلما انفرد بهما الخليفة أمر بالقبض عليهما واعتقلهما في خزانة البنود، واحتاط على دورهما في سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م وأرسل في استدعاء الرسول الذي أُرسِل إلى اليمن. وأمر ابن أبي أسامة، كاتب الإنشاء، بإنشاء سِجَل يُرر فيه تصرفه مع المأمون وأخيه، فلم ينتطح فيه عنزان بعد قراءته كما يقول ابن الطوير^١.

وقد ظلّ المأمون في الاعتقال إلى أن قتل مع أخيه والرسول الذي قيل إنه أرسله إلى اليمن في عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م^٢.

الآمر يستقل بالأمر

عندما استقل الأمر بالحكم، بعد عزل الوزير المأمون بن البطائحي، لم يتمكن من سياسة الدولة؛ لأنه ظلّ بعيداً عن الحكم طوال الخمسة والعشرين عامًا السابقة. فاضطر إلى اتخاذ صاحبي ديوان، لاستخراج ما يجب لله في أموال الناس من زكاة؟ وما هو مرتب من مكوس، أحدهما مسلم هو أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط والآخر سامري اسمه أبو يعقوب إبراهيم الكاتب، أقام معهما مُستَوْفٍ لهاتين المعاملتين راهب يعرف بأبي نجاح بن قنا^٣، كان قد اتَّصل بالآمر بعد قتل المأمون البطائحي وبَدَّلَ له

^١ ابن الطوير: نزعة المقتلين ١٥-١٦، ابن الفرات: تاريخ-خ: ٢٠٦ ط-٢٠٧ و؛ النويري: نهاية الأرب ٢٨:

٢٩١، المقرئ: اتعاظ ٣: ١١٢-١١٥، المقرئ ٣: ٧١٨. وعن ابن نجيب الدولة راجع، أيمن فؤاد سيد: تاريخ

المذاهب الدينية في بلاد اليمن ١٦٠-١٦٤.

^٢ ابن ميسر: أخبار ١٠٧، المقرئ: المقرئ ٦: ٤٩٩، اتعاظ ٣: ١٢٢

^٣ راجع، أبا صالح: ٥٤ وفيه أنه كان متولى الديوان الخاص الأمري؛ ابن الطوير: نزعة المقتلين ٢٠-٢٣؛ ابن =

في مصادرة قوم من التُّصارى مائة ألف دينار، ثم تزايد في أمر المصادرات حتى صادر رجالا من مصر من المسلمين، وفيهم القضاة والكتّاب والشهود. فزاد قربه من الأمر حتى لُقِّبَ به «الأب القديس الروحاني النفيس»، أبى الآباء سيّد الرؤساء، مُقدِّم دين النصرانية ومُبيِّد البطيركية، ثالث عشر الحواريين^١، الأمر الذي زاد في سطوته، فكثرت إساءته للمسلمين ومصادرته للناس.

وفي سنة ٥٢٣هـ/١١٢٩م عمّ البلاء بمصر جميع الرؤساء والقضاة والكتّاب والسوقة من الرّاهب، بحيث لم يبق أحدٌ إلّا وناله منه مكروه، إما من ضَرْبٍ أو نَهَبٍ أو أخذ مال، وكان يجلس في قاعة الخطابة من جامع عمرو، ويستدعى الناس للمصادرة. وقد طلب يوما أحد عدول مصر المتميزين، وكان معظمًا عند الناس، فأهانته وأخرق به. فخرج من عنده ووقف بالجامع في يوم جمعة وقال: «يا أهل مصر انظروا عَذْلَ مولانا الأمر في تمكينه هذا النصراني من المسلمين»، فأُزِجَ الناس لكلامه وكادت تكون فِتْنَةً خَوْفٍ الأمر من عاقبتها. فأمر مُقداد، وإلى مصر، بقتل الراهب بعد مناقشة دارت بينهما حول رأيه في الإسلام فقتل في عام ٥٢٣هـ/١١٢٩م بعد أن ضُربَ بالثَّعَالِ وسُمِّرَ على لوحٍ عند كرسى الجِشْرِ وطُريح في النيل حتى خرج إلى البحر المالح^٢.

= الفرات : تاريخ-خ-٢ : ١٥ و-١٦ ط، النويري : نهاية ٢٨ : ٢٩١-٢٩٤، المقرئ : اتعاط ٣ : ١١٥-١١٦، الحطط ٢ : ٢٩١ .

^١ التابلسي : تجريد سيف الهمة ١٤١ : المقرئ : اتعاط ٣ : ١١٧ .

^٢ راجع تفصيل خبر هذا الراهب وما قام به من مصادرات عند، التابلسي : تجريد سيف الهمة ١٤١-١٤٢، ابن ظافر : أخبار ٨٨-٨٩، ابن الطوير : نزعة المقتلين ٢٠-٢٣، ابن ميسر : أخبار ١٠٧-١٠٩ (مصدر ابن ظافر وابن ميسر واحد هو المرتضى بن الهيثم صاحب «تاريخ خلفاء مصر» ونص عليه ابن ظافر في ص ٨٩)، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٩-٣٠٠، النويري : نهاية ٢٨ : ٢٩٢، ابن الفرات : تاريخ-خ-٢ : ١٥ و-١٦ ط، المقرئ : الحطط ٢ : ٢٩١، اتعاط ٣ : ١١٧، ١١٩، ١٢٣، ١٢٥-١٢٧، القلقشندي : صبح ١٣ : ٣٦٩-٣٧٠ . انظر فيما يلي الفصل الثالث عشر .

ومن الغريب أن كتاب تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المنسوب لسابورس بن المقفع لم يشر على الإطلاق إلى الفترة التي تولى فيها الراهب السلطة في مصر (٥٢٠-٥٢٣هـ/١١٢٦-١١٢٩م) .

وعند الاستيلاء على داره وُجِدَ بها الكثير من الأدوات الثمينة ، وتذكر المصادر أنه وجد له في مقطع ثلاثمائة طرّاحة سامان محشوة جدًا لم تستعمل ، قد رُصِّت إلى قرب السقف ، يقول ابن خلكان : « هذا نوع واحد قليل الاستعمال فكيف ماعده من الديباج وأنواع المتاع الفاخر »^١.

مُقتل الأمر

هكذا حاول الخليفة الأمر أن يعيد شباب الدولة الفاطمية عن طريق إحياء رُسُومها واحتفالاتها ، ولكنه أراد بذلك أن يتقرب إلى مجموع الشعب المصرى بمتابعة هذه الاحتفالات والمشاركة فيها . فقد كان الانفصال كبيرًا بين النظام الحاكم وبقية أفراد الشعب ، ولم يكن القصد من هذا الإحياء تعبئة المشاعر فى سبيل تحقيق هدف الدولة الفاطمية فى السيطرة على العالم الإسلامى ، فالواقع أن هذا الهدف قد نُسِيَ تمامًا منذ أن تحكّم الوزراء أرباب السيوف فى الدولة .

حقيقة أن ابن الطُّوَيْر وابن مَيْسَر ذكرنا أن الأمر كانت تُحَدِّثه نفسه بالسفر إلى المشرق والغارة على بغداد وأعد سروجًا خاصة للخيّل استعدادًا لذلك^٢ ، إلّا أننا لا يمكننا أن نثق فى هذا الخبر ، فالفاطميون لم يكونوا قادرين على استعادة ممتلكاتهم التى توزّعها السلاجقة وخلفاؤهم ثم الفِرْجُ فى الشام ، فكيف يتأتى لهم منازلة العباسيين والوصول إلى بغداد ؟ كما أن أنصار دعوتهم فى مشرق العالم الإسلامى انشَقُّوا عليهم وأتبعوا دعوة جديدة ، أضف إلى ذلك انغماس الخليفة الأمر فى لهوه وملذّاته^٣ وعشقه للجوارى

^١ ابن ظافر : أخبار ١٨٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٠٩ ، ابن خلكان : وفیات ٥ : ٣٠٠ ، النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٤ .

^٢ ابن الطوير : نزعة ١٩ ، ابن ميسر : أخبار ١١٢ ، ابن الفرات : تاريخ-خ ٢ : ١٥ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤١٨ ، ٢ : ٢٩١ ، الانماط ٣ : ١٣٢ ، أبو الهامس : النجوم ٤ : ١٩٦ .

^٣ ابن القلانسى : ذيل ٢٢٨ ، ابن ظافر : أخبار ٩١ ، ابن خلكان : وفیات ٥ : ٣٠٠ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩١ ، أبو الهامس : النجوم ٥ : ١٧٣ .

البدويات اللاتى أقام لواحدة منهم بناءً بجزيرة الرُّؤُصَة يعرف بـ «الهَوْدَج» كان يزورها فيه^١، كما أن الزوارين كانوا يَتَرَبَّصون به فكثُر خوفه منهم وأتخذ إجراءات أمنية مشددة إضافة إلى ما كان قد رتبته الوزير المأمون البطائحي^٢. ومع ذلك فقد نجح نفرٌ منهم من الوصول إلى مصر وقتلوا الخليفة الأمر وهو فى طريقه إلى الهَوْدَج يوم الثلاثاء ثانى ذى القعدة سنة ٥٢٤هـ/ ٧ أكتوبر ١١٣٠م^٣.

كانت السنوات التى أعقبت وفاة الخليفة الأمر وما صاحبها من أحداث تجاهلت أسس العقيدة الفاطمية، هى مؤشِّر التعجيل بسقوط الدولة الفاطمية فى مصر الذى تأجل نحو القرن بفضل الإصلاحات الإدارية والتنظيمية والدفاعية التى أدخلها نظام بدر الجمالى وخلفائه الأفضَل والمأمون البطائحي.

انقلاب أبى على الأفضَل

فور وفاة الخليفة الأمر مقتولاً فى ثانى ذى القعدة سنة ٥٢٤هـ/ ٧ أكتوبر سنة ١١٣٠م^٤، نشأت لأول مرة فى تاريخ الدولة الفاطمية مشكلة البحث عن وريث للإمامة. فقد مات الخليفة دون وريث، ولكنه أشار وقت وفاته - تبعاً لبعض المصادر -

^١ ابن سعيد : النجوم ٨٥ : المقرئى : الخطط ١ : ٤٨٥-٤٨٦، ٢ : ١٨٠-١٨٢ .

^٢ المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٢٨ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٨٤ .

^٣ عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٢١، ابن القلائسى : ذيل ٢٢٨، ابن طاهر : أخبار ٩١، ابن الطوير : نزعة ٢٤-٢٦، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٦٤، ابن ميسر : أخبار ١١٠، ابن خلكان : وفيات ٥ : ٢٩٩-٣٠٠، ابن القطان : نظم الجمان ٢١٧-٢٢١، ٢٣١-٢٣٣، ابن سعيد : النجوم ٨٤-٨٥، النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٤-٢٩٥، المقرئى : الخطط ٢ : ١٢٠٤، ابن سعيد : النجوم ٨٤-٨٥، النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٤-٢٩٥، المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩١، اتعاظ ٣ : ١٢٩، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٨٤-١٨٥، وممدنا نص ابن الطوير ونص ابن القطان بتفاصيل دقيقة عن مؤامرة قتل الأمر .

^٤ انظر الهامش السابق .

إلى أنه ترك إجدى جهاته حاملاً^١ وأنه رأى رؤيا تدل أنها ستلد ولدًا ذكرًا هو الخليفة من بعده ، وكان يجب الانتظار لمعرفة نتيجة هذا الحمل ، وإن كان المولود المنتظر ذكرًا أم أنثى . وقد اختلفت المصادر في تحديد نوع المولود ، فالتوثري وأبو المحاسن ذكرا أن الحامل وضعت أنثى^٢ ، بينما يقرّر ابن خلّكان أنه لم يُعرّف مصير المولود^٣.

وانتظارًا لهذا المولود تولّى منصب الإمامة لأول مرة في تاريخ الدولة الفاطمية «إمام مُستَوْدَع» وفقًا للمصطلح الإسماعيلي^٤، فقد أخصّر هُزار الملوك جوامِرد والعاذل بوعُش - كبار غلمان الأمر^٥ - ابن عمه الأمير أبا الميمون عبد المجيد ، أكبر الأقارب سنيًا ، وبايعوه بولاية العهد وتدير المملكة «كفيلًا لحمل مُنتظر في بطن أمه»^٦. فجعل عبد المجيد هُزار الملوك جوامِرد وزيرًا له ، فلم ترض به طوائف الجند وثاروا عليه في نفس يوم توليته فكانت وزارته نصف يوم يدون تصرّف^٧ ، وأخرجوا أبا على أحمد بن الأفضل شاهنشاه الملقّب بكتّيفات وفرضوه وزيرًا على الأمير عبد المجيد في ١٦ ذى القعدة سنة ٢٤٤/٥٢٤ أكتوبر سنة ١١٣٠م^٨ وقالوا له : «هو الوزير بن الوزير» .

^١ ابن خلّكان : وفيات : ٥ : ٣٠٢ ؛ أبو المحاسن : النجوم : ٥ : ١٧٤ .

^٢ النويري : نهاية : ٢٨ ؛ ٢٩٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم : ٥ : ١٧٤ .

^٣ ابن خلّكان : وفيات : ٥ : ٣٠٢ .

^٤ راجع عن هذه الرتبة Hamdani, A., «Evolution of the Organisational Structure of the Fatimid Dawah, the Yemeni and the Persian Contribution», *Arabian Studies* III (1976), p. 91; . Madelung, W., *EI*² art. *Imāma* III, p. 1196 .

^٥ ابن الطوير : نزعة المقلتين ٢٦-٢٧ ؛ ابن الفرات : تاريخ-خ : ٢ : ١٧ ؛ المقرئ : المقفى : ١ : ٣٩٤ ، ٣ : ٨٠ ، المخطوط : ١ : ٤٠٦ ، ٢ : ٢٩١ ، الاماظ : ٣ : ١٣٧ .

^٦ عمارة اليمنى : تاريخ ١٢٩ ؛ ابن ميسر : أخبار ١١٣ ؛ ابن خلّكان : وفيات : ٣ : ٣٢١ ؛ النويري : نهاية : ٢٨ ؛ ٢٩٦ ، ابن الفرات : تاريخ-خ : ٢ : ١٨ ؛ المقرئ : المخطوط : ١ : ٤٠٦ ، ٢ : ١٧ ، اماظ : ٣ : ١٣٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم : ٥ : ٢٤٠-٢٤١ .

^٧ ابن الطوير : نزعة المقلتين ٢٧-٢٨ ، الفرات : تاريخ-خ : ٢ : ١٨ ؛ المقرئ : اماظ : ٣ : ١٣٧-١٣٨ ، ١٣٩ .

^٨ ابن القلانسي : ذيل ٢٢٩ ؛ ابن ظافر : أخبار ٩٤ ؛ ابن الطوير : نزعة ٣٠-٣٣ ؛ ابن ميسر : أخبار ١١٣ =

كان أبو على هذا إمام المذهب قوى الجانب^١، فقَبِضَ على وَلِيِّ العهد واعتقله في خزانة من خزائن القصر وأعلن نهاية الأسرة الفاطمية^٢، وأشَقَط اسم إسماعيل بن جعفر الصَّادِق - الذى تتنسب إليه الإسماعيلية - ودعا للإمام المنتظر الاثنى عشرى، ونَقَش اسمه على السَّكَّة نائبا عنه^٣، واتَّخَذَ لنفسه ألقابا يُدْعَى له بها هى: «السَّيِّد الأَجَلَّ الأَفْضَل سيد أرباب الممالك والدول والمحامى عن حُوْزة الدين، وناشر جناح العَدْل على المسلمين الأقرين والأبعدين، ناصر إمام الحق فى حالتي غيبته وحضوره، والقائم بِقُصْرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدييره، أمين الله على عبادته، وهادى القضاة إلى اتباع شَرْع الحق واعتماده، ومُرْشِد دُعاة أمير المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النِّعم ومُفَرِّج القُصَم، ورافع الجَوْر عن الأُمم، مالك فضيلتى السيف والقلم، أبو على أحمد بن السَّيِّد الأَجَلَّ الأَفْضَل شاهنشاه أمير الجيوش»^٤.

لم يكتف أبو على الأَفْضَل بذلك بل عمل على إضعاف المذهب الإسماعيلى فى مصر. فقَبِضَ فى سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م أربعة قضاة: اثنين من الشيعة، أحدهما إمامى

= النويرى نهاية ٢٨ : ٢٩٦ ابن الفرات : تاريخ-خ : ٢ : ١٩ ظ : المقرئى : المخطوط : ١ : ٤٠٦ : ٢ : ١٧ : ١١٧ : ٣٩٥ : ١ : أبو المحاسن : النجوم : ٥ : ١٧٤ : ١٤٠ - ٢٤١ : Stern, S., *Et*² art. al-Afdal Kutayfāt I, pp. 222-223.

^١ ابن الأثير : الكامل : ١٠ : ٦٧٢ : المقرئى : المخطوط : ١ : ٤٠٦ .

^٢ وهى خزانة بجوار الإيوان الكبير بالقصر، وأصبحت فيما بعد دارا للضرب . (المقرئى : المخطوط : ١ : ٤٠٦) .

^٣ ابن الطوير : نزعة : ٣٣ : ابن الأثير : الكامل : ١٠ : ٦٧٢ : ابن ظافر : أخبار : ٩٤ : ابن مسير : أخبار : ١١٦ : ابن الفرات : تاريخ-خ : ٢ : ١٩ ظ : ابن خلدون : تاريخ : ٤ : ٧٢ : المقرئى : المخطوط : ٢ : ٢٧١ : اتعاظ : ٣ : ١٤٣ : المقرئى : ١ : ٣٩٥ .

^٤ ابن الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ٤١-٤٢ (فهذا الكتاب ألّفه ابن الصيرفى وأهداه إلى أبى على الأَفْضَل فى السنة التى حكم فيها سنة ٥٢٥) : ابن ظافر : أخبار : ٢٩٤ : ابن الأثير : الكامل : ١٠ : ٦٧٢ : ابن مسير : أخبار : ١١٦ : النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٧ : ابن الفرات : تاريخ-خ : ٢ : ٢٠ و، ابن خلدون : تاريخ : ٤ : ٣٢ : المقرئى : اتعاظ : ٣ : ١٤٣-١٤٤ : المقرئى : ١ : ٣٩٧ : السيوطى : حسن المحاضرة : ٢ : ٢٠٥ .

وقد أبدى ابن الأثير تعجبه من هذه الألقاب وعلّق بأنه إذا كان هذا حال وزير المصريين فإن وزراء السلاجقة من أمثال نظام الملك كان يحق لهم أن يدّعوا الربوبية .

والآخر إسماعيلي ، واثنين من السنة أحدهما شافعي والآخر مالكي ، كل منهم يحكم بمذهبه ويؤرث بمذهبه . وعلق ابن مَيْسَر على ذلك « بأنه لم يُشَمَّع بمثل هذا فى المِلَّة الإسلامية من قبل »^١ .

كذلك عمل أبو على الأَفْضَل على تفريق الغلال على الناس على سبيل الإنعام ، وزدَّ على الناس الأموال التى قُضِلت فى بيت المال من مال المصادرات التى أُخِذَت فى أيام مباشرة الرّاهب . وأعاد أملاًكاً كثيرة إلى أربابها ، وأقَطَعَ الطائفة الحُجْريّة ، التى لعبت دوراً هاماً فى وصوله إلى قمة السلطة ، البلاد ، وأنكرم بَزْعَش الذى قدّمه إلى الوزارة وبالع فى تعظيمه والإنعام عليه^٢ .

وقد شهدت الدولة الفاطمية فى الفترة التى تولّى فيها أبو على الأَفْضَل الوزارة ، فيما بين شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤ والمحرّم سنة ٥٢٦ ، وضْعاً فريداً لم يَسْبِق له مثيل فى تاريخها ، وإن دَلَّ على شىء فإنما على ضعف الخلافة وفُقدان الحماس لدعوتها . ففى البداية شارك وَلِئى القَهْد أبا على الأَفْضَل فى الحكم فترة قصيرة لم تتعد ، تبعاً لابن مَيْسَر ، يوماً واحداً^٣ . وحَفِظَت لنا مجموعة وثائق دير سانت كاترين سِجِلاً بالغ الأهمية من حيث تاريخ صدوره والأشخاص المذكورين فيه ؛ فهو صادرٌ فى شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤ / أكتوبر ١١٣٠ عن « وَلِئى عهد المسلمين » وكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبى على أحمد بن السَّيِّد الأَجَلّ الأَفْضَل أمير الجيوش ، وقد ضاع اسم وَلِئى العهد مع فاتحة السَّجَلِّ وهو دون شك الأمير أبو الميمون عبد المجيد^٤ ، ويكون التاريخ المحدد

^١ ابن ميسر : أخبار ١١٥ وقارن النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٧ ، المقرئى : الخطوط ٢ : ٣٤٣ ، اتماط ٣ : ١٤٢ ، الملقى

^٢ ١ : ٣٩٧ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٤٧ ، Allouche, A., «The Establishment of Four Chief Judgeships in Fatimid Egypt» JAOS 105 (1985), pp. 317-320 .

^٣ النابلسى : تجريد سيف الهمة ١٤٢ ، المقرئى : الملقى ١ : ٣٩٦ .

^٤ ابن ميسر : أخبار ١١٣ ، النويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٦ ، المقرئى : الخطوط ٢ : ١٧ .

^٥ نشر هذا السجل لأول مرة صمويل شتيرن سنة ١٩٦٠ / 524 ، Stern, S., M., «A Fatimid Decree of the year 524/ ١٩٦٠» , BSOAS 23 (1960), pp. 439-455; Stern, S., Fatimid Decrees, London 1964, pp. 35-45 . 1130» .

لصدور هذا السَّجَل هو اليوم الذى اشترك فيه عبد المجيد وأبو على فى إدارة الدولة .
هذه هى الإشارة الوحيدة التى تدل على اشتراك وَلِيِّ العهد والوزير فى تدبير أمور الدولة ، فسرعان ما قَبَضَ الوزير أبو على على الأمير عبد المجيد واستأثر تمامًا بالسلطة وأقام الدعوة للثانى عشرية وضَرَبَ دراهم باسم الإمام المنتظر نَقَشَ عليها « الله الصِّمد - الإمام محمد »^١.

ومن مُحسن الحظ فقد وَصَلَتْ إلينا بعض آثار هذه الفترة الحَرْجَجة فى تاريخ الدولة الفاطمية تدلُّنا على التحوُّلات المذهبية التى أدخلها أبو على الأَفْضَل على نظام الدولة .
فقد نَشَرَ Soret فى عام ١٨٥٦ وَصَفًا لعملة فضية (دِرْهَم) ضُرِبَتْ فى مصر فى عام ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م تحمل اسم :

(أبو القاسم محمد المنتظر بأمر الله)^٢

وفى عام ١٨٧٥ درس كل من Sauvair و S.Lane-Poole مدلول اسم الإمام الثانى عشر على العُمَلَة المصرية^٣، ثم نشر S.Lane-Poole بعد ذلك عملتين ذهبيتين (دينارين) من مقتنيات المتحف البريطانى ضُرِبَتْ الأولى فى القاهرة سنة ٥٢٥ باسم :

(أبو القاسم المنتظر لأمر الله أمير المؤمنين)^٤

أما الثانية فَضُرِبَتْ فى مصر فى سنة ٥٢٦ لا شك قبل السادس عشر من المحرم تاريخ مقتل أبى على الأَفْضَل ، باسم :

^١ ابن الطوير : نزعة المقلتين ٣٢ ، ابن الفرات : تاريخ-خ ٢ : ١٩-١٩٠ ط ٤ ، ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٧٢ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٦ ، ٢ : ٣٤ ، والتماظ ٣ : ١٤٠-١٤١ والمقنّى ١ : ٣٩٦ .

^٢ Soret, M., «Lettre à M.C.J. Tornberg sur quelques monnaies de dynasties Alides», *Revue Archéologique* XIII (1856) pp. 134-135

^٣ Sauvair & Lane-Poole, S., «The Name of the Twelfth Imam on the Coinage of Egypt», *JRAS* N.S VII (1857), pp. 140-51

^٤ Lane-Poole, S., *Catalogue of Oriental Coins in the British Museum*, IV-the Coinage of Egypt..., London 1879, Introduction p.XII, p. 55 n° 228-229 ومن هذا الدينار نسختان أخرتان =

(الإمام المهدي القائم بأمر الله حجة الله على العالمين

نائبه وخليفته الأفضل أبو على أحمد)^١

وما جاء على هذا الدينار يتفق مع ما أورده المؤرخون من أن أباً على الأفضل نَقَشَ اسمه على السُّكَّةِ نائباً عن الإمام المنتظر^٢.

ومنذ خمسين عامًا نشر Paule Balog أربعة دنانير صادرة عن (المنتظر لأمر) (بأمر الله)، ثلاثة منها ضُرِبَتْ في القاهرة والرابع في مصر في سنة ١٥٢٥ هـ^٣. وأشار في مقال نشره في العام نفسه إلى دِزْهِم صادر باسم هذا الإمام، وَصَفَهُ وحلَّ مشكلاته التاريخية E.V. Bergmann سنة ١٨٧٣ م^٤.

وفي الوقت نفسه نَشَر M. Jungfleish عشرة أشكال زجاجية مُدَوَّرَة (صِنَج) عليها اسم الإمام المنتظر بالصيغتين التاليتين :

(القاسم محمد المنتظر)

(حُجَّة الله ومعه ؟ أبى القاسم المنتظر لأمر الله)

وكلها مؤرَّخة في سنة ٥٢٥ هـ^٥.

= إحداهما بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٣٩ ضربت بالإسكندرية والأخرى بدار الكتب المصرية برقم ١٢٦٨ . وقد ظن الدكتور حسن إبراهيم حسن أن هذا الدينار ضرب باسم الإمام أبى القاسم الطيب وأن أتباعه اتخذوا من الإسكندرية مركزاً لحركتهم ومستقرًا لدعوتهم (تاريخ الدولة الفاطمية ١٧٦).

^١ Lane-Poole, S., *op.cit.*, pp. 56-57 n° 230 .

^٢ ابن ظافر : أخبار : ٩٤ ؛ ابن خلكان : وفیات : ٣ : ٢٣٦ .

^٣ Balog, p., « Quatre Dinars du Khalife Fatimide al-Montazar li-Amr Allah ou bi Amr-Allah (525-526 A. C.) », *BIE* XXIII (1950-51), pp. 375-368 .

^٤ Balog, p., « Nouvelles observations sur le thecnique du monnayage (Periode Fatimite et Ayoubite) », *BIE* XXXIII (1950), p. 16 .

^٥ Jungfleish, M., « Jetons (ou Poids?) en verre de l'Imam el-Montazar », *BIE* XXXIII (1950-51), pp. 329-374; Miles, G., *Fatimid Coins in the Collection of the University Museum . Philadelphia and the American Numismatic Society*, NY 1951, p. 44 .

وأخيرًا وُجِدَ في مجموعة الدكتور هنرى أمين عوض بالقاهرة^١ درهم مؤرخ في سنة ٥٢٦ باسم :

(الإمام محمد المنتظر لأمر الله)

(الله الصُّبْد)

وهو ما يَتَّفِقُ مع ما ذكره ابن الطُّونَر وابن خُلْدُون وابن الفُرات والمقرئى^٢.

الحافظُ يعود إلى الحكم

في يوم الثلاثاء ١٦ محرم سنة ٩/٥٢٦ ديسمبر سنة ١١٣١ انتهى هذا الوضع الشاذ، عندما ثار غلمان الأمر وعلى رأسهم ناصر الجيوش يانيس^٣، وتمكَّنوا من قتل أبى على الأَفْضَل وهو يلعب الكرة فى الميدان الكبير خارج باب الفتوح، ثم أخرجوا الأمير عبد المجيد من الموضع المعتقل فيه بالقصر، وبايعوه على أنه «وَلِىَّ عَهْدَ كَفِيلَ لِمَنْ يُذَكِّرُ اسْمَهُ»^٤، فاتخذ عبد المجيد هذا اليوم عيدًا سمَّاه «عيد النُّصْر»^٥ ظل يُعْتَقَلُ به حتى نهاية الدولة. وَوَصَلَ إلينا دينارٌ فريدٌ ضُرِبَ فى الإسكندرية سنة ٥٢٦، لاشك فى الفترة بين خروج عبد المجيد من الاعتقال (١٦ محرم) ومبايعته بالإمامة (٣ ربيع الآخر) باسم :

^١ محمد أبو الفرج العث : «مصر، القاهرة على النقود العربية الإسلامية»، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة، ٩٥٢-٩٥١.

^٢ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٣٢؛ ابن خلدون : تاريخ ٤ : ١٧٢؛ ابن الفرات : تاريخ-خ ٢ : ٢٠، المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٦، ٢ : ٣٤٠، المقتضى ١ : ٣٩٦ ظ.

^٣ المقرئى : الخطط ٢ : ١٧.

^٤ ابن ظافر : أخبار ٩٥؛ ابن الطوير : نزعة ٣٣؛ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٦٥-٦٧٢، ٦٧٣؛ ابن ميسر : أخبار ١١٥-١١٦؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ١٤٦-١٤٧؛ ابن الفرات : تاريخ-خ ٢ : ٤١ ظ، المقرئى :

اتماط ٣ : ١٤٣، المقتضى ١ : ٣٩٧-٣٩٨؛ أبو الحاسن : النجوم ٥ : ٢٤٧-٢٤٨.

^٥ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٣٤-٣٥؛ المقرئى : الخطط ١ : ٣٥٧، ٣٥٩، ٤٩٠-٤٩١.

(أبو الميمون عبد المجيد وَلِيَّ عَهْد المسلمين)

الدَّعْوَةُ الطَّبِيبِيَّة

كانت الفترة بين وفاة الخليفة الأمر في ذى القعدة سنة ٥٢٤/أكتوبر ١١٣٠، وخروج الأمير عبد المجيد من معتقله في المحرم سنة ٥٢٦/ديسمبر ١١٣١، وهى أربعة عشر شهراً، كافية للتأكد من نتيجة الحُمل الذى أشار إليه الأمر قبل وفاته، وتبعاً لما ذكره الشريف محمد بن أسعد الجَوَانِي، ونقله المقرئى، فإن امرأة الأمر وَضَعَتْ مولوداً ذكراً، وأن هذا المولود هُرِّبَ من القصر فى قُبَّة على وجهها سَلَقٌ وكُرَّات إلى القَرَاة وكَيْم أمره، فعُرِفَ لذلك بِقَفِيَّة^٢.

وفى حقيقة الأمر فإننا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام انقلاب سياسى آخر فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية. فقد وَصَلَ إلينا نَصٌّ كبير الأهمية أورده ابن مُيَسَّر فى تاريخه^٣ يفيدنا أنه وُلِدَ للأمر ولدٌ ذكر قبل وفاته بشمانية أشهر فى شهر ربيع الأول سنة ٥٢٤/مارس سنة ١١٣٠ سَمَّاه أبا القاسم الطَّبِيب وجعله وَلِيَّ عَهده وبهذه المناسبة «زُيِّنَتْ مصر والقاهرة وعملت الملامى فى الأسواق ... ولبست العساكر ... وأخرج الأمر من خزائنه وذخائره قماشاً وصياغات وأوانى ذهب وفضة، فزُيِّنَ بها وعُلِقَ الإيوان جميعه بالستور والسلاح واستمرت الاحتفالات أربعة عشر يوماً. وعملت القَفِيَّة للمولود، وكان على الكَبْش الذى ذُبِخ بحضرة الإمام جلَّ دِياج وقلاد فضة، وشُرف القاضي محمد بن هبة الله بن

^١ Rogers Bey E. T., «Notices sur quelques pièces rares et inédites», *BIE* 20^e série n.3 (1882), pp.

32-33; Lane-Poole, S., *Catalogue of the Khedival Library*, p. 195 n. 1269-70

^٢ المقرئى: المَقْفَى ٣ : ٥١٦، اتعاض ٣ : ١٤٦، الخطوط ٢ : ٤٤٨، قارن، ابن ميسر: أخبار ١٢٠: الشيال :

مجموعة الوثائق الفاطمية ٩٤ .

^٣ ابن ميسر: أخبار ١٠٩-١١٠ وقارن، عماد الدين الأصفهاني: البستان الجامع ١٢١-١٢٢ النورى: نهاية ٢٨:

٢٩٥، ابن الفرات: تاريخ -خ ٢ : ١٧ (نقلا عن ابن أبى طي)؛ المقرئى: اتعاض ٣ : ١٢٨ .

مُيَسَّر القَيْسَرَانِي بحمل المولود حتى عُقِّ عنه بحضرة الإمام، ونثرت الدنانير على رعوس الناس، وعُمِلَت الأَسْمِطَةُ، وَكُتِبَ إلى الفيوم والشرقية والقلبوية بإحضار الفواكه فأحضرت وامتلاً الجو بدخان العود والعنبر^١، ولكن ابن مُيَسَّر لم يتعرض لذكر هذا الطفل أو مصيره مرة أخرى في تاريخه، وأشار فقط إلى أن الأمير عبد المجيد كَتَمَ أمر هذا الطفل بعد وفاة الأمر^٢.

ويؤيد هذا النص ويؤكد الوجود التاريخي للإمام الطُّيْب بن الأمر سِجِلْ أرسله الخليفة الأمر إلى الشَّيْدة الحرَّة في اليمن يُنْشَرها فيه ببلاد ابنه الطُّيْب في الليلة المصبحة ليوم الأحد الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ١٩/٥٢٤ مارس سنة ١١٣٠ وحَفِظَ نَصُّ السِّجِلْ عمارة اليمنى والداعي عماد الدين إدريس^٣.

^١ ابن ميسر: أخبار مصر ١٠٩-١١٠؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا ٣ : ١٢٨، المقفى الكبير ٧ : ٣٩٩.

^٢ نفسه ١١٣.

^٣ عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ١٢٧-١٢٩، عماد الدين إدريس: عيون الأخبار ٧ : ٩٧-٩٧ ط، ويلاحظ وجود

اختلاف بين تاريخ هذا السجل والتاريخ الذى ذكره ابن ميسر

ولم يُكُن هذا الإمام معروفاً للبحث التاريخي قبل أن يُنْشَر كائى فى سنة ١٨٩٢ كتاب «تاريخ اليمن» لعمارة

اليمنى Kay, H.C., *Yaman its Early Mediaeval History*, London 1892, p. 101 ولكن إشارة عمارة

هذه لم تُكُن كافية فيما يبدو لجذب الانتباه إلى وجود هذا الإمام إلى أن نُشَر ماسيه فى سنة ١٩١٩ كتاب «أخبار

مصر» لابن ميسر (ص ٧٢) حيث أشار تفصيلاً إلى ميلاد هذا الإمام والاحتفالات التى عُقِلت البلاد بهذه المناسبة،

وقد أشار إلى أهمية هذا النص فى تعليقه على نشره ماسيه (Wiet, G., *JA.*, XVIII (1921)p.112) ثم أَلْقَتْ

اكتشافات حسين همدانى عن التراث الإسماعيلى فى الهند كثيراً من الأضواء على وجود هذا الإمام فى رسالته التى

تقدم بها لجامعة لندن فى سنة ١٩٣١ بعنوان «تاريخ وعقائد الدعوة الإسماعيلية الطيبية فى اليمن» Hamdani, H.,

Doctrines and History of the Isma'ili Tayyibi Da'wa of al-Yaman, Ph. D. Thesis, University of London 1931 (Unpublished)

من كتاب «الاستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان» لعلم الدين الأصفهاني (٤) يبدأ بحوادث سنة ٥٠١ هـ وأشار

مؤلفه إلى ميلاد هذا الإمام واعتقاد بعض المصريين فيه Cahen, Cl., «Une Chronique Syrienne du VI/XII

siècle», *BEO* VIII (1937-38), p. 121 ثم أَلْقَتْ لنا الصورة بوضوح بالمقال الجليل الذى نشره صمويل شتيرن

سنة ١٩٥١ عن الخلفاء الإمام الأمر والدعوة الطيبية - Stern, S., «The Succession of the Fatimid Imam al-

Amir», *Oriens* IV (1951) pp. 193-243 ثم دَرَسَ حسين همدانى فى كتابه «الصُلَيْجِيُّونَ والحركة =

وبناء على هذا السَّجَل لم يصبح لدى أتباع الدعوة المستعلية أى شك فى مولد الإمام الطَّيِّب، الذى أخرجه الدُّعاة وكبار المؤمنين - كما تذكر الرواية اليمنية - من مصر وهربوه إلى اليمن بعد قيام أبى على الأَفْضَل بانقلابه^١. غير أن هذه الرواية لم تُشر إلى مصير هذا الطفل الذى أصبح رأس دعوة إسماعيلية جديدة اعترف بها إسماعيلية اليمن والهند.

وفى القاهرة قرئ سِجَلٌ فى ٣ ربيع الآخر سنة ٥٢٦هـ/٢٣ فبراير سنة ١١٣٢م بمبايعة الأمير عبد المجيد إمامًا وتلقيه بـ «الحافظ لدين الله»^٢، فركب من باب العيد إلى باب الذَّهَب بزى الخلفاء، ورَفَعَ عن الناس بواقى مَكْس القَلَّة وأمر أن يدعى على المنابر «اللهم صلى على الذى شَيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تَذَبَّر الحقائق بباطن البصيرة مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبى الميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين»^٣، وأصبح بذلك أوَّل خليفة فى تاريخ الدولة الفاطمية لم يكن أبوه إمامًا

= الفاطمية فى اليمن، القاهرة ١٩٥٥، ١٨٢-١٩٢ الدعوة الطيبية وأنصارها فى اليمن. وفى سنة ١٩٥٨ ناقش المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال الوجود التاريخي للإمام الطيب محمدًا فى الأساس على مخطوطة كتاب «اتعاظ الحنفا» للمقرئى التى لم تكن قد نُشِرت بعد (الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١ : ٧٤-٨٦) وإن أشار شتيرن بعد ذلك إلى أن المادة الموجودة عند الشيال وذكر أنها جديدة ليست جديدة تمامًا وأنه أخذها من مقال سالف الذكر Stern, S., *Fatimid Decrees*, London 1964, pp. 43-45 n.l. ثم درس كاتب هذه السطور الدعوة الطيبية وأدبها فى كتابه «تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى»، القاهرة-الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٨، ١٧١-٢٠٦.

^١ حماد الدين إفرسى : نزعة الأفكار مخ. همداني (٣٨ و. وراجع عن نظام الإمامة عند الإسماعيلية الطيبية، أمّين

فؤاد سيد : المرجع السابق ١٩٠-١٩٤ *Madelung, EI*² art. *Imāma* III, p. 1192.

^٢ عن فرة إمامة الحافظ راجع، ابن ظافر : أخبار ٩٤-١٠١، ابن الطوير : نزعة المقتلين ٢٦-٥٣، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٦٥، ابن خلطان : وفيات ٣ : ٢٣٥-٢٣٦، ابن مسير : أخبار ١١٣-١٤١، للنورى : نهاية-خ ٢٨ : ٢٩٦-٣١٠، ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٥٠٦-٥٠٤، الصفدى : الوافى ١٩ : ١٢٦-١٢٧، ابن الفرات، تاريخ-خ ٢ : ١٧-١٨، ٤٤٢ المقرئى : الخطط ١ : ٣٥٧، اتعاظ ٣ : ١٣٧-١٩٢، أبا المحسن النجوم ٥ :

٢٣٧-٢٤٥ *Magued, A. M., EI*² art. *al-Hāfiz* III, p. 56-57.

^٣ ابن مسير : أخبار مصر ١١٧، المقرئى : اتعاظ الحنفا ٣ : ١٤٦.

ويبدو هذا السَّجِلُّ، الذى حفظه لنا القلقشندى^١، حول فكرة أن الأمر - الإمام المنتقل - أوصى بالإمامة إلى ابن عمه عبد المجيد، تمامًا مثلما عقَّد النبي ﷺ الولاية لابن عمه على بن أبى طالب فى غدير خُثَمَ . ويشير السَّجِلُّ كذلك إلى تسمية الحاكم بأمر الله لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس ولحق عهد المسلمين . وتقصد هذه الوثيقة الهامة إلى التدليل على شرعية إمامة الحافظ لدين الله على أساس «نَصِّ» مزعوم قال به الأمر ولتصبح بذلك دليلًا على شرعية إمامة الخلفاء الفاطميين المتأخرين^٢.

والواقع أن الاعتراف بإمامة الحافظ يعد خروجًا على أُسُس نظام الإمامة عند الإسماعيلية، الذى يشترط أن تكون الإمامة دائمًا فى الأعقاب، ففى المرات القليلة التى تُخْرِجُ فيها عن هذه القاعدة كانت الإمامة تنتقل فقط من الابن الأكبر إلى أخيه الأصغر (عبد الله والعزير نزار والمُشتَغَلَى بالله)، ولكنها لم تخرج أبدًا من الأعقاب، لذلك فقد عمد بعض الدُّعاة إلى تبرير صِحَّة إمامة الحافظ فى أكثر من مناسبة، فينقل المقرئى على لسان داعى الدُّعاة إسماعيل بن سلامة الأنصارى قوله: «لولا أن مولانا الأمر نَصَّ على مولانا الحافظ رأودعه سير الخلافة لما ثَبَّتَتْ فيه ولا استجاب له الناس»^٣!

وبذلك انقسمت الدُّعْوَةُ الإسماعيلية فى مصر على نفسها مرة ثانية فى أقل من خمسين عامًا إلى: «طَيْبِيَّة» نسبة إلى الإمام الطَّيِّب بن الأمر الذى اعترف بإمامته كل الطائفة الإسماعيلية فى اليمن والهند استمرارًا للدُّعْوَةُ المستعلية، و«حافِظِيَّة» أو «مجيديَّة» نسبة إلى الحافظ عبد المجيد تَمْتَعَتْ بتأييد مؤسسة الدعوة فى مصر وقَبِلَهَا أَغْلَبُ الإسماعيلية المستعلية فى مصر والشام. وبقيت مع ذلك بعض جماعات من مستعلية مصر والشام ثَبَّتَتْ حقوق الإمام الطَّيِّب وعُرفوا «بالأمرية».

^١ القلقشندى : صبح : ٩ : ٢٩١-٢٩٧ وراجع الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٧١-١٠٢، ٢٤٩-٢٦٠ .

^٢ Sanders, p., «Claiming the Past : Ghadir Khumm and the Rise of Hâfizi Historiography in Late Fatimid Egypt», *SI* 75 (1992). pp. 81-104

^٣ المقرئى : اتماظ : ٣ : ١٦٩ .

وقد تجاهلت كُتُبُ التاريخ التي كتبت في مصر في عهد الحافظ لدين الله وما بعده أمر الإمام الطُّيِّب ولم تُشر إليه إطلاقاً، فيما عدا إشارة ابن مَيْسَر التي جاءت بعد هذه الأحداث بأكثر من مائة وثلاثين عامًا.

وبعد هذا الانقسام أصبحت هناك ثلاث دَعَوَات إسماعيلية في العالم الإسلامي، قُدِّرَ لاثنتين منها الاستمرار والقيام بنشاط مبرّز أنتج الكثير من أدب الدَّعْوَةِ: الدَّعْوَةُ الطُّيِّبِيَّةُ المستعَلِيَّةُ في اليمن وغرب الهند، والدَّعْوَةُ النَّزَارِيَّةُ الحشيشية في الشام وإيران وشمال الهند. أما الدَّعْوَةُ الحافظية فقد قضى عليها بسقوط الخلافة الفاطمية في مصر وعودة مصر مرة أخرى إلى أحضان العالم الإسلامي الشُّنِّي^١.

^١ عن تاريخ الحركة الإسماعيلية بعد سقوط الفاطميين (الإسماعيلية الطُّيِّبِيَّةُ والإسماعيلية النَّزَارِيَّةُ) راجع، Daftary، F.، *The Ismā'īlīs*، pp. 256-534؛ ودراسة عارف تامر، التي يغلب عليها الطابع الدعائي، : تاريخ الإسماعيلية،

الفصل السابع بداية التدهور

شهدت السنوات الأربعون الأخيرة في عمر الدولة الفاطمية في مصر تطورات خطيرة متتالية قادت إلى تدهورها وعَجَلَتْ بسقوطها . فقد انحصر نفوذ الخلافة نهائيا داخل حدود مصر وانفصل عنها بقية أتباعها الذين لم يعترفوا بأحقية الحافظ وخلفائه في الإمامة : وبذلك حَكَمَ الخلفاء الأربعة الأواخر في القاهرة كآسرة حاكمة مصرية محلية بلا سُلْطَة أو نفوذ أو أمل . ولم تجر أية محاولة لمدّ نفوذ الفاطميين خارج الحدود المصرية ، إذا استثنينا محاولة الخليفة الحافظ نُشْر دعوته لدى الزُرَّيعين^١ - حُكَّام عَدَن - الذين أجابوه إليها ، وكان هدفه من وراء ذلك ضمان السيطرة على طُوق التجارة المؤدية إلى الهند .

الحافظ وأولاده

أصبح الوزراء منذ بدر الجمالي هم السادة الحقيقيون للدولة الفاطمية . ولكن الحافظ - الخليفة الوحيد بين الفاطميين المتأخرين الذي كان رجلاً راشداً وقت اعتلائه العرش - تنبّه إلى ذلك وحرص على تقليص نشاط وزرائه . فبعد أن تَخَلَّص ، في نهاية عام

^١ الزُرَّيعيون . أسرة مبنية محلية يرجع أصلها إلى قبيلة همدان ، كان لجدهم الأعلى المتباس بن الكرم (المكرم) سابقة محمودة في قيام الدعوة الفاطمية مع الداعي على بن محمد الصُّلَيْحِي . وقد ولى المكرم أحمد الصُّلَيْحِي عباساً ومسعوداً ابني المكرم حكم عدن من قبل الصُّلَيْحِيين . وقد بدأ الاستقلال الفعلي لهذه الأسرة عن سلطة الصُّلَيْحِيين في وقت سبأ بن أبي السعد ، ولما استمالهم الحافظ للدعوة له أطلق على سبأ لقب الداعي حتى توفي سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩ م . ثم وصل إليهم القاضي الرشيد أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الأسواني سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤ م لإقامة الدعوة باسم الحافظ . (راجع ، أمين فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن ١٨٧-١٩٠) .

٥٢٦هـ/١١٣٢م، من وزيره أمير الجيوش سيف الإسلام أبي الفتح يانيس الحافظي^١ -
الذي قام بدور كبير في القضاء على أبي على الأفضل ومبايعة الحافظ بالإمامة - بعد أن
أمضى في الوزارة أقل من عام^٢، لم يتخذ الحافظ بعده وزراء لفترة تجاوزت العام.

وفي عام ٥٢٨هـ/١١٣٣م عَقَدَ الحافظ ولاية عهده إلى ابنه الأكبر أبي الربيع
سليمان وأقامه مقام وزير «ليستريح من مقاساة الوزراء وجفائهم عليه ومضايقاتهم إيّاه في
أوامره ونواهي»^٣. ولكن سليمان توفي بعد ذلك بشهرين، فترشّح لولاية العهد ابنه
التالي حسن، إلا أن الحافظ عَدَلَ عنه إلى ابنه الأصغر أبي تراب خيَندَرَة. وَحَفِظَ لنا
القلقشندي سِجِلَ مبايعة الحافظ لولده خيَندَرَة بولاية عهده والذي أمره فيه أن يَتَخَيَّرَ من
رجال دولته ووجوه أجناده وشيعته طائفة تنتمي إليه تسمى بـ «الطائفة العهدية» تظل
موقوفة على خدمة وَلِيِّ العهد خيَندَرَة، وهي أول مرة يقابلنا فيها إنشاء طائفة مماثلة في
العصر الفاطمي^٤. وكان الحافظ قد عَدَلَ بولاية عهده عن ابنه الثاني الحسن إلى ابنه
الأصغر خيَندَرَة، لأنه لم يستصلحه لذلك بسبب عقوقه لوالده، فشَقَّ ذلك على حسن

^١ أحد غلمان الأفضل شاعشه، تقدّم في الترتيب حتى أصبح «صاحب الباب»، وهي ثاني رتبة الوزارة حيث، وكان
يقال لها «الوزارة الصغرى». وتنسب إليه إحدى طوائف الجند المعروفة «بالطائفة البانسية». (ابن الطوير : نزعة
المقلعين ٣٥-٣٦، ١٢٢؛ ابن ظافر : أخبار ١٩٨، ابن مسير : أخبار ١١٧-١١٨، ابن الأثير : الكامل ١٠ : ١٦٧٣،
النويري : نهاية ٢٨ : ٢٩٩، ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٥٠٩، ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٢٨، ابن الفرات :
تاريخ ٢ : ٤٢، ٤٣، ز : للمقريزي : الحفظ ٢ : ١٦-١٧، الامايط ٣ : ١٤٤-١٤٥، أبو الحسن : النجوم :
٢٤٠).

^٢ احتفل في ٢ ذي القعدة وتوفي في ٢٦ ذي الحجة سنة ٥٢٦، وانظر القلقشندي : صبح الأعشى ٩ : ٢٩٧.
^٣ ابن مسير : أخبار ١٢١، ابن الطوير : نزعة ٣٧، ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٥٧، ز : للمقريزي : اعناط ٣ : ١٤٩،
+ للقفي ٣ : ٤١٦.

ويوجد في سوهاج بصعيد مصر نقش مؤرخ في المحرم سنة ٥٢٩ هـ باسم «ولي عهد المؤمنين... سليمان بن الإمام
الحافظ لدين الله أمير المؤمنين» (Wiet, G., RCEA VIII, p. 193 n. 3071).

^٤ القلقشندي : صبح ٩ : ٣٧٧-٣٧٩، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ٢٦٣-٢٦٥ والدراسة التحليلية ١٠٣-

لأنه كان يتطلع إلى هذا المنصب « لكثرة أمواله وبلاده وحواشيه وموكبه بحيث كان له ديوان مفرد »^١.

وفى سبيل تحقيق ذلك قام حسن بثورة خطيرة بدأت يوم الأربعاء ١٥ رمضان سنة ٥٢٨هـ / ٩ يولية ١١٣٤م، افترق فيها الجند فريقين : فالفرقة الرئحانية تساند خيْدرة صاحب الحق، والفرقة الجيوشية تساند حسن المتطلع إلى المنصب. ولم يجد الحافظ وسيلة لإيقاف هذه الثورة إلا مُدَاوَة ابنه الحسن، فكتب له سِجلاً بولاية عهده أرسله إليه وقرئ على المنابر يوم ٢٦ رمضان سنة ٥٢٨هـ / ٢٠ يولية ١١٣٤م^٢ « فتمكّن حسن من الدولة وتَصَرَّف فيها حتى لم يبق لأبيه معه حكم أثبته » كما يقول ابن مُيَسَّر^٣. وأمر الحسن أن يُدعى له على المنابر بالدعاء التالى : « اللَّهُمَّ سَيِّد بَيْقَاءَ وَلِىَّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ أَرْكَانِ خِلاَفَتِهِ وَقُلْدَةُ سِيُوفِ الْاِقْتِدَارِ فِى نَصْرِهِ وَكِفَايَتِهِ، وَأَعِزَّهُ عَلَى مَصَالِحِ بِلَادِهِ وَرِعِيَّتِهِ، وَاجْمَعْ شَمْلَهُ بِهِ وَبِكَافَةِ السَّادَةِ إِخْوَتِهِ الَّذِينَ أَطْلَعْتَهُمْ فِى سَمَاءِ مَمْلَكَتِهِ بِدَوْرًا لَا يَغْيِرُهَا الْحَقُّ، وَقَمِّعْتَ بِبَاسِهِمْ كُلَّ مُزْتَدٍّ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاقِ وَالتَّفَاقِ، وَشَدَّدْتَ بِهِمْ أَزْرَ الْإِمَامَةِ، وَجَعَلْتَ الْخِلاَفَةَ فِى عَقْبِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ »^٤.

يقول ابن ظافر : إن حسن كان يرى رأى الشنّة، ولما قوى أمره أراد قتل أمراء الدولة وسجن أبيه والتضييق عليه. فلما علم أمراء الدولة بذلك حضروا إلى بين القصرين وعزموا على خلع الحافظ وولده. فراسلهم الحافظ وعرفهم مكانتهم عنده وأنه قد غلب على أمره. فأرادوا قتل الحسن، ولكن أباه أمهلهم وأحضره إليه فى القصر واحتاط عليه، غير أن الأمراء لم يرضوا بديلاً عن قتله وأنذروا الحافظ بأنه إن لم يُنْقَذْ طلبهم خلعوه وولوا

^١ ابن الطوير : نزهة ٣٧؛ ابن الفرات : تاريخ-خ ٢ : ٥٧ ط؛ المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٤٩، المقفى ٣ : ٤١٦.

^٢ المقرئى : المقفى ٣ : ٤١٦.

^٣ ابن ميسر : أخبار ١٢٠.

^٤ ابن ظافر : أخبار ٩٦.

غيره . فاضطر الحافظ إلى سَمِّ ولده عن طريق سُقْيَةِ وَصَفَهَا له ابن قِرَّة اليهودى الطيب . وأرسل الأمراء مندوبين عنهم إلى القصر لمشاهدته ، ولم يتأكدوا من وفاته إلا بعد أن طعنه أصددهم فى مواضع من جسده تحقق بعدها من وفاته ^١ . وبذلك انتهت هذه الفِتنة التى قُتِلَ فيها نحو عشرة آلاف نفس ، وكانت كما يقول المقرئى : « أول مصيبة نزلت بالدولة من قتلِ رجالها ونقص عدد عساكرها » ^٢ .

وزارة بهرام الأزمنى

كان الأمير حسن أثناء الأزمة قد راسل بهرام الأزمنى التضرانى - والى الغريبة- ليصل إليه بالأزمن ليعزز موقفه بهم ^٣ . فلما قرب بهرام من القاهرة كان الأمير حسن قد قُتِل ، فتمسكت طائفة الأجناد ، الذين حملوا الحافظ على قتل ابنه بهرام وأدخلوه على الحافظ وألزموه أن يولِّيه الوزارة ^٤ ، فلم يجد بداً من إجابتهم خوفاً من أن تثور الفتن مرة أخرى . فخلعَ عليه خلع الوزارة يوم الجمعة ١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٢٩هـ / مارس سنة ١١٣٥م ونعته بـ « السَّيِّد الأجل » ، أمير الجيوش سيف الإسلام ، تاج الخلافة (الدولة) ، ناصر الإمام ، غياث الأنام ، أبى المظفر بهرام الحافظى ، وهو باق على دين

^١ راجع ، ابن ظافر : أخبار ٩٦-٩٧هـ ابن الطوير : نزعة ٣٧-٤١هـ ابن القلانسى : ذيل ٢٤٢هـ عماد الدين الأصبهانى : البستان الجامع ١٢٣هـ أبو صالح : تاريخ ٢٦هـ ، ٥٤هـ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٢٨-٣٠هـ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٧٣هـ ، ١١ : ٢٢-٢٣هـ ابن ميسر : أخبار ١١٩-١٢٢هـ ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٥١٤-٥١٥هـ التويرى : نهاية ٢٨ : ٢٩٩-٣٠٠هـ الصفدى : الوافى ١٢ : ٩٤هـ ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٤٣ ط- ٤٤هـ ، ٧٨هـ- ٦٠هـ والمقرئى : الخطط ٢ : ١٧-١٨هـ ، اتماظ ٣ : ١٤٩-١٥٥هـ ، المقفى ٣ : ٤١٦-٤١٨هـ ، أبى المحاسن : النجوم ٢٤١-٢٤٢هـ .

^٢ المقرئى : المقفى ٣ : ٤١٨هـ ، اتماظ ٣ : ١٤٩هـ .

^٣ ابن الطوير : نزعة ٣٨هـ ابن ميسر : أخبار ١٢١هـ ابن الفرات : تاريخ ٢ : ٥٨هـ أبو المحاسن : النجوم ٢٤٣هـ وقارن المقرئى : اتماظ ٣ : ١٥٤هـ .

^٤ ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٢٩هـ ، المقرئى : المقفى ٢ : ٥١٣هـ .

النصرانية، فأصبح بذلك أول نصرانى يتولّى وزارة تفويض للفاطميين^١. وقد أشار كبار رجال دولة الحافظ عليه بالآيؤليه الوزارة لأنه نصرانى، وأن من شروط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر فى الأعياد، كما أن القضاة هم ثواب الوزراء من زمن أمير الجيوش، فلم يأخذ بنصيحتهم وجعل القاضى ينوب عنه فى صعود المنبر، ولم يؤد إليه شيئاً من الأمور الشرعية^٢، فكان يقعد فى يوم الجمعة عن الصلاة ويعدل إلى مكان بمفرده إلى أن تنقضى الصلاة^٣.

ومعلوماتنا عن بهرام مصدرها ابن الطوير وابن مثير ومؤهب بن منصور، وتفيدنا أنه وصل إلى مصر من جملة الأزمن الذين جاءوا مع بدر الجمالى، وأن أصله من قلعة الروم وتل باشر. وقد بدأت هجرة الأزمن بعد أن وضع البيزنطيون أيديهم على أرمينية فى أواسط القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى. ومنذ وصول بدر الجمالى إلى قمة السلطة بدأ توافد الأزمن فى أعداد كبيرة إلى مصر. وقد شجّع التسامح الدينى المعروف عن الفاطميين - والخمسون عامًا التى أمضاها بدر الجمالى وولده الأفضل فى الحكم - هجرة الأزمن التى أخذت فى التزايد إلى القاهرة^٤، وقد أقام الأزمن فى القاهرة فى حى الحسينية خارج باب الفتوح^٥.

وفى فترة وزارة بدر الجمالى وصل إلى مصر البطرك الأزمنى أغريغوريوس نحو سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م حيث أحسن بدر الجمالى والخليفة المستنصر استقباله. وقد أقطع بدر الجمالى للأزمن - فى أول الأمر - طراً جنوب القسطنطاف فجددوا فيها كنيسة مارى

^١ ابن الطوير: نزعة ٤٤٤ ابن ميسر: أخبار ١٢٢، المقرئى: المقتضى ٢: ٥١٣ ابن طاهر: أخبار ٩٧ النويرى: نهاية ٢٨: ٣٠١ Stern, S.M., *Fatimid Decrees*, p. 59.

^٢ ابن الطوير: نزعة ٤٤٤ ابن ميسر: أخبار ١٢٣، النويرى: نهاية ٢٨: ٣٠٠-٣٠١، الفرات: تاريخ ٢: ٦٠، والمقرئى: المقتضى ٢: ٥١٤، وإتباط ٣: ١٥٦.

^٣ المقرئى: للفتى ٢: ٥١٤.

^٤ Canard, M., «Notes sur les Arméniens en Egypte à l'époque fatimide», *AIEO XIII* (1955), p. 145.

^٥ ابن الطوير: نزعة ٤٤٦ ابن ميسر: أخبار ١٢٥ ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة ١/٣: ٢٠-٢٩.

جرجس^١ ثم بنوا كنيسة أخرى بأرض الزُّهري (بالقرب من السيدة زينب الحالية) نهبها العامة عندما ثاروا على الأُزْمَن عام ٥٣١هـ/١١٣٣م^٢. وهذا البَطْرُك هو دون شك أخو بُهْرَام بما أن قبره قد نبشته العامة وقت ثورتهم ضد الأُزْمَن^٣. وعلى ذلك فيفترض أن عمر بُهْرَام كان عند قدومه إلى مصر نحو ثمانية عشر عامًا، وأنه تولَّى الوزارة وله من العمر ثمانون عامًا وتوفى عام ٥٣٥هـ/١١٤٠م عن خمسة وثمانين عامًا^٤.

ولاشك أن الوزراء ذوى الأصل الأُزْمَنِي الذين تولَّوا منذ بدر الجمالي قد أحاطوا أنفسهم بجنود من الأُزْمَن، وشجَّعوا هجرة الأُزْمَن لهذا الغرض، ومن المحتمل أن تكون الطائفة الجيوشية (نسبة إلى أمير الجيوش بدر) تتألف في أغلبها من الأُزْمَن^٥. كذلك فإن أبا الفتح يانس - آخر وزير أُزْمَنِي قبل بُهْرَام - كانت تُنسب إليه الطائفة البانيسية التي كانت مكونة في أغلب الظن أيضًا من الأُزْمَن^٦. وربما انتمى بُهْرَام إلى إحدى هاتين الطائفتين قبل أن يصبح «مُقَدِّم الأُزْمَن»^٧.

وقد أخذ بُهْرَام يتقدَّم في الحِدَم طوال خمسين عامًا حتى استقرَّ واليًا على الغربية - وقاعدتها يومئذ المحلة - التي سار منها إلى القاهرة حيث استوزره الحافظ^٨. وبعد أن استقر بُهْرَام في السلطة لم يتردَّد في تَبْنِي سياسة شخصية أرمنية مسيحية أدَّت إلى سقوطه في نهاية الأمر. فقد سأل الخليفة الحافظ في السماح له بإحضار إخوته وأهله من تَلَّ باشر

^١ أبو صالح : تاريخ ٤٦١ ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٢٩ .

^٢ ابن الطوير : نوبة ٤٦ ، ساويرس : تاريخ ١/٣ : ٣١ .

^٣ نفسه ٤٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٥ .

^٤ Canard, M., *op.cit.*, p. 144 .

^٥ رغم أن أبا صالح الأرمني أن يذكر أن الجيوشية كانت طائفة من الرجال السودان ١ (تاريخ ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٤) .

^٦ Canard, M., « Un vizir chrétien à l'épopée fatimide : l'arménien Bahram » *AIEO XII* (1954),

p. 93 .

^٧ ابن القلانسي : ذيل ٢٦٢ ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٢٩ .

^٨ ابن ميسر : أخبار ١٢٢-١٢٣ المقرئ : اتماط الحفا ٣ : ١٥٦ Dadoyan, S.B., *The Fatimid*

Armenians-Cultural and Political Interaction in the Near East, pp. 90-105

(مسقط رأسه) وبلاد الأزمن، فأذن له فى ذلك، حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان استطالوا على المسلمين وأصابهم منهم جور عظيم. كذلك بُنى فى أيامه العديد من الكنائس والأديرة حتى صار كل رئيس من الأزمن يبنى له كنيسة «وخاف أهل مصر منهم أن يُغَيِّرُوا مِلَّةَ الإسلام»^١.

وفى إطار هذه السياسة أصبح أغلب ولاية الدواوين من الثصارى^٢، كذلك ولّى بهرام أخاه المعروف بالباساك ولاية قوص، وهى يومئذ أعظم ولايات مصر، فاستقوى بأخيه وتمادى فى ظلم المسلمين ومصادرة أموالهم^٣.

الاستجداد برضوان بن ولحشى ونهاية بهرام

لم يرض أهل مصر وأمرأؤها بهذا الوضع الشاذ، فكتبوا إلى رضوان بن ولحشى، وإلى الغربية، يستنهضونه للقُدوم عليهم وإنقاذهم من سيطرة الثصارى. وفور أن وصلت إليه كتب الأمراء صعد المنبر وخطب فى الناس خطبةً بليغة حثهم فيها على «الجهاد»، وأخذ فى حشد العُزبان حتى اجتمع له نحو ثلاثين ألف فارس سار بهم تجاه القاهرة^٤. وعندما خرج بهرام لملاقاته رَفَعَ جنودُ رضوان المصاحف على أسيّة الرُماح فما هى إلا بُوْهة

^١ ابن مسير: أخبار ١٢٤ النورى: نهاية ٢٨: ٣٠١-٣٠٢؛ المقرئى: المقفى ٢: ٥١٤، اتماظ ٣: ١٥٩؛ Dadoyan, S. B., *op.cit.*, pp. 86-87.

^٢ أهم من تولى الدواوين من الثصارى فى زمن بهرام، صنيعة الخلافة أبو الكرم الأخرم بن أبى زكريا النصرانى. (ابن الطوير: نزعة المقلتين ٧٩-٨٠، ابن مسير: أخبار ١٢٩؛ المقرئى: اتماظ ٣: ١٦٥، ١٨٤).

^٣ نفسه ١٢٥؛ المقرئى: اتماظ ٣: ١٦٥.

^٤ انظر ما جاء فى السجل الذى كتب به المحافظ رُكناً على طلب بهرام الأمان موضعاً غضب المسلمين على تولية الوزارة (القلقشندي: صبح الأعشى ٨: ٢٦١).

^٥ ابن الطوير: نزعة ٤٤-٤٧؛ ابن ظافر: أخبار ٩٨؛ ابن الأثير: الكامل ١١: ٤٨؛ ابن مسير: أخبار ١٢٤-١٢٥؛ ساويرس: تاريخ البطارقة ١/٣: ٣٠؛ النورى: نهاية ٢٨: ٣٠٢؛ ابن الفرات: تاريخ ٢: ٦١؛ المقرئى: المقفى ٢: ٥١٤، الخطط ١: ٢٠٥، اتماظ ٣: ١٦١.

حتى ترك المسلمون جيش بَهرام والتجفوا بأجمعهم إلى جيش رِضْوَان ، بناءً على اتفاق بين الأمراء ورِضْوَان . وعندما رأى بَهرام ذلك بعث إلى الخليفة يُقرِّفه بما جرى ، فخاف من عاقبة هذه المواجهة وأشار عليه بالتوجه إلى قُوص والاحتماء بأخيه الباساك هناك^١ .

كان خبرُ قدوم رِضْوَان وإعلانه الجهاد ضد النصارى قد سبق بَهرام إلى قُوص ، فالتفت أهلها على الباساك وقتلوه وطرحوه في النهر ، فاضطر بَهرام أن يسير مع أصحابه من الأزمن إلى أشوان ليتقوى بأهل النوبة ، وهم نصارى ، ضد رِضْوَان^٢ . وقد بعث رِضْوَان ، الذي تولّى الوزارة فور دخوله القاهرة ، جيشًا على رأسه أخيه ناصر الدين الأُوحد إبراهيم لمطاردة بَهرام^٣ . ولكن اتفاقًا وُدّيًا بين الخليفة وبَهرام أمّنه فيه على نفسه وأقاربه ، وبدخل صريح من روجر الثانى Roger II ملك صقلية ، أوقف هذه الحملة ، وأقرّه فيه على الإقامة فى الأديرة البيض بالقرب من إخميم^٤ حيث بقى بها إلى سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩م ، بينما خيّر أهله فى الإقامة فى مصر أو الخروج منها إلى بلدهم نَلّ باشير^٥ . وبما أن الخليفة كان مستاءً من رِضْوَان وتصرفه ، فقد أرسل فى سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩م ، فى إحضار بَهرام وأسكنه معه فى القصر يشاوره فى تدبير الدولة ، مما أغضب رِضْوَان واضطره إلى الهرب^٦ .

وعندما توفى بَهرام فى القصر فى ٢٤ ربيع الثانى سنة ٥٣٥هـ / ٧ ديسمبر

^١ نفسه .

^٢ نفسه وكذلك : Garcin, J. Cl., *Un centre musulman de la Haute-Egypte médiéval: Qûs*, pp. 85-86 .

^٣ ابن مسير : أخبار ١٢٦ للمقريزى : اتعاط ٣ : ١٦١ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٠٣ .

^٤ أبو صالح : تاريخ ١٠٦ ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٨ . وانظر نص الأمان الذى كتبه الحافظ لبهرام وأقاربه عند ،

القلقشندى : صبح ١٣ : ٣٢٥-٣٢٦ . وكذلك شرح الحافظ موقفه من بهرام فى رسالة بعث بها إلى روجر الثانى

ملك صقلية أوردتها القلقشندى : صبح ٦ : ٤٦٠-٤٦٣ ، ودراسة كانتر Canard, M., « Une lettre du calife fatimide al-Hafiz à Roger II » dans *Atti del Convergo Internazionale di Studi Ruggeriani*,

Palerm 1955, pp. 126-146 .

^٥ ابن مسير : أخبار ١٢٦ .

^٦ نفسه ١٣٠-١٣١ ابن القلانسي : ذيل ٢٧٠ ابن ظافر : أخبار ٩٩ ، النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٠٤-٣٠٥ .

١١٤٠ م، حزن عليه الحافظ حزناً شديداً وأمر بإغلاق الدواوين ثلاثة أيام حداذاً عليه ، وأحضر بطرك الملكية بمصر وأمره بتجهيزه ، وسار الحافظ فى مقدمة مشيعيه راكباً بغلته خلّف التابوت بعمامة خضراء وثوب أخضر من غير طيلّسان ، وحوله أعيان الدولة حتى دُفِنَ فى دير الخنْدَق ظاهر القاهرة^١.

وبوفاة بهرام انتهت مرحلة هامة فى تاريخ الدولة الفاطمية ، مرحلة سيطر فيها العنصر الأرمنى على مقاليد الأمور فى مصر ، وهى المرحلة التى بدأت مع أمير الجيوش بدر الجمالى واستمرت مع خلفائه الأفضّل شاهنشاه ، وأبى على الأفضّل كُتَيْفَات ، وأبى الفتح يانّس وانتهت بوفاة بهرام . وهى ليست فحسب حدث عابر فى التاريخ ، بل بالأحرى الطور الأخير فى الحلف المستمر بين طوائف الأرمّن والمسلمين .

وقد لعب الأرمّن دوراً سياسياً وعسكرياً وحضارياً كبيراً فى مصر ، فهم الذين حافظوا على استمرار الدولة ، وتمثّل عمارة أبواب القاهرة وأسوارها التى أنجزت فى عصر بدر الجمالى تأثير العمارة الأرمنية على هذه المنشآت الدفاعية بوضوح^٢ . ونستطيع أن نميّز بين نوعين من الأرمّن الذين تولّوا السلطة : الأرمّن الذين اعتنقوا الإسلام وتمثّلهم الأسرة الجمالية (بدر الجمالى والأفضّل شاهنشاه وأبو على كُتَيْفَات) وطلّاع بن رُزَيْك وولده رُزَيْك ؛ والأرمّن الذين استمروا على نصرانيتهم ويمثّلهم بهرام الأرمنى وأخوه الباساك^٣.

^١ نفسه ١١٣٣ التويرى : نهاية ٢٨ : ٣٠٥ المرقري : المقفى ٢ : ٥١٦ والاتعاظ ٣ : ١٧٥ وذكر ساويرس :

تاريخ ١/٣ : ٣٣ أن تابوته أخرج من باب السباط بالقصر إلى كنيسة الزهرى .

^٢ انظر فيما يلى الفصل الرابع عشر .

^٣ Dadoyan, S. B., *op.cit.*, p. 85

رَضْوَانُ بْنُ وَحْشَى وَبداية

الإصلاح السنّي

فور أن فرَّ بهْرام من القاهرة دَخَلَ إليها رَضْوَانُ بْنُ وَحْشَى ووَصَلَ إلى بين القصرين ، واضطر الخليفة الحافظ إلى الرضوخ لضغط الأمراء وأشار بتزول رَضْوَانُ في دار الوزارة وَخَلَعَ عليه خَلَعَ الوزارة في ١١ جمادى الأولى سنة ٥٣١هـ / فبراير ١١٣٧م ، ونعته في سجل توليته بـ « السَّيِّدُ الْأَجَلُ الْأَفْضَلُ ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافِلُ قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ وهاذى دُعاةِ الْمُؤْمِنِينَ ، أُمِّي الْفَتْحِ رَضْوَانُ الْحَافِظِي »^١.

كان رَضْوَانُ بْنُ وَحْشَى أَوَّلَ وزير سُنِّي يتولَّى الوزارة للفاطميين ، وكان أصله من « صِبْيَانِ الرُّكَّابِ » وكان يُتَّصَفُ بالشجاعة حتى لُقِّبَ بـ « فَعَلِ الْأُمَرَاءَ » ، وشارك في القبض على أبي علي الْأَفْضَلُ كُتَيْبَات سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م^٢ ، وترقَّى في الخِدم حيث تولَّى ولاية قُوصٍ وإخميم سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م^٣ . وكان بهْرام الْأَزْمَنِي يخشاه فأخرجه من مصر سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م وولَّاه ولاية عَشَقْلَان فَمَنَعَ كثيرًا من الْأَزْمَن من التوجُّه منها إلى مصر ، مما أثار غضب بهْرام فاستدعاه منها وولَّاه الغرية . وقد حَمَدَ له المصريون تصرفه مع الْأَزْمَن ولجئوا إليه عندما ثاروا عليهم .

^١ ذكر ابن الأثير ونقل عنه أبو الفدا والمقرئ أن رَضْوَانُ بْنُ وَحْشَى هو أَوَّلُ من لُقِّبَ « بالملك » ، مضافاً إلى بقية الألقاب من وزراء الفاطميين . (ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٨ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٢ ؛ المقرئ : الخطط ١ : ٤٤٠ ، اتعاظ ٣ : ٦١) . ويدو أن الصواب غير ذلك فسجل تولية رَضْوَانُ الذي أورده القلقشندي : صبح ٨ : ٣٤٢ - ٣٤٦ لم يرد فيه ذكر للقب الملك . وذكر المقرئ في ترجمة الصالح طلائع بن رزيق أنه « أنشئ له سجل عظيم نعت فيه بالملك الصالح ، ولم يلقب أحد من الوزراء قبله بالملك وذلك يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٩ هـ . (اتعاظ ٣ : ٢١٨ ، وقارن : الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٤٠ - ١٤٣ وانظر كذلك ابن ظافر : أخبار ٩٩ : ابن ميسر : أخبار ١٢٦ : النويري : نهاية ٢٨ : ٣٠٣ وفيما يلي الفصل العاشر) .

^٢ المقرئ : الخطط ٢ : ٢٠٣ ، اتعاظ ٣ : ١٥٧ ؛ ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٣٠ م ٤ .

^٣ ابن ميسر : أخبار ١٣٨ ؛ المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٨٤ .

وجاء فى سِجِلْ تَقْلِيدِهِ الوِزَارَةِ - الذى أَنشَأَهُ ابن الصَّبِيْزِى - «لأنك أَدَقَّيْتُ عن الدولة عَازَهَا، وَأَمَطَّتْ من طَرَقِ الهِدَايَةِ أَوْعَارَهَا، واستعدتْ مَلَابِسَ سِيَادَةِ كان قد دَنَسَهَا من استعارها»^١. وبدأ رِضْوَانُ إِصْلَاحَاتِهِ بِاسْتِخْدَامِ الْمُسْلِمِينَ فى الْمَنَاصِبِ الَّتِي كَانَتْ بِأَيْدِي النُّصَارَى وأمر بعدم استخدام النُّصَارَى فى الدواوين الكبار ولا نُظَّارًا ولا مُشَارِفِينَ^٢ وعمل على تَقْدِيمِ أَرْبَابِ الْمَعَارِفِ سَيِّفًا وَقَلَمًا، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَزَادَ فى أَرْزَاقِهِمْ^٣ وشَدَّدَ على النُّصَارَى أَصْحَابَ بَهْرَامٍ وَصَادِرِهِمْ وَقَتْلَهُمْ بِالسَّيْفِ وَأَبَادَ أَكْثَرَهُمْ^٤ وأبعد صَنِيعَةَ الْخِلَافَةِ أَبَا الْكُرْمِ الْأَخْرَمَ النُّصْرَانِيَّ عَنْ دِيْوَانِ النَّظَرِ، وَهُوَ النُّصْرَانِيُّ الْوَحِيدُ الَّذِي تَوَلَّى هَذَا الدِّيْوَانَ وَتَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِالضَّمَانِ، وَاسْتِخْدَمَ عَوَضًا عَنْهُ كَاتِبًا مُسْلِمًا بِلا ضَمَانٍ هُوَ الْقَاضِي الْمُرْتَضَى بْنُ الْمُحَنِّكَ^٥.

وبعد ذلك طَلَبَ رِضْوَانُ إِلَى دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ إِثْنَاءَ سِجِلِّهِ فى الْوَضْعِ مِنَ النُّصَارَى وَالْيَهُودِ، أَنشَأَهُ ابن الصَّبِيْزِى، مُنِعُوا فِيهِ مِنْ «إِرْخَاءِ الذُّوَائِبِ، وَرُكُوبِ الْبِغَلَاتِ، وَالْأُيُوسِ، وَبَلْبَسِ أَحَدٍ مِنْهُمْ طَيْلَسَانَ، وَأَمْرَهُمْ بِشَدِّ الزَّنَانِيرِ الْخَالَفَةِ لِأَلْوَانِ ثِيَابِهِمْ، وَالْأُيُوسِ يَجُوزُوا عَلَى مَعَابِدِ الْمُسْلِمِينَ رُكْبَانًا - فَمَا رَئَى فى أَيَّامِهِ يَهُودِيَّ وَلَا نَصْرَانِيَّ يَجُوزُ عَلَى الْجَامِعِ رَاكِبًا، وَإِذَا اضْطُرَّ إِلَى الْجَوَازِ نَزَلَ وَقَادَ دَابَّتَهُ - وَأَمْرًا لَا تُسَلَّمُ الْجِزْيَةُ مِنْهُمْ إِلَّا عَلَى مَسَاطِبٍ وَهُمْ أَسْفَلُهَا، وَمَنْعَهُمْ مِنَ التَّكْنِيِّ بِأَبْنَى الْحَسَنِ وَأَبْنَى الْحُسَيْنِ وَأَبْنَى الطَّاهِرِ، وَأَنْ لَا يُقْبَضُوا قُبُورَهُمْ»^٦.

^١ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٤٤٨ المقيزى : اتعاط ٣ : ١٨٤ .

^٢ نفسه ٤٥٠ : ابن ميسر : أخبار ١٢٨-١٢٩ : ساويرس بن المقفع : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٣١ : ابن الفرات : تاريخ-

خ ٦٢ : ظ .

^٣ نفسه ٤٤٩ المقيزى : اتعاط ٣ : ١٦٥ .

^٤ ابن ميسر : أخبار ١٢٩ المقيزى : اتعاط ٣ : ١٦٥ .

^٥ ابن الطوير : نزعة ٢٩ المقيزى : اتعاط ٣ : ١٦٥ . وانظر عن الضمان فيما يلى الفصل الرابع عشر .

^٦ نفسه ٤٩-٤٥٠ : ابن الفرات : تاريخ-خ ٦٢ : ظ ١٦٥ المقيزى : اتعاط ٣ : ١٦٥ .

وقد ضاعف رِضْوَانُ الحِزْبِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وجعلها ثلاث درجات : الأغنياء ويدفعون أربعة دنانير وسدس ، والأوسطين ويدفعون دينارين وقيراطين ، ثم بقية عامتهم ويدفعون دينارًا واحدًا وثلاث وربع ، وألزمهم أن يشدّوا زنانيرهم في أوساطهم^١ .

ولاشك أن رِضْوَانُ بْنُ وَلَحْشَى لم يكن يعترف بشرعية خلافة الحافظ بما أنه سُنيّ المذهب ، فعمل على خَلْعِ الحافظ بحجة أنه ليس خليفة أو إماما وإنما هو كفيل لغيره وذلك الغير لم يَصِحَّ ، واستفتى العلماء في ذلك فامتنعوا ، وبلغ ذلك الحافظ فأضمره له^٢ .

الإصلاح السنيّ

كان وصول رِضْوَانٍ إِلَى مَنْصَبِ الْوِزَارَةِ - كأول وزير سني للفاطميين - بداية تحوّل سُنيّ بطيء قاد إلى انتصار السُنّة النهائي في مصر بعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا . ولما كانت الإسكندرية من أهم مراكز المقاومة السنية في مصر وملجأ كل الخارجين على الدولة الفاطمية ، فقد بنى بها الوزير ابن وَلَحْشَى أول مدرسة في مصر لتدريس المذهب المالكي في سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م^٣ . فقد كان المذهب الشائع بين أهل الإسكندرية هو المذهب المالكي بسبب علاقتها الواسعة مع شمال إفريقيا والأندلس . وكان الفقيه المالكي أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي ، الذي استقر في الإسكندرية سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م ، قد قام ، كما تذكر المصادر ، بتدريس المذهب المالكي في مدرسة أنشأها في بيته^٤ . لذلك كان من الطبيعي أن يبنى ابن وَلَحْشَى مدرسته في الإسكندرية ؛ لأن القاهرة كانت في

^١ ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٣١ ، انظر فيما يلي الفصل الرابع عشر .

^٢ ابن الطوير : نزعة المقلتين ٥١-٥٢ .

^٣ ابن ميسر : أخبار ١٣٠ ، النويري : نهاية ٢٨ : ٣٠٤ ، القلقشندي : صبح ١٠ : ٤٥٨-٤٥٩ ، المقرئ : اتعاظ

٣ : ١٦٧ . وانظر فيما يلي الفصل الرابع عشر .

^٤ الضبي : بغية الملتبس في تاريخ الأندلس ١٢٧ .

هذا الوقت عاصمة الفاطميين ومركز النشاط الشيعي في العالم الإسلامي ، والمدرسة ابتكار سُئى وظاهرة جديدة في مصر . ولاشك أن إقامة مؤسّسة سنّية هامة كالمدرسة في العاصمة الشيعية كان من شأنه قلب التوازن بين الخليفة ووزيره . وبما أن الإسكندرية مدينة كل سكانها من أهل السنة ، كان طبيعياً أن يبنى رضوان مدرسته بها ليقاوم بها مذهب الدولة ولتُعْلَى كلمة الإسلام السنّي في مواجهة اتساع نفوذ أهل الذمّة الذي تزايد في العقود الأولى للقرن السادس^١ . ومع ذلك استصدر رضوان سِجْلاً من الخليفة تُسَبِّت فيه المدرسة إلى الخليفة وعرفت « بالمدرسة الحافظيّة » ولم تُنسب فيه إلى الوزير الذي بناها ؛ لأن الخليفة وليس الوزير هو الذي كان يُضدّر الأمر بتعيين مُدَرِّسها بناء على اقتراح من الوزير . وتولّى تدريس هذه المدرسة الفقيه المالكي أبو الطاهر بن عَوْف^٢ ، وعرفت لذلك في المصادر بـ « المدرسة العَوْفية » وقد حَفِظَ لنا القلقشندي نَصَّ السِجْلِ الخاص بإنشاء هذه المدرسة^٣ .

وبعد أربعة عشر عاماً من إنشاء المدرسة الحافظية ، أنشأ وزير سنّي آخر هو العادل بن السّلال مدرسةً ثانيةً في الإسكندرية لتدريس المذهب الشافعي ، وقَرَّر في تدريسها الحافظ الشهير أبا الطاهر السّلفي^٤ . ويذكر السّبكي أن ابن السّلال بنى هذه المدرسة وهو وال على الإسكندرية قبل أن يلي الوزارة^٥ ، بينما حدّد ابن خُلّكان تاريخ بنائها في سنة

^١ راجع أمين فؤاد سيد : « المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي » في كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية القاهرة ١٩٩٢ .

^٢ راجع ابن فرحون : الديباج المذهب ١ : ٢٩٢-٢٩٥ ؛ أبا المحاسن : النجوم ٦ : ١٠٠ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٤٥٢-٤٥٣ .

^٣ القلقشندي : صبح ١٠ : ٤٥٨-٤٥٩ ؛ السّيال : « أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية » مجلة كلية الآداب-جامعة الإسكندرية / (١٩٥٧) ٣-٢٩ .

^٤ أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٢٧ ؛ ابن خُلّكان : وفیات ١ : ١٠٥ ، ٣ : ٤١٧ ؛ السّبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٣٧ : ٦ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٧ : ٣٥٤ ؛ المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٩٨ .

^٥ السّبكي : طبقات الشافعية ٦ : ٣٧ .

٥٤٦هـ/١١٥٠م^١، أى فى الوقت الذى تولى فيه ابن الشلار الوزارة، إلا أنه عاد فى موضع آخر ليؤكد أن ابن الشلار بناها وهو مازال واليًا على الإسكندرية^٢ متابعًا فى ذلك نص الشبكي.

رضوان يواجه الفرنج (الصلبيين)

كان استيلاء الفرنج (الصلبيين) على بيت المقدس فى سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م حافزًا للفاطميين على حفظ ما تبقى لهم من ممتلكات فى جنوب فلسطين، فاهتموا بإيجاد حامية قوية فى عسقلان تُجرّد إليها العساكر والأساطيل فى شكل أبدال تتوالى على حمايتها كل ستة أشهر^٣.

وعندما تولى رضوان الوزارة للحافظ سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م استجد «ديوان الجهاد» واهتم بتقوية الثغور واستعد لتعمير عسقلان بالعُدَّة والآلات، وهيًا الناس للخروج إلى الشام وغزو الفرنج^٤. ولكن الخليفة الحافظ منعه من ذلك إذ أرسل يستدعى بهرام (الوزير الذى حلّ محله رضوان) وأسكنه معه فى القصر يستشيريه فى أموره، كما حثّ الجند على التحرش برضوان حتى ثاروا عليه وضعفت قدرته على مواجهتهم واضطر إلى الفرار من مصر فى ١٥ شوال سنة ٥٣٣هـ/١٥ يونية ١١٣٩م وقصد الاحتماء بأمين الدولة كمشتكين الأتابكي صاحب صرخند الذى أحسن استقباله وأكرم ضيافته كما يذكر أسامة بن مُتَيْد وابن القلانسي^٥.

^١ ابن خلكان : وفيات ١ : ١٠٥ .

^٢ نفسه ٣ : ٤١٧ .

^٣ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٣ ، ٤١ .

^٤ ابن ميسر : أخبار ١٢٩ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٦٣-١٦٤ .

^٥ نفسه ١٣٠-١٣١ : نفسه ٣ : ١٦٩-١٧٢ ، ابن القلانسي : ذيل ٢٧٠ ، ابن ظافر : أخبار ٩٩ ، أسامة بن منقذ :

الأخبار ٥٢-٥٦ ، التورى : نهاية ٢٨ : ٣٠٤-٣٠٥ ؛ ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٣٢ .

ففى سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م كان رِضوان واليا على عَشَقْلان وقام بجهد كبير فى محاولة منع توافد الأَرمَن على مصر^١. ولاشك أنه تمكَّن خلال هذه الفترة من عَقْد صلات ودية مع أمراء الشام. وتَوَضَّح لنا رسالة بعث بها كَمُشْتَكِين إلى رِضوان أثناء توليه الوزارة - أوردها القلقشندي - أنه كانت تربطهما علاقة ودية قبل أن يتولَّى رِضوان الوزارة^٢.

وقد اتَّصَلَ رِضوان - أثناء وجوده فى صَرْخَد - بعماد الدين زَنْكى - وهو يحاصر بَعْلَبَك - وَطَلَّب إليه أن يمدّه بمعونة عسكرية تساعد على دخول القاهرة كقائد متصر. ولكن الخطر الذى كان من الممكن أن يمثله تحالف رِضوان مع عماد الدين زَنْكى على البوريين^٣ حَكَام دمشق، بجَعَلَ أسامة بن مُنْقِذ، الذى كان فى دمشق اعتبارًا من عام ٥٣٢هـ / ١١٣٨م ويتمتع بمكانة عالية لدى أميرها وكذلك لدى معين الدين أَرَر، يقترح على رِضوان الحضور إلى دمشق، وبدلاً من أن يحضر إليها فورًا طلب إليه أن ينتظر رسالة تدعوه إلى الحضور. غير أن كَمُشْتَكِين كان يَتَعَجَّل عودة رِضوان إلى مصر لما قد وعده به وأطمعه فيه^٤. فلا شك أن رِضوان قد وَعَدَ كَمُشْتَكِين، إن هو نجح فى استعادة مكانته فى القاهرة، أن يُقَلِّدَه منصباً أعلى من ولاية مدينة صغيرة فى إقليم حوران فى الشام. وبذلك جمع كَمُشْتَكِين لِرِضوان جَمْعاً من الأتراك سيَرهم معه، إلّا أنهم غدرُوا به بعد دخوله حدود مصر مما ألجأه إلى

^١ نفسه ١٢٤ : ٣ : ١٥٦ .

^٢ القلقشندي : صبح ٧ : ١٠٧ - ١٠٩ : «Fatimides et Burides à l'époque du calife al-Hāfiz li-Dīn Illāh », REI XXXV (1967), pp.122-117.

^٣ البوريون . أسرة تركية حكمت دمشق فى الفترة من سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م وحتى سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م .

أسسها طُغْتَكِين أتابك الملك شمس الملوك دَقَاق بن السلطان قُش السجلوقى . ^٢ art. le Tourneau, R., EI² . Būrides I, pp. 1372-1373 .

^٤ أسامة : الاحبار ٥٤ .

^٥ Canard, M., op.cit. p. 144 .

طلب الأمان من الحافظ الذى اعتقله بالقصر فى الرابع من ربيع الآخر سنة ٥٣٤هـ /
أول ديسمبر سنة ١١٣٩م^١.

احتلال رضىوان

ظل رضىوان معتقلاً فى القصر ثمان سنوات حتى نجح فى الهروب منه من ثقب نقيبته
فى الموضع الذى كان معتقلاً فيه فى ٢٣ ذى القعدة سنة ٥٤٢هـ / ١٥ إبريل سنة
١١٤٨م، واجتمع إليه جماعة ممن كان يكتبهم وخرج معهم إلى الجيزة حيث استنجد
بجماعة من العربان وتمكن من هزيمة العسكر الذى سيّره إليه الحافظ عند جامع ابن
طولون، ودخل فى إثرهم إلى القاهرة ونزل بالجامع الأقمر وحاول الاتصال برؤساء
الدواوين لاستعادة مكانته، غير أن الخليفة الحافظ أمر مقدمى السودان بالهجوم عليه
فقتلوه غدرًا وحملوا رأسه إلى الحافظ الذى أرسلها بدوره إلى زوجة رضىوان^٢، وبذلك
قضى على واحد من الذين حاولوا التصدى للأخطار الحقيقية التى كانت تهدّد العالم
الإسلامى فى هذا الوقت.

الحافظ يتبع عن اتخاذ وزراء

أدرك الحافظ خطر الوزراء على سلطته وتطلعاتهم فلذلك لم يستوزر أحدًا منذ فرار
رضىوان فى سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩م، وإنما اتخذ كُتّابًا على سنة الوزراء أرباب العمائم ولم

^١ أسامة : الاعتبار ٥٤-٥٥ ابن القلانسي : ذيل ٢٧٢-٢٧٣ ابن ميسر : أخبار ١٣٢ النورى : نهاية ٢٨ : ٣٠٥ المقرئى : اتماظ ٣ : ١٧٣ .

^٢ أسامة : الاعتبار ٥٥ (وجعل هذه الحادثة فى غير موضعها) ابن القلانسي : ذيل ٢٩٦ ابن ميسر : أخبار ١٣٧-
١٣٨ ابن ظافر : أخبار ٩٩ ابن الأثير : الكامل ١١ : ٤٩ النورى : نهاية ٢٨ : ٣٠٥ ابن الفرات : تاريخ -
خ ٣ : ٦٠ ط : المقرئى : اتماظ ٣ : ١٨٤ ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٢٤٢ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٢٨١ .

يسم أحدًا منهم وزيرًا مثل أبي عبد الله محمد بن الأنصارى ، والقاضى الموفق محمد بن مقصوم التتيسى ، وصنيعة الخلافة أبي الكرم الأخرم التضرانى ^١.

لم تمر السنوات الأخيرة لخلافة الحافظ دون مشاكل أو أزمات فقد شهدت السنوات من ٥٣٦هـ وحتى ٥٣٨هـ أزمة اقتصادية طاحنة غلّت فيها الأسعار وكثُر فيها الوباء حتى هَلَكَ فيها من المصريين عالم لا يحصى ^٢.

كذلك فقد كثر المطالبون بمنصب الوزارة ، وكان من بينهم أبو الحسين ابن الخليفة المستنصر وعمّ الحافظ الذى اعتقله الحافظ ، وكذلك أحد أمراء المماليك المقيمين بالصعيد ويُدعى بُختيار ، وقد أمر الحافظ بقتله وصلبه ^٣.

^١ ابن مسر : أخبار ١٤٠ : ابن ظافر : أخبار ٩٩ : المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٨٩ .

^٢ نفسه ١٣٤ : ابن القلانسى : ذيل ٢٧٦ : ابن الأثير : الكامل ١١ : ٩٢ : المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٧٦ .

^٣ نفسه ١٣٦ : ١٣٧ : عماد الدين الأصفهانى : البستان الجامع ١٢٦ ، ١٢٨ : المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٧٩ .

الفصل الثامن

الاضمحلال

الصراع على منصب الوزارة

بنهاية عهد الخليفة الحافظ لم يتبق للخلفاء أى سلطان على الدولة، ودارت الصراعات مرة أخرى بين طوائف الجند وخاصة الطائفتين الرّيحانية والجُوشية^١ وإن لم يؤد ذلك إلى نشوب حرب أهلية جديدة. وتطلّع ولأه الأقاليم إلى منصب الوزارة وتنافسوا عليه، يقول ابن الأثير: «إن الوزارة فى مصر كانت لمن غلب... والوزراء كالمُلكيين، وقُلَّ أن وليها أحدٌ بعد الأفضل بن بدر الجمالى إلا بحرب وقُتل وما شاكل ذلك»^٢.

بويج أبو المنصور إسماعيل، الابن الأصغر للخليفة الحافظ، بالإمامة فى نفس يوم انتقال والده، وهو يوم الأحد ٥ جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ/١٣ سبتمبر سنة ١١٤٩م وتلقب بـ «الظافر بالله» أو «الظافر بأعذاء الله». ونظرًا لأن الحافظ لم يُصدر أى سِجِلٍّ بتعيين ولّى عَهْدٍ له بعد السّجّلات الثلاثة التى أصدرها فى سنتى ٥٢٨ و ٥٢٩هـ وعَهْدَ فيها لأبنائه سليمان ثم خيذرة ثم حسن على التوالى، بسبب ما لقيه من عنت وعقوق من ابنه حسن. فقد اضطر إسماعيل إلى إصدار هذا السّجّل يُنصّر فيه على أن الخليفة الراحل كان قد أوصى له بولاية العَهْد، ويُغلّق فيه فى الوقت نفسه تولّيه الخلافة^٣.

^١ أسامة بن منقذ: الأعيان ٢٢٩، ابن مسير: أخبار ١٤٠، ١٤٢.

^٢ ابن الأثير: الكامل ١١: ١٨٥ وقانون عمارة اليمنى: النكت العصرية ١١٣ عماد الدين الأصبهاني: البستان

الجامع ١٣٤: ابن واصل: مفرج الكرب ١: ١٣٧-١٣٨.

^٣ القلقشندي: صبح الأعشى ٩: ٢٨٦-٢٩١، الشّيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ١٠٨-١٠٣، ٢٦٩-٢٧٤

المقريزى: المقفى الكبير ٢: ١٢١.

وزارة ابن مَصَال

وفور مبايعته بالخلافة اتخذ الظافر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم (سليمان) بن محمد بن مَصَال اللُّكِّي وزيرًا وَخَلَعَ عليه خِلْع الوزارة بوصية من أبيه وَلَقَّبَهُ بـ «الأَفْضَل (المُفْضَل)» أمير الجيوش، سعد الملك، لَيْث الدولة^١، وهو بذلك آخر وزير فاطمي يعين بهذه الطريقة. وكان ابن مَصَال في آخر عهد الحافظ ناظرًا للأمور أو المصالح اعتبارًا من سنة ٤٣٩هـ/ ١١٤٤م من غير أن يُطْلَق عليه اسم الوزارة^٢، وكان في الوقت نفسه عالمًا بأصول الدين^٣. وقد نجح ابن مَصَال في إعادة النِّظام بعد محاربته لطائفتي الرُّيْحانية والسودان قرب البَهْنتساوية بصعيد مصر^٤.

وزارة العادل بن الشلار

لم يرض على بن الشلار، والى الإسكندرية والبحيرة، أن يلجى الوزارة شيخًا مثل ابن مَصَال، فاتفق مع ابن زوجته الأمير عَبَّاس الصُّنْهَاجِي - والى الغربية - على التوجه إلى القاهرة وإجبار الخليفة أن يولِّيه الوزارة. وعندئذ طَلَبَ الخليفة إلى ابن مَصَال أن يتجه إلى الخَوْف ليجمع العربان لملاقاة ابن الشلار، إلَّا أن ابن الشلار تمكَّن من دخول القاهرة وإجبار الخليفة على أن يخلع عليه خِلْع الوزارة ويلقِّبهُ بـ «العادل سيف الدين ناصر الحق». ورغم تمكَّن ابن مَصَال من جمع جيش، قوامه من بَرَزَر لَوَاثَة ومن السودان والعربان، ونجاحه في تحقيق نصر مبدئي واستيلائه على الوجه القبلي، فقد سَيَّر إليه ابن

^١ ابن الطوير: نزهة المقلتين ٥٥، ابن ظافر: أخبار ١٠٢، ابن الأثير: الكامل ١١: ١٤٢، ابن الفرات: تاريخ-خ ٣:

٢١، و، بينما ذكر ابن ميسر: أخبار ١٤١، والنويري: نهاية ٢٨: ٣١١ أن لقبه كان «الفضل» وانظر كذلك Canard, M., *EI*², art. *Ibn Mas'āl* III, p. 892.

^٢ ابن أبيك: كنز الدرر ٦: ٥٢١، ٥٤٠.

^٣ ابن الطوير: نزهة ٥٤.

^٤ ابن ميسر: أخبار ١٤٢.

السلار جيشًا على رأسه الأمير عَبَّاس الصُّنْهَاجِي تَمَكَّن من تعقبه ، وقَتَلَه عند مدينة دِلَاص قرب البهنَّسَا في ١٩ شوال سنة ٥٤٤هـ / ١٩ فبراير سنة ١١٥٠م وحِيلَت رأسُه إلى القاهرة وطيف بها هناك ^١.

كان ابن السلار أحد الصُّبَّيَّان الحُجْرِيَّة ^٢، سُنِّي على المذهب الشافعي ووجد الظَّافر نفسه مجبرًا على توليته الوزارة بعد محاصرته للقصر الفاطمي . وقد حاول الظَّافر لذلك أكثر من مرة التَّأمُر على وزيره الذي احترز من الخليفة وانتدب رجالًا لحراسته عرفوا « بصِبيَّان الزُّرد » ^٣.

عمل ابن السلار على تقوية الجيش واهتم بتحسين عَسَقَلان وتجريد الأبدال إليها ^٤. ويعتبر ابن السلار أوَّل من حاول عَقْد اتفاق مع نور الدين أمير حلب لعمل جبهة موحدة في مواجهة الفرنج الصليبيين ^٥. وقد كان ذلك دون شك سابقًا لأوانه ، فقد كان نور الدين يتطلَّع إلى الاستيلاء على دمشق التي كان الفِرْنَج قد حاصروها قبل ذلك بسنوات ^٦، ولو كان نور الدين متنبِّهاً له لتمكنا من تطويق الفِرْنَج في مدن الشام

^١ ابن القلانسي : ذيل ٣١١؛ أسامة بن منقذ : الاعتبار ٣١؛ ساويرس بن القنق : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٤٤٤ ؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٥٥-٥٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٤٢ ؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ١٩٥ ؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٢ ؛ النويري : ٢٨ : ٩٢ ؛ ابن خلكان : وفیات ٣ : ٤١٦ ؛ ابن الفرات : تاريخ ٣ : ٢١ و- ٢١ ط ؛ المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٩٦-١٩٧ .

^٢ صبيان الحُجْر : جماعة من الشباب كانوا يربون في أيام الفاطميين في حجر بجوار باب النصر ، مثل الطباق السلطانية في عصر المماليك ، ويقلِّون تدريبات عسكرية مثلهم مثل الدواية والاستبارية . (ابن الطوير : نزهة ٥٧ ، ابن خلكان : وفیات ٣ : ٤١٨ ، المقرئ : الخطط ١ : ٤٤٤) وانظر فيما يلي ص ٦٨٤-٦٨٥ .

^٣ ابن الطوير : نزهة ٥٩ ، الفرات : تاريخ-خ ٣ : ٢٣ ، و ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٩٧-١٩٨ وراجع عن العادل Wiet, G., *El² art. al-Ādil b. al-Salār I*, p. 204 .

^٤ كانت العادة أن يجرد خليفة مصر كل ستة شهور الأبدال إلى عسقلان حسب تواجد الفرنج في الشام . وكان عددهم يتراوح في القلة بين ثلاثمائة إلى أربعمائة فارس وفي الكثرة من خمسمائة إلى ستمائة (ابن الطوير : نزهة ٤١-٤٢) .

^٥ أسامة بن منقذ : الاعتبار ٣٣-٤١ ؛ ابن القلانسي : ذيل ٣١٥ ؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٠٢ .

^٦ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٠٧ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٣٧ .

الساحلية . ولإثبات حسن نيته أرسل ابن السلار في سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م قطعاً من الأسطول المصرى إلى يافا تمكنت من أسر عدد من مراكب الفرينج وأحرقت ما عجزت عن أخذه ، وقتل جنوده خلقاً كثيراً من أهل يافا ، ثم اتجهوا إلى عكا وصيدا وبيروت وطرابلس حيث أبلوا بها بلاءً حسناً وقتلوا جماعة من حجاج الفرينج ، وكانت هذه الحملة في نفس الوقت تمثل ثأراً من الفرينج الذين أغاروا على القرام وأخربوها في العام السابق^١.

المؤامرات وضغف الخلافة

أدى التنافس على الوزارة إلى إشاعة الفوضى في البلاد ، كما أن الفساد بلغ القصر الفاطمى نفسه الذى حيكت فيه المؤامرات وكثرت المفاصد الأخلاقية بين سكانه . وتبعاً لابن ظافر وابن الأثير فقد لعب أمير بشتير أسامة بن مُنقِذ ، الذى قدم إلى مصر فى جمادى الآخرة سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م^٢، دوراً كبيراً فى حثك هذه المؤامرات وإذكاء هذه الفتنة ، فقد اتصل أسامة بالوزير ابن السلار الذى أكرم مقدمه ، واختص بصحبة ابن زوجته الأمير عتّاس الصنهاجى^٣.

وقد تأكد لابن السلار أن الفرينج فى طريقهم إلى الاستيلاء على عسقلان فى أعقاب محاولته مهاجمة مدن الشام الساحلية فى عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م . وكانت العادة جارية كل ستة أشهر بتجريد عسكر من مصر لحفظ عسقلان^٤ ، وجاء الدور فى هذه النوبة على عتّاس الصنهاجى ، فخرج ومعه نفر من الأمراء فيهم ثلثهم وضروغام وأسامة بن مُنقِذ^١.

^١ ابن القلانسي : ذيل ٣١٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٠٢ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٤ ، ١٤٥ : التنوير : نهاية ٢٨ :

٣١٣-٣١٤ : المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢٠١ ، ٢٠٢ ، الخطط ١ : ٢١٢ ،

^٢ أسامة بن منقذ : الاعتبار ٢٩٩ ، ابن ميسر : أخبار ١٣٦ : المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٧٩ .

^٣ ابن ظافر : أخبار ١٠٢ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٨٤ ، ١٩١ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٠٩ ، ٣١٥ ،

المقرئى : المقفى ٢ : ٤١-٤٢ ، ٤٣ : ٤٣ .

^٤ ابن الطوير : نزعة ٤١-٤٢ ، ابن ميسر : أخبار ١٤٦ .

نَزَلَ عَبَّاسٌ وَمِنْ مَعِهِ فِي بَيْتَيْسَ فِي انتِظَارِ قُدُومِ الْعَسَاكِرِ، فَمَا كَانَ مِنْ أَسْأَمَةِ إِلَّا أَنْ حَرَّضَ عَبَّاسًا عَلَى الْعَادِلِ بْنِ السَّلَّارِ بَعْدَ أَنْ شَكَاهُ لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ وَإِبْعَادِهِ عَنْ مَصْرِ «بَطِييْهَا وَحَسَنَهَا وَلَذَّةَ الْمَقَامِ بِهَا». وَقَالَ لَهُ: إِنَّهُ لَوْ أَرَادَ لَكَانَ سُلْطَانُ مَصْرِ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْلِ الْمُدَّةَ الْقَائِمَةَ بَيْنَ وَلَدِهِ نَصْرِ وَالْخَلِيفَةِ الظَّافِرِ، وَيُنْقَلَ إِلَيْهِ رَغْبَتُهُ فِي أَنْ يَحُلَّ مَحَلَّ ابْنِ السَّلَّارِ، وَأَنَّ الظَّافِرَ سَيَجِيئُهُ إِلَى طَلَبِهِ لِكُرْهِهِ لَابْنِ السَّلَّارِ، وَمَتَى أَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ قَتَلَ عَمَهُ. وَقَدْ نَجَحَ نَصْرٌ فِي إِتْمَامِ هَذِهِ الْمَهْمَةِ بِنَجَاحٍ وَقَتْلَ الْوَزِيرِ ابْنِ السَّلَّارِ فِي ٦ مُحَرَّمِ سَنَةِ ٥٤٨هـ/ ٣ إِبْرَيْلِ سَنَةِ ١١٥٣م^٢.

لَمْ تَمْضِ مُؤَامَرَةُ قَتْلِ ابْنِ السَّلَّارِ دُونَ مَقَاوِمَةٍ، فَقَدْ تَجَمَّعَ أَصْحَابُهُ وَغُلَمَانُهُ وَشَغَبُوا عَلَى الظَّافِرِ وَخَرَجُوا إِلَى ظَاهِرِ الْقَاهِرَةِ، وَقَدْ حَاوَلَ الْخَلِيفَةُ تَسْكِينَهُمْ وَلَكِنْهُمْ اسْتَوْحَشُوا مِمَّا حَدَّثَ وَلَمْ يَثْقُوا فِي وَعُودِ الْخَلِيفَةِ بِمَنْحِهِمْ عَقُوبًا عَامًّا، وَخَرَجُوا لَيْلًا قَاصِدِينَ دِمَشْقَ بِلَادِ الشَّامِ. كَمَا أَنَّ أَهْلَ السَّنَةِ بِمَصْرِ لَمْ يَرْضُوا عَنْ مَقْتَلِ ابْنِ السَّلَّارِ وَلَكِنْهُمْ لَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ إِعْلَانِ عَدَمِ رِضَاهُمْ خَوْفًا مِنْ بَطْشِ الْخَلِيفَةِ وَعَبَّاسِ الصُّنْهَاجِيِّ وَوَلَدِهِ نَصْرِ^٣.

وَقَدْ نَكَّلَ الظَّافِرُ بِجَسَّةِ ابْنِ السَّلَّارِ حَيْثُ حَمَلَتْ رَأْسُهُ إِلَى الْقَصْرِ وَأَشْرَفَ عَلَيْهَا الْخَلِيفَةُ مِنْ بَابِ الذَّهَبِ، ثُمَّ رُفِّعَتْ لِيَرَاهَا النَّاسُ ثُمَّ أُمِرَ بِإِيْدَاعِهَا بِخَزَانَةِ الرُّؤُوسِ بَيْتِ الْمَالِ^٤.

^١ أسامة : الاعتبار ٤١-٤٢ : ابن الطوير : نزعة ٦٦ : ابن ميسر : أخبار ١٤٦ : النويرى نهاية ٢٨ : ٣١٤ : المقرئى : الخطوط ٢ : ٥٥-٥٦ ، اتعاظ ٣ : ٢٠٤-٢٠٥ ، المقفى ٢ : ٤١-٤٢ .

^٢ أسامة : الاعتبار ٤١-٤٢ : ابن القلانسي : ذيل ٣١٩-٣٢٠ : ابن ظافر : أخبار ١٠٣ : ابن الطوير : نزعة ٦٢-٦٦ : ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٨٤ : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨ : ٢١٤-٢١٥ : أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٢٦-٢٢٧ : ابن خلكان : وفیات ٣ : ٤١٨ : ابن ميسر : أخبار ١٤٦-١٤٧ : النويرى : نهاية ٢٨ : ٣١٥ : ابن

أبيك : كنز الدرر ٦ : ٥٥٣ : المقرئى : الخطوط ٢ : ٥٥-٥٦ ، اتعاظ ٣ : ٢٠٤-٢٠٥ ، المقفى ٢ : ٤٢ .

^٣ ابن الطوير : نزعة ٦٤-٦٥ : ابن ميسر : أخبار ١٤٧ : النويرى : نهاية ٢٨ : ٣١٥ : المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢٠٥ .

^٤ ابن ميسر : أخبار ١٤٧ : المقرئى : اتعاظ الحنفا ٣ : ٢٠٥ .

كان ردُّ الفعل المباشر لقتل الوزير ابن السُّلار هو استيلاء الفِرْنَج على مدينة عَشَقْلان التي وقعت في أيديهم في ٢٧ جمادى الأولى سنة ٥٤٨هـ/٢٠ أغسطس سنة ١١٥٣م. وبذلك فَقَدَ الفاطميون آخر ممتلكاتهم في الشام^١.

وزارة عَبَّاس الصُّنْهَاجِي وَفَقْدَ قِيَّةِ الْخِلاَفَةِ

كان من الطبيعي أن يُقْلَدَ الظَّافِر الوزارة لِعَبَّاس الصُّنْهَاجِي وَلَقَّبَهُ بـ «السيد الأجلَّ الأفضَل أمير الجيوش .. أبو الفضل العباس الظَّافِرِي»^٢. وقد ازداد عَبَّاس في تقرب أسامة بن مُنْقِذ وإكرامه اعترافًا منه بفضله عليه. كذلك عمل على التقرب إلى الأمراء وإكرامهم، وأحسن إلى الجنود ليُنسِيَهُم العادل بن السُّلار.

أما ولده نَصْر فقد استمر على مخالطة الخليفة الظَّافِر، وكان الخليفة يخرج من قصره لزيارة نَصْر بداره التي بالشيوفين قريتا من القصر بحيث لا يعلم عَبَّاس بأخبار هذه اللقاءات.

وقد استوحش الأمراء من أسامة بن مُنْقِذ والدور الذي قام به في قتل ابن السُّلار وهموا بقتله. فلما بلغه ذلك أخذ في إثارة عَبَّاس على ولده نَصْر متهمًا له بأن الخليفة يفعل به ما يفعل مع النساء. ففأتح عَبَّاس ابنه في ذلك وانزعاجه مما يتناقله الناس. فما كان من نَصْر إلا أن قتل الخليفة في أحد زيارته له بتحريض من والده ومن أسامة بن مُنْقِذ، فقتله في داره بالسيوفين في آخر المحرم سنة ٥٤٩هـ/١٦ إبريل ١١٥٤م^٣.

^١ ابن القلانسي: ذيل ٣٢٠-٣٢٢؛ ابن الأثير: الكامل ١١: ١٨٨-١٨٩؛ أبو شامة: الروضتين ١: ٢٢٣-٢٢٥؛ المقرئ: اتعاظ ٣: ٢٠٩؛ ابن قاضي شعبة: الكواكب الدرية ١٣٩، ١٤٤.

^٢ ابن الطوير: نزعة ٦٦؛ القلقشندي: صبح ١٠: ٤٢٢؛ *Stern, S., Fatimid Decrees*, pp. 65-69; id., *EI*²؛ art. *Abbās b. abīl-Futūh I*, pp. 9-10.

^٣ أسامة: الاعتبار ٤٣-٤٤؛ ابن القلانسي: ذيل ٣٢٩-٣٣٠؛ عماد الدين الأصفهاني: البستان الجامع ١٣٠، ابن الطوير: نزعة ٦٧؛ ابن الأثير: الكامل ١١: ١٩١؛ ابن ظافر: أخبار ١٠٥؛ ساويرس: تاريخ البطارقة ١/٣ =

وبزء أسامة بن مُتَعَدِّد نفسه من هذه التهم في سيرته الذاتية^١.

لم تسر الأمور على الوجه الذى أرادها لها الوزير عَبَّاس ، فبعد أن أَوْهَمَ أهل القصر في مشهد درامى أن إخوة الخليفة هم الذين قتلوه وأنه قتلهم به . أحضر طفلاً صغيراً للظافر يُدعى عيسى وأقامه فى منصب الخلافة وَلَقَّبَهُ بـ « الفائر بنصر الله » وهو لم يبلغ الخمس السنوات ، فكاد الطفل يموت رَوْعاً من هَوْل ما شاهده من منظر الدماء والقتلى فى القصر ، وظلَّ طول خلافته القصيرة مصاباً بالصَّرَع^٢.

لم تكن الخلافة العباسية فى بغداد بعيدة عما يجرى فى مصر وكانت تنظر إلى هذه الحوادث المتعاقبة التى تدل على اختلال أحوال الخلافة الفاطمية بترقب . ولم يُضَيِّع الخليفة المقتفى لأمر الله العباسى وقتاً فسارع - تبعاً لما أورده ابن الجوزى - بكتابة عهد إلى نور الدين محمود صاحب دمشق بولاية مصر وأعمالها والساحل وَبَعَثَ إليه بمراكب زحف وأمره بالمسير إلى مصر فور أن علم بوفاة الظافر وإقامة الفائر عوضه^٣. ولكن يبدو أن وصول طلائع بن رزّيك وقبضه على السُلْطَة الفعلية فى مصر أرجأ هذا التدخل مؤقتاً .

= ٤٥ : أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٤٣ - ٣٤٥ : ابن خلكان : وفیات ١ : ٢٣٧ ، ٣ : ٤١٩ : ابن ميسر : أخبار ١٤٧ : النويرى : نهاية ٢٨ : ٣١٦ : ابن أئيك : كنز ٦ : ٥٥٧ ، ٥٦٣ : الصفدى : الوافى ٩ : ١٥١ - ١٥٢ : المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢٠٨ ، المقتفى ٢ : ٤٢ - ٤٣ و ١٢٢ ، الخطط ٢ : ٣٠ ، أبو الحامس : النجوم ٥ : ٢٨٩ .
١ أسامة : الاعتبار ٤٤ .

٢ أسامة : الاعتبار ٤٤ : عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٣١ : ابن ظافر : أخبار ١٠٨ - ١٠٩ : ابن الطوير : نزهة ٦٩ - ٧٠ : ابن ميسر : أخبار ١٤٨ : ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٤٥ - ٤٦ : النويرى : نهاية ٢٨ : ٣١٨ : ابن الفرات : تاريخ-خ ٣ : ٨٠ : المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢١٣ - ٢١٤ ، ٢٣٩ ، المقتفى ٤ : ٤٣ وانظر توقيع هذا الخليفة فى المجلة التاريخية المصرية ٥ (١٩٥٦) ١٠٨ .

٣ ابن الجوزى : المنتظم ١٠ : ١٥٨ : المقرئى : اتعاظ الحنفا ٣ : ٢٢٣ .

طلائع بن رزّيك

آخر وزراء الفاطميين الأقوياء

أدت هذه الأحداث إلى قلق واضطراب القصر وجماهير الشعب على السواء . فسارع نساء القصر وخاصة أخت الظّافير سيّ القصور ، بالكتابة إلى والى الأشمونين واليهنّسا طلائع بن رزّيك ، وأرسلن إليه شعورهن في طيّ الكتب - وهو أقصى ما يمكن في التّوسّل عند المرأة المسلمة - يستنجدن به لإنقاذ الخلافة وليقوم بدور المنقذ الذي لا غنى عنه ^١ .

قدّم طلائع بن رزّيك بقواته حتى وصل إلى المّقس في ١٥ ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ / أول يونية سنة ١١٥٤ م ، ودخل إلى القاهرة مؤيّدًا من كافة الأطراف بعد ذلك بأربعة أيام ^٢ بعد أن تحقّق عبّاس ونضر وأسامة بن مُنقذ من معاداة الناس ورفضهم لهم وهربوا بما خفّ من المال والتحف إلى أيّلة قاصدين الشام ، ونهب العامة ما بقى في دورهم ^٣ .

دخّل طلائع إلى القاهرة مع قواته لابنًا ثيابًا سوداء ورافقًا أعلامًا وبنودًا سوداء وكذلك شعور نساء القصر على الرّماح حزنا على الظّافير . ونزل بدار نضر بن عبّاس وعلم المكان الذي دُفِن فيه الظّافر فأخرجه وعُسله وكفّته ، وحمله الأستاذون والأمراء في

^١ أسامة : الاعتبار ٤٥ ؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٩ ؛ ابن خلّكان : وفيات ٣ : ٤٩٢ ؛ المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢١٥ ؛ القلقشندي : صح ٣ : ٢٧٠ .

^٢ أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٤٣ .

^٣ أسامة : الاعتبار ٤٨ ؛ ابن ظافر : أخبار ١٠٨ ، ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٩٣ ؛ ابن ميسر : أخبار ١٤٩ - ١٥٠ ؛ ابن خلّكان : وفيات ٢ : ٥٢٦ ؛ ٣ : ٤٩٢ ، النويرى : نهاية ٢٨ : ٣١٩ ؛ الصفدى : الوافى ٩ : ١٥٢ ؛ المقرئى : اتعاظ

تابوت إلى القصر، وطلائع خلفهم حاف قد شق ثيابه ومعه الناس، حيث صلى عليه ابنه الخليفة الفائز وأعيد دفنه مع آبائه في ثوبة القصر المعروفة بثوبة الرّعفران^١. وفور انتهاء هذه الرسوم، خلّع الخليفة الفائز على طلائع بن رزّيك خلع الوزارة وأمر بإنشاء سجلّ نُعت فيه بـ «السيد الأجلّ الملك الصالح ناصر الأئمة كاشف الغمة، أمير الجيوش، سيف الإسلام، غيّاث الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين أبى الغارات طلائع الفائز» ليصبح بذلك أوّل من تلقّب بـ «الملك» من وزراء الفاطميين، وذلك يوم الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ٥٤٩هـ / ٩ يولية ١١٥٥م، وهذا السجلّ من إنشاء المؤقّق ابن الحلال^٢.

أُرسلت أخت الخليفة الظافر إلى الفرنج بعشقلان تطلب تسليم عباس ونضر وتخبرهم بما اقترفوه فى حق ابن السّلال والخليفة الظافر وعرضت عليهم مالاً جزيلاً إذا أوقعوا به، فتمكّنوا منه وقتلوه قرب المؤلّح فى ٢٣ ربيع الآخر سنة ٥٤٩هـ / ٧ مايو ١١٥٤م، وتمكّن أسامة من الفرار إلى الشام^٣، أما نضر فقد تسلمته جماعة الدّاوية فى فلسطين مقابل ثلاثين ألف دينار وأرسلته فى قفص من حديد إلى نساء القصر بالقاهرة اللاتى عذّبته وأرسلنه مقعداً فاقد البصر لكى يُقرض فى شوارع القاهرة ثم يُضَلَب حيّاً

^١ ابن ظافر : أخبار ٤١٠٨ ابن الأثير : الكامل ١١ : ١٩٣ ابن ميسر : أخبار ١٤٩-١٥٠ ساويرس : تاريخ البطارقة ١٣/٤٤٦ ابن خلكان : وفيات ٢ : ٥٢٦ : ٣ : ٤٩٢ ابن سعيد : النجوم ٩١ : ٢٢١ النورى : نهاية ٢٨ : ٣١٩-٣٢٠ الصفدى : الوافى ٩ : ١٥٢ القلقشندي : صبح ٣ : ٢٧٠ المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢١٥-٢١٧ الخطط ٢ : ٢٩٣ ، ٤١٠ .

^٢ ابن ميسر : أخبار ١٥٠ ، ١٥١ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٣/٤٤٦ : ٢٨ : ٣٢٠ ، ٣٢٥ المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢١٨ ، ٢١٩ ابن خلكان : وفيات ٢ : ٥٢٦ : ٣ : ٤٩٢ أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٥٠ ، ٥٠٣ : ٣١١ السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٢١٤-٢١٥ الشيال مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥١-١٥٣ وانظر ألقابه

كذلك عند Wiet, G., *RCEA VIII*, n° 3231; Stern, S., *Fatimid Decrees*, pp. 70-79 .

^٣ أسامة : الاعتبار ٥٠ : ابن ظافر : أخبار ١٠٩ ابن ميسر : أخبار ١٥٠ ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٩٢ ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٥٦٧-٥٦٨ المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢٢٠ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣١٠ .

على باب رُؤَيْلَة^١، وذلك في ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ/يولية ١١٥٤م. وتحتفظ مخطوطة بالمتحف البريطاني بنص السَّجَل الذي يُغَلِّين وصوله إلى القاهرة^٢.

يُعَدُّ الصَّالح طلائع بن رُزَيْك خاتمة الوزراء الفاطميين الأقوياء، وآخر دعامة في الدولة المتداعية، لَأَنَّهُ كان إمامي المذهب شديد التعصُّب له مبعُضًا للنصارى^٣. واعتبر عمارة اليمنى أن زوال دولة الفاطميين من مصر قد تم مع نهاية حكم طلائع بن رُزَيْك وولده^٤.

وفور أن تولَّى الصَّالح طلائع الوزارة استولى على مقاليد الأمور لصِغَر سن الخليفة، مثلما فعل الوزير الأفضل من قبل مع الخليفة الأمر، وأخذ في تبييع كبار رجال الدولة وأعيانها وصادر أموالهم خوفًا منهم، حتى اضطر بعضهم إلى مغادرة مصر^٥.

واستنَّ الصَّالح طلائع شتَّة جديدة، إذ أخذ يبيع ولايات الأعمال للأمرء بأسعار مُقَرَّرة تعرف بـ «البراطيل». وجعل لكل ولاية سعرًا، وحدَّد مدة كل متول بستة أشهر فقط، خوفًا منه أن يثوروا عليه وينازعوه الوزارة. ومن ناحية أخرى احتكر القلات الزراعية حتى غلت أسعارها مما أضعف اقتصاد الدولة^٦.

ولا شك أن الصَّالح طلائع كان آخر وزراء الفاطميين الذين حاولوا التصدَّى للفرنج في الشام. فابتداء من عام ٥٥٠هـ/١١٥٥م أخذ في إرسال الأسطول والجيش لمحاربة

^١ ابن طاهر: أخبار ١٠٩، ابن خلكان: وفیات ٣: ٤٩٣؛ ساويرس: تاريخ البطارقة ١/٣: ٤٦؛ ابن أبيك: كنز الدرر ٦: ٥٦٧-٥٦٨؛ المقرئ: المقفى ٢: ٤٣، ٤: ٤٥؛ Stern, S., *El*² art. *Abbās b. abīl-Futūh* ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٣٨٠، ١٣٨١، ١٣٨٢، ١٣٨٣، ١٣٨٤، ١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٠١، ١٤٠٢، ١٤٠٣، ١٤٠٤، ١٤٠٥، ١٤٠٦، ١٤٠٧، ١٤٠٨، ١٤٠٩، ١٤١٠، ١٤١١، ١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٤، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤١٧، ١٤١٨، ١٤١٩، ١٤٢٠، ١٤٢١، ١٤٢٢، ١٤٢٣، ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦، ١٤٢٧، ١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٢، ١٤٣٣، ١٤٣٤، ١٤٣٥، ١٤٣٦، ١٤٣٧، ١٤٣٨، ١٤٣٩، ١٤٤٠، ١٤٤١، ١٤٤٢، ١٤٤٣، ١٤٤٤، ١٤٤٥، ١٤٤٦، ١٤٤٧، ١٤٤٨، ١٤٤٩، ١٤٥٠، ١٤٥١، ١٤٥٢، ١٤٥٣، ١٤٥٤، ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٥٧، ١٤٥٨، ١٤٥٩، ١٤٦٠، ١٤٦١، ١٤٦٢، ١٤٦٣، ١٤٦٤، ١٤٦٥، ١٤٦٦، ١٤٦٧، ١٤٦٨، ١٤٦٩، ١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢، ١٤٧٣، ١٤٧٤، ١٤٧٥، ١٤٧٦، ١٤٧٧، ١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٠، ١٤٨١، ١٤٨٢، ١٤٨٣، ١٤٨٤، ١٤٨٥، ١٤٨٦، ١٤٨٧، ١٤٨٨، ١٤٨٩، ١٤٩٠، ١٤٩١، ١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٤، ١٤٩٥، ١٤٩٦، ١٤٩٧، ١٤٩٨، ١٤٩٩، ١٥٠٠، ١٥٠١، ١٥٠٢، ١٥٠٣، ١٥٠٤، ١٥٠٥، ١٥٠٦، ١٥٠٧، ١٥٠٨، ١٥٠٩، ١٥١٠، ١٥١١، ١٥١٢، ١٥١٣، ١٥١٤، ١٥١٥، ١٥١٦، ١٥١٧، ١٥١٨، ١٥١٩، ١٥٢٠، ١٥٢١، ١٥٢٢، ١٥٢٣، ١٥٢٤، ١٥٢٥، ١٥٢٦، ١٥٢٧، ١٥٢٨، ١٥٢٩،

الفرنج في صور وتمكّن من إحراقها وأسر حجاجا من النصاري وظفر كذلك بغنائم كثيرة^١.

وفي عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م فُسِحت الهدنة التي عقّدها مع الفرنج في العام السابق، فأخذ في إعداد العساكر وتجهيزهم للإغارة مرة أخرى على الفرنج حيث تمكّنت جيوشه من مهاجمة غزّة وعسقلان والشريعة وبيروت والشوَبك وعكا^٢. وكوّر المحاولة في عام ٥٥٣هـ/١١٥٨م حيث وصلت قواته إلى بيت المقدس مما اضطر الفرنج إلى طلب الصلح. وقد بلغ جملة ما أنفق الصّالح طلائع على العساكر في هذه الحملات أكثر من مائة ألف دينار^٣.

وأدرك الصّالح أن مصر لا تستطيع بمفردها مواجهة المملكة اللاتينية في بيت المقدس، فاستعاد التقليد الذي بدأه قبله العادل ابن السّلال فأرسل إلى نور الدين، صاحب دمشق، يطلب إليه توحيد جهودهما. وكان رسول الصّالح طلائع في هذه المهمة الأمير أسامة بن مُنقِذ الذي تبادل معه مجموعة من القصائد قصد بها تيسير مهمته لدى نور الدين لخلق نوع من التحالف بين مصر الشيعية والشام السنية ضد الفرنج في الشام^٤. وتأكيداً لنيته أرسل الصّالح سفارة إلى نور الدين ومعها هدية «من الأسلحة وغيرها قيمتها ثلاثون ألف دينار، وسبعون ألف دينار عتيّاً عوناً له على قتال الفرنج»^٥.

وقد تنبّه الفرنج إلى خطورة مثل هذا التحالف عليهم، فأرسلوا في سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م رسولاً إلى القاهرة ومعهم هدية لطلب الهدنة^٦، ولكن الصّالح رَفَضَ ذلك واستمر على مساندته لنور الدين.

^١ ابن القلانسي: ذيل ٣٣٢، أبو شامة: الروضتين ١: ٢٥٢-٢٥٣، ابن ميسر: أخبار ١٥٣، المقرئ: اتعاظ ٣: ٢٢٤.

^٢ نفسه ٣٣١، ابن ميسر: أخبار ١٥٥، النويري: نهاية ٣٢٠-٣٢١، المقرئ: اتعاظ ٣: ٢٣٠.

^٣ أبو شامة: الروضتين ١: ٢٢٨٨، ابن ميسر: أخبار ١٥٦، المقرئ: اتعاظ ٣: ٢٣٤.

^٤ أبو شامة: الروضتين ١: ٢٨٨، ٢٩٩.

^٥ ابن القلانسي: ذيل ٣٥٣، ابن ميسر: أخبار ١٥٣، المقرئ: اتعاظ ٣: ٢٣٤.

^٦ المقرئ: اتعاظ ٣: ٢٣٦.

كان من الطبيعي أن تتألف المملكتان الإسلاميتان في دمشق والقاهرة في مواجهة الفِرْنَج، ولكن اختلاف المذاهب الدينية وَقَفَ حَجَرَ عَثْرَةٍ في سبيل هذا الائتلاف.

كانت هذه آخر محاولة للملك الصَّالِح إِذْ أن هموم السياسة والمشاكل الداخلية لم تترك له متسعاً من الوقت لاستعادة مهاجمة الفِرْنَج. ومع ذلك فقد كان يحترز منهم ويخشى انتقامهم، فبنى في سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م حصناً من لبن على بَلَيْيسَ حَفِظَ له خلفاؤه من الوزراء امتناناً كبيراً عليه^١.

وإذا كانت هذه هي آخر محاولات وزراء الفاطميين في مهاجمة الفِرْنَج، فإن الفِرْنَج أخذوا بعد هذا التاريخ يهتمون بأمر مصر وصراعاتها الداخلية كما سنرى بعد ذلك. ولسبب مجهول فقد التزم الملك الصَّالِح بأن يدفع للفِرْنَج جزية سنوية مقدارها ٣٣ ألف دينار، امتنع شاور السَّعْدِي بعد أن تولَّى الوزارة عن أدائها لهم^٢.

والى الصَّالِح طلائع يرجع فضل بناء آخر المعالم العمرانية للفاطميين في القاهرة، وهو الجامع الذى مازال قائماً إلى الآن خارج باب زُوَيْلَة والذى يعود تاريخ بنائه إلى سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م^٣.

أطماع الصَّالِح طلائع

كان الملك الصَّالِح يطمح في أن يجعل أمر الخلافة الفاطمية في عقبه، فعندما توفي الخليفة الفائز في ١٧ رجب سنة ٥٥٥هـ / ٢٣ يولية سنة ١١٦٠م دون وريث، أقام مكانه في الخلافة الأمير عبد الله حفيد الحافظ، وهو أصغر الأقارب^٤، ونعته بـ «العايض

^١ المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢٣٦ .

^٢ أورد خبر هذه الجزية غليوم أيسقف صور *An. Isl.* Cahen, Cl., «Un récit inédit du vizirat de Dirghâm», *An. Isl.*

VIII (1969), pp. 29-30, 40, 42 .

^٣ المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩٣، التويرى : نهاية ٢٨ : ٣٢٦ وفيما يلى ص ٦٢٠ .

^٤ يلاحظ أن الصَّالِح أقام العاضد خليفة مباشرة وليس «إماماً مستودعاً» كما تقضى بذلك العقيدة الإسماعيلية .

لدين الله ، وزوّجه من ابنته عسى أن تُرزق منه ولدًا ، فيجتمع ليني رُزَيْك الخلافة مع الملك^١ .

وأشار إلى ذلك عمارة اليمنى فى إحدى قصائده التى يمدح فيها آل رُزَيْك ، يقول :

كفّ وقد أضْحَى إمامَ زمانكم لكم جامعًا بين الكفالة والصُّهر^٢

وقد استبدَّ الصَّالِح بجميع أمور الدولة ولم يكن للعاضِد معه أمرٌ ولا نهى ، حتى إنه نَقَلَ جميع أموال القصر إلى دار الوزارة .

ضاق الخليفة العاضِد بتسلُّط طلائع عليه ، كما أن نساء القصر لم يقبلن بسهولة زواج ابنته من الخليفة ؛ فدبَّرت السيدة العمة ست القصور - أخت الظَّافِر الصغرى - لقتله حيث تَرَبَّص له بعض الخُدَّام فى دَهْلِيز القصر وأردوه قتيلاً فى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦هـ / ١١ سبتمبر سنة ١١٦١م^٣ .

كانت آخر كلمات الصَّالِح عند وفاته أسفه على أنه لم يعمل على غزو بيت المقدس واستئصال شأفة الفِرَنْج . وعلى بنائه جامع على باب زُوَيْلَة لأنه مَضْرُوب على القاهرة ،

= كما أنه اختار أصغر أقارب الخليفة المتوفى وليس أكبر الأقارب سنًا . فقد أشار عليه أصحابه باختيار أصغر الأقارب

كما فعل الوزير عتَّاس مع إخوة الظَّافِر ، وراجع Wiet, G., *EI*² art. *al-Âdid li-Dini llâh I*, pp. 202-203 .

^١ المقرئى : اتعاظ ٣ : ٢٤٦ قارن عمارة اليمنى : النكت العصرية ٥٣ ، ٦١ ، ٦٢ ؛ ابن ظافر : أخبار ١١٢ ؛ ابن

الأثير : الكامل ١١ : ٢٥٥ ، ٢٧٤ ؛ الصفى : الوافى ١٦ : ٥٠٣ ؛ أبى المحاسن : النجوم ٥ : ٣١٨ ؛ النورى : نهاية

٢٨ : ٣٢٣ .

^٢ عمارة اليمنى ، النكت العصرية ٢٣٦ .

^٣ عمارة اليمنى : النكت ٤٨ ، ١٠٠ ، ١٤٥ (وفيه أنه لما قتل الصالح هاجت القاهرة وماجت) ، عماد الدين

الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٣ ، ابن ظافر : أخبار ١١٢ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ٣ : ١ ، ٤٧ ؛ ابن الأثير :

الكامل ١١ : ٢٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣١١-٣١٣ ، ٤١٠ ، ابن خلكان : وفیات ٢ : ٥٢٨ ، النورى : نهاية

٢٨ : ٣٢٤ ؛ ابن الفرات : تاريخ-خ ٥ : ٧٩ ط ؛ الصفى : الوافى ١٧ : ٦٨٦ ؛ ابن منجد : النجوم ٢٢٢ ؛

المقرئى : الخطوط ٢ : ٢٩٤ ، اتعاظ ٣ : ٢٤٦-٢٤٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٤٥ ، ٣٥٩-٣٦٠ ؛ Dadoyan ،

وتحذيره لابنه لكي يحترس من شاور حاكم الصعيد وألا يتعرض له بإساءة لأنه لن يأمن عصيانه^١.

وَزَارَةُ الْعَادِلِ رُزَيْكٌ

خَلَفَ الصَّالِحَ طَلَّاحٌ فِي مَنْصَبِ الْوِزَارَةِ وَلَدَهُ رُزَيْكٌ وَتَلَقَّبَ بِهِ «الملك العادل» وعمل على إصلاح سياسة والده حيث سامح الناس بما عليهم من البواقي الثابتة في الدواوين، وأشَقَطَ من رسوم الظلم مبالغ عظيمة، وأدَّى عن الحُجَّاج ما يلزمهم إلى أمير الحرمين^٢.

حاول المقربون من العادل رُزَيْكَ أَنْ يُحَسِّنُوا إِلَيْهِ صَرْفَ شَاوَرٍ عَنْ وَلَايَةِ قَوْصٍ لِيَتِمَّ لَهُ الْأَمْرُ بِلَا مُنَافَسَةٍ، فَأَقْصَاهُ - بِالرَّغْمِ مِنْ وَصِيَّةِ وَالِدِهِ - سَنَةَ ٥٥٧هـ / ١١٦٢م وَعَيْنُ مَحَلِّهِ الْأَمِيرَ نَصِيرَ الدِّينِ شَيْخِ الدَّوْلَةِ ابْنَ الرَّفْعَةِ وَآلِيَا عَلَى قَوْصٍ^٣. وَقَدْ اضْطَرَّ شَاوَرٌ بَعْدَ مُحَاوَلَةِ لِلْسِيرِ صُوبَ الْقَاهِرَةِ أَوْقَفَهَا رُزَيْكٌ فِي مِصْرَ الْوَسْطَى أَنْ يَقْبَلَ مُوقَّتًا هَذَا الْإِقْصَاءَ حَيْثُ تَوَجَّهَ بِقَوَاتِهِ إِلَى الْوَاهِتَاتِ وَمِنْهَا إِلَى أَقَالِيمِ غَرْبِ الدَّلْتَا إِلَى أَنْ تَمَكَّنَ مِنَ الْاسْتِيلَاءِ عَلَى الْقَاهِرَةِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ فِي سَنَةِ ٥٥٨هـ / ١١٦٣م^٤.

^١ ابن الأثير: الكامل ١١: ٢٩٠، ابن خلكان: وفیات ٢: ٤٣٩-٤٤٠، النويری: نهاية ٢٨: ٣٢٨، ابن أبيك:

كثير الدرر ٧: ١٩، المقرئی: اتعاظ ٣: ٢٥٤، الخطط ٢: ٢٩٣.

^٢ المقرئی: اتعاظ ٣: ٢٥٣، Dadoyan، «، ٢٥٣، pp. 672-73; *Ruzzik b. Talāḥ* VIII, art. *El*² Bianquis, Th., S.B., *op.cit.*, pp. 167-178.

^٣ نفسه ٣: ٢٥٤، النويری: نهاية ٢٨: ٣٢٨.

^٤ نفسه ٣: ٤: ٥٢٥، نفسه ٢٨: ٣٢٩.

الفصل السابع النهائية وانقلاب صلاح الدين

كانت السنوات الأخيرة في عمر الدولة الفاطمية سلسلة من الصراعات والحروب بين ولاية الأقاليم المتنافسين على منصب الوزارة والقوى الخارجية التي استعانوا بها لتثبيت مكانتهم.

الصراع بين شاوّر وضِزْغام

ففى سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م تغلب شاوّر بن مجير الشُعْدَى ، والى قوص ، على الملك العادل رُزَيْك بن الصّالِح طلائع واعتقله ، ثم قتله طىّ بن شاوّر فى ٢١ رمضان سنة ٥٥٨هـ / ٢٣ أغسطس سنة ١١٦٣م^١. وعُلّق عمارة اليمنى على هذه الأحداث قائلا «إنما زالت دولة مصر بزوالهم»^٢.

كان شاوّر قد تولّى الوزارة فى ٢٢ محرم سنة ٥٥٨هـ / يناير سنة ١١٦٣م ، ولم تكد تمضى على تولّيه الوزارة تسعة أشهر حتى نافسه عليها أبو الأشبال ضِزْغام بن عامر ابن سوار المنذرى ، مُقَدِّم الأمراء البروقية وصاحب الباب (وهى رتبة تلى الوزارة

^١ عمارة اليمنى : النكت ٦٦-٦٧ ، مؤلف مجهول : أخبار الدولة المصرية ٤٠ ، ساويرس : تاريخ البطارقة ١/٣ : ٥٠ ، أبو

شامة : الروضتين ١ : ٤١٦ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٠ ، النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٣٠ ، المقرئى : الخطوط ٢ : ٤٦ ،

اتعاظ ٣ : ٢٥٧-٢٥٩ ، أبو الهامس : النجوم ٥ : ٣٤٦ ، ابن قاضى شعبة : الكواكب الدرية ١٦٣ .

^٢ عمارة : النكت المصرية ٦٨ .

مباشرة) ^١، الذي تمكن من الظهور عليه بعد قتال انتهى بمقتل الأمير طيّ بن شاؤور يوم الجمعة ٢٨ رمضان سنة ٥٥٨هـ/ ٢ سبتمبر سنة ١١٦٣م، فخلع عليه العاضد خلع الوزارة ولقبه بـ «الملك المنصور» ^٢.

اضطر شاؤور إلى الفرار من مصر قاصداً الشام في آخر رمضان سنة ٥٥٨هـ/ سبتمبر سنة ١١٦٣م مستنجداً بالسلطان العادل نور الدين محمود، صاحب دمشق، فوصل إليها في ٦ ربيع الأول سنة ٥٥٩هـ/ ٥ فبراير سنة ١١٦٤م وتعهد له إن هو ساعده في إعادته إلى منصبه والقضاء على منافسه ضيرغام أن يدفع له ثلث خراج مصر بعد إقطاعات العساكر، ويكون معه من أمراء الشام من يقيم معه في مصر، وأن يتصرف هو بأوامر نور الدين واختياره ^٣.

كانت محاولة شاؤور الاستعانة بأمراء الدول المجاورة هي مؤشّر نهاية الدولة الفاطمية، فقد دلت أمراء الشام ثم ملوك الفرج بعد ذلك على مواطن ضعف الدولة وأغرثهم بالطمع فيها والاستيلاء عليها.

كان نداء شاؤور لنور الدين نقطة تحوّل هامة في مستقبل سياسة نور الدين، فقد وجّه أنظار الأمير الشامي صوب مصر الذي كان قد أدرك التفشخ الداخلي للدولة منذ لجوء

^١ ابن الطوير: نزعة المقاتلين ١٢٢. وعن ضرغام راجع، المقرئ: الخطوط ١: ٤٣٩، ٢: ١٢-١٣، اتعاط ٣: ٢٦٦، Canard, M., *El² art. Dirghâm II*, pp. 327-28.

^٢ عمارة: النكت ٦٨-٦٩؛ ٨١ مؤلف مجهول: أخبار الدولة المصرية ٤٠-٤١؛ عماد الدين الأصفهاني: البستان الجامع ١١٣٤؛ ابن الأثير: تاريخ الباهر ١٢٠، الكامل ١١: ٢٩١؛ ابن شداد: النوادر السلطانية ٣٦، أبو شامة: الروضتين ١: ٤١٧؛ ابن خلكان: وفيات ٧: ١٤٥؛ النويري: نهاية ٢٨: ٣٣١؛ الصفدي: الوافي ١٦: ٥٠٧؛ المقرئ: الخطوط ١: ٣٣٨، ٢: ١٢، اتعاط ٣: ٢٦٠، ٢٦١؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ٣٣٨، ٣٤٦.

^٣ ابن ظافر: أخبار ١١٤؛ ابن الأثير: تاريخ الباهر ١٢٠، الكامل ١١: ٢٩٨؛ ابن شداد: النوادر السلطانية ٣٦؛ البنداري: سنا البرق الشامي ١٩؛ أبو شامة: الروضتين ١: ٣٣١-٣٣٣، ٤١٧، ٤١٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب ١: ١٣٧-١٣٨؛ ابن خلكان: وفيات ٢: ٤٤١، ٤٤٤، ٧: ١٤٥-١٥١؛ النويري: نهاية ٢٨: ٣٣٢؛ السبكي: طبقات الشافعية ٧: ٣٤١؛ الصفدي: الوافي ١٦: ٩٤، ٣٦٥؛ المقرئ: اتعاط ٣: ٢٦٤، الخطوط ١: ٣٣٨؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ٣٣٨، ٣٤٦، ٣٨٧؛ ابن قاضي شبة: الكواكب ١٦٤.

أتباع الوزير المقتول العادل بن السلار إليه سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، وأصبحت الظروف مواتية الآن للتدخل، فقد كانت الدولة الفاطمية تحتضر ولم تكن تحتاج سوى قليل من الوقت لتلقى حتفها، ومن ناحية أخرى فإن أى استقرار لعناصر شامية فى مصر أو فرض رقابة على حكومة الفاطميين كان سيتيح محاصرة المملكة اللاتينية فى بيت المقدس التى كان عليها مواجهة جبهتين واحدة فى الشمال والأخرى فى الجنوب، كما أن الأسطول المصرى كان ما يزال قادرًا على إزعاج حركة سفن الفرينج فى البحر^١.

وفى نفس الوقت الذى استقبل فيه شاور فى البلاط النورى، أرسل منافسه ضيغم إلى نور الدين رسالة يطلب فيها دعمه وتأييده فى منصبه الجديد. ولكن طلبه لم يُعره نور الدين أى اهتمام وخاب ظنه فى مسعاه. وبعد رفض نور الدين مساعدة ضيغم حاول ضيغم أن يكسب تأييد عمورى ملك بيت المقدس ليدافع عنه ضد أى هجوم يقوم به شاور، وعرض عليه دفع مبلغ كبير من المال، ولكن عموريًا تباطأ هو الآخر فى الرد عليه^٢.

حملة شيركوه الأولى على مصر

أجاب نور الدين شاور إلى مطلبه بعد تردد خوفًا منه من الفرينج، فأرسل معه فى جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ / إبريل سنة ١١٦٤م جيشًا على رأسه أسد الدين شيركوه، الذى كان له دور أساسى فى اتخاذ نور الدين لقراره، ليعيد شاور إلى منصبه.

لم يكن ضيغم يجهل أن جيش نور الدين جاء ليعيد منافسه شاور إلى الوزارة، وأن المهود التى قطعها شاور لنور الدين ستمكّنه من الاستيلاء على مصر واستغلالها لصالحه.

^١ Elisséeff, N., *Nûr al-Dîn, un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades*, II, p.

585.

^٢ أبو شامة : الروضتين ١ : ٤١٨، المقرئى : اتماظ ٣ : ٢٦٣، ٢٧٦.

وقد أدرك ضِرْغام أنه ضائع لا محالة . وبما أنه لم تكن له ثقة في قُواته فقد وَجَّه نداءً جديدًا إلى الفِرْنَج ، وعَرَضَ على عمورى - إذا استطاع أن يقطع الطريق على شيركوه - عَقْد تحالف معه يجعل مصر في حالة انتصار الفِرْنَج مقطعةً لمملكة بيت المقدس بدلًا من أن تكون تابعة للسوريين . وقد قبل عمورى هذا العرض واستعد للتدخل ، ولكنه لم يكن يملك قوَّاتًا كافية فقد نجح نور الدين في تحويل أنظار الفِرْنَج إلى ناحية بانياس ليحمى تقدُّم قوات شيركوه ، وجعلهم مضطرين إلى استبقاء بعض القوات هناك ^١ .

وقد انتهى تدخُّل الجيوش الشامية بقتل ضِرْغام في رجب سنة ٥٥٩هـ / يونية ١١٦٤م عند المشهد النفيسى جنوب القاهرة ، بعد أن تَفَرَّق عنه أنصاره وتخلَّى عنه الخليفة العاضد ^٢ .

شاوَر يعود إلى الوزارة

وفور القضاء على ضِرْغام أصدر الخليفة العاضد سجلًا بتولية شاوَر الوزارة للمرة الثانية فى الرابع من رجب سنة ٥٥٩هـ / ٢٦ يونية سنة ١١٦٤م ^٣ ، يقول أبو شامة : « ولم يُغْلَب وزيرٌ لهم وعاد سوى شاوَر » ^٤ . وبالطبع لم يف شاوَر بتعهداته التى قَطَعَهَا

^١ . Elisséeff, N., *op.cit.*, II, pp. 582-84

^٢ عمارة : النكت ٧٧؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٣٢-٣٣٣ ، ٤٢٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٩ ؛ النويرى : نهاية - ح ٢٦ : ١٠٠ ؛ ابن خلكان : وفیات ٢ : ٤٤٢ ، ٧ : ١٤٦ ؛ المقرئى : انماض ٣ : ٢٧٠ ، الخطط ٢ : ١٢-١٣ . ونجد تفصيل الحرب التى دارت بين شاوَر وضرغام وحديث عن أبواب القاهرة واستحكاماتها فى نص

مجهول المؤلف نقله ابن الفرات فى تاريخه واعتمد عليه المقرئى فى الخطط والانتاظ ونشره كلود كاهن سنة ١٩٦٩ ، Cahen, Cl., «Un récit inédit du vizirat de Dirghâm», *An. Isl.* VIII (1969), pp. 27-61 .

^٣ انظر نص سجل توليه شاوَر الوزارة للمرة الثانية عند القلقشندى : صبح ١٠ : ٣١٠-٣١٨ ؛ الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥٥ ، ٣٦٩-٣٧٩ ، وهو من إنشاء المؤرِّق بن الحلال .

^٤ أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٣٤ .

لنور الدين ، بل طَلَبَ إلى شيركوه أن يغادر مصر ويعود على الفور مع قواته إلى الشام . ولكن شيركوه سارع بإرسال قواته فاستولت على بَلْبَيس وحكم على البلاد الشرقية ^١ .

لم يجد شاوَر أمامه هذه المرة سوى اللجوء إلى الفِرْنَج يطلب نَجْدَتَهُمْ ومساعدتهم على إخراج جيوش نور الدين ويَحْوِفُهُمْ منه إن هو ملك مصر . وإذا كان لجوء شاوَر لطلب نَجْدَةِ نور الدين يعد خيانةً لأنه قَصَدَ أميرًا سنيًا مواليا لبغداد ومخالفا لعقيدة الدولة التي يُمَثِّلُهَا ، فإن لجوئه في هذه المرة إلى عموري الأول Amaury I ملك مملكة بيت المقدس ، يُعَدُّ خيانةً كاملة الأركان ؛ إذ إنه لم يطلب في هذه المرة مساعدة حاكم مسلم بل لجأ إلى أعداء المسلمين يُطْلَعُهُمْ على نقاط ضعف بلاده ويُطْغِمُهُمْ فيها .

وقد رَحَّبَ الفِرْنَج - الذين وَعَدَهُمْ شاوَر بدفع ألف دينار يوميًا - بهذا العرض على أمل أن يتمكنوا من الاستيلاء على مصر لحسابهم ، وبعد أن حاصروا قوات شيركوه في بَلْبَيس لمدة ثلاثة أشهر ، قَبِلَ شيركوه عرضًا بالعودة إلى الشام بعد أن اضطر الفِرْنَج إلى قَضَ حصارهم ومغادرة مصر بعد أن علموا بهزيمة قواتهم في حارِم ، وبتقدُّم جيوش نور الدين صوب بانياس ^٢ .

كان شاوَر هو الفائز الحقيقي في هذا الصِّراع ، فبعد أن أعادته جيوش شيركوه إلى منصب الوزارة ، تَجَمَّعَ بفضل تدخُّل نور الدين ضد جيوش عموري في فلسطين في

^١ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٢١-١٢٢ ، الكامل ١١ : ٢٩٩-٣٠٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٣٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٣٩ ، التويري : نهاية ٢٨ : ٣٣٤ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٧٤-٢٧٨ ، الصفدي : الوافي ١٦ : ٢١٤-٢١٥ ، ابن قاضي شُهْبَةَ : الكواكب ١٦٥ .

^٢ نفسه ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، نفسه ١١ : ٣٠٠-٣٠٤ ، نفسه ١ : ٣٣٦ ، ٤٢٣ ، نفسه ١ : ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، نفسه ٢٨ : ٣٣٦ ، نفسه ٣ : ٢٧٧ ، ابن قاضي شُهْبَةَ : الكواكب ١٦٦ .

يذكر أبو صالح الأرمني أن الغز الأكراد قاموا معهم عوام أهل مصر بهدم وإحراق العديد من البيع والكنائس في أثناء حملة شيركوه الأولى سنة ٥٥٩ ، عندما علموا باستنجد شاوَر بملك بيت المقدس لينصره عليهم . (تاريخ ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٠) .

التخلّص من جيوش السوريين وجيوش الفِرْنَج على السواء، وأصبح طوال العامين التاليين ابتداءً من المحرم سنة ٥٦٠هـ / نوفمبر سنة ١١٦٤م هو صاحب الأمر والنهي والمتحكّم في مقادير مصر وتخلّص من أنصار ضِرْغام وفَرَضَ على الخليفة وصايته الكاملة.

حملة شيركوه الثانية على مصر

ظَلَّ شيركوه منذ أن اضطر إلى الخروج من مصر يُفَكِّر في كيفية العودة إليها مرة أخرى للاستيلاء على السلطة بالقاهرة، فقد داعبته فكرة الاستقلال بها والخروج على سيطرة نور الدين وإقامة سلطة قوية مستقلة في مصر.

هكذا جاءت حملة شيركوه الثانية على مصر في سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م، والتي اصطحب فيها ابن أخيه صلاح الدين^١. وقد أيقن شاور من استقراء الأحداث أن شيركوه إذا قدم إلى مصر في هذه المرة فسيكون بيّنة البقاء فيها وعدم مغادرتها. لذلك فإنه لم يتوان عن التفاوض مع الفِرْنَج موضّحاً لهم الخطر الذي يُمثّله نور الدين على بيت المقدس لو نجح في الاستيلاء على مصر، وقد رَحَّب الفِرْنَج للمرة الثانية بدعوة شاور طمعاً في تملك مصر، وخوفاً من أن يستولى عليها نور الدين وجيوشه وبذلك يتمكن من تطويق مملكتهم التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين^٢. وقد وعدهم شاور بدفع ٤٠٠ ألف دينار منهم مائتا ألف معجلة. كان مفاوضات الفِرْنَج في هذه الصفقة Hugues de Césarée ومعه Geoffroy Foucher مثلاً للاستبارية ولزيد من التأكيد أراد الحصول على ضمانات كافية من الخليفة في حالة تغيير متولّي الوزارة. وقد شرح شاور للخليفة أهمية هذا التحالف وتم توقيع اتفاق بهذا المعنى^٣. ورغم أن المصادر العربية لم يرد بها ذكر لهذا اللقاء الذي تمّ بين مبعوثي الملك عموري والخليفة العاضد، فإن غُليوم أشفُف

^١ ابن شداد : النواذر السلطانية ٣٦، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٣؛ ابن واصل : مفرج : ١ : ١٤٩ .

^٢ أبو شامة : الروضتين ٢ : ٣٦٤؛ ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٤٩ .

^٣ Elisséeff, N., *op.cit.*, II, p. 604 .

صور Guillaume de Tyr حفظَ لنا بتفاصيل غنية رُشوم هذا الاحتفال الذي تمَّ في القصر الفاطمي بحضور الوزير شاور^١.

وحتى يتفادى شيركوه مواجهة مُبكرة مع الفِرْنَج عَبَّرَ النيل عند إلفيح ونَزَلَ بالجيزة وأقام بها نيفًا وخمسين يومًا متصرفًا فيها^٢. وبعد سلسلة من المناوشات تعرّضت لها بالتفصيل كتب الحوليات، تقابل الجيشان السوري والفرنجي في مصر العليا حيث نجح شيركوه في تحقيق انتصار على الفِرْنَج في ٢٥ جمادى الثانية سنة ٥٦٢هـ/١٨ إبريل سنة ١١٦٧م في معركة «الباتين» قرب الأشمونين^٣. ولكن هذه المعركة لم تحسم الموقف، فبدلًا من أن يتوجّه شيركوه إلى القاهرة خَلَفَ جيش شاور والفِرْنَج قَصَدَ الإسكندرية وجبى ما في طريقه من القرى، وقد وَجَدَ شيركوه في الإسكندرية قُوَّةَ دعم له، فالإسكندرية معقل من معاقل السنة بمصر، وقد أرسل إليه رؤساؤها يعرضون عليه تسليمها إليه ويُعرفونه أنه سيجد فيهم أنصارًا مخلصين. فاستتاب بها صلاح الدين وعاد هو إلى الصّعيد حيث ملكه وجبى أمواله^٤.

كان تقسيم جيش نور الدين إلى قسمين قسم في الإسكندرية بقيادة صلاح الدين وآخر في الصّعيد بقيادة شيركوه في غير صالح القوات السورية. فقد نَجَحَ شاور والفِرْنَج

^١ Schlumberger, G., *Compagnes du Roi Amaury I^{er} de Jérusalem en Egypte au XII^e siècle*, Paris 1906, pp. 118-121 وانظر فيما يلي ص ٣٨٠-٣٨١، ٤٠٣-٤٠٤.

^٢ ابن الأثير: التاريخ الباهر ١٣٢، أبو شامة: الروضتين ١: ٤٢٤، ابن واصل: مفرج ١: ١٤٩، ابن قاضي شعبة: الكواكب ١٦٩.

^٣ نفسه ١٣٢، نفسه ١: ٣٦٥، نفسه ١: ١٥١، المقرئ: الاتعاظ ٣: ٢٨٤، Ehrenkreutz, A.S., *Saladin* pp. 41-44.

^٤ عمارة: النكت ٨٠، عماد الدين الأصفهاني: البستان الجامع ١٣٦-١٣٧، ابن طاهر: أخبار ١١٥، ابن الأثير: التاريخ الباهر ١٣٣، الكامل ١١: ٣٢٤-٣٢٦، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨: ٢٦٩، أبو شامة: الروضتين ١: ٣٦٥-٣٦٦، ٤٢٤، ابن خلكان: وفيات ٧: ١٤٧-١٤٨، ابن واصل: مفرج ١: ١٥١، النويري: نهاية ٢٨: ٣٣٧، المقرئ: الخطط ١: ١٧٤، ٣٣٨، اتعاظ ٣: ٢٨٤، أبو المحاسن: النجوم ٥: ٣٨٧، ابن قاضي شعبة: الكواكب ١٧١-١٧٢.

فى إعادة تنظيم قواتهم وتوجها لمحاصرة الإسكندرية ، وانتهى الأمر بعقد صلح بين الفِرْنَج والمصريين من جهة والجيش السورى من جهة أخرى ، حيث بَدَلَ الفِرْنَج والمصريون لشيركوه خمسين ألف دينار مقابل مغادرته مصر ، فوافق على ذلك بشرط عدم إقامة الفِرْنَج فى البلاد وأن لا يملكوا منها قرية واحدة وأن يعود الجيشان فى وقت واحد إلى الشام وفلسطين^١.

ومع ذلك فقد جاء اتفاق المصريين مع الفِرْنَج باهظًا ومكلفًا للمصريين الذين كان عليهم قبول تواجد « شيخنة » للفِرْنَج بالقاهرة ، وأن تكون أبواب المدينة بأيدي فرسانهم حتى يمتنع نور الدين عن إرسال عسكر إليها وأن يكون لهم كذلك من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار^٢.

فُزَّان الفِرْنَج يدعوون عموريًا لغزو مصر

كان الغرض من ذلك هو محاولة منع جيوش نور الدين من العودة إلى مصر وحماية الجبابة الذين كانوا يُحَصِّلُونَ الجزية المفروضة حيث نجحوا فى جمع مائة ألف دينار قيمة الجزية السنوية المتفق عليها . وقد تبَّه هؤلاء الفُزَّان الفِرْنَج فى بيت المقدس إلى ضَعْف وعدم استقرار الحكومة الفاطمية فى مصر ، وأوضحوا لهم أن البلاد لا يوجد بها من يُدافع عنها ، وهَوَّنُوا عليهم عملية غزو مصر ، وأَيَّدَهم فى ذلك جماعة من أعيان مصر

^١ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٤ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٦ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥١ ، ابن قاضى شهاب : الكواكب ١٧٢ .

^٢ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٤ ، الكامل ١١ : ٣٢٧ ، ٣٣٥ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٥ ، ابن خلكان : وفيات ٢ : ٤٤٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٦٦ ، ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٩ - ٢٤ ، المقرئ : الخطط ١ : ٣٣٨ ، أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٤٩ ، ابن قاضى شهاب : الكواكب ١٧٢ .

وكان الصالح طلائع يحمل إلى الفِرْنَج كل سنة ٣٣ ألف دينار لا نعلم سببها (مؤلف مجهول : أخبار الدولة المصرية ٤٠ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٥٩) .

كراهة منهم لساوّر وحكمه^١. ومن ناحية أخرى فإن الرأي العام في مصر لم يكن ينظر بارتياح إلى وجود «شِخْنَة» للفِرْنَج في القاهرة، كما أن كثيرًا من المصريين لم يقبلوا بتصوّف ساوّر المهين، فقد أرسل الكامل شجاع ابن الوزير ساوّر يعرض على نور الدين الدخول في طاعته ويضمن له أن يجمع كلمة المصريين وراءه، وقد وافقه نور الدين على ذلك^٢.

لاشك أن الكامل بن ساوّر لم يُكاتب نور الدين إلا بعد أن عبّيه الخليفة العاضد نائبًا لأبيه. فقد أورد القلقشندي سيجلاً هامًا بتولية ابن ساوّر نيابة الوزارة عن أبيه، وهي المرة الأولى التي عُيّن فيه لأحد وزراء الفاطميين نائب أثناء وجوده ومباشرة الحكم، ويدل صدور هذا السجّل على أن ساوّر قد ضَعُف شأنه وضمُفَت ثقّة الخليفة فيه في أواخر أيامه، ويَدُلُّ كذلك على أن الكامل ابن ساوّر كان مدرّكًا لخطر الفِرْنَج ومَبْلَغَ أطماعهم فأثر أن يربط سياسته وسياسة مصر بالاتفاق مع نور الدين، فانتقال مصر إلى يد أمير مسلم أهون من انتقالها إلى أيدي الفِرْنَج^٣.

لم يستجب عموري بسهولة إلى إلحاح الفُرسان على ضرورة الإسراع بغزو مصر، فقد كان يرى أنه لا داعي الآن لمهاجمة مصر بما أنها تحمل إليهم جِزْيَة سنوية يتقوون بها على مواجهة نور الدين في الشام، كما أن أهالي مصر وعساكرها سيدافعون عنها بالقطع أمام الفِرْنَج، وسيحملهم الخوف منهم على تسليم البلاد إلى نور الدين^٤.

^١ ابن الأثير: الكامل ١١ : ٣٣٦؛ أبو شامة: للروضتين ١ : ٣٨٩؛ ابن واصل: مفرج ١ : ١٥٥-١٥٦؛ ابن الفرات: تاريخ ١/٤ : ٢١.

^٢ ابن الأثير: التاريخ الباهر ١٣٤، الكامل ١١ : ٣٢٧؛ أبو شامة: الروضتين ١ : ٣٦٦؛ ابن واصل: مفرج ١ : ١٥٢؛ المقرئ: اتعاظ ٣ : ٢٨٤.

^٣ القلقشندي: صبح الأعشى ١٠ : ٣١٨-٣٢٥؛ جمال الدين الشبلي: مجموعة الوثائق الفاطمية ١٥٧-١٧٠، ٣٥٧-٣٦٦ وانظر عمارة اليمنى: النكت المصرية ٨٨.

^٤ ابن الأثير: التاريخ الباهر ١٣٧؛ أبو شامة: الروضتين ١ : ٣٩٠.

وأمام إلحاح الفُرسان اضْطُرَّ عموري إلى إجابتهم على كره منه، وسارت قوات الفِرْنَج من عَشْقَلان في النصف من المحرم سنة ٥٦٤هـ/ ٢٠ أكتوبر سنة ١١٦٨م حيث وصلوا إلى بَلْبَيس في أول صفر وتمكّنوا من حصارها وتملكها وسبّوا أهلها وأقاموا بها مدة خمسة أيام توجّهوا بعدها إلى القاهرة حيث أناخوا عليها وحاصروها في عاشر صفر/ ١٣ نوفمبر. وقد دَفَعَ خوف أهالي القاهرة من أن يفعل بهم الفِرْنَج مثلما فعلوا بأهالي بَلْبَيس إلى الدفاع عن المدينة والقتال دونها وشرع شاور في إنشاء حصن على مصر الفُسطاط، ولم يبق أحد من أهل مصر إلّا عمل فيه وحفر حولها خندقاً^١، يقول ابن الأثير: «ولو أن الفِرْنَج أحسنوا السيرة مع أهل بَلْبَيس لملكوا مصر والقاهرة بسرعة»^٢.

حريقُ الفُسطاط الثاني

عندما علم شاور بما فعله الفِرْنَج في بَلْبَيس أمر في تاسع صفر - أي قبل نزول الفِرْنَج على القاهرة بيوم واحد - بإحراق الفُسطاط وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة وأمر الجنود بنهب الفُسطاط، فهجرت ونُهبت وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً^٣. وقد لجأ شاور إلى ذلك حتى لا يتخذ الفِرْنَج من الفُسطاط قاعدةً يغيرون منها على القاهرة، كما أن القاهرة بأسوارها وأبوابها كانت قادرة على مقاومة هذا الهجوم إن تمّ.

^١ أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩٠ ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٧ النويري : نهاية ٢٨ : ٣٣٨ المقرئ : اتعاط ٣ :

Ehrenkreutz, S., *op.cit.*, pp. 480 50; Lev, Y., *Saladin in Egypt* pp. 59-60 ٢٩٦

ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٨، الكامل ١١ : ٣٣٦ .

^٣ عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٨ ابن طاهر : أخبار ١١٦ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٣٨، الكامل

١١ : ٣٣٦ أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٩١، ٤٣٢ ابن واصل : مفرج ١ : ١٥٧ ابن أليك : كنز الدرر ٧ :

٣٠ النويري : نهاية ٢٨ : ٣٣٩-٣٤٠ ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٢٤-٢٥ المقرئ الخطوط ١ : ٢٩٦،

٣٣٨-٣٣٩، اتعاط ٣ : ٢٩٦-٢٩٧ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ١٣٥٠ ابن قاضي شعبة : الكواكب ١٧٥-١٧٦

وعالج فلاد يسلاف كوبياك موضوع حريق الفُسطاط بتفاصيل جديدة في مقاله «The Burning of Kubiak, W., «The Burning of Misr al-Fustat in 1168. A Reconsideration of Historical Evidence», *Africana Bulletin* XXV

. (1976), pp. 51-64

أُخس شاورٌ بحرج موقفه وعجزه عن مقاومة الفِرْنَج، فلجأ مرة أخرى إلى مراسلة عمورى مُذَكِّرًا له بما بينهما من مَوَدَّة، ومُخَوِّفًا له فى نفس الوقت من نور الدين، وأن المسلمين لن يوافقوه على تسليم البلاد، ويطلب إليه عَقْد اتفاقية صلح حتى لا يُسَلِّم البلاد إلى نور الدين يدفع له بمقتضاها ألف ألف دينار يُعَجِّل له منها مائة ألف، فأجابه عمورى إلى ذلك بشرط موافقة الخليفة العاضد فلم يكن الفِرْنَج يثقون فى شاور^١. واستمرارًا فى سياسته فى ضَرْب قُوَّة الفِرْنَج بِقُوَّة نور الدين طَلَب شاورٌ إلى الخليفة العاضد أن يكتب إلى نور الدين طالبًا معونته خوفًا من سقوط مصر فى أيدي الفِرْنَج فَأُرْسِلَتْ «الكتب إلى نور الدين مُسَوَّدَةٌ وفى طيِّها ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة» ويقول له فيها «إن لم تبادر دَهَبَت البلاد»^٢.

حملة شيركوه الثالثة

كانت استجابة نور الدين وشيركوه سريعة لمطلب المصريين، وأمدَّ نور الدين شيركوه، فى هذه المرة، بمائتى ألف دينار بالإضافة إلى الأسلحة والثياب والدواب، وأذن له فى أن يختار من العسكر ألفى فارس ومنح كلاً منهم عشرين دينارًا غير محسوبة من جامكيتهم، فسار إلى مصر ومعه ستة آلاف فارس. ومجموعة من مقدمى الأمراء^٣، كذلك نَدَبَ نور الدين صلاح الدين يوسف بن أيوب ابن أخى شيركوه

^١ ابن الأثير: التاريخ الباهر ١١٣٨: أبو شامة: الروضتين ١: ٣٩١-٣٩٢: ابن خلكان: وفیات ٢: ٤٤٧: ابن واصل

: مفرج ١: ١٥٧: المقرئى: اتعاظ ٣: ٢٩٨: ابن الفرات: تاريخ ١/٤: ٢٥.

^٢ نفسه ١١٣٨: الكامل ١١: ٣٣٧: أبو شامة: الروضتين ١: ٣٩١-٣٩٢: ابن خلكان: وفیات ٢: ٤٤٧: ابن

واصل: مفرج ١: ١٥٧: المقرئى: اتعاظ ٣: ٢٩٨: ابن الفرات: تاريخ ١/٤: ٢٥.

^٣ نفسه ١١٣٨: الكامل ١١: ٣٣٧: أبو شامة: الروضتين ١: ٣٩١: ابن واصل: مفرج ١: ١٥٨: النويرى: نهاية

٢٨: ٣٤٠: ابن الفرات: تاريخ ١/٤: ٢٢: المقرئى: اتعاظ ٣: ٢٩٣: ابن قاضى شهبه: الكواكب ١٧٦.

^٤ ابن الأثير: الكامل ١١: ٣٣٨، التاريخ الباهر ١١٣٩: أبو شامة: الروضتين ١: ٣٩٤: ابن خلكان: وفیات ٢:

٤٤٧: ابن واصل: مفرج ١: ١٥٨: ابن الفرات: تاريخ ١/٤: ٢٦: المقرئى: اتعاظ ٣: ٢٩٤.

ليمضى معه إلى مصر، فخرج معه على كره منه^١، لا يعلم ما ينتظره من مجد في مصر. وبينما الفِرْنَج يستحثون أهل القاهرة على خنل المال المتفق عليه، وَصَلَتْ مقدمة جيش شيركوه وصلاح الدين إلى مصر لثُغْرَةِ المصريين في ٧ ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ/ ٨ يناير سنة ١١٦٩م، فاضطر عموزى إلى مغادرتها مصطحبًا معه اثني عشر ألف أسير ما بين رجل وصبي وامرأة^٢.

كان ظاهر مجيء شيركوه في هذه المرة هو مساندة شاور والخليفة العاضد ضد الفِرْنَج، إلا أنه كان يُطِيطُ الاستيلاء على مصر وَوَجَدَ أنه لا سبيل إلى تحقيق ذلك مع بقاء شاور، فدبر لقتله بموافقة الخليفة العاضد في أواخر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/يناير ١١٦٩م، بعد أن كان شاور قد عَقَّدَ العزم على الخلاص من شيركوه لولا تحذير المقرئين إليه من مَعْبَةِ ذلك وأنه قد يؤدي إلى عودة الفِرْنَج إلى مصر مرة ثانية^٣.

^١ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٩٤؛ ابن قاضي شعبة : الكواكب ١٧٧ .

^٢ ابن الأثير : الكامل ١١: ٣٣٨؛ المقرئى : اتعاظ ٣: ٢٩٩ .

^٣ عمارة : النكت ٨١؛ عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٨؛ ساويرس : تاريخ البطارقة ٢/٣: ٦٣؛ ابن الأثير : الكامل ١١: ٣٣٩-٣٤٠، التاريخ الباهر ١٤٠؛ سبطا بن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٢٧٦-٢٧٨؛ أبو شامة : الروضتين ١: ٣٩٦، ٤٣٦؛ ابن واصل : مفرج الكروب ١٦١-١٦٢؛ ابن خلكان : وفيات ٢: ٣٤-٣٥؛ الصفدى : الوافى ١٦: ٩٥-٩٦، ٢١٤-٢١٥؛ ابن الفرات ١/٤: ٢٩-٣٣، المقرئى : اتعاظ ٣: ٢٩٩-٣٠٢، أبو المحاسن : النجوم ٥: ٣٨٨، ٣٥١؛ Ehrenkreutz; A.S., *op.cit.* pp. 54-56; Lev, Y., *op.cit.* pp. 61-66.

وبلاحظ أن شاور والداعى ابن عبد الحقيق قد فكرا جدًّا في التبرع بالدعوة الفاطمية لابنى صاحب غَدَن الزُّرَيْعى بعد وفاته لولا أن عمارة اليمنى حذَّرهما من ذلك وقال لهما : إنما أهل اليمن يمشون إليكم النجاوى والفطرة من أجل الدعوة، فإذا تنازلتم عنها فقد هَوَّتم حرمتها . (عمارة اليمنى : النكت المصرية ٩٢) كما وَجَّه عمارة نقدًا شديدًا إلى شاور واتهمه على حق بأنه هو الذى أطمع الفِرْنَج والغَزَّ فى الدولة حتى انتقلت عن أهلها (النكت المصرية ٨٨) .

شيركوه وزيراً للفاطمين

كان قَتْلُ شَاوَرِ خطوة هامة في سبيل تقوية وضع شيركوه في مصر. فقد كان هو الشخص الوحيد الذى يستطيع منافسته. ففور التخلص منه خَلَعَ الخليفة العاضد على شيركوه تبعاً للتقاليد المصرية خَلَعَ الوزارة وقَوَّضَ إليه الحُكْمَ والتقدمة على الجيوش، ولَقَّبَهُ بـ «الملك المنصور سُلْطَان [أمير] الجيوش» فنزل فى دار الوزارة واستقرت له الأمور دون منازع^١. وأمر الخليفة بكتابة سِجْلٍ بذلك من إنشاء القاضى الفاضل^٢ وَقَعَ العاضد على طَرَفِهِ بخطه «هذا عَهْدٌ لا عَهْدَ لوزير بمثله وتقليدُ أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلاً لحمله...»^٣.

وفور أن استقرت الأمور لشيركوه «أَقْطَعَ البلاد للعساكر التى قدمت معه» وأبقى للمصريين ما بأيديهم ولم يُعَيِّرَ على أحدٍ شيئاً، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأموارهم. غير أن شيركوه لم يلبث أن توفى فجأة بعد عدة أسابيع يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ/مارس سنة ١١٦٩م^٤.

^١ ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة ٢/٣: ٦٦٣ ابن الأثير: التاريخ الباهر ١٤٠، الكامل ١١: ٣٤٠، أبو شامة: الروضتين ١: ٤٠٢، ابن واصل: مفرج ١: ١٦٣-١٦٤، النويرى: نهاية ٢٨: ٣٤٢، المقرئى: اتعاظ ٣: ٣٠٢، ابن قاضى شعبة: الكواكب ١٧٨-١٧٩.

^٢ انظر نص السجل عند ابن الفرات: تاريخ ١/٤: ٣٤-٤٤، القلقشندي: صبح ٣: ٤٢٨، ١٠: ٩١-٩٢ وفقرات منه عن أبى شامة: الروضتين ١: ٤٠٢-٤٠٣ ابن واصل: مفرج ١: ١٦٤ الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ١٧١-١٧٣، ٣٨٣-٣٩٧. وانظر فيما يلى ص ٣٢٤-٣٢٥.

^٣ القلقشندي: صبح ٩: ٤٠٦-٤٠٧، أبو شامة: الروضتين ١: ٤٠٢ ابن واصل: مفرج ١: ١٦٥ ابن خلكان: وفيات ٧: ١٤٩ النويرى: نهاية ٢٨: ٣٥٦، المقرئى: اتعاظ ٣: ٣٠٢، أبو المحاسن: النجوم ٥: ٣٥٣ الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ١٧٤، ٤٠١. وانظر مناقشة ليف لهذا السجل Lev, Y., *op.cit.*, pp. 66-81.

^٤ ابن الأثير: التاريخ الباهر ١٤١، الكامل ١١: ٣٤١-٣٤٢، أبو شامة: الروضتين ١: ٤٠٢-٤٠٣، ٤٣٨ ابن واصل: مفرج ١: ١٦٥، ١٦٨ النويرى: نهاية ٢٨: ٣٥٧، الصفدى: الوافى ١٦: ٢١٥، المقرئى: اتعاظ ٣:

صلاح الدين

على رأس السُلطة في مصر

صلاح الدين وزيراً رَغمًا عنه

أيقظت خلافة شيركوه في منصبه الكثير من الطموحات ، فقد طمع الكثيرون من القادة الذين كانوا على رأس جيش نور الدين في منصب الوزارة . ولكن شهاب الدين محمود الحارمى ، خال صلاح الدين وأحد هؤلاء القادة ، قام بدور هام في تولية صلاح الدين الوزارة . فهو الذى أشار على العاضد أن يوليها له ، ووافق العاضد على ذلك ظنًا منه أنه قادرٌ على السيطرة عليه وأنه لن يستطيع مخالفته ؛ لأنه لم يكن له عسكر ولا رجال^١ . وستبث الأحداث قصر نظر العاضد وأنه لم يُقدّر صلاح الدين حقّ قدره .

خلَعَ العاضد على صلاح الدين خِلَع الوزارة^٢ وأمر القاضى الفاضل بإنشاء سِجِلٍّ بتوليته الوزارة ولَقَّبَه بـ «الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين جامع كلمة الإيمان قانع عِبْدَةِ الصليبان محبى دولة أمير المؤمنين» فى يوم الاثنين ٢٥

^١ ساويرس بن المقفع : تاريخ البطارقة ٢/٣ : ١٦٤ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤١-١٤٢ ، الكامل ١١ : ٣٤٣-٣٤٥ أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٠٦-٤٠٧ ، ٤٣٨-٤٣٩ ابن واصل : مفرج : ١ : ١٦٨-١٦٩ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٥٨-٣٥٩ الصفدى : الوافى ١٨ : ٣٤٠ ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٥٦-٥٧ المقرئى : اتعاظ ٣ :

٣٠٨ ابن قاضى شعبة : الكواكب ١٨٠ . Elisséeff, N. *op.cit.*, pp. 638-39

وصف لنا أبى طمّ خلعة الوزارة التى خلعت على صلاح الدين ، ونقله عنه أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٣٩ والمقرئى :

اتعاظ ٣ : ٣٠٩ ابن قاضى شعبة : الكواكب ١٧٩-١٨٠ وانظر Lev, Y., *op.cit.*, p 76-81

^٢ وصف لنا ابن أبى طمّ خلعة الوزارة التى خلعت على صلاح الدين ، ونقله عنه أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٠٦-٤٠٧ ، ٤٣٨-٤٣٩ ابن واصل : مفرج : ١ : ١٦٨-١٦٩ النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٥٩-٣٥٨ الصفدى : الوافى ١٨ : ٣٤٠ ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٥٦-٥٧ المقرئى : اتعاظ ٣ : ٣٠٨ ابن قاضى شعبة : الكواكب

جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ / ٢٦ مارس سنة ١١٦٩م، وكتب على طُرته بخطه :
« هذا عَهْدُ أمير المؤمنين إليك وَحُجَّتُهُ عند الله تعالى عليك ، فَأَوْفِ بِعَهْدِكَ
وَيَمِينِكَ ... »^١.

وبتولى صلاح الدين منصب الوزارة ، كآخر وزير فى الدولة الفاطمية ، وَصَلَ المَدَّ
السَنَى الذى بدأه السَّلاجِقَةُ قبل نحو مائة عام وأكمله ورثتهم الزنكيون والنوريون إلى
مصر .

مُؤَامَرَةُ مُؤَقِّمِ الخِلافةِ

أدرك بعض حُدَّام القصر من السودان مصير الدولة الفاطمية على يدى صلاح الدين
فعملوا على مكاتبة الفِرْنَجِ سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م ليصلوا إلى البلاد حتى إذا خرج صلاح
الدين للقائهم قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة ، وانضموا إلى الفِرْنَجِ فى محاربتة
فيظهروا عليه ويقتسموا البلاد بينهم وبين الفِرْنَجِ ، لولا أن وَقَعَ كتابهم فى يد صلاح
الدين ، وقتل صلاح الدين رئيسهم مؤتمن الخلافة فى ذى القعدة من نفس العام ، مما أَدَّى
إلى ثورة عبيد القصر من السودان - وكانوا يزيدون على خمسين ألف - فتمكَّن صلاح
الدين من القضاء عليهم وأحرق الحارة المنصورية المختصة بهم على باب رُوَيْلَةَ وَخَرَّبَهَا
وأصبح أمر السودان كأن لم يكن . وتَبَّعَ صلاح الدين فلولهم فى الصعيد حتى قضى
على نفوذهم تماماً^٢.

^١ نفسه وانظر كذلك ساويرس : تاريخ بطارقة الكنيسة ٢/٣ : ٦٤٤ ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٥٧-٦٣
القلقشندى : صبح ١٠ : ٩١-٩٨ ، ٤٠٧ : المقرئى : اتعاظ ٣ : ٣٠٩ ابن قاضى شعبة : الكواكب ١٧٩-١٨٠
وانظر Lev, Y., *op.cit.*, p. 76-81. ونسأ إلى ص ٣٢٠-٣٢٦.

^٢ ساويرس بن المقفع : تاريخ البطارقة ٢/٣ : ٦٥-٦٦ ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٤٥-٣٤٧ أبو شامة : الروضتين
١ : ٤٥٠-٤٥٢ ابن واصل : مفرج ١ : ١٧٤-١٧٧ ، ٢٠٢ : ابن خلكان : وفيات ٤ : ٩١ ، ٧ : ١٥٧ : النورى :
نهاية ٢٨ : ٣٦٠-٣٦١ ابن أيلك : كنز الدرر ٧ : ٤٤٤ ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٦٧-٧١ ، ١١٣١ : المقرئى : -

وقد قُوِّض صلاح الدين أمر القصر إلى أحد خواصه هو الخصى بهاء الدين قراقوش الذى تولَّى فيما بعد بناء القلعة وسور القاهرة^١.

مهاجمة الفِرْنَج لِلدِّمَاط

أدرك عمورى، منذ أن استولى أسد الدين شيركوه على السلطة فى مصر، أن نور الدين لا يُخَيِّم سيطرته على مصر. فعمل على توجيه نداءات لطلب العون من كل مسيحي العالم. وقد وَجَدَ طَلَبُ عمورى استجابةً حيث جُهِّزَ أسطولٌ ضخْمٌ بالتعاون بين أوروبا والدولة البيزنطية، وصل إلى دِمَاط فى ٣ صفر سنة ٥٦٥هـ / ٢٧ أكتوبر سنة ١١٦٩م. وقد اختار الفِرْنَج النزول بِدِمَاط لأنهم كانوا يأملون أن يقيموا فى هذا الميناء قاعدةً عسكريةً يستطيعون دعمها عن طريق البر وطريق البحر، حيث أملوا إذا سيطروا على الدلتا المصرية أن يتمكنوا من توجيه عملياتهم صوب القاهرة^٢.

وقد أرسل صلاح الدين الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه وخاله شهاب الدين الحارمى للسيطرة على دِمَاط. ونظرًا لأن صلاح الدين لم يكن يثق فى عساكر المصريين وخاف إن تقدَّم لملاقاة الفِرْنَج استولى المصريون على القاهرة ويحصرونه بينهم وبين الفِرْنَج - كتب إلى نور الدين فى دمشق يشكو إليه ما هو فيه من المخاوف ويطلب نجده - فجهَّز إليه نور الدين طوائف صارت إليه طائفة وراء طائفة. وفى نفس الوقت أغار نور الدين على بلاد الفِرْنَج فى الشام ونَهَبَها حتى تتحرك قواتهم لحفظ البلاد الشامية

= المخطوط ٢: ٢-٣، ١٩، اتعاظ ٣: ٣١١-٣١٣، أبو المحاسن: النجوم ٥: ٣٥٤، ٦: ٢٠، ابن قاضى شبهة:

الكواكب ١٨٣-١٨٥؛ وانظر كذلك Lev, Y., *op.cit.*, pp. 81-84.

^١ راجع، ابن خلكان: وفيات ٤: ٩١-٩٢، ابن الفرات: تاريخ ١/٤: ١٣١، ابن قاضى شبهة: الكواكب

.Sobernheim, M. *El² art. Karâkûsh*, IV, p. 638؛ ١٩٩

^٢ Elisséeff, N., *op.cit.*, pp. 645, 647

ويخفف الحصار عن دِمياط . وقد اضطر الفِرْنَج أمام تنازع الإمدادات إلى دِمياط من القاهرة ومن الشام ، وأمام دخول نور الدين بلادهم ونهبها وإحراقها إلى الرحيل عن دِمياط بعد أن حاصروها خمسين يوماً^١.

إنقلاب صلاح الدين وإصلاحاته السنية

عندما تولّى صلاح الدين الوزارة كانت المؤسسة الفاطمية في مصر تُسيطر على موارد البلاد وتمتلك نسبتاً قوية عسكرية قوية وتشرف على النظام القضائي وعلى ديوان الإنشاء . وكان يشارك في تسيير هذه المؤسسة أفراد ينتسبون إلى ديانات وطوائف مختلفة (الإسماعيليون والمسلمون السنة والأقباط) وإلى مجموعات عرقية متنوعة (العرب والأرمن والسودان) . ولم تتم عملية تصفية الدولة الفاطمية والقضاء عليها إلا بفضل خطة محكمة نفّذها صلاح الدين ومؤيدوه ضد النظام الفاطمي . ففي البداية حرص صلاح الدين على تقوية مكانته فاستقدم والده وإخوته ليلحقوا به في مصر ، وأدخل تغييرات كبيرة على نظام الجيش في أعقاب قسَل مؤامرة مؤتمن الخلافة ، حيث تَخَلَّص من القادة المصريين واستبدل عوضهم رجالاً من أنصاره ، كما ضمن السيطرة على موارد الدولة بتوليته والده «أمر الخزائن كلها» في ٢٥ رجب سنة ٥٦٥هـ / ١٦ إبريل سنة ١١٧٠م^٢.

وفي أواخر عام ٥٦٥هـ / ١١٧٠م بدأ صلاح الدين في اتخاذ خطوات حاسمة

^١ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٤٣-١٤٤ ، الكامل ١١ : ٣٥١-٣٥٢ ابن خلكان : وفيات ٧ : ١١٥٢ أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٤٦ ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٧٩-١٨٣ ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ٨٢-٨٧ المقرئ : اتعاظ الحنفا ٣ : ٣١٥-٣١٦ ابن قاضي شعبة : الكواكب ١٨٥-١٨٧ .

^٢ Ehrenkrutz, A. S., «Satadin's coup d'état in Egypt», *Medieval and Middle Eastern Studies in Honor of Aziz Suryal Atiya*, ed. by Sami A. Hanna, Leiden 1972, pp. 145, 147 : وانظر أبا شامة :

ضد المؤسسة الفاطمية لإضعاف المذهب الإسماعيلي وتقوية المذهب السني في مصر .
ففي العاشر من ذى الحجة سنة ٥٦٥هـ / ٢٥ أغسطس سنة ١١٧٠م أبطل من الأذان
« حتى على خير العمل »^١ وأمر أن يُذكَر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون^٢ ونَزَعَ المناطق
الفضة التي كانت بمحاريب جوامع القاهرة والتي كانت تحمل أسماء الخلفاء
الفاطمين^٣.

وفي الأيام الأولى من شهر المحرم سنة ٥٦٦هـ / سبتمبر سنة ١١٧٠م أمر صلاح
الدين بهدم دار المعونة المجاورة للجامع العتيق بمصر وبنائها مدرسةً للشافعية . وفي
منتصف هذا الشهر عُمِّر دار الغزل المجاورة لباب الجامع العتيق مدرسةً للمالكية عرفت
بالمدرسة القَفْجِيَّة . وفي منتصف شعبان من هذه السنة اشترى تقي الدين عمر بن
شاهنشاه - ابن أخى صلاح الدين - منازل العِزِّ بالقُشَطَاط وجعلها مدرسةً للشافعية
عرفت بالمدرسة التَقَوِيَّة^٤، كما حوّل صلاح الدين دار سعيد السعداء الواقعة شمال
القصر الفاطمي الشرقي خانقاه للصوفية، وهي بذلك تُعَدُّ أوَّل خانقاه للصوفية تنشأ
بمصر^٥. وفي العام نفسه أبطل صلاح الدين « مجالس الدُّعْوَة » من القصر والجامع

^١ أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٨٨ النويري : نهاية ٢٨ : ٣٦٢ المقرئى : الخطط ٢ : ٢٧١ ، اتعاط ٣ : ٣٠٧ .

^٢ المقرئى : السلوك ١ : ٤٥ .

^٣ المقرئى : اتعاط ٣ : ٣١٧ .

^٤ ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٦٦ البندارى : منا البرق ٥٧ : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٢٨٣ أبو شامة :

الروضتين ١ : ٤٨٦ ابن خلكان : وفیات ٣ : ٤٥٦ ابن واصل : مفرج ١ : ١٩٧ - ١٩٨ النويري : نهاية ٢٦ :

٣٦٣ السبكي : طبقات الشافعية ٧ : ٣٥٦ ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٢٤ - ١٢٥ ، ١٢٨ القلقشندي : ٣ :

٣٤٢ المقرئى : الخطط ١ : ٢٤٨٥ ، ٢ : ٣٤٣ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٢٠ أبو المحاسن : النجوم ٥ :

٣٨٥ ابن قاضي شهاب : الكواكب ١٩٤ وانظر كذلك Lapidus, I M. « Ayyubid Religious Policy and

the Development of The School of Law in Cairo », CIHC, pp. 279-286 .

عن خانقاه سعيد السعداء والخانقاوات بصفة عامة انظر ، ابن ميسر : أخبار ١٤٤ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٣٦٤ -

٣٦٥ المقرئى : الخطط ٢ : ٤١٥ - ٤١٦ ، اتعاط ٣ : ٢٠٠ ' Sa'id al-Su'adfi' art. ٢٠٠ Sylvie Denoix, El

. VIII, pp. 891-92

الأزهر^١، وعُزِّل جميع القضاة الإسماعيليين وفُوض قضاء مصر في ٢٢ جمادى الآخرة / ٢ مارس سنة ١١٧١م إلى القاضى صدر الدين أبى القاسم عبد الملك بن عيسى بن ديزباس الماراني الشافعى^٢، حيث اشتهر من حيثئذ المذهب الشافعى فى مصر. كذلك جُعِّل صلاح الدين القاضى الفاضل رئيسًا لديوان الإنشاء^٣ فضمن بذلك سيطرته على النواحي الدينية ومراسلات الدولة.

وكان من أهم مظاهر تحوُّل مصر إلى المذهب السنى نشر المذهب الأشعرى، فقد كان صلاح الدين وجميع ورثة السلاجقة يتعصَّبون لمذهب الأشعرى فى الأصول، وهو المذهب الذى تولاه السلاجقة من قبل فى مواجهة مذهب المعتزلة العقلى وأنشئوا له «المدارس» ليحاربوا من خلالها مذاهب الفاطميين. وفى الوقت نفسه وقَّع صلاح الدين توقيعًا وَّجَّهه إلى القاضى الفاضل بعدم استخدام التصارى نُظَّارًا على أموال الدولة ولا مُشارفين^٤.

وهكذا، ومع نهاية عام ٥٦٦هـ / ١١٧١م أتمَّ صلاح الدين عددًا من الإجراءات الضرورية فى مواجهة المؤسسة الفاطمية عَجَّلَت بالخطوة الحاسمة وهى القضاء على الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة للعبَّاسيين من على منابر مصر.

^١ التبرى: نهاية ٢٨ : ٣٦٤ المقرئى : اتعاظ ٣ : ٣٢٠ .

^٢ ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٣٦ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨ : ٢٨٣ أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٨٦ ابن خلكان : وفيات ٣ : ٣٤٢-٤٣ ابن واصل : مفرج ١ : ١٩٨ النوبرى : نهاية ٢٨ : ٣٦٤ ابن أبيك : كنز الدرر ٧ : ٤٧ ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٢٥ المقرئى : الخطط ٢ : ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٣٤٣ ، الاتعاظ ٣ : ٣١٩ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٣٦٨ أبو الهاسن : النجوم ٥ : ٣٨٥-٣٨٦ ابن قاضى شعبة : الكواكب ١٩٤ السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ٤٥ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١ : ٢٣٣ .

^٣ الصفدى : الوافى بالوفيات ١٨ : ٣٤٠-٣٤١ .

^٤ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٣ : ٦٤ .

الخُطبة للقباسيين وسُقوط الفاطميين

في بداية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م جاءت الخطوة الحاسمة في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر، عندما أُنقِطَ صلاح الدين خُطبة الفاطميين وأمر الخطباء بالدعوة للخليفة العباسي المستنصر بأمر الله وذلك في السابع من المحرم / العاشر من سبتمبر وأعاد الشواد شعار القباسيين^١. وأصبح يُخطَب باسم صلاح الدين على منابر مصر بعد الخليفة القباسي والملك العادل نور الدين. وقد تمَّ هذا التحوُّل الخطير في هدوء تام « فلم ينتطح فيه عنزان » كما ذكر المؤرخون^٢. ذلك الهدوء الذي أعلن به من قبل القائد جُوهر قيام الخلافة الفاطمية في مصر قبل قرنين، واستقبل المصريون هذا التحوُّل بنفس السلبية واللامبالاة التي استقبلوا بها المذهب الإسماعيلي من قبل.

وفي الحقيقة فإن غالبية الشعب المصري لم تعتنق إطلاقاً المذهب الإسماعيلي، ولم يعتنقه فقط سوى العناصر التي تعاونت مع الخلافة الفاطمية ممثلة في الأقليات الأجنبية التي جاءت صحبة الفاطميين أو استعانوا بها طوال فترة حكمهم من أجل تحقيق سياستهم، وهؤلاء فقط هم الذين نستطيع القول بأنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلي في مصر.

^١ عماد الدين الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٩؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٥٦، الكامل ١١ : ٣٦٨ - ٣٧١ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨ : ٢٨٥؛ البنداري : سنا البرق ٥٨؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٩٢ - ٤٩٣؛ ابن خلكان : وفيات ٧ : ١٥٧؛ ابن واصل : مفرج ١ : ٢٠ - ٢٠٢؛ النويري : نهاية ٢٣ : ٣٠٢، ٢٦ : ٣٤٤، ٣٦٤؛ ابن أبيك : كنز الدرر ٧ : ٤٨؛ السبكي : طبقات الشافعية ٧ : ٣٤١، ٣٥٦؛ الصفدي : الوافي ١٧ : ٦٨٩؛ ابن الفرات : تاريخ ١/٤ : ١٦١، ١٦٣؛ المقرئ : اتعاظ ٣ : ٣٢٥ - ٣٢٦؛ أبو المحاسن : النجوم ٥ : ٣٥٥ - ٣٥٦، ٦ : ٦٣؛ ابن قاضي شعبة : الكواكب ١٩٥ - ١٩٧؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٤٥ - ٤٤٧؛ Ehrenkreutz. A.S.,

^٢ ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٦٩؛ أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٩٣؛ ابن الفرات : التاريخ ١/٤ : ١٦٣.

نُورُ الدِّينِ وَمَوْفَقُهُ مِنْ مِصْرَ

كان السلطان نور الدين محمود يَطْمَعُ في الاستيلاء على مصر، ويظن أن صلاح الدين « نائبا عنه في مصر متى أراد سحبه بإذنه لا يمتنع عليه » ولكن صلاح الدين كانت له طموحات أخرى، وكان ذلك سبب تأخره في الانصياع لطلب نور الدين في قَطْع خطبة الفاطميين قبل ذلك، لأنه خشى إن هو فَعَلَ ذلك؛ أن يسير نور الدين إلى مصر وينزعها منه^١.

ولم تكد تمضي أيام على قَطْع خُطْبَةِ الفاطميين إلّا وقد توفي الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ليلة عاشوراء سنة ٥٦٧هـ / ١٢ سبتمبر ١١٧١م. فأمر صلاح الدين بإنشاء الكتب إلى البلاد بوفاة العاضد وإقامة الخطبة رسميًا للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي^٢.

نِهَايَةُ الْفَاطِمِيِّينَ

وبذلك وَضَعَ صلاح الدين نهايةً للدولة الفاطمية في مصر لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخها عادت فيها إلى قلب العالم الإسلامي الشنئ، ولتؤدى تحت قيادة الأيوبيين ومؤسّس دولتهم صلاح الدين دَوْرًا هامًا في توحيد الجبهة الإسلامية ومواجهة خطر الفِرِنج، الذى أذى ضعف وتخاذل السلطة الحاكمة في مصر في آخر عهد الفاطميين إلى زيادة نفوذهم وسطوتهم وتهديدهم لوحدة العالم الإسلامي.

وفور وفاة العاضد طلب صلاح الدين من بهاء الدين قراقوش، متولّي زمام القصر، التَّحَوُّط على كل ما فيه. ولم يجد فيه كثيرًا من المال وإنما وَجَدَ فيه العديد من التحف والذخائر التى لا تُقَدَّر بِشَمْنِ والى جمعها الفاطميون طوال فترة حكمهم ونجت من

^١ المقرئى : ٣ : ٣٢٥؛ ابن قاضى شعبة : الكواكب ١٨١ .

^٢ نفسه ٣ : ٣٢٧-٣٢٨ .

الأزمات المتتالية ، بالإضافة إلى مكتبتهم النفيسة التي بلغ عدد كتبها ألف ألف وستمئة ألف كتاب ، منها مائة ألف بخطوط منسوبة^١ .

أما أهل البيت الفاطمي نفسه فقد وجد منهم في القصر مائة وثلاثين نفساً وخمسة وسبعين طفلاً نقلهم إلى دار المظفر بحارة بَزْجَوَان وفَرَّق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا .

وأقطع صلاح الدين قصور الفاطميين لخواصه وباع بعضها . فكان القصر الشرقي الكبير من نصيب أمرائه ، وأسكن أباه نجم الدين أيوب في قصر (منظرة) اللؤلؤة على الخليج ، وتفرَّق الأمراء بقية القصور والرُّباع .

مُحاوَلَة إعادة الدَّوْلَة الفاطمية

لاشك أن الخطوة التي أقدم عليها صلاح الدين لم ترق لكثير من أتباع الدولة الفاطمية الذين كانوا في الأغلب من الأجانب غير المصريين ، فلم يكذب يمشي عامان على سقوط الخلافة الفاطمية حتى قام جماعة من بقايا أتباع الفاطميين بينهم داعي الدُّعاة ابن عبد القوى والشاعر نجم الدين عُمارَة اليمنى^٢ ، واتَّفَقوا فيما بينهم على إقامة خليفة ووزير وكتبوا الفِرْنَج في بيت المقدس ليعينوهم على تحقيق انقلابهم . ولكن صلاح الدين تمكَّن

^١ انظر فيما يلي ص ٥٩٤-٦٠٩ .

^٢ ابن الأثير : التاريخ الباهر ١٥٦-١٥٧ ، الكامل ١١ : ٣٦٨-٣٧٠ ، ساويرس بن القفح : تاريخ البطارقة ٢/٣ : ٦٧-٦٨ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٩٢-٤٩٥ ، ابن واصل : مفرج ١ : ٢٠٢-٢٠٤ ، المقرئ : الخطط ١ : ٤٩٦-٤٩٨ ، اتعاط ٣ : ٣٣٠-٣٣١ ، ٣٤٧-٣٤٨ .

^٣ رثى عمارة اليمنى الفاطميين بقصيدة تمد من أحسن ما قيل في رثاء الدول مظلمها :

رَتَيْت يا ذَهْر كُفِّ المَجدِ بالثَّلَلِ وجيَّه بعد حُشْن الحَلَى بالْعَطَلِ

(ديوان عمارة ٦١٢-٦١٦ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ٥٧-٥٧١ ، ابن واصل مفرج ١ : ٢١٢-٢١٦ ، القلقشندي :

صبح ٣ : ٥٢٦-٥٢٨ ، المقرئ : الخطط ١ : ٤٩٥-٤٩٦) .

من كشف مؤامرتهم بوشاية واحد منهم، واعترفوا بمؤامرتهم، وأحضر صلاح الدين العلماء واستفتاهم في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وصلبهم، فقتلهم جميعاً وصلبهم في آخر عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م^١.

وهكذا قُضِيَ على آخر أمل لأتباع الدعوة الفاطمية في مصر، وانتهى دور الدولة الفاطمية السياسي في التاريخ.

^١ العماد الكاتب : خريدة القصر وجرندة العصر (قسم الشام) ٣ : ١٠٣ ، ١٤٠ - ١٤١ العماد الأصفهاني : البستان الجامع ١٣٩ : ابن الأثير : الكامل ١١ : ٣٩٨ - ٤٠١ : البنداري : سنا البرق ٢٩ : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨ : ٢٩٩ : أبو شامة : الروضتين ١ : ٥٦٠ - ٥٦٢ : ابن خلكان : وفيات ٣ : ٤٣٥ ، ابن واصل : مفرج ١ : ٢٤٣ - ٢٤٧ ، ٢ : ٤٧٦ - ٤٧٩ : النويري : نهاية ٢٨ : ٣٦٧ - ٣٦٨ : ابن خلدون : تاريخ ٤ : ٨٠ - ٨١ : المقرئ : السلوك ١ : ٥٣ - ٥٤ : ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٣٠٤ ، ٣٠٧ : أبو المحاسن : النجوم ٦ : ٧٠ - ٧١ : ابن قاضي شهبة : الكواكب ٢٢٤ - ٢٢٦ .

[illegible]

الخلفاء الفاطميون فى إفريقيا وفى مصر

أ- فى إفريقيا

- ١- عبد الله المهدي (٢٩٧-٣٢٢ هـ / ٩٠٩-٩٣٤ م).
- ٢- القائم بأمر الله أبو القاسم محمد (٣٢٢-٣٣٤ هـ / ٩٣٤-٩٤٦ م).
- ٣- المنصور بالله أبو الطاهر إسماعيل (٣٣٤-٣٤١ هـ / ٩٤٦-٩٥٣ م).
- المعز لدين الله أبو تميم معز (٣٤١-٣٦٢ هـ / ٩٥٣-٩٧٢ م).

ب- فى مصر

٤-

- المعز لدين الله أبو تميم معز (٣٦٢-٣٦٥ هـ / ٩٧٢-٩٧٥ م).
- ٥- العزيز بالله أبو منصور يزار (٣٦٥-٣٨٦ هـ / ٩٧٥-٩٩٦ م).
- ٦- الحاكم بأمر الله أبو على المنصور (٣٨٦-٤١١ هـ / ٩٩٦-١٠٢١ م).
- ٧- الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على (٤١١-٤٢٧ هـ / ١٠٢١-١٠٣٦ م).
- ٨- المستنصر بالله أبو تميم معز (٤٢٧-٤٨٧ هـ / ١٠٣٦-١٠٩٤ م).
- ٩- المستغنى بالله أبو القاسم أحمد (٤٨٧-٤٩٥ هـ / ١٠٩٤-١١٠١ م).
- ١٠- الأمير بأحكام الله أبو على منصور (٤٩٥-٥٢٤ هـ / ١١٠١-١١٣٠ م).
- انقلاب أبى على الأفضل كُتِفَات (١٦ ذى القعدة ٥٢٤ هـ / ٢١ أكتوبر ١١٣٠ م - ١٦ محرم ٥٢٦ هـ / ٦ ديسمبر ١١٣١ م).
- ١١- الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد (٥٢٦-٥٤٤ هـ / ١١٣٢-١١٤٩ م).
- ١٢- الظاهر بأعداء الله أبو منصور إسماعيل (٥٤٤-٥٤٩ هـ / ١١٤٩-١١٥٤ م).
- ١٣- الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى (٥٤٩-٥٥٥ هـ / ١١٥٤-١١٦٠ م).
- ١٤- العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله (٥٥٥-٥٦٧ هـ / ١١٦٠-١١٧١ م).

الكتاب الثاني

النظم والخمسة

الفصل العاشر نظم الحكم والإدارة

بدأ الخليفة المُعزُّ حكمه فى مصر بإعفاء القائد جوهر من جميع مناصبه ، بعد أن تولى أمر مصر نيابةً عن المُعزِّ مدة أربع سنوات . وقد اعتبر المُعزُّ أن دور جوهر قد انتهى عند هذا الحد ، ولكنه اعترف له بفضلله ودوره فى إقامة الخلافة الفاطمية وإعلانها فى الشرق ؛ « فخلع عليه خِلقَةً مذهبةً وعمامة حمراء ، وقلّده سيفًا ، وقاد بين يديه عشرين فرسًا مسرجة ملجمة ، وحمل بين يديه خمسين ألف درهم وثمانين تختًا من ثياب »^١ . ثم عهد إلى يعقوب بن كلس بإعادة تنظيم إدارات الدولة الفاطمية فى مصر ، لمعرفة الجيدة بأمورها ، وعلى الأخص ما يُدره كل إقليم فيها^٢ . وعيّن المُعزُّ عُشْلُوج بن الحسن لمعاونة ابن كلس فى الإشراف على الشؤون المالية^٣ .

وَصَّع ابن كلس فى مصر أساس نظام مركزى هرمى يأتى على رأسه « الإمام » ، الذى اعتبره الشيعة الإسماعيليون تمثّل الله على الأرض ومنه تنبثق كل سلطة^٤ . وتقاسمت إدارة هذا النظام سلطات ثلاثة : إدارية وقضائية ودعائية ؛ أما الجيش فكان يأتمر بأوامر الإمام (الخليفة) مباشرة . ولم يستمر هذا النّظام طويلاً ، فقد كان لما لحق بالدولة الفاطمية من أحداث متلاحقة ، وما أصابها من ضعف ، دورٌ فى تبديل وتغيير

^١ المقرئى : اتعاط ١ : ١٣٩ .

^٢ ابن الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ٤٧-٥٢ ؛ المقرئى : الخطط ٢ : ٥٠ ؛ Lev, Y., «The Fatimid vizier Ya'qub ibn Killis and the Beginning of the Fatimid Administration in Egypt», *Der Islam* 58 (1981). pp. 237-249 .

^٣ ابن ميسر : أخبار ١٦٣ ؛ المقرئى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٢ : ٥-٦ ، ٢٦٩ ؛ اتعاط الحنفا ١ : ١٤٤-١٤٥ ، ٢٢٣ ؛ الملقى ٣ : ٤٦ .

^٤ السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٣٥ .

هذه الأنظمة ، وخاصةً مع بداية ازدياد نفوذ الوزراء أرباب السيوف ، ولكنها احتفظت بالخطوط العريضة لهيكل هذا النظام . وكان الوزير - ابتداء من عام ٣٦٨هـ / ٩٧٩م - هو الذى يتولّى الإشراف على السلطة الإدارية ، وقاضى القضاة هو المشرف على الشئون الدينية والتشريعية ، وداعى الدعاة هو المشرف على الدعاة الفاطمية التى كانت بمثابة السلاح الإيديولوجى للنظام ، وأحياناً كانت هاتان السلطتان تُجتمعان لشخص واحد .

وبوصول بدر الجمالى إلى قمة السلطنة ، فى أواسط القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وبداية عصر الوزراء العسكريين (أرباب السيوف) ، أصبح الوزير هو قائد الجيش وقاضى القضاة وداعى الدعاة فى الوقت نفسه . ولكن هذا لا يعنى أن الوزير صاحب السيف كان يقوم بنفسه بعمل القاضى والداعى ، وإنما جَعَلَ القاضى والداعى نائبين عنه ويذكران ذلك فى الكتب الحكمية وكتب الأنكحة ، ومجالس الدعوة^١ .

النظام السياسى

الإمامة (الخلافة)

يأتى على رأس النظام الفاطمى شخصية الإمام أو الخليفة ، وإذا كان تَوَلَّى الخليفة لدى أهل السنة يأتى نتيجة انتخاب أو تعيين من الخليفة السابق تؤكد مبايعته عامة ، فإن الإمام الفاطمى هو خليفة من سبقه بموجب الحق الإلهى ويُختار ليكون وصياً للنبي ﷺ ولعللى بن أبى طالب - رضى الله عنه - وتنتقل الإمامة من الأب إلى الابن الأكبر ، أى يجب أن تكون فى الأعقاب . والشُرط الوحيد اللازم توافره فى شخص الإمام هو «الوصية» أى «النص» عليه من الإمام السابق^٢ ، وبالتالي فلا يَتَطَلَّب الفاطميون توافر

^١ ابن الصيرفى : الإشارة ٩٦ ، ابن ميسر : أخبار ١٢٣ ، النويرى : نهاية ٢٨ : ٣٠١ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٤٠ ،

الامتياز ٣ : ١٥٦ .

^٢ ماجد : نظم الفاطمين ورسومهم فى مصر ١ : ٥١-٧٧ .

شروط خاصة فى الإمام (أو الخليفة) مثل الشروط التى يتطلبها أهل السنة فى شخص الخليفة أو الزيدى فى شخص الإمام الزيدى . وكان من الممكن للإمام أن يُخفى وصيته عن مجموع المؤمنين ولا يُعلم بها إلا بعض الثقات لا غير ، الذين عليهم أن يكشفوا عنها فقط فى الوقت المناسب^١ والأئمة عندهم مقصومون^٢.

وقد أدى هذا النظام إلى وصول عدد كبير من الأطفال والمراهقين إلى منصب الإمامة ، مما مكن لرجال القصر ونسائه وللوزراء وقادة الجيش السيطرة التامة على الدولة وأن تكون بأيديهم السلطة الحقيقية .

فى الفترة الإفريقية لم يُعهد الإمام المهدي بولاية عهده إلى ولده وخليفته القائم إلا بعد أن تخلص من أبى عبد الله الشيعى سنة ٢٩٩هـ / ٩١٢م وسماه «ولّى عهد المسلمين» ، وذلك قبل وفاة المهدي نفسه سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م بفترة طويلة^٣.

أما المنصور بالله - الإمام الفاطمى الثالث - فيروى لنا الأستاذ جَوْدَرُ كيفية النص عليه من القائم . فبعد وفاة الإمام المهدي والقائم واقف على القبر يريد دفنه أدنى منه جَوْدَرُ وقال له : إنه لا يحلّ للحُجّة بعد الإمام أن يدفن الإمام حتى يقيم حُجّة لنفسه ، ولم يحلّ لى ذلك حتى أقيم حُجّتى وقد ارتضيتك لهذه الأمانة دون جميع الخلق^٤ ، ثم قال له : «هات يدك» وأضاف «أنا آخذ عليك عهد الله وغلظ ميثاقه أنك تكتم عنى ما أظهره وأكشفه لك : ولدى إسماعيل هو حُجّتى ووَلّى عهدي فأعرف له حقه واكتم أمره أشدّ كتمان حتى أظهره بنفسى فى الوقت الذى يشاء الله ذلك ويختاره» . وكَتَمَ جَوْدَرُ هذا الأمر فى نفسه ولم يُطلع عليه أحدًا سبع سنين^٥.

^١ الجوزرى : سيرة الأستاذ جَوْدَرُ ١٣٩ .

^٢ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٣ ؛ المقرئى : اتعاظ الحنفا ٣ : ١٢٧ .

^٣ القاضى النعمان : افتتاح الدعوة ٢٧٣ ؛ المقرئى : اتعاظ الحنفا ١ : ٦٨ ؛ Walker, p.E., «Succession on Rule» in The Shiit Caliphate», JARCE XXXII (1995), p. 243 .

^٤ الجوزرى : سيرة الأستاذ جَوْدَرُ ٣٩-٤٠ ، ١٣٩ ، ١٥٦ ؛ Walker, P.E., op.cit., p. 244 .

وواضح أن مارواه جُوذَر عن الإمام القائم هو الطريقة المثالية لتَص الإمام على «حُجَّتِه» (وهو لفظ كان يستخدم في فترة السُتُر) و«وَلِيَّ عَهْدِه» ولم يَتَكَرَّر بعد ذلك بهذه الطريقة؛ فعند تعيين الإمام الرابع المعز لدين الله وَلِيَّ عَهْدِه أخذ المعز عَهْدًا على جُوذَر، مثلما قَلَّ القائم معه من قبل، بأن وَلِيَّ عَهْدِه هو ابنه الثاني عبد الله، وَكَتَمَ جُوذَر ذلك عنه مدة سبعة شهور^١.

وناقشنا فيما سبق كذلك كيف عَيَّن الإمام الحاكم بأمر الله ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس «وَلِيَّ عَهْدِ المسلمين» وَتَعَارُض ذلك مع أُسُس العقيدة الإسماعيلية. ولم يُتَقَدَّ الأمر سوى تدارك سيدة المَلِك أخت الحاكم للموقف واختفاء الحاكم نفسه من مسرح الأحداث^٢.

ظَلَّ توارث الإمامة يسير دون اعتراضات ذات شأن إلى حين وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، حيث تَدَخَّل الوزير القوي الأَفْضَل شاهنشاه لعزْل نزار - الابن الأكبر للمستنصر وصاحب الحق الشرعي في الإمامة - وتولية المُشْتَغَلِي الابن الأصغر مما أَدَّى إلى نشوء أول انقسام في الدعوة الإسماعيلية^٣. كذلك فبعد وفاة الخليفة الأمر بأحكام الله سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م دون وريث (وإن كان أشار إلى أنه ترك إحدى جهاته حاملًا)، تَوَلَّى الأمر بعده ابن عمه عبد المجيد - أكبر الأقارب سِنًا - كـ «إمام مُشْتَوَذَع» وَفَقًا للمصطلح الإسماعيلي إلى أن عَزَلَه الوزير أبو علي الأَفْضَل كُتَيْفَات واستولى على السلطة لمدة أربعة عشر شهرًا باسم «الإمام المُتَنَظَّر»، إلى أن قِيلَ أبو علي وأعيد عبد المجيد في المحرم سنة ٥٢٦هـ/نوفمبر ١١٣١م «وليًا لعهد المسلمين»، ثم عَيَّن نفسه إمامًا باسم «الحافظ لدين الله» في ربيع الآخر سنة ٥٢٦هـ/فبراير سنة ١١٣٢م^٤. كما أن الخليفة

^١ انظر تفصيل ذلك فيما سبق ص ١٥٦-١٥٧.

^٢ انظر تفصيل ذلك فيما سبق ص ١٧١-١٧٢.

^٣ انظر فيما سبق ص ٢٢٠-٢٢٥.

^٤ انظر فيما سبق ص ٢٤٢-٢٥٣.

العاقد ، آخر خلفائهم ، لم يكن أبوه إماماً كما يَطْلُب المذهب الإسماعيلي^١.

وكان يُنظر للإمام في الدولة الفاطمية دون أى التباس على أنه يُمثّل الله على الأرض ، وبأنه المُفسّر الأوّل للشرع ومصدر كل العلم . وحرص كبار رجال الدعوة على تأكيد هذا المعنى والإشارة إلى أن الإمام هو « وَلِىَّ الله » الشافع لهم جميعاً^٢ ، يقول داعى الدّعاة المؤيّد فى الدين الشّيرازى واصفاً أوّل لقاء له بالإمام المستنصر بالله :

« فلم تقع عيني عليه إلّا وقد أخذتني الوُزعة وغلبتني العبرة وتمثّل في نفسي أننى بين رسول الله وأمير المؤمنين صلى الله عليهما ماثل ، وبوجهى إلى وجههما مقابل ، واجتهدت عند وقوعى إلى الأرض ساجداً لولى السجود ومستحقه ، أن يشفعه لسانى بشفاعه حسنة بنطقه ، فوجدته بعجمة المهابة معقولاً ، وعن مزية الخطابة معزولاً ، ولما رفعت رأسى من السجود ، وجمعت على أنوائى للقعود ، رأيت بنائاً يشير إلى بالقيام ، لبعض الحاضرين فى ذلك المقام ، فقطب أمير المؤمنين - تخلّد الله ملكه - وجهه عليه زجراً ، على أننى ما رفعت به رأساً ولا جعلت له قدراً ، ومكنت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بِنُطق ولا يهتدى لقول ، وكلما استطرد الحاضرون منى كلاماً ازدادت إعجاباً ولقّة القى اقتحاماً وهو - تخلّد الله ملكه - يقول : « دعوه حتى يهدأ ويستأنس » ؛ ثم قُفْتُ وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عيني وصدرى ووَدَعْتُ وخَرَجْتُ »^٣.

واشتطّ الحاكم بأمر الله من بينهم وذهب فى سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م إلى حد اعتبار شخصه تجسيداً للألوهية أو على الأقل ادّعاء الألوهية^٤.

^١ المقرئى : اتعاظ ٣ : ٣٢٩ ؛ أهر المحاسن : النجوم ٥ : ٢٣٧ .

^٢ السجلات المستنصرية (سجل رقم ٣٥) ؛ Sourdel, D. *EI*² art. *Khalifa IV*, p. 977 .

^٣ سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ٨٥ .

^٤ انظر فيما سبق ص ١٧٤-١٧٦ .

وَتَلَقَّبَ الفاطميون في سِجَلَاتِهِمْ وعلى نقودهم بـ «الإمام» وبـ «أمير المؤمنين» ولم يَتَلَقَّبُوا في الوثائق الرسمية بالخليفة حرصًا منهم على إظهار صفتهم الروحية وسلطتهم الدينية^١. وقد تدهورت سلطة الإمام (الخليفة) قرب نهاية القرن الخامس وأصبح الوزراء الأقوياء أرباب السيوف هم أصحاب السلطة الفعلية بعد انقسام الدعوة الإسماعيلية أكثر من مرة وإتيان الوزراء بالإمام الذي يريدونه دون اعتبار لشروط الإمامة عند الإسماعيلية.

الوزارة

انقسمت الوزارة في عصر الفاطميين، كبقية العالم الإسلامي، إلى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض. ولم يعرف الفاطميون في المرحلة الإفريقية منصب الوزير^٢، أما في مصر فقد كان الغالب على وزراء العصر الفاطمي الأول وزراء التنفيذ، بينما كان كل وزراء العصر الفاطمي الثاني ابتداءً من بدر الجمالي وزراء تفويض.

فعند وصول الخليفة المُعَزَّى إلى مصر فَضَّلَ أن لا يُفَوِّضَ سلطاته إلى أحد وأن «ياشر التدبير بنفسه ولا يُعَوَّل فيه على غيره»^٣، ولكنه أوجد ما أطلق عليه «الوساطة»، لأن صاحبها كان يتوسط بين الخليفة والرعية. ولم يظهر لقب الوزير في مصر الفاطمية إلا في رمضان سنة ٣٦٨هـ/أبريل سنة ٩٧٩م عندما مَنَحَ الخليفة الفاطمي الثاني العزيز بالله ليعقوب بن كِلْس لقب «الوزير الأجل»، وأصبح بذلك أول وزراء الدولة الفاطمية^٤، ولم

^١ راجع السجلات المستنصرية والوثائق التي جمعها جمال الدين الشيال ونشرها في «مجموعة الوثائق الفاطمية»، القاهرة ١٩٥٨، وكذلك الوثائق التي نشرها صمويل شيرن Stern, S. *Fatimid Decrees*, London 1964 وأيضًا ما سجلوه على نقودهم عند Miles, G., *Fatimid Coins*, NY 1952.

^٢ عرفت هذه الرتبة في مصر منذ زمن الطولونيين (السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٢٠١، Les Hassan, Z.M., *Tulunides*, Paris 1933, p. 194) ونحن نعرف أن جعفر بن الفرات كان وزيرًا للإعشدين، ولكن عند قدم الفاطميين توقَّف جوهر عن مخاطبته بالوزير إلا بعد مراجعة لأنه، كما قال، لم يكن وزير خليفة (المقريزي: اتماظ ١: ١٠٧، ١١٨، الخطط ١: ٤٣٩، المقفى ٣: ٤٥).

^٣ ابن الصيرفي: الإشارة ٤٧.

^٤ ابن زولاقي-ابن ميسر: أخبار مصر ١٦٣؛ ابن الصيرفي: الإشارة ٤٩؛ ابن ظافر: أخبار ٣٨؛ المقريزي: المقفى ٣: ٤٩، الخطط ١: ٨٢، ٢: ٦٥-٦٦، اتماظ الحنفا ١: ١٤٤-١٤٥.

يُنْبَت هذا اللقب رسميًا إلا في زمن الخليفة الفاطمي الرابع الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ) بتولى الوزير أبى القاسم على بن أحمد الجزجرائى وزارة التنفيذ فى سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٨م حيث أصبحت الوزارة منذ هذا التاريخ منصبًا وتكليفًا، ويطلق عليها «رُتْبَةٌ»^١. وكانت كل مسؤوليات الوزير مسؤوليات إدارية فقط، فلا يشير سجل توليته إلى أية مسؤوليات عسكرية أو قضائية.

وكان وزير التنفيذ لا يزيد عن كونه وزيرًا مُعَيَّنًا، ذا سلطات محدودة حيث كان للخليفة كل السلطة على الوزير ومراجع جميع أفعاله. وكان الوزير الحسن بن على اليازورى (٤٤٢-٤٥٠هـ/ ١٠٥٠-١٠٥٨م) آخر وزراء التنفيذ الأقوياء^٢ الذى أضيف إلى مسؤولياته القضاء والدعوة، حيث دَخَلَت مصر بعد عزله فى سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م وبعد قُتِلَ الفاطميين أمام السلاجقة فى أزمة إدارية حادة أُتبع فيها أربعة وخمسون وزيرًا واثنا وأربعون قاضيًا، حتى استنجد الخليفة بوالى عكا بدر الجمالى؛ لإنقاذ عرشه من طُغيان الأتراك الذين تسلطوا على الدولة^٣.

فور أن انتهى بدر الجمالى من إعادة النظام إلى الدولة والقضاء على المعارضين قُوِّضَ الخليفة المستنصر فى جميع سلطاته وَمَنَحَ إشرافًا عامًا على شئون الدولة. وهكذا أصبح بدر الجمالى أول قائد عسكرى يولِّيه الفاطميون الوزارة التى أصبحت منذ هذا التاريخ ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م تقوم مقام السُلْطَنَةِ. يقول المقرئى: «فصارت الوزارة من حينئذ وزارة

^١ ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ٨١ الذى أورد سجل تولية الوزارة للوزير الجزجرائى وهو مؤرخ فى ذى الحجة سنة ٤١٨هـ/ يناير سنة ١٠٢٨م.

^٢ كان الوزير اليازورى يشغل مناصب القضاء والدعوة والنظر فى ديوان أم المستنصر بالإضافة إلى منصب الوزارة وكان - بُعِثَ به - الناصر للدين غياث المسلمين الوزير الأجل المَكْرُم سَيِّدُ الرُّؤَسَاء تاج الأصفياء قاضى القضاة وداعى الدعاة.

(ابن ميسر: أخبار ١١١ ابن الصيرفى: الإشارة ٧٣؛ ابن طاهر: أخبار ٧٨؛ المقرئى: ١٩٧، المقفى ٣: ٣٦٦-

٤٠٨؛ ابن حجر: رفع الإصر ١٩٠-١٩٧؛ السيوطى: حسن المحاضرة ٢: ٢٠٢).

^٣ عن وزارة التنفيذ راجع، ابن الصيرفى: الإشارة ٦٨-٩٧؛ ابن ميسر: أخبار ٥٥-٥٦، ٥٨.

تفويض ويقال لمتوليها «أمير الجيوش» وبَطَل اسم الوزارة^١. وقد أضفى بدر الجمالي شهرة على هذا اللقب حتى أنه حُلَّ محل اسمه الشخصي للتدليل عليه؛ فرغم أن خلفاءه تلقبوا كذلك بلقب «أمير الجيوش»، بما أنهم كانوا «وزراء سيوف» أى قادة للجيش فى نفس الوقت، فإن بدرًا الجمالي احتفظ وحده لدى المؤرخين المتأخرين بميزة أنهم كانوا يكتفون فقط لتعريفه بذكر لقبه «أمير الجيوش»^٢.

واعتبارًا من بدر الجمالي حَمَلَ جميع وزراء التفويض ألقابًا خاصة بهم لتأكيد قُوَّة منصبهم، فقد جمعوا إلى جانب قيادة الجيش جميع الإدارات المدنية والقضائية وحتى الدينية. وهكذا فإن جميع شئون الدولة، دون استثناء، خَصَّصَتْ لسلطتهم ولم يبق لل خليفة معهم أية سلطة^٣. واستقر ترتيب ألقاب وزراء السيوف الفاطميين ابتداء من بدر الجمالي وحتى ظهور لقب «الملك» بين ألقاب الوزير كالاتى: «السَّيِّد الأَجَلَّ [النعته الشخصية للوزير الذى أصبح ابتداء من الصَّالِح طَلَائِع لقب «ملك»] أمير الجيوش، سَيِّف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين (ثم اسم وكنية ولقب الوزير الشخصي)»^٤.

وعادةً ما يتَّبع لقب السَّيِّد الأَجَلَّ مباشرة النُّعته الشخصية للوزير. وكان هذا النعت هو «أمير الجيوش» بالنسبة لبدر الجمالي، و«الأَفْضَل» بالنسبة لابنه شاهنشاه وحفيده أبى على كُتَيْبَات وكذلك رِضْوَان بن وَلَحْشَى، و«المأمون» لمحمد بن فاتك البَطَّائِحَى، و«الْمُقْضَل» لسليم بن مَصَال، و«العاذل» لعلى بن السَّلاَر؛ أما الوزير عُبَّاس الصَّنْهَاجَى فقد ورد لقبه أحيانًا «الأَفْضَل» وأحيانًا أخرى «العاذل». والاستثناء الوحيد

^١ المقرئى: الخطوط ١: ٤٤٠؛ وانظر فيما سبق ص.

^٢ Wiet, G., *CIA Egypte II*, pp. 147-148; Fu'ād Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte*, pp. 376-77.

^٣ القلقشندى: صبح ١٠: ٣١٠؛ ماجد: نظم الفاطميين ١: ٨٣-٨٤.

^٤ Wiet, G., *CIA Egypte II*, pp. 173-174; Fu'ād Sayyid, A., *op.cit.*, p. 377 ومقدمة نزهة الفاتنين لابن

لهذه القاعدة الوزير يأنس الرومى والوزير بهرام الأرمنى، فقد لُقّب الأول بـ «أمير الجيوش» فقط، ولُقّب الثانى بـ «سيف الإسلام تاج الملوك»^١.

وذكر ابن الأثير وأبو الفدا أن رِضْوَان بن وَلَحْشَى «هو أول من لُقّب من وزراء الفاطميين بـ «الملك» مضافاً إلى بقية الألقاب»^٢، وأكّد المقرئى ذلك فى اتعاظ الحنفا^٣. ولكن ما ذكره المقرئى يناقض نصّاً آخر للمقرئى فى الاتعاظ حيث يذكر فى ترجمة الوزير طلّاح بن رُزَيْك أنه نُعِتَ فى سِجِلْ توليته بـ «الملك الصّالح» وأنه «لم يُلقَّب أحدٌ من الوزراء قبله بالملك وذلك فى يوم الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ٥٥٤٩ هـ وهو أوّل من خوطب بالملك فى ديار مصر ونعت به»^٤. يؤكّد ذلك ما ورّد عند ابن مَيْسَر وكذلك سجل تقليد رِضْوَان الوزارة والذى لم يرد فيه لفظ الملك^٥.

وبعد التخلّص من الوزير شاوّر الشّعدى فى ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٥٦٤ هـ/٢ يناير سنة ١١٦٩م حدّث تغيير كبير فى رُتْبَة الوزير وألقابه. فقد وَجَد الإمام (الخليفة) العاضد نفسه مضطراً إلى أن يَفْهَد بالوزارة إلى قائد جيش نور الدين محمود، أسد الدين شيركوه الذى اتّخذ مصر من الفِرْنَج الذين استعان بهم الوزير شاوّر.

وَيُمَثِّل سِجِلْ تولية أسد الدين شيركوه وَضْعاً فريداً حيث يُضْطَرّ الإمام الفاطمى الإسماعيلى إلى تعيين وزير سُنىّ أجنبى، ويُقْبَل الوزير أن يكون وزيراً فاطمياً فى إطار دولة إسماعيلية وأن يكون تابِعاً للإمام ويحمل بين ألقابه التَّشْبِية (العاضدى). ويُوضّح

^١ جاءت ألقابه فى منشورين صادرين إلى رهبان دير سانت كاترين بتاريخى ٥٢٩ و ٥٣٠ هـ «السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام غياث الأنام أبو المظفر بهرام الحافظى» (Stern, S.M., *Fatimid Decrees* pp. 53, 59) وجاءت ألقابه أيضاً عند القلقشندى «الأمير المقدم المؤيد المنصور عز الخلافة وشمسها وتاج الملكة ونظامها فخر الأمراء شيخ الدولة وعمادها ذو المحدثين مصطفى أمير المؤمنين بهرام الحافظى». (القلقشندى: صبح الأعشى ٨:

٢٦١ و ١٣ : ٣٢٥).

^٢ الكامل ١١ : ٤٨ ؛ المختصر فى أخبار البشر ٣ : ١٢.

^٣ اتعاظ الحنفا ٣ : ١٦١.

^٤ نفسه ٣ : ٢١٨ ، ٢٥١ وانظر فيما سبق ص ٢٨١.

^٥ ابن ميسر : أخبار ١٢٦ ؛ القلقشندى : صبح ٨ : ٣٤٢-٣٤٦.

كَاتِبُ السَّجَلِ - وهو القاضي الفاضل - الأمر كما لو أن الله قد بَعَثَ هذا الوزير الشَّيْئَ لإِيقَاضِ الدولة وألهم الإمام الفاطمي باختياره لرُتْبَةِ الوزارة . واستخدم في كتابة السَّجَلِ نفس التراكيب السابق استخدامها في كتابة سِجَلَاتِ تولية الوزراء الفاطميين ، فَلَقَبَهُ فيها هو « السَّيِّدُ الْأَجَلُ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ سُلْطَانُ الْجُيُوشِ وَلِيُّ الْأُمَّةِ فَخْرُ الدَّوْلَةِ أَسَدُ الدِّينِ كَافِلُ قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَهَادِي دُعَاةِ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو الْحَارِثِ شِيرْكُوهُ الْعَاضِدِيُّ »^١.

ونلاحظ في هذه الألقاب ظهور لقب « سُلْطَانُ الْجُيُوشِ » - الذي كان أَوَّلَ مَنْ تَلَقَّبَ بِهِ الوزير السابق شَاوَرُ الشَّعْدِيُّ - عِوَضًا عَنْ لَقَبِ « أَمِيرِ الْجُيُوشِ » الذي استمر منذ بدر الجمالي وحتى ضربغام^٢ (٤٦٧ - ٥٥٨ هـ) وأيضًا استمرار لقبين تقليديين أضيفا إلى الوزراء العسكريين ابتداء من عام ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م هما « كَافِلُ قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَهَادِي دُعَاةِ الْمُؤْمِنِينَ » علَّمَا بِأَنَّ شِيرْكُوهُ كَانَ شَيْئًا شَافِعِيًّا ! ويشير السَّجَلُ كذلك إلى أَنَّ شِيرْكُوهُ أَعَادَ بُحْنَكَتَهُ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعُلُويَّةِ بِهَجَّةٍ شَابِهَا وَأَنْقَذَ الْإِسْلَامَ وَهُوَ عَلَى شَفَا جَرْفِ هَاوٍ ، وَهِيَ تَقْرِيئًا نَفْسَ التَّرَاكِيِبِ الَّتِي اسْتَعْدَمَهَا الْإِمَامُ الْمُسْتَنْصِرُ بِاللَّهِ فِي وَصْفِ أَمِيرِ الْجُيُوشِ بَدْرِ الْجَمَالِيِّ مَنقَذِ دَوْلَتِهِ . وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ يُؤَكِّدُ السَّجَلُ أَحْقِيَّةَ الْأُئِمَّةِ الْفَاطِمِيِّينَ فِي مِيرَاثِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَكُونِ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ جَدُّهُمْ وَعَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَبَاهُمْ ، كَمَا يُعَدِّدُ السَّجَلُ مِثَالِبَ وَزَرَاءِ السِّيُوفِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَى خَزَائِنِ الْخِلَافَةِ وَرَاسَلُوا الْفَرَنْجَ . وَبَعْدَ ذَلِكَ يُحَدِّدُ السَّجَلُ الْمَسْئُولِيَّاتِ الْمَنُوطَةَ بِأَسَدِ الدِّينِ شِيرْكُوهُ فِي الْعِبَارَاتِ التَّالِيَةِ :

« وَقَلَّدَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرَ وَزَارَتِهِ وَتَدِيرَ مَمْلَكَتِهِ وَحِيَاطَةَ مَا وَرَاءَ سَرِيرِ خِلَافَتِهِ وَصِيَانَةَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ دَعْوَةُ إِمَامَتِهِ ، وَكَفَالَةَ قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَدَايَةَ دُعَاةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَدِيرَ مَا عَدَّقَهُ اللَّهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمُورِ أَوْلِيَائِهِ أَجْمَعِينَ وَجُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ الْمُؤَيَّدِينَ ،

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ١٠ : ٨٠ .

^٢ نفسه ١٠ : ٣١٠ .

المقيمين منهم والقادمين ، وكافة رعاية الحضرة بعيدها ودانيتها ، وسائر أعمال الدول باديها وخافيتها ، وما يفتحه الله تعالى على يديك من البلاد ، وما تستعيده من حقوقه التي اغتصبها الأعداء ، وألقى إليك المقاليد بهذا التقليد ، وقرب عليك كل غرض بعيد ، وناط بك العقد والحلّ والولاية والعزل ، والمنع والتبدل ، والرفع والخفض ، والتبسط والقبض ، والإبرام والتفرض ، والتنبيه والقبض ، والإنعام والانتقام ، وما توجب السيادة إمضاءه من الأحكام ، تقليدًا لا يزال به عقد فخرك نظيماً وقبض الله عليك وفيك عظيماً ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً ﴾^١.

ويوضح هذا التقليد تماماً أن الخليفة فوض أسد الدين شيركوه في كل أمور الدولة الإدارية والعسكرية والمالية والقضائية وحتى أمر الدعوة إذ يطلب إليه السجل أن يقوم بـ « تشييد أساس الدعوة وبنائها ، وتمييز آخذي غهودها وأبنائها - قيام من يعول في الأمانة على أهل الديانة ، ويستمسك بحقوق الله تعالى الحقيقة بالرعاية والصيانة »^٢.

ويتفق سجل تولية الملك الناصر صلاح الدين تماماً مع سجل تولية عمه أسد الدين شيركوه ، ولكن الجديد فيه أنه جعل تولية الوزارة وراثية وأن الإمام العاضد أقامه عوضاً عن عمه أسد الدين شيركوه ، مثلما أقام جده الإمام المستنصر بالله الوزير الأفضل شاهنشاه عوضاً عن والده بدر الجمالي ، وإن كان تمنى له أن يكون حاله مع الدولة أفضل من حال الأفضل ! فبعد أن يذكر السجل خسارة الدولة بوفاة أسد الدين شيركوه المباغة يقول :

« ما نَظَرُ فيه أمير المؤمنين بنور الله من اصطغائك أيها السيد الأجل الملك الناصر - أدام الله قدرتك - لأن تقوم بخدمته بعده ، وتشد في مقدمة جيوشه مسدده فوازت الفادحة فيه التهمة فيك »^٣.

^١ الفلقشندى : صبح الأعشى ١٠ : ٨٧-٨٨ .

^٢ نفسه : ١٠ : ٨٩ .

^٣ نفسه : ١٠ : ٩٣ .

« وعَزَمَ على أن قُلْتُكَ تدبير مملكته الذى أغرَقْتَ فى إزته وأغرَقْتَ فى كسبه ...
 وَقُلْتُكَ لَأَنْكَ سَيِّفٌ من شِيوفِ الله تعالى يحق به التَّقَلُّدُ وله التَّعْلِيدُ ، واصطفاك على
 عِلْمٍ بأنك واحدٌ منتظمٌ فى معنى العديد ، وأخيا فى سلطان جيوشه شتة جده الإمام
 المستنصر بالله فى أمير جيوشه الأول وأقامك بعده كما أقام بعده ولده وإنه ليرجو أن
 تكون أَفْضَلُ من الأَفْضَلِ »^١.

ولعل أهم ما يُمَيِّزُ منصب الوزارة فى العصر الفاطمى هو أن الكثير من وزراء
 الفاطميين ، سواء الذين مُنِحوا لقب الوزارة أو لقب الوَسَّاطة كانوا من النصارى مثل
 عيسى بن نَشْطُورس وزير العزيز وكذلك زُرْعَةُ بن نَشْطُورس الشافى الذى خَلَفَ وزيرًا
 نَصْرَانِيًّا آخر هو منصور بن عَبِيدُون الكافى ، كلاهما فى أيام الحاكم^٢ . ويعد بَهْرَامُ
 الْأَزْمَتَى الذى تَوَلَّى وزارة التفويض للخليفة الحافظ أوضح مثل لذلك فقد ظَلَّ هذا الوزير
 على نَصْرَانِيَّتِهِ رغم كونه وزير سيف ولُقِّبَ بـ « سيف الإسلام »^٣ ! وفى المقابل فإن اليهود
 رغم شغلهم مناصب هامة فى زمن الفاطميين ، فيبدو أنه كان عليهم أن يَتَحَوَّلُوا إلى
 الإسلام ليتولوا منصب الوزارة مثلما فعل ابن كِلْسٍ وأبو سَعْدِ التُّشْتَرى وَصَدَقَةُ بن يوسف
 الْفَلَّاحِ^٤ .

ولم تكن لوزير الْقَلَمِ (وزير التنفيذ) قبل بدر الجمالى ، سلطة كاملة على بقية
 موظفى الإدارة الذين كان يُعَيِّنُهُم الخليفة ، فقد كان للخليفة كل السلطة على الوزير
 ويراجع جميع أفعاله . أما وزيرُ السَّيْفِ (وزير التَّقْوِيسِ) فقد كان « هو سلطان مصر
 وصاحب الحَلِّ والعقد وإليه الحُكْمُ فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب

^١ القلقشندى : صبح ١٠ : ٩٥ ؛ وانظر كذلك Lev, Y., *Saladin in Egypt*, pp. 66-81 .

^٢ القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٦ .

^٣ ابن ميسر : أخبار ١٢٢ .

^٤ نفسه ٣-٥ ، ٢٥ ، ٥٦ ؛ للقريزى : الخطط ١ : ٤٢٤ ؛ Fischel, W., *op.cit.*, p. 80; Goitein, S.D., A

Med. Soc. II, p. 377 .

وسائر الرعية، وهو الذى يُؤلَّى أرباب المناصب الديوانية والدينية^١. كذلك فإن الوزراء العسكريين لم يُضَرَفوا وإنما كانت تنتهى مدتهم بالقتل نتيجة للصراع على المنصب.

التنظيم الإداري

ارتكز التنظيم الإداري لمصر فى العصر الإسلامى على أساس التنظيم الذى كان فى العصر البيزنطى. فمصر من الدول ذات النظام الإدارى الثابت المبني على حضارة ذات جذور ممتدة فى التاريخ. وتنقسم مصر تبعاً لطبيعتها الجغرافية إلى قسمين رئيسيين: مصر السفلى (الدلتا أو الوجه البحرى) ومصر العليا (الصعيد أو الوجه القبلى). وينقسم كل منها بدوره إلى أقاليم مُقسَّمة إلى كُور يشتمل كل منها على عدَّة قرى، ولكل قرية زمام أطيان خاص بها^٢. ويتولَّى إدارة كل إقليم وال يعاونه معاونون موجودين فى القرى.

وقد وُثِرَ الفاطميون فى العموم هذا التقسيم الإدارى وعملوا به بعد أن أدخلوا عليه بعض التعديلات. ولا تُمدُّنا المصادر بمعلومات كافية عن توزيع أقاليم مصر الإدارية فى العصر الفاطمى الأول. ونَقَلَ المقرئى عن المُسَبِّحى المتوفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م أن مجموع قرى الصعيد وأسفل الأرض ٢٣٩٥ قرية منها ١٤٣٩ قرية بأسفل الأرض (الوجه البحرى)^٣، وهو ما يُتَّفَق مع ما نَقَلَهُ المقرئى عن جريدة عتيقة أطلع عليها

^١ المقرئى : الخطط ١ : ٤٤٠ . وعن نظام الوزارة عموماً راجع ، عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم فى عصر الفاطميين (٣٥٨-٥٦٧هـ ، ٩٦٨-١٧١١م) ، القاهرة ١٩٤٨ ، ٩٦-١٢٠هـ ، ماجد ، المصدر السابق ١ : ٧٨-

٩٣ ؛ الشبال : مجموعة الوثائق الفاطمية ١٢٧-١٧٨ ؛ محمد حمدى المناوى : الوزارة والوزراء فى العصر

الفاطمى ، القاهرة ١٩٧٠ ؛ ١٩٧٠ ، Berlin 1990 ، *The Fatimid Vizirate 969-1172* ، al-Imad, L.S. .

^٢ المقرئى : الخطط ١ : ٧٢ (نشر فيت ١ : ٣٠٦-٣١٣) .

^٣ نفسه ١ : ٧٣ (طبعة فيت ١ : ٣٠٩) .

القضاءى بخط أبى عيسى بُقَطْر بن نَشَقَا الكاتب القِبْطى المعروف بالتَوْئِيس متولّى خَراج مصر للدولة الإخشيدية ، تشتمل على ذكر كُورِ مصر وقُرأها إلى سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م ، أن قرى مصر بالصُّعيدين وأَسْفَل الأرض ٢٣٩٥ قرية منها بالصُّعيد ٩٥٦ قرية وبأَسْفَل الأرض ١٤٣٩ قرية^١ . أما القضاءى المتوفى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م فذكر أن مجموع كُورِ الصُّعيد ثمان وعشرون كورة بينما يتراوح عدد كُورِ أَسْفَل الأرض بين ثمان وثلاثين كورة وخمس وعشرين كورة^٢ .

ولاشك أن الرُّؤْكَ الأَفْضَلَى الذى قام به الوزير الأَفْضَل ابن بدر الجمالى سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م قد أعاد توزيع زمام أراضى هذه القرى الذى كان قسمٌ كبيرٌ منها قد تخرب فى أثناء الأزمة الاقتصادية التى مرّت بها مصر فى منتصف القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى^٣ .



ولا تشير مصادرُ العصر الفاطمى الأول إلى ولايات أَسْفَل الأرض أو الصُّعيد ولا تُحدِّدها ، وإنما تستخدم مُصْطَلَحًا آخر يختفى فى العصر الفاطمى الثانى ، هو « مُتَوَلَّى السِّيَازَةِ » ، وهى وظيفة لا نجد لها تعريفًا فيما بين أيدينا من مصادر ، ولكن من خلال المصادر المتاحة يبدو أنها وظيفة إدارية عسكرية ، أى أن صاحبها كان المشرف الإدارى على المنطقة وفى الوقت نفسه يتولّى قيادة حاميتها العسكرية ، وربما كانت تعادل - مع فروق - وظيفة « إِسْفَهْسَلَارِ العساكر » التى ظهرت فى النصف الثانى من تاريخ الدولة ! فعندما اتَّفَقَت سيدهُ الملك مع الحسين بن على بن دَوَّاس الكُتَامى على التخلص من أخيها الحاكم بأمر الله وَعَدَّته « أن يكون صاحب الجيش وشيخ الدولة والقائم بها وَوَقَّعت

^١ المقرئى : الخطوط ١ : ٧٣ (نشرة فيث ١ : ٣١١-٣١٢) .

^٢ نفسه : ١ : ٧٣ (نفسه ١ : ٣١٠) .

^٣ انظر فيما سبق ص ٢٠٤-٢٠٧ .

له بولاية السَّيَّارَتَيْنِ وهي حماية مصر^١. كما أن سَنَى الدولة حَمَد بن أخى التاهرتي خَلَعَ عليه فى رجب سنة ٤١٥هـ/سبتمبر سنة ١٠٢٤م وَقُلَّدَ «جميع سَيَّارات أَشْفَلِ الأرض» التى كانت فى يد عُذَّة الدولة رَفَقَ الخادم الأسود^٢. ويستخدم المُسَبَّحى الذى أورد هذا الخبر كذلك مصطلح «متولَّى حُزْبِ تَنِيْسٍ وِدْمِيَاط»^٣ و «متولَّى حُزْبِ الرُّمْلَةِ» ويشير إلى حَيْدَرَة بن عَقْبَايَان «متولَّى حُزْبِ الصَّعِيد»^٤. أما ابن الصَّيْرَفِي فيشير فى «القانون» إلى وظيفة متولَّى الحرب^٥ ويذكر فى «الإشارة» أن أبا الحسن على بن جعفر ابن فلاح الكُتَامَى جُعِلَ له فى سِجْلِهِ «ولاية الإسكندرية وتَنِيْسٍ وِدْمِيَاط والشَّرْطَتَيْنِ: العُلْيَا والسُّفْلَى والحِشْبَةِ والسَّيَّارَتَيْنِ...»^٦. ويشير ساويرس بن المقفع إلى أن ناصر الدولة بن حمدان كان «والى السَّيَّارَتَيْنِ بالريف: الشرقية والغربية»^٧ وأن من يُدْعَى عَضُد الدولة كان «متولَّى الحرب والسَّيَّارَةَ بالريف»^٨ ويشير أحد السجلات المؤرخة سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م إلى شخص «كان مستخدماً فى السَّيَّارة العربية»^٩.

الإصلاحات الإدارية لبدر الجمالى

اعتباراً من الإصلاحات التى أدخلها أميرُ الجيوش بدر الجمالى على التقسيم الإداري لمصر فى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٨م قُسِّمَت أقاليم مصر إلى أربع ولايات رئيسية: ولاية قُوص ثم ولاية الشَّرْقِيَّة ثم ولاية الغَرْبِيَّة ثم ولاية الإسكندرية ومعهما العاصمة المصرية

^١ المقرئى: المقفى الكبير ٣: ٥٦١.

^٢ المسبَّحى: أخبار مصر ٥٠.

^٣ نفسه ٤٣.

^٤ نفسه ٢١، ٩٢.

^٥ ابن الصيرفى: القانون فى ديوان الرسائل ٣٥.

^٦ ابن الصيرفى: الإشارة ٦٣.

^٧ ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة ٣/٢: ١٧٧.

^٨ نفسه ٣/٢: ١٧٤.

^٩ Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents in the Cambridge Geniza Collections*,

مُثَلَّة في ولاية القاهرة وولاية الفسطاط ، يضاف إليها ولاية عَشَقْلَان^١ الولاية الوحيدة خارج الأراضى المصرية التى استمرت بأيدي الفاطميين بعد استيلاء الفِرْنَج على سائر الولايات الفاطمية الأخرى بالشام فى سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م .

كانت أهم هذه الولايات هى « ولاية قُوص » يقول القلقشندى : إنها كانت أعظم ولايات الديار المصرية وواليتها يحكم على جميع بلاد الصَّعيد^٢ ، وَصَفَهَا ابن الأثير بأنها « أكبر الأعمال بعد الوزارة »^٣.

كان الصَّعيدُ فى ذلك الوقت ينقسم إلى قسمين ، ففى سِجِلْ مؤرَّخ لليلتين بقيتا من محرم سنة ٤٦٧هـ/٢٤ سبتمبر سنة ١٠٧٤م وَجَّهه الإمام المستنصر بالله إلى الصُّلَّيْحِينَ فى اليمن نجد ديوان الإنشاء الفاطمى يستخدم اصطلاح : الصَّعيد الأعلى والأدنى^٤ ، ويشير ابن الصَّيْرَفِي فى النصف الأول للقرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى كذلك إلى هذين الاصطلاحين^٥.

ونصادف لأول مرة ذكر « والى قوص » فى أحداث سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م كما لَخَّصَهَا ابن مُيَسَّر ، ففى هذا العام ذهب والى قوص إلى أشوان لِيُلْقَى القبض على ملك النوبة الذى جاء إليها لزيارة بعض كنائسها^٦ . ورغم أن نَصَّ ابن مُيَسَّر لا يذكر لنا اسم هذا والى فإن نَصًّا لساويرس ابن المَقَّع يفيدنا أن اسمه سَعْد الدولة سَارَتَكِين القَوَاسِي ولكنه جعله واليًا على أسوان^٧ . ويبدو أن والى قوص كان يمتد إشرافه حتى أشوان

١ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ١/٤ : ١٣٦ ، ١٣٧ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٤٩٣-٤٩٤ ؛ المقرئى :

اتعاظ الحنفا ٣ : ٣٣٦ .

٢ القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٤٩٣ .

٣ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١١ : ٢٩٠ .

٤ السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٥٦ ص ١٨٥ .

٥ ابن الصيرفى : القانون فى ديوان الرسائل ٣٥ ، ٣٦ .

٦ ابن ميسر : أخبار مصر ٤٦ ؛ المقرئى : اتعاظ الحنفا ٢ : ٣٢٠ .

٧ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطارقة الكنيسة ٣/٢ : ٢١١ .

جنوباً ؛ لذلك أطلق عليه أبو صالح الأزمى « والى الصّعيد الأعلى »^١ ، خاصة وأن نصّ إنشاء جامع قوص المؤرخ سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م يؤكد لنا أن والى قوص هو فخر الملك سغد الدولة تاج المعالي أبو منصور سازتكين الجيوشى ، وهو نفس الوالى الذى أنجز معذنة جامع إشنا سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م^٢ . وربما كان كذلك هو مُقدّم العساكر الذى قُتل أثناء حصار عَشَقْلان فى سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م^٣ .

ويرى جان كلود جارسان J.- Cl. Garcin فى دراسته الهامة عن مدينة قُوص فى العصر الإسلامى ، أنه كان هناك قائدٌ مسئولٌ عن مجمل الصّعيد الأعلى كان يَتَنَقَّل من قوص إلى أشوان وحتى إلى غِيذاب على البحر الأحمر تبعاً للظروف ، ومن ثم فإن تعبير « الصّعيد الأعلى » الذى استخدمه ديوان الإنشاء الفاطمى فى عام ٤٦٧هـ/١٠٧٥م إنما يتطابق بوضوح مع واقع إدارى . فوالى قوص هو قبل كل شىء قائد القوات الفاطمية المرابطة فى الصّعيد الأعلى ، وكانت مدينة قوص هى مركز قيادة هذه القُوات^٤ . ومن بين الذين تَوَلَّوا ولاية قوص يشير ابن مَيْسَر إلى واحد منهم توفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م هو الأمير السعيد محمود بن ظَفَر^٥ .

ويشير الإصلاح النقدى الذى قام به الوزير المأمون البَطَائِحى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م إلى أن قُوص قد أصبحت مركز الصّعيد الأعلى حيث أمر الوزير فى هذه السنة بإنشاء دور صَرْب جديدة فى القاهرة والإسكندرية وقُوص وصور وعَشَقْلان إلى جانب دار

١ أبو صالح الأزمى : تاريخ ١٢٤ .

٢ Wiet, G., RCEA n° 2728, 2733 .

٣ ابن ميسر : أخبار مصر ٦٨ .

٤ Garcin, J. Cl., *Un Centre musulman de la Haute-Egypte médiévale: Qûs*, p. 83 ، وانظر نص

سجل بتولية قوص يذكر فيه الخليفة أن « مدينة قوص وأعمالها أتدى أعمال المملكة مسافة وأبعدها من دار الخلافة وتشتمل على كثير من أجناس الناس ... رأى أمير المؤمنين وبالله توفيقه أن يؤدّ ولاية الحرب بها إليك ... »

(القلقشندي : صبح الأعشى ١٠ : ٣٦٩) .

٥ ابن ميسر : أخبار مصر ٨٤ .

الصُّرْب القديمة الموجودة في القُشَطَاط^١. ويشير اختيار قُوص إلى أن المدينة قد أصبحت بشكل نهائي مقر الوالى . ولاشك أن أحد أسباب إقامة دار ضرب بقوص مرتبط بتنامي النشاط الاقتصادى للمدينة ومن أجل جباية الرُّشُوم الجمركية على السِّلَع المارة بها ، ولتقوم كذلك بالإئفاق على القوات المرابطة في الصُّعِيد الأعلى^٢. ولم تصل إلينا من دار ضَرْب قوص سوى عُمْلَةٌ وحيدة ضربت فى عام ١١٢٣/٥١٧ أو ١١٢٥/٥١٩ م فى عهد الخليفة الأمر بأحكام الله ، وربما أخذت العُمَلات الأخرى طريقها إلى المحيط الهندى^٣ وقد تَوَقَّفت دار ضَرْب قوص فى أعقاب سقوط الدولة الفاطمية ، فابن مُمَاتى - الذى كتب كتابه «قوانين الدواوين» نحو أواخر القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى - يذكر أنه لم يبق فى زمنه سوى دار ضرب القاهرة ودار ضرب الإسكندرية^٤.

وترجع أهمية ولاية قُوص كذلك إلى اهتمام الفاطميين المتزايد بطرق تجارة البحر الأحمر المؤدية إلى الهند ، حيث كانت المركز الرئيسى الذى يربط بين البضائع القادمة من غِيْذاب على البحر الأحمر ، أو من داخل إفريقيا والقُشَطَاط ، حيث يتم توزيعها بعد ذلك على موانئ البحر المتوسط : الإسكندرية غربًا ، وتَنَيس شرقًا .

وبلى قُوص فى الأهمية « ولاية الشَّرْقِيَّة » التى كانت تشتمل على الأراضى الواقعة شرق فرع دِمياط والممتدة من بَلْيس جنوبًا إلى البحر المتوسط شمالًا . وكانت لها دورٌ كبير فى مواجهة أى هجوم تتعرض له مصر من حدودها الشرقية .

وكانت « ولاية القَرْيَّة » تشتمل على كل الأراضى الواقعة داخل الدلتا المصرية .

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٩٢ ؛ المقرئى : الخطوط ١ : ٤٤٥ واطماظ الحنفا ٣ : ٩٣-٩٤ .

^٢ Garcin, J.-Cl., *op.cit.*, pp. 84-85 .

^٣ Lane-Poole, S., *The Coinage of Egypt*, London 1879; Garcin, J.-Cl., *op.cit.*, p. 85 .

^٤ ابن مُمَاتى : قوانين الدواوين ٣٣١ .

أما «ولاية الإسكندرية» فكان واليها يشرف كذلك على أراضى إقليم البحيرة والممتدة جنوبًا حتى مشارف الجيزة^١.

ونظرًا لمكان هذه الولايات وأهميتها الاستراتيجية للدولة الفاطمية كان يُخلع على ولايتها من خزانة الكشوة بـ «البدنة» ، وهو نفس نوع اللباس الذى كان يرتديه الخليفة فى يوم فتح الخليج^٢.

ويضيف القلقشندى أن هذه الولايات الأربع هى الولايات الكبرى التى يدخل تحت حكمها الولايات الصغرى . حيث رأى بنفسه فى «تذكرة» أبى الفضل الصورى - أحد كتّاب الإنشاء فى أيام القاضى الفاضل - سيجلات كثيرة لولاة الوجهين القبلى والبحرى^٣، مثل ولاية الجيزة وولاية الإطفيحية وولاية البهنساوية وولاية البوصيرية وولاية الأشمونين والطحاوية وولاية الشبوطية وولاية الإخميمة وولاية الفيوم وولاية واح البهنسا وولاية الواح الداخلة وولاية الواح الخارجة فى الوجه القبلى . وولاية القليوبية وولاية منية تردى - وهى منية غمر - وولاية المرتاحية وولاية الدقهلية وولاية مدينة تيّس - وبها كانت دار الطراز - وولاية المتوفية وولاية جزيرة بنى نصر - وربما أضيفت إلى المتوفية وغُيرَ عنهما بالمتوفيتين - وولاية جزيرة قوسينيتا وولاية البحيرة وولاية ثغر رشيد المحروس وولاية ثغر نشتراوه وولاية ثغر دميّاط وولاية الفزما بالساحل الشامى فيما دون العريش^٤.

وكان ولادة هذه الأقاليم عادة هم المرشّحين لتولى منصب الوزارة فى الثلاثين عامًا الأخيرة من حكم الفاطميين فى مصر .

^١ القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٤٩٤ .

^٢ ابن الطوير : نزعة المقتلين ١٢٤ .

^٣ القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٤٩٤ .

^٤ نفسه ١٠ : ٣٨٠ .

«ولاية القاهرة، وولاية القُسطاط»

كانت القُسطاط في العصر الفاطمي، وظَلَّت لفترة غير قصيرة بعد سقوط الفاطميين، هي مدينة مصر الرئيسية ومركز نشاطها الاقتصادي والصناعي والعلمي، بينما كانت القاهرة هي مقر الخليفة (الإمام) الفاطمي ومركز الدولة الإداري والسياسي والمعدل الرئيسي لنشر الدُّعوى الإسماعيلية. وَكَوَّنَ مجموع المدينتين - اللتين كان يفصلهما عن بعضهما البعض نحو المِليْن - العاصمة المصرية في العصر الفاطمي.

واشتهرت القُسطاط بأنها مركز المقاومة السُّنيَّة في مصر بفضل جامعها العتيق وبكونها مركز الجذب التجاري والاقتصادي بسبب قُرْبها من شاطئ النيل ولالتقاء طرق التجارة القادمة من البحر الأحمر والبحر المتوسط وداخل إفريقيا عندها، بحيث غَطَّت شهرتها على القاهرة المركز الإداري والمدينة المحصَّنة التي كان يُحظَر دخولها على غير قاطنيها، من رجال البلاط والحكم وطوائف الجند، إلَّا بإذن خاص.

وأشار ابن رِضْوَان الطَّيِّب المتوفى سنة ٥٣٠هـ/١٠٦١م إلى أن عاصمة مصر أو «المدينة الكبيرة» - كما أطلق عليها - تتكوَّن من أربعة أجزاء: القُسطاط والقاهرة والجزيرة والجيزة، وأن أعظم هذه الأجزاء القُسطاط ويلها في العِظَم وكثرة الناس القاهرة^١.

كان المُوَظَّفون الذين يتولَّون إدارة العاصمة المصرية يعيِّنهم الخليفة (الإمام) بنفسه لمباشرة سلطتهم، فلم تُتَّبِع المدن الإسلامية في هذه الفترة نظامًا انتخابيًا في اختيار مُوَظَّفِيها المسؤولين عن شئون البلديات. وأُسْنِدَت إدارة العاصمة الفاطمية إلى ثلاثة موظفين رئيسيين هم: «الوالي» و«صاحب الشُّرطة» و«المُحتَسِب».

^١ ابن رِضْوَان : دَفَع مِضَار الأُبدَان بِأَرْض مِصر ١٥٥، ١٦١؛ المِقرِي : الخَطَط ١: ٣٣٩، ٣٤٠.

لا تظهر وظيفة «والى القاهرة» أو «والى القُسطاط» فى مصادر العصر الفاطمى الأول، وإنما بدأت فى الظهور مع نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، وحلَّ محلَّها فى هذه الفترة وظيفة «صاحب الشُرطة»: صاحب الشُرطة العليا (بالقاهرة) وصاحب الشُرطة السفلى (بالقُسطاط). فطوال القرن الفاطمى الأول وحتى قُرب نهاية القرن الخامس الهجرى كان الذى يَحْفَظ النظام فى المدينتين يُعرف بـ «صاحب الشُرطة»، الموجود فى القُسطاط يسمى «صاحب الشُرطة السفلى» والموجود فى القاهرة يسمى «صاحب الشُرطة العليا». أما مصطلح «الوالى» فلم يظهر فى مصادر العصر الفاطمى إلا مع نهاية القرن الخامس الهجرى. فالمُسَبَّحى، الذى أُلِفَ تاريخه فى أوائل حكم الفاطميين فى مصر، يستخدم فقط مصطلح «صاحب الشُرطة» أو «متولَّى الشُرطة»^١، ولا يذكر على الإطلاق لفظ «الوالى»، بينما يقابلنا لفظ «الوالى» بكثرة عند المؤرِّخين الفاطميين المتأخِّرين وخاصة ابن المأمون وابن الطُّوَّزى اللذين لا يذكران مصطلح «صاحب الشُرطة» على الإطلاق^٢. وهذا يعنى أن العاصمة الفاطمية لم تعرف فى القرنين الرابع والخامس للهجرة سوى وظيفة «صاحب الشُرطة» التى اختفت بعد ذلك لتحلَّ محلَّها وظيفة «الوالى» بحيث إن مسئوليات الشُرطة والمحافظة على الأمن أصبحت من ضمن اختصاصات وظيفة «الوالى».

ويبدو أن الشُرطَتين: العليا والسفلى كانتا تُجتمعان لشخص واحد خلال القرن الفاطمى الأول. فالمُسَبَّحى يذكر أن بدر الدولة نافذ الخادم الأسود كان يتولَّى الشُرطَتين: العليا والسفلى فى سنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٤ م^٣، وعندما تولَّى بقى الخادم الأسود الشُرطَتين فى العام نفسه نظر فى الحِشْبَةِ، مضافاً إلى الشُرطتين ثم صُرِفَ عن الحِشْبَةِ

١ المُسَبَّحى: أخبار مصر ٣٠، ٦٨، ٨٩، ١٠١.

٢ ابن المأمون: أخبار مصر ٢٧ و ٣٥، ٤٠، ٤٧ و ٥٣، ٦٩، ٧٨، ابن الطُّوَّزى عند المقرئى: الخطط ١: ٤٦٨.

٣ المُسَبَّحى: أخبار مصر ٤٤، ٤٧، ٧٠.

والشرطة بعد إعادة دَوَّاس بن يعقوب الكُتَامى لِلْحَشْبَةِ^١ . يؤيد ذلك ما ذكره القلقشندى من أنه رأى فى بعض سجلات الفاطميين إضافة الحِشْبَةِ بمصر والقاهرة إلى صاحِبِ الشرطة بهما أحياناً^٢ .

وأورد لنا المُسَبِّحى فى حوادث سنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٤ م أسماء بعض من تولَّوا الشرطة الشُّفلى بمصر مثل : سامى الدولة ابن كافى ، وخليفته بدر الدولة نافذ ، وأيضاً نزار بن حسين بن يُمِّن الكُتَامى المتوفى فى هذه السنة ، وكذلك فَتْح بن نصر بن بونصر الكُتَامى . وتولَّى هذين الشخصين يدل على أن الكُتَاميين كانوا مازالون يشغلون بعض المناصب الهامة فى مطلع القرن الخامس الهجرى .

ولاشك أن التطور الذى عرفته وظائف الإدارة فى العاصمة المصرية فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى قد حدث فى أعقاب زوال الأزمات المتتالية التى تعرضت لها البلاد والعاصمة بصفة خاصة فى أواسط القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . فقد اتَّضَحَ النظام الإدارى للعاصمة ولسائر الإقليم بعد الإصلاحات الإدارية التى أدخلها نظام بدر الجمالى فى العقد السابع لهذا القرن والتى قسِّمت فيها مصر إدارياً إلى أربع ولايات رئيسية هى : قوص والشرقية والغربية والإسكندرية^٣ بالإضافة إلى القاهرة والفسطاط^٤ مما تطلَّب إنشاء وظائف ولادة لهذه الولايات الست كان يخرج لأصحابها ، الذين كانوا من أرباب السيوف ، سجلٌ من الخليفة .

وظهر دور والى القاهرة فى تنظيم مواكب الخليفة من خلال النصوص التى أوردها ابن الطُّوَيْرِ وَوَصَفَ فيها المواكب العظام للدولة الفاطمية والتى استقر ترتيبها فى زمن

١ المسبِّحى : أخبار مصر ٤٧ .

٢ القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٣ وكذلك ١٠ : ٣٤٢ و ٤٢٣ ؛ وانظر عن صاحب الشرطة فى العموم دراسة أحمد

عبد السلام ناصف : الشرطة فى مصر الإسلامية ، القاهرة-الزهراء للإعلام العربى ١٩٨٧ .

٣ القلقشندى : صبح ٣ : ٤٩٣-٤٩٤ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٣٣٦ .

٤ نفسه ٣ : ٤٨٠ .

خلافة الأمر مع مطلع القرن السادس الهجري . فقد كان لوالى القاهرة مكاناً فى المركب يسير فيه^١ ويتولّى مع صاحب الباب الوقوف على رأس الطرق لمنع المارة فى أيام جلوس الخليفة^٢، وكذلك ترتيب العساكر وحراسة الطُوق التى يستخدمها الخليفة فى أيام الركوب^٣.

موظف آخر كانت اختصاصاته مشابهة لصاحب الشُرطة، إلا أنه كان يؤدّى عمله فقط فى أثناء الليل هو «صاحب القمّس» أو «متولّى الطُوف ليلاً». وكانت صلاحيات هذا الموظف، الذى كان يعمل تحت إشراف والى، تتضمن الإشراف على القصر الخِلافى، والقبض على الشّراق^٤، كما كان يصحبه دائماً عددٌ من السّقّائين والمشاغلي والنّجارين والقصّارين والهدّادين «خوفاً من أن يحدث فى القاهرة فى الليل حريقٌ فيتداركون إطفاءه»^٥.

ولا يعنى اختفاء وظيفة «صاحب الشُرطة» فى أواخر العصر الفاطمى أن «والى» كان يقوم تماماً بصلاحيات هذه الوظيفة، بل كان هناك موظفٌ آخر لم يرد ذكره كثيراً فى المصادر الفاطمية يتولّى مهمة صاحب الشُرطة هو «متولّى المعونة» أو «والى المعونة». وقد ميّز كتاب «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية» المنسوب إلى ساويرس بن المقفّع بين متولّى المعونة بمصر (الفسطاط) ومتولّى المعونة بالقاهرة الذى كان يشبه أن يكون نائباً للوالى^٦. وتبدو بعض صلاحياته من الأمر الذى أصدره له حُصّام الملك صاحب الباب عندما تحوّل الخليفة الأمر بأحكام الله إلى منظرة اللؤلؤة واهتم بسكن

١ القلقشندي : صبح ٣ : ٤٨٠ .

٢ نفسه ٣ : ٥٠٣ .

٣ المقرئى : الخطط ١ : ٤٦٨ .

٤ نفسه ٢ : ٢٧٧ .

٥ المُشجى : أخبار ٩٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ١٨٨ .

٦ المقرئى : الخطط ٢ : ١٠٣ .

٧ ساويرس بن المقفّع : تاريخ ٣ : ٣ ، ٢١ ، ٢٢ ، المقرئى الخطط ١ : ١٠٧ ، ٣٣ ، ٤٠٥ ، ٣٤ .

الدور المُنْتَطِلَة على الخليج ، حيث أمره بالكشف عن الدور المطلّة على الخليج قِبَلِي اللُّؤْلُؤَة وأن لا يُمكن أحداً من السكن في شىء منها إلا من كان له مِنْكَ كنوع من الإجراءات الأمنية ليقيم بها حواشى الخليفة لحراسته ^١ . والمرة الوحيدة التى صادفنى فيها ورود مصطلح « متولّى المعونة » فى وثيقة رسمية هى أمر الخليفة الأمر للأمير متولّى المعونة بمصر بقراءة سجل التعزية فى وفاة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى على منبر الجامع العتيق بمصر ^٢ .

وللأسف لا تتوفر لدينا معلومات دقيقة عن الكيفية التى كان يدير بها والى القاهرة أو القُشَطاط على السواء . ولكن من لحسن الحظ أن القلقشندى حَفِظَ لنا فى « صبح الأعشى » نصّ سجل خاص بولاية القاهرة صادر فى نهاية الدولة الفاطمية يحدّد فيه الخليفة ، وهو فى الغالب الخليفة الفائز أو الخليفة العاضد ، مكانة مدينة القاهرة ومهام والى ومسئوليّاته . يَصِفُ فيه مكانة المدينة بقوله : « واعلم أنّ هذه المدينة هى التى أُسِّسَ على التقوى بُنائُها ، ولها الفضيلة التى ظهر دليلُها ووضّح برهانُها ؛ لأنها حُصِّتْ بفخر لا يُذكر شأؤه ولا تُذكر آمادُه ، وذلك أنّ منابرَها لم يُذكر عليها إلا أئمة الهدى آباء أمير المؤمنين وأجداده ، ثم إنّها الحَرَمُ الذى أضْحَى تقديسه أمراً حتماً ، وظلّ ساكنه لا يخاف ظُلماً ولا هُضمًا ، وعَدَّتْ النعمة به متَّمة مكَّمة » ^٣ . ثم يُحدّد وظيفة والى ومسئوليّاته بقوله : « فاشمَلْ كافّة الرعايا بها بالصيانة والعناية ، وعَمِّهم بتأم الحِفْظ والرّعاية وابسط عليهم ظلّ العدل والأمانة ، وسِرْ فيهم بالسيرة العادلة الحسنة ، وساوِ فى الحقِّ بين الضعيف والقويّ ، والرّشيد والعويّ ، والمليّ والذمّيّ ، والفقر والغنى ، واعتمدْ مَنْ فيها من الأمراء والمميّزين ، والأعيان المقدمين والشهود المعدّلين ، والأماثل من الأجناد ، وأرباب الخدم من القوّاد بالإعزاز والإكرام ، وبلغهم نهاية المراد والمزام ، وأقم حدود الله على من وجبت

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ١٨ ، ٩٩ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٦٨ .

^٢ نفسه ١٨-١٩ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ٦٩ .

^٣ القلقشندى : صبح ١٠ : ٣٤١-٣٤٢ .

عليه بمقتضى الكتاب الكريم وشئته محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وتفقد أمور المتعيشين ، واثمن من البئس فى المكايل والموازن ، وحذر من فساد مُدخل على المطاعم والمشارب ، وانتهج فى ذلك سبيل الحق وطريق الواجب ، واحظر أن يخلو رجلٌ بامرأة ليست له بمَحَرَم ، وافقل فى تنظيف الجوامع والمساجد وتزيئها عن الابتذال بما تُعزُّ به وتُكرِّم ، واشدد من أعوان الحُكم فى قَوْد أتابة الخصوم وأوعز إلى المستخدمين بحفظ الشارع والحازات ، وحراستها فى جميع الأزمنة والأوقات ، وواصل التطواف فى كل ليلة بنفسك فى أوفى عِدَّة وأظهر عُدَّة ... وطالع مجلس النظر الأجلّى الملكى بما تحتاج إلى علمه^١.

وحسب ما ورد فى هذا السَّجِل نجد أن والى القاهرة كان يَجْمَع وظائف الحِشبة والشُّرطة بالإضافة إلى مهامه الإدارية التى تشمل فى الأساس تنفيذ أوامر الخليفة والمحافظة على الأمن والنظام ، والنظر فى قضايا العقوبات والإجرام وتولّى تنفيذ الأحكام كالسجن أو التحذير أو الجلد ، بالإضافة إلى قيادة مواكب الخليفة فى أيام الركوب والمواسم التى أتى على تفصيلها ابن الطُّوَيْر .

ومن ناحية أخرى فقد حَفِظ لنا القلقشندى نصّ ثلاثة سِجَلات أخرى خاصة بتولية والى القُسطاط صادرة جميعها أيضًا فى نهاية العصر الفاطمى ، يحدّد فيها الخليفة مكانة القُسطاط بأنها « المجاوزة لمحلّ الخلافة ، وكلُّ مضرٍ بالنسبة إليها معها بالإضافة ، وهى خِطّة النيل وفُرْضة المَنيل ... ولا يؤهل لولايتها إلّا كل حاملٍ لعبها الثقيل ، ولا تُشند الخدمة فيها إلّا لكل مثيرٍ من ذخائر السياسة غير فقير ولا مُقِل »^٢ وأنها « من أنفَس الولايات محلا ، وأثبتها على غيرها فَضْلا ، بمجاورتها للمقام الكريم ، وحُصولها من استقلال الرُكّاب الشريف إليها على الشُّرف العظيم ، واختصاصها فى مَجَال الخلافة بما

١ القلقشندى : صبح ١٠ : ٣٤٢ .

٢ نفسه ١٠ : ٣٤٨ .

جَمَعَ لها بين الفَخْرين الحادث والقديم ، وأوجب لها على غيرها من البلاد مزية ظاهرة التكريم والتقديم ...^١ .

كذلك حدّد الخليفة في هذه السجّلات الثلاثة وَضَعَ أهل المُنْطَاط وطبقتهم فقال : إنها مدينة « الفقهاء والأتقياء والقراء والعلماء »^٢ ، « والتجار الذين هم عَيْشُ الحلال والحرام ، والرعيّة الذين هم قِوام العيش في الأيام »^٣ .

وبعد ذلك يوجّه الخليفة والى إلى اتباع نفس السياسة التى يقوم بها والى القاهرة من حيث الإشراف على النظام والأمن والقيام بواجب المحتسب . وتبعًا لهذه السجّلات فقد كان والى المُنْطَاط يتولّى بالإضافة إلى عمله ولاية الصناعتين^٤ .

وأول ما يقابلنا ذكر اسم والى للقاهرة فى المصادر الفاطمية فى أثناء حوادث سنة ٤٩٠ هـ كما يرويه لنا ابن مَيْسَر^٥ ، وذلك عندما ذكر ذَخيرة المُلْك جعفر بن عُلوّان الذى عاقب فى هذه السنة عددًا من العامة لسببهم الصحابة فى يوم عاشوراء عند مَشْهَد السيدة نفيسة^٦ . وقد ظلّ ذخيرة الملك واليًا للقاهرة حتى وزارة المأمون بن البطائحي ، وهذا والى هو وسعد الدولة الأَخْذَب - الذى كان واليًا للقاهرة فى زمن الأمر - الاسمان الوحيدان اللذان حفظتهما لنا المصادر الفاطمية^٧ .

وعندما تولّى الوزير شاور الوزارة للخليفة العاضد للمرة الثانية بعد انتصاره على ضِرْغام فى سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م عيّن الخليفة ابنه الكامل شجاع نائبًا لأبيه فى الوزارة

١ القلقشندي : صبح ١٠ : ٣٦٥ .

٢ نفسه ١٠ : ٣٦٦ .

٣ نفسه ١٠ : ٣٥١ و ٤٢٣ .

٤ نفسه ١٠ : ٤٢٣ .

٥ ابن ميسر : أخبار مصر ٦٥ ، المقرئى : نهاية الأرب ٢٨ : ٢٧٨ ، المقرئى : اتماظ ٣ : ٢٠ .

٦ ابن المأمون : أخبار ٤٧ ، المقرئى : الخطط ٢ : ٤١١ و اتماظ ٣ : ٥٥ والمقفى ٣ : ٣٩ .

٧ المقرئى : الخطط ٢ : ١١٤ .

كما عهد إليه في سبيل توليته بالإشراف على مدينة القاهرة لتأمينها من الفوضى التي أحاطت بها على أيدي حامية الفرنج (التي تركها عموري الأول ملك بيت المقدس) وبسبب انتقال أهل القسطنطاط إليها بعد حريق مدينتهم^١.

وقد أدت العناية بتعمير البر الغربي لخليج القاهرة منذ بداية القرن السادس الهجري إلى ضرورة تعيين والٍ خاص بجامعة لهذا الجانب ، وإن لم تحدثنا المصادر عن طبيعة دور هذا الوالي^٢.

ولعل من أهم الواجبات التي أسندت إلى والي القاهرة والقسطنطاط الأمر الذي أصدره إليهما الوزير المأمون البطائحي سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م وأمرهما فيه « أن يُسَقَّعا له شارعًا شارعًا وحارةً حارةً بأسماء من فيها من السكان وأن لا يَمَكَّنَا أحدًا من الانتقال من منزل إلى منزل إلى أن يخرج أمره بما يعهدها فيه » . لم يكن هذا التكليف بغرض إحصاء السكان وإنما خوفًا من الفرقة الحشيشية . فقد كانت الأماكن الشاغرة تمثل تهديدًا للدولة وعلى ذلك أصبحت المباني أماكن ممنوعة ولا بد من إرسال تقرير عنها إلى السلطات . وعندما وَصَلَتْ إليه أوراق التشفيع وفيها أسماء أهل مصر والقاهرة وكُتِّبَهم وأحوالهم ومعايشهم ومن يصل إلى كل ساكن من سكان الحارات من الغرباء ، أرسل المأمون من قبَّله نساءً يدخلن هذه المساكن ويتمرَّنَ أحوال سكانها الداخلية ولمعرفة إذا كان هناك غرباء يقيمون في البلدين بحيث أصبح لا يخفى عليه شيء من أمرهما^٣.

كذلك كان لكل قطاع سكني أو حارة في العاصمة (القاهرة والقسطنطاط) مشرفٌ خاصٌ بها يسمى « صاحب الرُّبْع »^٤. كان هذا الموظف هو وأعوانه أوَّل من يتحرَّكون

^١ القلقشندي : صبح ١٠ : ٣١٨-٣٢٥ ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية (القاهرة ١٩٥٨) ١٦٦-١٦٧ .

^٢ نفسه ٢ : ١١٤ والاتعاظ ٣ : ٤٣ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٣٥٨ .

^٣ ابن مسير : أخبار ٩٨ ، المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٠٨ .

^٤ القلقشندي : صبح ١٠ : ٣٥١ ، النجوم ٥ : ١٨٥ .

عندما يُهْدَد النظام العام . وكان من اختصاصاته بجمع سكان الحارة وقيادتهم للقاء الخليفة عندما يدخل في موكب عام إلى المدينة^١.

ونعرف عن طريق وثائق الجنيزة أن مصاريف تكاليف العناية بالشوارع كانت واجبة على المباني التي تمدها . وكانت عملية الإصلاح تتم تحت إشراف صاحب الزئج أو الملاك أنفسهم^٢.

وإذا جاز لنا أن نعتبر والي وصاحب الشُرطة موظفين مدنيين ، لأن واجباتهما لم تكن مرتبطة بالمسائل الدينية ارتباطًا مباشرًا (فيما عدا إشرافهما على الحِشبة) ، فقد كان « المحتسب » على عكس ذلك موظفًا دينيًا في الأساس مثله في ذلك مثل القاضي .

كانت الحياة في القاهرة طوال العصر الفاطمي ، أو على الأقل حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، بسيطة خالية من الأسواق العامة تقريبًا بحيث إنها لم تتطلب وجود مثل هذا الموظف ، بعكس الفُشطاط المركز التجاري والاقتصادي الكبير العامرة بالأسواق والبضائع مما جعل وجود المحتسب أمرًا ضروريًا للإشراف على الأسواق ومراقبة الأسعار .

كانت مهام المحتسب متنوعة وتتراوح بين الإشراف على التجارة والصناعة إلى تطبيق الشريعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^٣ . وكان سجله يُقرأ بمصر والقاهرة على المنبر وكان له أعوان في القاهرة والفُشطاط وسائر الأعمال كنواب الحكم . وكان من العوائد في الدولة الفاطمية ، دون شك قرب نهايتها ، أن يجلس بالجامع الأزهر وجامع عمرو يومًا بعد يوم^٤ . وكان المحتسب يتقاضى مرتبًا شهريًا قدره ثلاثون دينارًا^٥.

^١ . Goitein, S.D., *op.cit.*, II, p. 369

^٢ . *Ibid.*, IV, p.40

^٣ . القلقشندي : صبح ١٠ : ٤٦١ .

^٤ . القلقشندي : صبح ٣ : ٤٨٣ ، القريري : الخطط ١ : ٤٦٤ .

^٥ . القريري : الخطط ١ : ٤٦٤ .

ولا نستطيع أن نعرف بدقة إذا كان المحتسب موظفًا حكوميًا بمعنى الكلمة كما يبدو ذلك واضحًا من كتب الحيشة التي كتبت ابتداء من بداية العصر الأيوبي ، أو كان رئيسًا لطائفة جزفية ، فمعلوماتنا عن العصور الإسلامية الأولى لا تفيدنا فى التعرف على نشأة أية تجمعات خاصة ذات دور جزفى . ولكننا نجد فى كتاب « إغاثة الأمة » للمقرئى نصًا يحوى سلسلة من الإشارات الدقيقة عن الحياة الاقتصادية فى مصر فى منتصف القرن الخامس الهجرى وعن ذكر الأسواق والطوائف والعرفاء والحيشة .

يشير هذا النص بوضوح إلى أنه كان هناك إلى جانب المحتسب وأعوانه ، الذين يمثلون فى الحقيقة الحكومة الفاطمية ، كان لكل سوق من أسواق الفسطاط فيما يخص إشرافه الداخلى رئيس مفوض عنه فى الاتصال بالحكومة يعرف بالعرف ، وكذلك كان لكل طائفة رئيس مماثل فابن المأمون يحدثنا عن عرفاء السقائين^١ .

أما القاضى فقد كان موظفًا دينيًا أصلاً ، وكان واجبه الأول إقامة العدل على أساس الشريعة ، ومن ثم فقد كان من الضرورى أن يكون ضليعًا فى الفقه خيرًا بأحكامه . يقول ابن الطونج : « لا يتقدم عليه أحدٌ أو يحتمى عليه ، وله النظر فى الأحكام الشرعية ودور الضرب وضبط عيارها »^٢ ، وإذا كان وزير الدولة صاحب سيف كان تقليده من قبله نيابة عنه وإن لم يكن كان تقليده من الخليفة وكان له نواب ينوبون عنه فى سائر الإقليم يعرفون بنواب الحكم ، وكان لا يعدل شاهدًا إلا بأمر الخليفة^٣ .

وكان القاضى يجلس يوم الاثنين والخميس بالقصر بالقاهرة ، ويجلس يومى السبت والثلاثاء بزيادة الجامع العتيق بمصر^٤ .

^١ المقرئى : إغاثة الأمة ١٨-١٩ والمقفى ٣٨٤:٣ انظر كذلك أبا الحسن : النجوم ٥ : ١٨٤ .

^٢ ابن المأمون : أخبار ٦٩-٧٠ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٦٣ والاعتاظ ٣ : ١٠ .

^٣ القلقشندى : صبح ٣ : ٤٨٢ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٣ .

^٤ نفسه .

^٥ نفسه ، ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٢ .

كما كانت من اختصاصاته مصاحبة الخليفة في المواكب العظام والوقوف بجانبه عند صلاة الجمعة أو صلاة العيدين^١ وهو الذى يضع النُضُل في نُحر الضحية في عيد النحر نيابة عن الخليفة^٢، كما كان من اختصاصاته كذلك الصلاة على الجنائز^٣ وكان يتقاضى راتباً قدره مائة دينار في الشهر^٤.

الدواوين

مرَّ تطوُّر « الدواوين المصرية » بثلاث مراحل متميِّزة رغم أن استمرارية النُظُم الإدارية في مصر تميل إلى أن تكون أقوى من تغيير الحكومات والأنظمة الحاكمة ، فلا يوجد في الواقع فاصلٌ واضحٌ بينها . وهذه المراحل هي : عصرُ الولاة والدُول المُستَقِلَّة (٣٢٩-٣٥٨ هـ / ٦٣٩-٩٦٩ م)^٥ وعصرُ الدولة الفاطمية (٣٥٨-٥٦٧ هـ / ٩٦٩-١١٧١ م)^٦ والعصرُ الأيوبي المملوكي (٥٦٧-٩٢٣ هـ / ١١٧١-١٥١٧ م)^٧ . فقد اشْتَخَذَت الفاطميون أمورًا كثيرةً في نظام الحُكْم لم تكن قبلهم ، كما أن الأيوبيين

^١ المقرئى : المخطوط : ١ : ٤٥٥ ، ٢ : ٢٨١ (عن ابن الطُّونَر) .

^٢ نفسه : ١ : ٤٣٦ و ٤٣٧ (عن ابن الطُّونَر) .

^٣ المسبَّح : أخبار ٩٧ و ١٠١ ، ١٠٥ .

^٤ ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٩ . يذكر أن راتبه ألفا دينار ، المقرئى : اتعاظ : ٣ : ٣٤٠ والمخطوط : ١ : ٤٠١ .

^٥ القلقشندي : صبح : ٣ : ٤٦٧ وانظر سيده إسماعيل كاشف : مصر في عصر الولاة ، القاهرة ١٩٨٨ ، ٢٥-٦٦ ومصر في عصر الإخشيديين ، القاهرة ١٩٧٠ ، ١٦٥-١٢٢ ، Hassan, Z.M., *Les Tulunides*, Paris 1933, pp. 163-231 .

^٦ نفسه : ٣ : ٤٦٨-٤٢٦ ؛ عطية مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ ؛ عبد المنعم

ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ج ١ ، القاهرة ١٩٥٣ .

^٧ نفسه : ٤ : ٥-٧٢ ؛ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (مصر والشام والحجاز واليمن) ،

القاهرة ١٩٨٥ ، Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 564-741/ A.D. 1169-1341* ،

London 1972 ؛ على إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ الممالك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص ،

القاهرة ١٩٤٤ ، ١٨١-٢٩٥ ؛ عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين الممالك ورسومهم في مصر ج ١ ، القاهرة

١٩٦٧ ؛ 336-341 ، II, *El² art Diwān*, H.L., Gottschalk .

استمدوا نظام دولتهم من نظام الأتابكة والسلاجقة^١، وكانوا أصل الدولة التركية بحيث إن الممالك لم يُدخلوا تغييرًا كبيرًا على أسلوب الحكم وجهاز الإدارة الأيوبي . وقد لقيت دواوين الدولة تغييرات وتعديلات كبيرة طوال الفترة الفاطمية التي استمرت أكثر من قرنين من الزمان . ولم يعرف الفاطميون أغلب هذه الدواوين خلال الستين عامًا التي أمضوها في شمال إفريقيا ، كما أن قسمًا كبيرًا منها لم تعرفه النظم المصرية السابقة على الفاطميين ، بل استُخذت الفاطميون بعد انتقالهم إلى مصر . فالتنظيم الصّارم الذى أَدْخَلَهُ يعقوب بن كِلْس وعُشْلُوج بن الحسن على الإدارة والنظم المالية كان أساس النظام المُعَقَّد للمؤسسات العامة التى نَمَتْ وَتَبَدَّلَتْ أو اسْتُجِدَّت تدريجيًا طوال العصر الفاطمى .

ومصادر معلوماتنا الرئيسية عن دواوين الدولة الفاطمية فى مصر نستمدّها من كتابين متأخرين هما : « صُبْحُ الْأَغْشَى » للقلَقْشَنْدَى و« خِطَطُ » المقرئى . وبالنسبة للفاطميين المتأخرين وبداية العصر الأيوبي يُمَثِّلُ كتاب « الْمِثْهَاجُ فى أَحْكَامِ صَنْعَةِ الْخِرَاجِ » لِلْمَحْزُومِى ، وكتاب « قَوَانِينُ الدَّوَاوِين » لابن مِثْأَتَى بالإضافة إلى كتابتى « لَمَعُ الْقَوَانِينِ الْمُضِيَّةِ » و« تَارِيخُ الْيَوْمِ وَبَلَادِهِ » لِلنَّابُلْسَى أهمية خاصة . أما « دِيْوَانُ الْإِنْشَاءِ » أو « الرِّسَائِلُ » فنحن نملك عنه كتابين مستقلّين أحدهما عن الفترة الفاطمية الأولى هو « مَوَازِدُ الْبَيَانِ » لعلّى بن خَلْفٍ ، والآخر عن الفترة الفاطمية الثانية هو « الْقَانُونُ فى دِيْوَانِ الرِّسَائِلِ » لعلّى بن مُثَنِّبِ بْنِ الصَّبْرِ فى بالإضافة إلى صُورِ السَّجَلَّاتِ والمناسير التى أُوْزِدَهَا الْقَلَقْشَنْدَى فى « صُبْحِ الْأَغْشَى » .

وقد اعتمد عَزْضُ الْقَلَقْشَنْدَى والمقرئى لدواوين الدولة الفاطمية فى الأساس على ما أورده ابن الطُّوَيْرُ فى كتاب « نَزْهَةُ الْمُقَلَّتَيْنِ » الذى ألفه فى عصر صلاح الدين بعد

^١ القلقشندى : صبح ٣ : ٥٠ .

^٢ نفسه ٧ : ١١٩ .

سقوط دولة الفاطميين بفترة قصيرة .

وَتَقْدِّمُ لَنَا الْوُثَائِقَ الرَّسْمِيَّةَ الْأَصْلِيَّةَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْنَا مِنَ الْعَصْرِ الْفَاطِمِيِّ (وُثَائِقَ دِيَارِ سَانْتِ كَاتَرِينِ وَوُثَائِقَ دِيَارِ الْإِنْشَاءِ الْمَحْفُوظَةِ ضَمْنِ أَوْرَاقِ جَيْنِزَةِ الْقَاهِرَةِ) أَسْمَاءَ عَدَدٍ مِنَ الدَّوَاوِينِ لَمْ يَزِدْ لَهَا ذِكْرٌ فِي الْقَائِمَةِ الَّتِي أَوْرَدَهَا الْقَلْقَشَنْدِيُّ وَالْمَقْرِيزِيُّ . فَقَدْ كَانَتْ الْعَادَةُ أَنْ يُسَجَّلَ الْكَاتِبُ فِي نَهَايَةِ كُلِّ سَجَلٍ أَوْ مَنَشُورٍ أَسْمَاءَ الدَّوَاوِينِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُثَبَّتَ أَوْ يُخَلَّدَ بِهَا السَّجَلُ أَوْ الْمَنَشُورُ .

عَرَفَ الْفَاطِمِيُّونَ فِي بَدَايَةِ حُكْمِهِمْ فِي مِصْرٍ عَدَدًا مِنَ الدَّوَاوِينِ ، ذَكَرَ أَغْلِبُهَا الْمُسَبِّحِيُّ فِي تَارِيخِهِ (ت سَنَةِ ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م) ، اسْتَمَرَّ بَعْضُهَا يَعْمَلُ إِلَى نَهَايَةِ دَوْلَتِهِمْ وَزَالَ أَغْلِبُهُ أَوْ تَبَدَّلَ أَوْ تَغَيَّرَتْ أَهْمِيَّتُهُ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنْ تَارِيخِ الدَّوْلَةِ . وَلَا تَعَيَّنَا الْمَعْلُومَاتُ الْمَتَوَفَّرَةُ لَنَا عَلَى دِرَاسَةِ تَطَوُّرِ الدَّوَاوِينِ الْفَاطِمِيَّةِ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ تَارِيخِ حُكْمِهِمْ فِي مِصْرٍ . فَتَارِيخُ الْمُسَبِّحِيِّ - وَهُوَ أَقْدَمُ مَصْدَرٍ فَاطِمِيٍّ وَصَلَ إِلَيْنَا إِذَا اسْتَشِينَا تَارِيخَ ابْنِ زَوْلَاقٍ - لَا يَذْكُرُ لَنَا سِوَى أَسْمَاءِ ثَمَانِيَةِ دَوَاوِينٍ فَقَطْ اسْتَمَرَّ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنْهَا وَتَغَيَّرَ أَكْثَرُهَا وَتَبَدَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ هِيَ : دِيَارِ الْأَخْبَاسِ وَدِيَارِ الْبَرِيدِ وَدِيَارِ التَّرْتِيبِ وَدِيَارِ الْجَيْشِ وَدِيَارِ الْخَرَاجِ وَدِيَارِ الشَّامِ وَدِيَارِ الْقَرَائِفِ وَدِيَارِ الْكُتَّامِيِّينَ^١ ، أَضَافَ إِلَيْهَا ابْنُ مُيَسَّرٍ وَالْمَقْرِيزِيُّ : الدِّيَارِ الْمُقَرَّدَ وَالدِّيَارِ الْخَاصَّ وَدِيَارِ الثَّقَفَاتِ وَدِيَارِ دِمَشْقَ وَدِيَارِ أُمِّ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَنْصَرِ^٢ ؛ بِالإِضَافَةِ إِلَى دِيَارِ الزُّمَامِ وَدِيَارِ الْأَوْلِيَاءِ الْكِبَارِ وَدِيَارِ الطُّحَاوِيَّةِ (أَوْ الظَّاهِرِيَّةِ) وَالدِّيَارِ الْفَرَجِيَّةِ ، وَهِيَ الدَّوَاوِينُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي إِسْجَالَاتِ «السَّجَلِ الْمَنَشُورِ» الصَّادِرِ عَنِ الْخَلِيفَةِ الظَّاهِرِ فِي الْحَرَمِ سَنَةِ ٤١٥ هـ /

^١ الْمَسْبُوحِيُّ : أَخْبَارُ ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠٩ ؛ أَبُو صَالِحٍ : تَارِيخُ ٥١ (٤٠ ب) ؛ BIANQUIS, TH., «Le fonctionnement des Diwans financières d'après al-Musabbihî», An. Isl. 26 (1992), pp. 47-60.

^٢ ابْنُ مِيسَرٍ : أَخْبَارُ ٥ ، ٢٤ ، ٩٠ ؛ ابْنُ خُلِكَانٍ : وَفَيَاتُ ٣ : ٤٠٨ ؛ الْمَقْرِيزِيُّ : اِتِّعَاطُ ٢ : ٤٨ ، ٩٠ ، ١٠٨ .

مارس سنة ١٠٢٤ م^١. ويجب أن نضيف إلى هذه الدواوين دون شك « ديوان الإنشاء والمكاتب » أو « ديوان الرسائل ». وواضح أن بعض هذه الدواوين نشأ لخدمة أغراض معينة ثم زال بزوال الغرض الذى أنشئ من أجله .

وقد قسم على بن خلف فى كتابه « مواد البيان » ، الذى ألفه نحو سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، مراتب الوظائف الديوانية أو المتعلقة بصناعة الكتابة إلى خمس عشرة مرتبة هى : الوزارة ، والتوقيع والرسائل ، والخزاج ، والضيايع ، وبيت المال ، والخزائن ، والثفقات ، والجيش ، والزمام ، والتريد ، والقصص ، والمظالم ، وكتابة القضاء ، وكتابة القواد والأمرء ، وكتابة المقاون^٢ .

ولا يتفق هذا الترتيب كذلك مع ما أورده المستبجى وابن ميسر ، كما أنه لا يفيدنا كثيرًا فى التعرف على طبيعة الوظيفة الموكلة إلى هذه الدواوين أو إلى هذه الوظائف الديوانية .

وأغلب هذه الدواوين لا يرد ذكره فى توصيف دواوين الإدارة الفاطمية فى العصر الفاطمى المتأخر الذى ترجع إليه الأوصاف التى يمدنا بها المؤلفون المتأخرون ، ولكن دراستها تدلنا على أن بعضها قد زال فى النصف الثانى من تاريخ الدولة الفاطمية وبعضها الآخر تغير اسمه والدور الذى يقوم به .

فديوان الشام وديوان دمشق وديوان الكتامين وديوان أم الخليفة المستنصر والديوان الفرحى زالت بزوال سبب وجودها . فدور الكتامين تلاشى فى أوائل القرن الخامس ، وديوان أم الخليفة تغير دوره بتغير دور نساء القصر ونفوذهن ، كما أن ديوان الشام وديوان دمشق زال دوره بخروج دمشق والشام عن السيطرة الفاطمية فى سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م .

^١ Stern, S. M., *Fatimid Decees* pp. 17-18

^٢ على بن خلف : مواد البيان ٧٠-٨٨ .

أما أهم دواوين العصر الفاطمي الأول التي استمرت في العصر الفاطمي الثاني ، مع تبدل أسمائها وتوسيع دورها ، فيأتي على رأسها « ديوان الترتيب » أو « الرتيب » ، وقد تولاه المؤرخ المسيحي أكثر من مرة في زمن الحاكم بأمر الله ^١ ، كما تولاه أبو سغد محمد بن أحمد القميدي الكاتب وعُزل عنه سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م قبل أن يتولى ديوان الإنشاء ^٢ ، كما ذكره ابن الصيرفي في زمن أبي علي الأفضل كُتيفات ^٣ . وقد جدد أبو عبد الله الأنصاري في عهد الخليفة الحافظ ديوانًا سُمّاه « ديوان الترتيب » تعادل وظيفته « ديوان البريد » ^٤ . أما عمل « ديوان الترتيب » في العصر الفاطمي الأول فهو أشبه بالتنسيق بين دواوين الدولة وهو الدور الذي سيقوم به في العصر الفاطمي الثاني « ديوان التحقيق » .

الديوان الثاني هو « الديوان المفرد » وهو ديوان أحدثه الخليفة الحاكم سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م برسم من يُقبض ماله من المقتولين أو من يَسْخَط عليه الخليفة ^٥ ، وربما كان هذا الديوان هو الديوان الذي عُرف في نهاية العصر الفاطمي بـ « ديوان المُرْتَجَع » وقد جاء في السجل الخاص بولاية متولّى هذا الديوان ، والذي أورده القلقشندي ، أنه الديوان الخاص بالمرْتَجَع عن الوزير بهزّام وغيره وأنه من أجل الدواوين وأوقافها ^٦ .

أما « ديوان الزّمام » الذي جاء ذكره في السجل المنشور الصادر عن الخليفة الظاهر سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م فيبدو أنه الديوان الذي تحوّل في أواسط القرن الخامس إلى ديوان

^١ المسيحي : أخبار ١٠٩ ، ابن خلكان : وفیات : ٤ : ٣٧٧ ؛ الصفي : الوافي : ٤ : ٨ .

^٢ نفسه ؛ ياقوت : معجم الأدباء ١٧ : ٢١٢ ؛ القفطي : إنباه الرواه ٣ : ٤٧ ؛ الصفي : الوافي : ٢ : ٧٦ ؛ السيوطي :

بغية الرعاة ١ : ٤٧ ؛ وانظر كذلك ساويرس : تاريخ ٣/٢ : ١٧٨ س ١٧ .

^٣ ابن الصيرفي : قانون ديوان الرسائل ٣٥ .

^٤ المقرئزي : اتعاظ ٣ : ١٩٤-١٩٥ ؛ وانظر Khan, G., *op.cit.*, p. 432 .

^٥ نفسه ٢ : ٨١ ، ٨٢ ، والخطط ٢ : ١٥ س ٢٦-٢٧ و ٢٨٧ س ١٤-١٥ .

^٦ القلقشندي : صبح ١٠ : ٣٥٧-٣٥٩ . وربما كان هو الديوان الذي ذكر في وثائق ديرسانت كاترين باسم « ديوان

الاستيفاء على الإقطاعات المرتجعة ... » (Stern S. M., *op.cit.*, p. 37) .

^٧ Stern, S. M., *op.cit.*, p. 17 .

المجلس . فالمقرىزى ينقل عن « جامع سيرة الوزير الناصر للدين الحسن بن على اليازورى » أن ديوان المجلس هو زمام الدواوين ، بما يعنى أن ديوان المجلس هو اسم جديد لديوان الزمام^١ .

ولا ندرى إن كان « ديوان الخاص » ، الذى كان يتولاه عيسى بن نسطورس فى زمن الحاكم^٢ ، هو نفسه « الديوان الخاص » الذى تولاه بعد ذلك أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم بن أبى قيراط فى زمن الأمر بأحكام الله^٣ والذى يبدو أنه الديوان المختص بنفقات الإمام والقصور .

ديوان المجلس وديوان النظر

لاشك أن الديوان الرئيسى بين الدواوين الإدارية الأربعة عشر للدولة الفاطمية والذى يقابلنا اسمه فى المصادر مع أواخر القرن الخامس الهجرى ، هو « ديوان المجلس » . وهذا الديوان ، كما يقول ابن الطوير ، هو أصل الدواوين وفيه علوم الدولة بأجمعها ويقال لمتوليه « صاحب ديوان المجلس » ، ويشرف على إداراته المختلفة عددٌ من الكُتّاب لكل واحد منهم مجلس مفرد ويعاونه معين أو معينان ، وصاحبُ هذا الديوان هو المتحدث فى الإقطاعات . وأهم كُتّاب هذا الديوان هو « صاحب دَفْتَر المجلس » ويكون عادةً من الأستاذين المحْكَمين^٤ . وتتولّى إدارات هذا الديوان المختلفة الإشراف على الإنعامات والأعطية ، ومنح الكُشوات ، وتسجيل ما يرد من الشحف والهدايا من الملوك والأمراء ، وضبط ما يُثَقَّق فى الدولة من المهام لمعرفة ما بين كل سنة من التفاوت ، ويتم تنزيل كل ذلك فى « دَفْتَر المجلس »^٥ .

^١ المقرىزى : الخطط ١ : ٨٢ ، ٩٩ آخر سطر .

^٢ ابن مسير : أخبار ١٧٩ ، المقرىزى : الخطط ٢ : ١٩٦ م ٢٦ .

^٣ أبو صالح : تاريخ ٥٤ (٤٢ ب) .

^٤ من بين من تولوا دَفْتَر المجلس : أبو الفضائل ابن أبى الليث أخو الشيخ أبو البركات مُحْكَم بن أبى الليث (أبو صالح :

تاريخ ٦٤ (٥٠ ب) .

^٥ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٧٥ .

ويُقسم الدور الفَعَال لديوان المَجْلِس بالمرونة حيث يشتمل على كل ما يتصل بالخليفة وتنظيم البلاط وتنظيم الأعياد والاحتفالات والنفقات الزائدة وتوزيع الإقطاعات، والسياسة العامة ... إلخ.

ومن أهم مَهَام «ديوان المَجْلِس» عمل «الاستيثار» (الميزانية العامة للدولة) في نهاية ذى الحجة من كل عام. فقد كان كُتَّاب ديوان الرُؤاتب (الذى أصبح في فترة نجلها فرعاً لديوان المَجْلِس بعد أن كان فرعاً لديوان الجيش)^١ يجتمعون في هذا الوقت عند صاحب ديوان المَجْلِس ويحررون قائمةً بأسماء المرتزقين والمبالغ المؤداة لهم عَيْناً وورقاً. وقد تولَّى المؤرخ ابن الطُّونَر بنفسه ديوان المَجْلِس، وذكر أن الإستهثار انعقد وقت توليه هذا الدِّيوان على ما مبلغه نيف ومائة ألف دينار أو قريب من مائتي ألف دينار^٢. وذكر أبو صالح الأَرَمَنِي أن الشيخ السعيد أبا الفخر كان «كاتب الرُؤاتب» بديوان المجلس في الخلافة الحافظية^٣.

أما «ديوان النُّظَر» فقد كان صاحبه يرأس دواوين الأموال^٤، وكان له العَزَل والولاية، وهو الذى يتولَّى عرض الأوراق في أوقات معروفة على الخليفة أو الوزير، وله الاعتقال بكل مكان يتعلَّق بنوَاب الدولة، وهو الذى يندب المترسلين لطلب الحساب والحث على طلب الأموال، ولا يُغْتَرَض فيما يقصده من أحد من الدولة. ولم يكن يتولَّى هذا الديوان سوى المسلمين فيما عدا الأَحرَم (الأَكرَم) النُصْراني الذى تَوَصَّل إلى ولايته بالضَّمَان في سنة ٥٣٠هـ/١١٣٦م^٥.

^١ الخزومي: النهاج في علم خراج مصر، تحقيق كلود كاهن، القاهرة ١٩٨٦، ٦٨، ٩٨.

^٢ Stern, S.M., op.cit., p. 17؛ المقرئى: الحطوط ١: ٨٢، ٩٩.

^٣ أبو صالح: تاريخ ٣٣، ٤٣.

^٤ ربما كان الديوان الذى يستيه الخزومي «ديوان المال» (للهاج ٦٩، ٧٠، ٧٢).

^٥ ابن الطونر: نزهة ٧٩-٨٠. وعن تولى الدواوين بالضمان انظر ابن عمى: قوانين ٢٩٨-٣٠٠.

وقد أمدنا ابن مُيسر بأسماء من تولوا نظَر الدواوين في آخر عصر الدولة الفاطمية ، أقدمهم الشريف معتمد الدولة على بن جعفر بن غسان المعروف بابن أبي العتاش الذي تولَّى نظَر الدواوين بعد عزل وَلَّى الدولة أبي البركات يُحَنَّا ابن أبي الليث عن ديوان التحقيق والمجلس سنة ٥٢٧/هـ ١١٣٣م^١. وفي سنة ٥٢٩/هـ ٣٤ - ١٠٣٥م ولَّى الخليفة الحافظ صنيعة الخلافة أبا الكرم الأخرم ابن أبي زكريا النَّضْراني نظَر الدواوين ، وهو النَّضْراني الوحيد الذي تولَّى هذا الديوان ، إلى أن عزله الوزير رَضْوَان بن وَلَحْشِي سنة ٥٣٢/هـ ١١٣٧م واستخدم عَوْضًا عنه القاضي المرتضى الْمُحَنَّا الطَّرَابُلْسِي^٢ ، ولكنه لم يلبث أن صرفه الخليفة الحافظ وأعاد الأخرم النَّضْراني إلى صَمَان الدولة بعد عزل رَضْوَان بن وَلَحْشِي^٣. وفي سنة ٥٤٠/هـ ١١٤٥م أوكل نظَر الدواوين إلى القاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التَّنِيسِي ثم صُرف عنه في سنة ٥٤٢/هـ ١١٤٧م وأعيد إليه القاضي المرتضى الْمُحَنَّا^٤. ومن تولَّى هذا الديوان أبو الحسن على بن سليم البَوَّاب ، الذي قتله الوزير الصَّالِح طَلَّاح مع آخرين في سنة ٥٥٠/هـ ١١٥٥م^٥ ، ومحمد بن محمد بن محمد بن بنان الأَنْبَارِي الذي ذكر الصَّفْدِي أنه «تولَّى ديوان النَّظَر في الدولة المصرية وتقلَّب في الخِدْم في الأيام الصَّلاحية بِتَنِيس والإسكندرية»^٦.

وعلى العكس من «ديوان النَّظَر» فلم يكن يتولَّى «ديوان المجلس» عادةً سوى النَّضْراني إلى أن استخدم الوزير ابن وَلَحْشِي المسلمين في المناصب التي كانت بأيدي النَّضْراني سنة ٥٣١/هـ ١١٣٧م. ورغم أن هذا الديوان قد حُرِف منذ وزارة الوزير اليازوري^٧ ، فإن أوَّل اسم يقابلنا في المصادر لمُتَوَلَّى هذا الديوان هو أبو الطَّيِّب سَهْلُون بن

١ أبو صالح الأرميني : تاريخ ٦٤ ؛ ابن ميسر : أخبار ١١٩ ؛ المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٤٨ والمقفي ٦ : ٤٨١ .

٢ نفسه ١٤٠ ؛ نفسه ٣ : ١٦٥ ؛ المقرئ ابن ظافر : أخبار ٩٩ .

٣ المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٨٤ .

٤ ابن ميسر : أخبار ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٣ ؛ المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ، ٢٢٣ .

٥ نفسه ١٥٣ ؛ نفسه ٣ : ٢٢١ .

٦ الصَّفْدِي : الوافي ١ : ٢٨٢ ؛ ابن شاعر : فوات ٣ : ٢٦٠ .

٧ المقرئ : الخطوط ١ : ٨٢ ، ٩٩ آخر سطر .

كيل المتوفى سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م^١. وفي أيام الوزير الأفضّل شاهنشاه كان الشيخ أبو الفضل المعروف بابن الأشقف هو « كاتب الأفضّل والمؤقّع عنه في الأموال والرجال ومتولّى ديوان المجّلس الأفضلي والنظر في جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة »^٢. كذلك فقد تولّى هذا الديوان أكثر من مرة في زمن الفاطميين والأيوبيين أبو الحسن علي بن عثمان الخزومي صاحب كتاب « المنهاج في علم خراج مصر »^٣.

ديوان التحقيق

في سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م استجدّ الوزير الأفضّل ديواناً سّماه « ديوان التحقيق » مقتضاه المقابلة على الدواوين ، كان لا يتولّاه إلا كاتب خبير ويُلحق بمتولّى النظر^٤. كان أوّل من تولّاه الشيخ وليّ الدولة أبو البركات يُحَنّا بن أبي اللّيث وأُطلق عليه ابن مُيَسّر اسم « ديوان الملكة »^٥، وأُطلق عليه في أحد الوثائق المؤرّخه في رمضان سنة ٥٠٤هـ/مارس سنة ١٠١٥م « ديوان التحقيق الأفضلي السعيد »^٦، وبعد وفاة الشيخ أبي الفضل ابن الأشقف ، متولّى ديوان المجّلس ، في مطلع القرن السادس جُميع لابن أبي اللّيث « ديوان المجّلس » إلى « ديوان التحقيق » وظلّ يليهما إلى أن صرّفه الخليفة الحافظ في سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م « لأشياء نغمها عليه » وسلّم أمر الديوان إلى الشريف معتمد الدولة

١ ساويرس بن المقفع : تاريخ البطارقة ٢/٣ : ٢٢٣ .

٢ نفسه ١/٣ : ٣ ؛ أبو المكارم : تاريخ الكتائب ١ : ٢١ ، ٢٣ ؛ أبو صالح : تاريخ الكتائب ٤٤ ؛ المقرئ : اتعاظ ٣ : ٣٩ .

٣ الخزومي : المنهاج - خ ٤٦ و .

٤ ابن الطوير : نزهة المقلّين ٨١ .

٥ ابن المأمون : أخبار ٥٣ ، ٦٥ ؛ أبو صالح : تاريخ ٦٤ ؛ ابن ميسر : أخبار ٧٧ ، ١٠٨ ، ساويرس : تاريخ ١/٣ :

٦ ٢٦ ؛ المقرئ : الخطوط ١ : ٣٩٩ ، الاتعاظ ٣ : ١٢٦ .

٦ ابن ميسر : أخبار ٩٠ .

Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents in the Cambridge Geniza Collections*, ٧

على بن جعفر بن غَشَّان المعروف بابن العَشَّاف^١، ولكن لم يكد يمضى عامان حتى استخدم الخليفة الحافظ الشيخ الرئيس صنيعة الخلافة أبا زكري بن يحيى المعروف بالأكرم ابن الشيخ السعيد أبي المكارم هبة الله بن مينا المعروف بابن بولس الكاتب النَّصْراني (الأخزم النَّصْراني) في ديوان التحقيق في أيام وزارة بَهْرَم الأَزْمَنِي سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م^٢، وتولَّى بعد ذلك ديوان النَّظَر على جميع الدواوين وظلَّ يتردَّد بينها إلى آخر ربيع الأول سنة ٥٤٢هـ.

وعندما تولَّى رِضْوَان بن وَلَحْشَى الوزارة في سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م، بعد عَزَل بَهْرَم الأَزْمَنِي، «أمر بعدم استخدام النَّصَارَى في الدَّواوين الكبار ولا نَظَارًا ولا مُشَارَفِينَ»^٣، فَعَيَّن القاضي الخطير أبا الحسن على بن سليم بن البَوَّاب والقاضي المرتضى الحَنَّاك بن الطَّرَابُلُسِي على ديواني التحقيق والمَجْلِس وديوان النَّظَر عَوَضًا عن ابن بولس الأخزم النَّصْراني^٤.

وفي أول الأمر كان ديوانا التحقيق والمَجْلِس يُجْمَعَان لشخص واحد كما حَدَّثَ مع الشيخ وَلِيِّ الدولة أبي البركات يُحَنَّا بن أبي اللَّيْث، يُؤكِّد ذلك أن المُنْشُور الذي أصدره الخليفة الأمر بأحكام الله في أعقاب وفاة الوزير الأَفْضَل ابن بدر الجمالي في سَوَال سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م «بإمضاء ما كان الوزير قد قَرَّره وخرجت به توقيعاته قبل قتله وعدم تغيير شيء منه» أمر باعتماده في ديواني التحقيق والمَجْلِس وأن يُخْلَدَ بهما^٥.

ويبدو أن «ديوان المَجْلِس» قد أُلْغِيَ بعد فترة قصيرة من بداية الدولة الأيوبية، فيذكر النَّابُلُسِي عند حديثه عن «ترتيب الدَّواوين بالديار المصرية»: «أن أحوال الدَّواوين

١ أبو صالح : تاريخ الكنائس ٦٤ ؛ ابن ميسر : أخبار ١١٩ ؛ المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٤٨ .

٢ ساويرس : تاريخ ٣١/٣ ؛ أبو المكارم : تاريخ : تاريخ الكنائس والأديرة ١ : ٢ .

٣ نفسه ١٣ : ٣١ وانظر ابن ميسر : أخبار ١٢٨-١٢٩ ؛ المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٦٣ .

٤ نفسه ١/٣ : ٣١ والاتعاظ ٣ : ١٦٥ .

٥ المقرئ : اتعاظ ٣ : ٦٩ .

بالديار المصرية كان على أنحاء مختلفة من زمن المصريين [أى الفاطميين] فكان لهم ديوانٌ يُعرف بـ «ديوان المجلس» وهو النظر فى أموال الزكاة والجوالى بالديار المصرية جميعها مع ما يضاف إليه من ديوان الأبواب، وكان أجلّ رتبة عندهم وكان هو الذى يوقّع بإطلاق جامكيات المستوفين ويكتب على مستحقات المستحقين من أرباب الجامكيات والزواتب فيه، ليس لأحد مع ناظر هذا الديوان حديث، وهو الذى يتولّى إرسال التذاكر إلى الأعمال بطلب ديوان الزكاة والجوالى وحساباتهما ويستخدم فيهما ويصرف، وكذلك ديوان الخراج وديوان الموارث والتطرون والثغور وغير ذلك من الدواوين. ثم تغيّر ذلك على أنحاء مختلفة إلى أن انتهى الحال إلى أن يؤمر المستوفون بعمل أوراق بالأشغال والدواوين»^١.

أما «ديوان التحقيق» فيذكر ابن مَيْسَر صراحةً أنه زال بسقوط الفاطميين إلى أن أعاده الملك الكامل محمد فى سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م واستخدم فيه ابن كَوْجَك اليهودى ثم أبطله نهائياً فى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م، ويضيف ابن مَيْسَر أنه فى أيام الميزْ أَيْتِك التُّركمانى استُخدِم صفى الدّين عبد الله بن على المغربى مستوفياً على مقابلة الدواوين، الذى يُقَدَّ نوعاً من ديوان التحقيق»^٢.

وقد استعاض الأيوبيون عن هذين الديوانين بما أُطلق عليه «مجلس أصحاب الدواوين» الذى كان يجتمع بحضرة السلطان لتسمية ناظر الدواوين. وقد عُقِدَ مَرَّةً فى العاشر من صفر سنة ٥٨٠هـ / ٢٣ مايو سنة ١١٨٤م للمفاضلة بين شخص يُدعى ابن شُكْر وآخر يُدعى ابن عُثْمان. ووقع اختيار المجلس أولاً على ابن عُثْمان ثم صُرف بابن شُكْر الذى سُمِّى فى خامس عشر ربيع الأول من السنة نفسها بـ «ناظر الدواوين». وعُقِدَ المجلس كذلك فى رابع المحرم

^١ النابلسى: لمع القوانين المغنية ٣٦.

^٢ ابن ميسر: أخبار ٧٧-٧٨؛ النوى: نهاية ٢٨: ٢٧٥-٢٧٦؛ المقرئ: اتعاط ٣: ٣٩.

سنة ٥٩٠هـ/ ٣٠ ديسمبر سنة ١١٩٣م بحضرة السلطان العزيز عثمان^١.

الديوان الخاص

والى جانب ديوانى المجلس والتحقيق كان هناك ديوان آخر يُعرف بـ «ديوان الخاص» يشرف على نَقَاط الخليفة والقصر وكان يُجَمَّع دائماً إلى ديوان المجلس فيقال «ديوانى المجلس والخاص السعدين»^٢ أو «ديوان الخاص والمجلس»^٣. وعادةً ما كانت هذه الدواوين تُنسب إلى الخليفة الحاضر كأن يقال «الديوان الخاص الآمرى»^٤ أو «ديوان المجلس الفائزى»^٥ أو «ديوان النظر الحافظى» أو «ديوان المجلس الظافرى السعيد» ، وفى وقت استبداد الوزراء كانت الدواوين تنسب إلى الوزراء مثل «ديوان التحقيق الأفضلى السعيد»^٦.

ديوان الرسائل أو ديوان الإنشاء والمكاتبات

والى جانب الدواوين المالية استمر يؤدي وظيفته طوال العصر الفاطمى دون تغيير يُذكر «ديوان الرسائل» ، وهى التسمية التى كانت تُطلَق على هذا الديوان حتى حل محلها نهائياً ابتداءً من القرن الرابع مصطلح «الإنشاء»^٧. وهو ديوان مشترك فى جميع الأقاليم طوال العصر الإسلامى . ورغم أن ابن الصِّيرْفى المتوفى سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م ،

١ المقرئى : السلوك ١ : ٨٨ ، ١٢٠ ؛ Rabie, H., *op.cit.*, p. 146 .

٢ Stern, S.M., *op.cit.*, p. 36 .

٣ ابن المأمون : أخبار ٦٦ ؛ المقرئى : الخطوط ١ : ٣٩٩ .

٤ نفسه ٣٠ ، ٣١ ؛ نفسه ١ : ٨٤ .

٥ أبو صالح : تاريخ ٥٤ (٤٢ ب) .

٦ Stern, S.M., *op.cit.*, p. 72 .

٧ القلقشندى : صبح ١ : ١٠٣ .

ألف كتاباً اهتم فيه بذكر الشروط التي يجب أن تتوافر في موظفي هذا الديوان وتوضيح تنظيمه الداخلي وسمّاه « القانون في ديوان الرسائل » ، فقد أطلق عليه في مؤلف آخر هو « الإشارة إلى مَنْ نال الوزارة » : « ديوان الإنشاء »^١. وتُطْلَق جميع مصادر العصر الفاطمي التي وَصَلَتْ إلينا على هذا الديوان : « ديوان الإنشاء » وأحياناً « ديوان المكاتبات »^٢.

كان « ديوان الإنشاء الفاطمي » في بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي يتألف من : رئيس الديوان ويقال له « مُتَوَلَّى الديوان »^٣ أو « صاحب الديوان » وكان يُخاطَب بـ « الأجل » ويُلقَّب بـ « كاتب الدُّنْت الشريف »^٤ ؛ و « كاتب » ينوب عن رئيس الديوان في تلخيص ما يرد من الكتب ليسهل على الرئيس عرضها من غير إخلال بها ؛ و « كاتب » ينشئ ما يُكْتَب من المكاتبات هو أجلّ المستخدمين في الديوان ؛ و « كاتب » يتولَّى المكاتب عن الملك (الإمام) إلى الملوك المعاملين - وهو أعظم منزلة من كاتب الإنشاء وأعلى درجة ؛ و « كاتب » يكتب مكاتبات رجال الدولة وكبرائها من الولاة والأجناد والقضاة والكتّاب والمشارفين وإنشاء تقليدات ذوى الخدم الصغار ؛ و « كاتب » يكتب المناشير ونحوها مما لا يُختم والكتب اللطاف والنسخ - وهو أكثر عمل الديوان - يعاونه آخر يكون دونه في المنزلة ؛ و « كاتب » مُبَيِّض برسم الإنشاءات والسجلات والتقليدات ومكاتبات الملوك ؛ و « ناسخ » يتولَّى نسخ الكتب

١ ابن الصيرفي : الإشارة ٨٥ .

٢ على بن خلف : مواد البيان ٧٥-٧٦ ؛ ابن المأمون : أخبار ٢٧ ، ٥٢ ، ١٠٣ ؛ ابن ميسر : أخبار ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٦ ،

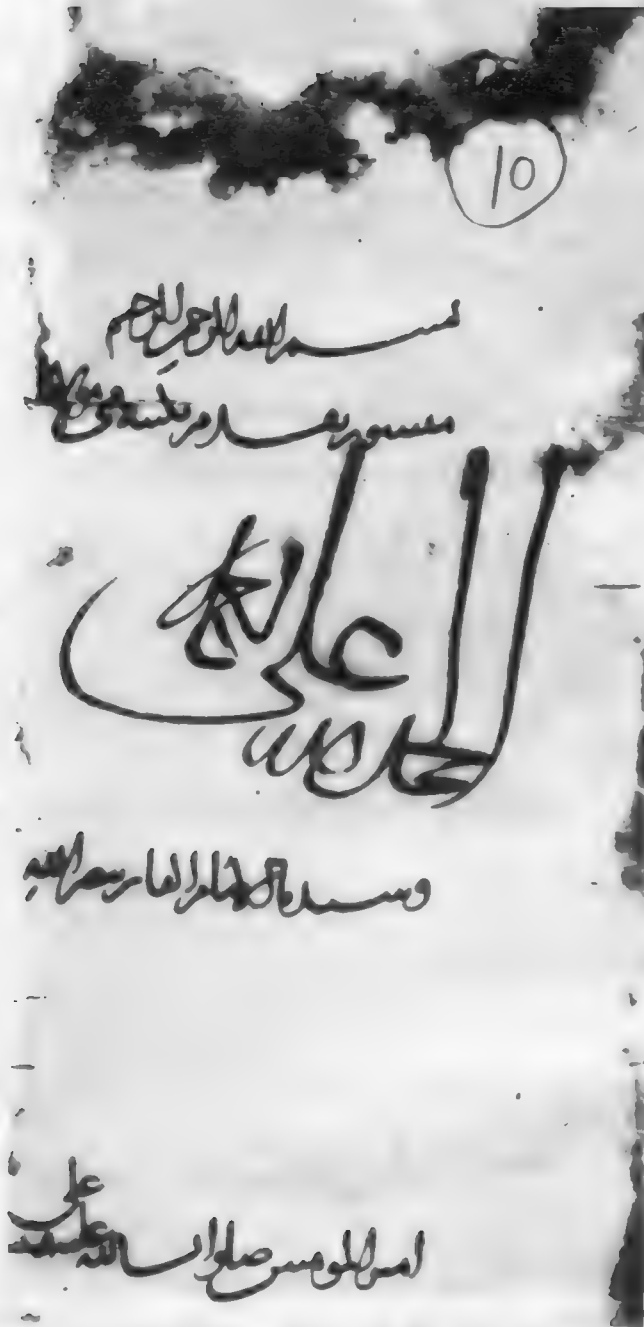
٦٠ ، ٩٠ ؛ القلقشندي : صبح ١ : ٨٩-٩٦ ؛ المقرئ : اتعاظ ٣ : ١٩٤ .

٣ ابن الصيرفي : القانون في ديوان الرسائل ٧ .

٤ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٤ ؛ ابن ميسر : أخبار ١١٢ ؛ القلقشندي : صبح ١ : ١٠٢ ، ١٠٣ ، المقرئ : الخطط



لوحة ١ - منشور موجه إلى رهبان دير سانت كاترين مؤرخ سنة ١١٣٦/٥٣٠ م
وعليه علامة الخليفة الحافظ لدين الله «الحمد لله على آلائه» (Stern, S.M., *Fatimid*)



لوحة ٢ - منشور موجه إلى رهبان دير سانت كاترين مؤرخ سنة ١١٥٦/٥٥١ م عليه

علامة الوزير الصالح طلائع بن زُرَيْك «الحمد لله على نعمه» (Stern, S.M., *op.cit.*, pl.33)

المُوجَّهة للملوك أو المناشير تُسَلَّم إلى الخازن ؛ و « كاتب مُتَصَفِّح » يتَصَفِّح جميع الإنشاءات والتقليدات والمكاتبات وسائر ما يُشَطَّر فيه يكون على منزلة عالية من اللغة والتَّخَوُّ وحفظ كتاب الله [وقد ذكر ابن تيمية أن أبا الحسن طاهر بن أحمد بن بائِشاذ النحوى كان له على الخزنة بمصر فى الشهر ثلاثون دينارًا وغَلَّة على إصلاح ما يخرج من ديوان الإنشاء، وكان لا يخرج منه شيء إلا بعد أن يقف عليه ويصلحه] ؛ و « كاتب » يكتب التَّذَاكِرَ والدَّفَاتِرَ المتضمنة متعلقات الديوان ؛ و « مُتَرْجِم » لنقل الكتب من اللسان الأجنبى إلى اللسان العربى والعكس ؛ و « كاتب » يتولَّى التوقيع عن الملك (الإمام) . ويضاف إلى هؤلاء وظيفتان من غير وظائف الكتاب هما : « الخازن » الذى يتولَّى خَزَنَ نُسخ السَّجَلات والمناشير والتقاليد، كل عنوان مع شبهه، وكذلك الكتب الواردة بعد الإجابة عليها مثبتًا تاريخ ورودها وتاريخ الإجابة عليها ؛ و « الحاجب » الذى لا يُمكن أحدًا من الدخول على صاحب الديوان فيما عدا المستخدمين لعدم الاطلاع على أسرار السلطان الخَفِيَّة .

أما أنواع التَّذَاكِرَ والدَّفَاتِرَ التى كانت تتضمَّن متعلقات الديوان حتى يسهل الرجوع إليها فهى : « دَفْتَر » بألقاب الولاة والمستخدمين والملوك الأبايد والمكاتبين [يجعل لكل خدمة ورقة مفردة فيها اسم متولِّها ولقبه ودعاؤه ومنى مُرِف] ؛ و « دَفْتَر » للحوادث العظيمة ؛ و « تَيْيَان » للتشريفات والخلع ؛ و « فِهْرَس » للكتب الواردة ؛ وآخر للكتب الصادرة يُوضَّح بها تاريخ ورود الكتاب أو صدوره ومضمونه ؛ و « فِهْرِست » للإنشاءات والتقليدات والأمانات والمناشير ؛ و « مُهِمَّات » الأمور التى ربما يُشَال عنها أو يُوجع إليها لتكون موجودة متى احتيج إليها ؛ وأخيرًا « مُهِمَّات » ما تخرج به الأوامر فى الكتب الصادرة لئلا تُغفل ولا يجاب عنها ^٢.

^١ ابن ميسر : أخبار مصر ٤٥ ؛ المقرئى : اتعاظ الخنفا ٢ : ٣١٨ .

^٢ ابن الصيرفى : القانون فى الديوان الرسائل (المقدمة) ٨-١٠ .

* *

وإضافةً إلى هذه الدواوين يوجد عددٌ آخر منها وَرَدَ ذكره على الأخصّ في الإسجلات المثبتة على السّجلات والمناشير المحفوظة في دير سانت كاترين أو في ضيعة أوراق حنيزة القاهرة . فبالإضافة إلى «ديوان الإقطاع» ، و«ديوان الجيش» ، و«ديوان الجهاد (العماير)» ، (الذين ستحدّث عنهم عند حديثنا عن النظام الحربي) ^١ نعرف دواوين مثل : «ديوان الاستيفاء على الصّعدين الأعلى والأدنى وما جُمِعَ إليه» ^٢ ، و«ديوان الاستيفاء على الأعمال القليلة وما جُمِعَ إليه» ^٣ ، و«ديوان الاستيفاء على الثغور المحروسة والطور الشريف وما جُمِعَ إليه» ^٤ ، و«ديوان الاستيفاء على الأعمال الشرقية» ، و«ديوان أشقل الأرض» ^٥ - الذي تولّاه في زمن الأفضّل بن بدر الجمالي الشيخ أبو اليمن وزير بن عبد المسيح ^٦ - و«ديوان الجوامع والمساجد المعمورة بالمعزية القاهرة المحروسة ومصر والموارث الحشرية والأهراء السعيدة» ^٧ الذي كان يتولّاه في سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م القاضي أبو الحسن محمد بن هبة الله بن الحسن ، و«ديوان الإقطاعات المرتجعة والزّباع والاحنة (?) السلطانية وما جُمِعَ إليه» ^٨ الذي يبدو أنه هو نفسه «الديوان المُرَجَّع» الذي تولّاه سنّي الدولة وجلالها ذو الرياستين أبو المنجى سليمان ابن سهّل بن عمران في زمن السيد الأجل الأفضل ربما شاهنشاه أورشوان بن ولحشى ^٩ .

١ فيما يلي ص ٧١٦-٧٢٢ ، ٧٣٨-٧٤٠ .

٢ Stern, S.M., *Fatimid Decrees* p. 37 .

٣ القلقشندي : صبح الأعشى ١٠ : ٤٦٤ .

٤ Stern, S. M., *op.cit.*, pp. 54, 66 .

٥ Ibid., p. 54 .

٦ ساويرس بن المفتح : تاريخ بطارقة الكنيسة ٣/٢ : ٢٤٨ .

٧ Khan, G., *op.cit.*, p. 153 .

٨ Ibid., p. 321; Stern, S.M., *op.cit.*, p. 37 .

٩ القلقشندي : صبح الأعشى ١٠ : ٣٥٧ .

النظام القضائي

كانت السُلطة القضائية واحدة من السُلطات الثلاثة التي اشتمل عليها النظام الفاطمي في مصر. فبوصول الفاطميين إلى مصر أضحت القاهرة، مثلها مثل بغداد وقُوطبة، مركز خلافة بعد أن كانت مصر مجرد ولاية تابعة للخلافة العباسية بها قاضي يُعيّنه الخليفة العباسي السُني، وهكذا عرّفت مصر في العصر الفاطمي منصب « قاضي القضاة »^١.

وحرصًا من القائد الفاتح جوهر الصّقْلبي على عدم خلخلة النظام الإداري في مصر، وهو من أعقد أنظمة البلاد الإسلامية، احتفظ بالموظفين الإخشيديين في مناصبهم ومن بينهم القاضي أبو الطاهر محمد بن أحمد الذّهلي الذي كان قد عيّنه الخليفة العباسي في سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م. ورغم مكانة القاضي الثّعمان بن حَيّون الكبيرة لدى الخلفاء الفاطميين ودوره في التعبير عن المعتقدات الفاطمية وتسجيل تاريخ أئمتهم، فإنه لم يُكلّف رسميًا بالقضاء في مصر وإنما شارك القاضي أبا الطاهر في نظَر بعض القضايا إلى أن توفي سنة ٣٦٣هـ/٧٣م^٢. وبعد ذلك استمر القاضي أبو الطاهر على حاله وجعل له الخليفة المُعزّ على بن الثّعمان معاونًا له وكان يحكم بالجامع العتيق^٣. ولما تولّى العزيز بن المعز الخلافة سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م ردّ أمر دار الضُرب والجامع لعلّى بن الثّعمان، فشارك بذلك أبا الطاهر الذّهلي وجرى التنافس بينهما إلى أن أصابت أبا الطاهر رطوبة عطّلت شِفّه وأعجزته عن الحركة، فقوّض الخليفة الحُكم إلى علّى بن الثّعمان لليلتين خلتا من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة^٤. وهو أوّل من خوطب بـ « قاضي القضاة » بالديار المصرية، كما يقول ابن حجر، لأنه جاء في سِجّله، الذي قرئ بالجامع الأزهر وبالجامع العتيق، أن جميع الأعمال داخلة في ولايته^٥. أما أوّل من

^١ ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١ : ١٤٠ .

^٢ Gottheil, R., «A Distinguished Family of Fatimid Cadis (al-Nuʿman) in the Thenth

المقرّبي : اتماظ ١ : ٢١٥ . Century», JAOS 27 (1906), p. 239

^٣ المقرّبي : اتماظ ١ : ٢٢٥ .

^٤ Gottheil, R. *op.cit.*, p. 240

^٥ Ibid. p. 243

كُتِبَ في سجله « قاضى القضاة » فابنه الحسين بن على بن الثُّعْمان^١.

وقد توارث ستة من أسرة بنى الثُّعْمان منصب القضاء في مصر أكثر من ستين عامًا تخلَّلها بعض الانقطاع^٢.

وجرت العادة أن يُقرأ سِجِلُ تولية قاضى القضاة في الجامع بالقاهرة ومصر وهو قائم على قدميه وكلُّما مرَّ ذكر الخليفة أو أحد من أهله أو مأ بالسجود^٣.

وكان قاضى القضاة، في العصر الفاطمى الأول، هو الذى يُقَيَّن سائر قضاة الأنحاء. ففي ربيع الآخر سنة ٣٨٢هـ/يونية سنة ٩٩٢م خَلَعَ القاضى محمد بن الثُّعْمان على مالِك بن سعيد الفارقى وَقَلَّدَه قضاء القاهرة^٤، فلما خَلَفَ القاضى الحسين بن الثُّعْمان عَمَّهُ محمداً أَقَرَّه على ذلك واستخلف الحسين بن محمد بن طاهر على الحكم بمصر^٥.

ولم يتول أحدٌ من أسرة بنى الثُّعْمان أمر الدُّعْوَة الفاطمية قبل الحسين بن على بن الثُّعْمان الذى كان « أوَّل من أضيفت إليه الدُّعْوَة من قضاة العبيدين »^٦ كما قُوِّض إليه كذلك الحكم بجميع المملكة وكذلك الخطابة والإمامة بالمساجد الجامعة والنظر عليها وعلى غيرها من المساجد، وولَّى أيضًا مُشَارَفَةَ دَار الضُّرْب ودار العِيَار وأمر الجوامع والمساجد وقراءة المجالس بالقصر وكتابتها وذلك فى صفر سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م^٧. والحسين بن على بن الثُّعْمان هو كذلك أوَّل من أفرد لمَوْدِعِ الحُكْم مكانًا معينًا فى رُقَاق

^١ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢١٠ .

^٢ انظر مقال Gottheil المذكور أعلاه فى هامش^١ ص ٣٦٠ .

^٣ Gottheil, R., *op.cit.*, p. 241 .

^٤ المقرئى اتعاظ ١ : ٢٧٥ .

^٥ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠٨ .

^٦ نفسه ١ : ٢٠٩ .

^٧ نفسه ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ١٠ : ٣٨٤-٣٨٨ .

القَنَادِيل بمصر المُشْتَطَاط ، فقد كانت الأموال قبل ذلك تودع عند القضاة أو أمنائهم^١. ووظيفة قاضي القضاة من المناصب العُليا في الدولة الفاطمية كان يتقدّم على داعي الدُّعاة ويتزَيّا بزِيّه وهو من طبقة أرباب العمام^٢. وكان من عاداته الجلوس بالقصر في يومى الاثنين والخميس أوّل النهار عند باب البحر للسلام على الخليفة^٣، ويدو أن هذا التقليد اتبع بانتظام ابتداءً من عصر الخليفة الأمر ففى عهد المستنصر كان الحسن بن محمد اليازورى ينزل إلى جامع عمرو بمصر في يومى : السبت والثلاثاء من كل أسبوع ليجلس في الزيادة منه للحكم على رَشْم من تقدّمه من القضاة^٤.

وقد أراد الخليفة الحاكم أن يَحُول بين القضاة وبين أَخْذ الأموال بغير الحق ، فأمر أن يُصَقَّف للحسين بن على بن الثُّغمان رِزْقُه وصِلاته وإقْطاعاته ، وَشَرَطَ عليه ألاّ يتعرّض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه^٥. وكان دَخَلَ القاضى عبد الحكم بن سعيد الفارقى عشرين ألف دينار في السنة^٦. ويذكر ناصر تُخْشِرُو أن مرتب قاضى القضاة بمصر ، نحو سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م ، بلغ ألفى دينار « حتى لا يطمع القضاة فى أموال الناس أو يظلمونهم »^٧، بينما يذكر ابن الطُّوَيْر أن المستقر لقاضى القضاة ولداعى الدُّعاة مائة دينار فى الشهر من واقع ما سُجِّل فى ديوان الرّواثب^٨. أما ابن مُيَسَّر فيذكر أن جارى الحكم كان أربعين دينارًا فى الشهر^٩ وذلك ، فى أغلب البُظن ، لقضاة النواحي .

^١ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠٩ وقارن ابن ميسر : أخبار ٨٣-٨٤ : المقرئى : اتعاظ ٣ : ٧٢ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة

٢ : ١٥١ .

^٢ ابن الطوير : نزعة ١١٠ .

^٣ نفسه ٢٠٥ ؛ المقرئى : المقفى ٣ : ٣٦٧ ، الاتعاظ ٢ : ١٩٨ .

^٤ المقرئى : المقفى الكبير ٣ : ٣٨٤ .

^٥ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٢٠٨-٢٠٩ .

^٦ نفسه ١ : ٢٠٨ .

^٧ ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٩ .

^٨ ابن الطوير : نزعة المقلتين ٨٤ .

^٩ المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٧٤ .

والوزير الحسن بن علي اليازوري هو أول من تولّى الوزارة مضافاً إلى قضاء القضاة والتقدمة على الدعاة في سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م « ولم يُجَمَّع ذلك لأحد قبله »^١ ونُعت بـ « الناصر للدين غياث المسلمين الوزير الأجل المكرم ، [الأوحد ، المكين] سيّد الرؤساء [الوزراء] ، تاج الأصفياء ، قاضي القضاة ، وداعي الدعاة » إلى أن قضى عليه في المحرم سنة ٤٥٠ هـ/مارس ١٠٥٨ م.^٢

وبعد غُزل الوزير اليازوري في أول سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م دَخَلَت مصر في أزمة إدارية حادة ، فخلال السبعة عشر عاماً التي أعقبت وفاته أُويعِدَ أربعة وخمسون وزيراً واثناً وأربعون قاضياً إلى أن وَصَلَ إلى مصر أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٦٦ هـ/١٠٧٣ م.

وابتداءً من هذا التاريخ طرأ تغيير كبير على وظيفة قاضي القضاة . فقد نُعِمَت بدر الجمالي في أول الأمر بـ « السَّيِّد الأجلّ أمير الجيوش » ثم أضيف إلى ألقابه نجو سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م « كافِل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين »^٣ وجعل القاضي والداعي نائبين عنه . وهكذا أصبح القضاة تُؤاب الوزراء ويُذكرون النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب الأئِمَّة^٤ .

وكان قاضي القضاة طوال العصر الفاطمي يُختار من بين الفقهاء الإسماعيليين ويُشترط عليه أن لا يحكم إلا بمذهب الدولة ؛ فعندما استخلف على بن التُّغمان أخاه محمداً والحسن بن خليل الفقيه الشافعي « شَرَط عليه أن يحكم بمذهب الإسماعيلية لا بمذهب الشافعي »^٥ . وبعد وفاة القاضي أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أمي عقيل

^١ ابن ميسر : أخبار ٥٥ .

^٢ نفسه ٥٥ ؛ المقرئى : اتماظ ٢ : ٢١٢ ، المقفى ٣ : ٣٧٦ ، ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٤ .

^٣ نفسه ٤٥ ، ٥٠ .

^٤ نفسه ١٢٣ ؛ النورى : نهاية ٢٨ : ٣٠١ ؛ القلقشندي : صبح ٣ : ٤٨٢ ، ٤٨٣ ؛ المقرئى : الخطط ١ : ٤٤٠ ،

الانماظ ٣ : ١٥٦ ؛ المقفى ٢ : ٥١٣-٥١٤ .

^٥ Gottheil, R., *op.cit.*, p. 242 .

سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م « قام الناس بلا قاضى ثلاثة أشهر » ، ثم اختير الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله بن الخطيعة المالكي اللخمي « فاشترط أن لا يقضى بمذهب الدولة فلم يُمكن من ذلك » ، فعهد الوزير ابن ولحشى إلى الفقيه أبي محمد عبد المولى اللبني بعقد الأنكيحة فأجاب وبقي الحكم شاغراً^١.

والاستثناء الوحيد لذلك حدث في الفترة التي تولى فيها الوزارة أبو علي الأفضل كتيفات ، عندما سجن الخليفة الحافظ ودعا للإمام المنتظر (ذو القعدة ٥٢٤ - المحرم ٥٢٦هـ) . فقد رتب في الحكم في سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م أربعة قضاة يحكم كل قاض بمذهبه ويورث بمذهبه : قاضى للشافعية هو سلطان بن إبراهيم بن المقيم بن رشا ، وقاضى للمالكية هو أبو عبد الله محمد بن عبد المولى بن محمد بن عبد الله اللبني وقاضى للإسماعيلية هو فخر الأمان أبو الفضائل هبة الله بن عبد الله بن حسن محمد المعروف بابن الأزرق وقاضى للإمامية هو الفضل أبو القاسم بن هبة الله بن عبد الله بن أبي كامل ، وعلق ابن ميسر على ذلك بأنه « لم يُسمع بهذا قط فيما سلف »^٢.

لذلك فقد كان يُعهد أحياناً إلى القاضى بتدريس دار العلم بالقاهرة مثلما حدث مع القاضى هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن الأزرق في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٣٤هـ/١٣ فبراير سنة ١١٤٠م^٣.

وكان مجلس القاضى دائماً يومى : الثلاثاء والسبت بالزيادة البحرية والشرقية لجامع عمرو بالقسطاط ، فإذا أقبل العصر عاد القاضى إلى القاهرة^٤ . وله في مجلسه طراحة

^١ ابن ميسر : أخبار ١٣١ ؛ ابن أبيك : كنز الدرر ٦ : ٥٢٨ ؛ المقرئى : المقفى ١ : ٤٩١ ؛ الانعاظ ٣ : ١٧٢ ؛ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٨٠ .

^٢ نفسه ١١٤ ؛ التويرى : نهاية ٢٦ : ٨٧-٨٨ ؛ المقرئى : انعاظ ٣ : ١٤٢ ، الخطط ٢ : ٣٤٣ ، المقفى ١ : ٣٩٣ ؛ ابن حجر : الإصر ١ : ٢٤٧ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ٢ : ١٦٥ ؛ Allouche, A., «The Establishment of Four Chief Judgeships in Fatimid Egypt», JAOS 105 (1985), pp. 317-320 .

^٣ نفسه ١٣٢ ؛ الانعاظ ٣ : ١٧٣ .

^٤ ابن الطوير : نزهة ١٠٧ ؛ ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٢ ؛ المقرئى : الخطط ٢ : ٢٥٣ ؛ الانعاظ ٢ : ٢٢٤ .

وَمَشْنَدٌ حَرِيرٌ، وَقَدْ اسْتَحْدَثَ هَذَا الرَّسْمُ بَعْدَ أَنْ تَوَلَّى الْقَاضِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَقِيلٍ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ ٥٣١هـ/كُتُوبِ سَنَةِ ١١٣٦م، فَإِنَّهُ لَمَّا دَخَلَ مَجْلِسَ الْقَضَاءِ «وَوَجَدَ الْمُرْتَبَةَ أَمْرًا بِرَفْعِهَا وَجَلَسَ عَلَى طُرَاحَاتِ الشَّامَانِ فَاسْتَمَرَ هَذَا الرَّسْمُ»^١. وَيَجْلِسُ الشُّهُودُ حَوْلَهِ يَمِينَةً وَيَسْرَةً بِحَسَبِ تَارِيخِ عَدَالَتِهِمْ، وَقَدْ بَلَغَ عِدَّةُ الشُّهُودِ فِي أَيَّامِ الْقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ هَبَةِ اللَّهِ بْنِ مُيَسَّرٍ (نَحْوَ سَنَةِ ٥٢٤هـ) مِائَةً وَعِشْرِينَ شَاهِدًا، وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ دُونَ الثَّلَاثِينَ^٢. وَكَانَ يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الْمَجْلِسِ خَمْسَةٌ مِنَ الْحُجَّابِ: اِثْنَانِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَاثْنَانِ عَلَى بَابِ الْمَقْصُورَةِ وَوَاحِدٌ يُنْفِذُ الْخُصُومَ إِلَيْهِ، كَمَا كَانَ لَهُ كَذَلِكَ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُوقَّعِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ اِثْنَانِ يَقَابِلَانِ اِثْنَيْنِ وَلَهُ كُرْسَى الدَّوَاةِ، وَهِيَ دَاوَةٌ مُحَلَّلَةٌ بِالْفُضَّةِ تُحْمَلُ إِلَيْهِ مِنْ خِزَانَتِ الْقُصُورِ، وَلَهَا حَامِلٌ بِجَامِكِيَّةٍ فِي الشَّهْرِ عَلَى الدَّوَلَةِ^٣.

وَكَانَ لِلْقَاضِي بِرَسْمِ رُكُوبِهِ عَلَى الدَّوَامِ بَغْلَةٌ شَهْبَاءُ تَخْرُجُ لَهُ مِنَ الْإِصْطِبَلَاتِ الْخَلِيفِيَّةِ، وَهُوَ بِمَخْصُوصٍ بِهَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْبَغَالِ دُونَ أَرْبَابِ الدَّوَلَةِ. وَكَانَتْ تَأْتِيهِ فِي الْمَوَاسِمِ الْأَطْوَاقُ وَيُخْلَعُ عَلَيْهِ الْخِلْعُ الْمَذْهَبَةُ بِلَا طَبْلٍ وَلَا بَوَاقٍ، إِلَّا إِذَا جُمِعَ لَهُ الْحُكْمُ وَالدَّعْوَةُ، فَإِنْ مِنْ بَيْنِ رُسُومِ الدَّعْوَةِ فِي الْخِلْعِ الطَّبْلُ وَالْبَنُودُ. أَمَّا إِذَا خُلِعَ عَلَيْهِ لِلْحُكْمِ خَاصَّةً فَيَكُونُ حَوْلَهِ الْقُرَاءَةُ رَجَالًا وَالْمُؤَدِّنُونَ يَعلَنُونَ بِذِكْرِ الْخَلِيفَةِ أَوِ الْخَلِيفَةِ وَالْوَزِيرِ، إِنْ كَانَ الْوَزِيرُ صَاحِبَ سَيْفٍ^٤.

وَإِذَا خَصَّرَ قَاضِي الْقَضَاءِ فِي مَجْلِسٍ لَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ أَوْ الْأَقْلَامِ، وَلَا يَحْضُرُ عَقُودُ الْأَنْكِحَةِ أَوْ الْحَتَّائِزِ إِلَّا بِإِذْنٍ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى قِيَامِهِ لِأَحَدٍ وَهُوَ فِي مَجْلِسِ الْحُكْمِ، وَلَا يُعَدَّلُ شَاهِدٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ^٥.

^١ ابن الطوير : نزعة ١٠٧ .

^٢ ابن مسر : أخبار ١٠٧ ؛ المقرئ : الانعاط ٣ : ١١ .

^٣ ابن الطوير : نزعة ١٠٨ .

^٤ ابن الطوير : نزعة ١٠٨ .

^٥ نفسه .

وابتداءً من وزارة أمير الجيوش بدر الجمالي لم يعد يخاطب من يتولى الحكم بـ «قاضي القضاة» لأنه أصبح من نعوت الوزير صاحب الشَّيْف . وكان من أهم أعباء منصبه النظر في عيار دار الضَّرْب لضبط ما يُضْرَب من الدنانير^١. وكان القاضي لا يُصرف إذا وُلِّي إلا بجُنْحَة .

وكان للقاضي مكانٌ متميز في المواكب والاحتفالات فمن ذلك : «ركوب عيد الفِطْرِ» ، و «ركوب عيد التَّخْرِ» . فبعد فراغ الخليفة من الصلاة كان يصعد المنبر للخطبة العيدية وكان القاضي من بين من يَشْرُفون بالوقوف مع الخليفة ويَوقِي معه المنبر لِيُزَرَّر عليه المَزْرَة الحاجزة بينه وبين الناس^٢ ، ويقرأ مدرجاً يكون قد أُخْضِر إليه من ديوان الإنشاء يتضمَّن ثبثاً بمن شَرُف بصعود المنبر الشريف مع الإمام يوم العيد^٣ . كما أنه يرقى المنبر مع الإمام في صلاة الجمعة في رمضان «وفي يده مدخنة لطيفة خَيَّزُرَان يُخْضِرُهَا إليه صاحبُ بيت المال فيها جمرات ، ويجعل فيها نَدَّ مثلث لا يُشَمِّ مثله إلا هناك ، فيتَخَرَّ الذروة التي عليها الغشاء كالقبة جلوس الخليفة للخطابة ويُكْرَّر ذلك ثلاث دفعات» ثم يصحب الإمام ومعه الوزير إلى المنبر حتى يستوى الإمام جالساً فيزَرَّر عليه المَزْرَة ويقف صاحبُ الباب ضابطاً للمنبر إلى أن يخطب الخليفة خطبة الجمعة^٤ .

والقاضي هو الذي يمسك الحزْبَة للخليفة لينحر بها الأضاحي يوم عيد التَّخْرِ في «المتَّخَر» فتكون بيد الخليفة الحربة من رأسها الذي لا سنان فيه ويد القاضي في أصل سنانها ، فيجعل له القاضي في نحر النحيرة فيطعن به الخليفة^٥ .

^١ ابن الطوير : نزعة ١٠٨ ، والمقرئى : الخطط ١ : ١١٠ .

^٢ ابن مسر : أخبار ١٢٣ ، المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٥٦ .

^٣ ابن المأمون : أخبار ٨٧ ، ٨٨ .

^٤ ابن الطوير : نزعة ١٧٤ .

^٥ نفسه ١٨٤ .

وفى عيد غدیر خُتمَ كان من الرسم أن يجلس القاضى والشهود تحت كرسى الدُّعْوة الذى كان يُنصب فى الإيوان الكبير ، وفيه تسع درجات لخطابة الخطيب فى هذا العيد ، فإذا فرغ الخطيب ونزل ؛ صَلَّى قاضى القضاة بالناس ركعتين ^١.

وفى شهر رمضان يُعقد كل ليلة بقاعة الذَّهَب سماءً إلى آخر السادس والعشرين منه ، ولم يكن يُستدعى له قاضى القضاة إلا فى ليالى الجُمُع فقط ؛ توقيرًا له ^٢.

وفى الاحتفال بالموالد الستة كان لقاضى القضاة دورٌ أساسى ؛ فهو أوّل أرباب الرُّشوم فى تفريق الحُلّواء التى تُعمل بدار الفِطْرة احتفالاً بالمولد . وهو الذى يجلس بالجامع الأزهر بعد صلاة ظهر هذا اليوم مقدار قراءة الختمة الكريمة ، ثم يركب ومعه الشهود وداعى الدُّعاة بالبقاء إلى بين القصرين والركن المُخلَق ؛ لنظر الخليفة فى المنظرة المعدّة لذلك ، ويرد عليه الخليفة السلام بواسطة أحد الأستاذين المُحتَكين ^٣.

والقاضى كذلك هو الذى كان يقود موكب الاحتفال بليالى الوقود الأربعة بعد صلاة العصر إلى حيث رَحْبة باب العيد أمام باب الزُّمُرد من القصر ، ويخطب الخطباء ويُسلّم عليه الخليفة مثلما حدث فى الاحتفال بالمولد ، وبعد زيارة قصيرة للوزير يشق القاضى والجماعة القاهرة ، وينزل على باب كل جامع بها ، ويُصَلّى ركعتين ، ثم يخرج من باب زُوَيْلَة ، طالبًا الفُسطاط ، وفى خدمته والى القاهرة ، فيدخل فى طريقه جامع ابن طولون للصلاة ويدخل المُشاهد فى طريقه أيضًا ، ثم يجد والى الفسطاط فى خدمته بعد خروجه من جامع ابن طولون ، ويستمر فى اختراق الشارع الأعظم حتى يصل إلى باب الجامع من جهة الزيادة التى يحكم فيها ، ويُوقَد له التنور الفضة الذى كان معلقًا بها ^٤.

^١ ابن الطوير : نزهة المقتنين ١٨٨ .

^٢ نفسه ٢١٢ .

^٣ نفسه ٢١٨ .

^٤ نفسه ٢٢٠-٢٢١ .

وكانت عملية الإشراف على الأخباس وصيانتها موكولة كذلك إلى القضاة فيذكر محمد بن أسعد الجوزاني أن القضاة بمصر، كانوا إذا بقي لشهر رمضان ثلاثة أيام، طافوا يوماً على المساجد والمشاهد بمصر والقاهرة يبدؤون بجامع المقس ثم القاهرة ثم المشاهد ثم القرافة ثم جامع مصر ثم مشهد الرأس لنظر حُضر ذلك وقناديله وعمارته وما تَشَعَّتْ منه وظل الأمر على ذلك حتى زوال الدولة الفاطمية^١.

النظام الدينى (الدعوة)

لما كانت الدولة الفاطمية قد قامت على أساس تشابكت فيه السياسة مع الدين إلى حد أن كل تنظيم سياسى فى هذه الدولة كان انعكاساً لروح العقيدة الفاطمية نفسها، حتى أصبحت أضدق مثال للدولة الدينية العقائدية (الثيوقراطية) فى الإسلام. فإن «الدعوة» كانت عماد هذه الدولة وأهم ما ميّزها عن الأنظمة الإسلامية الأخرى. وكانت وظيفة داعى الدعوة، كما يقول المقرئى، «من مفردات الدولة الفاطمية»^٢.

ولا تمدنا المصادر بمعلومات كافية عن حقيقة دور «داعى الدعوة» فى مصر الفاطمية. ونحن نعرف، تبعاً للعقيدة الإسماعيلية، أن داعى الدعوة هو أحد دعائم هذه العقيدة وأن مرتبته تلى مباشرة مرتبة الإمام^٣. ولكن كل مصادرنا التى تحدّثنا عن داعى الدعوة فى مصر تعتمد على النص الوحيد المنقول عن ابن الطويز وفيه أن داعى الدعوة «يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزّياً بزّيه فى اللباس وغيره»^٤. وهذا التعريف، الذى

^١ المقرئى : المخطوط ١ : ٤٩١ ، ٢ : ٢٩٥ ؛ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٢٢ .

^٢ المقرئى : المخطوط ١ : ٣٩١ ، وراجع : Ivanow, W., «The Organization of the Fatimid Propaganda» , JBRAS XV (1939), pp. 1-35 .

^٣ Hamdani, A., «Evolution of the Organisational Structure of the Fatimid Dawa» In *Arabian Studies* III (1976), pp. 85-114 .

^٤ ابن الطويز : نزهة ١١٠ .

أورده ابن الطُّوَيْر، يبدو مُخَيَّرًا إذ أن داعي الدُّعاة هو الذي يعقد « مجالس الحِكْمَة » سواء في « المحوّل » بالقصر أو في « الجامع الأزهر » أو في « دار الحِكْمَة » ثم في فترة متأخرة في « دار العِلْم »^١، وهو كذلك الذي يأخذ العهد وينشر الدُّعوة بين المستجيبين وهو الذي كان يكتب ما يُلقَى في « مجالس الحِكْمَة » بعد أن يأخذ عليه علامة الخليفة ويقرؤه على أتباع الدُّعوة على أنه صادر من الخليفة نفسه في كل يوم اثنين وخميس، للرجال على كرسى الدُّعوة بالإيوان الكبير وللنساء بمجلس الداعي ! وكان داعي الدُّعاة يقوم كذلك « بأخذ النُّجوى من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالها لاسيما الصُّعيد، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلاث فيجتمع من ذلك شيء كثير يحمله إلى الخليفة بيده بينه وبينه وأمانته في ذلك مع الله تعالى ». ويضيف ابن الطُّوَيْر أن من بين الإسماعيلية المؤيدين من يحمل ثلاثة وثلاثين دينارًا وثلاثي دينار على حكم النُّجوى وبصحبتهارقة مكتوبة باسمه فيتميز في المحوّل وتعود إليه وعليها خط الخليفة « بارك الله فيك وفي مالك ووليك ودينك » فيُدخِر ذلك ويتفاخر به^٢.

وحَفِظَ لنا المقرئ وثيقة هامة ومطوّلة عن وظيفة داعي الدُّعاة وَوَصَفَ الدُّعوة وترتيبها^٣.

وعلى ذلك فإنه يبدو غريبًا أن يُقدِّم الفاطميون في رُسُومهم قاضى القضاة على داعي الدُّعاة. وقد حَدَّثَ كثيرًا أن جمع قاضى القضاة بين وظيفته ووظيفة داعي الدُّعاة، بينما لم يحدث العكس إطلاقًا. وابتداء من وصول بدر الجمالى إلى الحُكْم جَمَعَ الوزارء بين الوزارة والقضاء والدُّعوة وقيادة الجيش، وإن كان القاضى والدَّاعى نائبين عن الوزير.

^١ القلقشندي : صبح : ١٠ : ٤٣٧ . وانظر Stern, S., «Cairo as the Center of the Isma'ili Movement», *CIHC*, p. 438-441.

^٢ ابن الطوير : نزهة : ١١١ .

^٣ المقرئ : الخطوط : ١ : ٣٩١-٣٩٧ ، مسودة المواظ والاعتبار ٩٥-١١١ : Casanova, p., «La Doctrine secrète des Fatimides d'Egypte» *BIFAO* XVIII (1920), pp. 121-165.

وقرب نهاية عصر الدولة الفاطمية أصبح لقب «هادى دعاة المؤمنين» لقبًا شرفيًا بما أنه كان من بين ألقاب أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيوب رغم أنهما سنّيا المذهب .

ورغم أن مرتبة داعى الدعوة تلى الإمام فى تسلسل مراتب الدعوة الفاطمية ، فإنه يبدو لى أن ذلك كان فى وقت استتار الإمام أو فى الجزر (ج . جزيرة حيث قسّم الفاطميون العالم إلى اثنتى عشرة جزيرة) التى تشرف عليها رئاسة الدعوة الفاطمية . فبظهور الإمام لم تعد الحاجة ماسة إلى وجود داعٍ للدعوة فى وجود الإمام حتى إن أكبر فقهاء الدعوة الإسماعيلية القاضى الثعمان بن حَيّون يُعرّف فى المصادر باسم القاضى وليس الداعى ، كما أن أبناءه الذين عاونوا الدولة الفاطمية فى مصر تولّوا جميعًا القضاء فيما عدا الحسين بن على بن الثعمان الذى جَمَعَ بين الدعوة والقضاء فى سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م^١ . كذلك فإن شهرة داعى الدعوة المؤيد فى الدين الشيرازى ترجع إلى الدور الذى لعبه فى فارس ومعاونته لأبى الحارث أرسلان البساسيرى لإقامة الدعوة الإسماعيلية فى بغداد أكثر من دوره كداعٍ للدعوة ومتولٍّ لدار العلم فى مصر الفاطمية .

وأوّل الوزراء الذين جُمِعَ لهم الوزارة والقضاء والدعوة (قبل عصر الوزراء العسكريين) هو الوزير الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى وذلك فى سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م^٢ ، والذى يعد بحق أهم وزراء الدولة الفاطمية فى عصرها الأول بعد يعقوب ابن كِلْس وعلى بن أحمد الجزّجرائى .

^١ المقرئى : اتعاظ ٢ : ٤٩-٥٠ ؛ ابن حجر : رفع الإصرار ١ : ٢٠٩ وحفظ القلقشندى سجل توليته فى صبح ١٠ :

٣٨٨-٣٨٤ .

^٢ ابن الصيرفى : الإشارة ٧٦ ؛ ابن مسر : أخبار ١١ ؛ المقرئى : اتعاظ ٢ : ١٦٧ ، ٢١٢ ، المتقى ٣ : ٣٧٦ ؛ ابن

حجر : رفع الإصر ١ : ١٩٣ ، ١٩٤ .

وتولَّى أمر الدَّعوة بعد المؤيَّد في الدين أسَرَّ بأعيانها توارثت المنصب أهمها بنو عبد الحقيق كان أولهم وَلِيَّ الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق المتوفى سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م، وبنو عبد القوى الذين كان آخرهم المجلس بن عبد القوى الذى أدركه أسد الدين شيركوه .

ومهما كان الأمر فبفضل «تنظيم الدَّعوة» تمكَّن الفاطميون من بَسْط نفوذهم وسيادتهم على أماكن مترامية من الأراضى الإسلامية : فى السُّند والهند وعُمان واليمن . وقام الدَّعاة بدور ملحوظ فى فرض السيطرة الفاطمية على طرق التجارة البحرية المؤدِّية إلى الهند ، وفى العمل على إثارة القلاقل فى أراضى الخلافة العبَّاسية نفسها . وقد ظلَّ أتباع الدَّعوة ، فى أغلب هذه المناطق ، محتفظين بحماسهم لها ولم يتهاونوا فى ذلك أبداً - كما حَدَثَ فى مصر مركز الخلافة الفاطمية - فحَفِظُوا لنا بذلك جزءاً كبيراً من التراث الإسماعيلى بدأ يرى النور منذ وقت غير بعيد .

الفصل الحادى عشر

الرُسُومُ الفاطميّة

الرُسُوم (مفردها رَسْم) تعنى الاحتفالات الرُسميّة للبلاط سواء استوجب ذلك موكبا أو لا ، كما يُطلَق هذا المصطلح على مجموع تقاليد الاحتفالات ونظام التشريقات (البروتوكول) الذى يُطبَّق فى المجالس أو الاجتماعات^١ أو المواكب ؛ وهو الذى استعِض عنه الآن بلفظ «رَسمى» (احتفال رَسمى) .

وإذا كُنّا لا نعرف الشئ الكثير عن رُسُوم الفاطميين فى الدور الإفريقى ، فإننا نملك فى المقابل معلومات وفيرة عن رجال البلاط وأوصافاً تفصيلية للاحتفالات المركبة ومجالس الخلفاء كما كانت تتم فى العاصمة الفاطمية (القاهرة والفُسطاط) فى النصف الأول للقرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، دون شك فى أعقاب تَشَكُّلٍ وتَطَوُّرٍ بطيء لتقاليد هذه الاحتفالات ورُسُومها منذ انتقال الفاطميين إلى المشرق . ونجد هذه الأوصاف فى الأساس لدى ثلاثة من مؤرّخى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى هم : القَلَقَشَنْدى والمَقْرِيزى وأبو المحاسن ، وهى تستحق ثقتنا الكاملة ؛ لأنها تعتمد على مصادر من الدرجة الأولى ترجع إلى العصر الفاطمى نفسه أو إلى بداية العصر الأيوبى ، وعلى الأخص كتابات كل من ابن المأمون وابن الطُّونَر القَيْسَرانى .

ومشكلةُ أَصُول هذه الرُسُوم ، كما يقول ماريوس كانار Marius Canard ، غامضة فمن المؤكّد أن الفاطميين - منافسى العبّاسيين - قَلَّدوا ونَمَّوا وتَفَوَّقوا على تقاليد الاحتفالات العبّاسية المستمدة من تقاليد الاحتفالات السَّاسانية^٢ . ولا يُستَبَعَد كذلك أن

^١ Sanders, p., EI² art. *Marâsim* VI, pp. 502-503 .

^٢ حول الرسوم والاحتفالات فى البلاط العبّاسى فى القرن الخامس الهجرى راجع ، الصابى : رسوم دار الخلافة ؛ تحقيق ميخائيل غزّاد ، بغداد ١٩٦٤ ؛ Sourdel, D., «Questions de cérémonial^٢ abbaside», REI(1960), pp. 121-148 .

يكون الفاطميون قد أرادوا محاكاة العديد من الاحتفالات البيزنطية لمنافسة أئمة وعظماء بلاط الإمبراطور البيزنطي كما سبق وفعل دون شك القباسيون . ولكن لا يجب أن ننسى مع ذلك أن الفاطميين هم ورثة الفراعنة والبطالمة في مصر عبر العديد من الأنظمة والحكومات المتتالية ؛ لذلك فإننا يجب أن نبحث ، على الأقل فيما يخص الاحتفالات الوطنية ، عن أصل محلي للعديد من خصوصيات هذه الاحتفالات ^١.

وتوصل ماريوس كانار Marius Canard بمقارنة « كتاب الاحتفالات » - *Livre des cérémonies* لقسطنطين السابع بورفيريوجينيت ^٢ مع الأوصاف التي أوردها كل من القلقشندي والمقرئزي إلى وجود شبهة أكيد بين رؤوم القصر وأئمة البلاط وشارات الحكم والمواكب والاستقبالات والأعياد المختلفة لكل من الدولتين في فترة زمنية متقاربة نسبياً ؛ إذ أن الرؤوم البيزنطية في القرنين الثالث والرابع للهجرة / التاسع والعاشر للميلاد ليست إلا استمراراً لحالة سابقة دامت دون تغيير يُذكر حتى عصر الحروب الصليبية ^٣ ، كما أن الرؤوم الفاطمية التي بلغت أوج ازدهارها في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وُجِدَتْ بالفعل منذ بداية الدولة الفاطمية بشكل أبسط مما أصبحت عليه في نهاية الدولة .

وكان أول من اهتم بدراسة رؤوم الفاطميين في مصر المستشرق الروسي انسترونزف Inastrontsev في دراسته « الخروج الاحتفالي للخلفاء الفاطميين » (بالروسية) التي صدرت في سان بطرسبرج سنة ١٩٠٥ م ^٤ . وهذه الدراسة هي أول

^١ Canard, M., «Le cérémonial fatimide et le cérémonial byzantin-Essai de comparaison», *Byzantion* XXI (1951), p. 356 عبد النعم ماجد : « أصل حفلات الفاطميين في مصر » ، صحيفة المعهد المصري للدراسات

الإسلامية في مدريد ٢ (١٩٥٤) ، ٢٥٣-٢٥٧ .

^٢ Constantin VII Porphyrogénète, *Le Livre des Cérémonies*, 1-2, texte établi et traduit par Albert Vogt, Paris 1935-39 .

^٣ Canard, M., *op.cit.*, p. 356 .

^٤ Inastrontsev, K.A., «Toryestvenii Viezd Fatimidiskikh Khalifov» in *Zap. Vost. Otdyel. Imp. Russ. Arkheol. Obshestva*, XVII (St. Petersburg 1905) .

عمل علمي تناول وصف رُسُوم الاحتفالات الفاطمية . وقد نبّه إنسترونزف في هذه الدراسة إلى أهمية مقارنة الاحتفالات الفاطمية بالاحتفالات البيزنطية وطرح فكرة وجود تأثير ممكن لبيزنطة عليها .

وفي سنة ١٩٥١ عَقَدَ المستشرق الفرنسي ماريوس M. Canard كانار هذه المقارنة اعتمادًا على المقرّيزي والقَلَقْشَنْدِي وكتاب «الاحتفالات» لِقُسْطَنْطِين بويرفروجينيت ، وهي دراسة عميقة ومركزة^١، أعقبها في سنة ١٩٥٢ بدراسة عن «ركوب أوّل العام عند الفاطميين» كما وصفه ابن المأمون وابن الطُّوَيْر اعتمادًا على نصوص المقرّيزي والقَلَقْشَنْدِي وأبى المحاسن ودراسة إنسترونزف السابق الإشارة إليها^٢.

وفي العام نفسه أتمَّ المرحوم عبد المنعم ماجد رسالته *Institutions et Cérémonial des Fatimides en Egypte* «نُظُم الفاطميين ورُسُومهم في مصر» التي تقدّم بها إلى جامعة السربون ، ثم نشرها بالعربية في جزأين صدرتا في القاهرة سنتي ١٩٥٣ و ١٩٥٥ م.

وفي سنة ١٩٨٤م تقدّمت بولا ساندرز Paula Sanders برسالة إلى جامعة برنستون Princeton عن «احتفالات بلاط الخلافة الفاطمية في مصر» نشرتها في سنة ١٩٩٤م مع إجراء تعديلات مهمة عليها بعنوان *Paula Sanders, Ritual, Politics, and the City in Fatimid Cairo*, State University of New York Press 1994. وانظر كذلك مقالها Sanders, P. «From Court Ceremony to Urban Language: Ceremonial in Fatimid Cairo and Fustât», in *The Islamic World from Classical to Modern Times (Essays in Honor of Bernard Lewis)*, Princeton, NJ; Darwin Press 1989, pp. 311-321.

^١ انظر هـ: صفحة ٣٧٤ .

^٢ Canard, M., «La Procession du Nouvel An chez les Fatimides», *AIEOX* (1952), pp. 364-395 .

١- القَصْرُ الفَاطِمِي

كان القصر الفاطمي الشرقي الذي وَصَّعَ أساسه القائد جُوْهَر الصُّفْلِي ، يَشْغُلُ نحو خُمْس مساحة القاهرة (سبعين فداناً) ، وهو الأثر الذي صَمَّ بين جنباته روائع الفنون الفاطمية وتبارى الفَنَّانون في زخرفته وتصويره ، وحار المؤرِّخون في وصفه حتى إن منهم من تخاف أن يُتَّهَم بالكذب إذا وَصَفَ ما شاهده فيه أو تَحَدَّثَ عنه . ولم يكن التصميم الأول للقصر يَتَضَمَّنُ نصف الأبهاء والقاعات الفخمة التي وَصَفَهَا عُليوم أَشَقَفَ صور والمقرِيزي والتي تنامت مع الوقت حيث أضاف إليه الخلفاء ، وخاصة المستنصر بالله والآخر بأحكام الله ، قاعات ومناظر جديدة . وهو عبارة عن مجموعة من الأبنية والقصور الصغيرة والقاعات والأواوين والخزائن أُطْلِقَ على مجموعها « القَصْر » أو « القُصُور الزَّاهِرَة » . وللأسف الشديد فإننا نجهل كل شيء عن عمارته حيث زال كل أثر لهذا القصر وحُلَّتْ محله الآن المدارس التي أنشئت في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وحتى خان الخليلي وحتى الجمالية . ولكن بفضل المعلومات التي أَمَدَّنَا بها كلٌّ من المُسَبِّحِي وابن عبد الظَّاهر والمقرِيزي أمكننا إعادة بناء الشكل الخارجي للقصر وتحديد موضع أبوابه الرئيسية^١ . وتركزت في القصر الفاطمي حياة البلاط ومجالس الخليفة ، ومنه كانت تخرج المواكب الاحتفالية [شكل ١] .

القَاعَةُ والإِيوَان

تَمَيَّزَ هذا القصر بوجود قاعة ضخمة وإيوان كبير خُصِّصَا لجلوس الخليفة الجلوس العام حيث كان يوجد « سريرُ الملك » وهو السرير الذهب الذي عمله جواهر الصُّفْلِي عند بناء القصر الكبير^٢ ، وذكر ناصر خسرو^٣ أنه كان يشغل عرض القاعة وعلوه أربعة

^١ Ravaisse, p., *Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire*, MMAFC I, III (1887, 1890);

. Fu'ad Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte jusqu'à l'époque fatimide*, pp. 209-326

^٢ المقرِيزي : الخطط ١ : ٣٨٥ س ٢٣ .

^٣ ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٧ .

أذرع وأنه «مغطى بالذهب من جهاته الثلاثة وعليه صور المصطاد والميدان وغيرهما كما أن عليه كتابة جميلة» لم يحددها. وأضاف صاحب «الذخائر التحف» أن فيه من الذهب الإبريز الخالص مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال وأنه مُرَّصَع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه، وهو ما يتفق مع ما أورده قبل نهاية دولتهم غُليوم أسقف صور Guillaume de Tyr من أن الخليفة العاضد كان «جالسًا على عرش من الذهب مُرَّصَع بالجواهر والأحجار الكريمة»^١، وكان أيضًا مُغَشًى بالقرقوبى^٢.

ويُقدِّم لنا ابن الطُّونُر - قرب نهاية الدولة الفاطمية - من خلال وصفه للجلوس الخليفة في «قاعة الذهب» وللأشبيطة التي كانت تُمدُّ فيها وكذلك للمواكب الاحتفالية، وصفًا دقيقًا لترتيب هذه القاعة ولمواضع أخرى من القصر، مما يعين على تصوُّر الطبوغرافية الداخلية لجزء هام من القصر الفاطمي الكبير.

وتتفق الأوصاف التي يُقدِّمها لنا ابن الطُّونُر، بل تتطابق في كثير من الأحيان، مع الأوصاف التي نعرفها لهذه القاعة والتي أمدَّنا بها على التوالي: المُسَبَّحى وناصرى تُخشرو وابن المأمون وغُليوم أُسقف صور.

كانت «قاعة الذهب» مُصمَّمة على الثَّمَط المعروف بـ«الحيرى والكمين والأزوقة»: «الزَّواق» فيه مجلس الملك وهو «الصُّنْدُر»، و«الكُتَّان» ميمنة وميسرة فيهما من يقرب إلى الخليفة من خواصه^٣. واعتاد الباحثون على القول بأن هذا الطراز من البناء هو عبارة عن إيوان مُصمَّم على شكل حرف الـ T اللاتينى ومدعم بغرفتين ملاصقتين واقعتين على جانبيه القسم الرئيسى للإيوان والممتد إلى الداخل والذي يُطلق

^١ الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف ٢٦٢؛ المقرئى: المخطوط ١: ٣٨٥ م ١٣٥ Schlumberger, G.,
Campagnes du Roi Amaury I^{er} de Jerusalem en Egypte au XII^e siècle, Paris 1906, p. 126.

^٢ المقرئى: المخطوط ١: ٣٨٦ م ١٣.

^٣ المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر (نشرة شارل بلا، بيروت-منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٦-١٩٧٩)
٦:٥. وتصف وثيقة شراء حصّة من بيت مؤرخة سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣ م وجدت في أوراق الجنبيزة قاعته بأنها
«القاعة السفلى ذات المجلس الحيرى ذات الخزانين» (Khan, G., op.cit., p. 69).

عليه «الصُّدْر» (والذى يمثّل ذيل حرف الـ T) وهو الجزء الذى يُؤتَبَر فيه مكان الاجتماع والمعروف بـ «المَجْلِس» ، وانتقل هذا الطَّرَاز المعروف بطراز سامراء إلى عمائر القاهرة من القُسْطَاط^١.

ورغم أن المُسَبَّحى ، فى مطلع القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى ، يُطْلَق لفظ «قَصْر» على هذا الموضع «قصر الذهب»^٢ ، فإنه اعتباراً من ابن المأمون وابن الطُّوَيَر ، فى النصف الأول للقرن السادس الهجرى /الثانى عشر الميلادى ، نجد لفظ «قاعة» هو المستخدم فى التدليل عليه ، وكان الانتقال من أحد «فَوْدَى الكَم» بها إلى «الصُّدْر» حيث يوجد المَجْلِس ، يتم عبر «المَقْطَع» أو «مَقْطَع فَوْدَى الكَم» الذى نعرف من خلال إحدى أوراق جنيزة القاهرة التى أرَختها جويتين Goitein بسنة ٥٨٦هـ /١١٩٠م ، أنه كان باباً مزوداً بمصراع من الخشب المنقوش أو باباً مطويّاً يصل الجزء الرئيسى للإيوان - وهو الصُّدْر - مع كل من فَوْدَى الكَم ، أى الغرفتين الملحقتين^٣ . وهو يشبه الباب الذى كُشِفَ عنه فى مدرسة الناصر محمد بن قلاوون فى موضع قاعة ست الملك ومحفوظ الآن بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة [لوحه ٣] .

ومن خلال وَصْف ابن الطُّوَيَر لهيئة جلوس الخلفاء فى المَجْلِس بقاعة الذهب ، نعرف أن الجزء الرئيسى للقاعة أو «الصُّدْر» حيث يُعَقَد المَجْلِس ، لم يكن من الممكن مشاهدته من الصُّخْن إلا بعد فتح باب المَجْلِس ورفع السُّتُر الموجود عليه بإشارة من «صاحب المَجْلِس» ، ولا يتم ذلك إلا إذا تهيأ جلوس الخليفة على السرير فى صَدْر المَجْلِس^٤ .

^١ Garcin, J. Cl., *Habitat médiéval et histoire urbaine* p. 170

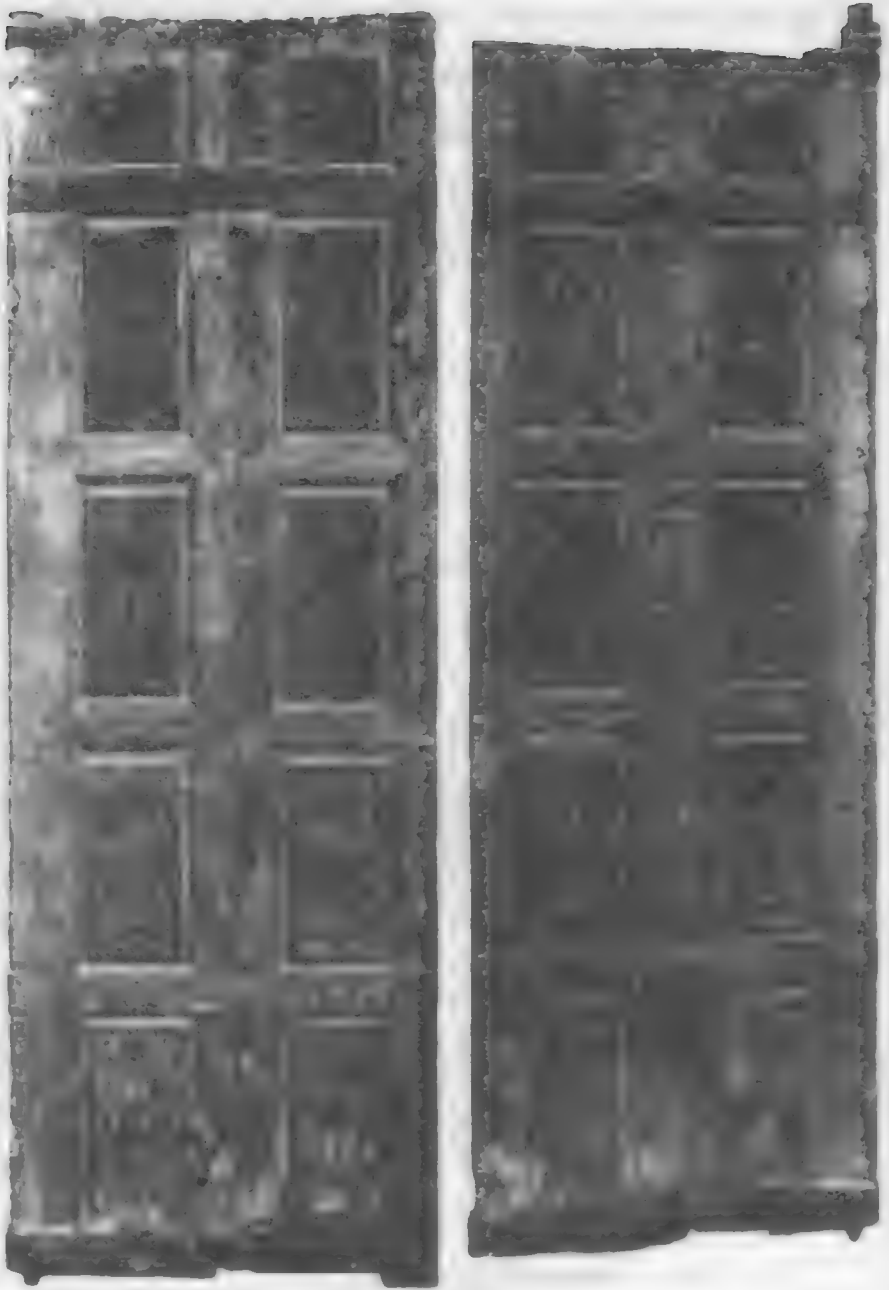
^٢ المسبّحى : أخبار مصر ٢٨ ، ٣٦ .

^٣ ابن الطوير : نزعة المقاتين ٢٠٨ .

^٤ Sayed, H. I., «The Development of the Cairene Qā'a : Some Considerations», *An. Isl.* XXIII

(1987), p. 36

^٥ ابن الطوير : نزعة المقاتين ٢٠٧-٢٠٨ .



لوحة ٣ - أحد الأبواب المستخدمة في القصر الفاطمي وجد في مدرسة

الناصر محمد بن قلاوون (محفوظ في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة)

ونعرف كذلك من وَصَف ابن الطُّونَر لِسِمَاط العيد، الذى كان يُمَدُّ فى هذه القاعة، أن طولها لم يكن يُمْتَقِ القصر عموديًا على باب الدَّهَب - باب القصر المؤدى إلى هذه القاعة - وإنما كان موازيًا لواجهة القصر الغربية فيما بين باب الدَّهَب وباب البحر. فيذكر ابن الطُّونَر أن سِمَاط رمضان كان يُسَطُّ فى طول القاعة مَادًّا من الرُّواق إلى ثلثي القاعة^١، أما بالنسبة لِسِمَاط العيد فقد كان سرير الملك يُنْصَب له قُدَّام باب المَجْلِس فى الرُّواق، وتُنْصَب عليه مائدة من فضة يقال لها «الدُّوْرَة»، ثم يُنْصَب السِّمَاط أمام السرير إلى باب المَجْلِس المقابل له تجاه باب البحر بطول القاعة^٢. وكان يسبق القاعة دِهْلِيزٌ سَمَّاه ابن الطُّونَر وصاحب كتاب «تاريخ بطارقة الكنيسة» «دِهْلِيز العمود»^٣، يبدو أنه رواق ذو أعمدة مما يُعطى انطباعًا بأن القاعة كانت فى غاية الاتساع وأنه كان من الضروري وجود دعائم لرفعها مَكُونَة من عدد من الأعمدة، وهو ما يَتَّفَق مع وصف غُيُوم أنْتَفَ صور كما قلَّه إلى الفرنسية جِستاف شُلُومْبِرْجيه، قول: «Une vaste cour découverte qu'entouraient de magnifiques portiques à colonnades» أى «فناء واسعٌ مكشوفٌ تحيط به أزوَقة ذات أعمدة»^٤. وكانت الدِهَالِيز التى تقود إلى دِهْلِيز العمود وقاعة الدَّهَب جالكة الظلام مما دَفَعَ الوزير العادل بن السُّلار، حين استوحش من الخليفة الظَّافِر، إلى «نَقْل جلوسه من القاعة التى يُدْخَل فى دِهَالِيزها المظلمة إلى الجلوس بالإيوَان فى البَراح والسَّعَة»^٥. وكانت شكوك ابن السُّلار فى مكانها فقد قُتِلَ بعد ذلك الوزير الصَّالِح طَلَّاح بن رُزَيْك فى سنة ١١٦١/هـ - ١١٥٦م «فى باب السُّرْدَاب من الدَّهْلِيز المظلم الذى يُدْخَل منه إلى القاعة»^٦، كما أن الحاكم بأمر الله سَبَقَ وَقَتَلَ خادمه عُطُوف فى سنة ٤٠١/هـ - ١٠١٠م بجماعة من الأتراك وقفوا له فى

^١ ابن الطونر: نزعة المقتلين ٢١٢.

^٢ نفسه ٢١٣.

^٣ نفسه ٢٠٦؛ ساويرس بن المقفع: تاريخ بطارقة الكنيسة ١/٣: ٥٦.

^٤ Schlumberger, G., *op.cit.*, p. 119؛ ولهم الصوري: الحروب الصليبية ٤: ٤٧.

^٥ ابن الطونر: نزعة المقتلين ٥٩.

^٦ المقرئى: اتعاظ الخنقا ٣: ٢٤٦، ٢٤٧؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ٣١٤.

دِهْلِيز القصر واحتزوا رأسه^١. ويتَّفَقُ هذا الوُصف تمامًا مع وَصف غُلُوم أَشَقْفُ صور الذي أطلق عليها «longues et étroites allées voûtées, tout à fait obscures, où l'on ne voyait goutte» أي : «دهاليز طويلة وَضِيْقَة ذات أَقْبِيَة حائِكَة الظلمة لا يستطيع الإنسان أن يتبيَّن فيها شيئًا»^٢. ويضيف غُلُوم أَشَقْفُ صور في وصف القصر «وتبدو في هذا المكان كل مظاهر الأُبْهة الملوكية التي أبدعتها يد الصانع الماهر مما يشير إلى رَوْعة الصنعة»^٣.

كان «دِهْلِيزُ القمود» يقود إلى «مَقْطَع الزارة» حيث توجد المرتبة المختصة بالوزارة وعندها الباب المعروف بـ «باب السُرْداب» والذي جرى الرُّسم بإغلاقه لوزراء السيوف والأقلام، وكان حَتَم القصر يقع خلف هذا الباب^٤.

ويبدو أن أغلب أبواب القصر الفاطمي كانت تفتح على دِهاليز طويلة مظلمة تقود سواء إلى قاعات القصر أو أفنيته المختلفة. وقد أدرك المقرئ، في مطلع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، أحد هذه الدِهاليز يقول وهو يَصِف باب الرِّيح - وهو باب القصر الذي يفتح في واجهته الشمالية المقابلة لدار الوزارة الكبرى (خانقاه بيبس الجاشنكير الآن) - : إنه «كان بابًا مربعًا يُشَلِّك فيه من دِهْلِيز مستطيل مظلم إلى حيث المدرسة السابقة ودار الطَّواشي سابق الدين وقصر أمير سلاح وينتهي إلى ما بين القصرين تجاه حَتَم البَيْسرى» وإنه كان دِهْلِيزًا «عريضًا يتجاوز عرضه فيما أَقْدَر العشرة الأذرع [نحو ستة أمتار] في طول كبير جدًا»^٥ [نحو اثنين وثلاثين مترًا].

ويُضَحِّح كذلك من الأوصاف التي ساقها ابن الطُّونَر وما يُسْتَقْرَأ من نصوص المقرئ، أن القاعات الرئيسية للقصر كانت غالبًا على شكل إيوانات عميقة مفتوحة

^١ المسبحى : نصوص ضائعة ٣٠ ، المقرئى : المخطوط ٢ : ٤ .

^٢ ولیم الصوری : المرجع السابق ٤ : ٤٧ . Schlumberger, G., *op.cit.*, p. 118 ؛ ولیم الصوری : المرجع السابق ٤ : ٤٧ .

^٣ ولیم الصوری : المرجع السابق ٤ : ٤٧ .

^٤ ابن ميسر : أخبار مصر ٨٩ ، ٩٠ .

^٥ المقرئى : المخطوط ١ : ٤٣٤ .

على أفنية أو على أزوقة مستعرضة تطلّ عليها ولم تتخذ بعد شكل القاعات المغلقة . وبذلك فإن طراز القاعات المغطاة لم يظهر في العصر الفاطمي ، فعندما يذكر المقرئ « قاعة سيّ الملك » - إحدى قاعات القصر الفاطمي الصغير - فإنه يقصد بالقاعة الفناء المتوسط والإيوانات الأربعة حوله ، وعلى ذلك فإن الفناء بما حوله يُعدّ بمثابة قاعة واحدة متكاملة ويمثّل الطراز المعروف للقاعات في العصر الفاطمي والذي أُخذَ عنه تصميم المدارس المتعامد Cruciform في العصر المملوكي الأوّل^١.

أما مكان الشرف بقاعة الذهب ، الذي كان يقف به كبار رجال الدولة ، فهو آخر الرواق الذي يُطلق عليه ابن الطوّير « الإفريز العالي عن أرض القاعة » وكان يقف خارج باب المجلس المعروف بمجلس اللقبة بامتداد الرواق ويعلوه سباط على عقود قناطر لتدعيم القاعة^٢. وكان على جانبي « دهليز العمود » عددٌ من المصاطب يُوصّل بعضها ببعض بدكك يُمدّ عليها سباطٌ حُزن عاشوراء^٣.

ولاشك أن دائر قاعة الذهب كان يوجد إفريز من الخشب المحفور bois sculptés تحت سقف القاعة مثل الإفريز الذي اكتشف في مارستان قلاوون ، ويرى الباحثون أنه كان يدور كإفريز تحت سقف قاعة سيّ الملك بالقصر الصغير الغربي [لوحة ٣٣] .

ويُقدّم لنا ابن الطوّير أثناء وصفه لـ « يوم غرض الخيل » استعدادًا لركوب أوّل العام وصفاً لدهليز باب الملك حيث كانت توجد « السّديلا » و « الشباك » الذي يُوصّل إليهما من باب العيد ، أحد أبواب القصر الكبير الذي يفتح في واجهته الشرقية ويطلّ على رَحبة باب العيد والذي كان يخرج منه موكب الخليفة إلى مُصلى العيدين يومى عيد الفطر وعيد النحر . ويدخل منه الوزير وكبار رجال الدولة إلى الفناء

^١ . Fu'ād Sayyid, A., *op.cit.*, pp. 309-310

^٢ ابن الطوير : نزعة القتاتين ٢٠٨ .

^٣ نفسه ٢٢٤ .

الداخلى للقصر الذى كان يتم فيه عَرْضُ الخَيْلِ عبر دِهْلِيزِ باب المَلِكِ^١.

و « السَّهْدِلَا » أو « السَّدَلَى » أو « السَّدَلَا » لفظ فارسى مُعْرَبٌ^٢، ذكر ابن مُنْظُورُ أَنَّ « السَّدَلَى » على فِعْلَى مُعْرَبٌ، وأصله بالفارسية سِيَهْدِلَهْ كَأَنَّهُ ثَلَاثَةُ بَيُوتٍ فى بَيْتٍ كَالْحَيْرَى بِكُثْمَيْنِ^٣. وَتَذَكَّرْنَا ذَلِكَ بِالْعُرَازِ الذِّى يُطَلَّقُ عَلَيْهِ « المَجْلَسُ » والسَّابِقُ الإِشَارَةُ إِلَيْهِ . وقد صَوَّرَ انسترونزف السَّدِلَا الفاطمية بِنَاءً مَغْلُقٍ مِنْ ثَلَاثَةِ جَوَانِبٍ وَمَفْتُوحٍ مِنَ الْجَانِبِ الرَّابِعِ حَيْثُ كَانَ يَوْجَدُ « الشُّبَّاكُ »، وَخَدَّدَ مَوْضِعَهَا عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيبِ فى وَسْطِ الْقَصْرِ بَيْنَ بَابِ الْعِيدِ وَبَابِ الْبَحْرِ^٤.

أما « الشُّبَّاكُ » فَأَشْبَهَ بِمَقْصُورَةٍ عَلَيْهَا مِنْ ظَاهِرِهَا سِتْرٌ يَرْفَعُهُ اثْنَانِ مِنَ الْأَسْتَاذِينَ الْمُخْتَصِّينَ (زَمَامُ الْقَصْرِ وَصَاحِبُ بَيْتِ الْمَالِ) مَتَى حَضَرَ الْوَزِيرَ وَجَلَسَ عَلَى الْكَرْسَى الْكَبِيرِ الْحَدِيدِ الْمَوْجُودِ تَحْتَ الشُّبَّاكِ ، وَفُورَ رَفْعِهَا يُرَى الْخَلِيفَةُ جَالِسًا فى الْمَرْتَبَةِ الْهَائِلَةِ بِهِ^٥.

وَيُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ الطُّوْنِزِ أَنَّ بَابَ الْعِيدِ كَانَ يُوَدِّى إِلَى الشُّبَّاكِ عَنْ طَرِيقِ الدَّهَالِيزِ الطَّوَالِ ، وَأَنَّ « السَّهْدِلَا » كَانَتْ بِدِهْلِيزِ بَابِ الْمَلِكِ الذِّى فِيهِ الشُّبَّاكُ^٦. كَذَلِكَ فَتَبَعًا لَمَّا أَوْرَدَهُ ابْنُ الطُّوْنِزِ كَانَ يَوْجَدُ شُبَّاكًا آخَرَ بِالْإِيْوَانِ الْكَبِيرِ يَجْلِسُ فِيهِ الْخَلِيفَةُ^٧ أَوْ أَنَّهُمَا شُبَّاكٌ وَاحِدٌ يَقَعُ بَيْنَ الْإِيْوَانِ وَالسَّهْدِلَا .

ولم يكن الجلوسُ بالشُّبَّاكِ مِنْ مَفْرَدَاتِ الرُّسُومِ الْفَاطِمِيَّةِ ، فَقَدْ كَانَ بِقَصْرِ الْخِلَافَةِ فى بَغْدَادِ فى نَفْسِ الْفَتْرَةِ « شُبَّاكٌ » كَانَ مِنْ بَيْنِ مَا أَخْرَجَهُ الْبَسَاسِيرَى مِنْ قَصْرِ الْخِلَافَةِ

^١ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٥٧ ، ١٥٤ .

^٢ الجوالقى : المغرب من الكلام الأصمى ٢٣٥ .

^٣ ابن منظور : لسان العرب ١٣٠ : ٣٥٥ .

^٤ Canard, M., *op.cit.*, pp. 376-77 وانظر ابن المأمون : أخبار مصر ٨٢ .

^٥ ابن الطوير : نزعة المقتلين ١٥٤ .

^٦ نفسه ٥٤ ، ١٥٤ .

^٧ نفسه ٣٤ ، ٥٩ ، ٢١٣ .

وأرسله إلى القاهرة لإتّان حركته في بغداد سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، وهو شُبّاك من ذهب « كان يجلس فيه [الخليفة القائم بأمر الله] ويتكىء عليه »^١. فلما شَيد الأفضَل بن بدر الجمالي دار الوزارة الكبرى جَعَلَ هذا الشُبّاك بها يجلس فيه الوزير ويتكىء عليه^٢.

أما « الإيوان الكبير » فقد بناه العزيز بالله بالقصر الكبير سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م^٣، كان يُتَوَصَّل إليه من باب العيد وكذلك من دِهْلِيز باب الدُّيْلَم، وكان به الشُبّاك الذي يجلس فيه الخليفة ويتكىء عليه وقت قراءة السَّجَلات بالإيوان^٤. وبهذا الإيوان كان جلوسُ الخلفاء الجلوس العام بمجلس المَلِك قبل انتقال الجلوس نهائيًّا إلى قاعة الدَّهَب في أحد يومي الاثنين أو الخميس في زمن الخليفة الآمر^٥، باستثناء الفترة التي تَوَلَّى فيها العادل بن الشَّار الوزارة للخليفة الظَّافِر حيث أعاد الجلوس إلى الإيوان بعد أن استوحش من الخليفة^٦. ويُفهم من نصِّ المُسَبِّحِي أنه كان بالإيوان صَخْرٌ يجتمع به الناس لثَقْرَأ عليهم فيه السَّجَلات الصادرة عن الخليفة^٧، كما كان يُمَدُّ فيه سِمَاطُ الفِطْرَةِ^٨، فقد كانت الفِطْرَةُ تُعْمَل به وتُفَرَّق منه إلى أن عُجِلَتْ لها دارٌ خاصة استقطعها الوزير المأمون البطَّائِحِي من إسْطَبْل الطَّارِمَةِ^٩، كما كان يُعْمَل به الاجتماع والخطبة يوم عيد الغدير^{١٠}.

و « الإيوان » لغةً هو البيت المُزَوَّج ؛ أي المرتفع البناء غير المسدود الوجه ، أي أنه قاعة مسقوفة بقبوة مفتوح مُقَدَّمها على بَهِو بعقد مُقَوَّس نصف دائري أو مُدَبَّب أو منفرخ أو

^١ الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ١٩٦ .

^٢ المقرئى : الخطوط ١ : ٤٣٩ .

^٣ نفسه ١ : ٣٨٨ .

^٤ ابن الطوير : نزهة المقتنين ٣٤ .

^٥ نفسه ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

^٦ نفسه ٥٩ .

^٧ المسبَّحى : أخبار مصر ٤ ، ٢٤ .

^٨ المقرئى : الخطوط ١ : ٣٨٨ .

^٩ نفسه ١ : ٤٢٦ .

^{١٠} نفسه ١ : ٣٨٨ .

منبعج مغلق مؤخرها بجدار . وانتقلت فكرة بناء الأواوين من فارس إلى العمارة الإسلامية فى العراق واستخدمت أول ما استخدمت فى عمارة القصور ، ثم أُدخِلَت فى الأبنية الدينية منذ منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وشاعت فى بيوت الصلاة بعد كثرة المساجد الجامعة فى المدينة الواحدة مما أدى إلى تصغير مساحات بيوت الصلاة تبعًا لذلك ، وأصبحت بعد ذلك طرازًا شائعًا فى بناء المدارس ذات التخطيط المتعامد^١.

وللأسف فإننا لا نملك وصفًا لشكل الإيوان الكبير بالقصر الفاطمى سوى الوصف الذى حفِظَه لنا المقرئى ، والذى يُفهم منه أنه كان « بصدر هذا الإيوان الشباك الذى فيه القبة ، كان يجلس فيه الخليفة » وأضاف المقرئى أن هذه القبة ظلت باقية إلى أن هدمت سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م^٢.

الخزائن

لم يكن القصر الفاطمى فقط مجموعة قاعات استقبال ومواقع لسكن الخليفة وحرمة ، ولكن كان يشتمل كذلك على قاعة يجتمع فيها الإسماعيليون للاستماع إلى « مجالس الحكمة » التى يُلقبها داعى الدعاة تُعرف بـ « المحوّل »^٣ . إضافة إلى ذلك كانت توجد بالقصر « الخزائن » المختلفة مثل : خزانة الكتب ، وخزانة البثود ، وخزائن السلاح ، وخزائن الدُرُق ، وخزائن الشروج ، وخزانة القرش ، وخزانة الكشوات ، وخزانة الأدم ، وخزائن الشراب ، وخزانة الثوابل ، وخزانة الخيم ، وخزائن دار أفتكين ، وخزانة الجوهر

^١ أحمد فكرى : خصائص عمارة القاهرة فى العصر الأيوبي ١٦٨-١٧٢ ومساجد القاهرة ومدارسها ٢ : ٨٨ -

٨٩.

^٢ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ١٢٧ ؛ المقرئى : مسودة المراعظ والاعتبار ٦٩ ، ٨٢ .

^٣ المقرئى : مسودة المراعظ والاعتبار ٨١ ، وفيما يلى ص ٥٧٦ .

والطَّيِّب . كان الخليفة يمضى لزيارة هذه الخزائن ويتفقدُها جميعًا طوال العام ، وله فى كل خِزَانَةٍ دِكَّةٌ عليها طَرَاخَةٌ مخصصة له ، وكان لكل خِزَانَةٍ فَرَّاشٌ يتولَّى خدمتها وتنظيفها طوال العام وله راتب شهرى ^١.

٢- شَارَاتُ الْخِلَافَةِ

كان الخليفة الفاطمى يرأس المجالس والاحتفالات الرسمية للبلاط داخل القصر ، سواء فى « الإيوان الكبير » أو فى « قاعة الذهب » ، جالسًا على سرير الملك محاطًا بشارات الخلافة محجوبًا بسِتْرٍ يُكشَف عنه عند اكتمال الحضور وبدء المجلس . يقول ابن خلدون : « إن للسلطان شارات وأحوالًا تقتضيها الأبهة والبَذَخُ فيختصُّ بها ويتميِّز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء فى دولته » ^٢. وحدَّد القلقشندى هذه الشارات التى سَمَّاها « شِعَارُ الْخِلَافَةِ » فى : الخاتم ، والبُرْدَة ، والقضيب ، وثياب الخلافة ، واللون فى الأعلام ^٣ ، وترجع أغلب هذه الشارات إلى عهد النبى ﷺ ، ويمكن أن نضيف إليها أيضًا الدُّعَاء فى الخطبة والطَّرَاز وضَرْب السُّكَّة . وما يذكره القلقشندى يَصْدُق على الخلافة العبَّاسية أكثر مما يَصْدُق على الخلافة الفاطمية ، فقد استعاض الفاطميون عن ذلك بما أَطْلَق عليه ابن الطُّوَيْر « آلات الموكب » أو « الآلات الموكبية » ^٤ ، والتى سَمَّاها القلقشندى « الآلات الموكبية المختصة بالمواكب العظام » ، وترجع جميعها إلى العصر الفاطمى المتأخِّر ، أى فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، وهذه الآلات هى : النَّاج ، وقَضِيبُ الْمَلِك ، والسَّيْفُ الْخَاص ، والدَّوَاة ، والرُّمَح ، والدَّرَقَة ، والحَافِر ،

^١ المقرئى : مسودة المواظ ١٣٨-١٦٩ ، الخطط ١ : ٤٠٨-٤٢٥ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٤٧١-٤٧٤ ؛

زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ٢٦-٨٢ .

^٢ ابن خلدون : المقدمة ٦٩٦ .

^٣ القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٢٦٩-٢٧١ .

^٤ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٤٧ ، ١٩٧ .

والمِظْلَةُ، والأعلام، والمِذْبُتَان، والسِّلاح، والعَمَارِيات، والنَّقَارَات، والحِيَام
والْفَسَاطِيط^١.

ومع ذلك فليس من الصعب من خلال الروايات الفاطمية المبكرة، وعلى الأخص
عند المُسَبِّحِي، أن نوجد تسلسلاً تاريخياً يُعَوِّلُ عليه عن الشَّارات في الفترة الفاطمية
الأولى، والذي يَتَضَيِّحُ منه أن هذه الشَّارات لم تظهر مجتمعة في أى احتفال أو مجلس.

فـ «التَّاج» الفاطمي لم يكن تاجاً بمعنى الكلمة وإنما «عمامة» تُلَفُّ بأشكال متميزة
على قُلْنَشُوءٍ، والطريقة التي تُلَفُّ بها تختلف تبعاً للمادة المصنوعة منها، يدل على ذلك
المفردات المستخدمة في الدلالة عليها^٢، ويشار إليها في العصر المتأخر باسم «التاج
الشريف» أو «شَدَّةُ الوِقَار»^٣، وذكر ابن المأمون أن «شَدَّةُ الوِقَار» هي المنديل بالشَدَّةِ
العربية التي ينفرد الخليفة بلباسها في الأعياد والمواسم خاصة لا على الدوام، وكانت
تُرَضَّعُ بغالى البياقوت والزمرد والجوهر، وعندما تكون على رأس الخليفة تخفق لها الأعلام
ويَتَجَنَّبُ الكلام ويُهَابُ. وكان يلفها على قُلْنَشُوءٍ موظف مختص يعرف بـ «شاد التاج
الشريف» شَدَّةُ ذات شكل منفوخ ذى استطالة يزينها في وسطها الجوهرة المعروفة
بالبَيْتِيَّة^٤.

و«المِظْلَةُ»^٥ كانت أيضاً من شارات الخلافة، وكانت هي و«العِمَامَةُ» أهم هذه
الشَّارات في الفترة الفاطمية المبكرة، وكانت تستخدم عن الأخص عند ركوب الخليفة

^١ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٤٦٨-٤٧١؛ Sanders, p., *Ritual, Politics, and the City in Fatimid*؛ Cairo, pp. 23-32; Canard, M., *Le cérémonial fatimite*, pp. 387-393.

^٢ المسبَّحِي: أخبار مصر ١٤٧.

^٣ ابن المأمون: أخبار مصر ٤١، ٧٥، ٧٩؛ ابن الطوير: نزعة المقتلين ١٥٥، ١٥٦؛ المقرئ: مسودة المواظ
والاعتبار ١٧٨، ١٩٧، ١٩٨؛ Canard, M., *op.cit.*, pp. 390-92.

^٤ نفسه ٤١، ٧٥.

^٥ نفسه ٤١، ٧٥؛ المقرئ: مسودة المواظ والاعتبار ١٩٧-١٩٨.

لصلاة الجمعة في رمضان^١، فيذكر المُسَبِّحِي أن الخليفة الظاهر عندما ركب لصلاة الجمعة في الجامع الأزهر في الثاني من رمضان سنة ٤١٥هـ/نوفمبر سنة ١٠٢٤م «ركب بين يديه سائر عبيده وخواص دولته وعليه طَيْلَسَانٌ شَرَبٌ مُقَوِّطٌ، وعلى رأسه عمامة قَصَبٌ بياض مذهبة، وعليه ثيابٌ دَيِّقِي بياض، والمِظْلَةُ دَيِّقِي مُدْهَبَةٌ في ذهابه. فلما عاد كان على رأسه مِظْلَةُ دَيِّقِي بياض مُجَوِّمَةٌ مُدْهَبَةٌ» وأضاف المُسَبِّحِي - الذي حَضَرَ هذا الاحتفال - «ومشينا بين يديه في ذهابه وعوده على رسومنا مع كافة الشيوخ»^٢.

وفي الجمعة الثالثة من رمضان من نفس العام ركب الخليفة الظاهر للصلاة بالجامع الأتوز خارج باب القُتُوح القديم، وعليه رداءٌ بياض مُحَشَّى قَصَبًا، وثيابٌ بياض دَيِّقِي وثوبٌ مُضَمَّتْ أبيض وعمامة بياض مذهبة وفي يده القضيبيّ الجواهر - وهو أحد شارات الخلافة الجديدة - وعلى رأسه المِظْلَةُ المُدْرِيَّةُ بالحُمْرَةِ في ذهابه، والمِظْلَةُ المُدْرِيَّةُ بالذَّهَبِ في عَوْدِهِ^٣.

وعندما ركب لصلاة عيد الفِطْرِ في نفس العام، كان عليه ثوبٌ شمعي خَزٌّ، وعمامة شمعي قصب مذهبة، وفي يده القضيبيّ، وعليه في هذه المرة السَّيْفُ ومعه الرُّمَحُ على الرُّسْمِ، وعلى رأسه المِظْلَةُ المذهبة المُنْقَلِ^٤.

وشاهد ناصر نُحْشِرُو أثناء زيارته للقاهرة سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م الاحتفال بِقُتْنَحِ الخَلِيجِ وَوَصَفَ هيئة الخليفة في هذا اليوم [وهو الخليفة المستنصر] بأنه: «شابٌ كامل الجسم طاهر الصورة... كان حليق شعر الرأس، يركب على بَغْلٍ ليس في سَرَجِهِ أو لجامه

^١ المسبّحي: أخبار مصر ١٤٨؛ ابن الطوير: نزعة المقلتين ١٥٧؛ وفيما يلي ص ٤٣٧.

^٢ نفسه ٦٢.

^٣ نفسه ٦٤.

^٤ نفسه ٦٦.

جِلْبِيَّة ، فليس عليه ذهبٌ أو فضة . وقد ارتدى قميصًا أبيض عليه فوطة فضفاضة ، كالتى تُلبَس فى بلاد المغرب والتى تسمى فى بلاد العجم دُرَاعَة ، وقيل إن اسم هذا القميص « الدِّيقي » ، وإنه يساوى عشرة آلاف دينار ، وكان على رأسه عمامة من لونه ويمسك بيده سوطًا ثمينًا ، وأمامه ثلاثمائة راجل دَيْلَمى عليهم ثياب رومية مذهبة وقد حزموا خصورهم ، وأكمامهم واسعة كما يلبس رجال مصر . ومعهم النُّشاب والسهم وقد عصبوا سيقانهم ^١ .

ويُتَّفَق هذا مع مذكره ابن الطُّويز فى نهاية عصر الدولة عند حديثه عن المِظْلَّة وأنه « كان من شرطها عندهم أن تكون على لون الثياب التى يلبسها فى الموكب » ^٢ .

وكان الخلفاء الفاطميون يرتدون لكل احتفال « ثيابًا خاصة » به كانت تُصنَّع فى دار الطُّراز وتُحَفَّظ فى خِزانة الكُشُوَّة ، كما كانت تُصنَّع بدار الطُّراز أيضًا ملابس تُوفَّر لحواشيهم فى هذه الاحتفالات ، وكذلك الخَلِيع والتَّشْرِيفات التى كان يمنحها الخليفة فى المناسبات المختلفة ^٣ . كان شعار الفاطميين ولونهم هو « البياض » وكانت ثياب الخليفة تُصنَّع عادةً من نوع مميز من الحرير يسمى « دِيقي » نسبة إلى مدينة دِيقي بمصر الشَّغْلَى ^٤ . والمصطلح الأكثر استخدامًا فى المصادر للإشارة إلى ثياب الخلفاء الفاطميين هو « البَدْلَة » التى تعنى طاقمًا مكونًا من أحد عشر قطعة تسمى « البَدْلَة الموكبية » ^٥ . وفى شهر رمضان ومناسبة عيدى الفِطْرِ والأَضْحى كان الخلفاء

^١ ناصر خسرو : سفر نامه ٩٦ .

^٢ ابن الطويز : نزعة المقلتين ١٥٧ وانظر وصف المِظْلَّة فيما بلى ص ٤٢٤-٤٢٥ .

^٣ ابن المأمون : أخبار مصر ٤٨-٥٤ ؛ المقرئى : مسودة المواعظ والاعتبار ٢١٨-٢٢٩ .

^٤ الدِّيقي نوع من الأقمشة المزركشة المشوة بخيوط الحرير والذهب ؛ ينسب إلى مدينة ديق ، بلدة من أعمال دمياط واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تَبَّيس ، وقد اندثرت ويعرف مكانها اليوم بتل ديقو بمركز فاقوس بمديرية الشرقية على بعد ٥٥٠٠ مترًا من صان الحجر . (محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ١ : ٢٤٣ ، Wiet, G.)

^٥ (EI² art. Dabik II, p. 74) .

^٥ ابن الطويز : نزعة المقلتين ١٥٦ ، ١٥٧ .

يُفَضَّلُونَ ارتداء « الطِّلْسَان » زِيَّ الْفَقْهَاءِ وَالْقُضَاةِ أَوْ « اللَّبَاسِ الْخَاصِ الْجُمُعِيِّ »^١.

ويشير ابن الطُّونَرِ إلى أن الخليفة كان يرتدى فى الاحتفال بركوب قَتَحِ الْخَلِيجِ ثَوْبًا يُقَالُ لَهُ « الْبَدَنَةُ » كله ذهب وحرير مرقوم والمِطْلَةُ من شكله، وأنه لَا يَلْبَسُ هَذَا الثَّوْبَ فِي غير هذا اليوم^٢. وأضاف المقرئى أنه كَانَ يُصْنَعُ بِطَرَاذِ ثِيَابٍ لَا يَدْخُلُ فِيهِ مِنَ الْغَزَلِ سَدَاءٌ وَلَحْمَةٌ غير أَوْقِيتَيْنِ وَيَنْسَجُ بِالذَّهَبِ بِصَنَاعَةِ مُحْكَمَةٍ لَا تُخَوِّجُ إِلَى تَفْصِيلٍ وَلَا خِيَاطَةٍ، تَبْلُغُ قِيَمَتَهُ أَلْفَ دِينَارٍ^٣.

٣- بَلَاطُ الْقَصْرِ

أَنْشَأَ الْفَاطِمِيُّونَ فِي مِصْرَ لِأَوَّلَ مَرَّةٍ قَصْرًا خِلَافِيًّا وَأَوْجَدُوا بَلَاطًا لِلْخُلَفَاءِ، لَمْ يَكْتَفِ فَقَطْ بِمَنَافَسَةِ بَلَاطِ خُلَفَاءِ بَغْدَادَ وَأَبَاطُورَةَ بِيْزَنْطَةِ، بَلْ تَفَوَّقَ عَلَيْهِمَا بِمِظَاهِرِ الثَّرَفِ وَالْبَدَخِ وَالْأُتْبَهَةِ الَّتِي اسْتَغْلَ الْفَاطِمِيُّونَ فِي إِضْفَائِهَا عَلَيْهِ كُلِّ إِمْكَانَاتِ مِصْرَ الْحَضَارِيَّةِ وَمَا تَمَيَّزَ بِهِ مَذْهَبُهُمُ الْعَقَائِدِي الْخَاصَّ.

وَتَوَلَّى الْقِيَامَ بِأَعْمَالِ الْبَلَاطِ الْفَاطِمِيُّ مَجْمُوعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْمُؤَدِّينَ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ وَمِنْ دِيَانَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَبَيْنَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ النِّسَاءِ، وَفِرْقَةٌ مِنَ الْعَبِيدِ الْبَيْضِ وَالسُّودِ عَلَى السَّوَاءِ فِيهِمْ خِصْيَانٌ أَغْلَبُهُمْ مِنَ الصَّقَالِيَّةِ^٤.

كَانَ أَقْرَبُ هَؤُلَاءِ إِلَى الْخُلَفَاءِ الطَّائِفَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِـ « الْأَسْتَازِينَ الْمُحْتَكِينَ » وَهُمْ الْمُطْلَعُونَ عَلَى أَسْرَارِ الْخَلِيفَةِ، وَيُطْلَقُ عَلَيْهِمْ أحيانًا « خَوَاشِي الْخَلِيفَةِ ». وَكَانَ الْخُلَفَاءُ يَأْتِنْسُونَ

^١ ابن الطونر : نزعة المقلتين ١٠٣ .

^٢ نفسه ١٩٨ .

^٣ المقرئى : الخطوط ١ : ١٧٧ .

^٤ ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ١٠-١٢ ، ٢٨ .

بهم ، وكانوا يؤدّون خدماً لا يمكن أن يقوم بها غيرهم ^١ . وعرفوا بـ « المحْكُكين » ؛ لأنهم كانوا يَدُورون عمائمهم على أحنأكهم ، وعددهم يزيد على ألف . وكان من طريقتهم أنه من تَرشَّح أستاذاً منهم للحنك وحنك ، حَمَلَ إليه كل أستاذ من المحْكُكين بَذْلَةً كاملة من ثيابه وسيفاً وفرساً فيصبح لاحقاً بهم وفي يده مثل ما في أيديهم ^٢ . وكان من بينهم كذلك من يُلقَّبون بـ « الأمراء » ^٣ . والدليل على مكانتهم الكبيرة أن الوزير الأفضَل عندما استقل بالأمر عقب وفاة الإمام المستعلى وتوليت ابنه الأمر وهو طفل وانتقال الأفضَل إلى دار الملك التي بناها بالفُسطاط ، تَرَكَ الأمر في القصر بالقاهرة في كفالة قوم من أعيان الأستاذين المحْكُكين وجدته لأمه ^٤ .

ومن بين وظائف البلاط الهامة التي تَوَلَّاهَا « الأستاذون المحْكُكون » تسعة وظائف تُمثِّل كبار حواشي الخليفة ، هي :

« زمام القصور (القصر) » ، أو « متولَّى القصر » ، وهو المشرف على شئون القصر ، وكان يُلقَّب في القرن السادس الهجري بـ « تاج الدولة » وبـ « الأمير الثقة » ^٥ . وكان ذا وجهة وكلمة مسموعة ، فعندما كبر الخليفة الأمر وقَصَدَ مصاهرة الوزير الأفضَل استدعى زمام القصور واستشاره في الأمر ، فأشار عليه بأن أحداً من آباءه لم يَكُتِب عليه صداقاً ^٦ .

^١ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٨٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ؛ المقرئى : مسودة المواعظ والاعتبار ٧٤ ، ويرى كانوا أنهم يجب أن يكونوا من الحصيان مثلما كانت الحال بالنسبة لنفس هذه الوظائف في بيزنطة ! Canard, M., *op.cit.*, p. 374 .

^٢ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٩-٢١٠ .

^٣ ابن المأمون : أخبار مصر ٥١ .

^٤ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٩-٢١٠ .

^٥ ابن المأمون : أخبار مصر ٥١ .

^٦ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٥٠ .

^٧ ابن المأمون : أخبار مصر ٥١ : ٦ ، ١٦ ؛ المقرئى : مسودة المواعظ والاعتبار ٣٠٢ . وذكر المقرئى اسم واحد من

الذين تولَّوا وظيفة زمام القصر هو مختار الصَّقَلَى (نفسه ٣٨٤) .

^٨ ابن الطوير : نزهة ٥٠ .

وكان زمام القصور على علم بكل ما يجرى داخل القصور، ففي أعقاب مقتل الخليفة الظَّافِر، جاء الوزير الأَفْضَل عَبَّاس إلى القصر ودخل إلى مَقْطَع الوزارة للسلام، فلما طال انتظاره استدعى زمام القصور واستفسر منه عن مكان الخليفة، وعندما تأكد من مقتل الظَّافِر طلب عَبَّاس من زمام القصور أن يأتيه بابن الإمام - وكان طفلاً - ليبيعه مكان أبيه وَلَقَّبه بـ «الفَائِز بَنَصْر الله» وسَلَّمه إلى زمام القصور^١. وكان لزمام القصور أربعة نُواب ينوبون عنه^٢.

«شَادُ التَّاج الشَّرِيف». وهو الذى يتولَّى شَدَّ تاج الخليفة الذى يلبسه فى المواكب العظام، ولم يكن تاجًا بمعنى الكلمة ولكن عمامة كان يشدها شُدَّة غريبة لا يعرفها سواه، فيأتى بها على شكل مستطيل يشبه الإِهْلِيلَج وهو ثمر معروف، ثم يضع جوهرة عظيمة يقال لها «اليتيمة» فى الحافِر - وهو شكل الهلال من ياقوت أحمر - وينظمه على خرقة حرير ويخطيها بخياطة خفية بأعلا جبهة الخليفة. ويقال لهذه الشُدَّة «شُدَّة الوَقَار». ولشَادُ التَّاج ميزة بلمسه التاج الذى يعلو رأس الخليفة. وشَبَّه القلقشندي «شَادُ التَّاج» بـ «اللَّقَاف» الذى يلف عمامة السلطان فى العصر المملوكي^٣.

«صَاحِبُ الدُّفْتَر»: ويعرف هذا الدُّفْتَرُ بـ «دَفْتَرُ المَجْلِس». وهو المتحدث على الدواوين الجامعة لأُمُور الخلافة، وله مكان ديوان بالقصر الباطن^٤. والدُّفْتَرُ عبارة عن جرائد مسطوحات يُسَجَّل فيها البيانات المقررة فى وقت حدوثها، مثل العطايا والرسوم^٥. كما أن من مهامه عمل بطاقات الدُّعَاة لحضور الأَشْجِيَّة أو المناسبات

^١ ابن الطوير: نزعة المقتلين ٦٨، ٦٩، ٧٠؛ ساويرس بن المقفع: تاريخ البطارقة ١/٣: ٤٥-٤٦؛ وانظر ابن المأمون:

أخبار مصر ٢١: ٣، ٤٤، ١٦.

^٢ ابن المأمون: أخبار مصر ٥١: ١٦.

^٣ ابن الطوير: نزعة المقتلين ١٥٦؛ القلقشندي: ص ٣: ٤٨٠؛ المقرئ: مسودة المواعظ والاعتبار ١٩٧-١٩٨.

^٤ نفسه ٧٥.

^٥ نفسه ٧٦.

الأخرى التي يدعو إليها الخليفة^١. وكان متولّى دَفْتَرِ المَجْلِسِ فى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م هو الشيخ أبا الفضائل بن أبى اللّيث^٢.

«صاحبُ الرّسالة»، هو الذى يخرج برسالة الخليفة لاستدعاء الوزير الحضور الاحتفالات الموكبية، وعادةً ما يكون من فصحاء الأستاذين وعقلائهم ومحصليهم وكان يَمْضى إلى استدعائه فى هيئة مسرعة على حصان دِفراج - أى سريع السير - امتثالاً لأمر الخليفة بالإسراع على خلاف حركته المعتادة^٣.

«صاحبُ بيت المال»، وهو بمثابة الخازنِدار فى العصر المملوكى^٤. كان يقف مع زمام القصور على يسار ويمنة مجلس الخليفة، وكان يتقدّم موكب الخليفة يوم ركوب صلاة العيد لقرش المُصلّى خارج باب النّصر، وهو الذى يُحضِر إلى القاضى المدخنة الخيْزُران التى يحملها فى يده عند صعوده المنبر فى أيام صلاة الجُمع فى رمضان^٥.

«زِمامُ الأشراف الأَقارب». كان يتولّى الحكم فى طائفة الأشراف أقارب الخليفة، وكلمته نافذة فيهم^٦.

«صاحبُ المَجْلِسِ»، الذى يتولّى تنظيم المجلس الذى يجلس فيه الخليفة الجلوس العام فى المواكب. وكان يخرج إلى الوزير والأمراء بعد جلوس الخليفة على سرير المَلِك يُغْلِمهم بذلك، ثم يشير إلى الأستاذين فيرفع كل منهم جانب الستر. فيظهر الخليفة جالساً، ويُثَنّت بـ «أمين المَلِك»^٧.

١ ابن الطوير : نزهة المقتلين ١٤٥ .

٢ ابن المأمون : أخبار ٢١ ، المقرئى : مسودة المواعظ والاعتبار ٢٦٢ .

٣ ابن الطوير : نزهة المقتلين ١٥٣ ، ٢٠٦ .

٤ القلقشندى : صح الأعشى ٣ : ٤٨١ .

٥ ابن الطوير : نزهة ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ .

٦ نفسه ٨٤ ، ١٧٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .

٧ نفسه ٢٠٨ .

وشَبَّهَهُ القلقشندي بـ «أمير خازندار» في العصر المملوكي .

«خامِلُ الدَّوَاةِ» الذي يحمل دواة الخليفة قُدَّامَهُ على الشَّرج، بينه وبين قَرَبوس الشَّرج - أى الحشبة الصغيرة القائمة في مُقَدِّم الشَّرج - وهذه الدَّوَاة، كما يقول ابن الطُّونَر، من أعاجيب الزمان كانت من الذَّهَب وحليتها مَرَّجان وهى ملفوفة فى منديل شَرَب بياض مُذْهَب^١.

«زِمَامُ الرجال» الذى يتولَّى أمر طعام الخليفة مثل «أستادار الصُّخْبَةِ» فى العصر المملوكي^٢.

وكان العَرَضُ الثانى ضمن عروض «ديوان الرُّوَاتِبِ» يشتمل على رواتب «حواشى الخليفة» الذين أشرت إليهم الآن، فكان لكل واحد منهم مائة دينار فى كل شهر. أما من كان دونهم فكان ينقص عشرة دنانير حتى يكون آخرهم من له فى كل شهر عشرة دنانير^٣.

ومن بين حواشى الخليفة اثنان من الأطباء كان كلُّ منهما يتقاضى خمسون دينارًا فى الشهر، أما من دونهما من الأطباء المقيمين بالقصر فكان كل منهم يتقاضى عشرة دنانير^٤.

ومن وظائف البلاط الأخرى مجموعة وظائف كان يتولّاها أربابُ الشُّيُوف الذين يقال لهم «الأُمراء المُطَوَّقون» أو «أرباب الحِدَمِ الجليلة»^٥، أهمهم :

«صاحبُ الباب» وهو أَجَلُ هؤلاء الأُمراء، ورُتَبَتُهُ هى ثانى رُتَبَةِ الوزارة ويقال لها «الوزارة الصُّغرى»، وهو الذى ينظر فى المظالم إذا لم يكن فى الدولة وزيرٌ صاحبُ

^١ ابن الطوير : نزعة المقلتين ١٦١ .

^٢ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٤٨١ .

^٣ ابن الطوير : نزعة المقلتين ٨٤ .

^٤ نفسه ٨٤ .

^٥ نفسه ٢٠٨ : ٤ ؛ المقرئى : مسودة المواعظ والاعتبار ٧٢ .

سَيِّف حيث يجلس فى باب القصر المعروف بباب الذهب ويقف بين يديه الحُجَّاب والنُّقَّاء^١؛ فإذا كان فى الدولة وزيرٌ صاحبُ سَيِّف تولَّى هذه المهمة بنفسه ويكون صاحبُ الباب من جملة من يقف فى خدمته^٢. وكان صاحبُ الباب يحضر حُزْنَ عاشوراء ويجلس فيه إلى جانب القاضى والداعى نيابة عن الوزير^٣. وهو الذى يتولَّى دعوة الأمراء لحضور الإفطار على مائدة الخليفة فى شهر رمضان بالتناوب^٤؛ وهو الذى يقف مع الإسنفهلار على يمين ويسار باب مجلس الخليفة فى أيام الجلوس العام، وله فى ذلك اليوم الدخول والخروج وهو الذى يُوصَّل إلى الخليفة عن كل قائل ما يقول كما يتولَّى السماح لمن له رَسْم الدخول إلى المجلس فى هذا اليوم^٥، ويوم ركوب الخليفة لفتح الخليج يتولَّى تقديم الشعراء فى حضرته^٦.

ويتقاضى صاحبُ الباب راتباً شهرياً قدره مائة وعشرون ديناراً^٧.

وكان لصاحبِ الباب مجموعة من الثَّوَاب أهمهم «النائب» الذى يتولَّى وظيفة «النَّيَّابَة الشريفة»، وهو من أعيان العدول وأرباب العمام، ويُلقَّب دائماً بـ«عَدَى المَلِك»، ومهمته تَلْقَى الرُّسُل الواصلين إلى الدولة ويحفظهم ويُنزلهم فى الأماكن المعدة لهم وخاصة دار الضيافة، ويُقدِّمهم للسلام على الخليفة والوزير مع صاحبِ الباب يميناً ويساراً، ويتولَّى تَفْقُّدهم والعمل على راحتهم، ولا يُمكن أحداً من الناس من الاجتماع بهم أو معرفة ما جاءوا من أجله. ويتقاضى راتباً شهرياً قدره خمسون ديناراً، وله فى اليوم نصف قنطار خبز. وقد يهدى إليه المُتَرَسِّلون طُرْقاً فلا يتناولها إلَّا بإذن. وكان

^١ ابن الطوير : نزهة المقاتلين ١٢٠ .

^٢ نفسه ١٢٢ .

^٣ نفسه ٢٢٤ : ١١ .

^٤ نفسه ٢١٢ .

^٥ نفسه ٢٠٨ ؛ القريرى : مسودة المواعظ والاعتبار ٧٣ .

^٦ نفسه ١٩٩ .

^٧ نفسه ٨٤ .

متولى دار الضيافة فى زمن وزارة المأمون البطائحي هو عديّ الملك سعيد بن عماد الضيف^١.

«حاملُ المِظْلَة، الذى يتولّى حَمْلُ المِظْلَة التى تعلق رأس الخليفة فى المواكب العظام مثل ركوب رأس العام ونحوه، ويحرص على ألا يزول ظلها عن رأسه^٢، وكان يعاونه أربعة من الصقّالين برسم خدمتها^٣. وكان حاملُ المِظْلَة فى عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م هو بهاء الدولة مُظَفَّر الصَّقْلَبِيّ الذى عُيِّن فى المحرم سنة ٣٩٤هـ/أكتوبر ١٠٠٧م^٤.

«حاملُ سِتَف الخليفة» فى المواكب التى تُحْمَل فيها المِظْلَة^٥.

«حاملُ رُمَح الخليفة، أيضًا فى المواكب التى تُحْمَل فيها المِظْلَة^٦، وكان الذى يتولّى ذلك فى عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م هو بلaban بن عَتّاس ابن قَتّوح الكتامى^٧.

«حاملو السّلاح حول الخليفة فى المواكب» ويعرفون بسبب زيّهم بـ «الرّكّاية» وبـ «صبيان الرّكاب الخاص». كان عددهم يزيد على ألفى رجل، ولهم اثنا عشر مُقَدِّمًا لكل منهم فى كل شهر خمسون دينارًا، وهم مُحْجَب رُكّاب الخليفة. ويعادلون السّلاح دارية والطّيّزدارية فى العصر المملوكى^٨.

^١ ابن الطوير : نزعة المقتلين ١١٧-١١٨ ؛ المقرئى : المقتنى ٦ : ٤٨١ وراجع Ayman F. Sayyid, *EI*² art. *Sāhib al-bāb* VIII, 860.

^٢ نفسه ١٢٣ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٤٧٩ .

^٣ نفسه ١٦١ .

^٤ المسبّحى : أخبار مصر ١٣١ .

^٥ ابن الطوير : نزعة المقتلين ١٢٣ .

^٦ نفسه ١٢٣ .

^٧ المسبّحى : أخبار مصر ١٢٤ .

^٨ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٨٥ ، ١٢٤ ؛ القلقشندي : صبح ٣ : ٤٨٠ .

«حَرَسُ القصر». في أثناء زيارة ناصر حُشرو للقاهرة سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م ذكر أن القصر الفاطمي كان يحرسه كل ليلة ألف رجل: خمسمائة فارس وخمسمائة راجل، ينفخون البوق ويدقون الطبل والكُوس من وقت صلاة المغرب ويدورون حول القصر حتى الصباح^١. أما ابن الطُوفَر في أواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي فيذكر أنه كان يبيت خارج القصر كل ليلة خمسون فارسًا ووَصَفَ نظامهم بأنه إذا أُذِّن لصلاة العشاء داخل القاعة وصَلَّى الإمام الراتب بها بالمقيمين فيها من الأستاذين وغيرهم، وَقَفَ على باب القصر أميرٌ يقال له «سينانُ الدَّوْلَة ابن الكَرْكَنْدى» - يعادل وظيفة أمير جاندار في العصر المملوكي - فإذا علم ب فراغ الصلاة أمر بضرب النوبات من الطبل والبوق وتوابعهما من عدد وفير وبطرائق مستحسنة مدة ساعة زمنية. ثم يخرج بعد ذلك أستاذٌ يرشُم هذه الخدمة فيقول: «أمير المؤمنين يرِدْ على سينان الدَّوْلَة السلام» فيضْطَع - أى يصيح - ويَفْرَس حربةً على الباب ثم يرفعها بيده، فإذا رَفَعَهَا أغلق الباب وسار حول القصر سبع دورات. فإذا انتهى ذلك جعل على الباب البيّاتين والفَرَّاشين، وتُرْمَى السِّلْسِلَة عند المضيق آخر بين القصرين من جانب السيوفيين [يعادل الموضع الذى يحدده اليوم التقاء شارع المعز لدين الله مع شارع جَوْهَر القائد]، فينقطع المار من ذلك المكان إلى أن تضرب البوقية قريب الفجر فينصرف الناس من هناك بارتفاع السِّلْسِلَة^٢.

وعندما بدأ الأمر بأحكام الله في الاهتمام بسكن منظرة اللؤلؤة على الخليج مُدَّة وفاء النيل بالنظام الذى كان معمولًا به قبل الحرب الأهلية ووزارة بدر الجمالى وابنه الأَفْضَل، أمر الوزير المأمون البَطَّائِحَى مجموعة الفَرَّاشين الموكلين بها بالمبيت بها على سبيل الحراسة. كما أمر متولّى زمام الممالك الخاص أن يكونوا بأجمعهم حيث يكون الخليفة، وبيت قسم منهم تحت المنظرة يرشُم الخدمة هناك، كما أمر بأن تُقَسَّم الرّهْجِيّة قسمين:

^١ ناصر خسرو: سفرنامه ٨٩. وذكر المقرئى أن الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠٣ منع من ضرب الطبول والأبواق التى كانت تضرب حول القصر فى الليل، فصار الحراس يطوفون بغير طبل ولا بوق (اتعاظ الحنفا ٢ : ٩٦).

^٢ ابن الطوير: نزهة المقلتين ٢١٠-٢١٢؛ القلقشندى: صح ٥١٨.

قسمًا على أبواب القصور والآخر على أبواب اللؤلؤة . وكان متولّى الباب يتولّى عرضهم بنفسه كل ليلة عند رواحه وعوده^١.

وكانت هناك وظائف أخرى خاصة بالخدمة داخل القصر منها : « الفَراشون » الذين يتولّون الخدمة داخل القصور فيقومون بتنظيفها خارجًا وداخلًا ونُصب الستائر المحتاج إليها ، وكذلك خدمة المناظر الخارجة عن القصر . وبينهم من يختص بخدمة الخليفة شخصيًا مثل « صاحب (متولى) المائدة » و « حامى المطابخ » اللذين يُقَرَّبون من الخليفة فى الأسمطة^٢ . وكان الواحد منهم يتقاضى راتبًا شهريًا قدره ثلاثون دينارًا^٣.

« الرّشاشون » الذين يتولّون رَشّ المياه فى أيام الصيف داخل القصر وخارجه وكان لهم عُرفاء مسئولون منهم ، ويتولّى أمرهم أستاذٌ من خواص الخليفة . وكان عددهم نحو ثلاثمائة رجل يتراوح راتبهم بين عشرة وخمسة دنانير شهريًا^٤.

ومن أهم خواص الخليفة « قُرّاء الحضرة » وهم مجموعة من قُرّاء القرآن كانوا يقرءون بحضرة الخليفة سواء فى مجالسه فى القصر أو فى أيام ركوبه فى المواكب الاحتفالية ، يزيدون فى العدد عن عشرة قُرّاء كانت رواتبهم تتراوح بين عشرة دنانير وعشرين دينارًا^٥ . كانوا عادة ما يستفتحون مجالس الخليفة ، بعد استوائه على السرير ورفْع السُّرّ الذى يحجبه عن الحضور ، بقراءة آيات لائقة بذلك المكان ، وعند انتهاء المجلس كانوا يقرءون آيات من القرآن لحتم المجلس يتم بعدها إزحاء السُّرّ على الخليفة مرة أخرى^٦ . وكانوا يأتون فى قراءتهم فى المجالس ومواكب الركوب بآيات مناسبة للحال ، ألفوا ذلك

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٩٨ ، ٩٩ .

^٢ نفسه ٥١ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٨ ؛ ابن الطوير : نزهة ٨٥ .

^٣ ابن الطوير : نزهة ٨٥ .

^٤ نفسه ٨٥ .

^٥ نفسه ٨٤ .

^٦ نفسه ١٥٤-١٥٥ ؛ المقرئى : مسودة المواعظ والاعتبار ١٩٦ .

وصار سهل الاستحضار عليهم ، وكان ذلك يقع منهم موقع الاستحسان عند الخليفة والحاضرين . فعندما غضب أحد الخلفاء على أمير وأمر باعتقاله قرأ قارئ ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الآية ١٩٩ سورة الأعراف] فاستحسن الخليفة ذلك وأطلقه . إلا أنهم كانوا ربما أتوا بآيات إذا روعى قَصْدُهُم فيها أخرجت القرآن عن معناه ؛ فعندما استوزر المستنصر بالله بدرًا الجمالي قرأ أحد القراء ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِتَنْذِرٍ ﴾ [الآية ١٢٣ سورة آل عمران] فقال المستنصر : لو أنَّهَا ضربت عنقه . ولما استوزر الحافظ لدين الله رضوان بن ولحشى قرأ أحد القراء ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ [الآية ٢١ سورة التوبة] ^١ .

٤- الجُلُوسُ العام بِمَجْلِسِ الْمَلِكِ

كان الجُلُوسُ العام للخلفاء الفاطميين بِمَجْلِسِ الْمَلِكِ audience يتم في بداية عصر الدولة سواء بـ « قَصْرِ الذَّهَبِ » أو بـ « بالإيوان الكبير » من القصر الفاطمي الكبير كيفما اتَّفَقَ . وابتداء من عصر الخليفة الأمر بأحكام الله في فترة وزارة الوزير المأمون البطائحي (٥١٥-٥١٩هـ / ١١٢٢-١١٢٥م) تقرر جلوس الخلفاء بِمَجْلِسِ الْمَلِكِ في « قاعة الذهب » - التي كان يُطلَق عليها في العصر الأول « قَصْر الذَّهَبِ » - يومى الاثنين والخميس ليس على التوالى وإنما في أحد هذين اليومين كل أسبوع . وكان سريرُ الْمَلِكِ يوجد بهذه القاعة ، كما كان يُعمل بها سباطُ رمضان للأمرءاء وسباطُ الطعام فى العيدين .

كان عَقْدُ المجلس يتطلَّب انتباهًا كبيرًا فى ترتيب جلوس الحاضرين تبعًا لدرجتهم ومرتبتهُم وبالتالي قُرب موقعهم أو بُعده من الخليفة ، الأمر الذى يُقدِّم لنا معلومات بالغة القيمة حول النظام الاجتماعى والسياسى . وكان « صاحبُ المجلس » - وهو أحد

^١ ابن الطوير : نزعة المقتلين ١١٩ ، النويرى : نهاية الأرب ٢٨ : ٢٣٥-٢٣٦ ؛ القلقشندي : صبح ٣ : ٤٨٤-٤٨٥ .

الأستاذين المحنكين - يتولّى تنظيم المجلس وترتيب جلوس الحاضرين فيه ومراعاة نظام التشريعات (البروتوكول) فى العموم ، وهو الذى يُعْلِن عن استواء الخليفة على المرتبة إيداناً بيد المجلس يعاونه فى ذلك مجموعة من الحُجّاب المساعدين . أما « صاحب الباب » - وهو أحد الأمراء المُطَوّقين - فكان يقف هو والإسفَهستلار على يمين ويسار باب المجلس ويتولّى السماح لمن له رُسم الحضور بالدخول إلى المجلس ، وهو الذى يُوصِّل إلى الخليفة عن كل قائل ما يقوله ^١.

والوصفُ النموذجى الذى وَصَلَ إلينا عن « هيئة جلوس الخليفة بمجلس الملك بقاعة الذهب » يُقدِّمه لنا أيضاً ابن الطوَّير ، ويرجع إلى فترة خلافة الحافظ أو الظَّافِر . فكان إذا تحدَّد يوم الجلوس خَرَجَ صاحبُ الرِّسالة مسرعاً إلى دار الوزير لاستدعائه ، وعند وصوله يترجَّل بدهليز العمود بالقصر حتى يصل إلى « مَقْطَع الوزارة » بقاعة الذهب . ويكون المجلس مُعلّقاً بالستور الدِّياج شتاءً وبالدِّيقي صيفاً و « فَرَش الشتاء البُسْط الحرير ، عِوَضاً عن الصوف ، مطابقاً للستور الدِّياج ، وفَرَش الصيف مطابق للستور الدِّيقي ما بين طَبْرَى وطَبْرِستانى مذهب معدوم المثل » وفى صدر المجلس تكون المرتبة المُؤَهَّلة لجلوس الخليفة فى هيئة جليلة على سرير الملك المُعْشَى بالقُرْقُوبى ، ويكون وجه الخليفة عليه قُبالة وجه الوقوف بين يديه ^٢.

يقول ابن الطوَّير : « إذا تهيأ الجلوس استدعى الوزير من « مَقْطَع الوزارة » إلى باب المجلس وهو مغلق وعليه ستر ، فيقف عن يمينه زِمَامُ القصر وعن يساره زِمَامُ بَيْت المال . فإذا جلس الخليفة على المرتبة وضع صاحبُ المجلس الدَّوَاة مكانها من المرتبة وخرج من « المَقْطَع » الذى يقال له « قَوْد الكم » ، وهو علامة استواء الخليفة على المرتبة . فيشير صاحب المجلس إلى الأستاذين فيرفع كل منهم جانب السُّر فيظهر الخليفة جالساً على

^١ ابن الطوَّير : نزعة المقلتين ٢٠٨ .

^٢ نفسه ٢٠٦-٢٠٧ .

سرير الملك ، ثم يستفتح « قُرَاءُ الحَضْرَةِ » بقراءة القرآن ، ثم يكون أوَّلُ المُسْلِمِينَ على الخليفة الوزير فَيَقْبُلُ يديه ورجليه ويتأخَّرُ مقدار ثلاثة أذرع (حوالى متر ونصف) ثم يؤمر بالجلوس على يمين الخليفة على مخدة تُطْرَحُ تشريعاً له . أما سائر الحضور فيظلون واقفين على الترتيب التالى : صاحب الباب والإسفيهسلار من جانبى باب المجلس يمينًا ويسارًا ، يليهم من خارجه لاصقًا بعتبه زمام الأمرية والحافظية ، ثم أرباب القَصَبِ والعَمَارِيات يمينًا ويسرة كذلك ، ثم الأمائل والأعيان المترشحون للتقدمة وذلك إلى آخر الزواجر وهو الإفريز العالى عن أرض القاعة . ويقف مستندًا للسور الذى بقابل باب المجلس نُؤَابُ صاحب الباب والحُجَابُ^١ .

وكان أوَّلُ من يُسَلِّمُ على الخليفة بعد ذلك قاضى القضاة ، حيث يَسْمَحُ له بالدخول ، دون من معه من الشهود ، صاحبُ الباب ، فيوجِّهه سلامه متأدِّبًا وذلك بأن يرفع يده اليمنى مشيرًا بالمسبحة قائلاً بصوت مسموع : « السلام على (عليك) أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » وهو الوحيد الذى يختص بهذا الكلام من أهل السلام ، أما بقية الحضور فيُشْرِفُونَ بتقبيل عَتَبَةِ المجلس .

وإذا دَعَتُ حاجةُ الوزير إلى مخاطبة الخليفة فى أمر قام من مكانه وقرب من الخليفة منحنيًا على سيفه فيخاطبه مرة أو مرتين أو ثلاثًا وبعد ذلك يؤمر الحاضرون بالخروج ويكون آخر الخارجين الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله ليركب على عادته إلى داره على الهيئة التى حضر بها ، ثم يُؤَخَّخَى الستران ويُغْلَقُ باب المجلس^٢ .

والى جانب الجلوس الأسبوعى للخليفة الفاطمى بقاعة (قَصْر) الدَّهَبِ ، كان يتم بها استقبال السفراء والرُّسُلِ الأجانب ، ويصف لنا المُسَبِّحُ كيفية استقبال الخليفة

^١ ابن الطوير : نزعة المقلتين ٢٠٧-٢٠٨ ؛ وعن عادة تقبيل الأرض أمام الخليفة الفاطمى راجع ، ابن المأمون : أخبار ٨٦ ، ٧٥ ؛ ابن الطوير : نزعة المقلتين ١٧٤ .

^٢ نفسه ٢٠٩ وقارن ابن ميسر : أخبار مصر ٨٨-٩١ حيث يصف مجلس حضرة الوزير المأمون البطائحي فى نهاية عام

الظاهر لإعزاز دين الله الرسول القادم من خراسان في ٢٠ صفر سنة ٤١٥هـ / ٤ مايو سنة ١٠٢٤م : يقول :

« وفي يوم السبت لعشر بقين منه [أى صفر سنة ٤١٥هـ] جلس أمير المؤمنين عليه السلام فى قصر الذهب بعد أن زُيِّن وبُسط وغلقت فيه الستائر الدياج والستور المذهبة الحسان ، وعلق جميع السقائف كلها بالستور وقرئت بالفروش ، واستحضر الأمراء الأتراك وأمرؤا أن يلبسوا أفر ثيابهم ، فلبس جميعهم الثقيل والطميم ، وأمر سائر الكتاميين والجند بأخذ الأهبة للحضور ، ودخل الناس أجمعون ووقف الأمير شمس الملك على يمين السرير وسائر الناس وكافة عبيد الدولة قيام والأشراف ، ولم يجلس أحد بين يديه ، وعلى سائر الخدم المضطئعة الثياب الطميم والعمائم المطايرة . وحضر الرسول الوارد من خراسان ومعه ولد له صغير فدخل وقبل التراب لأمر المؤمنين عليه السلام ثم أمر بأن يطوف به القصر كله ، فطيف به سائر القصور المعمورة . وقام أمير المؤمنين وانصرف الناس »^١.

كما يُقدِّم لنا غُليوم أشقف صور Guillaume de Tyr وَصَفًا حيًّا لحفل استقبال الخليفة الفاطمى العاضيد - آخر الخلفاء الفاطميين - لرسولى الملك عمورى الأول Amaury I^{er} ملك بيت المقدس : Hug de Césaire و Gaudfrey Fulcher وهو قريب الشبه بالجلوس العام فى مجلس الملك . يقول : « ولما كان قصر هذا الحاكم - أعنى الخليفة الفاطمى - فريداً فى نوعه ويسير على تقاليد لم نألفها فى الغالب فى عالمنا ، فقد رأيت من الأوفق أن أدوّن بالتفصيل ما وَقَفْتُ عليه من الأخبار الموثوق بها والتي رواها من زاروا هذا الأمير العظيم »^٢.

وبعد أن يصف ما شاهده الرسولان فى طريقهما لمقابلة الخليفة بصحبة الوزير شاور الشغدى ، يقول :

« وانتهى المطاف بالسفيرين المبعوثين إلى القصر بعد اجتيازهما الكثير من

^١ المسبحى : أخبار مصر ٢٨-٢٩ ؛ المقرئى : اتعاظ الحنفا ٢ : ١٤٠ ، وانظر كذلك ، Fu'ād Sayyid, A. *op. cit.*

. pp. 529-34

^٢ وليم الصورى : الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشى ، ٤٦: ٤٧ .

الممرات المتعرجة ، وسلوكهما طرقاً يضل فيها المرء وتستلقت عجائبها انتباه الجميع حتى أكثر الناس استغراقاً في تأملاتهم . فلما بلغا القصر وجدا جماعات عديدة من حَمَلَة السلاح وأرتالاً من الأنباغ يُدُلُّ مظهرهم وكثرة عددهم على عظمة مولاهم التي لا تقاربها أية عظمة ، كما أن منظر المكان يُدُلُّ دلالة صريحة على ما عليه الحاكم من الثراء الفاحش الذي لا يماثله ثراء .

ثم دُخِلَ بالمبعوثين إلى القسم الداخلي من القصر حيث أظهر الوزير [شاور] التوقير الذي اعتاد إظهاره لمولاه ، فقد انطرح على الأرض مرتين وقَدَّم فروض الطاعة المهينة كما لو كان يُقَدِّمها لإله معبود ، وذلك ترجمةً عن إجلاله الذليل له ، ثم رَكَعَ على الأرض مرةً ثالثةً ثم أمسك بسيفه الذي يتقلده والذي يتدلَّى من عنقه وألقاه على البساط ؛ وإذ ذاك انزاحت في سرعة عجيبة الستائر المرصعة بالجواهر والذهب وظَهَرَ سريرُ المَلِكِ خلفها والخليفة سافرُ الوجه جالسٌ على تخته الذهبي وحوله طائفةٌ من حواشيه وعبيده وقد بدا منظره أكثر من منظر ملوكي ، فدنا الوزير [شاور] منه بكل احترام وقَبِلَ في مَدْلَةِ قدميه وهو على سرير المَلِكِ ذاكراً له الغرض من زيارة الرسولين^١ .

ويستطرد عُليوم في وصف تفاصيل الاتفاق ، كل ذلك « بناء على ما ذكره له أولئك الذين شاهدوا بأعينهم ما ذكره » فلم يكن عُليوم مصاحباً للمبعوثين اللذين جاءا إلى مصر . وقد ذكر له هيج القيصري Hug de Césaire أن الخليفة شابَّ على جانب كبير من الخلق الكريم لم تثبت لحيته إلا منذ وقت قريب جداً ، وكان طويل القامة أسمر البشرة رائع البنية^٢ .

وإلى جانب الجلوس العام في مجلس المَلِكِ واستقبال الشُّفَرَاء كان للخلفاء الفاطميين أيامٌ جلوس أخرى طوال العام على هيئة مختصرة عن هيئة الجلوس العام وذلك في « الموالد الستة » وهي : « مَوْلِدُ النَّبِيِّ ﷺ » ، و « مَوْلِدُ أمير المؤمنين علي بن أبي

^١ وليم الصوري : الحروب الصليبية ٤٨:٤-٤٩ .

^٢ نفسه ٥٠:٤ ؛ وقارن Sanders, P., *op.cit.*, pp. 32-37 .

طالب، و «مؤلد فاطمة» عليهما السلام، و «مولد الحسن» و «مولد الحسين» عليهما السلام، و «مؤلد الخليفة الحاضر». ويكون هذا الجلوس فى المنطرة التى هى أنزل المناظر وأقربها إلى الأرض بباب الذهب^١.

كذلك كان الخلفاء يجلسون جلوسًا عامًا فى «ليالى الوقود الأربع»، وهى : ليلة أول رجب وليلة نصفه، وليلة أول شعبان وليلة نصفه. وكان أول استعادة للاحتفال بهذه الليالى فى رجب سنة ٥١٦هـ/ أكتوبر ١٠٢٢م؛ ففى ليلة مستهل رجب من هذه السنة جلس الخليفة الأمر ووزيره المأمون البطائحي، وبالغ الخليفة فى شكر وزيره وإطرائه وقال له : «قد أعدت لدولتى بهجتها وجددت فيها من المحاسن ما لم يكن، وقد أخذت الأيام نصيبها من ذلك، وبقيت الليالى وقد كان بها مواسم قد زال حكمها وكان فيها توسعة وبرٌّ ونفقات وصدقات وهى : ليالى الوقود الأربع وقد آن وقتهنّ وأشتهى نظرهنّ». فامثل الوزير الأمر وأمر بالتوسعة للجوامع والمساجد فى الزيت برشم الوقود، وطلب من متولّى بيت المال أن يهتم برشم هذه الليالى من أصناف الحلويات الخاصة بالقصور ودار الوزارة، كما أمر للقاضى بخمسين دينارًا يصرفها فى ثمن الشفع^٢.

أما «حزُن عاشوراء» (العاشر من المحرم) فكان الاحتفال الوحيد الذى يحتجب فيه الخليفة عن الناس؛ وكان يُعْمَل فى أول الأمر بالجامع الأزهر، وبعد تولّى المأمون البطائحي أصبح يُعْمَل فى القصر، فيذكر ابن المأمون أن الخليفة الأمر بأحكام الله جلس يوم عاشوراء سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م على باب الباذننج من القصر على كرسى جريد مُتَلَكِّمًا هو وجميع حاشيته فسلم عليه الوزير المأمون وجميع الأمراء الكبار والصغار بالقرايمز، وأذن للقاضى والداعى والأشراف والأمراء بالسلام عليه وهم بغير مناديل مُلْتَمِمين حفاة، وعُجِبَ السَّمَاط فى غير موضعه المعتاد وجميع ما عليه تُحْبِزُ الشعر. وطلب

^١ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢١٧ .

^٢ ابن المأمون : أخبار مصر ٣٦ : القرىزى : اتماط الحنفا ٣ : ٨٢ والمقفى الكبير ٦ : ٤٩٤ .

إلى والى مصر والقاهرة بأن لا يَمَكُنَّا أَحَدًا من جَمْع ولا قِراءة «مَضْرَع الحسين»، وخرج الرِّسْم المطلق للمتصدرين والقُرَّاء والوُعَاظ والشُّعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم^١. ولكن اعتبارًا من عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م - بعد نُقْل رأس الحسين إلى قُبَّة الدِّيْلَم بالقصر الفاطمي - صار حُزْنُ عاشوراء يُعْمَلُ بِالْمَشْهَدِ الحُسَيْنِي، وكان الشُّعراء يُنْشِدُونَ شعراء في رثاء آل البيت. يقول ابن الطُّوَيْر «فإن كان الوزير رافضيًا تغالوا وإن كان سُنيًا اقتصدوا» - وهو وَصَفُ للفترة المتأخرة من حكم الدولة الفاطمية التي تناوب فيها كرسى الوزارة وزراء إماميون وسنيون - وبعد ذلك يتم استدعاء الوزير والقاضى والداعى إلى القصر بنقباء الرِّسائل فيركب الوزير وهو بمنديل صغير إلى داره ويدخل القاضى والداعى ومن معهم من باب الذَّهَب حيث يجدون الدَّهاليز الموجودة خلفه قد فُرِشَتْ مصاطبها بالحُضُر بدل البُشُط ووضعت فى الأماكن الخالية من المصاطب دِكَكٌ تُلْحَقُ بها وتفرش مثلها. ويجد القاضى والداعى صاحب الباب جالسًا هناك نيابةً عن الوزير فيجلس القاضى والداعى إلى جانبه والناس على اختلاف طبقاتهم، فيقرأ القُرَّاء ويُنْشِدُ الْمُنْشِدُونَ ثم يفتش وَسَطُ القاعة بالحُضُر المقلوبة ويُمدُّ عليها «سِمَاطُ الحُزْن» وهو عبارة عن ألف زبدية من العُدُس والملوحات والمخللات والأجبان والألبان السَّاذِجَة وعَسَل النُّحْل والفطير والخُبْز المَغْيَّر لونه بالقَصْد. وفى أعقاب انتهاء الجلوس يطوف التَّوَّاح بالقاهرة بقية اليوم وَيَغْلِقُ البِئَاعُونَ حوانيتهم إلى ما بعد العصر^٢.

^١ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٢٢٣ .

^٢ ابن المأمون : أخبار مصر ٣٥ ؛ المقرئى : الخطوط ١ : ٤٣١ ، المقفى الكبير ٦ : ٤٩٠ .

^٣ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٢٢٣ .

^٤ نفسه ٢٢٤ .

٥- مَصْرُوفَاتِ الْقَصْرِ الْفَاطِمِيِّ

لا نملك أية تفاصيل عن ميزانية القصر الفاطمي ومصرفاته إلا عن الفترة التي تولّى فيها الوزارة الوزير المأمون البطائحي (٥١٥-٥١٩ هـ / ١١٢١-١١٢٥ م) وذلك بفضل المعلومات الغنية التي أمَدَّنَا بها المؤرِّخ ابن المأمون والتي يحفظها لنا المقرئ في كتابيه « الخِطَط » و « المُقَفَّى الكبير » ، يقول :

« والذي استقرَّ إطلاقه على حكم الاستيثار من الجرايات [المختصة] بالقصور ،
والرواتب المستجدة ، والمطلق من الطيب ، وتذكرة الطراز ، وما يُبتاع من الثغور
ويستعمل بها وغير ذلك : فأوَّلها جراية القصور ، والمطلق لها من بيت المال إداراً
لاستقبال النظر المأمونى ستة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وأربعون ديناراً (٦,٣٤٣) ، ويرسم
منديل الكتم الخاصّ الأمرى فى الشهر ثلاثة آلاف دينار عن مائة دينار كل يوم ، ومقرّر
الحمام فى كلّ جمعة مائة دينار ؛ أربعمئة دينار . ويرسم الإخوة والأخوات ، والسيدة
الملكة والسيدات ، والأمير أبى على وإخوته ، والموالى ، والمستخدّات ، ومن استجدّ
من الأفضليات ألفان وأربعمئة وثلاثة وأربعون ديناراً (٢٤٤٣) . ولم يكن للقصور فى
الأيام الأفضلية من الطيب راتب ، بل إذا وصلت الهدية والنجاوى من بلاد اليمن تحمّل
كلّها إلى الإيوان ، فينفذ منها بعد ذلك للأفضل ، ويطلق للخليفة من جملتها . فصار
فى الأيام المأمونية الطيب مياومة ومشاهرة .

وما هو برسم الخاصّ الشريف فى الشهر : ندّ مثلث : ثلاثون مثقالاً . عود
صيفى : مائة وخمسة دراهم . كافور قديم : خمسة عشر درهماً . عنبر خام : عشرون
مثقالاً . زعفران : عشرون درهماً . ماء ورد : ثلاثون رطلاً .

وما هو برسم بخور المجلس فى الشهر أيتام السلام : ندّ مثلث : عشرة مثاقيل .
عود : عشرون درهماً . كافور : ثمانية دراهم . زعفران شعر : عشرة دراهم .

وما هو برسم بخور الحمام فى كلّ ليلة جمعة عن أربع جُمع فى الشهر : ندّ

مثث : أربعة مثاقيل . عود صيفي : عشرة دراهم .

وما هو برسم الإخوة والجهات والسيدات على ما يستقر بأسمائهم في كل شهر :
نذ مثث : خمسة وثلاثون مثقالاً . عود صيفي : مائة وعشرون درهماً . زعفران شعر :
خمسون درهماً . عنبر خام : عشرون مثقالاً . كافور قديم : عشرون درهماً . مسك :
خمسة عشر مثقالاً . ماء ورد : أربعون رطلاً .

وما هو برسم المائدة الشريفة ، مما تستلمه المعلمة في كل شهر : مسك : خمسة
عشر مثقالاً . ماء ورد : خمسة عشر رطلاً .

وما هو برسم خزانة الشراب الخاص في كل شهر لتطبيب الماء : مسك : ثلاثة
مثاقيل . نذ مثث : سبعة مثاقيل . عود صيفي : خمسة وثلاثون درهماً . ماء ورد :
عشرون رطلاً .

وما هو برسم بخور المواكب الستة ، وهي : الجمعتان الكائنتان في شهر رمضان
برسم الجامعين بالقاهرة [الأزهر والحاكم] ، والعيذان ، وعيد الغدير ، وأول السنة
بالجامع والمصلّى : نذ خاص : جملة كثيرة لم تضبط . ولم يكن للفتوتين : غرة السنة
وغرة شهر رمضان ، وفتح الخليج بخور فيذكر .

وعدة المبشرين في الموكب ستة : ثلاثة عن اليمين وثلاثة عن الشمال ، وكلّ منهم
مشدود الوسط [وفي كُتبه قحّم برسم تعجيل المدخنة] ، والمداخن فضة ، وحامل
الدرج الفضة الذي فيه البخور أحد مقدّمى بيت المال ، وهو يختر طول الطريق . هذا
سوى مداخن كبار في صوانى فضة ، منها ثلاث صوانى ، في الحراب إحداهنّ ، وفي
جانبي المنبر اثنتان . وفي الموضع الذي يجلس فيه الخليفة إلى أن تقام الصلاة صينية
رابعة .

وأما البخور المطلق برسم المأمون في كل شهر : نذ مثث : خمسة عشر مثقالاً .
عود صيفي : ستون درهماً . عنبر خام : ستة مثاقيل . كافور قديم : ثمانية دراهم .
زعفران شعر : عشرة دراهم . ماء ورد : خمسة عشر رطلاً .

وكان مبلغ الاستيثار في الأيام الأفضلية في الشهر اثني عشر ألف دينار (١٢,٠٠٠)، فبلغ في الأيام المأمونية إلى سنة ست عشرة وخمسمائة ستة عشر ألف دينار (١٦,٠٠٠).

وكانت تذكرة الطراز في أيام الأفضل واحدًا وثلاثين ألف دينار (٣١,٠٠٠)، فبلغت في أيام المأمون ثلاثة وأربعين ألف دينار (٤٣,٠٠٠).

وبلغت رواتب الخاص وما يختص بالقصور من السيدات والجهات المستخدمات والخواشي والأصحاب والكتاب وصبيان الخاص، هو ما تشتمل عليه جريدة المطابخ بما فيه من المواسم والأعياد وشهر رمضان، والركوبات الدائمة في يومى السبت والثلاثاء، سبعة وخمسين ألف دينار (٥٧,٠٠٠)، خارجًا عن البهائم المختصة بالوزارة فإنها تساق من المراحات السلطانية مع غيرها برسم البطائحى. ومقرّر الوزارة في الشهر عيّنًا من بيت المال ثلاثة آلاف دينار (٣,٠٠٠)، منها ما هو عن النيابة في العلامة عن الخليفة ألف دينار، وما هو عن الراتب: ألف وخمسمائة دينار، وما هو عن مائظة غلام برسم مجليسه وخدمته: لكلّ غلام خمسة دنائير في الشهر. وفي السنة عن الإقطاعات: خمسون ألف دينار، منها: دَهشور، وجزيرة الذهب، وعدّة صفقات في البلاد.

ومن البساتين ثلاثة: بُشتان الأمير تميم الذى عُرف بالمَقشوق، وبستانان بكوم أشنين.

ومن الشعير والقمح في السنة: عشرون ألف إردب.

ومن الغنم برسم مطابخه سياقة من المراحات: ثمانية آلاف رأس.

والأحطاب والتوابل، العال والدون، فتطلق لتولّى مطابخه بحسب ما يستدعيه.

واستجدّ بعد الأفضل في الأيام المأمونية من خزائن التفرقة في كلّ يوم: اثنا عشر مجعمًا، كلّ بيت منه عيادة رطل بالميزان، ولكلّ مجمع ثلاثة أرطال جبن تشوير وفاكهة: نصف درهم.

ومن اللبن الرائب بهذه المجماع في كلّ يوم: خمسة وثمانون رطلًا.

واستجدد أيضًا برسم الخاص في كل يوم من الحلوى: اثنا عشر جامًا، رطبة وبابسة نصفين، وزن كل جام من الرطب عشرة أرتال، ومن اليابس ثمانية أرتال. وانتهى مرتب دار التعبئة في كل يوم إلى عشرة دنائير سوى ما هو مؤظف على البساتين السلطانية، وهو الترجس والنيونفران، الأحمر والأصفر، والنخل الموصد برسم الخاص، وما يصل من القَيوم وثغر الإسكندرية، ومن هذه الدار - يعنى للقصور - ولدار الوزارة، وللمناظر في أيام الركوب والجمع، بخلاف تعبئة الحتامات، وما يحمل كل يوم من الزهر، وما هو يرسم خزانة الكُشوة الخاص، وبرسم المائدة، وتفرقة الثمرة الصيفيّة في كل سنة على الجهات والسيدات والحواشى والأصحاب، وما يُختمل لدار الوزارة والضيوف وحاشية دار الوزارة.

وبلغ ثمن التوابل، العال منه والدون، وهى المرصدة لخزانة التوابل، إلى خمسين ألف دينار (٥٠,٠٠٠) فى السنة، سوى ما يحمل من البقولات، فإنه باب مفرد مع المستخدم فى البستان الكافورى.

وأطلق من استقبال النظر المأمونى برسم الشراب من السكر: مائة وخمسة عشر قنطارًا، وبرسم الورد المرتى: خمسة عشر قنطارًا. وما يُطلَق برسم استعمال الخالين، الفاسد والهامض، وقُفِّف البقولات فى السنة: ستة آلاف وخمسمائة دينار (٦,٥٠٠). وراتب الأوطية / فى كل شهر: ثمانون زُوجًا، منها برسم الخاص: ثلاثون زُوجًا، وبرسم الجهات: أربعون، وبسم الوزارة: عشرة، خارجًا عن السبعيات، فإنها تستدعى من متولّى خزائن الكُشوة، وفى كل موسم تكون مذهبة^١.

^١ ابن المأمون: أخبار مصر ٩٠-٩٤، المقرئى: المقفى الكبير ٦: ٤٨٤-٤٨٥ والخطوط ١: ٤٢٠-٤٢٢.

الفصل الثاني عشر

المواكب الاحفالية

لا شك أن وصول الوزير المأمون البطائحي إلى الحكم فى نهاية عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م يُمثّل منعطفًا هامًا فى تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر . فطوال الثمانية والعشرين عامًا التى أعقبت وفاة الخليفة المستنصر بالله (٤٨٧-٥١٥هـ/ ١٠٩٤-١١٢١م) كان الوزير القويّ الأفضّل شاهنشاه هو صاحب السلطنة الفعلية فى البلاد ، فهو الذى أجلس المُستغلى على كرسى الخلافة عَوْضًا عن أخيه نزار صاحب الحق الشرعى ، وبعد وفاته فى صفر سنة ٤٩٥هـ/ ديسمبر سنة ١١٠١م أقام ابنه أبا على المنصور فى الخلافة ولقّبه بالآمر بأحكام الله ، وكان ما يزال طفلًا لم يتجاوز الخامسة من عمره . وهكذا ظلّ الأفضّل طوال العشرين عامًا التالية حتى وفاته مقتولًا فى سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م هو الحاكم الفعلى للبلاد ، فعُطّل الكثير من رسوم الدولة وحجّر على الخليفة الطفل ونقّل الدواوين وحمل الأسمطة إلى دار الملك التى أنشأها سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٦م على النيل جنوب فسطاط مصر ، وقُلّص دور الخليفة فى الاحتفالات والأعياد .

وفى أعقاب مقتل الوزير الأفضّل وتولّى المأمون البطائحي الوزارة^١، كان من بين الاشتراطات التى طَلَبها الأمر من وزيره المأمون مقابل الأيمان التى أخذها على الخليفة، استعادة عَظَمَة الأعياد والاحتفالات الرسمية التى كان قد مَنَعها الوزير الأفضّل وقُلّص فيها دور الخليفة^٢.

^١ انظر فيما سبق ص ٢٣٣-٢٣٥ .

^٢ ابن المأمون : أخبار مصر ٢٢-٢٣ ؛ المقرئى : المقفى ٦ : ٤٨٢-٤٨٣ .

كان الأمر مفتوناً بعظمة الاحتفالات وفخامتها ويرجع إليه - كما يقول المقرئى -
 الفضل « فى تجديد رسوم الدولة وإعادة بهجتها إليها »^١. والواقع فإن كل ما نعرفه عن
 رسوم خلافة الفاطميين فى مصر وتفاصيل الاحتفالات الموكبية والأنشطة وأنواع الخلع
 والكشوات التى كانت هذه الاحتفالات مناسبة لتفريقها على رجال الدولة ندين به -
 فيما عدا تفتى ذكرها المسبجى فى أول الدولة الفاطمية - إلى هذه الفترة (ابن المأمون
 وابن الطونى) .

وإذا كان الفاطميون قد عرفوا هذه الرسوم فى أول دولتهم ، فقد شهدت فى زمن
 الأمر بأحكام الله تطورا كبيرا وبلغت من الفخامة حدا بعيدا . فوضعت قواعد صارمة
 للبروتوكول حيث تقرر أن يجلس الخليفة الجلوس العام فى قاعة الذهب يومى الاثنين أو
 الخميس من كل أسبوع^٢، بعد أن كان ذلك يتم فى أول الدولة كيفما اتفق^٣ . ورُتب
 لركوب الخليفة ثلاثة أيام من كل أسبوع هى يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الثلاثاء ، فإذا
 لم يتهيأ له الركوب فى أحد هذه الأيام ركب فى يوم غيره . وكان الوزير يركب فى
 يومى السبت والثلاثاء بالرهجية إلى القصر ثم يمضى مع الخليفة إلى التزهة فى بُشتان
 البغل والتاج والخمسة الوجوه وقبة الهواء من ظاهر القاهرة ، أو إلى دار الملك بمصر ، أو
 إلى الهودج الذى أنشأه الخليفة الأمر بجزيرة الروضة^٤ . أما يومى الأحد والأربعاء ، فقد
 كان يجلس فيهما الوزير المأمون فى داره على سبيل الراحة^٥.

^١ المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩١ .

^٢ ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢٠٥ ؛ أبو صالح الأرمنى : أديرة وكنائس مصر ٢ : ٤ ؛ ابن الفرات : تاريخ ٣ : ٧٨ ط ؛
 القلقشندي : صبح ٣ : ٤٩٤ ؛ المقرئى : الخطط ١ : ٣٨٦ .

^٣ السبجى : أخبار مصر ٢٨ ، ٣٦ ، ٣٩ .

^٤ ابن المأمون : أخبار ٩٦-٩٨ ؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٦٨ ؛ ابن ميسر : أخبار ١١١ ؛ ساويرس بن المقفع : تاريخ
 ١/٣ : ٢٤ ؛ المقرئى : المقى ٦ : ٤٩٠ ، تماظ الحنفا ٣ : ٧٨ ، ١٢٩ ، الخطط ١ : ٤٨١ ، ٢ : ٢٩١ .

^٥ المقرئى : تماظ ٣ : ٧٨ .

كذلك كان الخليفة الأموي يَخُول من قصره في أيام النيل بحرمه ويسكن في منظره اللؤلؤة على شاطئ الخليج^١، كما كان وزيره يسكن بدار الذهب المجاورة للؤلؤة على شاطئ الخليج أيضاً^٢؛ حتى « صار الناس في مُدَّة أيامه التي استبد فيها، في لَهْوٍ وعَيْشٍ رَغْدٍ لكثرة عطائه وعطاء حواشيه وأستاذه »^٣.

وشهد عام ١٢٢/٥١٦م عودة الاحتفالات التي أُمِيت منذ الحرب الأهلية وتسلط بدر الجمالي وابنه الأفضل على الدولة . فمع بداية هذا العام أعيد الاحتفال بالموالد الأربعة : النبوي والعلوي والفاطمي والإمام الحاضر ، بعد أن كان الأفضل قد أَبْطَلَ أمرها وقَدَّمَ العهد بها حتى نُسِيَ ذكرها . وأوَّل ما أعيد منها المولد الأمري (مولد الإمام الحاضر) وكان في الثاني عشر من المحرم^٤ .

فبعد وَصَف الاحتفال برمضان والمواكب في عام ٤١٥هـ/١٠٢٥م والتي أوردنا لنا المُسَبَّحِي ، يمضي قرنٌ بأكمله قبل أن تقابلنا مرة أخرى في المصادر أَيَّْةُ إشارة إلى المواكب الاحتفالية أو أَسْمِطَة رمضان . ونظراً لتفروق المعلومات وعموميتها في هذه السنوات المائة ، فإنه من المخاطرة تقديم فكرة عامة عن تَطَوُّر الرسوم الاحتفالية في هذه الفترة^٥ ؛ خاصة وأن التَّظْم والرسوم من أكثر الموضوعات تعرُّضاً للتبديل والتغيير في الدَّوْلَة الواحدة حتى تصل إلى مرحلة الثبات والاستقرار مع قمة ازدهار الدولة .

وقد أورد المؤرِّخ أبو المحاسن بن تَغْرِي يَزْدِي - في آخر ترجمة المُعِزِّ لدين الله - وصفاً لركوب الخلفاء الفاطميين في المواكب العظام ولأَسْمِطَة الطعام التي كانت تُمَدُّ في

^١ ابن المأمون : أخبار : ٥٦ ، ٧١ ، ٩٨ ، ١٠٠ .

^٢ نفسه .

^٣ المقرئ : اتعاظ : ٣ : ١٢٩ ، وقارن ابن ميسر : أخبار : ١١١ .

^٤ ابن المأمون : أخبار : ٣٥ ، المقرئ : المقفى : ٦ : ٤٨٤ . لا نستطيع الجزم بأن جميع الاحتفالات الموكبية قد تَوَقَّفت ببساطة خلال

الفترة التي كان فيها بدر الجمالي وابنه الأفضل الحكام الحقيقيين للدولة الفاطمية ، ولكن ذلك يرجع إلى الغياب العام للمعلومات

عن الاحتفالات خلال السنوات الأخيرة لخلافة المستنصر والفترة التالية حتى عام ٥١٥هـ/١١٢١م .

^٥ Sanders, P., *op.cit.* p.67 .

شهر رمضان والعيدين^١، وبدأه بالعبرة التالية : «والمُعِزُّ هذا هو الذى اسْتَسَنَّ ذلك كله»^٢ . وبذلك أَوْقَعَ أبو المحاسن الباحثين الذين اعتمدوا عليه فى خطأ كبير حيث ظَنَّ هؤلاء الباحثون أن ترتيب هذه الاحتفالات الموكبية استقرَّ على هذه الهيئة منذ زمن المُعِزِّ أَوَّل خلفائهم فى مصر . وهو خطأ فادح ؛ لأن هذه الرُّسوم مرَّت بسلسلة طويلة من التبديل والتغيير ، بل تَوَقَّفت لعدة عقود قبل أن تستقر على الشكل الذى يقدمه لنا ابن الطُّوَيْر - مصدرنا الوحيد فى وصفها - فى أواسط القرن السادس الهجرى .

كان الفاطميون يُنظِّمون الموكب الاحتفالية الأكثر تعقيداً بين كل معاصريهم ، وأرجع ماريوس كانار Marius Canard ذلك إلى تأثير بيزنطى^٣ . ويرجع السبب فى وَفَرَةِ المعلومات التى وَصَلَتْ إلينا عن هذه الاحتفالات إلى حِفْظ المؤرِّخين المتأخِّرين فى العصر المملوكى لروايات المصادر الفاطمية التى قُبِدَت اليوم . والمؤلف الوحيد الذى حَفِظَ لنا الأوصاف الكاملة لهذه الاحتفالات هو ابن الطُّوَيْر القَيسِرانى الذى عاش فى نهاية العصر الفاطمى وبداية العصر الأيوبي . واعتمد كل من القَلْقَشَنْدى وأبو المحاسن ابن تغرى بردى ، تقريباً على أوصافه غير المؤرخة ، أما معاصرهما المقرئى فهو الوحيد الذى اعتمد فى « الحِطَّط » و « اتعاظ الحنفا » - بالإضافة إلى وَصف ابن الطُّوَيْر - على روايات مُؤرَّخة أوردها كلُّ من ابن زولاق والمُسَبِّحى وابن المأمون .

وتكشف لنا هذه الروايات الأخيرة عن اختلافات هامة فى الرُّسوم الاحتفالية لهذه الموكب على امتداد العصر الفاطمى ، بالرغم من أن العديد من خطوطها العامة ظَلَّت ثابتةً دون تغيير .

^١ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٤ : ٧٩-١٠٢ .

^٢ نفسه ٤ : ٧٩ .

^٣ Canard, M., *Le cérémonial fatimite*, p 408; Sanders, P., *El*² art. *Mawâkib* VI, pp. 841-42 .

وقسّم ابن الطّويز ركوب الخلفاء الفاطميين فى المواكب الاحتفالية فى الفترة الفاطمية المتأخّرة إلى نوعين من المواكب : « المَوَاكِب العِظام » و « المَوَاكِب المختصرة » . وجعلَ موضوع الفصل الخامس من كتابه « نُزْهَة المَقْلَتَيْن فى أخبار الدولتين » هو « الركوب فى المواكب العِظام »^١ . وحدّدَها القلقشندى بستة مواكب احتفالية يركب فيها الخليفة فى احتفال فخّم وحوله الوزير وكبار رجال الدولة بالملابس الفاخرة ويطوف فيها البلدين مصر والقاهرة بترتيب معروف . أما « المَوَاكِب المختصرة » فكانت أربعة أيام أو خمسة فيما بين أول العام ورمضان وتتم فى أحد يومى السبت والثلاثاء .

الرُّكُوب فى المَوَاكِب العِظام

وهى ستة ركوبات يتم كل منها برُشوم مُحدّدة ، منها أربعة خاصة بمناسبات دينية هى على ترتيبها (رُكُوبُ أول العام - رُكُوبُ أول شهر رمضان - رُكُوبُ أيّام الجُمُع الثلاث من شهر رمضان - رُكُوبُ صلاة عيدى الفِطْرِ والأَضْحَى) ، واثنان خاصان بأعياد مصرية قومية هى : رُكُوبُ تَخْلِيق المِقياس ورُكُوبُ قَتْع الخليج^٢ . أما الاحتفال الشيعى الوحيد الذى يصحبه رُكُوبٌ للخليفة فهو الاحتفال برُكُوب عيد القَدِير^٣ ولم يعتبره القلقشندى بين المواكب العِظام .

رُكُوبُ أول العام

أهم هذه الاحتفالات الموكبية دون شك هو الاحتفال برُكُوب أول العام (رأس السنة الهجرية) . وواضح من المصادر الفاطمية وكتب الحوَلِيّات أنه لم يكن يُحتفل فى بداية الدولة الفاطمية بأول العام على الطريقة التى يُقدّمها لنا ابن الطّويز فى نهاية الدولة

^١ ابن الطّويز : نُزْهَة المَقْلَتَيْن ١٤٧ ؛ المقرئى : مسودة المواعظ والاعتبار ٢٧٢ .

^٢ القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٤٩٩-٥١٧ ؛ ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ٢ : ٩٣ .

^٣ ابن الطّويز : نُزْهَة المَقْلَتَيْن ١٨٦-١٨٩ ؛ المقرئى : مسودة المواعظ والاعتبار ٨٤-٨٧ .

الفاطمية ، كما أن هذا الاحتفال لم يكن يشمل احتفالاً موكبياً يركب فيه الخليفة ، وإنما كان احتفالاً بسيطاً يتقبَّل فيه الخليفة في مجلسه التهانى بهذه المناسبة .

ويرجع أوَّل خبر يقابلنا في المصادر عن التهنئة بحلول أوَّل العام في الفترة الفاطمية المُبَكِّرة إلى زمن الحاكم بأمر الله ، حيث يقول المقرئى في حوادث سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م- دون شك نقلاً عن المؤرِّخ المُسَبِّحى - « في أوَّل يوم من المحرم ظهر الحاكم ودخل الناسُ فتهنئوه بالعام »^١ ، ولا تشير المصادر بعد ذلك إلى الاحتفال بهذه المناسبة الذى ربما كان يتم بنفس الطريقة ، إلى أن قُطِع في فترة الحرب الأهلية وتسلَّط بدر الجمالى وابنه الأفضَل . وأوَّل إشارة تفصيلية إلى هذا الاحتفال بعد ذلك نجدها في سنة ٥١٧هـ/ ١٢٣١م عندما أصبح المأمون البطائحي وزيراً للأمر بأحكام الله^٢ ، فكان الخليفة والوزير يجلسان في صبيحة هذا اليوم ويحضر « من تجرت العادة بحضوره للتهنئة »^٣ حيث كانت تُفرَّق عليهم دنائير الفُرَّة التى كانت تُضرب بدار الضرب في العشر الأواخر من ذى الحجة بتاريخ السنة التى ركب أولها في هذا اليوم خصيصاً لهذه المناسبة ، فكان الإمام يُوزَّع ذلك على « إخوته وجهاته وقرابته وأرباب الصنائع والمستخدمات وجميع الأستاذين العوالى والأدوان »^٤ ؛ أما ما يختص بالوزير المأمون فكان يُوزَّعه على « أولاده وإخوته والأصحاب والخواشى والأمراء والضيوف والأجناد » . ويضيف ابن المأمون - مصدر هذه المعلومات - « والذى اشتمل عليه المبلغ في هذه السنة نظير ما كان قبلها » ولم يحدِّده . أما ابن الطُّوَّير فذكر أنها كانت تقرب من ثلاثة آلاف دينار* .

ويصف لنا ابن المأمون كذلك الموكب الذى تمَّ في سنة ٥١٧هـ/ ١٢٢٣م يقول :

« ثم ركب الخليفة واستدعى الوزير المأمون ، ثم خرج من باب الذهب وقد نشرت مظلته

^١ المقرئى : اتعاظ الحنفا ٢ : ٢٥ .

^٢ ابن المأمون : أخبار مصر ٥٨-٥٩ .

^٣ نفسه ٥٩ .

^٤ نفسه ٥٨ ؛ ابن الطُّوَّير : نزعة المقتلين ١٦٧ .

* نفسه ٥٨ ؛ نفسه ١٦٧ .

وخدمت الزهجة ، وزُتِب الموكب والجنايب ، ومَصَفَّات العساكر عن يمينه وشماله ، وجميع ثُجَّار البلدين (القاهرة والقُشَطاط) من الجوهرين والصَّيارِف والصَّاعَة والتِّبَازين وغيرهم قد زَيَّنوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة ^١.

وكان الخليفة يخرج بموكبه من باب القُتُوح وحوله العساكر من الفرسان والوُجَّالَة مرتدين أزهى ملابسهم ، كما كانت أبواب الحارات التي يقابلها في طريقه مغلقة بالسُتُور ، ثم يدخل الخليفة إلى القاهرة مرة أخرى من باب النُّصْر « والصَّدقات تُعْمُ المساكين والرسوم تُفَرَّق على المستقرين » إلى أن يعود مرة أخرى إلى القصر ويدخل من باب الذُّهَب فيتلقاه المقرئون بتلاوة القرآن الكريم في طول دهايز القصر . وبعد ذلك يدخل إلى « خِزَانَة الكُشُوء الخاصة » حيث يُغَيَّر ثياب الموكب بغيرها ويتوجّه إلى ثُزْبَة آبائه المعروفة بثُزْبَة الرُّعْفَرَان في الجنوب الغربى للقصر للترحيم على عادته . وبعد ذلك يتوجّه إلى ما يختاره من قصوره على سبيل الراحة ^٢ [شكل ٢] .

وكان كل من الخليفة والوزير يعقد مجلسًا ويمدَّ سِمَاطًا بهذه المناسبة في القصر ودار الوزارة بعد انقضاء الاحتفال ^٣ .

أما الوُصف النموذجي prototype لركوب الخليفة في أوَّل العام فقد أورده ابن الطُّوَيْر (٥٢٤-٦١٧هـ/١١٣٠-١٢٢٠م) ، وهو يعود إلى العقود الثلاثة الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية . ونظرًا لأهمية هذا الوصف بما يشتمل عليه من تفاصيل دقيقة تتناول الاستعداد للموكب والآلات الموكبية المصاحبة له ، وكيفية ركوب الخليفة ومن يكون في صحبته وكيفية استقدامهم ، والطريق الذى يسلكه الموكب فى الذَّهاب والقُود

^١ ابن المأمون : أخبار ٥٨ .

^٢ نفسه ٥٨ ؛ المقرئى : مسودة المراعظ والاعتبار ٢٧٣-٢٧٥ .

^٣ نفسه ٥٩ .

إلى غير ذلك من تفصيلات ، نظرًا لكل ذلك سأورد فيما يلي هذا الوصف الذي ذكره ابن الطونر ، يقول:

التحضير للموكب

« فإذا كان العشر الأواخر من ذى الحجة من كل سنة انتصب كل من المستخدمين بالأماكن التي يأتي ذكرها لإخراج آلات الموكب من الأسلحة وغيرها . فيخرج من خزائن الأسلحة ما يحمله صيَّان الرُكاب^١ حول الخليفة من السَّلاح وهو : الصَّماصيم المصقولة المذهَّبة مكان السيوف المحدثبة لغيرهم ، والدبابيس الملبَّسة بالكيخُخت الأحمر والأسود ورؤوسها مدوّرة مضروسة أيضًا ، واللُّتوت كذلك ، ورؤوسها مستطيلة مضروسة أيضًا ، وآلات يقال لها المَشَوِّفَات وهي عُمد حديد من طول ذراعين مربعة الأشكال بمقابض مدوّرة في أيديهم بعُدّة معلومة من كل صنف فيتسلَّمها نقباؤهم في صمَّانهم وعليهم إعادتها إلى الخزائن بعد تَقْضَى الخدمة بها .

ويخرج لطائفة من العبيد الأقوياء السودان الشباب ويقال لهم : « أَزْبَابُ السَّلاح الصَّغير » ، وهم ثلاثمائة عبد ، لكل واحد حربتان بأسيئة مصقولة تحتها جُلْبُ فِضَّة كل اثنتين في شُرابة ، وثلاثمائة دَرَقَة بِكَوَابِج^٢ فِضَّة يتسلَّم ذلك عرفاؤهم على ما تقدّم ، فيسلمونه للعبيد لكل واحد حربتان ودَرَقَة .

ثم يخرج من خزانة التَّجَلُّل ، وهي من حقوق خَزَائِن السَّلاح ، القَصَب الفضة يرسم تشريف الوزير والأمراء أرباب الوُتَب وأزِمَّة العساكر والطوائف من الفارس

^١ صيَّان الرُكاب . كان عددهم في الدولة الفاطمية يزيد على ألفي رجل ولهم اثنا عشر مقدم هم أصحاب ركاب الخليفة منهم مقدّم المقدّمين وهو صاحب الرُكاب اليمين ولكل من هؤلاء المقدّمين في كل شهر خمسون دينارًا . ابن الطونر : نزعة المقتنين ٨٥ ، ١٢٤ .

^٢ الكيخُخت . صُرِب من الجلود المدبوغة كان يستخدم في عمل الدروع والخَوَاشِين (Dozy, op.cit., II, 515; Cahen, Cl., *Un traité d'armurerie* pp. 114, 116, 117 .

^٣ اللُّتوت جمع لُت . فارسي معرب وهو القدوم والفأس العظيمة . (Cahen, Cl., op.cit., p. 117) .

^٤ الكَوَابِج . عن الكلمة التركية göbek بمعنى شُرّة أى أن في وسطها جِلِيّة أو زخرفة محدّبة أو مقعّرة (Canard, M., op.cit., p. 370 n. 18) .

والراجل، وهى رِمَاح مُلبَّسة بأنابيب الفِصَّة المنقوشة بالذهب إلا ذراعين منها فيشد فى ذلك الحالى من الأنابيب عِدَّة من المَعَاجِر الشُّرْب^١ الملؤنة وتترك أطرافها المرقومة مُشبَّلة كالسَّحَاقِ^٢ وبرؤوسها رَمَامِين^٣ منفوخة فضة مذهبة وأهْلَةٌ مجوِّفة كذلك ، وفيها جلال لها حِجْل إذا تحرَّكت ، وتكون عدَّتُها ما يقرب من مائة .

ومن العَمَّاريات^٤ ، وهى شبه الكجاوات^٥ من الدِّيَاج الأحمر ، وهو أجْلُها ، والأصفر والقرْقوبى والسَّقْلَاطون^٦ مبطنَّة مضبوطة بزنانير^٧ حرير ، وعلى دائر التريع منها مناطق بِكَوَابِج فضة مسمورة فى جلد نظير عدد القصب فيسير من القصب عشرة ومن العَمَّاريات مثلها من الحمر خاصة للوزير .

ويخرج للوزير خاصة لواءان على رمحين طويلين مُلَبَّسين بمثل تلك الأنابيب ونفس اللواء ملفوف غير منشور ، وهذا التشريف يسير أمام الوزير وهو للأمرء من ورائهم ، ثم يسير للأمرء أرباب الوُتَب فى الحِذَم وأولهم صاحب الباب ، وهو أجْلُهُم، خمس قصبات وخمس عَمَّاريات ، ويرسل لإشْفِهَسَلار العساكر أربع قصبات وأربع عَمَّاريات من عِدَّة ألوان، وَمَنْ سواهما من الأمرء على قدر طبقاتهم ثلاث قصبات وثلاث عَمَّاريات ، واثنان واثنان ، وواحدة وواحدة .

^١ المعجر كجنير ج . مَعَاجِر . ثوب يلف به (القاموس ٥٦٠) وفى اللسان ٦ : ٢١٨ أنه ثوب تعتجر به المرأة أصغر من الرداء وأكبر من المَقْتَنَةِ . وقد استخدمه ابن الملمون (أخبار ٥٠) بهذا المعنى عند حديثه على ملابس إحدى نساء الخليفة . والمعجر كذلك ضرب من ثياب اليمن (اللسان والقاموس) . والشُّرْب ج . شروب : مَارَقٌ من الكتان .
^٢ سَنَاقِج ج . سناجق : والسناجق باللغة التركية معناه الطعن ، سميت الراية بذلك لأنها تكون فى أعلى الرمح .

(القلقشندى : صبح ٢ : ١٣٤ ؛ Deny, J., *El² art. Sanjaq* IV, 154) .

^٣ رَمَامِين ج . رمامين . الفاكهة المعروفة .

^٤ عَمَّارية ج . عَمَّاريات . اليهودج يجلس فيه (ناصر خسرو : سفرنامه ٩٤ ، ٩٦ ؛ Dozy, *op.cit.*, II, 171-172) .

^٥ الكجاوات لفظ فارسى بمعنى الحمل أو الحفَّة .

^٦ القُرْقُوبى . نسيج ينسب إلى مدينة قُرْقُوب بالقرب من تُسْتَر فى خوزستان كانت من أكبر مراكز النسيج فى العصر الإسلامى (Serjeant, R.B., *op.cit* p. 45) والسقلاطون نوع من قماش الحرير المغشى بخيوط الذهب (*Ibid.*, p)

259؛ مرزوق : الزخرفة المنسوجة (٥٤) .

^٧ زنار ج . زنانير . يرى إنسترونزف أنها تعنى أربطة جانبية فى مقابل المناطق التى تلمسك اليهودج دائر ما يدور .

ثم يخرج من البُنود الخاص الذيقى المرقوم المثلون عشرة برماح ملبسة بالأنابيب وعلى رؤوسها الرُمَامِين والأهْلَة للوزير خاصة ، ودون هذه البُنود مما هو من الحرير على رماح غير ملبسة ورؤوسها ورمامينها من نحاس مجوف مطلي بالذهب فتكون هذه أمام الأمراء المذكورين من تسعة إلى سبعة إلى خمسة .

ثم يخرج لقوم يقال لهم الشَّيرِيزِيَّة^١ سلاح كل قطعة طول سبعة أذرع ، برأسها طلعة مصقولة وهي من خشب القُطَارِيَّات^٢ داخلية في الطلعة وعقبها حديد مدور السَّفْل ، وهي في كف حاملها الأيمن وهو يفتلها فيه قَتْلًا متدارك الدوران ، وفي يده اليسرى نُشَابَة كبيرة يخطر بها وعدتها ستون مع ستين رجلاً يسيرون رجالة في الموكب يَمْنَة وَيَشْرَة . ثم يخرج من النَّقَّارات حمل عشرين بغلاً على كل بغل ثلاث ، مثل نقَّارات الكوسات بغير كوسات ، يقال لها طُبُول خَلَب يتسلَّمها صُنَاعُها ويسيرون في الموكب اثنين اثنين ولها حِسٌّ مستحسن ، وكان لها ميزة عندهم في التشريف .

ثم يخرج لقوم متطوعين بغير جار ولا جارية ، تقرب عدَّتْهم من مائة رجل لكل واحد دَرَقَة من دَرَق اللُّمَط^٣ ، وهي واسعة ، وسَيْف ، ويسيرون أيضًا رجالة في الموكب ، وهذه وظيفة خَزَائِن السَّلاح .

ثم يحضر حامى خَزَائِن الشُّرُوح ، وهو من الأَسْتَادِينَ الْمُحْتَكِكِينَ ، إليها مع مُشَارِفِهَا ، وهو من الشُّهُودِ الْمُعَدَّلِينَ ، فيخرج منها برسم خاص الخليفة من المركبات الحلى ما هو برسم ركوبه وما يجنب في موكبه مائة سرج ، منها سبعون على سبعين حصانًا ومنها

^١ الشَّيرِيزِيَّة نسبة إلى الشَّيرِيزَات وهي جنس من الرُماح . جاء في كتاب «تبصرة أرباب الألباب» أن طولها خمسة أذرع وأستنها عراض طوال يكون عرضها سعة الفتر وطولها ذراع وأكثر (11 p. *Un traité d'armurerie* Cl. Cahen).

^٢ القُطَارِيَّات من اليونانية Kontarion ، جنس من الرماح يصنع من الخشب الزان والشوح ليست بالطويلة ، اشتهر بصنعها بنو الأصفر ومن جانسهم من الروم وأستنها قصار عراض كهيفة البلطة وما يجرى مجراها (Dozy, op.cit., II, 421).

^٣ اللُّمَط . أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب ، ينسب إليها الدرق لأنهم ينقعون الجلود في الحليب سنة ، فيعملونها فينبو عنها السيف القاطع (القاموس ٨٨٦).

ثلاثون على بغال وبغلات ، كل مركب مصوغ من ذهب أو من ذهب وفضة أو من ذهب مُنَزَّل فيه المينا ، أو من فضة مُنَزَّلة بالمينا ، وروادفها وقَرايسها^١ من نسبتها . ومنها ما هو مرصع بالجواهر الفاتكة وفي أعناقها الأطواق الذهب وقلائد الغنير ، وربما يكون في أيدي وأرجل أكثرها خلاخل مسطوحة دائرة عليها ، ومكان الجلد من السروج الدياج الأحمر والأصفر وغيرهما من الألوان والسقلاطون المنقوش بألوان الحرير ، قيمة كل دابة وما عليها من العدة ألف دينار ، فيُشَرَف الوزير من هذه بعشرة خُصيصن لركوبه وأولاده وإخوته ومن يعزّ عليه من أقاربه ، ويسلم ذلك لغيراء الاصطبلات بالعرض عليهم من الجرائد التي هي ثابتة فيها بعلاماتها في أماكنها وأعدادها ، وعدد كل مركب منقوش عليه مثل أول وثان وثالث إلى آخرها كما هو مسطور في الجرائد فيُعَرَف بذلك قطعة قطعة ويسلمها لغيراء للشدّادين لضمانهم بضمائم عرفاتهم إلى أن تعود وعليهم غرامة ما نقص منها وإعادتها برؤمتها.

ثم يُخرج من الخزانة المذكورة لأرباب الدواوين المرتين في الخدم على مقاديرهم مركبات أيضًا من الحلبي دون ما تقدّم ذكره ما يقرب عدته من ثلاثمائة مركب على خيل وبغلات وبغال يتسلمها لغيراء المقدم ذكرهم على الوجه المذكور ، ويُنتدب حاجب يحضر على التفرقة لفلان وفلان من أرباب الخدم سيقًا وقلما فيُعَرَف كل شدّاد صاحبه فيحضر إليه بالقاهرة ومصر سحر يوم الركوب ولهم من الركاب رسوم من دينار إلى نصف دينار إلى ثلث دينار .

يَوْمُ غَرَضِ الْحَيْلِ

فإذا تكامل هذا الأمر وتسلّم أيضًا الجمالون بالمناخات أغشيية القماريات ، وتكون إزاحة العلة في ذلك كله إلى آخر الثامن والعشرين من ذى الحجة ، وأصبح اليوم التاسع

^١ القزبوس . الحشبة الصغيرة القائمة في مقدم السرج (Dozy, op.cit., II, 324) .

والعشرون ، وهو سلخه على رأى القوم ، عَزَمَ الخليفة على الجلوس فى الشُّبَّاك^١ لعرض دوابه الخاص المقدم ذكرها ويقال له « يوم عرض الخيل » ؛ فيستدعى الوزير بصاحب الرسالة ، وهو من كبار الأستاذين المحنكين وفصحائهم وعقلائهم ومحصليهم، فيمضى إلى استدعائه فى هيئة المسرعين على حصان دِهْرَاج^٢ امتثالاً لأمر الخليفة بالإسراع على خلاف حركته المعتادة ، فإذا عاد مثَل بين يدى الخليفة وأعلمه باستدعاء الوزير فيخرج من مكانه راكباً فى القصر - ولا يركب أحدٌ فى القصر إلا الخليفة^٣ - فينزل فى الشَّهْدَلَا^٤ بدهلِيز باب المَلِك الذى فيه الشُّبَّاك^٥ وعليه من ظاهره للناس سترٌ ، فيقف من جانبه الأيمن زِمَامُ القصر ومن جانبه الأيسر صاحب بيت المال ، وهما من الأستاذين المحنكين . فيركب الوزير من داره وبين يديه الأمراء ، فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء وهو راكب ، ويكون دخوله فى هذا اليوم من باب العيد ولا يزال راكباً إلى أول باب من الدَّهالِيز الطوال^٥ فينزل هناك ويمشى فيها وحواليه حاشيته وغلमानه وأصحابه ومن يراه من أولاده وأقاربه ، فيصل إلى الشُّبَّاك فيجد تحته كرسيًا كبيرًا من كراسى السكين الحديد فيجلس عليه ورجلاه تطأ الأرض ، فإذا استوى جالساً رفع كل أستاذ الستر من جانبه فىرى الخليفة جالساً فى المرتبة الهائلة ، فيقف ويُسَلِّم ويخدم يده إلى الأرض ثلاث مرّات ثم يؤمر بالجلوس على كرسيه فيجلس ، ويستفتح القراء بالقراءة قبل كل شىء بآيات لاثقة بذلك المكان مقدار نصف ساعة ثم يُسَلِّم الأمراء ويُشْرَع فى عرض تلك الدواب الخاص المقدم ذكرها دابة دابة وهى تقاد كالعرائس بأيدى شُدَّادِهَا إلى أن يكتمل عرضها، فيقرأ القراء لحتم ذلك الجلوس ، ويرضى الأستاذان السترين ،

^١ الشُّبَّاك . انظر فيما سبق ص ٣٨٤-٣٨٥ .

^٢ الدَّهْرَجَة . السير السريع ، وحصان دِهْرَاج أى سريع السير (القاموس ٢٤٢) .

^٣ انظر ابن الطوير : نزهة المقلتين ٢١٠ ، واستثنى من ذلك الناصر صلاح الدين ، فقد كان يدخل إلى العاضد فى القصر راكباً (أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٤٠) .

^٤ لا شك أن « غرض الخيل » كان يتم فى فناء داخلى للقصر الشرقى الكبير بالقرب من « دهلِيز باب الملك » حيث كانت توجد « الشَّهْدَلَا » و « الشُّبَّاك » ، يتوصّل إليه من باب العيد .

^٥ عن الدَّهالِيز الطوال انظر فيما سبق ص ٣٨٠-٣٨٢ .

فيقوم الوزير ويدخل إليه ويُقَبَّل يديه ورجليه وينصرف عنه خارجاً إلى داره ، فيركب من مكان نزوله والأمراء بين يديه لوداعه إلى داره ركباً ومشاة إلى قرب المكان ، وينقضى هذا الأمر .

آلات المؤكّب

التاج

فإذا صلى الخليفة الظهر ، بعد انقضاء ما تقدّم ، جلس لعرض ما يلبسه في غد تلك الليلة وهو « يؤمّ استيفتاح القام » بخزائن الكشوات الخاصة ويكون لباسه فيه البياض غير المؤشّح فيعين على منديل^١ خاص وبذلة^٢ ، فأما المنديل فيصلم لشاد التاج الشريف ، ويقال لها « شدة الوقار » ، وهو من الأستاذين المحنكين ، وله مبرة لماسه ما يعلو تاج الخليفة فيشدها شدة غريبة لا يعرفها سواه شكل الأهليلجة ، ثم يحضر إليه « البيعة »^٣ ، وهي جوهرة عظيمة لا يُعرف لها قيمة ، فتتظم هي وحواليها دونها من الجواهر وهي موضوعة في « الحافر » ، وهو شكل الهلال من ياقوت أحمر ليس له مثال في الدنيا ، فينظم على خيوة حرير أحسن وضع فيخيطها شاد التاج بخياطة خفية ممكنة فتكون بأعلا جبهة الخليفة . ويقال : إن زنة الجوهرة سبعة دراهم ، وزنة الحافر أحد عشر مثقالاً وبدائرها قصّب زمرد دُبّاي له قدر عظيم .

المِظلة

ثم يؤمر بشد المِظلة التي تُشاكل تلك البذلة المحضرة بين يديه معها ، وهي مناسبة للثياب^٤ ، ولها عندهم جلالة لكونها تعلو رأس الخليفة . وهي اثنا عشر شؤزكا عرض

^١ انظر فيما سبق ص ٣٨٨ ، ٣٩٣ .

^٢ انظر وصفا لعدد من بدل الخليفة عند ابن المأمون : أخبار ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٥ .

^٣ ذكر صاحب الذخائر والتحف ١٧٧ درة أخرى معروفة بالبيعة كانت عند مسلم بن عبد الله العراقي وباعها إلى

الخليفة الرشيد العباسي بسبعين ألف دينار !

^٤ انتقل الفص الحافر ، وهو من ياقوت أحمر وزنه سبعة دراهم ، إلى الخلفاء الفاطميين بمصر من بنى العباس (الذخائر

والتحف ١٩٣) .

^٥ أكد ابن الطوير : نزعة المقلتين ١٧٧ أنه كان من شرط المظلة عند الفاطميين أن تكون لون الثياب التي يلبسها =

سُفُل كل شَوَزَك شبر ، وطوله ثلاثة أذرع وثلاث ، وآخر الشَوَزَك من فوقٍ دقيقٌ جدًا فيجتمع ما بين الشَوَزَاك في رأس عمودها بدائرة ، وهو قُطْطارية من الزَّان ملبَّسة بأنابيب الذهب ، وفي آخر أنبوبة تلى الرأس من جسمه فلكة بارزة مقدار عرض إبهام تُشَدُّ آخر الشَوَزَاك في حَلَقَةٍ من ذهب وتنزل شَنْقًا في رأس الرُّمَح وهو مفرد فتلقى تلك الفلكة فتمنع المِظْلَةَ من الحدور في العمود المذكور ، ولها أضلاع من خشب الخَلْنَج مربعات مكسوة بورق الذهب على عدد الشوازك خفاف في الوزن طولها طول الشَوَزَاك ، وفيها خطاطيف لطاف وحَلَقٌ يُمَسِّك بعضها بعضًا ، وهى تنضم وتنفتح على طريقة شوكلات الكيزان ، ولها رأس شبه الرُّمَّانة وتعلوه رُمَّانة صغيرة كلها ذهب مرصع بجوهر يظهر للعيان ، ولها رفرف دائر يفتحها من نسبتها عرضه أكثر من شبر ونصف وسفل الرُّمَّانة فاصل يكون مقداره ثلاث أصابع ، فإذا أدخلت الحَلَقَةَ الذهب الجامعة لآخر شوازك المِظْلَةَ في رأس العمود ركبت الرُّمَّانة عليها ولُفَّت في عَرْضِي ديقى مذهب فلا يكشفها منه إلاَّ حاملها عند تسليمها إليه أوَّل وقت الركوب .

لِوَاءُ الحَفْد

ثم يؤمر بشد لِوَائِي الحَفْد المختصين بالخليفة وهما رُمحان طويلان ملبَّسان بمثل أنابيب عمود المِظْلَةَ إلى حد أسنتهما ، وهما من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب ، وهما غير منشورين بل ملفوفين على جسم الرمحين فيشدان ليخرجا بخروج المظلة إلى أميرين من حاشية الخليفة يرسم حملهما .

الرُّمَّات

وتُخْرَج إحدى وعشرون راية لطافًا من الحرير المرقوم ملونة بكتابة تخالف ألوانها من غيره ونص كتابتها : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الآية ١٣ سورة الصف] على رماح

= الخليفة في المركب ، لا تخالف ذلك .

ويبدو أن هذا تقليدًا استجد في القرن السادس ، فالمستحي في مطلع القرن الخامس يذكر في أكثر من موضع أن المظلة كانت تخالف لون ثياب الخليفة (أخبار ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٨٠) وكانت دائمة مظلة مذهبة مثقل . وانظر كذلك

مقومة من القنّا المنتقى طول كل راية ذراعان فى عرض ذراع ونصف فى كل واحدة ثلاث طرازات قُتِّلَمَ لواحد وعشرين رجلاً من فرسان صبيّان الخاص^١، ولهم بشارة عوده سالماً واحد وعشرون ديناراً .

الرّمحان

ثم يخرج رُمحان ، رؤوسهما أهلة من ذهب صامته فى كل واحد سُبُع من ديباج أحمر وأصفر وفى فمه طارئة مستديرة يدخل فيها الرّيح فينتفخان فيظهر شكلهما ويتسلمهما أيضاً فارسان من صبيّان الخاص فيكونان أمام الرايات .

السيف الخاص

ثم يخرج السيف الخاص وهو من صاعقة وقعت على ما يقال ، وجليته ذهب مرصع بالجواهر فى خريطة مرقومة بالذهب لا يظهر إلا رأسه ليسلم إلى حامله مع خروج المظلة أيضاً ، وهو أمير عظيم القدر . وهذه عندهم رتبة جليّة المقدار ، وهو أكبر حامل .

الرّمح

ثم يخرج الرّمح^٢ ، وهو رمح لطيف فى غلاف منظوم من اللؤلؤ وله سنان مختصر بحلية ذهب ، وذروة بكوابح ذهب فيها سعة منسوبة إلى حفزة بن عبد المطلب، رضى الله عنه ، فى غشاء من حرير لتخرج إلى حاملها وهو أمير مُتميّز . ولهذه الخدمة وصاحبها عندهم جلالة .

^١ أى شريط من الكتانة .

^٢ صبيّان الخاص . « أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة » كان إذا مات الرجل منهم وله أولاد حملوا إلى حضرة الخلافة ويدعوا فى أماكن مخصوصة ، ويؤخذ فى تعليمهم الفروسية ويقال لهم « صبيّان الخاص » (ابن ميسر : أخبار ١٤٣ ، المقرئى : الاتعاظ ٣ : ١٩٩ وأسامة بن منقذ : الاعتبار ٣٢) . وهم فى ذلك أشبه بصبيّان الحجر .

^٣ لا شك أن المقصود بذلك هو ما يعرف « بالرمح الشريف » الذى كان يُحتفل وراء الموكب (ابن المأمون : أخبار ٥٣

طريق الموكب

ثم يُعلم الناس بطريق الموكب ، وسلوكه لا يتعدى دورتين إحداهما كبرى والأخرى صغرى . أما الكبرى فمن القصر إلى باب النصر مارًا إلى حوض عز الملك نيا ومسجده هناك وهو أقصاها ، ثم ينمطف على يساره طالبًا باب الفتوح إلى القصر . والأخرى إذا خرج من باب النصر سار حافًا بالسور ودخل من باب الفتوح . فيعلم الناس بسلوك إحداهما فيسيرون إذا ركب الخليفة فيها من غير تبديل للموكب ولا تشويش ولا اختلال . فلا يصبح الصبح من يوم الركوب إلا وقد اجتمع من بالقاهرة ومصر من أرباب الثوب وأرباب التفسيرات من أرباب السيوف والأقلام قيامًا بين القصرين ، وكان مراحمًا واسعًا خاليًا من البناء الذى فيه اليوم ، فيسع القوم لانتظار ركوب الخليفة .

الاستعداد للموكب

ويتكرُّ الأمراء إلى الوزير إلى داره فيركب إلى القصر من غير استدعاء ؛ لأنها خدمة لازمة للخليفة ، فيسير أمامه تشريفه المقدم ذكره والأمراء بين يديه ركبانًا ومشاة ، وأمامه أولاده وإخوته وكل منهم مرخى الذؤابة بلا حنك وهو فى أهبة عظيمة من الثياب الفاخرة والمنديل وهو بالحنك ويتقلد بالسيف المذهب . فإذا وصل القصر ترجل قبله أهله فى أحسن مكان لا تصل الأمراء إليه ، ودخل من باب القصر وهو راكب دون الحاضرين إلى دهليز يقال له « دهليز العمود » فيترجل على مصطبة هناك ويمشى بقية الدهليز إلى القاعة ، فيدخل « مقطع الوزارة » هو وأولاده وإخوته وخواص حواشيه ، ويجلس الأمراء بالقاعة على ديكٍ معدة لذلك مكسوة فى

^١ يرى إنسترونزف أن المقصود هو مسجد يتر وأن سبب مرور الموكب بهذا الموضع هو أن العلوى إبراهيم بن عبد الله ابن حسن ابن حسين مدفون هناك (Canard, M., *op.cit.*, p. 386 n. 84). وهذا غير صحيح فمسجد يتر بعيد جدًا عن باب النصر إذ يقع فى المطرية ، وهى من ضواحي القاهرة الحالية ، ولم أتُعرف على موضع هذا المسجد الذى لم يرد ذكره فى أى مصدر آخر بخلاف ابن الطوير ، فالمقرئى لم يذكر إلا من خلال نص ابن الطوير هذا .

الصيف بالحضر السامان وفي الشتاء بالبسط الجهزمية^١ المحفورة^٢.

فإذا أُدخِلت الدابة لركوب الخليفة وأُشندت إلى الكرسي الذي يركب عليها منه من باب المجلس ، أُخرجت المظلة إلى حاملها فيكشفها مما هي ملفوفة فيه غير مُطَيَّبة ، فيتسلَّمها بإعانة أربعة من الصَّقالبة برسم خدمتها ، فيركزها في آلة حديد مُثَخِّدة شكل القرن المصطخب وهو مشدود في ركاب حاملها الأيمن بقوة وتأکید بعقبها ، فيمسك العمود بحاجز فوق يده فيبقى وهو منتصب واقف ، ولم يُذكر قط أنها اضطربت في ريح عاصف . ثم يخرج السيف فيتسلمه حامله ، فإذا تسلَّمه أُرْخِيت دُؤَابَتُهُ ما دام حاملًا له . ثم تخرج الدَّوَاة فتسلَّم لحاملها ، وهو من الأستاذين المُحَنِّكين ، وكان الوزراء حملوها لقوم من الشُّهود المُعَدِّلين ، وهي الدَّوَاة التي كانت من أعاجيب الزمان ، وهي في نفسها من الذهب وحليتها مُرْجَان وهي ملفوفة في منديل شَرَب بياض مذهب ؛ وقد قال فيها بعض الشعراء يخاطب الخليفة الذي صُنِعت حلية المرجان في وقته ، وهذا من أغرب ما يكون ، يذكر ذلك في يَتِينَ وهما^٣:

أَلَيْسَ لِدَاوَدَ الْحَدِيدُ كَرَامَةٌ فَقَدَرُ مِنْهُ السَّرْدُ كَيْفَ يُرِيدُ
وَلَاَنَّ لَكَ الْمَرْجَانَ وَهُوَ حَجَارَةٌ وَمَقْطَعُهُ صَغْبُ الْمَرَامِ شَدِيدُ

المؤكب

فيخرج الوزير ومن كان معه من « المَقْطَع » وينضم إليه الأمراء ويقفون إلى جانب الدابة ، فيرفع صاحب المجلس الشُّرَّ فيخرج مَنْ كان عند الخليفة للخدمة منهم وفي

^١ الجهزمية . ثياب منسوبة من نحو البسط ، أو هي من الكتان (القاموس ١٤٠٩) .

^٢ تقدم لنا هذه الفقرة وصفاً من الأوصاف القليلة للطبوغرافية الداخلية للقصر الفاطمي الكبير .

ويبدو أن « مَقْطَعُ الْوِزَارَةِ » هو « مجلس الوزارة » أو المكان الذي تُخَصَّص للوزير في المجلس العام بقاعة الذهب ، والذي ذكره ابن المأمون والمقريزي (أخبار ٤٨ ، ٨٨ ، تعاظ ٣ : ٢١٣ وقارن صبحي الأعشى ٣ : ٤٩٥ ، أبا المحاسن :

المجموع ٥ : ٣٠٧) .

^٣ عُجِّلَت هذه الدَّوَاة من قطعة مرجان « عزيزة الوقوع خطرة المقدار » أهداها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ضمن مجموعة من الهدايا في يوم خميس القُدْس سنة ٥٠٢ للخليفة الأمر فُعِلَت منها قطعة واحدة . والبيتان للشاعر أحمد ابن منصور (ابن أَيْلَك : كنز الدرر ٦ : ٤٧٣) .

إثرهم يبرز الخليفة بالهيئة المشروح حالها فى لباسه الثياب المعروضة عليه ، والمنديل الحامل للتيمة بأعلى جبهته ، وهو مُحَنَك مرخى الذؤابة مما يلى جانبه الأيسر ، ويتقلد السيف العربى ، ويده « قضيبُ الملك » ، وهو طول شبر ونصف من عود مكسو بالذهب المرصع بالذُرّ والجَوْهر ، فيُسَلَّم على الوزير قوم مرتَّبون لذلك وعلى أهله وعلى الأمراء بعدهم .

ثم يخرج أولئك أولاً فأولاً ، والوزير يخرج بعد الأمراء ، فيركب ويقف قُبالة باب القصر بهيئته ، ويخرج الخليفة راكباً ، وحواليه الأستاذون ، ودابته ماشية على بُسط مفروشة خيفة من زلقها على الرُخام^١ ، فإذا قارب الباب وظهر وجهه ، ضرب رجل بيوق لطيف من ذهب معوج الرأس يقال له « العَرِيَّة »^٢ بصوت عجيب يخالف أصوات البوقات ، فإذا سمع ذلك ضربت الأبواق فى الموكب ونُشِرت المِظَلَّة وبرز الخليفة من الباب ، ووقف وقفة يسيرة بمقدار ركوب الأستاذين المُحَنَكين وغيرهم من أرباب الرُتب الذين كانوا بالقاعة للخدمة ، وسار الخليفة وعلى يساره صاحب المِظَلَّة وهو يبالغ ألا يزول عنه ظلُّها ، ثم يكتنف الخليفة مقدمو صِبيان الرُكاب ، منهم اثنان فى جانبى الشُكيمتين ، واثنان فى عنق الدابة من الجانبين ، واثنان فى ركابه ، فالأيمن مقدّم المقدمين وهو صاحب المقرعة التى يناولها ويتناولها ، وهو المؤدّى عن الخليفة مدّة ركوبه الأوامر والنواهى .

ويسير الموكب بالحثّ فأولاه فروع الأمراء وأولادهم وأخلاق بعض العسكر ، إلى الأماثل ، إلى أرباب القصب ، إلى أرباب الأطواق ، إلى الأستاذين المُحَنَكين ، إلى حاملى اللوائين من الجانبين ، إلى حامل الدؤاة وهى بينه وبين قَرْبُوس السُرَج ، إلى

^١ هذه العبارة توضح أن أرضية القصر كانت مبلّطة بالرخام ، وهو ما يؤكد وصف غوليوم أسقف صور Guillaume de Tyr ، كما نقله جستاف شلمبرج إلى الفرنسية ، فهو يصف من بين أجزاء القصر « فناءً مكشوقاً تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان » « Une vaste cour découverte qu'entouraient de magnifiques portiques à colonnades, cour toute pavée de marbres de diverses couleurs » (Schlumberger, G., *Campagnes du Roi Amaury I^{er} de Jérusalem en Egypte* . au XII, Paris 1906, pp. 118-119

^٢ عرفت بذلك لغابة فى شكلها أو صوتها .

صاحب السيوف ، وهما في الجانب الأيسر ، كل واحد . فمن تقدّم ذكره بين عشرة إلى عشرين من أصحابه ، ويحجبه أهل الوزير المقدم ذكرهم من الجانب الأيمن بعد الأستاذين المحنّكين .

ثم يأتي الخليفة وحواليه « صبيان الرّكاب » المذكور تفرقة السلاح فيهم ، وهم أكثر من ألف رجل ، وعليهم المناديل الطبقيات ، وهم متقلدون بالسيوف ، وأوساطهم مشدودة بمناديل ، وفي أيديهم السلاح مشهور ، وهم من جانبي الخليفة كالجنّاحين المادين ، وبينهما فرجة لوجه الذّابة ليس فيها أحد ، وبالقرب من رأسها الصقليان الحاملان « لليدبّتين » ، وهما مرفوعتان كالنخلتين لما يسقط من طائر وغيره ، وهو سائر على تودة ورفق .

وفي طول الموكب من أوّله إلى آخره « والى القاهرة » ماؤا وعائداً لفتح الطرقات وتسيير الركبان ، فيلقى في عوده الإشفهستلار كذلك ماؤا وعائداً لحثّ الناس والأجناد في الحركة ، والإنكار على المزااحمين المعترضين ، فيلقى في عوده صاحب الباب ، ومروره في زمرة الخليفة إلى أن يصل إلى الإشفهستلار ، فيعود لترتيب الموكب وحراسة طرقات الخليفة ، وفي يد كل منهم دُبّوس ، وهو راكب خيّر دوابه وأسرعها ، هذا كله أمام الموكب . ثم يسير خلف دابة الخليفة قومٌ من « صبيان الرّكاب » لحفظ أعقابها ، ثم عدّة يحملون عشرة سيوف في خرائط دياج أحمر وأصفر بشراريف غزيرة يقال لها : « شُيوف الدّم » برسم ضرب الأعناق^١ ؛ ثم يسير بعدهم صبيان السّلاح الصغير أرباب القُرُنْجِيَّات المقدم ذكرهم أوّلاً^٢.

ثم يأتي الوزير في هيئته وفي ركابه من أصحابه قومٌ يقال لهم : « صبيان الرّزْد »^١ من

^١ وكان صبيان الرّكاب في أول الدولة الفاطمية يعرفون « بالشقيّة » ، وكانوا نحو مائة رجل يختصون بركاب السلطان [الخليفة] ويحملون سيوفاً محلاة بين يديه ، يعرفون لأجلها « بأصحاب السيوف الحلى » . وقد جرت عادتهم في أيام الحاكم بأمر الله أن يتولّوا قتل من يؤمّر بقتله (المقرئى : اتعاظ الحنفا ٢ : ١٢٧) .

^٢ لا شك أن المقصود هم « أرباب السّلاح الصغير » وعددهم ثلاثمائة المذكورين عند ابن الطوير : نزهة ١٤٨ .

أقوياء الأجناد باختياره لنفسه ما مقداره خمسمائة رجل من جانبيه بفرجة لطيفة أمامه دون فرجة الخليفة وكأنه على وقار من حراسة الخليفة ، ويجتهد ألا يغيب عن نظره ، وخلفه الطبول والصنوج والصفافير ، وهو مع عدّة كثيرة تدوى بأصواتها وحسها الدنيا .

ثم يأتى حاملُ الرُفح المقدم ذكره ودَزَقَة حَمَزَة ثم طوائف الراجل من الريحانية والجيشية وقبلهما المصايمة ثم الفرنجية ثم الوزيرية زُفْرَة زُفْرَة فى عدّة وافرة تزيد على أربعة آلاف فى الوقت الحاضر وهو أضعاف ذلك ؛ ثم أصحاب الرايات والسبعين ، ثم طوائف العساكر من الآمرية والحافظية والحجّرية الكبار والحجّرية الصغار المنقولين والأفضلية والجيشية ، ثم الأتراك المُصْطَلَعين ثم الدَّيْلَم ثم الأكراد ثم الغَزّ المُصْطَلَعَة ، وقد كان تقدّم هؤلاء الفرسان عدّة وافرة من المترجّلة أرباب قيسى اليد وقيسى الرجل فى أكثر من خمسمائة وهم المعدّون للأساطيل ، ويكون من الفرسان المقدم ذكرهم ما يزيد على ثلاثة آلاف وهذا كله بعض من كل .

فإذا انتهى الموكب إلى المكان المحدود عادوا على أدراجهم ، ويدخلون من باب الفتوح ويقفون بين القصرين بعد الركوب كما كانوا قبله . فإذا وصل الخليفة إلى الجامع الأقمر ، بالقماحين اليوم ، وقف وقفةً بجملته فى موكبه ، وانفرج الموكب للوزير

^١ صبيان الزرد . هم أوباش العسكر وزُفْرار الناس الذين اجتمعوا إلى الحسن بن الحافظ فى صراعه مع أبيه الخليفة الحافظ لدين الله سنة ٥٢٩ ، ففرّق فيهم الزرد وسماههم صبيان الزرد وجعلهم خاصته (ساويرس بن المقفع : تاريخ بطارقة الكنيسة ١/٣ : ٢٨ ، المقرئى : المقى ٣ : ٤١٦) . ويدل هذا النص على أن الوزير ، خلال هذا الموكب ، كان على غير وفاق مع الخليفة لحرصه على أن يكون مخفورا بصبيان الزرد . وأرجح أن يكون هذا الوزير هو العادل بن الشّالر (انظر الطوير : نزّهة ٥٩) .

^٢ علّهم الطائفة الفرجية أو الفرنجية أرباب الفرنجيات . وقد ذكر المتبحر قوما من السودان سماهم : الفرجية (أخبار

فتحرك مسرعاً ليصير أمام الخليفة ليدخل بين يديه فيمر بالخليفة فيتشكع سَكْعَةً ظاهرة^١ فيشير الخليفة للسلام عليه إشارة خفيفة ، وهذا أعظم مكارمة تصدر عن الخليفة ولا تكون إلا للوزير صاحب السيف ، فيفارقه ويسبقه إلى دخول الباب بالقصر راكباً على عادته إلى موضعه ، ويكون الأمراء قد نزلوا قبله لأنهم في أوائل الموكب ؛ فإذا وصل الخليفة إلى باب القصر ودخله وترجل الوزير ودخل قبله الأستاذون المحتشون فيحدقون به والوزير أمام وجه دابته من مكان ترجله إلى الكرسي الذي ركب منه فينزل عليه ويدخل إلى مكانه بعد خدمة المذكورين له ، فيخرج الوزير فيركب من مكانه الجارى به عادته والأمراء بين يديه وأقاربه بين يديه إلى داره فيدخل ، وينزل أيضاً إلى مكانه على كرسي فتخدمه الجماعة بالوداع^٢.

رُكُوبُ أَوَّلِ شَهْرِ رَمَضَانَ

يجرى أمر هذا الاحتفال الموكبي في اللباس والآلات والأسلحة والعرض والترتيب والموكب والطريق المسلوكة ، مثل ما كان يجرى في رُكُوبِ أَوَّلِ العام . وهو يقوم عند الفاطميين مقام الرؤفة عند أهل السنة^٣.

^١ سَكْعَ . لا يدرى أين يتوجه من الأرض أو تحير ، ورجل سكَع أى منحير (تاج العروس ٥ : ٣٨٣) . وانظر ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٨١ ؛ وراجع Canard, M., *Le cérémonial fatimite* p. 382 الذى فهم سكَع بمعنى أدار وجهه تجاه الخليفة عرساً عن السلام !! .

^٢ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٤٧-١٦٧ ؛ ومسودة المواعظ والاعتبار ١٨٩-٢٠٨ . المقرئى : الخطط ١ : ٤٤٦-٤٥٠ . وقارن ، القلقشندي : صبح ٣ : ٤٤٩-٥٠٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٤ : ٧٩-٩٤ .

^٣ راجع ، المسبحى : أخبار مصر ٦١ ؛ ابن المأمون : أخبار ٥٤ ، ٨١ ؛ (أول رمضان سنة ٥١٧ هـ / ٢٣ أكتوبر سنة ١١٢٣ م) ؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٧١ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٥٠٥ ؛ المقرئى : الخطط ١ : ٤٠٩ ، والانتماط ٢ : ١٥٨-١٥٩ ، ٣ : ١٠٢ .

رُكُوبُ أَيَّامِ الْجُمُعِ الثَّلَاثِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ

بعد انقضاء رُكُوبِ أوَّل شهر رمضان يستريح الإمام (الخليفة) فى أوَّل جمعة . ويركب فى الجمعة الثانية إلى الجامع الأنور [الحاكم] وفى الجمعة الثالثة إلى الجامع الأزهر بالقاهرة ، وفى الجمعة الأخيرة إلى جامع عمرو بالقسطنطينية ، وكان الإمام (الخليفة) يرتدى فى هذه الأيام الثلاثة الثياب الحرير البيض توقيرًا للصلاة من الذهب ، والمنديل والطَّيْلَسَانِ المَقْرُورِ الشعرى . وكان يتقدّمه فى أوائل النهار صاحب بيت المال ومعه القُرُش المختص بالخليفة فى هذا اليوم محمولًا بأيدي القَرَّاشِينَ المميزين وملفوفًا فى القراضى الدِّيَقِيَّةِ ، فيُفَرِّشُ فى المحراب ثلاث طَرَاحَات ، إما سامان وإما دَيِّقَى أبيض كلٌّ منها منقوش بالحرمة ، فتجعل الطَرَاحَات متطابقات . ويستمر ابن الطَّوْثِرِ مصدرنا فى هذا القُصْفِ فى روايته يقول :

« إذا انقضى ركوب أوَّل شهر رَمَضَانَ استراح [الخليفة] فى أوَّل جمعة^١ . فإذا كانت الثانية ركب الخليفة إلى الجامع الأنور الكبير فى هيئة المواسم وما تقدّم ذكره من الآلات ، ولباسه فيه ثياب الحرير البيض ، توقيرًا للصلاة من الذهب ، والمنديل والطَّيْلَسَانِ المَقْرُورِ الشعرى . فيدخل من باب الخطابة والوزير معه بعد أن يتقدّمه فى أوائل النهار صاحب بيت المال وبين يديه القُرُش المختصة بالخليفة إذا صار إليه فى هذا اليوم ، وهو محمول بأيدي القَرَّاشِينَ المميزين ، وملفوف فى القراضى الدِّيَقِيَّةِ فيفرض فى

^١ فى رواية ابن عبد الظاهر : « صبيان بيت المال »

^٢ فى رواية ابن عبد الظاهر : « عدة سجادات مفروزة مبطنة وبأعلامها سجادة لطيفة لا تكشف إلا عند توجّد الخليفة إلى المحراب (الروضة البهية ٣٦) .

^٣ تبعًا لما ورد عند المسبّح فإن الخليفة كان يصلى الجمعة الأولى ، قبل بناء الجامع الأنور ، فى جامع القاهرة (الجامع الأزهر) (نعوص ضائعة ١٣) . ومع ذلك فإنه بعد بناء الجامع الأنور كانت العادة فى أوّل الدولة الفاطمية فى الركوب لصلاة جمع رمضان تختلف قليلًا عن الوصف الذى أورده ابن الطَّوْثِرِ فى آخر الدولة ، فالمسبّح يذكر فى حوادث سنة ٤١٥ أن الخليفة كان يركب فى أوّل جمعة من رمضان إلى الجامع الأزهر ثم يستريح الجمعة =

المحراب ثلاث طرّاحات ، إما سامان وإما ديقى أبيض أحسن ما يكون من صنفهما كل منقوش بالحفرة ، فتجعل الطّراحات متطابقات . ويُعلّق ستران يمتّعة وتُشتر ، وفي السّتر الأيمن كتابة مرقومة بالحرير الأحمر واضحة منقوطة أولها « البشّملة » و « الفاتحة » و « سورة الجمعة » ، وفي السّتر الأيسر مثل ذلك وسورة : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ [الآية ١ سورة المنافقون] قد أشبّلا وفرشا في التعليق بجانبى المحراب لاصقين بجسمه . ثم يصعد قاضى القضاة المنبر وفي يده مدخنة لطيفة خيژران يُخضِرُها إليه صاحب بيت المال فيها جمرات ويجعل فيها نَدّ مثلث لا يُشَمُّ مثله إلا هناك ، فيُشخّر الذروة التى عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ، ويكرّر ذلك ثلاث دفعات ؛ فيأتى فى هيئة موقرة من الطبل والبوق وحوالى ركابه خارج أصحاب الركاب القراء ، وهم قراء الحضرة من الجانبين يطربون بالقراءة نوبة بعد نوبة يستفتحون بذلك من ركوبه من الكرسي على ما تقدّم طول طريقه إلى قاعة الخطابة من الجامع . ثم تحفّظ المقصورة من خارجها بترتيب صاحب الباب وإشفهستلار العساكر ، ومن أولها إلى آخرها صبيان الخاص وغيرهم ممن يجرى مجراهم ، ومن داخلها من باب خروجه إلى المنبر واحد فواحد ، فيجلس فى القاعة وإن احتاج إلى تجديد وضوء فقل والوزير فى مكان آخر .

فإذا أُذن بالجمعة دخل إليه قاضى القضاة فقال : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله » ، فيخرج ماشيا وحواليه الأستاذون المحنكون والوزير وراءه ومن يليهم من الخواص وبأيديهم الأسلحة من صبيان

= الثانية ويركب الجمعة الثالثة إلى الجامع الأنور ولكنه لم يذكر مكان صلاة الجمعة الثالثة (أخبار ٦٢ ، ٦٤) وتبعه فى ذلك ابن المأمون فذكر أن الخليفة كان يصلى الجمعة الأولى بالجامع الأزهر والجمعة الثانية بالجامع الأنور ولم يتعرض للجمعة الثالثة (أخبار ٥٤ ، ٨١) وسقى ابن عبد الظاهر الجمعة التى يستريح فيها الخليفة « جمعة الراحة » (ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ٣٦ ، ٣٩) .

الخاص ، وهم أمراء وعليهم هذا الاسم . فيصعد المنبر إلى أن يصل إلى الذروة تحت القبة المُبَخَّرَة ، فإذا استوى جالسًا والوزير على باب المنبر ووجهه إليه فيشير إليه بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه فيَقْبَلُ يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يُزَوَّرُ عليه تلك القبة لأنها كالهَوْدَج ، ثم ينزل مستقبلًا فيقف ضابطًا لباب المنبر ، فإن لم يكن ثم وزير صاحب سيف زُرَّ عليه قاضى القضاة^١ كذلك ، ووقف صاحب الباب ضابطًا للمنبر ، فيخطب خطبة قصيرة من مسطور يُخَضَّرُ إليه من ديوان الإثشاء يقرأ فيه آية من القرآن الكريم . ولقد سمعته مرة في خطابه بالجامع الأزهر وقد قرأ في خطبته^٢ : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ [الآية ١٥ من سورة الأحقاف] . ثم يصلى على أبيه وجده - ويعنى بهما محمدًا ﷺ وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - ويعظ الناس وَغَطًّا بليغًا قليل اللفظ . وتشتمل الخطبة على ألفاظ جزلة ، ويذكر مَنْ سَلَفَ من آبائه حتى يصل إلى نفسه فقال وأنا أسمع : « اللَّهُمَّ وأنا عبدك وابن عبدك لا أملك لنفسي ضَرًّا ولا نَفْعًا » ويتوسل بدعوات فخمة تليق بمثله ، ويدعو للوزير إن كان ، وللجيوش بالنصر والتأليف . ، وللعساكر بالطَّفر ، وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك والقهر ، ثم يختم بقوله : « اذكروا الله يذكركم » ، فيطلع إليه من زُرَّ عليه ويفك ذلك التزير وينزل القهقري . وسبب التزير عليهم قراءتهم من مسطور لا كعادة الخطباء . فينزل الخليفة ويصير على تلك الطراحات الثلاث فى المحراب وحده إمامًا ويقف الوزير وقاضى القضاة صفًا ومن ورائهما الأستاذون المحنكون و الأمراء المطوقون وأرباب الوتب من أصحاب السيوف والأقلام ، والمؤذنون وقوف وظهورهم إلى

^١ ذلك لأن وزير السيف كان يجمع إلى الوزارة وظيفة قضاء القضاة وداعى الدعاة وقيادة الجيش .

^٢ للأسف لم يحدّد لنا ابن الطَّوَّز الخليفة الذى خطب هذه الخطبة لتعرف على التقريب الفترة التى دَوَّنَ فيها كتابه .

المقصورة لحفظه . فإذا سمع الوزير الخليفة أستمع القاضى فأستمع القاضى المؤذنين وأستمع المؤذنون الناس ، هذا والجامع مشحون بالعالم للصلاة وراه . فيقرأ ما هو مكتوب فى الستر الأيمن فى الركعة الأولى ، وفى الركعة الثانية ما هو مكتوب فى الستر الأيسر وذلك على طريق التذكار خيفة الارتجاج . فإذا فرغ خرج الناس وركبوا أولاً فأولاً ، وعاد طالباً القصر والوزير وراه ، وضربت البوقات والطبول فى العود .

فإذا أتت الجمعة الثانية ركب إلى الجامع الأزهر من القشاشين^١ على المنوال الذى ذكرناه والقالب الذى وصفناه .

فإذا كانت الجمعة الثالثة أعلم بركوبه إلى مصر للخطابة فى جامعها ، فيُزَيَّن له أهل القاهرة من باب القصر إلى جامع ابن طولون ، ويُزَيَّن له أهل مصر من جامع ابن طولون إلى الجامع بمصر^٢، يرتب ذلك وإلى مصر كل أهل معيشة فى مكان ، فيُظهر المختار من الآلات والستور والمثمنات ، ويهتمون بذلك ثلاثة أيام بلياليهن . والوالى ماز وعائد بينهم وقد ندب من يحفظ الناس ومتاعهم . فيركب يوم الجمعة المذكور شاقاً لذلك كله على الشارع الأعظم إلى مسجد عبد الله^٣ ، الحراب اليوم ، إلى دار الأنساط

^١ القشاشين . التى عرفت فيما بعد بالخراطين هى الموضع الذى يعرف اليوم بشارع السنادقية بالأزهر .

^٢ يمكن أن نفهم من هذا النص أن جامع ابن طولون كان هو الحد الفاصل ، من الناحية الإدارية ، بين القاهرة والفسطاط .

^٣ مسجد عبد الله . هذا المسجد ابتناه والى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٦-٥٩٠ هـ) (الكندى : الولاة والقضاة ٥٩) . وكان موضعه مكاناً يجلس فيه أهل الفسطاط يتحدثون فيه ، فسألوهم عبد الله بن عبد الملك أن يبنى لهم فيه مسجدًا ، وشكوا إليه ما يلقون من الشمس ، فبناء فكانوا يجتمعون فيه . وعندما دخل العباسيون مصر أمر صالح بن على بهدمه ، ثم لما شريف عن مصر بناء بعض جبرته بنياناً غير طائل . فلما تولى عبد الرحمن بن عبد الله المعرى قضاء مصر من قبل هارون الرشيد سنة ١٨٥ هـ هدمه وأعاد بناءه وكتب قضية بذلك جاء فيها أنه « خيف على سقفه من قتل خشبه واحتاج إلى العمارة والمرئة فى جذره ... وأن كل ما كان تحت هذا المسجد وما فوقه الثلاثة الأنجحة التى كانت حوله ملصقة به ، أن ذلك كله من حق هذا المسجد وحدوده ليس لأحد فيه حق ولا دعوة ولا =

إلى الجامع بمصر^١، فيدخل إليه من المَقُونَة^٢ ومنها باب متّصل بقاعة الخطيب بالزّي الذي تقدّم ذكره في خطبة الجامعين بالقاهرة وعلى ترتيبهما . فإذا قضى الصلاة عاد إلى القاهرة من طريقه بعينها شاقاً بالزينة إلى أن يصل إلى القصر ويعطى أرباب المساجد التي يمرّ عليها كل واحد ديناراً^٣ .

ويُقدّم لنا المؤرّخ محيى الدين ابن عبد الظّاهر كذلك وصفاً لهيئة الخليفة في صلاة الجمعة في رمضان في الجامع الأزهر - وهي أوّل جمعة يركب فيها الخليفة في شهر رمضان - يشتمل على تفاصيل لا توجد في النّصّ النموذجي الذي قدّمه لنا ابن الطّونز . فمن ذلك أن الجامع كان يُجهّز لاستقبال الخليفة بإطلاق البخور فيه وإغلاق أبوابه ووقوف الحُجّاب عليها ، ولا يُمكن بواب الجامع أحدًا من دخوله إلّا من كان معروفًا من الخواص والأعيان ، كما تُضرب سلسلة في ركن الجامع لمنع مرور أحد من هناك . ويخرج الخليفة قبل موعد الأذان من باب الدّهَب وعلى رأسه المِظَلَّة بشدّة الجوّهر والطّيْلَسَان وبصحبه المؤدّنون يقرأون القرآن ، والدكاكين التي يمر عليها مُزَيّنَةٌ بأواني الدّهَب والفضة إلى أن يصل إلى رَحبة الجامع الأزهر ومعه الوزير بين يديه ، فتُحطّ السلسلة ويستمر الخليفة راكبًا إلى باب الجامع الذي قبالة دَرْب الأثراك فيدخل من باب الجامع إلى الدّهليز الأول الصغير ومنه إلى القاعة المخصصة لجلوس الخليفة فيجلس في

= طلبه بوجه من الوجوه وجعلت له حوائث تحته في حقوقه لتكون غلتها في مرته إن احتاج إليها ، وذلك في صفر سنة ثمان وثمانين ومائة (الكندى : الولاة والقضاة ٤٠٦-٤١٠ وانظر ، ابن دقماق : الانتصار ٤ : ١٣ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٩١ ، ٥ : ٤٢ ، المقرئى : الخطوط ١ : ٣٣١ ، ٢ : ٢٧٠ ، ٢٨٠ وفيه أن هذا المسجد صار خرابًا في عصره (ابن حجر : رفع الإصر ١ : ٣٢٦) . وربما يدل على موضع هذا المسجد اليوم المسجد المعروف بمسجد أبى السعود الجارحى بمصر القديمة .

^١ هذا هو نفس طريق المواكب المختصرة .

^٢ المَقُونَة . هى مقر الشرطة .

^٣ المقرئى : الخطوط ٢ : ٢٨٠-٢٨٢ وقارن ، القلقشندى : صبح ٣ : ٥٠٨-٥٠٥ ، Sanders, P., *op.cit.*, pp. 89-

مجلسها وتُزخى عليه المقرّمة الحرير (أى ستر رقيق) ويجلس المؤذّنون يقرأون وعندئذ تفتح أبواب الجامع لاستقبال المصلين ، فإذا آن وقت الأذان .

« أَذّن مؤذّنو القصر كلهم على باب مجلس الخليفة ورئيس الجامع على باب المنبر وبقية المؤذّنين فى المآذن ، فعندما يسمع قاضى القضاة الأذان يتوجّه إلى المنبر فيَقْبِلُ أوّل درجة ، وبعده متولّى بيت المال ومعه الميخنة ولم يزلَا يَقْبِلَانِ درجة بعد درجة إلى أن يصلّا إلى ذروة المنبر ويفتح القاضى يده التزير ويرفع الشتر ويتناول من متولّى بيت المال الميخنة وَيَقْبِلَانِ الدَّرَجَ وهما نازلان .

ويخرج الخليفة والمقرّون بين يديه يتلقونه بالقراءة إلى أن يصل إلى المنبر . فإذا صار أعلى المنبر أشار إلى الوزير بالطلوع فيطلع وهو يَقْبِلُ الدَّرَجَ حتى يصل إليه ويُزَرَّرَ عليه القبة ، ثم ينزل ويقف على الدرجة الأولى ويجهر المقرّون ثم يُكَبِّرُ المؤذّنون ويخطب الخليفة ، فإذا فرغ من خطبته طلع إليه الوزير وحلّ الأزرار فينزل الخليفة وعن يمينه ويساره الوزير والقاضى ، والداعى بين يديه ، والقاضى والداعى هما اللذان يوصلان الأذان للمؤذّنين ^١ .

وكان الخليفة يقوم بعد تمام الصلاة بتفريق رُشوم على الذين صحبوه فى الصلاة وهى : ثلاثة دنانير لكل من النائب فى الخطابة وللنائب فى الصلوات الخمس ، أربعة دنانير للمؤذّنين والقوّمة ، ثلاثة دنانير لكل من خازن خزانة القَرْش وفراشها ومتوليها ، ديناران لصبيان بيت المال ومعبيء الفاكهة . ويطلق الخليفة الرسوم للقراء فى كل ركوب حين يركب ويرجع إلى القصر وتعم الصدقات جميع الناس . أما الفواكه التى تُعْبَأُ بالجامع فإنها تُباع بجملة كبيرة ويتزاحم الناس على شرائها تبرؤكاً بها ويُقَسَّمُ منها بالتساوى بين إمام الجامع والمؤذّنين والقوّمة .

^١ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ٣٧-٣٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٤ : ١٠٣-١٠٤ .

ونظروا لأن الأمر بأحكام الله كان فيه هَوَجٌ عند طلوعه المنبر في خطبته في الجمع فقد كان الوزير ينوب عنه في هذه المهمة^١ ؟

رُكُوب صلاة عيد الفطر

أُورِدَ لنا ابن زولاق وَصْفًا لأول صلاة عيد فطر أداها الخليفة المُعَزَّز لدين الله بالقاهرة سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م^٢. وفي آخر رمضان سنة ٣٨٠هـ/يناير سنة ٩٩١م ذكر المُسَبِّحِي أَنَّهُ بُنِيَتْ مصاطب ما بين القصر والمُصَلَّى خارج باب النُصْر يجلس عليها المؤذنون حتى يُتَّصَلَ التكبير من المُصَلَّى إلى القصر ، وأضاف أن الخليفة العزيز بالله ركب لصلاة العيد

« وبين يديه الجنائب والقباب الدياج بالخلي ، والعسكر في زيه من الأتراك والدثائم والعززية والإخشيدية والكافورية ، وأهل العراق بالدياج الثقيل والسيوف والمناطق الذهب ، وعلى الجنائب السروج الذهب بالجواهر والسروج الغنبر ، وبين يديه الفَيْتَلَة عليها الرجالة بالسلاح والزرافة ، وخرج بالمِظْلَة المُثَقَّلَة بالجواهر وبين يديه قضيبٌ جده عليه السلام ، فصلَّى على رسمه وانصرف »^٣.

وَيُقَدِّمُ لنا المُسَبِّحِي بعد ذلك وَصْفًا لركوب الخليفة الظَّاهر لإعزاز دين الله لصلاة عيد الفطر سنة ٤١٥هـ/١٠٢٥م^٤. ووَرَدَ في السَّجَلَاتِ المستنصرية ذكره لركوب الخليفة المستنصر بالله لصلاة عيد الفطر في سنوات ٤٤٥ ، ٤٥١ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠هـ^٥، ويبدو أن الوزير الأَفْضَل قَلَّلَ من دَوْر الإمام (الخليفة) في صلاة العيد خاصة بعد انتقاله إلى دار الملك بالقُشَطَاط سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م ، فيذكر المقرئ أن ركوب الخليفة لصلاة العيد في المُصَلَّى ظاهر باب النُصْر وإلقائه حُطْبَة العيد « كان قد بَطُلَ في

^١ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ٣٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٤ : ١٠٤ .

^٢ ابن ميسر : أخبار مصر ١٥٩-١٦٠ ؛ المقرئ : مسودة المواعظ والاعتبار ١٨٤-١٨٥ والخطوط ١ : ٤٥١ واتعاظ

الحنفا ١ : ١٣٧-١٣٨ .

^٣ المسبَّحِي : نصوص ضائعة ١٣ ، المقرئ : مسودة المواعظ والاعتبار ١٨٥ .

^٤ نفسه ١٣ ؛ نفسه ١٨٦ .

^٥ المسبَّحِي : أخبار مصر ٦٥-٦٧ ؛ المقرئ : اتعاظ الحنفا ٢ : ١٦١ .

^٦ السجلات المستنصرية أرقام ١٣ ، ١ ، ٣١ ، ١٩ ، ١٨ .

الأيام الجيوشية والأفضلية^١ ، لا شك أن ذلك كان بعد سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٨م - وهو آخر تاريخ فى السجلات المستنصرية يُخبر فيه المستنصر دُعائه باليمن عن ركوبه لصلاة العيد - ولا شك أن ذلك أيضًا كان بإيعاز من الأفضل الذى شارك والده أمير الجيوش فى أعقاب هذا التاريخ^٢ ، يقول ابن المأمون :

« ولما توفى أمير الجيوش بدر الجمالى وانتقل الأمر إلى ولده الأفضل بن أمير الجيوش ، جرى على شئته والده فى صلاة العيد ، ويقف فى قوس باب داره الذى عند باب النضر ، فلما سكن بمصر صار يطلع من مصر باكراً ويقف على باب داره على الحالة الأولى إلى أن تستحق الصلاة فيدخل من باب العيد إلى الإيوان ويُصلى به القاضى ، ثم يجلس بعد الصلاة على المرتبة إلى أن تنقضى الخطبة ، فيدخل من باب الملك ويُسلم على الخليفة بحيث لا يراه أحدٌ غيره فيتخلع عليه ويتوجه إلى داره بمصر فيكون الشماط بها^٣ . »

لا شك أن تقليص دور الإمام (الخليفة) فى احتفال صلاة العيد كان من بين الأمور التى طلب الأمر بأحكام الله من المأمون أن يعيدها إلى سابق عهدها ، وأجابه المأمون أن ذلك نقص فى حق العيد وأنه لا يعلم السبب الذى يمنع الخليفة من الظهور ، وعندما استفسر منه الخليفة عما يراه فى هذا الأمر قال له :

« يجلس مولانا فى المنظرة التى استحدثت بين باب الذهب وباب البحر - وهى إحدى المناظر الثلاث التى استجدهن الوزير على قوس باب الذهب - ويقف المملوك بين يديه فى قوس باب الذهب وتجوز العساكر جميعها فارسها وراجلها وتشملها بركة نظر مولانا إليها ، فإذا حان وقت الصلاة توجه المملوك بالمركب والزى وجميع

^١ المقرئى : تماط الحنفا : ٣ : ٨٣ .

^٢ ابن ميسر : أخبار مصر ٨١ .

^٣ ابن المأمون : أخبار مصر ٢٣ ؛ المقرئى : مسودة المواعظ والاعتبار ١٨٦ .

الأمرء واجتاز بأبواب القصور ودخل الإيوان . فاستحسن ذلك منه واستصوبه وبالغ
فى شكره^١.

وبدأ تقليد ركوب الخليفة فى موكب احتفالى إلى المصلى خارج باب النضر فى
هذه الفترة ، وعلى ذلك أورد المؤرخ ابن المأمون وصفاً تفصيلياً لهيئة صلاة عيد الفطر فى
زمن خلافة الأمر ووزارة المأمون البطائحي يتفق فى الأعم مع وصف ابن الطونيز .

وأخيراً يُقدّم لنا ابن الطونيز وصفاً نموذجياً لركوب الخلفاء الفاطميين لصلاة عيد
الفطر كما كان يتم فى العقود الثلاثة الأخيرة لعصر الدولة الفاطمية ، حيث يخرج الزئى
المختص للإمام من أماكنه ، وهى ثياب بيض مؤشحة مخوطة وهى أجل لباسهم ، والمظلة
كذلك فهى أبداً تابعة لثيابه كيف كانت الثياب كانت .

كان موكب الخليفة يسير فى هذا اليوم من باب العيد - أحد أبواب القصر الفاطمى
الكبير كان يفتح فى واجهته الشرقية فى مواجهة السور الجنوبي لدار الوزارة الكبرى -
مُتجهاً إلى مصلى العيد خارج باب النضر^٢ ، يقول ابن الطونيز :

« والزيادة ظاهرة فى هذا اليوم فى العساكر والأجناد والفارس والراجل وقد
انتظم القوم له صفّين من باب القصر إلى باب المصلى ، ويكون صاحب بيت المال قد
تقدّم على الرسم لغرش المصلى كما عمل فى الجوامع فيفرش الطراحات على رسمها
فى المحراب مطابقة ويُعلّق أيضاً سترين يئنة ويشرة فى الأيمن « البشمة » و « الفاتحة » و
﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الآية ١ سورة الأعلى] وفى الأيسر بعد الفاتحة ﴿ هَلْ أَتَاكَ
خَبْرُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الآية ١ سورة الفاشية] ، ثم يركز فى جانبي المصلى لواءين مشدودين
مثل ذلك على رمحين ملبسين بأنايب الفضة وهما مستوران مرخيان . فيدخل الخليفة
من شرقى المصلى إلى مكان يستريح فيه دقيقة ، ثم يخرج محفوظاً كما يُحفظ فى

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٢٤ ؛ المقرئى : مسودة المواعظ الاعتبار ١٨٦-١٨٧ .

^٢ نفسه ٨٤-٨٩ ؛ المقرئى : الخطوط ١ : ٤٥٢-٤٥٥ وقارن أبا الحسن : النجوم ٥ : ١٧٦-١٧٨ .

^٣ ابن الطونيز : نزعة المقتل ١٧٦ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٤٦٩ .

جامع القاهرة - يعنى أنه يخرج ماشيًا وحواليه الأستاذون المحككون والوزير ورائه ومن يليهم من الخواص وبأيديهم الأسلحة من صبيان الخاص وهم أمراء وعليهم هذا الاسم - فيصير إلى المحراب فيصلى صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة والوزير ورائه والقاضى ، ويقرأ فى كل ركعة ما هو مرقوم فى السترين تذكاراتا.

فإذا فرغ وسَلَّمَ صَعَد المنبر للخطبة العيدية يوم الفِطْر ، فإذا جلس فى الذروة وهناك طَواحة سامان أو ديقى على قدرها ، وباقيه يُستر بياض على مقداره فى تقطيع درجته وهو مضبوط لا يتغير ، فيراه أهل ذلك الجَمْع جالسا فى الذروة ، ويكون قد وَقَفَ أسفل المنبر الوزير وقاضى القضاة وصاحب الباب واشفهُشَلار العساكر وصاحب الرسالة وزمام القصر وصاحب دُفتر المجلس وصاحب المِظَلَّة وزمام الأشراف الأقارب وصاحب بيت المال وحامل الرُومح ونقيب الأشراف الطالبين وَوَجْهَ الوزير إليه ، فيشير إليه بالصعود فيصعد إليه ويقرب وقوفه منه ويكون وجهه مواز رجله فيقبلها بحيث يراه العالم ، ثم يقوم فيقف على يَمَنَةِ الخليفة .

فإذا وَقَفَ أشار إلى قاضى القضاة بالصعود فيصعد إلى سابع درجة ثم يتطلع إليه صاغيا لما يقول فيشير إليه بقوله فيُخرج من كفه مُدْرَجًا قد أُخْضِرَ إليه أَمَس من ديوان الإنشاء بعد عرضه على الخليفة والوزير ، فيقبلن بقراءة مضمونه فيقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . ثبت بمن شَرُف بصعوده المنبر الشريف فى يوم كذا ، وهو عيد الفِطْر ، من سنة كذا من عبيد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين بعد صعود السيد الأجلّ ونعوته المقدرة ودعائه المحرّر » . فإن أراد الخليفة أن يُشَرِّف أحداً من أولاد الوزير وإخوته استدعاه القاضى بالنعت المذكور . ثم يتلو ذلك ذكر القاضى المذكور ، وهو القارئ ، فلا يتسع له أن يقول عن نفسه نعوته ولا دعاءه بل يقول : الملوك فلان بن فلان ثم يستدعى من ذكرنا وقوفهم على باب المنبر بنعوتهم وذكر خدَمهم ودعائهم على الترتيب .

فإذا طَلَعَ الجماعة ، وكل منهم يعرف مقامه فى المنبر يَمَنَة ويُسْرَة ، فإذا لم يبق أحد ممن يَطْلُع أشار الوزير إليهم فأخذ من هو فى كل جنب يده نصيبًا من اللواء الذى بجانبه فيُشتر الخليفة ويُشترُون ، ويُنادى فى الناس بأن ينصتوا . فيخطب الخليفة

الخطبة من المسطور على العادة ، وهى حُطْبَةٌ بليغة مُوافقة لذلك اليوم . فإذا فَرَّغَ ألقى كل من فى يده شئ من اللّواء خارج المنبر فينكشفون كما كانوا قبل يُشْتَرُونَ ، وينزلون أولاً فأولاً الأقرب فالأقرب إلى القهقرى . فإذا خلا المنبر إلّا من الخليفة قام هابطاً منه إلى المكان الذى خَرَجَ منه ثم يلبث لبثة يسيرة ويركب فى زِيَّهِ المُفْخَم من طريقه بعينها إلى أن يصل إلى قريب من القصر فيقف وقفةً بهجملته فى موكنه ، وينفُرج الموكب للوزير فيتحرك مسرعاً ليسير أمام الخليفة ليدخل بين يديه ، فيمر بالخليفة فيتشكّع له سَكَنَةٌ ظاهرة ، فيشير الخليفة للسلام عليه إشارة خفيفة - وهذه أعظم مكارمة تصدر عن الخليفة ولا تكون إلّا للوزير . صاحب السيف - فيفارقه ويسبقه إلى الدخول من باب القصر راكباً على عادته إلى موضعه ، ويكون الأمراء قد نزلوا قبله لأنهم فى أوائل الموكب . فإذا دَخَلَ الخليفة من باب العيد جلس فى الشُّبَّاك وقد نُصِبَ منه إلى الفسقية التى كانت وسط الإيوان مقدار عشرين قصبة سِخَاطٍ من الخُشْكَنان و البُسْتَنُود و البَرِّمَازُود مثل الجبل الشاهق ، وفيه القطعة وزنها من ربع قنطار إلى رطل ، فيدخل ذلك الجمْع إليه فيَقْفَر وينقل منه مَن ينقل ويباح ولا يحجر عليه ولا مانع دونه فيمر ذلك بأيدى الناس وليس هو مما يُعْتَدُّ به ولا يُغْنَى عما يَفُوقُ للناس ويحمل إلى دورهم . ويُعمل فى هذا اليوم سِخَاطٌ من الطعام فى قاعة الذَّهَب ويحضر عليه الخليفة والوزير^١ .

كان عيد الفِطْرِ هو الموسم الكبير عند الفاطميين ويُسمّى لذلك بـ « عيد الحُلُل » لأن الحُلُل تَتَمُّم فيه الجماعة وفى غيره تكون للأعيان خاصة . وَبَلَّغَتْ قيمة الكُشُوء التى وُزِّعَتْ فى عيد الفِطْرِ سنة ٥١٦هـ / ١١٢٣م حوالى العشرين ألف دينار^٢ . وكانت الكُشُوء التى تُخْلَع على وجوه الدولة تُؤَفَّق بِبراءات أو رُقْعَات صادرة عن ديوان الإنشاء ، وَحِفْظَ

^١ ابن الطوير : نزهة المقتلين ١٧٦-١٨٢ ؛ المقرئى : الخطط ١ : ٤٥٥ ومسودة المواعظ والاعتبار ٢٠٨-٢١٣ ؛

القلقشندى : صبح ٣ : ٥٠٨ .

^٢ ابن المأمون : أخبار مصر ٣٨ ؛ المقرئى : الخطط ١ : ٤٥٢ .

لنا ابن المأمون صورة رُقعة من هذه الرُقعات كتبها كاتب الإنشاء المعروف ابن الصَّيْرَفِيْ
مقترنة بكشوة عيد الفِطْرِ من سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤١م، أى فى أيام الخليفة الحافظ لدين الله .

« ولم يَزَلْ أميرُ المؤمنين مُتَعِمًا بالرغائب ، موليًا إحسانه كل حاضِرٍ من أوليائه
وغائب ، مجزلاً حظه من منائحه وموابيه ، موصلًا إليهم من الحياء ما يَقْصُرُ شكرهم
عن حقه وواجبه . وإنك أيها الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه وأحراهم باستنشاق
نسيمه ، وأخلَقَهم بالجزء الأَوْفَى منه عند فضه وتقسيمه ؛ إذ كنت فى سماء المسابقة
بدراً وفى موائد المناصحة صَدْرًا ، ومن أخلَصَ فى الطاعة سرًا ومَجْهُرًا ، وحظيَ فى
خِدْمَةِ أمير المؤمنين بما عطر له وصفا ، وسير له ذِكْرًا . ولما أقبل هذا العيد السعيد ،
والعادة فيه أن يُخَيِّنَ الناسُ هيتهم ، ويأخذوا عند كل مسجد زيتهم ، ومن وظائف
كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخَدَمِهِ فيه ، وفى المواسم التى تجاربه ، بكشوات على
حسب منازلهم ، تَجَمُّع بين الشرف والجمال ، ولا يبقى بعدها مَطْمَاحٌ للأمال ، وكُنْتُ
من أخصَّ الأُمراء المُقَدِّمين ... »^١

رُكُوبُ صلاة عيد التَّحَرُّ (الأَضْحَى)

كان الاحتفال بعيد التَّحَرُّ يبدأ فى اليوم التاسع من ذى الحجة ويُعرف بـ « يوم الهناء
بعيد التَّحَرُّ » ، وذلك اعتبارًا من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى ، حيث
كان الناس يتوجهون عند أذان الصُّبْح إلى دار الوزير لخدمته وتهنئته على طبقاتهم :
أرباب السيوف والأقلام ، ثم الأُمراء المُطَوِّفون والأستاذون المُحْتَكَون ، وبعدهم الشُّعراء ،
وبعد ذلك يركب الوزير متوجِّهًا إلى القصر ويدخل من باب الدُّهَب ، بينما يبقى الأُمراء
المُطَوِّقون بالدهاليز إلى أن يجلس الخليفة وَيَسْتَفْتِى قُرَاءَ الحَضْرَةِ ، ثم يستدعى الوزير وبقيَّة
رجال الدولة على قدر طبقاتهم للسلام على الخليفة والهناء بالعيد^٢.

^١ نفسه ٥٤ : ١ : ٤١٢ ؛ زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ٣٦-٣٧ .

^٢ ابن المأمون : أخبار ٤١ : ابن ميسر : أخبار ٨٨-٩١ : النويرى : نهاية الأرب ٢٨ : ٢٨٨ - ٢٨٩ : المقرئى :

أما الركوب الاحتفالى نفسه فكان يتم فى اليوم العاشر من ذى الحجة ويجرى حاله كما جرى فى عيد الفِطْر. وبعد انتهاء الصلاة يُتَغَيَّر الخليفة ملابسه بالملايس المختصة بالتَّخَر، وهى البدلة الحمراء بالشدة التى تسمى «شَدَّة الوَقَار» والعلم والجوهر فى وجهه بغير قضيب ملك فى يده^١، ويتوجَّه إلى «التَّخَر» ، وكان يقابل باب الرِّيح الباب الشمالى للقصر (ويدلّ على موقعه اليوم مجموعة المباني الواقعة غرب شارع الجمالية بين شارعى الدَّزب الأصْفَر والتَّغْبَكْشِيَّة) ، ويتكرَّر الشَّيْء نفسه فى ثانى وثالث أيام العيد . يقول ابن الطُّوَيْر :

« فيخرج الخليفة بنفسه من باب الرِّيح ، ويكون الوزير واقفاً عليه فيترجل ويدخل ماشياً بين يديه لقربه ، هذا بعد انفصالهما من المصلّى . ويكون قد قيّد إلى هذا التَّخَر أحد وثلاثون فصيلاً وناقة أمام مصطبة يطلع عليها الخليفة والوزير ، وهى مفروشة ، ثم أكابر الدولة ، وهو بين الأستاذين المحْكَمَيْن . فيقدّم الفراشون له إلى المصطبة رأساً فرأى ، ويكون بيده حربة من رأسها الذى لاسنان فيه ، ويد قاضى القضاة فى أصل سنانها ، فيجمله القاضى فى نحر النحيرة فيقطع به الخليفة وتجز من بين يديه حتى يأتى على العدة المذكورة . فأول نحيرة هى التى تُقَدَّد وتُسَيَّر إلى داعى اليمن^٢ ، وهو الملك فيه ، فيفرِّقها على المعتقدين وزن نصف درهم إلى ربع درهم . ثم يُغْمَل ثانى يوم كذلك فيكون عدد ما يُنْخَر سبعا وعشرين . ثم يُغْمَل فى اليوم الثالث كذلك . وعدة ما يُنْخَر ثلاثاً وعشرين . هذا وفى مدة هذه الأيام الثلاثة يُسَيَّر رسم الأضحية إلى أرباب الوُتْب والرسوم كما سيَّرت القُرَّة فى أول السنة من

^١ ابن المأمون : أخبار ٤١ .

^٢ هذا النص يدل على مدى أهمية دعوة اليمن للخلافة الفاطمية ، ولا شك أن هذا التقليد بدأ منذ أن تولى الدعوة الفاطمية فى اليمن الداعى على بن محمد الضُّلَيْحى سنة ٤٤٥ وظل كذلك إلى سنة ٥٢٤ (سنة وفاة الخليفة الأمر) فقد انفصلت الدعوة اليمنية عن الدعوة الفاطمية فى هذا التاريخ ، ودعا أصحابها إلى الإمام الطيب بن الأمر وامتنعوا عن الدعوة لخلفاء الأمر فى مصر (راجع ، أئمن فؤاد سيد : تاريخ المذهب الدينية فى بلاد اليمن ١٧١-١٩٠) وعلى ذلك فإن هذا الوصف يصدق على عصر الأمر ولا ينطبق على الفترة التالية له إلا إذا كان المقصود الزُّنْهِيون فى عَدَن الذين دعوا للخليفة الحافظ لدين الله .

الدنانير بغير رُباعية ولا قراريط على مثال القُرّة بعد الطبقة العليا إلى ما دونها مع عشرة دنانير إلى دينار. أما لحم الجزور فإنه يُفَرَّق في أرباب الرسوم للبركة في أطباق مع أدوان الفَراشين ، وأكثر ذلك يَفَرِّقه قاضى القضاة وداعى الدعاة للطلبة بدار العلم والمتصّلين بجوامع القاهرة ونقباء المؤمنين بهم المشيعين للبركة . فإذا انقضى ذلك تحلّ الخليفة على الوزير ثيابه الحُرّ التي كانت عليه ومندبلاً آخر من القصر بغير التيممة والعقد المنظوم ، هذا عند عَود الخليفة من المُخَر . فيركب الوزير من القصر بالخيل المذكورة شاقاً القاهرة ، فإذا خرج من باب زُوَيْلَة انعطف على يمينه سالكاً على الخليج فيدخل من باب القنطرة إلى دار الوزارة وبذلك انفصال عيد النحر^١ .

وثنمن الضحايا على ما تقدّم من غير رُباعية ولا قراريط ما يقرب من ألفى دينار^٢ .

^١ أورد ابن المأمون وصفاً تفصيلياً للاحتفال بعيد الأضحى في سنة ٥١٦ هـ أوفى من وصف ابن الطوّق . (أخبار ٤٠ - ٤٣) .

^٢ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٨٢-١٨٥ ، المقرئى : الخطط ١ : ٤٣٧ وقارن القلقشندى : صبح ٣ : ٥١١ ، أبا المحاسن : النجوم ٤ : ٩٨-٩٩ .

رُكُوبُ الخليفة في الأعياد

القومية المصرية

أدرك الفاطميون مثل غيرهم من حُكَّام مصر أهمية النيل للحياة الاقتصادية المصرية ،
 فزراعة أراضي مصر وإمداد أهلها بالغذاء مرتبطٌ بوفاء النيل وبلوغ زيادته ستة عشر ذراعاً .
 لذلك فمُنذ وصول المُعزِّ لدين الله إلى القاهرة اهتم بأمر « زيادة النيل » و « مَنَع من التَّداء
 بزيادة النيل وألَّا يُكْتَب بذلك إلَّا إليه وإلى القائد جوهر » فإذا تمَّ ذلك أباح التَّداء ، يقول
 ابن زولاق :

« وفي هذا الشهر - يعنى شوال سنة ٣٦٢هـ - مَنَع المُعزِّ لدين الله من التَّداء
 بزيادة النيل وألَّا يُكْتَب بذلك إلَّا إليه وإلى القائد جُوهر . فلما تمَّ ... ستة عشر ذراعاً
 وكُسِر الخليج ... أباح التَّداء » .

وعَلَّق المقرئى على ذلك بقوله : « فتأمل ، ما أبَدَعَ هذه السياسة فإن الناس دائماً ،
 إذا تَوَقَّف النيل فى أيام زيادته أو زاد قليلاً يقلقون ويُحَدِّثون أنفسهم بعدم طلوع النيل ،
 فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر ، ويجتهد من عنده
 مالٌ فى خزن العَلَّة إما لطلب السعر أو لطلب ادِّخار قوت عياله فيحدث بهذا الغلاء ، فإن
 زاد الماء انحَلَّ السعرُ وإلَّا كان الجَدْب والقَحْط . ففى كتمان الزيادة عن العامة أعظم
 فائدة وأجلَّ عائدة »^١.

الفترة المُبَكِّرة

كان احتفالُ الفاطميين بوفاء النيل فى الفترة المُبَكِّرة من حكمهم بمصر يتم بطريقتين
 مُبَسَّطة . فيذكر المقرئى (أغلب الظن نقلاً عن ابن زولاق) أن المُعزِّ ركب فى ذى

^١ الخزومى : المنهاج - خ ٤٧ ط ١ ، المقرئى : الخطط ١ : ٦١ وامتاع الحنفا ١ : ١٣٨ ، ابن ميثر : أخبار مصر ١٦٠ .

الحجة سنة ٣٦٣هـ/سبتمبر ٩٧٤م لكُشِرَ الخَليج^١. وفي حوادث سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م ذكر المقرئى أيضًا (في هذه المرة نقلًا عن المُسَبِّحى) بزيادة تفصيل أن العزيز بالله وركب لَفَتَحَ الخَليجَ بالمِظْلَةِ وعليه قميصٌ دِيْبَاجٌ مُثَقَّلٌ ، وتاجٌ مرصعٌ بالجواهر^٢. وفي السنة التى تليها ذكر فقط أن العزيز ركب بابه لَفَتَحَ الخَليجَ^٣ . ثم تقابلنا إشارة أخرى فى حوادث سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م ، فى زمن الحاكم بأمر الله ، تفيد بَفَتْحَ الخَليجِ يوم السابع عشر من مِشْرِى (يوافق المحرم من هذه السنة) والماء على أربعة عشر ذراعًا وثمانية أصابع^٤. وبالرغم من ندرة التفصيلات فى المصادر فلا شك أن الخليفة كان يذهب كل عام لَفَتْحَ الخَليجِ ، فيشير المقرئى إلى أن المُسَبِّحى ذكر فى تاريخه الكبير ركوب العزيز بالله بن المُعِزِّ وركوب الحاكم بأمر الله بن العزيز وركوب الظَّاهِر لإعزاز دين الله بن الحاكم كل سنة لَفَتْحَ الخَليجِ^٥ . ففى ١٧ جمادى الأولى سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م ركب الظَّاهِر لَفَتْحَ الخَليجِ ، وهنا يذكر المُسَبِّحى أنه شَقَّ البلد حتى انتهى إلى صناعة الجسر حيث طُرِحَ بين يديه عُشارى ثم سار على شارع الحَمْرَاءِ على شاطئِ النيل بَقُشْطَاطٍ مصر ثم انتهى إلى سَدِّ الخَليجِ فَفُتِحَ بين يديه ولعبت فيه العُشاريات . ووَصَفَ لنا المُسَبِّحى - وهو شاهدٌ عيانٌ لهذه الأحداث - ثياب الخليفة فى ذهابه وعوده ، فذَكَرَ أنه كان عليه فى وقت نزوله إلى مصر قميصٌ طميُّمٌ مذهب وعلى رأسه شاشية [أى نوع من الموسلين الطويل الذى يُلَفَّ حول العمامة] مُرْصُفَةٌ ، وأن زِيَّه فى طلوعه كان ثيابًا دِيقِيَّةَ بياضا وعلى رأسه عمامة شَرَبَ مسكى مذهبة^٦.

^١ المقرئى : اتعاط : اتعاط الحنفا : ١ : ٢١٤ .

^٢ نفسه : ١ : ٢٧٥ .

^٣ نفسه : ١ : ٢٨٣ .

^٤ نفسه : ٢ : ١٠٠ .

^٥ المسبى : نصوص ضائعة ٤٠ : المقرئى : الخطوط : ١ : ٤٧٠ .

^٦ المسبى : أخبار مصر ١٠-١١ : المقرئى : اتعاط الحنفا : ٢ : ١٣٤ .

ولا يوجد بعد ذلك أى ذكر لاحتفال فتح الخليج عند المؤرخين المصريين قبل عصر
الآمر بأحكام الله فى آخر العقد الثانى من القرن السادس الهجرى ، بالرغم من أن الرحالة
الفارسى ناصر خُشرو يُقدِّم لنا وَصْفًا مثيرًا لركوب الخليفة المستنصر بالله لفتح الخليج سنة
٤٤١هـ/١٠٤٦م ، يقول :

« حين يُلَغى النيل الوقاء - أى من العاشر من شهر يور (أغسطس وسبتمبر) إلى
العشرين من آبان (أكتوبر ونوفمبر) ، ويبلغ ارتفاع الماء ثمانية عشر ذراعًا عن مستواه
فى الشتاء ، وتكون أفواه الترع والجداول مسدودة فى البلاد كلها ، يحضر السلطان
راكبًا ليفتح هذا النهر الذى يُسَمَّى « الخَلِيج » ، والذى يبدأ قبل مدينة مصر ثم يمر
بالقاهرة ، وهو يَمْلِكُ خاص للسلطان . وفى ذلك اليوم تفتح الخِلْجان والترع الأخرى
فى الولايات كلها . وهذا اليوم أعظم الأعياد فى مصر ويُسَمَّى « عيد رُكُوب فتح
الخليج » .

حينما يقترب [هذا العيد] يُنصَّب للسلطان على رأس الخليج سُرادقٌ عظيم
التكاليف من الدِّياج الزومى ومُوشى كله بالذهب ومُكَلَّل بالجواهر ، ويعد أعظم
إعداد بحيث يُسَعِ ظِلُّه لمائة فارس . وأمام هذا السُرادق خِيمة من البوقلمون وسُرادق
آخر كبير .

وقبل الاحتفال بثلاثة أيام يَدُقُّون الطبل وينفخون البوق ويضربون الكُوس فى
الإضططيل لتألف الخيل هذه الأصوات . وحين يركب السلطان يصطف عشرة آلاف
فارس على خيولهم سروج مذهبة وأطواق وألجمة مرصعة ، وجميع لبد السروج من
الدِّياج الرومى البوقلمون تُصبَّح لهذا الغرض خاصة فلم تُفَصِّل ولم تُحَطَّ وطُورَت
حواشيها باسم سلطان مصر ، وعلى كل حصان دِزَع أو جَوْشَن ، وعلى قمة السُرج
خوذة وجميع أنواع الأسلحة الأخرى . وكذلك تسير جمال كثيرة عليها هِوَادِج
مُزَيَّنَةٌ وبغال عمارياتها كلها مرصعة بالذهب والجواهر وموشاة باللؤلؤ ، وإن الكلام
يلطول لو وَصَفْتُ كل ما يكون يوم فتح الخليج .

فى ذلك اليوم يخرج جيش السلطان كله فرقة فرقة وفوجاً فوجاً [١] .

وفى اليوم الذى ذَهَبَ السلطان فى صباحه لفتح الخليج استأجروا عشرة آلاف رجل أمسك كل واحد منهم إحدى الجنايب التى ذكرتها وساروا مائة مائة ، وأمامهم الموسيقيون ينفخون البوق ويضربون الطبل والمزمار وسار خلفهم فوج من الجيش . مضى هؤلاء من قصر السلطان حتى رأس الخليج ، أتت الجمال وعليها المهور والمراقد ومن بعدها البغال وعليها القماريات .

وقد ابتعد السلطان عن الجيش والجنايب وهو شاب كامل الجسم طاهر الصورة من أبناء أمير المؤمنين حسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهما . كان حليق شعر الرأس يركب على بغل ليس فى سرجه أو لجامه جليّة فليس عليه ذهب أو فضة ، وقد ارتدى قميصاً أبيض عليه « فُوطة » فضفاضة كالتى تلبس فى بلاد المغرب والتى تُسمى فى بلاد القنجم « دُرَاغَة » ، وقيل إن اسم هذا القميص « الدّيقى » ، وإنه يساوى عشرة آلاف دينار ، وكان على رأسه عمامة من لونه ويمسك بيده سوطاً (قضيتاً) ثميناً ، وأمامه ثلاثمائة راجل دثلى عليهم ثياب رومية مذهبة وقد خزموا خصورهم وأكمامهم واسعة كما تلبس رجال مصر ومعهم الثّشاب والسهم وقد غصّبوا سيقانهم ، ويسير مع السلطان حامل المظلة راكباً فرساً وعلى رأسه عمامة مذهبة مرصعة وعليه حلّة قيمتها عشرة آلاف دينار ذهبى مغربى ، والمظلة التى بيده ثمينة جداً وهى مُرَصَّعة مكلّلة . وليس مع السلطان فارس غير حامل المظلة وقد سار أمامه الدّبالمة ، وعلى يمينه ويساره جماعة من الخدم يحملون الجمار ويحرقون العنبر والعود . والعادة فى مصر أن يشجّد الرجال للسلطان وأن يدعوا له كلما قرب منهم .

وجاء بعد السلطان الوزير مع قاضى القضاة وفوج كبير من أهل العلم وأركان الدولة . وقد ذَهَبَ السلطان إلى حيث ضُربَ الشراع على رأس سدّ الخليج - أى فم النهر - وظلّ ممتطياً البغل تحت الشراذق مدة ساعة . وبعد ذلك سلّموه مزارقاً ليضرب به الشدّ ، ثم عجّل الرجال بهدمه بالمعاول والفؤوس والمخارف ، فانساب الماء وقد كان مرتفعاً وجرى دفعة واحدة فى الخليج .

وفى هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرُّج على قُتْح الخليج وتجرى فيه أنواع الألعاب العجيبة .

وكان فى أول سفينة نَزَلَت الخليج جماعةٌ من الخُزُس يسجون بالفارسية « كَنك ولال » ، لعلهم يتفاءلون بنزولهم ، ويجرى السلطان عليهم صدقاته فى هذا اليوم ^١ .

ولا يَمُدُّنا هذا الوُصفُ بأَيَّة معلومات عن « المناظر » التى كانت تطلُّ على الخليج - التى أصبح لها دورٌ فيما بعد فى هذا الاحتفال - كما أنه لم يُحدِّد لنا الطريق الذى سلكه الموكب أو أى شىء عن ترتيب الموكب نفسه . فقد كان ما يهم ناصر خُشرو هو نُقْل انطباع عن الإمام (الخليفة) الشاب ، فجاء وَصْفُهُ مشتملاً على الأمور التى لَفَّتَتْ انتباهه فقط . ومع ذلك فإن مما يثير الدهشة أن هذا الوُصف ، مثله مثل الوُصف الذى قَدَّمه لنا كلٌّ من ابن زولاق والمُسَبِّحى ، لا يشير إطلاقاً إلى احتفال « تَخْلِيق المقياس » ^٢ !.

الفترة الفاطمية المتأخرة

وفى الفترة الفاطمية المتأخرة ، اعتباراً من وزارة المأمون البطائحي (٥١٥ هـ - ٥١٩ هـ) ، أصبح هناك احتفالان متميزان وقت وفاء النيل يتَمان فى موضعين مختلفين ، الأول هو « احتفالُ تَخْلِيق المقياس » الذى يتم عند وفاء النيل ستة عشر ذراعاً ، والثانى يتم بعد هذا الاحتفال بيوم أو ثلاثة أيام هو « احتفال قُتْح (كَشْر سَد) الخليج » . ويبدو أن احتفال تَخْلِيق المقياس أُدْخِلَ فى فترة متأخرة ليست بحال من الأحوال سابقة على فترة وزارة المأمون البطائحي ، فلا يوجد لدينا أى وَصْف لهذا الاحتفال قبل سنة ٥١٧ هـ / ١٢٣٣ م ^٣ ، ومع ذلك فإننا لا نستطيع الجزم بأن هذا الاحتفال قد تمَّ بطريقة أو بأخرى قبل هذا التاريخ .

^١ ناصر خسرو : سفر نامه ٩٣-٩٧ .

^٢ Sanders, P., *op.cit.*, p. 104

^٣ ابن المأمون : أخبار مصر ٧١ ١١٤، ١١٢ Sanders, P., *op.cit.*

ونحن نعرف أن مقياس النيل الواقع في النهاية الجنوبية لجزيرة الروضة ، يرجع تاريخه إلى عهد الخليفة المتوكل العباسي سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م وهو ترميم وإصلاح للمقياس القديم الذي بنى في عام ٩٧هـ / ٧١٥م ، وقبل هذا التاريخ كان النصارى هم الذين يتولون قياس ماء النيل فَعَزَلَهُم المتوكل وعَيَّن لهذه المهمة عبد الله بن عبد السلام بن أبى الرِّدَاد المؤدَّب ، واستقرت عملية قياس النيل في بنيه حتى القرن التاسع الهجرى وصار كل من يتولَّى أمر المقياس يعرف بابن أبى الرِّدَاد^١ . وأول إشارة في المصادر الفاطمية إلى ابن أبى الرِّدَاد أوردها المُسَبِّحى في حوادث سنة ٤١٤هـ / ١٠٢٣م حيث ضربه الشريف أبو طالب العجمي صاحب الصناعة لتقصيره في الإشراف على بناء حظير على المقياس^٢ .

وأشار ابن المأمون إلى نَصَب «خيمة القاتول» عندما بلغ النيل ستة عشر ذراعًا سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م ، ولكن أوَّل إشارة إلى الاحتفال بتخليق المقياس عند وفاء النيل ستة عشر ذراعًا وركوب الخليفة بنفسه وبصحبته الوزير إلى الصناعة بمصر لمشاهدة عملية تخليق المقياس على يد ابن أبى الرِّدَاد فترجع إلى عام ٥١٧هـ / ١١٢٣م ، يقول ابن المأمون إنه بعد إتمام عملية التَّخْلِيْق وعودة الخليفة وبصحبته الوزير إلى القصر خَلَعَ على ابن أبى الرِّدَاد بَذْلَةً مذهبة وثوب ديقى حريرى وطَيْلَسَان مقوَّر وبياض مذهب وشُقَّة سَقْلَاطُون وشُقَّة تحتانى وشُقَّة خَزَّ وشُقَّة دَيْقِي وأربعة أكياس دراهم ، ونُثِرَت قدامه الأعلام الخاص الدِّيْقِي المجاومة بالألوان المختلفة . كما انتقل الخليفة إلى منطرة الشُّكْرَة حيث بولغ في تعليقها وفرشها ، ومُدَّ سماءً بهذه المناسبة .

وتكرَّر الاحتفال بتخليق المقياس بعد وفاء النيل ستة عشر ذراعًا في رجب سنة ٥١٨هـ / أغسطس سنة ١١٢٤م وقَدَّم لنا ابن المأمون كذلك وَصْفًا حيًّا لكيفية هذا

^١ القلقشندى : صبح الأعشى ٣ : ٢٩٥ .

^٢ المسبِّحى : أخبار ٣٧-٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ .

^٣ ابن المأمون : أخبار ٥٥ .

^٤ نفسه ٧١-٧٣ .

الاحتفال وما تمّ فيه^١ أما وُصف الاحتفال النموذجي لركوب الخليفة لتخليق المقياس فيقدمه لنا كالعادة ابن الطُّوزيّ يقول :

« إذا أذنَّ الله سبحانه وتعالى بزيادة النيل المبارك ، طالع ابن أبي الرُّؤاد بما استقر عليه أذرع القاع في اليوم الخامس والعشرين من بَوُونَة وأُرخه بما يوافقه من أيام الشهور العربية ، فعلم ذلك من مطالعته وأُخرجت إلى ديوان المكاتبات فنزلت في المسير المرتب بأصل القاع ، والزيادة بعد ذلك في كل يوم تؤرخ بيومه من الشهر العربي وما وافقه من أيام الشهر القبطي ، لا يزال كذلك وهو محافظ على كتمان ذلك لا يعلم به أحد قبل الخليفة وبعده الوزير . فإذا انتهى في ذراع الوفاء ، وهو السادس عشر ، إلى أن يبقى منه إصبع أو إصبعان وعلم ذلك من مطالعته أمر أن يُختمل إلى المقياس في تلك الليلة من المطابخ عشرة قناطير من الخُبْز السَّجِيذ^٢ وعشرة من الخراف المشوية وعشرة من الحمامات الحلواء^٣ وعشر شمعات ويؤمر بالمبيت في تلك الليلة بالمقياس . فيحضر إليه قُراء الحضرة والمُتَصَدِّرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجرى مجراهم ، فيستعملون ذلك ويقيدون الشمع عليهم من العشاء الآخرة وهم يتلون القرآن برفق ويُطَرَّبون بمكان التطريب فيختمون الخُتْمَة الشريفة . ويكون هذا الاجتماع في جامع المِقْيَاس^٤ ، ليوفى الماء ستة عشر ذراعاً في تلك الليلة .

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٧٥-٨٠ .

^٢ الخبز السَّجِيذ هو الخُورَى أى المصنوع من الدقيق الأبيض أو ثَبَاب الدقيق ، ويدو أن السَّجِيذ أجود درجة من الخُورَى . (القاموس المحيط ٣٦٩ ، ٤٨٧ ، Dozy, op.cit., II, 334) .

^٣ جام جر . جامات . آتية تكون أحياناً من الفخار أو من الزجاج أو من الفضة يصب فيها السكر بعد نضجه لصنع الحلوى . (الفيروزبادى : القاموس ١٤٠٩ : 168 ، Dozy, op.cit., I, 168) .

^٤ مجاميع المِقْيَاس . كان جزء من مجموعة عمارات أقامها أمير الجيوش بدر الجمالى في رجب سنة ١٠٩٢/٤٨٥ حول المقياس عند الطرف الجنوبي لجزيرة الوُؤُضَة . ولم يُخَلَّف لنا المَقْرِزى وصفاً لهذا الجامع في الفصل الذى عقده للحدث عن جوامع القاهرة وظواهرها (الخطوط ٢ : ٢٩٠) كما أن ابن دقماق نسب بناء هذا الجامع إلى الأفضل شاهنشاه دون تعيين عام البناء (الانتصار ٤ : ١١٥) . وقمّ لنا ج . ما رسل ، أحد علماء الحملة الفرنسية في آخر القرن الثامن عشر ، وصفاً تفصيلياً يؤكد الوجود التاريخي لهذا الجامع . وللأسف الشديد فقد اختفت جميع هذه العمارات التى شيدها بدر الجمالى ، فيما عدا المقياس ، بعد وصف مارسيل لها بنحو نصف قرن ليحل محلها قصرٌ كبير بناه في سنة ١٨٥٠/١٢٦٧ حسن باشا فؤاد الهاسترلى (على مبارك : الخطوط ٥ : ١٢٣) وقد ضاعت أغلب =

ولوفاً الثَّيْلَ عندهم قدرٌ عظيمٌ ويتهجون به ابتهاجاً زائداً ، وذلك لأنه عمارة الديار المصرية وبه التمام الخلق على فضل الله ، فيحسن عند الخليفة موقعه ويهتم بأموره اهتماماً عظيماً أكثر من كل المواسم^١ . فإذا أصبح الصبح من هذا اليوم وحضرت مطالعة ابن أبي الزُّدَادِ إليه بالوفاً ركب إلى المقياس لتخليقه ، فيستدعى الوزير على العادة فيحضر إلى القصر فيركب الخليفة بزى أيام الركوب من غير مظلة ولا ما يجرى مجراها ، بل في هيئة عظيمة من الثياب ، الوزير تابعه في الجمع الهائل على ترتيب الموكب ، ويخرج من القصر شاقاً القاهرة إلى باب زويلة وسالكاً الشارع إلى آخر الركن من بستان عباس - المعروف اليوم بسيف الإسلام [عند رأس الصليبية بالقرب من الخانقاه الشيعونية الآن] - فيعطف سالكاً على جامع ابن طولون والجيش الأعظم بين الركنين إلى الشاغل بمصر ، إلى الطريق المسلوكة على طرف الحشائين الشرقي على دار الفاضل ، إلى باب الصناعة بجوارها ، وله دهليز ماذ فيخرج منها منعطفاً على الصناعة الأخرى ، وكانت هذه برسم المكس ، إلى الشيوفين ثم على متنازل العيز - التي هي اليوم مدرسة - ثم رلى دار الملك فيدخل من الباب المقابل لسلوكه فيترجل الوزير عنده للدخول بين يديه ماشياً إلى المكان المعد له . ويكون قد حمل أمس ذلك اليوم من القصر البيت المتخذ للعثاري الخاص وهو بيت مُثَقَّنٌ من عاج وأبنوس ، عرض كل جزء ثلاثة أذرع ، وطوله قامة رجل تام ، فيجمع بين الأجزاء الثمانية فيصير بيتاً دوره أربعة وعشرون ذراعاً ، وعليه قبة من خشب محكم الصناعة وهو بقبته مُثَبَّسٌ بصفائح الفضة والذهب فيتسلمه رئيس العشاريات الخاص ويُركَّبه على العشاري المختص بالخليفة ، ويُجعل باكر ذلك اليوم الذي يركب الخليفة فيه على الباب الذي يخرج منه للركوب إلى المقياس .

= معالم هذا القصر اليوم .

وكان يوجد بالجامع ثلاث لوحات تذكارية تحمل تقريباً نصاً واحداً توضح أن أمير الجيوش بدر الجمالي هو الذي أمر ببناء هذا الجامع في رجب سنة ٤٨٥ هـ في خلافة المستنصر بالله (راجع : RCEA VII, n° 2794-96؛ أحمد فكري :

مساجد القاهرة ومدارسها ١ : ٩٠ ، Fu'ād Sayyid, A., *op. cit.*, pp. 447-51 .

^١ راجع كيفية الاحتفال بوفاء الثَّيْلَ في رجب سنة ٤١٥ هـ عند المسبحي : أخبار ٤٧ ويلاحظ بساطة الاحتفال في بداية العصر الفاطمي .

فإذا استقر الخليفة بالقطرة بدار الملك التي يخرج من بابها إلى العشارى وأسند إليه ، استدعى الوزير من مكانه فيحضر إليه ويخرج بين يديه إلى أن يركب فى العشارى فيدخل البيت المذهب وحده ومعه من الأستاذين المحققين من يأمره من ثلاثة إلى أربعة . ثم يطلع فى العشارى خواص الخليفة خاصة ، ورسم الوزير اثنان أو ثلاثة من خواصه وليس فى العشارى من هو جالس سوى الخليفة باطلاً والوزير ظاهراً فى رواق من باب البيت الذى هو بقرانيس من الجانبين قائمة مخروطة من أخف الخشب، وهى مدهونة وعليها من جانبيها ستور معمولة برسمها على قدرها .

فإذا اجتمع فى العشارى من جرت عادته بالاجتماع اندفع من باب القنطرة طالباً باب المقياس العالى على الدرج التى يعلوها النيل . فيدخل الوزير ومعه الأستاذون بين يدى الخليفة إلى الفسقية . فيصلى هو والوزير ركعات كل واحد بمفرده ، فإذا فرغ من صلاته أحضرت الآلة التى فيها الزعفران والميشك فيديفها فى إناء بيده بآلة معه ، ثم يتناولها صاحب بيت المال فيتناولها لابن أبى الوثاد فيلقى نفسه فى الفسقية وعليه غلالته وعمامته ، والعمود قريب من درج الفسقية ، فيتعلق فيه برجليه ويده اليسرى ويخلقفه بيده اليمنى وقراء الحضرة من الجانب الآخر يقرءون القرآن نوبة نوبة ؛ ثم يخرج على فوره راكباً فى العشارى المذكور ، وهو بالخيار إما أن يعود إلى دار الملك ويركب منها عائداً إلى القاهرة ، أو ينحدر فى العشارى إلى المقس فيتيحه المركب فيسير من هناك إلى القاهرة . ويكون فى البحر فى ذلك اليوم ألف قو قورة مشحونة بالعالم فرحاً بوفاء النيل .

ثم يصير ابن أبى الوثاد باكر ثانى ذلك اليوم إلى القصر بالإيوان الكبير الذى فيه الشباك إلى باب بجواره فيجد خلقة معبأة هناك فيؤمر بلبستها ويخرج من باب العيد شاقاً بها بين القصرين من أوله قصداً لإشاعة ذلك ، فإن ذلك من علامة وفاء النيل ولأهل البلاد إلى ذلك تطلع ، وتكون خلقة مذهبة ؛ وإذا كان من العدول المحققين فيشرف فى الخلقة بالطليسان المقور ويندب له من التغييرات ولمن يريده خمسة تغييرات مركبات بالحلى ، ويحمل أمامه على أربعة يقال مع أربعة من مستخدمى بيت

المال أربعة أكياس في كل كيس خمسمائة درهم ظاهرة في أكفهم ، وبصحبته أقاربه وبنو عمه وأصدقائه ، ويُتَدَبُّ له الطبل والبوق ويكتنف به عُدَّة كثيرة من المتصرفين الرجال . فيخرج من باب العيد ويركب إحدى التغيرات ، وهي أميرها ، وشرف أمامه بحملين من الثَّغَارَات التي قَدَّمْنَا ذكرها - يعنى فى ركوب أوّل العام من زى الموكب . فيسير شاقاً القاهرة والأهواق تضرب أمامه كبازا وصغاراً والطبل ورايه مثل الأمراء ، وينزل على كل باب يدخل منه الخليفة ويخرج من باب القصر فيُتَقَبَّلُهُ ويركب . وهكذا يعمل كل مَنْ يُخْلَعُ عليه من كبير وصغير من الأمراء المطَّوِّقِينَ إلى مَنْ دونهم سيقاً وقلماً . ويخرج من باب زُوَيْلَّة طالبا مصر من الشارع الأعظم إلى مسجد عبد الله إلى دار الأتماط جائزا على الجامع إلى شاطئ البحر ، فيَتَقَدَّى إلى المقياس يخلعه وأكياسه ، وهذه الأكياس مُعَدَّة لأرباب الرسوم عليه فى خِلاجه ولنفسه ولبنى عمه بتقرير من أول الزمان^١ .

أما «رُكُوبُ قَتَحِ الْخَلِيجِ» - وهو الاحتفال الذى بدأ منذ وصول الفاطميين إلى مصر - فقد كان يتم فى نهاية العصر الفاطمى تبعا لرواية ابن الطُّوَيْزِ على النحو التالى :

« فإذا انقضى هذا الشأن شرع فى الركوب إلى قَتَحِ الْخَلِيجِ ثانى يوم ، وقد كان وَقَعَ الاهتمام به منذ دخلت زيادة النيل ذراع الوفاء اهتماما عظيما؛ فيُغْتَلُّ فى بيت المال موائد من التماثيل شكل الوحوش من الفِزْلَانِ والسَّبَاعِ والفَيْلَةِ والزَّرَارِيفِ عُدَّة وافرة ، منها ما هو مُلْبَسٌ بِالْعَبْثِ ، ومنها ما هو مُلْبَسٌ بِالصُّنْدَلِ ، ثم شكل التفاح والأُكُرُوجِ اللطيف ، والوحوش مُفَسَّرَةُ الْأَعْيُنِ والأعضاء بالذهب إلى غير ذلك .

ثم تخرج الحَيَمَةُ التى يقال لها « الْقَاتُول » لأن فواشها سقط من أعلى عمودها فماتت فسميت بذلك ، وطوله سبعون ذراعا وأعلاه صفرة فضية تَسَعُ راوية ماء ، وعليه الفَلَكَةُ التى كانت فى الإيوان إلى قريب الوقت . ثم يعمل فى أوّل العمود شُقَّة

^١ ابن الطوير : نزعة المقلتين ١٨٩-١٩٥ ؛ المقرئى : الخطط ١ : ٤٧٦-٤٧٧ وقران القلقشندي : صبح ٣ : ٥١٢ -

دائرة ، ثم أوسع منها ، ويتوالى ذلك إلى إحدى عشرة شُقة ، تضيق سعة الخيمة ما يزيد على قَدَانَيْنِ مستديرة ، وتُنصب في برّ الخليج الغربى على حافته ، مكان بستان المحلى اليوم .

وكانت تُمّ منظره يقال لها « الشُّكرة »^١ يرسم جلوس الخليفة لفتح الخليج فى مثل هذا اليوم ؛ وتُنصب أرباب الرتب من الأمراء من بحرئى تلك الخيمة الكبرى خيامًا كثيرة، ويتميزون فيها على قدر همتهم وضربهم إياها فى الأماكن الأقرب فالأقرب على قدر رتبهم .

فإذا تم ذلك وعزم الخليفة على الركوب ثالث يوم التخليق أو رابعه أخرج كل من المستخدمين فى المواضع المقّم ذكرها من السلاح والمركبات الحلى وجنائب الخليفة المقّم ذكرها فى ركوب أوّل العام وآلات الموكب على عادته ويزاد فيه إخراج أربعين بوقًا، عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة ، ويكون بواقوها ركبائن وأرباب الأبواق النحاس مشاة ، ومن الطبول الكبار التى مكان خشبها فضة عشرة . فإذا حضر الوزير إلى باب القصر خرج الخليفة فى هيئة عظيمة وهيئة عالية وقد تضاعفت عُددُ الأجناد فى ذلك اليوم فارسها وراجلها ، ويخرج زى الخليفة من المِظَلَّة والسيف والرمح والألوية والدواة وغير ذلك من الأستاذين المحنّكين . ويركب فى ذلك اليوم من الأقارب المقيمين بالقصر عشرون أو ثلاثون وهم بالتّوبة فى كل سنة ، فيتقدّمون إلى المنظره فى مكان لهم صُحبة أستاذَيْن لخدمتهم وحِفْظهم ، ويكون قد لُفّ عمود الخيمة الكبرى المشار إليها إما بديباج أبيض أو أحمر من أعلاه إلى

^١ منظره الشُّكرة . واحدة من مناظر الخلفاء الفاطميين ، بناها الخليفة العزيز بالله فى برّ الخليج الغربى وكانت مخصصة لجلوس الخلفاء يوم فتح الخليج . (أبو صالح : تاريخ ٣٢ ؛ ابن المأمون : أخبار ٧٢ ، ٧٨ ؛ ابن دقماق : الانتصار ٤ : ١٢٠-١٢١ ؛ المقرئى : الحفظ ١ : ٤٧٠) وأضاف المقرئى « ويشبه أن يكون موضعها فى المكان الذى يقال له اليوم المريس بالقرب من قنطرة السد » ، والمريس هو مكان بستان الخشاب وعرف بالمريس لأن كثيرًا من السودان والمريس والنوبة كانوا يسكنون به فرف بهم . (الانتصار ٤ : ١٢١) ويحدد مكان « المريس » اليوم المنطقة التى تحدّ من الشمال بامتداد شارع الوافدية ، ومن الغرب شارع حلوان ومن الجنوب شارع على إبراهيم بالسيدة زينب . (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٩ : ١٩٦ هـ) .

أسفله ، ويُتَّصَبُ مُسْتَدًا .إليه سرير الملك ويُخَشَى بِقُرْصَى وعُرَانِسِه^١ ذهب ظاهرة .
فيخرج الخليفة للركوب ويركب فيخرج من باب القصر وعليه ثوب يقال له
«البَدَنَة» ، وهو كله ذهبٌ وحريرٌ مرقوم ، والمِظْلَةُ من شكله ، ولا يلبس هذا الثوب في
غير هذا اليوم . ويسير بالموكب الهائل شاقًا القاهرة من الطريق التي ركب منها لتخليق
المقياس ، إلا أنه لا يدخل طرق مصر من الخشابين بل خارجها من طريق الساحل .
فإذا جاز على جامع ابن طولون وجد قد ربط من رأس المنارة من مكان العشاري
النحاس حبلاً طويلاً قوياً موضوعاً آخره في الطريق وفيه قوم .يقال لهم النخبارية^٢ ،
واحد في زئى فارس على شكل فرس وفى يده رمح وبكتفه ذَرَقَةٌ فينحدر على بَكَرٍ
وفى رجله آخر ممسكها وهو يتقلَّب فى الهواء بطناً وظهراً حتى يصل إلى الأرض .
ويكون قاضى القضاة وأعيان الشهود جلوساً فى باب الجامع من هذه الجهة ، فإذا
وازمهم الخليفة ، وكانوا قد ركبوا ، وَقَفَ لهم وقفة فيُسَلِّمُ على القاضى ثم يدخل
فيَقْبَلُ الرجل من جانبه لا غير ويدخل بالشهود فى الفَرْجَةِ أمام وجه الدَّابَّة بمقدار أربعة
أذرع عن الخليفة ، فيُسَلِّمُ عليهم ويرجعون إلى دوابهم فيركبون ؛ ويكون قد نصب
لهم بالقرب من الخيمة الكبرى خيمتان : إحداهما ديباج أحمر ، والأخرى ديبقى
أبيض بصفارى فضة لكل واحدة ؛ فيتم الخليفة بهيئته إلى أن يدخل من باب الخيمة ،
ويكون الوزير قد تقدَّمه على العادة ليخدمه ، فيجده راجلاً على باب الخيمة فيمشى
بين يديه إلى سرير الملك ، فينزل ويجلس على المرتبة المنصوبة فيه ويحيط به الأستاذون
المُخَنِّكون والأمرء المَطْلُوقون بعدهم ، ويوضع للوزير الكرسيّ الجارى به عادته فيجلس
عليه ورجلاه تحكَّ الأرض ، ويقف أرباب الرُّتَب صَفَّين من ناحية سرير الملك إلى
ناحية الخيمة ، والقُرَّاء يقرءون القرآن ساعة زمانية ، فإذا ختموا قراءتهم استأذن
صاحب الباب على حضور الشعراء للخدمة بما يُطْلَق هذا اليوم ، فيأمر بتقديمهم واحداً
بعد واحد ، ولهم منازل على مقدار أقدارهم ، فالواحد يتقدَّم الواحد بخطوة فى
الإنشاد ، وهو أمر معروف عند مستخدم يقال له « النائب » .

^١ عُرَانِس ج . عرانيس . العمود الذى يحمل مظلة السرير .

^٢ النخبارية . قوم لا تعرف على وجه التحديد دورهم أو وظائفهم ذكرهم ابن المأمون جنباً إلى جنب مع المنافقين .

(أخبار ٨٩) ويبدو من وصف ابن الطُّوَيْر أنهم كانوا يؤدون ألعاما بهلوانية .

ثم يقوم الخليفة عن السرير راكبا والوزير بين يديه حتى يطلع على المنظر المعروفة بالشكوة وقد فرشت بالفرش المعدة لها فيجلس فيها، ويتجهبا أيضا للوزير مكان يجلس فيه. ويحيط بالسد حامى البساتين ومشارفها، لأنه من حقوق خدمتهما، فتفتح إحدى طاقات المنطرة ويطل منها الخليفة على الخليج، وطاقة تقاربها يتطلع منها أستاذ من الخواص ويشير بالفتح فيفتح بأيدى عمال البساتين بالمعاول ويخدم بالطبل والبوق من البرين. فإذا اعتدل الماء فى الخليج دخلت العشاريات اللطاف، ويقال لها العشاريات الخاص، وكأنها خدم بين يدى العشارى الذهبى المقدم ذكره، ثم العشاريات الخاص الكبار وهى ستة: الذهبى المذكور، و الفضى، والأحمر، والأصفر، والأزودى، والصقلى، وكان أنشأ نجا من رؤساء الصناعة صقلى وزاد فيه على الإنشاء المعتاد فينسب إليه. وهذه العشاريات لا تخرج عن خدمة خاص الخليفة فى أيام النيل وتحوله إلى اللؤلؤة للفرجة، وسارت فى الخليج وعلى بيت كل منهما الستور الديقى الملونة وبرؤسها وفى أعناقها الأهلة وقلائد من الخرز، فتشند إلى البر الذى فيه المنطرة الجالس فيها الخليفة.

فإذا استقر جلوس الخليفة والوزير بالمنطرة ودخل قاضى القضاة والشهود الخيمة الديقى البيضاء، وصلت المائدة من القصر فى الجانب الغربى من الخليج على رؤوس الفراشين صُحبة صاحب المائدة وعدتها مائة شدة فى الطيافر الواسعة وعليها القوارات الحرير وفوقها الطراوات ولها رواء عظيم ويشك فائح فتوضع فى خيمة واسعة منصوبة لذلك، ويحمل للوزير ما هو مستقر له بعادة جارية، ومن صوانى التماثيل المذكورة ثلاث صوان، ويخصص منها أيضا لأولاده وإخوته خارجا عن ذلك إكراما واعتقادا. ويحمل إلى قاضى القضاة والشهود شدة من الطعام الخاص من غير تماثيل توقيفا للشرع. ويحمل إلى كل أمير فى خيمته شدة طعام وصينية تماثيل. ويصل من ذلك إلى الناس شئ كثير، ولا يزالون كذلك إلى أن يؤذن بالظهر فيصطلون ويقيمون إلى العصر، فإذا أذن به صلى، وركب المركب كله لانتظار ركوب الخليفة، فيركب لا بأسا غير البذخة، بل بهيئة، والمظلة مناسبة لثيابه التى عليه والبيمة والترتيب بأجمعه

على حاله^١ ويسير في البرّ الغربيّ من الخليج شاقاً البساتين هناك حتى يدخل من باب القنطرة إلى القصر والوزير تابعه على الرسم المعتاد ويمرّ فيه للقوم أحسن الأيام ، ويمضى الوزير إلى داره مخدوماً على العادة^٢ .

مُكُوبُ الخَلِيفَةِ في الأعياد الشَّيعِيَّة

في وَسَطِ الاحتفالات الموكبية التي احتفل بها الفاطميون في مصر سواء التي انفردوا بالاحتفال بها أو التي استمرت بصورة أو بأخرى بعد سقوط دولتهم ، سنجد أن الاحتفال بركوب عيد العَدِير (غدير خُثَم) هو الاحتفال الوحيد الذي له أصول شيعية . ومع ذلك فقد خَصَّصَ هذا الاحتفال لتغييرات مماثلة لتلك التي صحبت الاحتفالات الفاطمية الأخرى . ففي بداية العصر الفاطمي كان الاحتفال بعيد العَدِير مثله مثل « حُزْنِ عاشوراء » - الذي يحيى ذكرى مقتل الحسين - احتفالاً شيعياً في الأساس . ولكن اعتباراً من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي أصبحت الحكومة الفاطمية تُنظِّم احتفالاً موكبياً خاصاً به على غرار الاحتفال بعيد الأَضْحَى ، وأصبح جزءاً من الطقوس التي استجذت في فترة خلافة الأمر ووزارة المأمون البُطَائِحِي . وقرب نهاية العصر الفاطمي تَبَيَّنَت الإمامة الفاطمية في عهد الحافظ لدين الله ملابسات ما حَدَثَ في غدير خُثَمَ لتبرير اعتلائه رُتْبَةِ الإمامة . وهكذا فقد تَحَوَّلَ الاحتفال بعيد العَدِير في العصر الفاطمي من احتفال شيعي إلى احتفال موكبى يشارك فيه الخليفة الفاطمي وأخيراً للرد به على معارضى الإمامة في عهد الحافظ^٣.

^١ ذكر ابن المأمون أن الخليفة كان يلبس بدلة جميعها حريري برسم القُوَد (أخبار ٥٥ ، ٨٤) .

^٢ ابن الطوير : نزهة المقلين ١٩٥-٢٠٣ ؛ المقرئى : الخطط ١ : ٤٧٧ س ١٤-٤٧٩ وقارن القلقشندى : صبح ٣ :

٥١٧-٥١٤ وأبا الحسن : النجوم ٤ : ٩٩-١٠٠ ؛ Sanders, P., *op.cit.*, pp. 100-112 ؛ وفيما سبق ص ٢٥٢ .

^٣ Sanders, P., *op.cit.*, p. 121 .

و « غدير حُتم » نسبة إلى حُتم موضع بين مكة والمدينة به غدير وحوله شجر كثير^١. كان رسول الله ﷺ عند عودته من مكة بعد حجة الوداع فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ١٠هـ نَزَلَ به وأخى بينه وبين على بن أبى طالب رضى الله عنه^٢. ويُعلّق الشيعة أهمية كبيرة على هذا الحديث إذ يعتبرونه مبايعة علنية من الرسول ﷺ لعلى بن أبى طالب بخلافته .

وأوّل ما احتفل الشيعة بعيد الغدير فى العراق سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م فى أيام مُعِزّ الدولة بن بُؤَيْه ، أما أوّل ما عُيِّلَ فى مصر ففى سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م بعد وصول الخليفة المُعِزِّ إليها ، حيث تَجَمَّع خَلْقٌ من أهل مصر والمغاربة للدعاء ، فأعجب المُعِزُّ ذلك من فعلهم . وكان الاحتفال بعيد الغدير يتم فى صدر الدولة الفاطمية بطريقة مُبسّطة فقد ذكر المُسَبِّحى فى حوادث سنة ٤١٥هـ/١٠٢٥م أن الناس جروا على رسومهم فى يوم عيد الغدير وتَزَيَّوا بأفخر زِيَّهم وطَلَعَ المنشدون إلى القصر المعمور يدعون وينشدون على رسومهم ، ولم يجز منهم شىء من سَبِّ السَّلَفِ بمصر ولا تَجَمُّع ولا حال يُذَمُّ^٣. وبعد ذلك لا نجد إشارة فى المصادر إلى الاحتفال بعيد الغدير حتى عام ٥١٦هـ/١١٢٣م عندما يُقدِّم لنا ابن المأمون وَصْفًا للرسوم المعقدة التى أصبحت تصحب هذا الاحتفال فى إطار الاحتفالات التى استجدها فى فترة خلافة الأمر بأحكام الله والده الوزير المأمون البطائحي . ففى هذه المناسبة هاجر إلى باب الوزير الضُعفاء والمساكين من البلاد وانضم إليهم العوالى والأدوان على عادتهم فى طلب الحلال وتزويج الأيامى حتى أصبح موسماً يرصده الناس ويرتقبه كل غنى وفقير . كما تصنع له كُشوة خاصة للخليفة والوزير ويُفَرَّق على العساكر سبعمائة وتسعون دينارًا غَيَّنًا ومائة وأربع وأربعون قطعة من

^١ ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٣٧١ .

^٢ أحمد بن حنبل : المسند ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٩٥٢ ، ١٩٥٨ ، ١٩٥٠-٩٥٢ ، ٩٦١ ، ٩٦٤ .

^٣ ابن ميسر : أخبار مصر ١٦٢ ، المقرئى : الخطوط ١ : ٣٨٩ .

^٤ المسبّحى : أخبار مصر ٨٥ ، المقرئى : اتعاظ ٢ : ١٦٨ .

الكُشوة. ويضيف ابن المأمون بأنه كان « يُفَرَّق من مال الوزير بعد الخَلْع عليه ألفان وخمسمائة دينار وثمانون دينارًا ، وأمر بتعليق جميع أبواب القصور وتفرقة المؤذنين بالجوامع والمساجد عليها ، وتقدّم بأن تكون الأَسِيطَة بقاعة الذَّهَب على حُكْم سِماط أول يوم عيد الثَّخَر . وفي اليوم التالي كان الخليفة يَتَوَجَّه إلى المَيْدَان ويذْبَح ما جرت به العادة ويذْبَح الجزارون بعده مثل عدد الكباش المذبوحة في عيد الثَّخَر ويأمر بتفرقة ذلك على الخصوص دون العموم . وبعد ذلك يجلس الخليفة في المُنْظَرَة وتخدم الرُّهَيْجِيَّة ، ويتقدّم الوزير والأمراء فيسلمون عليه . وعندما يحين وقت الصلاة يقف المؤذنون على أبواب القصر يُكَبِّرون تكبير العيد إلى أن يدخل الوزير فيجد الخطيب على المنبر قد فرغ ، ويتقدّم القاضي فيصلى به وبالجماعة صلاة العيد ، ثم يصعد الشريف ابن أنس الدولة ويخطب خطبة العيد ، وبعد ذلك يتوجه الوزير إلى باب الملك فيجد الخليفة قد جلّس للقاءه وقد ضربت المقرّمة (ستر من الحرير) فيأمره بالمُضِي إليها ويخلع عليه خِلْعَةً مَكْمَلَةً من بدلات الثَّخَر وثوبها أحمر بالشَّدَّة الدائمة ويُقْلَدُه سَيْفًا مَرَصَّعًا بالياقوت والجوهر ، وعندما يهيم الوزير بالنهوض لتقبيل الأرض يجد الخليفة قد أعَدَّ له عقدًا بالجوهر ويربطه في عنقه بيده مبالغة في إكرامه .

ويعقد في هذا اليوم ثلاثة أَسِيطَة يحضر الخليفة فيها السَّماط الثالث فقط ، ويكون الدور الأكبر في هذا الاحتفال كما يَتَضَع من وَصَف ابن المأمون للوزير^١.

أما الوَصَف الذي يُقَدِّمه لنا ابن الطُّوَيْر فهو كبقية أوصافه وصفًا نموذجيًا لما يجب أن يكون عليه الموكب أو الاحتفال ، وفي فترة متأخرة ربما ترجع إلى أثناء عهد الخليفة الحافظ ، حيث أخذ الاحتفال أبعادًا جديدة وأصبح احتفالًا مُوجَّها ضد الفرقة الطَّيْبِيَّة لتبرير شرعية وصول الحافظ إلى رُتْبَة الإمامة . يقول :

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٤٣ .

« إذا كان العشر الأوسط من ذى الحجة اهتم الأمراء والأجناد بركوب عيد القدير - وهو فى الثامن عشر منه - وفيه حُطية وركوب الخليفة بغير مِظْلَة ولا بتيمة ولا خروج عن القاهرة ، ولا يُخرج لأحد شيء . فإذا كان أول ذلك اليوم ركب الوزير بالاستدعاء الجارى به العادة فيدخل القصر ، وفى دخوله بروز الخليفة لركوبه من الكرسي على عادته فيخدم ويخرج ويركب من مكانه من الدهليز ويخرج فيقف قبالة باب القصر ، ويكون ظهره إلى دار فخر الدين بجهاز كس اليوم . ثم يخرج الخليفة راكباً أيضاً فيقف فى الباب ، ويقال له القوس ، وحواليه الأستاذون المحنكون رجاله ، ومن الأمراء المطوقين من يأمره الوزير بإيثار خدمة الخليفة على خدمته . ثم يجوز زى كل من له زى على مقدار همته ، فأول ما يجوز زى الخليفة وهو الظاهر فى ركوبه فتجد الجناث الخاص ، التى قدّمنا ذكرها أولاً ، ثم زى الأمراء المطوقين ، لأنهم غلمانهم ، واحداً فواحداً بقَدَدِهِم وأسلحتهم وجنائهم إلى آخر أرباب القصب والقناريات ، ثم طوائف العسكر أزمتهام أمامها وأولادهم مكانهم لأنهم فى خدمة الخليفة وقوف بالباب طائفة طائفة ، فيكونون أكثر عدداً من خمسة آلاف فارس ، ثم المترجلة الرماة بالقسي الأهدى والأرجل ، وتكون عدّتهم قريباً من ألف ، ثم الرجل من الطوائف الذين قدّمنا ذكرهم فى الركوب ، يعنى الجيوشية والريحانية ، فتكون عدّتهم قريباً من سبعة آلاف ، كل منهم بزمام وبند ورايات وغيرها بترتيب مليح مستحسن ، ثم يأتى زى الوزير مع ولده أو أحد أقاربه وفيه جماعته وحاشيته فى جمع عظيم وهيئة هائلة ، ثم زى صاحب الباب وفيهم أصحابه وأجناده ونواب الباب وسائر الحجاب ، ثم يأتى زى إسفهلار المساكر بأصحابه وأجناده فى عدّة وافرة . ثم يأتى زى والى القاهرة وزى والى مصر . فإذا خرجا خرج الخليفة من الباب والوقوف بين يديه مشاة فى ركابه خارجاً عن صبيان ركابه الخاص . فإذا وصل إلى باب الزُهومة بالقصر [الباب الجنوبي الغربى للقصر] انعطف على يساره داخلاً من الدرب هناك جائزاً على الخوخ ، فإذا وصل إلى باب الدليلم [وهو الباب الجنوبي الشرقى للقصر] الذى داخله المشهد الحسينى فيجد فى دهليز ذلك الباب قاضى القضاة والشهود ،

فإذا وازاهم خرجوا للخدمة والسلام عليه ، فيسلم القاضي كما ذكرنا من تقبيل رجله الواحدة التي تليه والشهود أمام رأس الذابة بمقدار قصبة . ثم يعودون ويدخلون من ذلك الدُخْلِيز إلى الإيوان الكبير وقد عُلق عليه الستور القُرْقُوبِي في جميعه على سحته وغير القُرْقُوبِي سنراً فسترًا ، ثم يعلق بدائرته على سحته ثلاثة صفوف : الأوسط طوارق فارسيات مدهونة والأعلى والأسفل درق وقد نصب كرسي الدعوة وفيه تسع درجات لخطابة الخطيب في هذا العيد ، فيجلس القاضي والشهود تحته والعالم من الأمراء والأجناد والمتشيعين ومن يرى هذا الرأي من الأكابر والأصاغر . فيدخل الخليفة من باب العيد إلى الإيوان إلى باب الملك ، فيجلس بالشباك وهو ينظر القوم ، ويخدمه الوزير عندما ينزل ، ويأتي هو ومن معه فيجلس بمفرده على يسار منبر الخطيب ، و يكون قد شير خطيبه بدلة حريرية يخطب فيها وثلاثون دينارًا ، وتُدفع له كمراس محررة من ديوان الإنشاء تتضمن نص الخلافة من النبي عليه السلام إلى علي بن أبي طالب بزعمهم ، وشرح فيها الخبر المنقول : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ » وغير ذلك مما ورد في حق علي من الكرامة ، وأن هذا هو النص له بالخلافة دون غيره فإذا فرغ الخطيب ونزل ، صلى قاضي القضاة بالناس ركعتين يقرأ فيهما من الآيات ما يقع الاختيار عليه في ذلك المجل . فإذا قضيت الصلاة قام الوزير إلى الشباك فيخدم الخليفة ويمضي ويتنقش الناس بعد التهاني بين الإسماعيلية بعضهم بعضًا . وهو عندهم أعظم من عيد الثغر ويُنكر فيه أكثرهم^١.

^١ المقصود الحَوْخُ السَّجْع . وهي سبع خوخ متتالية متصلة باصطبل الطَّارِئَةِ يتَّوَصَّلُ منها الحلفاء إلى الجامع الأزهر فيخرجون من باب الدُّبْلَم إلى الحَوْخ ويعبرون منها إلى الجامع الأزهر . وذكر المقرئ أن هذه الحَوْخ قد زالت تمامًا في عصره (المخطوط : ١ : ٣٦٢ و ٣٧٤ ، ٢ : ٣٥ و ٤٠ و ٤٥ و ٤٦) (Fu'ad Sayyid, A., *op.cit.*, pp. 324-26).
أى أن الموكب يخرج من باب الدُّبْلَم ويسير جنوبًا تجاه باب الزُّهومة ثم ينطف يسارًا مخترقًا الحَوْخ السبع مازًا بالقصر النافى حتى يصل إلى باب الدُّبْلَم .



كانت كل هذه المواكب الاحتفالية يُكتب بها سِجَلات بالبشارة بركوب الإمام (ال خليفة) فيها وعوده بسلامة الله إلى قصره تُوجّه إلى الإقاليم ، كان يصدرها ديوان الإنشاء الفاطمي ووصلت إلينا نماذج من هذه السجلات ترجع كلها إلى الفترة الفاطمية المتأخرة أغلبها من إنشاء كاتب الإنشاء الشهير ابن الصِّيرفي^١ .

^١ ابن الطوير : نزعة المقتلين ١٨٦-١٨٩ ؛ المقرئى : الخطوط ١ : ٣٨٩ وقارن Sanders, P., *op.cit.*, pp. 121-34 .

^٢ انظر ابن الطوير : نزعة المقتلين (الملاحق) .

الفصل الثالث عشر النشاط الاقتصادي الزراعة

تُعَدُّ الزراعة عَصَبَ الاقتصاد المصري، وقد تنبَّه إلى ذلك الفاطميون منذ قدوم جَوْهَر القائد^١. وتَوَقَّف نجاح الزراعة في مصر على عاملين: فيضان النيل، وعناية الحكومات بتوفير الإمكانات اللازمة للعناية بالزراعة^٢. فقد كان فيضان النيل ذا أثر عظيم بالنسبة لرخاء البلاد وعائد الإيرادات التي تحصل عليها الحكومة (الارتفاع). وكان الفيضان المنخفض (وهو الظمأ أى اثنتا عشر ذراعًا) يعنى استحالة رَى جميع الأراضى مما يؤدى إلى نقص المحصول وعجز الحكومة عن جباية الخراج، كما أن الفيضان العالى (وهو الاستبحار أى ثمانية عشر ذراعًا) كان يؤدى إلى إغراق الأرض وإتلاف الزرع فيقل الكلاً والمزعى مما يضر بالبهاائم، وفى كلا الحالتين يُهْدَدُ البلاد القَحْطُ الذى كثيراً ما صاحبه الوباء^٣.

لذلك فقد قَسَمَ المصريون الأرض الزراعية إلى حياض يصل إليها الماء فى زمن الفيضان بواسطة شبكة واسعة من التَّرْع والقنوات التى تُسَدُّ حتى يبلغ ارتفاع النيل حدًا معينًا اتَّفَقَ المؤرِّخون أنه ستة عشر ذراعًا^٤. وحتى يتسنى غَرَفَ هذه الحياض بالماء كان من الضروري أن يبلغ النيل حدَّ الوفاء، وأن يتم تطهير هذه

^١ انظر فيما سبق ص ١٤٦.

^٢ البرواى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ٦٣.

^٣ الخزومى: المنهاج - خ ٤٧ ظ، ناصر خسرو: سفرنامه ٨٢، ٨٣، ابن مائى: قوانين ٧٦؛ الفلقشندي: صبح

٢٩٥: ٣، المقرئى: المخطوط ٥٨: ١ - ٥٩: ١ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٥٤.

^٤ المقرئى: المخطوط ٦٠: ١.

التَّرْع في فصل الجفاف^١. وقد عَجَزَ الفاطميون وحُكَّام مصر الإسلامية عموماً، عن مواجهة النتائج المترتبة على ظاهرة نَقْص فيضان النيل. وقد استتبع ذلك ضرورة صيانة الجسور، التي يَتَوَقَّف عليها بقاء الماء فوق سطح الحياض ومنعها من التسرب مرة أخرى إلى النهر من وراء الجسور^٢.

أما العَامِلُ الثاني فقد تَمَثَّل في ضرورة عمل الحكومات المتعاقبة على تحسين الرِّى وتعميق الترغ والقنوات والمحافظة على الجسور المقامة على النيل^٣. فكانت صيانة الجسور عَمَلًا إجباريًا، وكان هناك نوعان من الجسور: جسور سلطانية تشرف عليها الحكومة، وجسور بلدية تنتفع بها ناحية دون أخرى كان يتولَّى صيانتها وإقامتها المَلَّاك والمُتَقَبِّلون، تُخَصِّم نفقات عملها وصيانتها من الخراج الذى يتعينُ عليهم دفعه^٤.

وأدَّى اعتماد الرِّى في مصر على مجيء فيضان النيل وما يحمله من طَفى، إلى تعطيل الأرض الزراعية معظم أوقات العام، ولم يسمح سوى بزراعة محصول واحد في السنة من المحاصيل الأساسية وبذلك امتازت مصر بالزراعة الشتوية^٥.

كانت الزراعة الشتوية تبدأ في شهر كيهاك (ديسمبر) - فقد كان التقويم القِبْطى هو الذى يُعْتَمَد عليه في معرفة مواسم الزراعة والحصاد وكذا جباية الخراج - وتمتد حتى شهر بؤونة (مارس). فكانت الأراضي التى يغمرها الفيضان غمرًا كاملاً تعرف بـ «البياض» وتنتج المحاصيل التى لا تحتاج للرِّى حتى وقت حصادها، وهذا النوع كان

^١ محمد محمود إدريس: تاريخ الحضارة الإسلامية (العصر الفاطمى)، القاهرة ١٩٨٦، ٨٤-٨٥، البراوى: المرجع السابق ٦٣.

^٢ البراوى: المرجع السابق ٦٣.

^٣ نفسه ٦٥.

^٤ الخزومى: المنهاج - خ ٤٤ ط، ٤٨ و؛ ابن ممتى: قوانين الدواوين ٢٣٢؛ المقرئى: الخطط ٨٢: ١، ١٠٢؛

الحموى: روضة الأديب (أبحاث ألفية القاهرة) ١٠٨٣، البراوى: المرجع السابق ٦٥.

^٥ البراوى: المرجع السابق ٦٦.

سائداً فى معظم أراضي مصر العليا والوسطى باستثناء الفيوم . أما الأراضي التي لم يغمرها الفيضان غمرًا كاملاً أو التي لم يغمرها على الإطلاق فكان يُلجأ فيها إلى الرى الصناعى عن طريق الآبار ، وتعرف بـ « الشتوى » ورغم ما تُكلفه المحاصيل الناتجة عن هذا النوع من الزراعة ، فإن عائدها كان أكبر مما تدره محاصيل النوع الأول ^١.

وكانت الزراعة الصيفية تبدأ بعد حصاد المحاصيل الشتوية فى الأماكن الواقعة على جانبي النهر نظراً لجفاف الترع ، وتمتد من شهر بؤونة (إبريل) وحتى آخر شهر توت (يولية) . وكان الفلاحون يوفرون الماء فى هذه الحالة عن طريق رفعه من النيل بالسواقي والقواديس وغيرها من أدوات ^٢.

أما الأراضي المنخفضة المجاورة للنهر والتي لا تحتاج إلى آلات لرفع المياه إلى منسوب الأرض ؛ فكانت تزرع طوال العام وبأكثر من محصول وعلى الأخص المحاصيل التي لا تُضار من وفرة الماء مثل القصب والأرز . وتعرف هذه الطريقة باسم « الرى بـماء الواحة » ^٣.

كانت أهم المحاصيل الشتوية هى : القمح والشعير والبرسيم والكتان والجلبان ، أما أهم المحاصيل الصيفية فكانت قصب السكر والأرز والنيلة والسفسم والفواكه ، وخاصة الكروم والزيتان والخوخ والتاريخ والبطيخ والأترنج والسفرجل والليمون الثقاحى ^٤.

وكانت الأزمات الاقتصادية التي حلت بمصر فى العهد الفاطمى وخاصة فى أوائل القرن الخامس ومنتصفه عادة نتيجة لقصور ماء النيل وانقطاع الفيضان . وعادة ما كان يعقب هذه الأزمات انتشار الأوبئة وخراب الكثير من المواضع

^١ محمد محمود إدريس : المرجع السابق ٤١١٨ : البراوى : المرجع السابق ٦٦-٦٧.

^٢ البراوى : المرجع السابق ٦٧.

^٣ محمد محمود إدريس : المرجع السابق ٨٧.

^٤ البراوى : المرجع السابق ٧١.

العمرانية مع ما يصحب ذلك من ندرة الأقوات وارتفاع الأسعار^١.

وكجزء من محاولة التصدي لهذه الكوارث الطبيعية عملت الحكومة الفاطمية - في أعقاب الشدة العظمى وبعد استيلاء بدر الجمالي على السلطة - على العناية بأمر الترع والجسور مما أدى إلى ارتفاع إيرادات الدولة ، فيذكر الخزومي أن جملة الخراج في زمن بدر الجمالي بلغ سنة ٤٨٣/ ١٠٩٠ ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار بزيادة ثلاثمائة ألف دينار عن ما كان يُحصّل قبل قدومه^٢.

وفي أيام الوزير الأفضل شاهنشاه تم فتح خليج من النيل إلى الشرقية^٣. فقد كان الماء لا يصل إليها إلا من الشردوسى ومن الصماصيم ، فكان أغلب أراضي هذه المنطقة يشرق في أكثر السنوات^٤. وكان تُشارف هذه المنطقة رجلاً يهوديًا يعرف بسني الدولة وأمينها أبي المتجّح شلومو بن شيعيا^٥. فتضرر إليه المزارعون وطالبوه بفتح ترعة يصل الماء منها في ابتداء الفيضان إليهم . فبدأ في حفر الخليج المعروف بـ «خليج أبي المتجّح» يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ٣٠/٥٠٦ يناير سنة ١١١٣ ، واستمر حفر هذا الخليج سنتين ، وكانت الفائدة منه تبرر ما غرّم عليه . وقد استنكر الأفضل شاهنشاه ، بعد ما أنفق على فتح هذا الخليج ، أن يُسمّى خليج أبي المتجّح وأمر أن يُغيّر اسمه إلى «البحر الأفضلي» ومع ذلك فإنه لم يُعرّف عند المؤرخين أو بين الناس إلا باسم «خليج أبي المتجّح»^٦.

^١ انظر فيما سبق ص ١٨٣-١٨٤ ، ٢٠٤-٢٠٧ ودراسة السيد الصاوى : مجاعات مصر الفاطمية - أسباب ونتائج ، بيروت - دار التضامن ١٩٨٨ ، ٢٥-٧٢.

^٢ الخزومي : النهاج - ٤٦ و؛ المقرئى : الخطط ١: ١٠٠.

^٣ ابن ميسر : أخبار مصر ٨٤؛ المقرئى : الخطط ١: ٨٣ ، ١٠٠ ، اتعاظ الحنفا ٣: ٧٢.

^٤ ابن المأمون : أخبار مصر ١١.

^٥ انظر عنه Goitein , S. D., *A Med. Soc.* II pp. 356, 358, 377.

^٦ ابن المأمون : أخبار ١١-١٢؛ القلقشندي : صبح ٣: ٣٠١-٣٠٢؛ المقرئى : الخطط ١: ٧١-٧٢ ، ٤٨٧-٤٨٨ ،

اتعاظ الحنفا ٣: ٥٠.

واقترح الوزير المأمون البطائحي على الخليفة الأمر أن يكون لهذا الخليج يومٌ كخليج القاهرة، فأمر ببناء منظرة بحرى سدَّ الخليج لينظر منها الخليفة الاحتفال بفتح هذا الخليج، وظلَّ يُحتفل يوم فتح هذا الخليج حتى نهاية الدولة الفاطمية^١.

وربما كان خليج أبي المتَّجَّأ هو نفسه الفرع البيلوزى القديم الذى كان قد طُمِرَ، ولكن بقيت آثاره تدل عليه، فأعاد الفاطميون حفره وتعميقه مما ساعد على رَئى جانب كبير من الأراضى الواقعة فى شرقى فرع دُمياط^٢.

^١ نفسه.

^٢ البراوى : المرجع السابق ٤٠١.

الصُّنَاعَةُ

لا شك أن التطُّور الكبير في تجارة مصر الدولية وافتتاح أسواق جديدة لها ، بالإضافة إلى الرفاهية العالية للبلاط الفاطمي قد أدَّى إلى ازدهار مختلف فروع الصُّنَاعَةِ في مصر الفاطمية^١. كذلك فقد دعت الحياة الاجتماعية المترفة ، التي وَصَفَهَا لنا الرُّخَالون الذين زاروا مصر في هذه الفترة ، إلى تَقَدُّمِ الصُّنَاعَةِ من حيث الكم والكيف ، وأَلْقَتْ أعباءَ جديدة على الإنتاج الصناعي المحلي^٢. فقد زاد حجمُ الصُّنَاعَاتِ القديمة القائمة في مصر وأُوجِدَتْ لها فروع جديدة ، وظهرت معها صناعات لم تكن معروفة من قبل ، واشتُخِذَت أساليب جديدة كما تَحَسَّنَت الطُّرُق القديمة أو تم تقليد الطُّرُق المستعملة في مراكز أخرى بنجاح^٣.

ويمكننا تفسير هذا الازدهار ، ولو جزئياً ، بسياسات الفاطميين الاقتصادية التي تَبَيَّنَتْ مبدأ حرية المشاريع^٤. ولما كان الأقباط هم عماد الصُّنَاعَةِ في مصر في هذا الوقت ، فقد كان لسياسة التسامح التي اتَّبَعَهَا أغلب خلفاء الفاطميين أثر في أن يجد الأقباط أنفسهم ويأمنون على أموالهم ويُبْجُودُونَ أعمالهم ، وكان وراء هذه الروح الجديدة رغبة الفاطميين في استغلال مهارة الأقباط في الإنتاج الصُّنَاعِي^٥ ، وجَذَبَ هذا الازدهار الكثير من القتال الأجانب الذين استقدمهم الفاطميون من بلادهم واجتذبوهم بالرواتب المغرية ، كما أن الفاطميين استعانوا ببعض الأشرى الأجانب في مجال الصُّنَاعَةِ^٦.

^١ . Ashtor, E., *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, p. 198

^٢ راشد البراوي : المرجع السابق ١٢٢.

^٣ Ashtor, E., *op. cit.*, p. 198 وعن الصناعات في مصر قبل العصر الفاطمي انظر ، زكي محمد حسن : الفن

الإسلامي في مصر ، القاهرة ١٩٣٥ ، ٨٣-١١٥.

^٤ . *Ibidem*

^٥ البراوي : المرجع السابق ١٢١.

^٦ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٤١-١٤٢ ؛ البراوي : المرجع السابق ١٢١-١٢٤.

وأهم الصناعات التى ازدهرت فى العصر الفاطمى « صناعة النسيج » التى انتشرت فى ديق وتيس ودمياط وثونة وشطا فى الوجه البحرى ، وأنصنا والقيوم والبهنسا وذبيزة وأخميم فى مصر الوسطى ومصر العليا ، كما تشير أوراق الجيزة إلى مراكز جديدة لصناعة الكتان مثل : قفط ومينة الخصيب ومينة غمر أو مينة زفتى^١ . وحذق المصريون هذه الصناعة منذ العصور القديمة وتقدمت على أيديهم فى العصر القبطى متأثرة فى الوقت نفسه بالأساليب الزخرفية الساسانية والبيزنطية . وظل التقدم مضطربا فى العصر الإسلامى إذ بقيت الصناعة فى يد أهل البلاد سواء اعتنقوا الإسلام أو ظلوا على مسيحياتهم . لذلك وجدت المراكز الرئيسية لصناعة النسيج فى الجهات التى يكثر فيها الأقباط مما حافظ على نفس أساليب الصناعة وكذلك المواد الخام المستخدمة ، وهى غالبًا الكتان فى شمال الدلتا الذى كان يُزخرف بالحرير أو الكتان الملون ، والصوف فى صعيد مصر . وعلى ذلك فقد ظل العرب حتى نهاية العصر الفاطمى يُطلقون على نسيج مصر اسم « القباطى » نسبة إلى أقباط مصر ، وهو نسيج يمتاز بأن زخارفه تتكوّن من لحامات غير ممتدة فى عرض المنسوج وغير منقطعة ويعرف أيضا بـ « التبستري Tapestry »^٢ . وتطوّرت صناعة المنسوجات وزخرفتها فى العصر الإسلامى تطوّرًا منتظمًا حيث بدى فى الاستغناء شيئًا فشيئًا عن الرسوم الآدمية والحيوانية التى كانت فى الفن القبطى واستعاض عنها بزخارف هندسية كما بدأت الكتابة تلعب دورًا هامًا فى صناعة المنسوجات^٣ .

كان للنسيج فى مصر صناعة أهلية فرضت عليها الدولة رقابة شديدة وضرائب فادحة ، ولكن صناعة النسيج ازدهرت فى المصانع الحكومية التى أطلق عليها « الطراز » وهى تسمية تعود إلى العصر العباسى . « والطراز » لفظ فارسى مُقرَّب يعنى فى الأصل

^١ Ashtor, E., op. cit., p. 198

^٢ سعاد ماهر : النسيج الإسلامى ٢٤ ، ٣٥ ، ٣٦ .

^٣ زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ٨٣ وكتوز الفاطميين ١١٠ ، وانظر كذلك السيد طه أبو سدرة :

الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية ٤٧-٦٩ .

المُدَبِّج (البرودرى) أو المُوَشَّى أو المُرَزَّكَش وعلى الأخص ما كان منه مُوَشَّى بخطوط مستعرضة ، ثم أصبح يُقَصَّد به بعد ذلك ملابس الخليفة الرسمية وأصبحت رمزًا من رموز السيادة ، فمتى تولَّى الإمام أو سُئِنَ وَلَّى العَهْد « نُقِشَ اسمه على الطَّرَاز » . ويُطَلَق كذلك على ملابس كبار الشخصيات المُطَرَّزة ، وعلى الأخص المزدانة بشرائط الكتابة المرزكشة . واتَّسع مدلول هذا اللَّفْظ حتى انتهى إلى الدلالة على المصنع أو المكان الذى تُصَنِّع فيه مثل هذه المنسوجات ثم أصبح يُطَلَق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة ، بل امتد استعمال هذا اللفظ للدلالة على أى نقش من النقوش التى توضع على شريط مستعرض من أى نوع كان سواء أكان من الحجارة أو الفسيفساء أو الفخار أو محفورًا فى الخشب^١ .

كان هناك نوعان من هذه المصانع الحكومية : الأول « طَرَّازُ الخاصَّة » ، وكان لا يشتغل إلَّا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته ؛ والثانى « طَرَّازُ العامَّة » ، وكان يتبع أيضًا بيت مال الحكومة ، ولكنه كان يشتغل لحساب بلاط الخليفة وأفراد الشعب على السواء . فقد كانت العادة فى الدولة الإسلامية أن يصحب سِجِّلَ تولية كبار رجال الدولة منحهم خِلْعَةٌ أو أكثر على سبيل التشريف ، كما كانوا يُمْتَحِنون على الأقل خِلْعَةً فى كل مناسبة أو عيد على مدار السنة . كانت هذه الخِلْع تصنع عادة فى عصر الدولة الفاطمية فى دور الطَّرَز بِدِمِياط وشَطَا وتَيْس ، والقماش الشائع استخدامه فى عملها هو عادة ما يُطَلَق عليه الدِّيَقى - نسبة إلى مدينة دَيْق من ضواحي دِمِياط الحالية ، وكانت تُقَعِّق هى وشَطَا وثَوْنَةٌ فى الموضع الذى غمرته بحيرة المَنْزَلَةُ الآن - فكانت ملابس الخليفة وخواصه تُعْمَل بدار الطَّرَاز الخاصَّة ، بينما كانت بقية ملابس رجال الدولة تُعْمَل فى دار الطَّرَاز العامَّة^٢ .

^١ راجع ، Grohmann, A., *El' art. Tirāz* IV, pp. 825-34, Suppl. pp. 266-68; Serjeant, R. B., *Islamic Textiles*, pp. 138-60, 261-62; Marzouk, M. 'Ab., « The Tiraz Institution in Mediaeval Egypt », in *Studies in Islamic Arts and Architecture in Honour of K. A. C. Creswell*, London 1965, pp. 157-62; Sokoly, J. A., « Towards Model of Early Islamic Textile Institutions in Egypt », in *Islamische Textilkunst des Mittelalters : Aktuelle Problem*, Riggisberg 1997, pp. 115-20
^٢ Wiet, G., *RCEA* n° 1852, 1884, 1899, 1924, 1957, 2013, 2023, 2041, 2045, 2048, 2053, 2055, 2056; أدولف جروهمان : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ١: ٣-٤ .

وَتَقْتَضِيَنَّ مَعْظَمَ الْمَنْسُوجَاتِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْنَا مِنْ مِصْرَ الْإِسْلَامِيَّةِ عِبَارَةً مِنَ الْعِبَارَاتِ
الْآتِيَةِ : « مِمَّا عُجِّلَ فِي طَرَاظِ الْخَاصَّةِ بِتَنْيِيسٍ ... بِمِصْرٍ ... بِتُونَةِ الْخِ » ، « مِمَّا عُجِّلَ فِي طَرَاظِ
الْعَامَةِ بِتَنْيِيسٍ ... بِمِصْرٍ ... بِتُونَةِ الْخِ » ، « مِمَّا عُجِّلَ فِي طَرَاظِ مِصْرٍ ... فِي طَرَاظِ دِمِيَاطٍ ...
فِي طَرَاظِ تَنْيِيسٍ الْخِ » ، « مِمَّا عُجِّلَ فِي مِصْرٍ ... بِإِسْكَندَرِيَّةٍ ... بِتُونَةِ الْخِ » . وَيَرَى الْمَرْحُومُ
مُحَمَّدُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَرْزُوقٌ أَنَّ الْعِبَارَةَ الْأُولَى رُبَّمَا كَانَتْ تُشِيرُ إِلَى الْمَنْسُوجَاتِ الَّتِي خَرَجَتْ
مِنْ دَارِ الطَّرَازِ الْخَاصَّةِ لِمُسْتَعْمَالِ الْخُلَفَاءِ وَالْوَلَاةِ وَالْوُزَرَاءِ أَوْ لِيُخْلَعَهَا هَؤُلَاءِ عَلَى كِبَارِ
مُوظَفِي دَوْلَتِهِمْ ؛ أَمَّا الْعِبَارَةُ الثَّانِيَّةُ فَقَدْ تُشِيرُ إِلَى الْمَنْسُوجَاتِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْ دَارِ الطَّرَازِ
الْعَامَةِ لِكَيْ يُسْتَعْمَلَهَا صِغَارُ رِجَالِ الْحَاشِيَةِ وَالْخُدَمِ ، أَوْ لِيُنْعِمَ بِهَا الْخُلَفَاءُ وَالْوَلَاةُ عَلَى
صِغَارِ الْمُوظَفِينَ ؛ وَلَا يَبْعَدُ أَنَّ تَكُونَ الْعِبَارَةُ الثَّالِثَةُ إِشَارَةً إِلَى الْجِهَةِ الْحُكُومِيَّةِ (دَارِ الطَّرَازِ)
الَّتِي مِنْ أَعْمَالِهَا ضَبْطُ مَا تَخْرُجُهُ مَصَانِعُ النَّسِيجِ الْأَهْلِيَّةِ لِجَبَايَةِ الضَّرَائِبِ عَلَيْهَا ؛
وَالْمَنْسُوجَاتِ الَّتِي عَلَيْهَا هَذِهِ الصِّيغَةُ هِيَ الْمَعْدَةُ لِمُسْتَهْلَاكِ الْجُمْهُورِ فِي دَاخِلِ الْبِلَادِ ،
وَتَطْرِيزُ هَذِهِ الصِّيغَةِ عَلَيْهَا لِإِثْبَاتِ لِدْفَعِ الضَّرِيَّةِ عَنْهَا . أَمَّا الْعِبَارَةُ الْأُخْرَى فَلَعَلَّهَا كَانَتْ
تُطَوِّرُ عَلَى الْمَنْسُوجَاتِ الْمُرَادِ تَبَادُلُهَا فِي التِّجَارَةِ الْخَارِجِيَّةِ ^١ .

وَفِي خِلَالِ الْعَصْرِ الْفَاطِمِيِّ بَدَأَتْ دُورُ الطَّرَازِ فِي إِنتَاجِ أَنْوَاعٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الْأَقْمِشَةِ
إِلَى جَانِبِ الْأَنْوَاعِ التَّقْلِيدِيَّةِ كَالِدِيَهَاجِ الْمُثْقَلِ وَالشَّرْبِ وَالْدِّيَقَمِيِّ . فَفِي عَهْدِ الْعَزِيزِ بِاللَّهِ
اشْتَغَلَتْ الْبِلَادُ بِنَسِجِ نَوْعَيْنِ جَدِيدَيْنِ مِنَ الْأَقْمِشَةِ هُمَا « الْعَقَائِي » الَّذِي اشْتَهَرَتْ بِهِ
بَغْدَادُ ، وَ « الشَّقْلَاطُون » الَّذِي عُرِفَ فِي بِلَادِ الرُّومِ . وَيَرَى عَبْدُ الْعَزِيزِ مَرْزُوقٌ أَنَّ ظُهُورَ
هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ نَاجٍ عَنِ الْعِلَاقَةِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي نَشَأَتْ بَيْنَ الْخَلِيفَةِ الْعَزِيزِ بِاللَّهِ وَعَصْدِ الدَّوْلَةِ
الْبُؤْيُهِ فِي بَغْدَادٍ مِنْ نَاحِيَةِ ، وَالصُّلُحِ الَّذِي عَقَدَهُ مَعَ الرُّومِ سَنَةَ ٣٧٧هـ / ٩٨٧م مِنْ
نَاحِيَةِ أُخْرَى ^٢ .

^١ مُحَمَّدُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَرْزُوقٌ : الزَّخْرَفَةُ الْمَنْسُوجَةُ فِي الْأَقْمِشَةِ الْفَاطِمِيَّةِ ٢٧-٢٨ .

^٢ نَفْسُهُ ٥٣-٥٤ .

ويشير ناصر حُشرو إلى أنواع جديدة من المنسوجات ظهرت في عهد الخليفة المستنصر بالله شاهدها أثناء مروره بمدن مصر الكبيرة يقول عن تَيْس :

« وَيُنْسَجُ بَتَيْسُ الْقَصَبِ الْمُلَوَّنَ مِنْ عَمَائِمَ وَوَقَايَاتٍ وَمَا يَلْبَسُ النِّسَاءُ ، وَلَا يَنْسَجُ فِي أَىِّ مَكَانٍ قَصَبٌ مُلَوَّنٌ كَذَلِكَ الَّذِي يُنْسَجُ فِي تَيْسٍ . وَيُنْسَجُ الْقَصَبُ الْأَيْضُ فِي دِيْمَاطٍ ، وَيُنْسَجُ خَاصَّةً فِي مَصَانِعِ السُّلْطَانِ [الإمام الفاطمي] وَلَا يَبَاعُ وَلَا يُعْطَى لِأَحَدٍ ... وَفِي مَدِينَةِ تَيْسٍ هَذِهِ ، يَنْسَجُونَ الْبُقُولْمُونُ وَهُوَ غَيْرُ مُوجُودٍ فِي أَىِّ مَكَانٍ آخَرَ فِي الْعَالَمِ ، وَهُوَ ثَوْبٌ ذَهَبِي يَتَلَوَّنُ بِاخْتِلَافِ أَوْقَاتِ النَّهَارِ . وَتُحْمَلُ هَذِهِ الثِّيَابُ مِنْ تَيْسٍ إِلَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ... وَالْقَصَبُ وَالْبُقُولْمُونُ الَّذِي يُنْسَجُ لِلْسُلْطَانِ [الإمام] يَذَلُ فِيهِ ثَمَنٌ كَامِلٌ فَيَعْمَلُ الْعَمَالُ لِلْسُلْطَانِ [الإمام] بِرَغْبَةٍ لَا كَمَا فِي الْوِلَايَاتِ الْآخَرَى حَيْثُ يَظْلَمُ دِيْوَانُ السُّلْطَانِ الصُّنَاعِ »^١.

ويصف لنا ناصر حُشرو بعض ما رآه في فُشْطاط مصر من أسواق المنسوجات قائلاً :

« وَرَأَيْتُ هُنَاكَ خَانًا يُسَمَّى « دَارُ الْوَزِيرِ » لَا يَبَاعُ فِيهِ إِلَّا الْقَصَبُ ، وَفِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى يَجْلِسُ الْحَيَّاطُونَ وَفِي الْعُلْيَا الْوُفَاءُونَ . وَسَأَلْتُ الْقَيْمَ عَنْ أَجْرَةِ هَذَا الْخَانِ الْكَبِيرِ ، فَقَالَ كَانَتْ كُلُّ سَنَةٍ عِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ مَغْرِبِي ، وَلَكِنْ جَانِبًا مِنْهُ قَدْ تَخَرَّبَ وَهُوَ يَعْمُرُ الْآنَ ، فَيَحْصِلُ مِنْهُ كُلُّ شَهْرٍ أَلْفَ دِينَارٍ - يَعْنِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ فِي السَّنَةِ - وَقِيلَ إِنَّ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ مَائَتِي خَانَ أَكْبَرَ مِنْهُ أَوْ مِثْلَهُ »^٢.

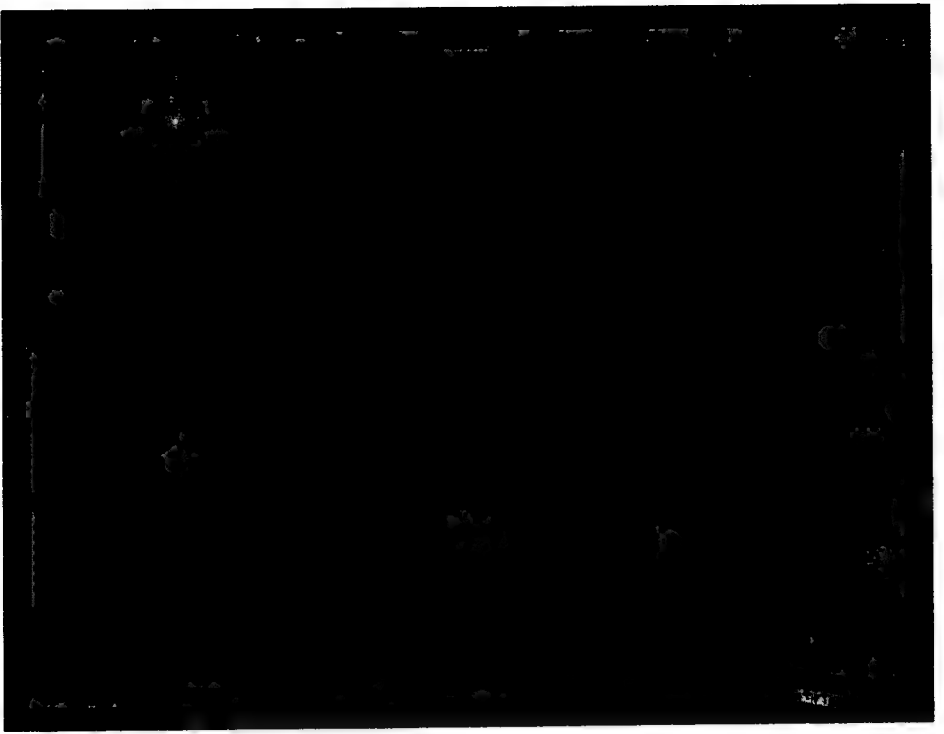
وللتدليل على دِقَّةِ وإِحْكَامِ صِنَاعَةِ الْبُشْطِ الَّتِي رَأَاهَا فِي قَاعَةِ الذَّهَبِ بِالْقَصْرِ الْفَاطِمِيِّ الْكَبِيرِ يَقُولُ عَنْهَا :

« وَكُلُّ مَا فِي هَذَا الْحَرَمِ مِنَ الْفُرَشِ وَالطَّرَحِ مِنَ الدِّيَاجِ الرُّومِيِّ وَالْبُقُولْمُونِ تُسَجَّتْ عَلَى قَدْرِ كُلِّ مَوْضِعٍ تَشْغَلُهُ »^٣.

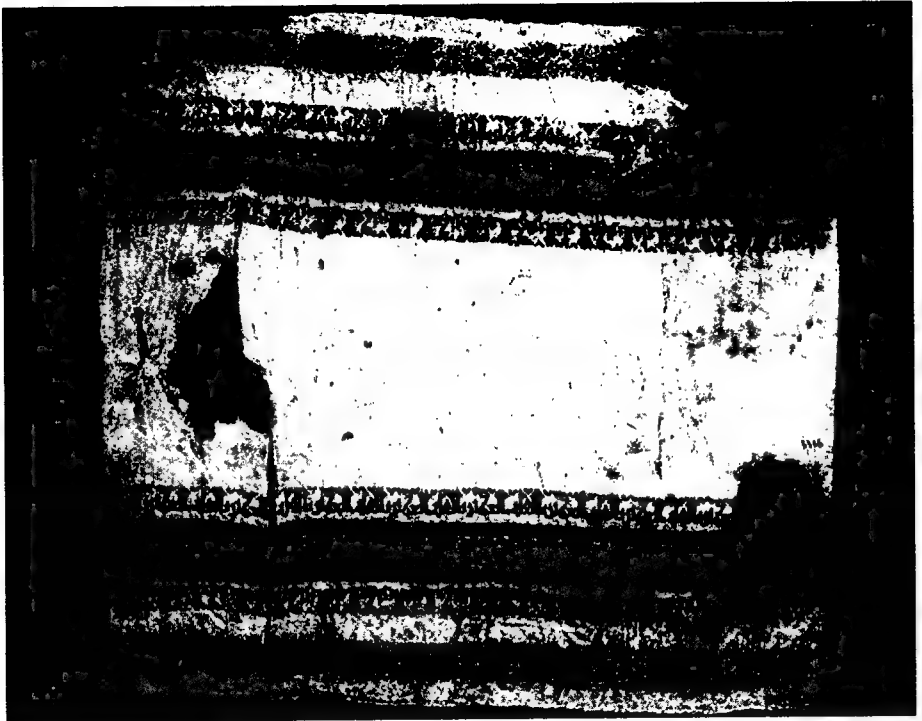
١ ناصر خسرو: سفرنامه ٧٧.

٢ نفسه ١٠٦.

٣ نفسه ١٠٧.



الوحة ١/٤ - قطعة نسيج من الكتان والحرير (متحف فكتوريا وألبرت بلندن)



الوحة ٤/ب - قطعة من النسيج من الكتان والحرير تحمل اسم الخليفة العزيز بالله

(متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)

وعندما اجتاز ناصر حُشرو في رحلته بمدينة أسيوط بمصر العليا أشار إلى ما تنتجه من منسوجات قائلاً :

« وينسجون في أسيوط من صوف الخراف عمام لا مثل لها في العالم ،
والصوف الدقيق الذى يحضرونه إلى بلاد القنم ويسمنونه مصرى ، هو من الصعيد
الأعلى ؛ لأنهم لا ينسجون الصوف بمصر [أى قنشاط مصر] . ورأيت في أسيوط
قوطة من صوف الغنم لم أر مثلها في بلهاور ولا في ثلثان وهى بشكل تحسبها حريزاً » .^١

ولعل خير دليل على ازدهار صناعة النسيج في النصف الأول لتاريخ الدولة الفاطمية ما ذكره صاحب كتاب « الذخائر والتحف » عن تقدير المنسوجات النفيسة التى أخرجت من خزائن القصر في زمن الحرب الأهلية ستى ٤٦٠ و ٤٦١ هـ بما يزيد على خمسين ألف قطعة من الديباج الحشروانى الفاخر ، وكان أكثرها مذهباً . وأن أبا سعيد النهاوندى - دون غيره من الدلائل الذين وكل إليهم بيع التحف أمام أبواب القصر - باع في مدة قصيرة أكثر من عشرين ألف قطعة من الحشروانى . وعندما أرسل ناصر الدولة بن حمدان زعيم الأتراك يطالب المستنصر بما بقى لغلمانه ، أخبره الخليفة المستنصر أنه لم يبق عنده شيء إلا ملابسه ، فأخرج ثمانمائة بذلة من ثيابه بجميع ألوانها كاملة فقلّرت قيمتها وحملت إليه .^٢

ولم تكن سنى الشدة العظمى التى وصلت بالبلاد إلى أقصى درجات الفقر في منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، لتقضى على صناعة المنسوجات بل سرعان ما استعادت مصر مكانتها فيها . وخير شاهد على ذلك الكميات الكبيرة من المنسوجات التى وجدت في تركات الوزراء العسكريين للدولة الفاطمية مثل تركة الأفضل بن بدر الجمالى التى وجد بها ثلاثون حلة من الذهب العراقى المعمول برسم الزقم ، وتسعمائة ثوب ملونة من الديباج وخمسمائة صندوق من دق دمياط

^١ ناصر خسرو : سفرنامه ١١٥-١١٦ .

^٢ الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٥٤ المرقى : المخطوط ١ : ٤١٣ ، ٤١٦-٤١٧ .

وتنيس، وتسعون ألف ثوب من أصناف الديباج وما يجرى مجراه من العناني وغيره، وثلاثة خزائن كبار مملوءة صناديق كلها ديبقى وشرب عمل تنيس ودمياط ...^١

ولعل الخلع المتنوعة التي كان يمنحها الخليفة الأمر بأحكام الله في مختلف المناسبات والأعياد والتي أتى على وصفها ابن المأمون خير شاهد على ازدهار هذه الصناعة وتطورها في هذه الفترة^٢. وكذلك ما وجد في تركات الخلفاء الفاطميين المتأخرين.

لم يستغل الفاطميون ووزراؤهم النسيج المصري في عمل الملابس والخلع الفخمة فقط بل اتخذوا منها المظلات والستائر والخراطم المعدة لحمل السيوف والظروف المعدة لوضع النقود والرايات والبند والأعلام والخيام، وكسوا بها المساند والخطاد والوسائد والمراتب، والأجلة والشروج والهواذج والغلف المعدة للمرايا، ورقاع الشطرنج والتزرد وغيرها مما يلزم لمظاهر الترف والأبهة^٣.

كانت المنشوجات الخاصة بالخليفة تثقل من «دار الطراز» إلى خزائن الكشوات بالقصر الفاطمي وهما خزانتان: «خزانة الكشوة الظاهرة» و«خزانة الكشوة الباطنة». كان يتولى «الخزانة الظاهرة» أكبر حواشي الخليفة إما أستاذ أو غيره، وكان يوجد بها الملابس التي تفضل في دار الطراز وتنيس ودمياط والإسكندرية من الشروب والخاص الديبقي الملونة: الرجالية والنسائية المعدة للتوزيع في المناسبات. وكان يوجد بهذه الخزانة صاحب المقص، وهو مقيم الخياطين يقوم مع معاونيه بتفصيل الخلل على مقدار الأوامر وما تدعوا الحاجة إليه، أما «الخزانة الباطنة» فهي المختصة بلباس الخليفة، وكانت تتولاها دائما امرأة، تُنعت بـ «زَيْن الخزان» - قال ابن الطوير: «وكانت هذه رومية في عصرنا» - يعاونها ثلاثون جارية «ولا يُغَيَّر الخليفة أبدًا ثيابه إلا عندها، ولباسه خافيا

^١ انظر فيما سبق ص ١٦٤-١٦٥.

^٢ ابن المأمون: أخبار مصر ٤٨-٥٥.

^٣ محمد عبد العزيز مرزوق: المرجع السابق ٦٨-٦٩.

الثياب الدارية وسعة أكمائها سعة نصف أكمام الظاهرة. وليس في جهة من جهاته ثياب أصلاً ولا يلبس إلا من هذه الخزانة^١.

ومما يدل على أهمية مصانع النسيج في مصر والعائد الضخم الذي تُحصّله الحكومة الفاطمية منها أن الضرائب التي جُمِعت في يوم واحد من تَنَيس والأشْمُونين ودمياط في عهد الوزير يعقوب بن كِلَس بَلَغَتْ مائتي ألف دينار، وعَلَّقَ المقرئى على ذلك بقوله : « وهذا شيء لم يُشَمَّع قط بمثله في بلد »^٢.

وكانت « تَذَكُّرَةُ الطُّرَاز » - التي تشتمل على مصروف السنة فيما تتججه دار الطُّرَاز - تشتمل في أيام الأَفْضَل بن بدر الجمالى على أحد وثلاثين ألف دينار، منها خمسة عشر ألف دينار للشَّلَف (أى للقماش نفسه) وستة عشر ألف دينار للذهب العراقى والمصرى الذى يستخدم فى نسجه، ثم زادت هذه الميزانية فى أيام المأمون البطائحي وبلغت ثلاثة وأربعين ألف دينار وتضاعفت فى الأيام الآمرة^٣.

أما الخِدْمَةُ فى الطُّرَاز (أو الطُّرَاز الشَّرِيف) فكانت كما يذكر ابن الطُّوِير القَيْسَرانى، يتولّاها أعيانُ المستخدمين من أرباب العمام أو السيوف وكان يقيم بدمياط ويَنَيس^٤ وراتبه أَفْزَرَ الرُّوَاتِبِ وتحت إمرته مائة مندوب لتنفيذ الاستعمالات بالقرى، وله عُشَّارَى ديماس يسير فى النيل وحوله ثلاثة مراكب من الدُّكَّاسَات (نوع من المراكب النيلية المخصصة لاستخدام كبار رجال الدولة فى العصر الفاطمى) وكان صاحب الطُّرَاز عند وصوله إلى القاهرة وبصحبه الاستعمالات الخاصة مثل المِظْلَّة وبدلتها والبَدَنَّة واللباس الخاص الجُمُعى وغيره استقبال بحفاوة بالغة وأكرم بتقديم دابة من مراكيب الخليفة

^١ ابن الطوير: نزهة المقلتين ١٢٨-١٢٩.

^٢ المقرئى: الخطط ٢: ٦.

^٣ ابن المأمون: أخبار مصر ٧٠، ١٠٠.

^٤ الفلقشندي: صبح الأعشى ١٠: ٣٨٠-٣٨١ س ١٨.

تظل تحتها حتى عودته إلى خدمته في تينيس أو دمياط . وطوال مدة إقامته في القاهرة يقيم في « منظر العزلة » على شاطئ الخليج .

« وكانت من المناظر السلطانية وجددها شجاع بن شاور . ولو كان لصاحب الطراز في القاهرة عشرة دور لا يمكن من نزوله إلا بالعزلة . وتجري عليه الضيافة كالغرباء الواردين على الدولة فيمثل بين يدي الخليفة بعد تحمل الأمشاط المشدودة على تلك الكساوى العظيمة ، ويعرض جميع ما معه وهو يُبته على شيء فشيء بيد قواشي الخاص في دار الخليفة ومكان سكنه ، ولهذا حرمة عظيمة ، ولا سيما إذا وافق استعماله غرضهم . فإذا انقضى غرض ذلك بالمرج الذى يحضره سلم لمستخدم خزائن الكشوات وتخلع عليه بين يدي الخليفة باطناً ولا يخلع على أحد كذلك سواء ، ثم ينكفى إلى مكانه .

وله في بعض الأوقات التى لا يتسع له فيها الانفصال « نائب » يصل عنه بذلك غير غريب منه ، ولا يمكن أن يكون إلا ولداً أو أخاً ، فإن الرتبة عظيمة . والمطلق له من الجامكية في الشهر سبعون ديناراً ، ولهذا النائب عشرون ديناراً ، لأنه يتولى ذلك عنه إذا وصل بنفسه ، ويقوم إذا غاب في الاستعمال مقامه »^٢.

وأما « صناعة السكر » فأصبحت تمثل دون شك جانباً هاماً في الاقتصاد المصرى فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . وقد تحسنت طرق تكرير عصير قصب السكر فى مصانع القصب العديدة القائمة فى هذه الفترة فى مدن وقرى كثيرة فى مصر ، حيث استخدم النطرون والشب فى تنقية المواد المتخلقة وذلك بدلاً من العلى المتكرر . وكانت صناعة السكر فى ظل الفاطميين ذات طابع رأسمالى بالتأكيد ، فالطرق المعقدة التى استخدمت فى هذه العملية كان لا يمكن استخدامها إلا فى المصانع الكبيرة التى كان يطلق عليها « مطابخ السكر »^٣.

^١ ابن الطوير : نزهة المقتلين ١٠٢-١٠٤ .

^٢ ابن المأمون : أخبار مصر ١١١ .

^٣ Ashtor, E., *op. cit.*, p. 199 .

وفي هذه الفترة كذلك بدأت « صناعة الورق » في الازدهار بعد انقراض إنتاج البردى ، وأصبحت « مطابخ الورق » في الفسطاط تُنتج الورق المعروف بالورق الطلحي ، نسبة إلى طلحة بن طاهر وإلى خراسان المتوفى سنة ١٢٣هـ/٨٢٨م ، أحد أوائل من أدخل « مطابخ الورق » في الإسلام^١.

وارتبط ذلك بازدهار حرفة الوراقة التي ازدهرت في ذلك الوقت بفضل المكتبات الفاطمية الكبرى التي انتشرت في القصر الفاطمي ودار الحكمة وفي المساجد المختلفة ولدى الأفراد^٢.

^١ Ibid., 199; Goitein, S. D., *A Med. Soc. I*, p. 81 .

^٢ راجع أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات ، القاهرة ١٩٩٧ ، ١٤٧-٢٣٢ ؛ السيد أبو سديرة : المرجع السابق ٩٢-١٠٨ وانظر فيما يلي الفصلين السادس عشر والسابع عشر .

التجارة

لم تلعب مصر فى بداية العصور الوسطى دورًا هامًا فى التجارة المتجهة إلى آسيا ، بينما كان لها دورٌ ملحوظٌ فى حركة التجارة المتجهة إلى أوروبا وبيزنطة^١ . وكانت التجارة بين أراضي البحر المتوسط والمناطق الشرقية تمر منذ الزمن القديم عبر طريقين : الأول من خلال وادى الرافدين والخليج الفارسى ، والثانى من خلال مصر والبحر الأحمر إلى الهند والبُند والصين .

وحاول أحمد بن طولون أن تشارك مصر بدور بارز فى التجارة الشرقية وأن يُقلِّل من اعتمادها على الخلافة العبّاسية ، ولكن هذا المشروع قُضى عليه مع وفاته . ولم يكن خلفاؤه من الطولونيين ثم الإخشيديين من القوة التى تتيح لهم تحدّى سيطرة الخلافة فى بغداد^٢ ، فقد كانت بغدادُ فى هذه الفترة ، مركز الخلافة العبّاسية والعاصمة التجارية للعالم الإسلامى وأثّرت تأثيرًا سلبيًا على التجارة المصرية .

وَحَلَقَ الفَتْحُ الفاطمى لمصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م موقفًا جديدًا تمامًا ، بحيث انتقل حجم التجارة الإسلامية فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى تدريجيًا من العراق والخليج الفارسى إلى مصر والبحر الأحمر ، وخدمت المتغيرات فى أراضي الخلافة العبّاسية سياسة الفاطميين ، الذين كانوا فى أوج قوتهم ، بينما كانت الاضطرابات المتتالية فى جنوب العراق بالإضافة إلى عدم الأمان المتزايد فى الخليج عاملاً فى صالح الموانئ المصرية والتجارة الفاطمية .

^١ Labib, S., «Egyptian commercial Policy in the Middle Ages» in Cook, H. A., (ed.) *Studies in the Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day*, London 1970, p. 63

^٢ . Lewis , B., *The Fatimid and the route to India*. p. 50

وقد هَجَرَ كثيرٌ من الناس بَغْدَادَ والعراق خوفاً من هذه الاضطرابات وَفَرَّوْا إِلَى مصر. وكان المستفيد الأول من ذلك «مدينة الفُشْطاط»، عاصمة مصر التجارية في زمن الفاطميين، حيث كانت السفن تُفَرِّغُ بضائعها في هذا الميناء الداخلي، سواء القادمة من الإسكندرية، أو القادمة من البحر الأحمر، حيث تُحْمَلُ بِرّاً إلى الصَّعِيدِ قرب مدينة قوص، ومن هناك تحملها السفن النيلية إلى الفُشْطاط.

وأدَّت استراتيجية الفاطميين الشرقية ومحاولة قضائهم على العبَّاسيين، إلى إحكام سيطرتهم على طرق التجارة المؤدية إلى الهند، سواء للانتعاش الاقتصادي أو لنشر الدَّعْوَةِ الإسماعيلية على طول الطرق التجارية، وذلك بالإضافة إلى تجارتهم مع جنوب أوروبا وشمال إفريقيا وصِقْلِيَّةَ ويزنطة في الشمال.

كانت هذه البضائع كلها تَصُبُّ في «الفُشْطاط»، التي جعل لها الجغرافى المقدسى، في أواخر القرن الرابع الهجرى، مكانةً تسبق بَغْدَادَ في هذا الوقت^١. وأصبحت المركز الحيوى للنشاط الاقتصادى والتجارى فى المنطقة.

فقد كانت الفترة الفاطمية واحدة من فترات التسامح والليبرالية النسبية بمقارنتها بالفترات السابقة عليها وعلى الأخص اللاحقة لها، فقد تبنَّى الفاطميون مبدأ ليبرالية الاقتصاد.

الفُشْطاط والإسكندرية مراكز التجارة فى العصر الفاطمى

كانت الفُشْطاط فى العصر الفاطمى، دون شك، هى العاصمة التجارية metropole لمصر. وكان يُطلَقُ عليها فى أوراق الحنيزة: «مِصْر» بينما أطلق عليها فى الوثائق الشرعية: «فُشْطاط مِصْر» وهو مصطلح كان يستخدم لتمييزها عن المدينة الأخرى حديثة النشأة «القاهرة»، العاصمة السياسية والإدارية^٢.

^١ المقدسى: أحسن التقاسيم ١٩٧.

^٢ Goitein, S. D., «Cairo, an Islamic City in the Light of the Geniza Documents» in Lapidus, Ira M., (ed.), *Middle Eastern Cities*, Berkeley 1969, p. 81; id., *A Mediterranean Society IV* (Berkeley 1983), p. 6-7.

وسيكون من الخطأ أن نظن أن الإسكندرية، الميناء الواقع على البحر المتوسط، كانت مركز توزيع التجارة، وأن الفسطاط كانت تستمد أهميتها من كونها مقرًا للإدارة. فالنصوص التي لا تقبل الشك لمئات من أوراق الجنيزة التي ترجع إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تُثبت أن الفسطاط، المدينة الواقعة في عمق الإقليم، كانت أيضًا المركز التجاري والمالي للبلاد، وأن الإسكندرية المدينة الساحلية، كانت ترتبط من كل النواحي بالفسطاط التي كانت بمثابة الوكالة التجارية لكل المنطقة والتي تتجّمع بها كل أنواع البضائع.

وفيما يخص البضائع التي كانت ترسل إلى ما وراء البحار فإن مُكُوسها كانت تُحصّل مسبقًا في الفسطاط، ولم يكن يُسمح بنقلها إلى الإسكندرية دون أن تكون مصحوبة بما يُثبت دفع المُكُوس عنها في العاصمة. وحتى الشَّلَع التي كانت تُجلب من موانئ البحر المتوسط إلى الإسكندرية لم تكن تصل إليها إلا بإذن من الفسطاط.

كانت الفسطاط والإسكندرية تختلفان كذلك في تركيب سكانهما؛ فالمدينتان كانتا تعجان بالأجانب، ولكن الفرق بينهما كان ينحصر في أن من كان يُلحق منهم بالعاصمة كانت لديه النية للاستقرار بها، بينما من كان يقيم منهم بالإسكندرية كان مصممًا على مغادرتها «بعد قضاء الحوائج»^٢.

على كل حال فقد كانت طرق التجارة، سواء القادمة من الإسكندرية أو من داخل إفريقيا أو من البحر الأحمر، تلتقي كلها في الفسطاط بسبب قربها من النيل. وكانت تمر من خلالها كافة أنواع البضائع الشرقية والغربية من منسوجات وجلود ومعادن مشغولة

^١ درس أبراهام أودوفيتش العلاقة الاقتصادية بين الفسطاط والإسكندرية من خلال مراسلات نهراى بن نسيم Nahray Udovitch, A. L., «A Tale of Two Cities: Commercial Relations between b. Nissim Cairo and Alexandria during the Second Half of the Eleventh Century», in *The Medieval City*, Yale University Press 1977, pp. 143-62.

^٢ Goitein, S.D., *Cairo, An Islamic City*, 82; id., *A Med. Soc.* IV p. 8

وعطارة وكافة أنواع التوابل التي يحتاج إليها بلاط الفاطميين والتجار الإيطاليين^١.

وكان الطريق الذي تسلكه التجارة الشرقية هو نفس الطريق الذي كان يسلكه رَحْب الحجاج، وهو الطريق الذي سَلَكَه ووصفه ابن جُبَيْر بعد بضع سنوات من سقوط الفاطميين. فبعد خروجه من الفُسطاط سار في النيل جنوباً مارّاً بالصعيد تجاه مدينة قُوص ومن هناك غَبَرَ الطريق البرى إلى غَيْذاب على البحر الأحمر^٢.

فابتداء من النصف الثاني للقرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى أصبح لمدينة قُوص مكانة أساسية فى نقل حركة التجارة الشرقية فى أعقاب الإصلاحات الإدارية التى أدخلها نظام بدر الجمالى على الإدارة المصرية، وشاركت الفُسطاط فى نشاطها التجارى، وتمثلت المرحلة الأساسية فى هذا التطور فى قُوص وتحصيل مَكُوس على البضائع الواردة إلى قُوص تؤكده لنا أوراقُ الجنيزة اعتباراً من سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م^٣. وقد تَمَّ إبطال هذه المَكُوس التى تُستأدى من الحُجاج وتُجار اليمن فى ربيع الأول سنة ٥٧٧هـ/يولية ١١٨١م^٤.

ثراء الفُسطاط فى العصر الفاطمى

يصف الرَّحالة المَقْدِسِي، فى أواخر القرن الرابع الهجرى، ثراء الفُسطاط ورخائها بقوله: «إن الأسواق قد التفتت حول جامع عمرو، إلا أن بينها وبينه من نحو القبلة دار الشُّطّ وخزائن وميضأة، وهو أعمر موضع بمصر، ورُقاق القناديل عن يساره، وما يدريك ما رُقاق القناديل... ويطول الوصف بتفت أسواقها وجلالته غير

^١ Goitein, S. D., « From the Mediterranean to India », *Speculum* XXIX (1954), p. 192-93;

. Garcin, J. C., *Un centre musulman de la Haute-Egypte médiévale: Qûs*, IFAO, 1975, p. 100

^٢ ابن جبير: الرحلة ٢٢-٤٣ وانظر كذلك ناصر خسرو: سفرنامه ١١٦، ١١٨.

^٣ Goitein, S. D., *op. cit.*, p. 193; Garcin, J. Cl., *op. cit.*, p. 101

^٤ المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك ١: ٧٤.

أنه أجلّ أمصار المسلمين وأكبر مفاخرهم وأهل بلدانهم»^١.

أما ناصر تُخشرو ، بعد ذلك بنحو خمسين عامًا ، فيقول : إن جامع عمرو يقع فى وسط سوق مصر ، بحيث تحيط به الأسواق من جهاته الأربع وتفتح عليها أبوابه . ويقع سوق القناديل على الجانب الشمالى للجامع وأضاف أنه « لا يعرف سوقًا مثله فى أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف »^٢.

التجار الأجانب فى القُسطاط

كانت مصر لفترة طويلة من العصر الإسلامى مركزًا هامًا للتجارة الدولية وبالتالى فقد كانت تعجّ بالعديد من التجار الأجانب القادمين من خارج « دار الإسلام » والذين كانوا يصلون إلى الموانئ الساحلية ، وأعنى بهم التجار القادمين من أوروبا المسيحية وبيزنطة الذين كانوا يقصدون موانئ البحر المتوسط . كان هؤلاء التجار يصلون إلى الإسكندرية وأحيانًا إلى دِمياط وحتى تَنيس . ولم تكن هناك ضرورة لتوجههم إلى داخل البلاد أو حتى القُسطاط ، حيث كان هناك وُسطاء محليون يقومون بنقل البضائع التى أحضروها أو التى يحتاجون إليها^٣.

وفى رواية لواقعة حَدَثَتْ بمصر سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م أُوْرَدَها مؤرُخان متعاصران هما : المُسَبِّحى ويحيى بن سعيد الأنطاكى ، نعرف أن تجار مدينة أمالفى Amalfi الإيطالية كانوا يقيمون مع بضائعهم فى القُسطاط فى مبنى مُخَصَّص يعرف بـ « دار مانِك » كان يقع فى حُط الرُقائين . مما يعنى أنه كان لهم فى القُسطاط ، وليس فقط فى

^١ المقدسى : أحسن التقاسيم ١٩٩.

^٢ ناصرى خسرو : سفرنامه ١٠٢-١٠٣.

^٣ Cahen, Cl., «Les marchands étrangers au Caire sous les Fatimides et les Ayyoubides», *CIHC*

الإسكندرية، فُتدَقَّ إن لم يكن مُلْكًا لطائفهم كان على الأقل موضوعًا تحت نَصَرَفهم من قِبَل الحكومة الفاطمية^١. وقد نَهَبَت العامة هذه الدار بما فيها من ثروات، بلغت تسعين ألف دينار، في أثناء حادثة سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م حيث كان بها نحو مائة تاجر أمالفي Amalfitains، وهو رقم كبير يجعلنا نفترض أن لفظ أمالفي، الوارد في نص يحيى بن سعيد، كان يشمل أيضًا بعض الإيطاليين الآخرين من سكان الجنوب^٢.

ورغم أن المُسَبِّحِي قد ذكر خطأ أن «دار مانك» كانت تقع في المَقْس (موضع ميدان رمسيس الآن)، فإنه صَوَّب ذلك في حوادث سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م، وذكر دار مانك بين الدور الواقعة في الفُشْطاط^٣.

وتظهر «دار مانك» في وثائق الجنيزة كمكان لدَفْع المُكُوس على عدد كبير من السِّلَع المُصَدَّرة وعلى تجارة العبور، وعلى الأخص أصناف تجارة الجملة كالكِتَان والتوابل^٤.

وكان المَقْس ميناءً قديمًا على النيل، عُرف في وقت الفُتْح بِصَيْغَةِ أم دُنين، وعُرف بالمَقْس لأن العاشر، وهو صاحب المَقْس، كان يجلس به فليل لها المَقْس ثم قلبت فليل المَقْس^٥. أنشأ به الفاطميون دار صِنَاعَة لا نعرف عنها شيئًا كثيرًا^٦. ويبدو أنه استخدم

^١ Ibid., p. 98; id., *Makhzûmiyyât - Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Egypte médiévale*, Leiden - Brill 1977, pp. 105-106.

^٢ المسبحي: نصوص ضائعة ١٥-١٦، يحيى بن سعيد: تاريخ ١٧٨-١٧٩، المقرئى الخطط ١٩٥٠:٢-١٩٦،

النويرى: نهاية - خ ٢٦:٤٨، «Un texte peu connu relatif au commerce oriental, d'Amalfi au X^e siècle», *Archivio storico per le provincie napolitane* (1953-54), pp. 3-8, id., «Le commerce d'Amalfi dans le proche-orient musulman avant et après la Croisade», *Comptes rendus d'Academie des Inscriptions & Belles - Lettres* (1977), pp. 292-294.

^٣ المسبحي: أخبار مصر ٦٩.

^٤ Goitein, S. D., *Mediterranean Trade in the Eleventh Century* p. 53; id., *A Mediterranean Society* IV, p. 27; Fu'ād Sayyid, A., *op. cit.*, pp. 601-604.

^٥ القلقشندي: صبح ٣:٣٥٧، المقرئى: الخطط ٢:١٢١، أبو المحاسن: النجوم ٤:٥٣.

^٦ المقرئى: الخطط ٢:١٩٥.

كميناء للقاهرة لجلب ما يحتاج إليه القصر الفاطمى ، فيذكر المُسَبِّحى فى حوادث ربيع الآخر سنة ٤١٥ هـ/يونية سنة ١٠٢٤م أن مراكب مملوئة قمحا وصلت إلى ساحل مصر الفُسطاط ، ورثى نقل ما فيها إلى القصر الفاطمى ، فأمر بأن تصل إلى المَقَس مما أذى إلى ارتفاع الأسعار وزيادة الغلاء فى هذا العام^١.

وُكلاء التُّجَّار فى الفُسطاط

والى جانب ذلك كان بالفُسطاط وسائر المدن الكبرى بالأقاليم المصرية عددٌ كبيرٌ من «وكلاء التُّجَّار» و«دور الوُكَّالَة». فنظرا لأنه لم يكن بمقدور كل شخص أن يجد صديقًا أو شريكًا فى البلد يمكن أن يطمئن إلى الاعتماد عليه ، فقد تم التغلُّب على ذلك عن طريق «وكلاء التُّجَّار». و«وكيل التُّجَّار» تاجرٌ ثرى استقر هو أو والده فى بلد أجنبى واغتمد فيه كممثل شرعى أو وكيل أعمال مقابل عمولة ، أولاً للأشخاص الذين يُضْطَرُّون للعودة إلى ديارهم ثم لأى شخص آخر يثق فيه ؛ وهو يحتفظ عادةً بـ«دار وُكَّالَة» أو مُسْتَوْدَع لتخزين البضائع تُدار منه هذه المشاريع التجارية ، كما يمكن استخدامها كمضْرَف أو عنوان بريدى . كان بعض هؤلاء الوكلاء متخصصين فى سلع معينة والبعض الآخر - وهم الأغلبية - متعددو الاهتمامات^٢.

وقد نشأ هذا التُّشَاط منذ الأيام الأولى للدولة الفاطمية فى مصر أو قبل ذلك بقليل . فيذكر المُسَبِّحى فى حوادث سنة ٤١٥ هـ/١٠٢٤م وفاة الشريف أبى إسماعيل إبراهيم ابن نَجَّ المَعْدَل الذى عمل بـ«الوكالة للتجار» فحملت إليه البضائع والمتاجر من كل ناحية ، وأنه خَلَفَ عند وفاته مالاً كثيراً جماً^٣.

^١ المسبِّحى : أخبار مصر ٣٩.

^٢ Goitein, S. M., *Mediterranean Trade in the Eleventh Century: Some Facts and Problems*, p.

. 61; id., *A Med. Soc.* IV, p. 26

^٣ المسبِّحى : أخبار مصر ١٠٨.

وكان لكبار التجار في المدن الكبرى الداخلية وكلاء عنهم في الثغور، فيذكر ناصر خُسرو أنه لما اعتزم مغادرة أشوان إلى عِيذاب لِيَتَوَجَّهَ منها إلى الحجاز كتب له تاجرٌ من أشوان يُدعى أبو عبد الله محمد بن فليح كتابًا إلى وكيله بعِيذاب يوصيه به أن يدفع له ما يريد، وأن ناصرًا سيعطيه مقابل ذلك صَكًا بالحساب يتولَّى الوكيل إرساله إلى التاجر بأشوان^١.

وكان أغلب «وُكلاء التجار» المسلمين المذكورين في أوراق الجنيزة من «القضاة»^٢. يقول ابن مُيَسَّر عن شخص، أصبح ولده فيما بعد قاضى قضاة مصر: إنه بعد هجرته من الشام إلى مصر فَتَحَ بالفُسطاط دار وَكالة^٣، ويذكر ابن المأمون في حوادث سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م أن الوزير المأمون البَطَّائِحِي أمر في هذه السنة ببناء دار وَكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار^٤، وهى أول مرة تشهد فيها القاهرة هذا النوع من الأنشطة.

وبما أن وظيفة «وَكِيل التجار» أصبحت منذ هذا التاريخ وظيفةً شبه حكومية، فيمكننا الظنُّ بأنه كان يحصل على ترخيص، أو تأكيد لوظيفته من المُختَيب أو من والى مدينته لِيباشِر وظيفته. وعند الترخيص لشخص بوَكَالة التجار - إذا كان يُبِيع في الأساس إجراء كهذا - فإن السلطات الحكومية كانت تضع في اعتبارها مكانة الشخص بين زملائه التجار.

وفى ظلِّ هذه الظروف يمكننا اعتباره (فى وقت لم تُعرف فيه الثَّقابات) رئيسًا لما يشبه نقابة للتجار. ويكون وَكِيلاً مستقلاً فى مجتمع التجار المستقل. وكبقية المهَن

^١ ناصر خسرو: سفرنامه، ١١٩، ١٢٠.

^٢ Goitein, S. D., *A Med. Soc.*, I, p. 187; id., *Studies in Islamic History* pp. 346-47.

^٣ ابن ميسر: أخبار ١٢٦-١٢٧.

^٤ ابن المأمون: أخبار ٣٩؛ ابن ميسر: أخبار ٩٢؛ المقرئى: الخطط ١: ٤٥١، اتعاظ ٣: ٩٢.

الأخرى، فإن وظيفة وكيل التجار كانت تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وتعطينا وثائق الجزيرة مثلاً عن وكيل للتجار أصبح ابنه وحفيده أطباء، بينما ورث أحد أحفاده بعد ثلاثة أجيال وظيفة جده الأعلى^١.

ومن خلال المعلومات المتوفرة تمكن جويتين Goitein من تتبع أصل الوكلاء المسلمين واليهود الموجودين في الفُسطاط ووجد أن أصولهم ترجع إلى العراق والشام من جانب وإلى تونس والمغرب من جانب آخر^٢.

وتشير كتب الفقه إلى أن التاجر الأجنبي عندما يصل ببضاعته إلى الموانئ الإسلامية عليه أن يدفع ١٠٪ من قيمة البضائع والسلع التي يحملها كمكوس، كما أن الدُمي المقيم في الدولة الإسلامية والذي يُتَدَّ أحد رعاياها يدفع ٥٪ كرسوم على بضائعه، أما التاجر المسلم فعليه أن يدفع فقط ٢,٥٪ وهي تعادل قيمة الزكاة الشرعية بشرط أن يحول الحوّل على بضاعته. وقصدت الدولة الإسلامية بذلك أن تحتفظ بسيطرتها على كل رعايا الدولة، ليس بغرض جمع المكوس المرتفعة ولكن للترويج للتجارة الإسلامية على حساب تجارة غير المسلمين^٣.

اتصال القاهرة بالفُسطاط

أسست القاهرة، كما نعلم سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م لتكون حصناً تتحصن به الأسرة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر، وظلت القاهرة طوال القرن الفاطمي الأول مدينة خاصة لا يُسمح بدخولها لأفراد الشعب، الذين كانوا يقيمون بالفُسطاط إلا بإذن خاص

Goitein, S. D., *A Med. Soc.* I, pp. 186-192; id., *Studies* p. 347-48; Fu'ad Sayyid, A., *op. cit.*, p.

604

. Goitein, S. D., *Mediterranean Trade in the Eleventh Century* p. 62

. Goitein, S. D., *Studies in Islamic History* p. 232

وبفرض خدمة أهل الحِصْن الفاطمي الذين كانوا من خواص الخليفة ورجال الدولة وفرق الجيش .

وقد أدت الأزمة الاقتصادية الطاحنة والفوضى السياسية التي اجتاحت مصر في أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إلى خراب الفُشْطاط، وأصاب بقسوة الأحياء العباسية والطولونية القديمة الواقعة شمال شرق الفُشْطاط (القشكر والقَطَائِع) . ولما استعان الخليفة الفاطمي المستنصر بالله بوالى عكا، أمير الجيوش بدر الجمالي، وقام بتدبير أمر مصر « نُقِلَتْ أنقاض ظاهر مصر مما يلي القاهرة، حيث كان القشكر والقَطَائِع، وصار فضاءً وكيماً فيما بين مصر والقاهرة، وفيما بين مصر والقرافة »^١ واستغلت هذه الأنقاض في البناء داخل السور الفاطمي . فكان هذا - كما يقول المقرئى - « أوّل وقت اختطّ الناس فيه بالقاهرة »^٢ . وبذلك فقّدت القاهرة - مؤقتاً - مكانتها كمدينة خاصة، وإن كان بدر الجمالي قد تدارك ذلك بعد قليل وحافظ على شكل المدينة وخصوصيتها عندما أعاد تحصينها وجدّد بناء أبوابها وأسوارها وزاد في مساحتها من جهة الشمال والجنوب فيما بين سنتي ٤٨٠هـ/١٠٨٧م و٤٨٥هـ/١٠٩٢م .

لكن التغيير الذى عرفته القاهرة تم فى العقود الأولى للقرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، فى خلافة الأمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحي (٥١٥- ٥١٩هـ) . فقد عاد للأحياء الشمالية للفُشْطاط ازدهارها مرة أخرى وأعيد تعمير المنطقة الواقعة بين المشهد النفيسى جنوباً وباب زويلة شمالاً^٣، يقول المقرئى : « حتى صار المتعيشون بالقاهرة والمستخدمون يُصلُّون العشاء الآخرة بالقاهرة ويتوجّهون إلى سكنهم

^١ المقرئى: الخطط ١: ٣٣٧، ص ٣٥-٣٨.

^٢ نفسه ١: ٥٠.

^٣ المقرئى: الخطط ١: ٣٠٥، ٢: ٢٠، ١٠٠، ٢٦٥.

فى مصر ولا يزالون فى ضوء وسرج وسوق موفور من الباب الجديد خارج باب زويلة إلى باب الصفا ... والمعاش مستمر فى الليل والنهار^١ وبذلك اتصلت المدينتان القاهرة والفسطاط .

ثم شاركت القاهرة الفسطاط فى بعض الأنشطة الاقتصادية ، ففى سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م قام الوزير المأمون البطائحي ببناء دار للضرب فى القاهرة فى منطقة القشاشين (الصنادقية الآن) بالقرب من الجامع الأزهر ، وأنشأ فى نفس السنة دار وكالة بالقرب منها لمن يصل من تجار العراق والشام وغيرهما^٢ . مما دعا الخليفة الأمر إلى إعادة تخطيط المدينة بعد انتشار المحلات والدكاكين والأسواق بها^٣ .

وتفيدنا وثائق الجنيزة بأن تاجراً من لبدة بليبيا يُعرف بمَضْمُون اللبدي اشترى فى سنة ٤٩١هـ / ١١٠٢م جزءاً من دار فى القاهرة مقابل ثلاثمائة دينار^٤ ، مما يشير إلى فتح القاهرة لأبوابها أمام التجار الأجانب .

وكان للحريق المتعمد الذى اجتاح الفسطاط قرب نهاية العصر الفاطمى فى سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م الدور الأساسى فى هجرة الكثير من أهل الفسطاط إلى القاهرة بعد تدمير جزء كبير من الجانب الغربى للمدينة . ولكن الوزير شيركوه تمكن بعد أن تولى الوزارة للفاطمين من إقناع قسم من أهالى الفسطاط بالعودة إلى ديارهم وإعادة بناء مدينتهم^٥ . ويبدو أن عملية إعادة البناء قد تمت بصورة فعلية خلال عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م ، وهو التاريخ الذى يجعله أبو صالح الأزْمَنى بداية إصلاح العديد من كنائس

^١ المقرئى : الخطط ٢ : ١٠٠ .

^٢ انظر أعلاه هـ ' صفحة ٤٩٠ .

^٣ Fu'ād Sayyid, A, *op. cit.*, pp. 492-498 ؛ أمين فؤاد سيد : « تحول القاهرة إلى مركز اقتصادى فى أواخر العصر

الفاطمى وفى العصر الأيوبي » فى كتاب خان الخليلي وما حوله ، القاهرة ١٩٩٩ ، ١ : ١٥٥-١٦٠ .

^٤ Goitein S. D., *From the Mediterranean to India* p. 191 .

^٥ المقرئى : الخطط ٣٣٧-٣٣٩ .

الْقُسْطَاط^١. كما أن ابن جُبَيْر الذى زار مصر بعد هذا التاريخ بنحو خمس سنوات ، يذكر أن أغلب المدينة كان قد انْتَشَدَ وقت زيارته وأن البنيان بها متصل^٢.

الخشب

كانت الحكومة الفاطمية تحتكر بعض البضائع التى يشرف عليها ديوان يعرف بـ «الْمَتَجَر» أو «الْمَتَجَر الديوانى السعيد» . وقبل تولّى الوزير اليازورى الوزارة سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م كان يُبْتَاع للسلطان فى كل سنة غَلَّة بمائة ألف دينار وتُجْعَل مَتَجَرًا حتى إذا نقصت الأقوات من الأسواق ، بسبب جَشَع التجار أو بسبب العوامل الطبيعية ، أخرجت الحكومة ما فى مخازنها وباعته للناس ، وبذلك تتحكّم فى أسعار السِّلَع التى لا غنى عنها للناس . وقد وجد الوزير اليازورى أن المَتَجَر الذى يقام بالغَلَّة فيه مَصْرُوة على المسلمين إذ ربما انحط السعر عن السعر الذى اشترت به فلا يمكن بيعها فتتغير بالمخازن وتتلّف . فاقترح فى سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م إقامة مَتَجَر لا كُفْلَة فيه على الناس وبفيد أضعاف فائدة الغَلَّة ولا يُخْشَى عليه من تَغَيُّر فى المخازن أو انحطاط سعره وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك ، فوافق الخليفة على رأيه واستمر ذلك النظام^٣.

وكانت كل هذه الأصناف عندما ترد على ظهور السفن يتناهبها المَتَجَر الديوانى السعيد - وهو الاسم الذى أطلقه عليه المخزومى - لحاجة الدولة إليها فى صناعة السفن والسلاح ، فقد كانت هذه المواد ذات أهمية خاصة للدولة ؛ فلم تكن مصر أو الشام تملك موارد متاحة من الحديد أو الأخشاب ، وعلى عكس وضع السوق الحرة فإن هذه البضائع

^١ أبو صالح : تاريخ ٢٧ و ، ٣٣ ط ، ٣٨ ط .

^٢ ابن جبير : الرحلة ٢٩ ؛ وانظر لتفصيل أكثر Kubiak, W., « The Burning of Misr al-Fustat in 1168. A Reconsideration of Historical Evidence », *Africana Bulletin* XXV (1976), pp. 51-64; Fu'ad

Sayyid, A., *op.cit.*, pp. 625-637

^٣ المقرئى : إغاثة الأمة ٢٠ . الخطوط ١ : ١٠٩ ، ٤٦٥ ، اتماط ٢ : ٢٢٥ .

كان يتاعها الديوان برسم مستقر مقدّمًا لحساب المتجر الديواني السعيد من التجار الواردين على الثغور مقابل رسم يعادل ١٠٪ من قيمتها يدفعها التاجر للمتجر^١. يقول ابن تيمّاتي: «فإن زاد ثمن المبتاع من التاجر شيئًا عما يجب عليه من الخمس أعطى به شيئًا بحق الثلث، وأصل ثمن هذا الشبّ ورد من جملة ارتفاع المتجر^٢، فقد احتكرت الحكومة الفاطمية الشبّ لتبيعه إلى تجّار الروم، وكان إذا عثر على أحد اشترى منه شيئًا أو باعه، غير الديوان، نُكِّل به^٣. كذلك فقد احتكرت الحكومة الفاطمية، مثل الحكومات السابقة عليها، الثّغرون^٤. ويدل على قيمة موارد الدولة من الشبّ ما جاء في سجل المسامحة بالبواقي إلى آخر عام ٥١٠هـ/١١١٧م، والذي أمر بكتابته الوزير المأمون البطّايحي في آخر سنة ٥١٥هـ/١١٢١م، فقد بلغ ما سُمح به من الشبّ ما قيمته تسعمائة وثلاثة عشر قنطارًا ونصف^٥. ويشير أحد الالتماسات المكتوبة في زمن الأمر بأحكام الله إلى تواصل حضور تجار الروم الجنوبيين والملافة بالأخشاب المخصصة للـ «متجر»^٦.

وأشار النابلسي إلى أن الديوان كان يتاع ما يرد في البحر من خشب وحديد ورمصاص وغير ذلك، ثم يبيعه إلى الناس بكسب يسير، ولكن إذا دعت الحاجة لمهمات الدولة من عمل الشّواني وعمارة الحصون وغير ذلك اشترى الديوان من التجار الذين اشترؤا من الديوان بضعفى الثمن، وربما كان ذلك في العصر الأيوبي الذي كتب فيه النابلسي كتابه^٧.

^١ الخزومي: المنهاج ٤٩، Cahen, Cl., *op.cit.*, p. 98.

^٢ ابن تيمّاتي: قوانين ٣٢٧؛ الخزومي: المنهاج ٤٨، ٥٧.

^٣ نفسه ٣٢٨، ٣٢٩، المقرئى: الخطط ١: ١٠٩، القلقشندي: صبح ٣: ٤٥٥.

^٤ نفسه ٣٣٤-٣٣٦، نفسه ١: ١٠٩.

^٥ ابن المأمون: أخبار ٢٩؛ المقرئى: الخطط ١: ٨٣.

^٦ Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents*, p. 424.

^٧ النابلسي: لمع القوانين المضية ٤٥-٤٦.

التجارة الكارمية

ترجع أقدم إشارة إلى التجارة الكارمية في المصادر التاريخية إلى ما أورده المؤرخ ابن أبيك الدواداري عن تأخر وصول التجار وانقطاع الكارم في سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م^١، وإن لم يوجد في المصادر التاريخية التي تشير إلى هذه الفترة ما يؤكد ذلك. وتُرجَّح هذه الإشارة أن الكارم^٢ كان معروفًا قبل هذا التاريخ، وتؤكد ثبات من أوراق الجنيزة^٣ التي ترجع إلى العصر الفاطمي والتي تشير إلى أن التجارة الكارمية عُرفت في عصر الفاطميين وعلى الأخص الأوراق المتعلقة بالنشاط التجاري وحجم أعمال بيت أبي الفرج يوسف بن يعقوب بن عَوَّكَل التي تُعدُّ أقدم أرشيف لنشاط جزفي وتجاري في أوراق الجنيزة، وواحدة من أقدم مجموعات المراسلات المتعلقة بالأعمال الخاصة في العصور الوسطى. ويحوى هذا الأرشيف واحدًا وستين موضوعًا (مراسلة) تغطي أربعة أجيال من بيت ابن عَوَّكَل ما بين عامي ٣٦٩هـ/٩٨٠م و٤٦٩هـ/١٠٧٦م. وتختلف مراسلات بيت ابن عَوَّكَل في محتواها ودلالاتها عن بقية أوراق الجنيزة، كما لا تقتصر أهميتها فقط على

^١ ابن أبيك: كنز الدرر ٦: ٣٨٠.

^٢ لم يتوصل بعد الباحثون إلى تحديد مؤكد لمعنى لفظ «الكارم» أو «الكارمية» الوارد في المصادر العربية وأوراق الجنيزة. (راجع صبحي ليب: «التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية ٤ (مايو ١٩٥٢) ٦-٧، Labib, S. Y., *EI*² art. *Kārimī* IV, pp. 666-670 وما ذكر من مراجع) ويرى جويتين أن هذه الكلمة غير عربية، وأنه توجد في لغة التاميل جنوب الهند كلمة «كاريام» وتعني ضمن ما تحمل من معاني «الأعمال» و«الأشغال»، ولما كانت أعمال الشرق الأوسط الرئيسية مع ساحل الهند الشرقي هي الأساس أعمالًا تجارية، فمن المحتمل أن يكون ذلك الاسم قد أطلق على مُلَّاك السفن والتجار المترددن على هذه البلاد (Goitein, S. D., *Studies* p. 300). ويرى الشاطر بصيلي رأيًا قريبًا من رأي جويتين، ولكنه يُرجع الكلمة إلى أصل عربي وأنها تتكوّن من مقطعين «كار» و«م»، «كار» بمعنى الحوّة أو التجارة و«م» بمعنى المحيط أو البحر البعيد الشواطئ، وسقطت الياء فصارت «كارم» أي «حرفة التجارة في البحار». (الشاطر بصيلي: «الكارمية»، المجلة التاريخية المصرية ١٣ (١٩٦٧)، ٢٢٠)؛ وانظر كذلك محمد بركات

البيلي: «بداية الكارم ومعناه في العصر الفاطمي»، المؤرخ المصري ١٣ (يولية ١٩٩٤)، ٨٩-١١٣.

^٣ عن الجنيزة انظر فيما سبق ص ٧٣-٧٥.

التاريخ الإسلامى أو التاريخ اليهودى بل تتعداهما إلى التاريخ الاقتصادى عمومًا، كما يقول ستيلمان Stilmann الذى دَرَسَ هذه الأوراق . وقد استقرت أسرة ابن عَوَّكَل فى القسطنطينية على الأقل منذ وقت أبى يَشْر يعقوب والد يوسف ، فكل الرسائل التى كُتِبَتْ لهما مُوَجَّهَةٌ إلى القسطنطينية ، ويبدو أن هذه الأسرة فارسية الأصل هاجرت إلى إفريقيا فى أواسط القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وقدمت إلى مصر مع الفاطميين بعد سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م^١.

وتقدنا كذلك الأوراق المتعلقة بالتاجر مَخْرُوس بن يعقوب ، والتى يرجع أقدمها إلى سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م ، بمعلومات هامة عن التجارة الكارمية وتجارة الهند . وكانت أخت هذا التاجر زوجة لأبى زِكْرَى كُوْهَيْن وكيل التُّجَّار اليهود فى القاهرة^٢ . وتُظهِر أوراق الجنيزة التى تشير إلى هذه التجارة أن التوابل وعلى الأخص القُفْل والقُفْل والزنجبيل والإفليلج والقرنفة والقُرْنُفُل وكذلك الخُلُثْجَان والرَّوْزَنْد والأصْبَاغ مثل العَنْدَم أو البُفْم وَصَنَع اللُّك قد حَلَّت محل العطور الثمينة التى كانت السِّلَع الرئيسية للتجارة الهندية زمن الخلافة العبَّاسية . فالتوابل ، نتيجة لرخص ثمنها ، تُسْتَهْلَك على نطاق واسع مما يعنى زيادة حجم التجارة^٣.

وتثبت أوراق الجنيزة بطريقة مقنعة أن العديد من التجار المنتسبين إلى الطبقة الوسطى كان لهم نشاط فى تجارة الهند . وأن التُّجَّار الذين لم يملكوا سوى رءوس أموال صغيرة شاركوا آخرين ، أى أنهم وَظَّفُوا بعض الأموال بعقود الضَّمان^٤.

^١ Stilmann, N. A., «The Eleventh Century Merchant House of Ibn 'Awkal (A Geniza Study)»,

JESHO XVI (1973) pp. 16-17

^٢ Goitein, S. D., Studies p. 353

^٣ Stilmann, N. A., op.cit., pp. 18-88; Ashtor, E., A Social and Economic History of the Near

East, pp. 196-197

^٤ Ashtor, E., op. cit., p. 197

ومعظم أوراق الجنيزة الخاصة بتجارة المحيط الهندي والبحر الأحمر هي خطابات أرسلت من عدن أو جدّة أو موانئ أخرى في شبه الجزيرة العربية أو ساحل الهند الغربي إلى مدينة المُشطاط بمصر أو العكس ، فقد كانت المُشطاط في هذا الوقت آخر طريق تجارة الهند وتجارة البحر المتوسط ، وأخذت هذه الأوراق طريقها إلى حجرة الجنيزة بطريقة أو بأخرى^١.

وكانت عدن وعيذاب وقُوص والمُشطاط من أكبر مراكز التجارة الكارمية في العصور الوسطى ، فكانت المتاجر تأتي من عدن إلى عيذاب حيث تُحصّل فيها المُكُوس ، وهي الزكاة على التجار المسلمين وواجب الذّمة على الذّميين من رعايا المسلمين^٢ ، ومن عيذاب تُحمّل القوافل المتاجر عبر الصحراء الشرقية إلى مدينة قُوص في صعيد مصر ثم تحملها المراكب النيلية شمالاً إلى المُشطاط .

وقد تَوَصَّل جويتين Goitein من دراسته لنصوص الجنيزة التي ذكرت الكارم في أيام الفاطميين إلى أن الثّجّار اليهود شاركوا في تجارة الكارم جنباً إلى جنب مع الثّجّار المسلمين ، حيث كان سائداً قبل ذلك أن هذه التجارة اقتصرّت فقط على التجار المسلمين وأن من أراد المشاركة فيها كان عليه اعتناق الإسلام^٣ . كذلك تفيدنا هذه النصوص بأن كلمة « الكارم » أصبحت شائعة في بيوت المُشطاط في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي بحيث أن أتى امرأة كان يتوّجه زوجها إلى الهند كانت تنتظر منه الهدايا « في الكارم »^٤ . وأن هذا المصطلح وَرَدَ في الأوراق التي ترجع إلى العصر الفاطمي بمعنى السِّلَع أو البضائع التي اتّجر فيها أولئك الثّجّار وتُسبّوا إليها ، ولم

^١ حسين محمد ربيع : « وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي ... » ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض

١٩٧٩ ، ٢ : ١٣٤ .

^٢ ناصر خسرو : سفرنامه ١١٨ ، ابن ممتى : قوانين الدواوين ٣٢٧ ، وانظر فيما يلي ص ٥٣٣ .

^٣ Goitein, S. D., *op. cit.*, p. 360 .

^٤ *Ibid.*, p. 358 .

تكن كلمة « كارمي » أو « التاجر الكارمي » التي شاعت في العصر المملوكي معروفة في زمن الفاطميين . لذلك فإن هذه الأوراق تستخدم ألفاظاً مثل : « يُنفِذُها في الكارم » أو « وأما الكارم فقد وَصَلَنِي منه كتاب » أو « جميع من خرج من أصحابنا في الكارم »^١ .

ولعلّ الدليل على عناية الحكومة الفاطمية واهتمامها بأمر « الكارم » هو الإشارة الواضحة التي أوردها القَلْقَشَنْدِي - رغم تأخره النسبي - إلى أن الفاطميين كان لهم بَعِيْذاب أسطولٌ يَتَلَقَّى به الكارم فيما بين عَيْذاب وسَوَاكِن وما حولها ، خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القُلْزُوم (البحر الأحمر) يعترضونها ، وكان يتولّى الإشراف عليه والى قوص^٢ . وتشير أوراق الجنيزة ، التي ترجع إلى الفترة الفاطمية ، إلى أن حاكم جزيرة دَهْلَك كان يَتَرَعَّم حركة القَرَضَنَة في جنوب البحر الأحمر . ففي خطاب مُطَوَّل للتاجر العَدَنِي الشهير يوسف بن أبراهام ، كُتِبَ في الثلاثينيات أو الأربعينيات من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، نجده يُعَرِّب عن أَسَفِهِ من أن المرسل إليه أبا عمران بن نَفَيْع قد اخْتُجِرَ مدة طويلة ولقى مصاعب كثيرة أثناء إقامته في ميناء دَهْلَك على البحر الأحمر^٣ . ولا شك أن العامل الأساسي في نجاح التجارة الكارمية هو الحماية الخاصة التي وفَّرتها لها الدولة الفاطمية ، فقد جاء في أوراق الجنيزة أن مَضْمُون - وَكِيْل الثُّجَّار اليهود في عَدَن - عَقَدَ اتفاقات مع « حُكَّام البحار والصحراء » لحماية السفن الخاصة به والقوافل الموكلة إليه حمايتها . ومع ذلك ، فإن أوراق الجنيزة تخبرنا بأنه كانت هناك صَبِيحات عالية تُطَلَّب دائماً حماية السلطات الفاطمية وأسطولها الراسي بَعِيْذاب . ويرى جويتين Goitein أنه كانت هناك دواعي مالية وراء حماية الأسطول الفاطمي لثُّجَّار الكارم ، فقد كان هؤلاء الثُّجَّار قادرين على الدَّفْع ،

^١ . Goitein, S. D., *op. cit.*, pp. 353, 354, 357

^٢ القلقشندی : صبح ٥١٩:٣ - ٥٢٠ ، وانظر محاولة لتهب نغر عيذاب سنة ١١١٨/٥١٢ من أمير مكة ورد فعل الوزير

الأفضل عليها عند النويري : نهاية ٢٧٨:٢٨ - ٢٧٩ ؛ الفاسي : العقد الثمين ٧ : ٢٩ .

^٣ . Goitein S. D., *op. cit.* p. 356

بينما كان على صِغار الثُّجَّار أن يَتَحَمَّلُوا تَقَلُّبَاتِ الْقَرْصَنَةِ الَّتِي كَانَتْ تُشَكِّلُ آنَ ذَاكَ خَطَرًا
فِعْلِيًّا فِي جَنُوبِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ^١.

وَوُجِدَ فِي أَوْرَاقِ الْجَنِيْزَةِ كَذَلِكَ «الْتِمَاس» petition مرفوع إلى الخليفة الأمر
بأحكام الله من التاجر اليهودى موسى بن صَدَقَةَ يشكو فيه أنه أثبت في مجلس القاضى
جلال الملك تاج الأحكام [أبى الحجاج يوسف بن أيوب المتوفى سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م]
أنه وَصَلَ مِنَ الْهِنْدِ وَالْيَمَنِ بِتِجَارَةٍ وَقِرَاضٍ^٢ مَعَهُ ، وَأَنَّهُ أَعْيَقَ بِشُبُهَةِ لَمْ تُثَبِّتْ ، وَيَلْتَمِسُ مِنَ
الإمام أن يخرج توقيعه إلى القاضى حتى يَرُدُّ إِلَيْهِ حَقَّهُ^٣.

^١ . Goitein, S. D., *op.cit.*, pp. 359-360

^٢ عن القراض ، وهو اتفاق بين أصحاب المال وأحد الوكلاء على المتاجرة لهم فى أموالهم مقابل نسبة من الربح ، انظر
Udovitch, A. L. *El*². art. *Kirâd* V. pp. 132-133

^٣ Stern, S. M. «Three Petitions of the Fatimid Period», *Oriens* 15 (1962), p. 179; Khan, G.,
op. cit., p. 334

الطوائف الحرفية

بدأت الإشارة إلى ما يمكن أن تُسميه تَكْتَل بين التجار وأصحاب الحرف، كما يقول برنارد لويس Berbard Lewis في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي. ولكن هذه التجمعات لم تكن قد وَصَلَتْ بعد إلى ما يمكن أن نعتبره نموذجاً للطوائف الإسلامية، وإنما هي مجرد تنظيم عام وضبط للأسواق والحرف^١.

ويرى ماسينيون Massignon أن الحركة الإسماعيلية - التي أرادت أن تَجْمَع كل العالم الإسلامي تحت شعار العدالة الاجتماعية - هي التي أوجدت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي الطوائف الإسلامية وأعطتها ميزتها الخاصة^٢. فقد خَصَّصَتْ «رسائل إخوان الصفا» - وهي مجموعة رسائل فلسفية يُظَنُّ أن مؤلفيها من دعاة الإسماعيلية - فَضْلاً كاملاً للنظر في الحرف اليدوية وتبويبها وتصنيفها، وتشير هذه الرسائل كذلك إلى نُظُم تشكيل الجمعيات، وتَعلَّم منها بوجود جمعيات لإخوان الصفا منتشرة في العالم الإسلامي لَبِثَ آرائها بين كل طبقات الشعب وخاصة بين الصُّنَّاع وأصحاب الحرف^٣. ولتوصِّل الإسماعيليون إلى استقلال أصحاب الحرف أوجدوا الطوائف وسيطروا عليها، وأصبح لهذه الطوائف خاصيتان: كونها أصنافاً للحرف، وكونها مؤسسات أخوية إسماعيلية^٤. ومع ذلك فنستطيع القول بأنه لم يوجد بعد برهان واضح يؤكد أن الحركة الإسماعيلية أوجدت الطوائف أو الأصناف^٥.

^١ لويس، ب: «النفاهات الإسلامية» ترجمة عبد العزيز الدوري، مجلة الرسالة ٨ (١٩٤٠) ٦٩٦.

^٢ Massignon, L., *El*^١ art. *Sinf* IV. p. 455.

^٣ عن إخوان الصفا انظر مقال Marquet, Y., *El*^٢ art. *Ikhwan al-Safā* II, pp. 1098-1103.

^٤ رسائل إخوان الصفا، القاهرة ١٩٢٨، ١: ١١٣-١١٥.

^٥ لويس، ب: المرجع السابق ٧٣٥.

^٦ Cahen, Cl., «Y'a-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musulman classique», dans Hourani & Stern, *The Islamic City*, Oxford 1970, p. 56.

ويرى ماسينيون كذلك أن المدينة الإسلامية بُنيت في الأساس على فكرة « السوق » التي أدت إلى نشوء ما يمكن أن يُطلق عليه « الطوائف المهنية »^١. ويضيف جويتين Goitein أن « السوق » هو الشيء الجديد حقًا في مدينة الشرق الأدنى في العصور الوسطى، فهو في رأيه ظاهرة جديدة تمامًا وفريدة من الناحية الطبوغرافية والناحية الاقتصادية الاجتماعية^٢.

ولعل الذي دَفَعَ ماسينيون إلى تبني فكرة أن الحركة الإسماعيلية هي التي أوجدت الطوائف أو الأصناف، هو موقف الريّة والاحتقار للعمل اليدوي الذي أظهره فقهاء السُنّة، بحيث أصبحت التجمعات الحرفية خاضعة لقيود عديدة ومحرومة في ظل الحكومات السُنّية من حقوق قانونية. بينما اتَّخَذَ الإسماعيليون مَوْقِفًا مُؤَيِّدًا لِلْمِهَن وتمتعت التجمعات المهنية في ظل الحكم الفاطمي برخاء عظيم واُعْتُرِفَ بِهَا من قِبَل الدولة وتمتعت بامتيازات كبرى، كما لعبت دورًا كبيرًا في النشاط التجاري والصناعي الذي تميَّز به العصر الفاطمي^٣.

وساعدت روح التسامح التي سادت طوال أغلب فترات العصر الفاطمي على انخراط أفراد من أديان مختلفة في الطوائف، حيث كان المسلمون والمسيحيون واليهود يُقْبَلُونَ بنفس الشروط فيها، حتى إن بعض هذه الطوائف غلب عليها غير المسلمين كطوائف الأطباء والمتعاملين بالمعادن الثمينة^٤.

و « الطوائف الحرفيّة » هي تَجَمُّعات تَضُمُّ كل رؤساء حِرَفَةٍ معينة، وتُنظَّم طريقة ممارستهم لها، وتتولّى الإشراف على بعض أنشطة المنتمين إليها وخاصة في مجالى الدين

^١ . Massignon, L., *Opera Minora*, Beirut 1963, I. p. 370

^٢ . Goitein, S. D., *A Med. Soc.* IV p. 3

^٣ لويس، ب: المرجع السابق ٧٣٥.

^٤ نفسه ٧٣٦.

والتضامن الاجتماعي ؛ حيث تضع قواعد معينة وإجراءات لتعليم من هم تحت التدريب وتدريبهم داخل الطائفة ، وفي الوقت نفسه تقوم الطائفة بحماية أفرادها ضد المنافسات الخارجية^١.

ولاشك أنه كان يوجد في الفُسطاط - عاصمة مصر الاقتصادية زمن الفاطميين - شكلٌ للتنظيم الحرفي ، فقد ورد بها تقسيم طبوغرافى لليَهن والأسواق^٢ ، خاصةً وقد ورد في بردية ترجع إلى أوائل القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى قائمةٌ بأسماء الصناعات المتعلقة بحرفة معينة ، تحوى : القُطّاعين والمُقشّرين والدُّبّاعين والبُقّالين والنّحاسين والحجّارين والطّبّاخين^٣ ، وكانت هناك كذلك أعرافٌ يجب احترامها وأيضاً قواعد تُتبع عند قبول أفراد جدد فى الطائفة أو عند تدريب المبتدئين فى الصنعة .

ولكننا لا نقابل على الإطلاق فى مصادر هذه الفترة أو فى أوراق الجنيزة كلمة « نِقابة » لأنه لم يكن هناك فى الحقيقة مثل هذا التنظيم الذى يضم الحرفيين ويعمل على رُفَع مستوى المهنة ، واستدل جويتين Goitein من ذلك على حرية حركة صنّاع البحر المتوسط خلال تلك الحقبة وعلى روح المبادرة الفردية المميزة لهؤلاء الصنّاع^٤.

وقد حَفِظَ لنا المقرئى - رغم تأخره النسبى - نصّاً هامّاً عن تنظيم الأسواق فى مصر الفُسطاط زمن الفاطميين ، يقول فى معرض حديثه عن أزمة سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م : « وكان فى كل سوق من أسواق مصر (الفُسطاط) على أرباب كل صنعة من الصنائع « غريف » (ج . غُرْفَاء) يتولّى أمرهم »^٥ وقد سُمى ابن الطُّوَيْر هؤلاء الغُرْفَاء

^١ Cahen, Cl., *op.cit.*, p. 53; Goitein, S. D., *op.cit.*, p. 267

^٢ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ٣٢:٤-٣٤، ٣٧-٤٠.

^٣ جروهمان ، أ : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن وراجعه عبد الحميد

حسن ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٥٥ ، ٢٣٢:٣-٢٣٤ بردية رقم ٢١٤.

^٤ Goitein, S. D., *op.cit.*, p. 268

^٥ المقرئى : إغاثة الأمة ١٨-١٩ ، المقى ٣:٣٨٤ ، اتماظ ٢:٢٢٤.

«عُرفاء الأسواق»، وأرباب المعاش^١. وكان انتخاب هؤلاء العُرفاء أو اختيارهم يتم بموافقة المختَّيب، ممثل الحكومة المسئول عن الإشراف على الأسواق لمراجعة الأسعار والمكاييل والأوزان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي يمكن أن نعتبره الموظف البلدى الوحيد فى المدينة الإسلامية. ولكن كُتِب الحِشْبَة والمصادر التاريخية تُظهر «الغريف» كوكيل أو ممثل للمختَّيب لدى الطوائف والمهَن أكثر من كونه شخصاً مختاراً من أصحاب المهَن ليدافع عن مصالحهم لدى السُلْطَة^٢. وكثيراً ما كان الوالى يلجأ إلى «العُرفاء» لمعاونته فى فرض الأمن والتعريف على مَنْ من شأنهم تكديره^٣. ولا شك أن كل طائفة مهنية فى مصر الفاطمية كان لها «غريف»، فابن المأمون يحدثنا فى أحد نصوصه عن «عُرفاء السَّقَّائين»^٤، ويذكر نصّ المقرئى - السابق ذكره - «غريف الخبّازين»^٥، كما أن سائر الطوائف غير المهنية كان لهم عُرفاء مثل «عُرفاء العبيد» الذين يحدثنا عنهم المُسَبِّحى^٦.

^١ ابن الطوير: نزعة المقتلين ٢٤-٢٥؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ١٨٤.

^٢ أمين فؤاد سيد: «تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها زمن الفاطميين»، حوليات إسلامية ٢٤ (١٩٨٨) ١٢-١٣.

^٣ ابن الطوير: نزعة المقتلين ٢٥؛ أبو المحاسن: النجوم ٥: ١٨٤.

^٤ ابن المأمون: أخبار ٦٩ المقرئى: الخطط ١: ٤٦٣، تماظ ٣: ١٠٠.

^٥ المقرئى: إغاثة ١٨ وعن العريف راجع S. Ah. El-^٢Ali & Cahen, Cl., *El* art. ^٢Arif. I, pp. 649-651.

^٦ المسبّحى: أخبار ٨٩.

الدِّينَارُ الفاطمي

يذكر ابن أبي طي أن الميزَّ لما خَرَجَ من بلاد المغرب كان معه خمسمائة جنل محملة بالذهب الذي جمعه الفاطميون طوال الستين عامًا التي أمضوها هناك وأمر بسبكه على هيئة أرحية الطواحين^١. وهو أمر غير مستبعد في ضوء ما نعرفه عن سيطرة الفاطميين على كل الطرق التجارية المؤدية إلى غانا التي كانوا يجلبون منها الذهب بعد قضائهم على إمارة تَاهَرُوت واحتلالهم لِسِجْلَمَاسَة^٢. وقد فَقَدَ الفاطميون هذا المصدر الهام بعد انتقالهم إلى مصر، وإن استعاضوا عنه بما كانوا يحصلون عليه من منجم وادي العَلاقى جنوب مصر ومن مقابر الفراعنة، حيث أشرف عُثَالُ الخليفة بأنفسهم على عملية استخراج الذهب من هناك^٣. كذلك فقد تَمَكَّنَ الفاطميون من مناجم الشام بعد فتحهم لها وإن كانوا قد فقدوها تباعًا بعد استيلاء السلاجقة ثم الفِرْج على ممتلكاتهم هناك^٤.

وبدأ الفاطميون إصلاحاتهم الاقتصادية في مصر برفع قيمة الدينار إلى ما كانت عليه العملة الفاطمية في إفريقية بحيث تراوح وزنه بين ٤ جرام و ٤,٠٦ جرام. ويبدو أن مستوى الوزن تحدّد في عهد العزيز بالله بمقدار ٤,١٢٨ جرام وفي عهد الحاكم بمقدار ٤,١٨٨ جرام وفي عهد المستنصر بمقدار ٤,٢٢٩ جرام^٥. ورغم أن الأزمة الاقتصادية التي شهدتها مصر في أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي قد أدّت إلى تخفيض قيمة العملة إلا أنها سرعان ما استعادت مكانتها في عصر الخليفة الأمر بأحكام

^١ المقرئى: الخطط ١: ٤٣٢.

^٢ Lombard, M., «L'or musulman du VII^e au XI^e siècle», *Annales ESC* II (1947), p. 152 وانظر

إبراهيم على طرخان: «غاية في العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية ١٣ (١٩٦٧) ٦١-٦٤.

^٣ المقرئى: الخطط ١: ١٩٧ ص ١٢٣ Lombard, M., *op.cit.*, pp. 150-51.

^٤ ابن المأمون: أخبار مصر ٣٨، ابن ميسر: أخبار ١٩٢ المقرئى: الخطط ١: ٤٤٥، اتعاط ٣: ٩٢.

^٥ Ehrenkreutz, S. A., «The Fiscal Administration of Egypt in the Middle Ages», *BSOAS* XVI

(1954), p. 507.



لوحة ٥ - نماذج للنقود والصَّنَج الفاصمية (متحف الفن الإسلامي بالقاهرة)



لوحة ٦ - نماذج للنقود والصنجات الفاطمية (متحف الفن الإسلامي بالقاهرة)

الله حيث ارتفعت درجة نقاوة الدينار مرة أخرى إلى ما كانت عليه من قبل ، وذلك بعد أن أنشأ الوزير المأمون البطائحي في سنة ١١٢٢/٥١٦م أول دار ضرب بالقاهرة^١. فبقا لابن بقرّة بلغ دينار الأمر أقصى درجات النقاوة في العصور الإسلامية بعد أن جرت عمليات كيميائية بلغت بالذهب حدًا لم يصل إليه أحدٌ قبله^٢ وبالتالي فإن نقاء الدينار يعتبر أحد الخصائص المميزة لاقتصاد مصر حتى نهاية الحكم الفاطمي . وقد أثبت Ehrenkreutz ، بعد دراسة ٤٩ قطعة من الدنانير التي تعود إلى عصر الأمر ، أن خمس عشرة قطعة من بينها (أو ١٥,٩٪) تحوى ما لا يقل عن ٩٠٪ من الذهب ، بينما اثنتي عشرة قطعة (أو ٧٥,٥٪) تحوى أكثر من ٩٦٪ من الذهب مما يجعلها دنانير شبه تامة . وجدير بالذكر أنه لم يوجد أى دينار ضرب بعد سنة ٥١٨/١١٢٤م (وهو تاريخ أول دينار ضرب بدار ضرب القاهرة) به نسبة أقل من ٩٠٪ من الذهب^٣. فقد أدت عمليات الاستكشاف ، التي تُوصل إليها في زمن الأمر ، «إلى أن صار دينار دار الضرب المصرية أعلى عيارًا من جميع ما يُضرب بجميع الأمصار»^٤، حتى أصبح كما أطلق عليه Ehrenkreutz «الدولار الإسلامى فى العصور الوسطى»^٥، ويعكس مستوى الرخاء الاقتصادى الذى عرفته مصر فى عصر الفاطميين^٦.

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٣٩ ؛ ابن ميسر : أخبار ٩٢ ؛ المقرئى : الخطط ١: ٤٤٥ ، تماظ ٣: ٩٢ .

^٢ ابن بقرّة : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمى - القاهرة ١٩٦٦ ، ٤٩ - ٥٠ .

^٣ Ehrenkreutz, A. S. «Arabic Dinars Struck by the Crusaders», *JESHO* VII (1964), pp. 176-177 .

^٤ ابن المأمون : أخبار ٣٨ ؛ ابن بقرّة : كشف ٥٠ ؛ المقرئى : الخطط ١: ٤٤٥ .

^٥ Ehrenkreutz, A. S., *op.cit.*, p. 179 .

^٦ عن مجموعات المسكوكات الفاطمية انظر المراجع المذكورة فى هوامش صفحتى ٢٤٦ ، ٢٤٧ إضافة إلى دراسة ، مایسة محمود داود : المسكوكات الفاطمية بمجموعة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، القاهرة - دار الفكر العربى

الفصل الرابع عشر

النظام الضرائبي للفاطميين

فى تفسيره للتاريخ الإسلامى ذَكَرَ عبد الحىّ شعبان أن نظام الفاطميين الضرائبي، الذى كان حَجَر الأساس فى نجاحهم وفشلهم معًا، لم يُناقش أبدًا^١. ولعل ذلك راجع إلى قِلّة المصادر التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة من هذا النوع.

والواقع فإنه، بعد أن وَصَلَ إلينا كتابُ «الْمِنْهَاجِ فى أحكام خِزَاج مصر» للمُخَزْمَى، وما نعرفه من كتاب «قَوَانِين الدَّوَاوِين» لابن تَمَّاتى وكتاب «لُحُ القَوَانِين المَضِيَّة» للنَابُلَسَى، يمكننا أن نُقدِّم عَرْضًا للنظام الضرائبي للفاطميين، وذلك بمقارنة معطياتهم مع الجزء الثامن من «نهاية الأرب» للنويرى، والمؤلفات المتأخرة مثل «صُبْح الأَغَشَى» للقلقشندي الذى اعتمد مطولاً على ابن تَمَّاتى، أو «خِطَط» المقرئى الذى يتابع كذلك ابن تَمَّاتى، ولكن مع الأخذ من مؤلفين آخرين من بينهم المُخَزْمَى، وكذلك كتاب «رَوْضَةُ الأَدِيب» لِمُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم بن ظَهير الحنفى الحموى: وهذان هما المؤلفان الوحيدان اللذان عرفا كتاب المُخَزْمَى ويتيحان لنا من بعض النواحي استكمال نقص مخطوط «الْمِنْهَاج»^٢.

وترجع قيمة كتاب «الْمِنْهَاج» للمُخَزْمَى إلى أن مؤلفه تَوَلَّى أكثر من مرة، فى زمن الفاطميين والأيوبيين، ديوان المُجْلَس^٣ (وهو ديوان لم يختف فوراً فى زمن صلاح الدين ولكنه اختفى دون شك فى زمن الأيوبيين)^٤، واكتسب المُخَزْمَى نتيجة لذلك خبرة

^١ . Shaban, A., *op. cit.* p. 186

^٢ . Cahen, Cl., *Makhzûmiyyât*, p. 7

^٣ المُخَزْمَى: المنهاج - خ ٤٦ و.

^٤ النابلسى: لُحُ القَوَانِين المَضِيَّة ٣٦.

عملية بالعمليات المتعلقة بجباية المكوس وعلى الأخص في ثغر الإسكندرية وكذلك جباية الجزية التي كان يدفعها الذمّيون^١.

وتبعاً للبروفيسير كاهن فقد كان هناك تأليفان لكتاب «المنهاج» تأليف أول في آخر عصر الفاطميين نحو سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م والنظام الفاطمي مازال سائداً، ثم أضاف إليه إضافات ومراجعات في سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م أو بعد ذلك بقليل بعد أن مضى وقت طويل على النظام الأيوبي ودخلت العديد من التحسينات عليه^٢. ولا شك في أن كتاب «المنهاج» يعد مصدراً لا نظير له عن النواحي الإدارية ونظام الزراعة والنظام المالي في مصر في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، ويتيح لنا أن نُحدّد وأن نُكَمّل أو نراجع، من بعض النواحي، معارفنا عن نظام الضرائب في مصر قبل العصر الأيوبي.

الضرائب

لن نعرض هنا للتباين بين آراء الفقهاء في موضوع الضرائب والتنظيمات العملية للضرائب. فالضرائب الأصلية أو الضرائب الشرعية التي تستقى منها الدولة مواردها في نظر الفقهاء هي: الفئء، وهو ما يؤخذ من المشركين دون قتال ويشتمل على: الخراج والجزية والضرائب المفروضة على تجار أهل الذمة وعلى التجار المشركين القادمين من خارج دار الإسلام. والخُمس على ما يُستخرج من المعادن والركاز والغنائم وخُمس سبب البحر مما يُقذف به البحر ويُستخرج منه. والزكاة أو الصدقة وتُجبي على: المواشي والزروع والثمار والذهب والفضة وعلى بضاعة التجار المسلمين^٣.

^١ Cahen Cl., *op.cit.*, p. 4

^٢ *Ibid.*, الخرومي: المنهاج - خ ٣٨ و، المقرئ: الخطط ٢٧٦:١-٢٧٧.

^٣ متر: الحضارة الإسلامية ١٩٤، ٢١٠، الدوري، عبد العزيز: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري،

بيروت - دار المشرق ١٩٧٤، ١٨٧-١٩٢.

أما ماعدا ذلك من ضرائب فيعد ضرائب فرعية فُرِضَتْ لتعويض احتياجات بيت المال، وترتبط عادة بأوساط التجار ويُطَلَق عليها «المُكُوس» وهى بنظر الفقهاء ضرائب غير شرعية.

المَوَارِدُ الشَّرْعِيَّةُ

قَسَمَ الخَزَوَمِي موارد بيت المال إلى ثلاثة أقسام: «المال الخراجي»، وهو ما يُشْتَأَدَى مُسَانَهَةً مما هو مفرد على الأراضي المرصدة للزراعة والنخل والبساتين والكروم، وينقسم إلى نوعين: «خراجي الزراعة» وأوّل عامه توت، وآخره مَسَرَى، و«خراجي البساتين» وهو ما يُزَوَى بالسواقي وما يجري مجراها وأوّل عامه أمشير وآخره طوبة، وحساب ذلك ينظم للسنة الخراجية الواقع عليها من الاسم ما وافق زمانها من سنَى الهجرة^١.

و«المال الهلالي»، وهو ما تُشْتَأَدَى أموره مُشَاهَرَةً وتنقسم أصوله على أربعة أقسام: «الجَوَالِي» (الجزئية) وتنظيم حساباناتها على أساس استخراجها ابتداء من المحرم من السنة الهلالية؛ و«الرُّكَاة» - وإن كانت سنتها هلالية اثني عشر شهراً - فإنها تختلف باختلاف ابتداء ملك صاحب المال؛ و«الرُّبَاع» ومثلها أجر الأملاك المسقفة من الأدر والحوانيت والحمامات والأفران وأزججة الطواحين الدائرة بالعوامل وسنتها هلالية وابتدائها من استقبال إسكانها واستخراجها مشاهرة؛ و«ما يستأدى من تَجَارِ الرُّوم» وغيرهم وفيه حُكْمَان: من ورد في البر وينظم حسابه لمدة أولها المحرم وآخرها ذو الحجة، وأما من يرد في البحر الملح فيستحسن لنظم حسابه «أن يكون لحَوَل أوله من الشهور العربية ما وافق افتتاح البحر من شهور القبط»^٢.

^١ الخزومي: المنهاج ٣٤ وقارن التويرى: نهاية ٨: ٢٤٥؛ المقرئى: الخطط ١: ١٠٣.

^٢ نفسه ٣٤ وقارن نفسه ٨: ٢٢٨، ١: ١٠٧.

و « ماله عام مفرد يخالف شهور الهلالى والخراجى » وهى ثلاثة أنواع : المراكب النيلية وأبقار الجاموس وأبقار الخئس ؛ وشهور سنة ذلك ثلاثة عشر شهراً ، ولكل نوع منها حساب مستقل ^١.

الموارد غير الخزينة

يقول المقرئى : إن أول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد ابن مُدَبَّر لما وَلَّى الخراج بمصر سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م فحجر على « النطرون » ^٢ بعد أن كان مباحا لجميع الناس ، وقَرَّر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا سُمِّاه « المَرَاعى » كما قَرَّر على ما يخرج من البحر مالا سُمِّاه « المَصائد » ، وعرفت هذه الضرائب التى استحدثها ابن المُدَبَّر بـ « المَرافق والمَعاون » ^٣ ، وعندما تَوَلَّى أحمد بن طولون إمرة مصر أَسْقَط هذه الضرائب وكانت تبلغ مائة ألف دينار فى كل سنة ^٤.

ولما وَصَلَ الفاطميون إلى السُلْطَة أرادوا أن يستغلوا إمكانات مصر الزَّراعية والصُّناعية إلى أقصى درجة ، وأن يأخذوا منها أقصى ما يمكن من عائدات مالية تلبى احتياجاتهم الخاصة ، مثلما كانوا يقومون بالجباية فى شمال إفريقية ^٥ ، فأعادوا « الأموال الهلالية » وصارت تعرف بـ « المكُوس » - وهو الاسم الذى يُطَلَق على الضرائب غير الشرعية - ولجأ الفاطميون إلى ذلك لمواجهة الثَّقَقَات الباهظة لبلاطهم الفخم واحتفالاتهم الباذخة .

وحينما أراد الخليفة الحاكم أن يرجع إلى أصول الإسلام الأولى فى المرحلة التى أطلقنا عليه « تَصَوُّف الحاكم » ، أَسْقَط جميع الرُّسوم والمكُوس التى جرت العادة

^١ الخزومى : المنهاج ٣٤.

^٢ انظر فيما سبق ص ٤٩٥ .

^٣ المقرئى : الخطط ١٠٣:١ - ١٠٤.

^٤ البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، دمشق ١٣٥٨ ، ٧٤-٧٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ٨٥-٨٦ ؛ المقرئى : الخطط

١٠٤:١ ، ٢٦٦:٢ - ٢٦٧.

^٥ القاضى النعمان : المجالس والمساربات ٣٣٧-٣٣٨.

بأخذها، وأقْطَعَ وَوَهَبَ جُلَّ الصِّيَاعِ والأعمال والعقارات والأملاك السلطانية^١، فلما استولت أخته سيدة الملك على مقاليد الأمور بعد اختفائه، قبضت على جميع الإقطاعات التي أقطعها وأعادت المكوس إلى ما كانت عليه قبل تسامح الحاكم بها^٢. ويبدو أن الدولة كانت تلجأ إلى إلغاء المكوس أثناء الأزمات الاقتصادية تيسيراً على الناس، فيذكر المُسَبِّحِي أن دَوَّاس بن يعقوب الكُتامي متولَّى الحِسْبَةِ قرأ سِجِلًا في شوارع مصر المُسْتَطَاط أثناء أزمة الحِنْطَةِ التي مَرَّتْ بها مصر عام ٤١٥هـ/ ١٠٢٤-١٠٢٥م، بحطيطة جميع المكوس عن سائر أصناف الغلَّات الواردة إلى سواحل مصر المُسْتَطَاط، مما أَدَّى إلى توافر الأخباز في الأسواق وانخفاض سعر الدقيق^٣.

كانت المكوس تُفَرَضُ زمن الفاطميين على كل شيء من المصنوع والمبيع، وعَدَّدَ المقرِيزي ثمانين نوعًا من المكوس التي كانت موجودة في زمنهم وأسقطها السلطان صلاح الدين عن مصر والقاهرة، بَلَغَ عائِدُ هذه المكوس مائة ألف دينار سنويًا^٤، وأضاف ابن أبي طَيٍّ - راوي الخبر - أن الذي أسقطه السلطان صلاح الدين من المكوس والذي سامح به لعدة سنين آخرها سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م مبلغه ألف ألف دينار وألف ألف أردب، وكان أشهر هذه المكوس مَكْسُ البُهار^٥. ويُفَهِّمُ مما ذكره المقرِيزي أنه لم يَسَلِّمْ أَى إنتاج أو أية مهنة أو أية حِرْفة من دَفْعِ المكوس. وأبدى الرَّحَّالَة والجغرافي المقدسي، الذي زار مصر نحو سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، استغرابه من ثِقَلِ المكوس خاصة في تَيْسِيس وِدْمِيَاط وعلى ساحل النيل بالمُسْتَطَاط، وذكر أن الثياب الشُّطُوبِيَّة (التي تصنع بمدينة شَطَا)

^١ يحيى بن سعيد: تاريخ ٢٠٦هـ: ابن أبيك: كنز الدرر ٦: ٢٨٦هـ: المقرِيزي: اتعاظ ٢: ٧٤، ٩٢، ١٠٢.

^٢ نفسه ٢٣٧.

^٣ المسبَّحِي: أخبار مصر ٧٥.

^٤ المقرِيزي: الخطوط ١٠٤: ١-١٠٥هـ: القلقشندي: صبح ٣: ٤٦٦-٤٦٧هـ: وانظر نص سجل إسقاط المكوس وهو

مؤرخ في ٣ صفر سنة ١١٧١/٥٦٧هـ عند أبي شامة: الروضتين ١: ٥٢٢-٥٢٣هـ: ساويرس بن المقفع: تاريخ بطارقة

الكنيسة ٢/٣: ٦٩.

^٥ نفسه ١: ١٠٥.

فرضت عليها مُكُوسٌ عالية القيمة فى جميع مراحل تصنيعها ونقلها وبيعها^١. ويذكر الرحالة الفارسى ناصر خُشرو، الذى زار مصر نحو سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، أن عائد بيت المال من تِنَيس بَلَغَ يومياً ألف دينار مغربى^٢.

نظام الضمان

كانت الحكومات الإسلامية تلجأ فى تحصيل الضرائب (المُكُوس) إما إلى الجباية المباشرة بواسطة العامل المختص أو عن طريق الضمان^٣. والضمان نظام مالى غير شرعى؛ أشبه بنظام الالتزام، يتعهد بموجبه الضامين أن يدفع إلى الدولة سنوياً مبلغاً اتفاقياً عن قيمة الضرائب أو المُكُوس المفروضة على الجهة أو العمل الذى تَضَمُّنه مقدماً. وعادة ما يكون هذا المبلغ أدنى من العائد الذى سيُحصِّله الضامين من هذه الجهة ويحصل على الزيادة لحسابه الشخصى. أما إذا نقص العائد عن المبلغ المُتَّفَق عليه - وهو الأمر النادر حدوثه - فيُلْزَم الضامين بتسديد كل المبلغ^٤. إلا إذا سامحه وَلِى الأمر فى ذلك، مثلما حدث مع هبة الله ابن عبد المحسن الشاعر الذى انكسر عليه مَالٌ فى ضَمَانِه سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م فسامحه الوزير رِضْوَان بن وَلَحْشَى مما عليه من الباقي^٥. كما أن الوزير المأمون البَطَّائِحى أمر فى نهاية عام ٥١٥هـ/١١٢١م بكتابة سجل يتضمن المُسامحة بالبواقي إلى آخر سنة عشر وخمسمائة بعد أن انتهى إليه حال المعاملين والضُمَناء والمتَصَرِّفين وما فى جهاتهم من بقايا معاملاتهم واختلال أحوالهم وتجمد

^١ المقدسى: أحسن التقاسيم ٢١٣؛ ناصر خسرو: سفرنامه ٧٧.

^٢ ناصر خسرو: سفرنامه ٧٩.

^٣ Cahen, Cl., *El art. Bayt al-Mâl* I, p. 1178.

^٤ الماوردى: الأحكام السلطانية ١٦٠.

^٥ الفلشنبدى: صبح ٣: ٤٦٦؛ Rabie, H., *op.cit.*, p. 136؛ Cahen, Cl., *op. cit.*, I, p. 1179؛ البراوى: حالة

مصر الاقتصادية ٣٢٢-٣٢٣.

^٦ ابن ميسر: أخبار ١٢٩؛ المقرئى: أتماظ ٣: ١٦٤.

البقايا في جهاتهم؛ وأورد السَّجِلَ مبلغ ماسومح به من القَيْن والعَلَّة^١.

ولجأ الفاطميون منذ وصولهم إلى مصر إلى هذا الأسلوب في تحصيل الأموال، حيث ضَمَّنوا أموال الدولة كلها. ففي سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م ضمن محمد بن القاضي أبو الطاهر الذَّهْلَى الأُخْبَاس بمبلغ ألف ألف وخمسمائة درهم^٢. وبعد وفاة الوزير يعقوب ابن كِلْس ضمن الخليفة العزيز بالله أموال الدولة بجماعة من المستخدمين، حيث ضمن على بن عمر العدَّاس مال الدولة والنفقات سنة ٣٨١هـ/٩٩١م ثم حوسب بعد انقضاء السنة على دخلها وخرجها^٣.

ولما علم الوزير المأمون البطَّائِحِي ما يُعتمد في الدواوين من قبول الزيادات وفَسَخ عقود الضَّمَّانات وأخذها ممن تعب في تحصيلها ونقلها إلى من يَتَعَهَّد ببذل زيادة في قيمتها دون جهد مبذول، أمر بقراءة منشور في سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م بالجامع الأزهر بالقاهرة وجامع عمرو بالقُشَطَاط بإنكار ذلك ومنعه وأعفى كافة الضَّمَّناء والمعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ما داموا قائمين بأقساطهم^٤.

ويفهم مما ورد في هذا المنشور أن من بين الجهات التي كانت تُضَمَّن الأبواب والرباع والبساتين والحمامات والقياسر والمساكن^٥.

وكان خازنُ ديوان الرِّسَالِ (الإنشاء) يتولَّى عمل أضاير (ج. إضبارة) تتضمَّن ما يصل من الضَّمَّان إلى الديوان والجهة المرسل منها لتيسير الرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى ذلك^٦.

^١ ابن المأمون: أخبار ٢٨-٢٩؛ المقرئ: الخطط ٨٣:١، اتعاط ٨٠:٣-٨١.

^٢ المقرئ: الخطط ٢:٢٩٥.

^٣ ابن الصيرفي: الإشارة ٥٤، ابن أبيك: كنز الدرر ٦:٢٢٩.

^٤ ابن المأمون: أخبار ٢٩-٣١؛ المقرئ: الخطط ٨٣:١، اتعاط ٨١:٣.

^٥ نفسه ٣٠، Wiet, G., *RCEA* VIII p. 219 n° 3098؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار

العربية، القاهرة-دار النهضة العربية ١٩٦٦، ٧٢٥.

^٦ ابن الصيرفي: القانون في ديوان الرسائل ٣٥-٣٦.

وكانت تولية الدواوين - كما ذكر ابن ممتى - تتم بثلاثة أوجه : بالأمان أو يتنزل أو بضمان . وفى حالة الضمان كان إذا تأخر من مال الضمان شىء لزم الضامن القيام به ، فإن بقى له فى ذمة المعاملين مال كان للسلطان أن يقبل الحوالة عليهم بعد اعترافهم أو لا يقبل ، وله أن يطالبه بما فى ذمته ويعود متولّى الديوان بالضمان بالطلب على من كان الباقي عنده^١ .

ويُعَدُّ نظام ضمان الضرائب أقصر الطرق لمعادلة موازنة الدولة والحصول على الأموال اللازمة لدفع رواتب الجنود فى أوقاتها . كان الهدف من معظم عقود الضمان هو ججمع الخراج الذى اعتبر المصدر الرئيسى للدخل فى الدولة . وبنفس الطريقة تمَّ ضمان الضرائب الأخرى مثل المكوس وهى الضرائب المفروضة على مختلف أنواع التجارة . وعادة ما كانت تُشند إدارة المنطقة إلى الشخص الذى ضمن خراجها ، وكان لضامنى الضرائب الرئيسين ضامنون ثانويون يتعهدون الجباية فى مناطق معينة . وكان معظم ضامنى الضرائب من أصحاب المشروعات الأثرياء الذين جمَّعوا ثرواتهم فى حقول أخرى من النشاط الاقتصادى وكانت لديهم المقدرة على الوفاء بمثل هذه الالتزامات الكبيرة . ونظرًا للأرباح الهائلة التى كان يحققها ضامنو الضرائب فكان الشخص الذى يهيم الحصول على عقد ضمان لا يتردَّد فى تقديم آلاف الدينارات زيادة عما دفعه سلفه . وكثيرًا ما حصل بعض الضامين على عقود ضمان تقوم على تقديرات قديمة لا تتوافق مع المبالغ الفعلية ، فابتزوا بذلك مبالغ أكبر من المواطنين بفرض ضرائب أكبر عليهم ، فتضخمت بذلك ثروات متعهدي الضرائب لأنهم غالبًا ما امتنعوا عن دفع المبالغ المستحقة للحكومة^٢ .

^١ ابن ممتى : قوانين الدواوين ٢٩٨ - ٣٠٠ .

^٢ . Ashtor, E., *A Social and Economic History* p. 136

المال الخراجي

الخراج

كانت الضريبة الشرعية الأساسية هي ضريبة الأراضي الزراعية المعروفة بـ «الخراج»^١. وكانت تُفرض أصلاً على كل أراضي سكان البلاد الأصليين غير المسلمين. وقد عرّفها الماوردي بأنها «حق معلوم على مساحة معلومة»^٢. والخراج اجتهاد من الحاكم بعكس «الجزية» التي تُصّ عليها في القرآن^٣. وعندما خشي مع الوقت أن يؤدي تحوّل عدد كبير من سكان البلاد الأصليين إلى الإسلام إلى تقليل موارد بيت المال، فقد رُوي أن لا تتأثر ضريبة الأرض بتغير اعتقاد مالكيها، أي أن دخول الإسلام كان يعفى من الجزية ولكنه لا يعفى من الخراج. وبذلك أصبح الخراج بنظر الفقه الإسلامي إيجاباً دائماً للأرض لمصلحة الأمة المالك الأعلى لها بوصفها فيّاً^٤، بينما كان بوجهة نظر السكان المحليين مجرد استمرار لضريبة الأرض الزراعية التي كان معمولاً بها قبل الإسلام^٥، وعلى خلاف السائد في بقية العالم الإسلامي لم توجد في مصر أراضي عُشرية بل كانت كلها أرضاً خراجية.

وكانت هناك مجموعة من الاعتبارات يجب مراعاتها عند تقدير الخراج أهمها مراعاة نوع الأرض ونوع المزروع وطريقة الري^٦. ولا يجب الخراج إلا إذا أوفى النيل ستة عشر ذراعاً، فقد كان أقل حدّ للري دون خوف القحط اثنا عشر ذراعاً، كما كان

^١ Frantz-Murphy, *The Agrarian Administration of Egypt from the Arabs to the Ottomans*,

Suppl. An. Isl. Cahier n° 10, Le Caire IFAO 1986

^٢ الماوردي: الأحكام السلطانية ١٣٧.

^٣ الآية ٢٩ سورة التوبة.

^٤ الماوردي: الأحكام ١٢٧، ١٣١-١٣٢.

^٥ Cahen, Cl., *El² art. Bayt al-Mâl I*, p. 11179

^٦ النويري: نهاية الأرب ٨: ٢٤٦-٢٤٧؛ الحموي: روضة الأديب ١٠٧٥.

يُخشى من الاستبحار إذا بلغ منسوب النيل ثمانية عشر ذراعاً^١. ومعنى ذلك أن الفيضان المنخفض كان يستحيل معه رَئى جميع الأراضي مما يؤدي إلى نقص المحصول وعجز الحكومة عن جباية الخراج، كما أن الفيضان العالي كان يؤدي إلى إغراق الأراضي وإتلاف الزرع وفي كلا الحالتين يَهْدَدُ البلاد القحط الذي كثيراً ما صاحبه الوباء^٢.

وعادةً ما كانت تبدأ زيادة ماء النيل في الخامس من بقونة (يونية) من السنة القبطية، وينادى بالزيادة في السابع والعشرين منه ويحسب كل ذراع (في المقياس) ثمانية وعشرين إصبغاً إلى أن يكمل اثني عشر ذراعاً فيحسب كل ذراع أربعاً وعشرين إصبغاً، فإذا وَفَى ستة عشر ذراعاً كُسير الخليج ووجب الخراج^٣. وكان الناس إذا توقّف النيل في أيام زيادته أو زاد قليلاً يزداد قلقهم ويظنون أن النيل لن يوفى « فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون عن بيعها رجاء ارتفاع السعر، ويجتهد من عنده مالٌ في خزن الغلّة، إما لطلب السعر أو لطلب ادخار قوت عياله، فيحدث بهذا الغلاء ». لذلك رأى الخليفة المعزّ لدين الله في سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م منع النداء بزيادة النيل وأن لا يُكْتَبَ بذلك إلاّ إليه وإلى القائد جوهر، ولم يبح النداء إلاّ إذا تمّ ست عشرة ذراعاً وكُسير الخليج، وبذلك منع الناس من تخزين الغلال ورفع الأسعار^٤.

نظام القَبالة

في نصٍّ مجمل أوضح لنا المقرئى نظام « القَبالة » قائلاً :

^١ الخزومي: المنهاج-خ ٤٧ ط؛ ناصر خسرو: سفرنامه ٨٢؛ ابن ممتى: قوانين ١٧٦؛ الفلقشندي: صبح ٢٩٥:٣؛ المقرئى: المخطوط ٥٨:١-٥٩؛ أبو المحاسن: النجوم ٥٤:١.

^٢ البراوى: حالة مصر الاقتصادية ٦٣؛ وانظر مثلاً لزيادة فيضان النيل وأثره على الزرع في عام ٤٠٦، ٤١٦ (المقرئى: اتماظ ١١٢:٢، ١٧٥).

^٣ الخزومي: المنهاج (Pellat, Ch., *Cinq Calendriers Egyptiens* p. 99)؛ ابن ممتى: قوانين ٢٥٣؛ *Ibid.*, p. 79؛ الفلقشندي: صبح ٣٨٩:٣-٣٩٠؛ المقرئى: المخطوط ٢٧٢:١ س ٢٨-٢٩.

^٤ الخزومي: المنهاج-خ ٤٧ ط؛ ابن ميسر: أخبار ١١٦٠؛ المقرئى: المخطوط ٦١:١، اتماظ ١٣٨.

« كان متولّي خراج مصر يجلس في جامع عمرو بن العاص من القُشَطاط في الوقت الذي تنهأ فيه قَبَالَة الأراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجلٌ ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وتُكتب الخراج بين يدي متولّي الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكُوز والصفقات على من يتقبّلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبّلها متقبّلوها بالأربع سنوات لأجل الظمّ والاستبحار وغير ذلك . فإذا انقضى هذا الأمر خَرَج كل من تَقَبَّل أرضاً وَضَمِنَهَا إلى ناحيته فتولّى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من خراج فى أهانه على أفساط [انظر فيما يلى] وتُحسب له من مبلغ قَبَالَتِهِ وَضَمَانِهِ لتلك الأراضى ما يُثَقَّق على عمارة جسورها وسَدَّ ترعها وخَفَر خلجها بضريبة مقدرة فى ديوان الخراج »^١.

يتضح من هذا النص أن نظام تَقَبُّل الأرض عملٌ مالىٌ بحث الغرض منه تسهيل جباية الخَراج (بما أن أرض مصر كانت كلها منذ الفَتْخ أرضاً خراجية) ولا علاقة له بملكية الأرض مطلقاً ، حيث ضمنت الحكومة الفاطمية الخراج وسائر الضرائب الأخرى مقابل مبالغ محددة ، واعتبر الفائض بعد ذلك أرباحاً للضامين ، لذلك فكثيراً ما حدث فى المصادر خلطٌ بين الضَّمان والقَبَالَة [انظر فيما سبق] ، وعادةً ما كان يتأخر من مبلغ الخَراج فى كل عام فى جهات الضَّمان والمُتَقَبِّلين قسَمٌ يقال له « البواقي » كانت الولاة تشدّد فى طلبه مرة وتُسامح به مرة ، فكثيراً ما كانت تكتب سِجَلَات « بالمُسَامَحَة بالبواقي » يحدد فيها آخر السنة المُسامح بها^٢.

وكانت الحكومة تؤجر للفلاحين الأراضى التابعة لبيت المال مقابل إيجار محدود أو تعطيتها لهم وفق نظام « المزارعة » أو « المُقاسَمة » فى المحصول^٣. أما جباية الخراج طوال

^١ المقرئى: الخطط ١: ٨٢.

^٢ راجع، ابن الصيرفى: الإشارة ١٠٦-١٠٧؛ ابن المأمون: أخبار ٢٨-٣١؛ ابن ميسر: أخبار ٥٣؛ عمارة اليمنى: النكت المصرية ٥٣؛ المقرئى: الخطط ١: ٨٢، ٨٦، ٣٨٢، الانعاظ ٢: ١١٤، ٣٢٩، ٣-٨٠، ٨١-٢٥٣.

^٣ البراوى: المرجع السابق ٥٣.

العصر الفاطمي في بقية الأراضي فكانت تتم على أساس « القبالة »، أى التعهد بدفع مبلغ معين عن منطقة محددة . وكانت هذه التلزميات تجرى بالزاد وتُعطى لمن يتعهد بدفع المبلغ الأكبر^١.



ولما كان التفاوت بين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يوماً تقريباً ، وكانت كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية تعادل اثنين وثلاثين سنة شمسية ، فقد كان « التوفيق بين السنتين الشمسية والقمرية » أمراً ضرورياً لأن استحقاق الخراج وجبايته منوطان بالزروع والثمار وهى مرتبطة بالشهور والسنين الشمسية وما يقابلها من التقويم القبطى^٢ . ونتيجة للأزمة التى اجتاحت مصر فى أواسط القرن الخامس/الحادى عشر أُغْفِلَ نُقْلُ السنين فى الديار المصرية ، يقول الخزومى : « ... حتى كانت سنة تسع وتسعين وأربعمائة للهلال تجرى مع سنة سبع وتسعين الخراجية ، فتَقَلَّتْ سنة سبع وتسعين الخراجية إلى سنة إحدى وخمسمائة . هكذا رأيت فى تعليقات أبى رحمه الله^٣ . ويضيف ابن المأمون فى حوادث سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م أنه قد حصل بين السنة الشمسية والعربية تفاوت أربع سنين ، ففاتح القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك الوزير الأفضل فى ذلك (وهو نفس العام الذى تم فيه الزوْك الأفضلى) فأمر ابن الصَّيْرَفِي ، كاتب الإنشاء بإنشاء سِجْلٍ « بنقل سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلى سنة إحدى وخمسمائة لتكون موافقة لها ... ويستمر الوفاق بين السنين الهلالية والخراجية إلى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ... وكتب فى محرم سنة إحدى وخمسمائة^٤ » .

^١ المقرئى : الخطط ٥:٢-٦ .

^٢ ابن ممتى : قوانين ٣٥٨-٣٥٩ ؛ على بن خلف ؛ مواد البيان ٥٥٨-٥٦٢ ؛ القلقشندي : صبح ١٣: ٥٤ ؛ المقرئى :

الخطط ١: ٢٧٥ .

^٣ الخزومى : المنهاج-خ ورقة ٣٨ ؛ والقلقشندي : صبح ١٣: ٦٠ ؛ المقرئى : الخطط ١: ٢٧٦ .

^٤ ابن المأمون : أخبار ٣-٨ ؛ ساوير بن المقفع : تاريخ البطارقة ١/٣: ٤-٥ ؛ النويرى : نهاية ٢٨: ٢٧٧ ؛ المقرئى :

الخطط ١: ٢٧٩-٢٨١ ، اتعاظ ٣: ٤٠ .

وقد ظلَّ نظامُ القَبالةِ سائدًا حتى قدوم الجيش الكردي التركي المصاحب لشيركوه وصلاح الدين والذي اعتاد أفرادُه على الأنظمة المتوارثة عن السلاجقة، فأدخل الأيوبيون تغييرًا جذريًا على النظام السابق مستمدين في غالبه من الإقطاع الشرقي وإن ارتبط بخصوصية نظام الزراعة في مصر. وزالت القَبالة سريعًا أمام نمو الشكل الجديد للإقطاع الأيوبي^١.

جباية الخراج

كان يُنظَّم عَمَلُ جباية خراج أراضي مصر المزروعة «أدلاء» (ج. دليل) يقومون بإعداد ما يعرف بـ «سجلات التحضير» يُسجّلون فيها البقاع التي في النوحى يرسم الزرع بأسمائها وعدد قُدنها ونوعها (ما يروى منها، والباقي، والبروية، والوسخ المزروع، والوسخ الغالب، والشرافي) ويعين تحت كل باب عدد قُدنه^٢.

و«السجلات» هي الأساس الذي يتم على أساسه جمع الخراج، بعد تحضير الأراضي وتسجيلها استنادًا على «قوانين الزراعة» المشتملة على ذكر البقاع^٣. وإذا تكاملت الزراعة (أى بعد مرور أربعة أشهر من السنة الخراجية)^٤ يُنْدَب من الديوان المُساح لمساحة الأراضي ومعهم شُهود لمساحة الأرض، فيخرج المُشارف والعامل والماسح والشاهد والأدلاء ووجوه المزارعين والقصابون، فيبتدئون بالمساحة ويثبتون عدة الأقصاب إلى أن تُمسح الأرض كلها ويثبتها الماسح من إملاء القصاب من مشاهدته، ويعمل بها كل يوم «قُنداق» يقدم وصفًا مساحيًا للزراعات المنفذة أولاً ضَيْقة ضَيْقة ثم

^١ Cahen, Cl., *El² art. Iktâ* III, p. 1116; id. *El² art Kabâla* IV, pp. 337-38

الفاطمي انظر Rabie, H., *op. cit.*, pp. 26-72؛ طرخان: المرجع السابق ١٧-٥٨، وفيما يلي ص ٧٢٣-٧٢٤.

^٢ المفرومى: المنهاج ٥٨-٥٩ ابن مماتي: قوانين ٣٠٥.

^٣ نفسه ٥٩، Cooper, R. S., «The Assessment and Collection of Kharâj Tax in Medieval Egypt»,

JAOS 96 (1974), p. 378

^٤ المقرئى: الخطوط ٨٦:١، ٤٠٥؛ القلقشندي: صبح ٤٥٤:٣.

باسم كل مزارع على حروف المعجم^١، ويرفع «القُنداق» إلى الديوان، ثم تعمل بعد ذلك «المُكَلَّفة» (ج. مُكَلَّفَات) التي تُوضَّح لكل مزارع ما يجب عليه من خَراج^٢.

ويتم تقدير خَراج الأرض حسب نوعها وهي: القَبَالَة والمناجزة والمُفَادَنَة. وقد تحدَّثنا فيما سبق عن القَبَالَة، أما المُفَادَنَة فهي عملية مساحية تعنى تقدير خَراج الأراضى غير المزروعة بساتين، ونموذج ذلك أراضى الحَبْس الجيوشى الذى كان يسجل جميعه للمزارعين «مُفَادَنَة» بالعَيْن، وذلك بمبلغ محدَّد (قطيعة) عن وحدة الفدان^٣. أما نظام القَبَالَة / المناجزة فيُطبَّق على الأخص على الزراعات التى تشغل مساحات كبيرة دون أن تحصل عائداً مرتفعاً بعكس زراعة المُفَادَنَة^٤.

وكان الخَراج يُدْفَع إما على ثلاث دفعات وفق ما تشهد به «المُكَلَّفَات»^٥ أو على ثمان دفعات إذا أخذ من واقع «السَّجَلَات»، وكان افتتاح الخَراج ومطالبة الزُّرَّاع به يبدأ فى شهر طوبة (يناير) حيث يحاسب المُتَقَبِّلُونَ على الثمن من السَّجَلَات، ويتم دَفْع الرُّبْع فى أُمشير (فبراير) وهكذا^٦.

وكان الذين يتولَّون استخراج الخَراج أفراداً غير الذين تولَّوا مساحة الأرض.

^١ الخزومي: النهاج ٥٩؛ ابن ممتى: قوانين ٣٠٥.

^٢ نفسه ٥٩، ٦٠؛ ٣٧٤، *op. cit.*، R. S. Cooper، p. 50؛ Cahen، Cl. *Makhzûmiyyât*.

^٣ ابن ممتى: قوانين ٣٣٦-٣٣٧؛ ٤١، *op. cit.*، Cahen، Cl.

^٤ Cahen، Cl.، *op. cit.*، p. 43.

^٥ المقرئى: الخطط ١: ٨٦، ٤٠٥.

^٦ ابن حوقل: صورة الأرض ١٣٦-١٣٧؛ المقرئى: الخطط ١: ٢٧١.

المال الهلالى

الجوالى

« الجالية » (ج. الجوالى) هى الاسم الشائع فى الاستخدام الإدارى فى مصر لتعريف الضريبة المفروضة على أهل الذمة^١، والتي تعرف فى كتب الفقه باسم « الجزية »^٢. وهى ضريبة موضوعة على الرؤوس على الذميين (النصارى واليهود) تؤخذ طالما ظل الكتانى على عقيدته، وتسقط بدخوله الإسلام^٣. وكما يذكر ابن تيمتى فهى واجبة على أهل الذمة الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين^٤. وتبعاً لوثيقة من أوراق الجزيرة، كتبت نحو سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، فإن « الجالية » كانت تجب متى بلغ الصبى سن التاسعة^٥!

وذكر صاحب كتاب « تاريخ بطاركة الكنيسة » أنه فى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م كُتِبَ سِجِلٌ وقرئ فى الإيوان الكبير بالقصر بأن تُشَدَّ جميع النصارى زنانير سود وكذلك اليهود وتكون أطرافها صفراً لتميئوا عن النصارى وأن تكْمُلَ الجزية على الجميع ديناراً وثلاثاً ورُبْعَ دينار، وأن السبب فى ذلك كان القاضى أبو الحسن على بن يوسف بن رافع الكحال مستخرج الجوالى^٦. ويتفق الخزومى وابن تيمتى على أن الجزية فى وقتها

^١ الخزومى: المنهاج ٣٤، ١٣٥ ابن مماتى: قوانين ٣١٧؛ النورى: نهاية الأرب ٢٤٢: ٨؛ القلقشندى: صبح
^٢ ٤٥٨: ٣؛ المقرئ: الخطط ١٠٧: ١. Cahen, Cl., *Makzûmiyyât* p. 26; id. *El*² art. *Djawâli* II. p. ١٠٧: ١.
^٣ 502; id., *El*² art. *Djizya* II, pp. 573-576; Rabie, H., *op. cit.*, p. 108; Goitein, S. D., *A Med.*
Soc. II. pp. 380-44

^٤ المارردى: الأحكام السلطانية ١٢٧؛ النورى: نهاية الأرب ٢٣٤: ٨-٢٤٠.

^٥ نفسه.

^٦ ابن مماتى: قوانين ٣١٧-٣١٨؛ النورى: نهاية ٢٣٦.

^٥ Goitein, S.D. *op.cit.*, II. p. 383

^٦ ساويرس بن المقفع: تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٣: ٢١٨.

(٥٦٥-٦٠٦هـ) كانت ثلاث طبقات : من الغنى أربع دنانير ومُدَس ، ومن المتوسط ديناران وقيراطان ، ومن الفقير دينار واحد وثُلث ورُبُع وحبثان (أَي دينار و $\frac{1}{8}$)^١. ولاشك أن الوُصف الذى يُقَدِّمه لنا كُلٌّ من المخزومى وابن مَمَاتى يتعلّق بما كان سائدًا فى القرن السادس الهجرى . فهذا التقسيم راجع إلى الإجراءات التى اتَّخَذَهَا الوزير الشَّيْئى رِضْوَان بن وَلَحْشَى سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م لمواجهة تَسَلُّط النُّصَارَى^٢، حيث ذكر صاحب « تاريخ بطاركة الكنيسة » هذه القِيَم بين الإجراءات التى اتَّخَذَهَا ابن وَلَحْشَى^٣. وانفرد ابن مَمَاتى بالقول بأنه كان يُضَاف إلى كل جِزِيَّة دِزْهَمَان ورُبُع عن رسم المُشِدِّ والمُسْتَحْدَمِينَ^٤. ويؤكدُ المَخْزُومى أن أكثر أهل الذِّمَّة فى وقته فى الطبقة السُّفْلَى والغنى منهم قليل^٥.

ويتطابق ما ذكره المؤرِّخون مع ما كان مطبَّقًا فى الواقع ، فقد دَفَعَ طبيب يهودى - كما جاء فى وثيقة من الجَنِيْزَة مؤرَّخَة فى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م - أربع دنانير وسدس كجالية^٦. ونجد أن تاجرًا من تونس دفع أيضًا ، قبل هذا التاريخ بنحو ١٢٠ عامًا ، فى القُسْطَاط جالية عن حَمَال يهودى يعمل فى مركز زراعة الكتان فى بوسير قيمتها ماثلة لما ذكره المَخْزُومى وابن مَمَاتى^٧. كذلك فقد وَرَدَ فى أوراق فِينَا مَا يفيد أن المدعو أبا إلياس

^١ المَخْزُومى : المنهاج ٣٥ ، ابن مَمَاتى : قوانين ٣١٨ ؛ القلقشندى : صبح ٤٥٨ : ٣ . ويلاحظ أن أهل الذمة فى مصر فى الفترة الإسلامية المبكرة كانوا يدفعون الجزية بمسئولية تضامنية على أساس متوسط هو ديناران على الرأس ، بينما فى سائر البلاد الأخرى كانت تدفع برسم متناقص تبعًا لحالة كل فرد .

^٢ انظر فيما سبق ص ٢٦٦ .

^٣ ساويرس : تاريخ البطاركة ١/٣ : ٣١ .

^٤ ابن مَمَاتى : قوانين ٣١٩ ؛ القلقشندى : صبح ٤٥٨ : ٣ .

^٥ المَخْزُومى : المنهاج ٣٥ ، وهذا دليل على أن الذين تحولوا إلى الإسلام كانوا من الأغنياء بغرض كسب مراكز اجتماعية متميزة فى الدولة الإسلامية .

^٦ Goitein, S.D., *op.cit.* II. p. 387 .

^٧ . *Ibid.*, p. 387 .

ابن مينا دَفَعَ في ١١ رمضان سنة ٤١٦هـ/ ٥ نوفمبر سنة ١٠٢٥م ما قيمته دينار واحد وثلاثين ونصف قيراط كجزية عن عام ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م^١. وجاء في التماس رفعه أحد اليهود في القرن السادس الهجرى أنه «يقوم بالجزية الواجبة عليه ومبلغها في السنة دينار واحد وثلاث وربع ودرهم» ويلتمس اعفائه منها نظرًا لإصابته بمرض في عينيه أتلّف بصره^٢. وكان على دافع الجزية أن يحمل مخالصة تفيد أنه أدّى ما عليه خاصة إذا كان مسافرًا حتى لا يتعرض لأى متاعب مع السلطات^٣، فنجد في أوراق الجنيزة أوامر بالحبس لمن لا يدفع هذه الضريبة.

وتجب الجزية بحلول الحَوْل، أى أنها تُشتأدى مُسَانَّةً بعد انقضاء السنة بالشهور الهلالية^٤، وتستخرج عادةً في مصر في المحرم^٥. وقد اصطلاح الكتاب في مصر على إيرادها قلماً واحداً مستقلاً بذاته بعد الهلالى وقبل الخراجى، وكانوا يرون وجوبها مشاهرةً حتى يُلزموا من أشلَم أو مات أثناء الحَوْل بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه أو وفاته^٦.

وشَرَحَ لنا المخزومى عملياً الطريقة التى يجب أن يتبعها المُشارِف^٧ والعامل^٨ اللذان يتوليان أمر الجوالى، إذ يجب عليهما أن يطلبأ إلى من تقدمهما بيانات مُفَصَّلة تتضمَّن

^١ Rabie, H., *op.cit.*, p. 109.

^٢ Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents* p. 359.

^٣ Goitein, S. D., *Studies in Islamic History* p.

^٤ الماوردى: الأحكام ١١٢٦ النوى: نهاية ٢٣٩: ٨.

^٥ المخزومى: النهاج ١٣٤ ابن ممتى: قوانين ٣١٩ القلقشندي: صبح ٤٥٨: ٣.

^٦ المقرئى: الخطط ١٠٧: ١ النوى: نهاية الأرب ٢٤١: ٨.

^٧ أورد لنا القلقشندي نسخة سجل بمشاركة الجوالى بالصعيد الأدنى والأشمونين (صبح ١٠: ٤٦٢-٤٦٣) والمشارف لا

ينبغي لأحد مستخدميه أن ينفرد عنه بشيء ويكتب خطه على ما يرفع من الحساب، ويكون الحاصل من المستخرج

في مودعه وتحت حوطه (ابن ممتى: قوانين ٢٩٨، ٣٠٢).

^٨ العامل هو من يتولى عمل الحسابات ورفعها والكتابة على ما يرفع من معاملات بالصحة والمواقة، وهو الأصل في

الخدمة والمشارف والناظر لضبطه والشد منه (نفسه ٢٠٣).

عدد من يجب عليهم الجزية وطبقاتهم وأسمائهم كما كانت في آخر شهر من السنة الهلالية المنصرمة ، وكذلك تعيين الحُشَّار^١ الذين تولوا جمعها . كما يجب أن تحتوى هذه البيانات على القيمة الكاملة للمبالغ التى جُيِّت بالفعل وكذلك العِبرة (أى تقدير ما يجب أن يُدْفَع عادةً) مأخوذة من القائمة المحتوية على أسماء من يجب عليهم دفع الجزية . وفى هذه الحالة يستثنى منها من هَلَكَ أو اهتدى أو بُعِدَ من الناحية المذكورة وانتقل إلى ناحية أخرى ، ويثبت ذلك فى « محاضر مجلس الحكم » وتستنزل هذه القيمة من الحساب الختامى لكل ناحية . ومن جهة أخرى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار « الثَّشُو » الذين بلغوا السن التى يجب عليهم فيها دفع الجزية^٢ .

ويتولَّى العمل الحقيقى للحصر والجباية « الحاشير ج . حُشَّار » يعاونهم فى ذلك « أدلاء » (ج . دليل) موجودون بكل ناحية . ويُدَوِّن الحُشَّار أعمالاً تشتمل على عدد وطبقات وأسماء من تجب عليهم الجزية يعينون فيها « الراتب المستقر » (أى المقيمين بالناحية) « والثَّشُو » (الذين بلغوا من الصبيان) و « الطارئ » (الأجانب الوافدين على الناحية) ويستثنى من هَلَكَ أو اهتدى أو بُعِدَ فى تلك السنة^٣ .

ومن ناحية أخرى يُعَدُّ « المُشارِف » و « العاَمِل » وكذلك « الجَهَّز » الذى ينضم إليهما لعمليات الجباية ، « تَغْلِيْقًا » يشتمل على المبالغ المحصَّلة بالفعل لحساب الجوالى فى كل ناحية عن كل يوم متضمنة أسماء دافعى الجزية والسنة المستحقة عنها ، ويعمل

^١ الحاشير ج . حُشَّار . هو الموظف المختص بجمع الجزية من أهل الذمة (نفسه ٣٠٦) . وكان يوجد حاشير لليهود وحاشير للنصارى يعرف أرباب الأسماء الواردة فى الديوان ومن ينضم إليهم من يبلغ فى كل عام من الصبيان ويعبر عنهم « بالثَّشُو » ، ومن يقدم إلى الحاضرة من البلاد الخارجة عنها ويعبر عنهم « بالطارئ » ومن يهتدى أو يموت من اسمه وارد فى الديوان . (القلقشندي : صبح ٤٥٨ : ٣ ، النورى : نهاية ٢٤٢ : ٢٤٣) .

^٢ المخرومي : منهاج ٣٦ - ٣٧ ، Cahen, Cl., *Makhzûmiyyât* p. 28 .

^٣ نفسه ٣٧ .

^٤ الجَهَّز ج . جهازة . كاتب يرسم استخراج المال وقبضه ، وكتب الرصولات به . وعليه عمل المخازيم والرزغجات والختمات وتواليها . (ابن ممتى : قوانين ٣٠٤) .

الجَهْنْد بها «مَخْرُومَة» (ج. مخازيم، نوع من الدفاتر يُخْرَق) ^١ يُوقَّع عليها العامل والمشارف ويحتفظ كل منهم بنسخة منها. ويعمل كل عشرة أيام «روزنامج» وصفته مثل صفة «المخزومة» إلا أن جملته تكون في آخره، يحتفظ كل من العامل والمشارف بنسخة منه.

وإذا انقضى الشهر يُنْظَم الجَهْنْد «خَتْمَة» (ج. خِتَم وختمات) تتضمن المستخرج على يده من الأعمال ويعين اسم العمل لشهر كذا وكذا بمشارفة فلان وتولّى فلان. وإذا انقضت السنة نَظَم العامل «عملاً» بما اشتمل عليه ارتفاع الجوالى بالأعمال الفلانية لسنة كذا مما اعتمد في أصوله على ما تضمنته أعمال الحُشَار ^١.

وبذلك فإن «الخَتْمَة» و«العمل» يُخْتَفَظ بهما كوثيقة فى بيت المال باعتبارهما مؤشراً على ما تغله الجوالى عن كل عام.

الزكاة - التجوى

الزكاة هى الصدقة التى لا يجب على المسلم فى ماله حقّ سواها. وهى تجب فى الأموال المرصدة للنماء التى حال عليها الحَوْل. وينقسم هذا المال من وجهة نظر الفقه إلى مال ظاهر يشمل الزروع والثمار والمواشى، ومال باطن يشمل الذهب والفضة وعروض التجارة. ويختص نظر والى الصَّدَقَات فقط بزكاة الأموال الظاهرة، أما زكاة المال الباطن فليس لوالى الصَّدَقَات نَظَرٌ فيه وإنما أربابه أحق بزكاته ^٢.

وحَدَّد ابن مَمَاتى فى جدول جامع ما تجب فيه الزكاة ومصارفها وما لم تجب فيه ^٣، مع ملاحظة أن مصرف الزكاة منصوص عليه وليس للأئمة اجتهادٌ فيه ^٤.

^١ انظر النويرى: نهاية ٨: ٢٦٠، ٢٧٤.

^٢ المخزومى: المنهاج ٣٧-٤٤٢، pp. 26-30، Cahen, Cl., op. cit.

^٣ الماوردى: الأحكام السلطانية ٩٨-١٠١.

^٤ ابن مَمَاتى: قوانين الدواوين ٣١٠-٣١٦.

^٥ الآية ٦٠ سورة التوبة؛ الماوردى: الأحكام ١٠٧.

وما يذكره الخزومي في «المنهاج» حول حساب الزكاة يصدق دون شك على فترة حكم صلاح الدين^١. فالمقرئى يذكر أن السلطان صلاح الدين أول من جبا الزكاة بمصر^٢ حيث أصدر سِجلاً في ربيع الأول سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م بإبطال جميع المكوس من الديار المصرية، أمر فيه بأن تُستأدى الزكاة على الوجه الشرعى المأمور به من الله عز وجل^٣. وكان الناس قبل ذلك يدفعون الزكاة إلى المستفيد منها مباشرة دون وساطة الدولة.

وبدلاً من أن يحرص الفاطميون على تعيين متولّى للزكاة فقد كان على الإسماعيليين أن يدفعوا للحكومة الفاطمية ممثلة فى شخص الداعى أو نقيبائه ما يُعرف «بالفِطْرَة» و«التَّجْوَى» ومبلغها ثلاثة دراهم وثُلث، فيجتمع من ذلك شىء كثير يحمله الداعى إلى الخليفة بيده بينه وبينه وأمانته فى ذلك مع الله تعالى، فيفرض له الخليفة منه ما يعينه لنفسه ولنقيبائه^٤. وقد اتخذ الفاطميون التَّجْوَى من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ [الآية ١٢ سورة المجادلة]. يقول الإمام المستنصر فى سِجَلٍ مؤرخ فى العشر الآخر من ذى القعدة سنة ٤٨١هـ/أوائل فبراير سنة ١٠٨٩م «فقد صارت هذه الصَّدَقَاتُ فَرَضًا واجبًا على كل مؤمن بالعمل به، ومن تركه كمن ترك فَرَضًا من فرائض الصلاة والصوم والحج والجهاد؛ وليس ما يراه أمير المؤمنين من متابعة أو امرأه بإخراج الفِطْرَة والتَّجَاوَى احتذاءً يحتذيه، ولا اتساعًا فى بيت ماله يلتمسه ويستدعيه، ولكن لما كانت من الفروض اللازمة للإمام

^١ الخزومي: المنهاج ٤٢-٤٣.

^٢ المقرئى: الخطط ١: ١٠٨.

^٣ ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/٣: ٦٩؛ وانظر نص هذا المنشور الذى أبطل فيه صلاح الدين الكثير من المكوس

عند أبى شامة: الروضتين ٢/١: ٤٤٣، ٥٢٢-٥٢٣.

^٤ المقرئى: اتعاظ ٢: ٥٠، ٨٢، ٨٥، ٨٦، ٣٣٧.

^٥ ابن الطوير: نزهة المقلتين ١١٢: المقرئى: الخطط ١: ٣٩١ وانظر فيما سبق ص ٣٦٩.

على المؤمنين وبها قوام دين المؤمن، تَعَيَّنَ على أمير المؤمنين تَعَهُّدُ أوليائه بحملها لِيُزْفَعَ لهم في الأعمال الصالحات ويجتنوا بها ثَمَرَةَ الباقيات^١.

الرَّباع

الرَّوْبَعُ (ج. رباع) هى المساكن المشتركة التى يقطنها أكثر من أسرة فى وقت واحد بعكس الدور (مفردها دار) وهى المساكن التى تسكنها أسرة واحدة من بابها^٢. يقول ناصر خُشْرُو «إن فى القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان، كلها ملك للسلطان (الخليفة)، وكثير منها يؤجَّر بعشرة دنائير مغربية فى الشهر، وليس بينها ما تقلَّ أجرته عن دينارين. والأزبَّة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحَضْر وكلها ملك السلطان، إذ ليس لأحد أن يملك عقارًا أو بيتًا غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه. وسمعت أن للسلطان ثمانية ألف بيت فى القاهرة ومصر وأنه يؤجَّرها ويحصل أجرتها كل شهر. يؤجَّرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يُجَبَّر شخصٌ على شيء^٣». ويضيف ناصر خُشْرُو أنه حين كان مقيمًا فى مصر أُجِّر منزل مساحته عشرون ذراعًا فى اثنى عشر ذراعًا (نحو ٧٨م^٢) بخمسة عشر دينارًا مغربيًا فى الشهر، وكان أربعة طوابق، ثلاثة منها مسكونة والرابع خالى^٤.

وأوكلت الحكومة الفاطمية أهمية خاصة للإشراف على الرباع، فقد حَفِظَ لنا القلقشندى نصَّ سِجِلٍّ بحماية الرباع صادر إلى من يتولَّى «حماية الرباع السلطانية بالمعزية القاهرة المحروسة» محدِّدًا مهامه «بكشف أحوال هذه الرباع كَشَفًا يُعْرَف به

^١ السجلات المستنصرية، سجل رقم ٢٣ وانظر أيضًا السجلات رقم ٣٦، ٥٧.

^٢ ابن الطوير: نزعة المقتلين ٩٢.

^٣ ناصر خُشْرُو: سفرنامة ٨٩.

^٤ نفسه ٩١.

حالتها ... وأن يستخرج مالها من السكان ويستعمل في استيوائه غاية الاستطاعة والإمكان ... وأن يعمدها بالطواف فيها ويحافظ على حراسة غيرها وتناول أجرها وزم مالهه يُشترَم منها ويتشَعَّث ... وحمل مال ارتفاعها إلى بيت المال المعمور بعد ما يُصرف في مصالحها ...^١

ويحدّد هذا النصّ وكذلك نصّ ناصر حُشرو وجود نوعين من الرّباع: الرّباع السلطانية والرّباع الخاصة التي سَمّاها ناصر حُشرو «بيوت»، وفي وثائق الجنيزة ما يفيد بأن التاجر اللَّبْدَى أَجَزَّ في سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م قسماً من رُبْع (منزل) في القاهرة مقابل ٣٠٠ دينار في الشهر وقَدِمَت أسرته لتقييم فيه.^٢

ويُوضّح لنا المخزومي أن سنة الرّباع هلالية وابتدأها من استقبال إسمائها، واستخراج إيجارها مُشَاهَرَة، وأن الحَوْل الذي ينظم به حساب عملها الجامع من المحرم إلى آخر ذى الحجة.^٣

وتبعاً للمخزومي فإن «متولّى الرّبع» يتولّى إعداد «جريدة استقرار» تتضمن ما استقرت عليه أجرة المسكون منه وعِبْرَة الخال إلى آخر شهر ذى الحجة وكذلك اسم الوكيل الذي يتولّى الإسكان والخلوة والجباية في الرّبع، ويُفَصِّل في هذه الجريدة ما في الرّبع من قاعات وطباق، ويذكر كذلك حِلْيَة كل منزل منها وما فيه من أخشاب كالأبواب التي يخشى ذهابها وما يجرى مجراها دون السقوف التي يوثق باستقرارها، مفصلاً كل موضع منها ببيئته واسم ساكنه واستقبال إيجارته التي عادة ما تكون سنوية، ولكن يمكن أن تكون كذلك لعدة أيام، وتجب الإجارة شهرياً، ولكن تبقى أحياناً بعض البواقي المؤجلة. ويجب على العامل أن يرفع إلى الديوان تعريفاً يومياً يسمى

^١ القلقشندي: صبح ٤٤٩:١٠ - ٤٥٠.

^٢ Goitein, S.D., *From the Mediterranean to India*, p. 791.

^٣ المخزومي: المنهاج ٣٤.

« المَخْزُومَةُ » بما يُسكن من الخال وما يُعْذِل من الزيادة فى المسكون ، و « خَتْمة » يرفعها مشاهرة يوضح فيها ما استخرج خلال الشهر ، وكذلك عملا فى آخر العام يسمى « عمل الزائد والناقص » يتضمن مبلغ ما اشتمل عليه أجرة المسكون من الربيع وما سكن من الخالى منه ^١.

وتقرُّبًا إلى الله وابتغاء لثوابه ، لا سيما فى شهر رمضان ، أصدر الإمام الأمر بأحكام الله منشورًا فى شهر رمضان سنة ٥١٧هـ/نوفمبر سنة ١١٢٣م بمسامحة كافة سكان الرباع السلطانية بالقاهرة ومصر من الآدر والحمامات والخوانيت ... بأجرة شهر رمضان من كل سنة لاستقبال رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة وما بعدها إحسانًا وتعظيمًا لحرمة هذا الشهر ، وأمر أن يُخَلَّد بالجامع العتيق بالقسطاط . ولما قرئ هذا المنشور ضجَّ العامة بالدعاء ^٢.

ما يُسْتَأْدى من تُجَّار الرُّوم

أو الخُمْس الرُّومى

كان على الروم - وهو لفظ يُقْصَد به التجار البيزنطيون والإيطاليين وخاصة الجنوئين والبنادقة - أن يدفعوا بوصفهم تجارًا أجنب غير مسلمين رسومًا جمركية (مُكُوسًا) على البضائع الواردة إلى الموانئ المصرية المطللة على البحر المتوسط عَرَفَهَا المَخْزُومى باسم « الخُمْس » أو « الخُمْس الرومى » ^٣. ويشرح لنا ابن تُمَاتى كلمة الخُمْس بأنها عبارة عما يُسْتَأْدى من تُجَّار الروم الواردين على الثغور بمقتضى ما صولحوا عليه ، ورغم أن قيمة

^١ المَخْزُومى : المنهاج ٤٤-٤٥ : 34, 36 *op.cit.*, pp. Cahen, Cl.

^٢ المقرئى : اتعاظ ٣: ١٠٤-١٠٥.

^٣ المَخْزُومى : المنهاج ٤٥ ، ٤٩ : 63, 75 *op.cit.*, pp. Cahen, Cl., وكانت العادة أن يجى من التجار غير المسلمين الذين يقدون إلى دار الإسلام «الغُشْر» من قيمة بضائعهم ، وقد أباح الإمام الشافعى للحاكم أن يزيد هذه النسبة إلى الخُمْس أو ينقصها إلى نصف الغُشْر أو يزيلها نهائيًا (القلقشندى : صبح الأعشى ٣: ٤٥٩ ، متر : الحضارة الإسلامية

الرسوم الواجب عليهم أدائها يبلغ قيمته ٣٥ بالمائة من قيمة بضائعهم وقد ينحط إلى مادون العشرين بالمائة، فإنها تسمى مع ذلك «خُمْسًا»^١. ويُوضَّح هذا النص، الذي أورده ابن تَمَاتِي، أن الحكومة الفاطمية لم تكن تُعامل التجار الأجانب غير المسلمين على أساس واحد، الأمر الذي يمكن إرجاعه إلى اعتبارات سياسية واقتصادية. فقد تُخَفِّض الرسوم على تجار البلاد التي تُزَوِّد الحكومة الفاطمية بما يلزمها من المواد الضرورية لصناعة السفن على سبيل المثال^٢ والتي كان يتاعها «التَّجَر». وأمام ارتفاع قيمة هذه الرسوم حرص التجار على تخفيض المبالغ التي يدفعونها عما ينقلونه من متاجر، يَدُلُّ على ذلك ما وَعَدَ به روجر الثاني Roger II أهالي مدينة ساليرنو Salerne سنة ١١٣٧/٥٣٢م بالتدخل لدى الحكومة الفاطمية لتخفيض الرسوم الجمركية (الخُمْس الرومي) التي يدفعها تجار هذه المدينة في ميناء الإسكندرية إلى القيمة التي يدفعها أهالي صِقْلِيَّة^٣. وقد عَقَدَ روجر الثاني نحو سنة ١١٤٣/٥٣٨م معاهدة تجارية مجزية مع مصر، لم يصل إلينا للأسف نصُّها، وهي دون شك أول اتفاقية تجارية معروفة وَقَّعت بين قوة مسيحية غربية ومصر^٤. أما ما يُفَرِّض من رسوم على التجارة الخارجية الواردة على ثغور البحر المتوسط من بقية التجار الأجانب غير الروم فيفضل أن يُطلق عليه «المُكْس»^٥.

^١ ابن تَمَاتِي: قوانين ١٣٢٦ المقرَّب: المخطوط ١٠٩:١ القلقشندي: ص ٤٥٩:٣ - ٤٦٠.

^٢ Stern, S. D., «An Original Document from the Fatimid Chancery concerning Italian Merchants»,

Studi Orientalistici in Onore di Giorgio Levi Della Vida, Roma 1956, II, 529-38

^٣ Canard, M., «Une lettre du calife fatimite al-Hafiz (524-544/ 1130-1149) à Roger II», *Atti del*

convegno Internazionale di Studi Ruggeriano (Palermo 1955), pp. 125-126 المرجع

السابق ٢٥٠، ٢٦٨.

^٤ *Ibid.*, p. 126

^٥ Cahen, Cl., *op.cit.*, p. 75

وبدلنا على ارتفاع عائد الخُفس أن شاوّر وعمورى الأول ، عندما حاصرا صلاح الدين فى الإسكندرية سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م ، غرض شاوّر على أهالى الإسكندرية أن يُسَلِّموا إليه صلاح الدين ومن معه مقابل أن يضع عنهم « المكوس » ويعطيهم « الأُخماس »^١.

والثُغُور التى تناولها نصُ الخُزومى هى : الإسكندرية ودمياط وتُنيس مع إشارة عابرة إلى رَشيد ونَشْرُوهِ المواجهة لها . ولم يذكر الخُزومى أى ميناء من موانئ البحر الأحمر . وربما يُوضَّح لنا نصُ لابن تَمَاتى سبب عدم ذكر الخُزومى لموانئ البحر الأحمر ، فهو يذكر أنه على العكس من الإسكندرية ودمياط وتُنيس فإنه لا يوجد بعثذاب - ميناء البحر الأحمر - سوى الرُّكَاة وواجب الدُّمَّة لا غير^٢ . وهذا يعنى أنه لم يكن يتردّد عليه سوى تِجَّار مسلمين أو ذُمِّيِّين قادمين من البلاد الإسلامية ، وأن المتاجر الشرقية الصينية والهندية كانت تصل إلى عَدَن ثم يحملها تِجَّارٌ مسلمون أو ذُمِّيُّون من أصل عربى إلى عَيْثَاب ، رغم أن ناصر خُشْرو يذكر أنه كانت تُحَصَّل بعثذاب المكوس على ما فى السفن الوافدة من الحبشة وزِنجبار واليمن !^٣.

وتُقرَّر الوثائق البيزية (نسبة إلى مدينة بيزا الإيطالية) أنه على الأقل بالنسبة لتِجَّار الموانئ الكبيرة كان لهم فى منتصف القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى فنادقهم المستقلة فى الإسكندرية وفى القُسطاط ، ولا يوجد ما يجعلنا نفترض أن هذه الميزة لم تكن موحدة مع بعض المدن أو الدول الأخرى ، بالرغم من أن الوثائق الخاصة بها منعدمة^٤.

^١ التبرى : نهاية ٣٣٦-٣٣٧.

^٢ ابن تَمَاتى : قوانين ٣٢٧ ، وانظر المقرئى : السلوك ٧٢:١-٧٣.

^٣ ناصر خُشْرو : سفرنامة ١١٨.

^٤ Cahen, Cl. op. cit., p. 77 ، وعن دور الفندق ووظيفته راجع مقال صبحى لبيب : «الفندق ظاهرة سياسية ،

اقتصادية ، قانونية» فى كتاب مصر وعالم البحر المتوسط ، القاهرة-دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٦ ،

والصفة الغالبة على نصّ الخزومي هي الغموض والالتباس في بعض مواضعه حيث يقسم الرسوم الواجبة إلى: رسوم أصلية، ورسوم مقابل خدمات الحماية، ثم رسوم بناء على اتفاقيات ومعاهدات تجارية. والخط الفاصل الوحيد للتقسيم بينها، كما يرى البروفسير كاهن برغم بعض التداخل، هو التمييز بين «الوارد» و«الصادر»^١.

ويتولّى الإشراف على جباية «الخُمس» في الإسكندرية ودمياط وتُنيس جهاز مكون من: ناظر ومُشارف وشاهد [كاتب] الخُمس وعامل وعدد من الكتّاب ومترجم يتولّون إعداد عدد من التعليقات والجرائد لحفظ الارتفاعات وضبط الأموال وصيانتها^٢.

وتتصّغن «التعريفات» بيانات عن ورود المراكب الرومية مبيّنا لكل مركب من أى البلاد قدمت ونوع البضائع التى تحملها موضحا وزنها وعددها. ثم تُعدّ «تعريفات» بما يُفْرغ فى كل يوم من جميع المراكب من البضائع فى المخازن بالصناعة، كما يُعدّ «تعريف» مفصل بأسماء الثّجار ومراكبهم^٣.

وإذا كان عَرْضُ الخزومي عما يؤدّى إلى الخُمس بشعر الإسكندرية ناقصا أو غير واضح، فإن ما يعرضه عن ثغر تِنيس - رغم قِلّة المترددين عليها بالقياس إلى الإسكندرية - ملئ بالتفصيلات حيث يقدّم لنا كَشْفًا بنسبة الخُمس الواجب أدائها عما قيمته مائة دينار من أنواع متعددة من البضائع^٤. ويفيدنا عرضه كذلك بأنه كان يُقَدّ بها بيع بالمزاد العلنى للبضائع الواردة يعرف «بِحَلَقِ الخُمس» (ج. حَلَقَة) تُفَرِّض عليه الدولة مكوسًا لا تجب إلّا بعد إتمام عملية البيع، وينال السُماسيرة والمنادون والمستخدمون

^١ Cahen, Cl., *op.cit.*, p. 84.

^٢ الخزومي: المنهاج ٤٥-٤٦.

^٣ نفسه ٤٦.

^٤ نفسه ٢٢-٢٩.

نسبة منها^١. وكذلك كان من بين الرسوم المفروضة «رشم التوفير» وهو عمّا يُشتخرج على يد جُهّيز الديوان من التجّار المشترين وتُجّار الروم عن كل مائة دينار سدس وثمان دينار^٢.

ويمكننا أن نُصنّف الرسوم المُعقّدة التي كان على التجّار الروم دفعها في الإسكندرية وبقية الثغور إلى مجموعتين أساسيتين هما: «القوف» و«القرضة» ومعنى هذين المصطلحين غير واضح على الإطلاق^٣. ويظن البروفسير كاهن أن كل الرسوم التي كانت تُدفع في الإسكندرية تتجمع حول هاتين المجموعتين الرئيسيتين، ويبلغ مجموعها ١٩ بالمائة^٤.

ونستطيع أن نتبين من بين العمليات المتنوعة والرسوم التي يُطلَق عليها «القوف» مع بعض الصعوبات، ثلاثة تقسيمات: مراكب تدفع رسومًا بالكامل، وهي المراكب التي يكون ارتفاعها ألف دينار فما فوق، وتدفع ما قدره مائة وأحد وخمسين دينارًا وأربع - ومراكب تدفع رسومًا بحق الثلثين عن ستمائة ست وستين دينارًا وثلثين قدرها مائة دينار ما قدره خمسة وسبعين دينارًا ونصف وثمان من «جميعه» ويبدو هذا التقسيم غامضًا إلى حد ما^٥. ويمثل العائد من «القوف» من قيمة الخمس نسبة قدرها ٨ ١٥ بالمائة تشمل رسوم المستخدمين وهم: الجبّاة والخزّان والأمناء وبوايين البحر، ورسوم لعدد من الأبواب مثل رشم «الحثمة» ورشم «الطعنة» ورشم «الضيافة»^٦. أما ما يُطلق عليه الروم «القرضة» فهو كما يذكر المخزومي، ما يؤخذ عن محاسبة المراكب الخُفسيّة متعلّقًا

^١ المخزومي: المنهاج ٩.

^٢ نفسه ١٠.

^٣ نفسه ١٠-١٢، ١٣؛ Rabie, H., *op.cit.*, p. 90.

^٤ Cahen Cl., *op.cit.*, pp. 88-89.

^٥ المخزومي: المنهاج ١٠.

^٦ Rabie, H., *op.cit.*, p. 91.

^٧ المخزومي: المنهاج ١١، ١٢.

يرشتم الإشراف والعمل ورشتم صاحب البحر ورشوم الولاية ورشوم الترجمة وكاتب الخفصن والمجهنذ والمحاسبة^١. وهذا فيما يخص التجار الأجانب غير المسلمين.

أما التجار المسلمون فقد اعتبر الفقهاء المكوس أو الضرائب الجمركية، بالنسبة لهم داخلة ضمن الزكاة، ومن هنا نشأت فكرة أن التاجر المسلم يستطيع أن يطوف عامًا كاملًا أينما شاء من حدود البلاد معفى من المكوس متى دفع المكس مرة واحدة وهو «الغش»^٢، وذلك بالإضافة إلى الزكاة الشرعية على غيّن المال، وهى عن كل مائة دينار ديناران ونصف ($\frac{1}{2} \times 2\%$)، وقد أطلق عليها الخزومى «عروض (عيون) التجارات»^٣، وكانت تجبى بعد أن يحدّد المشارف حول كل تاجر على ما يقتضيه ابتداء ملكه للمال. وضرب الخزومى مثلاً عمليًا على ما يجب عن مائتى أردب من القلّة قيمتها أربعون دينارًا وهو دينار واحد، وكذلك على ما يجب عن مائة قنطار من القطن قيمتها خمسون دينارًا وهو دينار واحد وربيع^٤. وقد أبدى الرحالة ابن جبير تذمره من الإجراءات الجمركية بالإسكندرية عندما وصل إليها سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م فى طريقه لأداء فريضة الحج، وذكر أن الموكلين بهذا الأمر طالبوهم بأداء زكاة ما معهم دون أن يبحثوا إذا كان قد حال عليه الحول أو لم يحل، رغم أن ما يحملونه لم يزد عن كونه زاد لطريقهم ولم يكن لغرض الاتجار^٥.

أما الرشوم المفروضة على مايرد ويصدر مع التجار الذميين فتعرف به واجب الذمة^٦، وكانت فى وقت ابن تيمتى تشتأدى فى أماكن ثلاثة هى: مصر القسطاط والإسكندرية وأخميم^٧، التى يجب أن نضيف إليها غيذاب التى ذكرها

^١ الخزومى : المنهاج ١١٣؛ 88؛ Cahen, Cl., *op.cit.*, p. 91 ; Rabie, H., *op.cit.*, p. 91 ;

^٢ نفسه ٤٢، ٤٦؛ 96-97؛ Rabie, H. *op.cit.*, pp. 75-91; Cahen, Cl., *op.cit.*, pp. 75-91;

^٣ ابن جبير : الرحلة ١٣.

^٤ ابن تيمتى : قوانين ٣٤٩.

ابن تيمتى فى موضع آخر^١، وإن كان لم يُحدّد لنا قيمة هذه الرسوم.

الموارد غير المنتظمة

المصادرة

تُعَدُّ مصادرة أموال وممتلكات كبار رجال الدولة فى أعقاب عزلهم أو التخلص منهم موردًا من موارد الدولة غير المنتظمة. وقد عُرِفَت المصادرات فى مصر قبل العصر الفاطمى، فقد صادر الإخشيدون الكثير من عُقَالِهِمْ وخاصَتِهِمْ بعد القبض عليهم، وكان إذا أفلت أحدٌ من المصادرة حيًّا لم يَسَلَمْ من أخذ أمواله بعد وفاته، وكذلك كانوا يفعلون مع التجار المياسير^٢. وفى العراق شاعت كذلك ظاهرة مصادرة كبار الموظفين فى القرن الرابع/ العاشر وأثّرت تأثيرًا سلبيًّا على الملكيات الخاصة، وأنشئ فى بغداد ديوان خاص لذلك سُمي «ديوان المصادرين» مهمته إدارة الأملاك المصادرة^٣.

أما فى مصر الفاطمية فكان أوّل من صودر هو الوزير يعقوب بن كِلْس، فعندما صرفه الخليفة العزيز من منصبه فى ثامن شوال سنة ٣٧٣هـ/ ١٨ مارس سنة ٩٨٤م اعتقله وحمل من ماله خمسمائة ألف دينار، ولكنه لم يلبث أن أفرج عنه وأعادته إلى منصبه فى العام التالى^٤. وفى الفترة التى انقلب فيها الخليفة الحاكم بأمر الله على معاونيه وتخلّص من أغلبهم بالقتل، نجده يصادر عددًا منهم مثل الحسين بن جَوْهَر وصهره عبد العزيز بن الثُّعْمان سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م. واضطر الحاكم أمام كثرة المصادرات إلى إحداث ديوان

^١ ابن تيمتى : قوانين ٣٢٧ وانظر كذلك ناصر خسرو: سفرنامه ١١٨.

^٢ ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ١٦٥، ١٨٧.

^٣ الدورى: تاريخ العراق الاقتصادى ٢٥٨-٢٥٩ متر: الحضارة الإسلامية ١٣٦.

^٤ التويرى: نهاية ٢٨: ١٥٩.

جديد سَمَاه « الديوان المُقَرَّد » بِرَسْم مَنْ يُقْبِضُ مَالَهُ مِنَ الْمُقْتُولِينَ وَغَيْرِهِمْ ^١.

ولم يكتف الخلفاء فقط بالمُصَادَرَة بل شاركهم في ذلك أيضًا الوزراء ، فيذكر كل من ابن الصَّبْر في وابن مَيْسَر أن الوزير أبا البركات الحسين بن محمد الجزَّجرائي (٤٣٩-٤٤١ هـ / ١٠٤٧-١٠٤٩ م) « كثر في أيامه القبض والمصادرات وأصطفاء الأموال والنفي » ^٢.

وعندما حاصر الوزير القوي أمير الجيوش بدر الجمالي ولده الأُوَحْد في الإسكندرية وتمكن من أسره في أوائل عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، أعاد بناء جامعها المعروف بجامع القطارين من مال المُصَادَرَات ومن أموال أخذها من الإسكندرانيين ^٣. أما في عصر ولده وخليفته الأَفْضَل شاهنشاه فيذكر ابن مَيْسَر أنه « لم يُعْرِف أَحَدٌ صُودَر في زمانه وَلَا قُسْط » ^٤. ولكن بعد أن تَخَلَّص الخليفة الأمر بأحكام الله من وزيره المأمون البَطَائِحِي واستعان بالراهب المعروف بأبى نجاح بن قَنَا كثرت المصادرات على يديه ، وبَدَّلَ في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار ، ولم يَسَلِّمْ منه جميع رؤساء الديار المصرية وقضاتها وكتّابها وغيرهم ^٥ ، وبلغ به الأمر أنه صادر رجلاً جَمَالاً فأخذ له عشرين ديناراً ثمن جمل ابتاعه لم يكن يملك سواه ^٦. وكان يجلس في قاعة الخطابة من جامع عمرو بن العاص ويستدعى الناس للمصادرة إلى أن قُتِلَ بأمر الخليفة الأمر سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م . فلما قام أبو على الأَفْضَل كُتِفِعَات بانقلابه في أعقاب وفاة الخليفة الأمر « أعاد على الناس ما أَخَذَ من أموالهم » ^٧.

^١ المقرئى : اتعاظ ٢ : ٨١ ، ٨٢ ؛ القلقشندي : صبح ٤٥٣ : ٣.

^٢ ابن الصبرفي : الإشارة ٧٢ ؛ ابن ميسر : أخبار ١٠ ؛ المقرئى : اتعاظ ٢ : ٢٠٨.

^٣ ابن ظافر : أخبار ٧٧ ؛ ابن ميسر : أخبار ٤٦ ؛ المقرئى : اتعاظ ٢ : ٣٢١.

^٤ ابن ميسر : أخبار ٨٣.

^٥ ابن ظافر : أخبار ٨٨ ؛ ابن ميسر : أخبار ١٠٨ ؛ النويري : نهاية ٢٨ : ٢٩٢-٢٩٣ ؛ المقرئى : اتعاظ ٣ : ١٢٥.

^٦ نفسه ٨٩.

^٧ ابن ميسر : أخبار ١١٧.

ويشير ابن ظافر إلى أن الوزير طلائع بن رزّيك وقت وزارته «احتكر الغلات إلى أن غَلَّت أسعارها ... وكان أَشَدَّ الناس تطلُّعًا إلى ما فى أيدي الناس من أموالهم وصّادر أقوامًا لم يكن بينهم وبينه معاملة ولا سبب يوجب التقرُّض»^١.

ويبدو أن الدولة الفاطمية قد استعاضت عن «الديوان المُقَرَّد» الذى أنشأه الخليفة الحاكم فى أواخر القرن الرابع بـ «الديوان المُتَجَمِّع» وهو ديوان نشأ فى عصر الخليفة الحافظ بعد غَزْل الوزير بهرام لارتجاع ما أُخذ منه ومن غيره من الضّياع^٢.

المواريث الحشرية

وهى مال من يموت وليس له وارث خاص بقراءة أو نكاح أو ولاء، أو الباقي من الفَرَض من مال من يموت وله وارث أو فَرَض لا يستغرقه جميع المال ولا عاصب له^٣. وكان القائد جَوْهَر قد وعد المصريين فى «الأمان» الذى منحه لهم وقت الفَتْح: أن يجريهم فى الموارث على كتاب الله وشِئْته نبيه ﷺ ويضع ما كان يؤخذ من تركات موتاهم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها، لأنه لا استحقاق لتبصيرها لبيت المال^٤. وما جاء فى أمان جَوْهَر يدلُّ على أن نظام الميراث فى مصر قبل مجئ الفاطميين كان يسير وفق ما يأخذ به المذهب السنى فى الميراث الذى يرى أن من مات ولم يكن له من يرثه من عُصْبَةٍ وذى سَهْم ذهب إرثه إلى بيت المال، كما أنه إذا بقى شىء من الإرث، بعد إعطاء كل ذى سَهْم من الورثة سَهْمه، فإنه يذهب إلى بيت المال^٥. كذلك فإن ما جاء فى أمان جوهر يدل على أنه كانت تؤخذ من تركة المتوفى

^١ ابن ظافر: أخبار ١١١، وقارن النورى: نهاية ٢٨: ٣٢٥، المقرئى انماط ٣: ٢٤٤.

^٢ القلقشندى: صبح ١٠: ٣٥٧، وراجع حول المصادرة Rabie, H., *op.cit.*, pp. 122-127.

^٣ نفسه ٣: ٤٦٠ وانظر ابن عمّار: قوانين ٣١٩-٣٢٥، النابلسى: لمع القوانين المضية ٥٤.

^٤ المقرئى: المتقى ٣: ٩٢، الانماط ١: ١٠٥، ابن حماد: أخبار ملوك بنى عبيد ٥١.

^٥ الدورى: تاريخ العراق الاقتصادى ١٩٠.

ما يُطلَق عليه «ضريبة الإرث» وهي ضريبة غير مشروعة^١.

أما المذهب الشيعي (سواء الإسماعيلي أو الإمامي أو الزيدى) فيرى توريث ذوى الأرحام وأن البنت إذا انفردت تأخذ الإرث جميعه بلا عصبه ولا بيت مال^٢، بينما يقضى مذهب السُّنَّة أن لا ترث البنت أكثر من نصف الثروة التى يتركها أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت.

وأورد لنا ابن زولاق خلافاً فى تنفيذ قوانين الميراث بين السُّنَّة والشيعية حَدَثَ وقت المُعِزِّ حول قضية حَتَّام ادَّعى رجلٌ يدعى ابن بنت كيجور أنه من إنشاء جده لأمه وأخذ توقيعاً من المُعِزِّ بأن ينظر فى أمره القاضى الإسماعيلي عبد الله بن أبى ثوبان، فأقام البيِّنة على أن جده المذكور هو الذى بنى الحَتَّام وأنه توفى وانحصر إرثه فى بنته - والدة المدعى - وكان المُعِزُّ يطلب إلى قضاته أن يورثوا البنت جميع الميراث إذا لم يكن معها أخ أو أخت. غير أن القاضى السُّنِّي أبى الطاهر الدُّهلى اعترض على ذلك لأنه كان قد سبق وحكم فى هذه القضية بأن محمد بن على الماذرائي قد حَبَسَ هذا الحَتَّام بعد وفاة صاحبه وأنه لا حقَّ له فيه^٣.

ولكن بعد وفاة القاضى أبى الطاهر الدُّهلى أصبح قضاة الفاطميين جميعهم من الإسماعيليين يحكمون وفق المذهب الإسماعيلي. ويبدو من نصِّ للمقرئى أن الدولة الفاطمية كانت تُلْزِم رعاياها باتِّباع الفقه الشيعي فى الميراث. إلى أن استجد أمير الجيوش بدر الجمالى وقت وزارته نظاماً جديداً هو «أن كل من مات يُقَمَّل فى ميراثه على حُكْم

^١ الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ١٩١١، متر: الحضارة الإسلامية ١٩٥.

^٢ القاضى النعمان: المجالس والمساربات ٩٧، دعائم الإسلام ٣٧٩:٢ - ٣٨٠، ابن حجر: رفع الإصر ١: ٢٩٦.

المقرئى: الخطط ١: ١١١، اتماط ٣: ٨٩، *SI*، Fyzee, A. A. A., «The Fatimid Law of Inheritance», IX (1958), pp. 61-69.

^٣ ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر ١: ٢٩٦-٢٩٨، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ٣١٥.

مذهبه^١، وقد أدى ذلك إلى أن تؤول كثير من أموال الموارث إلى ديوان الموارث الحشرية. ولكن عندما تولى الأفضل شاهنشاه الوزارة أفرد مال الموارث، كما يذكر ابن ميسر، ومنع من أخذ شيء من التركات وأمر بحفظها بمؤدع الحكم حتى إذا حضر من يطلبها وطالعه القاضى بثبوت استحقاقها أطلقها فى الحال، وكان القاضى قد أراد رفعها إلى بيت المال بعد أن بلغ ما اجتمع منها فى مؤدع الحكم مائة ألف وثلاثون ألف دينار^٢.

وفى أيام الوزير المأمون البطائحي أراد الفقيه المالكي أبو بكر محمد بن الوليد الطوطوشى مناقشة أمور الموارث وما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام، وهو رُبع العشر، وتوريث البنت نصف المال حيث كان الفاطميون يورثونها جميع المال مع وجود ذوى العصبية. وكان رأى الوزير المأمون أنه لا يقول بذلك وأنه من ابتكار الوزير بدر الجمالى، وانتهت المناقشة بين الفقيه والوزير إلى إصدار منشور كتب فى ٢٨ ذى القعدة سنة ٥١٦هـ/ ٢٧ يناير سنة ١١٢٣م بأن «يُخلَصَ لحُرْم ذوى التَّشْيِيعِ الوارثات جميع موروثهم^٣... ويُحتمل من سواهن على مذهب مخلفيهن، ويشركهن بيت المال فى موجودهم، ويحمل إليه جزء من أموالهم التى أخلها الله لهن بعدهن... أما من توفى حشريًا ولا وارث له حاضر أو غائب، فإن ميراثه يؤول بأجمعه إلى بيت المال، إلا إذا كان عليه مالٌ يستحق لإحدى الجهات الحكومية أو ذين يؤدى إلى مستحقه... وإذا توفى شخصٌ وله وارثٌ غائب فيتَّحَفَظَ الحُكَّامُ والمستخدمون على تركته احتياطًا حُكْمِيًّا، فإذا حضر وأثبت استحقاقه ذلك فى مجلس الحكم على الأوضاع الشرعية طوّل بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه والانتهاه بقبضه عليه^٤.

^١ المقرئى: اتعاط ٣: ٨٩.

^٢ ابن ميسر: أخبار ٨٣-٨٤، المقرئى: اتعاط ٣: ٧٢.

^٣ تبعًا لما جاء فى سورة الأنفال الآية ٧٥.

^٤ المقرئى: اتعاط ٣: ٩٠-٩١، المقفى ٤١٠: ٤١٣، حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ٣١٦-٣١٧.

وجاء في هذا المنشور كذلك الأمر بتعويض أمناء الحكم عما يتقاضونه من رُبع الحُشْر من ثمن ما يبيعونه من التركات مما يؤدى إلى نقص أموال الأيتام، وذلك بتقرير جاري لهم في كل شهر من مال الديوان على الموارث الحشيرية^١.

أما إذا توفى ذمى ولم يخلف وارثاً فترد تركته على أهل ملته لا على بيت المال، وذلك عملاً بما روى عن النبي ﷺ من أن المسلم لا يرث الكافر، وأن الكافر لا يرث المسلم، وأنه لا يتوارث أهل ملتين^٢.

وقد حفظ لنا القلقشندي نسخة منشور تقدم بكتبه السيد الأجل الأفضّل (ربما رضوان بن ولحشى) إلى القاضي الرشيد سديد الدولة أبى الفتوح محمد بن القاضي السعيد عين الدولة أبى محمد عبد الله بن أبى عقيل يقره فيه على ما هو متوليه من الخدمة فى مشاركة الموارث الحشيرية وتقرير الفروض الحكمية^٣.

وكان يُشرف على الموارث الحشيرية، باعتبارها موردًا من موارد الدولة الفاطمية غير المنتظمة، ديوانٌ يعرف بـ «ديوان الموارث» أو «ديوان الموارث الحشيرية»، وكان يُضمّ أحيانًا كما يُفهم من نصّ لابن الطوير إلى «ديوان الجوالى»^٤.

ويدو أن الحشيرين كانوا يضيّقون بقوانين هذا الديوان، فكانوا يتنازلون فى حياتهم عما يمتلكون من عقار ثابت أو أموال منقولة بمختلف الطرق الشرعية، نظرًا لأن الديوان - كما يذكر النابلسي - كان يُهمل أموال الحشيرين التى لهم لدى أفراد متفرقين فى أقاليم الديار المصرية بحجة استحالة تحصيلها وبذلك لا تؤول هذه الأموال إلى الديوان

^١ المقرئى : اعاط ٣: ٨٩-٩١، القفى ٧: ٤١١، ٤١٣.

^٢ مر، ١: الحضارة الإسلامية ١٩٥.

^٣ القلقشندي: صبح ١٠: ٤٦٦.

^٤ ابن الطوير: نزعة القتلتين ٩٢، ابن الفرات: تاريخ ١/٤: ١٤٩؛ القلقشندي: صبح ٣: ٤٩٢، المقرئى: اعاط

٣٤٢:٣ وقرآن Rabie, H., *op.cit.*, p. 127.

ولا تُصَرَّف في الوجوه المقررة لها^١. وتُوضَّح لنا حُجَّة تملك ووقف ترجع إلى العصر الأيوبي مؤرَّخة سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م، كيفية تصرف الحشَّرين في العقارات الخاصة بالوقف حتى لا تتول إلى ديوان الموارث الحشَّرية^٢. ولا شك أن الناس قد لجأوا أيضًا إلى هذه الحيلة في العصر الفاطمي.



ونتيجة لاتباع نظامي المصادرة والموارث الحشَّرية وُضِعَت مبالغ طائلة من المال في التداول، وتُحدِّثنا حَوَليات ذلك العصر عن الثروات الطائلة بالعملات الذهبية والفضية التي امتلكها أفراد الطبقة العُليا والتي صودرت في حياتهم أو بعد وفاتهم. ونتج عن نظام المصادرة ونظام الموارث الحشَّرية أن هذه الأموال الضخمة ظَلَّت قَيَّد التداول، وهي وسيلة لجأت إليها كل الحكومات الإسلامية للحصول على الأموال التي تحتاجها للنفقات^٣.

الأخباس

ظَلَّت الأوقاف (الأخباس) في مصر منذ الفتح الإسلامي في أيدي مستحقيها أو نُظَّار الوقف حسب شروط الواقف دون أي تَدَخُّل أو إشراف من الدولة، حتى وَلَّى قضاء مصر القاضي الأُموي تَوْبَة بن نَمر في مستهل صفر سنة ١١٥هـ/١٩ مارس سنة ٧٣٣م فخاف عليها من الهلاك والتوارث، ولما كان مَال الأخباس إلى الفقراء والمساكين، فقد وَجَدَ أنه من الأفضل أن يضع يده عليها فأفرد لها ديوانًا سُمِّي «ديوان

^١ النابلسي: لمع القوانين المضية ٥٤ والهامش التالي.

^٢ حسنين محمد ربيع: «حجة تملك ووقف»، المجلة التاريخية المصرية ١٢ (١٩٦٤-١٩٦٥)، ١٩٢، ١٩٦.

^٣ Ashtor, E., *op.cit.*, pp. 190-91

الأخباس، كان يتولَّى الإشراف عليه القاضي^١. ويعتبر هذا الديوان أوَّل تنظيم للأوقاف ليس في مصر فحسب بل في كافة الدولة الإسلامية^٢.

وظَلَّ القضاء يتولَّون النُّظَر في الأوقاف بحفظ أصولها واستثمارها وقَبْض ريعها وصرفه في الأوجه التي أُرْصِدَتْ لها. ومنذ النصف الأول للقرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي كان يُعَيَّن في بعض الأحيان متولٌّ للأخباس ونَقَّاة الأيتام بالإضافة إلى القاضي^٣. وكانت الأخباس في أوَّل الأمر في الرُّباع وما يجرى مجراها من المبانى، أما الأراضي فلم يكن سَلَفُ الأئمة من الصحابة والتابعين يتعرَّضون لها^٤. أما أوَّل من حَبَس الأراضي والبساتين في مصر فأبو بكر محمد بن علي الماذناني الذي حَبَس نحو سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م، بركة الحبش وأسيوط على الحرمين وعلى جهات بِرٍ مختلفة^٥. يقول المقرئى: «فلما قدمت الدولة الفاطمية من المغرب إلى مصر بَطَلَ تحبيس البلاد وصار قاضى القضاء يتولَّى أمر الأخباس من الرُّباع، وإليه أمر الجوامع والمَشاهد، وصار للأخباس ديوان مفرد»^٦، كذلك فقد أدخل الفاطميون الكثير من التنظيمات الخاصة بالوَقْف. فقد أمر الخليفة المُعِزُّ لدين الله في ربيع الآخر سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م أن تُحوَّل المحصَّلات المالية المحبأة من الممتلكات الموقوفة من مَوْدع الحكم إلى بيت المال، وطالب المتنفعين بأن يُظهِروا الوثائق التى تدلُّ على أحقيتهم في ربيع هذه الأوقاف^٧. ويُقدِّد محمد ابن القاضي أبى الطاهر محمد الدُّهلى أوَّل من ضَمَّن جباية أموال الأخباس في الدولة

^١ ابن حجر: رفع الإصر ١: ١٦١.

^٢ محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣ / ١٢٥٠-١٥١٧- دراسة تاريخية وثائقية،

القاهرة ١٩٨٠، ٤٨.

^٣ نفسه ٤٨-٤٩، ٥١.

^٤ المقرئى: الخطط ٢: ٢٩٤.

^٥ نفسه ٢: ٢٩٥.

^٦ نفسه ٢: ٢٩٥.

^٧ نفسه ٢: ٢٩٥، المقرئى: اتعاظ ١: ١٤٨ محمد محمد أمين: المرجع السابق ٥٢.

الفاطمية ، ففى النصف من شعبان من سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م صَمَنَ الأحباس بألف ألف وخمسمائة ألف درهم فى كل سنة ، على أن يدفع إلى المستحقين حقوقهم ويحمل الباقي إلى بيت المال^١.

وهكذا أصبح لبيت المال منذ أيام الفاطميين نصيبٌ من متحصّلات الأحباس ، التى صارت تمثل أحد موارد الدولة المالية^٢. وحتى يضمن الفاطميون موردًا ثابتًا يُنفقون منه على تعمير المساجد وفرشها والصرف على قَوَمَتِها وخدامها ، أوقفوا الكثير من الأراضى الزراعية وغيرها من المواضع . فيذكر المُسَبِّحى أن الخليفة الحاكم بأمر الله أَمَرَ فى سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م بإثبات المساجد التى لا غَلَّةَ لها ولا أحد يقوم بها أو التى لها غَلَّةٌ لا تقوم باحتياجاتها فأُثْبِتَتْ فى سِجَلٍ رُفِعَ إليه ، وبلغت عدتها ثمانمائة وثلاثين مسجدًا قُدِّرَ لها نفقة شهرية قيمتها ٩٢٢٠ درهمًا بواقع اثنى عشر درهمًا لكل مسجد^٣. وبناء عليه أمر الحاكم فى يوم الجمعة ١٨ صفر سنة ٤٠٥هـ / ١٩ أغسطس سنة ١٠١٤م بقراءة سِجَلٍ بتحسيس ضياع هـى : لإطفيع وصول وطوخ ، وست ضياع آخر وعدة قياسر وغيرها على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع ، وعلى المصانع والقوام بها ونَفَقَةُ المارستانات وأرزاق المستخدمين فيها وثمان الأكناف لفقراء المسلمين^٤. ويذكر الشريف محمد بن أسعد الجَوَّانى أن القضاة بمصر كانوا إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طافوا يومًا على المساجد والمشاهد بمصر والقاهرة ، يذأون بجامع المَقَس ثم جوامع القاهرة ثم المشاهد ثم القَرَاة ثم جامع عمرو بالأنشطاط ثم مشهد الرأس لنظر تحصر ذلك وقناديله وما تَشَعَّت منها وما يحتاج إلى عمارة منها وظل الأمر على ذلك إلى أن زالت الدولة الفاطمية^٥.

^١ المقرئى : الخطط ٢: ٢٩٥؛ محمد محمد أمين : المرجع السابق ٥٢ وانظر فيما سبق ص .

^٢ محمد محمد أمين : المرجع السابق ٥٢.

^٣ المسبّحى : نصوص ضائعة ٣١؛ المقرئى : الخطط ٢: ٢٩٥ ، ٤٠٩ ، اتمام ٢: ٩٦.

^٤ نفسه ٣٢؛ نفسه ٢: ٢٩٥ ، ٤٠٩.

^٥ المقرئى : الخطط ٢: ٢٩٥.

وكان أمير الجيوش بدر الجمالي قد حبس على عقبه وقت وزارته عددًا من النواحي
عرفت بـ «الحبس الجيوشي» ، بعضها في البر الشرقي وهي بنهيت والأميرية والمنية ،
وبعضها في البر الغربي جهة الجزيرة هي : سَفْط ونَهْيا ووسيم . وظلّت جميع البساتين
المختصة بهذا الحبس بأيدي وُرثة أمير الجيوش حتى وزارة المأمون البطائحي ، فلما توفي
الخليفة الأمر واستولى أبو على الأفضّل كُتِفَت حفيد بدر الجمالي على السُلْطة أعاد
جميع الحبس إلى الملاك لكون نصيبه في ذلك الأوفر ، فلما قُبل كُتِفَت وأعيد الخليفة
الحافظ أمر بالقبض على جميع الأملاك وحلّ الأخباس المختصة بأمير الجيوش لولا تدخل
غلمان الأفضّل عزّ المملك ويانس - الذي أصبح وزير الحافظ - وأقنعا الحافظ بإبقائها .
ولما انقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق منه سوى امرأة أفتى الفقهاء بأن الحبس باطلٌ
فصار ماله يُحمَل إلى بيت المال ليُتَفَق في مصالح المسلمين^١ .

ولعل أقدم حُجّة وَقَف وَصَلَتْ إلينا من مصر وتعد الوحيدة التي ترجع إلى العصر
الفاطمي ، هي حُجّة وَقَف الوزير الملك الصّالح طلائع بن رُزَيْك الذي أَوْقَف في مستهل
جمادى الأولى سنة ٥٥٤هـ / ٢١ إبريل سنة ١١٥٩م بعض الرّباع ونصف بركة
الحبس^٢ وناحية بَلْقَس الأشراف^٣ على أن يكون النصف والثّمن منها ، أي خمسة عشر

^١ ابن المأمون : أخبار ١٠٥ ، ابن ممتي : قوانين ٣٣٦-٣٣٩ ، المقرئ : الخطط ١ : ١١٠ ، ٢ : ١٢٩ ، ٤٨٧ .

^٢ بركة الحبس . حوض من الأراضي الزراعية التي يغرّها ماء النيل وقت فيضانه سنوياً ، كان تقع جنوب مدينة
الفسطاط بين النيل وجبل المقطم وكان الماء يصل إليها بواسطة خليج بنى وائل الذي كان يستمدّ مائه من النيل
جنوب الفسطاط ، فكانت الأرض وقت أن يغرّها الماء تشبه البرك ولهذا سميت بركة . ونظراً لأن الصّالح طلائع
وقفها على الأشراف فقد عرفت أحياناً في المصادر باسم «بركة الأشراف» . (المقرئ : الخطط ٢ : ١٥٢ ، ابن
دقماق : الانتصار ، القاهرة ١٨٩٤ و ٥٥ : ٤٠٦ ، أبو الحسن : النجوم الزاهرة ٦ : ٣٨٢ من تعليقات المرحوم محمد

رمزي) .

^٣ بَلْقَس الأشراف . قرية قديمة ذكرها ابن ممتي ضمن أعمال الشرقية (قوانين الدواوين ١١٠ س ٢) وذكرها ابن الجيّمان
ضمن أعمال القليوبية (التحفة السنية ٦ س ٢١) وهي الآن من بين قرى محافظة القليوبية شمال بَنَهْم وهي تابعة
لمركز قليوب وكانت قبلاً من قرى مركز شبرا الخيمة (محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، القاهرة

من أربعة وعشرين سهماً على الأشراف الحسينيين والحسينيين المقيمين بالقاهرة المعزية ومصر خاصة، والثلث، أى ثمانية أسهم من أربعة وعشرين سهماً، على الأشراف الحسينيين والحسينيين القاطنين بمدينة رسول الله وفى بوادى الفرع القريب منها، ويُمنَح الشُّهُم الباقى للشرىف ابن مَقْصُوم على أن يكون له أمد حياته ثم من بعده لولده وولد ولده، وإن انقرضوا رجعت منافع هذا السهم إلى الأشراف الأقارب والمقيمين بالمدينة^١.

كان يتولَّى الإشراف على الأخباس فى العصر الفاطمى ديوانٌ يعرف بـ «ديوان الأخباس»، يقول ابن الطُّوير: هو أوفر الدواوين مباشرةً، ولا يخدم فيه إلا أعيان كُتاب المسلمين من الشهود المعدلين - بحكم أنها معاملة دينية - وفيه عدة مُدَبِّرِينَ ينوبون عن أرباب هذه الخِدم فى إيجاب أرزاقهم من ديوان الرُّواتب بعد حضور ورقة من جهة مُشارِف الجوامع والمساجد تفيد استمرار خدمة صاحبها طوال الشهر، ومن تأخَّر تعريفه تأخَّر صرف راتبه وإن تمادى ذلك استبدل به آخر أو توفر ما باسمه لمصلحة أخرى، أما المشاهد فإنها لا توفر ولكنها تنتقل من مُقَصَّر إلى ملازم. وكان يُطْلَق لكل مشهد خمسون درهماً فى الشهر لتزويدها بالماء لزوارها والمترددِين عليها.

وكان بالديوان كاتباً ومعيّنان لتنظيم الاستمارات ويورد كل منهم فى استيماره كل ما ورد فى الرُّقاع والرُّواتب وما جئى له من جهات الوجهين القبلى والبحرى^٢.

^١ ابن الطوير: نزعة المقلتين ١١٤-١١٥ ابن الفرات: تاريخ ١/٤: ١٤٥-١٤٦ ابن دقماق: الانصار ٥: ٤٥٠

القلقشندى: صبح ٣: ٤٨١-٤٨٢، المقرئى: الخطط ٢: ٢٩٤، Cahen, Cl., Ragib, Y. et Taher, M. A., «L'achat et le waqf d'un grand domaine égyptien par le vizir fatimide Talâ'î b. Ruzzik», *An. Isl.* XIV (1978), pp. 113-115

^٢ ابن الطوير: نزعة المقلتين ١٠٠-١٠١ ابن الفرات: تاريخ ١/٤: ١٤٩-١٥٠، المقرئى: الخطط ٢: ٢٩٥، القلقشندى: صبح ٣: ٤٩٠.

مُتَحَصِّلُ دار الضَرْب ودار العيار

كانت الدولة تُحَصِّل مقابل تحرير ما يتعامل به الناس من الذهب والفضة رَشْمًا مقابل هذا العمل منقًا للتلاعب في قيمته إذا خرج عن إشراف الدولة . ويعتبر هذا الرسم أجرة دار الضَرْب عما يُخْضِرُهُ الْمُؤَزَّدُونَ وغيرهم من التُّجَّار من الذهب على اختلاف أصنافه وهو ثلاثة وثلاثون دينارًا وثلث عن كل ألف دينار تستثنى منه أجرة الضَّرَّايين وهو ثلاثة دنائير ونصف عن كل ألف دينار ، وأجرة مشارف العيار وهي دينار واحد وثلثان عن كل ألف دينار^١.

أما الفِضَّة فكان يُحَصِّل على تحرير عيارها رَشْمٌ قدره نصف دينار (حوالى عشرين درهماً) عن كل ألف درهم خالصًا من أجرة الضَّرَّايين وحق متولَّى العيار وسائر المؤن لأنها تلزم مالكها دون الديوان^٢ ، وهو ما أطلق عليه ابن بَغْرَةَ « رَشْم واجب السُّكَّة وأجرة الضَّرَّايين »^٣.

ودائر العيار هي الدار التي تتولَّى ضَبْط الموازين والمكاييل والصَّنَج ، وإيرادات هذه الدار عبارة عن أثمان ما يباع من هذه الموازين ، وكذلك مصاريف إصلاحها وتحريرها لمن يريد^٤ . وكان المُحْتَسِب هو المنوط به التأكد من ذلك ، ففي ذى القعدة سنة ٤١٥ هـ / يناير ١٠٢٤ م ضَرَبَ المُحْتَسِب جماعةً من الحَبَّازِينَ ضربًا وجيعًا لأنه وجد موازين أوطالهم باخسة وصنَّجهم التي يزنون بها الدراهم زائدة^٥ . وفي شهر ذى الحجة من نفس

^١ الخزومي : المنهاج ٣١ ، وقارن نفسه آخر صفحة وابن مماتي : قوانين ٣٣٢ ، النابلسي : لمع القوانين المضية ٥٢ بالنسبة للعصر الأيوبي .

^٢ نفسه ٣١ ابن مماتي : قوانين ٣٣٣ والقيمة التي ذكرها هي أربعة عشر درهماً ونصف عن كل ألف درهم يخصم منها درهمان وربع برسم المشاركة .

^٣ ابن بكرة : كشف الأسرار العلمية ٦١ .

^٤ ابن مماتي : قوانين ٣٣٣ - ٣٣٤ Rabie, H., *op.cit.*, p. 116 .

^٥ المسبحي : أخبار مصر ٧٣ ابن الطوير : نزعة ١١٧ .

العام/فبراير ١٠٢٤م ضرب المحتسب رجلاً يبيع الحلواء فى حانوت على باب زُقاق القناديل بالفُنْطاط وطاف به على جمل لأنه وجد أخطاله ينقص كل رطل منها أوقيتين، وكل صِنْجَة يزن بها الدراهم تزيد ثُمن درهم^١. فقد كان من أهم مهام المحتسب - كما جاء فى سِجِلْ بتولية الحِمْبَة أنشأه القاضى الفاضل - أى قرب نهاية الدولة الفاطمية - معايرة المكايل والموازين، لأنها آلات معاملات الناس وأن يجتهد فى سلامتها من الإلباس والأدناس^٢

ويفيدنا هذا النصّ فى أن التعامل بالدراهم فى العقود الأولى للقرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى كان يتم بالوزن وليس بالعدد.

وكان الإشراف على دار الضرب القين والوزن والسكّة بالحضرة وسائر أعمال المملكة يُفْعَد به إلى القاضى^٣.

^١ المسبحى : أخبار مصر ٧٨.

^٢ القلقشندى : صبح الأعشى ١٠: ٤٦١.

^٣ نفسه ١٠: ٤٢٩.

الفصل الخامس عشر الحياة الاجتماعية

فى كتابه « إغاثة الأئمة » قسّم المقرئى طبقات الناس فى مصر سبعة أقسام ، ورغم أن المقرئى كتب ذلك فى سنة ١٤٠٦/٨٠٨ (تاريخ تأليفه للكتاب) إلا أنه يصدق فى العموم على سكان مصر فى العصر الإسلامى ، وهذه الأقسام هى : « أهل الدولة ، وأهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ، والباعة - وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم أصحاب البرّ - ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق ، وأهل القلح - وهم أهل الزراعات والحراث سكان القرى والريف ، والفقراء - وهم جل الفقهاء وطلّاب العلم ، وأرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهّن ، ثم ذور الحاجة والمُسكّنة وهم السوّال الذين يتكفّفون الناس ويعيشون منهم »^١ .

بناء المجتمع

عندما وصلَ الفاطميون إلى مصر كان السكّان المصريون أو المواطنون الأصليون من القبط ومن أهل السّنة . وقد صحب الفاطميين عناصر متعددة استعانوا بهم فى توطيد سيطرتهم ومدّ نفوذهم ، كان أسبقهم العنصر المغربى ممثلاً فى الكتّامين والزّويليين والصّنهاجيين والباطليين والبرّقيين بالإضافة إلى عنصرى الروم والصّقاليّة ، وهؤلاء هم الذين قدموا مع جيش جُوهر ثم مع الخليفة المُعزّ إلى مصر . وقد أقاموا جميعهم بوجه خاص فى المدينة المُحصّنة « القاهرة » واقتسموا حاراتها المختلفة . فقد كانت القاهرة عند إنشائها مدينة خاصة يسكنها « الخليفة وحرمة وجنده وخواصه » ولا يُسمح بدخولها

^١ المقرئى : إغاثة الأئمة بكشف الغمة ٧٢-٧٣ .

لأفراد الشعب الذين كانوا يقيمون في مصر الفُسطاط - مركز النشاط الاقتصادى والتجارى والصناعى للبلاد - إلّا بإذن خاص وبغرض خدمة أهل الحِصن الفاطمى^١. وقد انضاف إلى هذه العناصر الأجنبية، التى سكنت الحِصن الفاطمى، طوال القرن الفاطمى الأول عنصر الأتراك والدَّيْلَم اللذان اصطنعهما الخليفة العزيز بالله، وكذلك العنصر الأسود الذى استكثرت منه والدة الخليفة المستنصر.

وفى أعقاب الشُّدة العُظمى فى عصر المستنصر وقدم بدر الجمالى وتولَّيه السلطة فى مصر أباح لمن وَصَلَتْ قدرته إلى عمارة أن يعمر ما شاء فى القاهرة - وذلك بعد خراب القسم الشمالى من الفُسطاط فى أثناء الأزمة - ولكنه قصر ذلك على العسكرية والملّحية والأزمن، وهم العنصر الجديد الذى أصبح يكوّن أغلب سكان القاهرة وضواحيها فى العقود الأولى للقرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى. وكان الغالب على هذه العناصر الطابع العسكرى وكانوا يُكوّنون فرق الجيش الفاطمى المختلفة.

أما الفُسطاط فقد كانت قبل العصر الفاطمى وطوال العصر الفاطمى - المركز الاقتصادى النشط لمصر، فكان يقطنها « التُّجَّار والباعة وأصحابُ المعاش »، وقد وَصَفَ ناصرُ خُشرو فى سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م أسواق الفُسطاط وما بها من عُمال مهرة وتجار بين « بَقَّالين وعَطَّارين و بائعى خردوات »^٢. كما أن أوراق الجنيزة التى لا تقبل الشك تُقَدِّم لنا وَصْفًا غنيًا عن نشاط الطبقة المتوسّطة (البرجوازية) فى الفُسطاط.

وشهدت الحقبة الفاطمية عمومًا قيام الطبقة المتوسطة فى الإسلام حيث بدت هذه الطبقة مكتملة النشأة بنماذج حياتها المتينة البنيان وموازين قيمها الثابتة^٣.

^١ راجع مقالى : « تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها فى زمن الفاطميين »، حوليات إسلامية ٢٤ (١٩٨٨) ١-١٣.

^٢ ناصر خسرو: سفرنامه ١٠٥.

^٣ Goitein, S. D., *Studies in the Islamic History* p. 245

ولم تكن الطبقة المتوسطة (البرجوازية) الإسلامية برجوازية تجارية فقط، بل كانت برجوازية تجارية - صناعية، فلم تكن التجارة في هذا العصر منفصلة عن الصناعة بشكل قاطع، فقد كان الذين يُنتجون سلعة من السلع هم الذين يقومون في الغالب بالتجار فيها، في نفس الوقت الذي وَصَلَ فيه بعض أرباب الصنائع إلى الانتعاش الاقتصادي وإلى مكانة اجتماعية مرموقة أهَّلَتْهم للانتماء إلى الطبقة المتوسطة^١.

وكان تشكيل الطبقة المتوسطة يتكوّن بالإضافة إلى التجار وأرباب الصنائع من علماء الدين والوعاظ (مع ملاحظة أن العلماء كانوا غالبًا ما يشتغلون بالأعمال والصناعات^٢ يدل على ذلك نسبتهم مثل: الرَّجَّاج، الفَرَّاء، النَّحَّاس، الحَبَّال ...).

أما موظفو الدواوين وجميع الرجال المتصلين بالحكومة والقضاة المقيمين في المدن الرئيسية الكبرى فكانوا يشكلون ما يمكن أن نطلق عليه « الطبقة المتوسطة العالية »^٣.

وكانت القُسطاط كذلك هي والإسكندرية مركز المقاومة السنية في مصر، ويقدم لنا ناصر خسرو أيضًا وصفًا للحركة العلمية التي كان يقودها العلماء أو طبقة أرباب العمائم في جامع القُسطاط، فذكر أنه يقيم به المدرسون والمقرئون وأنه مكان اجتماع سُكَّان المدينة، وأنه لا يقلّ من فيه في أيّ وقت عن خمسة آلاف من طُلاب العلم والغرباء والكتّاب^٤.

ونظرًا لأننا لا نملك كتابًا في طبقات العلماء وتراجمهم شاملًا قبل كتاب «وفيات الأعيان» لابن خُلِّكان، فإننا لا نستطيع أن نُقدِّم تصوّرًا واضحًا لدور طبقة العلماء كذلك، الذي يمكن أن نقدمه في العصر المماليكي اعتمادًا على

^١ . Goitein, S.D., *op.cit.*, p. 243

^٢ . *Ibid.*, p. 244

^٣ . *Ibid.*, p. 244

^٤ ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٢.

مؤلفات مثل « الدُرر الكامنة » لابن حجر العسقلاني أو « الضوء اللامع » للسخاوى^١.

ومن بين أرباب العمام الذين قاموا بدور هام في هذه الفترة دعاة الإسماعيلية الذين استقروا في القاهرة - أكبر مركز شيعي في العالم الإسلامي في هذا الوقت - بجوار الجامع الأزهر ودار العلم والمحوّل بالقصر، بالإضافة إلى نُقَبائهم الذين انتشروا في أقاليم مصر لجمع الفِطْرة والتَّجوى من أتباع المذهب^٢.

أما معلوماتنا عن الفلاحين والزُّراع في هذه الفترة ونشاطهم الاجتماعي فمحدودة للغاية، ويذكر المقرئ أن المزارع المقيم على الأرض الزراعية التي يَتَقَبَّلُها الوجه والأمرء والأجناد، يسمى « فلاحاً قراراً » وأنه يصير عَبْدًا قَتْلًا لمن أقطع تلك الناحية هو ومن وُلِدَ له كذلك لا يرجو أن يباع ولا أن يُعْتَق^٣.

والى جانب أهل السُنَّة والإسماعيلية وبعض الإمامية، فإن الأقباط واليهود كانوا يمثلون عنصراً هاماً في مصر. وقد استفادوا من روح التسامح التي سادت في العصر الفاطمي - باستثناء فترة خلافة الحاكم بأمر الله - كما استغلَّ الفاطميون مهارة الأقباط في الصُّنَاعَة والشُّعُون المالية وأسندوا إليهم العديد من المناصب الهامة، وكذلك فعلوا مع اليهود^٤. ولا شك في أن موقف الفاطميين المحايي للأقباط نابغ من عدم ثقتهم برعاياهم المسلمين السُّنَّيين.

^١ انظر مثلاً دراسة كارل بترى Petry, C., *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages*, Princeton 1971.

^٢ انظر فيما سبق ص ٥٢٨.

^٣ المقرئ: الخطوط ١: ٨٥.

^٤ راجع، قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر المصور الوسطى - دراسة وثائقية، القاهرة - دار المعارف ١٩٧٧، سلام شافعى محمود: أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي، القاهرة - دار المعارف ١٩٨٢، وأهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، القاهرة - الهيئة العامة للكتاب - تاريخ المصريين ١٩٩٥.

وأدى تزايد ظاهرة تَوَلَّى الأقباط والتَّصارى من الأزمن للعديد من المناصب الهامة فى العقود الأولى للقرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى إلى قيام ردِّ فعل سُتَّى قوَى قاده الوزيران السُّتَّيان رِضْوَان بن وَلَحْشَى والعادل بن السُّلَار أبعد أهل الذُّمَّة عن شُغْل المناصب الهامة^١. ويعرض لنا كتاب «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية» المنسوب إلى ساويرس بن المُقَفِّع وكتاب «كنائس وأديرة مصر» المنسوب إلى أبى صالح الأزمنى حياة الأقباط وعلاقتهم بالدولة^٢.

وتقدِّم لنا كذلك أوراق جنيزة القاهرة Cairo Ceniza Douments صورةً مُفَصَّلَةً عن المجتمع اليهودى فى مصر وفى حوض البحر المتوسط ونشاطه الاقتصادى وعلاقاته الاجتماعية والأسرية وحياته اليومية والمعيشية^٣. وتوضِّح لنا هذه الأوراق كذلك التَّسامح الذى كان سائدًا فى مصر الفاطمية، وأن مدن مصر لم تعرف الـ Ghetto الدينى أو الحيزى على الإطلاق وأن اليهود والأقباط كانوا يعيشون جنبًا إلى جنب مع المسلمين فى المُستطاط وغيرها من أقاليم ومدن مصر المختلفة^٤.

^١ انظر فيما سبق ص ٢٦٥.

^٢ انظر ثبت المصادر والمراجع.

^٣ راجع بصفة خاصة Mann, J., *The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs*, I-II, Oxford 1920; Fischel, W. J., *Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Islam*, NY 1969, pp. 45-89; Golb, N., «The Topography of the Jews of Medieval Egypt», *JNES* 24 (1967), pp. 251-270 32 (1974) pp. 116-149; Stern, S.M. «A Petition of the Fatimid Caliph al Mustansir concerning a Conflict Within the Jewish Community» *REJ* 138 (1969), pp. 203-215; Goitein, S.D., *A Mediterranean Society-the Jews Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza I-V*, Berkeley-Los Angeles 1967-1989; Cohen, M. R., *Jewish Self-Government in Medieval Egypt- The Origins of the Office of Head of The Jews*, Ca 1065-1126, Princeton 1980. وانظر كذلك مارك كوهن: المجتمع اليهودى فى مصر الإسلامية فى العصور الوسطى، جامعة تل أبيب ١٩٨٧؛ قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى، القاهرة-دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٧، والمراجع المذكورة فى الهامش رقم ٤. صفحة ٥٥٤.

^٤ Goitein, S. D., *Mediterranean Trade in the Eleventh Century*. p. 52., id., *Studies in Islamic History*, pp. 247, 255, 260; id., *A Med. Society I*, 71-37, IV, 12, 46.



كانت الفوارق بين الطبقات في هذه الفترة كبيرة جداً حيث جَمَعَ الوزراء وكبار الموظفين الإداريين ثروات ضخمة ، فقد كانت الرواتب لا تُدْفَع فقط إلى الوزراء بل إلى أبنائهم وحتى القُصَر منهم ، وذلك إضافةً إلى الإقطاعات التي كانت تُمنَح إليهم . وجاء هؤلاء ومعهم ضامنو الضرائب على قمة الهرم السياسي والاجتماعي للدولة . وفي الحقيقة فإن هاتين الطبقتين (الوزراء وكبار رجال الدولة - ضامنو الضرائب) لا توجد بينها فروقٌ ، فالأشخاص الذين ضَمَنُوا الضرائب شغلوا أيضاً المناصب العليا في الإدارة ، ورغم أن المكانة الاقتصادية والاجتماعية لهاتين الطبقتين كانت عالية وتمثلان الثراء والقوة ، إلا أنها كانت من ناحية أخرى قليلة العدد كما أن وضعها كان محفوفاً بالمخاطر . فطالما بقي الموظف في منصبه توفرت لديه إمكانية الحصول على الثروة أو زيادتها ؛ ولكنه عندما كان يفقد منصبه أو يتعرض للمصادرة كان يفقد جزءاً كبيراً من أملاكه . فواقع الأمر لم تكن الثروة هي التي تُمنَح الشخص قوةً بل كان المنصب هو الذي يزيده ثراءً .

أما البرجوازية المتوسطة والصغيرة فكانت مكبوتة من الطبقة الحاكمة ، كما وُجِدَت فروقٌ كبيرةٌ بين هذه الطبقات نفسها . فالشرائح العليا منها كانت تتكوّن من التجار وأصحاب الصناعات والحرف إلى جانب مُلّاك الأراضي ، وشكّل التجار الأثرياء طبقة صغيرة اشتغل معظمها بالتجارة بالسِّلَع الكمالية التي كانت تمتاز بحجمها المحدود^١ .

ورغم أن الحركة الإسماعيلية تَبَيَّنَت في بدايتها قضية إعادة بناء العدالة الاجتماعية ، فإن الدولة الفاطمية في مصر لم تسع إلى تطبيق ذلك ، مثلما فعل القرامطة على سبيل المثال في جنوب العراق والبحرين .

ومن خلال المعطيات التي تمدنا بها المصادر المعاصرة يمكننا عمل جدول يُوضّح لنا الفارق الكبير بين الرّواتب المدفوعة للطبقات المختلفة اعتبارًا من القرن السادس الهجرى/ الثاني عشر الميلادى .

الوزير كان راتبه ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) دينار فى الشهر، وكان أولاد الوزير وإخوته يتقاضون راتبًا شهريًا يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ (مائتين وثلاثمائة) دينار، واستثنى من ذلك شجاع بن الوزير شاور المنعوت بالكامل الذى يتقاضى ٥٠٠ (خمسمائة) دينار وذلك خارجًا عن الإقطاعات .

أما حواشى الخليفة الذين يأتى على رأسهم « الأستاذون المحنكون » ومنهم : زمام القصر، وصاحب بيت المال، وصاحب الرسالة، وصاحب الدفتر، وشاد التاج، وزمام الأشراف الأقارب، وصاحب المجلس فكان راتب كل منهم ١٠٠ (مائة) دينار فى الشهر، ومن دونهم كان ينقص بمقدار ١٠ (عشرة) دنانير حتى أقلهم الذى يتقاضى ١٠ (عشرة) دنانير .

وكان طبيب الخليفة الخاص يتقاضى راتبًا شهريًا قدره ٥٠ (خمسین) دينارًا، أما الأطباء المقيمون فكان كل منهم يتقاضى عشرة دنانير .

وفيما يخص رجال الديوان كان كاتب الدشت الشريف يتقاضى ١٥٠ (مائة وخمسين) دينارًا، وكل واحد من كتابه يتقاضى ٣٠ (ثلاثين) دينارًا فى الشهر، ومتولّى ديوان النظر يتقاضى ٧٠ (سبعين) دينارًا، ومتولّى ديوان التحقيق يتقاضى ٥٠ (خمسين) دينارًا، ومتولّى ديوان المجلس يتقاضى ٤٠ (أربعين) دينارًا وصاحب دفتر المجلس يتقاضى ٣٥ (خمسة وثلاثين) دينارًا بينما كان كاتبه يتقاضى فقط ٥ (خمسة) دنانير وكان صاحب ديوان الجيش يتقاضى ٤٠ (أربعين) دينارًا، والموقع بالقلم الجليل كان يتقاضى ٣٠ (ثلاثين) دينارًا، أما أصحاب الدواوين الجارى فيها المعاملات فكان كل منهم

يتقاضى ٢٠ (عشرين) دينارًا، وكل معين من معينهم يتقاضى حسب رتبته بين ١٠ (عشرة) و ٥٠ (خمسة) دنانير.

وكان متولّى مجالسة الخليفة والخدمة الدقيقة فى المظالم يتقاضى ١٠٠ (مائة) دينار، وصاحب الباب يتقاضى ١٢٠ (مائة وعشرين) دينارًا، وحامل السيف وحامل الرمح كل منهما يتقاضى ٧٠ (سبعين) دينارًا أما بقية الأئمة فكان كل منهم يتقاضى تبعًا لمرتبه بين ٥٠ (خمسين) و ٣٠ (ثلاثين) دينارًا.

أما قاضى القضاة وداعى الدعاة فكان كل منهما يتقاضى راتبًا شهريًا ١٠٠ (مائة) دينار، وقراء الحضرة والشعراء يتقاضى كل منهم تبعًا لرتبتهم بين ٢٠ (عشرين) دينارًا و ١٠ (عشرة) دنانير.

وكان راتب كل من والى القاهرة ووالى الفسطاط ٥٠ (خمسين) دينارًا، أما حماة الأحرار والمناخات والجوالى والبساتين والأملاك فكان راتبهم يتراوح بين ٢٠ (عشرين) دينارًا و ٥ (خمسة) دنانير، وكان كل من صاحب المائدة وحامى المطابخ (وهم من فراشى القصر) يتقاضى ٣٠ (ثلاثين) دينارًا، كما أن الرشاخين وعددهم نحو ٣٠٠ (ثلاثمائة) رجل كان كل منهم يتقاضى ما بين عشرة وخمسة دنانير، أما صبيان الركاب وعددهم ألفا رجل فكان كل منهم يتقاضى ٥٠ (خمسين) دينارًا^١.

تَرْفُ الحِياة الاجتماعية

اُتِّسَمَت الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى بمظاهر العظْمَة والأُبْهَة التى لم تقتصر فقط على الخلفاء بل تعدَّتْهم إلى الوزراء وكبار رجال الدولة. كذلك فقد امتازت

^١ ابن الطوير: نزعة ألقنتين ٨٣-٨٥؛ ابن الفرات: تاريخ ١/٤: ١٤٣-١٤٥؛ القلقشندى: صبح الأعشى ٣:

٤٩١، ٥٢١: ٥٢٣؛ المقرئى: الخطط ١/ ٤٠١-٤٠٢، واماظ الحنفا ٣: ٣٣٩-٣٤٢.

احتفالات الفاطميين المختلفة بالبَذخ والزُوعة، وشهدت العديد من الأنشطة (ج). سِماط) التي كان يُقدّم فيها الكثير من أنواع الأطعمة والحلوى التي وفّروا لها المقادير الكبيرة من الدقيق والسكر اللازمة لصناعتها. وكانت هذه الاحتفالات أيضًا مناسبة لتفريق الخِلق والكُشوات على رجال الدولة والتي كانت تُصنّع في دور الطراز العامة ودار الديباج، وقد وصّف لنا تفصيل هذه الاحتفالات وصفاً حيّاً مؤرّخون من أمثال ابن المأمون وابن الطُّونر وأكدها شهود عيان مثل ناصر نُحشرو وعُليوم رئيس أساقفة صور Guillaume de Tyr.

وأنشأ الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم العديد من « المناظر » (ج. منظر) كانوا ينتقلون إليها في ضواحي القاهرة والفُسطاط للاسترواح والاستجمام وخاصة أيام زيادة النيل التي كان ينتقل فيها الخليفة، وعلى الأخص ابتداء من عصر الخليفة الأمر، إلى منظره اللؤلؤة على الخليج^١. وكان الناس يوم ركوبه يخرجون من القاهرة ومصر بمعايشهم ويجلسون للنظر إليه فيكون كيوم العيد، وكانوا يصنعون أخشاباً متراكبة بعضها على بعض يجلسون فوقها للتفرّج يوم كُشر الخليج، لذلك فقد أمر الخليفة الأمر بأحكام الله - الذي استعاد هذه الرسوم التي انقطعت منذ استيلاء الوزير الأفضّل على الدولة - في سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م ببناء دار واسعة ليتفرّج الناس فيها عند كُشر الخليج بالكراء^٢.

وفيدنا كذلك نصّ أورده المقرّبي في حوادث سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م أنه وجدت في العصر الفاطمي دورٌ مختصة بالأفراح تؤجّر لهذا الغرض وأن الوالي أخذ الحجة على مثلك مثل هذه الدور بأن يزيلوا التطرّق إليها حتى لا يُطلّع أحدٌ على النساء أثناء الغُرس^٣.

^١ ابن المأمون: أخبار ٥٦، ٩٨-١٠٠، المقرّبي: الخطوط ١: ٤٦٨، ٤٧٠.

^٢ ابن ميسر: أخبار مصر ٩٧، المقرّبي: اتعاظ ٣: ١٠٧.

^٣ المقرّبي: اتعاظ ٣: ١٠٠.

الأعياد والاحتفالات زَمَن الفاطميين

يحتفل المسلمون طوال العام بعيدَي الفِطْرِ والأَضْحَى ، وهما العידان اللذان يحتفل بهما المسلمون في كل مكان . وإلى جانب هذين العيدين كانت العادة في مصر الفاطمية أن يُحتفل كذلك بـ «رأس السنة الهجرية» (أول المحرم) ، باحتفال ليلي يستمر إلى اليوم التالي «أول العام» ، و «مولد النبي» (١٢ ربيع الأول) ، و «قافلة الحج» ، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك الاحتفال بـ «ليالي الوقود الأربع» (ليلة مستهل رجب وليلة نصفه ، ليلة مستهل شعبان وليلة نصفه) . وأخيراً ، فإن «صوم رمضان» كانت تصحبه بعض الرسوم في البلاط الفاطمي خاصة وقت «إفطار» و «شحور» الخليفة^١ .

أما إحياء ذكرى المناسبات الشيعية فقد كانت عديدة على رأسها : «حُزْن عاشوراء» (١٠ محرم) حيث يُمدّ فيه سِمَاطٌ يعرف بـ «سِمَاط الحُزْن» ، وكذلك «مَوْلِد الحُسَيْن» (٥ ربيع الأول) و «مَوْلِد الشَّيْدة فاطمة» (٢٠ جمادى الآخرة) ، و «مَوْلِد الإمام على» (١٣ رجب) و «مَوْلِد الحسن» (١٥ رمضان) و «مَوْلِد الإمام الحاضر» ويُطلق على هذه الموالد الخمسة الأخيرة بالإضافة إلى «المولد النبوي» : «المَوَالِد الستة» أما آخر هذه الاحتفالات الشيعية فـ «عيد غدير خُصَم» (١٨ ذى الحجة)^٢ .

وكعادة سابقيهم كان الفاطميون يحتفلون بأعياد النيل حيث كان «كشْرُ الخليج» و «تَخْلِيْق المِقْيَاس» مناسبة لخروج الجماهير للاستمتاع بمنظر النيل ومشاهدة الخليفة وهو ينظر هذا الاحتفال . ويدخل في هذا النوع من الاحتفالات رأس السنة القبطية أو «التَّوْزُوز» (أول توت) الذي يتوافق قدومه مع أقصى ارتفاع للفيضان .

^١ ابن المأمون : أخبار ٨٢-٨٣ ، الخطط ١ : ٤٩١-٤٩٢ .

^٢ ابن المأمون : أخبار ٦٢ ، ابن الطوير : نزعة ٢١٧ ، المقرئ : المقفى ٦ : ٤٨٤ ، Wiet , G ., *CIA Egypte II* , ٤٨٤ : pp. 176-177 , Fu'âd Sayyid , . A., *op.cit.* , pp 486-92 .

كذلك فقد كان الخلفاء الفاطميون يُعززون بحضورهم قيمة الاحتفالات الشعبية التي كانت تُصحبُ بعض الأعياد القبطية مثل : « الميلاد » و « الفطاس » و « الفِضْح » و « خميس العهد » الذي كان مناسبة تُضرب فيها الحكومة الفاطمية قطعاً ذهبية صغيرة تُسمى « خرايب الذهب » كل ألف دينار يعادل عشرين ألف خروبة تفرّق على أربابها^١.

ميزانية الاحفالات الفاطمية

وبالطبع فإن كل هذه الاحتفالات لم تكن تمر دون إرهاق ميزانية الدولة الفاطمية . فبمطالعة « الاستيثار » أو « الروزنامج » الذي يتضمّن ما أُتفقَ عَيْتًا من بيت المال في مُدَّة أوّلها محرم سنة ٥١٧هـ وآخرها سلخ ذى الحجة منها (أول مارس ١١٢٣ - ١٨ فبراير ١١٢٤م) ، والذي حفظه لنا ابن المأمون في تاريخه ، نستطيع أن نلاحظ حجم المبالغ المنصرفة في هذا العام بعد خمسة عشر شهرًا فقط من تولّى المأمون الوزارة . فقد بلغ حُجْم المنصرف عَيْتًا « أربعمائة ألف وسبعة وستين ألفًا ومائة وأربعين دينارًا ونصف » (٤٦٨,٧٩٧) وفي حقيقة الأمر فقد وُفّر من أبواب هذه الاستيثار ٩٨,٣٩٧ دينارًا حملت إلى الصناديق الخاص برسم المهمات العسكرية الاستثنائية .

أما القسم الثاني من هذا الروزنامج فقد بلغ مائتي ألف دينار خُصّصت لـ «لديوان المأموني» الذي ابتلع بذلك أكثر من رُبُع مجموع نفقات الدولة وهو يتضمّن مصروفات الوزير وإخوته وأولاده بالإضافة إلى ما يُخَمَل مشاهرةً إلى موظفي الدولة^٢.

^١ ابن المأمون : أخبار ٩٥ : المقرئ : الخطوط ١ : ٤٥ ، المقي ٦ : ٤٩٥ « Monnaies islamiques » Balog , P. , Espéronnier , M. , rares fatimites et ayyubites , BIE XXXVI (1953-54) , pp . 328-329 « Les fêtes civiles et les cérémonies d'origine antique sous les Fatimides d'Egypte » , Der Islam (1988) , pp , 46-59 وكذلك دراسة عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي - دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة ١٩٨٥ .

^٢ نفسه ٧٠ - ٧١ : الخطوط ١ : ٣٩٩ ، المقي ٦ : ٤٩٨ ، Fu'ad Sayyid , A. , Wiet , G. , op.cit, p. 181 ; op.,cit., pp. 490-91 ، قارن ذلك بالاستيثار المعمول في زمن الوزير الجايزوري في منتصف القرن الخامس (الخطوط ١ : ٨٢ ، ٩٩) .

وفى الوقت نفسه فإننا نعلم كذلك المتفق فى مطابخ وأشجطة الخليفة الأمر، فقد كان يُذبح له فى كل شهر خمسة آلاف رأس من الضأن ثَمَنُ الرأس ثلاثة دنانير، غير ما يذبح من الأنواع الأخرى^١. ومن جهة أخرى يذكر لنا ابن المأمون أن عدد ما ذُبِحَ فى عيد الثَّخَر وعيد العَدِير سنة ٥١٥هـ/فبراير سنة ١١٢٢م بَلَغَ ألفين وخمسمائة واحدًا وستين رأسًا تفصيله، نوق: مائة وسبعة عشر رأسًا، بقر: أربعة وعشرون رأسًا وهو عدد ما كان يذبحه الخليفة يده فى المَصَلَّى والمَثَخَر وباب السَّاباط. بينما كان الجزَّارون يذبحون ألفين وأربعمائة رأس من الكباش^٢.

وهذا بالطبع غير ميزانية الكُشُوات والخِلَع التى كانت تُوزَّع فى المناسبات المختلفة، وكذلك ميزانية دار الفِطْرَة والأشجطة التى كانت تُمدُّ فى الاحتفالات الدينية والمدنية.

الخِلَع والتَّشَارِيف

هى الملابس ذات القيمة والتى يُطَلَّق عليها حُلَّة (ج. حُلَل) وبَدَلَة (ج. بدلات) والتى يمنحها الحكام إلى رعاياهم الذين يودون مكافأتهم أو تشريفهم^٣. والخِلَعَة فى اللغة هى ما يُخْلَع على الإنسان من الثياب^٤.

ففور وصول الخليفة المُعِزِّ لدين الله إلى مصر أمر بعمل دار سَمَّاهَا «دار الكُشُوة»، كان يُفَصَّل فيها جميع أنواع الثياب ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كُشُوة الشتاء والصيف من العمامة إلى السراويل وما دون ذلك من الملابس، وبلغ مقدار ما أنتجته هذه الدار فى أحد الأعوام أكثر من ستمائة ألف دينار^٥.

^١ المقرئى: اتماظ ٣: ١٣١.

^٢ ابن المأمون: أخبار ٢٥: المقرئى: الخطط ١: ٤٣٦ وقارن ذلك بما ذبحه الخليفة سنة ٥١٦ (ابن المأمون ٤١-٤٢،

الخطط ١: ٤٣٦).

^٣ انظر Stilman, N.A., *El art. Khil'a V*, pp. 6-7.

^٤ الزبيدى: تاج العروس، القاهرة ١٢٨٦هـ، ٥: ٣٢٢.

^٥ المقرئى: الخطط ١: ٤٠٩.

وبالإضافة إلى دار الكُشوة أنشأ الفاطميون دورًا للطراز، وهى مصانع للنسيج تشرف عليها الحكومة تميز منها نوعين: طراز الخاصة وكان لا يشتغل إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته، وطراز العامة الذى كان يشتغل لحساب رجال البلاط وما يخلعه الخليفة على كبار رجال الدولة وأفراد الشعب^١.

وأوفى مصدرين يحدثنا عن تفریق الكُشوات والخِلاعة وأنواعها والتشريف فى العصر الفاطمى هما: « تاريخ المُستبحى » بالنسبة لبداية عصر الفاطميين، و « تاريخ ابن المأمون » فيما يخص الفترة التى تولّى فيها والده المأمون البطائحي الوزارة للخليفة الأمر (٥١٥-٥١٩هـ). فيمدنا هذان المؤرخان بمعلومات غنية عن أنواع الملابس والعمائم والخِلاعة، سواء التى كان يرتديها الخليفة أو التى كان يخلعها على وزرائه وخاصته وكبار رجال الدولة، وكذلك قيمتها فيذكر ابن المأمون أن كاتب الدُفتر - وهو أحد موظفى ديوان المجلس - كان يعد قبل بداية الشتاء ما يُطلق عليه « جرائد كُشوة الشتاء »، وقد بلغ ما اشتمل عليه المنفق فيها سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م - أى فى بداية وزارة المأمون البطائحي - من الأصناف أربعة عشر ألفًا وثلاثمائة وخمسة قطع (١٤,٣٠٥)، بينما لم يتعد أكثر ما أنفق فيها فى أيام سلفه الوزير الأفضّل شاهنشاه، على طولها، ثمانية آلاف وسبعمائة وخمسة وستين قطعة (٨,٧٦٥) صُرفَت فى عام ٥١٣هـ/١١١٩م^٢. ولا شك أن كاتب الدُفتر كان يُعدّ جرائد مماثلة قبل حلول موسم الصيف.

وكانت المواسم التى تُوزّع فيها الخِلاعة والكُشوات، كما يذكر ابن المأمون، هى عيد الفِطر وعيد النحر، وهى الموسم الكبير ويطلق عليها لذلك « عيد الحُلل » لأن الحُلل تعم فيها الجميع بينما تُوزّع فى غيرها على الأعيان والخاصة^٣، ويوم فتح الخليج ويوم

^١ انظر فيما سبق صفحة ٤٧٤-٤٧٥.

^٢ ابن المأمون: أخبار مصر ٤٨، ٥٥.

^٣ نفسه ٣٨، ٤٨.

التَّوَرُّوز^١. أما الكُشُوة المختصة بِغُرَّة شهر رمضان وجمعيته والمعروفة باللباس الجُمُعي ، فيبدو أنها كانت للخليفة فقط بهذه المناسبة ، وكانت في عام ٤١٥هـ/١٠٢٣م مكونة من طَيْلَسَان شَرَب مُفْقُوط وعمامة قَصَب يياض مذهبة وثياب ذِيْقِي يياض للجمعة الأولى من رمضان^٢ ، ورداء يياض مُخَشَّى قصبًا وذهبًا يياض ذِيْقِي وثوب مُضْمَط أبيض وعمامة مذهبة للجمعة الثانية^٣. أما في عام ٥١٦هـ/١١٢٢م ، في عهد الخليفة الأمر ، فكانت بَذْلَة كبيرة موكبية مكملّة مذهبة لُغُرَّة رمضان ، وبَذْلَة موكبية حريري مكملّة منديلها وطيلسانها يياض برسم صلاة الجمعة الأولى بالجامع الأزهر^٤. وبَذْلَة منديلها وطيلسانها شعري برسم صلاة الجمعة الثانية^٥ ، وكان لإخوة الخليفة والوزير يصرف لهم كذلك خِلَع في غُرَّة رمضان وجمعيته .

كانت خِزَانَةُ الكُشُوة تستقبل ما تنتجه دور الطَّراز وكانت تتألف من قسمين : الخِزَانَةُ الباطنة التي يُخَفِّظُ بها ملابس الخليفة ويتولَّى أمرها امرأة تعرف أَبْدَا بـ « زَيْن الخِزَان » يعاونها ثلاثون جارية ، والخِزَانَةُ الظَّاهرة التي تُفَصِّلُ فيها الثياب حسب ما تدعو إليه الحاجة ، ومنها كانت تُوزَّع الخِلَع التي يخلعها الخليفة على الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وضيوفها^٦.

وكان الذي يستلم ما يختص بالخليفة في العيدين « مُقَدِّم خِزَانَةُ الكُشُوة الخاص » ، وهي بَذْلَة خاصة جلييلة مذهبة برسم الموكب ، ونصف بَذْلَة برسم المجلس على السَّمَط بالإضافة إلى البَذْلَة الحمراء التي كان يرتديها الخليفة عند دخوله المُتَحَرِّ في عيد التَّحَرُّ^٧.

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٢٤ ، ٢٥ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٧٤ .

^٢ المسيحي : أخبار مصر ٦٢ .

^٣ نفسه ٦٤ .

^٤ ابن المأمون : أخبار ٥٤ - ٥٥ .

^٥ نفسه ٨١ - ٨٢ .

^٦ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٢٨ - ١٢٩ المقرئ : الخطط ١ : ٤٦٣ .

^٧ ابن المأمون : أخبار ٤٨ ، ٤٩ .

وكان الخليفة يلبس فى الأعياد والمواسم المنديل (العمامة) بالشدة العربية المعروفة بـ « شدة الوقار » (وكان لشدة ترتيب خاص لا يعرفه كل أحد ، يتولاه أحد الأستاذين المحنكين ، يأتى بها فى هيئة مستطيلة ، ويكون المنديل من لون ثياب الخليفة) ^١ ، أما فى غير هذه المناسبات فكان الخليفة يرتدى « منديلاً بالشدة الدانية » غير العربية ^٢.

وفى موسم فتح الخليج كان يصل إلى خزانة الكسوة بدلتان إحداها مندليها وطيلسانها طميم يرتديها عند ذهابه لفتح الخليج ، والأخرى جميعها من الحرير يرتديها عند رجوعه إلى القصر ^٣.

وكان يُصنع بدار الطراز ثوب خاص للخليفة يقال له « البدنة » ، لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين ، ويُنسج باقيه من الذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار ^٤ ، يرتديه فقط يوم ركوب فتح الخليج .

وكانت الخياع توزع على إخوة الخليفة وأبناء وبنات عمومته وللوزير والأمراء المطوقين والأستاذين المحنكين والمتعيرين وكاتب الدشت ومتولّى حجابة الباب وكبراء الدولة وشيوخها . وقد بلغت كسوة عيد الفطر فى سنة ١٢١٥هـ / ١١٢١م مائة قطعة وسبع قطع (١٠٧) ^٥.

وعندما كان يتولّى أحد كبار الموظفين وظيفة جديدة كان الخليفة يخلع عليه ، فعندما قلّد سنى الدولة حمّد بن أخى التاهرتى جميع سيارات أشفل الأرض فى ٢٣ رجب سنة ١٤١٥هـ / سبتمبر سنة ١٠٢٤م خلّع عليه الخليفة الظاهر « عمامة صغرى

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٤١ ، ٧٥ .

^٢ نفسه ٧٩ .

^٣ نفسه ٥٥ .

^٤ ابن الطوير : نزعة المقلتين ١٠٣ ، ١٢٤ ، ١٩٨ ، المقرئى : الخطط ١ : ١٧٧ .

^٥ ابن المأمون : أخبار ٢٥ ، ٤٨ ، ٤٩ .

مذهبة وثوب طميم»^١. وخلق على دؤاس بن يعقوب الكتامي «ثوب مثقل وعمامة» عندما قُلد الحشبة والأسواق والسواحل في رجب سنة ٤١٤هـ/أكتوبر سنة ١٠٢٣م^٢. وبمناسبة وفاء النيل سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م، خلَعَ الخليفة على ابن أبي الرداد، متولّي المقياس، «خلعًا ديقية مذهب ورداء مُحشَى مذهب وعمامة شَرَب مذهب»^٣، كما خلَعَ الخليفة كذلك على أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الرّسى نقيب نقباء الطالبين في جمادى الأولى سنة ٤١٤هـ/أغسطس سنة ١٠٢٣ «ثوبًا ديقيًا مذهبًا مصفًا بأطواق عراض ومن تحته ثوب مصمت مذهب وغلالة مذهب وكذلك عمامة شَرَب مذهب»^٤. كما كانت الخَلَع تخلع كذلك على الرُّثل والأجانب الذين يزورون العاصمة^٥.

ويُقَدِّم لنا أبو شامة المقدسى - فى أغلب الظن نقلاً عن المؤرخ الشيعى يحيى بن أبى طى - وصفًا للخلعة الوزارة التى خلّعها الخليفة العاضد - آخر الخلفاء الفاطميين - على وزيره الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وهى: «عمامة بيضاء تَنسَى بطرز ذهب وثوب ديقى بطراز ذهب، وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب، وطيلسان ديقى بطراز ديق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار، وقدر حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها، وطوق، وتخت وسرفسار ذهب مجوهر، وفى رقبة الحجر مشدّة بيضاء، وفى رأسها مائة حبة جوهر، وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر، وقصبة ذهب فى رأسها طالعة مجوهره وفى رأسها مشدّة بيضاء بأعلام ذهب، ومع

^١ المسبحى: أخبار ٥٠.

^٢ نفسه ١٤.

^٣ نفسه ٤٧.

^٤ نفسه ٦، وانظر كذلك المسبحى: أخبار ٣، ١٧، ٣٢، ٤٧، ٦٣، ٨٣.

^٥ نفسه ٣، ٥٤. وانظر عن صناعة النسيج فيما سبق ص ٤٧٣-٤٨١.

الخليفة عِدَّة بُقْج وعدة من الخيل، وأشياء أخر ومُنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض^١.

الأنشطة

السَّمَاط (ج. أنشطة وسماطات) هو ما يُمَدُّ من الطعام^٢. وقد تعددت الأنشطة الرسمية التي كانت يحضرها الخليفة بنفسه في العصر الفاطمي، وكان السَّمَاط يُمَدُّ في قاعة الذهب من القصر الفاطمي الشرقي وذلك في ليالي رمضان وفي العيدين وفي ليالي الوقود الأربعة والمولد الأربعة: النبوي والعلوي والفاطمي والإمام الحاضر^٣، بالإضافة إلى سَمَاط الحُزْن الذي كان يُمَدُّ في يوم عاشوراء في المشهد الحسيني لا في قاعة الذهب^٤.

وكانت الأطعمة التي تُقدَّم في هذه الأنشطة تُعَمَّل في موضعين: اللحوم وما شاكلها في «مَطْبَخ القصر» الذي كان في موضع الصَّاعَة في مواجهة باب الزُّهومة وكان يخرج منه مدة شهر رمضان ١٢٠٠ قدرة يومياً تُفَرَّق على أبواب الرسوم والضعفاء والفقراء^٥، والحلوى والكعك بـ «دار الفِطْرَة» وكانت قبالة المشهد الحسيني وأول من رَتَّبها الخليفة العزيز، ونقلت إلى هذا الموضع في أيام المأمون البطائحي والخليفة الأمر^٦، ويُقدَّم لنا المُسَبَّحِي وابن المأمون مرة أخرى بالإضافة إلى ابن الطُّونَر معلومات غنية عن ما كان يُقدَّم في هذه الأنشطة من أنواع المأكَل وتكلفتها.

^١ أبو شامة: الروضتين ١: ٤٣٩.

^٢ الزبيدي: تاج العروس ٥: ١٥٩.

^٣ ابن المأمون: أخبار ٦٦٢؛ ابن الطوير: نزعة ٢١٧.

^٤ ابن الطوير: نزعة ٢٢٤، المقرئ: الخطط ١: ٤٣١.

^٥ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٥٨-٥٩؛ المقرئ: مسودة المواعظ والاعتبار ٢٤١، Fu'ād Sayyid, A.,

. op.cit., pp. 237-39.

^٦ نفسه ٢٦-٢٨؛ نفسه ١٧٢؛ Ibid., p. 287.

ففى بداية العصر الفاطمى كان سِمَاطُ عِيدِ الْفِطْرِ والتَّخْرِ يُحْمَلُ قبل يوم العيد يوم ويحتفل بذلك بأن يشق به الشارع الأعظم وحوله المجانية وأفراس الخيال والسودان والطَّيَالُون ويجتمع الناس فى الشوارع لمشاهدته^١. وكان يشتمل على التماثيل والترازين وقصور السكر، وبلغ عدد قطعه فى عِيدِ الْفِطْرِ والتَّخْرِ عام ٤١٥هـ/١٠٢٥م مائة واثنين وخمسين قطعة من التماثيل وسبعة قصور سكر كبار^٢. ويذكر المُسَبِّحُ أنه نتيجة لأزمة عام ٤١٥هـ/١٠٢٥م كَبِسَ العامة القصر يوم عيد التَّخْرِ صائحين: الجوع الجوع، نحن أحق بِسِمَاطِ مولانا، ولم يبالوا بضرب الصُّقَالِبة لهم وتهافتوا على الطعام وَضَرَبَ بعضهم بعضًا ونهبوا جميع ما أصلح من الأخباز والأشوية والحلوى ونهبوا القِصَاع والطِيفِير (ج. طَيْفُور) والزُّبْدِيَّات (ج. زُبْدِيَّة)^٣.

وذكر ناصر خُشْرُو - أثناء زيارته للقاهرة - أن الخليفة الفاطمى كان يقيم مأدبةً فى كل من العيدين (عيد الْفِطْرِ وعيد التَّخْرِ)، ويأذن بالاستقبال فى قصره للخواص والعوام. وأن مأددة الخواص تُنْصَب بحضرة الخليفة بينما تُنْصَب مأددة العوام فى سرايات أخرى. وقد رغب ناصر خُشْرُو أن يرى هذه المائدة وأسرَّ بذلك إلى أحد كُتَّاب الخليفة الذى تَوَطَّأَتْ صداقته به، فنقل رغبته إلى «صاحب السُّرَر» الذى سمح له بالذهاب فى آخر رمضان سنة ٤٤٠هـ/٧ مارس سنة ١٠٤٩م وكان المجلس قد أُعِدَّ لليوم الثانى وهو يوم العيد الذى يحضر فيه الخليفة ويجلس فى صدر المائدة، ولكن ناصر خُشْرُو لم يُقَدِّم لنا وصفًا للسِمَاط وإنما وَصَفًا لقاعة الذهب التى كان ينصب فيها السِمَاط^٤.

^١ المسبِّح: أخبار ٦٥، ٧٩.

^٢ نفسه ٦٥، ٧٩.

^٣ نفسه ٨٢.

^٤ ناصر خُشْرُو: سفرنامة ١٠٧.

وقبل كل موسم كبير كان « متولّى المائدة » يُخضّر مطالعةً يستدعى بها ما جرت به العادة في هذا الموسم من الحيوان والضأن والبقر وغيره^١.

ويصف لنا ابن الطُّوَيِّر السَّمَاط الذى كان يُمدّد في شهر رمضان كل ليلة بقاعة الذهب ابتداءً من اليوم الرابع من الشهر وحتى اليوم السادس والعشرين منه ، وكان يُدعى إليه الأمراء نوبة نوبة بمسطور يخرج إليهم . أما قاضى القضاة فكان يُستدعى له فى ليالى الجُمُع فقط توقيرًا له . وكان السَّمَاط يُنشط فى طول القاعة من أوّل الرّواق إلى ثلثى القاعة ، والفَرّاشون قيام لخدمة الحاضرين ، وكانت تُقدّم فيه أفخر أنواع المأكولات والأغذية . وبلغ ما يُنفق فى شهر رمضان على سِمَاطه مدة سبعة وعشرين يومًا ثلاثة آلاف دينار^٢.

أما سِمَاط العيدين فهو سِمَاطان فى عيد الفِطْرِ وسِمَاط واحد فى عيد التَّنحر . وكان يوضع على السَّمَاط أوانى الفضة والذهب والصينى وطوله بطول القاعة وعرضه عشرة أذرع . ويوضع فى وسطه واحد وعشرون طبقًا فى كل طبق واحد وعشرون خروفاً ، ومن الدجاج ثلاثمائة وخمسون طائرًا ، ومن الفراريج مثلها وكذلك من الحمام . ويتخلّل هذه الأطباق صحون خزفية فى جنبات السِمَاط يبلغ عددها خمسمائة صحن فى كل صحن تسع دجاجات فى ألوان فاتقة من الحلوى والطّبايخة المُفتّحة بالمِشك . وبعد ذلك يحضر قصران من حلوى عملا بدار الفِطْرة زنة كل واحد سبعة عشر قنطارًا ينصبان فى أوّل السَّمَاط وآخره . ويستمر السَّمَاط إلى قرب الظهر ويتداوله الناس ولا يُرَدُّ عنه أحد حتى يذهب عن آخره^٣.

وفى الموالد الستة ، التى أبطلها الوزير الأفضّل وأعادها الوزير المأمون البطائحي فى سنة ١٢٢٢هـ / ١٨٠٦م ، وهى : مولد النبى ﷺ ، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ،

^١ ابن المأمون : أخبار ٧٤.

^٢ ابن الطوير : نزعة ٢١٢ ، ٧٥ : المقرئى : الخطط ١ : ٣٨٧.

^٣ نفسه ٢١٣-٢١٤ ؛ نفسه ١ : ٣٨٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٤ : ٩٧-٩٨.

ومولد السيدة فاطمة عليها السلام، ومولد الحسن، ومولد الحسين عليهما السلام، ومولد الخليفة الحاضر^١، وكذلك في ليالى الوقود الأربع، كان السَّمَطُ يشتمل على الكمك والحلوى وعلى الأخص الحُشْكَنَاج (وهو نوع من الحلوى المصنوعة من الرقاق على شكل حلقة مجوفة يُملأ وسطها باللوز أو الفُشْتُق) والبُسْتَدود والفانيد، التى كانت تعمل بدار الفِطْرَة وكان يُؤفَّر لها ما يلزم من السكر والعسل واللوز والدقيق والسيرج^٢. ففى «مولد النبى» كان يُعمل فى دار الفِطْرَة عشرون قنطارًا من السكر اليابس حلواء يابسة تعبى فى ثلاثمائة صينية من النحاس تُفَرَّق فى أرباب الرُسوم من أرباب الرُتَب وكل صينية فى قَوَّارة^٣.

وكان يُؤفَّر لدار الفِطْرَة سنويًا ما يلزم لإعداد هذه الحلوى ابتداء من النصف الثانى من شهر رجب من السكر والعسل والقلوب والرَّغفران والطيب والدقيق وذلك لعمل الحُشْكَنَاج والبُسْتَدود وأصناف الفانيد الذى يقال له كُغْب الغزال والبزْمَاوَزْد والمفستق^٤. وكان ما يُنْفَق فى دار الفِطْرَة فيما يُفَرَّق على الناس منها ما قيمته سبعة آلاف دينار^٥. ويذكر ناصر خسرو أن راتب السكر فى اليوم الذى تُنصَّب فيه مائدة السلطان خمسون ألف مَن، وأنه شاهد على المائدة شجرة أعِدَّت للزينة - تشبه شجرة الترنج - كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر، وعليها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضًا^٦.

^١ ابن الطوير: نزهة ٢١٧؛ ابن المأمون: أخبار ٦٢.

^٢ ابن المأمون: أخبار ٣٥، ٣٦، ٦٠، ٦٢، ٦٤.

^٣ ابن الطوير: نزهة ٢١٧. والقَوَّارة جد. قَوَّارات. غطاء من شرب تكون تحت العراضى الديقى تعمل بدار الطراز

للولام ويغنى بها الصوانى (ابن المأمون: أخبار ٧٣).

^٤ ابن الطوير: نزهة ١٤٤؛ المقرئى: الخطط ١: ٤٢٦ (نقلًا عن ابن عبد الظاهر).

^٥ نفسه ١٤٥.

^٦ ناصر خسرو: سفرنامه ١٠٨.

وفى الموالد الستة كان يُغَمَل بدار الفِطْرَة ما يقرب من خمسة قناطير حلوى تُفَرَّق على المتصدرين والقراء والفقراء والمشاهد والمساجد الستة^١. أما عدد الصَّواني التى كانت تُقدَّم على سِماط الخليفة فى هذه المناسبات فكانت ما يقرب من أربعين صينية خُشْكناخج^٢.

ويُقدَّم لنا ابن المأمون تفصيلات غنية عن قيمة ما كان يُصَرَف من مواد لصناعة ما كان يُقدَّم فى هذه الأنشطة^٣. ويكفى أن نعلم أن ما كان يُنفقه الوزير المأمون البَطَائِحى على السِّماط الذى كان يمهده فى داره بلغ ١٣٢٦ ربيع وسدس دينار، وثمانية وأربعين قنطارًا من السكر برسم قصور الحلواء والقطع المنفوخ التى كانت تصنع له بدار الفِطْرَة^٤.

^١ ابن المأمون: أخبار ٣٦، ٦٠ والمساجد الستة هى: الأزهر والأقمر والأنور بالقاهرة والطولونى والعتيق بمصر وجامع

القراقة (نفسه ٦٣).

^٢ نفسه ٣٥، ٦٢، ٦٤.

^٣ نفسه ٩٢-٩٣.

^٤ نفسه ٢٦، ٤٢.

الفصل السادس عشر

التعليم والثقافة

كانت القاهرة طوال العصر الفاطمي هي مركز «الدعوة الإسماعيلية» في العالم الإسلامي. وتركزت هذه «الدعوة» في جامع القاهرة الذي عُرف بالجامع الأزهر، والمحَوَّل في القصر، ودار (الحِكْمَة) العلم مقر داعي الدعاة الفاطمي.

وتُمثِّل الدعوة الإسماعيلية النشاط التبشيري للمذهب الإسماعيلي الذي كان أتباعه يؤمنون بحتمية غَلَبته على كافة الأراضي الإسلامية في نهاية الأمر. وكان هذا المذهب يُدْرَس عن طريق محاضرات عامة ذات صفة رسمية يُطلَق عليها «مجالس الدعوة» أو «مجالس الحِكْمَة»، لم يكن يُسَمَّح بحضورها إلا للمؤمنين أو المستجيبين الذين أخذوا «العَهْد» على داعي الدعاة. وكان هذا «العَهْد» شَرْطًا أساسيًا لحضور هذه المجالس للتعرف على أسرار الدعوة الإسماعيلية أو علم الباطن.

وأوَّل إشارة تقابلنا في المصادر إلى كيفية أَخْذ العَهْد هي «العَهْد» الذي أخذه الداعي أبو الحسين الأهوازي على حَمْدان قَزَمَط عندما أراد الدخول في المذهب الإسماعيلي؛ فبعد أن اغتسل وتَطَهَّر قال له الأهوازي: «أخْذْ عَلَيْكَ عَهْدًا وميثاقًا أخذه الله على النبيين والمرسلين»^١.

ومن أوائل النصوص الإسماعيلية التي تمدنا بمعلومات عن «العَهْد» الذي كان يأخذه الدعاة على المستجيبين كتاب «العالم والغلام» الذي تنسبه المصادر الإسماعيلية إلى منصور اليماني بن حَوْشَب أو إلى ابنه جعفر. والمصدر الإسماعيلي الموثوق الثاني

^١ ابن أبيك الدواداري: كثر الدرر وجامع الفرر ٦ : ٤٥؛ التويري: نهاية الأرب ٢٥ : ١٩٠.

الذى يشتمل على تفاصيل تصف كيفية أخذ «العهد» هو «الرسالة الموجزة الكافية في آداب الدعاة» للداعي أحمد بن إبراهيم (محمد) النيسابورى الذى قام بدور كبير فى الدعوة فى زمن كل من العزيز بالله والحاكم بأمر الله، ووصل إلينا مذكره النيسابورى فى كتاب إسماعيلي متأخر هو كتاب «الأزهار» للبهرجى^١.

ومع ذلك فإنه لم يصل إلينا أى شكل مؤثق للعهد فى أى من الكتب الإسماعيلية الأصلية، وما وصل إلينا جاءنا عن طريق مصادر غير إسماعيلية علينا أن نأخذها ببعض الحذر. وأقدم نصوص هذا النوع ما ذكره الشريف الدمشقى أخو مُحسِن محمد بن على فى رسالته التى كتبها بعد سنة ٣٧٢هـ/٩٨٣م فى إبطال نسب الفاطميين والذى أورد نصه كل من التوئرى والمقرئى^٢. وقد اكتشف فلاديمير إيفانوف أن «العهد» الذى أورده التوئرى نقلًا عن الشريف أخى مُحسِن يتطابق تقريبًا كلمةً كلمةً مع «العهد» الذى يؤديه اليوم الإسماعيلية المستعيلة فى الهند (البهرة) أمام إمامهم كل عام، ويُسمى البهرة هذا العهد «عهد الله» أو «عهد الأولياء» أو فقط «عهد نامة»^٣.

مجالس الحكمة

كان أخذ العهد شرطًا أساسيًا لدخول أى معتقد جديد إلى المذهب الإسماعيلي والتعرف على أسرار المذهب أو علم الباطن المعروفة بـ «الحكمة». وكان تعليم

^١ Halm, H., «The Isma'ili oath of allegiance ('ahd) and the session of wisdom (majālis al-hikma) in Fatimid times» in Daftary, F. (ed.), *Mediaeval Isma'ili History and Thought*, Cambridge 1996, pp. 92-94. ونشر مصطفى غالب كتاب «العالم والغلام» ضمن كتاب أربعة كتب حقايقية فى بيروت-دار

الأندلس ١٩٨٧.

^٢ التوئرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب ٢٥ : ٢١٧-٢٢٠؛ المقرئى: مسودة كتاب المواعظ والاعتبار ١٠٩-

١١١.

^٣ Halm, H., *op.cit.*, p. 98.

«الحكمة» يتم في مجالس يحضرها المعتقد الجديد إما منفردًا كما في كتاب «العالم والغلام» أو مع آخرين.

ولم يكن ينتظم في هذه «المجالس» سوى المعتقدين فقط ولا يُسمح لغيرهم بحضورها، وحتى يمكن السيطرة على ذلك فإنها كانت تُعقد داخل قصر الإمام في مكان مُخصَّص لهذا الغرض سواء في إفريقية أو في القاهرة*.

وفي الدور الإفريقي كان القاضي الثعمان بن حَيَّون يُلقى هذه «المجالس» بعد صلاة العصر يوم الجمعة في أعقاب دروس «الظاهر» العامة التي كانت تُلقى في المسجد وتشتمل على درس في الفقه الإسماعيلي. أما دروس الباطن «المجالس» فلم يكن يلقيها إلا بعد أخذ موافقة الإمام [المنصور بالله ثم المعز لدين الله] عليها، يقول القاضي الثعمان:

«ولما فَتَحَ الْمُعِزُّ لَدَيْنَ اللَّهِ (ص) لِلْمُؤْمِنِينَ بَابَ رَحْمَتِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ فَضْلُهُ وَنِعْمَتِهِ، أَخْرَجَ إِلَيْيْ كُتُبًا مِنْ عِلْمِ الْبَاطِنِ وَأَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَهَا عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ فِي مَجْلِسٍ فِي قَصْرِهِ الْمَعْمُورِ بِطَوِيلِ بَقَائِهِ. فَكَثُرَ ازْدِحَامُ النَّاسِ وَغُصِرَ بِهِمُ الْمَكَانُ، وَخَرَجَ احْتِفَالُهُمْ عَنْ حُدِّ السَّمَاعِ، وَمَلَفُوا الْمَجْلِسَ الَّذِي أَمَرَ بِاجْتِمَاعِهِمْ فِيهِ، وَطَائِفَةٌ مِنْ رَجَبَةِ الْقَصْرِ وَصَارُوا إِلَى حَيْثُ لَا يَنْتَهِي الصَّوْتُ إِلَى آخِرِهِمْ. وَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ (ص) وَوُصِفَ لَهُمْ أَنْ فِيهِمْ مَنْ شَمَلَتْهُ الدَّعْوَةُ أَهْلُ تَخَلُّفٍ وَمَنْ لَا يَكَادُ أَنْ يَفْهَمَ الْقَوْلَ، وَأَنْ مِثْلَ هَؤُلَاءِ لَوْ مُيِّرُوا وَجُعِلَ لَهُمْ مَجْلِسٌ يُقْرَأُ عَلَيْهِمْ فِيهِ مَا يَحْتَمِلُونَ وَيَفْهَمُونَ لَكَانَ أَنْفَعَ لَهُمْ»^١.

^١ راجع عن مجالس الحكمة Stern, S.M., «Cairo as the Centre of the Ismā'ili Movement», *CIHC*, pp. 438-45; Halm, H., *op.cit.*, 101-112; id., *The Fatimids and their traditions of learning*, London 1997, pp. 41-55., Walker, P., «Fatimid Institutions of Learning», *JARCE* 34 (1997), pp. 182-186; Madelung, W., *El² art. Madjlis V*, p. 1029. محمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية، القاهرة ١٩٧٠، ٥٤-٦٢.

^٢ القاضي الثعمان: المجالس والمسائرات ٣٨٦. وانظر أيضًا ٤٣٥، ٤٦٧، ٤٨٧.

وفى أعقاب فتح الفاطميين لمصر لم تطرأ اختلافات أساسية على طريقة التبليغ الدُّعْوَة وعُقد «مجالس الحكمة» التى كان يتولّاها فى الستين عامًا الأولى للحكم الفاطمى فى مصر قاضى القضاة، حيث توارث ستة من أسرة بنى الثُّغمان منصب القضاء فى هذه الفترة، وكان أوّل من أضيفت إليه الدُّعْوَة إلى جانب القضاء منهم هو الحسين بن على بن الثُّغمان سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م^١. وكانت هذه المجالس تُعقد فى أوّل الأمر يومين فى الأسبوع (الخميس والجمعة) فى موضع بالقصر يُعرَف بـ «المُحْوَل» كان يُدْخَل إليه من باب الرِّيح وكان الداعى فى أوقات الاجتماع يُصَلّى بالناس فى رواقه^٢.

وَحَفِظَ لنا المُسَبِّحى، الذى يُقدِّم لنا أكثر المعلومات أصالة عن هذه الفترة التى عاشها بنفسه، نصًّا شَيْقًا حول عُقد «مجالس الحكمة» فى الفترة الفاطمية المبكرة، يقول: إن الداعى كان يعقد خلال يومين فى الأسبوع خمسة مجالس: مَجْلِس للأولياء، ومَجْلِس للخاصة وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم، ومَجْلِس لعوام الناس وللطوائف على البلد، ومَجْلِس للنساء كان يُعقد فى جامع القاهرة الذى عرف بعد ذلك بالجامع الأزهر، ومَجْلِس للحرم وخوارج نساء القصر^٣.

يشتمل هذا النص على العديد من المعلومات الهامة، فهو يفيدنا أنه أصبح فى القاهرة - كما كان من قبل فى إفريقية - مجالس منفصلة للمستجيبين باختلاف طوائفهم؛ ولم تكن هذه المجالس مُخَصَّصَة فقط لقراءة الحكمة وإنما أيضًا لجمع النجوى التى كان يدفعها المستجيبون والمستجيبات عَيْثًا وَوَرَقًا^٤.

^١ Gottheil, R., «A Distinguished Family of Fatimide Cadis (Al-Nu'mân) in the Tenth Century», *JAOS* 27 (1906), pp. 217-296, ابن حجر: رفع الإصر ١: ٢٠٩.

^٢ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة ١٢٧؛ القرئزى: مسودة المواعظ والاعتبار ٨١، الخطط ١: ٣٩٠-٣٩١.

^٣ المسبّحى: نصوص ضائعة ٣٩، القرئزى: الخطط ١: ٣٩١.

^٤ Halm, H., *op.cit.*, p. 103.

ويؤكد هذا النص الهام سجل صادر عن أحد الأئمة (الخلفاء) الفاطميين في العصر الفاطمي الأول إلى داعي الدعاة الذي لم يُحدّد السجل اسمه أيضًا جاء فيه : « وائل مجالس الحكمة التي تخرج إليك من الحضرة على المؤمنين والمؤمنات والمستجيبين والمستجيبات في قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ... واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة (٩) والتجوى والأخماس والقربات وما يجرى هذا المجرى »^١.

ويبدو أن عدد من كان يحضر مجلس عوام الناس والطارئين على البلد كان أكبر من حجم القاعة المخصصة لهذا الغرض ، فعندما تجلس القاضي محمد بن الثّمان في القصر لقراءة علوم آل البيت في ربيع الأول سنة ٣٨٥هـ/يونية سنة ٩٩٥م مات في الرّحام أحد عشر رجلاً فكفّنهم الخليفة العزيز بالله على نفقته^٢.

أما كيفية إعداد هذه المجالس وكتابتها فقد وصفه المُسبّحي أيضًا يقول : إن الداعي « كان يعمل المجالس في داره ثم يُنفذها إلى من يختص بخدمة الدولة ، ويتخذ لهذه المجالس كتبًا يبيضونها بعد عرضها على الخليفة »^٣.

وفي زمن الخليفة الحاكم بأمر الله وفي إطار سياساته المتناقضة طرأ تحوّل كبير على « مجالس الحكمة » ، ومصدرنا في كل ذلك أيضًا المُسبّحي الذي يذكر أن الناس الذين جرت عاداتهم بالحضور إلى القصر لسماع ما يُقرأ عليهم من كتب « مجالس الدّعوة » اجتمعوا في ذى القعدة سنة ٣٩٦هـ/أغسطس سنة ١٠٠٦م ولكنهم صُبرُوا بأجمعهم ولم يُقرأ عليهم شيء^٤.

^١ على خلف : مواد البيان ٥٨٧-٥٨٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ١٠ : ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

^٢ المسبّحي : نصوص ضائعة ١٤ ؛ المقرئى : مسودة المواعظ والاعتبار ٩١ ، والخطوط ١ : ٣٩١ ، ٢ : ٢٢٦ واتماظ

الحنفا ١ : ٢٨٥ .

^٣ المقرئى : الخطوط ١ : ٣٩١ .

^٤ المقرئى : اتماظ الحنفا ٢ : ٦٨ .

وفي سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م قرئ سجل صادر من الحاكم بأمر الله يَقْطَع «مجالس الحكمة» التي كانت تُقرأ على الأولياء يومي الخميس والجمعة، كما قرئ سجل آخر بإبطال ما كان يُؤخذ على أيدي القضاة من الخُمس والفِطْرَة والتَّجْوَى^١. ثم عاد الحاكم في سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م وكتب سِجْلاً أمر فيه بإعادة «مجالس الحكمة» وأخذ التَّجْوَى^٢.

لا شك أن هذه الإجراءات اتَّخَذَهَا الحاكم بأمر الله في أعقاب افتتاحه لدار الحكمة في فترة أراد فيها التَّقَرُّبُ لأهل الشُّنَّة.. ويبدو هذا التردُّد بين المنع والإباحة في نصوص كثيرة، مصدرها دائماً هو المُسَبِّحِي، الذي يذكر أنه عندما اجتمع الأولياء وغيرهم بالقصر يوم الخميس ١٨ رمضان سنة ٤٠٤هـ/٥ مارس سنة ١٠١٤م لسماع ما يقرؤه القاضي من كتب مجالس الحكمة مُنِعُوا من ذلك^٣، ولم يذكر المُسَبِّحِي سبباً لهذا المنع الذي جاء مواكباً لبداية الدعوة الدرزية التي وصلت إلى مصر في هذا الوقت.

ويؤكد لنا هذا الافتراض سجل صادر عن الإمام (الخليفة) الظاهر لإعزاز دين الله بإعادة مجالس الحكمة إلى القصر من جديد، حفظه لنا الداعي عماد الدين إدريس مُؤَوِّجاً في الخامس من شعبان سنة ٤١٧هـ/أكتوبر سنة ١٠٢٦م وَجَّهَهُ إلى جميع أهل دعوته وأمر كل داعٍ من دعائه بتلاوته على المؤمنين في ناحيته. وقد جاء في هذا السَّجَلُ الهام: «وقد كان باب الحكمة مفتوحاً وكثر الرحمة ممنوحاً، وشُرع العلم للطالبيين مباحاً، ومفتاح الرحمة مقبولاً متاحاً، وبحر الحكمة مسجوراً متاحاً إلى أن أمر مولانا الحاكم بأمر الله ع م... بإغلاق بابها لما رآه من المصلحة بحكم مشاهدته الأمور وسياسة الجمهور...».

^١ المقرئى : تماظ ٢ : ٨٢ .

^٢ نفسه ٢ : ٨٥ .

^٣ نفسه ٢ : ١٠٣ .

«... ولما تَجَلَّتِ الغمرة وتولَّتِ الفترة ونَكَصَ الشيطان على عقبه مَثْبُورًا مَذْهُورًا... فأمر داعي الدعاة... قاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان... بفتح باب الحكمة لطالبيها وقراءة المجالس في قصور الخلافة بحيث جرت الرسوم المتقدمة بقراءتها فيها»^١.

وَنَشَرَّ صمويل شتيرن S. Stern رسالة تهنئة وجدها في أوراق جنيزة القاهرة يُوجِّه فيها أحد الدعاة تهنئته إلى قاضي القضاة . ويفترض شتيرن أن الإمام المشار إليه في هذه الرسالة - رغم أن اسمه غير مقروء بوضوح - هو الإمام الظاهر ، وبالتالي فإن قاضي القضاة المعنى هو قاسم بن عبد العزيز بن النعمان . وتشير الرسالة بوضوح إلى « المجالس » وتناقش قراءة كتاب « دعائم الإسلام » للقاضي النعمان الذي يُعَدُّ عملاً مُبَسَّطًا يمكن فهمه من مجموع الناس . وتتناول الرسالة كذلك إدخال تجديد يقضى بعقد مجلس ثالث كل يوم جمعة بعد صلاة الجمعة بالتناوب بين الجوامع الثلاثة (عمرو والأزهر والحاكم) لقراءة « دعائم الإسلام » . ولا شك أن الرسالة تشير إلى « مجالس الحكمة »^٢ . ولكن ما كان يقرأ في هذا المجلس الإضافي خاص بالفقه الإسماعيلي ولا علاقة له بعلم الباطن الذي كان يُدْرَس فقط للمؤمنين والمستجيبين داخل القصر في يوم الخميس . وقد أشار الداعي المؤيد في الدين الشيرازي إلى « المجالس » التي كانت تُعقد في القصر يوم الخميس في أحد قصائده ، يقول^٣ :

يا صباح الخميس أهلاً وسهلاً زَاكَ الواحِد المهيمن فَضْلاً
أنت عيدٌ للمؤمنين عتيْدٌ جَمَعَ الديْنُ منهم فيك فضلاً

^١ عماد الدين إدريس : عيون الأخبار ٦ : ٣١٤ ، ٣١٥ .

^٢ Stern, S.M., *op.cit.*, pp. 441-445; Halm H., *op.cit.*, p. 108 .

^٣ ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة ، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة-دار الكاتب المصري ١٩٤٩ ،

Smoor, p., «The Master of the Century : Fatimid Poets in Cairo», *Egypt and Syria in* ٣١٤

. *the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, pp. 140-141

فالكتب التي كانت تقرأ في المجالس العلنية في الجوامع كتباً عامة في الفقه الإسماعيلي مثل «دعائم الإسلام» و «اختلاف أصول المذاهب» وكلاهما للقاضي الثعتمان بن حيّون التي تُقدِّم المراجع الرئيسية للفقه الإسماعيلي وكانت تقرأ فقط عقب صلاة الجمعة .

أما فترة خلافة المستنصر بالله الطويلة فلدينا عنها معلومات قليلة فيما يخص «مجالس الحكمة» . وكان قاضى القضاة هو الذى يتولّى ظاهرياً أمر الدّعوة ، فرغم أن مرتبة الدّعوة مرتبةً روحية إلا أنها كانت تُجتمَع فى النصف الأول من تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر إلى القضاء ، وهذا ما دَفَعَ ابن الطُّوَيِّر إلى القول بأن «داعى الدّعاة كان يلى قاضى القضاة فى المرتبة»^١ ، وهكذا فقد تولّى رئاسة الدّعوة كل من القاضى عبد الحاكم بن سعيد الفارقي أخى قاضى القضاة وداعى الدّعاة مالك بن سعيد الفارقي^٢ ، ثم القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن الثّعتمان^٣ ، ثم جَمَعَ المستنصر الوزارة والقضاء والدعوة للوزير أبى محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى (٤٤٢ - ٤٥٠ هـ / ١٠٥٠ - ١٠٥٨ م)^٤ . وفى أعقاب مقتل اليازورى تولّى أمر الدّعوة الداعى الشهير المؤيّد فى الدين هبة الله الشّيرازى^٥ ، وإن كان ثلاثة من ذرية عبد الحاكم بن سعيد الفارقي : ابنه عبد الكريم وأحمد وحفيده أحمد بن عبد الكريم حَمَلُوا ألقاب الوزارة والقضاء والدّعوة^٦ ، ولَقَّب الوزير الحسن بن مُجَلّى المعروف بابن أبى كُدَيْثَةَ والذى عمل كقاضٍ للقضاة سبع دَفَعَات أيضًا بداعى الدّعاة^٧ ، كما أن عبد الحاكم بن وَهَيْب المليجي

^١ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٠ .

^٢ ابن حجر : رفع الإصر ٢ : ٣٠٨ .

^٣ نفسه (مخطوطة باريس رقم ٢١٤٩) .

^٤ ابن ميسر : أخبار مصر ١١ ، ٥٥ ، ابن حجر : رفع الأصر ١ : ١٩٣ ؛ المقرئى : المفقى ٣ : ٣٧٦ .

^٥ نفسه ١٨ .

^٦ نفسه ٥٥-٥٦ .

^٧ نفسه ٥٦ .

الذى تولى كذلك القضاء سبع دفعات بين سنى ٤٥٠هـ/١٠٥٨م و ٤٦٠هـ/١٠٦٨م تُنسب إليه « المجالس المستنصرية »^١. وهكذا يظهر أن قاضى القضاة فى هذا الوقت كان الرئيس الرسمى للدعوة وإن كان الداعى المؤيد فى الدين الشيرازى هو الذى يعقد عملياً « مجالس الحكمة » حتى وفاته سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ودفنه فى دار العلم^٢.

ويبدو أن الأمر استمر على هذا النحو بعد وفاة المؤيد فى الدين الشيرازى فقد جمَعَ الوزراء العسكريون ابتداءً من أمير الجيوش بدر الجمالى بين قيادة الجيش والوزارة والقضاء ورئاسة الدعوة، وأصبح القاضى والداعى نائبين عنهم .

وفىما يخص الفترة الفاطمية المتأخرة يُقدّم لنا ابن الطوّير وصفاً هاماً للدعوة الإسماعيلية وترتيبها يقول عن داعى الدعاة : إنه يجب أن يكون فقيهاً عالماً بجميع مذاهب أهل البيت ، وأنه يقوم بأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم ، ويتردّد عليه فقهاء الدولة ، ويجتمعون فى مكان يعرف بـ « دار العلم » ؛ ثم يضيف :

« وكان الفقهاء منهم يتفقون على « دَفْتَر » يقال له « مجلس الحكمة » يُقرأ فى كل يوم اثنين وخميس ويُحضر مبيّضاً إلى داعى الدعاة فينفذه إليهم ويأخذه منهم ويدخل به إلى الخليفة فى هذين اليومين المذكورين فيتلوّه عليه إن أمكن ويأخذ علامته بظاهره ، ويجلس بالقصر لتلاوته على المؤمنين فى مكانين : للرجال على كرسى الدعوة بالإيوآن الكبير ، وللنساء بمجلس الداعى - وكان من أعظم المباني وأوسعها . فإذا فرغ من تلاوته على المؤمنين والمؤمنات حضروا إليه لتقبيل يديه فيمسح على

^١ ابن حجر : رفع الإصر ٢ : ٣١٠ .

^٢ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ٣٢ .

^٣ العلامة . مصطلح خاص كان يُطلق على ما يكتبه الخليفة بيده على الرسائل أو الأوامر أو السجلات أو التوقيعات الصادرة عنه . ولا تصدر هذه الوثائق على اختلاف أنواعها إلّا بعد كتابة هذه العلامة . وكان كل خليفة أو سلطان أو ملك يتخذ لنفسه مصطلحاً خاصاً ليكون علامته [انظر اللوحة رقم ١ ، ٢] .

وعوهم بمكان القلامة - أعنى خط الخليفة - وله أخذ التجوى من المؤمنين بالقاهرة
ومصر وأعمالهما لا سيما الصعيد ومبلغها ثلاثة دراهم وثلاث فيجتمع من ذلك شيء
كثير يحمله إلى الخليفة من يده بينه وبينه وأمانته في ذلك مع الله تعالى، فيفرض له
الخليفة منه ما يعينه لنفسه وللنقاء معه^١.

وأشهر هذه «المجالس» المجالس التي كان يُلقبها القاضي الثعتمان بن خيَّون وجمعتها
تحت عنوان «تأويل الدعائم» وهي مقسمة إلى اثني عشر قسمًا يشتمل كل منها على
عشرة مجالس^٢. أما «مجالس العزيز بالله» و«مجالس الحكمة الحاكمة» فنعرها فقط
من النقول التي حفظها عنها المتأخرون. ومن بين المجالس التي وصلت إلينا «المجالس
المستنصرية» التي كانت تُنسب إلى الوزير الأزمني بدر الجمالي، ولكن ناشرها الدكتور
محمد كامل حسين نسبها اعتمادًا على شواهد داخلية إلى الداعي الموسوم بقلم الإسلام
ثقة الإمام عبد الحاكم بن وهيب المليجي وأرجعها إلى الفترة بين سني ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م
و ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م وخلص من ذلك إلى أن كاتبها هو محمد بن القاضي القاسم بن
عبد العزيز بن محمد بن الثعتمان^٣. وأيضًا «المجالس المؤيدية» التي ألغاها داعي الدعاة
الشهير المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في فترة توليه أمر الدعوة في مصر بين سني
٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م و ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، وهي مكونة من ثمانية مجلدات يشتمل كل
منها على مائة مجلس^٤.

وظلت «مجالس الحكمة» أحد أهم المظاهر التعليمية للإسماعيليين في العصر
الفاطمي حتى وصول صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى قمة السلطة في مصر، يقول
المقريزي: «ومن حيثئذ اشتهر مذهب الشافعي بديار مصر وتظاهر الناس به واختفى

^١ ابن الطوير: نزوة المقلتين ١١٠-١١٢، القلقشندي: صبح ٣: ٤٨٣، المقريزي: الخطط ١: ٣٩١.

^٢ نشرها في ثلاثة أجزاء محمد حسن الأعظمي، القاهرة-دار المعارف ١٩٦٨-١٩٧٢.

^٣ نشرها محمد كامل حسين، القاهرة-دار الفكر العربي ١٩٤٧.

^٤ نُشر منها ثلاثمائة مجلس نشرها مصطفى غالب في بيروت-دار الأندلس ٩٧٤-١٩٨٤.

مذهب الشيعة من الإمامية والإسماعيلية، وبَطَّلَ من حيثُ «مَجْلِسِ الدَّعْوَةِ» بالجامع الأزهر وغيره.^١

دَائِرُ الْحِكْمَةِ (دَائِرُ الْعِلْمِ)

فى بداية الفصل الذى خَصَّصَهُ المقرئى فى «الْحِطَّط» لذكر مدارس مصر، أورد فقرة هامة أبان فيها عن نشأة المدارس وتطورها فيما يلى نَصُّها:

«والمدارس مما حَدَّثَ فى الإسلام، ولم تكن تُعرَف فى زمن الصحابة والتابعين، وإنما حَدَّثَ عملها بعد الأربعمئة من سنى الهجرة، وأوَّل من حَفِظَ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نيسابور، قُبِيت بها المدرسة البيهقيَّة، وبنى بها أيضًا الأمير نضر بن مُبَكِّشِكِين مدرسة، وبنى بها أخوه السلطان محمود بن مُبَكِّشِكِين مدرسة، وبنى بها أيضًا المدرسة الشُعْبِيَّة، وبنى بها أيضًا مدرسة رابعة، وأشهر ما بُنى فى القديم المدرسة النظامية ببغداد؛ لأنها أوَّل مدرسة قُرِّرَ بها للفقهاء معاليم، وهى منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبى على الحسن بن على بن إسحاق بن العباس الطوسى وزير ملك شاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق فى مدينة بغداد، وشرع فى بنائها فى سنة سبع وخمسين وأربعمئة وفرغت فى ذى القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمئة، ودُرِّسَ فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازى الفيروزابادى صاحب كتاب «التَّيْبَةِ فى الْفِقْهِ» على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ورحمه، فاقتدى الناس به من حيثُ فى بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر وفى بلاد الجزيرة وديار بكر.

وأما فى مصر فإنها كانت حيثُ بيد الخلفاء الفاطميين ومذهبهم مخالفٌ لهذه الطريقة، وإنما هم شيعة إسماعيلية...^٢

^١ المقرئى: اتعاظ الخلفاء ٣: ٣١٩-٣٢٠.

^٢ المقرئى: الحطط ٢: ٢٦٣.

بناءً على ما تقدّم فإنه لم يكن من الطبيعي أن يتخذ الفاطميون مؤسسات تُشبه المدارس، يقول ابن عبد الظاهر عند ذكره لدار العلم « بناها المصريون [يقصد الخلفاء الفاطميين] لأنهم لم يكونوا يعرفون المدارس »^١. فقد كانوا يترعّمون حركة دينية فلسفية اجتماعية عظيمة كان هدفها لا يقلّ عن تحويل وتجديد كل الإسلام، ويمثلون التحدى الأكبر للإسلام الشنّى الذى أنشأ المدارس لمحاربة مذهبهم^٢.

وكانت بداية التدريس فى جامع القاهرة (الأزهر) فى سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م بعد ثلاث سنوات من وصول الخليفة المعز لدين الله إلى مصر، ففى صفر من هذا العام جلس القاضى على بن الثّعمان فى الجامع وأملى مختصر أبيه فى الفقه المعروف بـ «الاقتصار» فى جُمع حافل من العلماء والكبراء وأثبت أسماء الحاضرين. فكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر^٣.

ولما تولى يعقوب بن كُلس الوزارة للعزیز بالله سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٩م، رتب فى العام التالى فى داره « مجالس » للعلماء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأجرى لجمعهم الأرزاق، وكان يقرأ على الناس « الرسالة الوزيرية »، وهى كتاب ألفه فى فقه الإسماعيلية يتضمّن ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله^٤.

وشهدت سنة ٣٧٨هـ / ٩٨٨م أوّل محاولة لترتيب دُرس مُنظّم فى جامع القاهرة الذى عرف فيما بعد باسم الجامع الأزهر. فقد استأذن الوزير يعقوب بن كُلس الخليفة

^١ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة : ٤٥ .

^٢ فيما سبق ص ١٤٠ .

^٣ المقرئى : المخطوط ٢ : ٣٤١ ، تماظ الحنفا ١ : ٢٢٧ .

^٤ ابن الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ٤٩-٥٠ ابن خيطان : وفيات الأعيان ٧ : ٣٠ ؛ المقرئى : المخطوط ٦:٢ .

العزير بالله فى تعيين جماعة من الفقهاء بجامعة القاهرة (الأزهر) ، كان عددهم سبعة وثلاثين فقيهاً يرأسهم الفقيه أبو يعقوب قاضى الخندق ، كانوا يتحلّقون كل يوم جمعة بجامعة القاهرة بعد الصلاة ، ويتكلّمون فى الفقه حتى وقت العصر . ورُتّب لهم العزير بالله أرزاقاً وجرايات شهرية ، وأقام لهم داراً للسكنى بجوار الجامع الأزهر ، وخلق عليهم فى يوم عيد الفطر وحملهم على بغلات تشريقاً لهم وتكريماً ، كما أجرى عليهم الوزير ابن كلس أيضاً أرزاقاً من ماله الخاص ^١ . يقول المقرئى : « وهى أوّل مرة يقام فيها درس فى مصر بمعلوم جار من قتل السلطان » ^٢ . ويضيف المسبّحى أنه ما إن اختطّ جامع الخطبة (الحاكم) فى سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م حتى تحلّق فيه الفقهاء الذين كانوا يتحلّقون فى جامع القاهرة - يعنى الجامع الأزهر ^٣ .

ولا شك أن الجهد الواضح للفاطميين فى مجالى الثقافة والتعليم تركّز فى دار الحكمة (العلم) ^٤ التى أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م والتى عدّها الباحثون استمراراً لتقاليد هليلينستية ^٥ . يقول المسبّحى :

« وفى يوم السبت هذا ، يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة . وجلس فيها الفقهاء وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ، ودخل الناس إليها ونسخ كل من التمس نسخ شىء مما فيها ما التمس ، وكذلك من رأى قراءة شىء مما فيها . وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، بعد أن فرشت هذه الدار

^١ المسبّحى : نصوص ضائعة ٣٨ ؛ ابن أبى الفضائل : النهج السديد ٥٠٠-٥٠١ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ :

٣٦٣ ؛ المقرئى : الخطط ٢ : ٢٧٣ ، ٣٤١ ؛ عنان : تاريخ الجامع الأزهر ٤٣-٤٤ .

^٢ المقرئى : الخطط ٢ : ٣٦٣ .

^٣ نفسه ٢ : ٢٧٧ (عن المسبّحى) .

^٤ انقرد المسبّحى بإطلاق اسم دار الحكمة على الدار التى أنشأها الحاكم سنة ٣٩٥ ، بينما يذكرها معاصره يحيى بن

سعيد الانطاكى باسم دار العلم (تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى (نشرة شيخو) ١٨٨ .

^٥ . Pedersen, J. & Makdisé, G., *EI*² art. *Madrassa* V, p. 1123 .

وَرُفِعَتْ وَغُلِّقَتْ عَلَى جَمِيعِ أَبْوَابِهَا وَمَرَاتِهَا السُّتُورُ ، وَأُقِيمَ قِوَامٌ وَخُدَّامٌ وَفَرَّاشُونَ .
وغيرهم رسموا بخدمتها . وحصل في هذه الدار من خزانة أمير المؤمنين الحاكم بأمر
الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم
يُر مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم من
يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها . فكان ذلك من المحاسن الماثورة أيضاً التي لم يُشَمَّعْ
بمثلها من إجراء الرُّزْقِ السنِّي لمن رسم له بالجلوس فيها والحِذْمَةُ بها من ققيه وغيره ،
وحَضَرَهَا الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر
للتَّشْخِصِ ، ومنهم من يحضر للتَّعَلُّمِ .. ومَجْلَعٌ فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام
والورق والمحابر ، وهي الدار المعروفة بمختار الصقلي^١ .

ففي السنوات الأولى لإنشائها حاول الحاكم أن يَكْسِبَ حماس أهل الشُّنَّةِ ، فوَلَّى
أمرها جماعة من شيوخ الشُّنَّةِ كان على رأسهم الحافظ عبد الغنى بن سعيد وأبو أسامة
جُنَادَةَ بن محمد اللُّقَوِيَّ وأبو الحسن على بن سليمان المقرئ الأنطاكي . وربما قَصَدَ
الحاكم من وراء ذلك أن يسحب من جامع عمرو دوره المميز في صنع الفكر الديني في
مصر . ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً ، ففي نهاية عام ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م قُتِلَ
الشيخان أبو أسامة اللُّقَوِيَّ وأبو الحسن الأنطاكي واضطر الشيخ عبد الغنى بن سعيد إلى
التَّسَرُّرِ^٢ .

وفي سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م وَقَفَ الحاكم أوقافاً على عدد من المنشآت الدينية هي
جامع القاهرة (الأزهر) وجامع المقس وجامع راشدة بالإضافة إلى دار الحِكْمَةِ . وأورد ابن
عبد الظاهر والمقرئ نص هذه الوقفية ، أغلب الظن نقلاً عن المُسَبِّحِي ، وعيَّن فيها الرِّبَاعَ

^١ المسبحي : نصوص ضائعة ٢٢ ؛ المقرئى : مسودة المواعظ والاعتبار ٣٠٠-٣٠١ والخطوط ١ : ٤٨٥-٤٨٦ واتعاظ

الحنفا ٢ : ٥٦ .

^٢ ابن خلكان : وفیات الأعيان ١ : ٣٧٢ ؛ المقرئى اتعاظ الحنفا ٢ : ٨٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٤ : ٢٢٢-٢٢٣ .

والمواضع التي وقفت فيها على دار الحكمة والتي حُدِّثَتْ بـ ٢٥٧ دينارًا من الذهب المعزى تفصيلها: ١٢ دينارًا لثمن الماء، ١٥ دينارًا للفراش، ١٢ دينارًا للورق والحبر والأقلام، دينار واحد لمرئمة الشتارة، ١٢ دينارًا لمن يرم ما ينقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها، خمسة دنائير لثمن لبود الفرش في الشتاء، أربعة دنائير لثمن طنافس في الشتاء، وما بقي يصرف على سائر ما يُحتاج إليه^١.

ويبدو أن دار الحكمة استمرت في أداء دورها كمكتبة عامة فترة طويلة. غير أن ما نملكه من معلومات عن نشاط هذه الدار لا يتعدى بحال عصر الحاكم بأمر الله (٤١١هـ/ ١٠٢٠م). ومنذ هذه الفترة وحتى عام ٥١٣هـ/ ١١١٩م لا تشير المصادر إطلاقًا إلى دار الحكمة (العلم)، ولكن لاشك أنها كانت فيما بين هذين التاريخين مركزًا لنشاط جدير بالاهتمام هو الدَّعوة الإسماعيلية، وإن كُنَّا لم نستطع أن نُحدِّد الفترة التي دَخَلَ فيها هذا النشاط في حياة هذه المؤسسة^٢. ولكننا نعرف، عن طريق ابن عبد الظاهر، أن واحدًا من كبار الدعاة الإسماعيليين هو المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي دُفِنَ في دار العلم عند وفاته سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م^٣. الأمر الذي يؤكد أهمية هذه المؤسسة للدعوة الإسماعيلية.

وفي الفترة التي تولى فيها المؤيد في الدين أمر الدَّعوة الإسماعيلية في مصر نَزَلَ عليه وهو في دار العلم قاضي قضاة اليمن وهادي دعاتها مَلَك بن مالك الحمّادي - الذي وَصَلَ إلى بلاط الإمام المستنصر برسالة من داعي اليمن علي بن محمد الصُّليحي يطلب له الإذن «في الحج إلى مكة والمسير بعد ذلك للهجرة إلى شريف الحضرة». ويذكر الداعي حاتم بن إبراهيم الحمّادي أن المؤيد عَلَّمَ مَلَك العلوم الدينية وجعله خبيرًا بخفايا

^١ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ١٤٣-١٥٠؛ المقرئ: الخطط ١: ٤٥٩ و ٢: ٢٧٢-٢٧٤.

^٢ Eche, Y., *Les bibliothèques arabes publiques et semi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen-Age*, Damas, IFÉAD 1967, p. 89.

^٣ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٣٢؛ المقرئ: الخطط ١: ٤٦٠.

الدُّعْوَة . وأمضى ملك بالقاهرة خمس سنوات (٤٥٤ - ٤٥٩ هـ) لم يُفَارِق فيها مجلس المؤيّد في الدين « يسأله ويأخذ عنه ويكتب ما استفاده منه إلى أن استوعب ما عنده » . وفي النهاية تقدّم إليه بسبع وعشرين مسألة يطلب جوابها منه ، فأجابه المؤيّد بأن جوابها عند الإمام وأنه بعد هذا الإعداد والتلقّى على يدى المؤيّد في الدين لا يوجد بينهما الآن حائل . فتقدّم ملك بأسفله إلى الإمام فأجابه عليها بسبعة وعشرين جواباً وكساه بعد كل جواب قميصاً من ملابسه إشارة من الإمام إلى رفعه له وإعلانه^١ .

هذه الرواية التي وردت في المصادر اليمنية تُعرّفنا بكيفية إعداد دُعاة الجزر (ج . جزيرة) الفاطمية المختلفة والوقت المناسب الذى يمكن أن يلتقوا فيه بالإمام ، وهو أحد أهم وظائف دار العِلْم وداعى الدُّعاة . ويبدو لى أنه بعد وفاة المؤيّد في الدين الشيرازى وتعيين أحد رجال السيف هو أمير الجيوش بدر الجمالى فى رئاسة الدُّعْوَة^٢ ، فإن دار الحكمة لم تُفقد فقط أهميتها بل أصبحت مرتقاة لنمو مذاهب معادية للإسماعيلية ، مما دفع السلطات الفاطمية إلى وُضْع نهاية لنشاط هذه الدار .

ولا تُحدّثنا المصادر عن أى نشاط لهذه الدار حتى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م عندما حدثت الأحداث الآتية والتي وَصَلَتْ إلينا تفاصيلها عن طريق روايتين : الأولى أوردتها ابن المأمون وابن مُيَسَّر تفيدنا أن فى هذه السنة قام شخص يُدعى حميد بن مَكّى الأطفحى القَصَّار وزميل له يُدعى بركات بالاجتماع فى دار العِلْم - التى بالثَّبَّانين مجاورة القصر الصغير - مع جماعة يعرفون بالبديعية كانوا على المذاهب السنية الثلاثة المشهورة ، تقول الرواية إن بركات استفسد عقول جماعة من جملتهم وأخرجهم عن الصواب ، فأمر الأفضّل بقتل دار العِلْم والقبض على بركات ، ولكنه تمكّن من الهرب

^١ الحامدى : تحفة القلوب وترتيب الهداة والدعاة فى الجزيرة اليمنية ، نشر Stern قسماً منه نقلاً عن كتاب الأزهار للحسن بن نوح البهروجى Stern, S.M., Oriens IV (1951), p. 234 ، أمين غواد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد

اليمن ١٣٠-١٣٦ .

^٢ المقرئى : الخطوط ١ : ٤٤٠ ؛ ابن حجر : رفع الإصر ١ : ١٣٢ .

وأخفاه أستاذان من القصر، من جملة من اعتقدوا فيه، داخل القصر إلى أن توفي من مرض ناله وانكشف أمرهما وقتلا^١.

وبعد وفاة الوزير الأفضل سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م أمر الخليفة الأمر وزيره المأمون البطائحي بإعادة فتح دار العلم على الأوضاع الشرعية، إلا أن حميد القصار عاد وأخذ يتردد على دار العلم وأدعى في هذه المرة «الربوبية»، فحذر الداعي ابن عبد الحقيق الوزير المأمون من عواقب ذلك وعرفه أن حميد القصار يتحدث كذلك بشيء من علم الكلام على مذهب الأشعري، ثم انسلخ عن الإسلام وسلك طريق الحلاج واستهوى بعض ضعاف العقول وقليلي البصيرة، فاعتقله المأمون ولكنه لم يلبث أن توفي في الحبس، كما قُتل أتباعه في سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م وأُغلقت دار العلم للمرة الثانية^٢.

أما الرواية الثانية فأوردها ابن عبد الظاهر وتفيدنا بأن هذا الإبطال كان بسبب اجتماع الناس بها والخوض في المذاهب والخوف من الاجتماع على المذهب التزاري^٣. وواضح أن واقعة بركات وحميد القصار لم تكن السبب الرئيسي وراء إبطال دار العلم، وأغلب الظن أن ذلك كان بسبب اجتماع الناس بها وإخفاقها في أداء دورها الأساسي وهو الدعوة إلى المذهب الإسماعيلي مذهب الدولة الحاكمة^٤.

ونتيجة لوساطة خدام القصر، وافق الأمر بأحكام الله على إعادة دار العلم بشرط أن يتولّاها رجل دين وأن يكون داعي الدعوة هو الناظر فيها، وأن يقام فيها مُتصدّرون برسم قراءة القرآن. فقام الوزير المأمون البطائحي بإعادة فتحها ولكنه امتنع عن إعادتها في موضعها الأول بالثبّانين شمال القصر الغربي الصغير وأقامها في موضع آخر جنوب القصر

^١ ابن المأمون: أخبار مصر ٤٤-٤٥؛ ابن مسير: أخبار مصر ٩٥؛ المقرئ: الخطوط ١: ٤٥٩-٤٦٠ والمقفي ٣:

٦٨٤-٦٨٥.

^٢ نفسه ٤٥؛ نفسه ٩٥؛ نفسه ١: ٤٦٠.

^٣ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٣٢؛ المقرئ: الخطوط ١: ٤٦٠؛ القلقشندي: صبح ٣: ٣٦٢.

^٤ Eche, Y., *op.cit.* pp. 93-94.

الشرقي الكبير بجوار باب تربة الرُعقران في ظهر خزانة الدُرَق في ربيع الأول سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م وجعل على رأسها الداعي أبا محمد الحسن بن آدم^١. واعتبارًا من هذا التاريخ أصبحت دار العلم - وهو اسمها الذي يقابلنا في مصادر هذه الفترة - المقر الرسمي للدعوة الإسماعيلية كما ذكر ابن الطُّوَيَّر في النَّصِّ الذي نقلناه عنه آنفًا^٢.

بدايات المدارس في مصر

لاشك أن الظروف السياسية والدينية والاجتماعية لم تكن واحدة في كل العالم الإسلامي في القرنين الخامس والسادس للهجرة، وهي الفترة التي بدأت فيها «المدارس»^٣ في الظهور؛ فالوسط الاجتماعي لبغداد عند تأسيس النظامية سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م لم يكن كمجتمع الإسكندرية أو دمشق أو قونية في آسيا الصغرى عندما ظهرت المدارس لأول مرة بهذه المدن في النصف الأول للقرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. فلم يكن للمدرسة نفس الدور أو الوظيفة في هذه المجتمعات، وبالتحديد لم يكن دور مدارس الإسكندرية مشابهًا لدور مدارس بغداد. فقد نشأت مدارس بغداد

^١ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٣٣؛ المقرئى: الخطوط ١: ٤٤٥.

^٢ ابن الطوير: نزعة المقتل ١١٠. وانظر كذلك عن دار الحكمة Halm, H., «Al-Hâkim's House of Knowledge and Scientific Institutions under the Fatimids», in *The Fatimids and their Traditions of Learning*, pp. 71-93.

^٣ المدرسة ج المدارس: ابتكار سنى وأحد مؤسسات الحضارة الإسلامية، وهي نتاج مراحل ثلاث تطورت خلالها المؤسسات التعليمية في الإسلام: المسجد الجامع ثم مجموعة المسجد-الحان ثم المدرسة بمعنى الكلمة: التي يمكن تعريفها بأنها المكان الذي يتخذ لتلقى علم واحد على أيدي شيوخ موقوفين عليه، وأن يكون ملحقا به مكان لسكن المدرسين والطلاب مع وجود فعاليم، أى مرتبات وجرايات دارة عليهم ولمن يقوم بالتدريس فيها. وبذلك تكون وظيفتها الرئيسية مستمدة من كونها أعدت لسكنى الطلاب والشيوخ والفقهاء لامن قاعات التدريس والمدرسين. (أمين فؤاد سيد: «المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي» في كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ٨٩، ٩٠،

فى مجتمع سنى يهدف تأييد المذهب الأشعرى الذى تبنّاه السلاجقة ولمواجهه مذاهب الشيعة ، وللمساهمة فى إعداد رجال الدين والموظفين الرسميين ، ولتمكين الحكام بصفة خاصة من احتكار طبقة رجال الدين «العلماء» والتأثير عليهم^١. أما فى مصر فقد كان لها دور آخر هو تدعيم الإسلام ضدّ تحدّى أو استفزاز أهل الذمّة الذين تزايد نفوذهم فى عهد الوزراء الأرمّن وخاصة وزارة بهرام الأرمّنى^٢.

ويحدّد وصول بدر الجمالى إلى قمة السلطة فى مصر سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م بداية تزايد استخدام النصارى فى السياسة المصرية . فقد كان بدرًا أرمينيًا اعتنق الإسلام ، وكان جيشه يضمّ آلافاً من الأرمّن المسيحيين وعائلاتهم ، وبعد وفاة بدر استمر ابنه وخليفته فى الوزارة الأفضل شاهنشاه فى إحاطة نفسه بالجنود الأرمّن وفى تشجيع هجرتهم كما أكثر من استخدام الأقباط فى الوظائف العليا . واستمر الأمر حتى تولّى الوزارة وزيرًا نصرانيًا هو بهرام الأرمّنى فتزايد نفوذ النصارى والأقباط الأمر الذى أثار رؤساء المسلمين وجعلهم يستنجدون بقائد سُنّى لنجدتهم هو رضوان بن ولّحشى الذى بدأت مصر فى عهده تحوّلًا سُنّيًا بطيئًا قاد إلى انتصار السنة النهائى بعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا .

المدرسة الحافظيّة

كانت الإسكندرية فى العصر الفاطمى ، هى والفُسطاط ، مراكز المقاومة السنية فى مصر . وكان المذهب الشائع بين أهل الإسكندرية هو المذهب المالكي بسبب علاقتها الواسعة مع شمال أفريقيا والأندلس . وتزدّد على الإسكندرية عددٌ كبيرٌ من علماء شمال أفريقيا والأندلس طوال هذه الفترة ، كان من بينهم الفقيه المالكي أبو بكر محمد بن الوليد الطوطوشى الذى استقر فى الإسكندرية سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م بعد أن أقام لبعض الوقت فى بغداد^٣.

^١ Leiser, G., «The Madrasa and the Islamization of the Middle East. The Case of Egypt»,

JARCE 22 (1985), p.29

^٢ فيما سبق ص ١٩٢-١٩٥ .

^٣ الضى : بغية الملتمس ١٢٥٠-١٢٩ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤ : ٢٦٢ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٥ :

١٧٥ ؛ المقرئى : المقفى ٧ : ٤٠٩-٤١٦ ؛ المقرئى : نفع الطيب (ط . بيروت) ٢ : ٨٥-٨٧ .

وَتَحَدَّثَنَا الْمَصَادِرُ عَنْ «مَدْرَسَةِ» فِي الإسْكَندَرِيَّةِ كَانَ يُدْرَسُ بِهَا الطُّرُطُوشِيُّ الْمَذْهَبُ الْمَالِكِيُّ^١.

وَفِي سَنَةِ ٥٣٢هـ/١١٣٨م بَنَى الْوَزِيرُ رِضْوَانُ بْنُ وَحْشَى أَوَّلَ مَدْرَسَةٍ فِي الإسْكَندَرِيَّةِ لِتَدْرِيسِ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ^٢. وَقُرِّرَ فِي تَدْرِيسِهَا الْفَقِيهَ أَبُو الطَّاهِرِ بْنُ عَوْفٍ، إِسْمَاعِيلُ بْنُ مَكِّي بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَيْسَى^٣ وَاسْتَصْدَرَ مِنَ الْخَلِيفَةِ الْحَافِظِ لِدِينِ اللَّهِ سِجِلًا بِنَاءَ الْمَدْرَسَةِ نَسَبَتْ فِيهِ الْمَدْرَسَةُ إِلَى الْخَلِيفَةِ حَيْثُ أُطْلِقَ عَلَيْهَا «الْمَدْرَسَةُ الْحَافِظِيَّةُ» كَمَا عُرِفَتْ فِي الْمَصَادِرِ أَيْضًا نَسَبًا إِلَى مَدْرَسِهَا بِـ «الْمَدْرَسَةِ الْعَوْفِيَّةِ».

وَحَفِظَ لَنَا الْقَلْقَشَنْدِيُّ نَصَّ السَّجِلِ الْخَاصِّ بِإِنْشَاءِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ أَنَّ تَكُونُ الْمَدْرَسَةُ مَأْوًى لِلطَّلَابِ وَسَكَنًا لَهُمْ، وَأَنْ يُطْلَقَ لَهُمْ مِنْ دِيْوَانِ الْخَلِيفَةِ مُؤَنَّتُهُمْ وَمَا يَقُومُ بِأَوْدِهِمْ وَيَعِينُهُمْ عَلَى التَّفَرُّغِ لِلدِّرَاسَةِ مِنْ عَيْشٍ وَغَلَّةٍ. وَتَحَدَّدَ السَّجِلُ كَذَلِكَ الْمَوَادِّ الَّتِي تُدْرَسُ بِالْمَدْرَسَةِ وَهِيَ «عِلْمُ الشَّرِيعَةِ» وَأَنْ يَتَوَلَّى مُقَدِّمَ الْمَدْرَسَةِ، وَهُوَ الْفَقِيهَ أَبُو الطَّاهِرِ بْنُ عَوْفٍ، الْإِشْرَافَ التَّامَ عَلَى شُئُونِ الطُّلَبَةِ^٤.

مَدْرَسَةُ الْعَادِلِ بْنِ الشَّرَارِ

وَبَعْدَ أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَنَةٍ مِنْ إِنْشَاءِ «الْمَدْرَسَةِ الْحَافِظِيَّةِ»، أَى فِي سَنَةِ ٥٤٦هـ/١١٥١م، أُنْشِئَ وَزِيرُ شَيْئٍ آخَرُ هُوَ الْعَادِلُ بْنُ الشَّرَارِ مَدْرَسَةً ثَانِيَةً فِي الإسْكَندَرِيَّةِ، وَلَكِنْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَتْ لِتَدْرِيسِ الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ، وَقُرِّرَ فِي تَدْرِيسِهَا الْحَافِظُ الشَّهِيرُ أَبُو الطَّاهِرِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ السُّلَفِيِّ^٥. وَيُعَدُّ ذَلِكَ انْتِصَارًا لِلشَّافِعِيِّينَ كَمَا كَانَ إِنْشَاءُ الْمَدْرَسَةِ

^١ الضمى : بغية الملتصق ١٢٧.

^٢ ابن ميسر : أخبار مصر ١٢٠ ، القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٥٨-٥٩ ، المقرئى : اتعاظ الحنفا ٣ : ١٦٧ .

^٣ انظر ترجمته عند ، ابن فرحون : الدياج المذهب ١ : ٢٩٢-٢٩٥ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٩ : ٢٢٨ ، المقرئى

المقضى ٢ : ١٨٣-١٨٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦ : ١٠٠ .

^٤ القلقشندى : صبح ١٠ : ٤٥٨-٤٥٩ ، جمال الدين الشيال : «أول أستاذ لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية» ،

مجلة كلية الآداب-جامعة الإسكندرية ١١ (١٩٥٧) ، ٣-٢٩ .

^٥ ابن خلكان وفيات الأعيان ١ : ١٠٥ ، ٣ : ٤١٧ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ٣٧ ، الصفدى : الوافى

بالوفيات ٧ : ٣٥٤ ، المقرئى : اتعاظ الحنفا ٣ : ١٩٨ ، والمقضى الكبير ١ : ٧٠٨ .

الحفاظية انتصارًا للمالكين . ويذكر الشبكي أن ابن الشلار بنى هذه المدرسة وهو والي على الإسكندرية قبل أن يلى الوزارة^١، بينما حدّد ابن خلكان تاريخ بنائها سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥٠م^٢، أى فى الوقت الذى تولّى فيه ابن الشلار الوزارة، إلّا أنه عاد فى موضع آخر ليؤكد أن ابن الشلار بناها وهو مازال واليًا على الإسكندرية^٣ متابعًا فى ذلك نصّ الشبكي .

لقد كان أغلب الباحثين يرون أن المدرسة جاءت إلى مصر مع الأيوبيين عن طريق الشام . ووضح أن هذا الرأى غير صحيح فقد رأينا كيف عُرِّفت المدرسة فى الإسكندرية مع الفقيه الطُّرطوشى لتدريس المالكية فى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى . ثم كيف أُسِّست أول مدرسة حقيقية بعد ذلك سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م، وهى التى أنشأها الوزير رِضْوَان بن وَلَحْشَى فى الإسكندرية، ثم تبعها سريعًا المدرسة التى أنشأها الوزير ابن الشلار .

وعندما ترجم ابن خلكان للحافظ السِّلْفَى ذكر وجود المدرسة التى أنشأها ابن الشلار^٤، والتى كان السِّلْفَى مدرسها الوحيد عشرين عامًا قبل أن يصبح صلاح الدين وزيرًا للفاطميين . ولكنه عندما ترجم لصلاح الدين ذكر أنه لم تكن فى مصر مدارس قبله^٥، وقد أخذ بهذا الرأى أيضًا المقرئى^٦، وهى ملاحظة غير صحيحة كما رأينا . ولكننا نستطيع القول أن المدرسة كمؤسسة سنية رسمية لم تعرف على مستوى واسع فى مصر إلّا مع تولّى صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين وأنشئت أول هذه المدارس فى مدينة الفسطاط سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م^٧.

^١ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ٣٧ .

^٢ ابن خلكان : وفیات الأعيان ١ : ١٠٥ .

^٣ نفسه ٣ : ٤١٧ .

^٤ نفسه ١ : ١٠٥ .

^٥ نفسه ٧ : ٢٠٦ وانظر أبا المحاسن : النجوم الزاهرة ٦ : ٥٤ .

^٦ المقرئى : اعطاء الحنفا ٣ : ٣١٩ والمخطوط ٢ : ٣٦٣ .

^٧ انظر فيما سبق ص ٣٠٤-٣٠٥ .

وللأسف الشديد فقد زالت كل آثار هذه المدارس الأولى ، سواء التي أقيمت في الإسكندرية أو في القسطنطية . وكل ما نعرفه عنها أنها كانت مخصصة لتدريس مذهب واحد ، في حين أن أول مدرسة جُمِعَ فيها تدريس المذاهب الفقهية الأربعة هي المدرسة المستنصرية في بغداد سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٤م . أما تخطيط هذه المدارس فلنأنا نجهل عنه كل شيء .

خزانة الكتب الفاطمية

ويدفعنا الحديث عن « مجالس الحكمة » و « دار الحكمة (العِلْم) » وبدايات المدارس إلى الإشارة إلى « خزانة الكتب الفاطمية » التي تُعدُّ أهم المؤسسات الثقافية الفاطمية ، وقد وصفها ابن أبي طيٍّ بأنها « من عجائب الدنيا ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دارٌ تُكُتَبُ أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر ... ويقال إنها كانت تشتمل على ألف وستمئة ألف كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة وإن من عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري »^١ .

ويُحدِّثنا المُسَبِّحِي في حوادث سنة ٣٨٣هـ / ٩٩٣م عن بعض ما كانت تُذخَر به هذه الخزانة يقول :

« وَذِكْرٌ عِنْدَ الْعَزِيزِ بِاللَّهِ « كِتَابُ الْعَيْنِ » لِلخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ ، فَأَمَرَ خُزَّانَ دِفَاتِرِهِ فَأَخْرَجُوا مِنْ خَزَائِنِهِ نِيفًا وَثَلَاثِينَ نَسْخَةً مِنْ « كِتَابِ الْعَيْنِ » مِنْهَا نَسْخَةٌ بِخَطِ الْخَلِيلِ ابْنِ أَحْمَدَ . وَحَمَلَ إِلَيْهِ رَجُلٌ نَسْخَةً مِنْ كِتَابِ « تَارِيخِ الطَّبْرِيِّ » اشْتَرَاهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ ،

^١ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ١ : ٥٠٧ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ١٧ : ٦٨٨ ؛ المقرئ : مسودة

الخطوط ١٣٩-١٤٠ ؛ وراجع كذلك Khoury, R.G., «Une description fantastique des fonds de la Bibliothèque "Hizānat al-Kutub" au Caire», *Proceeding of the Ninth Congress of the Union Européenne des Arabisants et Islamisants*, Leiden 1981, pp. 123-140

فأمر العزيز الخزان فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من « تاريخ الطبري » منها نسخة بخطه . وذكر عنده كتاب « الجمهرة » لابن دُرَيْد فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها ^١ .

وكان صاحب خزانة كتب العزيز بالقاهرة والمتولي لعرضها هو أبو عبد الله محمد بن إسحاق الشافعي صاحب كتاب « الديارات » المتوفى سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م ^٢ .

ويقدم لنا صاحب كتاب « الذخائر والتحف » الذي كان بالقاهرة في زمن الشدة المستنصرية وصفاً لمكتبة القصر ، يقول إن :

« علة الخزائن التي يرسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة ، خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة وأن الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة في شدة المستنصر ألفان وأربعمائة تحفة قرآن في ربعات بخطوط منسوبة زائدة الحسن محلاة بذهب وفضة وغيرهما ، وأن جميع ذلك كله ذهب فيما أخذه الأتراك في واجباتهم لم يبق في خزائن القصر البيانية منه شيء بالجملة دون خزائن القصر الداخلة التي لا يتوصل إليها . ووجدت صناديق مملوءة أقلثاً مبرية من براية ابن ثقله وابن البواب وغيرهما ^٣ .

كما يقدم لنا ابن الطويز ، الذي عاصر نهاية الدولة الفاطمية في مصر ، وصفاً مثيراً للإعجاب لتنظيم هذه الخزانة يقول :

« وتحتوي هذه الخزانة على عدة رفوف في دور ذلك المجلس العظيم [يعني أحد مجالس المارستان العتيق] والرفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب متقن

^١ المسبحي : نصوص ضائعة ١٧ : المقرئ : الخطوط ١ : ٤٠٨ ومسودة المواعظ والاعتبار ١٤٠-٢٤١ .

^٢ ياقوت : معجم الأدياء ١٨ : ١٦ : الصفي : الوافي بالوفيات ٢ : ١٩٤ ، ٢٢ : ١٧٤ .

^٣ الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٦٢ : المقرئ : الخطوط ١ : ٤٠٨ ومسودة المواعظ والاعتبار ١٤٠ واتماظ

بمفصلات وقفل ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات ؛ فمنها في الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث النبوي والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخة والعشرة ، ومنها النواقص التي ما تُمُت ، كل ذلك ترجمه ورقة ملصقة على باب كل خزانة وما فيها . والمصاحف الكريمة في كل مكان فيها فوقها ، وفيها من الدروج بخط ابن شُغلة ومن يليه ومن يماثله كاهن الياؤاب وغيره ، وهي التي تولّى بيعها ابن صَوّرة في أيام الملك الناصر صلاح الدين^١ .

وكان الخلفاء الفاطميون يكثرون من زيارة خزانة الكُتُب ، وعلى الأخص في القرن السادس الهجري ، فكان الخليفة يجيء إليها راكباً ثم يترجل ويؤخذ مجلسه فوق دكة منصوبة ، ويمثل بين يديه أمين الخزانة ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين ، وغير ذلك مما يقترحه من الكتب ، وكان الخليفة يأخذ منها ما يروقه للمطالعة ثم يعيده مرة أخرى^٢ .

وقد شارك الوزراء الفاطميون كذلك الخلفاء في اهتمامهم بتكوين المكتبات ، فيذكر ابن خلكان أن يعقوب بن كَلَس وزير الخليفة الفاطمي الثاني العزيز بالله :

« كان في بيته قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب وحتى الطب يعارضونه ويُشكّلون المصاحف وينقطنوها »^٣ .

كذلك كان للوزير القوي الأفضّل شاهنشاه بن بدر الجمالي خزانة كتب كبيرة وصَلّ إلينا منها نسخة من كتاب « التعليقات والتوارد » لأبي علي الهَجَرِي سَاشِير إليها بالتفصيل بعد ذلك .

^١ ابن الطوير : نزعة المقتل ١٢٧ ؛ المقرئ : مسودة المواقظ والاختبار ١٣٨-١٣٩ والخطوط ١ : ٤٠٩ ؛

القلقشندي : صبح الأعشى ١ : ٤٦٧ .

^٢ نفسه : ١٢٦-١٢٧ .

^٣ ابن خلكان : وفیات الأعيان ٧ : ٢٩ .

وقد تَمَرَّضَتْ خِزَانَةُ كُتُبِ الْقَصْرِ الْفَاطِمِيِّ وَخِزَانَةُ كُتُبِ دَارِ الْعِلْمِ لِأَزِمَاتٍ كَثِيرَةٍ أَضَاعَتْ الْكَثِيرَ مِنْ ذَخَائِرِهَا إِلَى أَنْ قَضَى عَلَيْهَا تَمَامًا فِي أَعْقَابِ سَقُوطِ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ، فَيَذْكَرُ صَاحِبُ كِتَابِ «الذُّخَائِرِ وَالتَّحْفَةِ» أَنَّهُ كَانَ بِمَصْرِ فِي الْعِشْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمَحْرَمِ سَنَةِ ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م، وَأَنَّهُ رَأَى

«فِيهَا خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ جُمْلًا مُؤَوَّزَةً كُتُبًا مَحْمُولَةً إِلَى دَارِ الْوِزَرِ أَمَى الْفَرَجِ مُحَمَّدَ بْنَ جَعْفَرِ الْمَغْرَبِيِّ، فَسَأَلَتْ عَنْهَا فَعَرَفَتْ أَنَّ الْوِزَرَ أَخَذَهَا مِنْ خِزَانَةِ الْقَصْرِ هُوَ وَالْخَطِيرُ بْنُ الْمُؤَوَّقِ فِي الدِّينِ بِإِيجَابٍ وَجِبَتْ لَهُمَا عَمَّا يَسْتَحِقَّانِهِ وَعُلَمَانُهُمَا مِنْ دِيْوَانِ الْحَلِيبِيِّينَ، وَأَنَّ حَصَةَ الْوِزَرِ أَمَى الْفَرَجِ قُوِّمَتْ عَلَيْهِ بِخَمْسَةِ آلَافِ دِينَارٍ وَكَانَتْ تَسَاوَى أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ آلَافِ دِينَارٍ نُهَيْتُ بِأَجْمَعِهَا مِنْ دَارِهِ يَوْمَ انْهَزَمَ نَاصِرُ الدَّوْلَةِ بْنُ حَمْدَانَ مِنْ مِصْرِ فِي صَفَرٍ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ»^١.

كَذَلِكَ فَقَدْ اسْتَوْلَى الْجُنْدُ وَالْأُمَرَاءُ عَلَى نَفَائِسٍ مَا كَانَ فِي خِزَانَةِ الْكُتُبِ الْفَاطِمِيَّةِ وَخِزَانَةِ دَارِ الْعِلْمِ، فَتَفَرَّقَتْ أَكْثَرُ مَحْتَوِيَّاتِهَا وَكُلُّهَا كَسِبَ مَفْرَدَةً مَجْلَدَةً تَجْلِيدًا فَآخِرًا. وَصَارَتْ بَعْضُ هَذِهِ الْكُتُبِ إِلَى عِمَادِ الدَّوْلَةِ بْنِ الْمُحْتَرِّقِ بِالإِسْكَانْدَرِيَّةِ، ثُمَّ انْتَقَلَتْ بَعْدَ مَقْتَلِهِ فِي ظُرُوفٍ غَيْرِ مَعْلُومَةٍ لَنَا إِلَى الْمَغْرِبِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ قَبِيلَةُ لَوَّائَةِ وَحَمَلْتَهُ أَيْضًا إِلَى الإِسْكَانْدَرِيَّةِ فِي سَنَةِ ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م وَمَا بَعْدَهَا «مِنْ الْكُتُبِ الْجَمِيلَةِ الْمَقْدَارِ الْمَعْدُومَةِ الْمِثْلِ فِي سَائِرِ الْأَمْصَارِ صِبْغَةً وَحُشْنِ خَطٍّ وَتَجْلِيدٍ وَغَرَابَةٍ» وَهِيَ الْكُتُبُ الَّتِي أَخَذَ جُلُودَهَا عِيْدَهُمْ وَإِمَاؤُهُمْ «بِرَّشْمِ عَمَلٍ مَا يَلْبِسُونَهُ فِي أَرْجُلِهِمْ» ثُمَّ أَحْرَقُوا وَرَقَهَا بِحُجَّةٍ أَنَّ فِيهِ كَلَامَ الْمَشَارِقَةِ الَّذِي يَخَالِفُ مَذْهَبَهُمْ، وَكَذَلِكَ سَوَى مَا غَرِقَ وَتَلَفَ وَحُجِّلَ إِلَى سَائِرِ الْأَمْصَارِ، وَمَا بَقِيَ مِنْهَا دُونَ حَرْقِ سَفْتِ عَلَيْهِ الرِّيحُ التَّرَابُ فَصَارَ تَلَالًا تَعْرِفُ بِتَلَالِ الْكُتُبِ^٢.

^١ المقرئى : المخطوط ١ : ٤٠٨-٤٠٩ واتعاظ الحنفا ٢ : ٢٩٤-٢٩٥ .

^٢ المقرئى : مسودة المواعظ والاعتبار ١٤٠ والمخطوط ١ : ٤٠٩ .

هذا الدمار أصاب فقط خزائن القصر البرانية التي لم يبق منها شيء من هذه الكتب أو غيرها من كنوز خزائن الفاطميين الأخرى ؛ بينما احتفظت خزائن القصر الداخلة التي لا يتوصل إليها برصيدها من الكتب الذي أخذ يضيف إليه ويُتَمِّيه خلفاء الفاطميين ووزراؤهم والذي ظل باقيا حتى استيلاء صلاح الدين على مقاليد السلطة في مصر سنة ٥٦٧هـ / ١٠٧٢م ، فأمر ببيعها وخصَّصَ لذلك يومين في الأسبوع واستمر ذلك لمدة عشر سنوات وتولَّى بيعها ابن صَوْرَة دَلال الكتب .

ورغم ما يبدو على الأرقام التي ذكرت عن حجم هذه المكتبة من مبالغة إلا أنه يدلُّ على عِظَم حجم هذه المكتبة وما احتوت عليه من المجلدات . وقد علَّقَ المقرئى على الرقم الذى أورده ابن أبى طىِّ بأنه ليس ببعيد حيث ذكر غير واحد من المؤرخين أن القاضى الفاضل وَقَفَ فى مدرسته التى بدَّزب مُلُوخيا مائة ألف مجلدة أخذها من جملة خزائن الكتب التى كانت بالقصر^١ .

ويصف ابن أبى طىِّ الطريقة التى حَصَلَ بها القاضى الفاضل على هذه الكتب بقوله :

« وحصل للقاضى الفاضل قَدْرٌ منها كبير حيث شَغَفَ بحبها وذلك أنه دَخَلَ إليها واعتبرها ، فكل كتاب صَلَحَ له قَطَعَ جلده ورماه فى بركة كانت هناك ، فلما فَرَّغَ الناسُ من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التى ألقاها فى البركة على أنها مخرومات ثم جمعها بعد ذلك ، ومنها حَصَلَ ما حَصَلَ من الكتب ، كذا أخبرنى جماعة من المصريين منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد^٢ .

^١ المقرئى : مسودة المواقف والاعتبار ١٣٩-١٤٠ والخطوط ١ : ٤٠٩ .

^٢ أبو شامة : الروضتين ١ : ٥٠٧ ؛ الصفدى : الوافى ١٧ : ٦٨٨ .

فقد كان للقاضى الفاضل هوىً فى تحصيل الكتب ، كما يقول الصفدى ، وكان عنده زهاء مائتى ألف كتاب من كل كتاب نُسخ^١ . وكان يقتنى الكتب من كل فن ويجتلبها من كل جهة وله نُسخ لا يفترون ومجلدون لا يسأمون حتى بلغ عدد كتبه قبل وفاته بعشرين سنة مائة ألف كتاب وأربعة عشر ألف كتاب^٢ . وكان لخزانة كتب المدرسة الفاضلية فهرسٌ لكتبها رآه القفطى وأطلع عليه^٣ .

وقد ذهبت مكتبة القاضى الفاضل الموجودة فى مدرسته هى الأخرى وتفرقت فى نهاية القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى ، يقول المقرئى فى سبب ذهابها :

« وكان أصلُ ذهابها أن الطلبة التى كانت بها لما وَقَعَ الغلاء بمصر فى سنة أربع وتسعين وستمائة - والسلطان يومئذ الملك العادل كَثِيفًا المنصورى - مَشَهُم الضَّرَّ فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب ، ثم تداولت أيدى الفقهاء عليها بالعارية فَتَفَرَّقَتْ . وبها الآن مصحف قرآن كبير القدر جدًا مكتوب بالخط الأول الذى يعرف بالكوفى تسميه الناس مُصْحَفَ عثمان بن عفَّان ، ويقال إن القاضى الفاضل اشتراه بنيف وثلاثين ألف دينار على أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وهو فى خزانة مفردة بجانب الخراب من غريبه وعليه مهابة وجلالة^٤ .

ويذكر العماد الكاتب الأصفهانى ، معاصر السلطان صلاح الدين ، الطريقة التى يبعث بها كتب خزانة الفاطميين فيقول :

« بأن يبع الكتب فى القصر كان له يومان فى كل أسبوع ، وكانت الكتب تباع بأرخص الأثمان . وبعد أن كانت خزائنها فى القصر مرتبةً مفهرسةً قبل للأمير بهاء

^١ الصفدى : الوافى ١٨ : ٣٣٦ .

^٢ ابن العماد : شذرات الذهب ٤ : ٣٢٥ .

^٣ القفطى : إنباه الرواه ٣ : ١٨٧ .

^٤ المقرئى : الخطط ٢ : ٣٦٦ .

الدين قراقوش متولى القصر وصاحب الأمر والنهى فيه : إن هذه الكتب قد عاث فيها العث ولا بد من تهويتها وإخراجها من الرفوف إلى أرض الخزانة ، وكان هذا الوزير تركيًّا لا خبرة له بالكتب ولا دربه له بأسفار الأدب ، بينما كان هذا الطلب حيلة مديرة من تجار الكتب يريدون بها تفريق المؤلفات وتوزيع أجزائها وخلط أنواعها ومزج بعضها ببعض . فتم ذلك واختلطت كتب الأدب بكتب النجوم ، وكتب الشرع بكتب المنطق ، وكتب الطب بكتب الهندسة ، والتاريخ بالتفسير ، والكتب المجهولة بالكتب المشهورة . وكان فى الخزانة مؤلفات يشتمل كل كتاب منها على خمسين أو ستين جزءًا مجلدًا إذا فقد منها جزء لا يخلف أبدًا ، ففروق الدالون هذه الأجزاء لتقل قيمة الكتب وتباع بأبخس الأثمان ، بينما كانوا يعرفون مواضع أجزائها ويستطيعون جمع شملها بعد شرائها وكان بعضهم يتشاركون فى إتمام ذلك ثم يبيعون الكتب بعد ذلك بأضعاف الثمن الذى دفعوه فيها^١ .

وأضاف العماد الأصفهاني أنه لما رأى الأمر كذلك

» حضر إلى القصر ، واشترى كما اشترى الدالون ، ولما عرف السلطان ما ابتاعه ، وكان بمقين ، أنعم عليه به ، وأبرأ ذمته من ذهبها ، ثم وهب له أيضًا من خزانة القصر ما عيّن عينه من كتبها .

ودخل عليه يومًا وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر ، وهو ينظر فى بعضها ، ويسط يده لقبضها ، وقال : كنت طلبت كتبًا غيّبتنا ، فهل فى هذه منها شيء ؟ فقال : كلها ، وما أستغنى عنها ، فأخرجها من عنده بحمّال^٢ .

لاشك أن مكتبة بضخامة خزانة كُتُب الفاطميين بَدَل الفاطميون فى سبيل تكوينها الكثير واشتروا لها النسخ النادرة من أرجاء العالم الإسلامى ، بالإضافة إلى ما كَلَّفوا

^١ أبو شامة : الروضتين ١ : ٦٨٦ .

^٢ نفسه : ١ : ٦٨٧ .

التشايخ والوزّاقين بكتابته لهم ، هم ووزراؤهم ، كان لها مخاير تهتم بالخطوات المختلفة لصناعة الكتاب (الورق والحبر والتجليد ، وكذلك الصيانة والترميم ، بالإضافة إلى عدد وفير من التشاخين والوزّاقين) خاصة وأن المؤرخين يذكرون أن أغلب نسخ هذه الخزنة كانت ذات تجليد متميز .

ونحن نعرف أن قبط مصر حذّقوا صناعة تجليد الكتب في العصر المسيحي ، وتعلّم المسلمون عنهم أساليب التجليد في أعقاب فتح مصر . وقد تعلّم الرحالة المقدسي البشاري الذي زار مصر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري فنّ تجليد الكتب على أقباط مصر . وكان من بين ألقابه « وَزَّاقٌ ومُجَلِّدٌ » كما يجلد المصاحف بالكرى في عَدَن^١ . ورغم أنه قد وصل إلينا بعض جلود الكتب القبطية فإنه لم يصل إلينا أى تجليد لكتاب عربى قديم . أما أغلب جلود المصاحف والكتب الإسلامية المحفوظة في مكتبات ومتاحف العالم الآن فترجع إلى العصر المملوكى فى مصر والشام وابتداء من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

وتشير المصادر إلى أن الفاطميين اعتنوا كثيرا فى إفريقيا ومصر ، بالمصاحف المكتوبة بالذهب والفضة . غير أنه للأسف الشديد لم يصل إلينا أى مصحف يرجع إلى العصر الفاطمى سوى قطعة من مصحف بالخط الكوفى مكتوب بالذهب على رق أكحل (أزرق) مصبوغ بمادة النيلة ؛ كان فى الأساس محفوظًا فى مكتبة جامع القيروان وقد وُصِفَ فى السَّجِلِ القديم للمكتبة على النحو التالى :

« (مصحف) بخط كوفى على الرق ، مسطرة خمسة ، فى أول كل جزء

منها ... فى بيت عود ربعة محلاة بالنحاس الموه بالذهب .. فى سبعة أجزاء بالحرم

الكبير مكتوب بالذهب بخط كوفى فى رق أكحل .. السور وعدد الآى والأحزاب

^١ المقدسي : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ٤٤ ، ١٠٠ .

بالفضة، مفضاة بالجلد المنقوش فوق اللوح، مبطنة بالحريز^١.

ويوجد من هذا المصحف اليوم، بالإضافة إلى ما يوجد منه بجامع القيروان، أوراق موزعة في مكتبات ومتاحف العالم والمجموعات الخاصة. ويرى الباحثون الذين درسوا هذه الأوراق أن هذه الطريقة في الكتابة هي تقليد لخطاب ملكي بيزنطي مكتوب بالذهب على رق مصبوغ باللون الأزجواني.

فقد وصلت سفارة بيزنطية إلى الفاطميين في شمال إفريقية عام ٣٤٠هـ / ٩٥٠م تطلب من المعز لدين الله « الهدنة مؤبدة على ما أجراه من الخراج والجزية على أهل قُلُوزِيَّة »^٢. ومعروف أن البيزنطيين أرسلوا كتابًا في زمن الإمبراطور رومانوس موجَّهًا إلى الخليفة العباسي الراضى بالله « كانت الكتابة فيه الرومية بالذهب والترجمة العربية بالفضة » على أرضية أزجوانية^٣، كما تلقى الناصر الأموي خليفة قُوطْبَة رسالة من الإمبراطور قسطنطين ليكاينوس « في رق مصبوغ سمائي مكتوب بالذهب »^٤، ومن المحتمل أن يكونوا أرسلوا مثله إلى الفاطميين.

ونحن نعرف أن الفاطميين كان عندهم نُسخُ أخرى من المصحف مكتوبة بالذهب على رقوق مصبوعة باللون الأزرق. ففي سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م أرسل الحاكم بأمر الله من القصر إلى الجامع العتيق بالقسطاط ١٢٩٨ مصحفًا ما بين ختمات ورُبعات فيها ما هو مكتوب كله بالذهب^٥. وأُخرج من خزانة كتب القصر الفاطمي في زمن الشدة المستنصرية ٢٤٠٠ نسخة قرآن في رُبعات مُحَلَّاة بالذهب والفضة^٦، كما وجد بها أيضًا

^١ إبراهيم شبح : « سجل قديم لمكتبة جامع القيروان »، مجلة معهد المخطوطات العربية ٢ (١٩٥٦)، ٣٣٥.

^٢ القاضي التعمان : مجالس والمسائر، تونس ١٩٧٧، ٣٦٧؛ عماد الدين إدريس : تاريخ الخلافة الفاطمية بالمغرب

٥٩١-٥٩٠.

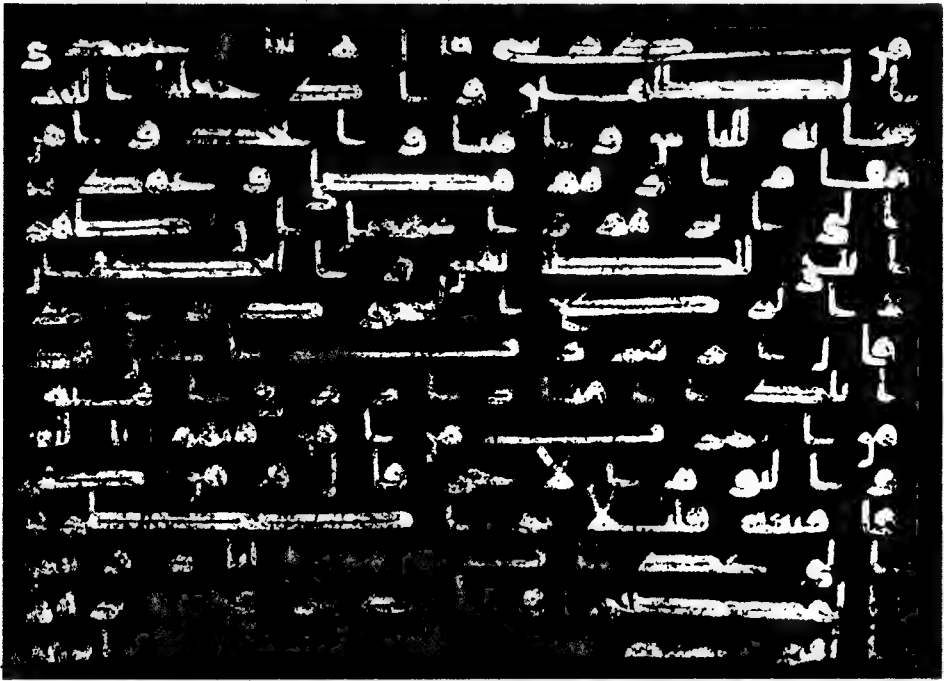
^٣ الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٦٠-٦١.

^٤ ابن عسري : البيان المغرب ٢ : ٢١٣-٢١٥.

^٥ المقرئزي : الخطوط ٢ : ٢٥٠، تماط الحنفا ٢ : ٩٦.

^٦ المقرئزي : تماط الحنفا ٢ : ٩٦.

خَتَمَاتٍ مَكْتُوبَةٍ بِالذَّهَبِ الْمَكْجَلِ بِاللَّازُورْدِ^١. وَفِي الْمَصْحَفِ الْأَزْرَقِ الَّذِي وَجَدَ بِالْقَيْرَوَانِ لَيْسَ مَصْحَفًا مُنْفَرَدًا فِي الْعَصْرِ الْفَاتِمِيِّ وَلَكِنَّهُ الْمَصْحَفُ الْوَحِيدَ الَّذِي وَصَّلَ إِلَيْنَا مِنْ بَيْنِ هَذَا الْعَدَدِ الضَّخْمِ مِنَ الْمَصَاحِفِ الَّتِي كُتِبَتْ فِي الْعَصْرِ الْفَاتِمِيِّ^٢ [لوحة رقم ٧].



لوحة ٧ - ورقة من المصحف الأزرق الفاطمي الذي وجد بالقيروان (مجموعة ناصر خليلي)

أَمَّا الْكُتُبُ الَّتِي وَصَّلَتْ إِلَيْنَا وَتَأَكَّدَ لَنَا أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ بَيْنِ كُتُبِ خِزَانَةِ كُتُبِ الْفَاتِمِيِّينَ فَثَلَاثُ مَخْطُوطَاتٍ: الْأُولَى النُّشْخَةُ الْوَحِيدَةُ مِنْ كِتَابِ «التَّغْلِيقاتِ وَالتَّوَادِرِ» لِأَبِي عَلِيٍّ الْهَجَرِيِّ الَّتِي كَانَ يَوْجَدُ قِسْمٌ مِنْهَا بِدَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ تَحْتَ رَقْمِ ٣٤٢ لُغَةً

^١ الرشيد بن الزبير: الذخائر والنصف ٢٥٥.

^٢ راجع لتفصيلات أكثر مقال Bloom, J.M., «The Blue Koran: an early fatimid Kufic manuscript from the Maghrib», dans *les Manuscrits du Moyen Orient*, pp. 95-99.

وبقيتها في مكتبة الجمعية الآسيوية للبنغال في كلكتا بالهند . وترجع النسخة إلى القرن الرابع أو الخامس الهجرى ثم أضيفت في نهاية القرن الخامس الهجرى :

« للخزانة السيدة الأجلية الأفضلية الجيوشية السيفية الناصرية الكافلية الهادية

عمرها الله بدائم العز » .

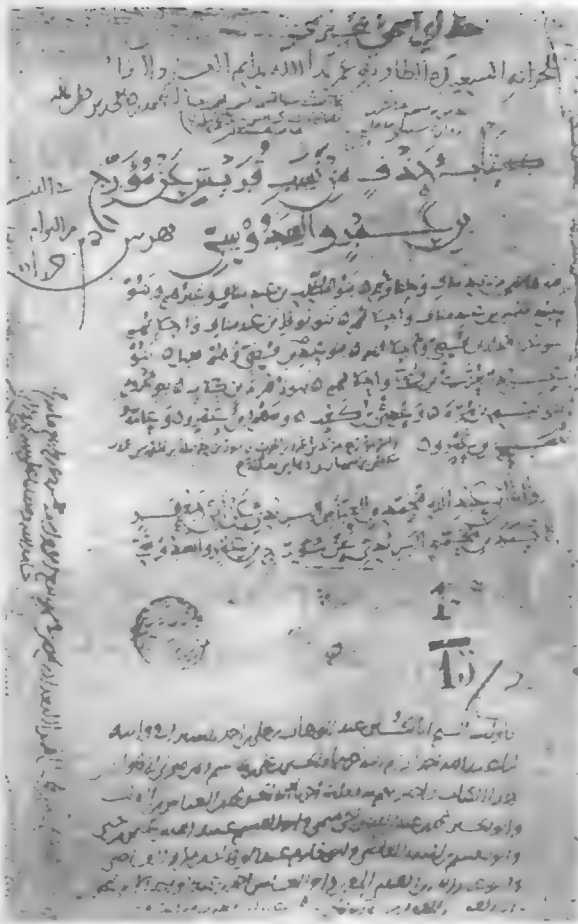
وهذه ألقاب السيد الأجل الأفضّل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين شاهنشاه بن بدر الجمالى الذى تولّى الوزارة فى الفترة بين سنّى ٤٨٧ - ٥١٥ هـ / ١٠٩٤ - ١١٢١ م وكانت له خزانة كتب ضخمة بها خمسمائة ألف مجلد من الكتب ، ثم صارت هذه النسخة بعد ذلك « للخزانة السعيدة الفائزة عمرها الله بدائم العز والبقاء »

أى إلى خزانة الخليفة الفاطمى الفائز بنصر الله (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ / ١١٥٤ - ١١٦٠ م) . [لوحة رقم ٨] .

وقد بقيت القطعتان فى القاهرة بعد خروجهما من خزانة كُتُب الفاطميين ، فقد أطلع عليهما عالم جليل هو أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم القيسى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م وكتب فى طُرّة كل واحدة منهما ما نصّه :



لوحة ٨ - الورقة الأولى من كتاب «التعليقات والنوادر لأبى على الهجرى» (دار الكتب المصرية ٣٤٢ لغة) .



وطالعه ونقله

فوائد الفقير إلى الله تعالى

أحمد بن عبد القادر بن

أحمد بن مكرم بن أحمد

القيسي .

وبقى قسم من النسخة في القاهرة

وضم إلى رصيد دار الكتب المصرية في

نهاية القرن التاسع عشر وذكر في

فهرست اللغة تحت رقم ٣٤٢ لغة،

بينما انتقل بقيتها إلى الهند في تاريخ لا

نعلمه . وللأسف فإن القطعة الموجودة

بدار الكتب قد حل محلها الآن نسخة

مصورة على الورق عن نسخة الهند،

والأثر الوحيد لها الآن هو صورة

فوتوستاتية أخذت لها سنة ١٩٥٤

وأضيفت إلى رصيد الدار برقم

٥٦٥٥٣ .

لوحة ٩ - الورقة الأولى من كتاب حذف من نسب قريش عن

مؤرج بن عمرو السدوسي بخط أبي إسحاق النجيمي وعليها ما

يفيد وجودها في خزانة القصر الفاطمي (الخزانة الطاقية) . (الخزانة

العامة بالرباط)

[وعن هذه النسخة نشر الشيخ حمد الجاسر الكتاب ومصدر عن دار اليمامة بالرياض سنة ١٩٩٢] .

والكتاب الثاني هو النسخة الوحيدة أيضًا من كتاب «حذف من نسب قريش» عن

مؤرج بن عمرو السدوسي، وهذه النسخة كتبها بخطه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله

ابن محمد بن حبيش التجيزمي البغدادى الكاتب النحوى المتوفى سنة ٣٤٣هـ / ٩٥٤م

بالخط الكوفي المشرقي أو الخط الشبيه بالكوفي الذى ظهر فى القرن الرابع الهجرى

كتطور للخط الكوفي موازياً لحركة إصلاح الكتابة التي بدأها ابن مُقَلَّة وأتمها ابن اليُؤاب في نهاية القرن الرابع^١، فقد جاء بآخرها :

« تم الكتاب »

والحمد لله حق حمده على كل حال وصلى الله

على رسوله محمد وعلى أهل بيته الأخيار

وسلم على عباده المططفين ومستغفراً لله

وكتب إبراهيم بن عبد الله بن محمد النجيمى الوراق »

وقرأ هذه النسخة في بغداد أبو الحسن محمد بن العباس بن أحمد بن الفرات سنة

٣٦٥ هـ على الشيخ أبي القاسم عمر بن محمد بن سيف في منزل الشيخ بالجانب الغربي

من بغداد، فقد جاء في غاشية الكتاب بحذاء قوله : « تم الكتاب » :

« بلغت بقراءة أبي الحسن محمد بن العباس بن الفرات أيده الله على الشيخ أبي

القاسم عمر بن محمد بن سيف أيده الله في شهر رمضان من سنة خمس وستين

وثلاثمائة وسمع المسمون في أوله » .

وهؤلاء المسمون أثبتت أسماؤهم في إجازة وردت على هامش الصفحة الأولى من

الكتاب . وظلَّت هذه النسخة تُداول بين أيدي العلماء حتى انتقلت إلى مصر إذ نجد

على صفحة عنوانها مناولة للكتاب مؤرخة في سنة ٤٢٥ هـ كتبها

« الحسين بن محمد الفراء البغدادي بمصر في شهر ربيع الأول سنة خمس

وعشرين وأربعمائة حامداً لله ومصلحاً على نبيه محمد وآله »

ثم دَخَلَتِ النُّسخة بعد ذلك في منتصف القرن السادس الهجري بين كتب خزانة

القصر الفاطمي فقد جاء على ظهرها :

« للخزانة السعيدة الظافرية عمرها الله بدائم العز والبقاء »

^١ راجع ، أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات ، القاهرة-الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧ ، ١٦٩-

أى خِزَانَةُ الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ الظَّافِرِ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ (٥٤٤-٥٤٤هـ/١١٥٠-١١٥٤م). وقد انتقلت هذه النسخة، بعد خروجها من خِزَانَةِ كُتُبِ الْفَاطِمِيِّينَ وَتَشَتَّتَتْ خِزَانَةُ كُتُبِ الْمَدْرَسَةِ الْفَاضِلِيَّةِ، فِى تَارِيخٍ نَجْهَلُهُ إِلَى الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى حَيْثُ وَقَّتْ عَلَى زَاوِيَةِ النَّاصِرِيِّ بِتَامَكُرُودٍ فِى جَنُوبِ الْمَغْرِبِ وَظَلَّتْ حَبِيسَةً بِهَا إِلَى أَنْ نَقَلَهَا عَالَمُ الْمَخْطُوطَاتِ الْمَغْرِبِيِّ السَّيِّدِ إِبْرَاهِيمَ الْكَتَانِي إِلَى الْخِزَانَةِ الْعَامَةِ بِالرِّبَاطِ سَنَةَ ١٩٥٨.

[لوحة رقم ٩].

[وعن هذه النسخة نشر الدكتور صلاح الدين المنجد الكتاب فى القاهرة وصدر عن دار العروبة سنة ١٩٦٠].

أما المخطوطة الثالثة فهى المجلد العاشر من كتاب «الأغاني» لأبى الفرج على بن الحسين الأصفهاني الكاتب المتوفى سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧م يحوى الجزأين التاسع عشر والعشرين من الكتاب من نسخة ترجع إلى القرن الخامس الهجرى كُتِبَ عَلَى صَفْحَةٍ غُلَافِهَا:

«لِلخِزَانَةِ السَّعِيدَةِ الظَّافِرِيَّةِ عَمَّرَهَا اللَّهُ بِدَائِمِ الْعِزِّ وَالْبَقَاءِ»

وتوجد هذه المخطوطة اليوم فى دار الكتب المصرية وهى محفوظة بها تحت رقم ٤٢٧ أدب أحضرت إليها كما هو مثبت على غلافها:

«من جامع السلطان حسن وأضيفت فى ٥ يولية سنة ١٨٨١»

وجاء على آخر صفحة فى المجلد وَقْفِيَّةٌ تُشَيِّعُ عَلَى مَدْرَسَةِ وَجَامِعِ السُّلْطَانِ حَسَنِ بِالقَاهِرَةِ الَّذِى أَنشَأَهُ السُّلْطَانُ النَّاصِرُ حَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ قِلَافُونَ أَسْفَلَ قَلْعَةَ الْجَبَلِ فِى مِيدَانِ الرُّمَيْلَةِ بَيْنَ سَنَى ٧٥٨-٧٦٢هـ/١٣٥٦-١٣٦٠م، وَجَعَلَ بِإِيوَانَ الْمَدْرَسَةِ الْبَحْرِيَّ خِزَانَةً «لِحَزْنِ مَا عَسَاهُ أَنْ يَكُونَ بِالْمَكَانِ الْمَذْكُورِ مِنَ الْمَصَاحِفِ وَالزُّبُنَاتِ الشَّرِيفَةِ وَالْكَتَبِ» كَانَ الرَّاتِبُ الشَّهْرِيُّ لِحَازِنِهَا مِائَةُ دَرَاهِمٍ نَقْرَةً. وَنَصُّ الْوَقْفِيَّةِ هُوَ:

« هذا ما أوقف العبد الفقير إلى الله تعالى أبو المحاسن الحسن بن محمد بن قلاوون عفا الله عنه ورحمه ، وهو من كتاب « الأغاني » لله تعالى على طلبة العلم الشريف يتفقون به انتفاع أمثالهم وفقًا صحيحًا شرعيًا لا يباع ولا يُوقب ولا يُورث ولا يكون إلا ملكًا لله إلى أبد الآبدين وشرط النظر في ذلك الإمام محمد بن النقاش وشرط على مستميره برهن مقبوض أن لا يغيب به أكثر من ثلاثة أشهر ويكون مقره بالجامع المنسوب للعمارة ﴿ فمن بذله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه ﴾ وكتب في شهر سنة خمس وخمسين وسبعمائة وكفى بالله شهيدًا .

رواضح من تاريخ الوقفية أن السلطان الناصر حسن كان يجمع الكتب التي ستوضع في خزانة الجامع - المدرسة قبل الشروع في بنائه .

وقد جاء على الورقة الأولى من « التعليقات والتوادر » ، سواء القطعة التي كانت بدار الكتب المصرية أو القطعة الموجودة بالهند .

« فهرس في قوام المجاميع المفردة »

وعلى نسخة « حذف من نسب قرئش »

« فهرس من التوام ؟ في النسب »

وعلى نسخة كتاب « الأغاني » بنفس الخط ، وهو دون شك خط خازن كتب خزانة الفاطميين :

« فهرس من النواصر »

هذه هي الكتب التي تأكد لنا أنها كانت بين خزانة كتب الفاطميين والتي كان يُسجل على ظهرها اسم الخليفة الذي أضيفت في عهده إلى الخزانة ، كما كان مُفهرس الخزانة يُسجل عليها بخطه الفن أو الموضوع الذي فُهرست فيه . وواضح أن هذه النسخ الثلاثة ترجع كلها إلى نهاية العصر الفاطمي في خلافتي الظاهر والفايز (٥٤٤ - ٥٥٥ هـ) وأن نسخة « التعليقات والتوادر » كانت في خزانة الوزير الأفضل بن بدر

الجمالى (٤٨٧-٥١٥ هـ) قبل أن تصل إلى خزانة الفائز. وربما تُظهر لنا الأيام نُسخًا أخرى من الكتب التى تعود إلى هذه الخزانة الهامة التى انتهت محتوياتها وضاعت عَنَّا أولاً بسبب الفوضى التى اجتاحت مصر أواسط القرن الخامس الهجرى، ثم بسبب تعصُّب الأيوبيين على الفاطميين ويعدمهم لمكتبتهم، وأخيراً بعد ذهاب مكتبة القاضى الفاضل فى نهاية القرن السابع الهجرى والتى كانت تشتمل على نحو مائة ألف مجلد من بين مخطوطات هذه المكتبة^١.

^١ راجع ، أيمن فؤاد سيد : «خزانة كتب الفاطميين هل بقى منها شئ؟» ، مجلة معهد المخطوطات العربية ١/٤٢

(١٩٩٨) ، ٧-٣٢.

الفصل السابع عشر

العمارة والفنون

إذا كان العصر الطولوني (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م) هو بداية مرحلة استقلال مصر عن الخلافة العباسية، فإنه أيضًا مرحلة تَطَوَّر هامة في مجالى العمارة والفنون فى مصر الإسلامية، فقد تأثرت العمارة الطولونية كثيرًا بنمط العمارة الذى كان سائدًا حينذاك فى مدينة سامراء (سُر من رأى) فى العراق. ويَتَضَح هذا التأثير على الأخص فى عمارة «جامع أحمد بن طولون» - الأثر الوحيد الباقى من مدينة «القُطائع» الطولونية والذى فُرِغَ من بنائه وافتتح للصلاة فى رمضان سنة ٢٦٥هـ/مايو سنة ٨٧٩م. وأصبح هذا الجامع هو النموذج الذى أثر فيما بعد فى تخطيط وبناء المساجد الجامعة فى مصر الإسلامية حتى جامع المؤيد شَيْخ الذى بنى فى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م (صَحْنٌ يحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة).

ومع وصول الفاطميين إلى مصر ظهرت تأثيرات جديدة فى العمارة أتوا بها من شمال إفريقيا. كما ظهرت إلى الوجود لأول مرة موضوعات فنية زخرفية ذات عناصر مستمدة من الأشكال الآدمية والحيوانية.

المآزة

انحصرت فنون العمارة الفاطمية التى وَصَلَتْ إلينا فى المدن التى أسَّسها الفاطميون فى إفريقيا ومصر (المهديّة، صَبْرَة المنصورية، القاهرة).

وما زالت المهديّة، التى أسَّسها الخليفة المهدي سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م وانتقل إليها سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م، تحتفظ بأنقاض تحصيناتها الفاطمية، ومسجد جامع أعيد بناؤه، وبقايا قصر القائم بأمر الله. ويتميّز جامع المهديّة بمدخل رئيسى بارز عن سَمَت جدار المؤخر

على هيئة بَوَابَةٍ تُدَكَّرُنا بأقواس النصر الرومانية [لوحة ١٠]، وقد انتقل هذا الطراز إلى العمارة الفاطمية في مصر^١. وعند مدخل مدينة القيروان - حيث أنشئت مدينة صَبِيْرَة المنصورية - ما زالت هناك بقايا لقصر يُظَنُّ أنه من عمل المنصور بالله إسماعيل، نستطيع أن نُثَمِّزَ منه قاعةً عريضة تفتح عليها ثلاث قاعات على شكل إيوان^٢. ويشبه هذا التنسيق شكل القاعات الطولونية التي كُثِفَتْ في القُشَطَاط، وهو يدلُّ على وجود علاقات بين مصر وإفريقية سابقة على انتقال المُعِزِّ إلى مصر^٣.

وفي مصر أسَّس جَوْهَر مدينة القاهرة واستخدم في بناء أسوارها وأبوابها الأولى الآجَر، وقد زالت آثار سور جَوْهَر وأبوابه منذ زيارة ناصر خُشْرُو مُصْر في أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي [شكل ٣].

وفي نفس الليلة التي اختطَّت فيها جَوْهَر مدينة القاهرة وَصَّعَ أساس «قصر كبير» في وسط المدينة اعتمادًا على التصميم الذي وضعه الخليفة المُعِزُّ بنفسه، وبالطبع فإن هذا التصميم لم يكن يتضمَّن نصف الأبنية والقاعات الفخمة التي وَصَّفَهَا المقرئ. وهو عبارة عن مجموعة من الأبنية والقصور الصغيرة أُطلق على مجموعها «القصور الزاهرة». وللأسف الشديد فنحن نجهد كل شيء عن عمارته حيث زال كل أثر لهذا القصر وحلَّت محله الآن المدارس التي أنشئت في العصرين الأيوبي والمملوكي وحتى خان الخليلي وحتى الجمالية [شكل ١، ٢]. ومصدر معلوماتنا عن هذا القصر ما أمَدَّنَا به المقرئ في كتاب «الخِطَط» نقلًا عن مصادر أيوبية أو ما شاهده بنفسه من بقايا أطلال القصر التي

^١ انظر Lézine, A., *Mahdiya, Recherches d'Archéologie Islamique*, Paris 1965; Fu'ad Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte*, pp. 94-102.

^٢ انظر Zbiss, S. M., « Mahdia et Sabra Mansouria. Nouveaux documents d'art fatimide d'Occident », *JA* CCXLIV (1956), pp. 79-93.

^٣ Marçais, G., *EI*² art. *L'Art Fatimide II*, p. 882.

^٤ Creswell, K.A.C., « The Founding of Cairo », *CIHC* pp. 125-130; Fu'ad Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte jusqu'à l'époque fatimide*, Beirut- Stuttgart 1998.



شكل ٣ - الشكل العمراني لمدينة القاهرة كما وضعها خنوفر



شكل ٤ - الشكل العمراني لمدينة القاهرة في نهاية العصر الفاطمي

(تصوّر بالكمبيوتر عن نزار الصّيتاد : المدن والعمران في صدر الإسلام ٥٠٠، ٥٤)

قُضِيَ عليها تمامًا نحو سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م في أيام استبداد جمال الدين الأشتادار^١. وعلى عكس المدن الإسلامية فقد كان القصر الفاطمي لا المسجد الجامع هو مركز مدينة القاهرة الذي يتركز حوله نشاط المدينة.

وفي عام ٣٥٩هـ/٩٧٠م وَضَعَ جَوْهَرُ القَائِدِ أساس «جامع القاهرة» - الذي عرف فيما بعد بـ «الجامع الأزهر»^٢ - ولم يُفْتَحَ هذا الجامع للصلاة إلا في ٧ رمضان سنة ٣٦١هـ/٢٠ يولية سنة ٩٧١م، وقد استخدم في بنائه أيضًا الآجر. ويشبه التخطيط الأصلي له تخطيط جامع ابن طولون وجامع المهديّة. والجامع الذي نراه اليوم ليس كله بالجامع الفاطمي الذي وَضَعَ أساسه جَوْهَرُ، بل هو مجموعة من المباني ضُمَّتْ إليه في أزمنة لاحقة. ولم يبق من الجامع الفاطمي سوى الجناز المتجه إلى المحراب الفاطمي وعقوده وهي الجزء الوحيد الباقي من العقود القديمة^٣.

أما «جامع الحاكم» فقد بدأ بناءه الخليفة العزيز بالله خارج باب الفتوح القديم سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م وسماه «جامع الخطبة»، ثم تَوَقَّفَ العمل فيه إلى أن أكمله ولده الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٣م، ولكنه لم يُفْتَحَ رسميًا للصلاة إلا في سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م وأطلق عليه في فترة لاحقة اسم «الجامع الأنور». ويجمع هذا الجامع في

^١ المقرئ: الخطط ١ : ٣٨٤-٤٥٨ ; Ravaisse, p., *Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire* ; MMAFC, II (1887,1890) ; Fu'ad Sayyid, A., *op. cit.*, pp. 209-299

^٢ استخدم الفاطميون صيغة أفضل التفضيل في تسمية منشآتهم الدينية التي أنشأها الخلفاء مثل : الجامع الأزهر، الجامع الأنور، الجامع الأقمر، الجامع الأنور. فقد كان الجامع الأزهر يطلق عليه في عصر المسبحي (مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) جامع القاهرة، وكذلك الجامع الأنور الذي ظل لفترة غير قصيرة يعرف بجامع الحاكم.

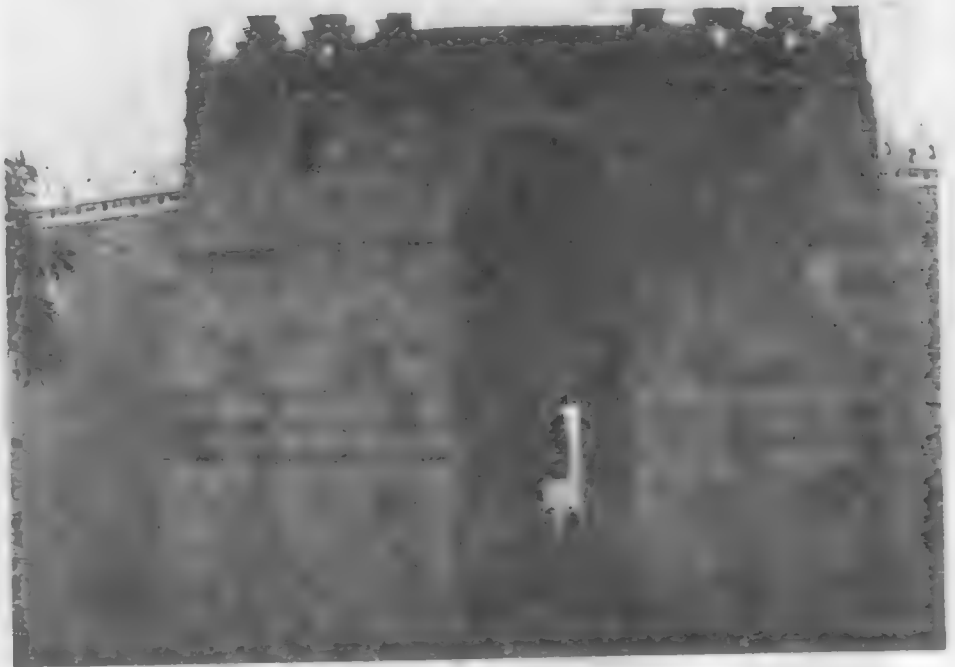
^٣ المقرئ: الخطط ٢ : ٢٧٣-٢٧٧ ; حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية، القاهرة ١٩٤٦، ١ : ٤٧-٦٣ ;

أحمد فكري : مساجد القاهرة ومبانيها ١ : ٤١-٥٩ ; Creswell, K. A. C. *MAEI*, pp. 36 - 64 ; Jomier, J., *El art. al-Azhar I*, pp. 837-844 ; Fu'ad Sayyid, A., *op.cit.*, pp. 191-207

عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر، القاهرة ١٩٥٨ ; Rabbat, N., «Al-Azhar Mosque: An Architectural Chronicle of Cairo's History», *Muqarnas* 13 (1996), pp. 45-67



لوحة ١٠ - المدخل الرئيسي لجامع المهديّة



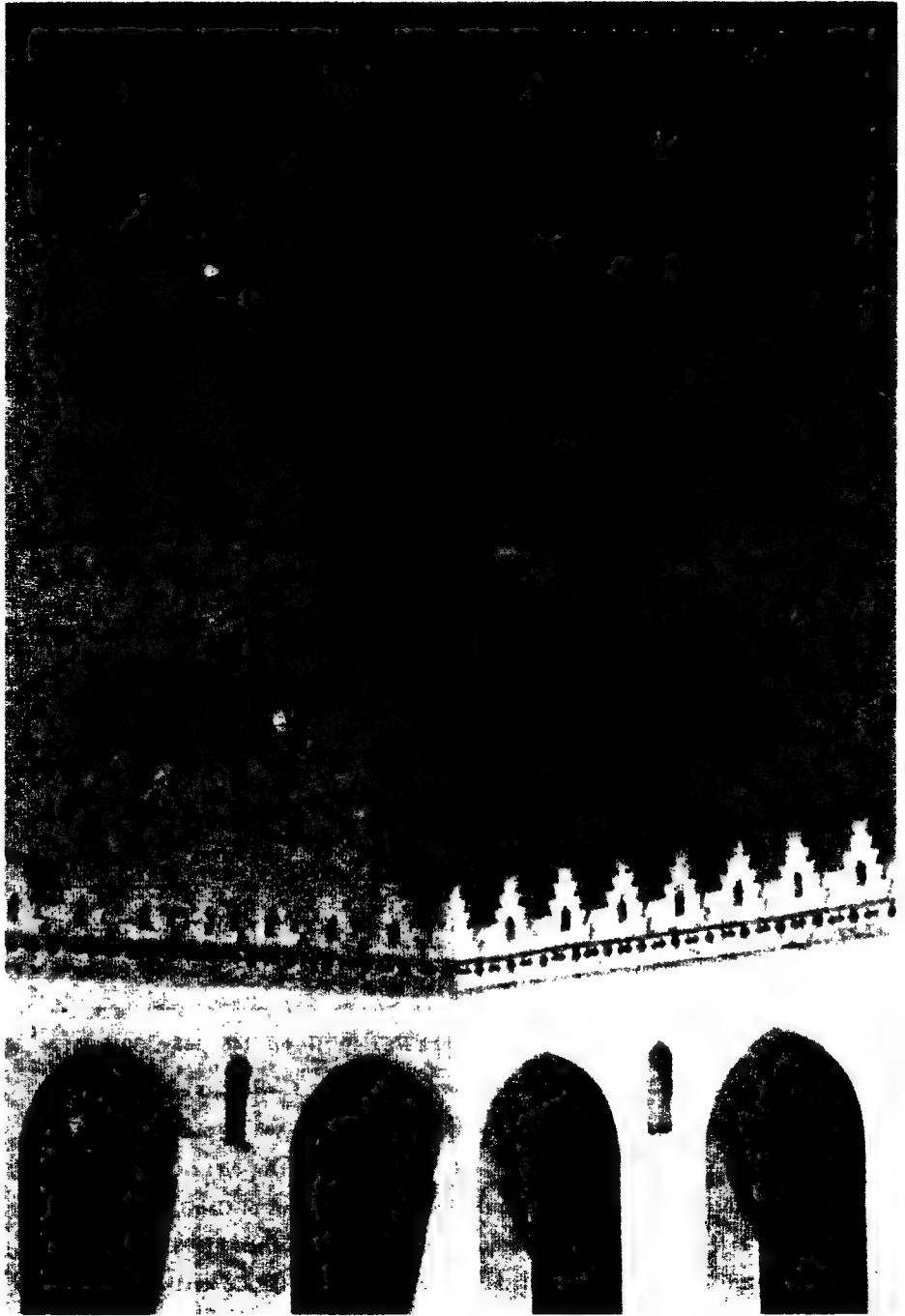
لوحة ١١ - المدخل الرئيسي لجامع الحاكم (الأقنؤن)

تخطيطه بين عناصر إفريقية وعناصر مصرية، فتخطيط الجامع بلا جدال يماثل تخطيط جامع ابن طولون الذى بنى على طراز ساقمًا، ويفتح مدخل الجامع الرئيسى فى منتصف جدار مؤخر الجامع فى موضع يقابل المِخْرَاب، وهو يَتَقَيُّ فى ذلك مع مدخل جامع المهديّة. ويرز المدخل الرئيسى خارج سَمَت جدار المؤخّر متخذًا هيئة برجين يتوسطهما ممر يؤدّى إلى باب بحيث أصبح شكل المدخل يماثل البوابة بالمعنى المصطلح عليه فى عمارة الأسوار [لوحة ١١]، بينما كانت المداخل الرئيسية قبل ذلك تفتح عادة فى الجدارين الجانبين غير جداري القِبْلَة والمؤخّر كما هو واضح فى جامع ابن طولون، وقد تَكَوَّر هذا الطراز فى جامع الأقمر (٥١٩هـ/١١٢٥م) ولكن بأبعاد مختلفة. أما مثدنا هذا الجامع فطرّاز فريدٌ بين المآذن فى مصر الإسلامية وقد بنينا من الحجارة، واحدة فى الركن الغربى الشمالى والأخرى فى الركن الشمالى الشرقى على شكل محور أسطوانى تحيط به كتلة مربعة الشكل [لوحة ١٢]. وتُمَثِّل الزخرفة ذات الأشكال الهندسية والنباتية على قاعدة هاتين المذنتين وعلى المدخل الرئيسى للجامع مرحلة حاسمة فى تشكيل الزخرفة الإسلامية^١.

ولم تظهر الحجارة فى العمارة الفاطمية إلّا عند بناء جامع الحاكم (الأنّور) وبذلك أصبح يمكن الاستغناء عن الاستعانة بالطلاء الجصى فى غطاء المسطحات الجدارية وتسويتها، وقد أضافت الزخرفة المنحوتة على الحجارة أهمية إلى واجهات المساجد الفاطمية تظهر بوضوح فى جامعى الأقمر والصالح طلائع.

وشَيد الحاكم كذلك فى سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٣م جامعين الأول على شاطئ النيل عند المَقْس هو «جامع المَقْس» والثانى فى خِطّة راشدة بالفسطاط هو

^١ القريزى : الخطط ٢ : ٢٧٧-٧٨٢ ؛ أحمد فكرى : المرجع السابق ١ : ٨٢-٨٥ ؛ Creswell , K. A. C., MAE I , pp. 65-66 ; Bloom , J. M., « The Mosque of al-Hakim in Cairo » , Muqarnas I (1983), pp. 15-36; Fu'ad Sayyid , A., op.cit., pp. 334-346.



لوحة ١٢ - مئذنة جامع الحاكم بأمر الله

«جامع راشدة» وقد زال كل أثر لهذين الجامعين الآن^١.

ومنذ بناء جامع الحاكم، لم يُبنَ في القاهرة أى مسجد، وكان أول مسجد بُنى بعد ذلك هو «الجامع الأقمر»، ورغم أنه يُعرف بالجامع، فإنه لم يكن جامعاً إذ لم تكن فيه خطبة كما يذكر المقرئى^٢. وشيّد هذا الجامع، كما يذكر ابن مُيَسَّر، في آخر عام ٥١٥هـ/١١٢١م في أيام الأمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحي^٣، وافتتح للصلاة في عام ٥١٩هـ/١١٢٥م^٤. وهذا المسجد أحد أهم آثار مصر الإسلامية، ويستمد أهميته من واجهته التي تشتمل على ملامح ذات معنى كبير اهتم بدراستها كارولين وليامز Caroline Williams^٥ ودوريس أبو سيف Doris Abouseif^٦. فالميزة الأولى لهذه الواجهة هي توافقها مع استقامة الطريق المقامة عليه بخلاف المسجد نفسه الذي احتفظ بتوجهه تجاه القبلة. والميزة الثانية أنها أقدم واجهة حجرية باقية في القاهرة عنى بينائها وزخرفتها بسخاء، ولا تقتصر هذه الزخرفة على بوابتها فقط بل تشمل واجهة المسجد كلها، وهي واجهة كانت تحوى فى الأصل جناحين متماثلين على يمين ويسار المدخل البارز عن سَمت الجدار تظهر فيها أشكال المقرنصات لأول مرة فى عمارة القاهرة. ومضمون زخرفة هذه الواجهة لافت للانتباه ولا نظير له سواء فى القاهرة أو فى أى مكان

^١ القلقشندي: صبح ٣: ٣٦١، المقرئى: الخطط ٢: ٢٨٢، ٢٨٣، Fu'ad Sayyid, A., *op. cit.*, pp. 351-52.

^٢ المقرئى: الخطط ٢: ٢٩٠.

^٣ ابن ميسر: أخبار ٩١؛ المقرئى: اتعاط ٣: ٧٧.

^٤ Wiet, G., *CIA Egypte II*, pp. 170-181; id., *RCEA VIII*, pp. 146-148 n° 3011-3012؛ وانظر

عن الجامع، المقرئى: الخطط ٢: ٢٩٠-٢٩١؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ٦٩-٧٣؛ أحمد

فكرى: المرجع السابق ١: ٩٥-١٠٢، Fu'ad Sayyid, K. A. C., *MAEI*, pp. 241-46.

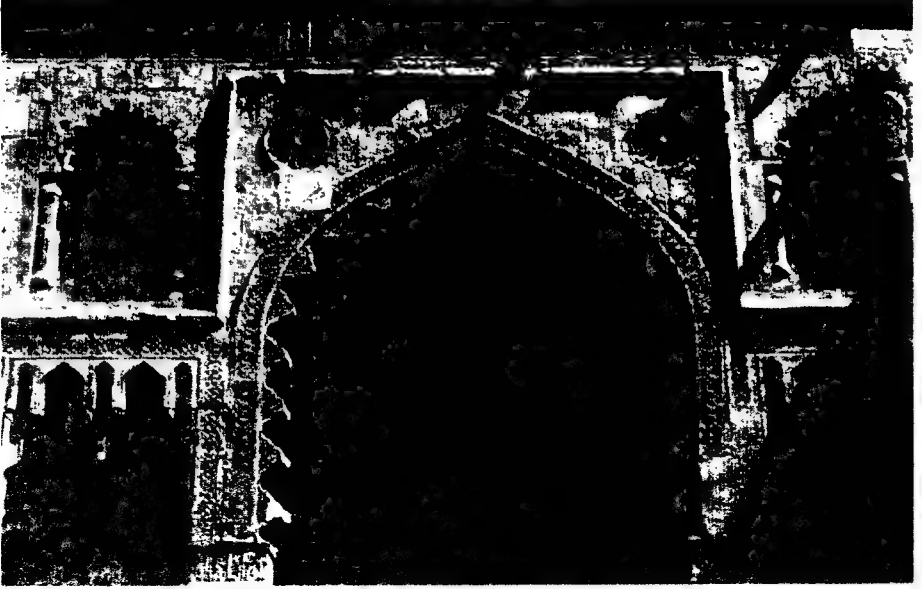
^٥ A., *op. cit.*, pp. 514-29.

^٦ Williams, C., «The Cult of Alid Saints in the Fatimid Monuments of Cairo, Part 1: The

Mosque of al-Aqmar», *Muqarnas* I (1983), pp. 37-52.

^٦ Behrens-Abouseif, D., «The Façade of the Aqmar Mosque in the Context of Fatimid

Ceremonial», *Muqarnas* IX (1992), pp. 29-38.



لوحة ١٣ - الزخرفة الموجودة على واجهة الجامع الأحمر

آخر . وأملى هذا التوافق مع استقامة الطريق الوضع الخاص للمنطقة التي تحيط بموقع الجامع والتي فرضت كذلك هذه الزخرفة الشاملة الرائعة للواجهة نفسها . فالجامع ملاصق تمامًا للقصر الفاطمي الكبير ، لا يفصله عنه سوى ممر ضيق ، وأصبح بذلك في قلب الطقوس الاحتفالية للمدينة .

وكما أوضحت فيما سبق فإن إعادة إحياء الاحتفالات الفاطمية يرجع الفضل فيه إلى الوزير المأمون البطائحي الذي أمر ببناء هذا الجامع . فقد استجد هذا الوزير ثلاثة مناظر في واجهة القصر الفاطمي الشرقي الكبير ، واحدة على قوس باب الذهب سماها « الزاهرة » ، وواحدة على قوس باب البحر سماها « الفاخرة » ، ومنظرة ثالثة سماها « الناضرة » ، لم تُحدد المصادر موضعها ، كان الخليفة يجلس فيها لعرض العساكر^١ .

^١ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ١٢٥ ؛ الفلشندي : صبح الأعشى ٣: ٣٥٧ ؛ المقرئ : مسودة المواعظ

وَتَذَكِّرُنَا هَذِهِ الْمُنَاطِرَ بِالشُّبَّانِ الَّذِي كَانَ يَوْجِدُ بِدِهْلِيزِ بَابِ الْمَلِكِ ، وَالَّذِي كَانَ يَجْلِسُ فِيهِ الْخَلِيفَةُ وَيَتَكَيَّءُ عَلَيْهِ وَقَدْ قَرَأَ السَّجَلَاتِ بِالْإِمْرِيَّانِ ، أَوْ يُشَاهِدُ مِنْهُ عَرَضَ الْخَيْلِ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ عَلَى الْإِحْتِفَالِ بِرُكُوبِ أَوَّلِ الْعَامِ^١.

جاءت زخارف واجهة الجامع الأقمر؛ لتعكس هذه التطورات التي أدخلها المأمون البطائحي؛ لتتماثل مع زخارف واجهة القصر الفاطمي. فجعل مهندس الجامع مدخله الرئيسي بارزاً عن سعت جدار المؤخر، وجعل في كل من الجناحين المتماثلين باباً منحوتاً وشبائكاً يماثلان المناظر التي استجدها المأمون فوق أقواس بابي القصر المتتاليين والسابقين لواجهة الجامع الأقمر: باب الذهب، وباب البحر.

ويبدو اتفاق زخرفة واجهة الجامع الأقمر مرة أخرى مع الإصلاحات التي أدخلها الوزير المأمون البطائحي على الاحتفالات الفاطمية في الحلية الدائرية Médaillon التي تعلو المدخل الرئيسي للجامع والتي تشبه شكل الدينار الفاطمي - الذي بدئ في ضربه في أول دار ضرب تأسس في القاهرة سنة ٥١٦ هـ - وخاصة النقوش الموجودة في حلقاته المركزية، ولكن ليس بنفس الصيغ الموجودة على الدينار^٢. وذكر في هذه الحلية لأول مرة على المساجد الفاطمية في مصر اسم الإمام علي إلى جانب النبي محمد ﷺ (محمد وعلى) تعبيراً عن الاعتقاد الشيعي للدولة^٣.

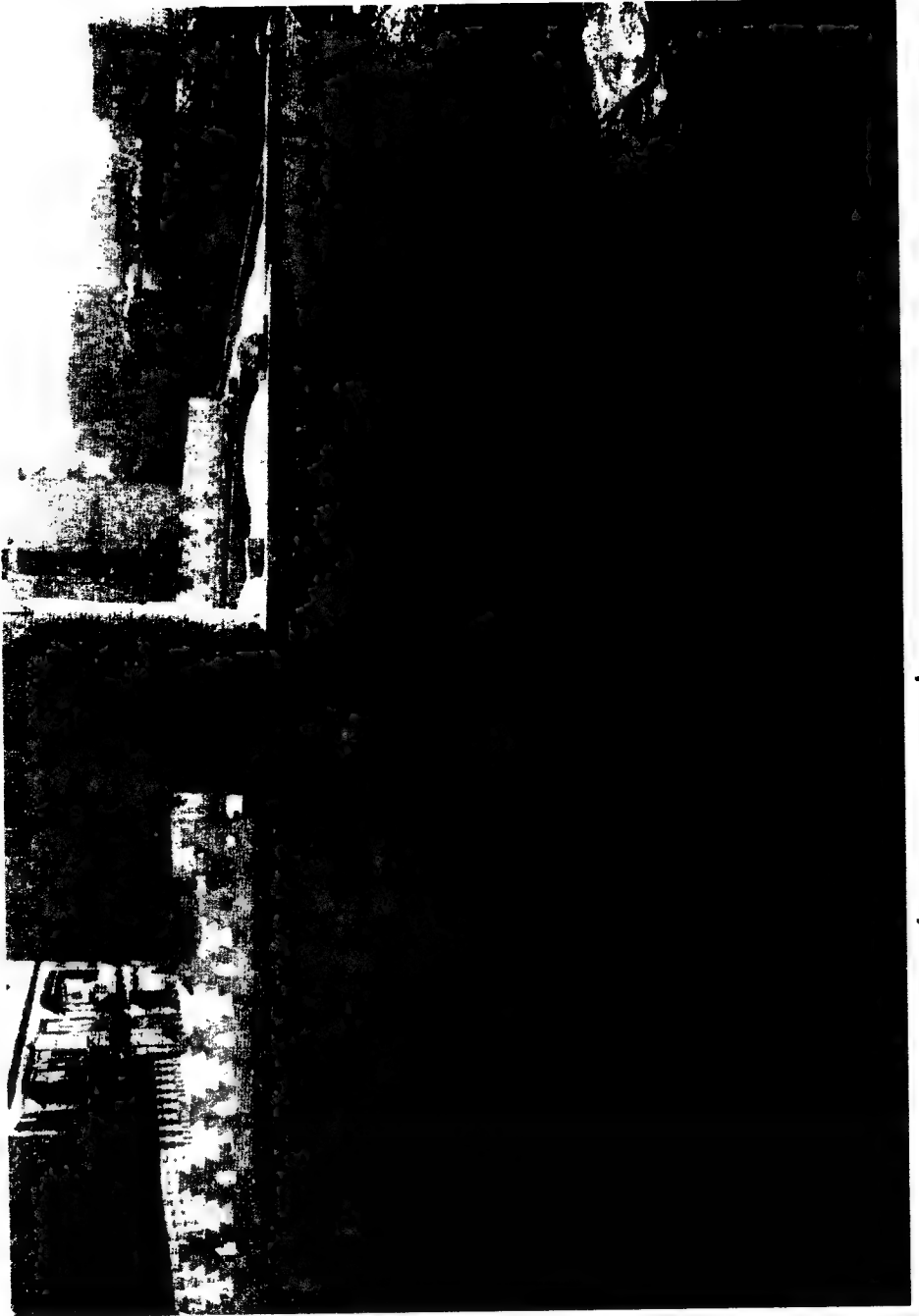
ويعد «جامع الصالح طلائع»، الذي بناه خارج باب زويلة في عام ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م الوزير الملك الصالح طلائع، آخر المساجد الجامعة التي أقامها الفاطميون في القاهرة وهو من المساجد المعلقة، فقد أقيم على أبنية طابق تحت سطح الأرض كانت تستخدم كمخازن وحوانيت، وهو بذلك الأول من هذا النوع في القاهرة. وقد تعرّض

^١ ابن الطوير: نزعة المقاتلين ٩٧-٩٨، ١٥٣، ١٥٤.

^٢ Behrens-Abouseif, D., *op. cit.*, pp. 30-34.

^٣ Williams, C., *op. cit.*, pp. 45.

^٤ Wiet, G., *RCEA IX* n° 3231.



لوحة ١٤ - واجهة الجامع الأحمر بعد إعادة بناء جناحها الأيسر

هذا الجامع لكثير من الحوادث والإصلاحات ، إلى أن تم ترميمه وإعادة بنائه بواسطة لجنة حفظ الآثار العربية في العقد الثاني من هذا القرن^١.

ويلاحظ أن مساحة المساجد في العصر الفاطمي ، التي بُنيت بعد جامع الحاكم ، قد أخذت في التقلص ، ويرجع ذلك إلى كثرة وتعدد المساجد الجامعة . كما يلاحظ في تخطيط المساجد الفاطمية اتساع أشكوب المحراب وبلاطته وذلك لتمهيد قاعدة مربعة للقبة التي تقام أمام المحراب على تقاطع أسكوبه ببلاطته . وقد استوجبت قاعدة القبة المربعة تساوى ضلوع هذه القاعدة وأصبح بذلك عنصراً جديداً في تخطيط المساجد^٢.

وعرفت مصر في العصر الفاطمي نوعاً آخر من المنشآت الدينية هو المسجد ذو الضريح أو «المشاهد» ، وهي مشاهد أقيمت لإحياء ذكرى آل البيت ، وأغلب هذه المشاهد مشاهد رؤوية ويقع أغلبها في المنطقة المعروفة بالمشاهد بين القاهرة والقشطات . ومعظم هذه المشاهد غير ثابت التاريخ ويقوم ترجيح انتمائها إلى العصر الفاطمي على دراسة عناصرها المعمارية والزخرفية ، وعادة ما يحتفظ المشهد أو المسجد المستخدم ضريحاً بجميع العناصر التخطيطية للمسجد . وأهم هذه المشاهد : مشهد السيدة سكينة ، ومشهد عائكة والجعفرى ، ومشهد السيدة رقية ، ومشهد إخوة يوسف ، ومشهد اللؤلؤة والمشاهد التسعة والقباب السبع بالقرافة^٣ . ويمكننا أن نضيف إلى هذه المشاهد «مشهد الجيوشى» الذى أقامه بدر الجمالى على هضبة المقطم سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، ربما ليدفن فيه^٤ .

^١ انظر المقرئى : الخطط ٢ : ٢٩٣ ؛ حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ٩٧-١٠٥ ؛ أحمد فكرى : المرجع السابق نفسه ١ : ١١٠-١٢١ ؛ Fu'ad Sayyid , A ., op. cit. , pp. 275 - 288 ; Creswell , K. A. C. , MAE I , pp. 547-558 .

^٢ أحمد فكرى : المرجع السابق : ١٢٦ ، ١٣٧ .

^٣ نفسه ١ : ٢٨-٣٨ ؛ Ragib , y ., «Les Mausolées du quartiers d'al-Mashâhid» An. Isl. XVII ؛ «Les Sanctuaires des gens de le famille dans la cité des morts du Caire» (1981) pp. 1-30 ; id ., «Sur un groupe de mausolée du cimetière du Caire » , REI XL (1972) , pp. 189-159 ; Williams, C. , «The Cult of Alid Saints in the Fatimid Monuments of Cairo. Part II : The Mausolea» , Muqarnas III (1985) , pp. 39-60 ; Fu'ad Sayyid , A. , op. cit. , pp. 650-57 .

^٤ ع . هذا المشهد أو المسجد راجع Van Berchem , M ., «Une mosquée du temps des Fatimites au



لوحة ١٥ - جامع الصالح طلائع (١٥٥٥/هـ/١٦٦٠م) الواجهة الغربية بعد ترميمها



لوحة ١٦ - المشهد الجيوشي (١٤٧٨/هـ/١٠٨٥م) - الواجهة الشمالية الشرقية

ولكن أهم مَشْهَدٌ أضافه الفاطميون إلى الطبوغرافية الدينية للقاهرة هو «المشهد الحسيني» حيث نَقَلَ الفاطميون في سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م رأس الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ، التي كانت مدفونة في مدينة عَشَقْلان خوفاً عليها من الفِرَنْج ودفنوها داخل القصر الفاطمي في قُبَّة الدِّيَلَم التي يؤدَّى إليها باب الدِّيَلَم ، باب القصر الفاطمي الكبير الجنوبي الشرقي^١.

أما «أبواب القاهرة» و«أسوارها» التي شَيَّدها بدر الجمالي بين عامي ٤٨٠هـ/١٠٨٧م و٤٨٥هـ/١٠٩٢م فما زال باقيا منها جزء من السور الشمالي ، وأربعة أبواب : باب النَّصْر ، وباب الفُتُوح في السور الشمالي ، وباب زُوَيْلَّة في السور الجنوبي ، وباب البرقيَّة الذي كان يفتح في السور الشرقي . ولا تذكر نصوص الكتابات التاريخية ، الموجودة على هذه الأبواب ، الأبواب بأسمائها المعروفة لنا ، وإنما نجدتها تطلق على باب النَّصْر «باب العِزِّ» وعلى باب الفُتُوح «باب الإقبال» وعلى باب البرقية «باب التَّوْفِيق» ؛ ولو كان نص الكتابة التاريخية لباب زُوَيْلَّة قد وَصَلَ إلينا لعرفنا الاسم الجديد الذي أطلق عليه^٢ . وقد بنيت أبواب القاهرة التي شَيَّدها بدر الجمالي من الحجارة وهي أبنية ضخمة سواء من حيث المساحة التي تشغلها كل بَوَابَةٍ ، وهي حوالي خمسة وعشرين متراً مربعاً ، أو من حيث ارتفاعها الذي يزيد عن عشرين متراً ، أو من حيث الكُتْل الحجرية التي استخدمت في بنائها ، وقد جُلِبَ الكثير منها من الآثار الفرعونية ، وواضح بها إلى الآن الكتابة المصرية القديمة . ويتقدَّم كل بوابة بَدَنَتان أو برجان ضخمان في الجهة الخارجية عن سَفَتِ الأسوار ، فيما عدا باب البرقيَّة . وتظهر في بَوَابَةِ النَّصْر أقدم أمثلة لتجميع الصَّنَج المُعَشَّقة في عمارة القاهرة ، إن لم تكن في تاريخ العمارة كلها^٣.

Caire», MIE II (1889) , pp . 605-619 , Creswell, K. A. C., MAE I, pp . 155-160 ; Shafei , F., أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ١ : ٨٩ - ٩٤ ، «The Mashhad al-Juyushi - Archeological Notes and Studies» , in *Studies in Islamic Art and Architecture* 1965 , pp . 237-252 ; Ragib , Y., «Un oratoire fatimide au sommet du Muqattam» , *SI LXV* (1987) , pp . 51-67 مجرد مصلى أقامه على المقطم بدر الجمالي لتخليد انتصاره على الخارجين وقضائه على الفوضى رغم أن نصه التذكاري يذكر أنه مشهد ؛ Fu'ad Sayyid , A., *op.cit.* , pp. 433-41 .

^١ راجع Fu'ad Sayyid A., *op. cit.*, pp. 276-80 .

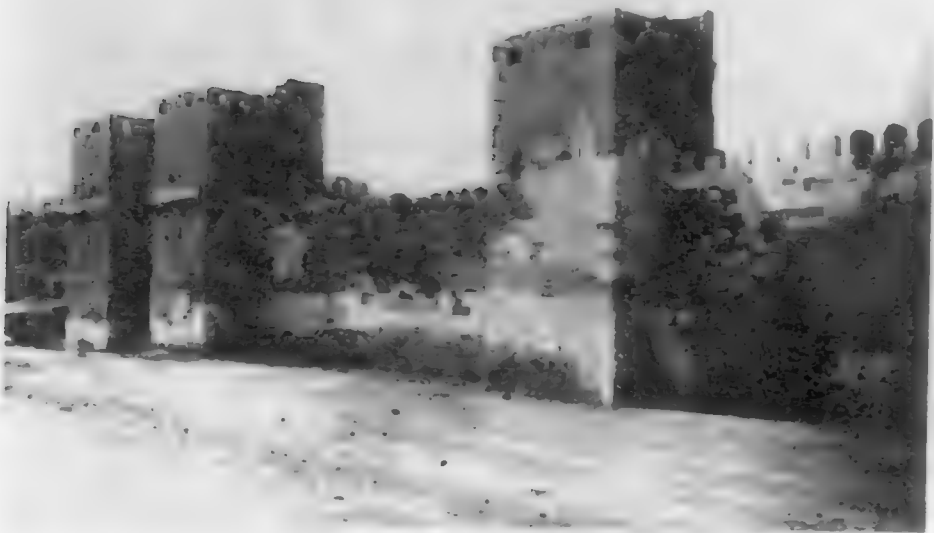
^٢ *Ibid.*, p. 424 .

^٣ أحمد فكري : مساجد القاهرة ١ : ٢٦ ، ١٥١ ، ٢٠٧ .



لوحة ١٧ - سور القاهرة الشمالى الذى بناه بدر الجمالى سنة ١٠٧٨/٥٤٨٠م

ويربط بين باب الثغر وباب الفتوح



لوحة ١٨ - جزء من سور القاهرة الشمالى من جهة باب الثغر



لوحة ١٩ - منظر عام لسور القاهرة الشمالي تظهر فيه البنية اليسرى لباب الفتح ومقبرة جامع الحاكم



لوحة ٢٠ - باب القصر (البز) من إنشاء بدر الجمالي سنة ١٠٨٧/هـ م



لوحة ٢١ - تفاصيل من زخارف باب الفتوح



لوحة ٢٢ - باب الفتوح (الإقبال) من إنشاء بدر الجمالي سنة ٤٨٠هـ / ١٠٧٨م



لوحة ٢٣ - باب البرقية (التوفيق) أنشأه بدر الجمالي في السور الشرقي



لوحة ٢٤ - باب زُوَيْلَّة أنشأه بدر الجمالي في السور الجنوبي

للقاهرة سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م

ويتضح في هذه الأبواب تأثير العمارة الأرمنية، فيذكر المقرئ أن ثلاثة إخوة قدموا من الرها بثلاثين هم الذين بنوا الأبواب الثلاثة^١، بينما يذكر أبو صالح الأرمي أن الذي هندس سور القاهرة وأبوابها شخص يُدعى يوحنا الزاهب^٢.

الفنون الفرعية

يعد العصر الفاطمي، من الوجهة الفنية، عصر النجاح في الوصول إلى طراز فني يضم بين ثنياه شتى الأساليب الفنية في العصور السابقة. ورغم أن الأساليب الفنية في بداية العصر الفاطمي استمدت الكثير من الأساليب الطولونية وأساليب سامرا؛ إلا أنها لم تلبث أن تفوقت عليها وتميزت برهافة الذوق والدقة والبراعة في الإبداع والتنفيذ. وقد تأثرت فنون الفاطميين ببعض التقاليد الفارسية، كما أخذت أيضًا عن فنون بيزنطة. ويرى جاستون فييت G. Wiet أن اختلاط هذين العنصرين على يد الفنانين المصريين أنتج تحفًا ألطف وأرق من منتجات أى عصر آخر، تميزت بصدق التعبير، وبدقة تصوير الحركة بطريقة لا نجدها في النماذج السابقة عليهم، حتى يمكننا القول بأن عصر الفاطميين كان «عصر ثورة ملموسة في الفن» فلم يكتب الفنان الفاطمي بالزخارف النباتية والهندسية، أو اتخاذ الكتابة عنصرًا أساسيًا للزخرفة، كما كان سائدًا في الطراز السابقة، بل اكتشف مركبات وموضوعات زخرفية جديدة حاكي فيها الطبيعة الصادقة، واستمد وحيها، في بعض الأحيان، من الحياة اليومية مع براعة في إبداع النقش والزخارف الدقيقة^٣.

^١ المقرئ: الخطط ١ : ٣٨١.

^٢ أبو صالح: تاريخ ٦٥؛ وراجع، أحمد فكري: المرجع السابق ١ : ٢٨-٢١، Creswell, K., A. C. MAEI, pp. 28-21.

١61-216; Fu'ad Sayyid, A., op. cit., pp. 430-31.

^٣ فييت، جاستون: دليل موجز لعروضات دار الآثار العربية، ترجمه بتصرف زكي محمد حسن، القاهرة ١٩٣٩، ١٢-١٣.

أما أوليج جرابار Oleg Grabar فيرى أن السبب الذى أدى إلى الظهور المفاجئ للموضوعات الزخرفية ذات العناصر المستمدة من البشر والحيوان ، يرجع إلى الحرب الأهلية والأزمة الاقتصادية التى سادت مصر فى أواسط القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى ، حيث ظهر عددٌ من التحف الفنية أخرجت من القصر الفاطمى كانت حتى ذلك الوقت محجوبة عن الأنظار وظهرت إلى النور ؛ نتيجة عمليات النهب التى جرت بخزائن تحف القصر الفاطمى^١.

وازدهرت فى العصر الفاطمى العديد من الفنون الفرعية : كالتصوير ، وزخرفة النسيج ، والحزف ، والأخشاب ذات الزخارف المحفورة ، والعاج والمعادن .



لوحة ٢٥ - رسم على الورق
(متحف الفن الإسلامى)

فقد شجع الفاطميون (التصوير) والمُصوِّرين الذين شملوهم برعايتهم ، وحذا حذوهم الوزراء وكبار رجال الدولة . وأشار المقرئى فى الخطط نقلًا عن القضاعى - فى معرض حديثه عن المنافسة بين المُصوِّرين : ابن عزيز وقصير والى تمت بحضرة الوزير اليازورى (٤٤٢ - ٤٥٠هـ) - إلى كتاب «طبقات المصورين» المنعوت بـ «صُوء الثُّبْرَاسِ وَأُنْسِ الْجَلَّاسِ فى أخبار المَرْوُوقِينَ من الناس»^٢ . ويقدم لنا المقرئى كذلك وصفًا لصور ونقوش ملونة كانت فى جامع القَرَاة الذى بنته على طراز

^١ Grabar , O . , « Imperial and Urban Art in Islam: The Subject Matter of Fatimid Art », *CIHC* Bloom, J.M. , « The Origins of Fatimid Art », *Muqarnas* 111 (1985), pp. 173-89. وانظر كذلك .

30-38 .

^٢ المقرئى : الخطط ٢ : ٣١٨ (نقلًا عن القضاعى) .

الجامع الأزهر السيدة زوجة الخليفة المعز، ولصورة لسيدنا يوسف في الحب كانت في دار الثعمان بالقرافة^١. كذلك فقد ذكر الشريف الجواني أن الخليفة الأمر بأحكام الله بنى على منظره بحر دكة الحركاة، بالقرب من بركة الحبش، منظره من خشب مدهونة فيها طاقات تُشرف على تحضرة البركة، وصُور فيها الشعراء، كل شاعر وبلده وجعل بجانب كل منهم رقاً لطيفاً^٢. وللأسف فلم يصل إلينا شيء من المخطوطات الفاطمية المزينة بالرسوم والصور، ولكن أبرز مثال وصل إلينا عن التصوير عند الفاطميين لم يوجد في مصر - مقر الخلافة الفاطمية - بل في جنوب أوربا، وهو زخارف صُور الفريسكو بالكابلا بالتينا Cappella Palatina في بالرم بصقلية والتي أمر بعملها الملك النورماندى روجر الثانى Roger II. فمجموعة الصور الجدارية بألوانها الزاهية التى تُزيّن هذه الكنيسة تختلف تماماً عن الفسيفساء البيزنطية الموجودة في نفس الكنيسة، فأسلوب صور هذه الأيقونات، والكلمات العربية الموجودة داخل الصور، وكذلك صيغ التبرك العربية المطوّلة المستخدمة كأطر لتزيين الصور، تُظهر بوضوح أن الذى نفّذ هذه الأعمال فنانون مسلمون، ظل الفن الفاطمى مستمراً معهم منذ أن كانت صقلية خاضعة للمسلمين^٣. وتشتمل هذه الرسوم على كثير من الصُور المدنية مثل: صور الراقصات والموسقيات ومجالس الشراب والطرب، وصُور الحيوان والطير في أوضاع متماثلة، أو في حالة انقضااض بعضها على بعض، فضلاً عن زخارف نباتية من: النخل والأزهار وأوراق الشجر والفاكهة. ومن بين صور الكابلا بلاتينا صورة تمثل إنساناً جالساً وفي يده اليمنى كأس وفي اليسرى زهرة، ويتدلّى فوق جبهته وصدغيه خُصلات من الشعر ويحفّ برأسه هالة، ويكسو الرداء الذى يرتديه زخارف تتألف من وحدة متكررة^٤. وتتفق هذه الصورة في كثير من المميزات مع الصورة التى كُشِفَت بالحمام الفاطمى بجوار

^١ المقرئى : المخطوط ٢ : ٣١٨ .

^٢ نفسه ١ : ٤٨٦-٤٨٧ .

^٣ Ettinghausen, R., «Painting in the Fatimid Period - A Reconstruction», *Ars Islamica* IX (1942), p. 113; Jones, D., «The Cappella Palatina in Palermo: Problems of Attribution», *Art and Archaeology Research Papers* II (1972), pp. 41-57 .

^٤ زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٣٧ ، ١٠٥ ، حسن الباشا : التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ٨٢ .

منطقة أبي السعود بمصر القديمة والمرسومة على الجصّ والخفوفة الآن بمتحف الفن الإسلامى ، وهى تمثل شاباً جالساً يمسك بيده كأساً ، ويرتدى جلباباً تزينه حلقات من زخرفة نباتية حمراء اللون وعلى رأسه عمامة ذات طيات وحول الرأس حالة كاملة الاستدارة^١.

وازدهرت (صناعة النسيج) فى العصر الفاطمى فى دور الطراز العامة والخاصة الموجودة فى تَنيس ودمياط وشطا وفى بعض مدن الصعيد . وأشار ابن الطويز مطولاً إلى وظيفة صاحب الطراز وما كان يُعْمَل فى طراز الخاص برسم الخليفة مثل المِظْلَة وبَدَلَتِهَا والْبَدَنَة واللباس الخاص الجُمُعَى^٢ . كما أن دار الوزير ابن كَيْس حُوِّلَت فى العصر الفاطمى الثانى إلى دار للدياج^٣ ، فقد كان الخلفاء الفاطميون فى حاجة ماسة إلى كميات هائلة من المنسوجات لهم ولرجال البلاط وللكنشوة الشريفة وللخَلَع التى كانوا يمنحونها فى الاحتفالات والمواسم^٤ . وسَجَّلَ ناصر خُسرو أثناء زيارته لِتَنيس إعجابه بما كان يُنْسَج بها من «قَصَب» مُلوَّن تُصنع منه العمائم الشَّرب والطواقى وملابس النساء ، وكذلك قماش البوقلمون وهو قماش ذهبى يَتَغَيَّر لونه بِتَغْيِير ساعات النهار^٥.

وقد نجح النَسَّاجون فى العصر الفاطمى نجاحاً كبيراً فى توزيع الألوان واختيارها بالإضافة إلى ثروتهم الزخرفية الواسعة وابتكارهم فى الرسوم المستخدمة ذاتها . فنجد فيما وَصَلَ إلينا من قِطَع النسيج الفاطمى : السيقان والفروع النباتية مرسومة بثقة وبدقة ، سواء فى التواءاتها أو فى تَفْرِعِهَا ، ونشؤ غيرها منها ، كما نجدها مزدحمة برسوم الحيوانات على اختلاف أنواعها . وظَلَّت زخارف الأقمشة فى العصر الفاطمى فى تَطَوُّر مستمر ،

^١ حسن الباشا : المرجع السابق ٧٨ ، ٨٢-٨٣ . وراجع فى موضوع التصوير ، زكى محمد حسن : المرجع السابق ٨٦-١٠٦ ؛ حسن الباشا : المرجع السابق ١٥٩-١٦٥ ، فنون التصوير الإسلامى فى مصر ، القاهرة ١٩٧٣ ، ٥٦-٩٠ ؛ محمود إبراهيم حسين : التصوير الإسلامى فى مصر فى العصر الفاطمى ، رسالة ماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

^٢ ابن الطويز : نزعة المقلتين ١٠١ - ١٠٤ ؛ وانظر كذلك Goitein , S. D., « Petitions to Fatimid Caliphs from the Cairo Geneza », *The Jewish Quarterly Review* XLV (1954) , pp. 34-36 .

^٣ المقرئى : الخطط ١ : ٤٦٤ .

^٤ انظر فيما سبق ص ٥٦٢-٥٦٧ .

^٥ ناصر خسرو : سفرنامه ٧٧ .

فقد كانت في أوّل الأمر تحمل أشرطة متوازية في بعضها كتابات ، ثم أخذت هذه الأشرطة تزداد عرضًا وعدداً بين القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين حتى أصبحت في بعض الأحيان تكسو سطح النسيج كله ، كذلك فإننا نجد على المنسوجات الفاطمية زخارف في معينات وفي جامات (مناطق) مختلفة الأشكال^١.

وكانت أسماء الخلفاء وألقابهم تكتب على الأقمشة بلُحمة من الذهب أو الفضة أو بخيوط متعددة الألوان ومن مادة أغلى من مادة النسيج ، وكان شريط الكتابة يشمل أيضًا بعض عبارات الأدعية وتاريخ الصُّنْع واسم مصنع الطراز الذى نسجت فيه هذه الزُخرفة^٢ ، فقد كانت كتابة أسماء الخلفاء على الطراز أحد رموز السيادة^٣.

ووصلَ إلينا العديدُ من نماذج النسيج الفاطمى محفوظة في متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، وفي المتاحف العالمية^٤.

ويُعَدُّ (الخَزَف ذو البريق المعدنى) من أهم الفنون التى تميّز بها العصر الفاطمى . وإن كان مما يؤسف له أن النماذج السليمة التى نعرفها منه نادرة جدًا ، فما كُثِف منه فى أطلال القُشَطاط ، على كثرته ، نماذج غير كاملة . وقد استخدم المسلمون الخَزَف ذا البريق المعدنى بدلًا من الأوانى الذهبية التى حرّم الإسلام استعمالها ؛ لماله من بريق يعادل

^١ فييت ، جاستون : المرجع السابق ٧٦-٧٧ .

^٢ زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ٨٣-٨٥ ، وعن الطراز راجع ، الخيزومى : المنهاج ٣٢-٣٣ ؛ ابن ممتى : قوانين ٣٣٠-٣٣١ ، ابن الطوير : نزعة ١٠١-١٠٤ والمراجع المذكورة فى الهامش رقم ٥٥ ، Cahen , *Makhzūmiyyāt* , pp. 190-193 , CI . صلاح الدين البحرى : نعن هام عن أحوال دار الطراز المصرية فى أوائل

الدولة الأيوبية ، القاهرة - مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٣ ، وفيما سبق ص .
^٣ ابن الصيرفى : الإشارة ١٠٥ ، وانظر تفاصيل الأمتعة المخرجة من القصر الفاطمى وقت الأزمة زمن المستنصر من السطور والمقاطع والثياب المنسوجة من الذهب والفضة وغير ذلك عند الرشيد ابن الزبير : الذخائر والتحف ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

^٤ عن صناعة النسيج وما وصل إلينا من قطع النسيج الفاطمى راجع ، فيما سبق ص ؛ محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٤٢ ، سعاد ماهر : النسيج الإسلامى ، القاهرة ١٩٧٧ ؛ Bahgat , A . , «Les manufactures d'étoffes en Egypte», *BIE* (1903) . pp. 351-61 ؛ Combe , E . , «Tissus fatimides du Musée Benaki», *Mélanges Maspero* , Le Caire IFAO 1940 , III , pp. 259 - 272 ; Serjeant , R. B. , *Islamic Textiles - Material for a History up to the Mongol Conquest* , Beirut 1972 ; Rogers , M. , *Early Islamic Textiles* , Brighton 1983 ; Contadini , A . , *Fatimid Art at the Victoria and Albert Museum* , pp. 39-70

بريق الأواني الذهبية ، وإن كنا نعلم من المصادر أن الفاطميين ، رغم ذلك ، قد استخدموا الأواني الذهبية والفضية .

وتطوّرت هذه الصناعة في مصر تطوّرًا طبيعيًا حتى بلغت أقصى درجات الجودة في العصر الفاطمي . وهذا الضرب من الخزف يُعدّ من مفاخر صناعة الخزف الإسلامية ، لا سيما وأن الصين الدائمة الصيت في صناعة الخزف لم تعرف هذه الصناعة ، كما لم يُقلّح الخزافون الغربيون في تقليده إلاّ في القرن الثامن عشر^١ . وقد أشاد ناصر خُشرو بصناعة الفخار في مصر الفاطمية من كل نوع ووصّفه بأنه لطيفٌ وشقّافٌ ، بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وأنه كانت تُصنّع منه الكؤوس والأقداح والأطباق ، ويضيف ناصر أن المصريين كانوا يزينونها بألوان تختلف وتتغير باختلاف أوضاع الإناء^٢ . ومما يدل على ازدهار صناعة الفخار عمومًا في العصر الفاطمي ما ذكره ناصر خُشرو أيضًا من أن التجار في مصر من بقالين وعطارين وبائعي خردوات كانوا يعطون الأوعية اللازمة لما يبيعون ، من زجاج أو خزف بحيث لا يحتاج المشتري أن يحمل معه وعاء^٣ .

وذكر صاحب كتاب «الذخائر والتحف» أن من بين ما وُجد في القصر في أثناء الأزمة سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م خزائن مملوءة من سائر أنواع الصيني الذي يستعمله الناس ، وُجد في بعضها أجاجين (جد . إجانة وهو الإناء المعد لغسل الثياب) صيني كبار وصغار محمولة على ثلاث أرجل على صور الوحوش والسباع والبهايم قيمة كل قطعة منها ألف دينار^٤ .

^١ جمال محمد محرز : «الخزف الفاطمي ذو البريق المعدني» ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٧ (١٩٤٤) ١٤٣ .

^٢ ناصر خُشرو : سفرنامة ١٠٣-١٠٤ .

^٣ نفسه ١٠٥ .

^٤ الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف ٢٥٥ (المقرئ : اتعاظ ٢ : ٢٨٥-٢٨٦ ، الخطوط ١ : ٤١٥) .

وتكتسب القطعة الخزفية هذا البريق المعدني باستخدام أملاح معدنية كالنحاس والحديد وربما الفضة لرسم الموضوعات الزخرفية فوق الطبقة الزجاجية التي يُطلى بها الفخار لمنعها من امتصاص الألوان ، ولهذا تدخل القطعة الخزفية الفرن ثلاث مرات : الأولى لإكساب الطمى صلابة ، والثانية لتثبيت الزجاج فوق الفخار ، والثالثة لتثبيت المعدن ، إذ إن الأملاح تتحول باتحادها بالدخان المتصاعد من النار إلى طبقة رقيقة من المعدن فوق الطبقة الزجاجية التي يغلب عليها اللون الأبيض والتي تكون معتمدة في أكثر الأحيان نتيجة إضافة القصدير إلى المادة الزجاجية كما قد تكون شفافة إذا ما أضيف الرصاص^١ .

ويمتاز الخزف الفاطمي بأنه ذو لون واحد يميل إلى الاحمرار ويغطي مسطحه الخارجى طلاءً رقيقاً أبيض أو أبيض مائل إلى الزرقة أو الاخضرار وتعلوه رسوم ذات بريق معدني ذهبية اللون^٢ . ولم يتقيد شكل التحف الخزفية الفاطمية بشيء ، حتى إننا نجد منها ضرباً شتى من الأواني ذات الأحجام والأشكال المتنوعة : قدور كبيرة ذات أجسام ضخمة ، وسلطانيات عميقة تشبه الأواني الإغريقية ، وأطباق مسطحة تشبه الصحون^٣ . أما العناصر الزخرفية التي نجدها على التحف الخزفية الفاطمية فهي رسوم آدمية أو حيوانية أو زخارف نباتية في مناطق هندسية تصاحبها أحياناً كتابات كوفية^٤ .

وبلغ الخزافون الفاطميون مرحلة متقدمة في دقة التعبير في الرسوم الآدمية التي صوّروا فيها أشخاصاً يقومون بمختلف الأعمال ، حيث نرى فيها راقصين ومناظر الشراب والطرب و الموسيقى ورسوماً لنساء رشوقات ، إلى حد قد يبعث على الظن بأنهم تأثروا

^١ جمال محرز : المرجع السابق ١٤٤ .

^٢ زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٥١ .

^٣ جمال محرز : المرجع السابق ١٦٥ .

^٤ نفسه ١٦٥ ؛ Grabar , O., «Imperial and Urban Art in Islam : The Subject Matter of Fatimid»

فى بعض الأحيان برسوم هِلينِشِيَّة أو بيزنطية^١. وقد وَصَلَت إلينا نماذج عديدة من الخزف الفاطمى مثبت عليها مكان الصنع وتوقيع الصانع^٢.

والى جانب الخزف ذى البريق المعدنى كانت هناك أنواع أخرى من الفخار غير المطلى استخدم فى صناعة الأواني البسيطة اللازمة لطبقات الشعب، ومن أهمها «القلل» التى كانت تستخدم بغرض تبريد الماء ولا بد من المسام للوصول إلى هذا الغرض، وبالتالي فإن ما وَصَل إلينا منها يكاد يكون خالياً من أى دهان زجاجى. ولكن الفخارين المصريين استعاضوا عن ذلك بتزيين شبايك هذه القلل بزخارف دقيقة هندسية أو حيوانية، كما جاء على بعضها عبارات دعاء وتبريك. ويرجع أقدم ما وَصَل إلينا من نماذج «شبايك القلل» إلى العصر الطولونى، ولكن النماذج التى تشتمل من بينها على أشكال حيوانات وطيور تشبه الحيوانات والكتابات التى نحتها على تحف الخزف ذى البريق المعدنى تؤكد انتسابها إلى العصر الفاطمى^٣. وقد كُشِفَ عن أغلب هذه النماذج فى أثناء الحفائر التى تَمَّت فى القُسطاط وهى محفوظة الآن فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

ومن الفنون المتطورة فى العصر الفاطمى (المصنوعات الزجاجية) و (صناعة البلور الصُّخْرِى). فمن المصنوعات الزجاجية التى وجدت رواجاً فى العصر الفاطمى «الصُّنَج الزجاجية» التى تستخدم كميات وزن وكَيْل ويطبع بها على الأواني لبيان أحجامها المختلفة^٤. ويُحدِّثنا المقرئى وهو يصف قرية سمناء، إحدى قرى بُيُوت، نقلاً عن شاهد

^١ زكى محمد حسن: «تحف جديدة من الخزف الفاطمى ذى البريق المعدنى»، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٣ (١٩٥١) ٩٤.

^٢ عبد الرؤوف على يوسف: «خزافون من العصر الفاطمى وأساليبهم الفنية»، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٢٠ (١٩٥٨) ١٧٣-٢٢٣.

^٣ زكى محمد حسن: كتوز الفاطميين ١٧٢-١٧٤.

^٤ راجع بالإضافة إلى المراجع المذكورة فى الهوامش السابقة، زكى محمد حسن: كتوز الفاطميين ١٤٧-١٧٥؛ حسن الباشا: «طبق من الخزف باسم (عَبْن) مولى الحاكم بأمر الله»، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٨=

عيان أنه كُثِفَ بها في ربيع الأول سنة ٨٣٧هـ/أكتوبر سنة ١٤٣٣م غضارات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم الإمام المُعزّ لدين الله وعلى البعض الآخر اسم الإمام العزيز بالله وكذلك اسم الإمام الحاكم بأمر الله واسم الإمام الظاهر لإعزاز دين الله وأكثرها عليه اسم الإمام المستنصر بالله^١. وقد وصل إلينا العديد من هذه الصَّنَجِ وَوَجَدَتْ طريقها إلى المتاحف العالمية^٢.

ولا شك أن صناعة الزجاج قد تقدّمت في العصر الفاطمي تقدّمًا كبيرًا مهّد لبلوغها الذروة في عصر المماليك الذي صنعت فيه المشكاوات المُمَوَّهة بالمينا والتي تعد فخر صناعة الزجاج عند المسلمين على الإطلاق^٣.

ويدلنا على تقدّم صناعة الزجاج والتلّور في العصر الفاطمي ما كتبه ناصر خُشرو وما ذكره صاحب كتاب «الذخائر والتحف» في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، بالإضافة إلى النماذج المتعددة التي وصلت إلينا من الكؤوس والقوارير والأواني الزجاجية.

فيذكر ناصر خُشرو أنهم كانوا «يصنعون بالفُسْطاط قوارير كالزُّبُرْجِد في الصفاء والرقّة ويبيعونها بالوزن»^٤، وأنه شاهد هناك أيضًا بسوق القناديل «مُعَلِّمين مَهَرّة ينحتون

= (١٩٥٦) ٧١ - ٨٥ عبد الرؤوف على يوسف : «طبق عُيْن والخزف الفاطمي المبكر» ، مجلة كلية الآداب -

جامعة القاهرة ١٨ (١٩٥٦) ٨٧-١٠٦ ، *Ars* ، Wiet , G., «Deux pièces de céramiques égyptienne» , *Islamicus* III (1936) pp. 172-179 ; Jenkins, M., «Early Medieval Islamic Pottery: The Eleventh Century Reconsidered», *Muqarnas* 9 (1992), pp. 56-66; Contadini A. *op. cit.* , pp. 71-89

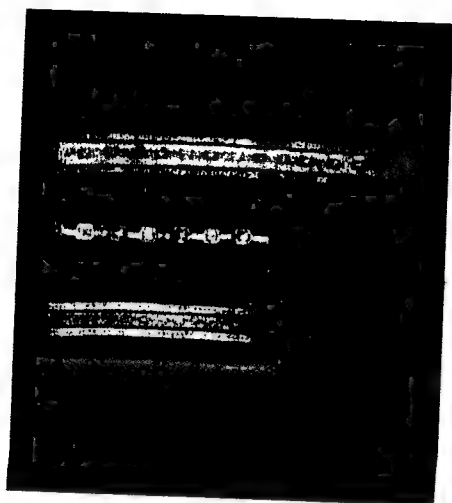
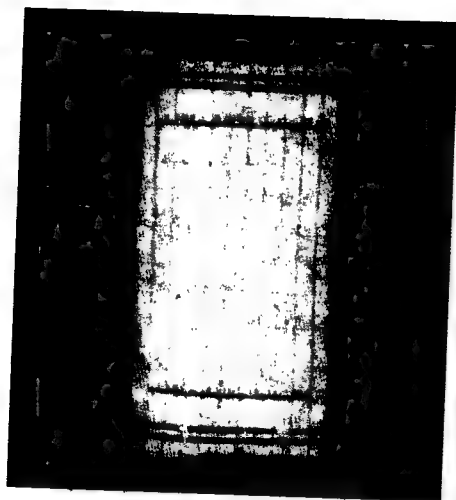
^١ زكي محمد حسن : المرجع السابق ١٧٩ .

^٢ المقرئى : المخطوط ١ : ١٨١ ؛ زكي محمد حسن : المرجع السابق ١٨٠ .

^٣ Jungfleisch, H., «Jetons (ou Poids) en verre de l'Imam al-Montazar», *BIE XXXIII* (1950-51), pp. 359-374; Balog, P., «Fatimid Glass Jetons : Token Currency or Coin - Weights ?», *JESHO* XXIV (1981), pp. 93-109; id. , «The Fatimid Glass Jeton», *Annali Dell'Istituto Italiano* 18-19 (1971-72), pp. 175-264, 20 (1973), pp. 121-212; Contadini, A., *op. cit.* , pp. 104-108

^٤ زكي محمد حسن : المرجع السابق ١٨٠ .

• ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٤ .



لوحة ٢٩ - نماذج من النسيج الفاطمي من الكتان والحرير محفوظة
في معهد العالم العربي بباريس ومتحف بيناكي بأثينا

بَلُورًا غاية في الجمال، يحضرونه من المغرب» وأضاف أنه ظهر حديثًا، عند بحر القلزم «بَلُور أَلْطَف وأكثر شفافية من بَلُور المغرب»^١.

ولعل أهم المصنوعات الزجاجية الفاطمية وأكبرها قيمة فنية هو الزجاج المذهب والمزَّين بزخارف ذات بريق معدني. وللأسف فإن ما وَصَلَ إلينا من هذا النوع وكُثِفَ في حفائر القُشطاط ليس نماذج كاملة^٢.

واستخدم الفاطميون كذلك البَلُور الصخري في عمل الكؤوس والأباريق وغيرها، فيذكر صاحب كتاب «الدخائر والتحف» أنه وُجِدَ في خزائن الطرائف والفضة، وقت الأزمة، «سنة وثلاثون ألف قطعة من مُحَكَّم وبَلُور مجرود من سائر أنواعه»^٣، وأن ناصر الدولة حصل من خزائن القصر على «قاطرميز وعاء عميق ذو غطاء بَلُور فيه صور نابذة عن جسمه يَسَع من الشراب سبعة عشر رطلًا، ودُكُوجة^٤ بَلُور مجرود تَسَع عشرين رطلًا»^٥، كذلك وجد في خزائن القصر «مجمع سكارج^٦ مخروط من قطعة بَلُور بغطائه، وفيه سكارج بَلُور تخرج منه وتعود إليه، فتحته أربعة أشبار في مثلها، مليح الصنعة في غلاف خيزران مذهب»^٧. وكان مما حصل عليه ناصر الجيوش، على هيئة كيزان الزير المعمولة من النحاس، نوع معمول من البَلُور المجرود مقبضه مستخرج منه يحمل عشرة أرتال من الماء بالمصري^٨.

^١ ناصر خسرو: سفرنامه ١٠٣.

^٢ زكى محمد حسن: المرجع السابق ١٨٣.

^٣ الرشيد بن الزير: الدخائر والتحف ٢٥٨؛ المقرئى: اتعاظ ٢: ٢٩٠.

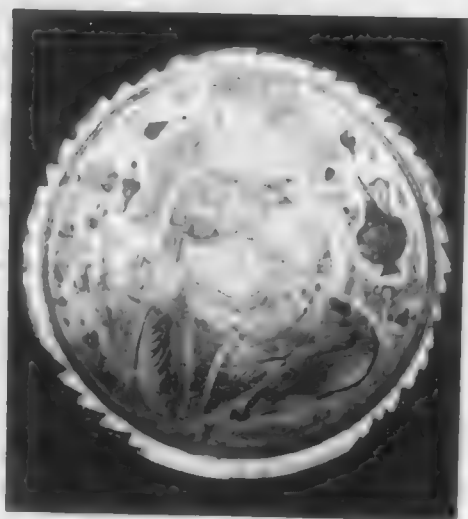
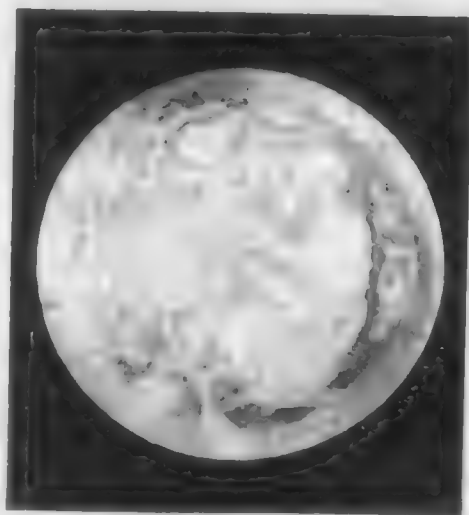
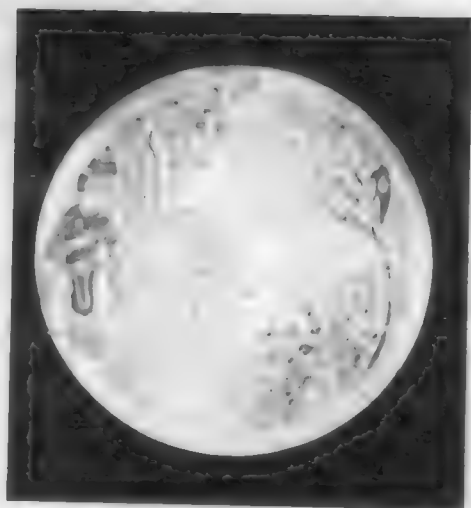
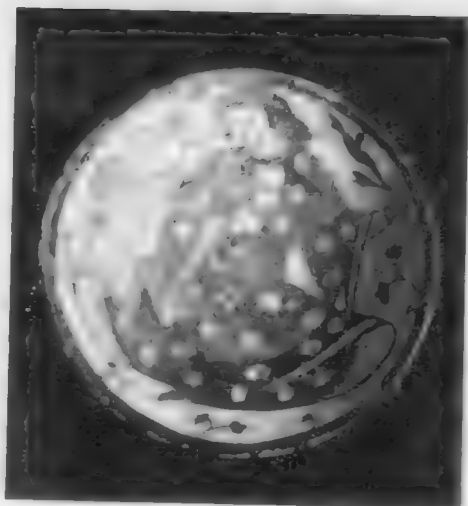
^٤ دُكُوجة أو دُكُوشة (ج. دكاكيج. جوة صغيرة) (Dozy, R., Suppl. Dict. Ar. I, 453).

^٥ الرشيد بن الزير: الدخائر ٢٥٩؛ المقرئى: اتعاظ ٢: ٢٩١.

^٦ سُكْرُوجة أو سُكْرُوجة (ج. سكارج) القشعة أو الجفنة (Dozy, R., Suppl. Dict. Ar. I, 668).

^٧ الرشيد بن الزير: الدخائر ٢٦٠؛ المقرئى: اتعاظ ٢: ٢٩٢.

^٨ نفسه ٢٦١؛ نفسه ٢: ٢٩٣؛ وانظر Contadini, A., op. cit., pp. 16-38.



لوحة ٢٧ - نماذج من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني

محفوظة في مجموعتي متحف ييناكي بأثينا ومتحف الفن الإسلامي بالقاهرة

ومن أهم نماذج البُلول الصخرى التي وصلت إلينا إبريق على شكل كمثرى محفوظ في كنوز كاتدرائية سان مارك بمدينة البندقية [لوحه ٢٩] يشتمل على زخارف تمثل أسدين بينهما شجرة الخلد وعلى المقبض حروف صغير، وبين رقبه الإبريق وبدنه شريط من الكتابة الكوفية نصّها :

« بركة من الله للإمام العزيز بالله »

وإبريق آخر محفوظ في متحف فيكتوريا وألبرت بلندن قوام زخرفته مجموعتان من الحيوان تتكوّن كل منهما من صقر ينقض على غزال ليقتسه^١ [لوحه ٣٠].

وغير ذلك من النماذج المنتشرة في المتاحف والمجموعات العالمية. وأكثر هذه النماذج كان له مقبض مستقيم وفي أعلاه هيئة حيوان أو طائر صغير ليرتكز عليه الإبهام عند مسك الإبريق، أما البدن فكان مزيجاً بزخارف مقطوعة فيه وقوامها حيوانات أو طيور أو فروع نباتية برسومة بدقة وانسجام وتناسب وتناسق^٢.

أما أحسن فروع الفن الفاطمي حفظاً في وفرة النماذج التي وصلت إلينا فهي (الأخشاب ذات الزخارف المحفورة - Bois Sculptés). وقد وصلت إلينا منها نماذج كثيرة على شكل حشوات وألواح خشبية ومصاريع أبواب ومنابر متنقلة، كانت في المساجد والكنائس وبقايا القصر الفاطمي الصغير، محفوظة اليوم في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وتعد أغنى المجموعات الخشبية في متاحف العالم أجمع.

وفي دراسته الهامة عن «مميزات الأخشاب المزخرفة في الطرازين العبّاسي والفاطمي في مصر» قسّم فريد شافعي الطراز الفاطمي إلى ثلاث مراحل. المرحلة الأولى وتشمل النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، والمرحلة الثانية وتشمل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي والرابع الأول من القرن

^١ Contadini, A., *op.cit.*, pp. 30, 37-38.

^٢ زكي محمد حسن : المرجع السابق ١٨٩-١٩٢.



لوحة ٢٨ - غاذج من شبائك الفل (متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)



لوحة ٢٩ - إبريق على شكل كعشى
(كاتدرائية مان مارك بمدينة البندقية)



لوحة ٣٠ - إبريق من البلور الصخرى
(متحف فيكتوريا وألبرت بلندن)



لوحة ٣١ - نماذج لكؤوس وأقداح وقناديل من الزجاج الفاطمي

محفوظة في متحف الدولة في برلين

السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى، والمرحلة الثالثة وتشمل الربع الثانى والربع الثالث من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى^١.

وتعد المرحلة الأولى استمرارًا للطراز الطولونى أو الطراز الشامى الثالث فى مصر (نسبة إلى سامراء)، وأهم نماذجها حشوات مصراعى الباب الذى أمر بعمله الحاكم بأمر الله ليوضع فى الجامع الأزهر وقت تجديده سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م^٢.



وأهم نماذج المرحلة الثانية الأخشاب التى اكتشفت أثناء عملية ترميم مارستان قلاوون فى مطلع هذا القرن، فقد كشف فيه عن مجموعة نادرة من التحف الخشبية كانت مستخدمة بالقصر الفاطمى الغربى، الذى بنى فى موضعه المارستان، وأعيد استخدامها فى المارستان على وجهها الآخر فى كسوة الجزء العلوى من جدران مارستان قلاوون. وهى عبارة عن ألواح طويلة يبلغ عرض الواحد منها نحو ٣٠ سم كانت مستخدمة فى تغطية الإفريز الأعلى بالجدران^٣. وقد زخرفت هذه الألواح بتقسيمها إلى ثلاثة أشرطة، الأوسط

لوحة ٣٢ - أحد مصراعى الباب الذى أهده الخليفة الحاكم للجامع الأزهر

^١ فريد شافى: «مميزات الأخشاب المعروفة فى الطرازين العباسى والفاطمى فى مصر»، مجلة كلية الآداب - جامعة

القاهرة ١٦ (مايو ١٩٥٤) ٦٦-٩١.

^٢ زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين ١٠٢-٢٠٢، فريد شافى: المرجع السابق ٦٤.

^٣ انظر، Herz, M., «Boiserie fatimites aux sculptures figurales», *Orientalisches Archiv* III (1913), pp. 16-174; Marçais, G., «Les figures d'hommes et de bêtes dans les bois sculptés d'époque fatimide conservés au Musée du Caire», *Mélanges Maspero*, Le Caire IFAO 1940, III, 241-

57; Contadini, A., *op. cit.*, pp. 109-116.



لوحة ٣٣ - غاذج لأرواح خشية محفورة استخدمت في تغطية الإبريق الأعلى بجدران القصر الناطلي الغربي (متحف الفن الإسلامي بالقاهرة)

عريض وفي حافته العليا والسفلى شريطان رفيعان مزخرفان بعروق على هيئة أمواج مطردة أو متقابلة في تماثل وتخرج منها أوراق نخيلية وأنصاف نخيلية، وزخرفت أمثلة قليلة من هذه الأشرطة الرفيعة بحلزونات بداخلها عناصر نباتية ورسوم حيوانات وطيور.

أما الشريط الأوسط العريض فقد قُسم إلى مناطق هندسية تملأها عناصر آدمية وحيوانات وطيور تمثل موضوعات مختلفة منها مناظر صيد وقُصص ومنها مجالس شراب وطرب وغير ذلك، وملكت أرضية تلك العناصر بزخارف نباتية دقيقة مستواها منخفض عن مستوى المناطق الهندسية والأشرطة الرفيعة وعناصر الكائنات الحية، أى أن الحفر في هذه الألواح قد عمل على مستويات ثلاثة^١.

ويرى فريد شافى أن الألواح المثبتة بالجدران الداخلية لمدفن شجر الدر، في مستوى أعقاب الأبواب وتحت قبة المحراب، قد صنعت في العصر الفاطمي وانتزعت من مكانها الأصلي وأعيد استخدامها في هذا المدفن، حيث إن التكوين الزخرفي فيها هو نفسه الموجود في الألواح المكتشفة في مجموعة قلاوون. وتميّزت ألواح مدفن شجر الدر بأن الأشرطة الوسطى العريضة بها ملكت بكتابات كوفية كلها آيات قرآنية ما عدا شريط واحد به عبارات دعائية، عوضاً عن العناصر الآدمية والحيوانية ورسوم الطيور التي وجدت في مجموعة قلاوون، إلا أن الحفر في هذه الألواح تم على مستويين وليس على ثلاثة مستويات كما في المجموعة السابقة^٢.

أما المرحلة الثالثة فتميّزت بظهور عناصر ذات أصل هيلينى وأخرى ذات طابع إسلامي أهمها زخارف الأرابيسك وازدياد التعقيد والتنوع في التقسيم الهندسى والاتجاه نحو تجميع حشوات صغيرة منفصلة مختلفة الأشكال بواسطة ضلوع مُعشّقة^٣. وأهم نماذج هذه المرحلة: ضلعتا باب من مسجد السيدة نفيسة، ومحراب مسجد السيدة

^١ فريد شافى: المرجع السابق ٧٤-٧٥.

^٢ نفسه ٧٥.

^٣ نفسه ٨٠-٨١.



لوحة ٣٥ - محراب مشهد السيدة نفيسة
(متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)



لوحة ٣٤ - المحراب الذى أهداه الأمر بأحكام الله
إلى الجامع الأزهر (متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)

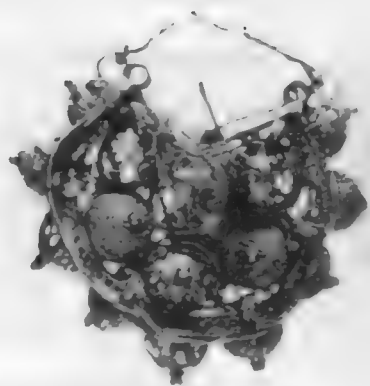
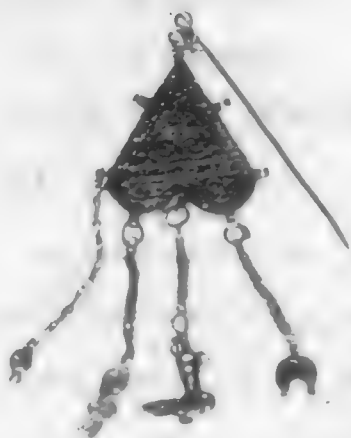
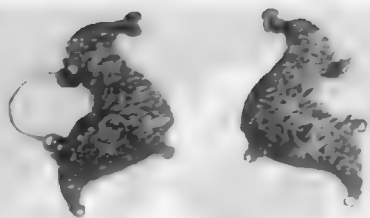
نقيسة ، ومحراب السيدة رُقِيَّة ، وحشوات باب جامع الفكهاني (الأفخر) ، ومصرامى باب جامع الصالح طلائع وأضاف إليها فريد شافعى حجاب الهيكل فى كنيسة الست بربارة بمصر القديمة المحفوظ فى المتحف القبطى^١ ، والذى كان الباحثون يرجعون عادة إلى المرحلة الأولى^٢.

ونظرًا لأن الفن الإسلامى لم يكن يُحَبِّذ تصوير الكائنات الحية ، وبالتالى تشكيل ونحت التماثيل، فإنه لم يصل إلينا تماثيل بمعنى الكلمة من العصر الإسلامى اللهم إلا أمثلة نادرة أغلبها من « البرونز » ترجع كلها إلى العصر الفاطمى - فيما عدا استثناءات قليلة - تعطينا فكرة بسيطة وغير تامة عن ازدهار « صناعة المعادن » فى العصر الفاطمى . وتكاد التماثيل البرنزىة الصغيرة التى وصلت إلينا أن تكون مُجَلِّ ما بقى لنا من منتجات صناعة المعادن فى ذلك الوقت والتى كان الغرض منها زخرفيًا قبل كل شىء ، اللهم إلا حين نرى إناءً صنع على شكل طائر أو حيوان يذكرنا بما عرف فى الغرب فى فترة العصور الوسطى باسم أكوامانيل Aquamanil . ومن أشهر التماثيل الفاطمية التى وصلت إلينا عُقاب البرنز الموجود الآن فوق إحدى أروقة الكامبوسانتو (المقبرة أو الجبانة) بمدينة بيزا الإيطالية (ارتفاعه ١٠,٥ وطوله ٨٥ سم) ، ويقال أنه مُجَلِّب من مصر إلى إيطاليا على يد عمورى الأول ملك بيت المقدس بينى سنتى ٥٥٩-٥٦٩/١١٦٢-١١٧٣م ، ويظن أنه كان جزءً من قَوَارة مائية .

ومن أدق التماثيل الفاطمية المعروفة كذلك أثيل مُجَوَّف من البرونز محفوظ فى المتحف البافارى بمدينة ميونخ ، ارتفاعه ٤٦ وطوله ٣٠ سنتيمترًا ، وله قرن طويل وذنب قصير وفى رقبته وبدنه ثقبان يحملان على القول بأنه كان ذا مقبض متصل برقبته ومؤخره .

^١ فريد شافعى : المرجع السابق ٨٢ .

^٢ زكى محمد حسن : المرجع السابق ٢٠٤ وانظر كذلك حول موضوع الأخشاب المحفورة Pauty, E., *Les bois sculptés jusqu'à l'époque ayyoubide*, Le Caire - IFAO 1931 ; id., *Bois sculptés d'églises coptes (époque fatimide)*, Le Caire - IFAO 1930 .



ويحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بأسد من البرونز (ارتفاعه ٢١ وطوله ٢٠ سم) وذنبه مجدول ينتهى بشكل رأس حيوان ، وفمه مفتوح ، كما أن فى بطنه وفى صدره وعينه ثقوباً [محفوظ فى المتحف برقم ٤٠٠٠]، ويظن أن هذا التمثال كان من أجزاء فسقية من العصر الفاطمى [لوحة رقم ٣٧]:



لوحة ٣٧ - تمثال لأسد من البرونز

(متحف الفن الإسلامى بالقاهرة)

وعُدَّ زكى محمد حسن فى كتابه « كنوز الفاطميين » نماذج التماثيل والآنية البرونزية المحفوظة فى المتاحف العالمية . وتحفظ هذه المتاحف كذلك بالعديد من نماذج المباحر البرونزية المصنوعة على شكل طيور أهمها الموجود فى متحف اللوفر والمتحف البريطانى . وأكثر النماذج المعروفة فى هذا النوع عليها كتابه بالخط النسخى رَجَّح زكى حسن من خلالها أنها ترجع إلى نهاية الدولة الفاطمية وبداية العصر الأيوبي^١.

ومن القطع النادرة التى وصلت إلينا كذلك نماذج للجلجلى والمعادن النفيسة التى كانت زينة للأميرات والمحظيات كشف عن عدد كبير منها فى حفائر الفُسطاط ، وأكثر هذه القطع محفوظة فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة وفى متحف بناكى بأثينا وفى مجموعة المسيو رالف موارى ، وتمتاز هذه الحلجى بزخارفها المُشَبَّكة والبارزة وذات الخروم وكلها دقيقة وجميلة ويغلب عليها التَّنوع الذى ينم عن قدرة فى الصنعة^٢ [لوحة ٣٦] .

^١ زكى محمد حسن : المرجع السابق ٢٣٢-٢٤٢ .

^٢ نفسه ٢٧٤-٢٤٨ .

الكتاب الثالث

الجيش والبحرية

الفصل الثامن عشر

الجيش الفاطمي

نشأ الجيش الفاطمي مع تأسيس الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا، وهو الجيش الذي اعتمد عليه أبو عبد الله الشيعي في تقويض الدولة الأغلبية في إفريقية، وتحمل المحاولات المتكررة لفتح مصر إلى أن نجح في إتمام عملية الفتح في سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م على يد القائد جوهر الصقلي.

الفترة الإفريقية

تكوّنت البنية العرقية للجيش الفاطمي في الفترة الإفريقية من أربعة عناصر أساسية هي: الكتاميون والصقالية والزويليون والجنود العرب.

كان « الكتاميون » يُمثلون طوال الفترة الإفريقية العنصر المتفوق داخل الجيش الفاطمي. فقد كان الفاطميون في حاجة إلى عصبية يعتمدون عليها في توطيد أركان دولتهم، فاعتمدوا على بربر كثامة وعهدوا إليهم بالقيادات الهامة. ولعب الكتاميون دورًا هامًا و متميزًا في انتصار الفاطميين وتعاظم قدراتهم مما أدّى إلى القضاء على العنصر العربي في إفريقية. وهكذا تمكّن الكتاميون من امتلاك السلطة العظمى في إفريقية ونجحوا في إقامة الإمبراطورية الفاطمية في شمال إفريقيا ثم في مصر^١.

وقد أسهب المؤرخون في وصف الخصال الحربية الخارقة للكتاميين الذين أشاد الخلفاء الفاطميون دومًا بفضلهم على الدولة^٢. وقد ظهر دور الكتاميين وغيرهم من

^١ Dachraoui, F., *Le califat fatimide au Maghreb*, pp. 364-65

^٢ القاضي النعمان: المجالس والمسائر ٩٦، ٢٠٣، ٢١٨، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٥٥، ٣٢١.

عناصر الجيش الفاطمي في نُصْرَة الدولة الفاطمية بوضوح في أثناء ثورة أبي يزيد الخارجي سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م. وتبعاً للقاضي النعمان فإن الجيش الفاطمي كان يتكوّن في ذلك الوقت من سبعين ألف رجل كان بينهم على سبيل التقريب ٥٠ ألف كُتامي والبقية من الصّقالية والزوّيلين والمجندين العرب الذين كان عددهم قليلاً في دولة تعتمد أساساً على البربر^١.

وكان « الصّقالية »، سواء أكانوا خصيئاً أو لا، يأتون في معظمهم من بلاد البلقان أو من البندقية إثر الغارات التي كان يقوم بها الغزاة العرب في البحر أو نتيجة الأسر أثناء المعارك مع البيزنطيين الذين كان جيشهم يضم عدداً من الصّقالية^٢.

وهكذا كان الصّقالية من بين الموالى الأوائل للفاطمين، كما أن حرس الخليفة المهدي كانوا جميعهم من الصّقالية، وكان بعضهم في خدمة المهدي منذ أن كان في سَلَمَة بالشام قدموا عليه من خراسان حيث تولّى يبعهم البلغاريون التابعون لمنطقة الفولجا جيران الصّقالية.

وقام الصّقالية بدور مهم في تنظيم الجيش الفاطمي طوال الحملة التي قام بها الخليفة المنصور على صاحب الحمار أبي يزيد الخارجي، كما قاد أشهر هؤلاء الصّقالية وهو جوهر الصّقلي الجيوش الفاطمية غرباً وشرقاً لمد نفوذ الفاطمين.

وما لا شك فيه أن الصّقالية كانت تحذوهم روح العصبية والتضامن الجنسي، ولكن بحكم انزاعهم داخل المجموعة الإفريقية كانت عصبيتهم أقل خطورة من العصبية البربرية أو العربية.

^١ القاضي النعمان: المجالس والمساربات ٥٥٤؛ وراجع عن الكتامين لقبال محمد موسى: دور قبيلة كتامة في قيام

الخلافة الفاطمية، الجزائر ١٩٧٩؛ ٥٤٤-٥٤٥ art. *Kutâma* V, 544-45. Basset, R., *El*

^٢ Dachraoui, F., *op. cit.*, p. 369-70.

وهكذا فإن الصُّقالية كانوا يتمنون إلى فئة اجتماعية تابعة للمخاضة وكانوا يحتلون في السلم العسكري والمدنى مرتبة لا تقل عن مرتبة مشايخ كتامة . ورغم أن دورهم العسكري كان دون دور المشايخ الكتامين ، فيبدو أنهم كانوا يحظون باعتبار كبير راجع إلى روابط الولاء التي كانت تربطهم بشخص الإمام^١ .

والى جانب الصُّقالية من الموالي كان يوجد ممالك صقالية كانوا يحاربون على حدة بقيادة أحد أبناء جنسهم هو الحسن بن رشيق الريحاني الملقب بالكاتب والذي انتصر على أبي يزيد الخارجي أمام شوسة . وكانت قواتهم تقوم أثناء عمليات الحصار بأعمال شاقة تستدعى كثيرا من الشجاعة والمهارة مثل أعمال التفويض والهدم^٢ .

ويلاحظ أن كلمة العبيد كانت تُطلق على الرقيق الأبيض ذوى الأصل المسيحي العاملين في خدمة الخليفة الفاطمي المنصور بالله ، بينما كان يُطلق على بنى جلدتهم الذين ارتقوا إلى رتبة قائد اسم الخادم أو عبد الإمام أو الصُّقلي .

أما « الزُّوَيْليون » فينسبون إلى زُوَيْلَة قاعدة إقليم فزان بالقرب من بلاد الكانم (تشاد الحالية) . وكانوا يؤلفون داخل الجيش الفاطمي قِتلًا خاصًا بقيادة واحد من بنى جنسهم اسمه صَنْدَل ، كما كانوا يمثلون العبيد السود داخل الجيش الفاطمي . ويرجع استخدام العبيد الزُّوَيْليين السود إلى مستهل عهد المهدي حتى أصبحوا يكوّنون قسما هائلا من مشاة الجيش الفاطمي ، وشاركت فرقة منهم في الحملة الفاطمية الأولى على مصر وأوقفهم جيش مؤنس الخادم في الأشر^٣ .

وأخيرا فإن « العنصر العربي » كان يُمثّل بقايا الجنود الإفريقيين بعد زوال النظام الأغلبي . فقد كان الأغالية - وهم في الأساس دولة عربية - لا يعتمدون على الصُّقالية

^١ Dachraoui, F., *op.cit*, p. 370

^٢ Ibid ., p 368 ولمزيد من التفاصيل عن العنصر المُثَقَل راجع ، Guichard, P. & Mohamed Meouak ,

El² art. *al-Sakātilā* VIII, 902-911

^٣ Ibid ., pp . 370-71

أو البُزُور، إنما كان اعتمادهم على العنصر العربي وخاصةً من المضربين، بينما أهمل النظام الفاطمي الذي تدعمه العصبية القبلية-الكتامية العنصر العربي. وعلى ذلك فقد كان العنصر العربي يُمثِّل أقلية في الجيش الفاطمي يطلق عليهم اسم الجنود أو «أهل إفريقية»^١، ومع ذلك فقد كان عددٌ كبيرٌ من الجنود العرب يعملون في الجيش الفاطمي في أوائل عهد الخليفة المهدي، وتنتمي هذه العناصر بالخصوص إلى جنود بَزَقَة وطرابلس الذين سنجدهم إلى جانب الكتامين بقيادة أبي القاسم محمد ولي عهد المهدي الذي لُقِّبَ بعد ذلك بـ «القائم» أثناء الحملتين الفاطميتين الأولى (٣٠١ هـ/٩١٣م-٣٠٧ هـ/٩١٩م) ثم تحت إمرة المنصور أثناء مطاردة أبي يزيد وقلول الخوارج^٢. ورغم أن الجيش الفاطمي في إفريقية كان يتركز في الأساس على البربر الكتامين، فإنه كان في حاجة إلى خدمات العناصر العربية لتحقيق الأهداف التي رسمها الفاطميون الحكّام الجدد للبلاد. إلا أن هذه السياسة لم تدم طويلاً وأصبحت لدى الخلفاء الفاطميين الأوائل قناعةً بعدم الاعتماد على هذا العنصر^٣.



ولعب الجيش الفاطمي في الفترة الإفريقية دورًا كبيرًا في إخماد الثورات الداخلية ضد الدولة الفاطمية، وأهم هذه الثورات حركة أبي يزيد مَخْلَد بن كَيْدَاد صاحب الحمار التي هَزَّت العرش الفاطمي وعَرَّضَتْهُ للسقوط، وكذلك في توسيع رُقعة الدولة والاستيلاء على أراضي جديدة شرقًا وغربًا، كان أهمها ما تم في عهد المعز على يد بجْوَهر القائد الضُّقْلَبِي الذي قاد جيوش الفاطميين سنة ٣٤٧ هـ/٩٥٨م ضد البربر المناهضين للخلافة في سِجِلْمَايَة وتَاهَرْت^٤، كما قاد حملة مماثلة في سنة ٣٥٧ هـ/٩٦٨م بغرض

^١ . Dachraoui, F., *op. cit.*, p. 372

^٢ . *Ibid*., p. 372

^٣ . *Ibid*., p. 373

^٤ المقرئى : اتماظ الحنفا : ١ : ٩٣-٩٤.

فرض النظام في المغرب الأقصى ، وأخيراً فتح مصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م والتمهيد لانتقال الخلافة الفاطمية إلى المشرق .

تنظيم الجيش

كان الجيش الفاطمي في الفترة الإفريقية - كما رأينا - ذا صبغة بربرية وصقلية ويتألف في معظمه من « الحَيَّالة » . فقد كان الكُتَّامِيُّونَ مقاتلين جبليين تَعَوَّدُوا القتال على صهوة جيادهم ، ورغم أن غالبيتهم كانوا يملكون خيولهم الخاصة فإن إدارة الجيش الفاطمي كانت تَعْنِي بالإضافة إلى تسديد جرايات ورواتب العسكر بعتاد الجنود ، وكانت بالتالي تبهر على إمداد ذلك العدد الضخم من الفرسان بالخيول والسروج والسلاح المناسب^١ .

وكان سلاح الفارس يتكون عادة من « الرُمح » المعد للطعان و« الشَّيْف » و« الدَّرَقَة » ، وهي عبارة عن درع مستدير مصنوع من الجلد يستعمله الفارس للاحتماء به من ضربات العدو بالسيف أو الرُمح^٢ .

كما كانت فرق المشاة تقوم بدور رئيسي أثناء عمليات الحصار أو المعارك الواسعة النطاق ، أو أثناء التحام الجنود في ساحة الوغى . وكانت مهمة الرِّجَالَةِ المسلَّحين بالرماح والمُحْتَمِينَ بِدُرُوعِهِمُ المعروفة بالدَّرَقَة تتمثل في تلقي ضربات العدو في بداية المعركة والرد عليها بتوجيه الضربات الفتاكة نحو الفارس وجواده على حد سواء . وعندما كان الجندي الراجل يلتحم مع العدو فإنه كان يستعمل « العِثْرَة » أو « الرُمح الصغير »^٣ .

^١ Dachraoui , F., *op. cit.*, P. 376 .

^٢ *Ibid.* , p. 376 .

^٣ *Ibid.* , p. 377 .

الفترة المصيرية

جيش مصر قبل الفتح الفاطمي

كان الجيش على عهد محمد بن طُغْج الإخشيد، مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر، يتألف من الترك والمغاربة ومماليك من أجناس مختلفة. وبعد وفاة محمد بن طُغْج الإخشيد وتولّى كافور ضمّ إلى الجيش عددًا كبيرًا من السودانيين^١.

وانقسم الجيش في عهد كافور إلى جند ينصرون أبناء الإخشيد عرفوا بـ «الإخشيدية» وآخرون ينصرون كافورًا عرفوا بـ «الكافورية». وبعد وفاة كافور في سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م دُبّت الفوضى في صفوف هذا الجيش وثار كثير من الجند على رؤسائهم وطلبوا بأرزاقهم، خاصة وأن الجند قد تعوّدوا أن يشتري الأمراء طاعتهم بالمال والعطايا^٢.

وقد ذكر المقرئ أن جيش الإخشيديين في مصر والشام بلغ أربعمئة ألف مقاتل^٣، ورغم المبالغة الواضحة في هذا الرقم إلا أنها تدلّ على كبر حجم هذا الجيش الذي لم يُخْتَبَر.

وبعد فتح جزر الصقل لمصر ألقى القبض على ثلاثة عشر من رؤساء الكافورية والإخشيدية بعد أن بلغه تأمرهم ضد النظام الجديد^٤. كما أن الفاطميين لم يعملوا على دمج بقية فرق الإخشيدية والكافورية كعناصر نظامية في الجيش الفاطمي مثلما فعلوا في شمال إفريقيا عندما أدمجوا بقايا الجيش الأغلبى في جيشهم^٥.

^١ المقرئ: المخطوط ١: ٩٤ سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ٢٤٥، ٢٤٦.

^٢ سيدة إسماعيل كاشف: المرجع السابق ٢٤٧.

^٣ المقرئ: المخطوط ١: ٩٤.

^٤ المقرئ: اتماظ الحنفا ١: ١١٧-١١٨.

^٥ Lev, Y., *State and Society in Fatimid Egypt*, Leiden-Brill 1991, p 84.

الجيش الفاطمي في مصر

سبق أن ذكرت كيف جُمع المعز لدين الله في المحرم سنة ٣٥٨هـ/ديسمبر سنة ٩٦٨م بالقرب من مدينة رَقادة نحو مائة ألف فارس أغلبهم من القبائل البربرية وخاصة قبيلة كُثامة ومن الرُّوَّيليين ومن الصُّقْلَبة. أَعَدَّ هذا الجيش بعناية فائقة من ناحية العُدَّة والعتاد حتى أن المفاوضين المصريين الذين تفاوضوا مع القائد جوهر الصُّقْلَبي الذي قاد جيوش الفاطميين إلى مصر وكتب لهم «الأمان» وصفوا حجم جيشه بأنه «مثل جُمع عرفات كثرة وعُدَّة» حتى قيل إنه لم يَطَأ الأرض بعد جيش الإسكندر أكثر عددًا من جيوش المعز^١.

ولم يكن الفتح الفاطمي لمصر نتيجة عمل عسكري بطولي مشهود لهذا الجيش الكبير الذي قاده جوهر الصُّقْلَبي، وإنما اجتمعت عوامل أخرى مختلفة جعلت عملية الفتح تتم دون مقاومة تُذكر. وهكذا دخل جوهر على رأس جيش الفاطميين إلى مصر، وفور استقراره بدأ في وضع أساس عاصمة إدارية جديدة في مصر هي «القاهرة» شمال شرق مدينة الفسطاط، وهي عبارة عن منشآت ملكية مماثلة لقطائع أحمد بن طولون تضم حارات (أحياء) لسكن فرق الجند^٢. كانت تضم في أوَّل الأمر حارات كُثامة والرُّوم والرُّوم الجُوَانِيَّة ورُوَيْلَة والباطلية والبروقية وهي العناصر التي صحبت جيش جوهر والتي قدمت بعد ذلك مع المعز في سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م. واعتباراً من خلافة العزيز بالله أضيفت إليها حارتى الأتراك والدُّيْلَم. ولم تكن للسودان أية حارة خاصة بهم فلم يبدأ ظهورهم كجزء هام في القوات الفاطمية المترجلة إلا اعتباراً من خلافة المستنصر بالله.

^١ فيما سبق ص ١٣٨-١٣٩.

^٢ راجع للمؤلف: التطور العمراني لمدينة القاهرة منذ إنشائها وحتى الآن، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧؛

ووجد داخل القاهرة كذلك عددٌ من الحارات التي سكنتها طوائف من عسكر الدولة الفاطمية نسبوا إلى بعض الوزراء وقادة الفرق المغربية مثل : حارة المحمودية وحارة الجودرية وحارة الوزيرية وحارة القطوفية وحارة المزناتية وحارة القزحية وحارة [صبيان] الطوارق وحارة العدوية وحارة اليانسية وحارة قائد القواد^١.

كانت السيطرة على الشام تمثل دائماً أولوية استراتيجية لكل نظام يتولى حكم مصر. فعلى ذلك فقد أرسل جوهر أحد قادة كتامة الذين شاركوا في فتح مصر هو جعفر بن فلاح الكتامي على رأس جيش إلى الشام. فتمكن من فتح الرملة ثم دمشق وإقامة الدعوة بهما للخليفة المعز في سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م. وأتم جعفر فتح الشام في سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م، ولكن القرامطة - الذين استغاث بهم فلول الأخشيديين - تصدوا للفاطميين.

لم يكتف القرامطة بهزيمة الفاطميين في دمشق بل هاجموا الفاطميين في مصر مقر خلافتهم، وشجع هجوم القرامطة أهالي الفرما وتيس على التمرد على الفاطميين. ولم يعد الهدوء الدائم إلى هذه الأقاليم إطلاقاً بين سنتي ٣٦٠هـ/٩٧١م و٣٦٣هـ/٩٧٤م حتى تمكن جيش بقيادة أبو محمد بن عمار كانت تحت إمرته أكثر من عشرة آلاف مقاتل من القيام بسلسلة من عمليات الردع العنيف لسكان هذه المناطق^٢.

وقد قامت بعض القوات الفاطمية بمتابعة فلول القرامطة ومطاردتهم حتى دمشق فنشروا الفوضى بها مما دفع أهلها إلى الاستنجاد بالقائد التركي أفتكين - مولى معز الدولة بن بُوَيْه - الذي كان قد خرج منهزماً من العراق في أعقاب فتنة الأتراك

^١ راجع، ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة ٢١-٦٧؛ المقرئ: الحطط ٢: ٢٣-٢٢.

^٢ فيما سبق من ١٥١-١٥٢.

واستجاب لنجدة أهالي دمشق وخطب فيها للعبّاسيين وقطّع خطبة الفاطميين سنة ٣٦٤هـ/٩٧٥م.

وبعد وفاة المعز لدين الله وتولّى ابنه العزيز بالله الخلافة أعد جيشًا بقيادة جوهر الصّقلبيّ لمنازلة أفتكين التركي بالشام بعد رفضه لمراسلات العزيز ورده عليها ردًا غليظًا يدل على استهائته بالخلافة الفاطمية في مصر. وبعد قتال استمر شهرين أظهر فيها جيش أفتكين كفاءة كبيرة ساندته فيه جيوش القرامطة الذين استعان بهم أهل دمشق ضد جيش جوهر، اضطر الجيش الفاطمي للانسحاب إلى طبرية وعسقلان حيث حاصرت بها قوات أفتكين. ثم نجح جوهر في عقد اتفاق معه لإنقاذ الجيش الفاطمي المحاصر في عسقلان. وكان الشرط مقابل ذلك هو أن يُعلّق على باب المدينة سيف أفتكين ورمح القرمطي ويسير الجند الفاطمي من تحتها.

بعد عودة جوهر إلى مصر اقترح على الخليفة العزيز أن يخرج بنفسه على رأس جيش لمحاربة هذه القوات جَهَّزَه تجهيزًا حسنًا وحمل معه توايت آبائه على عادة الفاطميين عند القتال. وعند التقاء الجيشين أبدى أفتكين شجاعة انتزعت إعجاب الخليفة العزيز، فعرض عليه الأمان مرات لكنه لم يستجب إلا بعد أن كسره الجيش الفاطمي وقتل من قواته عددًا كبيرًا. وقد أخذ أفتكين أسيرًا وحمل إلى العزيز الذي أكرمه وأفرج عن جميع من أسر من أصحابه وضاعف عليه النعمة وأدخله في صحبته إلى مصر وأنزله مع أصحابه في حارة اختطت لهم جنوب الجامع الأزهر عرفت بحارة الدئلّم والأتراك^١.

ظهور الأتراك والديالة

هكذا واجه الفاطميون خلال حملتهم على بلاد الشام جيوشًا أكثر تفوقًا من جيشهم الذي كان مكونًا في أغلبه من القوات البربرية. وكانت الجيوش البيزنطية

^١ النويري: نهاية الأرب ٢٨: ١٥٤-١٥٨، المقريزي: مسودة المواعظ والاعتبار ٣٥٤-٣٥٥.

والإسلامية التي واجهها الجيش الفاطمي في الشام (على سبيل المثال : القرامطة ذوى الأصول البدوية ، والأحداث - وهم الميليشيات المحلية لدمشق - ، وفرق الجنود الأتراك) يلعب فيها رُماة السهام دورًا بارزًا . وكان الكتاميون والبربر عمومًا لا يستخدمون القوس المُرْكَبَة كسلاح . فكان غياب رماة السهام من القوس المُرْكَبَة بين صفوف جيش الفاطميين يعوق كفاءة هذا الجيش العسكرية ويلحق الهزيمة به ^١.

وحتى يتغلب الخليفة العزيز بالله على دونية قواته البربرية لجأ إلى تطعيم جيشه بمجموعات عرقية جديدة ماهرة فى استخدام الأقواس المُرْكَبَة . وبدأت هذه السياسة فى عام ٣٦٨هـ/٩٧٨م فى أعقاب انتصار العزيز على جيوش أفتكين التركى فى فلسطين . وكانت معاملة أفتكين وجيشه المهزوم جزءًا من سياسة فاطمية طويلة الأجل لتضمين فرق عسكرية ذات أصول عرقية واجتماعية متنوعة من الأحرار والمماليك على السواء فى جيشهم . وهكذا اصطنع العزيز بالله فى الجيش الفاطمي عناصر جديدة من الأتراك والفُرس الديّالة . وقد أئد العزيز فى سياسته وشَجَّعَهَا وزيره يعقوب بن كِلْس الذى يرجع إلى أصول عراقية ، فبالنسبة له كانت فكرة الاستعانة بالأتراك - كعنصر عسكرى هام - أمرًا طبيعيًا . وبالرغم من أن الإشارة إلى المماليك العسكريين خلال فترة خلافة العزيز بالله وفيرة ، فإن بدايات تنظيم المماليك العسكريين فى مصر الفاطمية تظل مع ذلك غير واضحة ^٢.

ويشير المُسَبِّحى عند وصفه لركوب الخليفة العزيز بالله فى صلاة العيد سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩١م إلى طوائف العسكر التى صاحبتة ومنها الأتراك والديّلم والعزيرية ، وهى فرقة منسوبة إليه ، والإخشيدية والكافورية الذين كانت بقاياهم مازال تخدم فى الجيش الفاطمي ^٣.

^١ Lev, Y., *op. cit.*, p. 84

^٢ Lev, Y., «Army, Regime and Society in Fatimid Egypt 358-487/ 968-1094», *IJMES* 19 (1987), p. 337

^٣ المسبّحى : نصوص ضائعة من أخبار مصر ١٣؛ المقرئى : الخطوط ١ : ٤٥١.

كان أهم ما ميّز هذا الإصلاح إدخال عنصر الأتراك والدبالة فى الجيش الفاطمى الذين اصطنعهم العزيز. ونتج عن ذلك نشوء جنسيات وتخصّصات عسكرية جديدة ولكن بدون ترابط شامل أو تماثل مع طبيعة الدولة^١.

ونحو سنة ٣٧١هـ/٩٨١م انضم إلى الجيش الفاطمى قوات من الحمدانية والبكجورية الذين تركوا خدمة الحمدانيين وبكجور التركى^٢. وعندما أنشأ العزيز بالله القصر الغربى الصغير وخصّه لسكن ابنته سيدة الملك جعل لها طائفة برسمها كانت تسمى «القصرية»^٣.

وأدّى التثوّع والتباين فى قوات الجيش الفاطمى إلى نشوء صراع دائم بين مختلف طوائفه ظهر فى أول الأمر بين المغاربة والمشاركة، فقد خشى المغاربة على فقد مكانتهم فى الدولة وثار فتنة بينهم وبين المشاركة انتهت بإقصاء زعيمهم أمين الدولة بن عمار سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م وإحلال بزجوان محله. وعندما قُتل بزجوان سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م اعتبر الأتراك ما حدث ضربة لهم من بزير كُتامة^٤.

وتفيدنا الأمانات التى أصدرها الحاكم بأمر الله فى التعرف على طوائف الجيش فى هذه الفترة فقد كان بينهم الديلم والغلمان الشراية والغلمان المرتاحية والغلمان البشارية والزوم المرتقة بالإضافة إلى الزوئليين والبّادين والبطالين والبرقيين والعطوفية والجوانية والجودرية والمظفرية والصنهاجيين وعبيد الشراء والميمونية والفزحية^٥.

وقد أظهر التسبّحى فى حوادث سنة ٤١٥هـ/١٠٢٥م الوضع الصعب الذى آل إليه الكتّاميون فى خلافة الظاهر الذى كان ميله إلى الأتراك والمشاركة^٦.

^١ Lev, Y., *op. cit.*, p. 337

^٢ المقرئى: اتماظ الحنفا ١: ٢٦، ٢: ٢٩؛ Lev, Y., *op. cit.*, p. 343

^٣ المقرئى: الخطط ١: ٤٥٧.

^٤ انظر فيما سبق ص ١٦١-١٦٣.

^٥ المسبحى: نصوص ضائعة ٢١؛ المقرئى: اتماظ الحنفا ٢: ٥٦.

^٦ المسبحى: أخبار مصر ٦٠-٦١، ٨٦.

الجيش الفاطمي في القرن الخامس الهجري/

الحادي عشر الميلادي

عند مناقشة وضع الجيش الفاطمي في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي يجب أن نُتميِّز بين فترتين: فترة ما قبل الحرب الأهلية وفترة ما بعد الحرب الأهلية التي اندلعت في أواسط هذا القرن.

الجيش الفاطمي قبل الحرب الأهلية

فَوْضَفَ العرض العسكري الذي شاهده ناصر تُحشرو في القاهرة نحو سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م بمناسبة الاحتفال بركوب فتح الخليج، يُعَبَّرُ عن فرق الجيش الفاطمي وتنظيمها قبل اندلاع هذه الحرب بسنوات قليلة، يقول ناصر تُحشرو:

« وحين يركب السلطان يصطف عشرة آلاف فارس، على خيولهم سروج مذهبة، وأطواق وألجمة مرصعة، وجميع لبد السروج من الديداج الرومي والبوقلمون، نسجت لهذا الغرض خاصة، فلم تفصل ولم تُخط، وطرزت حواشيهم باسم سلطان مصر، وعلى كل حصان درع أو جوشن، وعلى قمة السرج خوذة وجميع أنواع الأسلحة الأخرى.

في ذلك اليوم، يخرج جيش السلطان كله، فرقة فرقة، وفوجاً فوجاً، فرقة تسمى « الكُتامين ». وهم من القيروان، أتوا في خدمة المعز لدين الله، وقيل إن عددهم عشرون ألف فارس.

وفرقة تسمى « الباتليين » وهم رجال من المغرب. دخلوا مصر قبل مجيء السلطان إليها. وقيل إن عددهم خمسة عشر ألف فارس.

وفرقة تسمى « المصايمة » وهم سود من بلاد المصامدة، قيل إن عددهم عشرون ألف رجل.

وفرقة تسمى « المشاركة ». وهم ترك وعجم. وسبب هذه التسمية أن أصلهم

ليس عربيًا، ولو أن أكثرهم ولد في مصر، وقد اشتق اسمهم من الأصل، وقيل إنهم عشرة آلاف رجل، وهم ضخام الجثة.

وفرقة تسمى «عبيد الشراء». وهم عبيد مشترون، قيل إن عددهم ثلاثون ألف رجل.

وفرقة تسمى «البدو». وهم من أهل الحجاز، يقال لهم الرماة، وهم خمسون ألف فارس.

وفرقة تسمى «الاستاذين». كلهم خدم بيض وسود، اشتروا للخدمة، وهم ثلاثون ألف فارس.

وفرقة تسمى «الشرايين». وهم مشاة جاءوا من كل ولاية، ولهم قائد خاص، يتولى رعايتهم، وكل منهم يستعمل سلاح ولايته وعددهم عشرة آلاف رجل.

وفرقة تسمى «الزُئوج» يحاربون بالسيف وحده. وقيل أنهم ثلاثون ألف رجل.

ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان، ولكل جندي منه مرتب شهري على قدر درجته، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد الرعايا أو العمال. ولكن هؤلاء يسلمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة، وتصف أرزاق الجند من الخزانة في وقت معين، بحيث لا يرهق والي أو واحد من الرعية بمطالبة الجند^١.

فالعناصر المغربية الموجودة في هذا العرض يُمثِّلها ٢٠ ألفًا من الفرسان الكتاميين و١٥ ألفًا من الفرسان الباطلية بالإضافة إلى ٢٠ ألفًا من المصايدة المترجلين، وتتكون العناصر المشرقية من ١٠ آلاف من الأتراك والفُزُس بالإضافة إلى ٥٠ ألفًا من فرسان البدو من أهل الحجاز. ويُبيِّن نص ناصر خسرو بين فريقين من الجنود السود، الزُئوج وهم ثلاثون ألف رجل يحاربون بالسيف فقط وعبيد الشراء الذين يبلغ عددهم أيضًا ثلاثين ألف رجل.

^١ ناصر خسرو: سفر نامه ٩٣-٩٥.

ويرجع الفضل في الإكثار من العناصر السودانية في الجيش الفاطمي إلى السيدة أم الخليفة المستنصر - وهي في الأصل جارية سوداء تَحْطَى بها الخليفة الظاهر بأمر الله - والتي كانت صاحبة الشَّلْطَة في بداية تولّي المستنصر بالله فاستكثرت من العناصر السودانية حتى بلغوا نحوًا من خمسين ألف أسود .

والأعداد التي يذكرها ناصر خسرو تبدو عليها للوهلة الأولى المبالغة ، ولكنها تُدُلُّ على أنه كان للفاطمين جيشٌ كبيرٌ . والملاحظ أن البدو لم يكونوا أبدًا بين القوات النظامية للجيش الفاطمي ، كما أن الجيش الفاطمي كانت به مجموعة كبيرة من القوات المترجلة من السودان وربما يكونون هم الذين أطلق عليهم المصاميدَة .

لا شك أن هذا الجيش كان يُكَلِّف خزانة الدولة مبالغ طائلة سواء لصرف رواتبه أو لتجهيزه بالعتاد والسلاح ، خاصة وأن ناصر خسرو يذكر أن نفقته كانت من مال السلطان وأن كل جندي من هؤلاء الجنود البالغ عددهم ١٨٥,٠٠٠ جندي يتقاضى راتبًا شهريًا على قدر درجته ، وإن لم يُحدّد لنا مستوى هذه الرواتب . ونحن نعرف من مصادر أخرى أن نظام منح إقطاعات إلى رؤساء الجنود كتعويض كان متبعًا أيضًا ^١ . كما أن قوات الفرسان كانت تتقاضى راتبًا أعلى من راتب القوات المترجلة تبعًا لأصلها العرقي ، فالعناصر المشرقية (الأتراك والدَّيْلَم) كانت رواتبهم دون شك أعلى من رواتب الجنود السودان المترجلين . وسنجد أن الكتامين قد تَقَلَّص دورهم ولن يكون لهم دورٌ يذكر في الحرب الأهلية التي ستندلع بعد سنوات من هذا الوصف .

ويلاحظ على نص ناصر خسرو عند ذكره للمشاركة من الترك والعجم (الدَّيْلَم) أنه ذكر أن أصلهم ليس عربيًا وأن أكثرهم قد ولد بمصر وإن ظلوا يحتفظون بالانتساب إلى بلدهم الأصلي الذي قدم منه أبائهم في زمن العزيز بالله . فقد تمكن المشاركة وكذلك

^١ انظر فيما يلي ص ٧٠٧-٧٠٩ .

الكتاميون من الاندماج في المجتمع المصري والتزُّوج منه ، بينما وقف وضع السودان والنَّج كرقيق حائلاً بينهم وبين الاندماج في المجتمع المحلي^١ ، وكانت لهم « بديار مصر في كل قرية ومحلة وضيعة مكان مفرد لا يدخله وال ولا غيره »^٢. هذه الملاحظة التي أوردها المقرئ تدل على أن السودان كانوا يقومون بزراعة الأرض لإعانة أنفسهم ، ولم يكونوا مسئولين عن دفع أى ضرائب^٣.

ظهور الأرمن

كان الجيش الفاطمي الذي وصفه لنا ناصر حُشرو في أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي قد انحلَّ وتشتت تمامًا خلال الحرب الأهلية التي اندلعت في مصر في هذه الفترة^٤. والتي كان إنقاذ البلاد منها بفضل استعانة الخليفة المستنصر بالله بوالى عكَّا القائد الأزمنى بدر الجمالى .

لا شك أن التعديل الذى أُدخل على الجيش الفاطمي بعد استعانة الخليفة المستنصر بالقائد الأزمنى بدر الجمالى ، يعكس التغيير العنيف الذى حدث للسلطة السياسية فى الدولة الفاطمية . فقد تحوَّلت الإمامة الفاطمية منذ هذا التاريخ إلى دكتاتورية عسكرية يتحكَّم فيها « أمير الجيوش » ، وهو اللَّقب الذى أصبح يُطلَق على الوزراء العسكريين الذين تولَّوا السلطة فى القرن الفاطمي الثانى^٥.

لقد كان الجيش الذى صحب بدر الجمالى عند قدومه إلى مصر تلبية لدعوة الخليفة المستنصر هو قبل كل شىء جيش بدر الخاص وأساس قوته . وقد حمل هذا الجيش -

^١ Lev, Y., *State and Society in Fatimid Egypt*, p 94

^٢ المقرئى : الخطط ٢ : ١٩ واتعاظ الحنفا ٣ : ٣١٤ .

^٣ Lev, Y., *op. cit.*, p. 84

^٤ انظر فيما سبق ص ١٩٩-٢٠٤ .

^٥ فيما سبق ص ٢١٣-٢١٦ ، ٢٢١-٢٢٢ .

الذى يتكوّن فى الأساس من القوات الأرمينية وبعض عناصر أخرى - إلى مصر مائة سبغينة حربية . فقد كتب بدر الجمالى إلى المستنصر يشترط عليه ألا يُقدّم إلى مصر إلاّ ومعه عساكره وجنوده وأنه لن يبقى على أحد من عساكر مصر ، ووافقه المستنصر على ذلك^١.

ونحن لا نعرف على وجه الدقة عدد القوات المصاحبة لبدر الجمالى الذى لم تذكره المصادر ، كما أن نسبة الأُرَمَن بين هذه القوات غير محدد كذلك^٢ ، كما أنه قد وردت عليه بعد وصوله إلى مصر واستقراره بها طوائف أخرى من الأُرَمَن تقوّى بها^٣.

ويؤكد أن غالبية القوات المصاحبة لبدر الجمالى كانت من الأُرَمَن ما ذكره المقرئى حيث يقول : « فسار من حيثئذ معظم الجيش الأُرَمَن وذهبت كُتامة وصارت من جملة الرعية بعد ما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها »^٤ ، وأضاف فى مناسبة أخرى وهو يتحدث عن بدر الجمالى أنه « أول من ولي فى الدولة الفاطمية الوزارة من أرباب السيوف وأقام دولة الأُرَمَن بديار مصر »^٥. كذلك ما أورده المؤرخ المسيحي موهوب بن منصور الذى عاش فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى يقول : « وكان معظم عسكر أمير الجيوش أُرَمَن »^٦ ، ووضح أن هؤلاء الأُرَمَن كانوا نصارى بما أنه بعد وصولهم بقليل وصل بطركهم واسمه أغريغوريوس الذى أحسن أمير الجيوش استقباله ، وأنزله فى كنيسة مار مريم للنصارى الملكانيين بأرض الزُّهْرى^٧ (السيدة زينب الآن) .

^١ المقرئى : المقفى الكبير ٢ : ٤٠٢ .

^٢ Lev, Y., *op. cit.*, p. 95 .

^٣ المقرئى : المقفى الكبير ٢ : ٣٩٨ .

^٤ المقرئى : الخطط ٢ : ١٢ .

^٥ المقرئى : المقفى ٢ : ٤٠٢ .

^٦ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٢/ ٣ : ٢١٩ .

^٧ نفسه ٢/ ٣ : ٢١٩ ، وراجع ، Canard, M., «Notes sur les Arméniens en Egypte à l'époque fatimite»,

وخصَّص بدر الجمالي حى الحُسَيْنِيَّة شمال القاهرة ليكون سكناً للعسكر الأزمن .
وعندما حاول بعض الشُرَيان مزاحمة الأزمن فى سكن الحى أمر أمير الجيوش ألا يسكن
فى الحُسَيْنِيَّة إلا الأزمن فقط وأخرج منها ابن الطويل قائد الشُرَيان والشُرَيان الذين معه ^١ .
وفى الوقت نفسه خصَّص بدر الجمالي للأزمن كنيسة بحى الخنْدَق شمال غرب القاهرة
ليقيموا فيها صلواتهم ^٢ .

وأول إشارة فى المصادر العربية إلى أن الجنود الأزمن فى مصر كانوا من النَّصارى
تقابلنا عند ابن مُيَسَّر فى حوادث سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م ، الذى يذكر أن بهرام الأزمنى
الذى تولَّى الوزارة للخليفة الحافظ أحضر فى هذه السنة إخوته وأهله من تل باشر وبلاد
الأرمن حتى صار منهم بمصر نحو ثلاثين ألف إنسان . إلا أنهم فى هذه الفترة تمادوا فى
الإعلان عن عقيدتهم وفى بناء الكنائس والأديرة حتى صار كل رئيس من أهله يبنى
كنيسة وخاف أهل مصر منهم أن يغيِّروا ملة الإسلام ^٣ .

فبعد وفاة بدر الجمالي فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م خلفه فى منصب
الوزارة وإمرة الجيوش والإشراف على القضاء والدعوة ابنه الأفضَل شاهنشاه ، ثم لم يلبث
الخليفة المستنصر أن توفى فى ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ، وأدَّت وفاته إلى انقسام
الدعوة الفاطمية إلى نزارية ومستعلية .

^١ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطارقة الكنيسة ٣/٢ : ٢٢٥ .

^٢ نفسه ٣/٢ : ٢٢٦ .

^٣ ابن ميسر : أخبار مصر ١٢٤ ، المقرئى : اتماظ الحنفا ٣ : ١٥٩ .

الحملة الصليبية الأولى

وموقف الأفضل بن بدر الجمالي

كانت هذه هي ظروف وأحوال مصر في الوقت الذي وصلت فيه الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق الأدنى سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، وكان صاحب السلطة الفعلية في مصر هو الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي. وعلينا أن نلاحظ أن الحروب الصليبية في الشام ظلت أحداثها الكبرى الرئيسية ترتبط حتى سقوط الدولة الفاطمية بشمال الشام لا جنوبه؛ وذلك لأن المقاومة الرئيسية التي قابلها الفِرْنَج (الصليبيون) في الدور الأول من الحركة الصليبية جاءت من جانب السلاجقة في شمال العراق والأتابكيات التابعة لنفوذهم في الموصل وحلب، وأن مصر لم تصبح مسرحاً أساسياً لنشاط الفِرْنَج إلا في الأحداث التي ارتبطت بسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية^١.

ومع ذلك فليس من اليسير أن نتبين كيف كانت ردود الأفعال الأولى للعالم الإسلامي إزاء الغزو الفرنجي طالما أن التاريخ لم يحفظ لنا أية رواية معاصرة للأحداث من جانب المسلمين. ولكن يوجد على الأقل مؤرخون سوريون عاصروا الحدث وكتبوا عنه بعد فترة قصيرة من حدوثه أهمهم: أبو الفوارس حَمْدَان بن أَبِي الحَوْفَق عبد الرحيم بن حَمْدَان الأنثاري الحلبي (٤٦٠ - ٥٤٢هـ/١٠٦٨-١١٤٧م)^٢ الذي تولى أعمال الديوان في دولة أتابك زنكي آق سُتْقُر وسَيَّره رسولاً إلى الفِرْنَج وإلى الأمر بأحكام الله صاحب مصر سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م^٣، كما سُيِّر رسولاً إلى أتابك طُغْتَكِين صاحب دمشق، وقد وَضَعَ حَمْدَان بن عبد الرحيم كتاباً عنوانه «سيرة الفِرْنَج الخارجين إلى بلاد

^١ سعيد عبدالفتاح عاشور: «شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية»، المجلة التاريخية المصرية ١٦ (١٩٦٩) ١٧-١٨.

^٢ ياقوت: معجم الأدياء ١٠: ٢٨٢-٤٧٢.

^٣ ابن القلانسي؛ ذيل تاريخ دمشق ٢١٥: ابن ميسر: أخبار مصر ١٠٥: المقرئ: اتعاط ٣: ١١٧.

الإسلام» لم يصل إلينا ولكن كانت مع ابن العديم نسخة منه بخط يده نُقِلَ عنها في أكثر من موضع من تاريخه بلفظ:

« قرأت بخط أبي الفوارس حمدان بن عبدالرحيم في تاريخه الذي جمعه ووَقَّعَ إلى منه أوراق نقلت منها » أو « قال حمدان فيما نقلته من خطه » أو « قرأت بخط الرئيس حمدان بن عبد الرحيم الأثاري في أوراق وقعت إلى من تاريخه »^١.

كان الفاطميون في ذلك الوقت يعتقدون أنهم مُهَدَّدُونَ من قبل التَّوَسُّعِ السُّلْجُوقِي، غير أن الانقسامات التي حدثت بين خلفاء مَلِكْشَاه قَلَّتْ من جِدَّة هذا الخطر. وأصبح الفِرْنَج بمثابة الخلاص بالنسبة للفاطميين خلال ثلثي قرن على الأقل من غير أن تخطر هذه الفكرة على بالهم^٢.

وقد ظنَّ الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وزير مصر القوي أن الفِرْنَج جاء ليفعلوا في بلاد الشام مثلما سبق وفعل البيزنطيون في عهد الإمبراطور نِقْفُور فوقاس Nicephore Phocas والإمبراطور حنا السُّنْشَقِي John Tzimiscas حيث لم تتعد أملاكهم في بلاد الشام أنطاكية^٣، بل إنه عندما علم أن الفِرْنَج اشتبكوا مع الأتراك السُّلَاجِقَة أعداء الفاطميين، فكَّر في إقامة تحالف بينه وبينهم وأرسل بالفعل سفارة إليهم وصلتهم وهم أمام أنطاكية في صفر سنة ٤٩٢ هـ/يناير ١٠٩٨ م، يعرض عليهم أن يتعاون معهم في سبيل القضاء على السُّلَاجِقَة على أن تكون أنطاكية للفِرْنَج ويكون بيت المقدس للفاطميين، ولم تثمر هذه المحاولات شيئاً^٤. وعاد سفراء الأفضل ومعهم رُسل من الصليبيين إلى القاهرة، ولكنهم لم يكونوا مُفَوَّضِينَ بأية سلطات^٥.

^١ ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب (الترجم الخاصة بالسلاجقة)، عنى بنشره وعلق عليه على سورم، أنقرة - مطبوعات الجمعية التاريخية التركية ١٩٧٦، ١٨-١٩، ١٩٧-١٩٨، ٢٠٢، ٢١٤.

^٢ Cahen, Cl., *Orient et Occident au temps des Croisades*, Paris 1986, p. 86.

^٣ سعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق ٢٠.

^٤ ابن طاهر: أخبار الدول المنقطعة ٨٢؛ Runciman, S., *A History of the Crusades*, Cambridge 1957, I, pp. 229-230.

^٥ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، الكويت - عالم المعرفة ١٩٩٠، ١٢٧.

وَدَفَعَ هذا الاتصال بعض المعاصرين إلى الظَّن بأن الفاطميين هم الذين أرسلوا في استدعاء الفِرْنَج إلى الشام لمهاجمة السلاجقة أو ليكونوا حاجزاً فاصلاً بين السلاجقة من ناحية والفاطميين من ناحية أخرى ، يقول ابن الأثير :

« وقيل إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الإقسيس إلى مصر وحصرها ، خافوا وأرسلوا إلى الفِرْنَج يدعوه إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين »^١.

وهكذا فإن الاختلافات العقائدية بين قادة المسلمين في ذلك الوقت والنزاعات التوسعية أدت ببعضهم إلى سوء تقدير أسباب حملة الفِرْنَج الأولى ، وبذلك لم تتضح أبداً فكرة التضامن بين المسلمين تجاه ما يحدث بهم جميعاً من أخطار إلا بعد ذلك بنحو سبعين عاماً عندما نجح صلاح الدين في القضاء على الدولة الفاطمية في مصر وتوحيد الجبهة الإسلامية ، يقول المؤرخ أبو المحاسن :

« وكان أخذ الصخرة في ذي الحجة بعد أخذ أنطاكيا ولما وَقَعَ ذلك اجتمع ملوك الإسلام بالشام ، وهم رضوان صاحب حلب وأخوه دقاق وطُغتكين وصاحب الموصل وشُكمان بن أوثق صاحب ماردين وأرسلان شاه صاحب سنجار ، ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر . وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجهم مع قدرته على المال والرجال »^٢.

ويستمرسل أبو المحاسن فيشرح كيف خرجت عساكر المسلمين لصد الفِرْنَج وكيف انكسر المسلمون وكيف كتب الأمراء إلى الخليفة العباسي يستنجدون به .

« كل ذلك وعساكر مصر لم تُهَيَّأ للخروج »^٣.

^١ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ٢٧٣ ، التويرى : نهاية الأرب ٢٨ : ٢٥٠ .

^٢ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥ : ١٤٧ .

^٣ نفسه ٥ : ١٤٨ .

فلا شك أن الفاطميين لم يُذِرْكو حقيقة أهداف الفِرْنَج وظَنُّوا أن هذه الجيوش القادمة من الغرب الأوربي ليست إلا مجرد مرتزقة في خدمة البيزنطيين^١، بل إن الأفضل بن بدر الجمالي انتهر الحرب الدائرة في شمال بلاد الشام بين الفِرْنَج والسلاجقة، وقاد حملة لاسترداد بيت المقدس من الأمير سُكَّمان والأمير إيلغازي ابني أرتُق، وطلب إليهما في أول الأمر أن يسلماه البلد ولا يحوجاه إلى الحرب. ولما امتنعا عليه حاصر البلد ونَصَب عليها المجانيق وحاصرها اثنين وأربعين يوماً حتى هدم جانباً من سورها، فاضطر حَكَّامها إلى تسليمه وتمكينه منها، وملكها في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٤٩١هـ/أغسطس سنة ١٠٩٨م. ويُعَلِّق ابن ظافر على ذلك بقوله: «ولو ترك في أيدي الأرتُقية لكان أضلَّح للمسلمين»^٢.

ولم يتمكن السلاجقة المشغولون بإقامة جبهة شمالية ضد الفِرْنَج، من إرسال نجدة إلى أقربائهم في بيت المقدس ترد عادية الفاطميين، وفي الوقت نفسه استفاد الفِرْنَج استفادة كبرى من ذلك، فقد سَبَّب تهديد الأفضل لفلسطين وبيت المقدس ارتباطاً للسلاجقة في أشد الأوقات حرجاً. كما أن الأفضل رَحَّب بنزول الفِرْنَج على الساحل ليحولوا دون نفوذ الترك إلى ديار مصر.

وفي شمال الشام حرص الفِرْنَج على تحييد الأمراء العرب وأن لا يتدخل أحد منهم لإنقاذ أنطاكيا، فيذكر ابن الأثير «أن الفِرْنَج كاتبوا صاحب حَلَب وصاحب دِمَشْق بأنهم لم يأتيا إلا لَقْضد البلاد التي كانت بأيدي البيزنطيين مكروا منهم حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكيا»^٣.

^١ قاسم عبده قاسم: المرجع السابق ١٢٧.

^٢ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ١٣٥: ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٨٢-٢٨٦؛ ابن ميسر: أخبار مصر ٦٥-٦٦؛

النويري: نهاية الأرب ٢٨: ٢٤٦-٢٤٧؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا ٣: ٢٢ والخطوط ١: ٤٢٧.

^٣ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٧٥.

وبعد أن ملك الفِرْنَج مدينة أنطاكيا ، ساروا إلى مَعْرَةَ الثُّغَمَان فملكوها^١ ثم رحلوا عنها إلى جبل لبنان فقتلوا من به^٢ ، ولما وَجَدَ الفاطميون أن الفِرْنَج لم يقفوا عند حد الاستيلاء على أنطاكيا وغيرها من مدن سوريا الشمالية ، وإنما أخذوا يَتَوَعَّلُونَ جنوبًا صوب فلسطين ، أرسل الأَفْضَلُ إلى الإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين يستفسر عما إذا كانت هذه الجيوش تعمل لحسابه ، فأنكر الإمبراطور علاقته بها^٣ ، هنا أدرك الأَفْضَلُ أن بيت المقدس هو الهدف الأساسي للفِرْنَج فأرسل إليهم سفارة وصلتهم قرب طرابلس تحمل الهدايا النفيسة لقادة الفِرْنَج ومعهم عرضًا من الخليفة الفاطمي بالسماح لحُجَّاج الفِرْنَج بالحج وزيارة كنيسة القيامة في بيت المقدس على شكل مجموعات من مائتين أو ثلاثمائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين . وجاء رَدُّ الفِرْنَج على السفارة بأنهم سيتمكنون من الحج فعلا ولكن بإذن الله وليس بإذن الخليفة الفاطمي . وكان معنى ذلك بداية الصدام المُسَلَّح بين الفاطميين والفِرْنَج من أجل بيت المقدس^٤ .

استمر الفِرْنَج في تَقْدُمِهِمْ جنوبًا وعندما وصلوا إلى عِرْزَةَ حاصروها أربعة أشهر وامتنعت عليهم فتلوا على جِمَص فهادنهم بجناح الدولة حسين ، ثم ساروا على طريق النواقر إلى عَكَّا فلم يقدروا عليها^٥ ، ثم أخذوا الرُّومَةَ التي زحفوا منها إلى بيت المقدس . وعندما وَصَلَ الفِرْنَج إلى الرُّومَةَ وجدوها خالية قد هجرها أهلها فمعدوا فيها مجلسًا للحرب ناقشوا فيه عدة مسائل لعل أهمها البدء بمهاجمة الفاطميين في مصر ، اقتناعًا منهم بأنهم إذا أرادوا أن ينعموا بحياة آمنة في بيت المقدس فعليهم تأمين ظهرهم بالاستيلاء على الدلتا المصرية ، وهي فكرة ربما أوحاها إليهم التجار الإيطاليون^٦ . ولكن

^١ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٧٢ - ٢٧٨ ؛ النويري : نهاية الأرب ٢٨ : ٢٤٣ - ٢٥٦ .

^٢ المقرئ : اتعاظ ٣ : ٢٣ .

^٣ Runciman, S., *op. cit.*, I, p. 272 .

^٤ سعيد عبدالفتاح عاشور : المرجع السابق ٢٣ .

^٥ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٢٧٨ ؛ النويري : نهاية الأرب ٢٨ : ٢٥٦ .

^٦ سعيد عبدالفتاح عاشور : المرجع السابق ٢٣ ؛ ٨٨ : ٢٣ . Cahen, Cl., *op. cit.*, p. 88 .

ظروفهم وإمكاناتهم لم تسمح لهم بتحقيق هذه الفكرة التي دأبت مخيلتهم إلا في القرنين السادس والسابع الهجري .

ورغم أن سيادة الفاطميين امتدت لتشمل فلسطين وسواحل بلاد الشام جنوبى نهر الكلب ، إلا أنهم - فيما يبدو - لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم والحفاظ على مكاسبهم فى تلك الجهات ، وذلك باستثناء حامية بيت المقدس وبعض المدن الساحلية التى ظلَّ الأسطول الفاطمى قادرًا على إمدادها بالرجال والعتاد من ناحية أخرى . فلم يكن الفاطميون فى مصر أبدًا من الغزاة وكان من المستبعد أن يتمكنوا فى هذه الفترة من الحصول على ما يلزم من الرجال لتأسيس جيش مشابه لجيش دولة السلاجقة فى آسيا أو بناء أسطول قادر على إلحاق الهزيمة بأسطول الفرينج^١ .

وفى الوقت الذى بدأ فيه زحف الفرينج تجاه بيت المقدس لتحقيق هدفهم النهائى كان افتخار الدولة حاكم المدينة من قبل الأفضل قد اتَّخذ كافة الاستعدادات لمواجهةهم ، فسُئِم الآبار وقُطِعَ موارد الماء وأُخْفِيَ المواشى ، واعتمد فى الدفاع عن المدينة على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان^٢ .

عندما علم الأفضل بن بدر الجمالى بمحاصرة الفرينج لبيت المقدس فى ربيع الآخر سنة ٤٩٢ هـ ، خرج على رأس جيش لمحاربتهم ، فلما بلغهم مسيره جُذُوا فى حصار البلد ونجحوا فى دخولها بعد حصار دام أكثر من خمسة أسابيع ، واستولوا عليها يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ هـ / ١٥ يولية سنة ١٠٩٩ م ، وأعقب ذلك مذبحة راح ضحيتها الكثير من أهل البلد ، كما أحرقوا ما كان ببيت المقدس من المصاحف والكتب ، وأخذوا ما كان بالصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات . وكان افتخار الدولة - حاكم

^١ Cahen, Cl., *op. cit.*, p. 88

^٢ سعيد عبدالفتاح عاشور : المرجع السابق ٢٤ .

المدينة الفاطمية — من جملة القلائل الذين « بَدَلْ لَهُم الْفِرْنَجُ الْأَمَانُ » وسمحوا لهم بالخروج إلى عَشْقَلَان^١.

جاء وصول الأَفْضَل على رأس القوة التي خرج بها من مصر إلى عَشْقَلَان في أوائل رمضان سنة ٤٩٢ هـ/أوائل أغسطس ١٠٩٩ م، بعد أن امتنولى الْفِرْنَجُ على بيت المقدس بعشرين يوماً مما أصابه بخيبة أمل كبيرة، خاصةً بعد أن كان يعتقد أن الْفِرْنَجُ كانوا سيقنعون بالاستيلاء على سوريا الشمالية، ويحرصون على التعاون مع الفاطميين بوصفهم حلفاءهم الطبيعيين ضد السلاجقة عدوهم المشترك. وأرسل الأَفْضَل من عَشْقَلَان رسولاً إلى الْفِرْنَجِ « يُثْنِرُ عَلَيْهِمْ مَا فَعَلُوا وَيَتَّهَدِّدُهُمْ »^٢.

ولم يلبث الْفِرْنَجُ أن باغتوا الأَفْضَل وجنوده في عَشْقَلَان فهزموهم وقتلوا منهم الكثير، ولجأ من نجا منهم إلى التعلُّق بأشجار الجميز المنتشرة هناك فأضرم الْفِرْنَجُ فيها النار حتى احترقت بمن تَعَلَّقَ فيها، وحاصروا الأَفْضَل في عَشْقَلَان حتى كادوا يأخذونه لولا الخلاف الذي نَجَّمَ بين جودفرى Gaudefroy صاحب بيت المقدس وريموند الأول - صاحب طرابلس - مما اضطرهم إلى الرحيل عن عَشْقَلَان وسنحت الفرصة للأَفْضَل فركب البحر عائداً إلى مصر^٣، ويقول المقرئى:

« ولم يُتَدَّ بعد هذه الحركة إلى الخروج بنفسه في حرب أَلَبَّة »^٤.

وهكذا تَكُونَت مملكة بيت المقدس من بيت المقدس نفسها إلى جانب يافا واللَّدَّ والوُزْلة وبيت لحم والخليل، وكان لها ظهيرٌ ريفيٌ تسكنه أغلبية من المسلمين الذين

^١ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٨٣-٢٨٤، ابن القلانسي: ذيل ١٣٦-١٣٧، ابن ميسر: أخبار مصر ١٦٦، النويرى:

نهاية الأرب ٢٨: ٢٥٦-٢٥٨، المقرئى: اتعاظ ٣: ٢٣.

^٢ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٢٨٤.

^٣ ابن ميسر: أخبار مصر ١٦٧، النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ٢٦٠.

^٤ المقرئى: اتعاظ الحنفا ٣: ٢٤.

رفضوا للتعاون مع الفِرْنَج^١، كما فرَّ عددٌ كبير من أهل الشام إلى مصر هرباً من الفِرْنَج والغلاء الذى ساد المنطقة^٢.

وفى سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م حاول الأفضل مهاجمة الفِرْنَج انطلاقاً من عَشَقْلان بجيش كان على رأسه سعد الدولة القَوَّاسى مقدم العسكر، ورغم ثبات سعد الدولة فإن الجيش الفاطمى لقي هزيمة كبيرة وتمكَّن الفِرْنَج من الاستيلاء على يافا وأرسُوف وقيسارية^٣، ودخل أهل هذه المدن التى كانت للفاطميين فى تبعية الفِرْنَج. وفى هذا الوقت قُتل جودفرى ملك بيت المقدس وحلَّ محله بُلْدوين الأول صاحب الرها^٤.

وقد استغل الفاطميون مدينة عَشَقْلان كقاعدة يشنون منها هجماتهم على الفِرْنَج، حيث قاموا بمهاجمتهم فى السنوات ٤٩٦هـ/١١٠١م بقيادة شرف المعالى بن الأفضل شاهنشاه، و٤٩٧هـ/١١٠٢م، و٥٠٠هـ/١١٠٥م. وقد كُلفت هذه الهجمات (التي عرفت بـ «موقعة الرملة») الفِرْنَج الكثير من العتاد والرجال؛ وقد حاول الأفضل خلال هذه الحملات الاستنجاد بشمس الملوك دَقَّاق صاحب دمشق أكثر من مرة ولكنه تقاعس عن ذلك^٥. وبعد سنة ٥٠٠هـ/١١٠٥م لم يشن المصريون أى هجوم خطير على الفِرْنَج وإن ظَلَّت عَشَقْلان مصدر تهديد وإغلاق لهم.

وقد كشفت هذه الاشتباكات للفِرْنَج عن ضعف الدولة الفاطمية ومدى انحلالها، الأمر الذى جعلهم يطمعون فى الاستيلاء على بقية موانئ فلسطين الغربية، فاستولوا بالفعل على عَكَّا سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م وطرابلس وجنبل وعِرْقَة وبانياس سنة

^١ قاسم عبد قاسم: المرجع السابق ١٣٠.

^٢ ابن ميسر: أخبار مصر ٦٨.

^٣ نفسه ١٦٨ ابن القلانسي: ذيل ١٤٠ المقريزى: اتماظ ٣: ٢٦.

^٤ ابن الأثير: الكامل ١٠: ٣٢٤.

^٥ راجع عن معركة الرملة (Brett, M., *The Battles of Ramla (1099-1105)*, pp. 17-37، سعيد عبدالفتاح عاشور:

المرجع السابق ٢٦-٣١.

٥٠٢هـ/١١٠٨-١١٠٩م ، وبيروت سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م ، وصيدا سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م ، وتبين سنة ٥١١هـ/١١١٧م ، وأخيرا صور سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م^١. بل بلغ الأمر أن بلدوين ملك بيت المقدس وَصَلَ على رأس حملة إلى الأراضي المصرية حتى القُزما واضطر الأفضل إلى مهادنته لعجزه عن مواجهة قواته ، كما قَدَّزَت مراكب الروم والبنادقة بغير الإسكندرية سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م^٢.

وفي أعقاب سقوط صور سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م عاود الفاطميون الاهتمام بِعَشَقْلان ، وأخذوا يُجَرِّدون لها العساكر والأساطيل في شكل أُنْدال تتوالى على حمايتها كل ستة شهور^٣.



إنَّ أُمَّةً محاولة لتحليل أسباب التواضع العسكري للجيش الفاطمي في مواجهة جيوش الفِرَنْجِيَّ يحول دونها فقدان المصادر العربية المعاصرة للأحداث . وربما تغاضى المؤرخون المسلمون عن ذكر الكثير من المعلومات عن الصراع العسكري بين الفاطميين والفِرَنْجِيَّ في هذه المرحلة الحرجة من الصراع بينهما . ولكن هذه المعلومات نستطيع الحصول عليها في المقام الأول من المصادر اللاتينية التي أُرِثَتْ للحرب الصليبية الأولى والتي وضعها مؤلفون معاصرون للأحداث كانوا في بعض الأحيان شهود عيان للمعارك . فعلى سبيل المثال يشير تاريخ Fulcher de Chartres إلى أن الجيش الفاطمي الذي كان يحارب الفِرَنْجِيَّ في عَشَقْلان كانت تنقصه الفرسان رماة السهام من الأقواس المركبة . وعند وصفه للمعركة نفسها تَحَدَّث المؤلف المجهول لكتاب Gesta Francorum بسخرية عن القدرة الحربية المتواضعة لمشاة الجيش الفاطمي . ويشير Y. Lev إلى أن R. C. Smail في

^١ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢١١ : ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٦٢٠-٦٢٢ ابن ميسر : أخبار مصر ١١١ : النويري : نهاية الأرب ٢٨ : ٢٦٣-٢٧٣ المقرئ : اتعاظ الحنفا ٣ : ١٢٩-١٣٠ .

^٢ النويري : نهاية الأرب ٢٨ : ٢٧٢ .

^٣ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٣ ، ٤١ .

دراسته عن مرجعية المصادر اللاتينية يقرر أن الجيوش الفاطمية التي حاربت الفرنج بين سنتي ٤٩٢هـ/١٠٩٩م و ٥١٧هـ/١١٢٣م، باستثناء معركة الرملة سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م، لم تستخدم الفرسان رماة السهام^١.

كان الأتراك هم الذين يقومون بدور الفرسان رماة السهام من الأقواس المركبة في الجيش الفاطمي منذ أن استعان بهم الخليفة العزيز بالله في نهاية القرن الرابع الهجري. ولكن منذ وصول بدر الجمالي إلى السلطة وقضائه على الجيش المصري وإحلال الأرمين محله زال دور الأتراك، يقول المقرئى: «وأخذ [بدر] في القبض على الأتراك وتبجهم حتى لم يدع منهم أحداً يشار إليه»^٢ نظراً للدور التخريبي الذي قاموا به في أثناء الحرب الأهلية، وبذلك فقد الجيش الفاطمي قوة مهمة بين صفوفه، وربما وجد في الجيش الفاطمي فرسان من رماة السهام من الأرمين النصاري إلا أنه من الممكن أن يكونوا قد استبعدوا أثناء مواجهة الجيش الفاطمي للفرنج^٣.

الجيش الفاطمي في القرن السادس الهجري /

الثاني عشر الميلادي والإصلاحات العسكرية للأفضل بن بدر الجمالي

عرضنا فيما سبق لموقف الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي من وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق وكيف سقطت بيت المقدس في أيديهم. يقول ابن الطونبرج إن الأفضل لم يثق ممكناً من مال وسلاح ورجال وخيل إلا استعان به، وخرج بنفسه على رأس جيش لاستنقاذ الساحل الشامي بعد أن استتاب مكانه في مصر أخاه المظفر

^١ Lev, Y., *op. cit.*, p. 98 ; Brett, M., *The Battles of Ramla (1099-1105)*, p. 18

^٢ المقرئى: اعطاء الحنفا ٢: ٣١٢

^٣ Lev, Y., *op. cit.*, p. 100

جعفر . وعندما وصل الأفضَل إلى عَشَقْلان وزحف عليها تُخْذِل من جانب جيشه وتأكد من أن هزيمته في نوبة « الثَّصَّة » كانت بسبب جنده ، فحرق جميع ما كان معه من آلات قبل عودته إلى مصر^١ . ويضيف ابن الطُّوَيْر ، راوى هذا الخبر بعد ذلك ، أنه « لم يتفع أحد من الأجناد بعد هذه النوبة بالأفضَل ، وحظر عليهم نعوتهم ، ولم يسمع لأحد منهم كلمة »^٢ .

بدأ الأفضَل نتيجةً لذلك عملية إصلاح شاملة للجيش الفاطمي للاستعاضة عن قصور قواته الذى تسبب فى هزيمتها ، تركزت هذه الإصلاحات فى إنشاء سبع حُجَبر لإعداد محاربين جدد ، واختار من أولاد الأجناد ثلاثة آلاف رجل وقسّمهم فى هذه الحُجَبر ، وجعل لكل مائة منهم زمامًا ونقيبًا ، وجعل على رأسهم أميرًا يقال له « المُؤَفَّق » ، وأطلق لهم جميع ما يحتاجون إليه من خيل وسلاح ، واستغنى الأفضَل بهؤلاء عن الأجناد وأصبح يُجهّزهم للمهمات التى تطرأ له بقيادة أميرهم المعروف بـ « المُؤَفَّق »^٣ .

وأوضح ابن الطُّوَيْر فى موضع آخر طبيعة هؤلاء « الصُّبيان الحُجَبرية » ، بمناسبة ذكره لواحد منهم ترقى فى الخدم حتى تولّى الوزارة للخليفة الظاهر بأعداء الله سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م هو العادل بن السُّلار . فذكر أنهم جماعة من الشباب كانوا يكونون فى جهات مفردة كل واحد منهم يُعلِّم قُتًا من فنون الشجاعة والفروسية التى تحتاج إليها الدولة . فإن كبر منهم الصبى سلّم إليه سلاح كامل يكون عنده متى طُلِب منه الخروج للقتال لا يجد أمامه ما يمنعه . ثم أضاف أنهم كانوا على نمط « فرسان المعبد » عند الفِرْنَج المعروفين بال Templiers ، وهم جماعة أسّسها Hugue de Payns سنة ١١١٩م لحماية طريق الحُجَاج المسيحيين بين يافا والقدس ، وجماعة الإِسْتِيارية Hospitaliers التى أسّسها سنة

^١ ابن الطويز : نزعة المقتلين ٤٣ : المقيزى : الخطط ١ : ٤٤٣ .

^٢ نفسه ٤ .

^٣ نفسه ٥٥ : المقيزى : الخطط ١ : ٤٤٣ .

١٠٩٩. Blessed Gerard ، وكانوا إذا شُهرَ واحدٌ منهم بعقل وشجاعة أصبح أميراً وولى منصباً مثل على بن الشلار الذى أصبح والياً على إقليم البحيرة وعلى الإسكندرية ثم ولّاه الظافر بأعداء الله الوزارة^١.

ثم جاء ابن عبد الظاهر بعد ذلك فحدّد موضع الحجر التى كان يُنشأ بها « الصّبيان الحجرية » ، فذكر أنها كانت قرية من باب النضر فى صف دار الوزارة الفاطمية على يمين الخارج من القاهرة^٢ (شارع الجمالية الآن ، بين خانقاه بيرس الجاشنكير وباب النضر).

ولفظ « صبيان » و« شباب » المستخدم فى وصف الذين يُعدّون فى الحجر التى أقامها الأفضل شاهنشاه يتطلّب مزيداً من المناقشة . فلفظ « صبيان » يشير إلى المالك . فابن مئسر يذكر فى حوادث سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م « أن صبيان الخاص » ، هم أولاد الأجناد والأمرء وعبيد الدولة الذين يتوفون فيُحمل أولادهم إلى القصر ويودعوا فى أماكن مخصوصة يُعلّمون الفروسية . وقد قضى الوزير العادل بن الشلار على « صبيان الخاص » بعد أن بلغه أنهم اتفقوا على الهجوم على داره وقتله أثناء الليل ، فقبض عليهم وقتل أكثرهم - وكانوا جمعاً كبيراً - وبعث بمن بقى منهم فركرهم فى الثغور^٣.

ولكن ما هى النتائج العسكرية لإصلاحات الأفضل ؟ لا توجد أية إشارات إلى أن هذه الإصلاحات أسهمت فى تحسين الفعالية القتالية للجيش الفاطمى . فلم يرد ذكرٌ للبحرية فى أى سياق للقتال . فكل الإشارات الخاصة بهم توجد فى سياق احتفالات البلاط والقصر^٤.

وعلى ذلك فإن إصلاحات الأفضل العسكرية لم تُطوّر قدرة الفاطميين القتالية للتجاوب مع التحديات العسكرية التى فرضها الفيرنج ، يدلّ على ذلك ما حدث فى عام

^١ ابن الطوير : نزعة المقاتلين ٥٨ - ٥٩ ابن ميسر : أخبار مصر ١٤٣ .

^٢ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ٥٩ .

^٣ ابن ميسر : أخبار مصر ١٤٣ .

^٤ Lev, Y., *op. cit.*, p. 101 ؛ ابن المأمون : أخبار مصر ٥٤ ، ٧٠ ، ٩٦ .

٥١٧هـ / ١١٢٣م^١. ففى هذا العام وَقَعَ الملك بُلْدوين الثانى ملك بيت المقدس فى أسر الأمير بُلْك الأرتقى فى خَزَنِيَّوت . ووصلت إلى مصر رُسُلُ ظهير الدين طُغتكين صاحب دمشق وآق سُتْقُر صاحب خَلْب تطلب إلى الخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله ووزيره المأمون البطائحي أن تستثمر الدولة الفاطمية هذه الفرصة وما صاحبها من قِلَّة الفِرْنَج بالأعمال الفلسطينية والثغور الساحلية وتُجهَّز جيشًا وأسطولاً للانقضاض على الفِرْنَج والقضاء عليهم^٢.

وقد حَشَدَ الفاطميون حملةً كبيرةً قَدَّم لنا ابن المأمون وَصْفًا لتجهيزها وإعدادها وخروج الخليفة لوداعها . خرجت الحملة إلى عَشَقْلان ومنها اتجهت لحصار يافا ، فى الوقت الذى ساندتها فيه الأسطول الفاطمى فى البحر ، وكانت الحامية الصليبية فى يافا صغيرة ، فاشترك نساء الصليبيين مع رجالهم فى الدفاع عنها ، وفى الوقت الذى أوشكت فيه يافا على التسليم وصلت إليها نجدة من الفِرْنَج لإنقاذها مما جعل القوات الفاطمية تنسحب إلى يَتْنى على الطريق بين يافا وعَشَقْلان ، وفى المعركة التى دارت فى ٢ ربيع الآخر سنة ٥١٧هـ / مايو سنة ١١٢٣م عند يَتْنى (إيلين) بين الفاطميين والصليبيين هُزِمَ الفاطميون وولَّوْا الأدبار واقتفى أثرهم الصليبيون يقتلون ويأسرون وينهبون ما يصل إلى أيديهم^٣. وقد حَكَّل ابن مُيَسَّر ملوك الشرق جانبًا من هذه الهزيمة لتخاذلهم عن مؤازرة الجيش الفاطمى^٤. أما Fulcher de Chartres الذى قَدَّم لنا وَصْفًا لهذه المعركة فيذكر أن جيش الفاطميين كان يتكوَّن من ١٦ ألف جندى وأن الفرسان قد قُوتُوا من المعركة تاركين ستة آلاف من السودان المترجلين لقوا حتفهم أثناء مطاردة الفِرْنَج لهم . كما أن

^١ Lev, Y., *op. cit.*, p. 101.

^٢ ابن المأمون: أخبار مصر ١٦٠، ابن مسير: أخبار مصر ٩٤-٩٥، المقرئى: اتعاظ الحنفا ٣: ٩٩-١٠٠.

^٣ سعيد عيد الفتاح عاشور: المرجع السابق.

^٤ ابن مسير: أخبار مصر ٩٥.

الفرنج استولوا أيضًا على أمتعة وعتاد الجيش الفاطمي . ويؤيد وصف Fulcher de Chartres للأسلاب التي وجدت في المعسكر الفاطمي تمامًا رواية ابن المأمون للتجهيزات العسكرية الضخمة لهذا الجيش^١.

نخلص من ذلك أن الفاطميين كانوا يملكون موارد اقتصادية كبيرة مع مهارة تنظيمية في تجهيز الجيوش والأساطيل ، إلا أن الجيش الفاطمي نفسه كان يفتقر إلى أية قدرة قتالية معقولة . فهزيمة سنة ٥١٧هـ / ١٢٣م^٢ التي حدثت بعد عشرين عامًا من بداية إصلاحات الأفضل العسكرية لا تختلف عن ما حدث للجيش الفاطمي أمام الفرنج عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م^٣ . ولكنها نبّهت الفاطميين إلى ضرورة وجود حامية قوية في عسقلان عن طريق « الأبدال » التي كانوا يرسلونها إليها كل ستة أشهر .

^١ . Lev, Y., *op. cit.*, p. 102

^٢ . *Ibid.*, p. 103

تَرْكِيبُ الْجَيْشِ الْفَاطِمِيِّ

قَسَّم الْقَلْقَشَنْدِيُّ الْجَيْشَ الْفَاطِمِيَّ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ (ج. صنف)، وَلَكِنْ هَذَا التَّقْسِيمُ الْعَامُّ لَا يَفِيدُنَا فِي التَّعْرِيفِ عَلَى الْعَصْرِ الَّذِي يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ هَذَا التَّقْسِيمُ. فَالدَّوْلَةُ الْفَاطِمِيَّةُ امْتَدَّ حُكْمُهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَيْ عَامٍ، كَمَا أُدْخِلَ عَلَى جَيْشِهَا الْعَدِيدُ مِنَ التَّعْدِيلَاتِ وَالْإِصْلَاحَاتِ الَّتِي ذَكَرْتَهَا فِيمَا سَبَقَ، وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ هَذَا التَّقْسِيمَ يَنْطَبِقُ عَلَى الْجَيْشِ الْفَاطِمِيِّ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ، وَيَعْتَمِدُ فِيهِ الْقَلْقَشَنْدِيُّ عَلَى مَا أَوْرَدَهُ ابْنُ الطُّوَيْرِ فِي كِتَابِهِ «نَزْهَةُ الْمُقَلَّتَيْنِ» مَعَ عَقْدِ مَقَارَنَةِ بَيْنَ كُلِّ طَائِفَةٍ وَمَا يَقَابِلُهَا فِي الْعَصْرِ الْمَمْلُوكِيِّ، رَغْمَ أَنَّ نِظَامَ الْجَيْشِ الْمَمْلُوكِيِّ يَخْتَلِفُ كَثِيرًا مِنْ حَيْثُ الْبَنِيَّةِ وَالْإِعْدَادِ مَعَ الْجَيْشِ الْفَاطِمِيِّ، وَرَبْمَا أَرَادَ بِذَلِكَ تَقْرِيبَ وَضْعِ الْجَيْشِ الْفَاطِمِيِّ إِلَى مَعَاصِرِهِ.

وَالْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا الْقَلْقَشَنْدِيُّ هِيَ :

١ - الْأُمَرَاءُ وَجَعَلَهُمْ ثَلَاثَ مَرَاتِبَ

« الْأُمَرَاءُ الْمُطَوَّقُونَ » الَّذِينَ يَخْلَعُ عَلَيْهِمْ بِأَطْوَاقِ الذَّهَبِ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَشَبَّهَهُم الْقَلْقَشَنْدِيُّ بِالْأُمَرَاءِ مُقَدِّمِي الْأَلُوفِ فِي الْعَصْرِ الْمَمْلُوكِيِّ.

« الْأُمَرَاءُ أَرْبَابُ الْقُضْبِ » الَّذِينَ يَرْكَبُونَ فِي الْمَوَاكِبِ بِالْقُضْبِ الْفُضَّةِ (أَيِ الرِّمَاحِ الْفُضِّيَّةِ) الَّتِي يَخْرِجُهَا لَهُمُ الْخَلِيفَةُ مِنْ خَزَانَةِ التَّجَمُّلِ، وَشَبَّهَهُم الْقَلْقَشَنْدِيُّ بِأُمَرَاءِ الطَّبَلِخَانَةِ فِي الْعَصْرِ الْمَمْلُوكِيِّ.

« أَذْوَانُ الْأُمَرَاءِ » الَّذِينَ لَمْ يُوْهَلُوا لِحَمْلِ الْقُضْبِ (الرِّمَاحِ) وَشَبَّهَهُم الْقَلْقَشَنْدِيُّ بِأُمَرَاءِ الْعَشَرَاتِ وَالْخُمْسَاتِ فِي الْعَصْرِ الْمَمْلُوكِيِّ^١.

^١ الْقَلْقَشَنْدِيُّ: صَبَحَ الْأَعْنَى ٣: ٤٧٦.

٢ - خواص الخليفة ، وجعلهم ثلاثة أنواع :

« الأستاذون » : الذين يكون منهم أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة ، وأجلهم « الأستاذون المختكون » الذين يُدَوِّرون عمائمهم على أحنأكهم ، وشبههم القلقشندي بالخدام والطواشية في العصر المملوكي .

« صبيان الخاص » وهم جماعة من أخصاء الخليفة عددهم خمسمائة نفر منهم أمراء وغير أمراء ، وشبههم القلقشندي بالخاصكية في العصر المملوكي .

« صبيان الحُجْر » وهم الطائفة التي استجدها الأفضل بن بدر الجمالي والتي سبق ذكرها^١ .

٣ - طوائف الأجناد

وهم طوائف كثيرة تنسب كل طائفة منهم إلى من بقى من الخلفاء الماضين مثل : الآمرية والحافظية ، أو إلى من بقى من بقايا الوزراء الماضين مثل : الجيوشية والأفضلية ، أو إلى القبائل والأجناس مثل : الأكراد والديلم والغزّ والروم والصُّقالية ، أو من السودان أو من عبيد الشراء وفيهم الفرحية والمرتاحية والميمونية^٢ .

وكان لكل طائفة منهم قُواد ومقدمون يحكمون عليهم ، كما كان يتولّى قيادة الأجناد « الإشفهسلار » أو « إشفهسلار العساكر » الذي وصفه ابن الطُّوَيْر « بأنه زمام كل زمام وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم »^٣ ويأتى في ترتيبه بعد « صاحب الباب » مباشرة . وإذا كنّا لا نعرف الكثير عن شاغلى هذه الرتبة فقد أشار عمارة اليمنى إلى شخص يدعى يحيى بن الخياط كان « إشفهسلار العساكر » في زمن بنى رُزَيْك^٤ .

^١ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٤٧٧ .

^٢ نفسه ٣ : ٤٧٨ ؛ المقرئى : الخطوط ٢ : ١٤ .

^٣ الخزومى : النهاج ١٧١ ؛ ابن الطوير : نزعة القلتين ١٢٣ ؛ القلقشندي : صبح ٣ : ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

^٤ عمارة اليمنى : التكت المصرية فى أخبار الوزراء المصرية ٦٩ .

أما القائد الأعلى للجيش الفاطمي فكان في القرن الفاطمي الأول هو الإمام الفاطمي نفسه ، فقد خرج الخليفة العزيز بالله على رأس الجيش الفاطمي لمواجهة أتفكين التركي سنة ٣٦٨هـ/٩٧٩م ، كما قاد الخليفة المستنصر بالله الجيش الفاطمي لمواجهة تَغْلِب الأتراك على الدولة .

ولكن بعد وصول العسكريين إلى السلطة ، ابتداء من استعانة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ببدر الجمالي سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٤م ، أصبح « أمير الجيوش » - وهو اللقب الذي اتخذته العسكريون منذ هذا التاريخ - هو القائد الأعلى للجيش الفاطمي . وفي آخر عصر الدولة اتخذ شيركوه لقب « سلطان الجيوش »^١ .

أما « طوائف الأجناد » فكانوا كما ذكرت سابقاً يتكونون من عناصر عرقية مختلفة : الكتاميون والزويليون والصقاليين في أول عهد الدولة ، الأتراك والديلمة وعبيد الشراء ابتداء من عهد العزيز بالله ، السودان والمصامدة في عهد المستنصر بالله ، بالإضافة إلى بعض عناصر الأكراد والغزّ ، وأخيراً الأرمن ابتداء من وصول بدر الجمالي إلى قمة السلطة في مصر .

وكانت هذه الطوائف تنتسب أحياناً إلى الخلفاء مثل : العزيزية والأمرية والحافظية ، أو إلى الوزراء مثل : الجيوشية المنتسبون إلى أمير الجيوش بدر الجمالي والأفضلية المنتسبون إلى الأفضّل بن بدر الجمالي ، واليانسية المنتسبون إلى يانس الأزمنى .

ومثلما أنشأ الوزير الأفضّل بن بدر الجمالي « الصّبيان الحُجْريّة » بفرض تحديث الجيش الفاطمي ، فقد قام بعض الأمراء بإنشاء قوات خاصة بهم ولكن في هذه المرة لحمايتهم ومؤازرتهم ، مثل الأمير حسن بن الخليفة الحافظ الذي أنشأ في أثناء صراعه على ولاية عهد والده الحافظ فرقة تسمى « صبيان الرّزد » ، ذكر ابن الطّوئير أنهم كانوا

^١ أبو شامة: الروضتين ٢/١ : ٤٠٢ .

من خليط الأجناد ومن جميع الطوائف تقوى بهم وساعدوه فأنعم عليهم وأقطعهم البلاد وولاهم الولايات وجعلهم أمراء دولته وأجناده^١.

ومن أهم فرق الجيش الفاطمي التي لعبت دورًا في القرن السادس الهجري : الطائفة الجيوشية والطائفة الرئحانية ، وأصول هاتين الطائفتين غير واضحة تمامًا . وتوجد إشارات خاطئة في بعض المصادر إلى أن الجيوشية كانت طائفةً من المشاة السودانيين . ولكن يبدو أن أصولهم ترجع إلى الحملة التي شنها بدر الجمالي ضد طوائف السودان في صعيد مصر . فقد قطع هذه الحملة هجوم السلاجقة على حدود مصر الشرقية ، ويبدو أن بدر الجمالي توصل إلى نوع من التسوية مع السودان بقدر ما يحاربون معه السلاجقة ، وقد ميّزوا أنفسهم في هذه الحرب وأصبحوا يعرفون بـ « الجيوشية » نسبة إليه^٢ . أما « الرئحانية » فطائفة مكونة من السودان ترجع أصولهم فيما يبدو إلى العقد الرابع من القرن الخامس الهجري . ففي هذا الوقت كان هناك خصي يُعرف بعزيز الدولة رَئحان كان له نفوذ في البلاط الفاطمي انتسبوا إليه^٣ ، وكانوا يقيمون بحارة بهاء الدين بالقرب من باب الفتوح وجامع الحاكم^٤.

وكان هناك طائفة من الجنود يعرفون بـ « المركزية » استخدمتهم الدولة الفاطمية للمحافظة على الثغور والمراكز الحدودية في القرمات وتيس والقلم ومأسوان^٥.

كذلك فإن حراسة القصر الفاطمي كان يتولاها بالمناوبة كل ليلة كما يذكر ناصر خُشرو ألف رجل ، خمسمائة فارس وخمسمائة راجل ، أو خمسون فارسًا يرأسهم أمير

^١ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٥٩ ، ١١٦٥ المقرئى : اتعاظ الحنفا ٣ : ١١٤٩ ساويرس بن المقفع : تاريخ بطارقة الكنيسة ١/٣ : ٢٨.

^٢ Lev, Y., *op. cit.*, p. 127.

^٣ Ibid., p. 128.

^٤ المقرئى : مسودة المواقف والاحبار ٣٦٣-٣٦٤.

^٥ ابن المأمون : أخبار مصر ١١٣ المقرئى : الخطوط ١ : ١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢١٣.

يقال له « سِنَانُ الدولة ابن الكَوْكَنْدي » [يقوم مقام « أمير جاندار » في العصر المملوكي] ، تبدأ نوبتهم بعد صلاة العشاء الآخرة حيث يأمر ابن الكَوْكَنْدي بضرب نوبات من الطبل والبوق وتوابعهما بطرائق مستحسنة ثم يقوم بغرس حربة على الباب ويرفعها فيُغلق الباب ، ويسير الحرس حول القصر سبع دورات ، فإذا انتهت جعل على الباب البياتين والفراشين^١.

ورغم الأخطار التي كانت تُهدّد حدود الدولة الفاطمية وعلى الأخص خطر الفِرْنَج والتي كانت تتطلب دائما وجود جيش قوى للدولة ، فإن الصراعات الداخلية والحروب الأهلية تكرّرت كذلك في القرن السادس الهجري مما أدّى إلى تشتيت جهود الدولة والتعجيل بسقوطها أهمها : الفتنة التي صاحبت مقتل الخليفة الأمر بأحكام الله سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م دون وريث وتسلّط الوزير أبو على الأفضّل كُتَيْفَات على مجريات الأمور حتى نجاح الفرقة المناصرة للخليفة الحافظ في قتل أبي على الأفضّل وتوليته الإمامة^٢. والصراع بين الأمير حسن وليّ العهد وأبيه الخليفة الحافظ سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م الذي انتهى بقتل الحسن وتولية بهرام الأزمى الوزارة للحافظ كأول وزير سيف نصراني في الدولة الفاطمية ، الأمر الذي أدّى إلى ازدياد نفوذ الأزمى في مصر والصراع بينهم وبين السُّنة بقيادة رِضْوَان بن وَلَحْشَى^٣. وأخيرا الصراع بين شاوّر وضرغام الذي أدّى إلى تطلّع القوى الخارجية ممثلة في الزُنكيين والفِرْنَج للسيطرة على مصر وانتهى بسقوط الدولة الفاطمية^٤.

* * *

وإذا كان عدد أفراد الجيش الفاطمي في أول عهد الدولة قد بَلَغَ كما يذكر المؤرخون مائة ألف جندي ، ثم تزايد في عهد المستنصر ليتعدى المائة وخمسين ألف جندي كما

^١ ناصر خسرو: سفرنامه ٤٨٨ ابن الطوير: نزعة المقتلين ٢١٠-٢١١؛ القلقشندي: صبح ٣: ٥١٨.

^٢ فيما سبق ص ٢٤٢-٢٤٨.

^٣ فيما سبق ص ٢٥٦-٢٥٨.

^٤ فيما سبق ص ٢٨٧-٢٩٠.

فى رواية ناصر نُحْشرو؛ فقد تضاعل عدد الجيش فى نهاية الدولة، ولدينا نوعين من الأرقام حيث بلغت عدة العسكر فى عرض ديوان الجيش فى أيام الوزير رُزَيْك بن الصّالِح طلائع، نحو سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م، أربعين ألف فارس ونيقًا وثلاثين ألف راجل من السودان^١. وأضاف المقرئى أيضًا أنه فى أيام ضرغام وشاور سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م وقت الاستعانة بجيوش نور الدين كان بمصر عشرة آلاف فارس ومائة شينى فيها عشرة آلاف مقاتل وأربعين ألف عبد^٢.

ويدلنا هذا النّص على أن السودان كانوا ما يزالون يُكوّنون معظم مشاة الجيش الفاطمى، وكانوا يسكنون فى حارة مخصصة لهم خارج باب زُوَيْلَة على يمنية الخارج منه تجاه بركة الفيل تعرف بـ «الحارة المنصورية»^٣. وقد قام هؤلاء السودان - الذين بلغ عددهم تبعًا للمصادر خمسين ألفًا - عندما تولّى صلاح الدين الوزارة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م بمكاتبة الفِرْنَج يُخَرِّضونهم على محاربة صلاح الدين. وقد وَقَعَ كتابهم هذا فى يد صلاح الدين الذى قتل رئيسهم مُؤْتَمِن الخلافة فى ذى القعدة من نفس العام، ثم هاجمهم فى الحارة المنصورية وأحرقها عليهم وخربها وتبّع فلولهم فى الصعيد حتى قضى عليهم تمامًا وأصبح أمر السودان كأن لم يكن حسب تعبير المقرئى^٤.

وهكذا فمع نجاح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى القضاء على الدولة الفاطمية فى مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م فإنه :

«أزال جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأزمن وغيرهم، واستجد عسكراً من الأكراد والأتراك خاصة»^٥.

^١ المقرئى: الخطط ١: ٨٦، ٩٤.

^٢ نفسه ١: ٨٦، ٩٤ واتعاظ الحنفا ٣: ٢٦٦-٢٦٧.

^٣ نفسه ٢: ١٩؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ١٣٧.

^٤ أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين ١: ٤٥٠-٤٥٢؛ المقرئى الخطط ٢: ٣، ١٩ واتعاظ ٣: ٣١١-٣١٢.

^٥ المقرئى: الخطط ١: ٩٤.

وكان استبعاد السودان ، نظرًا لوضعهم الاجتماعى وأصلهم العرقى . أما الأُزْمَن فبسبب ديانتهم لأنهم لم يعتنقوا أبدًا الإسلام كما أوضحت ، وهكذا قُضِيَ على التركيب العرقى والعنصرى للجيش الفاطمى ، وحلَّ مكانه تركيبٌ اجتماعى جديد كان أساسه : الأكراد والأتراك الذين تميزوا بقدرتهم القتالية الكبيرة ، واعتناقهم جميعًا للإسلام الأمر الذى قلب الموازين فى الصراع العربى - الصليبي .

ورغم أن صناعة النسيج (الطراز) قد عَزَفَتْ تقدُّمًا كبيرًا فى العصر الفاطمى وكانت منتشرة فى مصر فى أماكن كثيرة : تَنْيَسَ وشَطَا وِدْمِيَاط والإسكندرية والدُّلْنَا والقاهرة والقيوم وطحا والأشمونين وأسيوط بمصر العليا ، كما يُقَدَّم لنا كُلٌّ من ابن المأمون وابن الطُّوَيْر أوصافًا هامة عن دور الطراز المختلفة والكسوات التى كان يمنحها الخلفاء للوزراء وكبار رجال الدولة فى الأعياد والمناسبات المختلفة^١ ، فإننا لا نكاد نظفر ، للأسف الشديد ، بأية أوصاف لأزياء الجنود ، وقُوَاد الجيش فى العصر الفاطمى . وفى المقابل فإن المصادر أمدَّتْنا بتفاصيل كثيرة عن أزياء الجنود وملابسهم فى العصر المملوكى ولكنها لا تصلح أن تكون نموذجًا يقاس عليه^٢.

وداع الجيش

كان الخلفاء الفاطميون يحرصون على وداع الجيش عند رحيله للقتال فى احتفال رسمى ، سواء فى العاصمة نفسها أو خارجها ؛ ويعود هذا التقليد إلى الخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله الذى حرص على الخروج بنفسه ومعه ولى عهده وكبار رجال دولته لوداع جيش جَوْهَر الذى خرج من رَقَادَة لفتح مصر^٣.

وفى القاهرة كان ميدان بين القصرين الواقع بين القصر الفاطمى الكبير والقصر

^١ راجع ، المخزومى: المنهاج ٣٢-٣٣؛ ابن الطوير: نزعة المقتلين ١٠١-١٠٤ ، وفيما سبق ص ٤٧٣-٤٨٩ .

^٢ انظر ، Mayer, L.A., *Mamluk Costume*, Genève 1952 .

^٣ القرئزى: الخطط ١: ٣٧٨ .

الفاطمي الصغير الغربي يُسْتَعْدَم لاستعراض الجيش الفاطمي وكان يُتْبِع لعشرة آلاف جندي بين فارس وراجل . وقد شَبَّه المقرئى هذا الاستعراض بما كان يفعله سلاطين المماليك بعد ذلك فى استعراض جيشهم فى ميدان الرُمَيْلَة تحت قلعة الجبل^١ .

وقد حَفِظَ لنا ابن المأمون وصفًا لوداع الخليفة الأمر للجيش الذى خَرَجَ إلى سواحل الشام سنة ٥١٧هـ استجابةً لرسل صاحبى دمشق وحَلَب وما تم فيه ، يقول :

« وتقدَّم إلى الأزمة بإحضار الرجال الأقوياء ، وابتدأ بالنفقة فى الفرسان بين يدى الخليفة فى قاعة الذهب ، وأحضر الوزانون وصناديق المال وأفرغت الأكياس على البساط ، واستمر الحال بعد ذلك فى الدار المأمونية ، وتردَّد الرأى فيمن يتقدَّم فوقع الاتفاق على حسام الملك البرنى وأحضر مقدَّم الأساطيل الثانية ، لأن الأساطيل توجهت فى الغزو ، وُخِّلَ عليه وأمر بأن ينزل إلى الصناعتين بمصر والجزيرة ، ويُتَّق فى أربعين شيئًا ويكْمَل نفقاتها وعُدَّها ، ويكون التوجه بها صُحْبَة العسكر ، وأنفق فى عشرين من الأمراء للتوجه صحبته ، فَكُمَلَت النفقة فى الفارس والراجل وفى الأمراء السائرين وفى الأطباء والمؤذنين والقراء ، وتَدَب من الحجاب عُدَّة وجعل لكل منهم خدمة ، فمنهم من يتولى خزانة الخيام ، وسير معه من حاصل الخزائن يرسم ضعفاء العسكر ومن لا يقدر على خيمة خيم ، ومنهم حاجب على خزائن السلاح ، وأنفق فى عُدَّة من كُتَّاب ديوان الجيش لقَرْض العساكر وفى كتاب العربان ، وأحضر مقدمو الحراسين بالحفار وتقدَّم إليها بأنه من تأخَّر عن القَرْض بعسقلان وقبض النفقة فلا واجب له ولا إقطاع ، وكتب الكتب إلى المستخدمين بالثغور الثلاثة : الإسكندرية ودمياط وعسقلان بإطلاق وابتاع ما يستدعى برسم الأسطة على ثغر عسقلان للعساكر والعربان من الأصناف والغلل . ووقع الاهتمام بنجاز أمر الرسل الواصلين ، وكتب الأجوبة عن كتبهم ، ومجهز المال والخلع المذهبات والأطواق والسيوف والمناطق الذهب والخليل بالمراكب الحلى الثقال وغير ذلك من التجملات ، وُخِّلَ على الرسل وأطلق لهم للتفسير ، وسُلِّمَت إليهم الكتب والتذاكر ، وتوجهوا صحبة العسكر .

وركب الخليفة الأمر بأحكام الله إلى باب الفتوح ونَظَرَ بالمنظرة ، واستدعى

^١ المقرئى : الخطط ٢ : ٢٨ .

حسام الملك وخلع عليه بدلة مذهبة ، وطوّقه بطوق ذهب ، وقلده ومنطقه بمثل ذلك ، ثم قال الوزير المأمون للأمرءاء ، بحيث يسمع الخليفة : هذا الأمير مقدّمكم ومقدّم العساكر كلها وما وعد به أنجزته ، وما قرّره أمضيته ، فقبلوا الأرض ، وخرجوا من بين يديه ، وسلّم متولى بيت المال وخزائن الكسوة لحسام الملك الكتب بما ضمنتها الصناديق من المال وأعدال الكسوات ، وحملت قدّامه ، وفُتحت طاقات المنظرة ، فلما شاهد العساكر الخليفة قبلوا الأرض ، فأشار بالتوجّه فساروا بأجمعهم ، وركب الخليفة وتوجّه إلى الجامع بالمقّس وجلس بالمنظرة واستدعى مقدّم الأسطول وخلع عليه وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والغدّة^١ .

تَمْوِينُ الْجَيْشِ

أما أمتعة الجيش الضرورية مثل : الخيام والأسلحة والأدوات المختلفة فكانت تُحمّل أثناء المعارك على ظهور الجمال . وكان تموين الجيش يُشكّل عموماً مشكلةً في تعبئتها ؛ لصعوبة المواصلات ، والاعتماد في حثّل المواد على حيوانات النقل البطيئة الحركة مما يؤدّي إلى تلف المؤن ، وكذلك صعوبة الاتصال بالمراكز لطلب التزويد بالمؤن حين نفادها . ولهذا فكثيراً ما كانت مسألة التموين تحدد مصير الحملات وتسرع في حشْم نتائج المعركة لصالح الطرف الذي أخذ احتياطه الكافي من الزاد والماء ، فكان على القائد أن يُمَوِّن جيشه بالكمية اللازمة التي تكفي المدة التي يقضيها في الطريق وفي حالة الحرب حتى العودة ، وأن يضع في حسابه استمرار التزوّد بالمؤن عند الحاجة وأن لا يُقَطَّع عنه خط التموين قدر استطاعته ، وكانت مواد التموين تُحمّل في مؤخرة الجيش عادةً ، أى في الساقة ، وكانت تسمى بـ « الثَّقَل » ، كما أن الجنود كانوا يحملون معهم بعض مواد التموين الضرورية في مخالي الخيل أو في الجراب (الصُّوْلُق) المعمول من الجلد الذي يُعلّق على الكتف وكانت لا تتعدى الخبز والجبن والبصل وبعض اللحوم المُقَدَّدَة^٢ .

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٦٠-٦١ .

^٢ محسن محمد حسين : الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ١٢٦-١٢٧ .

ويذكر ابن الطُّوَيِّر أن الخليفة الأمر عندما فُكِّر في السفر إلى المشرق والإغارة على بغداد استعمل للسفر سروجًا خالية القراييص (م. قزبوص) مُجَوِّمة وبطنها بصفائح قصدير فجعل فيها ماءً وفي كل منها مفتوح مقدار جواز صفارة فيه ، فإذا دعت حاجة فارسه إلى الشرب شرب وجعله يحمل مقدار سبعة أُرطال^١.

أَسْلِحَةُ الْجَيْش

كانت أسلحة الجيش الفاطمي تُحَفَظ في « خزانة السِّلَاح » التي كان موضعها يقابل « الإيوان » بالقصر الفاطمي الكبير^٢. وقد جَمَعَ الفاطميون فيها أسلحة عظيمة القيمة التاريخية كالسيف المسمى « ذى الفَقَّار » وهو السيف المشهور الذى غنمه النبى ﷺ فى غزوة بَدْر. وقد ذاع صيت هذا السيف حتى قيل « لا سيف إلا ذى الفَقَّار » وهى العبارة التى نراها منقوشة على السيوف الأثرية. وقد آل هذا السيف إلى على بن أبى طالب بعد وفاة النبى ﷺ ثم إلى الخلفاء العبَّاسيين من بعده، ولسنا ندرى كيف حصل عليه الخلفاء الفاطميون. ويقال أيضًا أن خِزَانَةَ السِّلَاح الفاطمية كانت تحوى بين جدرانها صِمْصَامَةً عمرو بن معدى كرب، وسَيْف عبد الله ابن وَهْب الرِّاسِي، وسَيْف كافور، وسَيْف المعز وِدْرَعه، وسَيْف أبى المعز، وسَيْف الحسن بن على بن أبى طالب، وِدْرَقَةٌ حمزة بن عبد المطلب، وسَيْف جعفر الصَّادق. وكان يوجد بها أيضًا الكَرَاغَنَدَات والجَوَاشِين والزُّرْدِيَات والخُوْذُ والرِّمَاح والقُنْطَارِيَات والأَسِنَّة البرِصَانِيَّة وقِيسَى الرَّمَايَةِ والنَّشَاب والسيوف المحلاة بالذهب والفضة والسيوف الحديدية وصناديق النصول وجعاب السهام الخِلْج، وكان من كل صنف منها

^١ ابن الطُّوَيِّر: نزهة المقلتين ١٩.

^٢ نفسه ٣٤.

عشرات الألوف^١. وكان الخليفة الفاطمي يُكثر من زيارتها والطواف بها ويتأمل حواصلها من الأسلحة^٢.

وإذا كانت المصادر لم تصف لنا ما كان يدور في ساحات القتال وكيفية استخدام هذه الأسلحة وأنواعها المختلفة، فإن وُصف الاحتفالات الموكية للخلفاء الفاطميين وعلى الأخص في القرن السادس الهجري، يمدنا بمعلومات غنية سواء عن طوائف العسكر القرييين من الخليفة أو أنواع الأسلحة التي كانت تُستخدَم في العروض العامة والاحتفالات الموكية. وأهم الاحتفالات الفاطمية التي وصل إلينا تفاصيل هامة عنها هي احتفال «ركوب أول العام الهجري»^٣، وقَدَم لنا ابن الطُّونَر تفاصيل غنية عن هذا الاحتفال وغيره من الاحتفالات التي كانت تتم طوال العام (ركوب أول شهر رمضان - ركوب أيام الجُمُع الثلاث من شهر رمضان - ركوب صلاة عيد الفطر - ركوب صلاة عيد الأضحى - ركوب فتح الخليج - ركوب تخليق المقياس - ركوب عيد القَدِير)^٤. وينطبق وُصف ابن الطُّونَر خاصة على الاحتفالات التي كانت تتم في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وعلى الأخص في زمن الخليفة الأمر بأحكام الله ووزارة المأمون البطائحي (٥١٥-٥١٩هـ/ ١١٢١-١١٢٥م).

ويعد كتاب «تبصرة أرباب الألباب في كيفية التجارة في الحروب من الأنواء...» لمُرضى بن علي بن مَرَضَى الطُّرَشُوسِي المتوفى سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م والذي أُلّفه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أقدم كتاب يصل إلينا يتناول وُصف أسلحة الجيش الإسلامي وكيفية صنعها. ورغم أنه أُلّف للسلطان صلاح الدين فإننا لا نعرف إذا كانت قد نُمّت كتابته قبل موقعة حِطّين سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م أو بعدها، إلا

^١ المقرئى: الخطوط ١: ٤١٧؛ زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين ٥٤-٥٥.

^٢ ابن الطونر: نزهة الملقين ١٣٣-١٣٤.

^٣ نفسه ١٤٧-١٦٣ وفيما سبق ص ٤١٥-٤٣٢.

^٤ نفسه ١٦٨-٢٠٣ وفيما سبق ص ٤١٥-٤٦٤.

أننا نستطيع من خلاله التعرف على الكثير من أنواع الأسلحة التي استخدمت في الدولة الفاطمية واستمر استخدامها بعد ذلك .



في وصفه لاحتفال ركوب أول العام يذكر ابن الطوفان من بين الأسلحة التي كانت تخرج من خزانة السلاح ، الأسلحة التي كان يحملها « صييان الركاب » الذين يُقال لهم أيضًا « الركابية » و « صييان الركاب الخاص » حول الخليفة أثناء الموكب ، كان عددهم في الدولة الفاطمية يزيد على ألفي رجل ولهم اثنا عشر « مُقَدَّم » يأتي على رأسهم « مُقَدَّم المقدمين » وهو صاحب الركاب اليمين ، وكان لكل من هؤلاء المقدمين في كل شهر خمسون دينارًا ، بينما ينقسم الركابية أنفسهم جوقًا (= مجموعات) على قدر ما يجرى عليهم ، فجوقة لكل منهم خمسة عشر دينارًا ، وجوقة لكل منهم عشرة دنانير ، وجوقة لكل منهم خمسة دنانير^١ . وقد شَبَّههم القلقشندي بالسلاح دارية والطَّبِير دارية في العصر المملوكي^٢ . وهذه الأسلحة هي :

الصُّمَاصِم المصقولة المذهبة مكان السيوف المُخَدَّبَة لغيرهم ، وعلى ذلك فإن الصُّمُصَام (ج . صماصم) يعني سيفًا مستقيمًا وهو سلاح هجومي يستعمل باليد^٣ .
الدُّبَابِيس الملبَّسة بالكَيْمُخْت الأحمر والأسود ورءوسها مُدَوَّرَة مُضْرَّسة أيضًا .
والدَّبُوس (ويسمى العمود) آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها في قتال لابس البيضة ومن في معناه . والبيضة آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه^٤ .

^١ ابن الطوفان : نزهة المقلتين ١٢٤ .

^٢ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٤٨٠ .

^٣ عن تاريخ صناعة السيف العربي وأنواع مقابته راجع ، عبد الرحمن زكي : « السيوف وأجناسها - رسالة يعقوب بن إسحاق الكندي فيلسوف العرب » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٤ (ديسمبر ١٩٥٢) ١ - ٣٦ ؛ عبد الرحمن زكي : السيف في العالم الإسلامي ، القاهرة ١٩٥٧ ؛ أونصال يوجل : السيوف الإسلامية وصناعتها ، ترجمة تحسين عمر طه أوغلي ، استانبول - مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ١٩٨٨ .

^٤ القلقشندي : صبح الأعشى ٢ : ١٤٢ .

والكيُمُخْتُ ضربٌ من الجلود المدبوغة كان يستخدم في عمل الدروع والجواشن .

اللُتوت (ج. لُت) ذات الرؤوس المستطيلة المضرسة أيضًا ، وهى اسم فارسى معرب يعنى القدم أو الفأس العظيمة .

آلات يقال لها « المستوفيات » عبارة عن عُمد من حديد طولها ذراعين (نحو متر) مربعة الأشكال بمقابض مُدَوَّرَة فى أيديهم .

وكانت هذه الأسلحة والآلات تخرج من خِزَانَة السّلاح بعدد معلوم من كل صنف يتسلّمها نقباء صِبيّان الرُّكاب فى ضمانهم وعليهم إعادتها مرة أخرى إلى الخزانة بعد انتهاء الخدمة بها^١ .

وكذلك الأسلحة التى كانت تخرج لـ « أرباب السّلاح الصغير » وهم ثلاثمائة عبد من العبيد الأقوياء السودان الشباب ، لكل واحد : حربتان بأُسُنّة مصقولة تحتها جِلَب فضة كل اثنتين فى شِرابَة .

دَرَقَة بكوايج فضة والدَّرَقَة هى الدُّرْع الذى يُخْتَمَى به ، والكوايج كلمة تركية göbek بمعنى سُرّة ، أى أن فى وسطها حلية أو زخرفة مُخَدَّبَة أو مُقَعَّرَة ويتسلم هذه الأسلحة عُرفاء العبيد بضمنانهم يسلمون لكل عبد حربتان ودَرَقَة^٢ .

وكان من حقوق خزانة السّلاح خزانة تعرف بـ « خزانة التَّجْمُل » كان يخرج منها فى هذه المناسبة « الثُّصْبُ الفضة » ، وهى رماح مُلَبَّسَة بأنابيب الفضة المنقوشة بالذهب إلا ذراعين يوضع فى هذه المنطقة الخالية عدة من المعاجر (ج. مَعَجَر) الشَّرَب ، أى قطعة من نسيج الحرير الملونة وتترك أطرافها المرقومة ، أى المنقوشة ، مسبلة كالسنّاجق (ج. سَنّجَق) أى الرايات ، وبرعوسها رمايين منفوخة فضة مذهبة (أى على شكل الرمان

^١ ابن الطوير : نزعة المقتلين ١٤٨ ، القلقشندي : صبح ٣ : ٤٧٠ .

^٢ نفسه ١٤٨ - ٤٤٩ نفسه ٣ : ٤٧٠ .

الفاكهة المعروفة) وأهلة (ج. هلال) مجوِّفة كذلك وفيها جلاجل لها حِسٌّ إذا تحركت ، يكون عدد هذه الرماح ما يقرب من المائة^١.

وبالإضافة إلى ما كان يُشَرِّف به الوزير والأمراء ، كان يخرج لقوم يقال لهم « السَّبَرَبَرية » نسبة إلى السَّبَرَبَرات - وهى جنس من الرِّماح أَسْتَهَا عراض طوال - سلاحٌ ، كل قطعة منه طولها سبعة أذرع برأسها طلعة مصقولة من خشب القُنطاريات (نوع من الرماح المصنوعة من الخشب الزان أَسْتَهَا قصار عراض كهيفة البلطة) وعقبها من الحديد مدور أسفله ، تكون فى كف حاملها الأيمن يفتلها فتلاً متدارك الدوران ، ويحمل فى يده اليسرى نَشَابَةً كبيرة يخطر بها (أى يرفعها مرة ويضعها أخرى) وعدد هؤلاء ستون رجلاً يسيرون رَجَالَةً فى الموكب يمينة ويسرة^٢.

ثم يخرج لقوم متطوعين بغير جار ولا جراية يقارب عددهم مائة رجل لكل واحد دَرَقَةٌ من درق اللَّمَط (نسبة إلى قبيلة من البربر بأقصى المغرب) وسيف ، ويسيرون أيضاً رَجَالَةً فى الموكب^٣.

ومن بين سائر الأسلحة المحفوظة بخزائن السلاح كانت :

الكَزَاغُنْدَات (ومفردها كَزَاغُنْد) المدفونة بالزرد المغشاة بالديباج المحكمة الصنعة ، وهى لفظ فارسى الأصل معناه المعطف القصير الذى يلبس فوق الزردية ، وهى زرديات دفاع يلبس عليها ثياب قد بسط فوقها مشاقة الحرير والمصطكا وتكسا بالثياب الديباج أو غيرها وتخاط عليها وتُحْشَن بالتنبيت بالحرير ونحوه ، وتلبس للوقاية من السيوف والسهام^٤.

^١ ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٤٩.

^٢ نفسه ١٥١.

^٣ نفسه ١٥١-١٥٢؛ القلقشندي : صبح ٣ : ٤٣٠.

^٤ نفسه ١٣٣.

الجَوَاشِين المُبَطَّنة المذهبة . مفردتها جَوْشَن وهو الدرع .

الدَّرديات السابلة برعوسها وقُلنسواتها . وهى نوع من الملابس الدفاعية التى يلبسها الفارس .

الخُوْذ المَحَلَّة بالفضة ، وهى التى تنسج من الدروع على قدر الرأس وتلبس تحت القُلنسوة و المَغْفَر وهو آلة من حديد توضع على الرأس لها أطراف مسدولة على قفا اللابس وأذنيه .

الشُيوف العرييات والقُلجوريات أى التركية .

الرِّمَاح القَنَا مفردتها رُمَح وهو آلة الطعن ، والقنا قصب مسدود الداخِل يَنْبِت بِلاد الهند ويوصف بالخطى نسبة إلى الخطّ بلدة بالبحرين يجلب إليها الرماح من الهند ويقال للحديد الذى فى أعلى الرمح السنان والذى فى أسفله الرُّج والعقب^١ .

القُنطاريات ومفردتها قُنطارية وهى من اليونانية Kontarion جنس من الرِّمَاح يصنع من الخشب الزان وأُسنَتها قصار عراض كهَيْفَة البلطة^٢ .

القَيْسَى التى ترمى باليد المنسوبة إلى صُنَاعِها مثل الخطوط المنسوبة إلى أربابها . والقَيْسَى على ضربين : أحدهما العربية وهى التى من خشب فقط والأخرى الفارسية وهى التى تتركب من أجزاء من الخشب والقرن والقصب والغراء ولأجزائها أسماء لكل جزء منها اسم^٣ .

الأُسْنَة الخَرْصَانِيَة من الخَرْص بالكسر بمعنى السنان والرمح اللطيف القصير يتخذ من خشب منحوت .

^١ القلقشندى : صبح الأعشى ٢ : ١٤٠-١٤١ .

^٢ Cahen, Cl., Un traité d'armurerie, p. 113

^٣ القلقشندى : صبح الأعشى ٢ : ١٤١-١٤٢ .

نِشَابُ الْقَيْسِيِّ وكانت نصولها مثلثة الأركان على اختلافها وهى ما يرمى به عن القسى الفارسية .

قَيْسِيُّ الرَّجُل والركاب . وهى التى تُؤَثَّر بدفع رجلى الإنسان لها مع جذب ظهره ، لأن جَرَّهَا يحوج الإنسان أن يحمل فى وسطه حزامًا من الجلد البقرى طرفيه كلايين من الحديد يجعل وتر القوس فيهما ويجعل الإنسان رجله فى بطن القوس جذبًا بظهره الحزام الذى فيه الكلايين إلى أن يجعل الوتر فى القفل الذى فى المجرة وينزل المفتاح فيها ثم يأخذ القوس بيديه ويجعل النبلة فى المجرى ...^١ .

قَيْسِيُّ اللَّوْلَب الذى يقال له الجراد وطوله شبر يرمى به عن قسى معمولة برسمه فلا يدرى به الفارس أو الراجل إلا وقد نفذ لهم^٢ .

ومن بين الأسلحة والآلات التى كانت تستخدم فى القتال كذلك آلات الحصار ومنها : المَنْجَنِيْق (جـ . مَنجَنِيْقَات) . آلة قاذفة ترمى بها الحجارة أو السهام الضخمة أو قدور النفط والكرات الملتهبة . وهو سلاح قديم شاع استخدامه عند المسلمين ، وفى عهد العباسيين أصبح سلاحًا من أهم أسلحة الجيش ، وذكر الطرسوسى أنواعًا مختلفة من المجانيق (العربى - الفارسى والتركى - الرومى أو الأفرنجى) . وهو عبارة عن عدة من القوائم الخشبية تتصل فى أعلاها بعارضة وعلى هذه العارضة يركب عمود خشبى طويل يقال له « السهم » ويكون قصيرًا من جهة وطويلاً من جهة أخرى (نسبة ربع إلى ثلاثة أرباع وأحيانًا خمسة إلى أربعة أخماس) ويحمل هذا السهم من جهته القصيرة ثقلًا عاكسًا يسمى « الصندوق » إذا كان كتلة واحدة و« القواعد » إذا كان جملة أثقال ، كما يحمل من جهته الطويلة « الكفة » التى تحمل المقدوف سواء أكان حجرًا أو برميل نَقْط أو غير ذلك . ويتَّصل « السهم » من جهته الطويلة بحبل من الشعر يسمى « زِيَار »

^١ . Cahen, Cl., op. cit., p. 110

^٢ . Ibid, pp. 110-111

يمكن شده (تزييره) بواسطة «دولاب» كان يطلق عليه أحياناً اسم «القوس» لأنه كان يتصل بقوس يزيد انحناءاً كلما دار الدولاب في حالة الشد (قسي الزيار). فإذا أراد الشدّنة الرمي على المنجنيق قاموا بشد السهم وتزييره مما يؤدي إلى رفع الجانب القصير من السهم والثقل المعاكس الذي يحمله إلى الأعلى وعند ذلك يكفي تحرير السهم من تأثير شد الزيار بالطُرق على مفتاح أو رُزّة طرّقاً خفيفاً فيقوم الثقل المعاكس بالهبوط نحو الأسفل مما يرفع الجهة الأخرى التي تحوى الكفة نحو الأعلى بقوة مما يؤدي إلى اندفاع المقذوف بنفس اتجاه الثقل المعاكس ولمسافة قد تصل إلى أربعمئة متر تقريباً ويختلف مدى الرمي باختلاف زاوية انحناء المنجنيق وطول السهم ومرونته وثقل الحجر^١.

و «قوارير الثُّقُط» وهي القدور وما مائلها التي يُجعل فيها الثُّقُط ويُرمى بها على الحصون والقلاع للإحراق. وقد استخدمت كميات كبيرة من هذه «القوارير» في حرق الفسطاط بلغت نحو عشرين ألف قارورة بعث بها الوزير شاور لهذا الغرض سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م^٢.

و «الستائر» وهي آلات الوقاية من الطوارق وما في معناها مما يُستر به على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال ونحو ذلك^٣.

ورغم هذه التفاصيل الغنية التي أمدّنا بها المؤرخون عن «خزانة السّلاج» عند الفاطميين وما كان فيها من الذُّرْد والدروع والحراّب والسيوف وغير ذلك من الأسلحة المصنوعة من الصُّلب والذي كان بعضها مرصّعاً بالأحجار النفيسة، فإنه لم يصل إلينا منها أى نماذج تعيننا على دراسة أسرار هذه الصناعة وأساليبها الفنية؛ فأقدم الأسلحة التي وصلت إلينا يرجع تاريخها إلى عصر المماليك^٤.

^١ أرنبغا الزردكاش: الأنيق في المناجيق، دراسة وتحقيق إحسان هندی، حلب ١٩٨٥، المقدمة ص ٢٣.

^٢ المقرئى: الخطوط ١: ٣٣٩.

^٣ القلقشندي: صبح الأعشى ٢: ١٤٥.

^٤ زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين ٢٥٠-٢٥١.

رواتب الجند

وطبيعة الإقطاع الفاطمي

كان الإقطاع^١ نظامًا معمولاً به في العراق أوجده البويهيون، ثم تَمَّه السلاجقة وخلفاؤهم من الزنكيين والتوريين. أما في مصر فقد كان الوضع مختلفًا تمامًا، يقول المقریزی في نص هام:

« لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لمساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية [الملوكية]، وإنما كانت البلاد تُصَنَّن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم »^٢.

ويضيف في موضع آخر:

« وأما منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا، فإن أراضي مصر كلها صارت تُقَطَّع للسلطان وأمرائه وأجناده »^٣.

و« الإقطاع » هو « أن يُقَطَّع السلطان رجلاً أرضاً فتصير له رقبته »^٤، أي أن الأرض تصبح ملكًا لصاحب الإقطاع. كان هذا النظام معمولاً به في الدولة الإسلامية، ولم

^١ حول الإقطاع عمومًا والإقطاع في مصر خصوصًا راجع، عبدالعزيز الدوري: «نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية»، مجلة المجمع العلمي العراقي ٢٠ (١٩٧٠)، ٣-٤٢ وعلى الأخص الصفحات ١٤-٢٠، Cahen, Cl., «L'évolution de l'Iqtâ' de IX^e ou XIII^e siècle. Contribution à une histoire Comparée des sociétés médiévales», *Annales ESC* (1953), pp. 25-52; id., *El' art. Iktâ' III*, 1175-1118; Rabie, H., «The Size and Value of the Iqtâ' in Egypt 564-741 A. H./1169-1341 A. D.», in Cook, M. A. (ed), *Studies in the Economic History of the Middle East*,

الحرية في مصر الملوكية، القاهرة ١٩٩٨ ؛ 129-38 pp. London 1970.

^٢ المقریزی: المخطوط ١: ٨٥.

^٣ نفسه ١: ٩٧.

^٤ الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٣٩.

تكن على أصحاب الإقطاعات في الفترة المبكرة واجبات عسكرية، ولكن كان عليهم دفع بعض الضرائب للدولة، وإصلاح القنوات والجسور التي تقع في أراضيهم، ويُطْلَق على هذا النوع من الإقطاع «إقطاع التملك»، ويكون فيه الإقطاع ملكية تامة لصاحبه، وقد يكون وراثيًا أيضًا، وعلى صاحب هذا الإقطاع دفع «العُشْر» إلى بيت المال. وعادةً ما يكون هذا الإقطاع من الأرض الموات لإحيائها أو من الأراضي التي توفى أصحابها دون وريث. ويرى الفقهاء أنه لا يجوز مصادرة إقطاع التملك حيث يصير المَقْطَع بالتملك مالكًا لرقبتها^١.

أما النوع الثاني من الإقطاع فهو المعروف بـ «إقطاع الاستغلال»، وقد نشأ نتيجة لتسلط الجند والعسكر، وكان يُمنح لهم من أرض الخراج، بحيث يفيد المَقْطَع منه مقابل دفع مبلغ مُتَّفَق عليه دفعة واحدة أو على أقساط متعددة. ولم تكن الإقطاعات العسكرية وراثية كما أنها لا تدوم مدى الحياة ولا تعتبر ملكًا لصاحبها، وإنما كانت تُمنح لهم ليَعَوِّضهم إيرادها عن الراتب الذي قد تعجز خزانة الدولة عن الوفاء به. لذلك فإنها كانت بمثابة امتيازات ومنح إضافية ولم تكن بديلًا عن الرواتب^٢.

ومع ظهور دولة السلاجقة التي حَلَّت محل البُزْجِيَّين في التحكم في الخلافة العبَّاسية، بدأت ظاهرة إحلال الإقطاع محل القطاء أو الرواتب لرجال الجيش، فقد تطلَّبت الطبيعة الحربية لدولة السلاجقة أن ينتقل التنظيم المالي فيها انتقالًا حتميًا من نظام الرواتب والأعطية النقدية إلى نظام المكافأة والتعامل على قاعدة إقطاعية^٣. فقد كانت العادة جارية كما يقول البُندَارِي، بجباية الأموال من البلاد وصرفها إلى الأجناد، ولم

^١ عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ٣٩-٤٠، راشد البراوي: حالة مصر

الاقتصادية في عهد الفاطميين ٥٤-١٥٩، p. 239، Cahen, Cl., *L'évolution de l'iqṭāʿ*.

^٢ عبد العزيز الدوري: المرجع السابق ٤٣ - ١٤٤، pp. 235-39، Cahen, Cl., *op. cit.*

^٣ حسنين محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ٢٥.

يكن لأحد من قبل إقطاع ، ثم إن الوزير نظام المُلْك - وزير السلطان ملك شاه - رأى أن الأموال لا تُحصَل من البلاد لاختلالها ، ولا يَصْغ منها ارتفاع [أى إيراد] لاعتلالها ففَرَّقَهَا على الأجناد إقطاعات ، وجعلها لهم حاصلاً وارتفاعاً ، فتوافرت دواعيهم على عمارتها^١.

وانتقل هذا النظام إلى الزنكيين حيث لجأ عماد الدين زنكى بعد أن أسس دولته في الموصل وخَلَب إلى تعميم نظام الإقطاع العسكري ، واستمر على ذلك ابنه نور الدين محمود صاحب دمشق ، ثم وَرَثَه عنه الأيوبيون في مصر بعد ذلك . ويقوم هذا النظام الإقطاعي على أساس فكرة الحقوق والواجبات المتبادلة بين الأمير أو السيد الإقطاعي من ناحية ، وأفضاليه المُقَطَّعين من ناحية أخرى ، أى أن الأرض أو المدن أو القلاع والحصون التى يتم إقطاعها للأفضال والأتباع تكون مقابل خدمات حرية يلتزم هؤلاء الأفضال بتقديمها لسادتهم الإقطاعيين متى طُلِب منهم ذلك^٢.

كان الوضع في مصر في زمن الدولة الفاطمية مخالفاً لذلك كما ذكر المقرئى في النُصّ الجامع الذى أوردته منذ قليل . ولا نملك أية معلومات مُنظَّمة حول الطريقة التى كانت تُدْفَع بها رواتب الجنود في العصر الفاطمي ، ولكن من خلال معلومات متناثرة في بطون المصادر نستطيع القول بأن الجيش الفاطمي كان يتقاضى رواتبه نقدًا وعلى دفعات مختلفة منتظمة خلال العام . فعند الاحتفال بتنصيب الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م اتَّفَق الحسن بن عَمَّار مع الكتَّامين على أن يُطْلَقَ لهم ثمانى «إطلاقات» كل سنة على أساس ثمانية دنانير لكل رجل منهم ، وذلك بالإضافة إلى «الفُضْل» ، وهو عشرون دينارًا لكل واحد دُفعت بحضرة الخليفة بواسطة عُرفائهم (ج. عريف)^٣.

^١ البندارى: تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهرة - مطبعة الموسوعات ١٩٠٠ ، ٥٥ ، المقرئى: الخطط ١ : ٩٥ .

^٢ سعيد عبدالفتاح عاشور: «البنية البشرية لجيوش صلاح الدين» ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ١٠ (١٩٩٠) ١٣ .

^٣ ابن مسر: أخبار مصر ١٧٨ .

وأصبح تقليدًا بعد ذلك منحه مال « الفضل » للجند كافة ، وتكرر ذلك أثناء تنصيب الخليفة الظاهر والخليفة المستنصر^١.

ولدينا معلومات أخرى تؤكد أن رواتب الجيش كانت تُدفع نقدًا ، ففي سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م طالب الرجال السودان الذين أُرسلوا لحفظ مدينة تَنيس « أرزاقهم »^٢ ، كما أن الوزير الأجلّ أبو سَعْد منصور المعروف بابن زُنُور - أحد وزراء المستنصر - أقام في الوزارة أيامًا قلائل طالبه خلالها الجند بـ « أرزاقهم » فوعدهم ثم فرّ هاربًا^٣.

هذه النصوص هي الوحيدة التي نعرف منها كيفية دفع رواتب الجيش في العصر الفاطمي الأول . ويبدو أن نظام دفع الرواتب نقدًا على أساس دورى خلال العام قد استمر إلى زمن الحرب الأهلية أثناء خلافة المستنصر ، حيث يذكر ناصر حُشرو عند وصفه للجيش الفاطمي أن « نَفَقَ هذا الجيش كلّهُ من مال السلطان ، ولكل جندي منه مرتب شهري على قدر درجته »^٤ ، ثم انهار هذا النظام تمامًا خلال هذه الحرب .

والوضع العام خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والحادي عشر للميلاد أن النظام الإقطاعي لم يكن شائعًا أو معتادًا في مصر الفاطمية . ولكن كان هناك نوع من الإقطاع الذي يُمنَح إلى الموظفين المدنيين ، فكان القضاة وأصحاب الوظائف الإدارية وكبار الأمراء يُمنَحون إقطاعات عوضًا عن رواتبهم أو كجزء من تعويضهم ، واتسعت دائرة من يُمنَحون هذه الإقطاعات في فترة خلافة الحاكم بأمر الله لتشمل كذلك الجنود وعبيد الشّراء . وأمامنا عدد من الأمثلة تؤيد ذلك : فقد جعل الخليفة العزيز بالله لوزيره يعقوب بن كِلْس « إقطاعًا » في كل سنة بمصر والشام مبلغه مائة (ثلاثمائة) ألف دينار^٥.

^١ المقرئى : اتعاظ الحنفا ٢ : ١٢٥ ، ١٨٤-١٨٥ .

^٢ المسبحى : أخبار مصر ٥٧ .

^٣ ابن الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ٩٣ .

^٤ ناصر حشرو : سفرنامه ٩٥ ، وانظر فيما سبق ص .

^٥ النويرى : نهاية الأرب ٢٨ : ١٦٥ ؛ المقرئى : الخطط ٢ : ٦ و اتعاظ الحنفا ١ : ٢٦٩ .

وكان مبلغ «إقطاع» قاضى القضاة مالك بن سعيد فى السنة خمسة عشر ألف دينار^١، كما يذكر ابن سعيد المغربى أن الحاكم تَوَسَّع فى الإقطاعات حتى أنه أَقْطَعَ النواتية الذين يُجَدِّفُونَ به فى العُشارى، وأَقْطَعَ المشاعلية وكثيراً من الوجوه والأقارب وبنى قُوَّة فكان مما أَقْطَعَ الإسكندرية والبحيرة ونواحيها^٢. وفى أعقاب انتصاره على ثورة أُمى رَكُوزة التى هدَّدت النظام الفاطمى «أَقْطَعَ [الحاكم] الفَضْل بن صالح إقطاعات كثيرة»^٣، كما أنه عندما انقلب على الكتّامين أمر بالقبض على جميع ما لهم من الإقطاع من ضياع ورباع وغير ذلك^٤. وعندما تأمرت سيدة الملك أخت الحاكم مع الحسين بن دَوَّاس للقضاء على أخيها وَعَدَّتْهُ بأن يكون هو مُدَبِّر الدولة وأن تزيد فى إقطاعه مائة ألف دينار^٥.

ويبدو من العرض السابق أن الكتّامين كان لهم إقطاعات إلى جانب رواتبهم المنتظمة، ولكن لا نعلم على وجه التدقيق إلى أى حَدٍّ كان هذا النظام منتشرًا بينهم، كما أن حقيقة منح الإقطاع إلى كبار رجال الدولة يُوضِّحه الوعد الذى قطعه سيدة الملك للحسين بن دَوَّاس^٦.

وَيُوضِّح نَصُّ أوردته المُسَبِّحى أن الإقطاعات كانت تُمنَح إلى الموظفين المدنيين كمنحة من الخليفة، فعندما تولَّى القائد عِزَّ الدولة مِقْضاد نَظَرَ «ديوان الكتّامين» سنة ٤١٥ هـ/١٠٢٤م، عَوَّضًا عن الأمير شمس الملوك مسعود بن طاهر الوِزَّان، كَتَبَ هذا الأخير إلى الخليفة الظَّاهر لإعزاز دين الله ليسأله فى تسليم إقطاعه، فأجابه الخليفة بأنه «نِعْمَةٌ» من أمير المؤمنين عليه وعلى أمثاله لا تُنَزَع منهم^٧. وواضح أن المُقْطَع فى هذه

^١ المقرئى: الخطط ٢: ٢٨٨.

^٢ ابن سعيد: النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ٦٦، المقرئى: اتماظ الخفا ٢: ١٠٩ والخطط ٢: ٢٨٨.

^٣ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٤: ٢١٧.

^٤ ابن سعيد: النجوم الزاهرة ٦٨.

^٥ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٩: ٣١٦، ٣١٩.

^٦ Lev, Y., «Army, Regime and Society in Fatimid Egypt 358-487 968-1094», *IJMES* 19 (1987),

pp. 355-56.

^٧ المسبِّحى: أخبار مصر ٢٨-٢٩.

الحالة غير مُكَلَّف بأية خدمة عسكرية ولكنه يخضع لدفع « العُشُر » من عائد الإقطاع إلى بيت المال^١. كما أن حَسَّان بن جَزَّاح الطائي - متولَّى حرب فلسطين - أرسل إلى الخليفة الظَّاهر في نفس العام يطلب إضافة بيت المقدس ونابلس إلى إقطاعه ليُكفَّ عن القتال ، فأجابه الخليفة بإضافة إقطاع نابلس فقط إليه^٢.

وللتدليل على الفرق بين نظام الإقطاع في مصر الفاطمية ونظيره في العراق ذكر ابن مَيْسَر، وهو يتحدث عن واقعة البساسيري الذي أقام الدعوة الفاطمية للخليفة المستنصر بالله في بغداد ، أنه كان له ببغداد إقطاع لا يمكن أن يكون له بمصر مثله^٣.

واضح أن هذه الأمثلة جميعها ترجع إلى فترة الحاكم بأمر الله وبداية فترة الظَّاهر لإعزاز دين الله ، وهي فترة شهدت إلى حدٍّ بعيد اضطرابات داخلية وثورات وصعوبات اقتصادية تأثرت فيها قُدرة الدولة على المحافظة على دَفْع رواتب الجيش على أساس نقدي على قاعدة منتظمة . فهل تحويل الإقطاع إلى إقطاع شبه عسكري والمحافظة عليه استمر بعد تغيُّر هذه الظروف وعودة الاستقرار الداخلي وانتهاء الصعوبات الاقتصادية ؟ لقد كانت الأزمات الاقتصادية في زمن الظَّاهر قاسيةً إلى حدٍّ بعيد ولكنها لم تستمر طويلاً وبالتالي لم تكن لها أهمية كبيرة^٤. ويرى كلود كاهن أن فترة الفوضى الداخلية والحروب الأهلية التي شهدتها عصر المستنصر هي نقطة التَّحوُّل في طبيعة نظام الإقطاع في العصر الفاطمي حيث أوجدت الظروف الملائمة لإمكانية تحويله إلى إقطاع شبه عسكري^٥.

ففور وصول بدر الجمالي إلى مصر وعمله على التَّخْلُص من الأمراء المصريين جعل لكل واحد من أصحابه قَتْل أحد الأمراء المصريين « سائر ما بيد ذلك الأمير من إقطاع

^١ Rabie, H., *The Financial System of Egypt A. H. 564-642 / A.D. 1159-1341*, London 1972, p. 27

^٢ المسبحي: أخبار مصر ٥٧-٥٨؛ المقرئ: اتعاظ ٢: ١٥٧.

^٣ ابن ميسر: أخبار مصر ٢١.

^٤ Lev. Y., *op. cit.*, p. 326

^٥ Cahen. Cl., *op. cit.*, p. 243

وجار ودار ومال وجوار وغير ذلك^١. ويبدو أن الدولة الفاطمية بدأت منذ هذا التاريخ تستخدم نوعاً من الإقطاع في تدير شئون جزء من جيشها الكبير، فمنذ وصول بدر الجمالي إلى السلطة أخذ العسكريون يحلّون تدريجياً محل أرباب القلم في جباية الخراج، وجعلت لكل من أولئك الجباة العسكريين جهات ذات قيمة ضرائبية يؤدونها للدولة أطلق عليها «إقطاع» عبارة عن منطقة زراعية مؤجرة مقابل مبلغ اتفاقي يطلق عليه (قبالة ج. قبالات)، ويسمى المزارع المقيم في البلد «فلاحاً قزازاً»، فيصير عبداً لمن أقطع تلك الناحية، كما أطلق على القيمة الضرائبية «عيزة»^٢، بمعنى أن يتعهد كل مُقطّع من أولئك المُقطّعين بدفع مقادير معينة من المتحصلات الضرائبية السنوية للإنفاق منها في أوجه نفقات الدولة ومصالحها، ويحتفظ لنفسه ببقية عائد الإقطاع^٣. ويبدو أن هذا الاتجاه استمر أيضاً في زمن الخليفين: الأمر بأحكام الله، والحافظ لدين الله في القرن السادس الهجري.

لم يكن هذا الإقطاع الذي أدخله بدر الجمالي بحال من الأحوال إقطاعاً عسكرياً، بل وسيلة مالية لإعادة زيادة إنتاجية الأرض الزراعية بعد سنوات الجفاف التي صاحبت الحرب الأهلية والأزمة الاقتصادية التي سادت في عقدي الستينات والسبعينات من القرن الخامس الهجري^٤. فقد ذكر الخنزومي في كتاب «المنهاج في علم الخراج» أنه وقف على مقايضة عملت لأمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م بلغ فيها ارتفاع خراج

^١ المقرئ: الملقى الكبير ٢: ٣٩٦.

^٢ العيزة. هي مقدار المربوط من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأراضي وما يتحصّل من كل قرية من عين وغلة وصنف (ابن ممتي: قوانين الدواوين ٣٦: المقرئ: الخطط ١: ٨١، ٨٧، Cahen. Cl., «Le régime des impôts dans le fayyûm ayyubide», *Arabica* III (1956). p. 12-13.

^٣ المقرئ: الخطط ١: ٨٦ والانتاظ ٣: ٨٠ - ٨١، Cahen, Cl., *L'évolution de l'Iqtâ'*, p. 249, id., *JESHO* 15 (1972), p. 172; id., *El*^٢ art. *Kabâla* IV, pp. 337-38; Brett, M., «The Origins of the Mamluk Military System in the Fatimid Period» in Vermeulen, U. and D. de Smet, editors *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, OLA 73 (Leuven 1995), p. 40

^٤ Rabie, H., *op. cit.*, p. 29; Brett M., *op. cit.*, p. 43

البلاد ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار، في حين كان ارتفاع خراج البلاد قبل وصول بدر الجمالي إليها سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م لا يتعدى ألفى ألف وثمانمائة ألف دينار^١.

ويُتَّضح هذا العَرَض المالى من عدد من الإصلاحات المالية والزراعية التى قام بها الوزير الأفضَل بن بدر الجمالى بعد ذلك بثلاثين عامًا فى سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م. فمعروف أن التفاوت بين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يومًا تقريبًا، وكانت كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية تعادل اثنتين وثلاثين سنة شمسية، لذا فقد كان «التوفيق بين السنتين الشمسية والقمرية» أمرًا ضروريًا؛ لأن استحقاق الخراج وجبايته منوطان بالزروع والثمار، وهى مرتبطة بالشهور والسنين الشمسية وما يقابلها من التقويم القبطى^٢. ونتيجة للأزمة التى اجتاحت مصر فى أواسط القرن الخامس الهجرى أُغفل نقل السنين فى الديار المصرية «حتى كانت - كما يقول الخزومى - سنة تسع وتسعين وأربعمائة للهلال تجرى مع سنة سبع وتسعين الخراجية، فنُقلت سنة سبع وتسعين الخراجية إلى سنة إحدى وخمسمائة، هكذا رأيت فى تعليقات أبى رحمه الله^٣». ويضيف المؤرخ ابن المأمون البطائحي أنه حدث فى سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م تفاوت بين السنة الشمسية والعربية أربع سنين، ففاتح القائد أبو عبدالله محمد بن فاتك البطائحي الوزير الأفضَل فى ذلك. فأمر الوزير بإنشاء سِجِلٍ بنقل سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلى سنة إحدى وخمسمائة لتكون موافقة لها... ويستمر الوفاق بين السنين الهلالية والخراجية إلى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة^٤.

^١ المقرئى. الخطط ١: ١٠٠.

^٢ ابن ممتى: قوانين الدواوين ٣٥٨-٣٥٩؛ على بن خلف: مواد البيان ٥٥٨-٥٦٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى

١٣: ٥٤؛ المقرئى: الخطط ١: ٢٧٥.

^٣ الخزومى: المنهاج فى أحكام الخراج - خ ق ٣٨؛ القلقشندي: صبح ١٣: ٦٠؛ المقرئى: الخطط ١: ٢٧٦.

^٤ ابن المأمون: أخبار مصر ٣-٨؛ ساويرس بن المقفع: تاريخ بطارقة الكنيسة ١/٣: ٤-٥؛ النويرى: نهاية الأرب

٢٨: ٢٧٧؛ المقرئى: الخطط ١: ٢٧٩-٢٨١ واتعاظ ٣: ٤٠.

وفي الوقت نفسه قام الوزير الأفضّل، بناءً على مخاطبة القائد أبي عبدالله محمد ابن فاتك البطايحي أيضاً، بحلّ جميع الإقطاعات وإعادة رزوكها^١ في سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م بغرض المحافظة على قيمة العائد والخدمات بعد أن تضرّر كثير من العسكريّة والمقطّعين من كون إقطاعاتهم قد قلّ ارتفاعها، وساءت أحوالهم لقلّة المتحصّل منها، وأن إقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها وازدادت عيبتها، بحيث صار في كل ناحية للديوان جملة تجبى بالقسّف. فحُمِلَت الإقطاعات كلها على أملاك البلاد ودُعِيَ الأمراء والأجناد والطوائف للمزايدة عليها في دار الوزارة، ووعدهم الأفضّل بترك أملاكهم التي لهم فيها يتصرفون فيها بالبيع والإيجار، ثم حلّ جميع الإقطاعات ووقّعت المزايدة عليها، وتميّز لكل منهم إقطاع وكتب لهم السجّلات بأنها باقية بأيديهم لمدة ثلاثين عامًا ما يقبل منهم فيها زائد، وحصلت بذلك للديوان «بلاد مَقَوَّزة»^٢ بما كان مُقَرَّقًا في الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار، وهو ما عُرف بـ «الرزك الأفضلي»^٣.

وتدلُّنا هذه النصوص الهامة أنه خلال العصر الفاطمي كله كانت «الإقطاعات»

^١ الرزك. كلمة قبطية، استمد منها الفعل العربي راك، بروك، تعنى في مصر إجراء زراعيًا يتم خلاله القيام بعملية قياس الأرض وحصرها في سجلات وتقييمها، والغرض من هذا الإجراء هو تعديل ما هو مفروض على البلاد من الأموال الخراجية نتيجة لما يطرأ على حال الأرض من تغيير بنقص أو زيادة في مساحتها بين وقت وآخر. ويؤكد المقرئى أنه في بداية الفترة الإسلامية كان يتم «الروك» كل ثلاثين سنة من أجل التوفيق بين السنة الهلالية والسنة الخراجية، وواضح أن ما يذكره المقرئى لا يعكس إلا وضعا نظريًا. ففي الواقع أنه طوال ثمانية قرون ونصف تفصل الفتح العربي عن الفتح العثماني لمصر لا تذكر المصادر سوى ست مرات تمت فيها عملية «الروك»، والروك الأفضلي هو الروك الثالث للأرض في مصر والروك الوحيد الذي تم في العصر الفاطمي. (المقرئى: الخطط ١: ٨٢، السلوك ١: ٨٤١هـ؛ ٣؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٨: ٨٧، *EL*². art. Rabie, H., *op. cit.*, pp 50-56; Halm, H., *EL*². art. ٨٧، *Rawk* VII, pp. 483-84).

^٢ في بعض المصادر، «بلاد (ضياح) مفردة» والبلاد المَقَوَّزة هي الأماكن والأراضي المنتمية التي لا نبات فيها. (إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ٥٠٥).

^٣ ابن المأمون: أخبار مصر ٩ - ١٠؛ التويرى: نهاية الأرب ٢٨ - ٢٧٦ - ٢٧٧؛ المقرئى: الخطط ١: ٨٣، اتماظ الحنفا ٣: ٤٠، Brett, M., *op. cit.*, pp. 42-43; id., «The Way of the Peasant», *BSOAS* 47 (1984), pp. 52-55.

تُمنَح للمسكرين والمدنيين على شكل «قَبالات» (ج. قَبَالَة) وهو عملٌ ماليٌ يَحْتِ
الغرض منه: تسهيل جباية الخراج، ولا علاقة له بملكية الأرض مطلقاً، حيث ضُمَّت
الحكومة الفاطمية الخراج، وسائر الضرائب الأخرى مقابل مبالغ محدَّدة، واعتبر الفائض
بعد ذلك أرباحاً للضامنين. وكانت البلاد يُتَقَبَّلُها متقبَّلُوها بالأربع سنوات؛ لأجل الظمأ
والاستبحار وغير ذلك^١. وكان المُتَقَبِّلُ يحمل ما عليه من خراج على أقساط، وتُحَسَّبُ
له من مبلغ قَبالته وضمانه لتلك الأراضي ما يُنْفِقُ على عمارة جسورها وسدِّ ثُرْعِها وخفر
تخلجها بضريبة مُقدَّرة في ديوان الخراج. وقُسِّم الخزومي القَبالات إلى نوعين:
«القَبالات المُقَرَّرة الأسعار»، وهي التي تعني عقدًا يتضمن سعرًا ثابتًا غير قابل
للمناقشة، و«قَبالات المُناجَزة» بالعَيْن والحَب، وهي تعني اتفاقًا بالزيادة، بحيث إن
لفظ «القَبَالَة» بإطلاقه يصبح ماثلاً للفظ «المُناجَزة»^٢.

وكان ديوانُ الإقطاع إذا طَلَبَ منه شخصٌ أن يُقطع إقطاعاً من الإقطاعات مع
تعهد به بزيادة العِبرة الإقطاعية، تَسَلَّم الطالب ذلك الإقطاع، وفُتِّحَ عَقْد الضَّمان السابق
دون اعتبار لما بذله مقطوعها الأول في إصلاحها ووسائل زيادة عِبرتها، فأمر الوزير المأمون
البطالحي في سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م بقراءة مَنشُور بالجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع
عمرو بالقُشطاط بإنكار ذلك ومنعه وأعفى كافة الضَّمناء المعاملين من قبول الزيادة فيما
يتصرفون فيه ما داموا قائمين بأقساطهم^٣.

وواضح، من المعلومات المتوفرة لدينا، أنه حَدَثَ تطوُّرٌ في نظام الإقطاع الفاطمي
في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حيث أصبح قسمٌ من الجيش الفاطمي

^١ ابن الطوير: نزهة المفاين ٨٦، المقرئ: الخطط ١: ٨٢؛ القلقشندي: صبح ٣: ٤٨٩؛ وفيما سبق ص ٥١٨ - ٥٢١.

^٢ الخزومي: النهاج ٦٠، Cahen, Cl., «Contribution à l'étude des impôts dans l'Egypte medievale»,

JESHO V (1962), p. 261.

^٣ ابن المأمون: أخبار مصر ٢٩ - ٣١؛ المقرئ: الخطط ١: ٨٣؛ واماظ ٣: ١٨١؛ Rabie, H., op. cit., p. 28.

يتقاضى مكافأته على قاعدة إقطاعية ، وأصبح الجند المُقَطَّعون يقيمون في الأقاليم التي توجد فيها إقطاعاتهم . وتعد عملية إقامة المُقَطَّعين في الأقاليم تطوُّراً في هذا النظام^١ ، ففي القرن السابق كان الجنود الفاطميون المقيمون في الأقاليم لا يحصلون على إقطاعات ، بل إن المقيمين منهم في مصر العليا ومصر السفلى كانوا تحت قيادة « متولّى السيارات » ويتقاضون رواتبهم نقدًا ، فيذكر المُسَبِّحى في حوادث سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م رِفَق الخادم « متولّى السيارات بأَسْفَلَ الأرض » وَسَنَى الدولة حَمْد بن أُنحى التاهرتى الذى قُلِّد « جميع سِيَّارات أسفل الأرض » التى كانت فى يد رِفَق الدولة الخادم الأسود^٢ . ويدل على التطور الذى حَدَثَ فى القرن السادس ما ذكرته المصادر عن الصَّالح طَلَّاح بن رَزُوك أنه عندما جاء لنجدة الخلافة الفاطمية من الأَشْمُونيين والبَهْهَسَا فإنه استعان فى ذلك بـ « الغزبان والأجناد مُقَطَّعى البلاد »^٣ .

والى جانب دَفْع رواتب الجند على أساس قاعدة إقطاعية ، فإنه كان هناك أيضًا دَفْع لرواتب الجند على أساس نقدى . فقد كانت « الأبدال » التى تُجَهَّز كل ستة أشهر للمحافظة على عَشَقْلان يكون على رأسها أميرٌ يُعرف بـ « أمير المُقَدِّمين » كانت تُسَلَّم إليه الخريطة ، وهى تشتمل على أوراق العَرَض الخاصة بالجنود لِيَتَّق مع والى عَشَقْلان على عرض العسكر بمقتضاها ، وَيُسَلَّم إليه مبلغٌ من المال لنفقته معونة لمن فاتته النفقة من العسكر ، لأن نقباء الطوائف كانوا يُجَرِّدون من كان حاضراً من الطوائف ، ومن كان مسافراً فى إقطاعه ، فيأخذ صاحب الخريطة أوراقاً بمن سافر وهو فى إقطاعه لِيَوْصِل إليه نفقته . وكانت نفقة الأمراء مائة دينار لكل أمير ، وللأجناد ثلاثين ديناراً لكل جندى^٤ .



^١ Lev, Y., *State and Society* pp. 125-126; Brett, M., *The Origins of the Mamluk* p. 44

^٢ المسبِّحى : أخبار مصر ٢٠ ، ٥٠ Lev, Y., *op. cit.*, p. 126 وانظر فيما سبق ص ٣٢٨-٣٢٩ .

^٣ ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ١٠٨ ؛ التبريزى : نهاية الأرب ٢٨ : ٣١٩ ؛ المقرئى : اتعاظ الحنفا ٣ : ٢١٥ -

٢١٦ .

^٤ ابن الطوير : نزعة المقلتين ٤١-٤٢ ؛ المقرئى : اتعاظ الحنفا ٣ : ١٩٠ .

لا شك أنه قد حَدَثَ تَطَوُّرٌ تدرِجِيٌّ لنظام الإقطاع الفاطمي قبل زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية، فعندما أصبح شاوَرُ وزيرًا للعاقد - آخر خلفاء الفاطميين - بمعاونة جيوش نور الدين محمود، استفسد جماعةً من عسكر أسد الدين شيركوه - الذي قاد جيوش نور الدين محمود لنجدة شاوَر في مصر - منهم خَشْتَرين الكردي وأقطعهم شَطْنُوف الواقعة بإقليم الغربية^١. كما أن شيركوه فور توليه الوزارة للعاقد «أَقْطَعَ البلاد للعساكر التي قدمت معه»^٢، ولما خَلَفَهُ صلاح الدين في الوزارة «شرع في نقض إقطاع المصريين... من أجل من معه من العساكر»^٣ و«أبعد أهل مصر وأضعفهم»^٤ فأَقْطَعَ أخاه الأمير شمس الدولة توران شاه في سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م قوص وأشوان وعيذاب، وكانت عِبْرَتُها يومئذ في تلك السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار^٥. واتبَعَ صلاح الدين في ذلك الطريقة نفسها التي اتَّبَعَهَا قبل نحو مائة عام أمير الجيوش بدر الجمالي عندما أَحْلَى جنوده من الأَرَمَن محل جيوش الدولة الفاطمية، فاستولى عساكرُ صلاح الدين على ما كان بأيدي الجند المصريين من مال ودور وإقطاع، ثم قَبَضَ عليهم واعتقلهم^٦. يقول العماد الكاتب الأصفهاني :

«وشرَعَ صلاح الدين في نقض إقطاع المصريين، فَقَطَعَ منهم الدابر من أجل من معه من العساكر»^٧.

كما يذكر ابن الأثير أن صلاح الدين : «أخذ إقطاعات الأمراء المصريين فأعطاهم أهلهم والأمراء الذين معه، وزادهم، فازدادوا له حُبًّا وطاعة»^٨.

^١ أبو شامة: الروضتين ٢/١ : ٤٢٤؛ المقرئ: اتعاظ الحنفا ٣ : ٢٧٩.

^٢ نفسه ٢/١ : ٣٠٢؛ ابن خلدون: تاريخ (بولاق) ٤ : ٧٩.

^٣ نفسه ٢/١ : ٤٥٠؛ المقرئ: اتعاظ ٣ : ٣٢٢.

^٤ المقرئ: اتعاظ الحنفا ٣ : ٣١١.

^٥ نفسه ٣ : ٣١٧.

^٦ نفسه ٣ : ٣٢١.

^٧ أبو شامة: الروضتين ٢/١ : ٤٥٠.

^٨ ابن الأثير: الكامل ١١ : ٣٤٤.

ويضيف المقرئى وهو يتحدث عن وصول صلاح الدين إلى قمة السلطة في مصر

« أزال السلطان صلاح الدين بن أيوب جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأزمن وغيرهم واستجد عسكرا من الأكراد والأتراك خاصة »^١

وأصبحت أراضي مصر كلها منذ هذا التاريخ تُقَطَّع للسلطان وأمرائه وأجناده^٢.

هكذا عَرَفَ نظام الإقطاع الفاطمي (إقطاع القبالة) تعديلاً في نهاية عصر الدولة، ثم تعديلاً جذرياً على يد الأمراء الزنكيين المصاحيين لجيش أسد الدين شيركوه والذين تعوّدوا على رِبْط مَنَح الإقطاع بالخدمة العسكرية^٣. وبذلك أصبح « الإقطاع الجيشتى (أو العسكرى) » هو المصدر الرئيسى لدخل الجيش الأيوبي، وخاصة في الشام، عن طريق إقطاع الأراضي لكبار أمراء الدولة، ومنحهم حرية التصرف في إدارة شئونها وصرف عائدها مقابل إسهام المُقَطَّع في المعارك التي يُغَلِّنها السلطان. أما في مصر، فبرغم ارتباط الإقطاع الأيوبي فيها بالتقاليد السلجوقية والفاطمية على السواء، فإنه لم يتفق تماماً مع أي من النموذجين، فمن الناحية الاقتصادية كان أكثر تحرراً من إقطاع القبالة الفاطمي، بحيث إن المُقَطَّع لم يعد مُلزماً بدفع أى خراج، ولكن بمقارنته بالإقطاع الزنكى - السلجوقي فإن المُقَطَّع لم يكن له فيه أى حق إدارى حقيقى ولكنه يضمن له عائداً محدداً، وبرغم أن بعض الإقطاعات كانت تُمنَح للمستفيدين على الدوام وتبقى وراثية في عائلاتهم، فإن حالات استردادها وإعادة توزيعها تقابلنا كذلك بكثرة، وذلك دون أن نتحدث عن عملية الزوك التي كانت تتم في مصر وما يترتب عليها، وكان هذا العائد يُخَسَّب على أساس تقديرى يُعرف بـ « العبرة » على أساس وحدة حسابية تُعرف بـ « الدينار الجيشتى » تتكوّن في بعض التديرات المالية من عَيْن وغَلَّة وأصناف^٤.

^١ المقرئى: الخطط ١: ٩٤.

^٢ نفسه ١: ٩٧.

^٣ Rabie. H., *op. cit.*, p. 28.

^٤ Cahen, Cl., *Le régime des impôts*, pp. 12-13; id., *El² art. Ayyûbides I*, 825; id., *El² art. Iktâ*

. III, 1116; id., *El² art. Kabâla iv*, 338

ديوان الإقطاع [الإقطاعات]

كانت الإقطاعات التي تُمنَح للجُند في العصر الفاطمي مسئولية « ديوان الإقطاع [الإقطاعات] » (أحد أقسام ديوان الجيش) الذي كان يتولَّى تحديد ارتفاع (عِيزَة) كل إقطاع وصنفه، يقول ابن الطَّوَّير:

« إذا خَلَّت ناحية من ضامن أو كانت محلولة ورُسم لإقطاعها، عُمِل من « ديوان السَّجْلِس »^١ ارتفاعها لأربع سنين، ستين لغاية رخائها وستين لغاية جذبها بالتصقيب عن ذلك، ثم يُجمَع هذا الارتفاع لهذه المدة. ويعتمد أسعار ما يبيع فيها من القَلَّات وغيرها، فإذا اجتمع من ذلك مبلغٌ معلومٌ أُخِذَ بريعه، وإذا أراد ضامن أن يَضْمَن ناحية كانت مُقَطَّعة عمل في معدلها كذلك على أصل عِيزَتها بريعه وما يريد على هذا النحر من التَّذَلُّ^٢.

أما نَصُّ معاصره المَحْزُومى حول كتابة الجيش وديوان الإقطاعات فيُتَّسَم في العموم بالصعوبة في الفهم؛ لأنه موجَّه في الأساس إلى المشتغلين بالأعمال الديوانية، فهو يستخدم مصطلحات خاصة وتعايير مركَّزة وفي غاية الاختصار، أرهقت كل الذين تعاملوا مع نصه من قبل ولم يستطيعوا برغم كل الجهد المبذول أن يُقَدِّموا لنا نتائج واضحة^٣، يقول المَحْزُومى:

« وأما جرائد الإقطاعات فهي على خلاف ذلك، وهو أن يُقام العمل وتذكر ناحية منه وعِيزَتها وأسماء مقطعيها، وما انساق فاضلا فيها للديوان ويشطب بما تجده من الأحوال في ذلك. وأما إخراجات الأموال - والذي جرت به العادة أن يُوقَّع على رقعة السؤال بإخراج الحال - فيجيب من « ديوان الجيش » بحال السائل والمستقر من واجبه، والمقطع منه والمحلول له، ويوقع تلوهُ في ديوان الإقطاعات، فيجيب منه بما يدل عليه من حال الإقطاع؛ خاصة لأن « ديوان الجيوش » أقعد بعلم

^١ انظر فيما سبق ص ٣٤٩-٣٥٠.

^٢ ابن الطَّوَّير: نزعة المقلتين ٨٦؛ القلقشندي: صبح ٣: ٤٨٩.

^٣ Cahen. Cl., *L'armée fatimide*, p. 164.

الواجبات و « ديوان الإقطاعات » أولى بعلم البيزة والمقطع وما ينساق من الفواضل من النواحي، ثم يذكر ما يدل عليه « ديوان المجلس »؛ لأن في هذا الديوان مجلساً يقابل على ما يجرى في « ديوان الإقطاعات » من أحوال الجند وما ينساق من الفاضل، ويُؤَقَّع تلو ذلك بما يراه مَنْ إليه النظر من إقطاعه بحلول واجبه للاستقبال الذي يراه^١.

وكانت الإقطاعات تُمنَح في العصر الفاطمي الأول عن طريق مناشير (مفردها منشور)، أما في نهاية العصر الفاطمي فكانت تُمنَح عن طريق السجلات (مفردها سِجِل)؛^٢ وقد أورد على بن خَلَف المتوفى سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م صاحب كتاب « مواد البيان » نصَّ منشور بمنح إقطاع في العصر الفاطمي الأول لأفراد غير عسكريين، وعادة ما يكون هذا الإقطاع ناحية (ضَيْعَة) أو دار أو أرض، أو « تسوينغ [المقطع] ما يجرى عليه من خراج ملكه وما يجرى هذا المجرى »^٣.

كذلك أورد القلقشندي نصَّ « منشور » و « سِجَلين » من إنشاء القاضي الفاضل : المنشور الأول لأحد أولاد الخلفاء [ربما الخليفة العاضد] اسمه حسن ولقبه حسام الدين، يوعز فيه إلى ديوان الإنشاء بإقطاع ناحية كذا بحددها والمعتاد من وصفها المعاد وما يدل عليه الديوان [ديوان الإقطاع] من عِزَّتِها ويتحصل له من عينها وغلتها ... إقطاعاً لا ينقطع حكمه^٤. وأحد السجلين نسخة بإقطاع عن الخليفة العاضد لبعض أمراء الدولة، والثاني كتب به لبعض وزراء الفاطميين لم يحدد اسمه^٥.

^١ المخرومي: المنهاج ٧١.

^٢ منشور (جـ. مناشير). كل وثيقة أو مكتوب لا تحتاج إلى ختم أي منشورة غير مطبوعة. أما السجل (جـ. سجلات) فهي المكتابات الصادرة من ديوان الإنشاء باسم الخليفة وموجهة إلى أرباب الوظائف الكبار أو ملوك الدول الأجنبية أو كبار رجال الدولة الإسلامية لإبلاغ حادثة من الحوادث أو بمنح لقب لأحد أرباب الوظائف أو بمنح إقطاع. (ابن

الصرفي: القانون في ديوان الرسائل ١٦ هـ).

^٣ على بن خلف: مواد البيان ٦٣١-٦٣٢؛ القلقشندي: صبح ١٣: ٣١-١٣٢.

^٤ القلقشندي: صبح الأعشى ١٣: ١٣٢-١٣٨.

ديوانُ الجيش

عُهدَ بإدارة الجيش الفاطمي إلى ديوان عرف بـ «ديوان الجيش»^١، وقَسَمَ الفاطميون هذا الديوان إلى ثلاثة أقسام: قسم يختص بالأجناد وعددهم وشيات دوابهم، وقسم يختص بضبط إقطاعاتهم، وقسم ثالث يختص بمعرفة رواتب وجواميك كل موظف في الدولة^٢. كان القسم الأول وهو المعروف بـ «ديوان الجيش» يتولاه مُشتَوَف أصيل لا يكون إلا مسلماً ويكون في خدمته نقباء الأمراء الذين يُثْنون إليه أخبار الجند من حياة وموت وصحة ومرض^٣. والقسم الثاني المعروف بـ «ديوان الإقطاعات» كان مختصاً بتحديد ارتفاع (عِثْرَة) كل إقطاع وصنفه، وكان صاحب «ديوان المجلس» - الذي يُعَدُّ أصل الدواوين - هو المتحدث في الإقطاعات ويُخْلَع عليه وينشأ له سجلٌ بذلك^٤. والقسم الثالث: هو «ديوان الرواتب» وكان يشتمل على أسماء كل مرتزق في الدولة، وفيه كاتب أصيل ونحو عشرة من المُعينين والمُبيّضين وفيه ثمانية عروض تحوى جميع أرباب الدولة^٥.

ولا نجد عند ابن الطُّوَيْرٍ مصدر هذه المعلومات، تفاصيل عن طبيعة العمل داخل ديوان الجيش، ولكن معاصره المَحْزُومِي - الذي عاصر نهاية الدولة الفاطمية وخدم في دولة الأيوبيين - يمدنا ببعض التفاصيل التي لا نستطيع للوهلة الأولى أن نُحدِّد إن كانت تتعلق بالنظام الفاطمي المنقضى أم بالنظام الأيوبي الجديد. فهو يذكر صراحةً أن «كتابة الجيش التي كان كُتَّاب المصيرين يعتمدون عليها .. فيها من الرسوم والتقسيمات

^١ المحزومي: المنهاج ٦٤-٧٢؛ ابن الطوير: نزعة المقلتين ٨٢ - ٨٣؛ المقرئ: الخطط ١: ٩٤، ٤٠١؛ واتماط الحنفا

٣: ٣٣٩-٣٤٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٤٨٨-٤٨٩، ٥٢١.

^٢ القلقشندي: صبح ٣: ٥٢١.

^٣ ابن الطوير: نزعة المقلتين ٨٢.

^٤ القلقشندي: صبح ٣: ٤٨٩-٤٩٠.

^٥ ابن الطوير: نزعة ٨٣-٨٥؛ القلقشندي: صبح ٣: ٤٩١، ٥٢١-٥٢٣؛ المقرئ: الخطط ١: ٤٠١-٤٠٢.

والاتماط ٣: ٣٣٩-٣٤٢.

والأحكام والإقطاعات ما قد دَرَسَ رسمه. وذهب حكمه إلا يسير...^١. وبعد ذلك يذكر المَخْزُومى أن رسوم ديوان الجيش بالديار المصرية تجتمع فى أربع جهات ، ولا شك أن حديثه يربط بين النظام القديم والنظام الأيوبي الجديد ، فمن المؤكد أن مصطلحات مثل الصُّبَّان الحُجْرِيَّة والرَّمَجِيَّة وديوان المَجْلِس الوارد ذكرها فى نَصِّ المَخْزُومى تتعلّق بالمعصر الفاطمى ، كما أن الإقطاع الجيشى يتعلّق دون جدال بالمعصر الأيوبي

وتنحصر الطرق الأربع التى ذكر المَخْزُومى أنها تجمع رسوم ديوان الجيش بالديار المصرية فى : الإنفاق الواجب ، وإيجاب المشافرة ، والإقطاع الجيشى ، وإقطاع الاعتداد^٢. ولا يهتم المَخْزُومى فى هذا النَصِّ بذكر أصل الراتب بل حرص فقط على ذكر نسبة الاقتطاعات منه - وهو الغرض من هذا الباب - ولا نستطيع أن نجزم إن كان هذا الاقتطاع نتيجة لتدابير مالية غير معروفة أو متعلّق بواجب الزكاة التى يتعين على المسلمين دفعها ، فالمؤلف لا يذكر أى شىء عن ذلك .

يكون « الإنفاق الواجب » للحجّريّة المرسومين بالحجر^٣ ، ويقتضى هذا الإنفاق خصم أو اقتطاع من رواتبهم يتم بطرق ثلاث : الأول من الوزن وهذا النوع لا نقص فيه ولعل المقصود به أنهم يتقاضون رواتبهم وزناً وليس عُدّاً . والثانى اقتطاع من « العدد الثقيل (أو الثقيل) » - وهو مصطلح غير واضح ولم يشرحه المَخْزُومى - وهذا الاقتطاع بنسبة ٥٪ على حساب قيراط وخُمُس عن كل دينار^٤ ، وعادة ما يجبر كُتّاب الجيش الكُثْر فى هذا الحساب . والثالث اقتطاع شبيه بالنوع الثانى ولكن مع تطبيق قاعدة حسابية أخرى ، فالنسبة المقتطعة هنا هى ستة دنانير وثلثان من المائة ٢,٣ من حساب

^١ المَخْزُومى : النهاج ٦٤ .

^٢ نفسه ٦٤ .

^٣ انظر فيما سبق ص ٦٨٢-٦٨٣ .

^٤ ينقسم الدينار إلى ٢٤ قيراطاً ، والقيراط عُشَّة حسابية نظرية لمرة القيمة الحقيقية لمختلف السلع تساوى حتى شحير مقلومة الأطراف ، والحبة تساوى ثلاثة دنانق .

قيراط وثلاثة أخماس من كل دينار . ويذكر المَخْزُومى أن هذا النوع من الاقتطاع كان يُطَبَّق على الطائفة المعروفة بـ « الرَّهْجِيَّة » ومن يجرى مجراهم - وهم جماعة كانت تخدم أمام الخليفة فى المواكب الاحتفالية ، وأحياناً كانت تخدم أمام الوزير فى بعض الاحتفالات . كما كانت تقوم بنفس العمل إذا رَكَّب الخليفة عُشارى فى النيل ، كما كانوا يتولَّون حراسة القصر الفاطمى ومنظرة اللُّؤْلُؤَة عندما يتواجد بها الخليفة ^١ . وكان لهم زمام يعرف دائماً بسنان الدَّوْلَة بن الكَرْكَنْدى كان يتلقى الخَلْع فى المناسبات عن زَمِّ الرَّهْجِيَّة والمبيت على أبواب القصور ^٢ .

وأحياناً ما كان أرباب الإنفاق يحصلون على رواتب عينية سَمَّاها المَخْزُومى « الجِرايَة » و « القَضِيم » . ويمكن أن تكون « الجِرايَة » خبزاً أو قمحاً . وفى حالة دفعها خبزاً لم تكن متساوية لجميع أرباب الإنفاق ، فقد كان هناك جماعة لها الحق فى « وظيفتين » - أى حصَّتَيْن - وجماعة لها الحق فى « وظيفة واحدة ونصف » ومنهم من له « وظيفة واحدة » ويطلق على ذلك فى الديوان « قَدْر الجِرايَة » . أما من تطلق جرايته قمحاً فتكون فى الشهر التام ثلث أردب ، أما فى الشهر الناقص فتكون رُبْع ونصف ثمن أردب . أما « القَضِيم » (الشعير) فكان يوزَّع كل يوم على شكل أنصبة يبلغ كل منها نصف وِثِيَّة ^٣ .

و « أرباب الإيجاب » هم ، كما ذكر المَخْزُومى « أرباب الحِدْم التى لا تستقر على حال لما يتخلَّل ذلك من التولية والصُّروف والزيادة والنقص » ، أى إنهم جنود مؤقتون كانوا يؤدُّون بعض الخدمات لفترات محدَّدة ، فكان يوجب لهم فى كل شهر استحقاقهم بقدر المباشرة ، مثلهم مثل أرباب الرُّواتب . كانت هذه المعاملة تجرى أساساً فى ديوان الجيش ،

^١ ابن المأمون : أخبار مصر ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ٩٩ .

^٢ نفسه ٥٤ المقريزى الخطط ١ : ٤١٢ ، ٤٦٢ ، ٢ : ٢٨ ، ٣٨ .

^٣ المَخْزُومى : النهاج ٦٨ .

ثم انتقلت إلى ديوان **خُصِّصَ** لذلك هو «ديوان الرواتب» الذى أصبح فرعاً لديوان الجيش ثم انتقل، فى تاريخ نجهله، وأصبح فرعاً لديوان المجلس الذى كانت تجرى فيه معاملات الأموال^١. وكل ذلك دون شك فى العصر الفاطمى.

وكان ديوان الجيش يدفع راتباً شهرياً للأجناد المستخدمين فى المراكز والمعروفين بـ «المُزَكَّرِيَّة»^٢، وقد ذكر ابن المأمون هؤلاء المُزَكَّرِيَّة فى حوادث عام ٥٠٩ هـ/١١١٥، وكان يتولَّى أمرهم والى الشرقية، وذلك لمواجهة بلدوين ملك الفرنج الذى وصَلَ إلى القُرْمَا فى هذه السنة^٣. كما كان هناك كذلك جنودٌ من المُزَكَّرِيَّة فى القُلْزُم وفى عَشَقْلان لمواجهة الفرنج^٤، أما أشوان فقد رابط فيها رجال من العسكر مستعدون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان، وذكر المقرئى أن ذلك أقبل بعد زوال الدولة الفاطمية^٥. ويضيف المقرئى إنه كان بكل مركز نائب عن ديوان «القرض» - الذى ربما كان فرعاً لديوان الجيش - كانت مهمته إثبات صلاحية هؤلاء الأجناد المستخدمين أمام مجلس الحرب واستمرار خدمتهم وذلك فى سِجِلٍ مفرد يثبت فى آخره عدد المستمرين منهم يعتمدونه متولَّى الحرب ويرفع بعد ذلك إلى متولَّى ديوان الرواتب لصرف استحقاقه، أما الأجناد المُزَكَّرِيَّة التى كانت تجب لهم رواتب عينية فى شكل «جراية» فكان لهم «خَرْج» مفرد إلى جانب «خرج الإيجاب» يشتمل على ما يجيب اقتطاعه منسوباً إلى ستة (٦). أما الأجناد الذين كانوا يُجَزَّدون إلى الثغور الشامية - وذلك فى العقود الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية - فكان يُطَبَّق عليهم نفس

^١ المقرئى: للنهاج ٦٨-٦٩.

^٢ نفسه ٦٩ وفيما سبق ص ٦٤.

^٣ ابن المأمون: أخبار مصر ١١٣ المقرئى: المخطوط ١: ٢١٢.

^٤ المقرئى: المخطوط ١: ٢١٣ ص ٨.

^٥ ابن الطوير: نزهة المقلتين ٤١.

^٦ للمقرئى: المخطوط ١: ١٩٨.

نظام الإقطاع السابق ولكن يستعوضون عن ذلك بتدّل قيمته عشرة دنانير عدد مقابل إقامتهم في هذه الثغور^١.

أما « الإقطاع الجيشي » فيذكر المَخْزُومى أن له مُحْكَمين : مُحْكَم هلالى و مُحْكَم خراجى . وواضح أن نصّ المَخْزُومى يرتبط بالعصر الأيوبي ، فالإقطاع الجيشى عرف فى مصر مع وصول الجيش التركى الكُرْدى المصاحب لشيركوه وصلاح الدين ، فمصر فى العصر الأيوبي كان لها وَضْع خاصّ يختلف عما كان سائداً فى الشرق فى هذه الفترة^٢.

والجهة الأخيرة من رسوم ديوان الجيش التى ذكرها المَخْزُومى هى « إقطاع الاعتداد »^٣ الذى يذكر ابن الطوير أنه مختص بالعربان وكان يقع عادة فى أطراف البلاد ، وهو مائة دينار على كل ألف دينار مقبوضة^٤ ، وهو فى الوقت نفسه إقطاعاً جماعياً ويعنى طريقة فى دفع الرواتب لمجموعة من العربان بواسطة زعيم لهم^٥.

^١ المَخْزُومى : المنهاج ٦٩ .

^٢ فيما سبق ص ٨٧-٨٩ .

^٣ المَخْزُومى : المنهاج ٦٩ .

^٤ ابن الطوير : نزعة المقاتلين ٨٦ .

^٥ Cahen, Cl., *op. cit.*, pp. 171, 178 .

الفصل التاسع عشر

البحرية الفاطمية

في دراسته عن دور المسلمين في حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية ذكر حسين مؤنس أن الفاطميين كانوا أعظم دول الإسلام اهتمامًا بشئون البحر بعد الأمويين ، وأن بحريتهم بلغت درجة هائلة من القوة والانتظام قبل أن ينتقلوا إلى مصر^١.

البحرية الفاطمية في شمال إفريقيا

فقد كان للفاطميين منذ وصولهم إلى شمال إفريقيا سياسة توسعية تعتمد على أطماعهم في شرق وغرب البحر المتوسط ، وقد أكسبت هذه السياسة دولتهم من أول الأمر نزعة بحرية . فمنذ أن دخل الداعي أبو عبدالله الشيعي إلى رقادة قبل قيام الخلافة الفاطمية ، حرص على أن يُعلن باسم الإمام المهدي عن هذه النوايا التوسعية في نسخة « الأمان » التي وجهها إلى أهل صقلية^٢.

وورث الفاطميون هذه النزعة البحرية عن أسلافهم الأغالية الذين كانوا يملكون أسطولاً حربيًا تعزز أكثر فأكثر بفضل صقلية والجهاد ضد يزنطة ورعاياها في صقلية وجنوب إيطاليا . وقد ظل الأسطول الأغالي الراسي على الأخص في شوشة وتونس ويلزم سليمًا بعد هروب زيادة الله آخر ملوك الأغالية^٣.

وما لبثت صقلية أن ثارت على حكام إفريقية الجدد ، ولكن الخليفة المهدي حرص منذ اعتلائه عرش رقادة على تنظيم الأسطول الحربي الذي كان تحت تصرفه في سواحل

^١ حسين مؤنس : « المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية » ، المجلة التاريخية المصرية ٤ ، (مايو

١٩٥١) ١٠٦ .

^٢ Dachraoui , F., *op. cit.*, p. 382

^٣ Ibid ., p. 382-83

إفريقية، وانتهج ضد صِقلِيَّة سياسةً هجوميةً أدَّت في النهاية إلى إخضاعها^١.

فلأول مرة أنشئ حوض سفن ضخمة فيه قسمان جافان على الأقل في العاصمة المَهْدِيَّة. وبعد وقت قصير جدًا كان فيه ٩٠٠ سفينة حربية، وسرعان ما انشغل هذا الأسطول القوي بهجمات واسعة النطاق بعيدة الأثر على الموانئ الإيطالية حتى جنوا وعلى الأنحاء الغربية للبحر المتوسط. ونجدد الإشارة إلى أن الأسطول الفاطمي لم يصطدم بأسطول الأندلس القوي مثله، فقد كان الفاطميون يحاولون عند قيام دولتهم أن يصلوا إلى السوق الإيطالية مباشرةً على حساب صِقلِيَّة وبدون الدخول في أى صراع لا لزوم له مع الأندلس^٢.

وقد تابع الخلفاء الفاطميون - بعد المهدي - سياسته البحرية، وخاصة فيما يتعلق بإنشاء القواعد البحرية في حوض البحر المتوسط، فقد رأى المعز لدين الله أن قاعدة المهديّة ودار الصناعة بها لا تفيان بمطالب الأسطول الفاطمي فعمل على تجديد قاعدة مدينة سوسة التي يحيط بها البحر من ثلاث جهات وتكثر بقرىها الحجارة التي تحميها من الأمواج. وعُدَّت سوسة بفضل إصلاحات المعز قاعدة ثانية للأسطول الفاطمي في إفريقية.

هكذا أصبح للفاطمين بإفريقية في عهد المعز ميناءان هامين يعتمدان على دور الصناعة فيهما في صناعة السفن وتعميرها؛ كما كان للأسطول الفاطمي في عهد المعز وحدات ترابط في موانئ صِقلِيَّة ويُسْرَف عليها ولاتنها^٣.

والوصف الوحيد الذي وَصَلَ إلينا للأسطول الفاطمي وضعه شاعران هما ابن هاني الأندلسي ومعاصره الإيادي. وقد جاء هذا الوصف في غاية العموم يتضمن معلومات

^١ . Dechraoui, F., *op. cit.*, p. 383

^٢ . Shaban, A., *Islamic History*, Cambridge 1976, p. 192-93

^٣ صابر دياب: سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط ١٠١ - ١٠٢.

غامضة جدًا وغير كافية . فيصف ابن هانئ الأندلسي الأسطول الفاطمي الذي قَرَضَ سيطرته على الحوض الغربي للبحر المتوسط من قصيدة يمدح فيها المعز بقوله^١:

لَكَ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ الْغَطَمُ غُبَابُهُ فَسَيَانُ أَغْمَارٍ تَخَاضُ وَبِيدُ
أَمَّا وَالْجَوَارِي الْمُنَشَّاتُ الَّتِي سَرَتْ لَقَدْ ظَاهَرَتْهَا عُذَّةٌ وَعَدِيدُ
قَبَابٌ كَمَا تُزْحَى الْقَبَابُ عَلَى الْمَهَا وَلَكِنْ مَا انْضَمَّتْ عَلَيْهِ أَسُودُ
وَلِلَّهِ مِمَّا لَا يَرُوزَنَ كِتَابُ مُسَوِّمَةٍ تَحْدُو بِهَا وَجُنُودُ
وَمَا رَاغَ مَلِكُ الرُّومِ إِلَّا أَطْلَاعُهَا تُنَشِّرُ أَعْلَامَ لَهَا وَيُنُودُ
عَلَيْهَا غَمَامٌ مُكْفَهَرٌ صَبِيرُهُ لَهُ بَارِقَاتٌ جَمَّةٌ وَرُعودُ
مَوَاحِشُ فِي طَامِي الْعُقَابِ كَأَنَّهُ لَعَزَمَكَ بَأْسٌ أَوْ لَكَفَّكَ جُودُ
أَنَافَتْ لَهَا أَغْلَامُهَا وَسَمَا لَهَا بِنَاءٌ عَلَى غَيْرِ الْعِرَاءِ مَشِيدُ
إِذَا زَفَرَتْ غَعِظًا تَرَامَتْ بِمَارِجٍ كَمَا شُبَّ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ وَقُودُ
فَأَنفَاسُهُنَّ الْحَامِيَاثُ صَوَاعِقُ وَأَقْوَاهُهُنَّ الزَّافِرَاثُ حديدُ

وتدلنا الرسائل والتوقيعات المتبادلة بين الخليفة المعز وكاتبه جُوذَرُ الصُّقْلَبِيِّ والتي حُفِظَتْ فِي «سيرته» على مدى الاهتمام بأمر الأسطول . فيدور قسم كبير منها حول تدير حاجيات ولوازم الأسطول والعمل على مَرَمَّةِ حصون السواحل وتعمير أو صيانة موانئ ودور صناعة المَهْدِيَّةِ وشوطة والمنصورة ، وطلب تشديد الحراسة في البحر لحماية سواحل الدولة في إفريقية من غارات الأعداء ومفاجأتهم خاصة الدولة البيزنطية والأمويين بالأندلس^٢.

وكان المشرف على قاعدة المهديّة البحرية يسمى «صاحب البحر» أو «متولى البحر» ، ويرجع إليه جميع القواد المشرفين على وحدات الأسطول الذي كان هو ذاته

^١ ديوان محمد بن هانئ الأندلسي، تحقيق محمد الطلاوي، بيروت - دار الغرب الإسلامي ١٩٩٤، ٩٢-٩٣.

^٢ سيرة الأستاذ جودر ٩٧-٩٥، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٨ صابر دياب: المرجع السابق ١٠٣-١٠٥.

تحت إمرة الأستاذ جوذر كاتب المعز لدين الله^١.

وقد أدت سيطرة الفاطميين على جزيرة صقلية إلى تيسير حصولهم على الحديد ولوازم السفن من مناجم ومصانع بلرم، كما حصلوا على الحديد والفضة والرصاص من مناجم مدينة منجانة بالمغرب^٢.

ورغم أن الجيش الذى قُتِعَ مصر بقيادة جوهر الصُّقْلِي سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م كان جيشاً برّياً، فإن الحملة التى هاجمت مصر سنة ٣٠٧هـ / ٩٢٠م كان يغلب عليها الطابع البحرى وكانت بقيادة أحد أمراء البحر فى الأسطول الفاطمى. فاشتراك فيها قوات بحرية من أسطول شمال إفريقيا وأسطول صقلية الفاطميين^٣.

البحرية فى مصر والشام

قبل العصر الفاطمى

كانت صناعة السفن فى مصر وخاصة السفن الحربية من أهم الصناعات فى فجر الإسلام. وكان للمصريين الفضل الأكبر فى عظمة البحرية الإسلامية وكانت تعتمد عليهم الخلافة فى إنشاء أسطولها الحربى.

ويرجع إلى الخليفة الأموى الأول معاوية بن أبى سفيان الفضل فى إعادة افتتاح دور الصُّنَاعَةِ المصرية التى طُوِّرها ونَمَّأها بعد ذلك ولاية مصر المستقلين ابتداء من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى^٤. وأقيمت أول دار للصناعة فى مصر الإسلامية على ضفاف جزيرة مصر (الروضة) سنة ٥٤هـ / ٦٧٤م تبعاً لما يؤكد الكندى^٥. وأصبحت الجزيرة

^١ Dachroui, F., *op. cit.*, p. 392-93.

^٢ صابر كذاب: المرجع السابق ١٠٧.

^٣ نفسه ١٠٦.

^٤ Colin, G. S et Cahen, Cl., *El*², art. *dâr al-sinâ'a* II, p. 33.

^٥ ابن دقماق: الاختصار ٤: ١٠٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى ٣: ٢٣٥؛ المقرئ: الخطط ٢: ١٧٨، ١٩٦.

تعرف منذ هذا التاريخ بـ « جزيرة الصنّاعة » جنبًا إلى جنب مع اسمها الأول « جزيرة مصر ». وقد أنشئت هذه الدور في أعقاب هجوم الأسطول البيزنطي على مدينة البيرلوس في العام السابق ومُنح فيه المسلمون بخسائر كبيرة^١.

كانت صنّاعة بناء السفن في أول الأمر تتم في مصر، وكان لِقَبْط مصر الفضل في بنائها وتشبيد دور الصنّاعة في مصر وتونس والشام، فقد استعان حَسَّان بن النعمان، والي إفريقية من قبل عبد الملك بن مروان، بألف من أَقْباط مصر لإنشاء دار صنّاعة فيها.

وبما أن العرب عند ظهور الإسلام لم يكونوا شعبًا بحريًا، فإنهم استخدموا في غزواتهم البحرية شعوب الأمم التي فتحوها والتي كانت لها خبرة بركوب البحر، وقد أفاد العرب من خبرة المصريين البحرية ومن العمال المصريين استفادة كبيرة فأصبحت مصر عقب الفتح مركزًا لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة وأصبحت تمد هذا الأسطول بخيرة الملاحين والعمال المصريين^٢.

ولكن الأسطول المصري بمعنى الكلمة لم ينشأ إلا في عصر الوالي عُبَيْسَة بن إسحاق (٢٣٨-٤٢٢هـ/٨٥٢-٨٥٦م) بعد أن تَغَلَّب البيزنطيون على دِمَياط في سنة ٢٣٩هـ/ ٨٥٤م، فأمره الخليفة العبّاسي بإنشاء الشّوانى برسم الأسطول، في نفس الوقت الذي أخذ يَدْعَم فيه جميع موانئ ساحل البحر المتوسط^٣. وفي سنة ٢٦٣هـ/ ٨٣٧م أمر الخليفة العبّاسي المَعْتَمِد والي مصر أحمد بن طولون بتوسيع دار صنّاعة الجزيرة وتحصين الجزيرة نفسها ببناء حصن بها. وقد حفظ لنا ابن سعيد المغربي نَصًّا يأمر فيه أحمد بن طولون متولى دار الصنّاعة بأن لا يَدَّخِر وسقًا في سبيل إنشاء السفن القوية^٤.

^١ المقرئى: الخطط ٢: ١٩٠.

^٢ سيده إسمايل كاشف: مصر في فجر الإسلام ٩٢-٩٣.

^٣ المقرئى: الخطط ١: ٣٤٦، ٢: ١٢٠-١٩١.

^٤ نفسه ٢: ١٧٨، ١٨٠ - ١٨١ ابن سعيد: المغرب ٩٤-٩٥.

وفي أعقاب سقوط الدولة الطولونية تأكد أبو موسى تكين، أحد ولاة القبايين الذي تولّى حكم مصر أربع مرات بين سنتي ٢٩٧هـ/٩١٠م و٣٢١هـ/٩٣٣م، في خلال صراعه ضد محاولات الفاطميين الأولى قُحح مصر التي وصلت إلى الشاطئ الغربي للنيل في مواجهة القُشَطاط، أن المقاومة الحربية التي تقع قيادتها في القُشَطاط يمكن أن يُقضى عليها بفقد دار الصنّاعة الرئيسية الواقعة في وَسَط النيل حيث أن هذه الدار لم تكن مُحصّنة بما يكفي بسبب وضعها على شاطئ الجزيرة^١.

وقد تحقّقت توقّعات تكين سريعاً في سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م عندما أصبح محمد بن طُغج الإخشيد والياً على مصر. فقد قامت مجموعة من المتمردين بالاستيلاء على أسطول ابن طُغج في الفيوم واستخدموه في الهرب إلى الإسكندرية ومنها إلى بَرْقَة وإحراق دار صِنّاعة الجزيرة^٢. وأمر ابن طُغج ببناء دار صِنّاعة جديدة على الشاطئ الشمالي للقُشَطاط في الموقع المعروف بدار بنت الفُتُح. وافتتح ابن طُغج دار الصنّاعة الجديدة سنة ٣٢٥هـ/٩٣٧م^٣.

في العصر الفاطمي

وفور انتقال الخليفة الفاطمي المُعزّ لدين الله إلى مصر بدأ اهتمام الفاطميين بأمر الأسطول وذلك بغرض مواجهة خطر القرامطة على الشام ومصر ولحماية سواحل الدولة الفاطمية من أنطاكيا إلى الإسكندرية من غارات البيزنطيين^٤؛ كما أن المُعزّ لدين الله كان ينوى الدخول في مغامرات جديدة مع البيزنطيين في النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط بعد أن ضمن التفوق الفاطمي في النصف الغربي من هذا الحوض.

^١ المقرري: الخطط ١: ٣٢٧-٣٢٨.

^٢ ابن سعيد: المغرب ١٦-١٦١.

^٣ نفسه ١٢٣، ١٦؛ المقرري: الخطط ٢: ١٨١، ١٩٧.

^٤ حسين مؤنس: المرجع السابق: ١٠٤.

يقول ابن الطُّوَيَّر وهو يتحدّث عن عناية الفاطميين بالأساطيل وحفظ الثغور :

« أما اهتمامهم بالأساطيل والأجناد وحفظ الثغور ، واعتناؤهم بأمر الجهاد فكان من أهم أمورهم ، وأجل ما وقع الاعتناء به عندهم ، وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام حين كانت بأيديهم قبل أن يغلبهم عليها الفرنج »^١.

وقد بَلَغَ عددُ مراكب الأسطول الفاطمي في خلافة المُعِزِّ ما يزيد على ستمائة قطعة بحرية ما بين شَوَانِي ومُسَطَّمَحَاتٍ وَحَمَالَاتٍ ومراكب نيلية^٢ ، وذكر الرُّخَالَةُ الفارسي ناصر خُشَرُو الذي زار مصر سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٦ م أنه شاهد السفن التي حضر بها المعز إلى مصر سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣ م في مكان قرب القاهرة ، وهي سبع سفن طول الواحدة مائة وخمسون ذراعاً وعرضها سبعون^٣.

دور الصّناعة في العصر الفاطمي

كان بمصر في العصر الفاطمي خمس دور للصناعة ، منها دور كانت موجودة قبل قدوم الفاطميين إلى مصر (في دِيَمِيَاط والإسكندرية والقُسْطَاط) وأخرى استحدثت في العصر الفاطمي ، فيذكر المؤرِّخ الشيعي يحيى بن أبي طَلْحٍ أن المُعِزَّ لدين الله هو الذي أنشأ دار الصّناعة التي بالمَقْصِ^٤ (موضع ميدان رمسيس الآن) وأنه أنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها في البحر في ميناء^٥. ويذكر ابن زولاق - معاصر المُعِزَّ - أن الخليفة المُعِزَّ لدين الله ركب في شوال ٣٦٢هـ / ٩٧٢ م إلى المَقْصِ وأشرف على أسطوله وقرأ عليه وعَوَّذَه وَخَلَّفَهُ القائد جَوْهَر والقاضي الثُّغَمَان ووجوه أهل البلد ثم عاد إلى قصره^٦.

^١ ابن الطوير : نزعة المقتلين في أخبار الدولتين ٩٥.

^٢ القلقشندي : صبح الأعشى ٣ : ٥١٩.

^٣ ناصر خسرو : سفرنامه ٨٧.

^٤ المقرئى : الخطط ٢ : ١٩٥ ، اتماط الحنفا ١ : ١٣٩ ، ٢٩ : ٢٩٥.

^٥ ابن الطوير : نزعة المقتلين ٩٤.

^٦ المقرئى : الخطط ١ : ١٣٩.

كان المَقْس ميناءً قديمًا على النيل، عُرف بالمَقْس لأن العاشر - وهو صاحب المكس - كان يجلس به فقبل له المكس ثم قلبت الكاف قافًا فقبل المَقْس^١. ولا نعرف شيئًا كثيرًا عن دار صناعة المَقْس بعد المِعز لدين الله، ويبدو أن الموضع استخدم كميناء للقاهرة لجلب ما يحتاج إليه القصر الفاطمي، فيذكر المؤرخ المُسَبِّحِي في حوادث ربيع الآخر سنة ٤١٥هـ/ يوتية سنة ١٠٢٤م أن مراكب مملوكة قمحًا وصلت إلى ساحل مصر الفسطاط، فرُئي نُقل ما فيها إلى القصر الفاطمي، فأمر بأن تصل إلى المَقْس مما أدى إلى ارتفاع الأسعار وزيادة الغلاء في هذا العام^٢.

أما دار صناعة الفسطاط التي أقامها محمد بن طُفَّج الإخشيد في سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م فقد استمرت تعمل طوال العصر الفاطمي. وقامت هذه الدار بصناعة أسطول ضخمة سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م ليرسله الخليفة العزيز بالله إلى طرابلس الشام بقصد عَزَقَةَ البيزنطيين ومنعهم من التوغل في بلاد الشام. ولكن هذا الأسطول الكبير الذي كان على أهبة الاستعداد للرحيل إلى هدفه لم يلبث بعد أيام قليلة من إعداده وشحنه في ربيع الأول سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م أن تعرَّض للحريق مدمر. وقد أورد لنا خبر هذه الواقعة مؤرخان متعاصران هما المُسَبِّحِي ويحيى بن سعيد الأنطاكي^٣. وفي الوقت الذي ذكر فيه الأنطاكي أن الحريق أصاب الأسطول في صناعة مصر وَهَمَّ المُسَبِّحِي وجعل ذلك في صناعة المَقْس. وقد شُيِّت النار في دار صناعة مصر في ٢٤ ربيع الآخر سنة ٣٨٦هـ فاحترقت خمس عُشاريات امتدت السنة النيران منها إلى بقية سفن الأسطول، فأنت النار على ما في الأسطول من العدد والسلاح، ولم تنج من هذا الحريق سوى ست سفن فارغة. واتهم بالتسبب في هذا الحريق مجموعة من الروم من تجار مدينة أمالفي Amalfi

^١ المقرئى : الخطط ٢ : ١٢١.

^٢ المسبَّحِي : أخبار مصر ٣٩.

^٣ المسبَّحِي : نصوص ضائعة من أخبار مصر ١٥-٤١٦ يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخ ١٣٨-١٧٩.

الإيطالية كانوا يقيمون مع بضائعهم في القسطنطينية في مبنى متخصص يعرف بـ «دار مائلك» كان يقع في حُطَّ الرقائين . وقد نهبت العامة هذه الدار بما فيها من ثروات وقتلوا منهم أكثر من مائة رجل طرحوا جثثهم في الطرقات وقبضوا على الباقين وحبسوهم بدار صناعة مصر . وقد اعترف هؤلاء الروم في محضر من الوزير عيسى بن نسطورس ويانس الصَّقَلِيُّ ومسعود الصَّقَلِيُّ متولّي الشرطة بأنهم أحرقوا الأسطول^١ .

وقد أمر عيسى بن نسطورس الصُّنَّاع في دار الصناعة بإعداد عشرين مركباً جديدة في الحال وطَرَحَ لهم الأخشاب اللازمة ، وأصدر أمره باستحضار الأخشاب الموجودة عند التجار ، ولم يدع عند أحد خشب علم به إلا أخذته منه . ولم تمض على حادث الحريق المذكور شهر ونصف حتى تم صناعة مركبين جديدين في غاية الكبر طرحها الصُّنَّاع بين يدي الوزير في ٧ جمادى الآخر ، وفي غرة شعبان طرحوا بين يديه أربع مراكب كبار من المنشأة نفسها ، غير أن هذا الأسطول الجديد الذي أبحر إلى أنطرسوس بقيادة رشيق العزيزي لنجدة القائد الفاطمي منجوتكين ، لم يلبث أن تعرض لعاصفة عاتية حطَّمته بالقرب من ميناء طرابلس الشام وأسر الروم بعض رجال^٢ .

ويندو من نصِّ لابن المأمون أن السفن كانت تُنشأ كذلك في صناعة الجزيرة إلى أيام الخليفة الأمر بأحكام الله في مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، فيذكر أن وزيره المأمون البطائحي (٥١٥ - ٥١٩ هـ) أنكر ذلك وأمر أن يكون إنشاء الشوانبي والمراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر وأضاف إليها دار الزيب وأنشأ بها منظره لجلوس الخليفة يوم استعراض الأسطول ، وأقر بأن الحرايب والشلنديات هي التي تنشأ فقط في الصناعة بالجزيرة^٣ .

^١ يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخ ١٧٨ .

^٢ نفسه ١٧٨ .

^٣ ابن المأمون : أخبار مصر . ١٠٠ - ١٠١ ، المقرئ : الخطط . ١ : ٤٨٢ ، ٢ : ١٩٧ .

توفير الأخشاب اللازمة لصناعة السفن

اهتمت الدولة الفاطمية بتوفير الأخشاب الضرورية لصناعة السفن اللازمة للأسطول من الحراج، وهى أشجار الشنط الكثيرة التى كانت تنمو فى أعمال البهتساوية وسفط والأشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية. كما كانت تتخذ لها حُرَاسًا يحمونها، وكانت الدولة تستغل أخشاب هذه الأشجار فى صناعة الأساطيل، وتحفظها فى حواصل خاصة بالآت السفن، وبسبب ذلك ارتفعت أثمان أعواد الشنط حتى إن العود الواحد منها كان يصل ثمنه إلى مائة دينار. وفرضت الدولة على سكان النواحي المذكورة ضريبة يقال لها «رَشم الحراج» نظير ما كان يُشَمَّح لهم به من قَطْع أطراف أشجار الشنط التى لا تصلح لعمل مراكب الأسطول، والتى كان يتنفع بها فقط فى الوقود^١.

وكان قَطْع أخشاب الشنط وجرها إلى السواحل لصناعة السفن يتم فى شهر برمودة (مايو) من كل سنة ٢. ولم تكن الأخشاب المحلية تكفى وحدها لصناعة السفن اللازمة للأسطول الفاطمى، ولذلك اعتمدت مصر الفاطمية على ما كان يرد إليها من أخشاب الصنوبر الصقلية أو المغربية، بالإضافة إلى ما كانت تحمله منه سفن البنادقة إلى الإسكندرية، ولقد احتج الإمبراطور البيزنطى على دوق البندقية لإمداده المصريين بالأخشاب، فأمر الدوق بوقف بيع الأخشاب التى تصلح لصناعة السفن والاكتفاء ببيع أشجار اللبغ والسنديان، على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف القدم^٣.

^١ المقرئى: الخطط ١: ١٦٦.

^٢ ابن عمادى: قوانين الدواوين: ٢٥.

^٣ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية ٩٣-٩٤.

دور الأسطول الفاطمي في مصر والشام

لم تذكر المصادر أن الأسطول الفاطمي شارك في عملية فتح مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، فلم يصل الأسطول الفاطمي إلى مصر من إفريقية إلا في رمضان سنة ٣٦١هـ/ يولية ٩٧٢م^١، وأقلع عن مصر إلى سواحل الشام بغرض المساهمة في المعارك البرية التي كان يخوضها الجيش الفاطمي هناك بقيادة سعادة بن حتيان. وتمكن الفاطميون بفضل هذا الأسطول من استرداد يافا في أواخر سنة ٣٦١هـ/ ٩٧٢م. ومن ذلك الحين لم تتوقف السفن الحربية الفاطمية عن الإقلاع من تينيس ودمياط والإسكندرية إلى صور وطرابلس لحفظ ثغور الشام والدفاع عنها^٢.

وكان إقلاع المراكب في البحر يبدأ من شهر برمهاث من كل سنة (يقابل هذا الشهر شهر إبريل)، يقول ابن نمأتى، وفي هذا الشهر تجرى هذه المراكب « في البحر المالح من الأعمال المصرية والمغربية والرومية، وفيه الاهتمام بتركيز الأجناد بالثغور المحروسة ومراكب الأساطيل لحفظها »^٣. ويستمر نشاط السفن الحربية في البحر حتى حلول فصل الشتاء فتأوى السفن إلى قواعدها ويتوقف نشاطها طوال هذا الفصل.

واستطاعت الدولة الفاطمية في عهد الخليفة المعز لدين الله أن تصل بفضل أسطولها إلى أقصى ما وصلت إليه من قوة ونفوذ في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، فصعدت قواؤها البحرية هجوماً بيزنطياً على طرابلس الشام سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٧م، كما استطاع الفاطميون بفضل هذا الأسطول من الاحتفاظ بسيطرته على سواحل مصر والشام^٤.

^١ المقرئى: اتعاط الخفا ٩: ١٦٦.

^٢ نفسه ٤ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ٩٦.

^٣ ابن نمأتى: قوانين الدواوين ٢٤٨.

^٤ يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخ ٣٦٨-٣٧٩.

ورغم أن الفاطميين قد وقّعوا في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله معاهدة صلح مع الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى سنة ٣٨٩هـ/١٠٠٩ م. فقد واصلوا العناية بأساطيلهم لاعتقادهم أن البيزنطيين غير جادين فى صلحهم ، فعملوا على تدعيم قواعدهم البحرية فى الشام مع العناية بأسطولهم طوال فترة الهُدنة (٣٨٩-٤٠٩هـ/١٠٠٠-١٠٢٩ م) التى سادها هدوء نسبي بسبب تلك المعاهدة^١.

كما أن معلوماتنا عن نشاط الأسطول الفاطمى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى مجزئة . ونجد الرحالة الفارسى ناصر خسرو عندما يذكر جزيرة تَيْس يشير إلى أنه يربط حولها دائماً ألف سفينة منها ما يخص التجار وأغلبها يخص السلطان ، كما أنه يقيم بها جيش كامل السلاح احتياطياً حتى لا يستطيع أحدٌ من الفرنج أو الروم أن يغير عليها^٢.

البحرية الفاطمية فى زمن الحروب الصليبية

لعل أحد الحقائق الهامة فى الصراع البحرى بين أوروبا المسيحية والشرق الإسلامى خلال فترة الحروب الصليبية ، أن الفاطميين كانوا هم الدولة الإسلامية الوحيدة فى شرق البحر المتوسط التى لها أسطول بحرى وتَحَمَّلَتْ بمفردها العبء الأكبر فى المواجهة البحرية ضد الفرنج وحلفائهم^٣.

ويمكننا التمييز فى المواجهة بين الفاطميين والفرنج بين فترتين : الفترة الحاسمة الواقعة بين سنتي ٤٩٢-٥٠٤هـ/١٠٩٩-١١١٠م والتى تَمَكَّن فيها الفرنج الصليبيون من السيطرة على العديد من المدن الساحلية فى فلسطين والشام . والفترة الثانية الواقعة بين

^١ صابر دياب : المرجع السابق ١٧٧.

^٢ ناصر خسرو : سفرنامه ٧٩.

^٣ Lev, Y., *State and Society* p. 104 .

مشتى ٥٠٤-٥٦٤هـ/١١١٠-١١٦٨ والتي تَمَكَّن فيه الفِرْنَج الصليبيون من إحكام سيطرتهم على الساحل الشامى بعد سقوط صور سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م وعَسْقَلان سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م.

ولم يوجد أى نشاط بحرى ضد الفِرْنَج انطلاقًا من مدن الشام الساحلية نفسها، رغم أن طرائلُس كان لها نشاط تجارى ضخم فيبدو أن أسرة بنى عَمَّار حَكَّام طرائلُس فى هذا الوقت لم يكونوا يملكون مراكب حرية تحت تصرفهم، وعلى كل فلم يكن ذلك وضعا استثنائيا، ففي هذا العصر لا تعنى وجود تجارة بحرية ضرورة وجود قوة بحرية إلى جانبها. ويوضح وَضْع الفاطميين فى البحر الأحمر هذه النقطة، فرغم أن الفاطميين كانت لهم شبكة تجارية عريضة ذات أهمية اقتصادية ضخمة عبر البحر الأحمر، فإن الفاطميين لم يكن لهم أى تواجد عسكري بحرى فى هذه المنطقة. ففي سنة ٥١٢هـ/١١١٧م هاجم الشريف قاسم بن على بن أبى هاشم بن فُلَيْتة أمير مكة سفنًا تجارية مصرية فى ميناء عَيْذاب على البحر الأحمر فنهبها وقتلوا جماعة من التجار الموجودين على متنها. وردًا على هذا الموقف فقد أمر الوزير الأَفْضَل بن بدر الجمالى والى قوص (فى مصر العليا) أن ينشئ فى ميناء عَيْذاب (نهاية طريق التجارة البحرية القادمة من الهند) خرايق (نوع من السفن الحربية ترمى بالنيران) لمواجهة مثل هذه المواقف^١.

ويذكر القلقشندى أنه كان للفاطميين بعَيْذاب أسطولٌ يُتَلَقَّى به الكارم فيما بين عَيْذاب وسواكن وما حولها، خوفًا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القُلْزُوم (البحر الأحمر) يعترضونه، وكان يتولَّى الإشراف عليه والى قوص^٢.

ومن ناحية أخرى تُقَدِّم لنا الحوليات الفرنجية معلومات وفيرة عن الظواهر البحرية للحرب الصليبية الأولى وهى تترك تمامًا تَفَوُّق البحرية الفرنجية، ورغم أن البحرية

^١ النويرى: نهاية الأرب ٢٨: ٢٧٨-٢٧٩؛ القزوينى: اتماظ الحفا ٣: ٥٨.

^٢ القلقشندى: صبح الأعشى ٣: ٥١٩-٥٢٠؛ وانظر فيما سبق ص ٤٩٩.

الفاطمية كانت موجودة في معركة عَشَقْلان سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م إلا أنها بقيت غير مشاركة في القتال. وكان استيلاء الفرنج على سائر الساحل الفلسطيني (حيفا ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م وأرسوف ٤٩٩هـ/١١٠١م وقيسارية ٤٩٤هـ/١١٠١م) بمعاونة الأساطيل الإيطالية التي لم تواجه أية مقاومة بحرية إسلامية. وفي صيف عام ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م وصلت قوات الفاطميين البحرية والبرية إلى فلسطين، وتمكّنت من حصار يافا وأحرزت قواتهم البرية انتصارات مرموقة ضد الصليبيين. ولكن وصول السفن المسيحية وهزيمة الجيش الفاطمي وضع نهاية لحصار يافا^١. ويذكر مؤرّخ دمشق ابن القلانسي أن الأسطول المصري حمل معه مواد غذائية ساعدت على خفض الأسعار وتوفير الأقوات. ولا شك أن انكسار الأسطول الفاطمي راجع لعدم التنسيق بين القوات البرية والقوات البحرية وبذلك لم تُحقّق الحملة الفاطمية أى نجاح^٢.

لا شك أن سبب إخفاق القوات الفاطمية في مواجهة الفرنج راجع إلى عدم تقدير الوزير الأفضل - صاحب السلطة الفعلية في مصر في هذا الوقت - لحقيقة أهداف الفرنج، لذلك فإن الفاطميين لم يقوموا في بداية الأمر بأى عمل حاسم ضد الفرنج. فقد كان الفاطميون ينظرون إلى الفرنج على أنهم حلفاء لهم ضد خصومهم السياسيين والمذهبيين السلاجقة وأذى تلكؤ الفاطميين في مواجهة الفرنج إلى حصار هؤلاء لبيت المقدس ثم سقوطها في أيديهم في شعبان ٤٩٢هـ/١٠٩٨م.

وهكذا توالى سقوط مدن الساحل الشامي والفلسطيني في أيدي الفرنج حيث سقطت أنطرسوس سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م واستولوا على عكا قهراً سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م بعد أن حاصروها من البحر في أكثر من تسعين مركباً ومن البر بجيوش كثيفة، وفي سنة

^١ . Lev, Y., op. cit. pp. 107-108

^٢ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ١٤٢-١٤٣.

١١٠٨/٥٠٢م استولوا على طرابلس وجبلّة، وفي العام الثاني سقطت بيروت ومجبل وبانياس، وفي سنة ١١١٠/٥٠٤م سقطت صيدا^١.
أما عسقلان فكانت المدينة الوحيدة التي تحصّن بها الفاطميون وظلّت مصدر إقلاق دائم للفرنج حتى سقطت بدورها في سنة ١١٥٣/٥٤٨م.

^١ سيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق ١٠٨.

ديوان الجهاد أو ديوان العَمَائِر

كان الإشراف على الأسطول الفاطمي يتولاه ديوان يعرف بـ «ديوان الجهاد» ويقال له أيضًا «ديوان العَمَائِر» كان محله بدار الصُّنَاعَة بالفسطاط . وكانت جريدة قُود الأسطول في آخر عهد الدولة الفاطمية ، كما يذكر ابن الطُّوَيْر ، تزيد على خمسة آلاف مَدُونَة ، منهم عشرة أعيان يقال لهم «القُود» (واحدهم قائد) تتراوح جامعتهم بين عشرين دينارًا ودينارين ، وله إقطاعات تعرف بـ «أبواب الغزاة» . ويُختار من يقع عليه الإجماع من القواد العشرة لرئاسة الأسطول المتجه للغزو فيكون معه «المُقَدَّم» و«القانوس» فتهتدى به بقية المراكب تفلح بإقلاعه وترسو بإرسائه . كما يُقَدَّم على الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء يعرف باسمين بـ «المقدم والرئيس»^١.

وذكر ابن المأمون أن الباقي من استيमार سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م ، والذي حمل إلى الصناديق الخاصة برسم المهتات بما يتجدد من تسفير العساكر وما يُحمل إلى الثغور عند نفاد ما بها من مؤن ، ثمانية وتسعين ألف ومائة وسبعين دينارًا (٩٨،١٩٧) وربعا وسدسًا^٢.

كان ديوانُ العَمَائِر يضم عددًا كبيرًا من الخواصل لعِمارة المراكب ، لكل حاصل منها نفر من الصُّنَاع من مختلف المهن كالنَّجَّارين والحَدَّادين والمَقْلُفَطين والمَزُونين ، ويتولَّى الديوان الإنفاق على إنشاء السفن ، فإذا لم يف اتفاقه بما تحتاج إليه هذه السفن استدعى له مزيد من المال من بيت المال لسد النقص^٣.

ويصف لنا ابن الطُّوَيْر في نصٍّ نادر كيفية الاحتفال بوداع الأسطول واهتمام الخليفة

^١ ابن الطوير: نزعة المقتلين ٩٤-٩٥، للقرنزي: الخط ١: ٤٨٣، ٢: ١٩٣.

^٢ ابن المأمون: أخبار مصر ٧١؛ للقرنزي الخط ١: ٣٩٩.

^٣ سيد عبدالمعز سالم: المرجع السابق ١٢٨-١٢٩.

الفاطمي بذلك ، يقول :

وَيُقَدِّمُ عَلَى الْأَسْطُولِ أَمِيرٌ كَبِيرٌ مِنْ أَعْيَانِ الْأُمَرَاءِ وَأَقْوَامِهِمْ نَفْسًا وَجَنَانًا ،
وَيَتَوَلَّى النِّفَقَةَ فِيهِمْ لِلغَزْوِ الْخَلِيفَةُ بِنَفْسِهِ بِحَضُورِ الْوَزِيرِ ، فَإِذَا أَرَادَ النِّفَقَةَ فِيمَا تَعَيَّنَ عَلَيْهِ
مِنْ عِدَّةِ الْمَرَاقِبِ السَّائِرَةِ ، فَيَتَقَدَّمُ إِلَى النِّقْبَاءِ بِإِحْضَارِ الرِّجَالِ وَهُمْ يَهَيِّجُونَ مِنْ أَرْبَابِ
الْمَعَايِشِ ، وَيَسْمَعُ بِذَلِكَ مَنْ هُوَ خَارِجٌ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ فَيَدْخُلُ إِلَيْهَا ، وَلَهُمْ الْخُشَاهِرَةُ
وَالْجَرَايِمَاتُ الْمُسْتَقَرَّةُ مَدَّةَ أَيَّامِ السَّفَرِ ، وَهُمْ مَعْرُوفُونَ عِنْدَ عِشْرِينَ نَقِيًّا وَلَا يَحْتَرِضُ
أَحَدٌ أَحَدًا إِلَّا مِنْ رَغْبٍ فِي ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ . فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْعِدَّةُ الْمُلْفَقَةُ لِلْمَرَاقِبِ
الْمَطْلُوبَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ أَغْلَمَ النِّقْبَاءُ الْمُقَدَّمُ فَاعْلَمَ بِذَلِكَ الْوَزِيرُ فطَالَعَ الْوَزِيرُ الْخَلِيفَةَ
بِالْحَالِ فَقَرَّرَ يَوْمَ النِّفَقَةِ ، فَحَضَرَ الْوَزِيرُ بِالِاسْتِدْعَاءِ مِنَ الْإِنْشَاءِ عَلَى الْعَادَةِ فَيَجْلِسُ
الْخَلِيفَةُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِي مَجْلِسِهِ وَيَجْلِسُ الْوَزِيرُ فِي مَكَانِهِ ، وَيَحْضُرُ صَاحِبُ دِيْوَانِ الْجَيْشِ
وَهُمَا : الْمُسْتَوْفَى وَالْكَاتِبُ ، وَالْمُسْتَوْفَى هُوَ أَمِيرُهُمَا فَيَجْلِسُ مِنْ دَاخِلِ عَتَبَةِ الْمَجْلِسِ ،
وَهَذِهِ رَتَبَةٌ لَهُ يَتَمَيَّزُ بِهَا ، وَيَجْلِسُ لْجَانِبِهِ تَحْتَ الْعَتَبَةِ عَلَى مُحْضَرٍ مَفْرُوشَةٍ بِالْقَاعَةِ كَاتِبُ
الْجَيْشِ الْأَصْلُ وَلَا يَخْلُ ، الْمُسْتَوْفَى أَنْ يَكُونَ غَدَلًا أَوْ مِنْ أَعْيَانِ الْكُتَّابِ الْمُسْلِمِينَ ،
وَأَمَّا كَاتِبُ الْجَيْشِ فَيَهْدِي فِي الْأَغْلَبِ وَيُفَرِّشُ أَمَامَ الْمَجْلِسِ أَنْطَاعٌ تُصَبُّ عَلَيْهَا
الدَّرَاهِمُ وَيَحْضُرُ الْوَزَانُونَ بَيْتَ الْمَالِ لِذَلِكَ . فَإِذَا تَهَيَّأَ الْإِنْفَاقُ أُدْخِلَ الْقَائِضُونَ مِائَةَ
مِائَةِ فَيَقِفُونَ فِي آخِرِ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ نَقَابَةً نَقَابَةً ، وَتَكُونُ
أَسْمَاؤُهُمْ قَدْ رُتِبَتْ فِي الْأَوْرَاقِ لِاسْتِدْعَائِهِمْ بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ . فَيَسْتَدْعِي مُسْتَوْفَى
الْجَيْشِ مِنْ تِلْكَ الْأَوْرَاقِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا وَاحِدًا وَاحِدًا ، فَإِذَا خَرَجَ اسْمُهُ عِبرَ مِنَ الْجَانِبِ
الَّذِي هُوَ فِيهِ إِلَى الْجَانِبِ الْخَالِ ، فَإِذَا تَكَمَّلَتْ عِشْرَةُ رِجَالٍ وَزَنَ الْوَزَانُونَ لَهُمُ النِّفَقَةَ
وَكَانَتْ لِكُلِّ وَاحِدٍ خَمْسَةُ دَنَانِيرٍ صَرَفَ كُلِّ دِينَارٍ سِتَّةَ وَثَلَاثُونَ دِرْهَمًا فَيَسْلِمُهَا لَهُمْ
النَّقِيبُ وَتَكْتُبُ يَدُهُ وَبِاسْمِهِ وَتَقْضَى النِّفَقَةُ كَذَلِكَ إِلَى آخِرِهَا ، فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ رَكِبَ
الْوَزِيرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ وَانْقَضَى ذَلِكَ الْجَمْعُ فَيَحْمِلُ مِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ مَائِدَةً يُقَالُ لَهَا
غَدَاءُ الْوَزِيرِ وَهِيَ سَبْعُ مَخْفِيَّاتٍ أَوْسَاطُ إِحْدَاهَا بِلَحْمٍ دِجَاجٍ وَقُسْتُقُ وَالْبَقِيَّةُ مِنْ شَوَاءٍ
مَكْمُورَةٌ بِالْأَزْهَارِ فَيَكُونُ ذَلِكَ عِدَّةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَةٍ مَرَّةً وَمُتَفَرِّقَةً مِنْ بَعْضِهَا بَعْضًا مَرَّةً .

فَإِذَا تَكَمَّلَتْ النِّفَقَةُ وَتَجَهَّزَتِ الْمَرَاقِبُ وَتَهَيَّأَتِ لِلسَّفَرِ ، وَرَكِبَ الْخَلِيفَةُ وَالْوَزِيرُ
إِلَى سَاحِلِ النَّيْلِ بِالْمَقْسِ ، وَكَانَ هُنَاكَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ بِالْجَامِعِ مَنْظَرَةٌ يَجْلِسُ فِيهَا
الْخَلِيفَةُ بِرَسْمٍ وَدَاعِ الْأَسْطُولِ وَلِقَائِهِ إِذَا عَادَ . فَإِذَا جَلَسَ هُوَ وَالْوَزِيرُ لِلْوَدَاعِ جَاءَتْ

القواد بالمراكب من مصر إلى هناك للحركات في البحر بين يديه وهي مزينة بأسلحتها ولبوسها وفيها المنجنقات تلعب فتحدر وتقلع بالمجاذيف كما يفعل في لقاء بالمجاذيف كما يفعل في لقاء العدو بالبحر المالح .

ثم يحضر بين يدي الخليفة «المقدم» و«الرئيس» فيوصيهما ويدعو للجماعة بالسلام والنصر، ويُعطى المُقَدِّم مائة دينار والرئيس عشرين دينارًا، وينحدر الأسطول إلى دمياط فيخرج إلى البحر المالح فيكون له ييلاد العدو هيبة وصيت . فإذا وقع لهم مركب وكسبه لا يسألون عما فيه سوى الشخصوس الكبار والصغار والنساء والسلاح وما كان سوى ذلك كان للأسطول»^١.

^١ ابن الطوير: نزعة المقتلين ٩٦-٩٨.

قَطْعُ الْأَسْطُولِ الْفَاطِمِيِّ الْحَرْبِيِّ

قسم المقریزی فی الخطط، السفن المصرية إلى نوعين :

١ - السفن الحربية . وهي سُفنُ الأسطول التي تُصَنِّعُ خصيصًا لغزو العدو ، وكانت تُسَخَّنُ بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة . وكانت تنطلق من ثغور الإسكندرية ودمياط وتُتَيسَّرُ والقَرَمَا في مصر ، ومن ثغور طَرَابُلس و صَبِيدا و صُور في الشام لجهاد أعداء الدولة من البيزنطيين والفرنج .

٢ - السفن النيلية . وهي إما سُفنٌ تجارية تنشأ لحمل الغلال والأحطاب وغيرها ونقل هذه البضائع في النيل صاعدة إلى أعلى الصعيد ومنحدرة إلى أسفل الأرض ، أو سُفنٌ تخصص للاحتفال بتخليق عمود المقياس وكشر الخليج ولتَزَهُ الخلفاء الفاطميين كالعُشاريات اللطاف التي يُقال لها السُميريات والعُشاريات الخاص الكبار^١ .

ويمكننا أن نضيف إلى هذين النوعين نوعًا ثالثًا مخصصًا للملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي لنقل تجارة الكارم أو لنقل الحجاج ما بين مينائي عَيْذاب على الشاطئ المصري و جُدَّة على الشاطئ الحجازي تسمى الجَلَّاب أو الجَلَّابات (م . جلبة)^٢ .

وقد تَقَدَّدَت أنواع قطع الأسطول الحربي الفاطمي التي كانت تُصَنِّعُ على الأخص في دار صناعة مصر ودار صناعة الجزيرة ، أما السفن التجارية فكانت تُصَنِّعُ في أول الأمر في مدينة الصالحية حيث شاهد بها الرحالة الفارسي ناصر خسرو نحر أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي سفنًا تجارية مُعدة لنقل البضائع إلى مدينة مصر . وأهم قطع الأسطول الحربي الفاطمي هي :

^١ المقریزی : الخطط ، السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ١٣١ .

^٢ درويش النخيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم ٢٧-٢٩ .

الشَّيْنِي ج. شَوَانِي (ويقال أيضًا شَانِي أو شِينِي أو شُونِي). ذكر الزُّيْدِي أنها لغة مصرية (أى أنها من أصل مصري) وهى السفينة الحربية الكبيرة تطلق عليها أحياناً أسماء مثل الغراب الذى ذكر ابن ممتى أنه كان يُجذف بمائة وأربعين مجدافاً، والطريدة، والجفنة، والحراقة. وكانت الشوانى مزودة بأبراج وقلاع تستخدم للدفاع والهجوم، وهى لعظمها كانت تحوى على أهراء لحزن القمح وصهاريج لحزن الماء العذب.

وكان يرمى منها النار والنفط على العدو، كما كانت مجهزة بالفأس الذى يقال له اللجام، وهو حديدة طويلة محددة الرأس جدًّا وأسفلها مجوف كسنان رمح يدخل عند الحرب فى اسطام المركب - وهو الخشبة التى فى مقدم الشينى - وإذا أمكنتهم الفرصة تأخروا به قليلاً ثم قذفوا قذفة واحدة قوية فينطح المركب المواجه فيخرقه ويدخل الماء فيه فتطلب الأمان^١.

الشَّلَنْدِي ج. الشَّلَنْدِيَّات. ذكر ابن ممتى أنه مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره والمجدفون يجدفون تحتهم، ذكر الحموى أنها تعادل فى أهميتها الشونة والحراقة. وهى فى اللاتينية تعرف بـ *Chelandium* وحرفها العرب عنهم فقالوا صندل. وقد عرف المسلمون هذا النوع من المراكب الحربية ونقلوه عن البيزنطيين^٢.

المُسَطَّح ج. المُسَطَّحات) نوع من السفن الحربية الكبيرة يُشبه بالشلندى كان يسع نحو خمسمائة راكب. وقد ذكر المقرئى أن عدد مراكب الأسطول الفاطمى فى آخر عهده بلغت خمسة وسبعين شينياً وعشر مسطحات وعشر حمالات. وقد عرف المسلمون والفرنج فى العصور الوسطى هذا الضرب من السفن واستعملوه فى مياه البحر المتوسط^٣.

^١ درويش النخيلي: السفن المرجع السابق ٨٣-٨٥.

^٢ نفسه ٧٨-٨١.

^٣ نفسه ١٤١-١٤٣.

البطشة ويقال أحياناً البطشة والجمع البطشات والبطش . سفينة عظيمة الحجم كثيرة القلوع قد يصل عدد القلوع في البطشة الواحدة إلى أربعين قلعا . كانت تستخدم لنقل الأزواد والميرة ، كما كانت تستخدم في نقل جموع كبيرة من المحاربين قد يصل عددهم إلى سبعمائة . واشتهر هذا النوع من السفن في زمن الحروب الصليبية وكانت وظيفتها مشتركة لدى المسلمين والفرنج إذ كانت تقوم بشحن الغلال والأقوات والمير والأموال والنفقات خاصة للمدن الساحلية المحصورة ، علاوة على آلات الحرب والقتال وذخائر وأدوات الحصار^١.

الحزبي والحزبية . (جـ . حراي وحريات) . استخدمها الفاطميون وهم مازالوا في إفريقية ولما انتقلوا إلى مصر استمروا في الاهتمام بها ، فقد أورد المقرئ نصوصاً كثيرة تشير إلى عناية الفاطميين بالمراكب الحربية طوال فترة حكمهم في مصر^٢.

حراقة (جـ . حرايق وحراقات) . نوع من السفن الحربية التي تستخدم للرماية بالنيران والنفط بغرض إحراق سفن العدو ، وهي تلي الشوانى في الأهمية وكانت من لواحق المراكب الحربية الكبيرة التي لا تسير بدونها حماية لها . وكان هذا النوع من السفن الحربية يستعمل بكثرة في مياه البحر المتوسط في زمن الحروب الصليبية^٣.

الطريدة (جمع الطرائد) . ذكر ابن ممتي أنها سفينة يرسم حمل الخيل ، وأكثر ما يُحمل فيها أربعون فرساً . كانت تفتح عادة من الخلف حتى يتيسر للخيل أن تصعد إلى ظهرها أو تنزل منها إلى اليابسة^٤.

الفيطاني والفيطاني . نوع من المراكب المصرية كانت تصنع بدار صناعة مصر استعملت في حمل الركاب ، يقول ابن القطان في حوادث سنة ٥٣٢هـ : وفيها كان

^١ درويش النخيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم ١٤-١٧.

^٢ نفسه ٣٧-٤٠.

^٣ نفسه ٣٢-٣٧.

^٤ نفسه ٨٩-٩٢.

غزو المراكب المصرية التي وصلت من الإسكندرية ، منها المركب الفيطاني والمركب المعجزى . وكانت عظيمة الحجم جدًا وكانت فيها أموال عظيمة وخلق كثير^١ .

القُراب (جـ . أَقْرَبَة وَغَرَابِين) . اسم من أسماء الشينى أو نوع منه يسير بالقلاع والمجاديف ، منها الصغير والكبير ويحدد حجمه وضخامته عدد مجاديفه ، فأحفله ما كان يحركه مائة وثمانون مجدافًا وأصغرهم تجدف به عشرة مجاديف . كان يحمل نحو مائتى مقاتل وكان من خصائصه أنه مزود بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيتقاتلون بالأساليب البرية^٢ .

عُشارى (جـ . عُشَارِيَات) . اسم مُقَرَّب ، وهو نوع من المراكب كان يستعمل فى البحرين المتوسط والأحمر وكذلك فى النيل . وهو نوعٌ من القوارب الصغيرة التى تلحق بالأسطول أو بالمراكب الكبيرة . وتفيض المصادر الفاطمية فى ذكر هذا النوع من المراكب كأحد القطع النهرية التى تعددت أغراض استعمالها . ومع ذلك فىمكننا القول أنه كاد أن يكون موقوفًا فى استعماله على الخلفاء والوزراء وولاة الأعمال .

وكان العُشارى العامل فى البحر المتوسط يجز بعشرين مجدافًا ، وهو الذى يُقَدَّى بالبضائع والرجال من الساحل لأن القارقر (م . قَزَقُورَة) لا تقف إلا فى المكان الغزير من الميناء ، أى أنه يدخل فى قائمة المعدات ، كما كان يستخدم كزورق من زوارق الإنقاذ فى حالات الأخطار التى تدهم مراكب المسافرين حين هياج البحر وإشرافه على الفرق^٣ .

ويُشتفاد من بعض التُصوص أن العُشارى كان يستعمل فى نيل مصر - فى عصر الدولة الفاطمية - لنقل المسافرين على طول مجراه .

^١ درويش النخلى : السفن الإسلامية على حروف المعجم ١١٤ .

^٢ نفسه ١٠٤-١١٢ .

^٣ نفسه ٩٥-١٠١ وراجع فى الموضوع كتاب سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة - دار

خاتمة

الدولة الفاطمية نموذج منفرد في التاريخ الإسلامي لم يتكرر على الإطلاق . فقد كانت دولة ذات طابع ديني فلسفي وحضارة متميزة أرادت بنشط نفوذها على كل العالم الإسلامي المعاصر . وجاء فتحهم لمصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م ممثلاً المرحلة قبل الأخيرة في سبيل تحقيق هدفهم البعيد وهو الإحلال محل الخلافة العباسية كحكم وحيدين للعالم الإسلامي .

ولكن آمال الفاطميين تحطمت في الشام التي كانت ستستخدم كنقطة انطلاق للهجوم النهائي الذي كان سيحمل جيوش الفاطميين إلى بغداد لتضع نهاية لحكم البويهيين وللخلافة العباسية . فقد استغرقت محاولة إخضاعهم لسوريا الشمالية وقتاً طويلاً ولم تخلص لهم أبداً ، وقبلوا في النهاية أن يتقاسموا نفوذهم في الشام مع البيزنطيين - الشريك التجاري الأهم للفاطميين - بينما كانت بغداد - التي استولى عليها السلاجقة نحو أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي - تتولى حركة نشطة للجهاد الإسلامي .

وهكذا - إذا استثنينا محاولة البساسيري وداعي الدعاة المؤيد في الدين الشيرازي - فإن فكرة مواجهة العباسيين ظلت في إطار الهدف ولم تخرج على الإطلاق إلى حيز السياسات العملية . وبدلاً من أن يحافظ الفاطميون على حدود إمبراطوريتهم في الغرب فقدوا ممتلكاتهم في صقلية وفي إفريقية ، كما لم يلبثوا أن فقدوا ممتلكاتهم في سوريا الوسطى والجنوبية أمام السلاجقة والفرنج . وبعد فشلهم في مواجهة العباسيين تبنى الفاطميون استراتيجية شرقية حيث مدّوا نفوذهم على جنوب وشرق الجزيرة العربية (اليمن وعمان) ، وعملوا على نشر دعوتهم على طول طرق التجارة الشرقية التي تخلى

عنها القبايسون ، ونجحوا فى إحلال البحر الأحمر محلّ الخليج الفارسى كطريق رئيسى للتجارة من الهند إلى البحر المتوسط ، وبذلك أصبحت مصر ملتقى حركة التجارة الدولية .

وأنشأ الفاطميون فى مصر لأول مرة قصرًا خلقيًا وبلاطًا للخلفاء ، لم يكتف فقط بمنافسة بلاط خلفاء بغداد وأباطرة بيزنطة ، بل تفوّق عليهما بمظاهر الترف والبذخ والأبهة التى استغلّ الفاطميون فى إضفائها عليه كل إمكانيات مصر الحضارية وما تميّز به مذهبهم العقائدى الخاص . كذلك فقد أدخل الفاطميون تغييرًا جذريًا على نظم الحكم والإدارة فى مصر تمثّل فى استحداث مناصب الوزارة وقاضى القضاة وداعى الدعاة ، والعديد من الدواوين الإدارية والحرية التى لم تعرفها مصر من قبل .

ولم تكن مدينة القاهرة التى أسّسها الفاطميون فى مصر عاصمة لخلافتهم فحسب ، بل كانت كذلك مشرّحًا لجميع الأعمال الدينية التى كان يقوم بها الخليفة الفاطمى باعتباره إمام الطائفة الإسماعيلية . كذلك فإن القصر الفاطمى - مقر إقامة الإمام الفاطمى وبلاطه - لم يكن فقط مركز الإدارة والطقوس الاحتفالية الفاطمية ، وإنما كان على عكس أى قصر حاكم آخر فى العالم الإسلامى مسرح الطقوس الدينية الأكثر قداسة ، وبالتالى كان مركز النشاط الروحى للمدينة . فجامع القاهرة (الجامع الأزهر) كان حجمه متوازنًا بالنسبة للجوامع التى سبقته فى مصر أو فى إفريقية نفسها ، ولم يكن يُختلّ فيه سوى بصلاة جمعة واحدة فى رمضان من كل عام ولبلىالى الوقود الأربع ، أما سائر الاحتفالات والطقوس الدينية فكانت تتم فى القصر الفاطمى نفسه باستثناء صلاة عيدى الفطر والشّعر التى كانت تتم فى « مُصلّى العيد » خارج باب النّصر . وتأكّد التّميّز الدينى للقصر الفاطمى بعد الملابس التى صاحبت نقل رأس الحسين من عسقلان إلى القاهرة سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٤م حيث رفض أهل القصر أن تُدفن الرأس خارج القاهرة فى الجامع الذى شيّده الوزير الصالح طلائع بن رزيك وحرصوا على تخصيص موضع لها فى قبّة الدّيلم جنوب شرق القصر الفاطمى .

وكانت سياسة الفاطميين الاقتصادية ونظامهم الضرائبي من أهم التطورات التي شهدتها القرنان الخامس والسادس للهجرة / الحادى عشر والثانى عشر للميلاد . فقد تَبَيَّنَ الفاطميون مبدأ حرية المشاريع ، ولم يسلم فى وقتهم أى إنتاج أو أئمة مهنة أو أئمة حرفة من الضريبة أو المكوس . وقد استفاد خلفاؤهم الأيوبيون والمماليك فيما بعد من سياسات الفاطميين الاقتصادية ونظامهم الضرائبي .

ولعل من أهم إنجازات فترة الحكم الفاطمى لَفَت الانتباه إلى وضع مصر الاستراتيجية فى قلب العالم الإسلامى - وهو الوضع الذى حاول الطولونيون إظهاره من قبل . وأبرزوا كذلك دور مصر السياسى وقدرتها على قيادة العالم الإسلامى ، لو تمتعت حكومتها بتأييد هذا العالم ، وهو الأمر الذى استثمره بنجاح خلفاؤهم الأيوبيون والمماليك .

تَبَيَّنَ الْمَصَادِرُ وَالْمَرَاجِعُ وَبَيَّنَ طَبَعَاتُهَا

المصادر

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد) التوفى سنة ١٢٣٣/٥٦٣٠ م.
- «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣.
- «الكامل في التاريخ»، ١-١٣، بيروت - دار صادر ١٩٦٥-١٩٦٧.
- «اللباب في تهذيب الأنساب»، ١-٣، تصحيح حسام الدين القدسي، القاهرة - مكتبة القدسي ١٣٥٧/١٩٣٨ م.
- أسامة بن مُنقِذ (مؤيد الدولة المظفر أسامة بن مُرشِد الشَّيْزِي) التوفى سنة ٥٠٨٤/١١٨٨ م.
- «الاعتبار»، تحقيق وتقديم قاسم السامرائي، الرياض - دار الأصاله ١٩٨٧.
- ابن أمي أصيبعة (أبو العباس أحمد بن القاسم بن يونس السعدي) التوفى سنة ٦٦٨/١٢٦٩ م.
- «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، ١-٢، بحاية أوغست مولر، القاهرة ١٨٨٢.
- استتار الإمام = النيسابوري.
- ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفى) التوفى سنة ٥٩٣٠/١٠٢٤ م.
- «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، الجزء الأول - القسم الأول، تحقيق محمد مصطفى، النشرات الإسلامية ١/٥-٢، القاهرة ١٩٧٥.
- ابن أبيك الدوادارى (أبو بكر عبد الله بن أبيك) التوفى بعد سنة ٥٧٣٦/١٣٣٥ م.
- «كنز الدرر وجامع الررر» - الجزء السادس المسمى «الدرة اللضية في أخبار الدولة الفاطمية»، تحقيق صلاح الدين للنجد، الجزء السابع المسمى «الدر المطلب في أخبار ملوك بني أيوب»، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة - المعهد الألماني للأثار ١٩٦١، ١٩٧٢.

* ليس هذا ثبًا بجميع المؤلفات المستخدمة في كتابة هذا المؤلف، وإنما أذكر فقط المؤلفات المستخدمة دائمًا أثناء البحث. أما المصادر والمراجع التي استعملت لشرح واقعة معينة أو للرجوع إليها لمزيد من التفصيل فقد ذكرت جميع المعلومات البيوجرافية الخاصة بها في موضعها.

ابن بقرّة (منصور الذهبي الكامل) القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي .

« كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية » ، تحقيق عبد الرحمن فهمي ، القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٥ .

البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز) المتوفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م .

« جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك » ، بحث وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، الكويت - مكتبة دار المروية ١٩٨٠ .

البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد بن عثمان بن محفوظ المدني) من علماء القرن الرابع/العاشر .

« سيرة أحمد بن طولون » ، حققها وعلّق عليها محمد كزّذ علي ، دمشق - مطبعة الترقى ١٣٥٨هـ .

البندارى (أبو إبراهيم الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني) المتوفى سنة ٨٤٣هـ/١٢٤٥م .

« تاريخ دولة آل سلجوق » ، القاهرة - مطبعة الموسوعات ١٩٠٠ .

« سنا البيوق الشامي » اختصره من كتاب « البيوق الشامي » للعماد الكاتب الأصفهاني ، تحقيق فضيحة البراوي ، القاهرة - مكتبة الخانجي ١٩٧٩ .

ابن تفرى يزدى = أبو المحاسن .

ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد الكتاني) المتوفى سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م .

« الرحلة » ، بيروت - دار صادر ١٩٦٧ .

الجزيري (زين الدين عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصاري) المتوفى نحو سنة ٩٧٧هـ/١٥٦٩م .

« الدرر القرائد المنتظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة » ، ١-٣ ، أعده للنشر حمد الحاسر ، الرياض - دار اليمامة ١٩٨٣ .

الجوالقي (أبو منصور موهوب بن أحمد) المتوفى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م .

« المقرّب من الكلام الأعجمي » ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٣٦١هـ .

الجوّذري (أبو علي منصور العزري) المتوفى بعد سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م .

« سيرة الأستاذ جوّذر » تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة ، القاهرة - دار الفكر العربي ١٩٥٤ .

ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي) المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م.

«المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، ٥-١٠، الهند - دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧-١٣٥٩هـ.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي) المتوفى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م.

«ذيل الدرر الكامنة»، تحقيق عدنان درويش، القاهرة - معهد المخطوطات العربية ١٤١٢هـ/

١٩٩٢م.

«رَفْع الإصر عن قضاة مصر» الجزء الأول في قسمين تحقيق حامد عبد المجيد وآخرين، القاهرة -

الإدارة العامة للثقافة، وزارة التربية والتعليم ١٩٥٧-١٩٦١.

«لسان الميزان»، ١-٦، حيدرآباد الدكن ١٣٢٩هـ/١٩١١م-١٣٣١هـ/١٩١٣م.

ابن خزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي) المتوفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م.

«جمهرة أنساب العرب»، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، القاهرة - دار المعارف

١٩٧٧.

ابن حنّاد (أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى) المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٣٠م.

«أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم»، تحقيق وتعليق جلال أحمد البدوي، الجزائر - المؤسسة الوطنية

للكتاب ١٩٨٤.

الحَمَوِي (شمس الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن ظهير الحنفى) المتوفى بعد سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م.

«روضة الأديب ونزهة الأرب»، عرّف به ونشر قسمًا منه محمد الحبيب الهيلة باسم «النظم

الإدارية بمصر في القرن التاسع الهجرى من خلال كتاب روضة الأديب ونزهة الأرب لمحمد بن إبراهيم

ابن ظهير الحنفى الحموى»، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة، القاهرة - دار الكتب المصرية

١٩٧١، ١٠٤١-١٠٩٥.

ابن حَوْقَل (أبو القاسم محمد بن علي) المتوفى بعد سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م.

«صورة الأرض»، نشرة كريمرز، ليدن ١٩٣٨.

ابن خَلْدُون (ولّى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي) المتوفى سنة ٨٠٨هـ/

١٤٠٦م.

«العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر»، ١-٧، بولاق ١٢٨٤هـ.

«المُقدِّمة»، ١-٣، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة - دار نهضة مصر ١٩٧٩.

ابن خَلْكَان (شمس الدين أبو الميثاس أحمد بن محمد) المتوفى سنة ١٢٨٢هـ/١٢٨٢م.

« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، ١-٨ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت - دار الثقافة ١٩٦٩-

١٩٧٢.

الخَوَازِمِي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف) المتوفى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م.

« مفاتيح العلوم » ، تصحيح محمد منير الدمشقي ، القاهرة ١٩٢٣.

ابن دُقْمَاق (صادم الدين إبراهيم بن محمد بن أثَلْثَر المَلَّاحي) المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م.

« الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، ٤-٥ ، نشرة فولرز ، القاهرة ١٨٩٤.

الدَّهْلَبِي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز) المتوفى سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م.

« العبر في خبر من غير » ، ١-٥ ، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد ، الكويت - سلسلة التراث

العربي ١٩٦٠-١٩٦٥.

الزَّوْندِي (نجم الدين أبو بكر محمد بن علي بن سليمان بن محمد) المتوفى بعد سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م.

« راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية » ، ألفه بالفارسية الزاوندی ونقله إلى

العربية إبراهيم أمين الشواربي وعبد النعم حسن بن وفؤاد عبد المعطي الصياد ، القاهرة - دار القلم

١٩٦٠.

الرَّشِيد بن الزُّبَيْر (رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن علي بن إبراهيم الأسواني) المتوفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م.

« الذُّخائر والتحف » ، تحقيق محمد حميد الله ، الكويت - سلسلة التراث العربي ١٩٥٩.

ابن رِضْوَان (أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر الطيب المصري) المتوفى سنة ٤٥٣هـ/

١٠٦١م.

« دَفْع مضار الأبدان بأرض مصر » ، دراسة وتحقيق عبد المجيد دهاب ، الكويت - مكتبة ابن قتيبة

١٩٩٥.

الرُّؤُودُزَّاورِي (ظهير الدين أبو شجاع محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم) ، المتوفى سنة

٤٨٧هـ/١٠٩٤م.

« ذيل تجارب الأمم وتعاقب الهمم لأبن مَشْكُويَه » ، اعتنى بنشره هـ. ف. آمدروز ، مصر

١٣٣٤هـ/١٩١٦م.

- ابن زولاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين الليثي) المتوفى سنة ٨٣٨٦/١٩٩٦ م .
 « أخبار سيويه المصري » ، نشره محمد إبراهيم سعد وحسين الديب ، القاهرة ١٩٣٣ .
 « فضائل مصر وأخبارها » ، مخطوطة باريس رقم Paris B.N. n° 1817 .
- ابن الزيات (شمس الدين أبو عبد الله محمد الأنصارى) المتوفى سنة ٨١٤/١٤١١ م .
 « الكواكب الستارة في ترتيب الزيادة » ، نشره أحمد تيمور باشا ، بولاق ١٣٢٥ هـ .
 ساويرس بن المقفع ، أسقف الأشمونين .
- « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » المعروف بـ « سيرة البعثة المقدسة » (المنسوب إلى) ، ٢-٤ ،
 نشره : يتي عبد المسيح وعزيز سوربال عطية وأزول بورمستر وأنطوان خاطر ، القاهرة - جمعية الآثار
 القبطية ١٩٥٩-١٩٧٤ .
- سيبط ابن الجوزي (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي) المتوفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦ م .
 « يرواة الزمان في تاريخ الأعيان » ، المجلد الثامن ، حيدرآباد الدكن - الهند ١٣٣٧-١٣٣٩ هـ .
- الشبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي) المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩ م .
 « طبقات الشافعية الكبرى » ، ١-١٠ ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي ،
 القاهرة - دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٣-١٩٧٦ .
- السجلات المستنصرية .
 « سِجِلَات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ،
 إلى دعاة اليمن وغيرهم قدس الله أرواح جميع المؤمنين » ، تحقيق عبد المنعم ماجد ، القاهرة -
 دار الفكر العربي ١٩٥٤ .
- الشحراوي (نور الدين أبو الحسن علي بن أحمد) المتوفى بعد سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢ م .
 « تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات » ، نشره
 محمود ربيع وحسن قاسم ، القاهرة ١٩٣٧ .
- الشحراوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد) المتوفى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧ م .
 « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » ، في كتاب « علم التاريخ عند المسلمين » لفرانز روزنتال ،
 ترجمة صالح أحمد الملي ، بغداد ١٩٦٣ .
- « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ، ١-١٢ ، القاهرة - مكتبة القدسي ١٣٥٣-١٣٥٥ م .

ابن سعيد (على بن سعيد المغربي) المتوفى سنة ١٢٨٥هـ/١٢٨٦م.

«المغرب في حُلَى المغرب»، القسم الخاص بالفسطاط، حققه زكى محمد حسن وسيدة إسماعيل كاشف وشوقى ضيف، القاهرة - جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣.

«النجوم الزاهرة في حُلَى حضرة القاهرة»، تحقيق حسين نصار، القاهرة - مركز تحقيق التراث ١٩٧٢.

سيرة المؤيد في الدين = المؤيد في الدين.

الشيوطى (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد) المتوفى سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م.

«بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة»، ١-٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة - دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٦.

«تاريخ الخلفاء»، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٧٦.

«مُحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة»، ١-٢، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٧.

ابن شاكر الكتبى (صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد) المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م.

«فوات الوفيات»، ١-٥، تحقيق إحسان عباس، بيروت - دار صادر ١٩٧٣-١٩٧٤.

أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى) المتوفى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م.

«الروضتين في أخبار الدولتين»، الجزء الأول في قسمين، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٩٥٦-١٩٦٢.

أبو شجاع = الروذراورى.

ابن شدّاد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم) المتوفى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٩م.

«الوَادِرُ السُلْطَانِيَّةُ وَالْمَحَاسِنُ الْيُوسُفِيَّةُ» أو «سيرة صلاح الدين»، تحقيق جمال الدين الشَّيَال، القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤م.

الشَّهْرِسْتَانِي (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم) المتوفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م.

«المِلَلُ وَالنَّحْلُ»، ١-٢، تخريج محمد بن فتح الله بدران، القاهرة - مكتبة الأنجلو ١٩٥٦.

أبو صالح الأَرْمَنِي = أبو المكارم سعد الله.

- الصَّفْدَى (صلاح الدين خليل بن أَيْتَك) المتوفى سنة ٥٧٦٤هـ/١١٣٦٣م .
- « الوافي بالوفيات » ، ١-١٨ و ٢٢ ، تحقيق مجموعة من العلماء (النشرات الإسلامية - ٦) ، استامبول-بيروت ١٩٤٩-١٩٨٨ .
- ابن الصَّيْرَفِي (تاج الرئاسة أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان) المتوفى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٨م .
- « القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى مَنْ نال الوزارة » ، حققهما وكتب مقدمتهما وحواشيهما ووضع فهرسهما أيمن فؤاد سَيِّد ، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٠ .
- الصَّبِّي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عُثَيْرَة) المتوفى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م .
- « بُنْيَةُ الْمُتَمَيِّس في تاريخ رجال الأندلس » ، مجرط ١٨٨٤ .
- الطُّرُشُوسِي (مَرْضِي بن علي بن مَرْضِي) المتوفى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م .
- « تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في المُدَد والآلات المعينة على لقاء الأعداء » (ألّفه لصلاح الدين الأيوبي) ، عني بتحقيقه ونشره كلود كاهن في مجلة *BEO XII (1947-48)*, pp. 103-163 .
- ابن الطُّوَيْر (أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن الفهري القيسرائي) المتوفى سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م .
- « نُزْهَةُ الْمُقْلَتَيْن في أخبار الدولتين » ، أعاد بناءه وحققه وقَدَّم له أيمن فؤاد سيد ، النشرات الإسلامية - ٣٩ ، شتوتجارت ١٩٩٢ .
- ابن ظَافِر (جمال الدين أبو الحسن علي بن أبي منصور ظافر الأزدي) المتوفى سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م .
- « أخبار الدُّوَل المنقطعة » ، دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدّمة وتعقيب أندريه فُزِيه ، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٧٢ .
- ابن عبد الظَّاهِر (محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري) المتوفى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م .
- « الرُّؤْيَا التَّيْهِيَةُ الزَّاهِرَةُ في خطط المعزية القاهرة » ، حققه وقَدَّم له وعلّق عليه أيمن فؤاد سيد ، بيروت - أوراق شرقية ١٩٩٦ .
- ابن القَدِيم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد) المتوفى سنة ٦٦٠هـ/١٢١٦م .
- « بُنْيَةُ الطُّلُب في تاريخ حلب » ، التراجم الخاصة بتاريخ السلاجقة ، عني بنشره على سويم ، أنقرة - مطبوعات الجمعية التاريخية التركية ١٩٧٦ ، ومخطوطة مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٩٢٥ .

«رُبْدَةُ الحَلَب من تاريخ حلب»، ١-٣، تحقيق سامي الدهان، دمشق - المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ١٩٥١-١٩٦٨.

ابن عذارى (أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشي) المتوفى نحو سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م.

«البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»، ١-٤، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفسال، لندن ١٩٤٨.

على بن خَلَف (أبو الحسن على بن خَلَف بن علي بن عبد الوهاب) المتوفى بعد سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م. «مواد البيان»، تحقيق حسين عبد اللطيف، طرابلس - جامعة الفتح ١٩٨٢.

عماد الدين إدريس بن الحسن بن عبد الله الأنف المتوفى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م.

«تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب»، تحقيق محمد اليللاوي، بيروت - دار الغرب الإسلامي ١٩٨٥.

«عيون الأخبار وفنون الآثار»، ٤-٦، تحقيق مصطفى غالب، بيروت - دار الأندلس ١٩٨٤. الجزء السابع، مخطوطة المكتبة الهمدانية.

«نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار»، مخطوطة عباس همداني.

عماد الدين الأصفهاني من علماء القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

«الْبَيْتَان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان»، حققه كلود كاهن Cahen, Cl., «Une chronique syrienne du VI^e-XII^e siècle», BEO VII-VIII (1937-38), pp. 113-158.

ابن العماد (عبد الحمى بن أحمد بن محمد الحنبلي) المتوفى سنة ١٠٨٩م/١٦٧٨م.

«شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، ١-٨، نشره حسام الدين القدسي، القاهرة - مكتبة القدسي ١٣٥٠-١٣٥١هـ.

العماد الكاتب الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبو الفرج) المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م.

«خريدة القصر وجريدة العصر»، قسم شعراء الشام، ١-٣، تحقيق شكري فيصل، دمشق - المجمع العلمي العربي ١٩٥٥-١٩٦٤.

عُمارة اليمنى (نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن على الحكيم) المتوفى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م.

«تاريخ اليمن»، نشره حسن سليمان محمود، القاهرة - مكتبة مصر ١٩٥٧.

«الثَّكَّتُ العصرية في أخبار الوزارة المصرية»، تحقيق هرتويج درنبرغ، شالون ١٨٩٧.

- الفايى (تقي الدين محمد بن أحمد المكي) المتوفى سنة ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م .
- « العَقْد الثمين فى تاريخ البلد الأمين » ، ١-٨ ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٩-١٩٦٨ .
- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على صاحب حماة) المتوفى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م .
- « المختصر فى أخبار البشر » ، ١-٤ ، مصر ١٣٢٥هـ .
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) المتوفى سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م .
- « تاريخ الدول والملوك » ، مخطوطة مكتبة فينا رقم ٨١٤ ، الجزء الرابع / ١-٢ ، تحقيق حسن محمد الشماع ، البصرة ٦٧-١٩٦٩ .
- ابن فَرَحُون (برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد) المتوفى سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٧م .
- « الدِّيَاج المذهب فى تراجم أعيان المذهب » ، ١-٢ ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ابن أبى القَضَائِل (مُقَضَّل بن أبى القَضَائِل) المتوفى بعد سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م .
- « التَّهْج السديد والدر الفريد فى ما بعد تاريخ ابن العميد » ، نشره وترجمه إلى الفرنسية E. Blochet ، (1919) PO XII ، (1920) XIV ، (1929) XX .
- ابن فَهْد (النجم عمر بن محمد بن محمد المكي) المتوفى سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م .
- « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، مكة - جامعة أم القرى ١٩٨٣ .
- « فى نَسَب الخلفاء الفاطميين - أسماء أئمة المستورين كما وردت فى كتاب أرسله المهدي عبد الله إلى ناحية اليمن » ، تقديم حسين فيض الله الهمداني ، القاهرة - الجامعة الأمريكية ١٩٥٨ .
- ابن قاضى شُهْبَة (بدر الدين أبو الفضل محمد بن أبى بكر بن أحمد الأندلسى الدمشقى الشافعى) المتوفى سنة ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م .
- « الكواكب الدرِّيَّة فى السَّيرة الثَّوْرِيَّة » ، تحقيق محمود زايد ، بيروت - دار الكتاب الجديد ١٩٧١م .
- القاضى عبد الجبار (أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد الهَمْدَانِي) المتوفى سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٥م .
- « تثبيت دلائل النبوة » ، ١-٢ ، تحقيق عبد الكريم العثمان ، بيروت ١٩٧٠ .

القاضي الثُّعْمَان بن محمد بن حَيَّوْن المتوفى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م.

«دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام»، ١-٢، تحقيق آصف بن علي بن أصغر فيضى، القاهرة - دار المعارف ١٩٦٥.

«رسالة افتتاح الدَّعْوَة»، (رسالة في ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية)، تحقيق وداد القاضي، بيروت - دار الثقافة ١٩٧٠.

«المجالس والمساورات»، تحقيق الحبيب الفقى، إبراهيم شبرح، محمد اليعلاوى، تونس - الجامعة التونسية ١٩٧٨.

ابن القَطَّان (أبو محمد الحسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكُتَّامى) منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى.

«نظم الجُمان لترتيب ما سَلَف من أخبار الزمان»، درسه وقَدَّم له وحققه محمود على مكى، بيروت - دار الغرب الإسلامى ١٩٩٠.

القِفْطَى (جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف) المتوفى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٧م.

«إنباه الرواة على أنباه النحاة»، ١-٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٥٠-١٩٧٤.

ابن القَلَائِسى (أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى) المتوفى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م.

«ذيل تاريخ دمشق»، تحقيق آمدرورز، بيروت ١٩٠٨.

القَلْقَشَنْدَى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م.

«صُبْح الأعشى فى صناعة الإنشاء»، ١-١٤، طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩١٢-١٩٣٨.

القُصْبَى (أبو القاسم سعد بن عبد الله الأشعرى) المتوفى سنة ٣٠٠هـ/٩١٣م.

«المقالات والفرق»، تحقيق محمد مشكور، طهران ١٩٦٣.

الكِنْدَى (أبو عمر محمد بن يوسف) المتوفى سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م.

«كتاب الولاة وكتاب القضاة»، نشره رفن جست، سلسلة جب التذكارية - بيروت ١٩٠٨.

- المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله محمد بن عبد الله) المتوفى سنة ١٠٤٧/١٠٤٣٨ هـ .
- « رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية » ، ١-٣ ، تحقيق بشير البكوش ومراجعة محمد العروسي المطوى ، بيروت - دار الغرب الإسلامى ١٩٨٣ .
- ابن المأمون (الأمير جمال الدين أبو على موسى) المتوفى سنة ١١٩٢/١١٨٨ هـ .
- « أخبار مصر - نصوص من » ، حققها وكتب مقدمتها أيمن فؤاد سيد ، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٨٣ .
- الماززدي (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب) المتوفى سنة ١٠٥٨/١٠٤٥٠ هـ .
- « الأحكام السلطانية » ، عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبي ، القاهرة ١٩٠٩ .
- أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) المتوفى سنة ١١٧٤/١١٤٧٠ هـ .
- « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، ١-١٦ ، نشرة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٢٩-١٩٧٢ .
- محمد بن محمد اليماني ، عاش فى أواسط القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى .
- « سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدي صلوات الله عليه وآله الطاهرين من سَلَمِيَّة إلى سِجْلَمَاسَة وخروجه منها إلى رَقَاذَة » . تحقيق و . إيفانوف ، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦) ١٠٧-١٣٣ .
- المَحْزُومِي (القاضى السعيد ثقة الثقات ذو الرياستين أبو الحسين على بن أبى عمرو عثمان بن يوسف) المتوفى سنة ١١٨٩/١٠٨٥ هـ .
- « المُنْهَاج فى علم خراج مصر » ، مخطوطة المتحف البريطانى رقم Add. 23 483 ، ونشره كلود كاهن ، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار ١٩٨٦ (منتخبات) وانظر Cahen .
- المُسْتَبْحَى (الأمير المختار عزَّ الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد) المتوفى سنة ١٠٢٩/١٠٤٢٠ هـ .
- « أخبار مصر » ، الجزء الأربعون ، حققه أيمن فؤاد سيد وتيارى بيانكى ، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٧٨ .
- « نصوص ضائعة من أخبار مصر » ، اعتنى بجمعها أيمن فؤاد سيد . *An. Isl. XVII* (1981), pp. 1-54 .
- المشعودى (أبو الحسن على بن الحسين) المتوفى سنة ١٠٥٦/١٠٣٤٦ هـ .

- « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، ١-٧ ، طبعة بريه دى منار وبافيه دى كرتاى ، عنى بتحقيقها وتصحيحها شارل بلا ، بيروت - الجامعة اللبنانية ١٩٧٠-١٩٨٠ .
- مُصَنَّب الزُّبَيْرِى (أبو عبد الله المُصَنَّب بن عبد الله) المتوفى سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م .
- « نَسَب قُرَئِش » ، عنى بنشره إ. ليفى بروفسال ، القاهرة - دار المعارف ١٩٧٦ .
- المُقَدَّسى (محمد بن أحمد البشارى) المتوفى بعد سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م .
- « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، نشر دى خويه ، ليدن - بريل ١٩٠٦ .
- المُقَرِّزِى (تقى الدين أحمد بن على) المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م .
- « اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء » ، ١-٣ ، الأول تحقيق جمال الدين الشَّيَال ، الثانى والثالث تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٧-١٩٧٣ .
- « إغاثة الأمة بكشف العُتَّة » ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشَّيَال ، القاهرة ١٩٥٧ .
- « الخِطَط » = « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، ١-٢ ، بولاق ١٢٧٠هـ .
- « السُّلُوك لمعرفة دُول الملوك » ، ١-٤ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ودار الكتب المصرية ١٩٣٤-١٩٧٢ .
- « مُسَوَّدَة كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » ، حققها وكتب مقدمتها ووضع فهرسها أيمن فؤاد سيد ، لندن - مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ١٩٩٥ .
- « المُقَفِّى الكبير » ، ١-٨ ، تحقيق محمد اليعلاوى ، بيروت - دار الغرب الإسلامى ١٩٩١ .
- « النقود الإسلامية » ، نشرة القاهرة ١٩١٤ .
- أبو المكَارِم (المؤمن أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود) عاش فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى .
- « تاريخ الكنائس والأديرة » ، ١-٢ ، إعداد وتعليق الراهب صمويل السريانى ، القاهرة ١٩٨٤ ، والجزء الثانى بتحقيق B. T. A. Evetts لندن ١٨٩٥ . عندما نشر Evetts الجزء الثانى ، اعتمادًا على نسخة باريس ، نسب هذا الكتاب إلى أبى صالح الأرمنى . ولكن نسخة خطية مؤرخة فى سنة ١١٩١م ، كانت فى ملك أحد أقباط طنطا ، أُطْلِعَ عليها على مبارك الذى استفاد منها كثيرًا فى الجزء السادس من خِطَطِهِ وهو يتكلَّم عن كنائس

القاهرة، تثبت أن مؤلف الكتاب هو المؤمن أبو المكارم سعد الله Iscarus, T., «Un nouveau manuscrit sur les églises et monastères de l'Egypte au XII^e siècle» dans *Congrès International de Géographie*, Avril 1925, Le Caire 1926, V. pp. 207-208.

وقد نشر الراهب صمويل الكتاب اعتمادًا على صورة لهذه المخطوطة التي أُخرجت للأسف خارج مصر. وهذه النشرة، التي كتبها ناشرها بخط يده، لا تتناسب مع قيمة الكتاب وأهميته وفي حاجة إلى إعادة نشر بمنهج علمي.

ابن ممتي (أبو المكارم الأسعد بن مُهذَّب الخطير أبو سعيد بن مينا) المتوفى سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م.

«قوانين الدواوين»، حَقَّقَه عزيز سوريال عطية، القاهرة - الجمعية الملكية الزراعية ١٩٤٣.

المُنذَرِي (زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى) المتوفى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

«التكملة لوفيات الثَّقَلَة»، ١-٤، حَقَّقَه وعَلَّقَ عليه بشار غَوَّاد معروف، بيروت - مؤسسة الرسالة ١٩٨١.

المهدى عبد الله = في نسب الخلفاء الفاطميين.
مؤلف مجهول.

«أخبار الدولة المصرية» نشره كلود كاهن Cahen, Cl., «Un récit inédit du vizirat de Kâhân», *Dirghâm*, *An. Isl.* XIII (1969), pp. 27-46.

«الاستنبصار في عجائب الأمصار»، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الإسكندرية ١٩٥٨.
«العيون والحدائق في أخبار الحقائق»، الجزء الرابع/١-٢، تحقيق عمر السعيدى، دمشق - المعهد العلمى الفرنسى للدراسات العربية ١٩٧٤.

المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م.

«سيرة المؤيد في الدين داعى الدعاة - ترجمة حياته بقلمه»، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، القاهرة - دار الكاتب المصرى ١٩٤٩.

ابن مَيْسَر (ناج الدين محمد بن على بن يوسف بن جَلْب رَاغِب) المتوفى سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م.

«أخبار مصر - المنتقى من»، حَقَّقَه وكتب مقدمته وحواشيه أمين فؤاد سيد، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية ١٩٨١.

النابلسى (علاء الدين أبو عمرو عثمان بن إبراهيم) المتوفى بعد سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م.

«تجريد سيف الهمة لاستخراج ما فى ذمّة أهل الذمّة»، نشره كلود كاهن, Cahen, Cl.,

«Histoires coptes d'un Cadi médiéval», *BIFAO* LIX (1960), pp. 133-150 .

«لُح القوانين المُصَيِّة»، نشره كلود كاهن، *BEO* XVI (1958-60).

ناصر خسرو، قام برحلته بين سنتي ١٠٤٥/٤٣٧-١٠٥٢/٤٤٤.

«سَفَرَنَامَة» رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري،

نقلها إلى العربية يحيى الخشاب، بيروت - دار الكتاب الجديد. ١٩٧٠.

ابن النديم (محمد بن إسحاق) المتوفى نحو سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م.

«الفهرست» نشره رضا محمد، طهران ١٩٧١.

التُّوْبُخْتِي (أبو محمد الحسن بن موسى بن الحسن) المتوفى سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م.

«فِرَق الشَّيْخَة»، تحقيق هيلموت ريتز، استانبول ١٩٣١.

التُّوْبُورِي (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) المتوفى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م.

«نهاية الأرب في فنون الأدب»، الجزء الثامن، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٣١، الأجزاء ٢٣

و ٢٨ و ٣٠ تحقيق حسين نصار ومحمد محمد أمين ومحمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة - الهيئة

المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠-١٩٩٢.

النَّيْسَابُورِي (أحمد بن إبراهيم) كان يعيش في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

«استتار الإمام عليه السلام وتفروق الدعاة في الجزائر لطلبه»، نشره و. إيفانوف في مقاله

«مذكرات في حركة المهدي الفاطمي»، مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية ٤ (١٩٣٦) ٩٣-

١٠٧.

«الهداية الآمرية في إبطال الدعوى التزارية»، نشرها آصف على أضرَفَ فيضى في كلكتا سنة ١٩٣٨،

وجمال الدين الشيتال في «مجموعة الوثائق الفاطمية»، القاهرة - ١٩٥٨، ٢٠٥-٢٣٠.

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم الحموي) المتوفى سنة ٦٩٧هـ/١٢١٧م.

«مُفَرَّج الكروب في أخبار بني أيوب»، ١-٣، تحقيق جمال الدين الشيتال، القاهرة ١٩٥٣-

١٩٦٠، ٤-٥، تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٢-١٩٧٧.

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله) المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م.

«معجم الأدباء»، ١-٢٠، نشره أحمد فريد رفاعي، القاهرة - دار المأمون ١٩٣٦-١٩٣٨.

«معجم البلدان»، ١-٦، نشره وستفلد، لينتسج ١٨٦٦-١٨٧٠.

يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م.

« تاريخ »، نشره لويس شيخو مع كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » لابن البطريق، بيروت ١٩٠٨، واستخدمت في بعض المواضع نشرة كراتشكوفسكى وفازليف *Patr. Or. XVIII* (1924), pp. 699-833; XXIII (1932), pp. 347-504.

المراجع العربية والمقرونة

آدم متز: « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري »، أو « عصر النهضة في الإسلام »، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، ١-٢، تونس - الدار التونسية للنشر ١٩٨٦.
إبراهيم شُبوح: « حول منارة قصر الرباط بالمتشتر وأصولها المعمارية »، مجلة إفريقية ٣-٤ (١٩٧١) ٥-١٥.

_____ : « سجل قديم لمكتبة جامع القيروان »، مجلة معهد المخطوطات العربية ٢ (١٩٥٦)، ٣٣٩-٣٧٢.

إبراهيم طوخان: « التَّظْمُ الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى »، القاهرة - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٨.

أحمد السيد الصاوي، مجاعات مصر الفاطمية - أسباب ونتائج، بيروت - دار التضامن ١٩٨٨.
أحمد فكرى: « خصائص عمارة القاهرة في العصر الأيوبي »، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٦١-١٩٢.

_____ : « مساجد القاهرة ومدارسها »، الجزء الأول - العصر الفاطمي، القاهرة - دار المعارف ١٩٦٥.

أيمن فؤاد سيد: « تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري »، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٨.

_____ : « التطور العمراني لمدينة القاهرة منذ إنشائها وحتى الآن »، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧.

_____ : « تحوّل القاهرة إلى مركز اقتصادي في أواخر العصر الفاطمي وفي العصر الأيوبي »، في كتاب الحان الخليلي وما حوله، مركز تجارى وحرفى للقاهرة من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٩٩، ١٥٧-١٦٠.

— : « تنظيم العاصمة المصرية وإدارتها في زمن الفاطميين » ، حوليات إسلامية ٢٤ (١٩٨٨) ، ١-١٣ .

— : « خزانة كتب الفاطميين هل بقي منها شيء ؟ » ، مجلة معهد المخطوطات العربية ١/٤٢ (١٩٩٨) ، ٧-٣٢ .

— : « دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين في مصر » ، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٨٢ ، ١٢٩-١٧٩ .

— : « الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات » ، ١-٢ ، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧ .

— : « المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي » في كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ، سلسلة تاريخ المصريين ٥١ ، القاهرة ١٩٩٢ ، ٨٧-١٣٦ .

— : « مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي » ، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٧٤ .

وانظر : ابن الصِّيرَفِي ، ابن الطُّوَيْر ، ابن عبد الظاهر ، ابن المأمون ، المُسَبِّحِي ، المقرئِي ، ابن مُيَسَّر ، Fu'ād Sayyid, A. .

البيزَوي = راشد .

جمال محمد محرز : « الخزف الفاطمي ذو البريق المعدني في مجموعة الدكتور على إبراهيم باشا » ، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ٧ (١٩٤٤) ١٤٣-١٦٧ .

حسن إبراهيم حسن : « تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب » ، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ .

— : « الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » ، القاهرة - المطبعة الأميرية ١٩٣٢ .

حسن الباشا : « التصوير الإسلامي في العصور الوسطى » ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٥٩ .

— : « الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية » ، ١-٣ ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٦٥-١٩٦٦ .

حسن عبد الوهاب : « تاريخ المساجد الأثرية » ، ١-٢ ، القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٤٦ .

حسين محمد ربيع : « حجة تملك ووقف » ، المجلة التاريخية المصرية ١٢ (١٩٦٤-٦٥) ، ١٩١-٢٠٢ .

حسنين محمد ربيع : « التَّظَنُّمُ المَالِيَّةُ فِي مِصْرَ زَمَنِ الأيوبيين » ، القاهرة - مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤ .

— : « وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور

الوسطى » ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ١٩٧٩ ، ٢ : ١٣١-١٤٤ .

حسين مؤنس : « المسلمون في حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية » ، المجلة التاريخية المصرية ٤ (مايو ١٩٥١) .

درويش النخيلي : « السفن الإسلامية على حروف المعجم » ، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤ .

الدوري ، عبد العزيز : « تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري » ، بيروت - دار المشرق ١٩٧٤ .

راشد البزواوي : « حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين » ، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .

زكي محمد حسن : « الفن الإسلامي في مصر » ، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٣٥ .

— : « كنوز الفاطميين » ، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٣٧ .

سعاد ماهر محمد : « النسيج الإسلامي » ، القاهرة ١٩٧٧ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : « شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية » ، المجلة التاريخية المصرية ١٦ (١٩٦٩) ١٥-٦٦ .

— : « البنية البشرية لجيوش صلاح الدين » ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ١٠/٣٧ (١٩٩٠) ٩-٣٦ .

سلام شافعي محمود سلام : « أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول » ، سلسلة تاريخ المصريين ٧٥ ، القاهرة - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥ .

— : « أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي » ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٢ .

السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي : « تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام » ، ١-٢ ، بيروت - جامعة بيروت العربية ١٩٧٢ .

سيدة إسماعيل كاشف : « مصر في عصر الإخشيديين » ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٧٠ .

— : « مصر في فجر الإسلام » ، بيروت - دار الرائد العربي ١٩٨٦ .

الشَّيْثَال، جمال الدين: «أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية»، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١١ (١٩٥٧) ٣-٢٩.

—: «مجموعة الوثائق الفاطمية»، القاهرة - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٨.

صابر محمد دياب: «سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثاني الهجري حتى نهاية العصر الفاطمي»، القاهرة - عالم الكتب ١٩٧٣.

صلاح الدين البحيري: «ديوان الجيش في الدولة الأيوبية»، الموسم الثقافي - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٨٧، ١٦٩-١٩٠.

صلاح الدين المتَّجِد: «ولاة دمشق في العهد السلجوقي» - نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر، دمشق ١٩٤٩.

طه السيد أبو سنديرة: «الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي»، الألف كتاب الثاني ٩٥، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١.

عبد المنعم سلطان: «المجتمع المصري في العصر الفاطمي - دراسة تاريخية وثائقية»، القاهرة - دار المعارف ١٩٨٥.

عثمان الكَكاك: «مَشَلَّك القاهرة»، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، القاهرة ١٩٧١، ٧٧٧-٨٣٢.

علي مبارك: «الخطط التوفيقية الجديدة»، ١-٨، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٦٩-١٩٩٠.
عمر السعيدى: «انتقال الفاطميين إلى مصر»، ملتقى القاضي النعمان للدراسات الفاطمية - الدورة الثانية - تونس ١٩٨١، ١٣٩-١٤٩.

فريد شافعي: «مميزات الأخشاب المزخرفة في الطرازين العباسي والفاطمي في مصر»، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٦ (مايو ١٩٥٤) ٥٧-٩٤.

فَيْت، جاستون: «دليل موجز لمعرضات دار الآثار العربية»، ترجمه بتصرف زكى محمد حسن، القاهرة ١٩٣٩.

قاسم عبده قاسم: «ماهية الحروب الصليبية»، الكويت - عالم المعرفة (١٤٩) ١٩٩٠.

كوهن، مارك: «المجتمع اليهودي في مصر الإسلامية في العصور الوسطى»، جامعة تل أبيب ١٩٨٧م.

- لويس ، برنارد : « النقابات الإسلامية » ، ترجمة عبد العزيز الدورى ، مجلة الرسالة ٨ (١٩٤٠) ٦٩٦-٦٩٨ ، ٧٣٥-٧٣٧ ، ٧٨٦-٧٨٨ ، ٩٧٣-٩٧٥ .
- ماجد ، عبد المنعم : « أصل حفلات الفاطميين فى مصر » ، صحيفة للمعهد المصرى للتراثات الإسلامية فى مدريد ٢ (١٩٥٤) ، ٢٥٣-٢٥٧ .
- _____ : « ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر » ، القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٩٤ .
- _____ : « نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر » ، ١-٢ ، القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٣-١٩٥٥ .
- محسن محمد حسين : « الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين » ، بيروت - مؤسسة الرسالة ١٩٨٦ .
- محمد جمال الدين سرور : « الدولة الفاطمية فى مصر - سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها » ، القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٧٠ .
- محمد أبو الفرج الثعلبى : « مصر - القاهرة على النقود العربية الإسلامية » ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٧١ ، ٩٠٥-٩٩٥ .
- محمد رمزى : « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ » ، ١-٥ ، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٥٣-١٩٦٨ .
- محمد عبد العزيز مرزوق : « الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية » ، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٤٢ .
- محمد كامل حسين : « طائفة الإسماعيلية ، تاريخها ، نظمها ، عقائدها » ، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ .
- _____ : « فى أدب مصر الفاطمية » ، القاهرة - دار الفكر العربى ١٩٧٠ .
- محمد محمد أمين : « الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ٦٤٨-٩٢٣/١٢٥٠-١٥١٧ » ، دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٨٠ .
- محمد محمود إدريس : « تاريخ الحضارة الإسلامية - العصر الفاطمى » ، القاهرة - مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٦ .
- المنادى ، محمد حمدى : « الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى » ، القاهرة - دار المعارف ١٩٧٠ .

- نزار الصبياد : «المدن والعمران في صدر الإسلام»، النامة - بيت القرآن ١٩٩٦.
- وليم الصوري : «الحروب الصليبية»، ١-٤، ترجمة وتعليق حسن حبشي، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب (تاريخ المصريين) ١٩٩١-١٩٩٥.
- يحيى الخشاب : «وصف مصر من كتاب السفرنامة لناصر خسرو»، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٧١، ١٣٠٧-١٣١٢.

المراجع الأجنبية

- Allouche, A., «The Establishment of Four Chief Judgeships in Fatimid Egypt», *JAOS* 105 (1985), pp. 317-320.
- Ashtor, E., *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, London, Collins 1976.
- Bacharach, J. L., «African Military Slaves in the Medieval Middle East, The Cases of Iraq (869-955) and Egypt (869-1171)», *JMES* 13 (1981), pp. 471-95.
- Behrens Abouseif, D., «The Façade of the Aqmar Mosque in the Context of Fatimid Ceremonial», *Muqarnas* 9 (1993), pp. 29-38.
- Beshir, B.I., «Fatimid Military Organization», *Der Islam* LV (1978), pp. 37-56.
- , «New Light on Nubian Fatimid Relations», *Arabica* XXII (1975), pp. 15-24.
- Bianquis, Th., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide (359-468/969-1076)*, I-II Damas IFD 1986-89.
- , «Al-Hâkim bi amr Allâh ou la folie de l'unité chez un souverain fatimide», *les Africains* XI (1978), pp. 107-133.
- , «La prise du pouvoir par les Fatimides en Egypte», *An. Isl.* XI (1972), pp. 49-108.
- , «Une crise frumentaire dans l'Egypte fatimide», *JESHO* XXIII (1980), pp. 67-101.
- , «Le fonctionnement des dîwân financiers d'après al-Musabbihî», *An. Isl.* 26 (1992), pp. 47-61.

- Blachère, R., «La fondation du Caire et la renaissance de l'humanisme Arabo-Islamique au IV^e siècle», *CIHC*, pp. 95-96.
- Blake, H., Hutt, A. and Witehouse, D., «Ajdābiyah and the Earliest Fātimid Architecture», *Lybya Antique VIII* (1971), pp. 105-120.
- Bloom, J.M., «The Blue Koran : an early fatimid kufic manuscript from the Maghrib», dans *Les Manuscrits du Moyen Orient*, Paris 1989, pp. 95-99.
- Brett, M., «The Battles of Ramla (1099-1105)», in *Egypt and Syria in the Fatimid Ayyubid and Mamluk Eras*, Leuven 1995, pp. 45-59.
- , «The Origins of the Mamluk Military System in the Fatimid Period», in *Egypt and Syria in the Fatimid Ayyubid and Mamluk Eras*, Leuven 1995, pp. 39-52.
- , «The Way of the Peasant», *BSOAS* 47 (1984), pp. 52-55.
- Brockelmann, C., *GAL = Geschichte der arabischen Litteratur* Bd I-II Leiden 1943-49; Suppl. I-III, Leiden 1937-42.
- Cahen, Cl., «L'administration financière de l'armée fatimide d'après al-Makhzûmî», *JESHO XV* (1973), pp. 163-182.
- , «Le commerce d'Amalfie dans le Proche-Orient musulman avant et après la Croisade», *Comptes rendus d'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* (1977) pp. 292-294.
- , «L'évolution de l'*iqṭā'* du IX^e au XIII^e siècle, contribution à une histoire comparée des sociétés médiévales», *Annales ESC VIII* (1953), pp. 25-52.
- , «Les marchands étrangers au Caire sous les Fatimides et les Ayyoubides», *CIHC*, pp. 97-101.
- , *Makhzûmiyyât-Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Egypte médiévale*, Leiden-Brill 1977.
- , *Orient et Occident au temps des Croisades*, Paris- Aubier-Montaigne 1986.
- , «Quelques chroniques anciennes relatives aux derniers Fatimides», *BIFAO XXXVII* (1937-38), pp. 1-27.
- , «Un récit inédit du vizirat du Dirghâm», *An. Isl. VIII* (1969), pp. 27-46.

- , «Un texte peu connu relatif au commerce oriental d'Amelfie au X^e siècle», *Archivio storico per le provencio napolitane* (1953-54), pp. 3-8 .
- , «Un traité d'armurerie composé pour Saladin», *BEO* XII (1947-48), pp. 103-163 .
- , «Y'a-t-il eu des corporations dans le monde musulman médiéval», in *The Islamic City*, ed. S.M. Stern & A. Hourani, Oxford 1970, pp. 51-63 .
- Canard, M., «Le cérémonial fatimide et le cérémonial byzantin, Essai de comparaison», *Byzantion* XXI (1951), pp. 355-420.
- , «L'imperialisme des Fatimides et leur propagande», *AIEO* VI (1947), pp. 156-193 .
- , «Notes sur les Arméniens en Egypte à l'époque fatimite», *AIEO* XIII (1955), pp. 143-157 .
- , «La procession du nouvel an chez les Fatimides», *AIEO* X (1952), pp. 364-395.
- , «Un vizir chrétien à l'époque fatimide : l'Arménien Bahram», *AIEO* XII (1954), pp. 84-157 .
- , «Une lettre du calife al-Hâfiz à Roger II» dans *Atti del convegno Internazionale di Studi Ruggeriani*, Palerme 1955, pp. 125-146 .
- Constantin VII Porphyrogénète, *Le Livre de Cérémonies*, I-II, texte établi et traduit par Albert Vogt, Paris 1935-39.
- Contadini, A., *Fatimid Art at the Victoria and Albert Museum*. London- V & A Publications 1998.
- Cooper, R.S., «The Assessment and Collection of Kharaj Tax in Medieval Egypt», *JAOS* 96 (1976), pp. 365-382 .
- Creswell, K.A.C., *MAE : The Muslim Architecture of Egypt*, I. Ikhshids and Fatimids, Oxford 1952 .
- Dachraoui, F., *Le califat fatimide au Maghreb 296-362/909-973. Histoire politique et institutions*, Tunis STD 1981 .
- , «Le commencement de la prédication ismâ'ilienne en Ifriqiya», *SI* 20 (1964), pp. 89-102.

- Dadoyan, Seta B., *The Fatimid Armenians: Cultural and Polititcal Interaction in the Near East*, Leiden - Brill 1997.
- Daftary, F., «The Earliest Ismā'ilis», *Arabica* XXXVIII (1991), pp. 214-245.
- , *The Ismā'ilis, Their history and doctrines*, Cambridge University Press 1995.
- , «A Major Schism in the Early Ismā'ili Movement», *SI* 77 (1993), pp. 123-139.
- , *Mediaeval Ismā'ili History and Thought*, (ed.by), Cambridge University Press 1996.
- , «Hasan Sabbāh and the Origins of the Nizāri Ismā'ili movement», in *Mediaeval Ismā'ili History and Though* (ed.by F. Daftary), pp. 181-204.
- Daghfous, R., «Aspects de la situation économique de l'Egypte au milieu du V^e siècle/ milieu du XI^e siècle : Contribution à l'étude des conditions de l'immigration des tribus arabes (Hilāl et Sulaym) en Ifriqiya», *CT* XXV (1977), pp. 23-50 .
- Den Heijer, J., «Coptic Historiography in the Fatimid, Ayyubid and Early Mamluk Periods», *Medieval Encounters*. 2/1 (1996), pp. 67-98.
- , *Mawhūb Ibn Mansūr Ibn Mufarrig et l'Historiographie Copto-Arabe*, Lovanii 1989.
- De Smet, D., «Comment déterminer le début et la fin du jeûne de Ramadan? Un point de discorde entre sunnites et ismaéliens en Egypte fatimide», in *Egypt and Syria in the Fatimid Ayyubid and Mamluk Eras*, pp. 71-81.
- , «Les interdictions alimentaires de calife fatimide al-Hâkim: marques de folie ou annonce d'un règne messianique?» in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, pp. 53-70.
- Dozy, R., *Supplément aux Dictionnaires Arabes* I-II, Paris 1927 .
- Eche, Y., *Les bibliothèques publiques et semi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen Age*, Damas IFD 1967 .
- Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, voir Vermeulen, U., editor.

- Ehrenkreutz, A.S. & Heck, G.W., «Additional Evidence of the Fatimid Use of Dinars for Propaganda Purposes», in Sharon, M. (ed.) *Studies in Islamic History and Civilization in Honour of Professor David Ayalon*, Brill-Leiden 1986, pp. 145-151.
- Ehrenkreutz, A.S., «Arabic dinars struck by the Crusaders», *JESHO* V (1964), pp. 167-182 .
- , «Contributions of the Knowledge of the fiscal administration of Egypt in the Middle Ages», *BSOAS* XVI (1954), pp. 502-514 .
- , «The Fiscal Administration of Egypt in the Middle Ages», *BSOAS* XVI (1954), pp.
- , *Saladin*, N.Y. Albany 1972 .
- , «Saladin coup d'état in Egypt», in *Medieval and Middle Eastern Studies in honour of Aziz Suryal Atiya*, edited by Sami A. Hanna, Leiden 1972, pp. 144-157.
- Eisenstein, H., «Die Wezire Ägyptens unter al-Mustansir A.H. 452-466», *WZKM* 77 (1987), pp. 37-50.
- Elisséeff, N., *Nûr al-Din, un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades*, I-III, Damas IFD 1967 .
- Espéronnier, M., «Les fêtes civiles et les cérémonies d'origine antique sous les Fatimides d'Egypte», *Der Islam* 65 (1988), pp. 46-59.
- Ettinghausen, R., «Painting in the Fatimid Period : A Reconstruction», *Ars Islamica* IX (1942), pp. 112-124 .
- Fischel, W.J. *Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Islam*, N.Y. 1969.
- Fu'âd Sayyid, A., *La capitale de l'Egypte jusqu'à l'époque fatimide (al-Qâhira et al-Fustât) - Essai de reconstitution topographique*, Beirut, BTS 48, 1998.
- , «L'évolution de la composition du genre des Khitat en Egypte musulmane», *An. Isl.* XXXIII (1999), pp. 1-11.
- , «Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Egypte», *An. Isl.* XIII (1977), pp. 1-41.
- Garcin, J.-Cl., «Habitat médiéval et histoire urbaine à Fustat et au Caire» dans *Palais et Maisons du Caire* I. Epoque Mamelouke, CNRS Paris 1982, pp. 145-217 .

———, *Un centre musulman de la Haute Egypte médiéval: Qûs*, Le Caire IFAO 1976.

Goitein, S.D., *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*.

I. Economic Foundations .

II. The Community .

III. The Family .

IV. Daily Life .

V. The Individual., University of California Press 1967-1989.

———, «Cairo, an Islamic City in the Light of the Geniza Documents» in Lapidus, Ira M. (ed), *Middle Eastern Cities*, Berkeley 1969, pp. 80-96.

———, «From the Mediterranean to India : Documents on the Trade to India, South Arabia, and East Africa from the Eleventh and Twelfth Centuries», *Speculum* XXXIX (1954), pp. 181-197.

———, «Mediterranean Trade in the Eleventh Century : Some Facts and Problems», in Cook, M.A. (ed.) *Studies in the Economic History of the Middle East*, London - Oxford University Press 1970, pp. 51-62.

———, *Studies in Islamic History and Institutions*, Leiden-Brill 1966.

Gottheil, R., «A Distinguished Family of Fatimid Cadis (Al-Nuʿman) in the Tenth Century», *JAOS* 27 (1906), pp. 217-296.

Grabar, O., «Imperial and Urban Art in Islam : The Subject Matter of Fatimid Art», *CIHC*, DDR 1973, pp. 173-189.

Grunebaum, G.V., «The Nature of the Fatimid Achievement», *CIHC*, DDR 1973, pp. 199-215.

Halm, H., *The Empire of the Mahdi - The Rise of the Fatimids*, translated from the German by Michael Bonner, Leiden - Brill 1995.

———, *The Fatimids and their Traditions of Learning*, London - The Institute of Ismaili Studies 1997.

———, «The Ismaʿli Oath of Allegiance (*ʿahd*) and the Session of Wisdom (*majâlis al-hikma*) in Fatimid Times», in Daftary, F., ed., *Medieval Ismaʿili History and Thought*, Cambridge 1996, pp. 91-115.

Hamdani, A., «Byzantine-Fatimid Relations before the Battle of Manzikert», *Byz. St.* 1/2 (1974), pp. 169-179.

———, «Some Considerations on the Fatimid Caliphate as a Mediterranean Power, Including an Interpretation of the Fatimid Split with the Qarmatians» in *Atti del Terzo Congresso di Studi Arabi E Islamici*, Ravello-Napoli 1967, pp. 385-396.

Hamdani, A. S de Blois, F., «A Re-examination of al-Mahdi's Letter to the Yemenites on the Genealogy of the Fatimid Caliphs», *JRAS* (1983), pp. 173-207.

Hassan, Z.M. *Les Tulunides, études de l'Égypte musulmane à la fin du IX^e siècle* 868-905, Paris 1937.

Hawwari (al-), H., «Trois minarets fatimides à la frontière nubienne», *BIE XV*, (1934-35), pp. 141-153.

Idris, H.R., *La Berbérie Orientale sous les Zirides X^e-XII^e siècles*, I-II, Paris 1962.

Imad (al-), Leila Sami, *The Fatimid Vizierate 969-1172*, Berlin - Klaus Schwarz 1990.

Khan, G., *Arabic Legal and Administrative Documents in the Cambridge Genizah Collection*, Cambridge University Press, 1993.

———, «A Copy of a Decree from the Archives of the Fatimid Chancery in Egypt», *BSOAS* 49 (1986), pp. 439-458.

Köhler, M.A., «Al-Afdal und Jerusalem - was versprach sich Ägypten vom ersten Kreuzzug», *Saeculum* 37 (1986), pp. 228-239.

Kubiak, W., «The Burning of Misr al-Fustat in 1168. A Reconsideration of Historical Evidence», *Africana Bulletin* XXV (1976), pp. 51-64.

———, *Al-Fustat, Its Foundation and Early Urban Development*, Cairo AUC 1987.

Lapidus, I., «Ayyubid Religious Policy and the Development of the Schools of Law in Cairo», *CIHC*, pp. 283-84.

Leiser, G., «The Madrasa and the Islamization of the Middle East- The Case of Egypt», *JARCE* XII (1985), pp. 29-47.

———, «Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society», *MWLXXVI* (1986), pp. 3-27.

- Lindsay, J.E., «Prophetic Parallels in Abu 'Abd Allah al-Shi'i's Mission among the Kutāma Berbers, 893-910», *IJMES* 24 (1992), pp. 39-56.
- Lev, Y., «Army, Regime and Society in Fatimid Egypt 358-487/968-1094», *IJMES* 19 (1987), pp. 337-366.
- , «The Fatimid Conquest of Egypt-Military, Political and Social Aspects», *Isr. Or. St.* IX (1979), pp. 315-328.
- , «The Fatimids and Egypt 301-358/914-969», *Arabica* XXXV (1988), pp. 186-196.
- , «Fatimid Policy Towards Damascus (358/968-386/966)-Military, Political and Social Aspects», *Jersusalem Studies in Arabic and Islam* III (1981-82), pp. 165-183.
- , «The Fatimid Princess Sitt al-Mulk», *JSS* XXXII (1987), pp. 319-328.
- , «The Fatimid Vizier Ya'qūb Ibn Killis and the Beginning of the Fatimid Administration in Egypt», *Der Islam* 58 (1981), pp. 237-249.
- , «Regime, Army and Society in Medieval Egypt, 9 TH-12 TH Centuries in Lev, Y. (ed.), *War and Society in the Eastern Mediterranean, 7TH-15TH Centuries*, Leiden-Brill 1997, pp. 115-152.
- , *Saladin in Egypt*, Leiden-Brill 1999.
- , *State and Society in Fatimid Egypt*, Leiden-Brill 1991.
- Lewis, B., «An Interpretation of Fatimid History», *CIHC*, DDR 1973, pp. 287-295.
- , «The Fatimid and the Route to India», *Revue de la Faculté des Sciences économiques-Université d'Istanbul* XI (1949-50), pp. 50-54.
- Lombarb, M., «L'or musulman du VII^e au XI^e siècles», *Annales ESC* II (1947), pp. 143-160.
- Miles, G., *Fatimid Coins*, N.Y. 1952.
- Pellat, Ch., *Cinq Calandriers Egyptiens*, Le Caire- IFAO 1986.
- Poonawala, I.K., *Bibliography of Ismā'ili Literature*, Malibu, Calif., 1977.
- Quatremère, E., «Mémoires historiques sur la dynastie des khalifes fatimites», *JA* 3^e série II (1936), pp. 97-142.

- Rabie, H., *The Financial System of Egypt A.H. 564-641 A.D. 1169-1341*, London 1972.
- Ragib, Y., «Un épisode obscure d'histoire fatimide», *SI* XLVIII (1978), pp. 125-132.
- Runciman, S., *A History of the Crusades*, I. The First Crusade and the Foundation of the Kingdom of Jerusalem, Cambridge University Press 1951 (Reprinted 1988).
- Sanders, P., «Claiming the Past: Ghadir Khumm and the Rise of Hâfizi Historiography in Late Fatimid Egypt», *SI* 75 (1992), pp. 81-104.
- , «From Court Ceremony to Urban Language: Ceremonial in Fatimid Cairo and Fustât» in *The Islamic World from Classical to Modern Times (Essay in Honor of Bernard Lewis)*, Princeton NJ; Darwin Press 1989, pp. 311-321.
- , «A New source for the History of Fatimid Ceremonial: The *Rasâ'il al-'Amidi*», *An. Isl.* XXV (1991), pp. 127-131.
- , *Ritual, Politics, and the City in Fatimid Cairo*, State University of New York Press, Albany 1994.
- Sayad, H.I., «The Development of the Cairene Qâ'a: Some Considerations», *An. Isl.* XXIII (1987), pp. 31-53.
- Schlumberger, G., *Campagnes du Roi Amaury I^{er} de Jérusalem en Egypte au XII^e siècle*, Paris 1906.
- Serjeant, R.B., *Islamic Textiles. Material for a History up to the Mongol Conquest*, Beirut-Librairie du Liban 1972.
- Shaban, M. Ab., *Islamic History A.D. 750-1055 (A.H. 132-448). A New Interpretation*, Cambridge 1976.
- Smoor, P., «The Master of the Century: Fatimid Poets in Cairo» in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, pp. 139-163.
- Stern, S.M., «Cairo as the Centre of the Isma'li Movement», *CIHC*, pp. 437-450.
- , «Epistle of the Fatimid Caliph al-Amir (*al-Hidâya al-Amiriyya*) - Its Date and its Purpose», *JRAS* (1950), pp. 20-31.
- , «A Fatimid Decree of the Year 524/1130», *BSOAS* 23 (1960), pp. 439-455.
- , *Fatimid Decrees-Original Documents from the Fatimid Chancery*, London 1964.

- , «Heterodox Ismailism at the Time of al-Mu'izz», *BSOAS* XVII (1955), pp. 10-33.
- , «An Original Document from the Fatimid Chancery concerning Italian Merchants», *Studi Orientalistici in Onore di Giorgio Levi della Vida*, Roma 1956, II, pp. 529-38.
- , «A Petition to the Fatimid Caliph al-Mustansir concerning a Conflict within the Jewish Community», *Revue des études Juives* 128 (1969), pp. 203-215.
- , *Studies in Early Ismailism*, Jerusalem, Magnes Press 1983.
- , «The Succession of the Fatimid Imam al-Amir, the Claims of the Later Fatimid to the Imamate, and the Rise of Tayyibi Ismailism», *Oriens* IV (1951), pp. 193-255.
- , «Three Petitions of the Fatimid Period», *Oriens* 15 (1962) pp. 172-209.
- Stilmann, N.A., «The Eleventh Century Merchant House of Ibn Awkal (A Geniza Study)», *JESHO* XVI (1973), pp. 15-88.
- Talbi, M., *L'Emirat Aghlabide 184-296/800-909-Histoire politique*, Paris-Adrien Maisonneuve 1966.
- Vermulén, U. & De Smet, D., (eds.) *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, Orientalia Lovaniensia Analecta 73-Vitgeverij Peeters Leuven 1995.
- Walker, P., *A Bibliography of Modern Fatimid Studies*, Compiled by, Chicago 1998.
- , «Fatimid Institutions of Learning», *JARCE* 34 (1997), pp. 179-200.
- , «The Ismaili Da'wa in the Reign of the Fatimid Caliph al-Hâkim», *JARCE* 30 (1993), pp. 160-182.
- , «Succession to Rule in the Shiite Caliphate», *JARCE* 32 (1995), pp. 239-264.
- Wiet, G., *CIA = Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicum*, I^{re} partie-Egypte II, Le Caire-IFAO 1929-30.
- , *L'Egypte Arabe dans «Histoire de la Nation Egyptienne»* publié sous la direction de G. Hanotaux t. IV, Paris 1937.

Wiet, G. Combe, E., & Sauvaget, J., *RCEA = Répertoire chronologique d'Epigraphie Arabe I-XVI*, Le Caire - IFAO 1931-64.

Williams, C., «The Cult of Alid Saints in the Fatimid Monuments of Cairo»

Part I : «The Mosque of al-Aqmar», *Muqarnas* I (1983), pp. 37-52.

Part II : «The Mausolea», *Muqarnas* III (1985), pp. 39-69.

الرموز والاختصارات

ABRÉVIATIONS

AIEO	= <i>Annales de l'Institut des Études Orientales</i> (Alger).
AION	= <i>Annali del Istituto Orientale di Napoli</i> (Naple).
Annales ESC	= <i>Annales, Economies - Sociétés - Civilisations</i> (Paris).
An. Isl.	= <i>Annales Islamologiques</i> (Le Caire).
BEO	= <i>Bulletin d'Études Orientales</i> (Damas).
BIE	= <i>Bulletin de l'Institut d'Égypte</i> (Le Caire).
BIFAO	= <i>Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale</i> (Le Caire).
BSAC	= <i>Bulletin de la Société d'Archéologie Copte</i> (Le Caire).
BSOAS	= <i>Bulletin of the School of Oriental and African Studies</i> (London).
BTS	= <i>Beiruter Texte und Studien</i> (Beirut).
Byz. St	= <i>Byzantine Studies</i> .
CIA	= <i>Corpus Inscriptionum Arabicum</i> .
CIHC	= <i>Colloque International sur l'Histoire du Caire</i> , DDR 1973.
CNRS	= <i>Centre National de Recherches Scientifiques</i> (Paris).
CT	= <i>Les Cahiers de Tunisie</i> (Tunis).
EI ¹	= <i>Encyclopédie de l'Islam</i> (1 ^{ère} édition).
EI ²	= <i>Encyclopédie de l'Islam</i> (2 ^{ème} édition).
GAL	= <i>Geschichte der arabischen Litteratur</i> .
GAS	= <i>Geschichte des arabischen Schrifttums</i> .
IC	= <i>Islamic Culture</i> .
IFAO	= <i>Institut Français d'Archéologie Orientale</i> (Le Caire).
IF(EA)D	= <i>Institut Français (d'Études Arabes) de Damas</i> (Damas).

IJMES	= <i>International Journal of Middle Eastern Studies</i> (U.S.A.)
Isr.Or.St.	= <i>Israil Oriental Studies</i> (Tel-Aviv).
JA	= <i>Journal Asiatique</i> (Paris).
JAOS	= <i>Journal of the American Oriental Society</i> (U.S.A.).
JARCE	= <i>Journal of the American Research Center in Egypt</i> (Cairo).
JBBRAS	= <i>Journal of the Bengal Branch of the Royal Asiatic Society.</i>
JESHO	= <i>Journal of the Economic and Social History of the Orient</i> (Leiden).
JNES	= <i>Journal of Near Eastern Studies</i> (U.S.A.).
JRAS	= <i>Journal of the Royal Asiatic Society</i> (London):
JSS	= <i>Journal of Semitic Studies.</i>
MAE	= <i>Muslim Architectur of Egypt.</i>
MUSJ	= <i>Mélanges de l'Université Saint-Joseph</i> (Beirut).
MW	= <i>Muslim World.</i>
PO	= <i>Patralogia Orientalis.</i>
RCEA	= <i>Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe.</i>
REI	= <i>Revue des Études Islamiques</i> (Paris).
REJ	= <i>Revue des Études Juives</i> (Paris).
RSO	= <i>Rivista degli Studi Orientale</i> (Rome).
SI	= <i>Studia Islamica</i> (Paris).
WZKM	= <i>Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes .</i>
ZDMG	= <i>Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft.</i>

الكشافات

١- الأعلام

- الآمر بأحكام الله ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٣-
 ٢٤٢، ٢٤٩، ٣١٨، ٣٣٢، ٣٣٧، ٣٥٣،
 ٣٩٨، ٤١١، ٤١٢، ٤٤٩، ٤٩٢، ٥٨٩،
 ٦١٨ .
 إبراهيم بن نجح المَعْدِل، وكيل التجار ٤٨٩ .
 إبراهيم بن سَهْل التَّشْتَرى، أبو سعد ١٩٨، ١٩٩،
 ٣٢٦ .
 إبراهيم الكاتب السامري، أبو يعقوب ٢٣٩ .
 أنيسرُزَا ١٩٦، ٢١٣ .
 أحمد حميد الدين بن عبد الله بن محمد الكِزْمَانى
 ١٧٦ .
 أحمد بن طولون ٤٨٣، ٥١٢، ٧٢٩ .
 أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقى ٥٨٠ .
 أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى عقيل
 ٣٦٤، ٣٦٦ .
 أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم ٦٠٤،
 ٦٠٥ .
 أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم ٥٨٠ .
 أحمد بن عبد الله بن الحَطَّيْجَة ٣٦٥ .
 أحمد بن محمد بن مُدَبَّر ٥١٢ .
 أخت نزار ٢٢٤ .
 الأخزم بن أبى زكري (زكريا) الثَّغْرَانى، صنيعة
 الخلافة أبو الكرم ٢٧٣، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣ .
 أرسانيوس Arsenius، مطران القاهرة والفسطاط ١٥٦ .
 أرسنس Aureste، مطران بيت المقدس ١٥٦ .
 أبو أسامة جُنَادَة بن محمد اللغوى ١٦٥، ٥٨٦ .
 أسامة بن مُتَقِد ٢٦٩، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٧٩،
 ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣ .
 أسد الدين شيركوه = شيركوه .
 ابن الأَشْفَف، أبو الفضل متوَلَّى ديوانى المجلس
 والنظر ٢٢٨، ٣٢٨ .
 إسماعيل بن جعفر الصادق ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٧،
 ١٠١، ١٥٧، ٢٤٤ .
 إسماعيل بن مكى، الفقيه أبو الطاهر بن عَوْف
 ٢٦٧، ٥٩٢ .
 أغريغوريوس، بطرك الأرمن ٢٥٩، ٦٧٠ .
 افتخار الدولة والى بيت المقدس ٦٧٧ .
 أفتكين التركى، ناصر الدولة ٢٢١، ٢٢٢ .
 أفتكين (ألبتكين) التركى، مولى معز الدولة بن بويه
 ١٥٨، ٦٦٤، ٦٦٥ .

أفرهام السرياني، البطرك ١٥٥ .

٢٦٠، ٢٥٩، ٢٥٥، ٢٣٧، ٢١٩، ٢١٨

٣١٦، ٣٢١، ٣٢٦، ٦٧١، ٦٧٣، ٧١٠ .

بَرْجَوَان ١٦٢، ١٦٣ .

الْأَفْضَل (شاهنشاه) بن بدر الجمالي ٢١٦، ٢١٧،

٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧،

٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٧، ٢٧٣، ٣١٨، ٣٢٥،

٣٢٨، ٣٥٣، ٣٨٥، ٤١١، ٥٩٦،

٦٠٤، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٩، ٦٨٤ .

الْأَفْضَل كُتَيْبَات، أبو علي أحمد بن شاهنشاه

٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٨، ٢٥١، ٣١٨، ٣٤٨،

٦٩٢ .

أَلْب أُرْسْلَان ٢٠٢ .

إلْدَكْر ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤ .

أَلْكْسْيُوس كُومَنْتِين ٦٧٨ .

أُم الْمُسْتَصِر ١٩٧، ١٩٨ .

= وَالِدَةُ الْمُسْتَصِر .

أَمِير الْجِيُوش = بَدْر الْجَمَالِي .

أَمِين الدَّوْلَةِ لَآوُون ٢١٩ .

أَمِين الدَّوْلَةِ بِن عَمَّار = الْحَسَن بِن عَمَّار .

أَمِين الدَّوْلَةِ كَمُشْتَكِين الْأَنَابِكِي ٢٦٨، ٢٦٩ .

أَنُوشْتَكِين الدَّزْبُورِي، أَمِير الْجِيُوش ١٨٥، ١٨٧ .

الْأَوَّخْد إِبْرَاهِيم أَخُو رِضْوَان بِن وَخْشِي ٢٦٢ .

الْأَوَّخْد بِن بَدْر الْجَمَالِي ٢١٨، ٥٣٨ .

أَيُوب بِن شَادِي، نَجْم الدِّين وَالِد صِلَاح الدِّين

٣٠٣، ٣٠٨ .

الْبَاسَاك أَخُو بَهْرَام، وَالِي قُوص ٢٦٢، ٢٦٣ .

بَاسِيل الثَّانِي، إِمْرَاطُور بِيْرَنْطَة ١٦٦، ٧٣٦ .

بَنْزُر الْجَمَالِي، أَمِير الْجِيُوش ١٤٩، ٢٠٤، ٢٠٧،

٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٧،

الْبَيْسَاسِيرِي، أَبُو الْحَارِث أُرْسْلَان ١٩٤، ١٩٥،

٣٧١، ٧٤٧ .

بَقَطْر بِن نَشَقَا الْكَاتِب الْقِطْطِي الْمَعْرُوف بِالتَّوْبِس

٣٢٨ .

بَقِي الْخَادِم الْأَسْوَد ٣٣٥ .

بَكْجُور التَّرْكِي ٦٦٥ .

أَبُو بَكْر الصَّدِّيق ١٧٧ .

بَلْدَكُوش ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٣ .

بُلْدُون، مَلِك بَيْت الْمَقْدِس ٢٣٠، ٦٨١، ٦٨٦،

٧٢٣ .

بَلْطَيْال بِن شَقَطِيَا ١٥٥ .

بِهَاء الدِّين قَرَاقُوش ٣٠٢، ٣٠٧ .

بَهْرَام الْأَزْمَنِي ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٢،

٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٨، ٣٢٣، ٣٥٣، ٥٩١،

٦٩٢ .

ابْن بُوْلُس الْكَاتِب النَّصْرَانِي = الْأَخْرَم بِن أَبِي زَكْرِيَا

(زَكْرِيَا) .

أَبُو الْبَيَان الشَّقْلِي ١٨٢ .

تَاج الْمَعَالِي مَخْتَار كَاتِب الْأَفْضَل ٢٢٨ .

تَاج الْمُلُوك شَادِي ٢٠٢ .

الشَّشْتَرِي = إِبْرَاهِيم بِن سَهْل .

هَارُون بِن سَهْل .

تَكِين، أَبُو مُوسَى ٧٨٢ .

تَمِيم بِن الْمَعز لَدِين اللَّهِ ١٣٧، ١٥٦ .

- توبة بن نعيم ٥٤٣ .
 ١٩٨ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٨٠ ، ٤١٦ .
 ٤٤٨ ، ٥٧٤ ، ٥٧٦ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٦٠٢ .
 ٦٤٨ ، ٧٠٧ ، ٧٣٦ .
 محسّم الملك ، صاحب الباب ٣٣٧ .
 حستان بن جراح الطائي ، متولّي حرب فلسطين
 ١٨٥ ، ٧١٠ .
 الحسن بن جعفر ، أبو الفتح الحسني أمير مكة ١٧٨ .
 حسن بن الحافظ لدين الله ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
 ٢٧٣ .
 حسن بن حيدرة القزغاني الأخرم ١٧٤ .
 الحسن بن رشيق الريحاني الملقب بالكاتب الصقلي
 ٦٥٩ .
 الحسن بن صبيح ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
 الحسن بن علي بن أبي طالب ١١٢ .
 الحسن بن علي بن عبد الرحمن البازوري ١٩١ ،
 ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٣٢١ .
 ٣٦٤ ، ٣٧١ ، ٥٨٠ .
 الحسن بن عتار بن أبي الحسين ، أمين الدولة أبو
 محمد ١٥٢ ، ١٦٢ ، ٧٠٧ .
 الحسن بن فرح بن حوشب بن زاذان الكوفي ،
 منصور اليمن ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ،
 ٥٧٥ .
 الحسن بن شجلى بن أبي كندبة ٥٨٢ .
 أبو حسين الأهوازي ٩٧ ، ٥٧٥ .
 الحسين بن جوقر القائد ١٦٢ ، ١٧٠ .
 الحسين بن الحسن بن محمدان ، ناصر الدولة ٢٠٠ ،
 ٢٠٢ ، ٢٠٣ .
 ثمال بن صالح بن مرداس ١٨٧ ، ١٨٨ .
 الحزرجاني = علي بن أحمد ، نجيب الدولة أبو القاسم .
 جعفر الصادق ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١١٣ ،
 ١١٤ ، ١٥٧ .
 جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط ، أبو الفضل
 ٢٣٩ ، ٣٤٩ .
 جعفر بن غلوان ، ذخيرة الملك والي القاهرة ٣٤٠ .
 جعفر بن فلاح الكاشي ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٦٦٤ .
 جعفر بن الفرات ، أبو الفضل ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٢ .
 أبو جعفر شسلم الحسيني ، الشريف ١٣٩ .
 جمال الدين الأشتادار ٦١٤ .
 جناح الدولة حسين ٦٧٨ .
 جنادة بن محمد اللغوي ٥٨٦ .
 جوازود ، هزار الملوك ٢٤٣ .
 جودفري صاحب بيت المقدس ٦٨٠ ، ٦٨١ .
 جوقر الصقلي ، الأستاذ ٧٢٧ ، ٧٢٨ .
 جوقر الصقلي ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
 ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ،
 ٣١٥ ، ٣٦١ ، ٣٧٦ ، ٦١٢ ، ٦١٤ ، ٦٥٧ ،
 ٦٦٣ ، ٧٢٨ .
 الحافظ لدين الله ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
 ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧٣ ، ٣١٨ ، ٥٩٢ ، ٦٩٢ .
 الحاكم بأمر الله ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٦٢ - ١٨١ ،

- الحسين بن علي بن قؤاس الكتامي، سيف الدولة
١٨٠، ١٨١، ٣٢٨، ٧٠٩.
- الحسين بن علي، صاحب قنَّع ٩٤.
- الحسين بن علي بن أبي طالب ١١٢.
- الحسين بن علي بن الثقفان ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٧١، ٥٧٦.
- الحلواني، داهي المغرب ١١٣، ١١٤.
- محمد بن أخى التاهرتي، سنى الدولة متولّى جميع
شعائر أسفل الأرض ٣٢٩، ٧١٥.
- محمد بن قزق ٩٧، ٩٨، ٩٩، ٥٧٣.
- حمزة بن أحمد اللباد الزوزني ١٧٤، ١٨٠.
- حميد بن مكى الألفيجي القصار ٥٨٨، ٥٨٩.
- حنّا الشمشقيق ٦٧٣.
- حميدة بن الحافظ لدين الله ٢٥٦، ٢٧٣.
- حميدة بن عقبايان، متولّى حرب الصعيد ٣٢٩.
- حنشترين التركي ٧١٤.
- دقاق، شمس الملوك صاحب دمشق ٦٧٩.
- قؤاس بن يعقوب الكتامي ٣٣٦، ٥٦٦.
- الراضي بالله، الخليفة العباسي ١٢١، ٦٠٢.
- ابن أبي الرقاد، متولّى المقياس ٤٥٢، ٥٦٦.
- زُرك بن الصالح طلائع ٢٨٦، ٢٨٧، ٦٩٣.
- الرشيد بن الزبير ٧٣٣.
- رشيق العززي ٧٣٣.
- رُضوان بن رُخشى ٢٦١-٢٧٠، ٣٢٣، ٣٥١.
- ٣٥٣، ٥٥٥، ٥٩١، ٥٩٢، ٦٩٢.
- رفق الخادم الأسود، متولّى السيارات بأسفل الأرض
٣٢٩، ٧١٥.
- الزكبانى القارئ ١٧٨.
- أبو زُحوة، الوليد الأموي الثاني ١٦٤، ٧٠٩.
- روجر الثاني Roger II، ملك صقلية ٢٦٢،
٥٣٢، ٦٣٤.
- رومانوس، الإمبراطور ٦٠٢.
- زُندان الصقلّي، صاحب المظلة ١٦٢.
- ريوند الأول ٦٨٠.
- زُودة بن عيسى بن نسطورس الشافى ١٧٠، ٣٢٦.
- أبو زكري كوهين، وكيل التجار اليهود فى القاهرة
٤٩٧.
- زين الخزّان ٥٦٤.
- سارتيكين القؤاسي، سعد الدولة ٣٣٠، ٣٣١.
- سامى الدولة بن كافى ٣٣٦.
- سيّ القصور، أخت الظاهر بأعداء الله ٢٨٠.
- سيّ الملك، ابنة بدر الجمالى ٢٢٠.
- سعادة بن حيان ٧٣٥.
- سعد الدولة الأخدب، والى القاهرة ٣٤٠.
- سعد الدولة القؤاسي ٦٨١.
- أبو سعد منصور بن زُهور، أحد وزراء المستنصر
٧٠٨.
- سعيد الخير، أبو علي محمد الحبيب ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧.
- أبو شُفيان، داهي المغرب ١١٣، ١١٤.
- ابن السّلال = العادل بن السّلال.
- سليم بن مّصال، نجم الدين أبو الفتح ٢٧٤،
٣٢٢.

- سليمان بن الحافظ لدين الله ٢٥٦، ٢٧٣ .
 سليمان بن سهل بن عمران، أبو النجا ٣٦٠ .
 سليمان بن غَزَّة، متوَلَّى الحسبة ١٤٥ .
 سنان بن البَنا ١٨٥ .
 سنان الدولة بن الكَرْكَنْدى ٣٩٨، ٦٩٢، ٧٢٢ .
 سهلون بن كيل، أبو العليب ٣٥١ .
 السيدة الحرة الصليحية ٢٢٤، ٢٥٠ .
 سيدة الملك أخت الحاكم بأمر الله ١٧٣، ١٨٠-
 ١٨٢، ٣١٨، ٣٢٨، ٦٦٧، ٧٠٩ .
 السيدة والدة المستعلى ٢٢٤ .
 السيدة والدة المستنصر ١٩٧، ١٩٨ .
 شاهنشاه بن بدر الجمالى = الأَفْضَل .
 شاور بن مجير الشقدي ٢٨٤-٢٩٨، ٣٢٣،
 ٣٢٤، ٦٩٢، ٧١٦ .
 الشريف الرضى ١٨٩ .
 الشريف المرتضى ١٠٣، ١٨٩ .
 شهاب الدين محمود الحارمى ٣٠٠، ٣٠٢ .
 شيركوه، أسد الدين ٢٩٠-٢٩٩، ٣٢٣، ٣٢٥ .
 الصالح طلائع = طلائع بن زُرَيْك .
 صالح بن ميزداس ١٨٥ .
 صَدَقَة بن يوسف الفلاحى ١٩٨، ١٩٩، ٣٢٦ .
 صلاح الدين يوسف بن أيوب ١٩٥، ٢٩٢-
 ٣٠٨، ٣٢٥، ٥٩٨، ٦٩٣ .
 الصُلَيْحى = على بن محمد .
 صَنْدَل قائد الزويلين ٦٥٧ .
 ابن صورة، دَلَال الكتب ٥٩٦، ٥٩٨ .
- ضِرْغام بن عامر بن سوار المنبرى ٢٧٦، ٢٨٧،
 ٢٨٩، ٢٩٠، ٦٩٢ .
 أبو طالب القنجى، الشريف ١٨٣ .
 طاهر بن أحمد بن بائِشاذ النحوى (ابنته) ٢٠٠ .
 أبو الطاهر الذُهلى، القاضى محمد بن أحمد
 ١٣٩، ١٤٢، ٣٦١، ٥٤٠ .
 أبو الطاهر السُلَفى، الحافظ أحمد بن محمد ٢٦٧،
 ٥٩٢ .
 أبو الطاهر بن غُزَف، الفقيه المالكى ٢٦٧، ٥٩٢ .
 الطائع المتبسى ١٥٩ .
 الطُوطُوشى، أبو بكر محمد بن الوليد ٢٦٦،
 ٥٤١، ٥٩١ .
 طلائع بن زُرَيْك، الملك الصالح ٢٧٩-٢٨٤،
 ٣٢٣، ٣٥١، ٥٣٩، ٦٢٠، ٧٤٨ .
 طَلْحَة بن طاهر، والى خراسان ٤٨٢ .
 ابن الطويل قائد السريان ٦٧٣ .
 طَيِّى بن شاور ٢٨٧، ٢٨٨ .
 الطَّوْب بن الأمر بأحكام الله ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢،
 ٢٥٣ .
 الظَّافِر بأعداء الله ٢٧٣-٢٨٠، ٦٠٧ .
 الظَّاهر لإعزاز دين الله (١٧١) ١٨٢-١٨٧،
 ١٩٨، ٣٢١، ٣٨٩، ٥٧٨، ٧٠٩ .
 العادل بَرَقَش ٢٤٣، ٢٤٤ .
 العادل زُرَيْك = زُرَيْك بن الصالح طلائع .
 العادل بن السُّلار ٢٧٤-٢٨١، ٢٨٩، ٣٨٠،
 ٣٨٥، ٥٥٥، ٦٨٥ .

- العايد لدين الله ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٨، ٢٩٠،
 ٢٩٥، ٢٩٨ - ٣٠٠، ٣٠٧، ٣١٩، ٣٢٣،
 ٧١٦ .
- أبو العباس الشيعي ١١٧، ١١٨ .
 عباس الصنهاجي ٢٧٤ - ٢٨٠، ٣٢٢ .
 عبد الحاكم بن سعيد الفارقي ٥٨٠ .
 عبد الحاكم بن وهيب المليجي ٥٨٠، ٥٨٢ .
 ابن عبد الحقيق، ولي الدولة أبو البركات ٣٧٢،
 ٥٨٩ .
- عبد الرحمن الثالث الأموي ١٣٠ .
 عبد الرحيم بن إلياس، ولي عهد الحاكم بأمر الله
 ١٧١ - ١٧٤، ١٨١، ٣١٨ .
- عبد السميع بن عمر العباسي، خطيب جامع مصر ١٤٢ .
 عبد العزيز بن النعمان ١٧٠ .
 عبد الغني بن سعيد، الحافظ ١٦٥، ١٧٥، ٥٨٦ .
 ابن عبد القوي، داعي الدعاة ٣٠٨، ٣٧٢ .
 عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي ٥٨٠ .
 عبد الله بن أحمد بن سليم الأسواني ١٤٨ .
 عبد الله بن جحدم ١٥١ .
 عبد الله بن جعفر الصادق ١٠١ - ١٠٣ .
 أبو عبد الله الشيعي، الحسين بن أحمد بن محمد بن
 زكريا ١١١ - ١١٨، ٣١٧، ٦٥٧، ٧٢٣ .
 عبد الله بن علي المغربي، صفى الدين ٣٥٤ .
 أبو عبد الله محمد بن الأنصاري ٢٧١، ٣٤٨ .
 عبد الله بن المعز لدين الله ١٥٦، ١٥٧، ٣١٨ .
 عبد الله المهدي = المهدي عبد الله .
 عبد الله بن ميمون القداح ١٠٣ .
- عبد الله بن يَحْلَف الكتامي ١٥٣ .
 عبد المجيد، أبو الميمون الحافظ لدين الله ٢٤٣ -
 ٢٤٩، ٢٥٢، ٣١٨ .
 عبد المستنصر بن المكرم أحمد الصليحي ٢١٨ .
 عبد الملك بن عيسى بن ديزال الماراني، قاضي
 القضاة الشافعي ٣٠٥ .
 عبد المولى اللثي، أبو محمد ٣٦٥ .
 عبدان، زوج أخت حمدان القرمطي ٩٧ - ٩٩ .
 ابن عزيز المصور ٦٣٣ .
 العزيز بالله نزار ١٠١، ١٥٦ - ١٦١، ٣٢٠،
 ٣٨٥، ٥٧٤، ٥٨٥، ٦١٤، ٦٤٧، ٦٦٣،
 ٦٦٥، ٧٣٢ .
 غشلوج بن الحسن ١٤٨، ٣١٥ .
 عُثْمَان الدولة البويهى ١٥٨، ١٥٩، ١٦١ .
 عُطُوف الحادام ٣٨٠ .
 أبو علي الأَفْضَل = الأَفْضَل كُتَيْفَات .
 علي بن أحمد، نجيب الدولة أبو القاسم الخزرجي
 ١٨٣، ١٨٨، ١٩٧، ١٩٨، ٣٢١ .
 علي بن جعفر بن عُثْمَان، محمد الدولة ٣٥١،
 ٣٥٣ .
 علي بن جعفر بن فلاح الكتامي ٣٢٩ .
 علي بن الحسين بن علي، الإمام الإسماعيلي ١٠٤،
 ١٠٥ .
 أبو علي الداعي ١١٦ .
 علي بن سليم بن الزَّوَاب، أبو الحسن ٣٥١، ٣٥٣ .
 علي بن سليمان المقرئ الأنطاكي، أبو الحسن
 ١٦٥، ٥٨٦ .

- على بن أبي طالب ٩٣، ٩٤، ٤٦١ .
 على بن الفضل الجيشاني، أبو الحسن القرمطي ١١١ .
 على بن محمد الصليحي ١٩١، ٥٨٧ .
 على بن لجيب الدولة ٢٣٩ .
 على بن الثقفان ٣٦١ .
 أبو علي الهجري ٥٩٦، ٦٠٣ .
 علي بن يوسف بن رافع الكحال، مستخرج الجوالى ٥٢٣ .
 عماد الدولة بن المحرق ٥٩٧ .
 عماد الدين زنكى ٢٦٩، ٧٠٧ .
 عمار بن محمد، خطير الملك أبو الحسين ١٨٢ .
 عمر بن الخطاب ١٧٧ .
 عمر بن شاهنشاه، تقي الدين ٣٠٢، ٣٠٤ .
 أبو عمران بن ثقيف التاجر ٤٩٩ .
 عمورى الأول Amaury Ist، ملك بيت المقدس ٢٨٩-٢٩٧، ٣٠٢، ٤٠٣، ٦٥٢ .
 غنيسة بن إسحاق، والى مصر ٧٢٩ .
 ابن أبي القوام، قاضى القضاة ١٧٥ .
 ابن غزكل، أبو الفرج يوسف بن يعقوب ٤٩٦ .
 ابن عياش (داعى مصر) ١١٦ .
 عيسى بن نسطورس ١٥٦، ٣٢٦، ٣٤٩، ٧٣١ .
 الفائز بنصر الله ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٤، ٦٠٤ .
 فاطمة بنت محمد ٩٣، ١٤٠ .
 فتح بن نصر بن بونصر الكتامى ٣٣٦ .
 ابن الفرات = جعفر بن الفرات .
 أبو الفرج الباهلى الوزير ١٩٨ .
 أبو الفضل بن الأشقف ٢٢٨، ٣٥٢ .
 الفضل بن صالح ٧٠٧ .
 فهد بن إبراهيم النصرانى ١٦٢ .
 فيروز، الداعى ١١٦، ١١٧ .
 القادر بالله العباسى ١٨٥، ١٩٠ .
 قاسم بن عبد العزيز بن الثقفان ٥٧٩، ٥٨٠ .
 القاضى الفاضل ٣٠٠، ٣٠٥، ٣٢٤، ٥٩٨ .
 ٥٩٩ .
 القائم بأمر الله العباسى ١٨٩، ١٩٠، ١٩٤، ٢٠٢ .
 القائم بأمر الله الفاطمى ١٠٦، ١٢٥، ٣١٧ .
 قراقوش = بهاء الدين قراقوش .
 ابن زرقه اليهودى، الطبيب ٢٥٨ .
 قسطنطين ليكاينوس ٦٠٢ .
 قصير المصور ٦٣٣ .
 قتيبة بن الأمر بأحكام الله ٢٤٩ .
 قيرقى، ملك التوبة ١٤٨، ١٤٩ .
 كافور الإخشيذ ١٣١، ١٣٢، ١٤٩، ٦٦٠ .
 الكامل شجاع بن شاور ٢٩٥، ٣٤٠ .
 الكامل محمد الأيوبي ٣٥٤ .
 الكزمانى = أحمد حميد الدين بن عبد الله .
 ابن كلس = يعقوب بن كلس .
 كمشتكين الأتابكى، أمين الدولة ٢٦٨، ٢٦٩ .
 ابن كؤجك اليهودى ٣٥٤ .
 ملك بن مالك الحتادى ٥٨٧، ٥٨٨ .

- مالك بن سعيد الفارقي، قاضي القضاة ٥٨٠،
٧٠٩.
- المأمون البطائحي، محمد بن فاتك ٢١٦-٢٤٠،
٣٣١، ٣٤١، ٤٠٧، ٤١١، ٤٦٢، ٥٨٩،
٧١٢.
- محمد بن قُتَيْب، أبو عبد الله ٤٩٠.
- محمد بن القاضي أبي الطاهر الذُّفلي ٥١٥.
- محمد بن مقصوم التَّيْسِي، المُوَلَّق أبو الكرم ٣٥١.
- محمد بن محمد بن بنان الأنباري ٣٥١.
- محمد بن التَّعْمان، القاضي ٣٦٢، ٥٧٧.
- محمد بن هبة الله بن مُيَسَّر القَهْسراني ٢٥٠، ٣٦٠.
- محمود بن مُبَشَّكَيْن ١٨٤.
- محمود بن طُفَر، والي قوص ٣٣١.
- محمود بن مِصَال اللُّكِّي ٢٢١.
- محمود بن نصر بن صالح بن يزدا ٢٠٢.
- مُخَلَّد بن كَيْدَاد التَّكَّاري ١٢٦، ٦٥٨، ٦٦٠.
- المرتضى بن الحُتَّك، القاضي ٢٦٥، ٣٥١، ٣٥٣.
- المُسْتَضَى بأمر الله العباسي ٣٠٧.
- المُسْتَعْلَى بالله ٢٢٠، ٢٢١، ٣١٨.
- المُسْتَصْر بالله ٤٢، ١٨٤، ١٨٧، ١٨٨.
- ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٩.
- ٢١١، ٢١٤، ٢٢٠، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٥.
- ٤١١، ٤٤٩، ٦٦٩.
- مسعود الصُّقْلِي، متولي الشرطة ٧٣٣.
- المسعود بن طاهر الوزَّان، شمس الملوك أبو الفتح
١٨٢، ٧٠٩.
- أبو مسلم الحراساني ١١٨.
- ابن مِصَال اللُّكِّي، نجم الدين أبو الفتح سليم
(سليمان) بن محمد ٢٧٤، ٣٢٢.
- قاضي القضاة ٥٨٠.
- ٧٠٩.
- ٢١٦-٢٤٠،
٣٣١، ٣٤١، ٤٠٧، ٤١١، ٤٩٢، ٥٨٩،
٦١٨، ٦٢٠.
- المتوكل العباسي ١٤٩.
- محمود بن يعقوب التاجر ٤٩٧.
- محسن بن بُنُوس، الشيخ العميد ١٨٣.
- محمد بن أحمد، الإمام المستور ١٠٦، ١١١.
- محمد بن أحمد، القاضي أبو الطاهر الذُّفلي
١٣٩، ١٤٢، ٣٦١، ٥٤٠.
- محمد بن أحمد العميدي، أبو سعد الكاتب ٣٤٨.
- محمد بن أحمد التجاري ٢٠٢.
- محمد بن إسحاق الشافعي ٥٩٥.
- محمد بن إسماعيل أنوشتكين الدرزي ١٧٤،
١٧٥.
- محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ٩٥ - ٩٧،
١٠٠، ١٠٥، ١٥٧.
- محمد الباقر ٩٥.
- محمد بن جعفر الصادق ١٠٣.
- محمد بن جعفر، أبو الفرج المغربي ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٩.
- محمد بن الحسن المسكري ٩٤، ١٠٩.
- محمد بن الحسن بن علي البازوري، خطير الملك
٢٠٢.
- محمد بن طُفَّج الإخشيد ١٢٦، ١٣١، ٦٦٠،
٧٣٠، ٧٣٢.
- أبو محمد بن عمار = الحسن بن عمار.

- المصطفى لدين الله (نزار بن المستنصر) ٢٢٢ .
 مضمون وكيل التجار اليهود في عدن ٤٩٣ ،
 ٤٩٩ .
 المظفر جعفر أخو الأفضل شاهنشاه ٦٨٣ .
 محمد الدولة بن جعفر بن غسان ٣٥٣ ، ٣٥١ .
 الميز أتيك التركماني ٣٥٤ .
 الميز بن باديس ١٨٩ ، ١٩٠ .
 الميز لدين الله ١٠٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،
 ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ - ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ،
 ١٥٢ ، ١٥٤ - ١٥٨ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٥٨٤ ،
 ٦٦٣ ، ٦٦٥ ، ٧٢٦ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ .
 يقضاد الخادم الأسود، القائد الأجل عز الدولة
 وسانها ١٨٣ ، ٧٠٩ .
 معين الدين أثر ٢٦٩ .
 المقضى لأمر الله العباسي ٢٧٩ .
 ملهم القائد ٢٧٦ .
 أبو المتبحر شلومو بن شعيا ٤٧٠ .
 منجوتكين التركي ٧٣١ .
 منشا بن إبراهيم القزاز ١٥٦ .
 المنصور بالله الفاطمي ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٣١٧ ،
 ٦١٢ ، ٦٥٧ .
 أبو منصور بن سورين، كاتب الإنشاء ١٦٣ .
 منصور بن عتيدون الكافي ٣٢٦ .
 منصور اليمن بن حوشب = الحسن بن فرح .
 المهدي لدين الله الفاطمي ٩٦ ، ٩٨ - ١٠٠ ،
 ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ،
 ٣١٧ .
 موسى بن صدقة التاجر اليهودي ٥٠٠ .
 موسى بن العازار طبيب الحز ١٥٥ .
 موسى الكاظم ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٣ .
 الموفق محمد بن مصوم التقيسي ٣٥١ .
 موهوب بن منصور بن مفرج ٧٠ ، ٢٠٦ ، ٢٥٩ .
 المؤمن بن البطاحي ٢٣٨ .
 مؤمن الخلافة ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٦٩٣ .
 مؤنس الخادم ١٢٦ .
 المؤيد في الدين حبة الله الشيرازي، داعي الدعاة
 ١٨٥ ، ١٩٤ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٣ ، ٣١٩ ،
 ٣٧١ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ،
 ٧٤٥ .
 ميمون القلاح ١٠١ .
 ناصر الجيوش يانس ٢٤٨ .
 ناصر الدولة ألتكين التركي ٢٢١ ، ٢٢٢ .
 ناصر الدولة بن حمدان = الحسين بن الحسن بن
 حمدان .
 ناصر الدين الأوحى إبراهيم أخو رضوان بن ولحشى
 ٢٦٢ .
 نافذ الخادم الأسود، بدر الدولة ٣٣٥ ، ٣٣٦ .
 أبو نجاح بن قنا الراهب ٢٣٩ .
 نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين ٣٠٣ ، ٣٠٨ .
 نزار بن تميم = العزيز بالله .
 نزار بن حسين بن تميم الكاشي ٣٣٦ .
 نزار بن المستنصر بالله ٢٢٠ - ٢٢٢ ، ٢٣٨ ،
 ٣١٨ .
 = المصطفى لدين الله .

- نصر بن عباس الوزير ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨١ .
 نظام الملك الوزير السلجوقي ١٩٦، ٧٠٧ .
 تقفور فوقاس ٦٧٥ .
 نور الدين محمود ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٨٣، ٢٨٨ .
 ٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٧، ٣٠٢، ٣٠٦، ٣٠٧ .
 هارون الرشيد ٩٥ .
 هارون بن سهل التستري، أبو نصر ١٩٨ .
 ابن هاني الأندلسي الشاعر ٢١، ٧٢٦ .
 هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن الأزرق ٣٦٥ .
 هييج القيصرى Hugue de César ٤٠٣-٤٠٤ .
 ابن واسول، أمير سيجلماسة ١٣٠ .
 والدة المستنصر ١٩٧، ١٩٨، ٦٧٠ .
 باروختين القسدي ١٧٧، ١٧٩ .
 اليازوري = الحسن بن علي بن عبد الرحمن .
 محمد بن الحسن بن علي .
- يونس الأزنتي (الحافظي)، أبو الفتح ناصر الجيوش ٢٤٨، ٢٥٦، ٢٦٠، ٣٢٣ .
 يونس الصقلي ٧٣١ .
 يحيى بن خياط، اسفهلار العساكر ٦٨٩ .
 أبو يزيد الخارجي = مخلد بن كينلو .
 يعقوب بن بكلس ١٣٣، ١٣٦، ١٤٨، ١٥٤ .
 ١٥٦، ١٥٨، ١٦٢، ١٨٤، ٣٢٠، ٥٨٤ .
 ٥٩٦، ٦٦٦ .
 أبو اليثمن وزير بن عبد المسيح، متولى الديوان بأسفل الأرض ٢٢٨، ٣٦٠ .
 يوحنا الراهب، مهندس سور القاهرة ٦٣٢ .
 يوحنا بن أبي الليث، ولي الدولة أبو البركات النصراني ٢٢٨، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣ .
 يوسف بن أبراهام التاجر العدني ٤٩٩ .
 يوسف بن بلكين الصنهاجي ١٥٣ .
 يوسف بن يعقوب بن غزكل، أبو الفرج ٤٩٦ .

٢- الخطط والاحمال الأثرية

- أبواب القاهرة ٦٢٤ .
 إشطبل الطارمة ٣٨٥ .
 أسوار القاهرة ٦٢٤ .
 الإيوان (الكبير) بالقصر ٢١٩، ٢٣٤، ٣٤٧، ٣٦٨، ٣٧٦، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٤٠٠ .
 ٦٢٠، ٦٩٧ .
 باب الإقبال ٦٢٤ .
 باب البحر ٣٨٠، ٣٨٤، ٦١٩، ٦٢٠ .
 باب التزينة ٦٢٤ .
 باب ثوبة الزعفران ٥٩٠ .
 باب التوفيق ٦٢٤ .
 باب جامع الصالح طلائع ٦٥٢ .
 باب جامع الفكهاني ٦٥٢ .
 الباب الجديد ٤٩٣ .

- باب الدنيلم ٣٨٥، ٦٢٤ .
باب النخب ٢٥١، ٢٧٧، ٣٨٠، ٤٣٧،
٤٤٤، ٦١٩، ٦٢٠ .
باب الزمرد ٣٦٨ .
باب الزهونة ٥٦٧ .
باب زويلة ٢٣٧، ٢٨٢، ٢٨٤، ٣٠١، ٣٦٨،
٤٤٦، ٤٩٢، ٦٢٠، ٦٢٤ .
باب الساباط ٥٦٢ .
باب السوادب ٣٨١ .
باب الصفا ٤٩٣ .
باب البر ٦٢٤ .
باب العيد ٢٥١، ٣٨٤، ٣٨٥ .
باب الفتح ١٦٤، ٢٥٩، ٦٢٤ .
باب الفتح القديم ١٥٩، ١٦٤، ٣٨٩، ٤١٩،
٦١٤ .
باب فردكم مجلس اللعبة بالقصر ٢٣٤ .
باب القنطرة ١٥١، ٤٤٦ .
باب مراد ٢٢٨ .
باب الثضر ٤١٨، ٤٤١، ٦٢٤، ٦٨٥، ٧٤٨ .
بركة الحبش ١٥١، ٦٣٤ .
بُستان البغل ٤١٣ .
البُستان الكافورى ٢٢٨ .
يُون القصرين (ميدان) ٢٠٢، ٢٥٧، ٢٦٤،
٣٦٨، ٤٣١، ٦٩٢ .
التيجانين ٥٨٨، ٥٨٩ .
الثوبة المعزية بالقاهرة (تربة الزعفران) ٢٠٠، ٢٨١،
٤١٨ .
- الجامع الأزهر (جامع القاهرة) ١٧٢، ٣٠٥،
٤٣٣، ٥٥٤، ٥٧٣، ٦١٤، ٦٤٨، ٧٤٨ .
الجامع الأقصر ٢٣٧، ٢٧٠، ٤٣١، ٦١٦،
٦١٨، ٦٢٠ .
الجامع الأنور (جامع الحاكم) ١٧٢، ٢٣٧،
٣٨٩، ٤٣٣، ٦١٤، ٦١٦ .
جامع الحاكم (الجامع الأنور) ١٦٤، ١٧٢،
٦١٤، ٦١٦، ٦١٨، ٦٢٢ .
جامع الخطبة (جامع الحاكم) ١٥٩، ٥٨٥، ٦١٤،
١٧٢، ٥٨٦، ٦١٧ .
جامع رابطة ١٦٤، ١٧٢، ٥٨٦، ٦١٧ .
جامع الصالح طلاب ٢٨٤، ٦٢٠، ٧٤٦ .
جامع ابن طولون ١٤٤، ٢١٨، ٢٧٠، ٣٦٨،
٤٣٦، ٦١١، ٦١٤، ٦١٦ .
جامع عمرو بالقسطاط ١٤٤، ١٧٢، ٤٣٣،
٤٨٧، ٥٥٣ .
جامع القاهرة (الجامع الأزهر) ١٤٤، ٥٧٣،
٥٨٤، ٥٨٦، ٦١٤، ٧٤٨ .
جامع القرافة ١٦٠، ٦٣٣ م .
جامع المقس ١٦٤، ٣٦٩، ٥٨٦، ٦١٦ .
جامع المؤيد شيخ ٦١١ .
جزيرة الصناعة ٧٢٦ .
جزيرة مصر (الروضة) ٧٢٦ .
حارة الأتراك ٦٦٣ .
حارة الباطلية ٦٦٣ .
حارة بوجوان ٣٠٨ .
حارة الجوزية ١٦٦، ٦٦٤ .
حارة الدنيلم ٦٦٣ .

- حارة الروم ٦٦٣ .
حارة الروم الجواتية ٦٦٣ .
حارة زُوَيْلَّة ٦٦١ .
حارة صبيان الطوارق ٦٦٤ .
حارة القدوة ٦٦٤ .
حارة قلاد القواد ٦٦٤ .
حارة كُثانة ٦٦٣ .
حارة المحمودية ٦٦٤ .
حارة المرتاحية ٦٦٤ .
الحارة المنصورية ٦٩٣، ٣٠١ .
الحارة الوزيرية ٦٦٤ .
الحارة اليانسية ٦٦٤ .
حجاب الهيكل في كنيسة السبت بربارة ٦٥٢ .
الحجر ٦٨٥ .
الحسينية ٦٦٣ .
خانقاه ببيرس المباشكير ٦٨٥، ٣٨١ .
خزانة البند ٢٣٩ .
خزانة التَّجْمُل ٧٠٠، ٤١٩ .
خزانة الرؤوس بيت المال ٢٧٧ .
خزانة السلاح ٧٠٠، ٦٩٧ .
خزانة كتب دار العلم ٥٩٧ .
خزانة الكتب الفاطمية ٥٩٤، ٥٩٦، ٥٩٧ .
٦٠٣، ٦٠٢ .
خزانة الكُشوة ٣٣٣، ٣٩٠، ٤١٨، ٥٦٤، ٥٦٥ .
الخزائن ٣٨٦ .
خُطَّ الرِّقائين ٤٨٧ .
خِطَّة راشدة ٦١٦ .
الخفَّاق ١٨٦ .
الدار الأمرية (دار الضَّرب) ٢٣٥ .
دار بنت الفتح ٧٢٩ .
دار الحِكْمَة (دار الجِلم) ١٦٥، ١٧٣، ١٨٤،
٥٨٣، ٥٨٥، ٥٨٧ .
دار الدُّيَّاج ٥٥٩ .
دار الدُّعْب ٤١٣ .
دار سعيد الشَّهداء ٣٠٤ .
دار صِناعَة الجزيرة ٧٢٧، ٧٢٨ .
دار صِناعَة الفُسطاط ٧٣٠، ٧٣٢ .
دار صِناعَة المَقْس ٧٣١، ٧٣٢ .
دار الضَّرب بالفِسطاط ١٤٣، ٣٣١ .
دار الضَّرب بالقاهرة ٢٣٥، ٣٣١، ٤٩٣، ٥٠٦ .
دار الضِّيافة ٣٩٦ .
دار الطَّراز ٣٩٠، ٤٧٩، ٤٨٠، ٥٦٣ .
دار الطَّراز الخاصة ٤٧٤ .
دار الطَّراز العامة ٤٧٤ .
دار الجِلم (دار الحِكْمَة) ١٧٢، ٢٢٩، ٣٧٠،
٥٥٤، ٥٨٤، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٩٠ .
دار الغَزَل ٣٠٤ .
دار الفِطْرَة ٣٦٨، ٥٦٢، ٥٦٧، ٥٦٩، ٥٧٠،
٥٧١ .
دار الكتب المصرية ٦٠٣، ٦٠٥، ٦٠٧ .
دار الكُشوة ٥٦٢، ٥٦٣ .
دار مانك بالفِسطاط ٤٨٧، ٤٨٨، ٧٣٣ .

- القاهرة ١٢٩، ١٤٠، ١٤١، ١٥١، ١٥٢،
 ١٧٧، ١٧٩، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٦،
 ٢١٦، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٣٥، ٢٥١، ٢٦٦،
 ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٣٠،
 ٣٣٤، ٣٦١، ٤٩١، ٤٩٢، ٥٥١، ٥٦٧،
 ٥٧٣، ٦٦٣، ٧٤٨.
- القاب الشبع بالقرافة ٦٢٢.
- قَبْرُ الإلم الشافعي ١٥١.
- قَبْرُ (مشهد) السيدة نفيسة ١٣٢.
- قَبْرُ كافور ١٥١.
- قَبْرُ كَلَم ١٣٢.
- قُبَّةُ الدَّهْلَم ٦٢٤، ٧٤٨.
- القرافة ١٥١، ٢٤٩.
- القَشَّاشين ٤٩٣.
- قَضْرُ الدَّقْب = قاعة الدَّقْب.
- قَضْرُ سَيِّدَةِ الْمَلِك ١٧٣، ١٨١.
- القَضْرُ الصَّغِيرُ الْغُرْبَى ١٥٩.
- = قَضْرُ سَيِّدَةِ الْمَلِك.
- القَضْرُ الْفَاطِمِي الْكَبِير ١٧٣، ١٨١، ٢٢٧،
 ٣٧٦، ٣٧٧، ٦١٢، ٦٢٢، ٧٤٨.
- قَضْرُ الْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ ٦١٣.
- القصور الزاهرة ٣٧٦، ٦١٤.
- الْقَطَاع ٢٠٧، ٤٩٢، ٦١١.
- كُزْسَى الْمَنْسَر ٢٤٠.
- كنيسة الزُّغْرَى ٢٥٩.
- كنيسة مريم بأَرْضِ الزُّغْرَى ٦٧٠.
- كنيسة ماري جرجس ٢٥٩.
- دَارُ الْمَطْفَرِ بِحَارَةِ بَرْجَوَان ٣٠٨.
- دَارُ الْمُقَوَّةِ بِالْفُسْطَاط ٣٠٤.
- دَارُ الْمَلِكِ بِالْفُسْطَاط ٢٢٧، ٢٢٩، ٣٩٢، ٤١٢.
- دَارُ نَضْرِ بْنِ حَبَاس ٢٨٠.
- دَارُ الثَّغْمَانِ بِالْقَرَّافَةِ ٦٣٤.
- دَارُ الْوِزَارَةِ الْكَبِيرَى ٢٨٥، ٣٨١، ٣٨٥.
- دَارُ وَكَالَةِ ٤٨٩.
- دَارُ الْوِكَالَةِ بِالْقَاهِرَةِ ٢٣٥، ٤٨٩.
- رَأْسُ الْجَيْشِر ٢٢٩.
- رَاشِدَةُ ٦١٦.
- الْوَكْنُ الْخَلْقُ ٢٣٧، ٣٦٨.
- زُقَاقُ التَّنَادِيلِ بِالْفُسْطَاط ٢٠٤، ٣٦٢، ٤٨٦.
- الزُّغْرَى ٢٦٠.
- الشيوفين ٢٧٨.
- الشارع الأعظم ٣٦٨، ٤٣٦.
- العَشْكَر ٢٠٧، ٢١١، ٤٩٢.
- الْفُسْطَاط ١٤١، ١٤٤، ١٥١، ١٥٦، ١٦٤،
 ١٦٥، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٩١،
 ٢١٦، ٢٢٩، ٢٩٦، ٣٣٢، ٣٣٤، ٤٨٤،
 ٤٨٥، ٤٩١، ٥٠٣، ٥٥١، ٦١٢، ٧٣٠.
- القَاعَةُ ٣٧٦.
- قَاعَةُ (قصر) الدَّقْب ٢٣٩، ٣٦٨، ٣٧٧،
 ٣٨٢، ٣٨٧، ٤٠٠، ٤٠٢، ٥٦٩،
 ٥٨٦.

- كنيسة أبي مارقورة ١٥٥ .
 الكنيسة المعلقة بقصر الشمع ١٥٥ .
 مارستان قلاوون ٦٤٨ .
 مجلس اللُغة ٣٨٢ .
 محراب مسجد السيدة نفيسة ٦٥٢ .
 محراب مشهد السيدة رقية ٦٥٢ .
 المحوّل بالقصر ١٧٠، ٣٨٦، ٥٥٤، ٥٧٦ .
 المدرسة التقوية ٣٠٤ .
 المدرسة الحافظية ٢٦٧، ٥٩١، ٥٩٣ .
 مدرسة العادل بن الشار ٢٦٧، ٥٩١ .
 المدرسة العُرفية ٢٦٧، ٥٩٢ .
 المدرسة الفاضلية ٥٩٩ .
 المدرسة القمحية بالفسطاط ٣٠٤ .
 مدفن شجر الدر ٦٤٩ .
 مسجد يتير ١٨٣ .
 المشاهد ٣٦٨، ٦٢٢ .
 المشاهد التسعة ٦٢٢ .
 مشهد إخوة يوسف ٦٢٢ .
 مشهد الجيرشي ٦٢٢ .
 المشهد الحسيني ٥٦٧، ٦٢٤ .
 مشهد السيدة رقية ٦٢٢ .
 مشهد السيدة سكينه ٦٢٢ .
 مشهد السيدة نفيسة ٢٣٧، ٢٩٠، ٣٤٠، ٤٩٢ .
 مشهد عاتكة والجعفرى ٦٢٢ .
 مشهد اللؤلؤة ٦٢٢ .
 المصلّى (مُصلّى القاهرة) ١٤٤، ١٧٢، ٤٤١، ٧٤٨ .
 مُطبخ القصر ٥٦٧ .
 المُس ١٥١، ٢٨٠، ٤٨٨، ٦١٦، ٧٣٠، ٧٣١ .
 المُقلع ٣٧٨ .
 مُقلع زود الكم ٣٧٨ .
 المُقطم ١٥١، ١٧٩ .
 مقياس النيل ٤٥٢ .
 منازل اليزّ بالفسطاط ٢٠٣، ٢٠٦، ٣٠٤ .
 المنّخر ٣٦٧، ٤٤٥، ٤٤٦، ٥٦٢، ٦١٩ .
 المنظرة الزاهرة ٦١٩ .
 منظرة الشكّرة ٤٥٧ .
 منظرة الغزالة ٤٨١ .
 المنظرة الفاخرة ٦١٩ .
 منظرة اللؤلؤة ٢٢٨، ٣٣٧، ٣٩٨، ٤١٣، ٥٥٩ .
 منظرة المُس ٧٤١ .
 المنظرة الناضرة ٦١٩ .
 ميدان الإخشيد ١٥١ .
 الهوّج بجزيرة الروضة ٢٤٢ .

٣- الأماكن والمواقع والبلدان

- أجدابية ١٣٧ .
 الأخصاء ١٢٢ .
 أنحميم ٢٦٤، ٥٣٦ .
 الأديرة البيض ٢٦٤ .
 أسفل الأرض ٣٢٨ .
 الإسكندرية ١٤٠، ١٧١، ٢٠٩، ٢١٦، ٢٢٣ .

- البحر الأفضل (خليج أمي المنجا) ٤٧١ . ٢٣٨، ٢٦٦، ٢٧٤، ٢٩٣، ٣٢٩، ٣٣٣
- البحر المتوسط ١٢٤، ١٨٨ . ٣٣٦، ٤٨٤، ٤٨٥، ٥٣٦، ٥٩١، ٥٩٣
- البحرين ١٢٢ . ٥٩٧، ٧٢٨
- البحيرة ٢٠٢، ٢٠٩، ٢٧٤ . ١٤٨
- بَرْقَة ١٢٧، ١٣٥، ٦٥٨، ٧٢٨ . أسوان ١٤٨، ١٤٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٤٩٠
- البرلس ٧٢٧ . ٧١٤، ٧٢١
- البضرة ١٨٤ . أسبوط ٤٧٨
- بَقْلَبِك ٢٦٩ . أشموم ٢١٧
- بغداد ١١٥، ١٢٢، ١٥٠، ١٨٤، ١٨٨ . الأشمونين ٢٨٠، ٢٩٣، ٧١٥
- ١٨٩، ٣٦١، ٤٨٤، ٥٩٠، ٧٤٧ . أطفح ٢٩٣
- بليس ٢١٧، ٢٧٧، ٢٨٤، ٢٩١، ٢٩٦ . إفريقية ١٢١-١٢٩، ١٥٩، ١٦١، ١٧١
- البلقان ٦٥٨ . ١٨٧، ١٨٩، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٤٧
- البندقية ٦٥٨، ٦٤٧ . إقريطش (كرت) ١٣٥
- النهسا ٢٨٠، ٧١٥ . الأقصر ١٤٨
- بيت المقدس ١٥٦، ١٦٦، ٢٣٠، ٢٦٨ . أمالفي ٤٨٧، ٧٣٢
- ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٧٥ . الأندلس ١٢١، ١٢٥، ١٣١، ١٣٧، ٢٦٦
- ٦٧٨، ٦٧٩، ٧١٠ . أنطاكيا ١٥٠، ٦٧٥، ٦٧٨، ٧٣٠
- بيروت ١٨١، ٢٢٩، ٢٨٣، ٦٨٢، ٧٣٩ . أنطرسوس ٧٣٣، ٧٣٨
- البيضاء بلييا ١٣٧ . الأهواز ٩٦، ٩٧، ١٨٥
- تاهرت ١١٢، ١٣٠، ٥٠٥، ٦٦٠ . إميلين ٦٨٦
- تينين ٢٢٩، ٦٨٠ . إيكجان ١١٧
- تل باشر ٢٥٩، ٢٦٠ . البابين (مركة) ٢٩٣
- تَيْس ٢٣١، ٣٢٩، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٦ . بالزم ٦٣٤
- ٤٨٠، ٤٨٧، ٦٤٨، ٦٦٤، ٧٣٥، ٧٣٦ . بانياس ٢٢٩، ٢٩٠، ٦٨٩، ٧٣٩
- تَوَزَّر ١١٧ . الصبحة ١٤٨
- تونة ٤٧٣ . البحر الأحمر ١٣٦، ١٨٧، ١٩٢، ١٩٣
- ٤٨٣، ٤٩٩، ٧٣٧، ٧٤٨

- جامع إشنا ٣٣١ .
 جامع القسطنطينية ١٨٦، ١٦١ .
 جامع قرص ٣٣١ .
 جامع القَيْرَوَان ١٧١، ٦٠٢، ٦٠٣ .
 جامع المهديّة ٦١١، ٦١٤ .
 جبلة ٧٣٧ .
 جبيل ٢٢٩، ٧٣٧ .
 جنة ٧٤١ .
 جزيرة ذَفْلَك ٤٩٩ .
 الجزيرة ٢٧٠ .
 الحبس الجبوشي ٥٤٦، ٥٢٢ .
 الحجاز ١٩٦، ١٨٧، ١٥٠ .
 الحرمان الشريفان ١٨٥ .
 حَلَب ١٥٨، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٢، ٧٠٧ .
 حلوان ١٧٩ .
 حماة ١٦٠ .
 حمص ١٦٠، ٦٧٨ .
 حوران ٢٦٩ .
 حُرَاسَان ٩٧، ٢٢٤ .
 الخليج الفارسي ١٩٢، ١٩٣، ٧٤٨ .
 خليج أَمِ المُنَجَّأ ٤٧٠، ٤٧١ .
 حُصْن ٤٦١ .
 خوزستان ٩٦، ٩٥ .
 دَار جعفر الصادق بالمدينة ١٧٩ .
 ذَبِق ٣٩٠، ٤٧٣، ٤٧٤ .
 دِلاص ٢٧٥ .
 دِمَشق ١٥٠، ١٥٨، ١٨٥، ١٩٦، ٢٦٩ .
 ٢٨٤، ٦٦٢ .
 دِشَاط ٢٣١، ٣٠٢، ٣٢٩، ٤٧٣، ٤٧٤ .
 ٤٨٠، ٤٨٧، ٧٢٩، ٧٣٣ .
 رَقَّادَة ١١٧، ١٢٤، ١٣٧، ٦٦٣، ٧٢٥ .
 الرِفْلَة ١٥٠، ٦٦٤، ٦٧٨، ٦٨١، ٦٩٠ .
 الرها ٦٣٤ .
 سالرنو ٥٣٢ .
 سَبْتَة ١٣٠ .
 سِجِلْمَانَة ١١٥، ١٣٠، ٥٠٥، ٦٦٠ .
 السُرْدُوسِي ٤٧٠ .
 سردينية ١٣٥ .
 شَرَمَن رَأى (ماتَرَا) ٦١١، ٦١٦ .
 سَلَفِيَة ٩٦، ٩٨، ١١٤، ١١٥ .
 سِفْنَاي ٦٤٢ .
 سواد الكوفة ٩٧ .
 سواكن ٩٧ .
 سوجمار ١١٣ .
 سوريا الشمالية ١٥٨، ١٨٨، ١٨٩، ٧٤٧ .
 سوريا الوسطى ١٥٨، ٧٤٧ .
 سوسة ٧٢٥، ٧٢٧ .
 الشام (بلاد) ١٢٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٨ .
 ١٥٩، ١٨٠، ١٩٦ .
 الشرقية ٢١٦، ٢٥٠، ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٦، ٤٧٠ .

- الشرية ٢٨٣ .
شطا ٥١٤، ٤٧٤، ٤٧٣ .
شطونف ٧١٤ .
الشوبك ٢٨٣ .
شيراز ١٨٥ .
شِيرَز ١٦٠ .
صاله ١٣٠ .
صَبْرَة المنصورة ١٢٩، ٦١١، ٦١٢، ٧٢٧ .
صَرْخَد ٢٦٨، ٢٦٩ .
الصعيد ٢١٦، ٣٢٨، ٣٣٠ .
الصعيد الأدنى ٣٣٠ .
الصعيد الأعلى ٣٣٠ - ٣٣٢ .
صِقَالِيَّة ١٢٥، ١٣٥، ١٥٣، ١٨٦، ١٨٧ .
١٩١، ٦٣٤، ٧٢٦، ٧٤٨ .
الصماميس ٤٧٠ .
صِنْهَاجَة ١٢٣ .
صَهْرَجَت بالشرقية ٢١٣ .
صُور ٢٢٩، ٢٨٣، ٣٣١، ٦٨٢، ٧٣٥ .
صَيْلَا ١٨١، ٢٢٩، ٢٧٦، ٦٨٢، ٧٣٧ .
طَبْرِشْتَان ١٢٢ .
طَرَا جنوب القسطنطينية ٢٥٩ .
طَرَاتْلُس ٢٢٩، ٦٨١، ٧٣٢، ٧٣٥، ٧٣٧ .
طَرَاتْلُس الغرب ١٥٣، ٦٦٠ .
طَبْرِقَة ٦٦٣ .
عَدَن ١٩٢، ١٩٣ .
عَدَن أَيْن ١١٣ .
عدن لاعة ١١٣ .
العراق ٩٦، ٩٧، ١٥٨ .
عِرْقَة ٢٣٠، ٦٧٨، ٦٨١ .
عَنْقَلَان ٢٣٧، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٥ .
٢٨٣، ٢٩٦، ٣٣٠، ٣٣١، ٦٦٣، ٦٧٨ .
٧١٣، ٧٣٥، ٧٣٧ .
القشكر ٢٠٧، ٢١١، ٤٩٢ .
عَشْكِر مكرم ٩٦ .
عَكَا ٢٠٩، ٢١٠، ٢٢٩، ٢٧٦، ٦٨١ .
٦٨٢، ٦٨٧، ٧٣٨ .
عَلْوَة ١٤٨ .
عُتَان ١٩١، ١٩٣، ٧٤٧ .
عَيْنَاب ١٩٢، ١٩٣، ٢١٧، ٣٣١، ٤٨٩ .
٤٩٠، ٤٩٩، ٧٤٣ .
عين شمس ١٨٣ .
غانا ٥٠٥ .
عَدِير حُثَم ٤٦٠، ٤٦١ .
القرية ٢١٦، ٢٧٤، ٣٢٨، ٣٣٢، ٣٣٣ .
عَرْقَة ١٨٤ .
عَرْقَة ٢٨٣ .
فارس ١٨٥، ١٨٩ .
فاس ١٢٤ .
فَحَّ ٩٤ .
الْقَرْمَا ١٥٢، ٢٣٠، ٦٦٢، ٧٢١ .
قَوَان ٦٥٧ .
فلسطين ١٨٥، ١٩٦ .

- الفَيَوم ٢٥٠، ٧٣٠ .
 متحف فكوريا وألبرت ٦٤٧ .
 قبر النسي ١٧٧ .
 المتحف القبطى ٦٥٢ .
 قُرْطُبة ١٢١ .
 المحيط الهندى ١٣٦ .
 قُسْطَنْطُونية ١٢١، ١٨٦، ١٨٩ .
 قُسْطُلة ١١٧ .
 المشرق ١٣٥ .
 القُلُزم ١٥١ .
 المشهد القبطى ١٤٩ .
 قلوب ٢١٠، ٢١٧ .
 مكتبة الجمعية الآسيوية للبنغال فى كلكتا ٦٠٤ .
 قوس ١٩٣، ٢١٦، ٢٣٦، ٢٦٢، ٢٦٤،
 ٢٨٦-٣٢٩-٣٣٢، ٣٣٦، ٤٨٦، ٥٣٦ .
 منارة الطابية ١٤٩ .
 منزل الرسول ١٧٧ .
 المنصورة = صيرة المنصورة .
 منية الحصيب ٤٧٣ .
 مِثْقة زُفَى ٤٧٣ .
 المُهْدِبة ١٢٤، ١٣٦، ١٦١، ٧٢٦ .
 المُوصِل ١٦٠، ١٦١، ١٨٤، ٧٠٧ .
 نابلس ٧١٠ .
 الناظور ١١٣ .
 النَّصَّة ٦٨٤ .
 النوبة ١٤٨ .
 الواحات ٢٨٦ .
 وادى العلاقى ٥٠٥ .
 يافا ٢٧٦ .
 الكابلاً بلاتينا ٦٣٤ .
 كاتدرائية سان مارك ٦٤٧ .
 الكامبوسانتو ٦٥٢ .
 الكام ٦٥٧ .
 كُجرات (الهند) ١٩١ .
 الكُزْخ ١٢٢، ١٩٤ .
 كنيسة قُمامة (القيامة) ١٦٦، ١٨٦، ١٩١، ٢٧٦ .
 الكوفة ١٨٤ .
 كوم شريك ٢٠٠ .
 لَبْنَة ٤٩٣ .
 ليبيا ١٣٧ .
 المتحف البافارى بميونخ ٦٥٢ .
 متحف بناكى بأثينا ٦٥٤ .
 متحف الشَّحَات بليبيا ١٣٧ .
 اليمن ١٠٩، ١١٠، ١١٦، ١٢٢، ١٢٨،
 ١٦١، ١٨٧، ١٩٦، ٢١١، ٢١٤، ٢٣٩ .
 ٢٥١، ٧٤٧ .
 متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ٦٤٧، ٦٥٤ .

٤- الألقاب والمصطلحات وأسماء الدواوين

- آلات المركب (الآلات المركبية) . ٣٨٧ .
 الأبدال ٢٧٥ ، ٣٦٨ ، ٦٨٧ ، ٧١٥ .
 أبواب الفؤاة (إقطاعات رجال الأسطول) ٧٤٠ .
 إجمانة جـ. أجاجين ٦٣٨ .
 الأخباس ٥١٦ ، ٥٤٣-٥٤٥ .
 الإحياء الشئى ١٩٦ .
 الأخشاب ذات الزخارف المحفورة (bois sculptés) . ٦٤٧ .
 أدوان الأمراء ٦٨٦ .
 الأراضي البياض ٤٦٨ .
 الأراضي الشتوية ٤٦٩ .
 أرباب الإيجاب ٧٢٠ .
 أرباب الحيم الجليلة ٣٩٥ .
 أرباب المعاش ٥٠٤ .
 الارتفاع ٤٦٧ ، ٧١١ ، ٧١٢ .
 الأستاذون المحككون ٢٣٤ ، ٣٤٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ .
 ٤٤٤ ، ٦٨٩ .
 = حامل الدوا .
 حامل الشئف .
 حامى خزائن الشؤج .
 زمام الأشراف الأقارب .
 زمام القصر .
 شاد التاج الشريف .
 صاحب بيت المال .
 صاحب الدقتر (دقتر المجلس) .
 صاحب الرسالة .
 صاحب المجلس .
 الاستيمار ٣٥٠ ، ٥٦١ ، ٧٤٠ .
 أسطول شؤسة ١٣٦ ، ٧٢٥ .
 الإشفئسلار (إشفئسلار المساكى) ٣٢٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٢٠ ، ٤٣٤ ، ٦٨٩ .
 أشكوب المهرب ٦٢٢ .
 الأسته البرصانية ٦٩٥ .
 الأسته الخرصانية ٧٠٢ .
 أشجار الشئط ٧٣٤ .
 إضبارة جـ. أضاير ٥١٥ .
 إطلاق جـ. إطلاقات ٧٠٧ .
 الإقطاع ٧٠٥ ، ٧١٣ .
 إقطاع الارتفاع ٧٠٧ .
 إقطاع الاستغلال ٧٠٦ .
 إقطاع الاعتداد ٧٢١ ، ٧٢٤ .
 إقطاع التملك ٧٠٦ .
 الإقطاع الجئشى ٧٢١ ، ٧٢٤ .
 إقطاع القبالة ٧١٧ .
 إئماس ٥٠٠ .
 الإمام (الإمامة) ٣١٥ - ٣٢٠ .
 الإمام المئتؤذع ٢٤٣ ، ٣١٨ .
 الإمام المنتظر ٣١٨ .
 أمان جـ. أمانات ١٧٠ ، ٢٧٠ .

- أمان مجوهر ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ٥٣٩، البقطة ١٤٨ .
- ٦٦٣ .
- الإمبريالية الفاطمية ١٣٦ .
- الأمراء ٦٨٨ .
- الأمراء الملقوقون ٦٨٨ .
- الأمراء أرباب القُصْب ٦٨٨ .
- إمرة الجيوش ٢١٩ .
- الأموال الهلالية ٣٥٦ .
- = المال الهلالي .
- أمير الجيوش ٢١٠، ٣٢٢، ٣٢٣، ٦٧١، التاج ٣٨٨، ٤٢٤ .
- ٦٨٨ .
- أمير المقدمين ٧١٥ .
- أمين الدولة ١٦٢ .
- الإنفاق الواجب ٧٢١ .
- أوراق التسقيع ٢٣٨ .
- أوراق جنيزة القاهرة ٧٤، ٧٥، ١٦٧، ١٩٤، ٤٩١، ٤٩٣، ٤٩٦-٤٩٩، ٥٢٣، ٥٥٢، ٥٧٩، ٥٥٥ .
- إيجاب المشارة ٧١٩ .
- بذلة جد بدلات ٣٩٠، ٤٨٠، ٥٦٢ .
- البذلة المركبة ٣٩٠ .
- البذنة ١٩١، ٣٣٣، ٤٨٠، ٥٦٥ .
- البراطيل ١٤٥، ٢٨٢ .
- البرماوود ٥٧٠ .
- البتندود ٥٧٠ .
- البتطسة ٧٤٣ .
- بلاد مَقَوْرَة ٧١١ .
- بلاطة المحراب ٦٢٢ .
- البُلُور الصخرى ٦٤٢ .
- البثود ١٧٢ .
- البوقلمون ٤٧٦ .
- البهرة ٢٤، ١٩٣ .
- بيت ابن عَوَكَل ٤٩٦ .
- التاج ٣٨٨، ٤٢٤ .
- التاج الشريف ٣٨٨ .
- التبستري (نوع من القماش) ٤٧٣ .
- تجارة العبور ٤٨٨ .
- التجارة الكارمية ١٩٣، ١٩٤، ٤٩٦، ٤٩٧، ٧٤٣، ٤٩٨، ٤٩٧، ٤٩١ .
- تجارة الهند ٤٩١، ٤٩٧، ٤٩٨ .
- تخليق المقياس ٤٥١، ٤٥٢، ٥٦٠ .
- تذكرة الطراز ٤٨٠ .
- التصوير ٦٣٣ .
- التمريفات ٥٣٤ .
- التيج ٩٦ .
- الثقل ٦٩٦ .
- التياب البيض، شعار الفاطميين ١٤٤ .
- التياب الشطوية ٥١٣ .
- الجمالية جد الجوالى ٣٥٤، ٥١١، ٥٢٣ .
- = الجزية .
- جباية الخراج ٥١٢ .

- جرائد الإقطاعات ٧١٦ .
جرائد كسوة الشتاء ٥٦٣ .
الجراية ٧٢٠، ٧٢٢ .
المجرئة ٢٦٥، ٢٦٦، ٥٩٠، ٥٩٧ .
٥٢٣ .
= الجالية .
المسور البلدية ٤٦٨ .
المسور السلطانية ٤٦٨ .
مجلبة جـ. جلاب وجلابات ٧٤١ .
المنيزة = أوراق جنيزة القاهرة .
المهيند ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٣٥ .
مجرشن جـ. جواشن ٦٩٧، ٧٠٢ .
الميتو Ghetto ٥٥٥ .
حارة جـ. حارات ٦٦٣ .
حاشر جـ. حشّار ٥٢٦ .
حامل الذّوة ٣٩٥ .
حامل رُفح الخليفة ٣٩٧، ٤٣١ .
حامل سيف الخليفة ٣٩٧ .
حامل المظلة ٣٩٧ .
حاملو السلاح حول الخليفة ٣٩٧ .
حامى خزائن السروج ٤٢١ .
حامى الزّباغ السلطانية ٥٢٩ .
حامى المطابخ ٣٩٩ .
الحُجّة جـ. حُجج (مرتبة) ٩٩ .
حزاقة جـ. حراقات وحرايق ٧٤٣ .
حرية جـ. حراى ٧٣٣ .

- الحُقُس (عند الإسماعيلية) ٥٧٨، ١٧٠ .
- الحُقُس الرومي ٥٣٤، ٥٣٣، ٥٣٢، ٥٣١، ٥١٠ .
- نخوذة ج. نخوذ ٧٠٢، ٦٩٧ .
- دار الصَّنَاعَة ٧٣٢-٧٢٩ .
- دار الضَّرْب ١٤٣، ٢٣٥، ٣٣١، ٤٩٣، ٥٤٨ .
- دار الضِّيَافَة ٣٩٦ .
- دار الطَّرَاز ٣٩٠، ٤٧٩، ٥٦٣ .
- دار العِيَار ٥٤٨ .
- داعى الدُّعَاة ٣٦٣، ٣٦٩-٣٧١، ٧٤٨ .
- دَبُوس ج. دبائيس ٤١٩، ٦٩٧ .
- الدَّبِيْقَى ٣٩٠، ٤٧٤، ٤٧٥ .
- دَرَقَة ج. درق ٧٠١ .
- دَرَقَة حمزة بن عبد المطلب ١٧٩، ٤٣١، ٦٩٥ .
- دَفَّر المجلس ٣٩٣، ٣٤٩ .
- دُكَّاسَة جز دُكَّاسَات ٤٨٠ .
- دُكُوجَة ج. دكاكيچ ٦٤٦ .
- ذَلِيل ج. أدلَاء ٥٢١، ٥٢٦، ٥٣٠ .
- دنانير الغُرَّة ٤١٦ .
- دِهْلِيز باب الملك ٦١٩ .
- دِهْلِيز العمود ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٤٢٧ .
- الدِّيَاج الحُشْرَوَانِي ٤٧٨ .
- الدِّيَاج المُثْقَل ٤٧٥ .
- الدِّينَار الأَبْيَض ١٤٧ .
- الدِّينَار الرَّاضِي ١٤٧ .
- الدِّينَار الفاطمي ٥٠٥ .
- الدِّينَار المَزْي ١٤٧ .
- ديوان الأَخْبَاس ٣٤٦، ٥٤٤، ٥٤٧ .
- ديوان الاستِيفاء على الأعمال الشرقية ٣٦٠ .
- ديوان الاستِيفاء على الأعمال القبلية وما جمع إليه ٣٤٦ .
- ديوان الاستِيفاء على الثغور المحروسة ٣٥٤ .
- ديوان الاستِيفاء على الصَّحِيدِينَ الأعلى والأدنى وما جمع إليه ٣٦٠ .
- ديوان أَثْقَل الأرض ٢٢٨، ٣٦٠ .
- ديوان الإِطْطَاع ٣٦٠، ٧١٢، ٧١٦ .
- ديوان الإِطْطَاعَات المَرْتَجَمَة ٣٦٠ .
- ديوان أُم الخليفة المُسْتَصْر ١٩٨، ٣٤٦، ٣٤٧ .
- ديوان الإنشاء والمكتابات ٢٦٥، ٣٠٥، ٣٤٧ .
- ٣٥٦، ٣٥٥ .
- ديوان الأولياء الكبار ٣٤٦ .
- ديوان البريد ٣٤٦، ٣٤٨ .
- ديوان التحقيق ٢٢٨، ٣٤٨، ٣٥١-٣٥٤ .
- ديوان الترتيب (الرتب) ٣٤٦، ٣٤٨ .
- ديوان الثغور ٣٥٤ .
- ديوان الجهاد ٣٦٠، ٧٤٠ .
- ديوان الجوالى ٣٥٤ .
- ديوان الجوامع والمساجد المعمورة ٣٦٠ .
- ديوان الجيش ٣٤٦، ٧١٨، ٧٢٠ .
- الدِّيوان الخاص ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥٥ .
- ديوان الخراج ٣٤٦، ٣٥٤ .
- ديوان دمشق ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥٤ .
- ديوان الرسائل ٣٤٧ .
- = ديوان الإنشاء .
- ديوان الرواتب ٣٥٠، ٣٦٣، ٣٩٥، ٧٢٣ .

- ديوان الزكاة ٣٥٤ .
 ديوان الزمام ٣٤٨، ٣٤٦ .
 ديوان الشام ٣٤٦ .
 ديوان الطحاوية ٣٤٦ .
 ديوان المرائف ٣٤٦ .
 ديوان القروض ٧٢٣ .
 ديوان العمائر ٧٤٠ .
 الديوان القرضي ٣٤٧، ٣٤٦ .
 ديوان الكتامين ٣٤٧، ٣٤٦ .
 الديوان المأموني ٥٦١ .
 ديوان المجليس ٣٥٤-٣٥٠، ٣٤٩، ٢٢٨ .
 ٧١٦، ٥٠٩ .
 الديوان المرتجع ٥٣٩، ٣٦٠، ٣٤٨ .
 ديوان المصادرين ٥٣٧ .
 الديوان المفرد ٥٣٨، ٣٤٨، ٣٤٦ .
 ديوان المملكة ٣٥٢ .
 ديوان الموارث الحشرية ٥٤٢، ٣٥٤ .
 ديوان النظر ٣٥٣-٣٤٩ .
 ديوان التفقات ٣٤٦ .
 الذؤابة ٢١١ .
 ذو الفقار، سيف على بن أبي طالب ١٧٩، ٦٩٥ .
 رأس السنة الهجرية ٥٦٠ .
 راية ج. رايات ٤٢٥ .
 رنح ج. رباع ٥٢٩ .
 الرباع السلطانية ٥٣٠ .
 رشم ج. رشم ٣٧٣ .
 رشم التوفير ٥٣٥ .
 رشم الحراج ٧٣٤ .
 رشم الخنقة ٥٣٥ .
 رشم الصباغة ٥٣٥ .
 رشم الطعمة ٥٣٥ .
 الوثاشون ٣٩٩ .
 ركوب أول شهر رمضان ٤٣٢، ٤١٥ .
 ركوب أول العام ٤١٥ .
 ركوب أتمام الجمع الثلاث من شهر رمضان ٤١٥،
 ٤٣٣ .
 ركوب تخليق المقياس ٤٥٣، ٤١٥ .
 ركوب صلاة عيد الأضحى (النحر) ٤١٥، ٣٦٧،
 ٤٤٤ .
 ركوب صلاة عيد الفطر ٤٣٩، ٤١٥، ٣٦٧ .
 ركوب عيد الغدير ٤٦٠، ٤١٥ .
 ركوب فتح الخليج ٤٥٦، ٤١٥ .
 رشح ج. رماح ٦٩٥، ٤٢٦ .
 الرماح القنا ٧٠٠ .
 الرواق ج. أروقة ٣٨٠، ٣٧٧ .
 روزنامج ٥٦١ .
 الرؤك ٧١٣ .
 الرؤك الأفضل ٧١٣، ٣٢٨ .
 رؤية الهلال ١٧١، ١٦٥ .
 زردية ج. زرديات ٧٠٢، ٦٩٧ .
 زمام الأشراف الأقارب ٣٩٤ .
 زمام الرجال ٣٩٥ .

- زمام القصور (القصص) ٣٩٢-٣٩٤ .
 الزنار ١٦٦ .
 الزكوة ١٧٠، ٣٥٤، ٥١٠، ٥٢٧ .
 الشيزيرية جـ. الشيزيريات ٤٢١، ٧٠١ .
 سيجل جـ. سيجلات ٢١٣، ٢١٥، ٢١٨،
 ٢١٩، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٤٥،
 ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٣،
 ٢٨٢، ٢٩٥، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٢٠، ٣٦١،
 ٥٢١، ٥٢٢، ٧١٧ .
 السجل المنشور ٣٤٨ .
 سيجلات التحضير ٥٢١ .
 سرير الملك ٣٧٦، ٤٠٠، ٤٠٢ .
 الشفلاطون ٤٧٥ .
 شكرجة جـ. سكارج ٦٤٦ .
 الشبكة ١٤٣ .
 الشبكة الحمراء ١٤٣ .
 سلطان الجيوش ٦٩٠ .
 سباط جـ. أنشطة ٣٨٠، ٥٦٧، ٥٦٩ .
 سنجق جـ. سناجق ٧٠٠ .
 الشهيدلا ٣٨٢، ٣٨٣ .
 الشواد، شعار القبايين .
 سيف جعفر الصادق ١٧٩ .
 سيف الحسين بن علي ١٧٩ .
 السيف الخاص ٤٢٦ .
 السيوف العربية ٧٠٢ .
 السيوف القلجوريات ٧٠٢ .
 شاد التاج الشريف ٣٨٨، ٣٩٣ .
 شارات الخلافة ٣٨٧ .
 شاهد جـ. شهود ٥٢١ .
 شاهد الحفص ٥٣٤ .
 شبابك القفل ٦٤٢ .
 الشباك ٣٨٢-٣٨٥، ٤٢٣، ٦١٩ .
 شيخنة الفريخ ٢٩٤، ٢٩٥ .
 الشقة العظيمة ٢٠٤-٢٠٧، ٢٣١، ٢٣٧،
 ٤٧٠، ٤٧٨ .
 شقة الوقار ٣٨٨، ٤٤٦، ٥٦٥ .
 الشرب ٤٧٥ .
 شعار الخلافة ٣٨٧ .
 شندى جـ. شنديات ٧٣٣، ٧٤٤ .
 شينى جـ. شوانى ٧٢٨، ٧٣٣، ٧٤٢ .
 صاحب الباب ٢٨٧، ٣٣٧، ٣٦٧، ٣٩٥-
 ٤٠٢، ٤٣٤، ٦٨٩ .
 صاحب البحر ٧٢٧ .
 صاحب بيت المال ٤٣٣ .
 صاحب الذقر ٣٩٣ .
 صاحب دقر المجلس ٣٤٩ .
 صاحب الزنق ٣٤١ .
 صاحب الرسالة ٣٩٤، ٤٢٣ .
 صاحب السر ٥٦٨ .
 صاحب الشرطة ١٦٩، ٣٣٤-٣٣٧، ٣٤٢ .
 صاحب الصناعة ٤٥٢ .
 صاحب الطراز ٦٣٥ .
 صاحب القمص ٣٣٧ .

- صاحب المجلس ٣٧٨، ٤٠٠ .
صاحب المظلة ١٦٢ .
صاحب المقص ٣٧٩، ٣٩٤، ٤٠٠ .
الصبيان الحجرية ٢٧٥ .
صبيان الخاص ٤٣٥، ٦٨٩ .
صبيان الزكاب ٢٦٤، ٤١٩، ٤٣٠، ٦٩٩ .
صبيان الزرد ٢٧٥، ٤٣٠ .
الصنبر ٣٧٧، ٣٧٨ .
الصنفسامة ٦٩٧ .
الصنماصم المصقولة ٤١٩، ٦٩٩ .
الصننج الزجاجية ٦٤٢ .
الصننج الممشقة ٦٢٤ .
الصؤلقي ٦٩٦ .
الضرائب ٥١ .
الضمان ٣٥٠، ٥١٤، ٥١٦ .
الطراز ١٣٠، ١٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٦٣٦ .
طراز الخاصة ٤٧٤، ٥٦٣ .
طراز العامة ٥٦٣، ٥٧٤ .
طريدة جـ طرائد ٧٤٣ .
الطوائف الحرفية ٥٠١، ٥٠٢ .
طيفمور جـ طيافير ٥٦٨ .
الطيلسان ٣٨٩، ٣٩١ .
الطيلسان المَقْوَر ٢١١ .
عامل الجوالي ٥٢٥ .
عامل الخفص ٥٣٤ .
الميزرة ٥٢٦، ٧١١، ٧١٤، ٧١٦، ٧١٧، ٧٢٠ .
القروضة ٥٣٥ .
غرفاء الأسواق ٥٠٤ .
غرفاء الخازين ٥٠٤ .
غرفاء السقائين ٣٤٣، ٥٠٤ .
غرفاء العيد ٥٠٤ .
عروض التجارات ٥٣٦ .
غريف جـ غرفاء ٣٤٣، ٥٠٣، ٧٠٧ .
غشاري جـ غشاريات ٤٨٠، ٧٤٦ .
الغشتر ٥٣٦، ٧١٦ .
العمارية جـ العماريات ٤٢٠، ٤٢٢ .
العمامة ٣٨٨، ٣٩٠، ٥٦٥ .
العهد (عند الإسماعيلية) ٣٧٠، ٥٧٣، ٥٧٤ .
العهد القمري ١٦٩ .
عيد الحلل ٤٤٣، ٥٦٣ .
عيد غدِير نَحْم ٣٦٨ .
عيد التضر ٢٤٨ .
الغراب ٧٤٦ .
غضارات زجاج ٦٤٤ .
الغطاس ٥٦١ .
الغيار ١٦٦ .
القانوس ٧٤٠ .
القائيد ٥٧٠ .
الفراشون المميزون ٤٣٣ .
القيصيح ٥٦١ .
القفل ٧٠٧، ٧٠٨ .
الفيطرة ١٧٠، ٣٨٥، ٥٢٨، ٥٥٤، ٥٧٨ .

- الفنح ٥١٠ .
- قارورة جـ. قوارير ٦٤٤ .
- قاضى القضاة ٣٦١-٣٦٧، ٤٣٤، ٧٤٨ .
- قاطرميز ٦٤٦ .
- القاعة ٣٧٦، ٣٧٧ .
- القائد (لقب للمأمون البطاحي) ٢٢٨ .
- القباطى ٤٧٣ .
- القبالة (قبالة الأراضى) ١٤٦، ١٤٨، ٥١٨-٥٢١، ٧١١، ٧١٤ .
- قبالات المناجزة ٥٢٢ .
- قراء الحضرة ٣٩٩، ٤٠٢، ٤٢٣، ٤٣٤ .
- القراض ٥٠٠ .
- قزبوص جـ. قرايص ٦٩٧ .
- قيى الرجل ٧٠٣ .
- قيى اللوب ٧٠٣ .
- القُصْب الفضة ٧٠٠ .
- القُصيم ٧٢٢ .
- الْقَلل ٦٤٢ .
- القُنداق ٥٢١، ٥٢٢ .
- القُطارية جـ. قنطاريات ٦٩٧، ٧٠١، ٧٠٢ .
- قُود الأسطول ٧٤٠ .
- قوارير الثفط ٧٠٤ .
- القوف (رسوم جمركية) ٥٣٥ .
- كاتب الخُفس ٥٣٤ .
- كاتب الدُقر ٥٦٣ .
- كاتب ديوان الجيش ٧٢٠ .
- كاتب الزوائب ٣٥٠ .
- الكارم = التجارة الكارمية ٤٩٦، ٤٩٨، ٤٩٩ .
- كراغند جـ. كراغندات ٦٩٧، ٧٠١ .
- الكُتان ٣٧٧ .
- اللباس الخاص الجمعى ٣٩١، ٤٨٠، ٥١٤ .
- لُت جـ. لُتوت ٤١٩، ٧٠٠ .
- لواء الحُند ٤٢٥ .
- ليالى الوفود الأربع ٣٦٨، ٤٠٥، ٥٦٠، ٧٤٨ .
- ماسح جـ. مُشاح ٥٢١ .
- المال الخراجى ٥١١ .
- مال المراعى ٥١٢ .
- المال الهلالى ٥١١ .
- المتجر ٤٩٤، ٤٩٥ .
- المتجر الديوانى السعيد ٤٩٤، ٥٣٢ .
- متولى البحر ٧٢٥ .
- متولى حرب يثيس ودمياط ٣٢٩ .
- متولى حرب الزفلة ١٧٩، ٣٢٩ .
- متولى حرب الصعيد ٣٢٩ .
- متولى الحرب والسيارة بالريف ٣٢٩ .
- متولى الزرع ٥٣٠ .
- متولى السيارة ٣٢٨ .
- متولى الشُرطة ١٦٨، ٣٣٥ .
- = صاحب الشُرطة
- متولى المائلة ٣٩٩، ٥٦٩ .

- مجالس الحكمة ١٧٠، ١٧٦، ٣٧٠، ٣٨٦، مطابخ السكر ٤٨١،
 ٥٧٣-٥٨٢. مطابخ الورق ٤٨٢.
 مجالس الذُّعْوَة ٣٠٤، ٥٧٧. المِظْلَة ٣٨٨، ٣٨٩، ٤٢٤، ٤٣٧،
 ٤٨٠. مجلس أصحاب الدواوين ٣٥٤. مجلس المطايا بدار الملك ٢٢٧.
 مجلس اللَّيْثِ ٣٨٢. المُقَادَّة ٥٢٢. مجلس الملك ٣٧٧، ٣٧٨، ٤٠٠، ٤٠١.
 المحتسب ٣٣٤، ٣٤٢، ٣٤٣، ٥٠٤. مُقَدِّم الأسطول ٧٤٠.
 المحضّر (العباسي) ١٨٩، ٢٢٥. مقدم خزانة الكُشُوتَة الخاص ٥٦٤.
 مخزومة جد مخازيم ٥٢٧، ٥٣١. مقرنص جد مقرنصات ٦١٨.
 مدرسة جد مدارس ١٩٦، ٣٠٥. مقطع الوزارة ٣٨١، ٤٠١، ٤٢٧، ٤٢٨.
 المذوّرة ٣٨٠. مُقَطَّع قُرْد الكم ٤٠١.
 المرافق والمعاون ٥١٢. المكس جد المكوس ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٨، ٤٩١.
 المراكب الخمسية ٥٣٤. ٥١١، ٥١٢، ٥٣٣، ٥٣٦. مراكب الكارم ٢١٧، ٧٤٠.
 المزارعة ٥١٩. مُكَلَّفَة جد مكلفات ٥٢٢. المزارعة بالبواقي ٥١٩.
 المسامحة بالمواقي ٥١٩. مُلَطَّف جد ملطفات ١٨١. المستوفى ٧٢٠.
 الملك (الصالح) ٢٨١، ٣٢٣. المناجزة ٥٢٢، ٧١٢. المستوفيات ٤١٩، ٦٩٨.
 منديل الكم ٢٣٥. مناجزة ٥٢٢، ٧١٢. مُسَطَّح جد مُسَطَّحات ٧٢٩، ٧٤٢.
 منشور جد مناشير ٣٤٥، ٣٤٦، ٥١٥، ٥٤١. منشار ٧١٩. مُشارف الجوالي ٥٢٥، ٥٢٦.
 مندوزع الحكم ٣٦٢، ٥٤٤. مندوزع غير الشرعية ٥١٢. مشارف خزائن السروج ٤٢١.
 الموارد الشرعية ٥١٢. مشارف الخُص ٥٣٤.
 الموارد غير الشرعية ٥٣٩-٥٤٢. المصادرة جد المصادرات ٢٤٠، ٢٤٥، ٥٣٧.
 الموالد الستة ٣٦٨، ٤٠٤-٤٠٥، ٥٦٠، ٥٦٩. الموائد ٥١٢.
 ٥٧١. المصحف الأزرق ٦٠١-٦٠٣.
 مؤدع الحكم ٣٦٢، ٥٤٤. المصنوعات الزجاجية ٦٤٢.

- المُوَقَّع، مقدم الحجرية ٦٨٤ .
 الميلاد ٥٦١ .
 النائب ٣٩٦ .
 ناظر الخفص ٥٣٤ .
 ناظر الدواوين ٣٥٤ .
 التَّجْوِي ١٧٠، ٣٧٠، ٥٢٨، ٥٥٤، ٥٧٦، ٥٧٨ .
 الثَّشْو ٥٢٦ .
 الثَّص ٣١٦ .
 نَظَر الدواوين .
 الثَّوْرُوز ٥٦٠ .
 النيابة الشريفة ٣٩٦ .
 واجب النِّمَّة ٥٣٦ .
 الوالى ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤٢ .
 والى الشرقية .
 والى الصعيد الأعلى ٣٣١ .
 والى القُشَطاط ٣٣٥ .
 والى القاهرة ٣٣٥، ٣٦٨، ٤٣٠ .
 والى قوص ٢١٧، ٣٣٠، ٣٣١ .
 الوثائق الهيزية ٥٣٣ .
 وثائق ديوانت كاترين ٢٤٥، ٣٤٦ .
 الورق الطَّلعي ٤٨٢ .
 وزارة التفضيخ ٣٢٠، ٣٢٢ .
 وزارة التنفيذ ٣٢٠، ٣٢١ .
 الوَساطَة ١٦٢، ١٦٤، ١٨٢، ٢٢٣، ٣٢٠ .
 الوَصِيَّة ٣١٦ .
 وفاء النيل ٤٤٧، ٤٥١، ٤٥٤، ٥٦٦ .
 وكلاء التجار ٤٨٩ .
 وكيل التجار ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩٢ .
 وكيل التجار اليهود فى القاهرة ٤٩٧ .
 ولاية الإسكندرية ٣٣٣ .
 ولاية الشرقية ٣٣٢ .
 ولاية الغربية ٣٣٢ .
 ولاية القسطنطينية ٣٣٤، ٣٣٩ .
 ولاية القاهرة ٣٣٤، ٣٣٨ .
 ولاية الصَّناعتين ٣٤٠ .
 وَلِيَّ عَهْد المسلمين ١٧١، ٣١٨ .
 وَلِيَّ عَهْد المؤمنين ٢٢١ .
 اليتيمة ٣٨٨، ٤٢٩ .
 يوم عاشوراء ١٣٢، ٣٤٠ .
 يوم غَوْض الحَيْل ٣٨٢، ٤٢٢، ٤٢٣ .
 يوم قَحَح (كُشِر) الخليج ٢٢٩، ٣٣٣، ٤٤٨، ٤٥١، ٥٥٩، ٥٦٠ .

٥ - القبائل والجماعات والفرق والأسرات الحاكمة

- الآمرة ٤٣١ .
 الأتابكة ٣٤٥ .
 الأتراك ١٥٣، ١٥٨، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣ .
 ١٩٧ - ٢٠٢، ٥٥١، ٦٦٥، ٦٦٦ .

- الأخذات ٦٦٤ .
 الحُجْرِيَّة ٤٣١، ٦٨٢ .
 الإخشيدية ١٣٢، ١٣٣، ٦٦٢، ٦٦٦ .
 الإخشيدون ١٣١، ١٣٢، ١٣٩، ١٥٠، ٦٦٠ .
 الأزمن ١٥٣، ٢٠٧، ٢٢٨، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٩، ٣٠٣، ٥٥١، ٥٥٥، ٥٩١، ٦٧٢، ٦٩٠، ٦٩١، ٧١٦ .
 الإسمارية Hospitaliers ٢٩٢، ٦٨٤ .
 الأساكفة ١٦٨ .
 الأشاعرة ١٩٥، ٥٩١ .
 الأغالبة ١١٧، ٦٥٩، ٧٢٥ .
 الأنصليَّة ٤٣١، ٦٨٧ .
 الأمراء البرقية ٢٨٧ .
 أهل الذمَّة ١٥٣، ١٥٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩، ٢٦٧ .
 الأمويون ٤٧، ٧٤٩ .
 الباطليون ٥٥٦ .
 بَزْر كُثَاثَة ١٦١، ١٦٣ .
 = الكتاميون .
 بَزْر لَوَاثَة = اللواتيون .
 البززيون ٢٨٧، ٥٥١ .
 البُكْجُورِيَّة ٦٦٧ .
 بنو سِنْيَس ٢٠٢ .
 بنو قُوَّة، عرب البحيرة ١٩٩ .
 البوريون ٢٦٩ .
 البزْزَهِيون ١٢٢، ١٣٢، ١٨٨، ٧٠٥ .
 الجُهْنِيون ٢١١ .
 الجيوشية ٢٧٣، ٤٣١، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٩١ .
 الحافظية ٤٧، ٢٥٢، ٤٣١ .
 الحُجْرِيَّة ٤٣١، ٦٨٢ .
 الحُجْدَانِيون ١٣١، ١٥٠، ٦٦٧ .
 الحُرُوز ١٧٦ .
 الذبالة ١٥٣، ١٥٨، ١٨٤، ٥٥١، ٦٦٥، ٦٦٦ .
 الرُكَايَة ٦٩٩ .
 الوُجْجِيَّة ٣٩٨، ٤١٨، ٤٦٢، ٧٢١ .
 الزُوم ٥٥١ .
 الزُهْجَانِيَّة ٢٧٣، ٢٧٤، ٤٣١، ٦٩١ .
 زُغْبَة ورياح ١٩١ .
 زَنَاتَة ١٢٣ .
 الزُنْكِيون ١٩٦، ٦٩٢ .
 الزمريون ١٧١ .
 الزُويليون ١٣٧، ٥٥١، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩ .
 الشُعْبِيَّة ١٦٦ .
 السَّلَاجِقَة ١٨٤، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ٢١٣، ٢٢٦، ٣٠١، ٣٠٥ .
 ٣٤٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٧٤٧ .
 السُودَان ١٥٣، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٩، ٣٠١، ٣٠٣، ٥٥١، ٦٧٠، ٦٩٢ .
 الصَّيَّان الحُجْرِيَّة ٢٧٥، ٦٨٥، ٦٨٩، ٧١٩ .
 = الحُجْرِيَّة .
 الصَّقَالِيَّة ١٣٧، ١٦٦، ٥٥١، ٥٦٨، ٦٥٧ .
 ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٣ .
 الصَّلَاحِيون ١٩١، ١٩٣، ٢١١، ٣٣٠ .

- الصنّهاجيون ٥٥١، ٦٦٧ .
 الطائفة المهدية ٢٥٦ .
 الطلّحيون ١٩٩ .
 الطولونيون ٧٤٩ .
 الطيّبة ٤٧، ٢٥١ .
 عبيد الشراء ٦٦٩ .
 العسكرية ٢٠٧، ٥٥١ .
 القراشون ١٦٦ .
 قُزسان المعبد (الداوية) ٢٨١، ٦٨٤ .
 الفِرْعُخ ٢٢٩، ٢٤١، ٢٦٨، ٢٧٥، ٢٧٦،
 ٢٨١-٢٨٣، ٢٩١-٢٩٦، ٣٠١، ٣٠٢،
 ٣٠٨، ٣٢٣، ٦٧٦، ٦٧٩، ٦٨٥-٦٨٧،
 ٧٣٧، ٧٣٨ .
 الفرغجية ٤٣١ .
 القَيْنُط ج. أقباط ١٥٥، ١٦٧، ٤٧٢، ٥٥١،
 ٥٥٤، ٥٩١، ٧٢٩ .
 القرامِطَة ٩٦-٩٩، ١٢٢، ١٢٨، ١٥٠،
 ١٥٢، ١٥٧، ٥٥٦، ٦٦٤ .
 القَصْرِية ٦٦٧ .
 القَيْسيون ٢١١ .
 الكافورية ١٣٢، ١٣٣، ٦٦٢، ٦٦٦ .
 الكُماميون ١٣٧، ١٦١، ١٦٣، ٢٠٠، ٥٥١، ٦٥٧،
 ٦٥٩، ٦٦١، ٦٦٣، ٦٦٧، ٦٩٠، ٧٠٧ .
 اللّواتيون (تَمَزَز لَوَاتَة) ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١١،
 ٢٧٤، ٥٩٧ .
 المجيدة ٢٥٢ .
 الموحاسيون ١٨٥، ١٨٧ .
 المركزية ٦٩١، ٧٢٣ .
 المستطية ٤٧، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٥١، ٢٥٢ .
 المَصَائِنة ٢٠٠، ٤٣١ .
 المحترلة ١٩٥ .
 المغاربة ١٥٣، ١٥٨، ١٦١، ١٩٨، ٢٠٩ .
 المَلْحِية (الأتراك) ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١١،
 ٥٥١ .
 المماليك ٧٤٧ .
 الثَّرَاية ٤٧، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٣٧، ٢٤٢ .
 الثَّصَارَى ١٥٥، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٨٦،
 ٢٤٠، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٦، ٣٠٥ .
 الثوربون ١٩٦ .
 اليانسية ٦٨٨ .
 اليهود (يهود مصر) ١٥٥، ١٦٤، ١٦٦، ١٩٨،
 ٢٦٦، ٥٥٤ .

الكشاف البيولوجرافى

- إبراهيم رزق الله أيوب ٧٧ .
 إبراهيم شيوخ ١٤٩ .
 الأثبهي (محمد بن أحمد المولى) ٢٣٠ .
 ابن الأثير (على بن محمد، عز الدين) ٣١، ٣٢، ٥٩، ١١٣، ٢٧٣ .
 أحمد بن إبراهيم التيسابورى ٥٧٤ .
 أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرماني ١٧٦ .
 أحمد السيد الضاوى ٨٦ .
 أحمد فكرى ٩٢ .
 أخو محسن (الشرىف الشعابة محمد بن على الدمشقى) ٣٤، ١٠٢، ١٠٣، ٥٧٤ .
 إدريس، هادى روجيه Idris, H.R. ٨١ .
 أسامة بن مثنى ٣١، ٥٢، ٢٦٨ .
 إسماعيل بوناوالا Poonawala, I. ٨٠، ٨١ .
 أمينة البيطار ٨٢ .
 أمية بن عبد العزيز الأندلسى، أبو الصلت ٤٧ .
 إنسترونزف Inastrontsef ٨٥، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٨٤ .
 أوليرى، دى لاسى O'Leary ٧٦ .
 ابن لياس (محمد بن أحمد، أبو البركات) ٣١، ٣٨، ١٤٨ .
 ابن أبيك (أبو بكر عبد الله) ٣١، ٦٦، ١٠٣، ٤٩٦ .
 إيتنجهاوزن، ريتشارد Ettinghausen, R. ٩٢ .
 إيفانوف، فلاديمير Ivanow, W. ٧٨، ٨٠، ٨١ .
 إيفتس Evetts ٧٢ .
 أيمن فؤاد سيد ٧٧، ٨٣، ٩٠ .
 باروكان، ماريان Barrucand, M. ٩٢ .
 باكاراك، جبرى Bacharach, J. ٨٧ .
 بالوج، بول Balog, P. ٢٤٧ .
 برىت، مايكل Brett, M. ٨٧ .
 بشير إبراهيم بشير ٨٧ .
 بلوم، جونسان Bloom, J. ٩٢ .
 بيانكى، تيارى Bianquis, Th. ٨٣، ٨٤، ٨٦، ٨٩ .
 جارسان، جان كلود Garcin, J.Cl. ٣٣١ .
 ابن مجبىر (محمد بن أحمد الكتانى) ٤٨٦، ٤٩٤، ٥٣٦ .
 جرابار، أوليج Grabar, O. ٩٢، ٦٣٣ .
 الجزيرى (عبد القادر بن محمد الأنصارى) ١٧٧، ١٧٨ .
 جعفر بن منصور اليمنى ٣٣، ١٠٤ .
 جمال الدين الشئال ٩١ .
 جمال محرز ٩٢ .
 جودر، الأستاذ ٣١٧، ٣١٨ .
 ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على) ٣١، ١٥٦، ٣٢ .
 جويتين، شلومو Goitein, S.D. ٧٣، ٧٥، ٨٦، ٨٨، ١٦٧، ٤٩١، ٤٩٩، ٥١٢ .

- الحامدي (حاتم بن إبراهيم) ٥٨٧ .
 ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي) ٣٨ .
 حسن إبراهيم حسن ٧٧ .
 حسن الباشا ٩٢ .
 حسن الهوّاري ١٤٩ .
 حسين بن قتيّض الله الهندي ٨٣، ٧٩ .
 حسين مؤنس ٧٢٣ .
 ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي) ١٠١ .
 ابن حنّاد (محمد بن علي، أبو عبد الله الصنهاجي) ١١٣، ٣١ .
 حنّان بن عبد الرحيم بن حنّان الأتاري ٦٧٢ .
 ابن حوشب (منصور اليمن) ٣٣ .
 خاشع المعاضبي ٨٢ .
 خان، جوفري Khan, G. ٩١ .
 خطّاب عطية علي ٨٩ .
 ابن خلّكان (أحمد بن محمد، شمس الدين أبو العباس) ٣١، ٦٤، ١٤٢، ٢٣٠، ٢٤١، ٢٤٣، ٥٥٣ .
 داغفوس، راضي Dagfous, R. ٨٥ .
 درويش النخيلي ٨٢ .
 دُقرى، فرهاد Daftary, F. ٨٠ .
 ابن دُقاق (إبراهيم بن محمد بن أُمّ دُش) ٣١ .
 دوريس أبو سيف Abouscif, D. ٦١٨، ٩٢ .
 دي غوي De Goeje ٧٦، ٨٠ .
 دي سامي، سلفستر De Sacy, S. ٧٦، ٨٩ .
 الذّكبي (محمد بن أحمد بن عثمان) ٣١، ٣٢ .
 راشد البوّاري ٨٥ .
 ابن رزام (محمد بن علي، أبو عبد الله) ٣٤، ٩٨، ١٠٢ .
 رسائل إخوان الصفا ٥٠١ .
 رضوان محمد رضوان البارودي ٨٧ .
 الرقيق القيرواني ١١٣ .
 الروزباري (أحمد بن الحسين بن أحمد) ٣٨ .
 زاهد علي ٧٧ .
 زكي محمد حسن ٩٢، ٦٥٤ .
 ابن زولاقي (الحسن بن إبراهيم) ٣٠، ٣٥، ٣٦ .
 ١٤٢، ١٤٩، ١٤٦، ٤١٤، ٤٣٩، ٤٤٧ .
 سالم، السيد عبد العزيز ٨٧ .
 سامر طرابلسي ٨٣ .
 ساندروز، بولا Sanders, P. ٨٥، ٣٧٥ .
 ساويرس بن المقفّع ٧٢، ٣٢٦، ٣٣٠ .
 سبط ابن الجوّزي (يوسف بن قزّوغلي) ٣١ .
 ستانلي لين بول Lane - Poole, S. ٢٤٦ .
 ستلمان Stilmann ٤٩٧ .
 السجلات للمستصرية ٤٥ .
 ابن سعيد (علي بن سعيد المغربي) ٣٠، ٦٥ .
 سلّام شافعي محمود ٨٨ .
 الشّهودي (صاحب وفاة الوفا) ١٧٨ .
 سوفير Sauvair ٢٤٦ .

- السيد محمد الغزالي ٨٨ .
- عجاس قنبداني ٧٩، ٨٣ .
- عبد الحئي شعبان ٧٨، ٥٠٩ .
- عبد العزيز بن شداد ١١٣ .
- ابن عبد الظاهر (محيى الدين عبد الله بن عبد
الظاهر ٦٧، ١٦٦، ٣٧٦، ٤٣٧، ٥٨٦،
٦٨٣ .
- عبد النعم عبد الحميد سلطان ٨٧ .
- عبد النعم ماجد ٧٧، ٨٤، ٨٥، ٨٩، ٣٧٥ .
- أبو عبيد البكري ١٧٧ .
- القتبي (محمد بن عبد الرحمن بن القاسم) ٣٧ .
- عطية مصطفى مشرفة ٨٤ .
- علي بن خلف ٥٣، ٥٤، ٣٤٧ .
- علي بن رضوان الطيب ٤٦، ٣٣٤ .
- أبو علي منصور المزني الجوزي ٣٠، ٣٤ .
- عماد الدين إدريس بن الحسن الأنف ٣١، ٣٥ .
- ١٠٠، ١٠٦، ٢٥٠، ٥٧٨ .
- عمارة اليني (ابن علي الحكيم) ٣١، ٥٢ .
- ٢٥٠، ٢٨٥، ٣٠٨ .
- غليوم رئيس أساقفة صور Guillaume de Tyr
٢٩٢، ٣٧٦، ٣٨١، ٤٠٣، ٥٥٩، ٦٠٤ .
- الفاسي (تقي الدين محمد بن أحمد المكي) ١٨٧ .
- فان إس، جوزيف Van Eas, J. ٨٩ .
- فان برشم، ماكس Van Berchem, M. ٩١ .
- ابن القرات (محمد بن عبد الرحيم) ٣١، ٤٩،
٦٦ .
- فرحات الدشراوي ٧٨، ٨١، ٢٦١ .
- القرغاني (أبو محمد عبد الله بن أحمد) ٣٨ .
- أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي) ٣١،
٥٩، ٢٩١ .
- شتيرن، سمويل Stern, S.M. ٧٩، ٨١، ٨٢،
٨٨، ٩٠، ٢٢١ .
- الشريف الجواني (محمد بن أسعد) ٦٣٤ .
- الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم) ٩٥ .
- شوشان، بواز Shoshan, B. ٨٦ .
- صادق أسعد ٨٩ .
- أبو صالح الأرمني ٧٢، ٣٣١، ٥٥٥، ٦٣٢ .
- سمويل الشزباني ٧٣ .
- ابن الصيرفي (علي بن منجب بن سليمان) ٣١،
٥٠، ٥٤، ٥٥، ٢٦٥، ٣٢٩، ٣٣٠ .
- ٣٤٥، ٣٥٥، ٤٦٥ .
- الطوسوسي (مزمضي بن علي) ٦٩٦ .
- ابن الطوئر (عبد السلام بن الحسن، أبو محمد
الحقي) ٣١، ٥٦، ٥٧، ٦٧، ٨٥، ٢٣٦،
٢٣٩، ٢٤١، ٢٥٩، ٣٤٥، ٣٦٣، ٣٧٣،
٣٧٧، ٣٧٨، ٤١٤، ٤١٨، ٤٣٣، ٤٣٧،
٤٤١، ٤٥٣، ٤٥٦، ٤٦٢ .
- طه أحمد شرف ٨٨ .
- ابن أبي طي (محيى بن حميد الحلبي) ٣١، ٣٢،
٥٨، ٥٠٥، ٥٩٤، ٥٩٨، ٧٢٩ .
- ابن ظاير (علي بن ظاير الأزدي، جمال الدين)
٣١، ٥٨، ١٥٩، ٢٥٧ .
- عارف تامر ٧٩ .

- فريد شافى ٩٢، ٦٤٧، ٦٥٢ .
- ابن قُهد المكي (النجم عمر بن محمد) ١٧٨، ١٧٧ .
- فيشيل، ولتر ٨٨ Fischel, W. .
- ثييت، جامستون ٧٨، ٩١، ٦٣٢ Wiet, G. .
- قاسم عيله قاسم ٨٨ .
- القاضي الثقفان بن محمد بن كيون ٣٠، ٣٣، ١٠٩، ١١١، ١١٤، ١٨٤، ٥٧٥، ٥٧٩، ٧٢٩، ٦٥٦ .
- القزطى (أبو عبد الله محمد بن سعد) ٤٨ .
- قسطنطين الرابع بورفيروجينيت ٣٧٤، ٣٧٥ .
- القضاعى (محمد بن سلامة بن جعفر) ٣٠، ٤٦، ١٨٠، ٣٢٨، ٦٣٣ .
- ابن القُطّان (أبو محمد الحسن بن على) ٣١ .
- ابن القلايسى (أبو يعلى حمزة بن أسد) ٣١، ٥١، ٢٦٨، ٢٢٩ .
- ابن القلزمى (يوحنا بن صاعد بن يحيى بن مينا) ٧١ .
- القُفُشْدَى (أحمد بن على القزارى) ٣١، ٦٦، ٣٣٣، ٣٣٨، ٣٤٥، ٣٧٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤٩٩، ٥٠٩، ٥٢٩ .
- القُشَى (أبو القاسم سعد بن عبد الله) ٣٤، ٩٥، ١٠٢ .
- كاترمير، إتيان ٧٦ Quatremère, E. .
- كانار، ماريوس ٧٧، ٧٩، ٨٥ Canard M. .
- ٨٩، ١٣٦، ١٨٨، ٣٧٣، ٣٧٥، ٤١٤ .
- كاهن، كلود ٦٠، ٨٥، ٨٦، ٩١ Cahen, Cl. .
- ٥١٠ .
- ابن كثير (الحافظ إسماعيل بن عمر) ٣١، ٣٢ .
- كراوس، بول ٧٩ Kraus, P. .
- كريزويل ٩١، ١٤٩ Creswell, K.A.C. .
- كوربان، هنرى ٧٩ Corbin, H. .
- كونتاديني، أتا ٩٢ Contadini, A. .
- كوهن، مارك ٨٨ Cohen, M. .
- لويس، برنارد ٧٨، ٧٩، ٨٥، ٨٨ Lewis, B. .
- ٢٢١، ٥٠١ .
- ليف، ياكوب ٨٣، ٨٤، ٨٦ Lev, Y. .
- ليلى سامى العماد ٨٤ .
- ابن المأمون (جمال الدين أبو على موسى) ٣١، ٤٨، ٤٩، ٢٣٤ - ٢٣٦، ٢٣٦، ٣٧٣، ٣٧٨، ٤١٢، ٤١٦، ٤٤١، ٥٥٩، ٥٨٨ .
- مادلونج، ولفرد ٧٩، ٨٠، ٨٢ Madelung, W. .
- ٨٤ .
- مارسيه، جورج ٩٢ Marçais, G. .
- ماسينيون، لويس ٧٩، ٥٠١ Massignon, L. .
- مان، جاكوب ٧٦، ٨٨ Mann, J. .
- الماوردي (أبو الحسن على بن محمد) ٥١٧ .
- مُبَشَّر بن فاتك، أبو الوفاء ٤٥ .
- أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تفرى بردى) ٣١، ٥١، ٦٦، ٢٤٣، ٣٧٣، ٤١٣، ٤١٤ .
- محمد بن إبراهيم بن ظهير الحنفى ٥٠٩ .
- محمد بن أسعد الجَوَانى ٢٤٩ .
- محمد جمال الدين سرور ٧٧ .
- محمد حمدى النواوى ٨٤ .

- محمد السعيد جمال الدين ٨٨ .
 محمد طالى Talbi, M. ٨١ .
 محمد عبد الحى شعبان ٥٠٩ ، ٧٨ .
 محمد عبد الله عنان ٨٩ .
 محمد كامل حسين ١٠٩ ، ٩٠ ، ٧٩ .
 محمد ماهر حمادة ٩١ .
 محمد اليماني ١١٥ ، ٣٤ .
 ابن الهيثم (المرتضى محمد بن الحسن الأطرابلسي) ٤٨ ، ٣٠ .
 الهخزومي (أبو الحسن علي بن عثمان) ٦٠ ، ٣١ ، ٨٥ ، ٣٤٥ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥٢٣ - ٥٢٨ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ ، ٥٥٣ .
 مرفص بن زُرعة ٧١ .
 المُسَبَّحِي (محمد بن عبيد الله) ٤٠ - ٤٢ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٦ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٨ ، ٤٨٧ ، ٧٣٢ .
 مصطفى أنور طاهر ٩١ .
 مصطفى غالب ٧٩ .
 مصعب بن الزبير ١٠١ .
 المقدسي (محمد بن أحمد البشاري) ٤٨٦ ، ٥١٣ .
 المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي) ٣١ ، ٣٢ ، ٥٠ ، ١٤٨ ، ١٤٢ ، ١٠٤ ، ١٠٢ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٥١ ، ١٩٨ ، ٢٣٦ ، ٣٢٨ ، ٣٤٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٤١١ ، ٤١٦ ، ٤٤٧ ، ٦١٢ ، ٦١٨ ، ٦٣٣ .
 أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود ٧٣ .
 ابن ثُماني (الأسعد بن مُهْدَب) ٣١ ، ٦١ ، ٣٤٥ ، ٥٠٩ ، ٥١٦ ، ٥٢٣ ، ٥٢٧ ، ٥٣٢ .
 موهوب بن منصور بن مُقَرَّج الإسكندراني ٧٠ .
 المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ٤٣ ، ٤٤ ، ٢١٤ .
 ابن مُيَسَّر (تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جَلَب راعب) ٦٣ ، ٦٤ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، ٤٩٠ .
 النَّابُلُسي (أبو عمرو عثمان بن إبراهيم) ٦٢ ، ٣٤٥ ، ٤٩٥ .
 ناصر عُشُرو ٣٠ ، ٤٣ ، ١٩٧ ، ٣٦٣ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٥١٤ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٩ .
 ابن التَّدِيم (محمد بن إسحاق) ١٠٢ .
 التَّوَيْخِي (أبو محمد الحسن بن موسى) ٩٥ ، ١٠٢ .
 التَّوَيْزِي (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ٦٣ ، ٦٥ ، ١٠٣ ، ٥٠٩ .
 هالم ، هانز Halm, H. ٨٢ ، ٩٠ .
 هنري أمين عوض ٢٤٨ .
 هودجسون ، مارشال Hodgson, M.G.S. ٨٨ .
 ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) ٦٠ .
 وستنفلد ، فرديناند Wüstenfeld, F. ٧٦ .
 ووكر ، بول Walker, P. ٨٤ ، ٨٩ .
 يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي ، أبو الفرج ٣٠ ، ٣٩ ، ٧٠ ، ٤٨٧ ، ٧٣٢ .
 يوسف راعب ٩١ ، ٩٢ .
 يوسف العش ٨٩ .

الدولة الفاطمية في مصر - تفسير جديد، الطبعة الثانية،
تأليف أيمن فؤاد سيد، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٠،
٨١٧ صفحة.

كانت الطبعة الأولى من كتاب «الدولة الفاطمية في مصر»
تفسير جديد لـ أيمن فؤاد سيد، التي ظهرت سنة ١٩٩٢، أهم
دراسة شاملة جديدة عن الفاطميين باللغة العربية في هذا
الوقت، على الأخص عن مصر وفي مصر. فلا توجد أية دراسة
شاملة مماثلة نُشرت منذ سنوات عديدة. فقد كانت هناك
جيلٌ مُتمرسٌ من الدارسين المصريين أكثر نشاطاً في الدراسات
الفاطمية، غير أن في الوقت الحاضر فإن أيمن فؤاد سيد واحدٌ
من أفضل القلائد في هذا المجال، وبجلاء فإنه المرجع الأول
بغير منازع. فقد نُشر في التقديرات الأخيرة أو أعاد نُشر معظم
المصادر الأساسية. وهذه التشرّات أنموذج للمعرفة الواسعة
مع تفاصيل غنية في التعليقات الهامشية على امتدادها وإشارات
متعددة إلى مصادر إضافية. وكتابه «الدولة الفاطمية» مع
ذلك، عملٌ تركيبى وهو ما سقاه في العنوان الفرعى «تفسير
جديد». وتنطبق كلمة «جديد» هنا على وجه الدقة على سياق
الكتابة الحديثة عن الفاطميين في اللغة العربية.

وهذه الطبعة الثانية أكثر من مجرد طبعة جديدة للكتاب
الأصلي الذي جاء في ٤٧٨ صفحة مقابل ٨١٧ صفحة في
الطبعة. فقد اهتم المؤلف في هذه الطبعة الثانية بالعديد من
التوسعات ذات المغزى التي لم يتناولها من قبل أو التي تراءت له
فيما بعد. فقد أدمج في بداية الكتاب (صفحة ٢٩-٩٢) مقالاً
مطوّلاً عن المصادر والوضع الراهن للدراسات الحديثة. وتم
تعديل العديد من الفصول أو صياغتها بطريقة مختلفة بحيث
بدت مغايرة تماماً - على سبيل المثال تلك المتعلقة بالرسوم
الفاطمية (٣٧٣-٤١٠) والمواسك الاحتفالية
(٤١١-٤٦٣)، والمتعلقة بالتعليم والثقافة (٥٧٣-٦٠٩)
والجيش الفاطمي (٦٥٧-٧٢٤) والبحرية الفاطمية
(٧٢٥-٧٤٦).

بول ولكر
جامعة شيكاغو

al-Dawla al-fāṭimīyya fī Miṣr: Taḥsīr jadīd. 2nd ed. By AYMAN
FU'AD SAYYID. Cairo: AL-DĀR AL-MIṢRIYYA AL-LUBNĀ-
NIYYA, 2000. Pp. 817.

The first edition of Ayman Fuad Sayyid's *The Fatimid State in Egypt: A New Interpretation*, which appeared in 1992, was at the time the most important new general study of the Fatimids in Arabic, especially on Egypt and in Egypt. Nothing as comprehensive had been published for many years. An older generation of Egyptian scholars was more active in Fatimid studies, but in the present Ayman Fuad Sayyid is one of only a few and is clearly far and away the leading authority. For the past two decades he has edited or re-edited most of the basic sources. Those editions have often been models of erudition, with a wealth of detail in the explanatory notes along with numerous citations to additional sources. His *Fatimid State* is, however, a work of synthesis, what he calls in the subtitle *taḥsīr jadīd*, "a new interpretation." "New" here applies more precisely to the context of modern writing about the Fatimids in Arabic.

This second edition is far more than a reissue of the original, which ran to a mere 478 pp. in contrast to 817 pp. in the second. In the latter, the author has taken note of many significant developments in the field that he either had not seen previously or that have appeared since. He has inserted at the beginning (pp. 29-92) a lengthy essay on the sources and on recent work. Many chapters have been modified or otherwise changed but there are several that are new altogether—for example, those on official ceremonies (pp. 373-410) and processions (pp. 411-63), on culture and educational institutions (pp. 573-609), and the Fatimid army (pp. 657-724) and navy (pp. 725-46).

PAUL E. WALKER
UNIVERSITY OF CHICAGO

مجلة AOS (الجمعية الشرقية الأمريكية)

المجلد ٣/١٢٢ (يوليو - سبتمبر ٢٠٠٢)، ٦٥٩ - ٦٦٠ (عرض)

(Reviews of Books الكتب)

Je me suis tout particulièrement intéressé à bien présenter les évolutions et les changements idéologiques et sociaux qui se sont succédés dans cette période, et je me suis efforcé aussi d'expliquer la politique économique et le système de taxation imposés dans le royaume, car cela a déterminé la phase finale du règne fatimide.

Puisse ce travail contribuer à mieux présenter et à interpréter d'une manière nouvelle cette période de la «manifestation» (*al-zuhûr*) dans l'histoire de la «prédication» (*da'wa*) ismâ'îlienne, qui constitue une des pages importantes de l'histoire de l'Égypte. Ayant utilisé pour cette recherche des sources nouvelles – textes originaux et résultats d'études récentes – j'ai l'espoir que mon livre permettra à de nombreux historiens de mieux connaître cette importante période de l'histoire musulmane.

Ayman FU'ÂD SAYYID

Le Caire, le 19 Octobre 1999

siècle grâce au soutien des différents groupes militaires. Cette militarisation aboutit à des violences entre les différents groupes de l'armée mais, sans conduire pour autant à une nouvelle guerre civile.

Sous la protection de ce régime, les *imâms* (califes) fatimides devinrent des chefs sans puissance réelle pour toute une série de dictateurs militaires, comme cela s'était passé pour les califes 'abbâsides de Bagdâd qui étaient devenus des jouets impuissants entre les mains de leurs protecteurs Buwayhides et Saldjûqides.



Cette étude se divise en trois grandes parties, un préambule et une introduction. Le préambule renferme une étude des sources de l'histoire fatimide et une présentation de l'état actuel des études fatimides et ismâ'iliennes. L'introduction (*al-madkhal*) étudie l'époque pré-fatimide jusqu'à la proclamation du califat fatimide en Ifriqiyya.

La première partie traite en neuf chapitres «*al-da'wa-al-dawlâ*», c'est-à-dire l'histoire politique de l'État fatimide depuis son apparition en Ifriqiyya en 297/909 jusqu'à la prise de pouvoir par les Ayyûbides en Égypte en 567/1171. Dans la deuxième partie a été développée en huit chapitres l'étude des institutions et de la civilisation de l'Égypte à l'époque fatimide. La troisième partie présente en deux chapitres l'histoire de l'armée et de la marine fatimides.

Dans cette étude, je me suis tenu à l'écart du détail des événements et je me suis contenté de présenter une analyse des différentes phases de l'histoire fatimide. J'ai mis en lumière les grandes lignes et les aspects principaux de cette histoire, en expliquant la stratégie qui a dominé la politique fatimide et les buts qu'elle visait, essayant en outre de montrer leurs échecs et leurs succès.

furent les dictateurs militaires qui dirigèrent l'État fatimide en usurpant le pouvoir politique des *Imâms*.

Tout au long du premier siècle fatimide, les Califes fatimides n'avaient pris aucune mesure pour établir l'empire mondial auquel ils avaient songé. Dans la première moitié du règne du calife al-Mustansir, l'Égypte connaît la plus grave crise économique de son histoire médiévale, et elle entra dans une période aiguë de crises du pouvoir administratif.

Cependant, les Fatimides restèrent pour une longue période la plus grande force du monde musulman. L'empire fatimide atteignit au début de l'époque d'al-Mustansir son extrême extension: il comprend l'Égypte, la Palestine, la Syrie, l'Afrique du Nord, la Sicile, les côtes africaines de la Mer Rouge, le Hidjâz, le Yémen, le 'Omân, le Bahrayn et le Sind; de telle sorte qu'on peut l'appeler «*l'âge d'or de l'Ismâ'ilisme*». Mais leur effondrement fut rapide, surtout après l'avènement des Saldjûqides et leur création d'un nouvel et puissant empire militaire en Orient. Au moment du décès d'al-Mustansir en 487/1094, la *da'wa* fut subdivisée de façon permanente en deux grandes factions: les *Nizârîtes* et les *Musta'rites*.

Quoique nous ne sachions pas exactement les raisons immédiates qui ont conduit à la guerre civile, on peut supposer qu'elle fut le résultat indirect de l'instabilité administrative interne qui avait suivi l'exécution du puissant vizir al-Hasan b. 'Alî b. 'Ar. al-Yâzûrî (442-450/1050-1058). Cette guerre eut une grande influence sur le reste de l'histoire fatimide, elle plongea l'État, la société et la dynastie fatimide dans un état de souffrance et d'anarchie.

L'homme qui sauva l'État de cette anarchie fut l'*émir al-djuyûsh* Badr al-Djamâlî, un commandant d'origine arménienne, auquel le calife al-Mustansir avait fait appel. Il établit en Égypte une dictature militaire qui continua avec son fils et successeur al-Afdal Shâhinshâh. La dictature de la maison de Badr al-Djamâlî fut un point tournant dans la militarisation de la politique fatimide ou plusieurs vizirs avaient assumé le pouvoir au VI^e/XII^e

commandant Djawhar partit pour l'Orient afin de réaliser la grande œuvre des Fatimides: la conquête de l'Égypte.

La conquête fatimide de l'Égypte ne signifiait point qu'un régime s'était substitué à un autre, mais elle était presque un coup d'état religieux, politique, économique et social. Elle créait une situation entièrement nouvelle. Pour la première fois, dans l'histoire musulmane, l'Égypte était régie par une dynastie qui ne reconnaissait même pas nominaleme nt le calife de Bagdad. C'est avec l'arrivée des Fatimides que le rôle de l'Égypte dans le monde musulman fut transformé et devint rapidement prépondérant. Les Fatimides représentaient un phénomène nouveau - bien qu'il ne fut pas unique dans l'histoire - qui était simultanément un régime impérial et révolutionnaire. Ils étaient les chefs d'un grand mouvement religieux qui ne visait à rien moins que la transformation et le renouvellement de tout l'Islam. Ils se voyaient les vrais *imâms* dignes de régir le monde musulman selon le principe du droit divin, car ils font remonter leur origine à 'Alî et à Fâtima, la fille du Prophète. Ces prétentions étaient-elles fondées, ou étaient-elles purement imaginaires? Cela n'est pas important. Ce qui est sûr, c'est qu'un grand nombre de partisans croyaient à l'authenticité de leur généalogie et soutenaient leur cause politique.



L'histoire de l'État fatimide en Égypte se divise en deux grandes périodes: la première commence avec l'arrivée du *qâ'id* Djawhar et l'achèvement de la conquête de l'Égypte en 358/969 et se termine avec l'éclatement de la guerre civile au milieu du V^e/XI^e siècle, à l'époque du calife al-Mustansir (452-466/1060-1073). La deuxième est l'époque des vizirs - dictateurs militaires (466-567/1073-1171). Dans la première période - avec quelques courtes exceptions - les souverains (*imâms*) fatimides avaient dans leurs mains une autorité politique absolue. Dans la deuxième période, ce

AVANT - PROPOS

Il y a vingt ans, j'ai lancé un projet d'édition de sources nouvelles concernant l'histoire des Fatimides en Égypte, ainsi que celui de la réédition d'autres textes en s'appuyant sur des manuscrits nouvellement découverts, ou en les comparant avec de nouvelles informations (de Musabbihî, Ibn al-Sayrafi, Ibn al-Ma'mûn, Ibn al-Tuwayr, Ibn Muyassar, Ibn 'Abd al-Zâhir et al-Maqrîzî). Ces textes nouveaux m'ont offert l'opportunité d'approfondir les différents domaines de l'histoire fatimide, surtout dans sa période égyptienne. Ceci m'a conduit à écrire une nouvelle histoire de l'État fatimide en Égypte qui s'appuie surtout sur ces sources et sur les études modernes qui ont traité certaines questions concernant la longue histoire des Fatimides.

Le bon accueil réservé par les chercheurs à cette étude ainsi que son rapide épuisement m'ont encouragé à faire paraître une nouvelle édition qui prenne en compte les textes nouvellement édités et les études récentes. Dans cette édition, j'ai modifié des chapitres, en ai ajouté de nouveaux (sur les rituels, les cérémoniaux, l'enseignement, la culture et l'histoire de l'armée et de la marine fatimides) avec un préambule qui traite des sources de l'histoire fatimide et de l'état actuel des études ismâ'iliennes et fatimides.

* * *

Après que les Fatimides eurent proclamé leur État (Califat) en Ifriqiyya, ils ont réalisé que cette province ne pouvait pas être la base de l'empire dont ils rêvaient. La terre propice à la réalisation d'un tel but, comme il est prouvé dans l'histoire ancienne, est l'Égypte et la Mésopotamie. Ce n'est que sous le règne du quatrième calife (*imâm*) fatimide al-Mu'izz li Dîn Allâh que son

LES FATIMIDES EN ÉGYPTÉ

NOUVELLE INTERPRETATION

par

AYMAN FU'ÂD SAYYID

Docteur d'état - es - lettres

de la Sorbonne

طبعة خاصة تصدرها

الدار المصرية اللبنانية

ضمن مشروع مكتبة الأسرة ٢٠٠٧